

(١٥١٦)

الأنفة والحمية

المحمودة والمذمومة

في كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"كان عنه. فقدر في الخالق المكون، قل بواسطة أو بغير واسطة، علم ذلك كله على الكمال، والقوم في قصور من المعرفة عظيم، وتخليط كثير.

وقد فاوضتهم في الأقطار والأمصار بنفسي (١)، و (٢) حضرت ذلك في مجالس الأيمة والجهابذة بالشام والعراق، فما أثبت الله لهم قدما، ولا رفع لهم قط علما. ولم يتكلموا على تقية إلا بغاية **الحمية**، وقوة الاعتقاد والنية، والله يعيذنا (٣) من حالهم، ويريهم وبال أمر مآلهم، بعزته (٤).

قال القاضي أبو بكر (٥) رضي الله عنه: وقد تقدم من ذكرنا لقولهم في المفردات والبسائط إشارة، أنبهكم فيها، على نكتة، فأوضت فيها عظماءهم، فاضطررت أكثرهم في النظر إلى أن يقول (٦): إن البسيط المطلق لا يتحقق إلا في القول. وذلك أني قلت له: الاسطقصات (٧) التي كان ينبغي أن يسكتوا عنها ما هي؟ فذكرها، قلت له: الماء بسيط أو مركب؟ ففكر وقدر وعلم ما ألزمته (٨)، فقال: مركب، قلت لـه: من الرطوبة والبرودة، قال: نعم، قلت: فالرطب المطلق مجردا، والبارد المطلق مجردا لا ينضاف إليهما شيء، ما هو؟ وحينئذ يتحقق لك البسط، قال لي: ذلك يكون في العدم، قلت له الله أكبر! العدم ليست له ذات، تخبر عنها بما يعقل فيها، وكذلك لو وضعت يدك معه في الأفلاك فلكا فلكا، اضطرتهم الأدلة إلى أن يقولوا: إن أحاد جميعها بسط (٩) في العدم، فزحل إلههم الأعظم، بارد يابس، فقد كان كل واحد منهما بسيطا، فمن جمع فيه الضدين؟ ومن ركب (١٠) المتناقضين؟ في الله! وللعقول التي ذهبت في تضليل!.

قال القاضي أبو بكر (١١) رضي الله عنه: وأما النظر معهم في الأيالة

---

(١) ز: كتب على الهامش: قف على مفاوضة الشيخ للفلاسفة.

(٢) ج: – و.

(٣) ج: يفيدنا.

(٤) نهاية ما سقط من د وهو نحو ورقة.

(٥) د: قال أبي.

(٦) ب، ج، ز: يقولوا.

(٧) د: الاستكسات.

(٨) د: ألزمه.

(٩) د: بسيط.

(١٠) ج: + فيه. ب، ز: + عليه.

(١١) د: قال أبي.." [1]

"يرضاه الله تعالى، وليحتقروا (١) السلف ويهونوا الدين (٢)، وهو أعز من ذلك، وهم أكرم منا، فرضي الله عن جميعهم.

ومن نظر إلى أفعال الصحابة تبين منها بطلان هذه الهتوك (٣) التي يختلق (٤) أهل التواريخ، فيدسونها في قلوب الضعفاء و (٥) هذا زياد لما أحس بالمنية (٦) استخلف سمرة بن جندب من كبار الصحابة، فقبل خلافته، وكيف يظن به على منزلته أنه يقبل ولاية ظالم لغير رشدة، وهو على ما هو عليه من الصحبة، وذلك من غير إكراه، ولا تقية. إن هذا لهو الدليل المبين، فمع من تحبون أن تكونوا، مع سمرة بن جندب أو مع المسعودي (٧)، والمبرد (٨)، وابن قتيبة (٩)، ونظرائهم؟ وهذا غاية في البيان.

قاصمة:

كانت الجاهلية مبنية على العصبية، متعاملة بينها **بالحمية**، فلما جاء الإسلام بالحق، وأظهر الله منته على الخلق، قال الله (١٠) سبحانه: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال لنبيه: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ (١١) [الأنفال: ٦٣] فكان

---

(١) د: ليحقروا.

(٢) ز: كتب على الهامش: واعلم أن الإنسان يلزمه التثبت في قبول الأخبار من مدح الناس وذمهم لبعضهم بعضا (كذا) وينتبه للبواعث والدواعي على ذلك، لأن غالبها أغراض وأهوية فالله يعصمنا في قول الحق وقبوله.

(٣) ج، د، ز: الهتوف.

(٤) ج، ز: تختلق.

(٥) د: – و.

(٦) ب: المنية

---

[1] النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم، ابن العربي ص/١٠٧

(٧) علي بن الحسين توفي سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م.

(٨) محمد بن يزيد صاحب الكامل توفي سنة ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨م.

(٩) عبد الله بن مسلم توفي سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م خطيب أهل الحديث وأديبهم.

(١٠) ب، د: - الله.

(١١) ب، ج، ز: - عزيز حكيم.." (١)

"مروان بن الحكم «١» ومعاوية «٢» وعمرو بن العاص، بل سلمان «٣»، وعمار «٤»،

- وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت. قال: وما أنا إلا رجل من المسلمين وهذا تواضع منه رضي الله عنه- ومعرفة بالفضل لأهله. ولكن التفاضل بين الصحابة- رضي الله عنهم- ليس من باب العصبية **والحمية**. وقد فضل أبو بكر على الصحابة لسبقه للإسلام وزيادة تقواه وإيمانه. والله أعلم.

(١) أبو الحكم وأبو عبد الملك وأبو القاسم: مروان بن الحكم بن أبي العاصي ابن أمية بن شمس بن عبد مناف القرشي الأموي. صحابي عند طائفة كثيرة لأنه ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه في صلح الحديبية، كان كاتب عثمان بن عفان أيام خلافته، وعده ابن سعد والواقدي من التابعين لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وعمر مروان ثماني سنين. عايش مروان فتنة مقتل عثمان وكان له دور فيها، وقاتل في وقعة الجمل، وانهزم هو وأصحابه ثم سار إلى معاوية فقاتل معه في صفين ثم أمنه علي- رضي الله عنه- فبايعه وانصرف إلى المدينة فأقام بها حتى خلافة معاوية فولاه المدينة.

كان يكثر السؤال عنه الإمام علي يوم الجمل، ويقال له: سيد شباب قريش. قيل لمعاوية: من تركت لهذا الأمر بعدك فقال:" أما القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله، مروان بن الحكم" وأثنى عليه الإمام أحمد ومالك. وقيل روي عن أحمد ضد هذا.

ويروى أن مروان لعن عليا عند توليه المدينة في عهد معاوية- والله أعلم- وهو أول خلفاء بني أمية بعد معاوية بن يزيد، مات بدمشق سنة خمس وستين للهجرة.

[انظر البداية والنهاية ٨/ ٢٥٧ - ٢٦٠، والإصابة ٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨، ت: ٨٣١٨].

(٢) تقدمت ترجمته في ص: ٩٩ من قسم الدراسة.

(٣) تقدمت ترجمته في هامش ص: ٥٤٩.

---

(١) النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم، ابن العربي ص/٣٥٠

(٤) عمار بن ياسر بن مالك بن كنانة بن قيس العنسي المذحجي، يكنى أبا اليقظان، كان من السابقين للإسلام وممن عذب في الله، هاجر إلى الحبشة وصلى القبلتين. وشهد بدرا والمشاهد كلها، وشهد اليمامة فأبلى فيها، وفيها قطعت أذنه. وكان يقول فيها وهو على صخرة:" يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون، أنا عمار بن ياسر هلموا إلي" وقد تذبذبت أذنه وهو يقاتل أشد القتال. قتل في صفين سنة سبع وثلاثين، ودفنه علي- رضي الله عنه-.

[انظر الاستيعاب ٣/ ١١٣٥ - ١١٤٠، وصفة الصفوة ١/ ٤٤٢ - ٤٤٦].." (١)

"ركعتين. فالسهو في المرض أقرب احتمالا.

(أنه قاد عليا ببند سيفه وحصر فاطمة في باب فأسقطت المحسن)

ومنها قولهم إنه قاد عليا ببند سيفه وحصر فاطمة رضي الله عنها في باب فأسقطت ولدا اسمه المحسن.

ورد ذلك بأن يقال: هذا كذب محض، ويؤيده وجوه:

الأول أن ذلك فيه نسبة خساسة وعجز إلى علي رضي الله عنه وبني هاشم، لأن عليا الشجاع الأعظم من الآل والصحب ومعه عصبة القبيلة العظمى من قريش وهم أبطال بني هاشم قبيلة النبي - صلى الله عليه وسلم -، أهل **الأنفة** والنخوة، ولم يصبروا على ضيم. والعباس لم يصبر لأبي جهل وهو." (٢)

"ما أنصفوا في الجواب عنهما وعن كل من كان على شاكلتهما من الصحابة المحاربين لعلي رضي الله عنه. وربما تجاوز بهم الحال إلى الاعتراض على الخلفاء الراشدين ولا سيما عثمان، وقد يفضلون عليه بل عليهم عليا بمجرد الهوى والعصبية **والحمية** الجاهلية، ويرون أن ذلك هو الإنصاف الذي يزعمونه في أنفسهم مدعين أنهم لا تأخذهم في اتباع الحق لومة لائم، مع أنهم في أمر الدين مثل البهائم. ويظنون من شدة جهلهم وعمى قلوبهم أن جميع الأمة من عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى الآن هي غير مصيبة في ذلك، وأنهم هم ومن كان على شاكلتهم من كل جاهل قدم تابع لهواه بلا علم ولا فهم على هدى وصواب في بغض بعض الأصحاب. فكانوا بذلك من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فسوء حال هؤلاء الجهلة من أهل السنة هو الذي حملني على تأليف هذا

---

(١) الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، الطوفي ٢/٦١٥

(٢) الحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة، جلال الدين الدواني ص/٢٩٥

الكتاب ليعرف من قرأه منهم أنه في خطأ عظيم وخطل ذميم، وأنه في ذلك ليس على هدى من الله، بل هو على." (١)

"من العساكر وحاربه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة، فلم يحضرهم شامي" (١) ".

ثم يذكر اليعقوبي الشيعي المتحمس – كما يسميه ولهوزن – "إن أهل الكوفة لما قتلوه، انتهبوا مضاربه وابتزوا حرمه، وحملوهن إلى الكوفة، فلما دخلن إليها

خرجت نساء الكوفة يصرخن ويبكين، فقال علي بن الحسين: هؤلاء يبكين علينا فمن قتلنا؟." (٢) ".

وهنا نريد أن نثبت ما ذكره ولهوزن المستشرق الألماني المتعاطف على الشيعة:

ولم يكن جمهور أهل الكوفة حريصا على مساعدة الحكومة، ولكنه مع ذلك لم ينضم إلى صف أعدائها. وحتى أولئك الذين بعثوا بالكتب إلى الحسين وأقسموا على الإخلاص له تخلوا عنه في المحنة ولم يقدموا له يد المعونة، وقصارى ما فعلوه أنهم راقبوا المعركة من بعيد ومصرعه الأخير ثم بكوا. وقليلون جدا هم أولئك الذين تجاسروا على اللحاق به ومشاركته في مصيره، مثل أبي ثمامة الصائدي خازن بيت المال، وابن عوسجة. وعدا هذا فإن بعض الذين شاركوه في مصرعه إما أنهم كانوا من أولئك الذين التقطهم عرضا في الطريق أو من أولئك الذين دفعتهم **الحمية** الإنسانية في اللحظة الأخيرة إلى الانضمام إليه وإن لم يكن لهم من قبل شأن به أو لم يكونوا من شيعته. وقد أبرز المؤرخون هذا التعارض بين المكلفين، الذين لم يعملوا شيئا، وبين غير المكلفين الذين أخجلوا الأولين، أبرزوه وعرضوه أحيانا عرضا دراميا. ومما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار أيضا، لا القرشيون وحدهم، قد تخلوا عن الحسين، فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة إلا أفراد قلائل

---

(١) – مروج الذهب ج٣ ص٦١

(٢) – تاريخ اليعقوبي ج١ ص٢٣٥." (٢)

"وعن الإمام الرابع – علي بن الحسين أنه قال: يغفر الله للمؤمن كل ذنب ويطهره منه في الدنيا والآخرة ما خلا ذنبين ترك التقية – يا للذنب – وترك حقوق الإخوان" (١).

وعن الإمام الخامس – محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر أنه قال: وأي شيء أقر لعيني من التقية،

---

(١) الأساليب البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة، يوسف النبهاني ص/٤

(٢) الشيعة والتشيع – فرق وتاريخ، إحسان إلهي ظهير ص/١٨٤

إن التقية جنة المؤمن" (٢).

وقال: خالطوهم بالبرانية (أي ظاهرا) وخالفوهم باجلوانية (باطنا) (٣) إذا كانت الآمرة صبيانية" (٤).

---

(١) "تفسير العسكري" ص١٦٤ ط مطبعة جعفرى الهند

(٢) "الكافي في الأصول" باب التقية ص٢٢٠ ج٢ ط إيران

(٣) ولا ندري كيف يعترض لطف الله الصافي على السيد محب الدين الخطيب على ما كتبه صادقا في رسالته ما نصه: وأول موانع التجاوب الصادق بإخلاص بيننا وبينهما ما يسمونه التقية، فإنها عقيدة دينية تبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يبطنون، فينخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم في التفاهم والتقاربوهم لا يريدون ذلك ولا يرضون به ولا يعملون له" (الخطوط العريضة ص٨ و٩ ط٦). فهل في هذه الرواية المروية في صحيحهم "الكافي" عن إمامهم غير ما قاله الخطيب؟ فماذا يريد بقوله: ألا يصير أضحوكة الناس من يقول أن الشيعة حيث يقولون بالتقية لا يقبل منهم إقرار واعتراف في عقائدهم وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون" (" مع الخطيب للصافي" ص٢٦ ط١). فمن يصير أضحوكة الناس بعد ما عرف أقوال أئمة الشيعة؟ أيظن الصافي أنه لا يوجد في العالم عالم بخباياهم ومكنوناتهم غيرهم؟ فيستطيعون أن يخدعوا من أرادوا خداعه، أو يظن الصافي بأن كل الناس مغفلون مثل الشيخ المصري الذي استطاع الشيعة خداعه، والذي يقول فيه الصافي أنه أبصر من الخطيب، مع أنه ليس من الضروري أن كل من يصل المراتب وينال المناصب يكون عالما بصيرا ماهرا أيها الصافي، فكم من العلماء ما نالوا الدنيا ولا زخارفها لقولهم الحق ولإصداعهم الباطل، فليس الشيخوخة دليلا على البصيرة والزعامة. وأما قول الصافي: إن التقية جائزة عند السنين فليس إلا افتراء باطلا وبهتانا عظيما لأن أهل السنة لا يجوزون التقية الشيعية لأحد من المسلمين لا لهم ولا لغيرهم، وحاشا لله أن يكون ظاهرهم خلاف باطنهم، وقولهم غير معتقدهم، فهم من العصور المتقدمة معروفون بالصدق والأمانة والوفاء حيث الشيعة يمنعهم دينهم عن هذه المكرمات، وقد اعترف بهذا أئمتهم وروى في كتبهم، فيروي الكليني "عن عبد الله بن يعفور قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم ويتولون فلانا وفلانا، لهم أمانة وصدق ووفاء وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصدق، قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالسا فأقبل علي كالغضبان ثم قال: لا دين لمن دان الله بولاية إمام ليس من الله" ("الكافي في الأصول" ص٧٣٢ ج١ ط الهند) فانظر أيها الصافي هذا ما قيل قديما الفضل ما شهدت به الأعداء. فأهل السنة هم الذين أنجبوا أحمد بن

حنبل الصارخ بالحق ومالك بن أنس المجاهر بالصدق، وأبا حنيفة المعلن لما يعتقد، وابن تيمية الصارم المسلول، وابن حزم المبطل للباطل، ورجالا ملئوا التاريخ بتضحياتهم وجرأتهم وشهامتهم حينما كان أئمة الشيعة (كما يروون عنهم وينسبون إليهم) متسللين في الكهوف، مقنعين بالبراقع، متسترين بالأنقبة، وملتجئين إلى الكذب، فأين هؤلاء من أولئك، وأولئك أولئك كما قال جرير.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فلست بخداعك أيها الصافي! تخدع المسلمين، ولا للمسلمين أن ينخدعوا بمثل هذا الخداع. وأما الاتفاق والاتحاد فلا يمكن على صدق من جانب وعلى كذب من جانب آخر، وإخلاص من طرف وخداع من طرف ثان، فليكن الإخلاص من الطرفين، وليكن الصدق من الجانبين، وهذا لا يتأتى إلا بالتبرؤ من مسلك التقية، وأما بالتمسك بها، **والحمية** لها، والدفاع عنها، فلا يمكن أن يتأتى، ولا يمكن أن يتحصل.

(٤) "الكافي في الأصول" ص٢٢٠ ج٢ ط إيران." [١]

"موقف الشيعة من الصحابة

فهذا هو موقف أهل البيت من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيار خلق الله وصفوة الكون. وأما الشيعة الذين يزعمون أنهم أتباع أهل البيت والمحبون الموالون لهم، فإنهم يرون رأيا غير هذا الرأي محترقين على جهادهم المستمر، ومنتقمين على فتوحاتهم الجبارة الكثيرة التي أرغمت أنوف أسلافهم، وكسرت شوكة ماضيهم ومزقت جموع أحزابهم، ودمرت ديارهم وأوكار كفرهم، الصحابة الذين أذلوا الشرك والمشركين، وهدموا الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها ويعتكفون عليها، أزالوا ملكهم وسلطانهم، وخربوا قصورهم وحصونهم ومنازلهم، وأنزلوا فيها الفناء، وأعلوا عليها راية التوحيد وعلم الإسلام شامخا مترفرفا، فاجتمع أبناء المجوس واليهود، وأبناء البائدين الهالكين الذين أرادوا سد هذا النور النير، والوقوف في سبيل وطريق هذا السيل العرم، اجتمعوا ناقمين، حاقدين، حاسدين، محترقين، واقتنعوا بقناع الحب لآل البيت - وآل البيت منهم براء - وسلوا سيوف أقلامهم وألسنتهم ضد أولئك المجاهدين المحسنين، رفاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه المشغوفين بحبه، والمفعمين بولائه، والمميتين في إطاعته واتباعه، والراهنين كل ثمين ونفيس في سبيله، والمضحين بأدنى إشاراته الآباء والأولاد والمهج، المقتفين آثاره، المتتبعين خطواته، السالكين منهجه، الغر الميامين رضوان الله عليهم أجمعين.

فقال قائلهم: إن الناس كلهم ارتدوا بعد رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) غير أربعة (كتاب (١) سليم

---

(١) الشيعة والسنة، ص/١٥٨

بن قيس العامرى ص ٩٢ ط دار الفنون بيروت).

هذا ومثل هذا كثير.

---

(١) والغريب أن أبناء اليهودية الأثيمة يطيعون مثل هذه الكتب الخبيثة المليئة من العيب والشتم لأهل خير القرون وخير الأمة، ثم يتضوغون عن الكتب التي كتبت ردا عليهم مثل كتاب "الشيعة والسنة" للمؤلف لتبيين مذهبهم، وإظهار ما يكنونه في صدورهم تجاه الأمة المرحومة ومحسنيها، ويقولون: إنه لا ينبغي كتابة مثل هذه الكتب وطبعها ونشرها في زمان، المسلمون أحوج ما يكون إلى الاتحاد والاتفاق، ونحن لا ندري أي اتحاد ووفاق يريدون؟

نحن لا نسب القوم ولا نشتم قادتهم، بل كل ما نعمل نبدي للرأي العام ما عمله القوم الأمس وما يعملونه اليوم. فمن أي شيء يخافون؟

ثم ولم نفهم من بعض من يسمي نفسه متنورا، واسع الأفق، فسيح القلب، وسيع الظرف، محبا للتقريب والوفاق من أهل السنة، البلهاء أو المغترين، لا نفهم منهم حينما يعترضون علينا بأننا لم نقم بإحقاق الحق وإبطال الباطل؟ ولم ندافع عن أولئك القوم الذين لو ما كانوا كنا عباد البقر أو النجوم أو اللات والمناة والعزى والثالث، أو الحجر والشجر، ولو ما رفعوا راية الإسلام، وحملوا لواء التوحيد ما عرفنا ربنا عز وجل ونبينا وقائدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه، وما علمنا ماذا أنزله الرحمن على عبده وحبيبه، وما تركه المصطفى من سنته وحكمته، وما عرفنا القرآن الذي أنزله نورا وهدى ورحمة للعالمين.

نعم: يقلق مضاجع هؤلاء المتنورين هذا، ولا يفجعون عن كتاب سليم بن قيس العامري الذي قال فيه جعفرهم – نعم جعفرهم، لا الجعفر الصادق الذي نعرفه ونعلمه – قال: من لم يكن عنده من شيعتنا ومحبينا كتاب سليم بن قيس العامري، فليس عنده من أمرنا شيء وهو سر من أسرار محمد – صلى الله عليه وسلم –،– الكتاب الذي لم نجد صفحة من صفحاته، ولا ورقة من أوراقه إلا وهي مليئة بأقذر الشتائم وأخبث السباب، وكتاب سليم ومثله كتب للقوم لا تعد ولا تحصى، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنقول لهؤلاء القوم عديمي الغيرة، وفاقدي **الحمية**: فليهنأ لكم التنور، وليهنأ لكم التوسع، فأما نحن فلن ولن نتحمل هذا، ولن ولن نسكت عن ذلك إن شاء الله ما دامت العروق يجري فيها الدم، وما دام الروح في الجسد واللسان يتكلم." (١)

---

(١) الشيعة وأهل البيت، ص/٤٤

"قرينا للشيطان وسيكون قرينه في جهنم أيضا ويمكن أن يكون مراده من الشيطان عمر" (١).

وبوب هذا اللعين بابا مستقلا بعنوان "بيان قليل من البدع والأعمال القبيحة والأفعال الشنيعة التي ارتكبها عمر الخليفة الثاني للسنة" (٢).

ثم يقول: إن المطاعن والمثالب لمنبع الفتن هذا زائدة وكثيرة لا تسعها كتب مبسوطة ومفصلة، فكيف يسعه هذا الكتاب؟ فقد كان شريكا لأبي بكر في جميع مثالبه ومعايبه، بل كانت خلافته من إحدى جرائمه" (٣).

و"عمر كان يعرف بأنه كافر ومنافق، وعدو لأهل البيت (عياذا بالله من هذا المهاتر المهرج الخبيث)، وفي عنقه وزر جميع الشهداء" (٤).

فشركما لخيركم الفداء

وينتهي أخيرا في السب والشتم والطعن في الفاروق الأعظم بكلمته:

"وأما ما ذكر في الكتب المبسوطة من دنائة نسب عمر وحسبه، وكونه ولد الزنا فلا يسعه هذا المختصر" (٥).

---

(١) "حق اليقين" ص٢٠٦ وهل هناك أحد من دعاة التقريب المنخدع من بعض قول القوم، أو الجاهل المخدوع، أو المتجاهل البائع الضمير يتحرك غيرته من هذا الكلام الشنيع والسب القبيح؟ أم لم يبق فيهم ولا رمق من **الحمية** الإسلامية والنخوة الأصيلة الشرعية، فمن لا يغير لأم المؤمنين بنص القرآن فلا يغير لأمه، ومن لا يغير لأحب الناس إلى الرسول لا يغير لأحب الناس إليه نفسه

(٢) ومن يخبر هذا النابح ألذي يلقبه بخليفة للسنة فقد كان خليفة لعلي بن أبي طالب وأولاده وأعمامه وإخوانه وبني إخوته وأخواته وأسرته كلها، وهو كان واحدا من وزرائه ومستشاريه وقضاته، كما أعطاه ابنته، وغبطه بأعماله كما مر سابقا بالتفصيل ويذكر المصادر والمراجع

(٣) "حق اليقين" للمجلسي ص٢١٩ ط إيران

(٤) "حق اليقين" للمجلسي ص٢٢٣

(٥) "حق اليقين" للمجلسي ص٢٥٩." [1]

---

(١) الشيعة وأهل البيت، ص/٢٠٣

"خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي » . فقام سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله أنا أعذرك (٣٨) منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا ما تأمرنا به ، فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، وقد كان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن استجهلته الحمية (٣٩) ، فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ ، فقال لسعد بن عبادة : لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، وتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، والنبي صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فلم يزل يسكنهم حتى سكنوا ، فمكثت يومي ذاك أبكي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواي عندي يظنان أن البكاء فالق كبدي . فبينما هما جالسان وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار علي فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، قالت : فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم وجلس ، ولم يجلس قبل ذلك منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه شيء . فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس وقال : « أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت (٤٠) بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه ، فإن العبد إذا أذنب ثم تاب تاب الله عليه »@." [١]

"علينا أن نفرق بين التحكيم الشرعي والتحاكم إلى الأعراف والعادات القبلية: لأنه قد يخلط البعض بين التحكيم الشرعي مثل التحكيم أثناء الشقاق الزوجي غيره وبين التحاكم إلى العادات والأعراف القبلية . فالعلماء اشترطوا للتحكيم شروطا منها أن يكون المحكم "الحكم" صالحا للقضاء . قال ابن قدامة رحمه الله : "وإذا تحاكم رجلان إلى رجل حكماه بينهما ورضياه- وكان ممن يصلح للقضاء – فحكم بينهما جاز ذلك ونفذ حكمه عليهما .

واشترط العلماء كذلك أن لا يخالف التحكيم الشرع في شيء.

والتحاكم إلى العادات والأعراف القبلية يخالف الشريعة الإسلامية لأنه من التحاكم للطاغوت . حيث يرجع فيه إلى قوانين مقننة تضاهي شرع الله.

قال الشيخ عبدالله بن محمد آل خنين في كتابه " التحكيم في الشريعة الإسلامية " يحرم التحكيم بالرجوع إلى أعراف وعادات مخالفة للشرع محلية أو دولية لمخالفة ذلك للأحكام الواجبة التطبيق عند التحكيم وهي أحكام الشرع فالواجب الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله الله – صلى الله عليه وسلم – في كل ما

---

(١) الشريعة للآجري، ٢٤٢٣/٥

تشاجر فيه المتخاصمون يقول تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وهذا ظاهر في المنع من التحاكم لأي عرف مخالف للشرع.

المسألة الرابعة:

أحذر القبائل من العصبية القبلية **والحمية** الجاهلية والاعتداء على الآمنين بحجة أخذ الثأر. قال - صلى الله عليه وسلم - : «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من غضب لعصبية» (١) كما أحذرهم من التحزب والتفاخر بالقبيلة. قال - صلى الله عليه وسلم - : «لينتهين أقوام من الفخر بآبائهم وأنسابهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» (٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها منتنة» (٣) .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبوداود.

(٣) متفق عليه.." [1]

"ص -٢٣٦- فيك جاهلية "، فإنه ذم لذلك الخلق، ولأخلاق الجاهلية التي لم يجئ بها الإسلام.

ومنه - قوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾. فإن إضافة **الحمية** إلى الجاهلية: اقتضى ذمها، فما كان من أخلاقهم وأفعالهم فهو كذلك.

ومن هذا - ما رواه البخاري في صحيحه، عن عبيد الله بن أبي يزيد." [2]

" وفي هذه الآثار عن سلف الأمة وأئمتها ما ليس هذا موضعه كما قال الحسن البصري رفع الصوت بالدعاء بدعة وكذلك نص عليه أحمد ابن حنبل وغيره وقال قيس بن عباد وهو من كبار التابعين من أصحاب على عليه السلام روى عنه الحسن البصري قال كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال

---

(١) الإيمان لابن منده ٣٩٥، ص/٣٦

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ٤/١٤٤

وهذه المواطن الثلاثة تطلب النفوس فيها الحركة الشديدة ورفع الصوت عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر الله ودعائه وعند الجنائز بالحزن والبكاء وعند القتال بالغضب **والحمية** ومضرته أكبر من منفعته بل قد يكون ضررا محضا وإن كانت النفس تطلبه كما في حال المصائب

ولهذا قال النبي ص ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية وتبرأ النبي ص من الصالقة والحالقة والشاقة والصالفة التي ترفع صوتها بالمصي ." (١)

" فخورا والصوت الذي يوجب الجزع عند الحزن حتى يصير الانسان هلوعا جزوعا واما الصوت الذي يثير الغضب لله كالأصوات التي تقال في الجهاد من الاشعار المنشدة فتلك لم تكن بآلات وكذلك اصوات الشهرة في الفرح فرخص منها فيما وردت به السنة من الضرب بالدف في الاعراس والافراح للنساء والصبيان

وعامة الاشعار التي تنشد بالاصوات لتحريك النفوس هي من هذه الاقسام الاربعة اشعار المحبة وهي النسيب واشعار الغضب **والحمية** وهي الحماسة والهجاء واشعار المصائب كالمراثي واشعار النعم والفرح وهي المدائح

والشعراء جرت عادتهم ان يمشوا مع الطبع كما قال الله تعالى ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون سورة الشعراء ٢٢٥ ٢٢٦ ولهذا اخبر انهم يتبعهم الغاوون والغاوي هو الذي يتبع هواه بغير علم وهذا هو ." (٢)

" ويحتاج ايضا ان يؤمر بذلك لأمر الله به وينهى عنه لنهي الله عنه ويخبر بما اخبر الله به لأنه حق وايمان وهدى كما أخبرت به الرسول كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله فاذا قيل ذلك لاتباع الهوى **والحمية** او لإظهار العلم والفضيلة او لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء

ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من اهل العلم والمقال واهل العبادة والحال واهل الحرب والقتال من لبس الحق بالباطل في كثير من الاصول فكثيرا ما يقول هؤلاء من الاقوال ما هو خلاف الكتاب والسنة او ما يتضمن خلاف السنة ووفاقها وكثيرا ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها بل ." (٣)

"

(١) الاستقامة، ٣٢٣/١

(٢) الاستقامة، ٢٨١/٢

(٣) الاستقامة، ٣٠٠/٢

فهذه الأمور من أصول ضلالهم حيث جعلوا الواحد متعددا والمتعدد واحدا وجعلوا ما في الذهن في الخارج وجعلوا ما في الخارج في الذهن ولزم من ذلك أن يجعلوا الثابت منتفيا والمنتفي ثابتا فهذه الأمور من أجناس ضلالهم وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع

والمقصود هنا أنا ننبه على بعض ما نبين به تناقضهم وضلالهم في عقلياتهم التي نفوا بها صفات الله عز وجل وعارضوا بها نصوص الرسول الثابتة بصحيح المنقول الموافقة لصريح المعقول وكلما أمعن الفاضل الذكي في معرفة أقوال هؤلاء الملاحدة ومن وافقهم في بعض أقوالهم من أهل البدع كنفاة بعض الصفات الذين يزعمون أن المعقول عارض كلام الرسول وأنه يجب تقديمه عليه فإنه يتبين له أنه يعلم بالعقل الصريح ما يصدق ما أخبر به الرسول وما به يتبين فساد ما يعارض ذلك

ولكن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم ثم ركبوها وألفوها تأليفا طويلا بنوا بعضه على بعض وعظموا قولهم وهولوه في نفوس من لم يفهمه ولا ريب أن فيه دقة وغموضا لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم قالوا له أنت لا تفهم هذا وهذا لا يصلح لك فيبقى ما في النفوس من **الأنفة** **والحمية** يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده وعلى ترك الإعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل ونقلوا الناس

". (١)

"الحديث المعروف في السنن يقول الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته

فإذا كانت الرحم مشتقة من اسم الرحمن امتنع أن يكون علما لا معنى فيه

وفي الصحيح عنه الرحم شجنة من الرحمن

فإذا كان هذا قوله سبحانه فيمن ينكر الرحمن فما الظن بمن ينكر جميع معاني أسمائه وصفاته وحمية هذا الملحد وأمثاله أن يكون له صفات حمية جاهلية شر من حمية الذين قال الله فيهم ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ فإنه قد ثبت

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ١/٢٩٥

في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اصطلح هو والمشركون عام الحديبية أمر عليا أن يكتب في أول كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو وكان إذ ذاك مشركا لا نعرف الرحمن ولكن اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فأمر عليا فكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا لو علمنا

". (١)

"المشهورات التي ليست بأوليه وتكاد تشاكل الأوليات وتدخل في المشبهات بها إلى آخره

يقال له هذا أيضا مما يبين قوتها وصدقها فإنهم اعترفوا بأنها أقوى من المشهورات التي ليست بأولية وهذه المشهورات عند أكثر العقلاء من العقليات الضروريات فإذا كانت هذه أقوى منها لزم أن تكون أقوى من بعض العقليات الضروريات وذلك يوجب صدقها

وذلك أنه قال فأما المشهورات فمنها هذه الأوليات ونحوها مما يجب قبوله لا من حيث هي واجب قبولها بل من حيث عموم الاعتراف بها ومنها الآراء المسماة بالمحمودة وربما خصصناها باسم المشهورة إذ لا عمدة لها إلا الشهرة وهي أن لو خلى الإنسان وعقله المجرد ووهمه وحسه ولم يؤدب بقبوله قضايا ما والاعتراف بها ولم يمكنه الاستقرار بظنه القوي إلى حكم لكثرة الجزئيات ولم يستدع إليها ما في طبعه الإنساني من الرحمة والخجل **والأنفة** **والحمية** وغير ذلك لم يقض بها الإنسان طاعة لعقله أو وهمه

". (٢)

"دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الإصرار بواسطة التعصب الذي يثور عن الجدل

قلت المضرة التي ذكرها نوعان أحدهما يتعلق بالعلم وهو التنبيه على شبه الباطل التي تضعف اعتقاد الحق وتفضي إلى الباطل والثاني يتعلق بالقصد وهو إثارة الهوى **والحمية** والعصبية التي تدعو إلى الإصرار ولو على الباطل لئلا يغلب الشيطان

قال وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٥٣/٥

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٩٩/٦

ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخرى سوى نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود

قال ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف

(١) ".

"ص -٤٤٢- ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

ولهذا كان الصبر واليقين اللذان هما أصل التوكل يوجبان الإمامة فى الدين، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤] .

ولهذا كان الجهاد موجبا للهداية التى هى محيطة بأبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى؛ ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما : إذا اختلف الناس فى شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم؛ لأن الله يقول : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾

وفى الجهاد أيضا : حقيقة الزهد فى الحياة الدنيا، وفى الدار الدنيا .

وفيه أيضا : حقيقة الإخلاص؛ فإن الكلام فيمن جاهد فى سبيل الله، لا فى سبيل الرياسة، ولا فى سبيل المال، ولا فى سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هى العليا .

وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود، كما قال." (٢)

"ص -١٩٩- وهذا الباب باب تفضيل بعض الأعمال على بعض إن لم يعرف فيه التفضيل، وأن ذلك قد يتنوع بتنوع الأحوال في كثير من الأعمال، وإلا وقع فيها اضطراب كثير . فإن في الناس من إذا اعتقد استحباب فعل ورجحانه، يحافظ عليه ما لا يحافظ على الواجبات، حتى يخرج به الأمر إلى الهوي والتعصب والحمية الجاهلية، كما تجده فيمن يختار بعض هذه الأمور فيراها شعارا لمذهبه .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ١٦٣/٧

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣/

ومنهم من إذا رأي ترك ذلك هو الأفضل، يحافظ أيضا على هذا الترك أعظم من محافظته على ترك المحرمات، حتى يخرج به الأمر إلى اتباع الهوي **والحمية** الجاهلية، كما تجده فيمن يري الترك شعارا لمذهبه، وأمثال ذلك، وهذا كله خطأ .

والواجب أن يعطي كل ذي حق حقه، ويوسع ما وسعه الله ورسوله، ويؤلف ما ألف الله بينه ورسوله، ويراعي في ذلك ما يحبه الله ورسوله من المصالح الشرعية، والمقاصد الشرعية، ويعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وأن الله بعثه رحمة للعالمين، بعثه بسعادة الدنيا والآخرة، في كل أمر من الأمور، وأن يكون مع الإنسان من التفصيل ما يحفظ به هذا الإجمال، وإلا فكثير من الناس يعتقد هذا مجملا، ويدعه عند التفصيل : إما جهلا، وإما ظلما، وإما اتباعا للهوي . فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين." (١)

"ص -٢٢٣- فيها، بمنزلة الفضة القليلة في الدرهم المغشوش، وكل منفعة تحصل بهذا السبب فإنها تنقلب مضرة في المآل، ولا يبارك لصاحبها فيها، وإنما هذا نظير السكران بالخمر، فإنها تطيش عقله حتى يسخو بماله، ويتشجع على أقرانه، فيعتقد الغر أنها أورثته السخاء والشجاعة وهو جاهل، وإنما أورثته عدم العقل . ومن لا عقل له لا يعرف قدر النفس والمال، فيجود بجهله، لا عن عقل فيه .

وكذلك هذه الحشيشة المسكرة إذا أضعفت العقل، وفتحت باب الخيال، تبقى العادة فيها مثل العبادات في الدين الباطل دين النصاري، فإن الراهب تجده يجتهد في أنواع العبادة لا يفعلها المسلم الحنيف، فإن دينه باطل، والباطل خفيف؛ ولهذا تجود النفوس في السماع المحرم والعشرة المحرمة بالأموال وحسن الخلق بما لا تجود به في الحق، وما هذا بالذي يبيح تلك المحارم، أو يدعو المؤمن إلى فعله؛ لأن ذلك إنما كان لأن الطبع لما أخذ نصيبه من الحظ المحرم ولم يبال بما بذله عوضا عن ذلك، وليس في هذا منفعة في دين المرء ولا دنياه، وإنما ذلك لذة ساعة، بمنزلة لذة الزاني حال الفعل، ولذة شفاء الغضب حال القتل، ولذة الخمر حال النشوة، ثم إذا صحا من ذلك وجد عمله باطلا، وذنوبه محيطة به، وقد نقص عليه عقله ودينه وخلقه .

وأين هؤلاء الضلال مما تورثه هذه الملعونة من قلة الغيرة، وزوال **الحمية** حتى يصير آكلها إما ديوثا، وإما مأبونا، وإما كلاهما، وتفسد الأمزجة." (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣٨/

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣٩/

"ص -١٦٣- في الأعراس والأفراح للنساء والصبيان . وعامة الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام الأربعة وهي التشبيب، وأشعار الغضب **والحمية**، وهي الحماسة والهجاء . وأشعار المصائب كالمراثي وأشعار النعم والفرح وهي المدائح . والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع، كما قال الله تعالى : ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ [الشعراء : ٢٢٥] ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ [الشعراء : ٢٢٦] ، ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاوون والغاوي : هو الذي يتبع هواه بغير علم، وهذا هو الغي، وهو خلاف الرشد . كما أن الضال الذي لا يعلم مصلحته هو خلاف المهتدي قال الله سبحانه وتعالى : ﴿والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ [النجم : ٢] ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي " . فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة وجنس السماحة، إذ كان عدم هذين مذموما على الإطلاق وأما وجودهما فبه تحصل مقاصد النفوس على الإطلاق، لكن العاقبة في ذلك للمتقين .

وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة والعاقبة وإن كانت في الآخرة فتكون في الدنيا أيضا، كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة : ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ [هود : ٤٨] إلى قوله : ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [هود : ٤٩] . وقال : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [البقرة : ١٩٤] .." (١)

"ص -١٧٢- فهذه الأمور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها أن يكون ما يخبر به عن الله واليوم الآخر وما كان وما يكون : حقا صوابا . وما يأمر به وينهى عنه كما جاءت به الرسل عن الله .

فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة، المتبع لكتاب الله وسنة رسوله كما أن العبادات التي يتعبد العباد بها إذا كانت مما شرعه الله وأمر الله به ورسوله : كانت حقا صوابا موافقا لما بعث الله به رسله . وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل وإن كان يسميه من يسميه علوما ومعقولات، وعبادات ومجاهدات، وأذواقا ومقامات .

ويحتاج أيضا أن يؤمر بذلك لأمر الله، وينهى عنه لنهي الله، ويخبر بما أخبر الله به، لأنه حق وإيمان وهدى كما أخبرت به الرسل . كما تحتاج العبادة أن يقصد بها وجه الله . فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى **والحمية**، أو لإظهار العلم والفضيلة، أو لطلب السمعة والرياء : كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٤٨

. ومن هنا يتبين لك ما وقع فيه كثير من أهل العلم والمقال، وأهل العبادة والحال .

فكثيرا ما يقول هؤلاء من الأقوال ما هو خلاف." (١)

"ص -٣٢٦- من تسليمه لحاكم عادل، يوفي به دينه، أو يؤدي منه النفقة الواجبة عليه لأهله أو أقاربه أو مماليكه أو بهائمه . وكثيرا ما يجب على الرجل حق بسبب غيره، كما تجب عليه النفقة بسبب حاجة قريبة، وكما تجب الدية على عاقلة القاتل . وهذا الضرب من التعزير عقوبة لمن علم أن عنده مالا أو نفسا يجب إحضاره، وهو لا يحضره؛ كالقطاع والسراق وحماتهم، أو علم أنه خبير به وهو لا يخبر بمكانه . فأما إن امتنع من الإخبار والإحضار؛ لئلا يتعدي عليه الطالب أو يظلمه، فهذا محسن . وكثيرا ما يشتبه أحدهما بالآخر، ويجتمع شبهة وشهوة . والواجب تمييز الحق من الباطل .

وهذا يقع كثيرا في الرؤساء من أهل البادية والحاضرة، إذا استجار بهم مستجير، أو كان بينهما قرابة أو صداقة، فإنهم يرون **الحمية** الجاهلية، والعزة بالإثم، والسمعة عند الأوباش : أنهم ينصرونه وإن كان ظالما مبطلا على المحق المظلوم، لا سيما إن كان المظلوم رئيسا يناديهم ويناويهم، فيرون في تسليم المستجير بهم إلى من يناويهم ذلا أو عجزا، وهذا على الإطلاق جاهلية محضة . وهي من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا . وقد ذكر أنه إنما كان سبب كثير من حروب الأعراب، كحرب البسوس التي كانت بين بني بكر وتغلب، إلى نحو هذا، وكذلك سبب دخول الترك والمغول دار الإسلام." (٢)

"ص -٥٦٨- وأما الحركة في الوضع : فمثل دوران الشيء في موضع واحد، كدوران [الفلك] و [المنجنون] الذي يسمى الدولاب، وكحركة الرحى وغير ذلك، فإنه لا ينتقل من حيز إلى حيز، بل حيزه واحد، لكن يختلف في أوضاعه، فيكون الجزء منه تارة محاذيا للجهة العليا فيصير محاذيا للجهة السفلى، أو للجهة اليمنى فيصير محاذيا للجهة اليسرى .

وهذا النوع يقولون : إن ابن سينا زاده .

والرابع : الحركة في الأين : وهي الحركة المكانية، وهو انتقاله من حيز إلى حيز .

وأما عموم أهل اللغة فيطلقون لفظ الحركة على جنس الفعل . فكل من فعل فعلا فقد تحرك عندهم، ويسمون أحوال النفس حركة، فيقولون : تحركت فيه المحبة، وتحركت فيه **الحمية**، وتحرك غضبه، وتوصف هذه الأحوال بالحركة والسكون، فيقال : سكن غضبه، قال تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٥٧

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٨٦

أخذ الألواح﴾ [الأعراف : ١٥٤] ، فوصف الغضب بالسكوت، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ومعاوية ابن قرة، وعكرمة : [ولما سكن] بالنون وعلى القراءة المشهورة [بالتاء] قال المفسرون : سكت الغضب : أي سكن . وكذلك قال أهل اللغة؛ الزجاج وغيره .

قال الجوهري : سكت الغضب مثل سكن، فالسكون أخص، فكل." (١)

"ص -٥٤٠- ومن هذا سميت [الجاهلية] جاهلية، وهي متضمنة لعدم العلم أو لعدم العمل به، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر " إنك امرؤ فيك جاهلية " لما ساب رجلا وعيره بأمه، وقد قال تعالى : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ [الفتح : ٢٦] فإن الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه، وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره، وترك ما يعلم أنه ينفعه؛ لما في نفسه من البغض والمعاداة الأشخاص وأفعال، وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية، لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم، فدل على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه . ولكن ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده، بل عنه وعما في النفس من حب ما ينفعها، وبغض ما يضرها، فإذا حصل لها مرض ففسدت به، أحبت ما يضرها، وأبغضت ما ينفعها، فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له، مع علمه أنه يضره .

قلت : هذا معنى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات " رواه البيهقي مرسلا، وقد قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥] ، فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم، وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر، فإن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه، فالإيمان لابد." (٢)

"ص -٥٥٤- نصره وذب عنه لحمية النسب والقرابة؛ ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه، وإلا فلو كان ذلك عن إيمان في القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة، والسبب الذي أوجب نصره للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الحمية هو الذي أوجب امتناعه من الشهادتين، بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه، قال الله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٥٨/٨٠

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٨٨/١١٣

يرضى ﴾ [الليل : ١٧ : ٢١] ، ومنشأ الغلط في هذه المواضع من وجوه :
أحدها : أن العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات الإيمان .
الثاني : ظن الظان أن ما في القلوب لا يتفاضل الناس فيه .
الثالث : ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه .
الرابع : ظن الظان أن ليس في القلب إلا التصديق، وأن ليس الظاهر إلا عمل الجوارح . والصواب أن القلب له عمل مع التصديق، والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر، وكلاهما مستلزم للباطن . والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان؛ فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق، فهذا ضلال بين، ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم : العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن." (١)

"ص -١٤٥- وكما قال : ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ [الأنفال : ٧] ، فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط، فهو أصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سرا، فإن **الحمية** التامة بلا اغتذاء تمرض، فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات .

وقد قدمنا في قاعدة كبيرة أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء، وبينا أن هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره، وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها بأن عرض له المرض دواما، والصحة تحفظ بالمثل، والمرض يزول بالضد، فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها، أو هو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق .

ولهذا قال يحيى بن عمار : العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا، وهو علم التوحيد، وعلم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث، وعلم هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من." (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٠٢/١١٣

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٩/١٥٧

"ص -١٧٤- جانب الحق ؟ فيقال : متي كان فيما فعله إفساد لجانب الحق كان الحق في ذلك لله ورسوله، فيفعل فيه ما يفعل في نظيره، وإن لم يكن فيه أذي للآمر الناهي

والمصلحة في ذلك تتنوع؛ فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال، وتارة تكون المصلحة المهادنة، وتارة تكون المصلحة الإمساك والاستعداد بلا مهادنة، وهذا يشبه ذلك، لكن الإنسان تزين له نفسه أن عفوه عن ظالمه يجريه عليه، وليس كذلك، بل قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال : " ثلاث إن كنت حالفا عليهن : ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما نقصت صدقة من مال، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله "

فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفو الإنسان عن حقه، ويستوفي حقوق الله بحسب الإمكان قال تعالى: ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ [الشوري : ٣٩] ، قال إبراهيم النخعي [هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعي اليماني ثم الكوفي، وهو ابن مليكة أخت الأسود بن يزيد، كان كبير الشأن، كثير المحاسن، توفي وله تسع وأربعون سنة، مات سنة ٩٦هـ] : كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا قال تعالى: ﴿ هم ينتصرون ﴾ يمدحهم، بأن فيهم همة الانتصار للحق **والحمية** له؛ ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا وذلا بل هذا مما يذم به الرجل، والممدوح العفو مع القدرة، والقيام لما يجب من نصر الحق، لا مع إهمال حق الله وحق العباد والله تعالى أعلم." (١)

"ص -٢٤٥- وبين حسنة الدنيا والآخرة، وسيئة الدنيا والآخرة، ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح، بين العلم الطيب والعمل الصالح، كما يقرن بين ضديهما وهو " الضلال " ، و " الغي " : اتباع الظن وما تهوي الأنفس والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض، وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح

فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي، والاستعاذة، كان الذم والنهي لكل منهما : من الضلال، والغي، من الجهل والظلم، من الضلال والغضب؛ ولأن كلا منهما صار مكروها مطلوب العدم، لا سيما وهو مستلزم للآخر، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما، وقد يطلب كل منهما، وقد يحمد أحدهما، وقد يحمد كل منهما؛ لأن كلا منهما خير مطلوب محمود، وهو سبب لحصول الآخر، لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعا، وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ولم يعارضه معارض، والداعي للخلق الآمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين، فيطلب أحدهما؛ لأنه مطلوب في نفسه، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٦٥/٢٤٣

سبب للآخر، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعا، فقد يثقل ذلك عليه، والأمر بناء والنهي هدم، والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية، والنهي من باب **الحمية**، والبناء والعافية تأتي شيئا بعد شيء، وأما الهدم فهو أعجل، **والحمية** أعم، وإن كان قد يحصل فيهما." (١)

"ص -٣٦٣- ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي صلى الله عليه وسلم، ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي " فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته **الحمية** فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتلنه ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتي هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتي سكتوا وسكت وفي رواية أخري صحيحة أن هذه الآية في أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة، وقال أبو سلمة : قذف." (٢)

" أن قول حذيفة لا يوجب حجة إلا أن مستنده عن رسول الله [ ] ، فأما إذا قال من ذاته فهو رأي يخطئ فيه ويصيب . فإن احتجوا برواية الروافض وعلمائهم ، أن حذيفة وعمارا رضي الله عنهما روي عنهما قالا في (. . .) كافر أو أن طلحة فيمن حصره ، وأن عليا أعان على قتله ومالا (. . . .) . وأن الناس خذلوا وأسلموه ، وغير ذلك من حماقات الروافض عليهم لعنة الله والملائكة . قيل لهم : أزعمتم أن عثمان كفر ؟ فإن قالوا : لا ، قيل لهم : فقد بان خطأ من قال كافر بلا حجة ، وقول من تحمله **الحمية** والغضب على القول بما غيره أولى منه (. . . . . .) وإن قول حذيفة لا يخلو من أحد شيئين إن كان قاله : إما كان مصيبا فيما قاله ، أو مخطئا . فإن أصاب فلا بد أن تطلقوا القول بتكفير عثمان (رضي) الله عنه ، أو تخطؤه فيما قاله إن قاله فلا تحتجوا به . ولو قبلنا قول من يتكلم في حال غضب

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٠/٢٥٠

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٨٦/٢٥٤

ويقول عن موجدة وحمية وردد نابه ما ثبت من الفضل والكمال السابقين لعثمان رضي الله عنه ، واجتماع المسلمين عليه واختيارهم له ، كان ذلك مؤديا إلى إزالة الفضل وسقوط المرتبة لكل من تقدمه وتأخره من الصحابة إذ لم يسلم واحد منهم من معاتب وواجد عليه . وقد قيل : ولو أن امرأ كان أقوم من قدح لوجدت له غامزا . ولن تعدم الحسناء ذاما . والدليل على أن ما روى عن حذيفة إن كان محمولا على ما ذكرناه .

". (١)

" وقد أقاد رسول الله [ ] وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما من أنفسهما . وإنما يقتد ممن فعل ما ليس له أن يفعل . وثبت عن الرسول [ ] في حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم عليه السلام يوم القيامة فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته ، ويأتون نوحا فيذكر خطيئته ، ويأتون إبراهيم فيذكر خطيئته ويأتون موسى فيذكر خطيئته . فالنبيون في منازلهم ومراتبهم من الله تبارك وتعالى يذكرون خطاياهم ، ونبينا [ ] سيد الأولين والآخرين يقول : ' إنما أنا بشر مثلكم ' . فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله [ ] وزللهم ، ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه ، (. . . وقد كان يجري بين الصحابة رضي الله عنهم بحضرة الرسول [ ] وفي غيبته فيبلغه من الله تعالى ؟) . ذلك الخصام والسباب في حال الغضب والموجدة أشياء فلا يأخذهم به ولا يعيب ذلك عليهم بل يأمرهم بالعفو ويحضهم على التآلف ويطفي ثائرة الغضب وثورة البشرية ، وذلك مثل ما جرى بين السيدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وكلاهما من الفضل في الدين بالمحل العظيم حين استعذر النبي [ ] من ابن أبي بن سلول وأصحابه الذين خاضوا في الأفك وتكلموا في عائشة رضي الله عنها وعن أبيها وصلى الله وسلم على بعلها ونبيها ، فقام سعد بن معاذ فقال : أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد ابن عبادة وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ولكنك معه قائل منافق تجادل عن المنافقين فتثاور

---

(١) الإمامة والرد على الرافضة، ص/٣٢٦

". (١)

"اتهام المالكي الشيخ بأنه زرع شرا كثيرا

أما أن الشيخ زرع شرا مستطيرا فكذبت ونقول: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ وأنت من تكون حتى تقيم الشيخ ولو عرفت قدرك لما تعديت طورك، والشيخ محمد نعمة من الله ورحمة لأهل هذه الجزيرة وغيرهم ممن نفعهم الله بدعوته وقد زرع خيرا كثيرا وأزال شرا كثيرا فقدس الله روحه من إمام ورضي الله عنه وقطع الله دابر من شنأه لأنه شانئ للحق، وله نصيب من قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.

ولا عجب من جرأة المالكي هذه ووقاحته فهو وارث أسلافه وإخوانه ممن شرقوا بهذه الدعوة من خفافيش الأبصار الذين بهرهم نورها، وقد دمدمهم عن آخرهم علماؤها وحماتها الأبطال، ومن أواخرهم سليمان بن سحمان رحمه اله سوف أنقل هنا أبياتا من قصيدة طويلة في رده على مسمى شرف نزيل البحرين،

وقد وصفه الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله بأنه: أخذته **الحمية** لأخدانه، واحتملته العصبية الوبية لإخوانه، يعني مثل المالكي الضال الذي يعيب هذه الدعوة لينصرف الناس عن." (٢)

"فيقوم سعد بن معاذ ويقول: يا رسول الله، والله أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة – سيد الخزرج- واحتملته **الحمية**، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم لسعد بن معاذ فقال: لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، وتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت (١).

وعائشة رضي الله عنها تقول في سعد بن عبادة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته **الحمية**: أي أنه كامل الصلاح. وفي رواية: وكان صالحا ولكن الغضب بلغ، ومع ذلك لم يغمص عليه في دينه. ولكن احتملته **الحمية**: أي: حملته على الجهل.

قال العلماء: ومن الحمل الجيد لقوله: "كذبت لا تقتله ولا تقدر على قتله ": أي: أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجعل حكمه إليك، فلذلك لا تقدر على قتله. قال الحافظ ابن حجر: وهو حمل جيد (٢).

وقد اعتذر الإمام المازري عن قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: إنك منافق، أن ذلك وقع منه على

---

(١) الإمامة والرد على الرافضة، ص/٣٤٤

(٢) الإبطال والرفض لعدوان من تجرأ على كشف الشبهات بالنقض، عبد الكريم الحميد ص/١٢١

جهة الغيظ والحنق والمبالغة في زجر سعد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب الولاء إذ سمعتموه (٤٧٥٠)

(٢) ابن حجر: فتح الباري: ٨/ ٣٢٩." [١]

"٥ - يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره، واجتناب نهيه، وإذا قام العبد بذلك نال بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة.قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لآئم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ (٥٤) سورة المائدة

٦ - إن الإيمان بالله ينشئ في النفس **الأنفة** والعزة؛ لأنه يعلم أن الله هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو، وهذا العلم يغنيه عن غير الله، وينزع من قلبه خوف سواه، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف سواه.قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم (١٧٤) إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (١٧٥) [آل عمران/١٧٣ - ١٧٥]﴾

٧ - إن الإيمان بالله ينشئ في نفسه التواضع؛ لأنه يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، فلا يغره الشيطان، ولا يبطر ولا يتكبر، ولا يزهو بقوته وماله.قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ (٥٣) سورة النحل.

٨ - إن المؤمن بالله يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى الفلاح والنجاة إلا بالعمل الصالح الذي يرضاه الله،قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ (٣٧) سورة سبأ، في حين يعتقد غيره اعتقادات باطلة كاعتقاد أن الله أمر بصلب ابنه تكفيرا عن خطايا البشر، أو يؤمن بآلهة ويعتقد أنها تحقق له ما يريد، وهي في حقيقتها لا تنفع ولا تضر، أو يكون ملحدا فلا يؤمن بوجود خالق .. وكل هذه أماني، حتى إذا وردوا

---

(١) الإصابة في الذب عن الصحابة - رضي الله عنهم -، مازن بن محمد بن عيسى ص/٣٨٣

على الله يوم القيامة وعاينوا الحقائق أدركوا أنهم كانوا في ضلال مبين.قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركآؤكم الذين كنتم." (١)

"القسم الثاني: البدعة الفعلية والتركية:

١ – البدعة الفعلية: تدخل في تعريف البدعة: فهي طريقة في الدين مخترعة، تشبه الطريقة الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه (١)، ومن أمثلة ذلك: الزيادة في شرع الله ما ليس منه، كمن يزيد في الصلاة ركعة، أو يدخل في الدين ما ليس منه، أو يفعل العبادة على كيفية يخالف فيها هدي النبي – صلى الله عليه وسلم – (٢)، أو يخصص وقتا للعبادة المشروعة لم يخصصه الشرع: كتخصيص يوم النصف من شعبان بصيام وليلته بقيام (٣).

٢ – البدعة التركية: تدخل في عموم تعريف البدعة، من حيث إنها ((طريقة في الدين مخترعة)) (٤)، فقد يقع الابتداع بنفس الترك تحريما للمتروك، أو غير تحريم؛ فإن الفعل ((مثلا)) قد يكون حلالا بالشرع فيحرمه الإنسان على نفسه، أو يقصد تركه قصدا، فهذا الترك إما أن يكون لأمر يعتبر شرعا، أو لا: فإن كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه؛ لأنه ترك ما يجوز تركه، أو ما يطلب بتركه، كالذي يمنع نفسه من الطعام الفلاني من أجل أنه يضره في جسمه، أو عقله، أو دينه، وما أشبه ذلك، فلا مانع هنا من الترك، وهذا راجع إلى **الحمية** من المضرات، وأصله قوله

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٥٠ – ٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق،١/ ٣٦٧ – ٤٤٥،وتنبيه أولي الأبصار، للدكتور صالح السحيمي، ص٩٩، وحقيقة البدعة وأحكامها، لسعيد الغامدي، ٢/ ٣٧، وأصول في البدع والسنن للعدوي، ص٧٠، وعلم أصول البدع، لعلي بن حسن الأثري، ص١٠٧.

(٣) انظر: كتاب التوحيد، للعلامة الدكتور صالح الفوزان، ص٨٢.

(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٥٧.." (٢)

"الاحتمالات التي لا داعي لها ولا حاجة إليها، فضعفت كلمتهم أمام المحرفين والمشبهين الملحدين. وإن ما ترزح تحته الأمم الإسلامية اليوم؛ من تفرق في الكلمة، وانحراف في الرأي، وضعف في الدفاع،

---

(١) أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود ص/٤٥

(٢) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني ٢/٧٢٥

وتأخر إلى الوراء حين يتقدم غيرهم؛ ليس كل ذلك إلا نتيجة غفلتهم عن تراث السلف الصالح وسلوكهم لغير خطتهم علما وعملا.

ولقد راجت شبه الملحدين من جديد رواجا مخيفا جمد إزاءه المسلمون، ولو أنهم رجعوا إلى أقوال سلفهم الصالح وسلكوا طريقهم، لردوا كيد الكائدين إلى نحورهم؛ فإنه ما من شبهة تذاع اليوم إلا وقد سبق إليها شياطين الملحدين السابقين في العصور الأولى، ووقفها وردها وأبطلها أجلة علماء السلف ببراعة فائقة؛ فلا سبيل أرشد من سبيلهم، ولا هدي أقوم مما كانوا عليه؛ فالخير كل الخير في العودة إلى كتاب الله تعالى تلاوة له وتفقها فيه، وإلى أحاديث المصطفى صاحب جوامع الكلم - صلى الله عليه وسلم - دراية ورواية، والفتيا بهذين الأصلين وعرض أعمال الناس عليهما؛ فهذا هو الفلاح والرشاد الذي ليس بعده رشاد. (١)

- ومن مقالاته رحمه الله:

من أسباب الانحراف والصدود عن الحق:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فللصدود عن الحق أسباب عديدة وموانع كثيرة؛ منها: الغرور الفكري والتقليد عن غير بينة وبصيرة، وتحكم العادات السيئة في النفوس، **والأنفة** والاستكبار،

---

(١) إتحاف النبلاء (٢/ ١٩٨ - ١٩٩).." [١]

"- وقال: وقد يحمل بعضهم **الحمية** على أن يقول: الجبرية، هم القدرية. ولو كان هذا الاسم يلزمهم، لاستغنوا به عن الجبرية. ولو ساغ هذا لأهل القدر، لساغ مثله للرافضة، والخوارج، والمرجئة وقال كل فريق منهم لأهل الحديث، مثل الذي قالته القدرية. والأسماء لا تقع غير مواقعها، ولا تلزم إلا أهلها. ويستحيل أن تكون الصياقلة، هم الأساكفة، والنجار هو الحداد. والفطرة التي فطر الناس عليها، والنظر، يبطل ما قذفوهم به. أما الفطر، فإن رجلا لو دخل المصر، واستدل على القدرية فيه، أو المرجئة، لدله الصبي والكبير، والمرأة والعجوز، والعامي والخاصي، والحشوة والرعاع، على المسمين بهذا الاسم. ولو استدل على أهل السنة، لدلوه على أصحاب الحديث. ولو مرت جماعة فيهم القدري، والسني، والرافضي، والمرجئي، والخارجي، فقذف رجل القدرية، أو لعنهم، لم يكن المراد بالشتم أو اللعن عندهم، أصحاب الحديث. هذا أمر، لا يدفعه دافع، ولا ينكره منكر. وأما النظر، فإنهم أضافوا القدر إلى أنفسهم، وغيرهم يجعله لله تعالى،

---

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٢٥٧/١٠

دون نفسه. ومدعي الشيء لنفسه، أولى بأن ينسب إليه، ممن جعله لغيره. ولأن الحديث جاءنا، بأنهم مجوس هذه الأمة، وهم أشبه قوم بالمجوس، لأن المجوس تقول بإلهين، وإياهم أراد الله بقوله: ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾ (١). وقالت القدرية: نحن نفعل مالا يريد الله تعالى، ونقدر على ما لا

(١) النحل الآية (٥١).." (١)

"رجل من أهل العلم يلزمك النصيحة للمسلمين بقول الحق، فإن كان عندك بذلته وأحببت قبوله، وإن كان عند غيرك قبلته، ومن دلك عليه شكرت له، فإذا كان هذا أصلك وهذه دعواك فأين تذهب عما أنت له طالب وعلى جمعه حريص، ولكنك والله يا أخي تأبى الحق وتنكره إذا سبقك مناظرك إليه وتحتال لإفساد صوابه وتصويب خطئك وتغتاله وتلقي عليه التغاليظ وتظهر التشنيع، ولا سيما إن كان في عينك وعند أهل مجلسك أنه أقل علما منك فذاك الذي تجحد صوابه وتكذب حقه، ولعل **الأنفة** تحملك إذا هو احتج عليك بشيء خالف قولك فقال لك: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: قلت لم يقله رسول الله فجحدت الحق الذي تعلمه ورددت السنة، فإن كان مما لا يمكنك إنكاره أدخلت على قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علة تغير بها معناه وصرفت الحديث إلى غير وجهه، فإرادتك أن يخطأ صاحبك خطأ منك واغتنامك بصوابه غش فيك وسوء نية في المسلمين.

فاعلم يا أخي أن من كره الصواب من غيره ونصر الخطأ من نفسه لم يؤمن عليه أن يسلبه الله ما علمه وينسيه ما ذكره، بل يخاف عليه أن يسلبه الله إيمانه، لأن الحق من رسول الله إليك افترض عليك طاعته فمن سمع الحق فأنكره بعد علمه له فهو من المتكبرين على الله، ومن نصر الخطأ فهو من حزب الشيطان، فإن قلت أنت الصواب وأنكره خصمك ورده عليك كان ذلك أعظم لأنفتك وأشد لغيظك وحنقك وتشنيعك وإذاعتك وكل ذلك مخالف للعلم ولا موافق للحق. بلغني عن الحسن بن عبد العزيز الجروي المصري أنه قال: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطأ وما في ظني علم إلا وددت أنه عند كل." (٢)

"كتاب الإيمان من صحيح البخاري رحمه الله. (١)

---

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٣٧٠/٤

(٢) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٤٠٣/٥

جمال الدين أبو المظفر يوسف بن محمد السرمري (٢) (٧٧٦ هـ)

الشيخ الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون البديعة والمصنفات النافعة، جمال الدين أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد العبادي ثم العقيلي السرمري نزيل دمشق الحنبلي. ولد في رجب سنة ست وتسعين وستمائة بسر من رأى، وتفقه ببغداد على الشيخ صفي الدين عبد المؤمن وغيره، ثم قدم دمشق وتوفي بها.

من تصانيفه: 'نظم مختصر ابن رزين في الفقه' و'نظم الغريب في علوم الحديث' لأبيه. قال ابن حجي: رأيت بخطه ما صورته: مؤلفاتي تزيد على مائة مصنف كبار وصغار في بضعة وعشرين علما. أخذ عنه ابن رافع مع تقدمه عليه وحدث عنه.

توفي في جمادى الأولى سنة ست وسبعين وسبعمائة بدمشق رحمه الله تعالى.

موقفه من المبتدعة:

جاء في الرد الوافر: ومن مؤلفاته النظامية، كتاب **'الحمية** الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية'. (٣)

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩).

(٢) الرد الوافر (ص.٢١٦) والشذرات (٦/ ٢٤٩) والدر المنضد (٢/ ٥٥٤ - ٥٥٥) والسحب الوابلة (٣/ ١١٨١ - ١١٨٨).

(٣) الرد الوافر (٢١٦).." [1]

"عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع **الحمية** والعصبية بين فقهاء الأعصار' والكتاب مطبوع متداول، وهو من خيرة الكتب في الرد على المقلدة. وعنوانه دال على ذلك.

- قال في مقدمته: حمدا لمن جعل أهل الحديث حراس الدين وصرف عنهم كيد المعاندين، وشكرا لمن ألهمهم التمسك بالشرع المبين، وهداهم لاقتفاء آثار الصحابة والتابعين، وصلاة وسلاما على من ببعثته كل منكر متروك وموضوع، وكل معروف موصول غير مقطوع ولا ممنوع، المنزل عليه أحسن الحديث والمبجل بين الورى في القديم والحديث، ورحمة موصولة بطرائق الإكرام من الملك العلام، مكفولة لأنصار السنة المطهرة وحماتها وإبطال الكفاح عنها وكماتها الرامين بشبه التحقيق الثاقبة شبهة التحريف والانتحال،

---

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٤٠٢/٨

المحرقين بصواعق الحجج البالغة بدع أهل الزيغ والضلال، الذين جعلهم الله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة. (١)

إبراهيم بن عبد القادر (٢) (١٢٢٣ هـ)
العلامة الحافظ إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد صارم الدين الكوكباني الأصل الصنعاني المولد والوفاة. مولده بصنعاء في ثامن عشر رمضان سنة تسع وستين ومائة وألف ونشأ بكوكبان، وتخرج بوالده في عدة علوم وما زال مكبا على القراءة، ثم انتقل مع والده إلى صنعاء وعكف على التدريس

---

(١) إيقاظ الهمم (ص.٢٠).
(٢) البدر الطالع (١/ ١٧ - ١٨) ونيل الوطر لزبارة (١/ ٦١ - ٦٧) والأعلام (١/ ٤٨).." [١]

"وكل هذا ورد النهي عنه، وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» (١).
فانظر إلى قوله - صلى الله عليه وسلم -: «فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» تعرف أن الحلف بغير الله، ولو مما عظم الله كالكعبة والأولياء منهي عنه شرعا. (٢)
- وقال: أما من حيث النذور في بلادنا اليوم، فلهم فيها ابتداعات قضت على أمر الدين، وتمكن إبليس اللعين من إدخال الفساد على الإسلام وأهله من هذا الباب حتى لا ترى مسلما اليوم إلا وهو بالوثني أشبه إلا ما قل.
جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة **والأنفة والحمية**، وليعتق رقابهم من رق العبودية لغير الله، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل.
وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى فكانوا ذوي أنفة وعزة وإباء وغيرة يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه قف

---

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٤٣/٩

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٧) والبخاري (١١/ ٦٤٩ ٦٦٤٦/٦٦٤٦) ومسلم (٣/ ١٢٦٧ ١٦٤٦/١٦٤٦ [٣ - ٤]) والترمذي (٤/ ٩٣/ ١٥٣٤) وقال: "حسن صحيح". النسائي (٧/ ٧/ ٣٧٧٣) من طرق عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) الرحلة (ص.٢٩٩).." [١]

"مخترعة، تشبه الطريقة الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه (١)، ومن أمثلة ذلك: الزيادة في شرع الله ما ليس منه، كمن يزيد في الصلاة ركعة، أو يدخل في الدين ما ليس منه، أو يفعل العبادة على كيفية يخالف فيها هدي النبي - صلى الله عليه وسلم - (٢)، أو يخصص وقتا للعبادة المشروعة لم يخصصه الشرع: كتخصيص يوم النصف من شعبان بصيام وليلته بقيام (٣).

٢ - البدعة التركية: تدخل في عموم تعريف البدعة، من حيث إنها ((طريقة في الدين مخترعة)) (٤)، فقد يقع الابتداع بنفس الترك تحريما للمتروك، أو غير تحريم؛ فإن الفعل ((مثلا)) قد يكون حلالا بالشرع فيحرمه الإنسان على نفسه، أو يقصد تركه قصدا، فهذا الترك إما أن يكون لأمر يعتبر شرعا، أو لا: فإن كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه؛ لأنه ترك ما يجوز تركه، أو ما يطلب بتركه، كالذي يمنع نفسه من الطعام الفلاني من أجل أنه يضره في جسمه، أو عقله، أو دينه، وما أشبه ذلك، فلا مانع هنا من الترك، وهذا راجع إلى **الحمية** من المضرات، وأصله قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٥٠ - ٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق،١/ ٣٦٧ - ٤٤٥،وتنبيه أولي الأبصار، للدكتور صالح السحيمي، ص٩٩، وحقيقة البدعة وأحكامها، لسعيد الغامدي، ٢/ ٣٧، وأصول في البدع والسنن للعدوي، ص٧٠، وعلم أصول البدع، لعلي بن حسن الأثري، ص١٠٧.

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المغراوي ٢٩١/٩

(٣) انظر: كتاب التوحيد، للعلامة الدكتور صالح الفوزان، ص٨٢.

(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٥٧.." (١)

"«فآزره» .. «فاستغلظ» «فاستوى على سوقه». «يعجب الزراع» .. : «ليغيظ بهم الكفار» .. وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين: «محمد رسول الله» .. ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى. ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة .. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة. إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» .. أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعو ا هذه الوشائج جميعا. رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله والرحمة لله. وهي **الحمية** للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: «تراهم ركعا سجدا» .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها. ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: «يبتغون فضلا من الله ورضوانا» .. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.." (٢)

"وعن طارق قال: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند إمام جائر. (١)

---

(١) نور السنة وظلمات البدعة في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني ص/٤٢

(٢) مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود ص/٩٥

وعن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو عند الجمرة الأولى فقال: يا رسول الله، أي الجهاد أفضل؟ قال: فسكت عنه ولم يجبه. ثم سأله عند الجمرة الثانية، فقال له مثل ذلك، فلما رمى النبي – صلى الله عليه وسلم – جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز قال: أين السائل؟ قال: كلمة عدل عند إمام جائر." (٢)

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها – وهو يرى المنكر يقع من غيره –:وأنا مالي؟! وهذه **الحمية** ضد الفساد في المجتمع، بحيث لا يقول أحد – وهو يرى الفساد يسري ويشيع – وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله .. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به ..

وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله ومعرفة تكاليف هذا الإيمان. وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة. وإلى الجد في أخذ العقيدة بقوة، والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة الله ويقيم حياته كلها على منهجه هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا في الخضم أو يجعله غير ممكن أصلا في كثير من الأحيان! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض والتي تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد وتعتبر الفسق والفجور والمعصية «مسائل شخصية»! ليس لأحد أن يتدخل في شأنها .. كما تجعل من الظلم

---

(١) – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٦/ ٣٩٣) (١٨٨٢٨) ١٩٠٣٣ – صحيح

(٢) – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٧/ ٤٠٦) (٢٢٢٠٧) ٢٢٥٦٠ – حسن." [١]

"وهي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله وهو يموه على نفسه في أول الطريق، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبسا بالضعف والهوان! إن **الحمية** لله، ولدين الله، ولآيات الله. هي آية الإيمان. وما تفتر هذه **الحمية** إلا وينهار بعدها كل سد وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار. وإن **الحمية** لتكبت في أول الأمر عمدا. ثم تهمد. ثم تخمد. ثم تموت!

---

(١) مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود ص/٢٣٢

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدفع، وإما أن يقاطع المجلس وأهله. فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة. وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق!

وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين – ذوي النفوذ – وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ. وجاء المنهج القرآني ينبه في النفوس تلك الحقيقة .. حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها، هو أولى مراحل الهزيمة. وأراد أن يجنبهم إياها .. ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمرا بمقاطعة مجالس القوم إطلاقا. فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها .. وإلا فهو النفاق .. وهو المصير المفزع، مصير المنافقين والكافرين: «وقد نزل عليكم في الكتاب: أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم، حتى يخوضوا في حديث غيره. إنكم إذا مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» ... والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة الأنعام – وهي مكية – «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره» ..

والتهديد الذي يرتجف له كيان المؤمن: «إنكم إذا مثلهم» .. والوعيد الذي لا تبقى بعده بقية من تردد: «إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» .. ولكن قصر النهي على المجالس التي يكفر فيها بآيات الله ويستهزأ بها، وعدم شموله لكل علاقات المسلمين بهؤلاء المنافقين، يشي – كما أسلفنا – بطبيعة الفترة التي كانت تجتازها الجماعة المسلمة – إذ ذاك – والتي يمكن أن تتكرر في أجيال أخرى وبيئات أخرى – كما تشي بطبيعة." (١)

"الثاني: كفر إباء واستكبار: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباء واستكبارا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾.ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته **الحمية**، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم.

الثالث: كفر إعراض: مثل من يعرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي صلى الله عليه وسلم (والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك).

---

(١) مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود ص/٢٨٣

الرابع: كفر الشك: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

الخامس: كفر نفاق: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

٨ – للكفر شعب كما أن للإيمان شعبا كذلك، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان، وقد يجتمع في الرجل بعض شعب الإيمان، وبعض شعب الكفر فيجتمع فيه إيمان وكفر.

٩ – تتفاوت أحكام الكفار في الدنيا بحسب أقسامهم باعتبار كون كفرهم أصليا أو كفر ردة، وكونهم محاربين أو غير محاربين، وكونهم أهل كتاب أو ليسوا بأهل كتاب.

١٠ – يشترك الكفار كلهم بشتى أصنافهم في حكم الآخرة في أنهم خالدون مخلدون في النار، أبد الآباد، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها بحال، وهم مع هذا ليسوا في درجة واحدة من العذاب، بل يتفاوتون في دركات النار كما أن أهل الجنة يتفاوتون في درجات الجنة.

١١ – حكم أهل الكفر الأصغر في الدنيا حكم سائر أهل المعاصي، لا يخرجون من دائرة الإسلام، ويحكم لهم بحكم المسلمين، وهم في الآخرة تحت مشيئة الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، وإن عذبهم بالنار فإنه لا يخلدهم فيها، بل لا بد من خروجهم منها كسائر عصاة الموحدين.

١٢ – التكفير والتفسيق أحكام شرعية لا مدخل للعقل فيها بحال، فالكافر من جعله الله ورسوله كافرا، والفاسق من جعله الله ورسوله فاسقا، وليس ذلك لأحد.

١٣ – بيان الضوابط الشرعية لما يكفر به من الأعمال، وما لا يكفر به، وهذه المخالفات إما أن تكون بترك مشروع، أو بفعل محظور. أما ترك المشروع فإما يكون ترك للاعتقاد، أو للقول، أو للعمل، أما ترك الاعتقاد فكفر، وأما ترك القول، فعلى قسمين: ما يكون تركه كفرا كالنطق بالشهادتين، وما لا يكون تركه كفرا كبقية واجبات اللسان، وأما ترك العمل فعلى قسمين أيضا: قسم مختلف في التكفير بتركه، وهي أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين، وقسم متفق على عدم التكفير بتركه، وهي سائر الواجبات بعد أركان الإسلام. وأما فعل المحظور فينقسم إلى قسمين: ما." (١)

---

(١) الولاء والبراء والعداء في الإسلام، أبو فيصل البدراني ص/١٧

"وهذا الهدي قد يجهله بعض المسلمين، فتدفعهم الغيرة والحمية للدين إلى أن يدعو على عموم الكافرين بالهلاك والدمار، وهذا خلاف هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام.

الثامن والعشرون: تشرع محبة الخير والهداية للناس جميعا مؤمنهم وكافرهم والرحمة والشفقة عليهم ولا علاقة لهذه المحبة بالبراء الشرعي من المشركين ، بل إن شفقة المؤمن على الكافر لقرابته أو لإحسانه وكذلك خوف المؤمن على قومه وعشيرته من عاقبة ما هم فيه من الكفر ورحمتهم لا تنافي كمال الإيمان المستحب ناهيك عن الواجب فهذا نوح قال الله عنه يوم الطوفان﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾وقوله لقومه بعد أمرهم بتوحيد الله﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾فنوح يشفق على ابنه الكافر وعلى قومه الكفار ومنه قول إبراهيم لأبيه﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:" يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: " إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار " فإبراهيم يشفق على أبيه الكافر ، ومن ذلك قول شعيب لقومه بعد نصحه لهم﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾، ومن ذلك أيضا قول هود لقومه بعد وعظهم﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾، ومن ذلك أيضا قول مؤمن آل فرعون لقومه بعد تذكيرهم بالله﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال (زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال " استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي) ومن المعلوم أن البكاء والشفقة لا يكونان إلا من ميل قلبي جبلي لا يؤاخذ عليه الإنسان.

التاسع والعشرون: اتفق أهل العلم على أن من تخشى على نفسك الافتتان به وأن يضرك في دينك فيجب عليك هجره ولو كان قريبا لك ولو لم يتبين لك كفره أي بمعنى لو كان فاسقا مسلما ويستثنى من وجوب هجره هجرا جميلا وعدم صلته ما كان على سبيل المداراة وصلته بما لا يدخل عليك ضرر في دينك كصلته بالمال ونحوه.

الثلاثون: جواز مصاحبة الكفار المسالمون ومؤاكلتهم ومشاربتهم لحاجة كعمل بينك وبينهم أو كان ذلك لمصلحة شرعية راجحة كدعوة أوصلة للرحم وضيافتهم إذا كانوا ضيوفا فلا بأس بذلك ما لم يصل إلى حد

موالاتهم.

الحادي والثلاثون: يجوز الدعاء للكافر بالشفاء من مرض والعافية منه للمصلحة كرجاء إسلامه وتأليف قلبه ونحوه.

الثاني والثلاثون: تجوز الاستجارة بالكافر لحماية الدعوة.." [1]

"وقال أحدهم لمحاولة التوفيق بين اجتماع المحبة الطبيعية والبغض الديني (قال تعالى في الكراهية الطبيعية للقتال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) [البقرة:٢١٦] وقال تعالى في الحب الشرعي للقتال (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع) [التوبة:٩٢].

فانظر كيف أخبر أنهم يكرهون القتال طبعا، ثم تفيض عيونهم من الحزن إذا فاتهم القتال لحبهم إياه شرعا وديانة!

فمن أنكر الكره الطبيعي للقتال فقد كابر، ومن أنكر الحب الشرعي للقتال فما عرف معنى الإيمان بعد، فإن أثبت اجتماعهما في محل واحد فكيف ينكر اجتماعهما في شخص واحد وهو الزوجة الكافرة؟!

وكذلك فإن كل نفس تجد في داخلها كراهية السجن كراهية طبيعية، ولكن لما كان فيه مصلحة شرعية ليوسف –عليه السلام– صار أحب إليه شرعا وإن كان يبغضه طبعا، كما قال تعالى عن يوسف (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) [يوسف:٣٣].

وكذلك فإن الإنسان إذا تصدق بأنفس ماله عنده اجتمع في هذا الفعل حب وبغض، فهو يحب ماله طبعا، ويحب التخلي عنه والصدقة به شرعا، كما قال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) [آل عمران:٩٢] وقال تعالى (وآتى المال على حبه) [البقره: ١٧٧] وقال تعالى يطعمون الطعام على حبه) [الإنسان:٨] ... انتهى).

وقال آخر (إن النفس البشرية السوية لتقوى على الجمع بين المشاعر المتضادة في آن واحد، فهذا الرجل تحمله القسوة على تأديب ولده مع أن قلبه يذوب رقة وحنانا عليه، فهو جامع بين القسوة والغلظة من جهة وبين الرقة والشفقة من جهة أخرى، وهذا اللص الفقير ينظر إليه أحدنا من باب الشرع فتأخذه **الحمية** لدين الله عز وجل في ردعه وزجره بالعقاب الشرعي، وننظر إليه نظرة شفقة ورحمة لحاله، وقس على ذلك، ومنه ما جرى على ألسنة بعض الصحابة من رحمة الكفار والشفقة عليهم إذا نظر لهم من جهة القدر لا الشرع.

---

(١) الولاء والبراء والعداء في الإسلام، أبو فيصل البدراني ص/٩٣

بل إن الرجل المسلم المطيع لله جل وعلا قد يأتي المعصية عن شهوة وحب لها، وفي الوقت ذاته يقع في قلبه شيء من الكراهية لها والانقباض عنها لأنه عصى فيها الله عز وجل، فهذا عاص لله محب للمعصية، وفي الوقت نفسه يجد في قلبه شيئا من الانقباض والنفور عنها، مع كونه ممارسا لها.

وممن صور الثنائية النفسية أبدع تصوير أبو الطيب المتنبي في رثاءه لفاتك، عندما قال:

الحزن يقلق والتجمل يردع .... والدمع بينهما عصي طيع

إني لأجبن عن فراق أحبتي .... وتحس نفسي بالحمام فأشجع

ويزيدني غضب الأعادي قسوة .... ويلم بي عتب الصديق فأجزع

وهي من عيون شعره، بل من عيون المراثي الشعرية التي نطق بها أدباء العربية.

المقصود أن الحس والواقع يشهدان بجريان بعض المشاعر المتضادة المتعارضة في النفس البشرية، دون أن يؤثر ذلك على السلوك أو يوقع في الاضطراب، ومن ذلك حب الرجل المحبة الطبيعية لزوجه النصرانية أو اليهودية، مع بغضه لها." (١)

"أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» [مسلم٩٣٤]

ذم في الحديث، من دعا بدعوى الجاهلية، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية، لا يتركه الناس كلهم، ذما لمن لم يتركه، وهذا كله يقتضي: أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية، خرج مخرج الذم، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب:٣٣] فإن في ذلك ذما للتبرج، وذما لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر - رضي الله عنه - لما عير رجلا بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» [البخاري٣٠، مسلم١٦٦١]، فإنه ذم لذلك الخلق، ولأخلاق الجاهلية التي لم يجئ به ا الإسلام.

ومنه - قوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ [الفتح:٢٦] فإن إضافة **الحمية** إلى الجاهلية: اقتضى ذمها." (٢)

---

(١) بسط القول والإسهاب في بيان حكم مودة المؤمن للكافر، أبو فيصل البدراني ص/٣٤

(٢) تهذيب اقتضاء الصراط المستقيم، شحاتة صقر ص/٣٨

"خبر الواحد لمن كان لا يعرف إلا بعضه

ويذكر الناس بما قد علمه فنسيه وينبه المتهاون لما كان قد اشتغل عن العناية بالقيام به ويبين للزائغ عن طريق الرشد أنه قد تركه ولعل من نظر فيه بالإعجاب برأيه أن ينقض مذاهبه إذا فهم حسن العبارة عنه وإيضاح حججه ونور بيانه يتنبه من رقدته ويفيق من سكرته لأن الحق عزيز أين كان والباطل ذليل في كل أوان

والحجة ظاهرة بنورها على الشبهة

وليس من تفرد بكتاب يقرؤه وحده متثبتا فيه لا يشغله عنه سبب يقطعه كمن نازع غيره لأنه يعترض في المناظرة آفات كثيرة من العجب بالرأي

والذي والذي يمنع من الفهم **الأنفة** التي تمنع من الخضوع للحق وحب الغلبة الذي يبعث على الجدل والجزع من التخطئة التي تمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب

فلما كثرت آفات المناظرة وكان التفرد بقراءة الكتاب المجموع فيه والمؤلف فيه حدود الحق رأيت أن أصنفه مبينا." (١)

"ويل أمه إنه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة قال فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لهم نقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمنعهم فمن أتى منهم فهو آمن فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأنزل الله عز وجل وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فكانت حميتهم أنهم لم يقولوا إنه نبي ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين البيت

قال ابو الحسين الملطى رحمه الله إنما سقت هذا الحديث وما أشبهه لتعرف كيف كان بدء هذا الدين وتعلم المشقة فيه وما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهال قومه وكيف كانت قلوب المؤمنين من

---

(١) ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه الحارث المحاسبي ص/٢٣٤

التعزيز والتوقير وكيف لم يلوهم عن الحق أحد ولم يؤثروا على الله شيئا وبلغ المكروه منهم ما قد تسمع بعضه." (١)

"أن اللسان الذي نزل به لسانهم ومع العلم بما هم عليه من عزة الأنفس وعظم **الأنفة** وشدة **الحمية** والحرص على تكذيبه وتشتيت جمعه وتفريق الناس من حوله والتوفر على إكذابه وما عره وغض منه وخروجهم إلى ما خرجوا إليه معه من الحرب والمسايفة وحمل الأنفس على إراقة الدماء والخروج عن الديار ومفارقة الأوطان

فلو كانوا مع ذلك قادرين على معارضته أو معارضة سورة منه لسارعوا إلى ذلك ولكان أهون عليهم وأخف من نصب الحرب معه والجلاء عن الأوطان وتحمل الأهوال والصبر على القتل وألم الجراح واحتمال الذل والعار لأنه قد كان صلى الله عليه وسلم مكنهم من تكذيبه من وجهين أحدهما قوله لن تأتوا بمثله والآخر قوله إن أتيتم فلجتم وكنت مبطلا وكنتم المحققين هذا مع تلاوته عليهم في نص التنزيل قوله ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾

ولو عرفوه بذلك أو بصحبة أهل الكتب ونقلة السير ومداخلة أهل الأخبار ومجالسة أهل هذا الشأن لم يلبثوا أن يقولوا له هذا كذب لأنك ما زلت معروفا بصحبة أهل الكتب ومجالستهم وقصدهم إلى مواضعهم ومواطنهم ومجاراتهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم." (٢)

"أن قول حذيفة لا يوجب حجة إلا أن مستنده عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فأما إذا قال من ذاته فهو رأي يخطئ فيه ويصيب.

فإن احتجوا برواية الروافض وعلمائهم، أن حذيفة وعمارا رضي الله عنهما روي عنهما قالا في كافر أو أن طلحة فيمن حصره، وأن عليا أعان على قتله ومالا (...) . وأن الناس خذلوا وأسلموه، وغير ذلك من حماقات الروافض عليهم لعنة الله والملائكة.

قيل لهم: أزعمتم أن عثمان كفر؟ فإن قالوا: لا، قيل لهم: فقد بان خطأ من قال كافر بلا حجة، وقول من تحمله **الحمية** والغضب على القول بما غيره أولى منه (...) وإن قول حذيفة لا يخلو من أحد شيئين إن كان قاله:

إما كان مصيبا فيما قاله، أو مخطئا.

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع الملطي، أبو الحسين ص/١٠

(٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل الباقلاني ص/١٦٨

فإن أصاب فلا بد أن تطلقوا القول بتكفير عثمان (رضي) الله عنه، أو تخطؤه فيما قاله إن قاله فلا تحتجوا به.

ولو قبلنا قول من يتكلم في حال غضب ويقول عن موجدة وحمية وردد نابه ما ثبت من الفضل والكمال السابقين لعثمان رضي الله عنه، واجتماع المسلمين عليه واختيارهم له، كان ذلك مؤديا إلى إزالة الفضل وسقوط المرتبة لكل من تقدمه وتأخره من الصحابة إذ لم يسلم واحد منهم من معاتب وواجد عليه.

وقد قيل: ولو أن امرأ كان أقوم من قدح لوجدت له غامزا.

ولن تعدم الحسناء ذاما.

والدليل على أن ما روى عن حذيفة إن كان محمولا على ما ذكرناه.." [1]

"وقد أقاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما من أنفسهما.

وإنما يقتد ممن فعل ما ليس له أن يفعل.

وثبت عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم عليه السلام يوم القيامة فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته، ويأتون نوحا فيذكر خطيئته، ويأتون إبراهيم فيذكر خطيئته ويأتون موسى فيذكر خطيئته.

فالنبيون في منازلهم ومراتبهم من الله تبارك وتعالى يذكرون خطاياهم، ونبينا – صلى الله عليه وسلم – سيد الأولين والآخرين يقول: " إنما أنا بشر مثلكم ".

فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزللهم، ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه، (... وقد كان يجري بين الصحابة رضي الله عنهم بحضرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفي غيبته فيبلغه من الله تعالى؟) . ذلك الخصام والسباب في حال الغضب والموجدة أشياء فلا يأخذهم به ولا يعيب ذلك عليهم بل يأمرهم بالعفو ويحضهم على التآلف ويطفي ثائرة الغضب وثورة البشرية، وذلك مثل ما جرى بين السيدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وكلاهما من الفضل في الدين بالمحل العظيم حين استعذر النبي – صلى الله عليه وسلم – من ابن أبي بن سلول وأصحابه الذين خاضوا في الأفك وتكلموا في عائشة رضي الله عنها وعن أبيها وصلى الله وسلم على بعلها ونبيها، فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد ابن عبادة وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن

---

(١) الإمامة والرد على الرافضة أبو نعيم الأصبهاني ص/٣٢٦

معاذ: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه ولكنك معه قائل منافق تجادل عن المنافقين فتشاور." (١)

"من أخرجه منه لا سيما إلى العز والحرمة وكانوا أيضا أهل عسكر مجتمع وبني عمر يمكنهم التواطؤ ثم كانوا أهل بلد صغير جدا قد تكنفهم الأعداء من كل جانب وأما عيسى عليه السلام فما اتبعه إلا نحو اثني عشر رجلا معروفين ونساء قليل وعدد لا يبلغ جميعهم وفي جملتهم الاثنا عشر إلا مائة وعشرين فقط هكذا في نص إنجيلهم وكانوا مشردين مطرودين غير ظاهرين ولا يقوم بمثل هؤلاء ضرورة يقين العلم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلا يختلف أحد في مشرق الأرض وغربها أنه عليه السلام أتى إلى قوم لقاح لا يقرون بملك ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس نشأ على هذا آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم **والأنفة** في طباعهم وهم أعداد عظيمة قد ملؤا جزيرة العرب وهي نحو شهرين في شهرين قد صارت طباعهم طباع السباع وهم ألوف الألوف قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض أبدا فدعاهم بلا مال ولا اتباع بل خذله قومه إلى أن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة ومن الحرية والظلم إلى جري الأحكام عليهم ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا وأخذ مال من أحبوا إلى القصاص من النفس ومن قطع الأعضاء ومن اللطمة من أجل من فيهم لأقل علج غريب دخل فيهم وإلى إسقاط **الأنفة** والفخر إلى ضرب الظهور بالسياط أو بالنعال إن شربوا خمرا أو قذفوا إنسانا وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف ما منهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة وخيبر فقط وما غزا قط غزوة يقاتل فيها إلا تسع غزوات بعضها عليه وبعضها له فصح ضرورة أنهم إنما آمنوا به طوعا لا كرها وتبدلت طبعائهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلى العدل ومن الجهل إلى العلم ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم الذي لم يبلغه أكابر الفلاسفة وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له صحبة الأخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ولا مال يتعجلونه فقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة فهل هذا إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم وقره عز وجل لطباعهم كما قال تعالى ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ ثم بقي عليه السلام كذلك بين أظهرهم بلا حارس ولا ديوان جند ولا بيت مال محروسا معصوما وهكذا نقلت آياته ومعجزاته فإنما يصح من أعلام

(١) الإمامة والرد على الرافضة أبو نعيم الأصبهاني ص/٣٤٤

الأنبياء المذكورين ما نقل عنه عليه السلام بصحة الطريق إليه وارتفاع دواعي الكذب والعصبية جملة عن اتباعه فيه فجمهورهم غرباء من غير قومه لم يمنهم بدنيا ولا وعدهم بملك وهذا لا ينكره أحد من الناس وأيضا فإن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ولا خرج عن." (١)

"يقدر على اصلاح نفسه فينبغي أن تقع البداية باصلاح القلب وسياسة النفس ومن لم يصلح نفسه وطمع في اصلاح غيره كان مغرور كما قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ وفي الحديث ان الله تعالى قال لعيسى بن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني ومثال من عجز عن اصلاح نفسه وطمع في اصلاح غيره مثال الاعمى اذا اراد يهدي العميان وذلك لا يستتب له قط وانما يقدر على اصلاح النفس بمعرفة النفس ومثل معرفة الانسان في بدنه كمثل وال في بلده وجوارحه وحواسه واطرافه بمنزلة صناع وعملة والشرع له كمشير ناصح ووزير مدبر والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة والطعام والعصب له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للانسان بصورة الناصح وفي نصحة دبيب العقرب فهو يعارض الوزير في تدبيره ولا يغفل ساعة من منازعته ومعارضته فكان الوالى في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد السوء الخبيث وادب صاحب شرطته وجعله مؤتمرا لوزيره وسلطه على هذا العبد الخبيث واتباعه حتى يكون هذا العبد مسوسا لا سائسا ومدبرا لا مدبرا استقام امر بلده وكذا النفس متى استعانت في تدبيراتها بالشرع والعقل وادبت الحمية والغضب حتى لا يهتاج الا باشارة الشرع والعقل وسلطته على الشهوة واستتب أمرها والا فسدت واتبعت الهوى ولذات الدنيا كما قال الله تعالى ﴿ولا تتبع الهوى﴾ الأية وقال تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ ﴿وقال﴾ ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب﴾ وقال تعالى في مدح من عصاها ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾." (٢)

"النبات الذي هو كجنس جنسه ثم توجد فيه قوة الحمية ثم آخرا توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم وأسر الهوى إلا باماتة الشهوات أو بقهرها وقمعها إن لم يمكنه إماتته إياها فهي التي تضره وتعزه وتعوقه وتصرفه عن طريق الآخرة وتثبطه ومتى قمعها أو أماتها صار الإنسان

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ابن حزم ٢/٧٣

(٢) فضائح الباطنية أبو حامد الغزالي ص/١٩٩

حرا نقيا بل إلهيا ربانيا فتقل حاجاته ويصير غنيا عما في يدي غيره وسخيا بما في يده ومحسنا في معاملاته

وأما منفعتها فهي أن هذه الشهوة مهما أدبت فهي المبلغة للسعادة وجوار رب العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما أمكن الوصول إلى الآخرة وذلك أن الوصول إلى الآخرة بالعبادة ولا سبيل إلى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ولا سبيل إلى الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ولا سبيل لحفظه إلا باعادة ما يتحلل منه ولا سبيل إلى اعادة ما يتحلل منه إلا بتناول الأغذية ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة

وأيضا فان الدنيا مزرعة الآخرة وقوام عمارة الأرض وتزجيه المعاش بهذه الشهوة فلو تصورت مرتفعة لاختل نظام الدين والدنيا وارتفعت المعاملات من بين الناس وارتفعت الشريعة والسياسة فاذا هذه القوة الشهوية مثل عدو يخشى مضرته من وجه ويرجى منفعته من وجه ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به فحق العاقل أن يأخذ نفعه ولا يركن اليه ولا يعتمد عليه الا بقدر ما ينتفع به وما أصدق في ذلك قول المتنبي

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

ومن نوافذ الحيل في قمع هذه الشهوة أن يتسلط بقوة **الحمية** على قوة." (١)

"وأما البله فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال وهو حالة للنفس تقصر بالغضبية والشهوية عن القدر الواجب ومنشؤه بطء الفهم وقلة الاحاطة بصواب الأفعال ويندرج تحت فضيلة الحكمة حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وصواب الظن

أما رذيلة الخب فيندرج تحتها الدهاء والجربزة وأما رذيلة البله فيندرج تحتها الغمارة والحمق والجنون

أما الشجاعة فهي فضيلة القوة الغضبية بكونها قوية **الحمية** ومع قوة **الحمية** منقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها وهي وسط بين رذيلتين مطيفتين بها وهما التهور والجبن

فالتهور لطرف الزيادة على الاعتدال وهي الحالة التي بها يقدم الإنسان على الأمور المخطرة التي يجب في العقل الاحجام عنها

وأما الجبن فطرف النقصان وهي الحالة التي بها تنقبض حركة القوة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام ومهما حصلت هذه الأخلاق صدرت منها هذه الأفعال أي يصدر من خلق الجبن الاحجام لا في محله ومن التهور الإقدام لا في محله وهما خلقان مذمومان

ومن الشجاعة يصدر الاقدام والاحجام حيث يجب وكما يجب وهو الخلق الحسن المحمود واياه أراد بقوله تعالى ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فلا الشدة في كل مقام محمودة ولا الرحمة بل المحمود

---

(١) معارج القدس في مدارج معرفه النفس أبو حامد الغزالي ص/٨٠

ما يوافق معيار العقل والشرع فمتى حصل له ذلك فلينتظر فان كان طبعه مائلا إلى النقصان الذي هو الجبن فليتعاطى أفعال الشجعان تكلفا ومواظبة عليها حتى يصير له بالاعتياد." (١)

"وأما قوله تعالى في أول (براءة) : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ . . .؛ ففيه قولان:

أحدهما: أن المراد بها هذه بعينها.

والثاني: أن المراد بها الأربعة التي جعل الله لهم أن يسيحوا فيها آمنين، وهو قوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ ، وهي عشرون من ذي الحجة والمحرم، وصفر، وربيع، وعشر من ربيع الآخر. قاله الحسن.

فأما قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ ؛ فقال ابن عباس: " الضمير عائد على الشهور كلها ".

وقال قتادة: " بل هو عائد على الأربعة الحرم؛ لعظم أمرها ".

فإن قيل: لم جعل بعض الشهور أعظم حرمة من بعض؟

قلنا: أفعال القديم عندنا لا تعلل؛ لأنه تعالى لا يفعل لغرض وعلة، ومن لا يفعل لغرض وعلة؛ لا يجوز أن يقال فيه: لم فعل؟ ولم لم يفعل؟

وأصحاب اللطف يجيبون عن ذلك؛ لما في ذلك من المصلحة في الكف عن الظلم فيها؛ لعظم منزلتها في حكم خالقها، فربما أدى ذلك إلى ترك الظلم رأسا؛ لانطفاء النائرة في تلك المدة، وانكشاف **الحمية**، ولأن." (٢)

"حديث ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في عمار: "تقتله الفئة الباغية" ٢٩٣.

وقال في الحسين: "ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"، فحسن له خلعه نفسه وإصلاحه٢٩٤.

=

الخير، وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا

---

(١) معارج القدس في مدارج معرفه النفس أبو حامد الغزالي ص/٨٧

(٢) الحوادث والبدع أبو بكر الطرطوشي ص/١٣٥

يره، نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٢٧٧: ٧، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني قاضي أفريقية المتوفى سنة ١٥٦، وكان رجلا صالحا من الآمرين بالمعروف -وذكر أهل صفين- فقال: كانوا عربا يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على **الحمية** وسنة الإسلام، فتصابروا، واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم، قال الشعبي: "هم أهل الجنة، لقى بعضهم بعضا، فلم يفر أحد من أحد". "خ".

٢٩٣ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لما كانوا يبنون المسجد، فكان الناس ينقلون لبنة لبنة، وعمار ينقل لبنتين لبنتين، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه هذه الكلمة على ما رواه أبو سعيد الخدري لعكرمة مولى ابن عباس ولعلي بن عبد الله بن عباس، وهو في كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري: ك ٥٦ ب ١٧ ج ٣، ص ٢٠٧، وقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغي في حرب صفين؛ لأنه لم يردها، ولم يبتدها، ولم يأت لها إلا بعد أن خرج علي من الكوفة، وضرب معسكره في النخيلة ليسير إلى الشام كما تقدم، ولذلك لما قتل عمار قال معاوية: إنما قتله من أخرجه. وفي اعتقادي الشخصي أن كل من قتل من المسلمين بأيدي المسلمين منذ قتل عثمان، فإنما أثمه على قتلة عثمان لأنهم فتحوا باب الفتنة، ولأنهم واصلوا تسعير نارها، ولأنهم الذين أوغروا صدور المسلمين بعضهم على بعض، فكما كانوا قتلة عثمان فإنهم كانوا القاتلين لكل من قتل بعده، ومنهم عمار، ومن هم أفضل من عمار كطلحة والزبير، إلى أن انتهت فتنتهم بقتلهم عليا نفسه، وقد كانوا من جنده، وفي الطائفة التي كان قائما عليها. فالحديث من أعلام النبوة. والطائفتان المتقاتلتان في صفين كانتا طائفتين من المؤمنين، وعلي أفضل من معاوية، وعلي ومعاوية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن دعائم دولة الإسلام. وكل ما وقع من الفتن قائمة على مورثي نارها؛ لأنهم السبب الأول فيها، فهم الفئة الباغية التي قتل بسببها كل مقتول في وقعتي الجمل وصفين وما تفرع عنهما. "خ".

٢٩٤ سيأتي الكلام على هذا عند الكلام على الصلح بين الحسن ومعاوية. "خ".." (١)

"الباب الثامن

قاصمة

كانت الجاهلية مبنية على العصبية وافتراق المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) العواصم من القواصم ط دار الجيل ابن العربي ص/١٧٣

كانت الجاهلية مبنية على العصبية، متعاملة بينها **بالحمية**. فلما جاء الإسلام بالحق، وأظهر الله منته على الخق، قال الله سبحانه: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . وقال لنبيه: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال: ٦٣] فكانت بركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجمعهم، وتجمع شملهم، وتصلح قلوبهم، وتمحو ضغائنهم.

واستأثر الله برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ونفرت النفوس، وتماسكت الظواهر منجرة، مادام الميزان قائما. فلما رفع الميزان- كما تقدم ذكره في الحديث- أخذ الله القلوب عن الألفة، ونشر جناحا من التقاطع، حتى سوى جاحين بقتل عثمان، فطار في الآفاق، واتصل الهرج إلى يوم المساق. وصارت الخلائق عزين٤٨١، وفي واد من العصبية يهيمون:

---

٤٧٩ حكم القاضي أبو بكر على ابن قتيبة هذا الحكم القاسي وهو يظن أن كتاب افمامة والسياسة من تأليفه كما سيأتي. وكتاب الإمامة والسياسة فيه أمور وقعت بعد موت بعد موت ابن قتيبة، فدل ذلك على أنه مدسوس عليه من خبيثت صاحب هوى. ولو عرف المؤلف هذه الحقيقة لوضع الجاحظ في موضع ابن قتيبة. خ.

٤٨١ جمع عزة: العصبة من الناس.." (١)

"والذي يكشف الغطاء في ذلك أن معاوية لما صار إليه الأمر لم يمكنه أن يقتل من قتلة عثمان أحدا إلا بحكم، إلا من قتل في حرب بتأويل، أو دس عليه فيما يقال (١) . حتى انتهى الأمر إلى زمن الحجاج، وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة (٢) . فتبين لكم أنهم ما كانوا في ملكهم يفعلون ما أصبحوا له يطلبون.

والذي تثلج به صدوركم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في الفتن وأشار وبين، وأنذر بالخوارج وقال: «تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق» (٣) فبين أن كل طائفة [منهما] تتعلق بالحق، ولكن طائفة علي أدنى إليه (٤) . وقال تعالى:

---

(١) إن سطوة الله وعدله الأعلى نزلا بأكثر قتلة عثمان فلم يبق منهم في ولاية معاوية إلا المشرد الخائف

---

(١) العواصم من القواصم ط دار الجيل ابن العربي ص/٢٥٧

الباحث عن حجر يختبئ فيه، وبزوال سطوتهم وتقليص شرهم فلم يبق بمعاوية حاجة إلى تتبعهم.

(٢) يشير المؤلف إلى حادثة عمير بن ضابئ وكميل النخعي، وقد تقدم خبرهما في (ص ١٢٩ – ١٣٠)
.

(٣) في صحيح مسلم (ك ١٢ ج ١٥٠ – ج ٣ ص ١١٣) من حديث أبي سعيد الخدري: ((تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق)) .

(٤) أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن عليا ومعاوية، ومن معها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا جميعا من أهل الحق، وكانوا مخلصين في ذلك. والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد، كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه. وهم – لإخلاصهم في اجتهادهم – مثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ، وليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر معصوم عن أن يخطئ وقد يخطئ بعضهم في أمور ويصيب في أخرى، وكذلك الآخرون. أما من مرق عن الحق في إثارة الفتنة الأولى على عثمان فلا يعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها، لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان – كائنا من كانوا – استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع. وفي حالة عدم استطاعته فإن مواصلتهم تسعير القتال بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي – كما فعلوا في وقعة الجمل وبعدها – يعد إصرارا منهم على الاستمرار في الإجرام ما داموا على ذلك، فإذا قلنا إن الطائفتين كانتا من أهل الحق فإنما نريد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته صلى الله عليه وسلم من التابعين، ونرى أن عليا المبشر بالجنة أعلى مقاما عند الله من معاوية خال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين، وكلاهما من أهل الخير. وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره. نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧: ٢٧٧) عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني قاضي إفريقية المتوفى سنة ٥٦ كان رجلا صالحا من الآمرين بالمعروف – وذكر أهل صفين – فقال: ((كانوا عربا يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على **الحمية** وسنة الإسلام، فتصابروا، واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء وهؤلاء في عسكر

هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم)) ، قال الشعبي: ((هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضا، فلم يفر أحد من أحد)) .." (١)

"منا، فرضي الله عن جميعهم.

ومن نظر إلى أفعال الصحابة تبين منها بطلان هذه الهتوك التى يختلقها أهل التواريخ فيدسونها في قلوب الضعفاء، وهذا زياد لما أحس المنية استخلف سمرة بن جندب من كبار الصحابة فقبل خلافته، وكيف يظن به – على منزلته – أنه يقبل ولاية ظالم لغير رشدة، وهو على ما هو عليه من الصحبة، وذلك من غير إكراه ولا تقية؟ إن هذا لهو الدليل المبين. فمع من تحبون أن تكونوا: مع سمرة بن جندب، أو مع المسعودي والمبرد وابن قتيبة ونظرائهم (١) ؟ وهذا غاية في البيان.

[قاصمة]

[اجتماع العرب بالإسلام]

قاصمة كانت الجاهلية مبنية على العصبية، متعاملة بينها **بالحمية** فلما جاء الإسلام بالحق، وأظهر الله منته على الخلق، قال سبحانه: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال لنبيه: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال: ٦٣] فكانت بركة النبي صلى الله عليه وسلم تجمعهم، وتجمع شملهم، وتصلح قلوبهم، وتمحو ضغائنهم.

---

(١) حكم القاضي أبو بكر على ابن قتيبة هذا الحكم القاسي وهو يظن أن كتاب (الإمامة والسياسة) من تأليفه كما سيأتي. وكتاب الإمامة والسياسة ذكرت فيه أمور وقعت بعد موت ابن قتيبة، فدل ذلك على أنه مدسوس عليه من خبيث صاحب هوى. ولو وقف المؤلف على هذه الحقيقة لوضع الجاحظ ومن هم دون الجاحظ في موضع ابن قتيبة.." (٢)

"الكذب، ومن الأفعال: الخير دون الشر، ويختار بقوته العملية من لوازم القوى الغضبية: الشدة، الشجاعة، **والحمية**، دون الذلة، والجبن، والنذالة، ويختار بها أيضا من لوازم القوة الشهوية التآلف، والتودد،

---

(١) العواصم من القواصم ط الأوقاف السعودية ابن العربي ص/١٦٨

(٢) العواصم من القواصم ط الأوقاف السعودية ابن العربي ص/٢٤٥

والبذاذة، دون الشره، والمهانة، والخساسة فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه، ومن أرحم الناس تذللا وتواضعا لوليه وصديقه. وإذا بلغ هذا الكمال، فقد استخدم القوتين واستعملهما في جانب الخير، ثم يترقى منه إلى إرشاد الخلائق في تزكية النفوس عن العلائق، وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب، وإبلاغها إلى حد الكمال.

ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها، لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها، وحكم العنين العاجز في امتناعه عن تنفيذ الشهوة، لا يكون كحكم المتصون الزاهد المتورع في إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه، فإن الأول: مضطر عاجز. والثاني: مختار، قادر، حسن الاختيار. جميل التصرف. وليس الكمال والشرف في فقدان القوتين، وإنما الكمال كله في استخدام القوتين.

فنفس النبي عليه السلام كنفوس الروحانيين: فطرة، ووضعا، وبذلك الوجه وقعت الشركة. وفضلها وتقدمها باستخدام القوتين التي دونها، فلم تستخدم. واستعمالهما في جانب الخير والنظام، فلم تستعمله، وهو الكمال.

قالت الصابئة:

الروحانيات صور مجردة عن المواد، وإن قدر لها أشخاص تتعلق بها تصرفا، وتدبيرا، لا ممازجة ولا مخالطة، فأشخاصها نورانية أو هياكل كما ذكرنا والفرض أنها إذا كانت صورا مجردة كانت موجودات بالفعل لا بالقوة: كاملة لا ناقصة، والمتوسط يجب أن يكون كاملا حتى يكمل غيره. وأما الموجودات البشرية فصور في مواد، وإن قدر لها نفوس، فنفوسها إما مزاجية، وإما خارجة عن المزاج. والفرض أنها إذا كانت صورا في مواد، كانت موجودات بالقوة لا بالفعل، ناقصة لا كاملة، والمخرج من القوة." (١)

"٢- فصل: والأصول التي بنى أصحاب الحديث عليها أقوالهم، الكتاب والسنة والإجماع والقياس وهو: أدلة العقل، أما الكتاب: فهو قول الله تعالى وهو القرآن الذي هو سور وآيات الذي هو خارج عن أجناس النظم وعن كلام البشر بمعاني تصح ولا تفسد١. منها أنه أخبر به٢ عما كان في التوراة والإنجيل من القرون الماضية والأنبياء المتقدمين، وكان أميا لا يقرأ كتابا، وأخبر عما يكون قبل أن يكون كدخوله مكة وغلبة الروم وغير ذلك فكان كما أخبر، وأمره الله أن يقول: هذا كلام ربي، وأمرني أن أبلغه إليكم، فقالوا: إنما يعلمه بشر، ولو شئنا لقلنا مثل هذا، فأمره الله أن يتحداهم بالإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، وهم أفصح العرب على النظم والنثر والخطب والرسائل وأنواع الشعر والسجع وبهم من

---

(١) الملل والنحل الشهرستاني ٢/ ٧٠

الحمية والأنفة ورفع العار عن أنفسهم ما يدعوهم إلى أن يعارضوه بمثله، وكان الرجلان إذا تساجلا في الشعر والسجع أو غير ذلك وأتى أحدهما بأفصح مما جاء به صاحبه لحق الآخر من النقص والعار بينهم ما يضيق به ذرعه، وأخبر الله لما تحداهم بالإتيان بمثله أنهم لا يأتون بمثله وإن تظاهروا وتعاونوا فقال تعالى: ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ ٣ فكان كما أخبر أنهم لم يقدروا على معارضته. وقد عاش فيهم نيفا وعشرين سنة مع حرصهم على تكذيبه وتنفير الناس عنه وتسفيه رأيه، فلو كان من جنس كلامهم لعارضوه ولم يعدلوا إلى قتاله وبذل مهجهم وأموالهم وكان تكذيب قوله بالمعارضة أسهل وأبلغ عند الخلق، ومن تعاطى معارضته بشيء من ذلك سخر منه من كان يحب تكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم- وذلك مثل مسيلمة الكذاب، حين تعاطى

---

١ هكذا في الأصل وهي كذلك في (ب) .

٢ يقصد بذلك النبي - صلى الله عليه وسلم- الذي جاءنا القرآن عن طريقه.

٣ الإسراء آية (٨٨) .." [(١)]

"المفاضلة بين الخلفاء الراشدين

...

قبلك " رواه مسلم١.

٧٧ . وعن أبي هريرة [رضي الله عنه] ٢ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع " رواه مسلم وأبوداود٣.

ونعتقد أن خير هذه الأمة وأفضلها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه الأخص، وأخوه في الإسلام، ورفيقه في الهجرة

---

١ مسلم، كتاب الإيمان، باب ((في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس يشفع في الجنة..)) ح ((١٩٧)) ١/١٨٨، ومسند أحمد ٣/١٣٦.

٢ أضفتها من [ل] .

٣ مسلم، كتاب الفضائل، باب ((تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق)) ح ((٢٢٧٨))

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار العمراني ١/١٠٢

١٧٨٢/٤، وأبو داود، كتاب السنة، باب في ((التخيير بين الأنبياء)) ح ((٤٦٧٣)) ٥٤/٥، وأحمد في المسند ٥٤٠/٢، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم ((١٤٥٣)) ٧٨٨/٤.

أما التفضيل بين الأنبياء فمذهب أهل السنة والجماعة جواز ذلك ما لم يكن على وجه الفخر **والحمية** والتنقص، وعلى ذلك يحمل نهيه صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على الأنبياء عموما، وعن بعضهم على وجه الخصوص، أو أن ذلك كان منه صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع.

انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١١٦، ومنهاج السنة لابن تيمية ٢٥٥/٧، وشرح الطحاوية ١٥٩/١.." (١)

"فصل

وأول ما ينبغي أن نقدم أن آدم عليه السلام لم يكن عندما أكل من الشجرة نبيا والعصمة لا تشترط للنبي إلا بعد ثبوت النبوة له فمن الناس من ذكر الإجماع على أنه لم يكن نبيا عندما أكل من الشجرة ومنهم من اكتفى بظاهر قوله تعالى ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه﴾ وهذا عطف ب (ثم) التي تعطي المهلة ثم ذكر الاجتباء والهداية

والاجتباء هنا النبوة بدليل قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام عندما عدد الأنبياء عليهم السلام ومناقبهم على التفصيل قال ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ يعني من النبيين أجمعهم

وقال في قصة يونس عليه السلام بعد قصة الحوت ﴿فاجتباه ربه﴾ وهذا وجه من الوجوه يثبت أكله من الشجرة قبل نبوته لا

فصل

والذي ينبغي أن يعول عليه في قصة آدم عليه السلام أن نهيه عن الشجرة كان نهي إرشاد وإعلام على جهة الوصية والنصيحة لا على جهة التكليف فإنه ما صح تكليفه في الجنة ولا نبوته في كتاب ولا سنة والأوامر والنواهي تنقسم إلى مشروع وغير مشروع كالأوامر اللغوية فإن السيد قد يقول لعبده والأخ لأخيه والصاحب

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي المقدسي، عبد الغني ص/١٩٨

لصاحبه على جهة الإعلام والإرشاد والنصيحة افعل كذا واترك كذا تسلم من كذا وتظفر بكذا وكذلك أوامر الأطباء للعليل **بالحمية** والدواء والغذاء إلى غير ذلك." (١)

"تحلى من أياديه النوادي ... ويجلي من محاسنه الظلام

فما لسناء غرته القضاء ... ولا لبناء عزته انهدام

عليه مجددا في كل يوم ... من الله التحية والسلام

ولعل ظهوره في هذه السنين قد يقع، فكل أمر إذا ضاق اتسع.

فقال: إن من الناس من ينكر هذا كله بالكلية، ومنهم من يزعم أن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم الطاهرة الزكية.

فقلت له: أما من ينكر هذا كله بالكلية فلا التفات إليه، إذ لا يعلم له في ذلك مستند يرجع إليه.

وأما من زعم أن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم، وأصر على صحة هذا الحديث وصمم، فربما أوقعه في ذلك **الحمية** والإلتباس، وكثرة تداول هذا الحديث على السنة الناس.

وكيف يرتقي إلى درجة الصحيح وهو حديث منكر، أم كيف يحتج بمثله من أمعن النظر في إسناده وأفكر.

فقد صرح بكونه منكرا أبو عبد الرحمن النسائي، وإنه لجدير بذلك إذ مداره على محمد بن خالد الجندي.." (٢)

"فما وافق ذلك أذن فيه وأمر وما خالفه نهى عنه وزجر فيكون قد آمن بذلك واتبع ولا يستحسن فإن من استحسن فقد شرع

قال أبو العباس أحمد بن يحيى حدثني محمد بن عبيد بن ميمون قال حدثني عبد الله بن اسحق الجعفري قال كان عبد الله بن الحسن يكثر الجلوس الى ربيعة قال فتذاكروا يوما السنن فقال رجل كان في المجلس ليس العمل على هذا فقال عبد الله أرأيت ان كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام فهم الحجة على السنة فقال ربيعة أشهد أن هذا الكلام أبناء الأنبياء

وبعد هذا كتاب جمعته محذرا من البدع زاجرا لمن وفق لذلك وارتدع ممتثلا به قول رب العالمين وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين وسميته الباعث على إنكار البدع والحوادث فما على العالم إلا نشر علمه والله يهدي من يشاء الى مراسم حكمه وما أحسن ما روى عن الشافعي رضى الله عنه قال سمعت سفيان بن عيينة

---

(١) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ابن خمير السبتي ص/٦٧

(٢) عقد الدرر في أخبار المنتظر يوسف بن يحيى السلمي ص/٦٠

قال إن العالم لا يمارى ولا يداري ينشر حكمه الله تعالى فان قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله

قلت ثم كان من العجائب والغرائب أن وقع في زماننا نزاع في بدعة صلاة الرغائب واحتيج بذلك الى التصنيف المشتمل على ذم المخالف والتعفيف فحملتني **الأنفة** للعلم **والحمية** لصدق على تمييز الباطل من الحق فألفت هذا الجزء الموصوف بالإنصاف فيما وقع في صلاة الرغائب من الإختلال وأضفت الى ذلك بيان البدع في غيره مما يناسبه وضممت اليه ما يقاربه رغبه في تعليل المحن من مخالفة السنن وقمعا للطائفة المبتدعة ورفعا لمنار المتشرعة والله الكريم أسال ذا الجلال الأكمل والعطاء الأجزل أن يسلك بنا السبيل الأعدل والطريق الأمثل فهو المؤمل لإجابة دعاء من أمل." (١)

"الحديث الباطل وشق على سلطان البلد واتباعة أبطالها فصنف لهم بعض مفتي البلد جزء في تقريرها بتحسين حالها والحاقها بالبدع الحسنة من جهة كونها صلاة ودام نقض رد الجزء في تصنيفه هذا فرد عليه الفقيه أبو محمد أحسن رد وبين أنه هو الذي أفتى فيما نقدم بالفتيين المقدم ذكرهما فخالف ما كان أفتى به أولا وجاء بما وافق هوى السلطان وعوام الزمان وهو من العلماء الصالحين والأئمة المفتيين ولكن ليبلو بعضكم ببعض وجعلنا بعضكم لبقض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا

وسنورد ما أعتمد عليه كل واحد منهما والحق ابلج واضح لمن أنصف وقد ضرب له مثل في تصنيفه الثاني المناقض لما كان أفتى به أولا بما ثبت في الصحيحين من قول عائشة رضى الله عنها في حديث الأفك يوم رد سعد بن عبادة على أسيد بن الحضير رضى الله عنهما قالت عائشة رضى الله عنها وكان يعني سعد بن عبادة ذلك رجلا صالحا ولكن أخذته **الحمية** وقد اعتذر عن ذلك بأنه تغير إجتهاده وقال الإجتهاد يختلف على ما قد عرف فلم تلتفت الى عذره لما علم المناوأة بين الرجلين فلم تحمل المخالفة إلا على ذلك ثم إني قلت نحن نأخذ بإجتهاده الأول الموافق للدليل وفتوى غيره ونرد إجتهاده الثاني المنفرد هو به لا سيما وإجتهاده الأول كان في حالة اجتماع الكلمة بين الرجلين والثاني في حال الفرقة بينهما فرأيه في الجماعة أحب إلينا من رأيه في الفرقه

وقد سبقنا الى هذا الكلام رجل جليل من كبار التابعين قاله لا فضل أهل زمانه يؤمئذ من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يعقوب بن سفيان حدثنا حماد حدثنا يعقوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال قال على رضى الله عنه اجتمع رأيي ورأى عمر على أن أمهات الأولاد لا يبعن قال ثم رأيت بعد

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث أبو شامة المقدسي ص/١٠

أن تباع في دين سيدها وأن يعتق من نصيب ولدها فقلت رأيك ورأى عمر في الجماعة احب الينا من رأيك في الفرقة وقال حدثنا أبو نعيم حديث." (١)

"هو الحرف والصوت، وذكرنا الدليل على المقدمات، ثبت كونه قديما بالإجماع.

وبيان كونه منزلا من وجهين:

أحدهما: الآيات منها قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ [الأنعام:١١٤] ، ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣] ، ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١] ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ [الحجر: ٩] ، ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا﴾ [يوسف:٢] ، ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ [الإنسان:٢٣] ، ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ [الإسراء: ١٠٥] ، ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾ [البقرة:١٨٤] وأمثال هذا كثير في الكتاب العزيز. فهذه الإضمارات عائدة إلى كلام الله تعالى بالإجماع أو لضرورة عدم عودها إلى غير كلام الله تعالى. والوجه الثاني: إجماع الصحابة واتفاقهم على أن كلام الله تعالى منزل والذي يحقق ذلك تتبع جريانهم، وإن هذا الأمر كان مقررا في عقائدهم جازمين، إذ لو تطرق إلى أحد منهم في ذلك شك أو شبهة لأزالوه بالسؤال للنبي صلى الله عليه وسلم مع ما كانوا فيه من الحمية في الدين والاحتراز عن الوقوع في الجهالات، وحينئذ يعلم أن عدم سؤالهم مع كثرة إطلاق لفظ النزول فيما بينهم وانتظارهم ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقائعهم دليل على إجماعهم واتفاقهم على أن كلام الله منزل على نبيه. ونحن نشير إلى جملة من تلك الوقائع التي يعسر إحصائها ليحصل الجزم بأنهم كانوا معتقدين ذلك: فمن ذلك: حديث عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ الحديث في أول صحيح البخاري١.

---

١ رواه البخاري (٢-٣٠٤٣) ومسلم (٢٣٣٣)." (٢)

"الإنسان بعد جهله، وحبه بعد بغضه، وإيمانه بعد كفره، وفرحه بعد حزنه، ورضاه بعد غضبه، كل هذه الأحوال النفسانية حركة في الكيف، وهذا مما احتج به من جوز منهم الحركة، فإن إرادته لإحداث الشيء عندهم حركة. والحركة في الكم: مثل امتداد الشيء، مثل كبر الحيوان بعد صغره، وطوله بعد قصره،

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث أبو شامة المقدسي ص/٤٦

(٢) جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات النووي ص/٢٩

ومثل امتداد الشجر والنبات وامتداد عروقه في الأرض وأغصانه في الهواء، فهذا حركة في المقدار والكمية، كما أن الأول حركة في الصفات والكيفية.

وأما الحركة في الوضع: فمثل دوران الشيء في موضع واحد، كدوران [الفلك] و [المنجنون] الذي يسمى الدولاب، وكحركة الرحى وغير ذلك، فإنه لا ينتقل من حيز إلى حيز، بل حيزه واحد، لكن يختلف في أوضاعه، فيكون الجزء منه تارة محاذيا للجهة العليا فيصير محاذيا للجهة السفلى، أو للجهة اليمنى فيصير محاذيا للجهة اليسرى.

وهذا النوع يقولون: إن ابن سينا زاده.

والرابع: الحركة في ال أين: وهي الحركة المكانية، وهو انتقاله من حيز إلى حيز.

وأما عموم أهل اللغة فيطلقون لفظ الحركة على جنس الفعل. فكل من فعل فعلا فقد تحرك عندهم، ويسمون أحوال النفس حركة، فيقولون: تحركت فيه المحبة، وتحركت فيه **الحمية**، وتحرك غضبه، وتوصف هذه الأحوال بالحركة والسكون، فيقال: سكن غضبه، قال تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح﴾ [الأعراف: ١٥٤] ، فوصف الغضب بالسكوت، وفي قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - ومعاوية ابن قرة، وعكرمة: [ولما سكن] بالنون وعلى القراءة المشهورة [بالتاء] قال المفسرون: سكت الغضب: أي سكن. وكذلك قال أهل اللغة؛ الزجاج وغيره.." (١)

"عليها آباءنا والله امرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون فقوله قل إن الله لا يأمر بالفحشاء دليل على أنها في نفسها فحشاء وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك وانه يتعالى ويتقدس عنه ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال إن الله لا يأمر بما ينهى عنه وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾ فأخبر انه يتعالى عن الأمر بالفحشاء بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به تعالى ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وإنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد

---

(١) شرح حديث النزول ابن تيمية ص/١٨٠

والتوجه والعمل له سبحانه والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله بل هو مخلص لربه محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا استدلال بغير الأمر المجرد بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه ومثل هذا قوله تعالى ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾ فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول وقال تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم مع كونه طيبات أحلت لهم فأي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه بأنه حرمه عليهم مع كونه طيبا في نفسه فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالا عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء فإنه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحسانا وإنعاما عليهم لآن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم ومآلهم إنما هو بفعل ما أمروا به وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم وليس مجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحمية لهم إذ لا بقاء لصحتهم ولا حفظ لها إلا بهذه **الحمية** فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغنى الحميد ولا حرم عليهم." (١)

"المخالفات أفضل، لأنه أشق وأصعب فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون قالوا ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شيء وأفضله قالوا ولأن ترك المحبوب الذى تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب اليه من نفسه وهواه بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك قالوا وأيضا فالمروءة والفتوة كلها في هذا الصبر.

قال الإمام أحمد: "الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى" فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر قالوا وليس العجب ممن يصبر على الأوامر فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى والنفس موكلة بحب العاجل

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٢/ ١٠

فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو اليها نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة وذلك أشق شيء على النفوس وأمره قالوا فالمناهى من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها والحمية مع قيام داعى التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه قالو أو لذلك كان باب قربان النهى مسدودا كله وباب الامر انما يفعل منه المستطاع كما قال النبي: "اذا أمرتكم بأمر فاءتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " فدل على ان باب المنهيات أضيق من باب المأمورات وانه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر قالوا ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حدا معينا فأعظم المأمورات الصلاة وقد اختلف العلماء هل على تاركها حد أم لا؟." (١)

"يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته

...

فأنت بالقلب لابالجسم انسان

وترك المنهى انما شرع له تحصيلا لهذا الأمر الذى هو ضرورى له وما أحوجه وافقره اليه.

الرابع: ان ترك المنهى من باب الحمية وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذى لاتقوم البنية بدونه ولا تحصل الحياة الا به فقد يعيش الإنسان مع تركه الحميه وان كان بدنه عليلا أشد ما يكون علة ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذى يحفظها فهذا مثل المأمورات والمنهيات.

الخامس: ان الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين ترك المأمور وفعل المحظور ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الايمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدا في السعير فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار إلى شيء وزن الجبال منه أضعافا مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

السادس: ان جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة الا بالشرك أو الوفاة عليه ولا خلاف بين الأمة ان كل محظور يسقط بالتوبة منه واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية وفي المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/٣٧

السابع: ان ذنب الاب كان يفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وذنب ابليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة.

الثامن ان المأمور محبوب إلى الرب والمنهى مكروه له وهو سبحانه انما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى." (١)

"يوضحه الوجه العشرون: أن المنهيات لو لم تصد عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذى أمر الله بها لم يكن للنهى عنها معنى وانما نهى عنها لمضادتها لأ٢وامره وتعويقها لها وصدها عنها فالنهى عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجرى في مجاريه غير معوق فالأمر بمنزلة الماء الذى أرسل في نهر لحياة البلاد والعباد والنهى بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء والأمر بمنزلة القوة والحياة والنهى بمنزلة **الحمية** الحافظة للقوة والداء والخادم لها

قالوا واذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور فإن الصبر الا على يتضمن الصبر الأدنى دون العكس وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين وان كان من الناس من قوة صبره على المقدور فإذا جاء الأمر والنهى فقوة صبره هناك ضعيفة ومنهم من هو بالعكس من ذلك ومنهم من قوة صبره في جانب الامر أقوى ومنهم من هو بالعكس والله أعلم." (٢)

"النساء﴾ فأخبر أن الحامل على ذلك مجرد الشهوة لا الحاجة فضلا عن الضرورة والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات **والحمية** عنها خشية إفضائها إلى مرض أصعب منها جار مجرى **الحمية** عن تناول ما يضر من الأطعمة والأشربة وذلك لا تدعو الضرورة إلى تناوله وإن كانت النفس قد تشتهيه فالقبلة والنظر والضم ونحوها جار مجرى تناول الفاكهة المضرة والزفرة المضر للمحموم ومن به مرض يضره معه تناول ذلك فإذا قال المريض أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيت الموت لم يكن صادقا في قوله وإنما الحامل له على ذلك مجرد الشهوة وربما زاد تناول ذلك في مرضه فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه فكيف يفسح الشارع الحكيم الذي شريعته غاية طب القلوب والأديان وبها تحفظ صحتها وتدفع موادها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء ويقويه ويمده هذا من المحال بل الشريعة تأمر **بالحمية** عن أسباب هذا الداء خوفا من استحكامه وتولد داء آخر أصعب منه وأما مسألة من خاف تشقق أنثييه وأنه يباح له الوطء

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/٣٩

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/٤٤

في رمضان فهذا ليس على إطلاقه بل إن أمكنه إخراج مائه بغير الوطء لم يجز له الوطء بلا نزاع وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح فإنه يجري مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضي ذلك اليوم والإفطار بالمرض لا يتوقف على خوف الهلاك فكيف إذا خاف تلف عضو من أعضائه القاتلة بل هذا نظير من اشتد عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داء من الأدواء أو يتلف عضو." (١)

"الباب الثاني والعشرون: في غيرة المحبين على أحبابهم

لما كان هذا الباب متصلا بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغيرة بحسب قوة المحبة وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده

وأصل الغيرة الحمية والأنفة والغيرة نوعان غيرة للمحبوب وغيرة عليه فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته وناله مكروه من عدوه فيغضب له المحب ويحمى وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه فهذه غيرة المحبين حقا وهي من غيرةالرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحل محارمه وعصى أمره

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحبوبه حتى يزول ما يكرهه فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبه ويمقته عليها أو يفعل ما يبغضه عليه ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويبغضها والدين كله في هذه الغيرة بل هي الدين وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغيرة ومتى خلت من القلب خلا من الدين فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب والغيرة تصفي القلب وتخرج خبثه كما يخرج الكير خبث الحديد." (٢)

"فصل والزنى يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة فلا تجد زانيا معه ورع ولا وفاء بعهد ولا صدق في حديث ولا محافظة على صديق ولا غيرة تامة على أهله فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة ومنها سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين ومنها ظلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له ومنها الفقر اللازم وفي أثر يقول الله

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٣٣

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٩٤

تعالى أنا الله مهلك الطغاة ومفقر الزناة ومنها أنه يذهب حرمة فاعله ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال هذه دائرة الإيمان ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها وقال هذه دائرة الإسلام فإذا زنى العبد خرج من هذه ولم يخرج من هذه ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له." (١)

"الثالث والثلاثون أن الهوى تخليط ومخالفته حمية ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب **الحمية** أن يصرعه داؤه قال عبد الملك بن قريب مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت ألا تمسح عينيك قال نهاني الطبيب عن ذلك ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر وإذا أمر لا يأتمر فقلت ألا تشتهي شيئا فقال بلى ولكني أحتمي إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم فهلكوا

الرابع والثلاثون أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق ويفتح عليه أبواب الخذلان فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا وقد سد على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه قال الفضيل ابن عياض من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق

وقال بعض العلماء الكفر في أربعة أشياء في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ثم قال رأيت منهن اثنتين رجلا غضب فقتل أمه ورجلا عشق فتنصر وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني ... فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت دع أحدهما تنل الآخر." (٢)

"يراه قد اجتمع همه كله على الله وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا والله المستعان

وههنا نكتة ينبغي التفطن لها وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة فالعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٦٠

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٧٩

وإن أزال منه شيئا ما فمدار الأمر على على شيئين **الحمية** واستعمال الأدوية

فصل

وأول ما يطرق القلب الخطرة فإن دفعها استراح مما بعدها وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة فإن عالجها وإلا صارت إرادة فإن عالجها وإلا صارت عزيمة ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها واقترن بها الفعل ولا بد وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح ولا ريب أن دفع مبادئ ه ذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله إن ساعد القدر وأعان التوفيق وإن الدفع أولى به وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة." (١)

"والتحسر والحرص والتنافس وإظهار النعمة والحلف والمسكنة والصمت والزهد والورع والتخلي والعزلة **والأنفة** **والحمية** والغيبة وفي الحديث أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يكرهه فالغيرة فالتي يحبها الله الغيرة في ريبة والتي يكرهها الغيرة في غير ريبة وإن من الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يكرهه فالتي يحب الخيلاء في الحرب وفي الصحيح أيضا لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطة على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها وفي الصحيح أيضا أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطى على العنف وفيه أيضا من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير فالرفق شيء والتواني والكسل شيء فإن التواني يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاوعة وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم والفرق بينهما أن المدارى يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب بخرقة ثم اله عنها فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها وهذا المثل أيضا مطابق

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٤٢٠

كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل إليها النافع ضارا والضار نافعا والحسن قبيحا والقبيح جميلا وهذا لعمرو الله من أعظم أنواع السحر ولهذا يقول سبحانه فأنى تسحرون والذي نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم بالاستعاذة من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان

رضيعي لبان ثدى أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا ننفرق." (١)

"أن يسجد بين يدي ربه إجلالا وذلا وانكسارا بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره وربا فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء فهذا خشوع الإيمان وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعا ومراءاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة

فصل وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي

تقطع أعناق الرجال فيربأ بنفسه عن أن يلقيها في ذلك بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين إعجابه بنفسه وازدرائه بغيره فيتولد من بين هذين التيه والأول يتولد من بين خلقين كريمين إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيا وضيعا خسيسا فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها وأصل هذا كله استعداد وتهيؤها وإمداد وليها ومولاها لها فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله

فصل وكذلك الفرق بين **الحمية** والجفاء **فالحمية** فطام النفس عن رضاع اللوم

من ثدي هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه فإن لهم فطاما تنقطع معه الأكباد حسرات فلا بد من الفطام فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور وإن شئت أخر وأنت غير مأجور بخلاف الجفاء فإنه غلظة في النفس وقساوة في القلب وكثافة في الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء

فصل والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله

---

(١) الروح ابن القيم ص/٢٣١

سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقا بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه." (١)

"وأما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعة لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة وفي الصحيح عنه وأوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد والتواضع المحمود على نوعين

النوع الأول تواضع العبد عند أمر الله امتثالا وعند نهيه اجتنابا فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هربا من العبودية وتثبت عند نهيه طلبا للظفر بما منع منه فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية

والنوع الثاني تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان

فصل وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى

يقيمها الله والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقى على قلبه وكان رسول الله إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا وهذا بخلاف

---

(١) الروح ابن القيم ص/٢٣٣

الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه فإن الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ." (١)

"إذا بل من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ [الإسراء: ٨٢] والأظهر أن "من" هاهنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين.

فصل: فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إدراكه لضعف فى آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه، كما يدرك الحلو مرا، والخبيث طيبا، والطيب خبيثا.

وأما فساد حركته الطبيعية: فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة.

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال: إما فساد فى الكمية أو فى الكيفية.

فالأول: إما لنقص فى المادة، فيحتاج إلى زيادتها، وإما لزيادة فيها، فيحتاج إلى نقصانها.

والثانى: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعى، فيداوى بمقتضى ذلك، ومدار الصحة على حفظ القوة، والحمية عن المؤذى، واستفراغ المواد الفاسدة. ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة، وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة.." (٢)

"فأما حفظ القوة: فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا فى رمضان، ويقضى المسافر إذا قدم، والمريض إذا برئ، حفظا لقوتهما عليهما، فإن الصوم يزيد المريض ضعفا، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر، والصوم يضعفها.

---

(١) الروح ابن القيم ص/٢٣٤

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١٦/١

وأما الحمية عن المؤذى: فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل، إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم، حمية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذى له فى باطنه.

وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه سبحانه أباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا، أو كما قال.

وإذا عرف هذا، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذى الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصى، وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات. ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب، ولهذا يفسر المرض الذى يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى:

﴿فى قلوبهم مرض﴾ [البقرة: ١٠] . أى شك.

وتارة بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى:

﴿فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾ [الأحزاب: ٣٢] .." (١)

"الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعى، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل ليس بقابل إلا اللبن.

وعاد الفتى كالطفل، ليس بقابل ... سوى المحض شيئا، واستراحت عواذله

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه. وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى؛ فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصله به تمام المقصود، وكذلك

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١٧/١

الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بد من ذكر هذا وهذا، فنقول:." (١)

"الذنوب، وأنس بها، وعسر عليها فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن **الحمية** أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

قال ابن أبى الدنيا: حدثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال: "كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب يوما، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتى، ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفى كل يوم آلاف من الذنوب؟. ثم خرج مغشيا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: "يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى"".

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح. ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية. ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى. ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولم فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لم فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثانى سؤال عن المتابعة، وقال تعالى:

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] وقال تعالى ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ [الأعراف: ٦ - ٧] وقال تعالى ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ [الأحزاب: ٨] .

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟.

قال مقاتل: "يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين، يعني النبيين، عن تبليغ الرسالة". وقال مجاهد: "يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل، يعني: هل بلغوا عنهم كما يسأل الرسل، هل بلغوا عن الله تعالى؟ ".

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل، والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغتهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين، كما

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٤٦

قال تعالى:

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ [القصص: ٦٥] .." (١)

"الرابع: الاحتيال على فعل المحلوف عليه، بتغيير اسمه، أو صفته. أو نقله من مالك إلى مالك، ونحو ذلك.

فإذا غلبوا عن شئ من هذه الحيل الأربعة فزعوا إلى التيس المستعار، فاستأجروه ليسفد ويأخذ على سفاده أجرا.

فليوازن من يعلم أنه موقوف بين يدى الله تعالى ومسئول، بين هذه الطرق وتلك الطرق التى قبلها. وليقم لله ناظرا، ومناظرا متجردا من العصبية والحمية، فإنه لا يكاد يخفى عليه الصواب، والله ولى التوفيق.

فصل

وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث﴾ [ص: ٤٤] .

فمن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط، فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر فى يمينه.

هذا قول أصحاب أبى حنيفة، ومالك، وأصحاب أحمد.

وقال الشافعى: إن علم أنها مسته كلها بر فى يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر. وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجبا لبر الحالف لسقط عن الزانى والقاذف والشارب تعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط، أو ثمانين، ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجزئ فى حق المريض، كما قال الإمام أحمد فى المريض عليه الحد "يضرب بعثكال يسقط عنه الحد".

واحتج بما رواه عن أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: "كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدع، فلم يرع الحى إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان ذلك الرجل." (٢)

"والمحرمات الثانية حميتها عن المكروهات الثالثة الحمية عن الفضول وما لا يعني فالأولى تعطي العبد حياته والثانية تفيده صحته وقوته والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته

غموض الحق حين تذب عنه ... يقلل ناصر الخصم المحق

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٨٣/١

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٩٧/٢

تضل عن الدقيق فهو م قوم ... فتقضي للمجل على المدق

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه ... لابي ولا يشفع لي من الناس

إذا أيست وكاد اليأس يقطعني ... جاء الرجا مسرعا من جانب اليأس

من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ومن خلقه للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات لما طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد أحدها مشهد التوحيد وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن الثاني مشهد العدل وأنه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه الثالث مشهد الرحمة وأن رحمته في هذا المقدور غالبه لغضبه وانتقامه ورحمته حشوه الرابع مشهد الحكمة وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا الخامس مشهد الحمد وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه السادس مشهد العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه

قلة التوفيق وفساد الرأي وخفاء الحق وفساد القلب وخمول الذكر وإضاعة الوقت ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه ومنع إجابة الدعاء وقسوة القلب ومحق البركة في الرزق والعمر وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق." (١)

"روائح ولخلوف فم الصائم فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شره يا آدم ضحكك في الجنة لك وبكاؤك في دار التكليف لنا ما ضر من كسره عزي إذا جبره فضلي إنما تليق خلعة العز ببدن الانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي مازالت تلك الأكلة تعاده حتى استولى داؤه على أولاده فأرسل إليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدي أطباء الوجود فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى فحماهم الطبيب بالمناهي وحفظ القوة بالأوامر واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة فجاءت العافية من كل ناحية

فيا من ضيع القوة ولم يحفظها وخلط في مرضه وما احتمى ولا صبر على مرارة الاستفراغ لا تنكر قرب الهلاك فالداء مترام إلى الفساد لو ساعد القدر فأعنت الطبيب على نفسك **بالحمية** من شهوة خسيسة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات ولك بخار الشهوة غطى عين البصيرة فظننت أن الحزم بيع الوعد

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٣٢

بالنقد يالها بصيرة عمياء جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد سافرت في طلب الدنيا وهي عنها زائلة وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهي إليها راحلة إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير فاعلم بأنه سفيه

فصل لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب ابن آدم لو
لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة لما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصدا لمخالفته ولا قدحا في حكمته علمه كيف يعتذر إليه فتلقى آدم م ربه كلمات فتاب عليه العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ولا الجرأة على محارمه ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان وقهر الهوى والثقة بالعفو ورجاء المغفرة هذا من جانب العبد وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم وإظهار عز الربوبية وذل العبودية وكمال الاحتياج وظهور آثار الأسماء الحسنى." (١)

"﴿كان مختالا فخورا﴾ ونظائره وأخبر في موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها كقوله ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾ وقوله ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾
إذا عرف هذا ففعل ما يحبه سبحانه مقصود بالذات ولهذا يقدر ما يكرهه ويسخطه لإفضائه إلى ما يحب كما قدر المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء وحصول التوبة من العبد والتضرع إليه والاستكانة وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه وحصول المولاة والمعاداة لأجله وغير ذلك من الآثار التي وجودها بسبب تقديره ما يكره أحب إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها وهو سبحانه لا يقدر ما يحب لإفضائه إلى حصول ما يكرهه ويسخطه كما يقدر ما يكرهه لإفضائه إلى ما يحبه فعلم أن فعل ما يحبه أحب إليه مما يكرهه يوضحه الوجه الرابع أن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهي مقصود لتكميل فعل المأمور فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه كما نبه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كمالها فالنهي عنها من باب المقصود لغيره والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه يوضحه الوجه الخامس أن فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال وحفظ القوة مقدم على الحمية فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة فالحمية مراد لغيرها وهو

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٦٦

حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها ولهذا كلما قويت قوة الإيمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة فتأمل هذا الوجه الوجه السادس أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئا من ذلك فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم." (١)

"فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة **والأنفة** من الرذائل والنقائص وهذا كماله فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال **والأنفة** أن يتقدم عليه نظيره فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس قال النبي لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفا وعجزا ومهانة وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها فمتى زاد على ذلك صار توانيا وكسلا وإضاعة وفات به أكثر مصالح العبد ومتى نقص عنه صار مضرا بالقوى موهنا لها وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهر أبقى والجود له حد بين طرفين فمتى جاوز حده صار إسرافا وتبذيرا أو متى نقص عنه كان بخلا وتقتيرا وللشجاعة حد متى جاوزته صارت تهورا ومتى نقصت عنه صارت جبنا وخورا وحدها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام كما قال معاوية لعمرو بن العاص أعياني أن أعرف أشجاعا أنت أم جبانا تقدم حتى أقول من أشجع الناس وتجبن حتى أقول من أجبن الناس فقال." (٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٢٠

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٤٠

"البنيان سهل تداركه وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط قال تعالى أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرا من الآفات وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس وهذا الأساس أمران صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته والثاني تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلي البناء ما شاء فاحكم الأساس واحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ إذا زاد بك الخلط والقصد القصد وقد بلغت المراد وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوما

فاقر السلام على الحياة فإنها ... قد آذنتك بسرعة التوديع

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة ثم ارخ الستور على أبوابه ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته ثم ركب له مفتاحا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه فإن فتحت فتحت بالمفتاح وإن أغلقت الباب أغلقته به فتكون حينئذ قد بنيت حصنا تحصنت فيه من أعدائك إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلا فييأس منك ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب فإن أهملت أمره وصل إليك النقب فإذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك إخراجه وتكون معه على." (١)

"وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما.

وعقوباب في دار البرزخ (١) بعد الموت. وعقوباب يوم حشر الأجساد.

فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو (٢) فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم. فترتب العقوبات على الذنوب (٣) كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار (٤)، والإغراق على الماء، وفساد البدن

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٥٦

على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرة للذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة (٥)، كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه.

وكثيرا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئا فشيئا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة. فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية و إلا (٦) فهو صائر إلى الهلاك. هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم (٧) وكل ساعة؟ فالله المستعان.

---

(١) ف: "وعقوبات دار البرزخ".

(٢) "هو" ساقط من ف.

(٣) "على" ساقط من س.

(٤) كذا في جميع النسخ، ومقتضى السياق: "والانكسار على الكسر".

(٥) س: "أو مدة". ونحوه في ل، ز مع تحريف.

(٦) "وإلا" ساقط من س.

(٧) س: "بالذنب على كل يوم"، فأسقط كلمة "الذنب" الثانية.." [١]

"فصل [في ما يمرض الجسم]

وأربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير، والنوم الكثير، والأكل الكثير، والجماع الكثير.

فالكلام الكثير يقلل مخ الدماغ ويضعفه، ويعجل الشيب.

والنوم الكثير يصفر الوجه، ويعمي القلب، ويهيج العين، ويكسل عن العمل، ويولد الرطوبات في البدن.

والأكل الكثير يفسد فم المعدة، ويضعف الجسم، ويولد الرياح الغليظة، والأدواء العسرة.

والجماع الكثير: يهد البدن، ويضعف القوى، ويجفف رطوبات البدن، ويرخي العصب، ويورث السدد، ويعم ضرره جميع البدن، ويخص الدماغ لكثرة ما يتحلل به من الروح النفساني، وإضعافه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات، ويستفرغ من جوهر الروح شيئا كثيرا.

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوة صادقة من صورة جميلة حديثة السن حلالا مع سن الشبوبية، وحرارة المزاج ورطوبته، وبعد العهد به وخلاء القلب من الشواغل النفسانية، ولم يفرط فيه، ولم يقارنه ما ينبغي تركه

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٢٧٢

معه من امتلاء مفرط، أو خواء، أو استفراغ، أو رياضة تامة، أو حر مفرط، أو برد مفرط، فإذا راعى فيه هذه الأمور العشرة، انتفع به جدا، وأيها فقد فقد حصل له من الضرر بحسبه، وإن فقدت كلها أو أكثرها، فهو الهلاك المعجل.

فصل [في الحمية المفرطة]

والحمية المفرطة في الصحة. كالتخليط في المرض، والحمية المعتدلة نافعة." [١]

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٣١٣

فصل في علاج القمل الذي في الرأس وإزالته ١١٩

فصل في العلاج لكل شكوى بالرقية الإلية ١٣١

فصل في رقية اللديغ بالفاتحة ١٣٢

فصل في علاج لدغة العقرب بالرقية ١٣٥

فصل في علاج رقية النملة ١٣٨." (١)

"وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله **والحمية** لدينه فتنة وشرا وفضولا فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيما وتشبيها وتمثيلا ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيبا ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزا وتجسيما ويسمون العرش حيزا وجهة ويسمون الصفات أعراضا والأفعال حوادث والوجه واليدين أبعاضا والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضا فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة الشنيعة تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه فقالوا للأغمار والأغفال اعلموا أن ربكم منزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه فلم يشك أحد لله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك وقد اصطلحوا على تسمية سمعه وبصره وعلمه وقدرته وإرادته وحياته أعراضا وعلى تسمية وجهه الكريم ويديه المبسوطتين أبعاضا وعلى تسمية استوائه على عرشه وعلوه على خلقه وأنه فوق عباده تحيزا وعلى تسمية نزوله إلى سماء الدنيا." (٢)

"وهدى يقر بعضهم بعضا عليه ويواليه ويناصره وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره وأدركه قوة بصيرته فإذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقاويل المتباينة وعرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب الله وسنة رسوله وتجرد الناظر عن التعصب **والحمية** واستفرغ وسعه وقصد طاعة الله ورسوله فقل أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال وما هو أقرب إليه والخطأ وما هو أقرب إليه فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه والخطأ وما هو أقرب إليه ومراتب القرب والبعد متفاوتة.

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٣١٩

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٢/٤٣٩

وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقا في الكلمة ولا تبديدا للشمل فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع كالجد مع الإخوة وعتق أم الولد بموت سيدها ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة." (١)

"الوجه السادس والستون: إن هؤلاء في معارضتهم للوحي سلكوا طريقا سحروا بها عقول ضعفاء الناس وبصائرهم فشبهت عليهم وخيل إليهم أنها حق فأصابهم في ذلك مثل ما أصاب السحرة حين عارضوا عصى موسى بما خيل إلى أبصار الناظرين أنه حق فإن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة تحتها معاني مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة وأدخلوا فيها من المعاني غير المفهوم منها في لغات الأمم ثم ركبوها وألفوها تأليفا طويلا بنوا بعضه على بعض ففكروا فيه وقدروا وأطالوا التفكير والتقدير ثم عظموا قولهم وهولوه في نفوس من لم يفهمه ولا ريب أن فيه دقة وغموضا لما فيه من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة فإذا دخل معهم الطالب وسمع منهم ما تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم قالوا له أنت لا تفهم هذا وهذا لا يصلح لك وهذا أمر قد صقلته الأذهان على تطاول الأزمان وتلقته العقول بالقبول والتسليم وفزعت إليه عند التخاصم و التحاكم فيبقى ما في النفوس من **الحمية** والإلفة يحملها على تسليم تلك الأمور قبل تحقيقها وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل فيأخذها مسلمة فإذا جاءت لوازمها لم يجد بدا من التزامها ويرى أن التزام." (٢)

"عليه، إلا أنه لم يطبع له -رحمه الله- سوى نظم: "**الحمية** الإسلامية للانتصار لمذهب ابن تيمية" - وهو غير مشهور -.

عملي في المخطوط:

١ - قمت بنسخه، وتصحيحه.

٢ - قمت بإثبات ما وجدته من تصويبات على هامش المخطوط، وأشرت في هامش التحقيق إلى الفروق بين الأصل، والتصويب.

٣ - قمت بوضع عناوين، وتقاسيم للمنظومة لتقريبها للقارئ، وتيسيرا للإفادة منها.

٤ - ضبط، وشكل ألفاظه (١)، مع ترقيم الأبيات؛ ليسهل تناولها على القارئ.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٢/٥١٧

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٣/٩٩٥

٥ – التعليق، والتوضيح لما أشكل، أو استغلق من ألفاظه، وذلك بإتباع ما يلي:
أ – ذكر الأدلة الشرعية التي تعضد ما ذهب إليه الناظم.
ب – شرح غريب الألفاظ بالرجوع إلى كتب المعاجم، والغريب.
ج – تقريب المعنى الذي يقصده الناظم فيما أشكل من أبيات، مع البعد عن التكلف، والغلو.
د – التعليق على ما يظهر أن الناظم قد جانبه فيه الصواب، مع محاولة تحميل كلام الناظم على أفضل محامله، على أن يكون ذلك مدعوما بالأدلة الشرعية، ومشفوعا بكلام أهل العلم.
هـ – وقد راعيت أثناء كتابتي للتعليقات عدم الإسهاب الممل، وعدم التعليق إلا عند الحاجة؛ حتى لا يطول الكتاب بما لا فائدة فيه، أو بما يستغنى عنه.

---

(١) وقد عاونني في ذلك بعض الإخوة الذين لهم دراية أكثر مني بعلم العروض، فجزاهم الله خيرا، كما أن بعضهم قد ذكر لي أن هذه المنظومة من البحر الطويل، ثم أخذ يتكلم عن صوره، وعن الضرورات الشعرية في المنظومة، إلا أنني أعرضت عن ذكر كل هذا، لأنني لست أهلا للكتابة في هذا العلم، ولا أستطيع تمييز الصواب من الخطأ فيه، وقد رأيت أن ذكره لا يفيد الغالبية من طلاب العلم. ولعل بعض البلاغيين يسد هذا الخلل فيما بعد. فهذا جهد المقل، فيما ظن أنه يحسنه، وكما قيل: ما لا يدرك كله، لا يترك جله، والله المستعان.." (١)

"وقف عليها، وفهمها فرآها موافقة للعقل السليم، وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه في أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك، وظفر بالمرام.
ومن أراد اختبار صحة ما قلته فليقف بعين الإنصاف العرية عن الحسد، والانحراف أن شاء على مختصراته في هذا الشأن كـ: شرح العقيدة الاصبهانية، ونحوها، وإن شاء على مطولاته كـ: تخليص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج الاستقامة والاعتدال، فإنه – والله – يظفر بالحق، والبيان، ويستمسك بأوضح برهان، ويزن حينئذ في ذلك بأصح ميزان ...].

تلاميذه:
وقد أخذ عن الناظم – رحمه الله – ابن رافع مع تقدمه، وذكره في معجمه، وحدث عنه، ومات قبله.

---

(١) نهج الرشاد في نظم الاعتقاد السرمري، جمال الدين ص/٤

وروى عن أيضا جماعة منهم ابنه إبراهيم.

ثناء العلماء عليه:

قال ابن ناصر الدين في الرد الوافر: الشيخ الامام العلامة الحافظ البركة القدوة ذو الفنون البديعة والمصنفات النافعة ... وكان إماما ثقة عمدة زاهدا عابدا محسنا جهده، صنف في أنواع كثيرة نثرا ونظما وخرج وأفاد وأملى رواية وعلما ... وكان عمدة في نقد رجال الحديث وضبطه.

وقال الذهبي: وله معرفة بالمذهب، ونظم جيد في علوم الحديث، وغيرها.

وقال ابن العماد في شذرات الذهب: الشيخ العالم المفنن الحافظ.

وقال أبو المحاسن الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ: الإمام العلامة الحافظ جمال الدين أبو المظفر ... وكان عمدة ثقة ذا فنون إماما علامة له مصنفات عدة في أنواع كثيرة نثرا، ونظما خرج، وأفاد، وأملى رواية، وعلما.

وقال كحالة في معجم المؤلفين: محدث، حافظ، فقيه، فرضي، نحوي، ناظم، مشارك في غير ذلك.

وقال الزركلي في الأعلام: حافظ للحديث، من علماء الحنابلة.

مصنفاته (١):

---

(١) وكل مصنفاته مخطوطه - على حسب علمي - ولم يطبع له سوى نظم: (الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية) فقد قام بطبعه: مجمع البحوث العلمية الإسلامية بالهند، وقدم له، وعلق عليه: صلاح الدين مقبول أحمد، مع رسالة: قصيدة في الرد على التقي السبكي والدفاع عن بن تيمية لأبي عبد الله بن يوسف الشافعي. ولكنه غير مشهور، ولم أقف عليه.." (١)

"قال ابن حجي رأيت بخطه ما صورته: مؤلفاتي تزيد على مائة مصنف كبار، وصغار في بضعة، وعشرين علما، ذكرتها على حرف المعجم في "الروضة المورقة في الترجمة المونقة".

ومن مصنفاته:

١ - إحكام الذريعة، إلى أحكام الشريعة.

---

(١) نهج الرشاد في نظم الاعتقاد السرمري، جمال الدين ص/١٠

٢ - الأربعين الصحيحة في الحديث.

٣ - الأربعين الصحيحة فيما دون أجر المنيحة.

٤ - الأرجوزة الجلية في الفرائد الحنبلية.

٥ - الإفادات المنظومة في العبادات المختومة.

٦ - تخريج الأحاديث الثمانيات.

٧ - الثمانيات.

٨ - **الحمية** الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية (نظم).

٩ - الخصائص والمفاخر لمعرفة الأوائل والأواخر.

١٠ - ذكر القلب الميت بفضائل أهل البيت.

١١ - رسالة الجراد وما في شانه من الصلاح والفساد.

١٢ - شرح اللؤلؤة في علم العربية.

١٣ - شفاء الآلام في طب أهل الإسلام.

١٤ - صحاح الأحكام وسلاح الحكام. قال حاجي خليفة في كشف الظنون: قد ... جمعه: في قوله عليه الصلاة و ا لسلام: (بني الإسلام على خمس ... الخ).

١٥ - عجائب الاتفاق وغرائب ما وقع في الآفاق.

١٦ - عجايب الآفاق (١).

١٧ - عقود (٢) اللآلي في الأمالي.

---

(١) ولعله والذي قبله كتاب واحد، والله أعلم بالصواب.

(٢) وسماه بعضهم: عقد، وبعضهم: عنقود.." (١)

"إليها حتى أصاب الحائط وجهه فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر فقال أنت عبد أراد الله بك خيرا ثم قال إن الله إذا أراد بعبده شرا أمسك ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة

يا قوم قلوبكم على أصل الطهارة وإنما أصابها رشاش من نجاسة الذنوب فرشوا عليها قليلا من دموع العيون وقد طهرت

---

(١) نهج الرشاد في نظم الاعتقاد السرمري، جمال الدين ص/١١

اعزموا على فطام النفوس عن رضاع الهوى **فالحمية** رأس الدواء متى طالبتكم بمألوفاتها فقولوا مقالة تلك المرأة لذلك الرجل الذي دمي وجهه أذهب الله الشرك وجاء بالإسلام والإسلام يقتضي الإستسلام والإنقياد للطاعة

ذكروها مدحة ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ تحن إلى الاستقامة

عرفوها اطلاع من هو أقرب إليها من حبل الوريد لعلها تستحي من قربه ونظره ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾." (١)

"(يريد المرء أن يعطي مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا)

والبيت عربي فصيح من شعر الحماسة وعلى الجملة أن هذا نقل لمذهب الأشعرية من بصير به بل من إمام فيه فقد صح أن هذا مذهبهم سواء كان صحيحا أو باطلا قويا أو ضعيفا وعبارتهم في جميع تصرفاتهم في تأويل الآيات والأحاديث مخالفة لهذا ومصرحة بارادة المعاصي فحين علمنا أن هذا حقيقة قولهم وإن ذلك مجاز لم نوجب حملها على الحقيقة بل لم نجوز ذلك كما أن الزمخشري قال إن الله يأمر بالفسق مجازا في تفسير قوله تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ ومع ذلك لا يحل لمسلم أن يحمله على الحقيقة لما كان قد نص على أن ذلك مجاز فكذلك هؤلاء ولكن هذا منهم مجرد لجاج وشدة مراء وجدل قابلوا به ما وقع من خصومهم من مثل ذلك وقد نهى الله تعالى عن التفريق بنص القرآن وإجماع المسلمين فواجب على كل من عرف هذا من الفريقين ترك هذه العادة ا لمكروهة في ابتداع العبارات المفرقة بين الجماعة والمخالفة للطاعة ولذلك نهى الامام ابراهيم بن عبد الله بن الحسن عن تسمية الفرق بهذه الاسماء المبتدعة وأمر أن يسموا بالمسلمين فانهم إذا اجتمعوا في ذلك بهذه الاسماء المبتدعة وأمر أن يسموا بالمسلمين فانهم إذا اجتمعوا في ذلك كان أدعى إلى محو آثار **الحمية** وترك التعادي والعصبية ولذلك أثنى الله تعالى على الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم

وقد كنت هممت أن أقتصر على هذا البحث في هذه المسألة ثم رجوت أن يكون في ذكر سائر المباحث مزيد فائدة وإلا فهذا أنفعها وأجلها وهو يكفي صاحب الجمل إن شاء الله تعالى وقد بالغ في تحريم التفرق وترك التكفير بالاختلاف في مسائل الكلام محمد بن منصور الكوفي محب أهل البيت وصنف فيه كتاب الجملة والالفة فأجاد رحمه الله تعالى ونقل فيه القول المفيدة عن كبراء أهل البيت عليهم السلام باختيار

---

(١) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها ابن رجب الحنبلي ص/٤٨

ذلك ونقل صاحب الجامع الكافي منه جملة شافية في آخره ينبغي معرفتها ذكرها في مسألة القرآن ومذاهب الناس فيه." (١)

"فأما قبول الخبر النبوي في الأحكام؛ فمقبول من المرأة الصحابية وإن لم تعرف، بدليل هذا الحديث وغيره.

الأثر الثامن: أن الكافر كان يأتي النبي – صلى الله عليه وسلم – فيسلم، فيأمره النبي – صلى الله عليه وسلم –[أن يذهب] (١) إلى [قومه] (٢) داعيا لهم إلى الإسلام ومعلما لهم ما علمه النبي – صلى الله عليه وسلم – من شرائع الإسلام، وهذا موجود في السيرة، لكنها لم تحضرني فأنقله بلفظه (٣).

ومثل هذا له شواهد كثيرة يعرفها من طالع السيرة النبوية، وفيه دلالة على عدالة الداخل في الإسلام، وإلا لوجب أن يبين له النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه لا يحل لقومه أن يتعلموا منه شيئا حتى يختبروه بعد إسلامه، وفي هذا الأثر وفي السابع إشارة إلى آثار كثيرة، والله أعلم.

وأما النظر: فلأن العدل من ظهر عليه من القرائن ما يدل على الديانة والأمانة دلالة ظنية. [إذ] (٤) لا طريق إلى العلم بالبواطن؛ وهذا ظاهر في الصحابة، فإنهم كما قال المنصور بالله: ((لولا ثقل موازينهم في الشرف والدين ما تبعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومالوا عن إلف دين الآباء، والأتراب والقرباء إلى أمر شاق على القلوب، ثقيل على النفوس، لا سيما وهم في ذلك الزمان أهل **الأنفة** العظيمة **والحمية** الكبيرة،

---

(١) ما بين المعكوفين سقط من (أ) و (ي) ، والمثبت من (س).

(٢) في (أ) و (ي): ((قوم)) ، والتصويب من (س).

(٣) كما في قصة الطفيل بن عمرو الدوسي في ((الصحيح)) ، وقصة إسلام أبي ذر الغفاري في ((الصحيحين)) وغيرها.

(٤) من (ي) و (س) ، وفي (أ): ((و)).." (٢)

"بالمعاصي.

والجواب: أنه مخصوص بالإجماع على رده، وهذا لا يبطل العلة لأنه تخصيص، وتخصيص العلة جائز كما في تعليل وجوب القصاص بالقتل العمد العدوان، مع أنه يخص من ذلك الأب إذا قتله ابنه عمدا عدوانا،

---

(١) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات ابن الوزير ص/٢٥٤

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم – صلى الله عليه وسلم – ابن الوزير ١٠٩/١

فإنه لا يقتل به قصاصا، وإن كانت علة وجوب القصاص قد وجدت فيه للدليل الذي خصه، ولابد للمخالف من تخصيص العلة، فإن من علل بالعدالة خصص من العدول سيء الحفظ الذي خطؤه أكثر من صوابه.

وقد ذكرنا أن قوله تعالى: ((أو آخران من غيركم)) [المائدة/١٠٦] حجة ظاهرة على جواز تخصيص العلة، على أن الشيخ العلامة عز الدين بن عبد السلام قد روى خلافا في قبول فاسق التصريح المظنون صدقه، فروى عن الإمام الأعظم أبي حنيفة – رضي الله عنه –: أن فاسق التصريح متى كان معروفا بالصدق مشهورا **بالأنفة** العظيمة من رذيلة الكذب، بحيث أنه اختبر في ذلك وعرف منه أنه يجتنبه كما يجتنب المؤمن الحرام قبلت شهادته، ذكره في كتاب ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) (١) وبه قال المنصور بالله من أئمة الزيدية، وشرط في جواز قبوله خلو الأرض –التي يقبل فيها– عن وجود أهل العدالة؛ لأنه قاس ذلك على جواز قبول الكافر في السفر عند عدم المسلمين.

واحتج سائر أهل العلم على المنع من قبول المصرحين: بأن

---

(١) بمعناه، (٢/ ٨٩).." [1]

"وازع المصرح عن (١) الكذب إنما هو الحياء عن (٢) ظهور هذه الرذيلة عليه **والأنفة** من ذلك، وهذا الوازع وإن عظم فإنه /لا يقوم مقام وازع التقوى والمراقبة لله تعالى، لأن خوف العار وحب المحمدة يضعف فيما يخفى ويظن صاحبه أنه لا ينكشف للناس، والوازع الأخروي، والحياء من الله، والخوف من غضبه وعقوبته مستو في الباطن والظاهر، والفاسق المصرح وإن حصل بخبره ظن، فالظن بخبر الثقة من أهل العدالة أقوى، ولا يمنع أن يرد الشرع باعتبار ظن دون ظن في حقوق الله تعالى لزيادة قوة أحدهما على الآخر، كما ورد باعتبار ذلك في حقوق المخلوقين لهذه العلة، فوجب الحكم بالظن الصادر عن شهادة عدلين دون الظن الصادر عن شهادة عدلتين، وكذلك حقوق الله تعالى فلا يمنع وجوب قبول الظن الصادر عن العدل دون غيره، ولكن هذا خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل، وذلك الدليل هو قوله تعالى: ((شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم)) [المائدة/١٠٦] ، وقوله تعالى: ((ممن ترضون من الشهداء)) [البقرة/٢٨٢] ونحو ذلك مما ورد في السنة النبوية، فلهذا تركنا الفاسق والكافر المصرحين.

وأما الفرق بين الكافر والفاسق تأويلا، وقبول الفاسق دون الكافر فضعيف؛ لأن التأويل إن أثر في القبول

---

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم – صلى الله عليه وسلم – ابن الوزير ٢/٥٠٣

لعلة ظن الصدق اعتبر فيهما معا، وإلا لم يعتبر، وأما من لم يقبل الدعاة منهم فله وجهان:

---

(١) في نسخة: ((من)).

(٢) في (س): ((من))..." [١]

"التأويل، وفيهم من هو كافر تأويل عند جمهور المعتزلة والشيعة، وفيهم من يقبل الفاسق المصرح إذا عرف بالصدق **والأنفة** من الكذب، ولقد روي هذا عن الإمام الأعظم أبي حنيفة - رضي الله عنه - كما قدمنا ذكر ذلك.

وقبول المرسل على هذه الصفة، أعظم مفسدة وأدخل في قبول الأكاذيب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فينبغي للعاقل أن ينظر في عيب القريب وعيب الصديق، كما ينظر في عيب الخصم والبعيد، نسأل الله التوفيق لذلك آمين آمين.

وأما حديث عمرو بن العاص فله في الأحكام عشرة أحاديث:

الأول: في النهي عن صيام أيام التشريق، رواه عنه أبو داود (١) وله شواهد؛ فرواه أبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر (٢) ، ومسلم عن نبيشة الهذلي (٣) ، ومسلم (٤) ومالك في ((الموطأ)) (٥) عن

---

(١) ((السنن)): (٢/ ٨٠٣) ، والنسائي في ((الكبرى)) كما في ((التحفة)): (٨/ ١٥٢).

(٢) أبو داود: (٢/ ٨٠٤) ، والترمذي: (٣/ ١٤٣) ، والنسائي: (٥/ ٢٥٢) ، وقال الترمذي: ((حديث حسن صحيح)).

(٣) ((الصحيح)) برقم (١١٤١).

(٤) ليس في نسخ الصحيح المشهورة، وذكر خلف الواسطي أن مسلما أخرجه. انظر ((تحفة الأشراف)): (٤/ ٣١١ - ٣١٢).

(٥) ليس هو في ((الموطأ)) من رواية عبد الله بن حذافة. وهو فيه: (٢/ ٤٨٤) من طريق عبد الله بن واقد مرسلا.." [٢]

---

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم - ابن الوزير ٢/٥٠٤

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم - ابن الوزير ٢/٥٤٣

"المعتزلة: لا تصح العبادة بقصد دفع العقاب، وطلب الثواب، فكيف يقال: من لم يخف، قال الزور، وارتكب الفجور؟! هذا كلام من لم يتأمل، فقد علمنا بالضرورة أن في المرجئة عبادا خاشعين، ورهبانا خائفين مشفقين حزنا، باكين صائمين قائمين، وكثير منا إذا نظرت أخس منهم في الأحوال لا في العقيدة ولله الحمد، وذلك لأن من صبر على مشاق الطاعات، وترك الشهوات من غير خوف العذاب، فهو شريف النفس، حر الطبيعة، عزيز الهمة، عظيم المروءة، كثير **الأنفة** من دناءة المعاصي، شديد الحياء من الله تعالى، ومن لا يقوم إلى الطاعة حتى

= وسؤالهم، والثناء عليهم بخوفهم من النار ورجائهم للجنة، فقد قال تعالى في حق خواص عباده ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ وقال عن أنبيائه ورسله ﴿وزكريا إذ نادى ربه .... إلى أن قال ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: رغبا فيما عندنا. ورهبا من عذابنا، والضمير في قوله ﴿إنهم﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين، وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها استعاذتهم به من النار، فقال تعالى ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما (٦٥) إنها ساءت مستقرا ومقاما﴾ وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ فجعلوا أعظم وسائلهم إليه وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وقال عن خليله إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢) رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين (٨٣) واجعل لي لسان صدق في الآخرين (٨٤) واجعلني من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لأبي إنه كان من الضالين (٨٦) ولا تخزني يوم يبعثون (٨٧) يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث.

وفي السنة الصحيحة نصوص كثيرة فيها الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار، والخوف منها.

وقالوا: كيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولا، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحرض عليه، ويقول: " من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية " و" من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة " و" من كسا مسلما على عري كساه الله من حلل الجنة " و" عائد المريض في

خرفة الجنة " والحديث مملوء من ذلك، أفتراه يحرض المؤمنين على مطب معلول ناقص، ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه ....." (١)

"إلى قولهم إن عمر رضي الله عنه قاد عليا بحمائل سيفه وحصر فاطمة فهابت فأسقطت ولدا اسمه المحسن فقصدوا بهذه الفرية القبيحة والغباوة التي أورثتهم العار والبوار والفضيحة إيغار الصدور على عمر رضي الله عنه ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة علي رضي الله عنه إلى الذل والعجز والخور بل ونسبة جميع بني هاشم وهم أهل النخوة والنجدة **والأنفة** إلى ذلك العار اللاحق بهم الذي لا أقبح منه عليهم بل ونسبة جميع الصحابة رضي الله عنهم إلى ذلك وكيف يسع من له أدنى ذوق أن ينسبهم إلى ذلك مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته حتى قاتلوا وقتلوا الآباء والأبناء في طلب مرضاته ولا يتوهم إلحاق أدنى نقص أو سكوت على باطل بهؤلاء العصابة الكمل الذين طهرهم الله من كل رجس ودنس ونقص على لسان نبيه في الكتاب والسنة كما قدمته في المقدمة الأولى أول الكتاب بواسطة صحبتهم له صلى الله عليه وسلم وموته وهو عنهم راض وصدقهم في محبته واتباعه إلا عبدا أضله الله وخذله ولعنه فباء منه تعالى بعظيم الخسار والبوار وأحله الله تعالى نار جهنم وبئس القرار نسأل الله السلامة في الدين آمين." (٢)

"عظيما ومكنهم منه ومن الناس. لكن حصل تفريط في هذه النعمة العظيمة.

والدرعية اليوم من تدبر حالها وحللها: عرف أن ما جاءهم إلا ذنوبهم. فاعتبروا يا أولي الأبصار (١) .

وغني عن القول أن هذا الرصد التأريخي، لا يعني بأي حال الاستهانة بالدور الذي لعبته الخلافة العثمانية في جمع شمل المسلمين وحمايتهم من هجمات الصليبيين وأطماع المستعمرين، وما تحقق في وقتهم من انتصارات وفتوح شاسعة، وطرق الأبواب الجديدة في سبيل توسيع رقعة الإسلام.

لكن في الوقت نفسه، لا يمكن أيضا أن ينسينا ما فعلته هذه الخلافة في أيامها الأخيرة بالأمة الإسلامية، باسم الإسلام وتحت مظلته. وما أسدت في شيخوختها من أياد سوداء، ومواقف مخزية بشعة. فتحولت من خلافة إسلامية إلى خلافة من نوع آخر، يحكمها الماسون ويسيرها التعصب **والحمية** الجاهلية (٢) .

ولم يعد لها من اسمها أي نصيب يذكر، غير التسلط والاستغلال وهدر جميع فرص التقدم. بل أصبحت وكرا تحاك فيه المؤامرات ضد الشعوب المسلمة المستضعفة، وسادنا مخلصا لكل بدعة وخرافة تلفظها

---

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ابن الوزير ٢/٢٦٣

(٢) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة ابن حجر الهيتمي ١/١٢٧

العقول.

***

(١) " الدرر السنية" (٤٧/١١) ، وإلى هذا يشير أيضا: ابن بشر في "عنوان المجد" (٢٧٧/١) ، والحازمي في " الرسائل" (٩٩، ١٢٥، ١٣٧) .

(٢) ولا زالت بقايا هذه الدولة ترزح تحت عدوان هؤلاء، وتتجرع مرارة التخريب والإفساد.." [1]

"ومن المعلوم أن ما تحملوه من ذلك هو من أعظم ما يشق على النفوس؛ فإنهم نابذوا العرب قاطبة، بل الخلق كلهم، وقاطعوا من لم يدخل معهم في ذلك من أهليهم وعشائرهم، وقطعوا الحبال بينهم وبين الناس.

وهكذا المهاجرون من غير أهل مكة، قد أسلم منهم كثير، وهجروا أوطانهم وعشائرهم، وهاجروا إليه في المدينة وصبروا على ما كابدوه من الجوع والعري والشدة ومفارقة المألوفات قبل أن يقوم الجهاد.

وإنما دخلوا بالدعوة والقرآن، وإلا فلم يكن له - صلى الله عليه وسلم - ما يستميل به القلوب من مال، فيطمع فيه، ولا قوة يقهر بها الرجال، ولا أعوان على الأمر الذي أظهروه، والدين الذي دعا إليه.

وكانوا حين دعاهم مجتمعين على عبادة الأصنام وتعظيم الأزلام، مقيمين على ما هم عليه من عبية الجاهلية في العصبية **والحمية** والتمادي والتباغي وسفك الدماء وشن الغارات.

لا تجمعهم ألفة دين، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم نظر في عاقبة ولا خوف عقوبة ولا لائمة، فألف الله بنبيه - صلى الله عليه وسلم - بين قلوبهم، وجمع كلمتهم، حتى اتفقت الآراء، وتناصرت القلوب، وترادفت الأيدي.

فصاروا إلبا واحدا في نصرته، وعنقا واحدا إلى طاعته،." [2]

"الديني أفضل من النسب الطيني، فالعلماء ورثة الأنبياء كما في الحديث؛ لأن الميراث ينتقل للأقرب، وأقرب الأمة في نسب الدين العلماء رضي الله عنهم) .

ثم أعقب ذلك بذكر حديثين في التواضع وعدم الفخر لمناسبته للكلام في النسب فأورد قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد (١

---

(١) الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص/٩

(٢) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب عبد العزيز بن حمد آل معمر ٥٧٥/٢

والثاني قوله صلى الله عليه وسلم " من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه "٢.

وتحت حديث ابن مسعود: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب "٣ ذكر الشارح في (ص ٣٦٤) أنه ليس من كمال الإيمان بالقدر والصبر على المصائب ضرب الخد وشق الجيب عند المصيبة، والدعاء للعصبية والحمية والأنفة، واستدل على قبح ذلك بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حين " قال أحد المهاجرين: يا للمهاجرين، وأحد الأنصار: يا للأنصار فقال: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وغضب لذلك غضبا شديدا "٤ وتحت حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عن ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة "٥.

ذكر الشارح في (ص ٣٦٥ - ص ٣٧٠) بيانا لهذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم " لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة "٦ وقوله صلى الله عليه وسلم لسعد لما سأله " أي الناس أشد بلاء فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه "٧.

---

(١) أبو داود: الأدب (٤٨٩٥) ، وابن ماجه: الزهد (٤١٧٩) .

(٢) مسلم: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩) ، وابن ماجه: المقدمة (٢٢٥) ، وأحمد (٢/٢٥٢) ، والدارمي: المقدمة (٣٤٤) .

(٣) البخاري: الجنائز (١٢٩٧) ، ومسلم: الإيمان (١٠٣) ، والترمذي: الجنائز (٩٩٩) ، والنسائي: الجنائز (١٨٦٠، ١٨٦٢) ، وابن ماجه: ما جاء في الجنائز (١٥٨٤) ، وأحمد (١/٣٨٦، ١/٤٤٢) .

(٤) البخاري: تفسير القرآن (٤٩٠٧) ، ومسلم: البر والصلة والآداب (٢٥٨٤) ، والترمذي: تفسير القرآن (٣٣١٥) ، وأحمد (٣/٣٣٨، ٣/٣٨٥) .

(٥) الترمذي: الزهد (٢٣٩٦) .

(٦) الترمذي: الزهد (٢٣٩٩) ، وأحمد (٢/٤٥٠) .

(٧) الترمذي: الزهد (٢٣٩٨) ، وابن ماجه: الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد (١/١٨٥) ، والدارمي: الرقاق (٢٧٨٣) ".. [١]

"ولهما عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن من البيان لسحرا ".

---

(١) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد عبد الهادي البكري ١/١١٩

والعاقل لا يغتر بحيلة المفسد النمام الواشي، فغرضه غرض فاسد، إما التشفي حيث أنه قد حقن الغضب في باطنه، وإما يريد رفعة نفسه، وخفض غيره، وإما زوال النعمة التي هو فيها، فيذكره بالسوء -نعوذ بالله من حاله وأفعاله-. وفي الخبر قال النبي صلى الله عليه وسلم " النميمة والشتيمة **والحمية** لا يجتمعن في قلب مؤمن١ ") ﴿ولهما عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن من البيان لسحرا "٢.

١ الذي وجدته:"النميمة والشتيمة **والحمية** في النار"، وهي رو، الآية عن ابن عمر- رضي الله عنهما-. وفي لفظ آخر:" إن النميمة والحقد في النار لا يجتمعان في قلب مسلم ". ولعل الشارح رحمه الله قد جمع بين الروايتين من حفظه فكون اللفظ المدون. انظر:"الترغيب والترهيب": (٣/ ٤٩٧- ٤٩٨، ح ٤، ٥) . وقال: أحال المنذري على الطبراني، والحديث فيه. انظر:"المعجم الكبير": (١٢/ ١٣٦١٥) .
٢ [١٢٩ ح] "صحيح البخاري مع الفتح": (٩/ ٢٠١، ح ٥١٤٦) ، كتاب النكاح، باب الخطبة."صحيح مسلم مع شرح النووي": (٦/ ٤٠٦- ٤٠٧، ح ٤٧) ، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة. لكنه في"صحيح مسلم"عن عمار بن ياسر لا عن ابن عمر كما يفهم من عبارة المصنف رحمه الله. انظر بقية التخريج في الملحق.." [(١)]

"لا أصلح الله من يصالحكم حتى يصالح ذيب المعز راعيها فأخذت محمد علي العزة **والأنفة** فسار إلى بسل الظاهر أنه كان حريصا على الصلح فاستعجل فيصل بمن معه فساروا إليه في بسل وقد استعد لحربهم خوفا مما جرى منهم فأقبلوا وهم في منازلهم فسارت عليهم العساكر والخيول فولو مدبرين لكن الله أعز المسلمين فحبس عنهم تلك الدول والخيول حتى وقفوا على التلول فسلم أكثر المسلكين من شرهم واستشهد منهم القليل ولا بد في القتال من أن ينال المسلم وينال منه قال تعالى: وتلك الأيام نداولها بين الناس الآيات وقال تعالى: وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم إلى قوله: والله يحب الصابرين الآيات وقد قال هرقل لأبي سفيان فما الحرب بينكم وبينه قال سجال ينال منا وننال منه فهذه سنة الله في العباد زيادة للمؤمنين في الثواب وتغليظا على الكافرين في العقاب وأما عبد الله فرجع بمن معه فلم يلق كيدا دون المدينة فتفكر في حماية الله لهذه الطائفة مع كثرة من عاداهم وناواهم ومع كثرة من

(١) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد عبد الهادي البكري ٢/٢٨٥

أعان عليهم ممن ارتاب في هذا الدين وكرهه وقبل الباطل وأحبه فما أكثر هؤلاء لكن الله قهرهم بالإسلام ففي هذا المقام عبرة وهو أن الله أعزهم وحفظهم من شر من عاداهم فلله الحمد والمنة وبعد ذلك رجع محمد بن علي إلى مصر وبعث الشريف غالب إلى اسطنبول وأمر ابنه طلسون أن ينزل الحناكية دون المدينة وأمر العطاس بالصلح بينهم وبين عبد الله بن سعود نوع من العجلة في الأمور فأمروا على الرعايا بالمسير إلى الرس فنزلوا الرويضة فتحصن أهل الرس بمن عندهم فأوجبت تلك العجلة أن يستفزعوا أهل الحناكية فلما جاء." (١)

"الله١ ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضى الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضبه لهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يرضى له ويغضب إذا حصل ما يغضبه لهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يرضى له ويغضب له هو السنة فإن قدر أن الذي معه دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله بل قصد **الحمية** لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم أو يثني عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا لم يكن الله ولم يكن مجاهدا في سبيله قال الله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ [البينة:٤,٥] .

وقال رحمه الله: تعالى: في منهاج السنة - لما ذكر كلام صاحب المنازل٢ وأن التوحيد عنده على ثلاثة أوجه: الأول توحيد العامة وهو شهادة أن لا إله إلا الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، هذا هو توحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر هذا كلام صاحب المنازل وذكر بعده٣ الوجهين وذكر شيخ الإسلام ما فيها من الشطح والبدعة ثم قال شيخ الإسلام-: أما التوحيد الأول الذي ذكره فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وبه بعث الله الأولين والآخرين من الرسل قال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء:٢٥] .

---

(١) المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص/٢٧

١ أمر الله. ليست في "ط".

٢ أبو إسماعيل، عبد الله بن محمد بن علي الهروي حافظ ت ٤٨١. تذكرة الحافظ ١١٨٣/٣، وقد شرح العلامة ابن القيم كتاب منازل السائرين هذا في كتاب مدارج السالكين.

٣ "ط": بعد.." (١)

"هذا فعله حمية) ، وقد صانه الله عن أن تقع أفعاله وشفاعته من باب **الحمية**، بل هي من باب الإيمان والطاعة والعبد كل العبد من كانت أفعاله وحركاته لله وبالله.

قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ١٦٢] [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

فهذا الرجل من أجهل الناس بمقام سيد ولد آدم، وتحقيقه للتوحيد.

وفي قوله: (وأهل بيته التي أزواجه أمهاتهم) لحن فاحش؟ فإن "التي" للأنثى، كما قال ابن مالك: (موصول الأسماء الذي للأنثى التي) .

وهذا الغبي لا يفرق بين المذكر والمؤنث، ومع ذلك يزعم أن الشيخ وأتباعه لا يعرفون العربية، والصواب أن يقال: (وأهل بيته الذين) .

ومنها: ظنه أن النبي صلى الله عليه وسلم فرط وسلف لعباد القبور، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، ولم يعرف معنى الحديث، ومن خوطب به.

ومنها قوله: (كيف وهو ومن أرسله أرأف بهم من الوالدة بولدها) .

فظاهر هذا فيه من سوء الأدب مع الله، وعدم الثناء عليه بما اختص [١٤٠] ، به من الرأفة والرحمة، والاقتصار على ما شاركه فيه عبده ورسوله، وتقديم ذكر (١) عبده ورسوله (٢) على ذكره تعالى وتقدس في هذا المقام، وهذا لا يصدر إلا من أجلاف الناس وأشدهم غباوة، وكذلك التعبير بالموصول والعدول عن الاسم الأقدس يطلعك على مخبآت جهله، ومناقشة هذا تطول.

---

(١) المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص/١١٥

(١) ساقطة من (ح) .

(٢) ساقطة من (ق) .." [1]

"هذا أو (١) نحوا منه في كتابه هداية الحيارى. وقول المعترض: (وإلا فقد أغنى بالتخفيف من الشرائع، وأن يستغفر لهم) . فالتخفيف من الشرائع يشير به إلى وضع ما كان على أهل الكتاب من الأصار والأغلال والأثقال، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي شرع هذا وأمره به وأوحاه إليه، وإنما يضاف إليه؛ لأنه مبلغ عن الله، (كما يقال: قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- كذا فيما بلغه عن الله، ويقال أيضا: وضع كذا وفعل كذا، فيما صدر عن وحي وتوقيف، والرسول مبلغ عن الله) (٢) لا أنه يفعل بمشيئته واختياره.

وأما الاستغفار: فقد تقدم أنه لا يدل على الطلب منه بعد وفاته -صلى الله عليه وسلم-.

وفي كلام هذا المعترض من فساد التركيب، وهجنة العبارة ما يقضي بما تقدم تقريره من الكشف عن جهالته، وعدم ممارسته، ومن ذلك قوله: (حضا لهم على الإيمان ليحصل لهم النفع به، لئلا يكون (٣) من الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين) .

وفي قوله: (حماه عنه لتبليغ رسالة ربه حمية للقرابة) . فهو تركيب فاسد، ولم يقصد أبو طالب إلا **الحمية** فقط.

وأما قوله: (وإلا فما معنى (٤) قوله -صلى الله عليه وسلم- لعمه: " «قل لا إله إلا الله

---

(١) في (م) : "و".

(٢) ما بين القوسين ساقط من (ق) .

(٣) في (ق) : " يكونوا ".

(٤) في (ق) : "فمعنى".." [2]

"شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ (١) .

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه

---

[1] مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام عبد اللطيف آل الشيخ ٣٥٣/٢

[2] مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام عبد اللطيف آل الشيخ ٤٢٦/٣

لم يقاومه الداء أبدا وكيف تقاوم الأدواء كلام رب العالمين الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها؟

فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا في القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه **والحمية** منه لمن رزقه الله فهما في كتابه.

ولكن هذا المردود عليه لم يهتد بهديه ولم يستضيء بنوره بل أراد أن يحمله ما لم يحتمله وضل سواء السبيل حيث ادعى أن غيره تعالى يعلم الغيب مما نفاه القرآن عمن سواه وزعم أن دليل ذلك من القرآن والحديث ولا شك أن ما ذكره حجه عليه لا له.

وانطبق عليه المثل "حفرت الشاة بظفلها السكين بحثها حتفه١" وهو مثل يضرب لمن يؤديه اجتهاده في الأمر إلى هلاك نفسه والقضاء عليها من حيث لا يشعر ذلك وهذا جزاء من كابر صريح العقل وصحيح النقل وعادى الحق ووالى الباطل ونصر البدعة وحارب السنة حتى أدى به الأمر إلى دعواه علم الغيب لغيره جل وعلا وجحد بذلك ما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ . (٢)

٣-وزعم أيضا أن الأولياء والصالحين لهم تصرفات في الكون في الحياة وبعد الممات ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون ويقصدون من دون الله في جلب الخير ودفع الضير وقضاء الحاجات وكشف الملمات ويسمعون نداء المنادي بهم ويجيبون صيحتهم وقد أبعد بذلك في الضلال وأعمق في بحور الشرك وجاوز الحد وجعل لله الشريك والند في تصريف الأحوال وتدبير الأمور وإعطاء المطالب وكشف المثالب مما هو حق خالص لله، وقد أشرك

---

(١) سورة الإسراء: رقم الآية ٨٢.

(٢) سورة يونس: رقم الآية ٣٢.." (١)

"البلاغة الخارجة عن العادة، ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بإعجاز القرآن.

الأمر الثاني: تأليف القرآن العجيب، وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان وحقائق العرفان، وحسن العبارة ولطف الإشارة، وسلاسة التركيب وسلامة الترتيب، فتحيرت فيه عقول العرب العرباء (أي الخلص الصرحاء) ، والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتعسف عنيد مظنة

---

(١) البراهين الإسلامية في رد الشبهة الفارسية عبد اللطيف آل الشيخ ص/٨

السرقة، وأن يمتاز هذا الكلام عن كلامهم ويظهر تفوقه؛ لأن البليغ – ناظما كان أو ناثرا – يجتهد في هذه المواضع اجتهادا كاملا، ويمدح ويعاب عليه غالبا في هذه المواضع، وقد عيب على جميع فحول الشعراء مواضع لم يحسنوا فيها العبارة أو كانت مسروقة عن غيرهم.

وأشراف العرب مع كمال حذاقتهم في أسرار الكلام وشدة عداوتهم للإسلام، لم يجدوا في بلاغة القرآن وحسن نظمه مجالا، ولم يوردوا في القدح مقالا، بل اعترفوا أنه ليس من جنس خطب الخطباء ولا شعر الشعراء، فنسبوه تارة إلى السحر تعجبا من فصاحته وحسن نظمه، وقالوا تارة إنه إفك افتراه وأساطير الأولين، وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة فصلت آية ٢٦: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت: ٢٦]

وهذه كلها دأب المحجوج المبهوت، فثبت أن القرآن الكريم معجز ببلاغته وفصاحته وحسن نظمه.

ولقد كان فصحاء العرب وبلغاؤهم كثيرين ومشهورين بغاية العصبية **والحمية** الجاهلية، وبتهالكهم على المباراة والمباهاة والدفاع عن الأحساب،." (١)

".. ويقول إن الله قد شاء الذي

هو كائن من هذه الأكوان ... ويقول إن الفعل مقدور له

والكون ينسبه إلى الحدثان ... وبنفيه التسجيم يصرخ في الورى

والله ما هذان متفقان ... لكننا قلنا محال كل ذا

حذرا من التشبيه والامكان ...

أما بان سينا فهو على ما في (تاريخ ابن خلكان (وغيره أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري والده من بلخ وسكن بخارى أيام الأمير نوح ثم تزوج إمرأة بقربه (أفشنة) وبها ولد أبو علي المذكور الملقب بالرئيس وختم القرآن وهو ابن عشر سنين وقرأ الحكمة على أبي عبد الله الناتلي وحل إقليدس والمجسطي والطب وهو ابن ثماني عشرة سنة ثم انتقل من بخارى إلى جرجان وغيرها ثم اتصل بخدمة مجد الدولة ابن بويه بالري ثم خدم قابوس بن شكمير ثم قصد علاء الدولة ابن كاكوية بأصبهان وتقدم عنده ثم مرض بالصرع والقولنج وترك **الحمية** ومضى إلى همذان مريضا ومات بها سنة ٤٢٨ أربعمائة وثمان وعشرين وعمره إحدى وخمسون سنة قال ابن خلكان ثم إن ابن سينا لما أيس من العافية على ما قيل ترك المداواة

---

(١) مختصر إظهار الحق رحمت الله الهندي ص/١٥٤

واغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء ورد المظالم على من عرفه وأعتق مماليكه وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة مات بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان وقيل مات في السجن وولادته سنة ثلاثمائة وسبعين والله أعلم وله نحو مائة مصنف منها كتاب (الشفاء (في الحكمة (والاشارات (وفي الطب (القانون (وغيره وله شعر ومنه القصيدة الشهيرة في الروح وهي." (١)

"[مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية]

[مقدمة الطبعة الأولى] محب الدين الخطيب

مسائل الجاهلية

التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا (محمد) رافع لواء الهدى في العالمين وبعد فإن الخلفاء الراشدين ورجال الدولة في زمن بنى أمية كانوا يعهدون بلواء الإسلام إلى السواعد العربية تخوض به الآفاق شرقا وغربا، وإلى الألسنة العربية تدعو إليه بادية وحاضرة، فكانت الدولة على اتصال بجزيرة العرب تغذي الجيش من فتيانها، وتعنى بأحوال أهلهم في ربوعهم وبين جبالهم، وتوسد الأمور في الأقطار إلى النوابغ من عقلائهم وحكمائهم، فكان الإسلام غضا في جزيرة العرب، وهدايته معمولا بها تحت الخيمة وفي بيت الشعر وبين جذوع النخيل فما برح الإسلام بذلك منصورا، وممالكه بازدياد، والناس يدخلون في دين الله شعوبا وأمما، إلى أن استدار الزمان مرة أخرى فجرب الخلفاء من بنى العباس الاعتماد على أهل السياسة والحمية الدنيوية من الفرس في إقامة دعائم ملكهم، ولم يكن أهل السياسة والدنيا منهم كما كان أهل التقوى والدين، فأبدت المجوسية نواجذها، ورغم الفتك بأبي مسلم فإن الحال ظلت على ذلك إلى زمن أمير المؤمنين المعتصم فأخذ دفة السفينة من أيدي الفرس وأسلمها إلى أيدي غلمانه من الترك، فنهض من شر واحد ووقع في شرين: لأن للفرس سابقة وحضارة ليس لهؤلاء مثلهما. وفي هذه الحادثة يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده:

[خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه، وبئس ما صنع بأمته ودينه. أكثر من ذلك الجند الأجنبي، وأقام عليه الرؤساء منه. فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا

---

(١) توضيح المقاصد شرح الكافية الشافية نونية ابن القيم أحمد بن عيسى ٢٤٤/١

بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا." (١)

"الظالمون﴾ ١ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ ٢. وسنذكر إن شاء الله تعالى فيما سيأتي تفصيل هذه المسألة وبيان حكمها بما ينشرح لها الخاطر.

ثم ذكر شيئا كثيرا من بيان أحواله مما يطول ذكره.

وظن يوسف النبهاني المسكين أنه قد خلا له الجو فصفر، وطاول العلماء الأعلام بما ذكر في كتابه الذي وسمه بدلائل الحق ما ذكر، وصال وجال وقال ما قال:

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

وتصدي مثله لما تصدي له دليل على جهله، ومزيد غباوته وخفة عقله، بل هو كما قيل:

لو أن خفة عقله في رجله ... سبق الغزال ولم يفته الأرنب

ولولا الترفع عن مكافأة أمثاله، **والأنفة** من مخاطبة أشكاله، لعرفناه قدره، وأوضحنا له شأنه وأمره، ولكن مثله لا يخاطب ولا يعاتب، ولا يؤاخذ بالهذيان ولا يعاقب، وإن الظفر بمثله شر من الهزيمة، والتلطخ بذكره قريب من محاورة بهيمة.

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ... ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد

والمقصود من ذكر هذه النبذة من أحوال النبهاني؛ أن الذي خاصم أهل الحق كلهم على هذا المنوال، وقد تشابهوا كأسنان الحمار في الاتفاق على الضلال، وباطل الأقوال، فلا يغتر بما زخرفوه وزوروه، فإنهم ليسوا من رجال العلم والكمال، والله أعلم بحقيقة الحال.

الأمر الثامن من تلك الأمور: لا بد للمتناظرين من مرجع يكون مهيمنا على

---

١ سورة المائدة: ٤٥.

٢ سورة المائدة: ٤٧.." (٢)

"الدين كله لله كانت فتنة، إذا عرفت ذلك كله عرفت منشأ الذم والبغضاء من الغلاة لخصوصهم في كل عصر، فحينئذ يسقط كل ما ذكره النبهاني في هذا الباب.

---

(١) فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ت محب الدين الخطيب الألوسي، محمود شكري ٢٠٧/١

(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني الألوسي، محمود شكري ٧٦/١

الوجه الثالث: وهو موضح للوجه الذي قبله وتتمة له- أن أصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله، والموالاة لله، والعبادة لله، والمعاداة لله، والاستعانة بالله، والخوف من الله، والرجاء لله، والإعطاء لله، والمنع لله، وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله، ونهيه نهي الله، ومعاداته معاداة الله، وطاعته طاعة الله، ومعصيته معصية الله، وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضى الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون- مع ذلك- معه شبهة دين أن الذين يرضى له ويغضب له هو السنة وهو الحق وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد **الحمية** لنفسه وطائفته، أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا؛ لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل، وسنة وبدعة؟ ومع خصمه حق وباطل، وسنة وبدعة، وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، وكفر بعضهم بعضا، وفسق بعضهم بعضا، ولهذا قال الله تعالى فيهم ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ ١ وقال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ ٢ يعني فاختلفوا كما في سورة يونس، وكذلك في قراءة بعض الصحابة، وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام، وفي تفسير عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر، وهذا ليس بشيء، وتفسير عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس، بل قد ثبت

---

١ سورة البينة: ٤- ٥.

٢ سورة البقرة: ٢١٣.." (١)

"وقال العلامة ابن الوردي ناظم البهجة في رحلته- لما ذكر علماء دمشق وترك التعصب **والحمية**-: وحضرت مجالس ابن تيمية فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخريدة، علماء زمانه فلك هو قطبه، وجسم هو قلبه، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر، حضرت بين يديه يوما فأصبت المعنى، وكناني وقبل بين عيني اليمنى، وقلت:

---

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني الألوسي، محمود شكري ٢/١٣٧

إن ابن تيمية في ... كل العلوم أو حد

أحييت دين أحمد ... وشرعه يا أحمد

وقال الحافظ فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس اليعمري المصري- بعد أن ذكر ترجمة الحافظ المزي-: وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فألفيته ممن أدرك من العلوم حظا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، تبرز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويردون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير، إلى أن دب إليه من أهل بلده داء الحسد، وألب أهل النظر منهم على ما ينتقد عليه من أمور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلاما أوسعوه بسببه ملاما، وفوقوا لتبديعه سهاما، وزعموا أنه خالف طريقهم، وفرق فريقهم، يسومونه ريب المنون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، ولم يزل بمجلسه إلى حين ذهابه إلى رحمة الله، وإلى الله ترجع الأمور، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثم قال: قرأت على الشيخ الإمام حامل راية العلوم ومدرك غاية الفهوم تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله، بالقاهرة." (١)

"فتوفى الله سعود رحمه الله وهم غزاة على من كان معينا لهذا العسكر من البوادي، فأخذوا وغنموا، فبقي لهم من الولاية ما كانوا عليه أولا، إلا ما كان من مكة والطائف وبعض الحجاز، وبعد وفاة سعود رحمه الله تجهزوا للجهاد على اختلاف كان من أولئك الأولاد، فصار المسلمون جانبين جانبا مع عبد الله وجانبا مع فيصل أخيه، فنزل الحناكية عبد الله، ونزل فيصل تربة باختيار وأمر من أخيه له، فوافق أن محمد علي حج تلك السنة فواجه فيصل هناك فطلب منه أن يصالحه على الحرمين، فأبى فيصل، وأغلظ له الجواب، وفيما قال:

لا أصلح الله منا من يصالحكم

... حتى يصالح ذئب المعز راعيها

فأخذت محمد علي العزة **والأنفة** فصار إلى بسل، والظاهر أنه كان حريصا على الصلح فاستعجل فيصل

---

(١) غاية ال أماني في الرد على النبهاني الألوسي، محمود شكري ١٩٠/٢

بمن معه فساروا إليه في بسل، وقد استعد لحربهم خوفا مما جرى منهم، فأقبلوا وهم في منازلهم فصارت عليهم العساكر والخيول فولوا مدبرين، لكن الله أعز المسلمين فحبس عنهم تلك الدول والخيول، حتى وقفوا على التلول، فسلم أكثر المسلمين من شرهم، واستشهد منهم القليل، ولا بد في القتال أن ينال المسلم أو ينال منه، قال الله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران:١٤٠] الآيات، وقال تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾." (١)

"الكتب المعتمدة عند الشيعة الإمامية:

وأما العترة فاعلم أن الروافض زعموا أن أصح كتبهم أربعة: الكافي، وفقه من لا يحضره الفقيه، والتهذيب، والاستبصار، وقالوا: إن العمل بما في الكتب الأربعة من الأخبار واجب، وكذا بما رواه الإمامي ودونه أصحاب الأخبار منهم، نص عليه المرتضى وأبو جعفر الطوسي وفخر الدين الملقب عندهم بالمحقق المحلي، وهو باطل؛ لأنها أخبار آحاد وأصحها الكافي، ومنهم من قال: أصحها فقه من لا يحضره الفقيه، وقال بعض المتأخرين منهم الناقد لكلام المتقدمين: أحسن ما جمع من الأصول كتاب الكافي للكليني والتهذيب والاستبصار. (١)

وكتاب من لا يحضره الفقيه حسن، وقد طالعت في بعضها.

وما زعموه من الصحة باطل من وجوه؛ لأن من أسانيدها من هو من المجسمة كالهشامين (٢) ، وشيطان الطاق المعبر عنه لديهم بمؤمنه (٣)

، وأمثال هؤلاء ممن اعترف الرافضة أنفسهم باتصافهم بما ذكرنا.

ـــــــ_ـ_ـــ

(١) يقول عبد الحسين شرف الدين الموسوي في كتابه "المراجعات" مراجعة ١١٠" ما نصه: ((الكتب الأربعة التي هي مرجع الإمامية في أصولهم وفروعهم من الصدر الأول إلى هذا الزمان وهي الكافي والتهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه، وهي متواترة ومضامينها مقطوع بصحتها والكافي أقدمها وأعظمها وأحسنها وأتقنها)) .

ويقول السيد محمد صادق الصدر في كتابه الشيعة ص ١٢٧: ((والذي يجدر بالمطالعة أن يقف عليه هو

---

(١) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق سليمان بن سحمان ص/١٠٠

إن الشيعة وإن كانت مجمعة على اعتبار الكتب الأربعة وقائله بصحة كل ما فيها من روايات غير إنها لا تطلق عليها اسم الصحاح كما فعل ذلك إخوانهم أهل السنة إذ إن الصحيح عندهم باصطلاح أهل الحديث ما كان سلسلة رجال الحديث كلهم إماميون وعدول ومع هذا اللحاظ لا يمكننا أن نعبر عن الكتب الأربعة بالصحاح لأن فيها الصحيح وفيها الحسن وفيها الموثق)) .

ويقول الحر العاملي: ((تقدم من شهادة الشيخ، وال‍صدوق، والكليني، وغيرهم من علمائنا بصحة هذه الكتب والأحاديث، وبكونها منقولة من الأصول والكتب المعتمدة ونحن نقطع قطعا لا شك في أنهم لم يكذبوا، وانعقاد الاجماع على ذلك إلى زمان العلامة)) .

وهذا نقل للإجماع من الحر العاملي على أن الشيعة كانوا يرون صحة جميع ما في الكتب الاربعة حتى ذلك العهد، ثم اختلف علماء الطائفة وانقسموا فصاروا أصوليين وإخباريين، وتضاربت أقوالهم في صحة الكتب الأربعة، وحصل بينهم التراشق بالأقوال والردود، فاستدل الإخباريون بأمور كثيرة نقضوا فيها أقوال الأصوليين بصحة الكتب الأربعة وبالعكس، مما أدى إلى حدوث بون، وهوة كبيرة بين الطرفين.

وهذه الكتب الأربعة مأخوذة – كما يقولون – من أصول معروضة على الأئمة، مع أن أصول «الكافي» كتب في عصر الغيبة الصغرى، وكان بالإمكان الوصول إلى حكم الإمام الثاني عشر على أحاديثه، بل قالوا بأنه عرض على مهديهم فقال: ((بأنه كاف لشيعتنا)) ، كما أن صاحب من لا يحضره الفقيه (أدرك من الغيبة الصغرى نيفا وعشرين سنة) كما في كتاب الشيعة للصدر ص١٢٥.

ولا شك أن هذا الكلام الأخير غير مستقيم بتاتا؛ فإنه لو صح ذلك فلم لم يعترض الأئمة على ما فيها من موضوعات؟ لم يجد صاحب كشف الغطا جوابا على ذلك إلا الفزع إلى التقية التي هي المتعلق في مثل هذه الأوضاع، فقال: (وأنه لا يجب على الأئمة المبادرة إليهم بالإنكار ولا تمييز الخطأ من الصواب لمنع التقية المتفرعة على يوم السقيفة) .

(٢) الهشامان هما: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي وقد أخرج الكليني في الكافي (١/١٥٧) : (عن على بن حمزة ، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ، سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أن الله جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه، فقال عليه السلام: سبحان من لا يعلم أحد كيف ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١) .

ثم روى الكليني في الكافي (١/١٥٨) بسنده عن محمد بن الفرج الرخمي ، قال: (كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأل عما قال هشام بن الحكم في الجسم وهشام بن سالم في الصورة ، فكتب: دع

عنك حيرة الحيران واستعذ بالله من الشيطان ليس القول ما قال الهشامان)

(٣) يعرف هذا الرجل عند علماء السنة بشيطان الطاق، بل حتى هشام بن الحكم ألف كتابا في الرد عليه باسم " الرد على شيطان الطاق "، وروى الكليني في الكافي (١٥٤/١) بسنده عن إبراهيم بن محمد الخزاز ومحمد بن الحسين قالا: (دخلنا على أبي الحسن الرضا عليه السلام فحكينا له أن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربه في صورة الشاب الموفق في سن أبناء الثلاثين سنة وقلنا: إن هشام بن سالم وصاحب الطاق يقولان: إنه أجوف إلى السرة والبقية صمد، فخر ساجدا لله ثم قال: سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك ...) إلخ.

روى) الكشي (٢٦٣/٣-٢٦٤) بسنده عن فضيل بن عثمان قال: (دخلت على أبي عبد الله عليه السلام في جماعة من أصحابنا فلما أجلسني قال: ما فعل صاحب الطاق؟ قلت: صالح قال: أما بلغني أنه جدل وأنه يتكلم في تيم قذر؟ قلت: أجل هو جدل قال: أما إنه لو شاء أنه طريف من مخاصميه أن يخصمه فعل قلت: كيف ذاك؟ فقال: يقول: أخبرني من كلامك هذا من كلام إمامك؟ فإن قال نعم كذب علينا وإن قال لا قال: كيف تتكلم بكلام لم يتكلم به إمامك ثم قال: إنهم يتكلمون بكلام إن أنا أقررت به ورضيت به أقمت على الضلالة وإن برئت منهم شق علي، نحن قليل وعدونا كثير قلت: جعلت فداك فابلغه عنك ذلك؟ قال: أما إنهم دخلوا في أمر ما يمنعهم من الرجوع عنه إلا **الحمية**." (١)

"من عناية الله تعالى بهم أن ثبت قلوبهم ومكنهم من فتح خيبر وأنزل سورة الفتح مبينا فيها حكم ذلك الصلح وفوائده وامتن بذلك على رسوله وعليهم بقوله ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ إلى قوله ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما﴾ فهذه سكينة خاصة بالمؤمنين، بين حكمتها العليم الحكيم وفيها إشارة إلى جنود الملائكة لا تصريح.

ثم قال بعد ما تقدمت الإشارة إليه من حكم ذلك الصلح، وما أعقبه من الفتح ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما﴾ . (١)

---

(١) رسائل السنة والشيعة لرشيد رضا محمد رشيد رضا ٥٨/١

الأشهر في تفسير هذه **الحمية** أنها ما أباه المشركون في كتاب الصلح من بدئه بكلمة بسم الله الرحمن الرحيم ومن وصف محمد صلى الله عليه وسلم فيه برسول الله (٢) وتعصبهم لما كان من عادة الجاهلية، وهو باسمك اللهم، وهذا مما ساء رسول الله

---

(١) بين الله تعالى في هذه الآية أنه ألزم الصحابة رضي الله عنهم كلمة التقوى، وأكثر المفسرين أن المراد بكلمة التقوى هي (لا إله إلا الله) وبين أنهم أحق بها من كفار قريش، وأنهم كانوا أهلها في علم الله لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير. وانظر: تفسير الطبري (٢٦/١٠٣-١٠٦) .

(٢) كما في صحيح البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢) من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان: ((وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)) .." [1]

"نظرة حول مناظرة:

لقد كان من الصعب علي وأنا بين عوامل لا تسمح لي أن أخوض في بحث كهذا لكثرة انشغالي وتشويش بالي من كثرة الأسفار وفراق الأوطان وتعدد المصائب والأحزان.

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

نعم والله، تكاثرت وتعدد المؤثرات المحزنة المشجية، وقد كان الأجدر والأليق بإخواني الذين أعهد فيهم الغيرة **والحمية** من أبناء العروبة والإسلام، والأساتذة الذين وقفوا أقلامهم لمكافحة الحشرات التي نخرت عظامنا وأنهكت قوانا، ومقاومة تلك الدعايات التي يقوم بها بعض أولئك المأجورين باسم الدين والمذهب، وأن يتصدوا للطم أولئك الأوغاد الذين ينتهزون الفرص لوصمنا بوحدتنا في الصميم وليتصيدوا بالماء العكر، أولئك الذين لم يجدوا لهم موردا شريفا في هذا المجتمع يسدون به طمعهم ويملؤون به جيوبهم وعيابهم إلا إثارة العواطف المذهبية والنزعات الطائفية." [2]

---

(١) رسائل السنة والشيعة لرشيد رضا محمد رشيد رضا ٢/ ٤٨

(٢) رسائل السنة والشيعة لرشيد رضا محمد رشيد رضا ٢/ ١٦٨

"تمصير اللغة

نريد بهذا التمصير ما ذهبت إليه أوهام قوم فضلاء يرون أن تكون هذه

اللغة التي استخفظوا عليها مصرية بعد أن كانت مضرية، وأن تطرد لهم مع النيل بعدد الترع وعداد القرى حتى ترسل الكلمة من الكلام فلا يجهلها في مصر جاهل، ويصدر الكتاب من الكتب فيجري في أفهام القوم على طريقة واحدة ويأخذ منهم مأخذا معروفا غير متباين بعضه من بعضه.

ولا ملتو على فئة دون فئة، ومن ثم يزين لهم الرأي أنه لا يبقى في هذا الجم الغفير. . . من علمائنا وكتابنا وأدبائنا من لا يعرف أين يضع يده من ألفاظ اللغة ومستحدثاتها إذا هو كتب أو مصر عن لغة أجنبية – ولا نقول عرب، فإن هذا بالطبع غير ما نحن فيه

– بل يأخذ من تحت كل لسان، ويلقف عن كل شفة، ولا يعد في التناول إلى مضطرب واسع، ولا يمضي حيث يمضي إلا مخفا من هذه القواعد وتلك

الضوابط العربية، إذ تتهادن يومئذ العدوتان: هذه العامية وهذه الفصحى.

وتصلحان بينهما أن لا ترفع إحداهما في وجه الأخرى قلما ولا لسانا، وعلى أن تبيح كلتاهما للثانية حرية الانتفاع بما يشبه حرية التجارة إلا في "المواد" السامة التي يعبر عنها دهاة السياسة اللغوية بالألفاظ العلمية المبتذلة والألفاظ العربية الغريبة، ثم على أن لا تحفل إحداهما ما تركت الأخرى مما سوى ذلك، فتستمر العامية على ما هي وتذهب الفصحى على وجهها.

يقولون إن هذه هي شروط الصلح بين اللغتين، أو هي المعاني التي ترجع

إليها وتترادف بها متى أرادوا أن يبسطوا من هذه الشروط ويخرجوا بها إلى

التعدد والكثرة، وإنما تلك آراء كان يتعلق عليها بعض فتياننا إفراطا في **الحمية** ومبالغة في الحفيظة لمصر وأملا مما يكبر في صدورهم على ما ترى من تهافتها وضعف تصريفها واضطراب أولها وآخرها لأنهم لا يثبتون النظر فيها ولا يحققون خطوة ما بين الإرادة والقدرة، وفوت ما بين الأمل والعمل، ثم لا يعرفونها إلا أحلاما قريبة الأناة ساكنة الطائر فكان ذلك عذر العقلاء إذا مروا بها." (١)

"بلاد الروم. وقد مات عبد الرحمن في طريقه عائدا من بلاد الترك.

قال الشيخ العلامة الطاهوي الحسيني. . .

"أليس من اليسير أن نفرض بل أن نرجح أن حياة امرئ القيس التي تد

---

(١) تحت راية القرآن الرافعي ، مصطفى صادق ص/٤٢

تحدث بها الرواة ليست إلا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن استحدثه

القصاص إرضاء لهوى الشعوب اليمنية في العراق، واستعاروا له اسم الملك

الضليل (١) اتقاء لعمال بن أمية من ناحية، واستغلالا لطائفة يسيرة من الأخبار كنت تعرف عن هذا الملك الضليل من جهة أخرى؟ " انتهى كلامه بنصه.

وكل ما مر بك من تاريخ فهو من تاريخ الطبري، ليس فيه لـ طه إلا

التحريف أو التخريف؛ فأين تقف من مثل ذلك على بحث أو اطلاع، وقد جهل الشيخ أن التاريخ كله حوادث متشابهة؟ إذ تنشأ في الأصل من طباع متقاربة محدودة في آثارها فتتشابه هذه الحوادث كما يتشابه الناس.

وسنقفك على ما فى كلام الشيخ من الكذب والخلط، فالأشعث بن قيس

لم يكره عليا على قبول الـتحكيم وإن كان قد تكلم في ذلك، إنما أكرهه القراء الذين كانوا معه حين انخدعوا برفع المصاحف من جيش معاوية.

وزياد بن أبي سفيان لم يعتمد على محمد بن الأشعث في أخذ حجر بن

عدي، بل قال لمحمد: والله لتأتيني بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها ولا

دارا إلا هدمتها.، ثم لا تسلم مني حتى أقطعك إربا إربا ثم أمهله ثلاثا وأرسله إلى السجن، فخرج محمد منتقع اللون يتل تلا عنيفا أفمثل هذا يقال فيه "عليه وحده اعتمد زياد" أم هي سنة العرب في أخذ سيد بسيد والاستفادة من رجل برجل، واستفزاز **الحمية** والإباء في نفس من يفوتهم هربا لكيلا يظلم فيه غيره فإذا عرف من أخذ به أسلم نفسه؟

والمضحك أن الشيخ يقول إن زيادا اعتمد على محمد بن الأشعث في

أخذ حجر بن عدي، ثم يقول بعد ذلك: "هل ثار عبد الرحمن بن محمد عند

من يفقهون التاريخ إلا منتقما لحجر؟ " أفليس الأقرب أن ينتقم لإهانة أبيه؟

ثم يقول إن قتل حجر مثله في صورة الشهيد؛ فمن هو الشهيد إذن إن لم

---

(١) لقب لامرئ القيس، أول من لقبه به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعناه الكثير الضلال، لما يعلن به في شعره من الفسق.." (١)

---

(١) تحت راية القرآن الرافعي ، مصطفى صادق ص/٢١٧

"من القش، كحرية التفكير، والتفكير تحت الوصاية وهدم الجامعة الخ الخ. . .
ويقول هذا وهو يعلم أن أحدا لا ينازعه في هذه المعاني، وإنما النزاع في جهل
الجامعة وسقوط الجامعة وكفر الجامعة وفوضى الجامعة، فيدع ما نحن فيه
ليجرنا إلى ما لسنا فيه، كأنه لا يعلم أن مثل هذا يعد في أساليب الكلام من شر ما يقع فيه من توجهت عليه الحجة ولزمه الدليل، فيظن أنه يتخلص به وهو لا يزيده إلا تورطا ولا يزيد الناس فيه إلا بيانا.
أنا أخطات في رأي من العلم فتنكر أنت علي وتردني، فتأخذني **الحمية.**
وأكبر ذلك منك ويشق على نفسي أنا أيها الأديب الكبير أن يقال عني أخطأ
وجهل، وأن يشيع ذلك في الناس فيكون سبة الأدبي غميزة في؛ فأدع رأيي
ورأيك وصوابك وخطئي وأقول: إنما أنت حسود وإنما تتحامل علي، وإنما هذا من لؤمك وضغنك، وأذهب أتكلم في الحسد وما يتصل به، وأتناول المعاني من أصولها البعيدة، ولا أزال أبتعد عم١ كنا فيه فما أصنع شيئا إلا أن أضيف إلى عجزي عن الحجة عيب المكابرة فيها، وإلى جهلي بالرأي جهلا آخر بأساليب البرهان، وأمد في النزاع مدا كلما طال بيني وبينك أخرج من سخرية الناس بي
ما كنت منه في أسبغ ستر وأوسع عافية. . . ولا أزال ألج وأتهافت، ولا يزال الناس يضحكون ويسخرون، فإذا أنا من الغلطة الواحدة فيما لا أحصي، وإذا هي ألوان كثيرة بعد أن كانت ولا لون لها، وأتكلم ألف كلمة فلا أجيء إلا بألف خطأ، وتتكلم أنت واحدة فتجيء بألف صواب، لأن كل غلطة في حمقي وعنادي وجهلي تنحاز إليك فتعد في صوابك، وإذا الناس بيننا على الأصل الذي كنا فيه من الرأي العلمي لا على الأصل الذي نزعت أنا إليه من الكلام في الحسد والضغن وما يخرج منهما.
نقول للجامعة: الأدب والدين والتاريخ، وهي تعرف أننا من ذلك في
موطن محاماة، وأنه لا منفعة لنا ولا غاية إلا الإصلاح، وأن الأمة بيننا وبينها، وأن هذه ال أمة معنا وعليها، فتلوذ بالصمت عن كل هذا ولا تتكلم إلا في حرية التفكير وتوقي الهدم وكذا وكذا، ولو علمت لعلمت أنها ما تهدم نفسها إلا بمثل هذا، الجامعة ليست مديرها ولا أستاذها وما إن لها في مصلحة الصحة شهادة ميلاد ولا شهادة وفاة، وهي باقية وهما زائلان، وما لم يوفق إليه مدير الجامعة اليوم فعسى أن يوفق إليه مدير آخر والأمور بحوادثها مرهونة، والأشياء بأوقاتها، والطبيعة بعد على مساقها الذي تندفع فيه، فإن أكرهناها

على غيره لم نفسدها وأفسدنا أعمالنا وأخطأتنا الفائدة منها.

وكل هذا يعرفه الأستاذ مدير." (١)

"إني لا أرى أكثر مظاهر هذه الحضارة إلا أسلحة قاتلة تقتل الخير والرحمة في قلوب الناس. فهي ترفع تكاليف الحياة وتزيد فيها وتعسر آمالها، فتنشىء بذلك الفقر المدقع، وتخرج معه الفوضى والاختلال، وتحدث به الأخلاق السافلة كالتلصص والدماء والخبث والحسد ونحوها ويزيد العالم كل يوم بأسباب كثيرة تبدعها الحضارة؛ فلا تكون الزيادة إلا عبثا وشرا ومضايقة، لأن ما كان يكفي الجماعة ذات العدد أصبح لا يكفي إلا فردا واحدا، ويومئذ لا تستقيم الإنسانية إلا بأن يغتذي بعضها من بعض، فيكثر القتل والاستراق والإباحة، ولكن في ألفاظ وتعابير مدنية. . . والآفة يومئذ أن الإنسانية تكبر والأرض لا تكبر، فتضيق الحياة بأهلها وتزيدها مطامعهم ضيقا، فيتقرر عندهم نظام التفتيل ويصبح قانونا إنسانيا عاما، وما أرى هذا القانون سينفذ إلا في الأجنة في بطون أمهاتهن، بحيث يكون في كل أسرة ميزان للموت لا يعطي الدنيا من إحدى كفتيه طفلا حيا إلا بعد أن يجتمع في الكفة الأخرى أربعة موتى أو أقل أو أكثر.

ولن يجدوا علاجا من داء الحضارة إلا **بالحمية** منها، فيوشك إذا هم تنبهوا إلى ذلك أن يمنعوا الناس من بعض فنون هذه الحضارة بقوة القانون، وأن يفرضوا عليهم بعض الجهل فرضا يؤخذون به ليبقى تاريخ العالم متصلا وليجد النوع الإنساني على هذه الأرض من يوجده بصفاته وخصائصه، فإن الأخلاق في تلك الحضارة قائمة على خير قواعدها، إذ لم يكن من سبيل لتغيير البناء الإنساني إلا بتغيير هذه القواعد.

وأنا أرى أنه لو انتزع من هذه المدنية أكثر حسناتها لذهب في ذلك أكثر سيئاتها، إذ كانت الحسنة هي التي تخرج السيئة؛ فالغنى الواسع بإزاء الفقر الأوسع، والرفاهية السرية بإزاء الشيوعية والفوضى وهكذا، ونعيم هذه الحضارة نعيم في أقله وشقاء في أكثره، وهو يفسد من يناله بإضعاف أخلاقه القوية الصالحة، ويفسد من لم ينله بتقوية أخلاقه الضعيفة الفاسدة؛ ذاك تسقط به مؤاتاة الشهوات إياه، وهذا يسفل به امتناعها عليه وهي لغيره معرضة؛ ذاك يفسده ما في نفسه، وهذا يفسده ما في نفسه وما في غيره.

ولا يذهبن عنك أن الحضارة تقرر في جميع الناس هذين الأصلين

---

(١) تحت راية القرآن الرافعي ، مصطفى صادق ص/٢٤٨

العظيمين: الحرية والمساواة، فينشأ الناشئ عليهما ويترشح لهما في الحياة.
حتى إذا شب وانتهى إلى الواقع وجد تلك الحضارة بعينها هي التي تقتلع
الأصلين وترمي بهما في وجهه، فليس في الواقع إلا أشراف ووضعاء، وإلا." (١)

"الذبائح لغير الله

قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (سورة الأنعام). قال الحافظ بن كثير يأمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغيره، أنه مخالف لهم في ذلك، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والانقياد بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النسك هو الذبح في الحج والعمرة. قال الإمام ابن تيمية أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك، الدالتان على القرب أو التواضع والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عبادته، عكس حال أهل الكبر والأنفة وأهل الغنى عن الله تعالى الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ وعن علي رضي الله عنه قال: "حدثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض" رواه مسلم.

اللعن: هو البعد عن مظان الرحمة ومواطنها، واللعين هو الملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها. قال صاحب النهاية (أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء، وفي الحديث جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين، وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان: أحدهما أنه جائز إختاره ابن الجوزي وغيره، والثاني أنه لا يجوز، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام رحمهما الله تعالى، وهو المتجه جميعا بين الروايات، وقوله: (محدثا) روي بكسر الدال المهملة وبفتحها، فعلى الأول معناه نصر جانبه وآواه، وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين من يقتص منه، وعلى الثاني هو الأمر المبتدع نفسه ومعنى إيوائه الرضا به، والصبر عليه، فإنه إذا رضي بالبدعة، وأقر فاعلها، ولم يترك عليه فقد." (٢)

---

(١) تحت راية القرآن الرافعي ، مصطفى صادق ص/٢٧٧

(٢) كتاب التوحيد المسمى التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد عمر العرباوي ص/٨٠

"ليتوب إلى الله من تمذهبه وتعصبه، ويتبع كتاب الله وسنة رسوله، ولا يتسع المجال في هذه الرسالة المختصرة لذكر شئ من ذلك، غير أني أذكر عبارة من ذلك قليلة الألفاظ كثيرة المعاني. قال رحمه الله وأجزل ثوابه: ((يا لله العجب! ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب التابعين وتابعيهم إلا أربعة أنفس وهذه بدعة قبيحة)) أ. هـ.

وقال الإمام صالح بن محمد بن نوح الفلاني في كتابه ((إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع **الحمية** والعصبية بين فقهاء الأعصار)) بعد نقله ما مر من كلام ابن عبد البر وأكثر منه كلاما، ما نقله عن ((سند بن عنان)) شارح مدونة سحنون جاء فيه: ((وأما التقليد فلا يرضاه رجل رشيد، ولسنا نقول إنه حرام على كل فرد بل نوجب معرفة الدليل، وأقاويل الرجال، ونوجب على العامي تقليد العالم)) ثم قال ((سند)) بعد ذكره الخلاف في تقليد الميت ما نصه: ((وإنما نقول نفس المقلد ليست على بصيرة، ولا يتصف من العلم بحقيقة، إذ ليس التقليد بطريق إلى العلم بوفاق أهل الآفاق، وإن نازعنا في ذلك برهانه فنقول: قال الله." (١)

"٤١- التشاؤم بالبومة فرده بقوله: ((لا هامة)) .

٤٢- ترك الختان كفعل النصارى.

٤٣- ترك الإسلام خوفا على الملك، كما فيه قصة هرقل.

٤٤- اعتقادهم أن الغول تضلهم مطلقا، فنفاه بقوله: ((ولا غول)) ، أي أنها لا تضل أحدا مع ذكر الله لا نفي وجودها مطلقا.

٤٥- جعلهم في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية.

٤٦ - قولهم لمن أسلم: شرنا وابن شرنا. كما قالوه لعبد الله بن سلام.

٤٧- أمرهم الناس بالخير ونسيان أنفسهم.

٤٨ - العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور فخالفهم النبي - صلى الله عليه وسلم - واعتمر فيها.

٤٩ - الذبح بالسن والظهر، فنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عنه.

٥٠ - معاقرة الأعراب وهو التفاخر بكثرة الذبح فنهى عنه.

---

(٤٠) (٤١) (٤٤) لما ورد في حديث النهي عن ذلك، أخرجه البخاري (١٠/١٧١) ، ومسلم (٤/١٧٤٢)

---

(١) الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق محمد تقي الدين الهلالي ص/٥٢

- ١٧٤٣) .

(٤٢) (٤٣) كما في قصة هرقل أخرجها البخاري (جـ ١ ص ٣١) فتح الباري.

(٤٥ (كما في سورة الفتح (آية ٢٥) .

(٤٦) لما ورد في قصة عبد الله بن سلام، أخرجها البخاري (برقم ٣٩٣٨) فتح الباري.

(٤٧) كما في سورة البقرة (آية ٤٣) .

(٤٨) لما ورد في البخاري (برقم ١٥٦٤) فتح الباري.

(٤٩) لما ورد في النهي عن ذلك، كما في البخاري (برقم ٥٠٠٦) فتح الباري.

(٥٠) إشارة إلى الحديث الوارد في سنن أبي داود (رقم ٢٨٢٠) بلفظ (نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن معاقرة الأعراب) . والمعاقرة أن يتبارى الرجلان ويتفاخران في عقر الإبل ويتكاثران.." (١)

"في حديث مكحول. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة؛ يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت؛ قالوا: غيرت السنة. قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين» .

رواه: عبد الرزاق، والدارمي، وابن وضاح، ونعيم بن حماد في "الفتن"، والحاكم في "مستدركه"، ولم يتكلم عليه، ورمز الذهبي في "تلخيصه" إلى أنه على شرط البخاري ومسلم.

وقد رواه ابن أبي شيبة بزيادة، ولفظه: قال: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، يتخذها الناس سنة، إذا ترك منها شيء؛ قيل: تركت السنة؟ ! قيل: يا أبا عبد الرحمن! ومتى ذلك؟ قال: إذا كثرت جهالكم، وقلت علماؤكم، وكثرت خطباؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم، وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة» .

وعن أبان عن سليم بن قيس الحنظلي؛ قال: "خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي أن يؤخذ الرجل منكم البريء، فيؤشر كما تؤشر الجزور، ويشاط لحمه كما يشاط لحمها، ويقال: عاص، وليس بعاص. قال: فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تحت المنبر: ومتى ذلك يا أمير المؤمنين؟ وبما تشتد البلية وتظهر **الحمية** وتسبى الذرية وتدقهم الفتن كما تدق الرحى ثفلها

(١) زوائد مسائل الجاهلية عبد الله الدويش ص/١٦

وكما تدق النار الحطب؟ قال: ومتى ذلك يا علي؟ قال: إذا تفقه المتفقه لغير الدين، وتعلم المتعلم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة".." (١)

"«العرب، ثم أهل فارس» .

رواه: الإمام أحمد، والبزار. قال الهيثمي: "وفيه داود بن يزيد الأودي، وهو ضعيف".

باب

ما جاء في هلاك العرب

عن طلحة بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من اقتراب الساعة هلاك العرب» .

رواه: ابن أبي شيبة، والترمذي في "جامعه"، والبخاري في "التاريخ"، والحارس بن أبي أسامة، والطبراني، وابن عبد البر، وغيرهم. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب".

باب

ما جاء في أول العرب هلاكا

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: "أول العرب هلاكا قريش وربيعة". قالوا: وكيف؟ قال: "أما قريش؛ فيهلكها الملك، وأما ربيعة؛ فتهلكها **الحمية**".

رواه ابن أبي شيبة.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أول الناس هلاكا قريش، وأول قريش هلاكا أهل بيتي» .

رواه الطبراني.." (٢)

"ظنه به منكرو البعث، وسيقت لإثبات قدرته على المعاد. كما يرشد إليه ما قبلها من الآيات، فهي دليل- أيضا- على وجوب وجوده- تعالى- لاستناد ما ذكر في الآيات من المخلوقات إليه. وحدوثه بقدرته، ولا يعقل ذلك إلا إذا كان واجب الوجود.

فمن نظر إلى ما ترشد إليه هذه الآيات، ونحوها من سنن الله في العالم نظرا ثاقبا، وفكر في عجائب خلقها، وحسن تنسيقها، وشدة أسرها تفكيرا عميقا، وبحث في أحكامها، وبديع صنعها بحثا بريئا من

---

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة التويجري، حمود بن عبد الله ١١٢/٢

(٢) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة التويجري، حمود بن عبد الله ٢٣٣/٣

الهوى، والحمية الجاهلية، وأنصف مناظره من نفسه، فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق، والإذعان له كبر يرديه، ولا عناد يطغيه، اتضح له طريق الهدى.

واضطره ذلك أن يستيقن النتيجة، ويؤمن من أعماق قلبه، بأن للعالم ربا خلاقا فاعلا مختارا حكيما في تقديره، وتدبيره أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير.

ومع قيام الدليل، ووضوح السبيل، تعامى فرعون موسى عن الحق، وتجاهل ما استيقنته نفسه، وأنكر بلسانه ما شهدت به الفطرة، ودل عليه العقل من وجود واجب الوجود، فأقام موسى عليه الحجة، بدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع، ووجود العالم، وعظم خلقه على وجود الخالق، وعظيم." (١)

"لقد أخذت الحمية الجاهلية للباطل من نفوس قوم إبراهيم، عليه السلام، مأخذها، وتمكنت منهم العصبية لطاغوت التقليد للآباء، والأجداد فيما أصيبوا به من الشرك، والانحراف عن الحق حتى ملكت مشاعرهم، ووجهت عقولهم، وأفكارهم إلى شر وجهة، وصرفتهم عن الحق المبين، والصراط المستقيم، وزينت لهم أن يتخلصوا من إبراهيم، عليه السلام، وينزلوا به أشد العقاب انتصارا لألهتهم الباطلة، وانتقاما منه جزاء له عما صنع بها من تحطيم وتكسير.

ويعلم الله أنه ما أراد بذلك إلا الخير لهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد:

﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [الأنبياء: ٦٨]

لكن يأبى الله إلا أن ينصر رسوله وخليله إبراهيم، عليه السلام، وأن يخذل أعداءه، وأعداء دينه، ويبطل ما كادوا به لأوليائه، فيبوءوا بالخسران المبين، إمضاء لسنته العادلة الحكيمة في أوليائه وأعدائه.

قال- تعالى-:." (٢)

"وبحث في أحكامها، وبديع صنعها بحثا بريئا من الهوى، والحمية الجاهلية، وأنصف مناظره من نفسه، فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق، والإذعان له كبر يرديه، ولا عناد يطغيه، اتضح له طريق الهدى.

واضطره ذلك أن يستيقن النتيجة، ويؤمن من أعماق قلبه، بأن للعالم ربا خلاقا فاعلا مختارا حكيما في تقديره، وتدبيره أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير.

ومع قيام الدليل، ووضوح السبيل، تعامى فرعون موسى عن الحق، وتجاهل ما استيقنته نفسه، وأنكر بلسانه

---

(١) مذكرة التوحيد عبد الرزاق عفيفي ص/٢٠

(٢) مذكرة التوحيد عبد الرزاق عفيفي ص/١٠٥

ما شهدت به الفطرة، ودل عليه العقل من وجود واجب الوجود، فأقام موسى عليه الحجة، بدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع، ووجود العالم، وعظم خلقه على وجود الخالق، وعظيم قدرته، وسعة علمه، وكمال حكمته، فغلبه بحجته.

وذلك بين واضح فيما حكاه الله عنهما من الحوار، والسؤال، والجواب:

قال -تعالى-: ﴿قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ .

فانظر كيف وقف موسى موقف من يصدع بالحق، ويقيم عليه البرهان؟

وكيف وقف فرعون من موسى موقف السفهاء، لا يملك إلا الشتم، والسباب، والسخرية، والاستهزاء، والتهديد بأليم العذاب؟ !!.

وقال -تعالى-: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبورا﴾ .." (١)

"﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، ذلك ليصح أن يستند إليه العالم في وجوده بدءا ودواما؛ إذ لو كان مستحيلا لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير؛ لأن المستحيل عدم محض وفاقد الشيء لا يعطيه، ولو كان ممكنا لافتقر إلى من يرجح وجوده على عدمه كما سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في حدوثه إلى نظير له من الممكنات؛ لزم إما الدور القبلي وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء.

وإذا انتفى عنه الإمكان والاستحالة ثبت له وجوب الوجود لذاته ضرورة؛ لأن أقسام الحكم العقلي ثلاثة: الوجوب، والإمكان، والاستحالة، وقد انتفى اثنان فتعين الثالث: وهو وجوب الوجود، قال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ ، وفي الحديث: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» .

ومن نظر فيما ترشد إليه الآيات نظرا ثاقبا، وفكر فيما توحي به سنن الله في المخلوقات -من عجائب خلقها، وحسن تنسيقها، وشد أسرها- تفكيرا عميقا، وبحث في أحكامها وبديع صنعها بحثا بريئا من

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - قسم العقيدة عبد الرزاق عفيفي ص/١٥٧

الهوى والحمية الجاهلية وأنصف مناظره من نفسه -فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق والإذعان له كبر يرديه، ولا عناد يطغيه- اتضح له الهدى، واضطره ذلك أن يؤمن من أعماق قلبه بأن للعالم ربا خلاقا فاعلا مختارا حكيما في تدبيره وتقديره أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير.

ومع قيام الدليل ووضوح السبيل تعامى بعض الناس عن الحق، ومن أولئك: فرعون موسى، فإنه أنكر بلسانه ما تيقنت به نفسه، فأقام موسى عليه." (١)

"يفضي سبهم إلى الله من دون قصد وعلم، يدل عليه قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿بغير علم﴾ ؛ لأنهم كانوا يقرون بعظمة الله، وإنما عبدوا آلهتهم لتكون شفعاء لهم عنده.

وحاصل الجواب الثاني: أنهم كانوا يسبون الله صريحا وقت الغضب فالحمية الجاهلية تحملهم على ذلك لا لأجل التدين والاعتقاد، ومثل هذا قد يحدث عن المسلم أيضا، فتحمله شدة الغيظ على التكلم بالكفر.

فمثل هذا إن صدر عن شخص لا يصدر منه تدينا واعتقادا، بل فسقا وحمية وغضبا.

قال الإمام الآلوسي مفتي الحنفية ببغداد (١٢٧٠هـ) والعلامة حسين علي (١٣٦٢هـ) ، واللفظ للأول:

(ومعنى سبهم لله عز وجل إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له صلى الله عليه وسلم ولمن يأمره. وقد فسر ﴿بغير علم﴾ بذلك أي فيسبوا الله تعالى بغير علم أنهم يسبونه، وإلا فالقوم كانوا يقرون بالله وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عنده سبحانه فكيف يسبونه؟ ويحتمل أن يراد سبهم له عز اسمه صريحا ولا إشكال بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك. ألا ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظه على التكلم بالكفر. ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام، أكثر الرافضة سب الشيخين – رضي الله تعالى عنهما – عنده فغاظه ذلك جدا، فسب عليا – كرم الله تعالى وجهه –، فسئل عن ذلك فقال: ما أردت إلا إغاظتهم، ولم أر شيئا يغيظهم مثل ذلك. فاستتيب عن هذا الجهل العظيم.

وقال الراغب: إن سبهم لله تعالى ليس أنهم يسبونه جل شأنه صريحا، ولكن يخوضون في ذكره تعالى ويتمادون في ذلك بالمجادلة." (٢)

"ويزداون في وصفه سبحانه بما ينزه تقدس اسمه عنه. وقد يجعل الإصرار على الكفر والعناد سبا، وهو سب فعلي. قال الشاعر:

وما كان ذنب بني مالك ... بأن سب منهم غلام فسب

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي – قسم العقيدة عبد الرزاق عفيفي ص/٢١٥

(٢) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية شمس الدين الأفغاني ١/٢٦٢

بأبيض ذي شطب قاطع ... يقد العظام ويبري العصب

ونبه به على ما قاله الآخر:

ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وقيل: المراد بسب الله سب الرسول صلى الله عليه وسلم، ونظير ذلك من وجه قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] .

قلت: احتمال سبهم الله لأجل الغضب والانتقام **والحمية** دون التدين والاعتقاد واضح يدل عليه قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿عدوا بغير علم﴾ .

قال الإمام بيان الحق أحد كبار علماء الحنفية (ت ٥٥٥هـ) :

(العدو والعدوء والعدوان والعداء والاعتداء واحد) .

أقول: وعلى هذا مشى الأستاذ المودودي رحمه الله (١٩٧٩م) .

قلت: لقد شاهدنا كثيرا من فسقة المسلمين إذا غضبوا يسبون الله ورسوله والإسلام والقرآن، نعوذ بالله من كيد الشيطان، فليس معنى ذلك أنهم ينكرون وجود الله أو يسوون غيره به تعالى في الخالقية والمالكية." (١)

"المطلب الثاني

في تعريف العبادة لغة

لعلماء اللغة من الحنفية كلام طويل في معنى ((العبادة)) لغة، حاصلها ما يلي:

((العبادة)) من مادة ((ع ب د)) . وهذه المادة إذا كانت على وزن ((نصر ينصر)) ، فلها خمسة معان:

(١) الخضوع.

(٢) الذلة.

(٣) الطاعة.

(٤) المملوكية.

(٥) التنسك.

وأما إذا كانت من باب ((فرح يفرح)) ، فلها ستة معان:

(١) الغضب والكراهة **والأنفة**.

---

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية شمس الدين الأفغاني ٢٦٣/١

(٢) الندامة والملامة.

(٣) الحرص.

(٤) الإنكار.

(٥) القوة.." [١]

"(وتعبد: تنسك. وقعد في متعبده: أي موضع نسكه) .

٦ - وأما المعنى السادس - وهو الغضب والكراهة والأنفة -: فقد قال الزمخشري (٥٣٨هـ) :

(وعبد في أنفه ((عبدة)) : أي أنفة شديدة) .

وقال: (و ((عبد)) ، وأبد، ورمد، وعمد، وضمد، كلها بمعنى ((غضب))) .

وقال الرازي (٦٦٦هـ) ، والزبيدي (١٢٠٥هـ) ، واللفظ للأول:

(و ((عبد)) من باب ((طرب)) : أي غضب وأنف، والاسم العبدة؛ قال الفرزدق:

وأعبد أن أهجو كليبا بدارم ... ...)

وعلى هذا المعنى فسر قوله تعالى ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ [الزخرف: ٨١] .

أي: فأنا أول الآنفين المستنكفين من أن يكون له ولد.." [٢]

"أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (١).

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (٢).

٣ - والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (٣).

﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ (٤).

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم﴾ (٥).

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس، تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشره، والطمع، واتصف بفضيلة الجود، والبذل، والسخاء، والأنفة، والعفة، وكان إنسانا مأمول الخير مأمون الشر.

---

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية شمس الدين الأفغاني ٣١١/١

(٢) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية شمس الدين الأفغاني ٣١٤/١

٤ – والطمأنينة أثر من آثار الإيمان .. أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس.

(١) سورة آل عمران – الآية ١٥٤.

(٢) سورة النساء – الآية ٤٨.

(٣) سورة هود – الآية ٦.

(٤) سورة العنكبوت – الآية ٦٠.

(٥) سورة العنكبوت – الآية ٦٢.." [١]

"يستصرخهم؛ لا للقتال، ولكن لإنقاذ العير فقط، وظن أنهم سيرسلون فلانا وفلانا من عامة الناس لإنقاذ العير ويرجعون، ولكن قريش أخذتهم **الحمية**، وقالوا: كيف يتعرض محمد لعيرنا بقيادة زعيم من زعمائنا؟! لابد أن نخرج ونقضي عليه.

وتشاوروا فيما بينهم، وفي النهاية أجمعوا على أن يخرجوا للرسول عليه الصلاة والسلام بكبرائهم؛ خرجوا بطرا ورئاء الناس، بحدهم وحديدهم، وخيلهم ورجلهم، وزعمائهم ومن دونهم، وجاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

فلما كانوا في أثناء الطريق تشاوروا فيما بينهم: هل نمضي أو نرجع؟! فكان أبو جهل يلمزهم في هذا، ويقول: كيف تفكرون في الرجوع وأنتم خرجتم؟! والله لا نرجع حتى نقدم بدرا ونقيم فيها ثلاثا؛ ننحر الجذور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا. وهذا فخر وبطر منه، ولكن الحمد لله؛ فلم تنحر الجذور ولكن نحر هو!!

فقدموا بدرا وتلاقى الصفان، وتراءى الجمعان، وحصل ما حصل، وبني للنبي صلى الله عليه وسلم عريش يدخل فيه يدعو الله سبحانه وتعالى بالنصر؛ لأنه إذا استنفذنا قوتنا المادية الحسية لم يبق لنا إلا الدعاء. فالدعاء مع القوة المادية الحسية وعدم استعمالها خطأ، لكن الدعاء عند العجز واجب، وإن جمعت بينهما فخير.

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله عز وجل. فماذا كان الأمر؟ قال الله تعالى: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين." [٢]

(١) العقائد الإسلامية سيد سابق ص/٨٦

(٢) شرح العقيدة السفارينية ابن عثيمين ص/٦١٠

""الجاهلية" أي أيام الجاهلية أو "زمان الجاهلية"؛ استهجانا لأمر تلك الأيام الذي هو ضد الحلم، الأنفة والخفة والغضب، وما إلى ذلك من معان، وهي أمور كانت جد واضحة في حياة الجاهليين، ويقابلها الإسلام الذي هو مصطلح "مستحدث أيضا ظهر بظهور الإسلام"، وعماده الخضوع لله والانقياد له، ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن والحديث١.

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في مواضع منه، منها آية سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [الفرقان: ٦٣] ، وآية سورة البقرة: ﴿قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ [البقرة: ٦٧] ، وآية الأعراف قوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٨] .

وفي كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية؛ وقد ورد في الحديث: "إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل" ٢، وورد أيضا: "إنك امرؤ فيك جاهلية" ٣ وبهذا المعنى تقريبا وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا٤

وازدراء بجهل أصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها، ولجهالة الناس إذ ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم في نظر النصرانية عن العلم وعن ملكوت الله، "وقد أعفى الله عن أزمنة هذا الجهل، فيبشر الآن جميع الناس في كل مكان إلى أن يتوبوا"٥.

وقد وردت لفظة الجاهلية في القرآن الكريم، وردت في السور المدنية دون السور المكية؛ فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجرة الرسول إلى المدينة؛ وأن إطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة، وأن المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده٦.

---

١ المفصل جـ١ ص٣٨، ص٣٩.

٢ بلوغ الأرب جـ١ ص١٦.

٣ ذيل أقرب الموارد جـ٣ ص١١٥، فجر الإسلام جـ١ ص١٦.

٤ بلوغ الأرب جـ١ ص١٦، محيط المحيط ص٣٠٩، أساس البلاغة جـ١ ص١٤٥.

٥ المفصل جـ١ ص٣٧، ص٣٨ وأعمال الرسل والإصحاح السابع عشر آية ٣٠.

٦ المفصل جـ١ ص٣٨.." (١)

"وإطلاق البعض على الكل.

وإطلاق الكل على البعض.

وإطلاق الفعل على مقاربه.

وكل هذه معروفة عند البلاغيين وهي من علوم القرآن البلاغية.

ومن أساليب العرب في كلامهم:

النسبة إلي المتضايفين على سبيل النحت، مثل: عبدشمس: عبشمي. والنسبة إلى المضاف إليه على الأغلب مثل: عبد القيس: قيسي. ومثل: ((بني إسرائيل)) يقال: إسرائيلي. وفي عصرنا يقال: ((العزيزية)) نسبة إلى: عبد العزيز. و ((الرحمانية)) نسبة إلى: ((عبد الرحمن)) لكن في تسويغ ذلك بالنسبة إلى أسماء الله تعالى نظر؛ لأن من الإلحاد في أسماء الله تعالى تسمية مشركي العرب أصنامهم على سبيل الإلحاد في أسماء الله تعالى مثل: ((اللات)) من ((الإله)) و ((العزى)) من ((العزيز)) .. ومنه هنا: عمل قوم لوط: لوطي. ويراد به النسبة إلى نهيه، لا إلى لوط عليه السلام.

ومحال أن يخطر ببال أحد خاطر سوء في حق نبي الله لوط – عليه السلام – أو في حق نبي الله يعقوب – عليه السلام –.

ولهذا فلا تلتفت إلى ما قاله بعض من كتب في: قصص الأنبياء – عليهم السلام – من أهل عصرنا، فأنكر، فأنكر هذه اللفظة: ((اللواط)) وبنى إنكاره على غلط وقع فيه بيان الحقيقة اللغوية لمعنى ((لاط)) وأن مبناها على ((الإصلاح)) فإن الحال كما تقدم من أن مبناها على: الحب والإلزاق، والإلصاق، وقد يكون هذا إصلاحا وقد يكون إفسادا، حسب كل فعل وباعثه والله أعلم.

وبعد تقييد ما تقدم تبين لي بعد استشارة واستخارة، أن جميع ما قيدته من استدلال استظهرته لا يخلو من حمية للعلماء الذين تتابعوا على ذلك، **والحمية** لنبي الله لوط – عليه السلام – وهو معصوم، أولى وأحرى، والله – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿هل جزاء الأحسان إلا الأحسان﴾ [الرحمن:٦٠] فكيف ننسب هذه الفعلة الشنعاء: ((الفاحشة)) إلى نبي الله: لوط – عليه." (٢)

---

(١) تاريخ الفكر الديني الجاهلي محمد إبراهيم الفيومي ص/٩٣

(٢) معجم المناهي اللفظية بكر أبو زيد ص/٤٦٤

"..

مسلم – لما ذكرنا.

وأما من حملته **الحمية** من أهل الثغر من المسلمين فاستعان بالمشركين الحربيين، وأطلق أيديهم على قتل من خالفه من المسلمين، أو على أخذ أموالهم، أو سبيهم، فإن كانت يده هي الغالبة وكان الكفار له كأتباع، فهو هالك في غاية الفسوق، ولا يكون بذلك كافرا، لأنه لم يأت شيئا أوجب به عليه كفرا: قرآن أو إجماع، وإن كان حكم الكفار جاريا عليه فهو بذلك كافر على ما ذكرنا، فإن كانا متساويين، لا يجري حكم أحدهما على الآخر فما نراه بذلك كافرا –والله أعلم– وإنما الكافر الذي برئ منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المقيم بين أظهر المشركين. وبالله تعالى التوفيق» (١).

وقال الإمام أبو بكر الجصاص: «قال الحسن بن صالح: من أقام في أرض العدو، وإن انتحل الإسلام، وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين، فأحكامه أحكام المشركين.

وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم، وهو يقدر على الخروج، فليس بمسلم يحكم فيه بما يحكم على أهل الحرب في ماله ونفسه، وقال الحسن إذا لحق الرجل بدار الحرب ولم يرتد عن الإسلام، فهو مرتد بتركه دار الإسلام» (٢).

---

(١) المحلى بالآثار (١٢/ ١٢٢ – ١٢٧).

(٢) أحكام القرآن (٥/ ٢٦).." [1]

"وتؤمن بأنه تعالى على عرشه عال على خلقه، وهو أيضا مع خلقه يعلم أحوالهم ويسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويدبر أمورهم، يرزق الفقير، ويجبر الكسير، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو على كل شيء قدير (١) .

ومن ثمرات الإيمان بالله ما يلي: ١ – يثمر للعبد محبه الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره، واجتناب نهيه، وإذا قام العبد بذلك نال بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة.

٢ – أن الإيمان بالله ينشئ في النفس **الأنفة** والعزة؛ لأنه يعلم أن الله هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الكون، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو، وهذا العلم يغنيه عن غير الله، وينزع من قلبه خوف سواه، فلا يرجو

---

(١) فتح العلي الحميد في شرح كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد مدحت آل فراج ص/٤٤

إلا الله، ولا يخاف سواه.

٣ - أن الإيمان بالله ينشئ في نفسه التواضع؛ لأنه يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، فلا يغره الشيطان، ولا يبطر ولا يتكبر، ولا يزهو بقوته وماله.

٤ - أن المؤمن بالله يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى الفلاح والنجاة إلا بالعمل الصالح الذي يرضاه الله، في حين يعتقد غيره اعتقادات باطلة كاعتقاد أن الله أمر بصلب ابنه تكفيرا عن خطايا البشر، أو

---

(١) انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة، ص: ٧، ١١.." (١)

"أهل السنة المعتمدة عندهم، ولم يحكموا بصحتها، بل حكموا ببطلانها ووضعها (١) وسيأتي الكلام في الرد على المؤلف في ذلك، وإنما أردت هنا بيان كذبه فيما ادعاه. (٢)

ومن صور كذبه أيضا ما زعمه من اعتداء الجنود في المدينة المنورة على الحجاج بالضرب يقول: «زرت البقيع وكنت واقفا أترحم على أرواح أهل البيت، وكان بالقرب مني شيخ طاعن في السن يبكي، وعرفت من بكائه أنه شيعي، واستقبل القبلة وبدأ يصلي، وإذا بالجندي يأتي إليه بسرعة، وكأنه كان يراقب حركاته وركله بحذائه ركلة وهو في حالة سجود، فقلبه على ظهره وبقي المسكين فاقدا للوعي بضع دقائق، وانهال عليه الجندي ضربا وسبا وشتما، ورق قلبي لذلك الشيخ وظننت أنه مات، ودفعني فضولي، وأخذتني **الحمية**، وقلت للجندي: حرام عليك لماذا تضربه وهو يصلي؟ فانتهرني قائلا: اسكت أنت ولاتتدخل حتى لا أصنع بك مثله ... » . (٣)

فلا يخفي ما في كلامه هذا من الكذب والافتراء، الذي يعلمه كل من زار هذه البلاد من المسلمين، حجاجا، أو معتمرين، أو غيرهم من أصحاب الأعمال والحاجات، وما أكثرهم، حيث يقدرون في كل سنة بالملايين، وكلهم يشهد ويلمس ما يعيشه الحجاج والزائرون من أمن وأمان، وراحة بدنية ونفسية، عن طريق ما توفره الدولة السعودية السنية السلفية، من مرافق ومنشآت، ووسائل حديثة في مختلف المجالات، لخدمة الحجاج والزائرين، ثم تجنيد القوة البشرية في الدولة للسهر على تقديم كافة التسهيلات لهم، مع حسن المعاملة والرفق بهم، حتى أصبحت رحلة الحج والعمرة أشبه ما

---

(١) انظر: الموضوعات لابن الجوزي ١/٣٥٧، والتذكرة في الأحاديث المشتهرة ... للزركشي ص١٦٣،

---

(١) الإسلام أصوله ومبادئه محمد بن عبد الله بن صالح السحيم ٢/١٣١

والمقاصد الحسنة للسخاوي ص١٦٩، وكشف الخفاء ... للعجلوني ٢٠٣/١، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤١٠/٤، ... ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٩٩/٧-٣٥٤، والتلخيص للذهبي ... مع المستدرك للحاكم ١٣٩/٣.

(٢) انظر: ص ٥١٣، ٥٥١، ٥٨٩ من هذا الكتاب.

(٣) ثم اهتديت ص٨٢-٨٣.." (١)

"وأما طعنه في خالد بقتله بني جذيمة وبراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من فعله.

فجوابه: أن خالدا قتلهم متأولا وذلك أنه لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: صبأنا صبأنا، ومعنى: صبأنا: أي انتقلنا من دين إلى دين، وقد كانت قريش تطلق على من أسلم أنه صابئ على سبيل الذم (١) ، فلم يقبل خالد منهم ذلك حيث لم يصرحوا بالإسلام، في حين أن بعض من كان معه من الصحابة كابن عمر وغيره أنكروا عليه، لأنهم عرفوا أنهم أرادوا الإسلام، ولذا قال ابن عمر راوي الحديث (فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا) (٢) وقد كان خالد متأولا في قلتهم، غير مذموم بفعله، وإن كان مخطئا فيه.

قال الخطابي: «يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع على سبيل الأنفة، ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا» . (٣)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن هذه الحادثة: «فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، فلم يقبل ذلك

منهم، وقال: إن هذا ليس بإسلام، فقتلهم، فأنكر ذلك عليه من معه من أعيان الصحابة: كسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وغيرهما، ولما بلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) لأنه خاف أن يطالبه الله بما جرى عليهم من العدوان ...

ومع هذا فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يعزل خالدا عن الإمارة، بل مازال يؤمره ويقدمه، لأن الأمير إذا جرى منه خطأ أو ذنب أمر بالرجوع عن ذلك، وأقر على ولايته، ولم يكن خالد معاندا للنبي - صلى الله عليه وسلم -، بل كان مطيعا له، ولكن لم

---

(١) انظر: فتح الباري ٥٧/٨.

(٢) أخرجه البخاري في: (كتاب المغازي، باب بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد ...

---

(١) الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال إبراهيم بن عامر الرحيلي ص/١١٩

إلى جذيمة) ، فتح الباري ٨/٥٦-٥٧، ح٤٣٣٩.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٨/٥٧.." [(١)]

"كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي: كما فعلوا في وقعة الجمل وبعدها ـ يعد إصرارا منهم على الاستمرار في الإجرام ما داموا على ذلك. فإذا قلنا إن الطائفتين كانتا من أهل الحق فإنما نريد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا في الطائفتين، ومن سار معهم على سنته صلى الله عليه وسلم من التابعين. ونرى أن عليا المبشر بالجنة أعلى مقاما عند الله من معاوية خال المؤمنين، وصاحب رسول رب العالمين، وكلاهما من أهل الخير. وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر، فإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ١.

ثم ذكر بعد ذلك ما رواه ابن كثير في تاريخه عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أنه قال ـ وقد ذكر أهل صفين: "كانوا عربا، يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية، فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام، فتصابروا، واستحيوا من الفرار. وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم " ٢. وقال الشعبي: " هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد " ٣.

فهذا هو موقف أهل السنة ـ وموقف كل منصف ـ قديما وحديثا ـ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أما تلك المواقف التي وقفها الخوارج من الجميع والشيعة من أصحاب معاوية مع الغلو في شأن أهل البيت فإنها ظاهرة الفساد والبطلان بما تقدم تقريره من كلام عن العلماء الأعلام، الذي لم يتكلموا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء، بل قالوا بشأنهم ما يجب أن يقال، مستندين إلى الدليل القاطع، فلم يحكموا بهواهم ولم يتبعوا أغراضهم ـ بل قالوا بالعدل، وتكلموا بفصل الخطاب.

أما ما استدل به الخوارج من نصوص لتكفير مرتكب الذنب فإن للسلف عنها جوابين: أحدهما أن المراد بقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما

---

١ محب الدين الخطيب في تعليقه على كتاب العواصم من القواصم، ص١٦١-١٦٩.

٢ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج٧ ص٢٧٨، ط١ سنة ١٩٦٦م.

٣ المصدر نفسه.." [(٢)]

---

(١) الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال إبراهيم بن عامر الرحيلي ص/٤١١

(٢) الإيمان بين السلف والمتكلمين أحمد بن عطية بن علي الغامدي ص/٢١٠

"ما فيها، أو هو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق"١.

وهذه قاعدة جامعة نافعة للعلماء والدعاة والمربين، تدور حول معرفة سبب الداء ثم علاجه **بالحمية** منه وتعاطي ضده.

ولأجل معرفة أثر الإيمان في تطهير القلوب من أدواء الحسد والحقد ونحوها، يجدر أن نتعرف على أسبابها ثم العلاج المضاد لكل سبب والذي يزول -بإذن الله- ذلك السبب ومن ثم المسبب.

وأسباب هذه الأمراض بعضها يعود إلى نفس الحاسد، وبعضها يعود إلى المجتمع، وفي الإيمان علاج لجميعها.

فأما الأسباب التي مردها إلى نفس الحاسد أو الحاقد فهي ضعف إيمانه، وقلة استشعاره لمعاني أسماء الله التي تدل على تفرده بالملك والتدبير، وأن ما يصيب الناس من خير أو ضده فهو من الله، وكذلك ضعف إيمانه بقدر الله، وعدم الرضى بالمقدور.

وعلاج هذا إنما يكون بالعلم بالتوحيد والقدر واستشعار ذلك، وبالمحافظة على الصلوات، والتوجه إلى الله بالدعاء والضراعة، وحسن الظن به، والرضى بفعله وقدره.

---

١ مجموع الفتاوى ١٠/١٤٥.." [1]

"ومع ذلك فإن هذه التبعية الشكلية إنما كانت تهدف إلى مجرد الاعتراف بالسيادة وجلب الضرائب، أو تأمين السبل وتوفير المؤن ونحو ذلك، ولم يكن لها تدخل فعلي في الشؤون الداخلية، فكانت ولايات الإمارة والقضاء، والحسبة، والمرافق تتم من قبل أهل الأقاليم أنفسهم وليس للدولة العثمانية وولاتها فيها حل ولا عقد، وهذا مما يرد به على الذين توهموا أن الإمام محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية خرجوا على الخلافة.

[السمات العامة بنجد إبان ظهور الدعوة]

السمات العامة لنجد إبان ظهور الدعوة: لقد اتسمت البيئة العامة في نجد التي ظهرت فيها دعوة الإمام بسمات خاصة كان لها أكبر الأثر في مسار الدعوة منها:

---

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع ١/٤٣٢

الوضع الاجتماعي والأمني: غلبة السمة القروية والبدوية عليها، ففي نجد عدد كبير من القرى والواحات، ويقطنها عدد أكبر من القبائل التي تعيش في البادية، وليس بين الحاضرة والبادية وئام، وكان العداء والتنافر سائدا بينهم؛ لعدم وجود السلطان الذي يجمع الشمل ويحفظ الأمن، ويقيم العدل، كانت العلاقات بين البادية والحاضرة في عداء مستمر وسلب ونهب وقتال غالبا، بل وكذلك الحال بين قرى الحاضرة نفسها، حيث تسودها المنافرة والتشتت والحروب، وكذلك الحياة بين القبائل البدوية تسودها الفوضى والعصبية والحمية الجاهلية، والقتال والسلب والنهب، وتحكمها الأعراف والعادات الجاهلية.

تبعا لذلك نرى نجد في عهد قيام الدعوة مشتتة ومقسمة إلى إمارات ومشيخات صغيرة ومتناحرة.

حتى وصل الحال إلى أن القرية الواحدة تتنازعها عدة زعامات! ويكثر بينها التنافر والظلم والجور.

الوضع الديني: كما ساد بينهم - من الناحية الدينية - الجهل والإعراض وشيوع البدع، فكان التصوف البدعي سائدا، بما فيه التصوف الغالي، كمذهب ابن عربي وابن الفارض، والتصوف حيثما حل حلت الخرافة، وساد الجهل، وانتشرت البدع والخرافات والشركيات وشاعت المنكرات.." (١)

"كما نقل الأستاذ محب هذا النص أيضا من تنقيح المقال في تعليقه على مختصر التحفة وعقب على ذلك بقوله: "وهكذا اخترع شيطان الطاق أكذوبة الإمامة، التي صارت من أصول الديانة عند الشيعة، واتهم الإمام عليا زين العابدين بن الحسين بأنه كتم أساس الدين حتى عن ابنه الذي هو من صفوة آل محمد، كما اتهم الإمام زيدا بأنه لم يبلغ درجة أخس الروافض في قابليته للإيمان بإمامة أبيه.. والشيعة هم الذين يروون هذا الخبر في أوثق المصادر عندهم ويعلنون فيه أن شيطان الطاق يزعم بوقاحته أنه يعرف عن والد الإمام زيد ما لا يعرفه الإمام زيد من والده مما يتعلق بأصل من أصول الدين عندهم.

وليس هذا بكثير على شيطان الطاق الذي روى عنه الجاحظ في كتابه عن الإمامة: أن الله لم يقل: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ (١) .

وتذكر كتب الشيعة أنه بلغ جعفرا ما يقوله شيطان الطاق، وما يجادل به في أمر الإمامة فقال: "لو شاء ظريف من مخاصميه أن يخصمه فعل؟ قلت (القائل هو الراوي) : كيف ذاك؟ فقال: يقول: أخبرني عن كلامك هذا من كلام إمامك؟ فإن قال: نعم، كذب علينا، وإن قال: لا، قال له: كيف تتكلم بكلام لم يتكلم به إمامك، ثم قال (أي جعفر الصادق) : إنهم يتكلمون بكلام إن أنا أقررت به ورضيت به أقمت على الضلالة، وإن برئت منه شق علي، نحن قليل وعدونا كثير، قلت (أي الراوي) : جعلت فداك فأبلغه

---

(١) إسلامية لا وهابية ناصر العقل ص/١٩

عنك ذلك؟ قال: أما إنهم قد دخلوا في أمر ما يمنعهم عن الرجوع عنه إلا **الحمية**، قال: فأبلغت أبا جعفر الأحول ذاك فقال: صدق بأبي وأمي ما يمنعني من الرجوع عنه إلا **الحمية**" (٢) .

ولقد شارك شيطان الطاق رجل آخر هو هشام بن الحكم (٣) . (المتوفى سنة

---

(١) انظر: مختصر التحفة الاثني عشرية ص١٩٥-١٩٦ (الهامش) ، وقد مر نقل ما رواه الجاحظ عن شيطان الطاق بتمامه في هذا الكتاب: ص (٢٠٦)

(٢) رجال الكشي: ص١٩٠-١٩١

(٣) مضى التعريف به." (١)

"هذا عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون في "مقدمته"، فقال:

"إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، للغلظة **والأنفة** وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة **والأنفة**، الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب منهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تم إجتماعهم وحصل لهم الملك والتغلب" ١.

وقال أيضا: "إن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أودعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل

---

١ مقدمة ابن خلدون ص ١٥١.." (٢)

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية - عرض ونقد - ناصر القفاري ٢/٦٦٢

(٢) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي صالح بن عبد الله العبود ٢/٨٨٣

"الذي طرد الشيخ مهابة من ملك الأحساء، يجد نفسه وقد ذهبت عنه تلك المهابة وبطل عنه كل ما كان يجد من دون الله تعالى وما وجد غير أن يأتي إلى الدرعية نادما تائبا يرجو من الشيخ أن يعود معه، ثم لما رأى بالبصيرة أن اغتنام بقاء الشيخ قد فاته وظفر به ابن سعود١ لم يجد بدا من أن ينضوي تحت لواء ابن سعود يجاهد في سبيل الله، وهذا مقتضى العقل وعين الحق الذي لا مفر منه ثم نلمح الوفاء والكرم من الشيخ ومحمد بن سعود يكرمون هذا العزيز الذي ذل ويجعلونه أمير الغزو كله بمثابة القائد العام للجيوش التي هي عدد الأمة وعدتها يريدون بذلك إعادة اعتباره بين قومه، والإبقاء على مكانته وإشباع طموحه في الزعامة والذي كان هو سبب ضعفه عن نصرة الإسلام عسى أن يجد في الإسلام ما فقده في غيره وعسى أن يغتبط بهذا الفضل وينسى ما يطمح إليه وقد قصر عن مستواه٢، ولكنه ظل متأرجحا بين الحق والباطل ثم أدركه حب الرياسة والاستقلال، وأعمته الأنفة عن طريقه الذي سلكه وهو الصواب، ولم يصبر على ما توهم أنه تبعية مذلة لابن سعود وابن عبد الوهاب فنزعت به نفسه إلى سلوك ما يريب منه ويشينه ويفتح عليه باب المؤاخذة والعقوبة فيقتله بعض جماعته من أهل العيينة بسبب ذلك٣، والعيينة يحرسها الله

---

١ روضة ابن غنام ٢/ ٤.

٢ ابن بشر، عنوان المجد ١/ ٢١، وروضة ابن غنام ٢/٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤.

٣ المرجع السابق ابن بشر ١/٢٣، ٢٤. وروضة ابن غنام ٢/ ٩، ١٠، ١١، ١٣،١٤.." [(١)]

"((ص))

صالح بن عبد الله العبود.

٧٣- فكرة القومية العربية على ضوء الاسلام، رسالة ماجستير وطبعت بمطبعة المدني الطبعة الأولى، نشر: دار طيبة، الرياض، السعودية.

الأستاذ صالح محمد الحسن.

٧٤- تعقيب حول مقال الدكتور العثيمين- في مجلة الدارة، ع١ س٥ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ. ص ٣٥٢-٣٥٨.

الشيخ صالح بن محمد العمرى الشهير بالفلاني. رحمه الله (١١٦٦-١٢١٨) .

٧٥- ايقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع فى

---

(١) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي صالح بن عبد الله العبود ٨٨٥/٢

القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الاعصار. دار نشر الكتب الاسلامية- باكستان ط أولى ١٣٩٥ هـ.
صلاح الدين مختار.
٧٦- تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.
المستشار عبد الحليم الجندي. في جهورية مصر العربية.
٧٧- الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي، نشر: دار المعارف.." (١)

"الله - تعالى - أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة. قال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ ١ وقال - تعالى - مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ٢.

النوع الثاني:

كفر إباء واستكبار مثل كفر إبليس اللعين ومنه كفر من عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ينقد له إباءا واستكبارا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال - تعالى - عن فرعون وقومه ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ ٣.

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وكره أن يرغب عن ملة آبائه، أو أن يحكم بتكفيرهم.

النوع الثالث:

كفر الإعراض: مثل أن يعرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث لا يسمعه ولا يصدقه ولا يكذبه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي صلى الله عليه وسلم: "والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك" ٤.

النوع الرابع:

كفر الشك: حيث لا يجزم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكذبه بل يشك في أمره، وهذا لا

١- سورة النمل آية: ١٤.

٢- سورة الأنعام آية: ٣٣.

---

(١) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي صالح بن عبد الله العبود ١١٤٨/٢

٣- سورة المؤمنون آية: ٤٧.

٤- علق على هذا النوع الشيخ محمد حامد الفقي فقال "وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى المنحلين عن كل خلق وفضيلة زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية" مدارج السالكين ٣٣٨/١ "الهامش".." (١)

"إن الإيمان هو قول باللسان واعتقاد بالقلب. ولا يدخلون فيه العمل.

الثانية: الأشاعرة ومن أخذ بمذهبهم، فيقولون: الإيمان هو التصديق بالقلب ولو لم ينطق بلسانه، فمن صدق بقلبه فهو مؤمن حتى ولو لم يتكلم. وعلى هذا فالكفار مؤمنون؛ لأنهم يصدقون بقلوبهم لكن لا ينطقون بألسنتهم، قال تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام: ٣٣] . هم يصدقون بقلوبهم ويعلمون أنه رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن ما جاء به هو الحق، لكن يمنعهم – والعياذ بالله – موانع: إما الكبر **والأنفة**، أو الخوف على مناصبهم ورئاستهم، أو الحسد.

واليهود يعرفونه، ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ ، يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة: ١٤٦] ، يعرفون أنه رسول الله، ولكن لم يطيعوه ولم يؤمنوا برسالته ﴿حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩] ، تركوه حسدا، يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل ولا تكون النبوة في بني إسماعيل، حسدوا بني إسماعيل فأبوا أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فهم يؤمنون بقلوبهم أنه رسول الله. فهذا رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الإيمان هو التصديق بالقلب ولو لم ينطق باللسان.

الثالثة: الكرامية، الذين يقولون: الإيمان هو النطق باللسان ولو لم يعتقد بقلبه، إذا نطق بلسانه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولو لم يعتقد بقلبه فهو مؤمن، كذلك يقولون. وهذا باطل يلزم عليه أن المنافقين مؤمنون؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله - جل وعلا – يقول: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ [النساء: ١٤٥] ، فهم يقولون بألسنتهم." (٢)

"ويقبل الله شفاعته، فهذا هو المقام المحمود، الذي قال الله - جل وعلا – فيه: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وهو الذي يحمده عليه الأولون

---

(١) مباحث العقيدة في سورة الزمر ناصر بن علي عائض حسن الشيخ ص/٣٨٨

(٢) شرح عقيدة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب صالح الفوزان ص/٣٦

والآخرون، إظهارا لفضله وشرفه صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف العظيم.

الشفاعة الثانية: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة أن يدخلوها، وتفتح لهم، فهو أول من يستفتح باب الجنة عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال – جل وعلا –: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧٣] ، لا تفتح لهم أول ما يأتون، بل عطف الفتح على مجيئهم؛ لأنه لا يفتح لهم إلا بعد الشفاعة، ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ أما الكفار – والعياذ بالله – فمن حين يصلون إلى النار تفتح لهم أبوابها، يدفعون إليها ويدعون إليها دعا – والعياذ بالله – ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧١] ، إلى آخر الآيات، هذه الشفاعة الثانية للرسول صلى الله عليه وسلم والخاصة به.

الشفاعة الثالثة: أنه يشفع صلى الله عليه وسلم لأناس من أهل الجنة في رفعة منازلهم في الجنة.

الشفاعة الرابعة: شفاعته في عمه أبي طالب، الشفاعة لا تنفع الكفار، ولكن نظرا لأن أبا طالب حمى النبي صلى الله عليه وسلم ودافع عنه، وصبر معه على الضيق، وأحسن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يوفق للدخول في الإسلام، وعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام وحرص على أن يدخل في الإسلام، ولكنه أبى؛ لأنه يرى أنه دخوله في الإسلام فيه مسبة لدين آبائه، حيث أخذته **الحمية** الجاهلية لدين آبائه، وإلا فهو يعترف أن محمدا على الحق، وأن دينه هو الحق، ولكن منعته **الحمية** **والأنفة**؛ لأنه لو أسلم بزعمه لصار ذلك سبة على قومه.." (١)

"العكس، لا يكون مؤمنا بدون الإسلام، مصدقا ومؤمنا بهذه الأركان بقلبه لكن ليس عنده إسلام فلا يصلي ولا يزكي ولا يصوم ولا يحج، هذا ليس بمؤمن حتى يكون مسلما يؤدي الأركان الظاهرة والباطنة، فلا بد من هذا، فالإيمان مجموع اعتقاد القلب وعمل الجوارح ونطق اللسان.

ولهذا يقول أهل السنة والجماعة – كما ذكره الشيخ هنا –: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، لا بد من هذه الأمور الثلاثة: نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، هذا تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة الذين هم على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، والذين هم الفرقة الناجية من بين الفرق الضالة التي توعدها الله بالنار، هذا الإيمان عندهم يتكون من هذه الأمور الثلاثة.

أما المرجئة فيقولون: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، والأعمال لا تدخل فيه. وبعضهم يقول: شرط

---

(١) شرح عقيدة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب صالح الفوزان ص/٨٦

كمال. وبعضهم يقول: شرط جواب، ولكنها لا تدخل في حقيقة الإيمان، فإذا كان مصدقا بقلبه فهذا مؤمن ولو لم يؤد الأعمال، وهذا مذهب باطل؛ لأن المشركين كانوا يعرفون بقلوبهم صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أبوا أن ينطقوا بلا إله إلا الله، أبوا أن يقولوا: لا إله إلا الله. وأبوا أن يصلوا وأن يصوموا، ويزكوا، ويحجوا، قال الله تعالى ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام: ٣٣] ، ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ معنى هذا أنهم يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن منعهم الكبر، أو الحسد، أو **الحمية** لدينهم من أن يأتوا بلا إله إلا الله، وأن يصلوا، ويصوموا، ويزكوا، والحج يحجون." (١)

"وأبان جليل مقدارهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم للجبل بالهدوء والسكون لأجل شرف من عليه فيا معشر الطالبين لعلم الدين أبعد هذا بيان لمن كان له قلب فما لكم تدخلون بينهم وتتكلمون فيما وقع لهم، وترجحون وتقدمون وتؤخرون وتحبون وتبغضون كأنكم لا تعلمون مقاديركم ولا تلزمون مواضعكم حتى ترقوا بالجهل والفضول إلى عثمان وعلي وطلحة والزبير فتتكلمون **بالحمية** وتتعصبون ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ ١ وقد رجف الجبل بالنبي عليه السلام وأبي بكر وعمر وعثمان وقد رجف بهؤلاء الأعيان، وقد كان ذلك بمكة وبحراء وقد كان بالمدينة وأحد وأنبأنا الله بالفضل مرتين وأكده وعضد مقدارهم ومهده في جبلين"أ. هـ٢.

١٣- ومن مناقبه العظيمة رضي الله عنه بشارة النبي صلى الله عليه وسلم له بالجنة فعمر رضي الله عنه من أهل الجنة قطعا. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "افتح له وبشره بالجنة" ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم: فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "افتح له وبشره بالجنة" ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم: فحمد الله، ثم استفتح رجل فقال لي: "افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه" فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحمد الله ثم قال: الله المستعان٣.

١٤- ومن مناقبه الحميدة رضي الله عنه ما جاء من الثناء عليه من فضلاء الصحابة حيا وميتا ورضا الجميع عنه ومن ذلك: ما روى البخاري بإسناده إلى المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمر جعل يألم فقال له ابن

---

(١) شرح عقيدة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب صالح الفوزان ص/١٣٥

عباس وكأنه يجزعه:

---

١. سورة الطور آية/١٥.

٢. عارضة الأحوذي ١٥٣/١٣-١٥٤,

٣. صحيح البخاري ٢٩٦/٢.." (١)

"والعدل والإيثار وغيرها من الفضائل، ولن أتناول كذلك أثر العقيدة على الفرد من ناحية بعده عن الربا والزنا والسكر والكذب والظلم والعقوق والأنانية والحسد والحقد والسرقة والغش والخداع وغيرها من الرذائل؛ لأن تحلي رجل العقيدة بالفضائل وتخليه عن الرذائل أمر بدهي لمن استقام على عقيدته وتفاعل معها تفاعلا إيجابيا، ولأن كل آية في القرآن إنما هي دعوة لفضيلة أو نهي عن رذيلة، ولو أردت استقصاء ذلك لطال بي البحث، ولذلك أكتفي بذكر أهم المميزات التي يمتاز بها رجل العقيدة غير ما تقدم وهي:

١- العقيدة تهب صاحبها عزة النفس؛ لما يشعر به من معية الله تعالى، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ ١، ومن كانت هذه عقيدته فلن يستكين ولن يستعبد لغير الله تعالى.

وهذه **الأنفة** من الخضوع والعبودية لغير الله تعالى يصاحبها التواضع والرحمة لعبادة المؤمنين انطلاقا من قوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ ٢، والمؤمن يعلم أن واهب العزة هو الله ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ ٣.

فعزة المؤمن عزة إيمان وحق، وعزة غيره عزة غرور وفجور وكبرياء.

٢- رجل العقيدة رجل يحتكم إلى كتاب الله ولا يستبدل به حكما آخر، ويرضى بحكم الله ولو كان الحق عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ ٤.

---

١ سورة التوبة آية ٣٦، ١٢٣.

٢ سورة المائدة آية ٥٤.

---

(١) عقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر بن علي ناصر بن علي عائض حسن الشيخ ٢٥٦/١

٣ سورة آل عمران آية ٢٦.

٤ سورة النساء آية ٦٥.." (١)

"ب- تعظيم نظامهم الياسق، وتنفيذ بعض بنوده ولو كانت مخالفة للشريعة االإسلامية.

ج-- تعطل بعض شرائع الإسلام، مثل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والكف عن دماء المسلمين، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، وغير ذلك.

د- إقرار المنكرات، مثل أماكن الخمور والزنا، والسماح للنصارى بتعليق الصلبان، كما حدث في بيت المقدس والخليل زمن التتار.

ولكنهم مع هذا يعلنون إسلامهم وإقرارهم بالشهادتين، بل ويزعم قازان في رسائله إلى السلطان الناصر قلاوون أنهم كلهم أهل ملة واحدة، شرفهم الله بدين الإسلام وأنه دافع عن أهل ماردين الذين هاجمهم بعض جنود المماليك، وأنه إنما يقاتلهم لما أخذته **الحمية** الإسلامية، وفي مرسوم آخر أصدره لما احتل دمشق يتهم فيه حكام مصر والشام بأنهم خارجون عن طريق الدين، غير متمسكين بأحكام الإسلام (١) .

أمام هذه الأوضاع والدعاوي، ومع نشوب الحرب بين أهل الشام والتتار وقع الناس في حيرة من هذه المسألة، كيف يقاتلون التتر وهم يدعون الإسلام، ويعلنون الشهادتين؟، ولم تقتصر هذه الحيرة على عامة الناس، بل إن العلماء والفقهاء أيضا وقعوا في حيرة، واحتاج الأمر إلى وضوح الحكم في هذه المسألة الواقعية، وبيان الحق فيها، حتى يسير الناس وهم على الهدى، فكان ممن انتدب، وندب نفسه لبيانها شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- تعالى- وجاء ذلك على محورين:

محور علمي: يبين حكم هؤلاء التتار، وقد وردت عدة أسئلة وجهت إلى ابن تيمية حول هؤلاء الذين يعلنون الشهادتين، ويقتلون المسلمين، ويسبون بعض ذراري المسلمين ويهتكون حرمات الدين من إذلال المسلمين، وإهانة المساجد لاسيما بيت المقدس.... وادعوا مع ذلك تحريم قتال مقاتلهم

---

(١) انظر: نصوص رسائل قازان إلى الناصر قلاوون وأجوبته عليها في وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي (ص: ٣٨٣-٣ ٥ ٤) .." (٢)

---

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم محمد خليل ملكاوي ص/٣٨

(٢) موقف ابن تيمية من ال أ شاعرة عبد الرحمن بن صالح المحمود ١/١٣٠

"١٩- السرمري: يوسف بن محمد بن مسعود العقيلي، ٦٩٦- ٧٧٦ هـ (١) .

٢٠- يعقوب بن فارس الجعبري، توفي سنة ٧٢٦ هـ (٢) .

٢١- علي بن أحمد بن هوس الهلالمط، ت ٧٢٧ هـ (٣) .

٢٢- محمد بن علي البابا الحلبي العوام، توفي سنة ٧٢٥ هـ (٤) .

٢٣- إبراهيم بن الموله البعلبكي، توفي سنة ٧٢٥ هـ (٥) .

٢٤- عبد الله بن مومى الجزرى، توفي سنة ٧٢٥ هـ (٦) .

٢٥- أم زينب فاطمة بنت عباس، توفيت سنة ٧١٤ هـ (٧) .

وغيرهم كثير، ذكرهم في الرد الوافر، والشهادة الزكية.

تاسعا: مؤلفاته ورسائله:

قبل الدخول في الكلام عن مؤلفاته نشير إلى بعض الملامح حول طريقته في الكتابة فابن تيمية كان سريعا في الكتابة، وكان له جلد عليها، يقول أخوه عبد الله: "وقد من الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل" (٨) ويقول ابن عبد الهادي: " وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلدا لطفيا في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر، وأحصيت ما كتبه وبيضه في يوم فكان ثماني كراريس في مسألة من أشكل المسائل" (٩) .

---

(١) له نظم: الحمية الاسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية " لحظ الألحاظ (ص: ١٦٠) ، أو بغية الوعاة (٣٦٠/٢) ، والدرر الكامنة (٢٤٩/٥) .

(٢) البداية والنهاية (١٢٧/١٤) .

(٣) المصدر السابق (١٤/ ١٣٠) .

(٤) نفسه (١٢٠/١٤) .

(٥) نفسه (١١٩/١٤) .

(٦) نفسه (١١٩/١٤) .

(٧) نفسه (٧٢/١٤) .

(٨) العقود (ص: ٦٤) ، وانظر أعيان العصر- مجموع للمنجد (ص: ٥٠) .

(٩) المصدر السابق (ص: ٦٤) .." [١]

"ولا ريب أن فيه دقة وغموضا لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من **الأنفة والحمية** يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل، ونقلوا الناس في مخاطبتهم درجات كما ينقل إخوانهم القرامطة المستجيبين لهم درجة بعد درجة ... " (١) . ومن منهجهم فرارهم إلى التقليد، فرأس الطائفة إذا قال كلاما بقى ذلك الكلام "دائرا في الاتباع، يدرسونه كما يدرس المؤمنون كلام الله، وأكثر من يتكلم به لا يفهمه، وكلما كانت العبارات أبعد عن الفهم كانوا لها أشد تعظيما، وهذه حال الأمم الضالة، كلما كان الشيء مجهولا كانوا أشد له تعظيما، كما يعظم الرافضة المنتظر، الذي ليس لهم منه حس ولا خبر ولا وقعوا له على عين ولا أثر، وكذلك تعظيم الجهال من المتصوفة الغوث وخاتم الأولياء، ونحو ذلك مما لا يعرفون له حقيقة" (٢) ، ثم يقول شيخ الإسلام عن تقليدهم لشيوخهم:" وهذا القدر قد تبينته من الطوائف المخالفين للكتاب والسنة - ولو في أدنى شيء ممن رأيت كتبهم وممن خاطبتهم، وممن بلغني أخبارهم - إذا أقيمت على أحدهم الحجة العقلية التي يجب على طريقته قبولها، ولم يجد له ما يدفعها به فر إلى التقليد ولجأ إلى قول شيوخه، وقد كان في أول الأمر يدعو إلى النظر والمناظرة، والاعتصام بالعقليات والإعراض عن الشرعيات، ثم إنه في آخر الأمر لا حصل له علم من الشرعيات ولا من العقليات، بل هو كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣] " (٣) . ثم يذكر تناقضهم فيقول:" ولست تجد أحدا من هؤلاء إلا متناقضا وهو نفسه يخالف قول ذلك المتبوع الذي عظمه في موضع آخر" (٤) .

---

(١) درء التعارض (١/٢٩٥-٢٩٦) ، وأيضا (٥/٦١-٦٢) .

(٢) درء التعارض (٥/٣١٥) .

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة عبد الرحمن بن صالح المحمود ٢٠١/١

(٣) درء التعارض (٥/٣١٧) .

(٤) نفس المصدر (٥/٣١٨) .." [1]

"المطلب الثالث

العبادة.

أ- تعريفها:

عرف الشيخ عبد الرزاق: العبادة بأنها التأله والتذلل لله وحده والانقياد له سبحانه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه (١).

والعبادة في اللغة: مصدر عبد يعبد عبادة.

يقول ابن فارس - رحمه الله -: "العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان:

والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل.

والآخر على شدة وغلظ " (٢).

والعبادة تطلق في اللغة على معان متعددة منها: الخضوع والذلة، والقوة والصلابة، **والأنفة** والكراهة، والطاعة والتنسك والمملوكية (٣).

والمتأمل في هذه المعاني يراها ترجع إلى الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس، ولا تخرج عنهما.

أما العبادة في الشرع: فإن معانيها تتنوع بحسب اعتبارات سياقاتها، فالعبادة باعتبار أصلها هي مصدر بمعنى التعبد، وهي بهذا المعنى التذلل لله والخضوع له بفعل أوامره واجتناب نواهيه، مع المحبة والتعظيم. والعبادة باعتبار أفرادها هي اسم بمعنى المتعبد به، وهي بهذا المعنى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة (٤).

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٧٦، ٨٧).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص ٧٢٨).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (٣/ ٢٢٩٩ - ٢٣٠٥)، الصحاح (٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤)، لسان العرب (٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣)، القاموس المحيط (ص ٣٧٨ - ٣٧٩).

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة عبد الرحمن بن صالح المحمود ١/٢٩٣

(٤) ينظر: العبودية لابن تيمية (ص ٥ - ٦)، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص ٣٥)، معارج القبول لحافظ الحكمي (١/ ٨٤)، تقريب التدمرية لابن عثيمين (ص ١٢٩).." [١]

"قال ابن القيم في النونية (١):

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: " العزيز الذي يقهر ولا يقهر، فإن العزة التي لله -تعالى- هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقية الممدوحة، وقد تستعار العزة للحمية **والأنفة**، فيوصف بها الكافر والفاسق، وهي صفة مذمومة، ومنه قوله تعالى: ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ البقرة: ٢٠٦، وأما قوله: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾ فاطر: ١٠، فمعناه: من كان يريد أن يعز، فليكتسب العزة من الله، فإنها لا تنال إلا بطاعته، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله﴾ المنافقون: ٨، وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة، كقوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ التوبة: ١٢٨، وبمعنى الغلبة ومنه ﴿وعزني في الخطاب (٢٣)﴾ ص: ٢٣؛ وبمعنى القلة: كقولهم: شاة عزوز، إذا قل لبنها، وبمعنى الامتناع، ومنه قولهم: أرض عزاز، بفتح أوله مخففا" ا. هـ (٢).

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (١/ ٧١١).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٦٩) وذكر أن هذا كلام الراغب، ولكن الحافظ تصرف فيه فزاد وأنقص، ولهذا رأيت أن أضيفه إليه. وينظر: شرح البراك للواسطية (١/ ١٠٥)، وطريق الهجرتين (١/ ١٨٦)، ومجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٨/ ٢٩١) (٩/ ٣١٣).." [٢]

"والعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف (١).

ويبين ابن أبي العز - رحمه الله - أوجه الجواب عما ورد من النهي عن التفضيل بين الأنبياء مع ثبوته في

---

(١) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين أحمد بن علي الزاملي ص/٨٣

(٢) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين أحمد بن علي الزاملي ص/١٤٣

الكتاب والسنة، فأجاب على هذا بما يلي: "

١ - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما نهى عن تفضيله على موسى لسبب، ما وقع بين المسلم واليهودي (٢).

فنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذا التفضيل لأنه على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس وهو أمر مذموم، بل حتى الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام يكون مذموما حابطا إذا كان على وجه الحمية والعصبية وليس لإعلاء كلمة الله.

٢ - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن التفضيل الذي يؤدي إلى تنقص المفضول، ومعلوم أن هذا لا يجوز، فلا يحل تنقص الأنبياء عليهم السلام.

٣ - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما نهى عن التفضيل الخاص، كقول" محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل من موسى"، أما التفضيل العام بدون ذكر عين المفضول المقابل فلا بأس به، كما دلت عليه الأحاديث.

٤ - أما حديث: (لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى) (٣). فهذا يدل على العموم، أي لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى - عليه السلام -، وليس فيه نهي

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ١٦١ - ١٦٢)، ورسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لعبد الرحمن اليحي (ص ١٨٦)، فتاوى وأحكام في نبي الله عيسى أجاب عنها الشيخ ابن جبرين جمع علي العماري (٨١ - ٨٢).

(٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: (استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: (والذي اصطفى موسى على العالمين) فرفع المسلم يده فلطم وجه اليهودي، فقال: (أي خبيث وعلى محمد - صلى الله عليه وسلم -)، فجاء اليهودي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فاشتكى المسلم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (لا تفضلوني على الأنبياء ...) الحديث.

أخرجه أحمد (٣/ ٤١) بلفظ: (لا تفضلوا بعض النبيين على بعض) من حديث أبي سعيد الخدري، والبخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين إلى قوله فمتعناهم إلى حين ... برقم (٣٤١٤)، ومسلم كتاب الفضائل باب من فضائل موسى - عليه السلام - (١٥٩)، بلفظ: (لا تفضلوا بين أنبياء الله).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب قوله ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين برقم (٤٦٣٠)، ومسلم في كتاب الفضائل باب في ذكر يونس – عليه السلام – ... (٢٣٧٧) كلاهما بلفظ: (ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى).." (١)

"العالم بعين الأنبياء، فرأى إنسانا قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضر، رأى إنسانا معكوسا قد فسدت عقليته..، وفسد نظام فكره..، وفسد ذوقه..، رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم، وكل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله..، فقد أصبح فيه الذئب راعيا، والخصم الجائر قاضيا، وأصبح المجرم فيه سعيدا حظيا، والصالح محروما شقيا..، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك.

ورأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الإغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع..، ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد.. رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا، وعباد الله خولا١، ورأى أحبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

المواهب البشرية ضائعة أو زائفة، لم ينتفع بها، ولم توجه التوجيه الصحيح، فعادت وبالا على أصحابها، وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية، والجود تبذيرا وإسرافا، والأنفة حمية جاهلية،

---

١ خولا: أي عبيدا وخدما.

انظر: لسان العرب ١١/٢٢٤.." (٢)

"اضطهادات أو مشاق يقابلونها بسبب عقيدتهم، ثم انطلقوا ينشرونها، ويدافعون عنها ويبذلون في ذلك الأنفس والنفائس.

يقول ابن الوزير اليماني:

لولا ثقل موازينهم في الشرف والدين ما اتبعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأدلة الدين الجديد فلم يعبأوا أمام وضوح الأدلة ورسوخها في عقولهم ومالوا عن إلف دين الآباء والأتراب والقرباء إلى أمر شاق على القلوب، ثقيل على النفوس، لا سيما وهم في ذلك الزمان أهل الأنفة (١) .

---

(١) منهج الشيخ عبد الرزاق عفيفي وجهوده في تقرير العقيدة والرد على المخالفين أحمد بن علي الزاملي ص/٣٧٦

(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام حمود الرحيلي ١/٣٢٨

والصحابة – رضي الله عنهم – هم أيضا الواسطة بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبين الأمة، ولذلك امتدحهم عليه السلام وجعلهم الأفضل على مدى الأجيال، ففي حديث صحيح قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " (٢) .

قال ابن عبد البر: (وما أظن أهل دين من الأديان إلا وعلماؤهم معنيون بمعرفة أصحاب أنبيائهم، لأنهم الواسطة بين النبي وبين أمته) (٣) .

والأدلة كثيرة تدل على فطنتهم وذكائهم، وأنهم كانوا أصحاب دراية وفكر ونظر، ولم يكونوا من السذج بحيث يخدعون أو يؤمنون كإيمان العامة. يروي لنا ابن كثير في تفسيره عن أحد صالحي المهاجرين وهو جندب بن كعب الأزدي أنه رأى عند الوليد بن عقبة ساحرا يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصبح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى! فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه، وذهب حيث يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال: إن كان صادقا فليحي نفسه وتلا قوله تعالى: (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) [الأنبياء، الآية: ٣] ولا شك أنه كان يعرف الحديث "حد الساحر ضربة

---

(١) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم ج ١ ص ٥٥.

(٢) رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه –.

والمد: ربع الصاع، وإنما قدره لأنها أقل ما كانوا يتصدقون به في العادة.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ص ١٩.." (١)

"أورثتهم العار والبوار والفضيحة وإيغار الصدور على عمر رضي الله عنه، ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة على رضي الله عنه الى الذل والعجز والخور بل ونسبة جميع بنى هاشم وهم أهل النخوة والنجدة **والأنفة** إلى ذلك العار اللاحق بهم الذي لا أقبح منه عليهم، بل ونسبة جميع الصحابة رضي الله عنهم إلى ذلك، وكيف يسع من له أدنى ذوق أن ينسبهم إلى ذلك مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته حتى قاتلوا وقتلوا الآباء والأبناء في طلب مرضاته لا يتوهم إلحاق أدنى نقص أو سكوت على باطل بهؤلاء العصابة الكمل الذين طهرهم الله من كل

---

(١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين مصطفى حلمي ص/٢٧

رجس ودنس ونقص على لسان نبيه في الكتاب والسنة، كما قدمته في المقدمة الأولى أول الكتاب. بواسطة صحبتهم له صلى الله عليه وسلم وموته وهو عنهم راض وصدقهم في محبته واتباعه إلا عبدا أضله الله وخذله فباء منه تعالى بعظيم الخسار والبوار، وأحله الله تعالى نار جهنم وبئس القرار. نسأل الله السلامة آمين. ... (ص ٧٣: ٧٧) .

وبعد أن دحض شبهات الرافضة انتقل إلى الباب الثانى (ص ٧٨) وجعل عنوانه:

" فيما جاء عن أكابر أهل البيت من مزيد الثناء على الشيخين ليعلم براءتهما مما يقول الشيعة والرافضة من عجائب الكذب والافتراء، وليعلم بطلان ما زعموه من أن عليا إنما فعل ما أثر عنه تقية ومداراة وخوفا، وغير ذلك من قبائحهم ".

ويقع هذا الباب في ثمان صفحات، يحسن قراءتها، ولولا الإطالة لنقلتها كاملة، وأكتفى هنا بما ختم به هذا الباب (ص ٨٥) حيث قال:

" فهذه أقاويل المعتبرين من أهل البيت رواها عنهم الأئمة الحفاظ الذين عليهم المعول في معرفة الأحاديث والآثار، وتمييز صحيحها من سقيمها بأسانيدهم المتصلة، فكيف يسمح المتمسك بحبل أهل البيت، ويزعم حبهم أن يعدل عما قالوه." (١)

"الجماعة والإمامة:

. الجماعة هم أصحاب النبي (*) صلى الله عليه وسلم، والتابعون لهم بإحسان، المتمسكون بآثارهم إلى يوم القيامة، وهم الفرقة الناجية.

. وكل من التزم بمنهجهم (*) فهو من الجماعة، وإن أخطأ في بعض الجزئيات.

. لا يجوز التفرق في الدين (*) ، ولا الفتنة بين المسلمين، ويجب رد ما اختلف فيه المسلمون إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح.

. من خرج عن الجماعة وجب نصحه، ودعوته، ومجادلته بالتي هي أحسن، وإقامة الحجة عليه، فإن تاب وإلا عوقب بما يستحق شرعا.

. إنما يجب حمل الناس على الجمل الثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع (*) ، ولا يجوز امتحان عامة المسلمين بالأمور الدقيقة، والمعاني العميقة.

. الأصل في جميع المسلمين سلامة القصد المعتقد، حتى يظهر خلاف ذلك، والأصل حمل كلامهم على

---

(١) مع الاثنى عشرية في الأصول والفروع علي السالوس ص/٢٤٥

المحمل الحسن، ومن ظهر عناده وسوء قصده فلا يجوز تكلف التأويلات له.

. الإمامة الكبرى تثبت بإجماع الأمة، أو بيعة ذوي الحل والعقد منهم، ومن تغلب حتى اجتمعت عليه الكلمة وجبت طاعته بالمعروف، ومناصحته، وحرم الخروج عليه إلا إذا ظهر منه كفر (*) بواح فيه من الله برهان. وكانت عند الخارجين القدرة على ذلك.

. الصلاة والحج والجهاد (*) واجبة مع أئمة المسلمين وإن جاروا.

. يحرم القتال بين المسلمين على الدنيا، أو الحمية الجاهلية (*) ؛ وهو من أكبر الكبائر (*) ، وإنما يجوز قتال أهل البدعة (*) والبغي، وأشباههم، إذا لم يمكن دفعهم بأقل من ذلك، وقد يجب بحسب المصلحة والحال.

. الصحابة الكرام كلهم عدول، وهم أفضل هذه الأمة، والشهادة لهم بالإيمان والفضل أصل قطعي معلوم من الدين بالضرورة، ومحبتهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق، مع الكف عما شجر بينهم، وترك الخوض فيما يقدح في قدرهم.

وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وهم الخلفاء الراشدون. وتثبت خلافة كل منهم حسب ترتيبهم.

. من الدين محبة آل بيت رسول (*) الله صلى الله عليه وسلم وتوليهم، وتعظيم قدر أزواجه . أمهات المؤمنين، ومعرفة فضلهن، ومحبة أئمة السلف، وعلماء السنة والتابعين لهم بإحسان ومجانبة أهل البدع والأهواء.

.." (١)

"وعد كثير من مفكريها العودة للدعوة لها دليلا على الرجعية والتخلف وعنصرا هداما للإنسانية، واعتبروها نوعا من التجارب التي لجأت إليها أوروبا في ظروف خاصة وفي وقت محدود، ثم نقل عن المؤرخ الشهير "أرنولد توينبي" قوله: "القومية لا تستطيع أبدا أن توحد الإنسانية، بل إنها توزعها وتشتت شملها، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل، وأنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية في ركامها، وأننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي أن تحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء، ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة"١.

ثم ألا يعلم القوميون العرب بخصوصهم أن العرب قبل الإسلام كانوا في غاية الأنفة والحمية والفصاحة

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة مجموعة من المؤلفين ١/٤١

العجيبة، فما الذي أغنت عنهم، وهل جنبتهم غضب الله، أو جنبتهم الذل لغيرهم من سائر الأجناس، أليس كان الفرس ينظرون إلى العرب كما ينظرون إلى الحشرات، لا يقيمون لهم وزنا ولا قيمة، فلماذا لم تدافع عنهم القومية، وهل ستدافع عن المسلمين والعرب اليوم لولا ذوابها؟! وكم دعوا لها وكم لاذوا بها فكانت النتيجة ما نشاهده اليوم من تفرقهم وتشتتهم وذلهم الذي بلغ ذورته مع وصول القومية إلى ذورتها على أيدي ملاحدة البعث ونصارى العرب وغيرهم من مغفلي المسلمين وأصحاب المصالح، الذين أذلتهم بطونهم ومطامعهم، الذين هم أشبه ما يكونون بالقطط الذين يشبعون، والنمور جياع، ثم أليست شريعة القوميين هي نفسها الشريعة التي كانت في الجاهلية من التعصب القبلي –انصر أخاك ظالما أو

---

١ انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص١١٩.." (١)

"مظلوما– ومن الدعوة إلى الفجور والفواحش، ومن التعالي والبغي على الناس بغير الحق، ومن تقديس رءوس الكفر واحترامهم، وعدم وجود العزة **والأنفة** التي يتميز بها المسلم أمام أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، حتى أصبح راضيا مطمئنا بأن يتولى عليه من لا يساوي شراك نعله من ضلال اليهود والنصارى وغيرهم من كبار الفساق؛ لأن شريعة القومية توجب ذلك لأن العروبة حين تجمع بين هؤلاء جميعا لا يبقى أي مزية للمسلم على الآخرين، وهذا المفهوم منطقي مع استبدال الدين بالقومية.

ألم يعلم الأشرار دعاة القومية أن المسلمين كانت لهم بالإسلام عزة طأطأ الجبابرة لها جباههم ذلا وانكسارا، وملكوا بها الشرق والغرب، ودخل الناس في الإسلام أفواجا راهبين وراغبين، فاغتبطوا به وفازوا في الدنيا والآخرة، وأصبح المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وكانوا قلبا واحدا، هدفهم واحد، وتفكيرهم واحد، وعبادتهم واحدة، نشروا الإسلام رغبة في الأجر العظيم من الله لا حبا في التملك ولا رغبة في السيطرة، حتى أدوا ما أوجبه الله عليهم من نشر دينه وقمع الفساد والمفسدين.

وإذا كنا ننكر الدعوة إلى القوميات عموما والقومية العربية بخصوصها، فما ذاك إلا من شدة الحرص على أن لا تفوت البقية الباقية من عز العرب المسلمين، وليس تجاهلا لفضل العرب والعربية، وليس ما نذكره هنا في فضل العرب بمبرر للافتخار به على طريقة القومية الجاهلية، وإنما هو تبيان للحقيقة.." (٢)

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها د. غالب بن علي عواجي ٩٣٢/٢

(٢) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها د. غالب بن علي عواجي ٩٣٣/٢

"وصفاته ومعيشته، لقد أرادت النظريات الإلحادية أن تقنع الإنسان عن طريق المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ أنه من صنع الطبيعة، وأن وجوده ترتب أولا على الماد، وعليها بنى تاريخه، ثم كالوا الشبهات لإقناعه، إلا أنه لم يقتنع ولن يقتنع، وهو على حق في هذا، فإن الله تعالى إنما أعطى الإنسان العقل لكي يعرف به ربه وخالقه، وقد فطره الله على ذلك، ولكن الملاحدة جعلوا همهم الوحيد وشغلهم الشاغل هو نشر الإلحاد وإقصاء الدين بأي ثمن يكون، وبأي شبهة تقال، وبأية وسيلة، المهم في كل ذلك هو إبعاد أذهان الناس عن خالقهم -جل وعلا، وقد تمثلت محاربتهم لله -عز وجل- حتى في التسمية، فإن استبدالهم اسم الله باسم الطبيعة ثم باسم المادة، الغرض منه إضعاف الرباط النفسي اللاشعوري باسم الله في النفس، فلا تحس بعد تسمية الله بالمادة أو الطبيعة أي شوق أو احترام للإله العظيم؛ إذ أن الطبيعة لا تستحق التوقير والاحترام الذي يستحقه الله لو بقي اسمه -جل وعلا.

والواقع أن الملاحدة يهدفون من محاولتهم صرف أذهان الناس عن وجود إله بعد نشر الرذائل بكل صورها، يهدفون إلى استعباد الناس وجعلهم حميرا يركبونهم ويسوقونهم كما يشاءون؛ لأن الناس حينئذ سيكونون كالبهائهم لا يحسون بأية قيمة لهم، مثلهم مثل سائر الحشرات التي خلقت لتأكل وتشرب وتتناسل ثم تموت، ذلك لأن مصدر التكريم للإنسان هو الله -عز وجل- الذي فضله واستخلفه في الأرض وجعله مكرما سيد البر والبحر، فإذا تم إبعاد هذا المفهوم عن الإنسان سهل بعد ذلك أن يتقبل الإهانات بشتى أنواعها، بعد أن يفقد آدميته ويرى نفسه بعد ذلك لا فرق بينه وبين الخنازير والكلاب وسائر الحيوانات والحشرات، فتموت فيه الهمة والشهامة **والأنفة** وسائر الصفات الجميلة؛ إذ لا فرق بين البهائم وبين الناس إلا سمو الأخلاق، والقيام بالتكاليف الشرعية، والإحساس بأهميته.." (١)

"وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية وفي كلام علماء الفقه الإسلامي بيان كل ما يتعلق بنظام الإرث الشامل لكل من يستحقه من ذكور أو إناث صغارا كانوا أم كبارا، مع الالتفات إلى الميت صاحب المال نفسه إذا جعل له حدا في التصرف بماله، وفي ما يوصي به إن أراد الوصية، خلافا لأنظمة الجاهلية التي لا تعير هذا الجانب أي اهتمام؛ كالاشتراكية التي تعترف بحق الإرث مهما كان، أو الرأسمالية التي لا تعترف به بأي وجه من وجوه الإرث من مال الغير ١، الأولى نتيجة لمصادرتها جميع حقوق الناس، والثانية لشرهها في حب المال والتنافس في جمعه، وكما هو حاصل مع الأسف في بعض المجتمعات الإسلامية الجاهلة التي لا ترى إرث المرأة من مال أبيها، وهو ظلم فاحش بسبب **الأنفة** والعصبية الجاهلية. والغرض من ذكر

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها د. غالب بن علي عواجي ١١٨١/٢

الإرث هنا هو بيان أن الميراث هو مصدر كأحد المصادر التي تمثل جانبا في سد الحاجة كغيره من سائر الموراد التي أتاحها الإسلام لأتباعه، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم: "لئن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس" ٢.

المسألة التاسعة: الوصية

وكذا مشروعية الوصية من المال الثلث فأقل لتوزيعها في جهات خيرية من أقرباء أو غيرهم، كما قال تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف

---

١ إن بعض المجتمعات عندهم عرف وهو إرث الولد الأكبر لجميع التركه دون غيره من أخواته وأخواته، انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص١١٥.

٢ تقدم تخريجه.." (١)

"المطلب الثاني: من أنواع الكفر الأكبر "كفر الإباء والاستكبار"

أولا: تعريفه

هو أن يعرف الإنسان الحق بقلبه، ويعترف به بلسانه، ولكنه يأبى أن يقبله أو يدين به؛ إما أشرا وبطرا، وإما احتقارا له ولأهله، أو لسبب آخر١.

ثانيا: من الأمثلة عليه، مع الأدلة

١- كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله عز وجل، ولا قابله بالإنكار، وغنما تلقاه بالإباء والاستكبار٢؛ كما قال عز وجل: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤] .

٢- كفر من عرف صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء بالحق من عند الله عز وجل؛ عرف، وأقر بذلك، ولم يشك في صدقه؛ لكنه لم ينقد إليه إباء واستكبارا، أو أخذته **الحمية** وتعظيم الآباء أن يرغب عن ملتهم، أو يشهد عليهم بالكفر٢.

وخير من يمثل هذه الحال: أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي عرف صدق ابن أخيه، واعترف بذلك قائلا:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها د. غالب بن علي عواجي ١٢٨٦/٢

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا٣

لكن هذه المعرفة والإقرار لم ينفعاه؛ لأنه أبى أن ينقاد ويقول: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"؛ خشية أن يقال: ترك دين آبائه وأجداده. وقد سأل العباس رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حال أبي طالب في الآخرة، فأجابه: "هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" ٤؛ فهو خالد في النار، لكن عذابه أهون من غيره.

---

١ انظر: أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي ص١٤٩. ومدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لعثمان جمعة ضميرية ص٣٣٨.

٢ انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٦٦.

٣ انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٢/ ٤٦١.

٤ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب، والتخفيف عنه بسببه.." (١)

"وكذلك منعهم الحسد كما عند اليهود وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل عمرو بن هشام يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور لكنهم قالوا: منا رسول وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدا لبني هاشم. ويقول أبو طالب في قصيدته:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

يعترف بقلبه برسالة محمد لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله بل لا بد أن ينطق بلسانه. ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب، بل لا بد من أمر ثالث وهو الاتباع، قال الله تعالى فيه: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٧]." (٢)

---

(١) المفيد في مهمات التوحيد عبد القادر عطا صوفي ص/١٧٨

(٢) شرح ثلاثة الأصول لصالح الفوزان صالح الفوزان ص/١٨١

"أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) [غافر: ٢٨] وهكذا استمر الصراع بين الحق والباطل واستمر الولاء والعداء، تتقاذفه الأعراف، وتكيفه المفاهيم، حتى نصل إلى العرب قبل الإسلام، فنجد أنهم لا يختلفون عن أي مجتمع جاهلي، سبقهم أو لحقهم، في سوء التصور، وفساد الاعتقاد بالموالاة والمعاداة حتى وصل بهم الأمر إلى أن يعادي الإنسان منهم ابنته، فلذة كبده، فيقتلها موالاة للعرف الجاهلي، ولكسب رضا العشيرة والقبيلة، وخوفا من شماتتها وعدائها، فقد روي أن رجلا من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «مالك تكون محزونا؟» فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبا في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «أخبرني عن ذنبك؟» فقال: يا رسول الله أني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنتا فشفعت إلي أمها أن أتركها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء، فخطبها الناس، فدخلتني الغيرة **والحمية** ولم يحتمل قلبي أن أزوجها، أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت لامرأتي أني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بأجمل الثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر بحجة أن نرتوي منه فلما وصلنا نظرت إلى البئر ففطنت البنت أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي، فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت علي **الحمية**، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي، فجعلت مرة أنظر في البئر فأهم بإلقائها ومرة انظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر، وهي تنادي قتلتني يا أبي، فمكثت غير." (١)

"أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وقد يسأل سائل ما هو البديل عن ذلك؟

والجواب كما يأتي في قضية الابتعاث (١) هو الاهتمام بنوعية الأفراد ونوعية التكوين الثقافي للأفراد بحيث يتم تحصين الأفراد علميا وخلقيا وفكريا ضد مخططات الأعداء ومقاصدهم الخبيثة.

كما أنه يمكن استقدام الخبراء اللازمين للتدريب على الأسلحة لفترة محدودة وتحت إشراف دقيق يتم فيه توجيه الخبراء والمتدربين لتحقيق الهدف المنشود من شراء الأسلحة والتدريب عليها، وبذلك نضمن في

---

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية محماس الجلعود ١/٥٩

أقل الأحوال سلامة الأفراد من أن ينفرد بهم الكفار، فيسيطروا على عقلياتهم وأخلاقهم سيطرة تامة كما هو حاصل في وقتنا الحاضر من معظم البلاد الإسلامية.

وإذا كانت بعض دول الكفر تحتكر أنواعا من الأسلحة فلا تبيعها إلا بثمنين:

الثمن الأول: هو الموالاة لها على كفرها بالقول والفعل.

الثمن الثاني: هو نهب خيرات البلاد والعباد مقابل عدد من قطع السلاح التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فإن واجب المسلمين أن يرفضوا التعامل بمثل تلك الصورة التي تنطوي على استذلال الكفار للمسلمين، وأن يتعامل المسلمون مع الكفار من مركز القوة والعزة والأنفة والإباء قال تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٢) فلا يجوز موالاة الكفار مقابل السلاح أو غيره. فلا يوالي الكفار من أجل سلاحهم أو الدخول في حمايتهم، أو قتالهم معه، إلا منافق ظاهر النفاق قال تعالى: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا

---

(١) انظر ص٧٨٧ - ٨١٣ من هذه الرسالة.

(٢) سورة المنافقين آية (٨).." (١)

"آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودي رحمه الله في كتابه القيم (مبادئ الإسلام) (١) تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي: -

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة. أو من يجحدها.

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحيي المميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته. لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

---

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية محماس الجلعود ٢/٨٢٨

(٤) المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة. فمنهم من يقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم

---

(١) مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي (ص٨٠ – ٨٧) الناشر مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧ هـ.." [١]

"وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣] .

(٢) كفر إباء واستكبار: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباء واستكبارا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه:

﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ [سورة المؤمنون:٤٧] .

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته **الحمية**، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم.

(٣) كفر إعراض: مثل من يعرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي صلى الله عليه وسلم (والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك) (١) .

(٤) كفر الشك: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

(٥) كفر نفاق: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه – نعوذ بالله منه – ننتقل إلى تبيان الشرك – نعوذ

---

(١) علق الشيخ محمد حامد الفقي على هذا بقوله (وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام محمد بن سعيد القحطاني ص/٥١

إسلامية، المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى، المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية (مدارج السالكين ١/٢٢٨ (الحاشية) .." [١]

"وينبه رحمه الله إلى طريقتهم إذا ذكروا لأحد كلامهم المجمل فاعترض عليهم بما تنفر عنه فطرته، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من **الأنفة** **والحمية** ما يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل.

والاستفصال في الألفاظ المجملة نافع في الشرع والعقل:

أما الشرع: فإن علينا أن نؤمن بما قاله الله ورسوله، فكل ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله فعلينا أن نصدق به، وإن لم نفهم معناه؛ لأنا قد علمنا أنه الصادق المصدوق الذي لا يقول على الله إلا الحق.

وما تنازع فيه الأمة من الألفاظ المجملة فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء، لا في النفي ولا في الإثبات، حتى يستفصل ويبين له معناه، ويكون المعنى صوابا: إذا كان موافقا لقول المعصوم.

أما العقل: فمن تكلم بلفظ يحتمل معاني، لم يقبل قوله ولم يرد حتى نستفسره ونستفصله، ليتبين المعنى المراد، ويبقى الكلام في المعاني العقلية، لا في المنازعات اللفظية (١) .

١٥ - الاستفصال في الألفاظ المجملة يكون كالتالي:

إن أراد المثبت لهذه الألفاظ بها معنى صحيحا، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد النافي لهذه الألفاظ معنى صحيحا، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد المثبت لهذه الألفاظ معنى باطلا: نفي ذلك المعنى عن الله عز وجل.

وأما من أثبت بلفظه حقا وباطلا، أو نفى بلفظه حقا وباطلا: فكلاهما

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/٢٩٥ - ٣٠٠.." [٢]

"فيها مؤاخذات السبكي على ابن تيمية في قصيدته، ورد عليها واحدة واحدة، فكان رده على مسألة إمكان حوادث لا أول لها قوله:

أما حوادث لا مبدا لأولها ... فذاك من أغرب المحكي وأعجبه

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام محمد بن سعيد القحطاني ص/٧١

(٢) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد عبد الله بن صالح الغصن ص/١٩٩

قصرت في الفهم فاقصر في الكلام فما ... ذا عشك ادرج فما صقر كعنظبه (١)

لو قلت قال كذا ثم الجواب كذا ... لبان مخطئ قول من مصوبه (٢)

أجملت قولا فأجملت الجواب ولو ... فصلت فصلت تبيانا لأغربه

إن قلت كان ولا علم لديه ولا ... كلام لا قدرة أصلا كفرت به

أو قلت أحدثها بعد استحالتها ... في حقه سمت نقص ما احتججت به

وكيف يوجدها بعد استحالتها ... فيه أيقدر ميت رفع منكبه

أو قلت فعل اختيار منه ممتنع ... ضاهيت قول امرئ مغو بأنصبه (٣)

ولم يزل بصفات الفعل متصفا ... وبالكلام بعيدا في تقربه

سبحانه لم يزل ما شاء يفعله ... في كل ما زمن مامن معقبه

نوع الكلام كذا نوع الفعال قدي ... م لا المعين منه في ترتبه

وليس يفهم ذو عقل مقارنة الـ ... ـمفعول مع فاعل في نفس منصبه

يحب يبغض يرضى ثم يغضب ذا ... من وصفه، أرضه بعدا لمغضبه

والخلق ليس هو المخلوق تحسبه ... بل مصدر قائم بالنفس فادر به

وقول كن ليس بالشيء المكون والصـ ... ـغير يعرف هذا مع تلعبه

فالمصطفى قال كان الله قبل ولا ... شيء سواه تعالى في تحجبه (٤)

---

(١) العنظب: هو الذكر من الجراد، انظر لسان العرب لابن منظور ١/٦٣١ مادة (عنظب) .

(٢) يبين رحمه الله منهج المناوئين وهو الإجمال وعدم استطاعة التفصيل في عرض الدعاوى.

(٣) النصب: هو ما عبد من دون الله من الأحجار، وقد كانت حجارة تنصب حول الكعبة فيهل عليها، ويذبح لها من دون الله تعالى.

انظر: لسان العرب لابن منظور ١/٧٥٩ مادة (نصب) .

القاموس المحيط للفيروزآبادي ١/١٣٧ مادة (نصب) .

(٤) انظر: **الحمية** الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية للسرمري تحقيق صلاح الدين مقبول ص٦٨ - ٧٥.." (١)

---

(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد عبد الله بن صالح الغصن ص/٢٨٨

"وقد عارضت قصيدة السبكي (ت – ٧٥٦هـ) قصيدة أخرى (١) جاء فيها:

وخالق قبل مخلوق يكونه ... وقاهر قبل مقهور يكون به

وراحم قبل مرحوم فيرحمه ... ورازق قبل مرزوق بأضربه

عن أمره صدر المخلوق أجمعه ... والأمر ويحك لا شك يقوم به

وقد تكلم رب العرش بالكتب الـ ... ـمنزلات كلاما لا شبيه به

ولم يزل فاعلا أو قائلا أزلا ... إذا يشاء هذا الحق فارض به

هذي حوادث لا مبدا لأولها ... بالنص فافهمه يا نومان وانتبه

إذ هي صفات لموصوف تقوم به ... قديمة مثله من غير ما شبه

ومذهب القوم مروها كما وردت ... من غير شائبة التكييف والشبه (٢)

وأما دعوى قول شيخ الإسلام بقدم النوع، وأن هذا يستلزم القول بقدم العالم، فيحتاج المجيب عن هذه الدعوى إلى بسط قول شيخ الإسلام حول هذه المسألة، ليعرف هل قوله يستلزم ما ألزموه أم لا؟

إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرى أهمية مسألة التفريق بين دوام النوع، وحدوث الأفراد والأعيان، وبين أن من اهتدى إلى الفرق بين النوع والعين تبين له فصل الخطأ من الصواب في مسألة الأفعال، ومسألة الكلام والخطاب، وكشف له الحجاب عن الصواب في هذا الباب، الذي اضطرب فيه أولوا الألباب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٣) .

وبين رحمه الله أن التفريق بين النوع والعين هو الذي نطق به الكتاب والسنة والآثار، وأن الرب أوجد كل حادث بعد أن لم يكن موجدا له، وأن كل ما

---

(١) قائلها: أبو عبد الله محمد بن يوسف الشافعي اليمني، لم يعثر له على ترجمة انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية مقدمة التحقيق ١/١٠٩، وتحقيق القصيدة لصلاح الدين مقبول ص٩٩.

(٢) انظر: تحقيق القصيدة مع تحقيق قصيدة الحمية الإسلامية لصلاح الدين مقبول ص١١٥ – ١١٦.

(٣) انظر: الصفدية ١/٦٥، ٢/١٤٠.." (١)

"الذي يجب صرفه في قضاء دينه، وهذا كثير في الشريعة أن يكون العمل في أصله مشروعا، لكن الطريق إليه والوسيلة غير مشروعة (١) .

---

(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد عبد الله بن صالح الغصن ص/٢٨٩

وبعد هذا تبين لنا أن شيخ الإسلام رحمه الله متابع لمن قبله من السلف والأئمة، يجيز زيارة القبور الزيارة الشرعية – بما فيها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وينهى عن الزيارة غير الشرعية، ويرى حرمة شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة، وأنه لا صحة لما لفقه أعداؤه عليه، وما لبسوا فيه من الحق بالباطل على عامة الناس، ولهذا قيل في الرد عليهم:

وما نسبتم إليه عند ذكركم ... ترك الزيارة أمر لا يقول به

فقد أجابكم عن ذا بأجوبة ... أزال فيها صدى الإشكال والشبه

وقد تبين هذا في مناسكه ... لكل ذي فطنة في القول معربه

رميتموه ببهتان يشان به ... فالله ينصفه ممن رماه به

وفي الجواب أمور من تدبرها ... سقى الأنام بها من صفو مشربه

ولم يكن مانعا نفس الزيارة بل ... شد الرحال إليها فادر وانتبه

تمسكا بصحيح النقل متبعا ... خير القرون أولي التحقيق والنبه

مع الأئمة أهل الحق كلهم ... قالوا كما قال قولا غير مشتبه

وقد علمت يقينا حين وافقه ... أهل العراق على فتياه فافت به (٢)

---

(١) انظر: الرد على الأخنائي ص١٧٧ – ١٨١.

(٢) القائل أبو عبد الله محمد بن يوسف الشافعي اليمني، وانظرها: محققة مع نظيرتها الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد ص١٢٢ – ١٢٤، وقد ذكر في البيت الأخير موافقة أهل العراق أي علماء بغداد شيخ الإسلام في فتواه التي تمنع شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة، انظرها: مسطورة في مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩٤/٢٧ – ٢١٣، وفي العقود الدرية لابن عبد الهادي ص٣٤٢ – ٣٦٠.." [1]

"– حكم الإسلام في التوسل بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، محمد حسنين مخلوف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر ١٣٩٤هـ.

– الحكم الجديرة بالإذاعة، ابن رجب الحنبلي، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الثانية ١٤٠٨هـ.

---

(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية – عرض ونقد عبد الله بن صالح الغصن ص/٣٤٩

- حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد، محمد بن سلطان المعصومي، تحقيق محمد الخميس، دار العاصمة، الأولى ١٤١٤هـ.

- الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، محمد مدخلي، مكتبة لينة، الأولى ١٤٠٩هـ.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، الأولى ١٣٥١هـ.

- **الحمية** الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية، يوسف السرمري، تحقيق صلاح الدين مقبول، مجمع البحوث العلمية، نيودلهي، الأولى ١٤١٢هـ.

- حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بهجه البيطار، المكتب الإسلامي، الثالثة ١٤٠٧هـ.

- خبر الواحد في السنة، سهير مهنا، دار الشروق، الأولى.

- خطبة الحاجة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الثالثة ١٣٩٧هـ.

- خلافة معاوية بن أبي سفيان، عمر بن سليمان العقيلي، الرياض، الأولى ١٤٠٤هـ.

- خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، ضمن عقائد السلف للنشار وطالبي، منشأة المعارف، الإسكندرية.

- الخوارج عقيدة وفكرا وفلسفة، عامر النجار، عالم الكتب، الأولى ١٤٠٦هـ.

- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الأولى ١٤٠١هـ.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة.

- در السحابة في مناقب القرابة والصحابة، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق حسين العمري، دار الفكر، تصوير ١٤١١هـ.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت.

- الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مع شرحها لوامع الأنوار البهية، محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة الخافقين، دمشق، الثانية ١٤٠٢هـ.." (١)

"وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك.

فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة وكان قبل ذلك رجلا صالحا،

---

(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد عبد الله بن صالح الغصن ص/٦٤١

ولكن احتملته **الحمية١**، ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبا منافقا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: "إنه شهد بدرا"٢ فكان عمر متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها.

وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنما أنت منافق، تجادل عن المنافقين٣ هو من هذا الباب، وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق٤، وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق.

وبهذا يعلم فساد شبهتهم وزعمهم أن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه كرقم عشرة إذا زال بعض أجزائه زال الاسم عنه، وأنه لا يجتمع في القلب إيمان ونفاق وإيمان وبعض شعب الكفر٥.

---

١ رواه البخاري (الفتح ٧/ ٤٣٣) ، ومسلم (٤/٢١٣٤) .

٢ رواه البخاري (الفتح ٨/ ٦٣٣) .

٣ جزء من حديث الإفك المتقدم تخريجه.

٤ رواه البخاري (الفتح ١/ ٥١٩) ، ومسلم (١/ ٤٥٦) .

٥ انظر الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥١٤- ٥٢٤) .." (١)

"المبحث الثاني: النهى عن المفاضلة بين الأنبياء سدا لذريعة الانتقاص من أحدهم.

دل القرآن الكريم على أن الله فضل بعض النبيين على بعض كما قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ١، ومع هذا وردت أحاديث صحيحة تنهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض كما جاء في حديث أبى هريرة – رضي الله عنه – قال:"بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدا، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: "لم لطمت وجهه؟ " فذكره، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى رؤى في وجهه، ثم قال: "لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدرى أحوسب

---

(١) زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ص/٣٥٦

بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي"

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما ينبغي لعبد أن يقول: "إني خير من يونس بن متى. ونسبه إلى أبيه" ٢.

وهذه الأحاديث لا تعارض آية التفضيل المذكورة آنفا، وينبغي أن يحمل النهى الوارد فيها عن التفضيل إذا كان على وجه **الحمية** والعصبية، سدا لذريعة الانتقاص من المفضول.

قال النووي: قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل وجهين

أحدهما: أنه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس،

---

١ البقرة / آية: ٢٥٣.

٢ أخرجهما البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ٣٥ جـ٦ / ٤٥٠، ٤٥١، ومسلم في كتاب الفضائل باب ٤٢ جـ٤ / ١٨٤٣، ١٨٤٤.." (١)

"فلما علم ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم.." ١.

والثاني: أنه صلى الله عليه وسلم قال هذا زجرا عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئا من حط مرتبة يونس صلى الله عليه وسلم ٢.

وقد ذكر القرطبي أقوالا كثيرة لأهل العلم في هذه المسألة منها:"إنما نهى عن الخوض في ذلك، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، وذلك يؤدى إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر ويقل احترامهم عند المماراة"٣.

وقال ابن حجر: قال العلماء:"إنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا. إن كان قاله بعد أن أعلم أنه أفضل الخلق، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال، وقيل: خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة"٤.

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر حديث أبى هريرة السابق:"فكيف يجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" ٥، فالجواب: أن هذا كان له سبب ...،لأن التفضيل إذا كان على وجه **الحمية** والعصبية وهوى النفس كان مذموما، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما، فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ ٦، وقال تعالى:

---

(١) سد الذرائع في مسائل العقيدة عبد الله الجنيدي ص/٢٣٧

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ ٧، فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على الانتقاص بالمفضول"٨٠

---

١ أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب ١٤جـ٥ /٢٥٤ وابن ماجة في كتاب الزهد باب ٣٧ جـ٢ /١٤٤٠.
٢ شرح النووي على مسلم جـ١٥ / ١٣٢.
٣ الجامع لأحكام القرآن جـ٢ / ١٠٧٠.
٤ فتح الباري جـ٦ / ٤٥٢.
٥ سبق تخريجه ص ٥٣.
٦ الإسراء / آية: ٥٥.
٧ البقرة / آية: ٢٥٣.
٨ شرح العقيدة الطحاوية / ١٧٠، ١٧١.." (١)

"هذا الفعل الذي أمره الله تعالى به، معترضا على ذلك بأنه هو أفضل من آدم، فلن يسجد له، حيث قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف:١٢] ، وقال: ﴿أأسجد لمن خلقت طينا﴾ [الإسراء:٦١] فاعترض على حكمة الله تعالى في هذا الأمر، ورفض الانقياد له من أجل ذلك.
ومن أمثلة هذا الكفر أيضا أن يرفض شخص أن يصلي صلاة الجماعة، ويترفع عنها، لأنها تسوي بينه وبين الآخرين، ومن أمثلته أيضا: أن يمتنع شخص عن لبس لباس الإحرام؛ لأنه في زعمه لباس الفقراء ولا يليق به، ونحو ذلك"١".

"١" قال ابن القيم في مدارج السالكين ٣٦٧/١:"وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءا واستكبارا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ ، وقول الأمم لرسلهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ ، وقوله: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ ، وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿فلما جاءهم ما

---

(١) سد الذرائع في مسائل العقيدة عبد الله الجنيدي ص/٢٣٨

عرفوا كفروا به﴾ ، وقال: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ وهو كفر أبي طالب أيضا، فإنه صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته **الحمية**، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر"..
" (١)

"...

وقال أبوالعباس القرطبي في المفهم ٤٤٢/٦ عند شرحه لقصة حاطب: "ومن جملة ما فيه من الفقه: أن ارتكاب الكبيرة لا يكون كفرا"، وقال القاضي عياض ٣٩٥/٧: "فيه أن التجسس لا يخرج عن الإيمان"، وقال النووي في شرح مسلم ٥٥/١٦: "فيه أن الجاسوس وغيره من أصحاب الذنوب الكبائر لا يكفرون بذلك، وهذا الجنس كبيرة قطعا؛ لأنه يتضمن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كبيرة بلا شك، لقوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله﴾ [الأحزاب:٥٧] "، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ٥٢٣/٧ عند كلامه على الكفار: "وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرا، كما حصل من حاطب لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله فيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ [الممتحنة:١] ، وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: والله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته **الحمية**. ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبا منافقا.. فكان عمر متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها".

قلت: ولهذا التأويل من عمر مع أن عمل حاطب ليس ردة أورد البخاري قصته في الأدب باب من لم ير إكفار من قال ذلك أي قال لأخيه: يا كافر ونحوه متأولا، وفي استتابة المرتدين باب في المتأولين.

وقال الحافظ ابن القيم في زاد المعاد ٤٢٤،٤٢٣/٣ بعد ذكره لهذه القصة: "وفيها: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية".." (٢)

"٢- الاستيطان الدائم في بلاد الكفار، فلا يجوز للمسلم الانتقال إلى بلاد الكفار"١" للاستيطان فيها"٢"، ولا يجوز له التجنس

عند الكلام على مظاهر الولاء الواجب حديث: " من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان ".

---

(١) تسهيل العقيدة الإسلامية عبد الله بن عبد العزيز الجبرين ص/٢١٩

(٢) تسهيل العقيدة الإسلامية عبد الله بن عبد العزيز الجبرين ص/٥٧٠

"١" بلاد الكفار –وتسمى: دار الكفر – هي البلاد التي يحكمها الكفار، ويجري فيها أحكام الكفر، أو يغلب فيها حكم الكفر ولو كان بعض أهلها من المسلمين. ينظر: الأم ٣٣٤/٧، المحلى ٢٠٠/١١، المبسوط ١٤٤/١٠، بدائع الصنائع ١٣٠/٧، ١٣١، السيل الجرار ٥٧٥/٤، اختلاف الدارين ص٣٠-٣٦.

"٢" قال الشيخ عبد الله الأهدل اليماني الشافعي في السيف البتار على من يوالي الكفار ص٧: "وحكم من ينتقل إلى البلدة التي استولى عليها أهل الشرك أنه عاص فاسق مرتكب لكبيرة من كبائر الإثم إن لم يرض بالكفر وأحكامه، وإلا فإن رضي بها فهو كافر مرتد، تجري عليه أحكام المرتد، وليتأمل العاقل ما الحامل لهذا المسلم من النقلة من دار الإسلام الخالية عن الكفار إلى الدار التي أخذها الكفار وأظهروا فيها كفرهم وقهروا من فيها بأحكامهم الطاغوتية الكفرية إلا الزيغ والعياذ بالله تعالى وحب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة وجمع حطامها من غير مبالاة بالدين وعدم **الأنفة** من إهانة أهل التوحيد، ومحبة جوار أعداء الله على جوار أوليائه"، وقد نقل هذا القول الكتاني المالكي في الدواهي المدهية ص٢١٠، ٢١١ مقرا له، وقال شيخنا محمد بن عثيمين كما في مجموع فتاويه ٣٠/٣: "كيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر، ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله، وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بإذنه ويرضى به، بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين، مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه،." (١)

"الإنسان آتيا في ملكوته" متى (٢٨/١٦)

– وهو يعود ثانية إلى الأرض قبل أن يفنى ذلك الجيل الذي عاصر المسيح، وهي فترة لا تتجاوز أقصى ما قدرناه، أي خمسين عاما:

.... "الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله" متى (٢٤/٢٤) .

ومعلوم أن ذلك كله لم يحدث، إذ لا يزال الكون قائما، وبنو آدم يعيشون في عالمهم الدنيوي حتى يأتي أمر الله، هذا – ولما بردت **الحمية** التي أثارتها فكرة عودة المسيح سريعا إلى الأرض، ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات عنه وعن تعاليمه، ومن هنا كانت النواة لتأليف أسفار – ما صار يعرف فيما بعد باسم – العهد الجديد، وهي الأسفار التي لم يعترف بشرعيتها إلا على مراحل وعلى امتداد أكثر من ثلاثة قرون.

إن كلمة "قانون" اليونانية مثل كلمة "قاعدة" في العربية قابلة لمعنى مجازي يراد به قاعدة للسلوك أو قاعدة

---

(١) تسهيل العقيدة الإسلامية عبد الله بن عبد العزيز الجبرين ص/٥٧٤

للإيمان، وقد استعملت هنا للدلالة على جدول رسمي للأسفار التي تعدها الكنيسة ملزمة للحياة وللإيمان. ولم تندرج هذه الكلمة بهذا المعنى في الأدب المسيحي إلا منذ القرن الرابع١، كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحي الجيل الأول في مرجعين.

أولهما: العهد القديم، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب إستشهادهم بوحي الله.

---

١ أي أن الأناجيل الأربعة لم يكن معترفا بها إلا في القرن الرابع الميلادي.." (١)

"ورجع سيف الدولة إلى حلب، فقال أبو الطيب بعد القفول يصف الحال، أنشدها سيف الدولة في جمادى الأخيرة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا في حدثوا شجعوا

الناس، اسم من أسماء الجموع يخبر عنه بالإفراد على لفظه، وبالجمع على معناه.

فيقول: غيري ممن يجهل الناس ولا يعرفهم، يغير بأكثرهم فيخدعونه بالدعاء، ويغرونه بالكذب، وشأنهم، وحيلتهم، وحالهم وحقيقتهم، أنهم يشجعون في حديثهم وما يعدون به من أنفسهم، ويجبنون في قتالهم، ويضعفون عند اختبارهم. وأشار إلى ما تظهر من عجز أصحاب سيف الدولة في هذه الغزاة التي سميت بغزاة المصيبة، التي تقدم ذكرها.

أهل الحفيظة إلا أن تجربهم ... وفي التجارب بعد الغي ما يزع

الحفيظة: **الأنفة**، والوزع: الكف.." (٢)

"من القصد له، من كان أبصر منك بالعذل، وأهدى إلى طرق اللوم.

إن كان قد ملك القلوب فإنه ... ملك الزمان بأرضه وسمائه

ثم قال: إن كان ذلك الملك، قد ملك القلوب بإحسانه، واستعبدها بإنعامه، فإنه قد ملك الزمان بأعلاه

---

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية سعود بن عبد العزيز الخلف ص/٢٠٧

(٢) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي - السفر الأول، ابن الإفليلي ٣٤٣/١

وأسفله. وكنى بأرضه وسمائه عن ذلك، يريد: أنه قد ملك جملته؛ لأنه رفع من أحمله، وأغنى من أفقره، وعم الناس بإحسانه، وشملهم بإنعامه. وهذا على سبيل التجوز، وما يتزيد الشعراء فيه من القول.

الشمس من حساده، والنصر من ... قرنائه، والسيف من أسمائه

ثم يقول: إن الشمس من حساد سيف الدولة، لزيادته عليها في حسنه، والنصر من

قرنائه؛ لأنه بعض ما يؤيده الله به في قصده، والسيف من أسمائه الدالة على رفعته، وشيء من صفاته المعربة عن علو رتبته.

أين الثلاثة من ثلاث خلاله ... من حسنه وإبائه ومضائه؟

الإباء: عزة النفس وشدة **الأنفة**.

ثم قال: أين هذه الثلاثة مع جلالة أمرها، ورفعة قدرها، من." (١)

"بهم.

وأنت الذي تغشى الأسنة أولا ... وتأنف أن تغشى الأسنة ثانيا

إذا الهند سوت بين سيفي كريمة ... فسيفك في كف تزيل التساويا

ومن قول سام لو رآك لنسله ... : فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

الغشيان: المباشرة، وأسنة الرماح: معروفة، **والأنفة**: الغضب **والحمية**، والهند أمة محكمة لطبع السيوف، إليهم تنسب السيوف الهندية، والكريهة: شدة الحرب، وسام بن نوح، ومن نسله جميع البيضان، وحام أخوه، ومن نسله جميع السودان.

فيقول مخاطبا لكافور: وأنت الذي تسمو إلى الحرب غير متهيب، وتبادر نحوها غير متوقع، فتغشى الأسنة أولا قبل جيشك، وتقدم عليها مدلا بنفسك، ولا تأتيها ثانيا مقتديا بغيرك، ولا تاليا مسبوقا في فعلك.

ثم قال: إذا الهند سوت بين سيفين في إحكام صنعتهما، وكرامة جوهرهما، فالذي يصير منهما في كفك، فأنت ترفع التساوي عنه، وتوجب الفضل له بثبات ضربتك له، وشدة قوتك.

ثم قال: ومن قول سام بن نوح لنسله، لو رأى تصاغرهم عن قدرك، وتقصيرهم عن بلوغ غايات فضلك: أفدى ابن أخي هذا بنفسي، ومن انسلته، ومالي وما ملكته. فأشار إلى أن فضيلة بني حام بكافور ظاهرة، وزيادتهم على بني سام بموضعه بينه.

مدى بلغ الأستاذ أقصاه ربه ... ونفس له لم ترض التناهيا

---

(١) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي - السفر الأول، ابن الإفليلي ١٢١/٢

دعته فلباها إلى الفضل والعلا ... وقد خالف الناس النفوس الدواعيا

فأصبح فوق العالمين يرونه ... وإن كان يدنيه التكرم نائيا

المدى: الغاية، والأستاذ: كافور، والتناهي في الأمور: بلوغ آخرها، والتلبية: الإجابة بالطاعة، والنأي: البعد.." (١)

"آثرتماه من الموادعة، مبتهجا بما احتملتما عليه من المسالمة.

ثم قال: قد تواصلت فيه أيديكما على الظفر والنصر، وتوافقت على مشكور الفعل، وأيدي الساعين بالفساد على أكبادهم، لشدة ألمها، وما أودعها الله باتفاقكما من تغيظها وسقمها.

هذه دولة المكارم والرأ ... فة والمجد والندى والأيادي

كسفت ساعة كما تكسف الشم ... س وعادت ونورها في ازدياد

الدولة: مدة سلطان الملك، والرأفة: الرحمة.

فيقول: وهو يشير إلى الدولة الإخشيدية: هذه دولة الكرم والتراحم والمجد والتعطف، والندى والبذل، والأيادي الجليلة والفضل، فكيف يجوز التقاطع على ولي نعمتها، ويظن الاختلاف برئيسي جملتها؟!

ثم قال: كسفت ساعة بما جرى بين كافور وأبي القاسم من الوحشة، وما أظهراه من الاختلاف والموجدة، ثم ذهب ذلك وانقطع، وعدم وارتفع، وعاد كل واحد منهما لصاحبه بأفضل عهده من مودته، وأنزل به أتم ما كان ينزله من ثقته، فعادت الدولة إلى بهجتها، وراقت بحسنها ونضرتها، كالشمس بأثر الانكساف، لم ينقص ضوءها، ولم يختل نورها، بل زاد ذلك وحسن، وخلص وتمكن.

يزحم الدهر ركنها عن أذاها ... بفتى مارد على المراد

متلف، مخلف، وفي، أبي ... عالم، حازم، شجاع، جواد

الزحام: التضاغط والمدافعة، والركن: الناحية القوية، والأذى: معروف، والتمرد: شدة الإقدام، وواحد المراد: المارد، والأبي: الظاهر **الأنفة**.

فيقول مشيرا إلى كافور: يزحم ركن هذه الدولة الدهر على ما تكرهه، ويدافعها عما تحذره، بفتى من كافور، مشهور بالبأس والقوة، معلوم الإقدام والنجدة، يوقع بالمتمردين، ويستعلي مقدرته على المخالفين.." (٢)

---

(١) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي - السفر الثاني، ابن الإفليلي ٦٧/١

(٢) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي - السفر الثاني، ابن الإفليلي ١١٧/١

"يحب العاقلون على التصافي ... وحب الجاهلين على الوسام

الخب: [المكر والخديعة] والاصطفاء: الاختيار، والأنام: الخلق، والوسام، جمال المظهر.

فيقول: ولما صار ود الناس خبا لا حقيقة له، وكذبا لا يوثق به، جزيت على الابتسام في اللقاء بابتسام مثله، وقابلت ما أشاهده من النفاق؛ نفاق الناس بشكله.

ثم قال: وصرت فيمن أصطفيه ممن أوده، ومن أسكن إليه ممن أحبه، على شك لا أدافعه، وارتياب لا أنكره؛ لأن علمي بأمر ذلك الذي خبرته واحد من الأنام الذين عم الفساد جملتهم، وملك النفاق عامتهم.

ثم قال: يحب العاقلون على قدر ما يجدونه فيمن أحبوه من المصافاة والمشاكلة، والمؤاخاة والمشاركة، وحب الجاهلين على قدر وسامة من يخصونه بمحبتهم، ويحسب جاه من يعتمدونه بمودتهم، وإنما ذلك لأن مودتهم احتيالات لا يوثق بها، وصناعات لا حقيقة لها.

وآنف من أخي لأبي وأمي ... إذا ما لم أجده من الكرام

أرى الأجداد يغلبها كثيرا ... على الأولاد أخلاق اللئام

ولست بمقتنع من كل فضل ... بأن أعزى إلى جد همام

الأنفة: الغضب **والحمية**، وأعزى: أنسب، والجد الهمام: العظيم الهمة.

فيقول: [آنف] من استقراب أخي شقيقي، وأكرهه وأنفر عنه وأتجنبه، إذا لم أجده كريما يتزين بفضله، سريا تسكن النفوس إلى مثله، فآلفه لكرم شيمه، ولا آلفه لعدم ذلك؛ لقرب رحمه.

ثم قال: أرى كرام الأجداد يغلبهم كثيرا على أولادهم، ويسبقهم إلى أعقابهم تخلقهم بأخلاق اللئام؛ لكثرة المتخلقين بها، ورغبتهم في مذاهبهم؛ لما يباشرونه من اعتياد الناس لها، وليس الأعقاب محمولين على الأجداد والسلف، ولا يتوارث ما قدموه." (١)

"يقول: لها بشر الدر الذي هو قلادتها، ولم أر بدرا قبلها قلد الكواكب؟ وهذا لو قال: لها بشر الدر الذي هو قلادتها إلى

الكواكب الذي قلدت بها لجاز أن يقول: ولم أر بدرا قبلها قلد الكواكب، وهذا أوضح من أن يحتاج معه إلى كل القال والقيل.

وليس يصح في الإفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى الدليل

(فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا)

---

(١) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي – السفر الثاني، ابن الإفليلي ١٦٢/١

قال أبو الفتح: يرد الشجاع الحرب إما ليبلي بلاء حسنا يشرف ذكره في حياته، وإما ليقتل فيذكر بالصبر والأنفة بعد موته، كقولها:

نهين النفوس وهون النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها." (١)

"فهذا يحتمل وجوها: إما أن يكون أراد إنك إذا رآك قرنك، وقد ألقيت نفسك للتهلكة يئس من فرارك، فهرب هو فسلمت أنت، وإما أن يكون مثل قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء)، وإما أن يكون أراد أنك إذا مت على هذه الحال فقد أبقيت لك من حسن ذكرك ما يقوم لك مقام الحياة.

قال الشيخ: ولو كان أراد به ما فسره لقال: وحب الشجاع الصيت أو الذكر أو المدح أو الأجر، وليس في الغنى شيء عندي مما فسر أنه يرد الحرب ليبلي ما يشرف به ذكره في الحياة أو ليقتل فيذكر بالصبر والأنفة وما بعده إلى أخر تفسيره، فكله حب الصيت والذكر لا حب النفس على الحقيقة وما يدفعه دافع فحاطب ليل. والمعنى عندي إن حب الجبان نفسه يورده التقى لاستبقائها، وحب الشجاع النفس يورده الحرب لعطائها المنى وإعلائها ولقهر مناوئه وأخذه من الملك ومن نعيم الدنيا والغنى والثروة وما يشتهيه فيتقلب ناعما فيه كما قال في موضع آخر:

فإن تكن الدولات قسما فإنها ... لمن ورد الموت الزؤام تدول

لمن هون الدنيا على النفس ساعة ... وللبيض في همام الكماة صليل

وكما قال:

ويا آخذا من دهره حق نفسه ... ومثلك يعطى حقه ويهاب." (٢)

"استطال به عليه لفضل بيانه وطلاقة لسانه، ففارق عادة المجلس في رفض الأنفة، وخفض الحجة المؤتنفة، وهز عطفه، وحسر عن ساعده، وأشار بيده مادا بها لوجه خصمه، خارجا عن حد المجلس ورسمه، فهم الأعوان بتقويمه

وتثقيفه ووزعهم رهبة منه وخشية، حتى تناوله القاضي بنفسه، وقال له: مهلا عافاك الله، اخفض صوتك، واقبض يدك، ولا تفارق مركزك، ولا تعد حقك، وأقصر من أسبابك، وإدلالك بآدابك، فقال له: مهلا يا قاضي، أمن المخدرات أنا فاخفض صوتي واستر يدي، وأغطي معاصمي لديك؟ أم من الأنبياء أنت فلا

---

(١) قشر الفسر، الزوزني، أبو سهل ١/ ٣٠

(٢) قشر الفسر، الزوزني، أبو سهل ١/ ٣١

يجهر بالقول عندك؟ وذلك لم يجعله الله إلا لرسوله (صلى الله عليه وسلم) لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، وتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ولست به ولا كرامة، وقد ذكر الله أن النفوس تجادل في القيامة في موقف الهول الذي لا يعد له مقام، ولا يشبه انتقامه انتقام." [1]

"واللغة لا تعضد واحدا من هذين القولين، لأنه لا يوجد في اللغة، عبد بمعنى: أمر بالعبادة، ولا بمعنى: استعبد، هذا إن لو كان الفعل في قوله: ﴿ليعبدون﴾ منسوبا إلى الله تعالى، وإنما هو منسوب إلى المخلوقين، فكيف يصح أن يقال: عبد الرجل: إذا أمره غيره بالعبادة، أو عبد: إذا استعبده غيره، وإنما يوجد في اللغة (١): عبد الرجل الإله: إذا ألزم نفسه العبادة، وكذلك عابد الوثن أيضا.

ويقال: عبد الرجل من الشيء (بكسر الباء): إذا أنف منه (٢)، وقد قيل ذلك في قول الله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ [الزخرف: ٨١] أي: الآنفين من ذلك المعتقدين بطلانه (٣).

وقال بعض أهل اللغة: لا يقال من **الأنفة** في اسم الفاعل إلا عبد لا عابد. وهذا هو القياس، وحكى ابن قتيبة في غريب القرآن (٤) أنه يقال من **الأنفة**: عبدت من كذا أعبد عبدا، فأنا عبد وعابد.

---

(١) عبد يعبد عبادة وعبودية، وهي الخضوع والتذلل والطاعة، ومنه طريق معبد، وبعير معبد أي سهل ذليل.

والتعبد التنسك، تقول نسك ينسك نسكا أي عبد، وزنا ومعنى.

انظر الصحاح (٢/ ١٠٠ - ١٠١) واللسان (٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٢) لسان العرب (٩/ ١٣).

(٣) قاله البخاري (٤/ ١٨٢١) وحكاه ابن كثير (٤/ ١٣٦) عن سفيان الثوري.

وراجع تفسير القرطبي (١٦/ ١١٩) والفتح لابن حجر (٨/ ٥٦٩).

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٤٠١).." [2]

"وأقول إنه لم يرد كثرة الكسي والتحف، ولكن أراد ألوانها المختلفة؛ وذلك أن الغيث إذ أصاب الأرض أنبتت ألوانا مختلفة من الزهر، فكذلك الكسي التي

---

(١) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن خاقان، أبو نصر ص/٣٣٣

(٢) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل، عقيل القضاعي ٧١٥/٢

يعطيها، ولذلك جعلها من الوشي والعصب، وهي برود اليمن، تحوي ألوانا مختلفة، والديباج عمل الروم كذلك.

وقوله: (الطويل)

فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

قال: يرد الشجاع الحرب (إما) ليبلي بلاء يشرف ذكره في حياته به، وإما يقتل فيذكر بالصبر **والأنفة** بعد موته. وأنشد على ذلك أبياتا للعرب والمحدثين، وقال: المحدثون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد (بالقدماء) في الألفاظ. وفسر البيت الذي بعده، وهو قوله: (الطويل)

ويختلف الرزقان والفعل واحد ... إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

بأن قال: إن الرجلين ليفعلان فعلا واحدا، فيرزق أحدهما ويحرم الآخر؛ فكأن الإحسان الذي رزق به هذا، هو الذنب الذي حرم به هذا.." (١)

"وقوله: (الطويل)

يحل القنا يوم الطعان بعقوتي ... فاحرمه عرضي وأطعمه جلدي

قال: يقول: إذا أحاط بي الطعن لم أهرب إشفاقا من أن يعاب حسبي أو يطعن، بل أنصب نفسي وأعرض وجهي له، فإما هلك وإما ملك. وهو قريب من قول الآخر: (الوافر)

نعرض للطعان إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للسباب

وأقول: إن هذه العبارة غير مرضية في تفسير هذا المعنى المرضي!؛ وذلك أنه يصف نفسه بالشجاعة **والأنفة** من الفرار، ولما جعل الرماح بمنزلة الأضياف التي تحل بعقوته، جعل قراها إطعامه جلده دون عرضه. يعني أن تخريقها جلده بالطعن أسهل من تخريقها عرضه بالذم للفرار.

وقوله: (الطويل)

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه ... كرعن بسبت في إناء من الورد." (٢)

"أوقع كما قال الرجل.

وأقول: إنما قال: تسلى بالبكاء وذلك أنه إذا أهين حزن، وكئب، واهتم لذلك، فالأبي ذو **الأنفة** والنفس العزيزة يكون تسلية من ذلك بالانتقام ممن قصد هوانه. والدنيء الذليل الضعيف يكون تسليه بالبكاء يستروح

---

(١) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ٢٥/١

(٢) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ٩٢/١

به كالنساء، ليس لهن تسل بغيره، فهو مأمون على من أهانه.

وقوله: (المنسرح)

أنا من بعضه يفوق أبا البا ... حث، والنجل بعض من نجله

قال: معناه: أنا أفوق أبا من يبحث عني، إلا أن صنعة الشعر قادته إلى هذا النظم وليس لضرورة.

فيقال له: ليس فيه ضرورة –كما تقول – ولكن فيه زيادة لا تعلمها! وهي في قوله:

. . . . والنجل بعض من نجله

يقول: أنا بعض أبي، والباحث بعض أبيه، فبعض أبي – وهو أنا – يفوق كل الباحث وهو أبوه! وهذه قضية عقلية من مقدمتين ونتيجة:

فالمقدمة الأولى: أن الكل أفضل من البعض.

والثانية: أن الإنسان بعض أبيه.." (١)

"وقوله: الطويل

ووعدك فعل قبل وعد لأنه ... نظير فعال الصادق القول وعده

كان كافور وعد أبا الطيب وحلف له ليبلغنه جميع ما في نفسه، لما أنشده القصيدة المهموزة يهنئه بالدار، وكان في نفس أبي الطيب الولاية، والارتفاع عن درجة الشعر لكثرة فضله، وعزة نفسه وانفه لما أسن وكبر عن قيامه قيام المنشد المستعطي تارة والمستعطف أخرى، وكان لا يطمع بذلك من سيف الدولة ولا يخرجه عن كونه شاعرا. فهذا من بعض أسباب فراقه له، ولم يفارقه من قلة عطاء، لأن اقطاعه له كان كثيرا؛ فهذا مقطعا قرية اسمها بصف، مغلها، كما ذكر، عشرة آلاف دينار، وهذا سوى الإطلاق والخلع التي كانت تصير إليه في كل عام، فحمله البطر والكبر **والأنفة** من الشعر، على أن فارقه وأوقع في نفسه إنه يصير إلى كافور، وهو أسود خصي، يتلهى به ويخدعه ليوليه بعض الولايات فيتقوى بها فربما غلبه على ما في يده، أو أقام على طاعته فزاد ماله، وارتفع شانه، وعلت منزلته، ورأى سيف الدولة إنه قد زاد عما كان عليه عنده، وارتفع عما كان يسومه منه. فاقتضى كافورا بهذا البيت والأبيات التي بعده، وسامه أن يجربه ببعض أعماله، ويختبره ببعض أشغاله، ليعلم موقعه من حسن التدبير وجودة السياسة، فانعكس عليه قياسه، وانتفض رأيه

(١) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ٢٤٥/١

مما لقي من هوان كافور له بقيامه بين يديه، وتوكيله عليه، وقلة اهتمامه به وكثرة غفلته عنه، أضعاف إكرام سيف الدولة له، وقربه منه! وهذه الأبيات، بل القصيدة من جيد الشعر وحر الكلام.." [(١)]

"قلت: هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في" والصافات" «١» إن شاء الله تعالى. وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتل فغضب، وخرج فارا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر. فقال أهلها: أفيكم آبق؟ فقال: أنا هو. وكان من قصته ما كان، وابتلي ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال في أهل أحد:" حتى إذا فشلتم" [آل عمران: ١٥٢] إلى قوله:" وليمحص الله الذين آمنوا" «٢» [آل عمران: ١٤١] فمعاصي الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجرا عن المعاودة. وقول رابع: إنه لم يغاضب ربه ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم غضب إذا أنف. وفاعل قد يكون من واحد، فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا. وينشد هذا البيت:

وأغضب أن تهجى تميم بدارم

أي آنف. وهذا فيه نظر، فإنه يقال لصاحب هذا القول: إن تلك المغاضبة وإن كانت من **الأنفة**، **فالانفة** لأبد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان؟! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه! قوله تعالى: (فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات) قيل: معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته. وهذا قول مردود مرغوب عنه، لأنه كفر. روي عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي، والثعلبي عن الحسن. وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه: فظن أن لن نضيق عليه. قال الحسن: هو من قوله تعالى:" الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر" «٣» [الرعد: ٢٦] أي يضيق. وقوله" ومن قدر عليه رزقه" «٤» [الطلاق: ٧]. قلت: وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن. وقدر وقدر وقتر وقتر بمعنى، أي ضيق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي. وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم، أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله قتادة ومجاهد والفراء. مأخوذ من القدر وهو الحكم

---

(١). راجع ج ١٥ ص ١٢١.

---

(١) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ٢٨٧/٥

(٢). راجع ج ٤ ص ٢٣٣ فما بعد.

(٣). راجع ج ٩ ص ٣١٣ فما بعد.

(٤). راجع ج ١٨ ص ١٧٠.." (١)

"الأول بمدة، وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه. (ومن يتول) أي عن الإسلام وقبول هذه المواعظ (فإن الله هو الغني) أي لم يتعبدهم لحاجته إليهم. (الحميد) في نفسه وصفاته. ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين فعلم الله شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) وهذا بأن يسلم الكافر. وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان ابن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وقيل: المودة تزويج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلانت عند ذلك «١» عريكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة. قال ابن عباس: كانت المودة بعد الفتح تزويج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبد الله بن جحش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة. فأما زوجها فتنصر وسألها أن تتابعه على دينه فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية. فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها، فقال النجاشي لأصحابه: من أولاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص. قال فزوجها من نبيكم. ففعل، وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار. وقيل: خطبها النبي صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عفان، فلما زوجه إياها بعث إلى النجاشي فيها، فساق عنه المهر وبعث بها إليه. فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته: ذلك الفحل لا يقدع أنفه." يقدع" بالدال غير المعجمة، يقال: هدا فحل لا يقدع أنفه، أي لا يضرب أنفه. وذلك إذا كان كريما.

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ٨]

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٣١/١١

(١). العريكة: الطبيعة. ولانت عريكته: إذا انكسرت نخوته. والشكيمة: **الأنفة**. ومن اللجام: الحديدة المعترضة في الفم.." (١)

"على التجار لمقهوريتهم مع الدولة وحامية الملك وخاصته المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون الغير المملوكة والالتجاء إلى الاعسارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء، وربما ذلك على التاجر الماهر فعاقه وأقعده عن أمثاله حتى على رأس ماله.

وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من أن تعد من البرد والهواء المفرطين وانقطاع المطر وكثرته في غير وقته ونزول كبار الحصى والبرد وثقيل الثلج وشدة الحر ومجيء الجراد المنتشر، وكذلك العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض وخبث طينها ووضع الأشياء متأخرة عن أوانها وعدم استكمالها بحرثها وشروطها ونبات الأشياء المضرة خلال الأشياء المطلوبة، ومن الجرذ والفار واليربوع، ومن رخص البقول والخضراوات وما في معناها مما لا يقل الادخار مع غلاء بذورها، ومن عدم نصيحة الملعونين فيها وخبائتهم واختلاسهم وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية وتسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن في وجوه الجبايات وأنواع الظلامات

وإلجائهم إلى بيع زراعاتهم في حال كسادها وعدم رواجها مع ما يختص به أهل البدو من رداءة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف وموجودية المطالب والتحلي بالعلوم، ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة في قلوبهم وظهورها في أحوالهم وعلى شمائلهم، وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ما دخلت السكة دار قوم إلا دخلها الذل﴾.

وأما الصناعات فلقلة الماهر الحاذق فيها. وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدعة والراحة والرفاهية ويطرقها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبه بطائل، وأصحاب الصنائع باذلون رقهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغني والمسلم والذمي، فهم بمراحل عن الشهامة وعلو الهمة **والأنفة**.

ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة إلى التعاون والتناصح، وقد انقطعا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد ولحيلولة كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد، ولفوات بعض المقاصد بكثرة الشركاء وحب المباهاة والإنفراد بالمجد وخبث النفس وفساد." (٢)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٨/٥٨

(٢) الفلاكة والمفلوكون، الدلجي، أحمد بن علي ص/٥٤

"(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) التشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة، وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أي فاذكروني كما أرسلنا، قاله الزجاج وقيل غير ذلك، والتعبير بصيغة التكلم الدالة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التي لا دلالة لها عليها من قبيل التفنن وجريا على سنن الكبراء، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم، ولأن المعروف من حال العرب **الأنفة** الشديدة من الانقياد للغير، فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والرسول هو محمد- صلى الله عليه وسلم -، والآيات القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر، والتزكية التطهير من دنس الشرك والذنوب، وقيل محاسن الأعمال ومكارم الأفعال، والحكمة هي السنة المطهرة والفقه في الدين.

(ويعلمكم) من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة (ما لم تكونوا تعلمون) ذلك قبل بعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتستقلون بعلمه بعقولكم.." [1]

"(وإذا قيل له) أي على سبيل النصيحة وهي مستأنفة أو معطوفة على يعجبك (اتق الله) أي خف الله في سرك وعلانيتك (أخذته العزة بالإثم العزة القوة والغلبة، من عزه يعزه إذا غلبه ومنه (وعزني في الخطاب) وقيل العزة هنا **الحمية والأنفة** وقيل المنعة وشدة النفس.

والمعنى حملته العزة على فعل الإثم، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه، قاله الزمخشري، وقيل أخذته العزة بما يؤثمه أي ارتكب الكفر للعزة، ومنه (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) وقيل الباء في قوله بالإثم بمعنى اللام أي أخذته **الحمية** عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه وهو النفاق، وقيل الباء بمعنى مع أي أخذته العزة مع الإثم، وقيل للسببية أي إن إثمه كان سببا لأخذ العزة له.

وفي هذه الآية التتميم، وهو نوع من علم البديع وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها إلى الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة، فمن مجيئها محمودة قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة فقيل (بالإثم) توضيحا للمراد، فرفع اللبس به، قاله السمين.

قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١/٣١٥

تأمرني، وعن سفيان قال: قال رجل لمالك ابن مغول اتق الله فسقط فوضع خده على الأرض تواضعا لله.." (١)

"مالكهم، ويلبسون مما يلبس قال مجاهد: فما خولك الله فأحسن صحبته، كل هذا أوصى الله به، وعن مقاتل نحوه.

والإحسان إليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقونه ولا يؤذيهم بالكلام الخشن، وأن يعطيهم من الطعام الكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية، وعن علي بن أبي طالب قال: كان آخر كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم " (١) وقد ورد مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بر الوالدين وفي صلة القرابة وفي الإحسان إلى اليتامى والجار، وفي القيام بما يحتاج إليه المماليك أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا.

وقوله (إن الله) علة لمحذوف تقديره ولا تفتخروا عليهم لأن الله (لا يحب من كان مختالا) ذا الخيلاء وهو الكبر والتيه اسم فاعل من اختال يختال أي تكبر وأعجب بنفسه أي لا يحب من كان متكبرا تائها على الناس (فخورا) مفتخرا عليهم، والفخر المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب والمحاسن.

وخص هاتين الصفتين لأنهما يحملان صاحبهما على **الأنفة** مما ندب الله إليه في هذه الآية يعني يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء وغيرهم، ولا يلتفت إليهم، ومن كان متكبرا لا يقوم بحقوق الناس، وقد ورد في ذم الاختيال والكبر والفخر ما هو معروف.

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك.

وروي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين ".." (٢)

"من منذ مائة وعشرين سنة، لا يكاد يأتلف منهم قلبان، فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وانقلبت تلك الحالة واستجمعت كلمتهم، وزالت حمية الجاهلية، وأبدلت تلك الضغائن بالمحبة لله وفي الله، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤١٧/١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١٧/٣

وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وصار ذلك معجزة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ظاهرة باهرة دالة على صدقه.

وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية **والأنفة والحمية** الجاهلية.

(لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له طلبه من التأليف لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جدا.

(ولكن الله ألف بينهم) بعظيم قدرته وبديع صنعه، وفيه دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (إنه عزيز) لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه أمر من الأمور (حكيم) في تدبيره ونفوذ أمره ونهيه.

وعن ابن مسعود قال: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله، وهذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله – صلى الله عليه وسلم – وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف تأليف الله تعالى بينهم، وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي (١) وذلك قوله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والله أعلم.

---

(١) من أين جاء هذا لأبي ہريرة وهو غيب؛ هذا لا يصح.." (١)

"قال أبو الوفاء بن عقيل في الآية: أن قوله قاتلوا أمر بالعقوبة ثم قال (لا يؤمنون بالله) فبين الذنب الذي يوجب العقوبة ثم قال: (واليوم الأخر) فأكد الذنب الذي في جانب الاعتقاد ثم قال: (ولا يحرمون) وفيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال ثم قال: (ولا يدينون) وفيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة **والأنفة** عن الاستسلام ثم قال: (من الذين أوتوا الكتاب) تأكيدا للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ثم قال: (حتى يعطوا الجزية) فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة أهـ.

والجزية وزنها فعلة من جزى يجزي إذا كافى عما أسدي إليه وكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن، وقيل سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢٠٧

على عهده وهو الخراج المضروب على رقابهم كل عام إذلالا وصغارا.

قال أحمد بن تيمية رحمه الله: والأول أصح وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة فهي غاية للقتال، والمراد بإعطائها التزامها بالعقد وإن لم يجيء وقت دفعها (عن يد) في موضع النصب على الحال أي يعطوها أذلاء مقهورين عن يد متوانية غير ممتنعة، هذا إن أريد به المعطي، وإن أريد به الآخذ فالمراد عن يد قاهرة مستولية وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا، وقيل المعنى نقدا غير نسيئة، وقيل عن إنعام منكم عليهم لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم، قاله في الكشاف، وقيل معناه مذمومون.

وفي زاده " اليد " قد تجعل كناية عن الانقياد أعطى فلان بيده إذا أسلم وانقاد لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد كأنه قيل قاتلهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد، دون أن يكرهوا عليه فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الإكراه لا يبقى عقد الذمة أهـ.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل." (١)

"(قالوا أنؤمن لك) الاستفهام للإنكار، أي كيف نتبعك ونصدق لك ونؤمن بك؟ (و) الحال أن قد (اتبعك الأرذلون) جمع أرذل وجمع التكسير أرذال، والأنثى رذلاء وهم الأقلون جاها ومالا، والرذالة الخسة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم، أو لا تضاع أنسابهم.

قال مجاهد: الأرذلون الحواكون. وقال قتادة سفلة الناس وأراذلهم وقال ابن عباس: يعني القافة، وقيل هم الحاكة والاساكفة؛ وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية، والصناعة لا تزرى بالديانة فالغنى غنى الدين؛ والنسب نسب التقوى.

ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا. وإن كان أفقر الناس؛ وأوضعهم نسبا وما زالت اتباع الأنبياء كذلك. وإنما بادروا للاتباع قبل الأغنياء لاستيلاء الرياسة على الأغنياء، وصعوبة الانفكاك منها، **والأنفة** عن الانقياد للغير. والفقير خلى من تلك الموانع فهو سريع الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا، وهذا من سخافة عقولهم. وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلين من الدنيا مانعا من اتباعهم، وجعلوا إيمانهم بما يدعوهم إليه دليلا على بطلانه.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢٧٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/٣٩٩

"(قل إن كان للرحمن ولد) وصح ذلك ببرهان صحيح، أو إن كان له ولد في قولكم، وعلى زعمكم (فأنا أول العابدين) أي أول من عبد الله وحده لأن من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له ولد، قاله ابن قتيبة وقال الحسن والسدي. إن المعنى ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: فأنا أول العابدين ابتداء كلام.

قال ابن عباس في الآية يقول إن يكن للرحمن ولد (فأنا أول العابدين) أي الشاهدين، وعن زيد بن أسلم قال هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط، أي ما كان، وعن قتادة نحوه وقيل: المعنى قل يا محمد: إن ثبت لله ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه، وأتم عبارة، وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني، لأن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والمراد نفي الولد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها، ومن هذا القبيل قوله تعالى:

(وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به فتكون إن في (إن كان) شرطية ورجح هذا ابن جرير وغيره.

وقيل: معنى العابدين الآنفين من العبادة وهو تكلف لا ملجىء إليه ولكنه قرىء العبدين: بغير ألف؛ من عبد يعبد عبدا بالتحريك إذا أنف وغضب، فهو عبد، والإسم العبدة مثل **الأنفة** ولعل الحامل على هذه القراءة الشاذة البعيدة لمن قرأها هو استبعاد معنى (فأنا أول العابدين) وليس بمستبعد ولا مستنكر وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله: (فأنا أول العابدين) أنه من الأنف أو الغضب؛ وحكاه الماوردي عن الكسائي والقتيبي." (١)

"(إذ جعل) أي: اذكر وقت أن جعل (الذين كفروا في قلوبهم **الحمية**) أي: اضمروها وأصروا عليها، **والحمية الأنفة** يقال فلان ذو حمية أي: ذو أنفة وغضب وتكبر وتعاظم، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم، والجعل بمعنى الإلقاء (حمية الجاهلية) بدل من **الحمية**، قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفسنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه **الحمية** هي حمية الجاهلية، التي دخلت في قلوبهم.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢/٣٧٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٣/١١٣

"(اعقل من ديلول) ديلول: أحد اللحمة، معروف بصدق الفراسة.

(حرف الغين المعجمة)

(إغزال اجدب) الغزال: نوع من الظباء معروف، واجدب: بمعنى الجدب، يضربونه فيمن يفضل بؤس بلده، على نعيم أرض غير أرضه.

(أغلظ من الكفيه) بمعنى أشد أنفة، والكفيه: رجل من أولاد امبارك، وتقدم خبره. يضربونه في شدة الأنفة، وهذه الكلمة عربية. إلا أنهم استعملوها في غير معناها الأصلي.

حرف الفاء

(أفقر من بيومين) أفقر: أفعل تفضيل من الفقر. وبيومين: أي أبى يومين، وهو من لم يمض على ولادته أكثر منهما. يضربونه في شدة الفقر.

(فحلين ما ينهد افدوله) فحلين تثنية فحل، ومعناه الرفع على الابتداء، إلا أنهم أوردوه منصوبا، وما ينهد: أي لا يتخذان للفحالة. والدولة: بمعنى الإبل الكثيرة، يضربونه في إنه لا يصح وجود رئيسين في وقت واحد.

(فرحت لكراد) فرحت: بمعنى فعلة من الفرح، وهو السرور. ولكراد: القراد، وهو معروف. وهذا مما شاهدناه، فإن الإنسان في الصحراء، ربما قصد ظلا يستريح، فيجيئه القراد يجري، فيعضه. يضربونه فيمن يفرح بالشخص ليضره.

(فرو ادليميه) الفرو: معروف. وادليميه: إحدى نساء بني دليم، قبيلة من حسان يقال أن لها أولادا كانوا إذا بكوا من شدة البرد، تهددهم، بأنهم إذا لم يسكتوا تلبسهم فروا عندها مخرقا، يزيدهم بردا. يضربونه فيما يكون ضره أكثر من نفعه.

(فهم أولاد ابييري) أولاد ابييري: قبيلة من قبائل الزوايا في شنقيط، ترميهم." [١]

"وقال الأحنف بن قيس: لا حلم لمن لا سفيه له. وقال: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. . .

وقال الجاحظ: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره، وظن أن رحمة الله دون رحمته، فإن الله تعالى يقول: ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾. وقال الشعبي: يعجبني الرجل إذا سيم هوانا دعته الأنفة إلى المكافأة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾؛ ورفع كلامه إلى الحجاج فقال:

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي ص/٥٦٥

لله دره! أي رجل بين جنبيه! وتمثل بقول الشاعر:

ولا خير في عرض امرئ لا يصونه ... ولا خير في حلم امرئ ذل جانبه

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب:

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فمن رام تقويمي فإني مقوم ... ومن رام تعويجي فإني معوج

وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبا ... ولكنني أرضى به حين أحرج

وإن قال بعض الناس: فيه سماجة ... فقد صدقوا، والذل بالحر أسمج

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا -:

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ... ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وقال أوس بن حبناء - شاعر إسلامي تميمي وحبناء أمه -:

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواصره." (١)

"كما قال في البيت التالي، قال نقدة الشعر: إن أبا تمام نظر في هذا المعنى إلى قول عروة بن الورد:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

قالوا: إن عروة جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو أقصى اجتهاد المجتهد في لقاء الأعداء قائما مقام النصر. هذا، ومضرب السيف: حده، وقوله: واعتلت عليه القنا السمر فمعنى اعتلال القنا أن العلة أصابتها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالب همته من الصمود للأعداء، أو تقول: معنى اعتلالها: أنها تجنت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يريحها من ذلك، والحفاظ: **الحمية** والغضب محافظة على الحرمة وكل ما يجب على المرء حمايته، والخلق الوعر: الشديد **الأنفة**، ولا يمدح به إلا في العداوة. قال المازني:

---

(١) الذخائر والعبقريات، البرقوقي ٢/١٢٩

تعاتبني فيما ترى من شراستي ... وشدة نفسي أم سعد وما تدري

فقلت لها: إن الكريم وإن حلا ... ليوجد أحيانا أمر من الصبر

الروع هنا: الحرب وفي الأصل: الخوف. وقوله: فأثبت في مستنقع الموت رجله. . . ألبيت. جعل للموت مستنقعا كمستنقع الماء، وهو: مجتمعه في بطن الوادي، وأخمص القدم: مالا يصيب الأرض من باطنها يقول: إنه لشجاعته قد صمد للموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر - يوم يحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة - من." (١)

"في الأنفة والإباء

دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد فرأى امرأة بدوية أنكرها فقال لها من أنت؟ قالت أنا الوالهة الحرى ليلى الأخيلية. قال من القائل:

أريقت جفان ابن خلع فأصبحت ... حياض الندى بهن المراتب

فعفاؤها لهفي يطوفون حوله ... كما انقض عرش البئر والورد عاصب

قالت أنا الذي أقول ذلك. قال: فما أبقيت لنا. قالت: ما أبقي الله لك؛ نسبا قريشيا وعيشا رخيا، وإمرة مطاعة. قال أفردته بالكرم! قالت: أفردته بما انفرد به فقالت عاتكة لعبد الملك: قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها وتحميها لها، ولست ليزيد إنن شفعتها من حاجاتها لتقديمها أعرابيا جلفا جافيا على أمير المؤمنين، فوثبت ليلى فجلست على راحلتها وقالت:

ستحملني ورحلي ذات لوث ... عليها بنت آباء كرام

إذا جعلت سواد الشام دوني ... وأغلق دونها باب اللئام

فليس بعائد أبدا إليهم ... ذوو الحاجات في غلس الظلام

أعاتك لو رأيت غداة بنا ... سلو النفس عنكم واعتزامي

إذا لعلمت واستيقنت أبي ... مشيعة ولم ترعى ذمامي

أأجعل مثل ما وخدت برحلي ... أبا الذبان فوه الدهر دامي

معاذ الله ما وخدت برحلي ... تغذ السير في البلد التهامي

---

(١) الذخائر والعبقريات، البرقوقي ٢٩٢/٢

أقلت خليفة فسواه أحجي ... بإمرته وأولي بالشآم

لئام الملك حين تعدكعب ... ذوو الأخطار والخطط الجسام." (١)

"وأما ما جاء من ذلك في الشعر، فقول بعض العرب يمدح قوما **بالأنفة** كامل:

لا يشربون دماءهم بأكفهم ... إن الدماء الشافيات تكال

فإنه وصف هؤلاء القوم **بالأنفة** من أخذ الدية عن قتلاهم، فيصير حاصل ما يأخذونه شربهم اللبن، فكأنهم شربوا دماءهم، ثم قال: إن مثل هذا الدم لا يشفي، وإنما يشفي من الدماء ما أخذه مكايلة صاعا بصاع، يعني دما بدم كفء، فحاصل معناه أن الدماء تكال؛ وقال الآخر مغايرا لهذا المعنى وقد قتل بقتيله دونه معتذرا عن ذلك، مغايرا للمعنى الأول طويل:

فيقتل خير بامرئ لم يكن له ... وفاء ولكن لا تكايل بالدم

ويروى: لم يكن له بواء بباء موضع الفاء، أي كفء مأخوذ من قولهم لمن يقتلونه في دم: بؤبدم فلان، فذهب هذا القائل إلى أن قتيله لا نظير له، فلو ذهب إلى أنه لا يقبل به إلا كفأه لطاح دمه هدرا، إذ لم يجد له كفؤا، فلهذا اضطر إلى قتل من دونه، ثم قال: لا تكايل بالدم، مستدلا بذلك القول على صحة ما أتاه، لكون أرباب الدماء متفاوتي الدرجات، فلا تتكافأ دماؤهم، هذا مذهب الجاهلية، قد أتى الإسلام بخلافه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المسلمون تتكافأ دماؤهم " ولهذا قال عمر رضي الله عنه لجبلة: الإسلام ساوى بينكما فتغاير المعنيان، وهما مع المغايرة صحيحان، وقد أتى حكم الله في كتابه العزيز مغايرا هذا الحكم، فقوله تعالى: " ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل " وقوله: " الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى " مما يصحح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تتكافأ دماؤهم " ؛ وقد غايرت أحكام القرآن العزيز أحكام الجاهلية في عدة مواضع، وذم من ابتغى حكم الجاهلية، ومن ذلك ذم الظلم وأهله، وقدكانت العرب تمدحه وتمدح به وأشياء غير ذلك.

ومن هذا قول أبي تمام يغاير جميع الناس في تفضيل التكرم على الكرم، بقوله لأبي سعيد الثغري خفيف:

قد بلونا أبا سعيد حديثا ... وبلونا أبا سعيد قديما

ووردناه سائحا وقليبا ... ودعيناه بارضا وجميما

فعلمنا أن ليس إلا بشق الن؟ ... نفس صار الكريم يدعى كريما

ثم غايره المتنبي فقال على الطريق المألوف منسرح:

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبد الله العفيفي ١٩٣/٢

لو كفر العالمون نعمته ... لما عدت نفسه سجاياها
كالشمس لا تبتغي بما صنعت ... منفعة عندهم ولا جاها
وهذا المعنى من قول أبي تمام بسيط
لا يتعب النائل المبذول همته ... وكيف يتعب عين الناظر النظر
وكل ذلك من قول بشار خفيف:
ليس يعطيك للرجاء لوا الخو ... ف ولكن يلذ طعم العطاء
وأبو تمام أخذ معناه الذي غاير فيه الناس من قبل إبراهيم بن سيار، النظام، لأنه غاير فيه جميع العلماء في استدلاله على أن شكر المنعم لا يجب عقلا ولا شرعا، وقال في نظم الدليل كلاما نقحته وحررته فقلت: المعطي لا يعدو بعطائه أحد أربعة أقسام حاصرة: إما للخوف، وإما للرجاء، وإما لطلب الثناء، وإما للعشق في العطاء.
فأما المعطي للخوف، فحثه على ذلك العطاء اتقاؤه ما خافه بعطائه، فلا يجب شكره، والمعطي للرجاء إما أن يرجو المكافأة عن عطائه ممن أعطاه، أو يرجو بذلك ثواب الله، وهو في كلتا حالتيه لا يجب شكره، والمعطي لطلب الثناء حق عطائه أن يثنى عليه، فإذا أثنى عليه، فقد سقط حقه، فلا يجب شكره، والمعطي للعشق في العطاء، مسكن بعطائه غليل قلبه، ومنفس به من كربه، فلا يجب شكره، ووجه الرد على النظام أن يقال: المعطي لطلب الثناء، إما أن يكون عطاؤه موجبا للثناء عليه، أو لا يكون، فإن كان الأول فقد وجب شكر المنعم، وإن كان الثاني فقد فسد التقسيم الأول، وصار للعطاء قسم خامس لغير العلل التي علل بها، ولم تبق علة لهذا التقسيم من العطاء سوى التبذير والعبث، وهذا القسم مرفوض لا يستحق الكلام عليه، فإن قيل المعطي للثناء قد يثني عليه وقد لا يثنى فإن أثنى عليه فقد سقط حقه، فلا يجب شكره، وإن لم يثن عليه خلا عطاؤه عن الفائدة.." (١)
"وأحسن من قولي ومن كل ما قيل علي ما بلغني في هذا المعنى قول أبي تمام في الحسن بن وهيب كامل:
لم يتبع شنع اللغات ولا مشى ... رسف المقيد في طريق المنطق
تنشق في ظلم المعاني إن دجت ... منه تباشير الكلام المشرق
وكقول البحتري فيه كامل:

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص/٥١

فإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى في كتبه

فاللفظ يقرب فهمه في بعده ... منا ويبعد نيله في قربه

حكم سحائبها خلال بنانه ... هطالة وقليبها في قلبه

كروض مؤتلفا بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه

وكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعين محبه

هذا إذا أراد المتكلم أن ينعت فاضلا، أو يسمى أديبا كاملا، فتعلو بين العلماء درجته، وتطير بين الفضلاء سمعته، ويقبل قوله في لفظ كل كلام ومعناه، وليحذر من أن يقف خاطره بسبب معاندة الزمان، وتواتر صروف الحدثان، وتعذر المكسب، وعز المطلب وتقدم الجهال، واختصاص الأرذال بالأموال، فيكون ذلك داعيا إلى ترك الاشتغال، وسببا في فتور عزمه عن تحصيل العلوم، وذريعة لقعوده عن رياضة نفسه، واستعمال خاطره، فيلحق بالأخسرين أعمالا، والمخطئين أفعالا وأقوالا، بل يكون اجتهاده في ذلك اجتهاد راغب في الكمال، شديد **الأنفة** من مساومة الجهال، عاشق في تزكية نفسه، مائلا للتقدم بنفس العلم على أبناء جنسه، وما أحسن قول القائل طويل:

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل

فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

ولا بد للمجتهد من يوم تحمد فيه عاقبة اجتهاده، ويحصل فيه على مراده، وإن كان قصير الهمة مهين النفس، قد أوتي طبعا في العمل سليما، وذهنا مستقيما، فظن أنه يستغني بذلك عن الاشتغال، ويبعد عم مماثلة الجهال، إدلالا بطبعه، واتكالا على حذقه، كأكثر شعراء زماننا وكتابه، والمنتظمين في سلك أرباب آدابه، حاشا من احتفل بالأدب احتفالا أوجب لذوي الآداب، والانتفاع بهذا الكتاب، فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن بمعرفته، ويتحقق أن مرتبته في العلم فوق مرتبته، ولا تهمل ذلك فإن خطره عظيم، " وفوق كل ذي علم عليم " ، هذا وإن كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله، ويأمر بالعرف ولا يمتثله، غير أني أنهج الطريق، وأحض على التوفيق، لتحصل لي مثوبة الدلالة، وأكسب أجر الهداية، فإن الدال على الخير كفاعله، والمحرض على العمل كعامله، وليعتمد الراغب في نظم الشعر، وإنشاء النثر في وقت العمل على وصية الإمام أبي تمام التي وعدت سالفا بنشرها، وهذا أوان ذكرها، وهي ما أخبر به الثقة عن أبي عبادة البحتري الشاعر أنه قال:." (١)

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص/٨٣

"وقد ورث المسلمون عن أوليتهم هذا المعنى: فلا يعلم في الأرض قوم غيرهم يعتصمون بحبل دينهم وأيديهم في الأغلال، ويجنحون إليه بأعناقهم وهي في ربق الملوك من الإذلال، ويخصونه بقلوبهم حتى يكون أملك بها وأغلب عليها ولا يحتملون فيه سخطة، ولا يؤثرون عليه رضى، ولا يعدلون به عدلا، ويتبرمون بكل ضيق إلا ما كان من أجله، ويرضون المحنة في كل شيء إلا فيه، ثم هم لا يرون أنفسهم المؤمنة في إحساس الفطرة، ومذهب الطبيعة إلا أنها بقية سماوية في الأرض تباين كل ما فيها (أي الأرض) ويشبه بعضها بعضا بالصفة والخاصة أنى وجدت وكيف اتفقت وعلى أي حالة كانت، وهذا كله مشاهد فيهم على أتمه وأبلغه، بعد كل ما رهقهم بالعجز عن مداولة الأيام، وصدمهم من أهل الاستبداد بكل محنة من الآلام، وتوردهم من الزمان بكل سفه يعد في السياسة من الأحلام.

على أنهم لا يعرفون أصل ما يحسونه، ولا يتصلون إلى سببه، وكأنما تقطع ما بينهم وبين أسلافهم، وقد بقي القرآن على ذلك معروفا مجهولا، بنفعهم بما عرفوا منه ولا يضرونه بما يجعلون (فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليهم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا).

وإن من أعجب ما يروعنا من أمر الجنسية العربية في القرآن: أنها تأبى إلا أن تحفظ على أهلها تلك الصفات العربية، من **الأنفة** والعزة والصوت والغلب: وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لا يزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض.

(١) ".

"تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي الصفحة : ٦

هم جيل من الناس تدلت عليه الشمس منذ القدم في هذه الجزيرة التي كأنها قطعة انخزلت من السماء مع الإنسان الأول، فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعا في الحرية الطبيعية، وأشدهم منافسة في مغالبة الهم، كأنما ذلك فيهم ميراث الطبيعة الأولى، فهم منه ينبتون وعليه يموتون.

سكان الفيافي وتربية العراء، ينبسطون مع الشمس ويفيئون مع الظل ويطيرون في مهب الهواء؛ بل أولاد السماء، ما شئت من أنوف حمية، وقلوب أبية، وطباع سيالة، وأذهان حداد، ونفوس منكرة؛ وقد أصبحت بقاياهم الضارية في بوادي العربية ومصر وسورية بهذا العهد، موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع، حتى أجمعوا على أنه لا ند لهذا الجنس في جميع السلائل البشرية، من حيث الصفات التي تتباين فيها أجناس البشر خلقا وخلقا، وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تسمو على سائر الأجيال، بالنظر إلى

---

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي، /

هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمي وقوام القلب ونظام نبضاته. فضلا عما هي عليه من ملاحة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح، وفضلا عما في طباعها من الكرم **والأنفة** والأريحية وعزة النفس والشجاعة.

لا جرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة التي ناسبتهم بأوضاعها في معاني التركيب، حتى كأنما كتب لها أن تكون دين الألسنة الفطري، لتصلح بعد ذلك أنتكون لسان دين الفطرة.

بلاد العرب

." (١)

"تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي الصفحة : ٢٩٧

لاجرم كانت هذه الأخلاق التي يحلو بها النسيب ويعذب الغزل غير صريحة في البداوة، ولا خالصة في تلك الخشونة الفطرية التي طبع عليها العرب في جاهليتهم، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التي انسلخت من الطبيعة العربية وتحولت عن صميمها بما فيها من المادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة، لأن أول من تعهر في شعره من العرب وشبب بالنساء، إنما هو امرؤ القيس بإجماع الرواة، وكان أبوه من ملوك كندة فظهرت في غزله الحضارة اليمنية وأفسدتها صعلكة الرجل؛ إذ كان على أنه ابن ملك لا يستتبع إلا صعاليك العرب وذؤبانهم، وقد شبب حتى بنساء أبيه؛ وكان هذا سبب نفيه لا ما زعموه من أن الملوك كانت تأنف لأبنائها من الشعر، وقد نبه على ذلك الجاحظ "في الحيوان" وسنكشف قلب هذا الشاعر متى وصلنا إلى ترجمته. وكان قبل امرئ القيس خاله مهلهل، وهو زير ن ساء، ولكنه كان بعين أخيه كليب فارس العرب المشهور وقد مر وصفه فلم يك بالمفحش ولا بالبذيء، ولما كان مهلهل أول من أرق الشعر كان كذلك أول من غني بالشيبي من شعره (ص٦١: سرح العيون).

ولم يجيء بعد هذين الشاعرين من يتهالك في غزله غير النابغة الذبياني، وقد أفحش في بعض نسبيه إفحاشا كأنه رومي أو فارسي، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة، أما الشعراء من العرب فكانوا على سنة قومهم من الغيرة **والأنفة**؛ ولذلك ظهر النسيب فيهم طبيعيا [فقامت] فيه الطلول والآثار، وتشوقوا بالرياح الهابة

---

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي، /

والبروق اللامعة والحمائم العانفة والخيالات الطائفة وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة. ". (١)

"وأول من ذلك لذلك منهم طفيل الغنوي؛ وكان يسمى محبرا لحسن شعره "العمدة" وكلا السببين قد اجتمعا في زهير، لأنه كان يروي شعر ثلاثة من الفحول منهم طفيل، وكان مذهب شعره المديح كما ستراه في الكلام عنه؛ ولذلك كان أول من اشتهر بالثابت المحكك من الشعر، وهو الذي كان يسمي كبار قصائده الحوليات لأنه ينظم القصيدة منها في شهر ثم لا يزال ينقحها ويهذبها حتى يمر عليها الحول؛ غير أن مثل زهير من أهل السيادة والورع لا يمدح لرغبة ولا يكذب في مديح، فكان بديهيا أن يكون من بعض بواعثه على الرواية مغالبة **الأنفة** ومدافعة الطبع والتماس عذر النفس الأبية في صدق المديح، وهذا كله مما لا يغني فيه الارتجال شيئا.

وما ظهرت الصنعة والتجويد في الشعر حتى اتقته العرب اتقاء شديدا لأنها رأت الشاعر في ترويته إنما يسم كلماته فلا يرمي بها إلا قاتلا؛ ولا جرم كان ذلك أيضا سبا من الأسباب في ضعف الارتجال، لأن شاعر الجاهلية الآخرة ميزان الأحساب لا يصلح إلا لأن يرفع ويضع، غير أن سبيل هؤلاء [الصنعيين] في غير تلك الطرائق سبيل غيرهم من أهل الطبع، فهم يرتجلون في الحماسة والهجاء وغيرهما.

تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي الصفحة : ٢٦٩." (٢)

"تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي

الأحوال الاجتماعية

فإني جبان الكلب بيتي موطأ جواد إذا ما النفس شح ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئا كما يقدرون الوفاء؛ فإذا وعد أحدهم وعدا؛ أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدا أن ينصروه. وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأبد. يقول الحادرة لصاحبته سمية ١:

---

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي، /

(٢) تاريخ الأدب العربي للرافعي، /

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في مجمع

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها؛ فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما يتمدحون **بالأنفة** وإباء الضيم، وكيف يقبلون الضيم، وهم أهل حرب وجلاد، يقول المتلمس٢:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه والحر ينكره والرسلة الأجد٣

ولا يقيم على خسف يراد به إلا الأذلان عير الأهل والوتد٤

هذا على الخسف معقول برمته وذا يشج فلا يبكى له أحد

فهم لا ينكرون شيئا مثل إنكارهم للهوان والضيم؛ فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى؛ إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها. وكل شيء إلا الهوان، وكان أقل شعور به يثيرهم، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه، وكان نازلا معها عنده؛ فاستل سيفه وقتله، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم. وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تني ولا تفتر

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعا في أقوى صورها، مضيفين إليها

---

١ المفضليات ص٤٥

٢ حماسة البحتري ص٢٠

٣ الرسلة: الناقة الذلول، الأجد: الموثقة الخلق.

". (١)

"تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي

الفرسان

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذي يهب من صوبها، وكما تهيجه الرسوم والأطلال؛ إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه، يقول في معلقته:

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، /

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم١

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

ودائما نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها، لا لغاية حسية؛ ولكن ليمتع طرفه بجمالها، ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية؛ فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده، وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج، يقول:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فهو دائم الذكر لها في وغى الحرب؛ حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم. إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر؛ فلا غرو أن يذكرها في ساعات القتال الحرجة، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس، بل يبتسم؛ لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف، فيؤمن بأنه منتصر.

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة؛ فلم تصبح فروسية حربية فحسب، بل أصبحت فروسية خلقية سامية، فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلا أعلى، والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس **بالأنفة** والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق. ويقال: إنه قتل في غارة له على بني نبهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن؛ إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه، ويقال: بل مات حتف أنفه٢.

---

(١) ".

"تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي

شعره

فكان طبيعيا أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء.

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، /

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقا ظاهرا؛ فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار، وكأن ذوقه الحضري هو الذي أعده لهذا التفوق؛ إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحا في التلطف محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيء فيه. وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها، مدبجا في ذلك قصائد طوالا تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب؛ بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته. وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن **الأنفة** الجامحة؛ فإذا ذنبه يكبر في نفسه، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر، فما يني يقدم للنعمان المعاذير متخذا إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة. وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام، حفاظا على صداقته القديمة له واستبقاء لوده، وهو حسن تأت لا صغار نفس ولا مهانة، ولا طلبا لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء؛ وإنما هو الذوق الحضاري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه، وتقديم شتى المعاذير. وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه، وارجع إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتنا في تصويرها، ومشبها لها بثور تناضله كلاب الصيد؛ حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجواري المنعمات، ثم مضى يستعطفه قائلا:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد١

." (١)

"عمله مرارا وأتم منه قسما لكنه مات ولم يمثله للطبع. وكان الشيخ كما هو معروف قليل الصحة بطيء الشغل ومجلة الضياء تستنفد همته فلا تسمح له بمعاناة سواه.

ومن آثاره اللغوية عدة مقالات مطولة وانتقادات لسانية كالأمالي اللغوية ولغة الجرائد وأغلاط العرب المولدين واللغة والعصر ونقد لسان العرب وغير ذلك مما أصاب في بعضه وأخطأ في البعض الآخر فتصدى له كثيرون من المكتبة فقامت بينه وبينهم الجدالات الطويلة وكان الشيخ (كثير الأباء ظاهر **الأنفة** إلى حد الترفع) كما قال في ترجمته صاحب الهلال (١٥: ٢٦٧) فأذى به طبعه إلى كتابة فصول ما كنا لننتظرها من مثله أطلق فيها العنان لأهوائه وأنتهك في بعضها حقوق الدين وأربابه سامحه الله.

وللشيخ أيضا قصائد متفرقة ومنظومات رشيقة لم تجمع حتى اليوم. روى بعضها جناب الأديب عيسى

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، /

أفندي إسكندر معلوف في ترجمة حياته التي نشرها في المقتطف. ومن اقدم ما وجدنا له من القصائد ما أنشده في الجمعية السورية في أوائل سنة ١٨٦٨ وهي منظومة حماسية ذكر فيها العرب فقال في أولها:

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام

لقد ذكر الزمان لكم عهودا مضت قدما فلم يضع الغمام

ثم قال في وصف مجالس العلم:

مجالس العلوم غدت منارا به ليغلب الجهل انصرام

جلاها كل أبلج أريحي تقر له البلاغة والكلام

تجرد من أياديه المواضي وترسل من لواحظه السهام

رجال في انتشار الفضل جدوا وفي حب العلوم صبوا وعاموا

تلاعبت الحمية في نهاهم كما لعبت بشاربها المدام

تهز الأريحية كل يوم معاطفهم كما أهتز الحسام

هم الشهب والمطيرة فوق أرض يلوح لنوئهم فيها غمام

غمام قد تخلله بروق يصافحها الرجاء متى تشام

جهابذة يقوم الفرد منهم بما أعيا به جيش اللهام

ومن أبياته الحماسية فيها قوله عن العرب:

وما العرب الكرام سوى نصال لها في أجفن العليا مقام...." (١)

"صغارها وأما (علي) فأشار باللين وإفراط الرفق وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسفه حقه اللين بحتا والخير محضا لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينة ولا بشر يحسبهم إلى خيره فقد ملكهم الخلع لعذرهم ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة فنزوة في رؤوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم وإن لم يقبلوا دعوته يسرعوا لإجابته باللين المحض والي الصراح فذلك ما عليه الظن بهم والرأي فيهم وما قد يشبه أن يكون من مثلهم لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير مال لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها فلولا أنه خلق نارا جعلها لم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا وأما (موسى) فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها وأن يرموا بشر ولا خير م؏ھ

(١) تاريخ الآداب العربية، ١/١٨٧

وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفادا والشر مجردا ليسعهما طمع ولا لين بثنيتهم اشتت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم **الحمية** من الشدة **والأنفة** من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف والاستبسال في القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى اصعب وأغلظ وأشده مما كان.

وقاتل في قول الفضل: أيها المهدي أكفى دليل أوضح برهان وأبين خبر بأن فد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي ذلك رأي.

قال هارون ما خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد الدين أهدى قائد إلى ما تحب ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي لد قلت." (١)

"أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع **الحمية** فهم نابتة وملابس **الأنفة** عليهم ظاهرة فالروية عنهم عازية والعجلة عنهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم لأنهم بين صفة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفطمون إلا بالمر وإن ولي المهدي عليهم وضيعا لم تنقد له العظماء وإن ولي أمرهم شريفا تحمل عليه الضعفاء وإذن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه وأو بني عمه أو بني أبيه ناصحا يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم تنفست اليان بهم وتراخت الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع لعظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر كبير وليس المهدي وفقه الله فاطما عاداتهم ولا قارعا صفاتهم ويمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بمسمعك ويد ممثلة لعينك وصخرة لا تزعزع وبهمة لا تثنى وبازل لا يفزعه صوت الجلجل نقي العرض نزيه النفس جليل والخطر قد اتضعت الدنيا عن قدره وسما نحو الآخرة بهمته فجع الغرض الأقصى لعينه نصبا والغرض الأدنى لقدمه موطئا فليس يقبل عملا ولا يتعدى أملا وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك رجل قد غذي بلطيف كرامتك

---

(١) جواهر الأدب، ١٥٧/١

ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك فإن قلدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم كان قفلا فتحه أمرك وبابا أغلقه نهيك فجعل العدل عليه وعليهم أميرا والإنصاف بينه وبينهم حاكما وإذا حكم المنصفة وسلك المعدلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم غرس في الذي لك بين صدورهم وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة فيحول شيء عوامهم متمكنة من قلوب من غيضك أو نبعة من أورمتك فتي السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يجرد فيهم سيفه." (١)

"القرآن (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) [هود:١]، فيه آيات بينات، ودلائل واضحات، وأخبار صادقة، ومواعظ رائقة، وشرائع راقية، وآدا عالية، بعبارات تأخذ الألباب.

وأساليب ليس لأحدج من البشر بالغا مما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها، أو يفكر في محاكاتها فهو آية الله الدائمة، وحجته الخالدة، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [فصلت: ٤٢]، أنزل الله على رسوله ليبلغه قومنه وهم فحول البلاغة، وأمراء الكلام.

وأباه الضيم، وأربا **الأنفة والحمية** فيبهرهم بيانه، وأذهلهم افتتانه فاهتدى به من صح نظره واستحصف عقله، ولطف ذوقه، وصد عنه أهل العناد والمكارة واللجاج فتحداهم أن يأتوا بمثله فنكصوا ثم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا فحق عليهم إعجازه قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء: ٨٨].

وللقرآن فضل على اللغة فقد أثر فيها ما لم يؤثره أي كتاب سماويا كان أو غير سماوي في اللغة التي كان بها، إذا ضمن لها حياة طيبة وعمرا طويلا، وصانها من كل ما يشوه خلقها ويذوي غضارتها فأصبحت وهي اللغة الحية الخالدة ومن بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها، وصارت في عداد اللغات التاريخية الأثرية وأنه قد أحدث فيها علوما جمة وفنونا شتى لولاه لم تخطر على قلب، ولم يخطها قلم منها، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان والأدب والرسم، والقراءات، والتفسير، والأصول، والتوحيد والفقه.

جمع القرآن وكتابته." (٢)

---

(١) جواهر الأدب، ١٦٠/١

(٢) جواهر الأدب، ٢٩٧/١

"وعلى ضوء هذا كان المتنبي من أكثر الشعراء هجوما على الواقع، كما أنه كان" أحد الطرائد في عصره، فقد طارده الكهنوت السياسي، كما طارده الكهنوت الديني، (...) لأنه رفض أن يمدح أميرا كبيرا، أو وزيرا خطيرا فكان الرفض اعتداء على الأعراف المقدسة"(١)، ولأنه كان بطلا في كل مواقفه، بطولة يتآلف فيها الغضب والنرجسية، بطولة تنبع من ذات أبية ضخمة، معادية لعالم الواقع، ذات لا ترى نبعا للحقيقة المثلى فيما عداها، وليس هناك من شيء أحق بالإدراك إلا ها، إنها ذات تجسد الشمم البدوي في رفضه وتمجيده للصراع العنيف المحقق لكيانها، في مقابل الخنوع المدني وتسليمه.

ومما يجدر ذكره هو أن التمرد **والأنفة**، والحيرة والقلق، لم يكن دأب أبي نواس أو المتنبي دون غيرهما من الشعراء، أو قل المثقفين- بصفة عامة في ذلك العصر – فلقد كان في شعر بشار بن برد شيء غير قليل من العدوان على المجتمع والاستهتار بقيمه وآدابه. كما أن شعر ابن الرومي- الذي عاش في العصر العباسي الأول، أي سابق على هؤلاء جميعا- يعكس الكثير من الشكوك إزاء المجتمع، ويحمل قلقا كبيرا، ونظرة تشاؤمية سوداوية، ساعد على تعميقها وملازمتها له ، طبيعة مزاجه العصبي من جهة، وما لاقاه من عنت وقهر في عصره من جهة أخرى . ولم يخرج عن هذا الخط كل من أبي تمام

وأبي العلاء، وأبي العتاهية وابن بابك (٢) وديك الجن وغيرهم(٣) .

---

(١) – محمد شرارة : المتنبي بين البطولة والاغتراب، ص ٢٤٩.

(٢) – لم نلتزم بالترتيب الزمني في ذكر الشعراء، لأننا رأينا أنه أمر غير ذي أهمية، فأهم في نظرنا، هو وحدة المعاناة وتجلي الظاهرة.

(٣) – لمزيد من الاطلاع انظر: أدونيس: مقدمة للشعر العربي، ص ٣٩،٤١،٤٦،٥٢،٥٨،٦١،٦٤.."

(١)

"إنه الواقع المديني في أشد لحظات عريه وتردية، منظور إليه بعين محايدة هي عين الشاعر الوافد مجددا إليه بغرض الانتماء لا الانفصال الذي اصطدم به.

ولا يرى فيها الشاعر الجزائري (محمد زتيلي) نفسه فيها إلا ضائعا، جائعا بين هذه الجموع الغفيرة التي تحترف النفاق والتدليس:(١)

أنا ضائع بين من هاجروا ... بين من ناصروا ... بين

---

(١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص/٥٧

من نافقوا، ضائع بينهم، أيها الناس ضعنا جميعا ...
تشتت شمل المهاجر
أقصد شمل المناصر
بل قد تجمع شمل المنافق ... أقصد ضعنا

فبالرغم من هذه النزعة الخطابية التي يشي بها هذا المقطع من القصيدة إلا أنها تعكس مدى الضياع الذي يعانيه كل نازح جديد إلى المدينة، التي تصدمه بواقعها المختلف تماما عما آلفه في ريفه البسيط؛ سواء من حيث الأشكال المعمارية، أو من حيث العلاقات الإنسانية الاجتماعية.

٥- نسق العلاقات الإنسانية في مجتمع المدينة :

بعد صدمة ذلك الاندهاش، وبغتة تلك المفاجأة التي استشعرها الشاعر وهويطأ المدينة لأول مرة، بعد هذا، وبعد زوال آثار ذلك الاندهاش، تسنى له أن ينغمس في حياتها، وينصهر في أتونها، ويعرف كثيرا من خباياها. ولعل الانطباع أو الشعور الأكثر بروزا، الذي تأكد لدى الشاعر – بعد أن خبر الحياة فيها وعرف ما تتخبط فيه من تدهور فظيع غشي هذا المكان البراجماتي النفعي، فانتزع من نفوس أبنائه المروءة **والأنفة**، وأستأصل من قلوبهم الشفقة والرحمة – هو إدراكه لمدى تورطه. مما جعله يتخذ منها موقفا عدائيا، كشف من خلاله الزيغ الذي تعانيه هذه الحضارة المادية، والمخازي التي تكتنفها، والوحشية التي تحكم فعل العلاقات فيها. ولقد كانت هذه الحقيقة المهولة التي اكتشفها، هي التي جعلته يذم المدينة ويهاجمها مهاجمة عنيفة وعلى مختلف الأصعدة.

---

(١) -. محمد زتيلي: "فصول الحب والتحول"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٨٢، ص ٨٠ .." [١]
"من أسرتها: أذبحه. الذبيح، الذبح... ومعانيها جميعا تدور حول النحر.

من مقاطعها :ذب- من ذب (لم يستقر في مكان واحد) ذح- من ذح الشيء (دقه وشقه) بح- من بح الرجل (غلظ صوته وخشن).

وواضح أن المقطع الجذر هو (ذح)، وألحقت (الباء) في الوسط للحفر.

في حروفها : (الذال) للاهتزاز والذبذبة يضاهي صوته بداية النحر بتكرار حز السكين في العنق. و(الباء) لمضاهاة واقعة الحفر في العنق. و(الحاء) للبحة الصوتية والحشرجة والمطاوعة.

---

(١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، ص/٢١٢

وهكذا قد توافقت معاني أسرة اللفظة ومقاطعها وحروفها في تمثيل ومحاكاة واقعة الذبح، من حز وشق وتخبط وبحة في الصوت.

ثانيا- في تحديد معاني بعض القيم الإنسانية والاجتماعية:

تنبيه لا بد منه:

لقد عرضت أكثر من مرة أن اللفظة العربية بحكم نشأتها الفطرية قد أبدعت أصلا للتعبير عن معنى حسي معين، ولذلك فإن العربي عندما كان يعوزه التعبير عن معنى غير حسي في مراحله الثقافية المتطورة كثيرا ما كان يلجأ إلى استخدام لفظة معينة تتوافر بين معناها الحسي وبين المعنى المستحدث رابطة ذهنية ما. ولذلك فإن من طبيعة الأمور أن يختار اللفظة التي تكون موحيات أصوات حروفها أكثر توافقا مع المعنى الجديد وسياقه. ولهذا السبب بالذات قد اختار لفظة (عقل الأشياء) بمعنى أدركها على حقيقتها، ولم يختر لفظة (ربط الأشياء) لهذا الغرض.

وكثيرا ما كان العربي يوفق في اختيار اللفظة المناسبة للمعنى الجديد إلى الحد الذي يغيب معه معناها الحسي، فلا يفطن له إلا كل ضليع. مما يجعل العودة إلى مقاطع مثل هذه اللفظة وحروفها مفيدا في الكشف عن معناها غير الحسي بمقدار ما هو مفيد في الكشف عن معناها الحسي الأصل، كما في (عقل الأشياء، وعقل البعير)، كما سوف نرى.

١-الحمية لغة:

هي **الأنفة**: **والأنفة** معناها (العزة **والحمية**). والعزة معناها (**الحمية والأنفة** والقوة والغلبة).." [١]

"من أسرتها: حمت الشمس (اشتد حرها) حامى عنه (دافع) حمى الله (محارمه) ومنه يكون مفهوم **الحمية**: هو (تأجج المشاعر لحماية المحرمات)، أي المقدسات.

من مقاطعها : حم- من حم النار (أوقدها). حمه الأمر (أهمه). حي حي يحي (فهو حي). مي- من مي، لا معنى له. والمقطع الجذر هو (حم)، والمقطع الثانوي هو (حي) ليصبح معنى **الحمية** (توقد الحياة).

في حروفها: الحاء (للعاطفة والحرارة). الميم (للانضمام والانجماع) (الياء) لتثبيت هذه الخصائص في نفس صاحبها. وهذه المعاني تتوافق مع المعاني المستخلصة من أسرتها ومقاطعها.

٢-الأنفة لغة- (العزة **والحمية**)

من أسرتها: الأنف (عضو التنفس والشم) أنف (استنكف واستكبر). وهو مستمد من الصورة البصرية لرفع

---

(١) خصائص الحروف العربية ومعانيها - دراسة -، ص/٢٦١

الرأس عاليا وفي مقدمته الأنف، في حالة ترفع النفس عن الصغائر أو المذلة.

من مقاطعها :أن– من أن (تأوه) أف– من أف تضجر، نف – من نف الأرض (بذرها) والمقطع الجذر هو (أف) والنون الملحقة (للصميمية) ليصبح معنى **الأنفة** هو: التضجر الذاتي من المستكرهات).

في حروفها: الهمزة (للبروز). والنون (للصميمية والبطون).والفاء في نهاية اللفظة (للرقة) ليصبح معنى **الأنفة** (موقف تعال نابع من الصميم بلا عنف).

٣–العزة لغة:

هي **الحمية والأنفة** كما سبق.

من أسرتها: عز (قوي وبرئ من الذل) تعزز لحمه (اشتد وصلب) ليصبح مفهوم العزة (الترفع بقوة عن الذل).

في حروفها: العين (للعلو والفعالية والوضوح) الزاي (للفعالية والشدة) ليصبح معنى العزة (المنعة والترفع بصلابة).

فما كان أوهى الروابط بين معاني هذه المفاهيم الثلاثة: (**الحمية والأنفة** والعزة) التي جعلوها مترادفات وهكذا تتحول ألفاظنا إلى مصطلحات، ليس في نظر المستشرقين فحسب، وإنما في نظرنا نحن أيضا، وذلك بفعل أصحاب المعاجم اللغوية أنفسهم.

٤–الشهامة لغة :

هي: (عزة النفس وحرصها على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل).." [١]

"من أسرتها: شهمه (نشطه، وزجره). الشهم (الذكي، السيد السديد الرأي).

من مقاطعها: شه– من شه (لا معنى له)، شم – من شم الرجل (ترفع وتكبر). الشمم (الارتفاع) هم من هم بالأمر (عزم عليه ولم يفعل)، هم الأمر فلانا (أقلقه وأحزنه).

وهكذا فالشهامة هي: مزيج من الترفع والكبر والاهتمام وعلو الهمة.

في حروفها: الشين (للتفشي والانتشار). والهاء (للانفعالات النفسية) الميم (للانجماع والحرارة).

وهكذا مفهوم الشهامة بحسب معاني (أسرتها ومقاطعها وحروفها) هي أقرب إلى الكبرياء، التي في (**الأنفة**) وإلى الحرارة الوجدانية التي في (**الحمية**) وإلى ما في (العزة) من ترفع ومنعة وفعالية. لتصبح الشهامة ضربا من: (الاهتمام العام بالقيم الإنسانية)، أو ضربا من (الالتزام بالقيم الاجتماعية) وهو أصدق مما جاء في المعاجم حول تعريف الشهامة.

---

(١) خصا ئص الحروف العربية ومعانيها – دراسة –، ص/٢٦٢

٥-الصدق لغة:

هو (مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم). وهو (الصلابة والشدة).

من أسرتها : صدق في الحديث (أخبر بالواقع)، الصديق (الصاحب الصادق الود). الصدق بفتح الصاد (الكامل من كل شيء) رجل صدق في القتال (ثبت فيه). تصدق عليه (أعطاه)، أي فعل معه فعل الأصدقاء.

من مقاطعها: صد- من صد (اعترض، منع، صرف). دق- من دق (كسر) دق الأمر (كان خفيا لا يدركه إلا الأذكياء). صق- من صق (لا معنى له).

في حروفها: الصاد (للصفاء والصلابة). الدال (للشدة والقوة). القاف (للقوة والمقاومة).

وهكذا فإن مفهوم الصدق بحسب المعاني المستخلصة من أفراد أسرتها ومقاطعها وحروفها يتجاوز (الإخبار بالواقع). إلى (صفاء الطوية وصد الإنحراف والشطط). ليصدق بذلك القول المأثور: (الصديق من صدقك، لا من صدقك).

٦-النبل لغة:

هو النبالة، وهي (الذكاء والنجابة والشرف).

من أسرتها: نبل (عظم وشرف). النبل (السهام) لتتردد معانيها بين (الشرف والنبال).." (١)

"إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحا يبسطها إذا شاء ترفيها وإنعاما، ويقبضها إذا أراد تنبيها وإلهاما، ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا، وعلى آخرين فسادا وضيرا، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد، وأنه بعد ما كان من امتساك الحيا، وتوقف السقيا، الذي ريع به الآمن، واستطير له الساكن، ورجفت الأكباد فزعا، وذهبت الألباب جزعا، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها واكتست الأرض غبرة بعد خضرة، ولبست شحوبا بعد نضرة، وكادت برود الأرض تطوى، ومدود نعمه تزوى. يسر الله تعالى رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته، وأزاح محنته، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح، بماء دفق، ورواء غدق، من سماء طبق، استهل جفنها فدمع، وسح مزنها وهمع، وصاب وبلها ونفع، فاستوفت الأرض ريا، واستكملت من نباتها أثاثا وريا، فزينة الأرض مشهورة، وحلة الرياض منشورة، ومنة الرب موفورة، والقلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجوع ممحوة، وسور الحمد متلوة ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق، ونستعيذ به من المنة أن تصير فتنة، ومن المنحة أن تعود محنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) خصا ئص الحروف العربية ومعانيها - دراسة -، ص/٢٦٣

الوزير أبو بكر محمد بن القصيرة

قرأت له في بعض التعاليق، هذا البيت شاهدا له بجودة النظم بالتوفيق والتحقيق، وهو من أبيات يهنيء فيها بمولود:

لم يستهل بكى ولكن منكرا ... أن لم تعد له الدروع لفائفا

ولم يورد القيسي مصنف قلائد العقيان شيئا من شعره، لكنه وشح كتابه بنثره، ووصفه بترجح الأقلام في بيانه، وتبجح الأيام بمكانه، وإنه كان في سماء العلى وتاجها دريا ودره، ولمشرفي الشرف وجهة الوجاهة غرارا وغرة، واشتملت عليه دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اشتمال الجفن على البصر، والأكمام على الثمر، والهالة على القمر، إلى أن أضمر رمسه، وكورت شمسه. قال القيسي: فمن كلامه رقعة راجعني بها: وافتني لك – أطال اله بقاءك – أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس في حلل إبداعها كالغصن الاملود، وإنك لسابق هذه الحلبة لا يدرك غبارك في مضمارها، ولا يضاف سرارك إلى إبدارها، وما أنت في أهل البلاغة إلا نكتة فلكها، ومعجزة تتشرف الدول بتملكها، وما كان أخلقك بملك يدنيك، وملك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولا تقف إلا على من توقف، ولو اتفقت بحسب الرتب لما ضربت إلا عليك قبابها، ولا خلعت إلا عليك أثوابها، وأما ما عرضته فلا أرى إنفاذه قواما، ولا أرضى لك أن تترك عيون آرائك نياما، ولو كففت من هذا الخلق، وانصرفت عن تلك الطرق، لكان أليق بك، وأذهب مع حسن مذهبك، فقديما أوردت الأنفة أهلها موارد لم يحمدوا صدرها والموفق من أبعدها وهجرها، وسأستدرك الأمر قبل فواته، وأرهف لك مفلول شباته، فتوقف قليلا، ولا تنفذ فيه دبيرا ولا قبيلا، حتى ألقاك هذه العشية، وأعلمك بما تنبني عليه القضية.

وكتب عن أمير المسلمين إلى طائفة متعدية: يا أمة لا تعقل رشدها، ولا تجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها، ولا تقلع عن أذي تفشيه قربا وبعدا جهدها، فإنكم لا ترعون لجار ولا غيره حرمة، ولا تراقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، قد أعماكم عن مصالحكم الأشر، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم، وأتيتم ما ينكر مقتديا في ذلك صغيركم بكبيركم، وخاملكم بمشهوركم، ليس فيكم زاجر، ولا منكم إلا غوي فاجر، وما ترى إلا الله عز وجل قد شاء مسخكم وأراد نسخكم وفسخكم، فسلط عليكم الشيطان الرجيم يغركم ويغريكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم، وكأنكم به قد نكص على عقبيه عنكم، وقال إني بريء منكم، وترككم في صفقة خاسرة، لا تستقيلونها إن لم تتوبوا في دنيا ولا آخرة، وحسبنا هذا إعذارا لكم، وإنذارا قبلكم، فتوبوا وأنيبوا وأقلعوا وانزعوا، واقضوا من أنفسكم كل من وترتموه، وأنصفوا جميع من ظلمتموه

وغششتموه ولا تستطيلوا على أحد بعد، ولا يكن إلى أذاه صدر ولا ورد، إلا عاجلكم من عقوبتكم ما يجعلكم مثلا سائرا، وحديثا غابرا، فاتقوا الله في أنفسكم وأهليكم، وإياكم والاعتزاز فإنه يورطكم فيما يرديكم ويسوقكم، إلى ما يشمت به أعاديكم، وكفى بهذا تبصرة وتذكرة، ليست لكم بعدها حجة ولا معذرة...." (١)

"وهي في سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم، وستة أشهر شمالا منهم: فليس عندهم حر مفرط، ولا برد مفرط. وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة.

وهذا القول يحتاج إلى بيان أكثر من هذا، لا يليق بما نحن بسبيله؛ وإنما نبهناك عليه، لأنه من الأمور التي تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب.

فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بأن حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبرا نقصه عليك، فقال: انه كان بازاء تلك الجزيرة، جزيرة عظيمة متسعة الأكتاف، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد **الأنفة** والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذا لم يجد لها كفوا. وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم.

ثم إنها حملت منه ووضعت طفلا. فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها، وضعته في تابوت أحكمت زمه بعد أن أروته من الرضاع؛ وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر، وقلبها يحترق صبابة به، وخوفا عليه، ثم إنها ودعته وقالت: "اللهم انك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئا مذكورا، ورزقته في ظلمات الأحشاء، وتكفلت به حتى تم واستوى. وأنا قد سلمته إلى لطفك، ورجوت له فضلك، خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد.

فكن له، ولا تسلمه، يا أرحم الراحمين" ثم قذفت به في اليم. فصادف ذلك جري الماء بقوة المد، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها. وكان المد يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه بعد علم. فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة، مستورة عن الرياح والمطر، محجوبة عن الشمس تزاور عنها إذا طلعت، وتميل إذا غربت. ثم أخذ الماء في الجزر.." (٢)

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر، ٨٠/٣

(٢) حي بن يقظان، ص/٣

صفة سواه ولذلك يذهب الأخلاق العسرة وقوة النفس وفي معنى ذلك أنشد بعضهم حيث قال في رسالة أرسلها إلى محبوبته

شكوت فقالت كل هذا تبرم . . . بحبي أراح الله قلبك من حبي

فما كتمت الحب قالت لشد ما . . . صبرت وما هذا بفعل شجى القلب

وأدنو فتعصيني فأبعد طالبا . . . رضاها فتعد التباعد من ذنبي

فشكواي يؤذيها وصبري يسوءها . . . وتجزع من بعدي وتنفر من قربي

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها . . . أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ومنهم من تحمله **الأنفة** على أن يفارق بعد إظهار شدة شوق وقوة ميل وكذا شدة الإقبال من المحبوب فيتوهم حيث تشيع نفسه أن الشوق لا يعاوده فيفارق ويعود ذلك عليه بتلف نفسه والحق أن ذلك كله مع عدم التمكن وهو الموسوم بالاشراك وإلا فالصدق منه لا يرى وجودا لسوى المحبوب ومن ثم طعن على من يرى الدنيا مثالا لمحبوبه أو يظن وجوده ودونوا ما صدر عمن بدأ بالسلوان ثم ندم فمن ألطف ما قيل في ذلك قول الهذلي

ويمنعني من بعض إظهار ظلمها . . . إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر

مخافة أني قد علمت إذا بدا . . . لي الهجر منها ما على هجرها صبر

وإني لا أدري إذا النفس أشرفت . . . على هجرها ما يبلغن بي الهجر

وقال ابن الجهم." (١)

" ٪ (ولحده التصميم حين تلاحقت ٪ أقرانه ولشأوه التقديم) ٪ | ومن أعجب ما جاء في التهنئة والتعزية قول عبد الملك بن صالح :

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال قيل للرشيد أن عبد الملك بن صالح يعد كلامه فأنكر الرشيد ذلك وقال بل هو طبع فيه حتى جلس يوما ودخل عبد الملك فقال للفضل قل له : ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن ففعل الفضل ذلك فدنا عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين سرك الله فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجعلها واحدة بواحدة ثواب الشاكر وأجر الصابر . فقال الرشيد : أهذا الذي زعموا أنه يصنع الكلام ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة . وقلت في تهنئة بمولود : ٪ (فأستقبل

---

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ٤١/١

الخير في نجيب ٪ عما يعيب الورى نزيه) ٪ ٪ (شمس نهار وبدر ليل ٪ يملك أبصار ناظريه) ٪ ٪ (يملأها بهجة إذا ما ٪ كشف عن وجهه الوجيه) ٪ ٪ (رزقته كاملا سويا ٪ تكثر علات عائبيه) ٪ ٪ (جنى لذيذ المذاق حلو ٪ يقرب من كف مجتنيه) ٪ ٪ (وعن قليل يصير شهما ٪ يشقي به جد كاشحيه) ٪ ٪ (ألا فعش في ضمان خير ٪ حتى ترى الشيب من بنيه) ٪ | وقلت في تهنئة بأملاك : ٪ (تجلى لك الأملاك عما تحبه ٪ فإنك قد فصلت بالتبر جواهرا) ٪ ٪ (فصيرته للدهر عقدا مفصلا ٪ وطيرته في الأفق نشرا معطرا) ٪ ٪ (هو اليمن لم يعدمك محبوبة دنت ٪ ومكروهة شطت وصعبا تيسرا) ٪ | ومن عجائب المعاني تهنئة لأبي إسحاق الصابئ مشوبه بالعقد لرجل زوج أمه : قد جعلك الله وله الحمد من أهل التحصيل والرأي الأصيل وخلوص اليقين فكما إنك لا تتبع الشهوة في محظور فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره ويأوي

". (١)

" ١ - (قد كنت لي جبلا ألوذ بظله ... فتركتني أضحى بأجرد ضاح)

٢ - (قد كنت ذات حمية ما عشت لي ... أمشي البراز وكنت أنت جناحي)

٣ - (فاليوم أخضع للذليل وأتقي ... منه وأدفع ظالمي بالراح)

٤ - (وأغض من بصري وأعلم أنه ... قد بان حد فوارسي ورماحي)

٥ - (وإذا دعت قمرية شجنا لها ... يوما على فنن دعوت صباحي)

وقالت أيضا

البكاء عليه في هذا الوقت والمراد بالأربعة قبائل الرأس وهي مجاري الدمع إلى العين وتريد بهذا الكثرة والمعنى يا عيني أكثري البكاء كل صباح على الجراح واستنزلي الدموع الكثيرة عليه

١ - الأجرد الأملس والضاحي البارز للشمس والمعنى كنت لي ملجأ أعتصم به والآن قد تركتني غرضا لسهام الأيام

٢ - الحمية الأنفة والعزة والبراز الفضاء وجناحي أي قوتي والمعنى قد كنت في حياتك صاحبة عزة وأنفة أقطع الفلاة الواسعة وحيدة لا أرهب أحدا إذ كنت قوتي وحصني

---

(١) ديوان المعاني، ١/١٠٠

٣ – الراح الكف والمعنى أني أصبحت اليوم ذليلة خاضعة لكل امرئ ولو ذليلا خائفة ممن أرادني بسوء ليس لي ما أدفع به ظالمي إلا كفي

٤ – بان انفصل والمعنى أني أعرض عمن نالني بسوء لعلمي أن الذي كان قائدا للفوارس وكان كحد الرمح في الشدة والقوة انفصل عني

٥ – الشجن الحزن أو الحبيب فعلى الأول يكون مفعولا له وعلى الثاني مفعولا به والفنن الغصن الناعم والمعنى أني إذا سمعت نوح القمرية حزنا على إلفها فوق الغصن ناديت وا سوء صباحاه ." (١)

" ١ – (إذا قناة امرء أزرى بها خور ... هز ابن سعد قناة صلبة العود)

وقال النابغة الجعدي تقدمت ترجمته

٢ – (ألم تعلمي أني رزئت محاربا ... فمالك منه اليوم شيء ولا ليا)

٣ – (ومن قبله ما قد رزئت بوحوح ... وكان ابن أمي والخليل المصافيا)

٤ – (فتى كملت خيراته غير أنه ... جواد فما يبقي من المال باقيا)

٥ – (فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا)

حالا بين جماعة منهم فكان حلولك فيهم بمحل الرأس من الجسد كشفت غمته بكلام بين وقلب ثابت عند **الأنفة** وإظهار كرم النفس وشرفها

١ – ضرب القناة هنا مثلا للإباء والامتناع وأزرى نقص والخور الضعف والمعنى إذا لم يبق في إباء أحد مطمع فابن سعد له إباء صحيح ثابت لا يزرى بقناته ضعف كما يزري بقناة غيره

٢ – ألم تعلمي ظاهره تفرير ولكنه توجع وتلهف والخطاب لزوجته ومحارب ابنه ورزئته فجعت به والمعنى ألم تعلمي ما فجعنا به من موت محارب فليس لك ولا لي شيء منه غير التحسر والتوجع

٣ – وحوح اسم أخيه وأصله من قولهم وحوح الرجل إذا ردد صوتا في صدره مما يشبه جرس الحاء وهو قريب من النحنحة والمعنى أن هذه المصيبة ليست أول مصيبة نزلت بي إذ قبل مصيبتي بمحارب فجعت بفقد أخي وحوح وقد كان ابن أمي والمخلص لي بالود والوفاء

٤ – فتى منصوب على المدح والاختصاص والمعنى أذكر فتى استكمل كل الخير إلا أنه كان من جوده إذا أنفق لم يبق شيئا من المال لكثرة بذله

---

(١) ديوان الحماسة، ٣٧٧/١

٥ – المعنى أذكر فتى كان جامعا لخصلتي الخير والشر فمورد الخير لسرور الأحباب والأصدقاء ." (١)

" وهل أهلك ظليم البراجم الا قول الشاعر

(ان ابانا فقحة لدارم ... كما الظليم فقحة البراجم)

وهل اهلك بني العجلان الا قول الشاعر

(اذا الله عادى أهل لؤم ودقة ... فعاد بني العجلان رهط ابن مقبل)

(قبيلته لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل)

(ولا يردون الماء الا عشية ... اذا صدر الوراد عن كل منهل)

واما قول الاخطل

(وقد سرني من قيس عيلان أنني ... رايت بني العجلان سادوا بني بدر)

فان هذا البيت لم ينفع بني العجلان ولم يضر بني بدر

قال ابوعبيدة كان الرجل من بني أنف الناقة اذا قيل له ممن الرجل قال من بني قريع فما هو الا ان قال الحطيئة

(قوم هم الأنف والاذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا)

فصار الرجل منهم اذا قيل له ممن أنت قال من بني أنف الناقة

وناس سلموا من الهجاء بالخمول والقلة كما سلمت غسان وغيلان ومن قبائل عمرو بن تميم وابتليت الحبطات لأنها أنبه والنباهة التي لا يضر معها الهجاء مثل نباهة بني بدر وبني فزارة ومثل نباهة بني عدس بن زيد وبني عبد الله بن دارم ومثل نباهة الديان بن عبد المدان وبني الحرث بن كعب فليس يسلم من مضرة الهجاء الا خامل جدا او نبيه جدا وقد هجيت فزارة بأكل أير الحمار وبكثرة شعر القفا لقول الحرث بن ظالم

(فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقاب)

ثم افتخر مفتخرهم بذلك ومدحهم به الشاعر فقال مزرد بن ضرار

(منيع بين ثعلبة بن سعد ... وبين فزارة الشعر الرقاب)

(فما من كان بينكما بنكس ... لعمرك في الخطوب ولا بكاب)

---

(١) ديوان الحماسة، ١/٤٣٩

وأماقصة أير الحمار فانما اللوم على المطعم لرفيقة ما لا يعرفه فهل كان علىالفزاري في حق **الأنفة** أكثر من قتل من أطعمه الجوفان من حيث لا يدري فقد هجوا بذلك وشرفهم وافر وقد هجيت الحرث بن كعب وكتب الهيثم ابن عدي فيهم كتابا فما ضعضع ذلك منهم حتى كأنه قد كتبه لهم ." (١)

"""""""""" صفحة رقم ١١٨ """""""""

العفة طباع ، فكأنها توجد في فطرته . وأما الأنيف فالذي أصيب أنفه ، كأنه مأنوف ، والكلام في الأنوف قد مر في الجزء الخامس وإعادته تشق . وأما الشنيف فالمبغض ، ولا تقل المبغوض ، لأنه لا يقال بغضه ، هذا لفظ العامة وهو مرود عند البصراء بالأصول ، ولكنه يقال : بغض الشيء في نفسه فهو بغيض ، فكأنه أخذ من شنفته إذا أبغضته ، وكذلك : شنفت له . وقال بعض الأدباء : وهو أيضا الذي علق في أذنه الشنف - بفتح الشين وسكون النون - وهو أيضا بمعنى مفعول ؛ وأما فلان شنف أنف صلف فهو الشنف - بحركة النون - وهو البغض **والأنفة** والصلف ؛ ويقال : شانفني مشانفة أي عاداني معاداة ، وهذا كله محصل عن السماع والكتب والصحاح وأهل الأدب الموثوق بهم بالعراق . وأما الرفيف فهو بريق الشيء وبصيصه ونوره وبهاؤه وماؤه ، ويقال منه : رف الشيء إذا أنار ونار واستنار ، كل ذلك بمعنى واحد ، ومضارع هذا يرف بكسر الراء ، فأما رف يرف بالضم فمعناه أكل ، وأما رف خفيفه يرف فمعناه كثر ، والرف سألت عنه السيرافي فقال : هو من كلام العرب ، وهو الذي يضاف إلى الحائط ليوضع عليه شيء . وأما الطريف - بالطاء غير معجمة - فهو ضد التالد ، وفي الكلام يقال : بذلت له طريفي وتالدي ، والتالد : الموروث ، والطريف : المكتسب ، وأما الطرف فهو الفرس الكريم ، وأما الطراف فالخباء من الأدم وجمعه الطرف ، والطرف : العين نفسها ، بل قيل : هو جفنها ، وقال بعض الكتاب : كبدي بيد العراق مخطوفة ، وعيني بقذى الفراق مطروفة ؛ وهذا أمر طريف أي لم يعتد ؛ ورجل طريف أي معجب ؛ وقال صاحب الاشتقاق : الطرف دائر في هذه الأبنية ، لأن الطارف في طرف من التالد ، لن هذا ولد عندك ، وذاك كسبت ، فهما طرفان ، والطرف الذي هو الفرس الكريم في." (٢)

"""""""""" صفحة رقم ١٠٠ """""""""

والبسطة ؛ ومنها في الخلق : الشجاعة والسخاء والحلم والعلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكتم السر والمؤاتاة

---

(١) البيان والتبيين، ص/٥٧٧

(٢) البصائر والذخائر . ، ٥/١١٨

وأصالة الرأي والأنفة والدعاء وعلو الهمة والتواضع والبيان والبشر والجلد والتجارب والنقض والإبرام . ومما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من الأصناف : قرى الأضياف وإعطاء العفاة وحمل المغارم وكظم الغيظ وقمع الأعداء وفهم الأمور ورعاية العهد والفكر في العواقب والجد والتشمير وقمع الشهوات والإيثار على النفس وحفظ الودائع والمجازاة ووضع الأشياء مواضعها والذب عن الحريم واجتلاب المحبة والتنزه عن الكذب واطراح الحرص وادخار المحامد والاحتراز من العدو وسيادة العشيرة واجتناب الحسد والنكاية في الأعداء وبلوغ الغايات والاستكثار من الصديق والقيام ب ال حجة وكبت الحساد والإسراف في الخير واستدامة النعمة وإصلاح كل فاسد واعتقاد المنن واستعباد الأحرار بها." (١)

"""""""" صفحة رقم ٢٣ """""""

وقال معاوية لأبي بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث – ورآه لا يلي له عملا ، ولم يقبل منه نائلا – : يا ابن أخي ، هي الدنيا ، فإما أن ترضع معنا ؛ وإما أن ترتدع عنا . وربما قال بعض المتكلفين قد قال بعض السلف : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن . وربما قال آخر من المتقدمين : ' اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ' . وهذا أيضا كلام منمق ، لا يرجع إلى معنى محقق ؛ أين هو من قول المسيح – عليه السلام – حين قال : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بعد أحدكم من أحدهما قرب من الآخر ؛ ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضرتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى . و ه ذا لأن الإنسان صغير الحجم ، ضعيف الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته ، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيه ، فإن صفق وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار : فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تخنث وتليث لم يكن رجلا ولا امرأة ، ولا يكون أبا ولا أما ؛ وهذا كما نرى . ونرجح فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياذ من التقوى ، ولا عماد من الصبر ، ولا دعامة من الأنفة ، ولا اصطبار على المرارة . وقد بلينا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم ، ويوسعون." (٢)

---

(١) البصائر والذخائر . ، ٧/ ١٠٠

(٢) الإمتاع والمؤانسة، ص/٢٣

"""""""" صفحة رقم ٧٥ """""""

تصرفها في اختصاراتها ، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها ، وفنون تبحبحها في أكناف مقاصدها ، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها ؛ وهذا وأضعافه مسلم لهم ، وموفر عليهم ، ومعروف فيهم ومنسوب إليهم ، مع الشجاعة والنجدة والذمام والضيافة والفطنة والخطابة **والحمية والأنفة** والحفاظ والوفاء ، والبذل والسخاء ، والتهالك في حب الثناء والنكل الشديد عن الذم والهجاء ؛ إلى غير ذلك مما خصت به في جاهليتها قبل الإسلام ، مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده ، والبهت فيه ، والمكابرة عليه ؛ وقد سمعنا لغات كثيرة – وإن لم نستوعبها – من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نذوقه ا في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها ؛ وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابسا وتداخلا ، وترادفا وتعاظلا وتعسرا وتعوصا ، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفا ، وأرق لفظا ، وأخف اسما ؛ وألطف أوزانا ، وأحضر عيانا ؛ وأحلى مخرجا وأجلى منهجا وأعلى مدرجا ؛ وأعدل عدلا ، وأوضح فضلا ، وأصح وصلا إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهي إلى العربية ، فإنك تحكم بأن المبدأ." (١)

"""""""" صفحة رقم ٨٧ """""""

وبالأنفة وبالتقزز وبالتعزز ألا يجيبوه إلى ذلك ، ويشكوا في كل آية يرون منه ، ويقتلوه ، وينكلوا به . ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مزدك ما قبلوه مرة ، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحدا ، ولا كان الحق إلا منصورا ، ولا كان الباطل إلا مقهورا ، ولكن اتفق على مزدك ملك عاقل فوضع باطله ، واتفق لزرادشت ملك ركيك فرفع باطله ؛ وما نزع الله عنهم الملك إلا بالحق ، كما قال تعالى : ' فلما آسفونا انتقمنا منهم ' . ثم قال : وبعد ، فكل شيء خارج من الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية فهو ساقط بهرج ، ومردود مرذول ، إذا فعله جاهل عذر بالجهل ، وإذا أتاه عالم عذل للعلم . قال : وكانت العرب بهذا الخلق الذميم ، وهذا الفعل اللئيم ، لو فعلته أعذر ، لأنهم أشد غلمة من غيرهم وأكثر تهيجا ، وأقوى على البضاع ، وأوثب على النساءئ يدلك على ه ذا غزلهم وعشقهم ونظمهم ونثرهم وفراغهم وشهوتهم ، وتراهم مع هذه الدواعي والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه ، ولو أكرههم على هذا مكره ودعاهم إليه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ص/٧٥

داع لما أطاعوه ، ولذلك لم ينجم منهم ناجم بالحيلة فدعا إلى هذا ؛ ولو كان لكان أول من دق رأسه بالعمد ، وبعج بطنه بالخنجر ؛ وما منعهم من هذا إلا الأنفس الكريمة ، والطباع المعتدلة ، والشكائم الشديدة ، والأرواح العيفة ، والعادات الرضية ، والضرائب الطيبة ؛ وكان وأد البنات عندهم أنفى للمعاير ، وأطرد للقبائح من هذا الذي استحسنه زرادشت وقبل منه الفرس ، وهم يدعون الحكم والعلم والحزم والعزم ، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غفلوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحا له أو حاظرا ، أو مطلقا أو مانعا ، أو محللا أو محرما ؛ هيهات ما كلف الله أهل العقل القيام بالدين والتصفح للحق من الباطل إلا لما شرفهم به في العاجل ، وعرضهم له في الآجل ؛ والعاقبة للمتقين .." (١)

"""""""""" صفحة رقم ١٣١ """""""""

ثم نعود فنقول : أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث : أعني النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وسمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع . ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب : إنها بين المحمودة وبين المذمومة ، وبين المشوبة بالحمد والذم ، وبين الخارجة منهما . فمن أخلاق النفس الناطقة – إذا صفت – البحث عن الإنسان ثم عن العالم ، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير ، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير ، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بجوده وجد ما وجد ، وبقدرته ثبت ما ثبت ، وبحكمته ترتب ما ترتب ؛ وبمجموع هذا كله دام ما دام . بهذا البحث يتبين له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوة الشهوية فإن توابع هاتين القوتين أكثر ، لأنهما بالتركيب أظهر ، وفي الكثرة أدخل وعن الوحدة أخرج ؛ فإذا ساستهما الناطقة حذفت زوائدهما ، ونفت فواضلهما ، ووفت نواقصهما ، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلمة في الشهوية أخمدت نارها ، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنانها ؛ فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم ، فيعود السفه حلما أو تحالما ، والحسد غبطة أو تغابطا والغضب كظما أو تكاظما ، والغي رشدا أو تراشدا ، والطيش أناة أو تآنيا وصرفت هذه الكوامن في المكامن – إذا سارت سورتها ، وثارت ثورتها – على مناهج الصواب ، تارة بالعظة واللطف ، وتارة بالزجر والعنف ، وتارة **بالأنفة** وكبر النفس ، وتارة بإشعار الحذر ، وتارة بعلو الهمة ؛ وهناك يصير العفو عند القادر ألذ من الانتقام ، والعفاف عند الهائج ألذ من قضاء." (٢)

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ص/٨٧

(٢) الإمتاع والمؤانسة، ص/١٣١

"ومن المحتمل أن تكون قصة خلاص عنترة من عبوديته-دليلا على إرهاصات قديمة بشرت بإحساس الصرحاء بالحاجة إلى سواعد الهجناء القوية، ثم تطورت تلك الإرهاصات، فولدت مفاهيم اجتماعية جديدة تعرض عن استرقاق الهجين، وتقبل بانتمائه منذ ولادته إلى الجماعة الصريحة التي ينتمي إليها والده، والأسماء التي أوردها (ابن حبيب) في قائمة أبناء الحبشيات التي أشير إليها آنفا- دليل واضح على ذلك. فهي تتضمن أسماء أبناء حبشيات عرفوا بأنهم سادة كرام، ومن اللافت لأكثر أولئك كانوا قرشيين من سكان مكة، وفي ذلك دلالة على أن مجتمع الحواضر كان أكثر تسامحا من مجتمع البوادي في مسألة الهجنة، فليس في مجتمع مكة هجين مستعبد، بل هجناء أحرار ملحقون بأنساب آبائهم القرشيين(١).

---

(١) إن تسامح مجتمع مكة في قضية انتماء الهجين إلى الجماعة الأبوية الصريحة ليس مطلقا، فثمة أصوات قرشية ذمت الهجنة وتعصبت رلنسب الصريح ومن تلك الأصوات أبيات لعمارة بن الوليد (انظر معجم الشعراء ص٧٧. والأغاني ١٨/١٣٠)، واخرى لعثمان بن الحويرث (انظر معجم الشعراء ص٨٨) ومن الأخبار التي تدل على آنفة القرشي من الزواج بغير الصريحة أن أمية ابن خلف الجمحي تزوج ابنة صديق له، ثم تبين أنها كانت أمة لا ابنة، فطلقها أمية لذلك. انظر ديوان حسان ص٢٠١-٢٠٢، وفيه أشعار تذم الهجنة وتبين **الأنفة** منها.." (١)

"تلك أشعار قروية، ولكنها تعبر عن عقلية أعرابية تنفر من بناء الحصون، وتتوق إلى الغزو والارتحال. ومن يتبع أشعار القرى يجد فيها قيما أعرابية أصيلة متغلغلة في نفوسهم، ولا سيما ما يتصل منها بالتعصب للجماعة الأبوية كقول أبي زمعة الأسدي المكي(١):

أحب قريشا كلها وأحوطها ... ولست بسباب لذي الرحم ملطم
وإن حملوني ما أطيق حملته ... ويكرم فيهم مسترادي و مطعمي

إن استقرار المرتحليين يطور نمط حياتهم وقيمهم تطورا بالحذف والإضافة، وهذا يعني أن التقارب بين الأعراب وأهالي القرى شديد، وأن ما نلحظه من مفارقات بينهما تعبير عن الإضافة التي يتخلق بها المتطورون (أهالي القرى) والراغبون بالتطور من الأعراب وعن رفض لها من قبل المتمسكين بالقديم الذين يحاولون

---

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي * دراسة *، ١/١٩٣

الحفاظ على نمط حياتهم وقيمهم، وبذلك تظهر جدلية التطور من انتماء أعرابي قديم إلى انتماء قروي متطور.

***

---

(١) –السدوسي مؤرج بن عمرو، ١٩٧٦م، حذف من نسب قريش، تحقيق الدكاتور صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص ٥٣. وثمة قيم أخرى أعرابية احتفظ بها القرويون كالكرم وحماية الجار **والأنفة** من الخضوع لأية سلطة خارجية، وسوف تمر بنا في أثناء هذه الدراسة شواهد على ذلك.." (١)

"ولكن ما يحصل حين يقع الشر بين قبيلتي رجلين بينهما روابط مودة وصداقة؟ في الإجابة عن ذلك التساؤل يقول إحسان النص: ((وهنا أيضا نجد أن العصبية تفصم عرى هذه المودة، وسرعان ما تنقلب صداقة الرجلين إلى ضدها، فإذا كل منهما للآخر عدو مبين))((١)) ولكن القول السابق لا يصدق دائما؛ ففي أخبار الجاهلية ما يدل على أن عرى الصداقة مقدمة على عرى العصبية عند بعض الجاهليين؛ فقد مكن خداش بن زهير العامري قيس بن الخطيم الأوسي من قتل قاتل جده، وهو ابن عم لخداش، وذلك تعبير عن وفاء خداش لرابطة الصداقة التي كانت تربطه بوالد قيس((٢)).

في الإجابتين السابقتين يتجلى الجدل بين انتماءين، يتلاقيان وينتجان قيما متطورة؛ فبين الأصدقاء، سواء أكانت أنسابهم قريبة أم متباعدة، رعاية ومودة وتناصر وتعاون واحترام؛ وكانت الصداقة سببا في قبول الصريح بالقيام بأعمال يأنف منها عادة؛ **فالأنفة** من القيام بأعمال الخدمة تعصبا للنسب تتضاءل أمام رابطة الصداقة؛ فالصديق، ولاسيما في السفر، يبادر على خدمة رفاقه، يقول الشماخ يمدح فتى كريما((٣)):

وأشعث قد قد السفار قميصه ... وجر الشواء بالعصا غير منضج

فهذا الفتى يبذل نفسه، ولا يصونها عن التعمل في السفر، فتقطع قميصه لتحمله عن أصحابه أثقال المهن، وهو فتى كريم إن دعوته أجابك، وأسرع إل نجدتك، وافتخر عمرو بن شأس بمثل ذلك فقال((٤)):

---

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي * دراسة *، ١/٣٢١

(١) العصبية القبلية ص١١٤. وقد استشهد (النص لذلك بقتل بني عبس لحمل بن بدر الفزاري صديق قيس بن زهير سيد بني عبس. وقد وصف قيس حملا بأنه خير الناس، وأن عليه أن يبكيه أبدا لولا ظلمه لبني عبس وبغيه عليهم. انظر الأغاني ٢٠٩/١٧.

(٢) انظر الأغاني ٣/٦-٧.

(٣) ديوان الشماخ ص٨٠، وغير مزلج: غير لئيم.

(٤) شعر عمرو بن شأس ص٥٣. والوحش: أراد مكانا وحشا؛ أي قفرا.." [١]

"يثبت الشاعر في إيجابية فيها تعقل واتزان أنكل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصلح لأن يكون عوضا من فقدان الآخر، فيطفئ، لهيب القلب على الولد المقتول بهذا الفكر المقلوب بالشعر، مدركا أن الاقتصاص من أخيه يضعف مركزه في القبيلة فيكتفي بمصيبة واحدة.

ومع كثرة النصوص الجاهلية التي تصور التعصب القبلي بأنواعه المختلفة والتي ترفد نهر العصبية الكبير، فإن هناك مواقف أخرى لشعراء من قبائلهم لا تأتي على شاكلة التعصب، وإن هي إلا شكل من أشكال **الأنفة** والعزة. وهذه من السمات الإيجابية الموفقة التي جاءت في الشعر الجاهلي.

فقتل خادم، أحد أثرياء قبيلة (خزيمة) العربية، يثير نخوة سيده فينتقم من القتلة مع أنهم أولاد عمه، ويفارق أهله من أجلهم.

أنفة فيها بسط الحماية على الخدم والموالي. ولو أدى الأمر إلى فراق القبيلة التي تصبح غادرة باغية كما في قول طرفة الخزيمي(١) :

أيا راكبا إما عرضت فبلغن ... بني فقعس قول امرئ ناخل الصدر(٢)

فوالله ما فارقتكم عن كشاحة ... ولا طيب نفس عنكم آخر الدهر(٣)

ولكنني كنت امرا من قبيلة ... بغت وأتتني بالمظالم والفخر

فإني لشر الناس إن لم أتبهم ... على آلة حدباء نائبة الظهر(٤)

ولكن دافع **الأنفة** مصلحة شخصية دفعته ليأخذ بثأره. ويبقى أن نلاحظ ضمنيا موافقة الطبقة الغنية المتحكمة برقاب العبيد على تصرف طرفة وأمثاله. ويصبح للمسألة طرف آخر حين نتذكر أن دفاع الأغنياء والمالكين عن عبيدهم يصرف الطاقة الثورية لدى هؤلاء العبيد، وهذا نوع من علم النفس الدعائي يعرفه

---

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي * دراسة *، ٤٥٧/١

البدوي بفطرته.

---

(١) شاعر جاهلي من بني خزيمة بن رواحة بن ربيعة.

(٢) ناخل الصدر: صافي القلب غير مناف.

(٣) عن كشاحة: أي عن عداوة.

(٤) حماسة أبي تمام: شرح التبريزي: ج١ /ص٣٠٢. القاهرة ١٩٥٥.." [١]

"وهذا يعكس لنا مهمة الحلف الذي أخذها على عاتقه، والمتمثلة بحماية المال والعرض ولا شك أن هذا المر غاية ما يريده المرء في هذه الحياة، الطمأنينة والحماية والسلامة لكل ما يملك.

ويجب أن نلاحظ فوائد قريش التي تجنيها من وراء هذا الحلف، فحين يعلم التجار أن بضاعتهم مؤمنة في مكة، وأن حقهم مضمون، فإنهم سوف يوجهون قوافلهم إليها، فتتحرك الأسواق التجارية وتعود عائدات مالية كثيرة على أهل مكة.

وهكذا فحصاد مادي وحصاد معنوي، ومن هنا أثبت موجودية تاريخية ما زالت في المعاصرة إيجابية.

والقيم الأخلاقية التي تغنى بها شعراء الجاهلية كثيرة تصور المفاهيم الفاضلة التي كانت عرضة لكثير من الباحثين(١) والمفكرين(٢) .

فالحلم، والكرم، والوفاء، والشجاعة، والصدق، والدفاع، عن حمى القبيلة، وحماية الجار، وسعة الصدر، والإعراض عن الشتم، والغض عن العورات ونجدة المحتاج والملهوف، قيم تغنى بها العرب وخلدها في شعره ونثره.

ولعل خير من مثل شخصية العربي في شعر عمرو بن كلثوم(٣) ، حيث **الأنفة** والإباء ورفض الهوان، وإنكار الضيم، وإعلان الصرخة الأبية في حينها، والإصرار على التمتع بنعم الحرية كما فهمها الجاهلي، ومما يمثل ذلك قوله وهو يخاطب عمرو بن هند الملك:

أبا هند، فلا تعجل علينا ... وانظرنا، نخبرك اليقينا(٤)

بأنا نورد الرايات بيضأ ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام، لنا غر طوال ... عصينا الملك، فيها، أن ندينا

---

(١) الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، ص/٤٠

(١) لاحظ المفصل في تاريخ العرب، د. جواد علي.

(٢) لاحظ زكي الأرسوزي، المؤلفات الكاملة.

(٣) عمرو بن كلثوم التغلبي صاحب المعلقة، وهو تغلبي مشهور، وكان أبو عمرو الشيباني قد تحدث عن بني تغلب وعظمتها، فقال: كانت... من أشد الناس في الجاهلية. المعلقات العشر، التبريزي، ص ٣١٨، الطبعة العربية حلب ١٩٧٣.

(٤) شرح القصائد العشر، صنعة التبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ص ٣٤٥، ط ٢، حلب ١٩٧٢.." [١]

"قفي قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا

هذا البيت: للقطامي، واسمه: عمير بن شييم.

وعمير اسم منقول؛ إن شئت جعلته تصغير عمرو، وهو القرط ويكون الحياة، ويكون طرف الكم، ويكون ما بين الأسنان من اللحم.

وإن شئت جعلته تصغير قولهم: رجل عمرو وهو الكثير الاعتمار، وإن شئت كان مصغرا مرخما من عامر، أو عمار، أو معمر كزهير من أزهر.

وأما شييم بضم الشين وكسرها فمنقول من تصغير أشيم مرخم، وهو الذي به شامة.

والقطامى منقول من الصقر، لأن الصقر يقال له: قطامى، وقطامى بضم القاف وفتحها، وهو مشتق من القطم وهو شهوة اللحم، وشهوة النكاح، يقال: فحل قطم، إذا هاج للضراب، وهو لقب غلب عليه لقوله:

يصكهن جانبا فجانبا ... صل القطامي القطا القواربا

والشاهد في البيت رفع الموقف وهو نكرة، ونصب الوداع وهو معرفة وسهل ذلك؛ لأن اسم كان وخبرها لشيء واحد، وأن قوله: منك في موضع رفع على الصفة لموقف، كأنه قال: موقف كائن منك، والنكرة إذا وصفت قويت بالصفة، وقربت من المعرفة، فلما قومت النكرة بالصفة، وكان تعريف الألف واللام ضعيفا ليس له قوة غيره من التعريف صار الوداع وموقف كأنهما قد تكافآ.

وقد روى: ولا يك موقفي بالإضافة، وهذا لا نظر فيه.

وضباعة التي شبب بها هي: ضباعة بنت زفر بن الحارث الكلابي، وهو الذي مدحه بهذا الشعر، ولذلك

(١) الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، ص/١١١

قال بعد هذا البيت:

ققفي فادى أسيرك إن قومي ... وقومك لا أرى لهم اجتماعا

وكيف تجامع مع ما استحلا ... من الحرم العظام وما أضاعا

ألم أخبرك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا

ويقال: وداع بفتح الواو ووداع بكسرها، وكان الوداع بكسر الواو مصدر وادعت وداعا، وكان الوداع بالفتح هو الاسم.

وأنشد في هذا الباب:

فلست لأني ولكن لملك ... تنزل من جو السماء يصوب

هذا البيت لعلقمة بن عبدة، يروى له في آخر شعره الذي أوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أنه لرجل من عبد القيس.

وعلقمة، وعبدة مفتوح الباء اسمان منقولان؛ أما علقمة فالواحدة من العلقم، ويقال: طعام فيه علقمة، أي مرارة.

وأما العبدة فصلاءة الطيب، والعبدة أيضا: أجمة الأسد، والعبدة **الأنفة**، يقال: عبد من الشيء يعبد عبدا وعبدة إذا أنف منه.

واللام في قوله لإنسى متعلقة بمحذوف، وكذلك في قوله: لملك، وكلاهما له موضع من الإعراب؛ لأن اللام الأولى وقعت موقع خبر ليس فهي متعلقة بالخبر الذي نابت منابه، أي فلست ابنا لأنسى واللام الثانية التي في لملك وقعت موقع خبر مبتدأ كأنه قال: ولكن أنت للملك.

وقوله: تنزل من جو... جملة في موضع الصفة لملك ويصوب جملة في موضع الحال من الضمير في تنزل، ويجوز أن تكون في موضع صفة ثانية لملك، ومعنى يصوب: يقصد إلى الأرض.

وأراد لملأك فجاء به على الأصل، لأن ملكا تخفيف ملأك، نقلت حركة همزته إلى لامه، كما قالوا في يسأل: يسل، وشمل، في شمال، قال الشاعر:

ثوى مالك بديار العدو ... تسفي عليه رياح الشمل

واختلف في وزن ملأك؛ فقال أكثر أهل التصريف وزنه: معفل مقلوب من مألك، واستدلوا على ذلك بقول العرب: ألك، إذا أرسل، وقولهم للرسالة: ألوك وألوكة، قال لبيد:

وغلام أرسلته أمه ... بألوك فبذلنا ما سأل

وأنشد أبو بكر ابن دريد:

فمن مبلغ فتيان قومي ألوكة ... تأتي من أقيال من كان كافرا

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وزنه مفعل وهو مشتق من لأك إذا أرسل، فلا قلب فيه على هذا.

وقد يمكن أن يكون لأك مقلوبا من ألك، وقد كان ابن كيسان يزعم أن ملكا مشتق من ملك يملك، وأن الهمزة في ملأك زائدة كزيادتها في شمأل.

فوزن ملائكة على قول من جعله مقلوبا: معافلة، مقلوبا من مآلكة ووزنها على قول أبي عبيد: مفاعلة، غير مقلوبة.

ووزنها على قول ابن كيسان: فعائلة وأنشد أبو القاسم في هذا الباب:." (١)

"نبهت زيدا ولم أفزع إلى وكل ... رث السلاح ولا في الحي مغمور

سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير

سقط الجراد قريبا من بيت أبي حنبل جارية بن مر، فجاء الحي وقالوا: نريد جارك فقال: أما إذ جعلتموه جاري فو الله لا تصلون إليه، فأجاره حتى طار من عنده فقيل له: مجير الجراد، وفي ذلك يقول هلال بن معاوية الثعلي: من المتقارب

وبالجبلين لنا معقل ... صعدنا إليه بصم الصعاد

ملكناه في أوليات الزمان ... من قبل نوح ومن قبل عاد

ومنا ابن مر أبو حنبل ... أجار من الناس رجل الجراد

وزيد لنا ولنا حاتم ... غياث الورى في السنين الشداد

كان يقال: من تطاول على جاره، حرم بركة داره.

وكان عبيد الله بن أبي بكرة ينفق على من حول داره على أهل أربعين دارا من كل جهة من جهاتها الأربع، وكان يبعث إليهم بالأضاحي والكسوة، ويقوم لمن تزوج منهم بما يصلحه، ويعتق في كل عيد مائة رقبة سوى ما يءتق في سائر السنة.

قال الحسن: ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى.

وجاءته امرأة محتاجة وقالت: أنا جارتك، قال: كم بيني وبينك؟ قالت: سبع أدؤر، فنظر الحسن فإذا تحت

---

(١) الحلل في شرح أبيات الجمل، ص/٨

فراشه سبعة دراهم، فأعطاها إياها وقال: كدنا نهلك.

كان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام بما يصلحه وأهله، وحماه ممن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه، وإن مات وداه، فجاوره أبو دواد الإيادي، فزاده على عادته. واحتذى أبو دواد فعله حتى قال فيه قيس بن زهير: من الوافر

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى جار كجار أبي دواد

وصار مثلا في حسن الجوار وله خبر قد ذكر من قبل الرضي أبو الحسن الموسوي: من الطويل

وأبيض من عليا معد كأنما ... تلاقي على عرنينه القمران

إذا رمت طعنا بالقريض حميته ... وإن رام طعنا بالرماح حماني

وقال أيضا: من المنسرح

لو أمطرته السماء أنجمها ... عزا لما قال للسماء قد

لا يسأل الضيف عن منازله ... ومنزل البدر غير مفتقد

نوادر من هذا الباب كان عقيل بن علفة من الغيرة **والأنفة** على ما ليس عليه أحد، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه، وكانت لعقيل إليه حاجات، فقال له: إما إذ كنت فاعلا فجنبني هجناءك.

وخطب إليه ابنته إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة، وهو خال هشام بن عبد الملك ووالي المدينة، وكان أبيض شديد البياض، فرده عقيل وقال: من الوافر

رددت صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إرلا احمرارا

قدم أعرابي رجلا إلى القاضي واستعدى عليه، وتقدم شاهدان فقالا: نشهد أن قد ظلم الأعرابي، فقال الأعرابي: كذبا ما ظلمني ولكنه لوى حقي، كأنه أنف أن يكون مظلوما.

ومثل هذا أن أعرابيا من بني سليم قيل له: أيما أحب إليك: أن تلقى الله ظالما أو مظلوما؟ فقال: بل ظالما، قالوا: سبحان الله أتحب الظلم؟ قال: فما عندي إذا أتيته مظلوما يقول لي: خلقتك مثل البعير الصمحمح ثم أتيتني تعصر عينيك وتشتكي؟ ! قيل لأعرابي اشتد به الوجع: لو تبت؟ فقال: لست ممن يعطي على الضيم، إن عوفيت تبت.

قال أعرابي لرفقيه: أترى هذه الأعاجم تنكح نساءنا في الجنة؟ قال له: نعم أرى ذلك بأعمالهم الصالحة، فقال: توطأ إذن والله رقابنا قبل ذلك.

نزل عطار يهودي بعض أحياء العرب ومات، فأتوا شيخا لهم لم يكن يقطع في الحي أمر دونه، فأعلموه

خبر اليهودي، فجاء فغسله وكفنه وتقدم وأقام الناس خلفه وقال: اللهم إن هذا اليهودي جار وله ذمام، فأمهلنا حتى نقضي ذمامه، فإذا صار في لحده فشأنك والعلج.

كان خالد بن صفوان أحد من إذا عرض له القول قال، فيقال إن سليمان بن علي سأله عن ابنيه جعفر ومحمد، فقال له: كيف إحمادك جوارهما يا أبا صفوان؟ فقال: من الطويل

أبو مالك جار لها وابن برثن ... فيا لك جاري ذلة وصغار

والشعر ليزيد بن مفرغ الحميري، فأعرض عنه سليمان، وكان سليمان من أجمل الناس وأكرمهم، وهو في الوقت الذي أعرض فيه عنه والي البصرة وعم الخليفة المنصور.." (١)

"قدمت قدوم البدر بيت سعوده ... أمرك عال صاعد كصعوده

لبست سناه واعتليت اعتلاءه ... ونأمل أن تحظى بمثل خلوده

الصابي: من الكامل

أهلا بأشرف أوبة وأجلها ... لأجل ذي قدم يلاذ بنعلها

فرشت لك الترب التي باشرتها ... بشفاهها من كهلها أو طفلها

لم تخط فيها خطوة إلا وقد ... وضعت لرجلك قبلة من قبلها

وإذا تذللك الرقاب تقربا ... منها إليك فعزها في ذلها

علي بن نصر الكاتب يهنئ بعض إخوانه وقد قدم من سفر في زمن فتنة: ما زلت - أطال الله بقاء سيدنا - أتنسم بركات هذا اليوم منذ تنفس صبحه، وأتوسمه بادية ميامنه ونجحه، وأرى في أثنائه سعودا، وفي ضيائه مزيدا، حتى باين الأيام الخالية، ونافى الأزمان الماضية، وأنا أستطرف ما أجده، استطراف من عدم منه ما يعهده، حتى إذا هزم نهاره، واستغرق بياضه اصفراره، أتت الأنباء مبشرة بمقدمه، فظهرت العلة الغامضة، وزالت الشبهة العارضة، وعلمت أنه أقدم بقدومه سعدا غائبا، واغرب بطلوعه نحسا راتبا، واستصحب الإقبال متمسكا بأذياله أين نحا ويمم، متفيئا بظلاله أين سار وخيم، والله تعالى ذكره يسعده بهذا الورود، سعادة تقضي له بالبقاء والخلود، ويبلغه فيه وفي كل أمر يحاوله ويبتغيه أقصى مطارح همته، وأنأى مسارح أمنيته. ولست محيلا في التأخر عن الخدمة والتباطؤ عن المشافهة بالتهنئة على قاطع علة ولا مانع رحله، غير أني أرهب هذا المرهب المستجد في فتنتنا هذه، وقى الله شرها، ودفع أذاها وضرها، من إرجال الفرسان، وإعراء الأجسام. وهذا أمر لا يصبر عليه حر، وعذر لا يشبهه عذر، فإن رأى استماعه

---

(١) التذكرة الحمدونية، ١٨٣/١

وبسطه، وإعطاءه من القبول حكمه وشرطه، فعل، إن شاء الله تعالى.

وقال الرضي: من الكامل

قدم السرور بقدمة لك بشرت ... غرر العلا وعوالي التيجان

قلقت ظبا الأسياف منك بفرحة ... فتكاد تنهضها من الأجفان

وأتى الزمان مهنئا بحدو به ... غل المشوق وغلة اللهفان

فالآن حين قدمت عدن صروفه ... يرمقنني بنواظر الغزلان

الفصل الثامن

شواذ التهاني

حضر أعرابي وليمة فرأى نعمة فقال: النعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأدام الله لك ما أنت فيه، وحقق ظنك في ما ترجوه، وتفضل عليك بما لا تحتسبه.

كتب جعفر بن يحيى إلى صديق له: ما جاوزتني نعمة خصصت بها، وما قصرت دوني ما كان محلها بك.

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه: قد جعلك الله – وله الحمد – من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وصحة الدين، وخلوص اليقين، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره، وتأدى إلي من اتصال الوالدة – نفس الله لها في مدتها ومدتك، وأحسن في البقية منها إمتاعك – بأبي فلان، أعزه الله، ما علمت فيه أنك بين طاعة للديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها، وأنك جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت خد **الحمية** فيها، وأسخطت نفسك بإرضائها، وعصيت هواك إليها. فنحن نهنئك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك فيه، وأن يجعلها أبدا معك في ما شئت وأتيت، وتجنبت وأبيت.

ولكاتب متقدم في المعنى: الرضى بما يبيحه حكم الشريعة أولى من الامتعاض مما تحظره أنفه **الحمية**، ولا قبح في ما أحل الله، كما لا جمال في ما حرم الله، فعرفك الله الخيرة في ما اختارته من طهارة العفاف ونبل الحصانة، وعطفك من برها على ما تؤدي به حقها، وما ألزمك من المعروف في مصاحبتها.

البحتري يهنئ الفتح بن خاقان بسلامته من الغرق: من الكامل

بعدوك الحدث الجليل الواقع ... ولمن يكايدك الحمام الفاجع

قلنا لعا لما عثرت ولا تزل ... نوب الليالي وهي عنك رواجع

ولربما عثر الجواد وشأوه ... متقدم ونبا الحسام القاطع

لن يظفر الأعداء منك بزلة ... والله دونك حاجز ومدافع

إحدى الحوادث شارفتك فردها ... صنع الإله ولطفه المتتابع

وفضيلة لك أن منيت بمثلها ... فنجوت مبتدئا وقلبك جامع." (١)

"والهجاء إنما يضع من النمرقة الوسطى. أما الخمول لا يقع الهجاء فيه موقعا يضر، كما لا يرفعه المديح. قال رجل ما أبالي أهجيت أم مدحت، فقال الأحنف بن قيس: أرحت نفسك من حيث تعب الكرام.

وقال بعض النبط لبشار إن هجوتني تخرب ضيعتي؟ قال: لا، قال: فتموت عيشونة ابنتي؟ قال: لا قال: فرجلي مع ساقي إلى حلقي في حر أمك قال: ولم تركت رأسك؟ قال لأنظر إلى ما تصنع. وقال دعبل بل يروى لمسلم:

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وقال إبراهيم بن العباس:

نجا بك لؤمك منجى الذباب ... حمته مقاذره أن ينالا

وإنما ألما فيه بقول عويف القوافي:

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وأما من علت درجته، وشاعت فضيلته فلا يفسده الهجاء، ولا يضع من شرفه، وقد مثلوا بمن هجي من العرب على هذه المنازل قالوا: لم يفسد الهجاء بني بدر، وبني عدس، وبني عبد المدان، وغيرهم من أشراف العرب. هجيت فزارة بأكل أير الحمار وبكثرة شعر القفا كقول الحارث بن ظالم:

فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقابا

فلم يضرهم ذلك. ثم افتخر به ومدحهم الشاعر به. قال مزرد بن ضرار:

منيع بين ثعلبة بن سعد ... وبين فزارة الشعر الرقاب

فما من كان بينهما بنكس ... لعمرك في الخطوب ولا بكاب

وأما قصة أير الحمار فإنما اللوم على المطعم لرفيقه ما لا يعرفه، فهل كان على الفزاري في حق **الأنفة** أكثر من قتل من أطعمه الجردان من حيث لا يدري.

---

(١) التذكرة الحمدونية، ١/٤٧٩

وقد هجيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتابا، فما وضع ذلك منهم حتى كأنه قد كتبه لهم. ولما كانت نمير دون هؤلاء في الشرف وضعهم قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قال أبو عبيدة كان الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال نميري كما ترى، حتى قال جرير بيته هذا فصار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر. فعند ذلك قال الشاعر يهجو قوما آخرين:

وسوف يزيدكم ضعة هجائي ... كما وضع الهجاء بني نمير

ولما هجاهم أبو الرديني العكلي، فتوعدوه بالقتل، قال أبو الرديني:

توعدني لتقتلني نمير ... متى قتلت نمير من هجاها

فشد عليه رجل منهم فقتله.

وما لقيت قبيلة من العرب مهجوة ما لقيت نمير من بيت جرير هذا.

ومن متوسطي الشرف في القبائل: عنزة وجرم وسلول وباهلة وغني، وهذه قبائل فيها فضل كثير، ومنها شعراء وفصحاء وفرسان مذكورون، فمحا ذلك الفضل هجاء الشعراء وغض منهم.

ومن الحبطات حسكة بن عتاب وعباد بن الحصين وولده وهم من الأشراف ففضح هذه القبيلة قول الشاعر:

رأيت الحمر من شر المطايا ... كما الحبطات شر بني تميم

وكذلك أفسد ظليم البراجم قول الشاعر:

إن أبانا فقحة لدارم ... كما الظليم فقحة البراجم

وأهلك بني العجلان قول الشاعر:

إذا الله عادى أهل لؤم وقلة ... فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

وأما قول الأخطل:

وقد سرني من قيس عيلان أنني ... رأيت بني العجلان سادوا بني بدر

فإن هذا البيت لم ينفع بني العجلان، كما لم يضر بني بدر، لأنه أخرجه مخرج الشماتة لأن صارت الذنابي قادة للرؤوس.

فأما من سلم من آفة الهجاء بالخمول فمثل غسان وعيلان من قبائل عمرو بن تميم، وثور أخوة عكل. وابتليت عكل لأنها أنبه منها سببا وثور خاملة، ولعلها سفيان الثوري والربيع بن خثيم ما عرفت.
قال الشعبي: شهدت زيادا وأتاه عامر بن مسعود بأبي علاثة التيمي فقال إنه هجاني قال: وما قال لك؟ قال، قال:

وكيف أرجي ثروها ونماءها ... وقد سار فيها خصية الكلب عامر

فقال أبو علاثة: ليس هكذا قلت، قال: فيكف قلت؟ قال: قلت:

وإني لأرجو ثروها ونماءها ... وقد سار فيها يأخذ الحق عامر." (١)

"وبعد، فأنت – أبقاك الله – تضر من ألم الغيظ نفسك، والغيظ عذاب أليم، وربما زاد التشفي في الغيظ ولم ينقص منه. ولست على يقين من أن يعود سهمك في ضرك، كما أقنت بموضع الغيظ من صدرك. والحازم لا يلتمس شفاء غيظه باجتلاب ضغنه، ولا يطفئ نار غضبه بأحر من غضبه، ولا يسدد سهمه إلا والغرض ممكن، والغاية قريبة، ولا يهرب والهرب معجز. إن سلطان الغيظ غشوم، وإن حكم الغضب جائر، وأضعف ما يكون العزم عند التصرف، واضعف ما يكون الجزم والغضب في طباع سلطان الهوى، والهوى يتصور في صورة امرأة، ولا يبصر مساقط العيب ومواقع السرف إلا كل معتدل الطباع، مستوي الأسباب. والله لقد كنت اكره سرف الرضى مخافة جواذبه إلى سرف الهوى، فما ظنك بسرف الغضب وبغلبة الغيظ، ولا سيما ممن تعود إهما النفس، ولم يعودها الصبر، ولم يعرفها موضع الحظ في تجرع المرارة، وأن المراد من الأمور عواقبها عواجلها. ولقد كنت اشفق عليك من إفراط السرور، فما ظنك بإفراط الغضب؟ وقد قال الناس: لا خير في طول الراحة إذا كان يورث الغفلة، ولا في طول الكفاية إذا كان يؤدي المعجزة، ولا في كثرة العي إذا كان يخرج إلى البلادة.

جعلت فداك، إن داء الحزن، وإن كان قاتلا، فإنه داء مماطل، وسقمه مطاول، ومعه من التمهل بقدر قسطه من أناة المرة السوداء، وداء الغيظ سفيه طياش، وعجول فحاش،يعجل عن التوبة، ويقطع دون الوصية، ومعه من الحرق بقدر قسطه من التهاب المرة الحمراء. وأنت روح كما أنت جسم، من قرنك إلى قدمك. وعمل الآفة في الدقاق العتاق أسرع، وصدها عن الغلاظ الجفاة آكد، فلذلك اشتد جزعي لك من سلطان الغيظ وغلبة الغضب. فإذا أردت إن تعرف مقدار الذنب إليك، من مقدار عقابك عليه، فانظر في علته وفي مخرج سببه، وإلى معدنه الذي فيه نجم، وعشه الذي منه درج، ومغرسه الذي فيه نبت، وإلى جهة صاحبه في

---

(١) ال تذكرة الحمدونية، ٦٧/٢

التتابع والنزع، وفي التسرع والثبات، وإلى حاله عند التقريع، وإلى حيائه عند التعريض، وإلى فطنته عند الرشق والتورية، فإن فضل الغيظ ربما دل على فرط الاكتراث بكون الاقدام والاحجام، فكل ذنب كان سببه الرأي، أو ضيق صدر وغلق طباع، وجد مرارا، أو من جهة تأويل أو من جهة الغيظ في المقادير أو من طريق فرط الأنفة، وغلبة طباع الحمية من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة، أو من جهة استحقاقه عند نفسه، وفيما زين له عمله أنه مقصر به، مؤخر عن مرتبته، أو كان مبلغا عنه، أو مكذوبا عليه، أو كان ذلك جائزا فيه غير ممتنع نه، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب، وفي هذه المجاري، فليس يقف عليها كريم، ولا يلتفت لفتها حليم، ولست أسميه بكبير معروفه كريما، حتى يكون عقله غامرا لعلمه، وعلمه غالبا لطبعه، كما أني لا أسميه بالذي أرى من كفه عن القصاص حليما، حتى يكون عالما بما ترك، وعارفا بما أخذ. واسم الحلم جامع للظلم والقدرة والفهم، فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة وإلا تشفي النفس والعناد الغالب، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعدلك كثير من العقلاء، ولصوب رأيك عالم من الأشراف. ومتى كانتت طبيعته البذاء، وخليقته الشرارة والتسرع، فاقتله قتل العقارب، وادمغه دمغ رؤوس الحيات. وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول، ولا يرصدك بالمكروه، إلا لتعطيه على الخوف، وتمنع عرضك من جهة التقية، فامنعه من جميع رفدك، واحتل في منعه من قبل غيرك. فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة، وأعظمته مع هذه الحكومة، فقد شاركته في سب نفسك، واستدعيت الألسنة البذيئة إلى عرضك، فكنت عينا لهم عليك، وبابا لهم إليك. وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره، وأنت فيه قسيمه، إلا أن عليك غرمه وله غنمه؟ ومن العدل المحض والانصاف الصريح أن تحط عن الحسود نصف عقابه، وتقتصر به على مقداره، لأن ألم حسده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه.." [١]

"وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

ويقولون في الإطماع: أما كفى العبد أن ينام حتى يحلم برتبة.

إنك لا تجني من الشوك العنب.

وقال كعب بن زهير: من البسيط

فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل

يقولون: إنباض بغير توتير، أي نبض القوس من غير أن يوترها.

قد نفخت لو نفخت في فحم، قاله الأغلب العجلي في شعر له.

---

(١) التذكرة الحمدونية، ٢/٢٨٩

ويقولون: هو بنت الجبل، يعنون الصدى، أي هو مع كل من يتكلم.

ويقولون أيضا: ما أنت إلا كابنة الجبل مهما يقل تقل.

ومن كلام المهلبي في الاغترار: من ضاق الأسد قراه أظفاره، ومن حرك الدهر أراه اقتداره.

البر والعقوق والمحافظة

على الأهل والإخوان

من أمثالهم في هذه المعاني: منك عيصك وإن كان أشبا، أي منك أهلك وإن كانوا على خلاف ما تريد.

ومثله: منك أنفك وإن كان أجدع.

ومنه: الحفاظ يحلل الأحقاد، ومنه قول القطامي: وترفض عند المحفظات الكتائف والكتائف السخائم.

ويقولون: لا يعدم الحوار من أمه حنة.

لا يضر الحوار وطء أمه. وقال الشاعر: من الطويل

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقال آخر: من الطويل

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح

والنصف الثاني من هذا البيت مثل سائر.

ويقال في الأخ متمسك بإخائه: ما عقلك بأنشوطة. ومن ذلك قول ذي الرمة: من الطويل

وقد علقت مي بقلبي علاقة ... بطيئا على مر الشهور انحلالها

ويقولون: هو على حبل ذراعك.

ويقولون: لا تدخل بين العصا ولحائها.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: معاتبة الأخ خير من فقده، فصارت مثلا.

وقال طرفة بن العبد: من الطويل

وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا مات مولى المرء فهو ذليل

وقال بدر بن علماء العامري: من الطويل

إذا سيم مولاك الهوان فإنما ... تراد به فاقصد له وتشدد

وقال ابن المولى: من الطويل

لا تطلبي عزا بذل عشيرة ... فإن الذليل من تذل عشائره

ولما قال الشاعر في جرير بن عبد الله البجلي: من الرجز

لولا جرير هلكت بجيلة ... نعم الفتى وبئست القبيلة

قال قائل: ما مدح من هجي قومه.

ومن الأمثال في العقوق: العقوق ثكل من لم يثكل.

الملك عقيم.

ومن أمثال البر قول بيهس لأمه لما قتل إخوته وعاد فحنت إليه وكانت من قبل تقصيه: الثكل أرأمها.

وقالت له: أجئت من بينهم؟ فقال: لو خيروك لاخترت.

ومن أمثالهم: وابأبي وجوه اليتامى، حكاه المفضل عن سعد القرقرة، وهو رجل من أهل هجر كان النعمان يضحك منه، فدعا بفرسه اليحموم، وقال لسعد: اركبه فاطلب عليه الوحش، قال سعد: إذن والله أصرع، فأبى النعمان إلا أن يركبه، فلما ركبه سعد نظر إلى بعض ولده فقال: وابأبي وجوه اليتامى.

ومن كلامهم: انصر أخاك ظالما أو مظلوما.

ويقولون: أعن أخاك ولو بالصوت، أي إن لم تقدر على معونته بيدك فاستصرخ له حتى يغاث.

ويقولون: مولاك ولا عناك.

ومن الأمثال في **الحمية والأنفة** قول أكثم بن صيفي: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

الفحل يحمي معقولا شوله.

ومنه: الخيل تجري على مساويها، أي وإن كان بها أوصاب وعيوب.

وقولهم: من عز بز، قاله جابر بن ألاف للمنذر.

وقولهم: محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا، هو سالم بن دارة، هجا فزارة فأفحش فاغتاله أحدهم فقتله.

ومن **الحمية** قولهم: هاجت زبراء، وهي أمة كانت للأحنف كان يصغي إلى قولها كثيرا، ولها معه خبر قد ورد في موضعه، والأبيات السائرة في هذا المعنى كثيرة، فمن ذلك قول عبد الله بن الزبير الأسدي: من البسيط

فلن ألين لغير الحق أسأله ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وقال مالك بن الريب: من الطويل

وما أنا كالعير المقيم لأهله ... على القيد في بحبوحة الدار يرتع

وقال النابغة: من البسيط

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الحامي

وقال معارك بن مرة العبدي: من الطويل

أتطمع في هضمي لدن شاب عارضي ... وقد كنت آبى الضيم إذ أنا أمرد

وقال منقذ الهلالي: من الوافر." (١)

"الليل داج والكباش تنتطح. من نجا برأسه فقد ربح. كل رأس به صداع. كن ذنبا، ولا تكن رأسا، فإن للرأس صداعا كثيرا. رماه بأقحاف رأسه، أي بالدواهي أو بما يسكته. رمي منه في الرأس ، إذا ساء رأيه فيه. في رأسه خطة، لمن في نفسه حاجة. العامة: في رأسه خيوط، لمن يكثر فضوله. المتنبي:

خير أعضائنا الرؤوس ولكن ... فضلتها بقصدك الأقدام

ابن الحجاج:

الراس يصلح إن لمينفعك للرواس

الوجه

وجه المحرش أقبح: أي وجه مبلغ القبيح أقبح من وجه من قاله. قبل البكاء كان وجهك عابسا. وأتاني وجوه اليتامى، في التحنن على الأولاد عند الشدة. فلان رأس الجريدة، ووجه التخت. وجهه يرد الرزق. صلابة الوجه سلاح الفتى، ورقة الوجه من الحرفة. أبو تمام:

وما أبالي وخير القول أصدقه ... حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي

ابن الرومي:

وقل من ضمنت خيرا طويته ... إلا وفي وجهه للخير عنوان

له محيا جميل يستدل به ... على جميل وللبطنان ظهران

العين

فلان كالعين في الرأس، والإنسان في الحدقة. العين ترجمان القلب. شاهد البغض اللحظ. رب طرف أنم من لسان. العين حشمة. ليس لما قرت به العين من ثمن. العين حق. أسرع من الطرف. لا آتيك ما حملت عيني الماء. إذا جاء الحين غطى العين. ليس لعين ما رأت ولكن لكف ما أخذت. لا تطلب أثرا بعد عين، أي بعد المعاينة. من أطاع طرفه أصاب حتفه. من غاب عن البصر غاب عن القلب. في بعض القلوب عيون.

---

(١) التذكرة الحمدونية، ٣١٦/٢

وأي عار على عين بلا حور

العامة: دمعة عرجاء من عين عوراء غنيمة. هاهنا تسكب العبرات. والدمع قد يعلن ما في الصدور. المتنبي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

أبو الفضل الميكالي:

كم والد يحرم أولاده ... وخيره يحظى به الأبعد

كالعين لا تبصر ما حولها ... ولحظها يدرك ما يبعد

الأذن

السلطان أذن، أي يصغي إلى كل مبلغ. ليست على ذلك أذني، أي سكت كالغافل الذي لا يسمع. جعلت ذلك دبر أذني. جاءنا فلان ناشرا أذنيه - إذا جاء طامعا. إنما جعلت لك أذنان ولسان، لتسمع أكثر مما تقول. الأذن قمع الفؤاد. أساء سمعا فأساء إجابة. من يسمع يخل. كلامه يدخل على الأذن بلا اذن. أبو إسحق الصابي:

قل للوزير أبي محمد الذي ... قد أعجزت كل الورى أوصافه

لك في المحاسن منطق يشفي الجوى ... ويسوغ في أذن الأديب سلافه

وكأن لفظك لؤلؤ متنخل ... وكأنما آذاننا أصدافه

لا تدخل بين السمع والبصر، لمن يدخل بين الأقارب.

الأنف

أنفك منك وإن كان أجدع في القريب السوء. شفيت نفسي وجدعت أنفي، لمن يضر نفسه من وجه ويشتفي من وجه. كل شيء أخطأ الأنف خلل. جرحه حيث لا يضع الراقي انفه، للأمر الذي لا دواء له. لأمر ما جدع قصير أنفه، يضرب في طلب الثأر. رب حام لأنفه وهو جادعه، يضرب لمن يأنف من الشيء فتوقعه الأنفة في شيء أشد منه.

الفم واللسان

كل جان يده إلى فيه. حياك من خلا فوه، للمشغول عن صاحبه. ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة. اللسان سبع صغير الجرم، عظيم الجرم.

وجرح الدهر ما جرح اللسان

وجرح اللسان كجرح اليد

حفظ اللسان فاحفظ اللسانا ... قد ينفع الطائر والإنسانا

مقتل الرجل بين فكيه. اللسان أجرح جوارح الإنسان. ويل لهذا من هذا، أي للرأس من اللسان. قرع سن النادم. أعييتني بأشر، فكيف أرجوك بدردر يضرب لمن دامت أذيته. فلان يحرق عليه الأرم، في الغيظ. أحد من ناب جائع. كدمت غير مكدم، أي طلبت غير مطلب.

اللحية

فلم خلقت إذا لم أخدع الرجال يعني لحيته. اللحى حلي الرجال. ما طالت فأفلحت. إذا طالت اللحية تكوسج العقل. العامة: كيف أستحي وأنا ملتحي. لحى يسخر بها جحى.

الذقن والقفا والعنق." (١)

"عناجيج في كل رهو ترى ... رعالا سراعا تبارى رعيلا

جوانح يخلجن الظبا ... ء يركضن ميلا وينزعن ميلا

فظل قصيرا على صحبه ... وظل على القوم يوما طويلا

@طرفة بن العبد

ترجمته والمختار من شعره

طرفة الشاعر الشاب ٥٤٠ - ٥٦٥ م

ترجمة الشاعر

تمهيد

طرفة شاعر صاحب شخصية واضحة في شعره، وصاحب مذهب واضح في حياته، وداعية من دعاة اللهو واللذة والعبث، وشاب جمع إلى فتوة الشاب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم، ويعجب النقاد والمستشرقون به وبشخصيته وشعره إعجابا شديدا؛ وشعره صورة واضحة لحياته كل الوضوح، بما كان فيها من مطامح وآمال وآلام وأحداث.

أسرة الشاعر وبيئته

١ - وطرفة شاعر فحل من أعلام الشعر الجاهلي، وهو من ربيعة من بكر بن وائل إحدى قبيلتيها العظيمتين المشهورتين - وهما بكر وتغلب - فهو بكري ربعي.

وربيعة أخت مضر في الشرف والسيادة وضخامة الحسب والقوة والعدد. وبكر أخت تغلب في المجد

---

(١) التمثيل والمحاضرة، ص/٦٧

والجاه والعزة والأنفة، وهما جميعا من ربيعة. ومن شعراء بكر: الحارث بن حلزة الشاعر الجاهلي المشهور والمعدود من أصحاب المعلقات، وتوفي أواخر القرن السادس الميلادي، ومنهم المرقش الأكبر والمرقش الأصغر.

ذلك هو نسب الشاعر بين العرب وحسبه، أما أسرته القريبة فهي سعد بن مالك من بني قيس. إذ هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار من عدنان الجد الأعلى للعرب الحجازيين العدنانيين كما علمت.. واسم طرفة عمرو، وكنيته أبو عمرو.

٢ - كان قومه في عزة ومنعة بعددهم وحسبهم وشرفهم ومكانتهم بين العرب وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرئاسة، وكان أبو شابا قويا ظاهر الفتوة والجرأة والإقدام، مات وطرفة طفل صغير. وترك غير طرفة ابنا آخر اسمه معبد ورد ذكره في معلقة طرفة:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي على الجيب يا ابنة معبد

وأم طرفة اسمها وردة، وورد ذكرها في شعره، قال:." (١)

"هو أبو الأسد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن ربيعة بن زهير التغلبي، من تغلب بن وائل، وتغلب هم من الأهم في الشرف والسيادة والمجد وضخامة العدد وجلال المحتد والأرومة. وأسرته سادات تغلب ورؤساؤها وفرسانها حتى قيل: لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس.. كان أبوه كلثوم سيد قومه وأمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب المشهور، واشتهرت أمه ليلى بالأنفة وعظم النفس، كما كانت لجلالة محتدها من فضليات السيدات العربيات قبل الإسلام.

بيئته وموطنه

ولد ونشأ عمرو بن كلثوم في أرض قومه التغلبيين، وكانوا يسكنون الجزيرة الفراتية وما حولها، وتخضع قبيلته لنفوذ ملوك الحيرة مع استقلالهم التام في شؤونهم الخاصة والعامة، والحيرة كما نعلم إمارة عربية أقامها الفرس على حدود الجزيرة العربية، وحموها بالسلاح والجنود.

نشأته وحياته

ولد عمر بين مجد وحسب وجاه وسلطان، فنشأ شجاعا هماما خطيبا جامعا لخصال الخير والسؤدد

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص/١١٣

والشرف، وبعد قليل ساد قومه وأخذ مكان أبيه وله من العمر خمس عشرة سنة، وقال الشعر وأجاد فيه وإن كان من المقلين.." (١)

"ويقال إن عمرو بن هند الملك – وكان جبارا متكبرا مستبدا – كان يريد إذلال عمرو وإهانته ويضمر ذلك في نفسه، وأنه كان جالسا يوما مع ندمائه، فقال لهم: "هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي هند؟ فقالوا نعم، أم عمرو وبن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا لأن أباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه، وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر المشهور وكانت أم ليلى بنت مهلهل هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس وبينهما هذا النسب، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه. ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وكان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بطرف، فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فأعادت عليها فصاحت ليلى: "واذلاه، يا لتغلب!" فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرفي وجهه فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب به رأس ابن هند وقتله وكان ذلك نحو سنة ٥٦٩م ونادى عمرو في بني تغلب فانتبهوا مافي الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة وجاشت نفس ابن كلثوم وحمى غضبه وأخذته **الأنفة** والنخوة فنظم بعض معلقته في هذه الحادثة، يصف فيها حدثه مع ابن هند ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة.." (٢)

"الخيل تجري على مساويها.

يقول: إنها، وإن كانت بها أوصاب وعيوب، فإن كرمها مع هذا يحملها على الجري، فكذلك الحر من الرجال، يحمي حريمه على ما فيه من علة. وقال أبو زكرياء الفراء: من أمثالهم في **الحمية** عند ذكر الحرم قولهم: كل شيء مهه ما النساء وذكرهن.

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص/١٧١

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص/١٧٣

أي إن الحر يحتمل كل شيء، حتى يأتي ذكر حرمته فيمتعض حينئذ، ولا يحتمله ومعنى المهه اليسير، ويقول: كل شيء جلل هين عند هذا. وفي هذا لغتان: مهه مهاه. وقال أبو عبيد: وهذه الهاء إذا اتصلت بكلام لم تصر تاء، إنما تكون التاء في الاتصال إذا أرادوا بالمهاة البقرة وقال عمران بن حطان:

فليس لعيشنا هذا مهاه ... وليس دارنا هاتا بدار

و قال أبو عبيد: ومن أمثالهم في الحرم: إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه.

وهذا المثل يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو القائل: لا تخلون رجل بمغيبة وإن قيل: حموها ألا حموها الموت. والحم: أبو الزوج. وقال أوس بن حارثة لأبنه مالك، من كرم الكريم الدفع عن الحريم. وكان من كلام أبجر بن جابر العجلي لأبنه حجار: يا بني، أحسن القوم بقية الصابر عند الحقائق والذائد عن الحرمة. وقال بعض حكماء العرب

ما فجر غيور قط.

يقول: إن الغيور هو الذي يغار على كل أنثى. ويقال

كل ذات صدار خالة.

وكان المفضل يقول: إن صاحب هذا المثل همام بن مرة الشيباني. وقد روينا في حديث مرفوع إنه قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " أي شيء خير للنساء؟ " فلم يدروا ما يقولون، فرجع علي رضي الله عنه إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرها بمقالة النبي عليه السلام، فقالت فاطمة رضي الله عنها: " أن لا يراهن الرجال ولا يرينهم " فبلغ ذلك رسول صلى الله عليه وسلم فقال: " إنها بضعة مني "

وقال عبد الله بن مسعود: النساء حبائل الشيطان.

فجعل الحبالة التي تنصب للصيد مثلا للنساء والرجال وقال عبادة بن الصامت: ألا ترون إني لا أقوم إلا رفدا، ولا آكل إلا ما لوق لي، وإن صاحبي لأصم أعمى، وما سرني إني خلوت بامرأة. وقد فسرنا في غريب الحديث. ويروى عن عمر أيضا إنه قال: ما بال رجل لا يزال أحدهم كاسرا وساده عند امرأة مغزية، يتحدث إليها وتحدث إليه، عليكم بالجبنة فإنها عفاف، إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه.

باب الرجل يدخله **الأنفة** من صاحب من يرغب عن صحبته.

قال أبو عبيد: جاء الأثر عن بعض أهل العلم: لا تصحب من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له.

وقال الأصمعي: من أمثالهم في نحو هذا: خل سبيل من وهى سقاؤه.

أي إذا كره صحبتك، ولم يستقم لك فدعه وازهد فيه كزهده فيك. قال الأصمعي بعض هذا الكلام. وكذلك

قولهم: خله درج الضب.

قال أبو عبيد: ومثله قولهم: إنما يضن بالصنين.

قاله الأغلب بن جشعم العجلي. ومعناه: تمسك باخاء من تمسك بإخائك، ومثله قول لبيد بن ربيءة.

فأقطع لبانة من تعرض وصله ... ولخير واصل خلة صرامها

و مثله في أشعارهم كثير. قال أبو عبيد: ومن أمثالهم في مثله: دع امرأ وما اختار.

ومنه قولهم: ألق حبله على غاربه.

وأصله الناقة إذا أرادوا إرسالها للرعي جعلوا جدليها على الغارب، ولا يترك ساقطا فيمنعها من المرعى يقول :فدع هذا يذهب حيث شاء إذ كره معاشرتك. قال أبو عبيد: والعامة تقول في مثل هذا المثل: لو كرهتني يدي ما صحبتني.

باب الرجل يأبى الضيم فيأخذه حقه قسرا إذا أعياه الرفق.

قال أبو عبيد: من أمثالهم في هذا.

مجاهرة إذا لم أجد مختلا.

يقول: أخذت حقي علانية قهرا إذ لم أصل إليه في العافية والستر قال أبو عبيد: ويقال في نحو منه: حلبتها بالساعد الأشد.

أي حين لم أقدر على الرفق أخذته بالقوة والشدة. وقال بعض الأعراب يمدح رجلا؟:

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا مال إلا من قنا وسيوف

و قال زهير بن أبي سلمى:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

و منه قول أوس بن حارثة لأبنه مالك: يا مالك، التجلد ولا التبلد، والمنية ولا الدنية.

قال أبو عبيد: ومن أمثالهم في الضيم: من عز بز.." (١)

"عن الإسراف والتبذير كما ينهي عن البخل والتقتير وينفر من الدناءة والاستكانة والذلة والمهانة كما يحذر من التكبر **والأنفة** والتجبر وهكذا كان دأبه في جميع الأمور يقبح الغلو والإفراط كما يقبح التقصير والقصور وفي يده ميزان خرج الشعرة وتبين الذرة وهي ميزان العدالة والسداد يرد بها ما نقص مثل ما يرد ما زاد ثم رأيت امرأة مخدرة معظمة موقرة يلوح عليها الجمال وتحيط بها أبهة

---

(١) الأمثال لابن سلام، ص/١٨

الكمال ويبدو عليها اللطف والكرم ومحاسن الشيم وعلو الهمم ورأيت كل أحد يعظمها ويحييها ويكرمها إلا جماعة من الاسافل والأوباش الأراذل كانوا يوقرونها بل رأيتهم يحقرونها ولكنها كانت لا تحفل بما يبديه أهل الفساد والشقاق كما أنها لم تكن تنخدع بمتلق أهل النفاق بل كانت تنظر فيما يعرض من الدعاوى والشكاوي بالعدل والحلم وتفضل فيها الحكم بالفطنة والذكاء والفضل والعلم ورأيت على رأسها إكليلا من الزهر ر يبذل مدى الدهر فلا يزال يرف خضره ويتلألأ بهجة ونضره ويجلب للعين قرة وللخاطر مسرة وخلفها شخص مهيب الصورة صعب المراس يرفل في سواد اللباس كأنه من بقايا بني العباس وفي يده سوط مجدول يروع منظره القلب ويهول ورأيت العقل يخاطب كل من حضر في ديوانه ويستشير هذه المرأة الفاضلة في جميع شانه فعسر على معرفة أمرها وسألت الدليل عن خبرها فقال هي البصيرة المعروفة بحسن آرائها وهي من نبهاء هذه الدولة ونبلائها وأعظم أمرائها ووزرائها وسلطاننا يوقرنا ويخشانا ويحذرها ويحرص على استجلاب قلبها وإرضائها ويستنهض العامة والخاصة لموافقة آرائها فتدور الأمور على السداد وتطمئن البلاد والعبادويتم المراد وقد يقع بينهما الشقاق وتنحل روابط الاتفاق فيظهر كل منهما لصاحبه الخصومة فتختل
عند ذلك أمور الحكومة ويتغلب في خلال ذلك الاختلال طائفتا الأغراض النفسية والخصال المذمومة فيجدون فرصة لترويج ما يريدون من الشر والفساد ويجدون في إقامة الحكومة الجمهورية المضرة." (١)

"رعابة يخشى نفوس الأنه

يصف فحلا، يقول: يرعب نفوس الذين يأنهون. وقال غير الأصمعي: في صوته صحل وصهل أي بحوحة.
وقال: هو يتفيهق في كلامه ويتفيحق إذا توسع في الكلام وتنطع، وأصله الفهق وهو الامتلاء.
وقال الأصمعي يقال: الحقحقة والهقهقة: السير المتعب، قال وقال رؤبة:
يصبحن بعد القرب المقهقه
إنما أصله من الحقحقة، قلبوا الحاء هاء لأنها أختها، وقلبوا الهقهقة إلى الهقهقة. ومن أمثالهم: " شر السير الحقحقة " . قال وقال مطرف بن الشخير لابنه: يا عبد الله، عليك بالقصد وإياك وسير الحقحقة، يريد الإتعاب. قال أبو علي: الحقحقة مشتق من الحق أي يعطي الناقة الحق في سيرها فتجهد نفسها.
" ما قاله بعض أهل اليمن لذي رعين يعزيه يوم مات أخوه " قال أبو علي وحدثنا أبو بكر رحمه الله قال أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة ةحدثنا قال حدثني أيضا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن

---

(١) الآثار الفكرية، ص/٣٢٠

الكلبي – ولفظ اهما متفقان غير أن أبا عبيدة قال: لبعض ملوك اليمن، وقال ابن االكلبي: لذي رعين – قال: مات أخ لذي رعين فعزاه بعض أهل اليمن فقال: إن الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولابد مما هو كائن؛ وقد حل ما لا يدفع، ولا سبيل إلى رجوع ما قد مات، وقد أقام معك، ما سيذهب عنك وستتركه؛ فما الجزع مما لابد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه؛ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد الأصل! فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر، وإنما أهل الدنيا سفر لا يحلون عن الركاب إلا في غيرها، فما أحسن الشكر عند النعم والستليم عند الغير! فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، هل رد أحدا منهم إلى ثقة من درك؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف، فأفق والمرجع قريب، واعلم أنما ابتلاك المنعم وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثر؛ فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر.

" م ا قاله بعض العرب يعزي رجلا على أخيه " وحدثنا أبو بكر قال حدثنا سعيد بن هارون الأشناندانى عن التوزي عن أبي عبيدة قال: عزى رجل من العرب رجلا على أخيه فقال: محبوب فائت، وغنم عارض، إن ضيعته فات أيضا وبقيت حسيرا؛ أما أخوك، فلا يذهب بك جزعك فتحط سوددك وتقل ثقة عشيرتك باضطلاعك بالأمور، وفي كثرة الأسى عزاء عن المصائب.

وحدثنا أبو بكر قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال سمعت عمي يقول: التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة.

" اجتماع وفود العرب بباب سلامة ذي فائش ليعزوه في ابنه وما قالوه في التعزية " وحدثنا عمى عن أبيه عن ابن الكلبي قال: نشأ لسلامة ذي فائش ابن كأكمل أبناء المقاول، وكان به مسرورا يرشحه لموضعه، فركب ذات يوم فرسا صعبا فكبا به فوقصه، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا وامتنع من الطعام واحتجت عن الناس، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه، فلامه نصحاؤه في إفراط جزعه، فخرج الى الناس فقام خطباؤهم يؤنسونه، وكان في القوم الملبب بن عوف بن سلمة بن عمرو بن سلمة الجعفى، وجعادة بن أفلح بن الحارث وهو جد الجراح بن عبد الله الحكمى صاحب خراسان – فقام الملبب فقال: أيها الملك، إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطى لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتحلي لتمتر، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب؛ وكل مصيبة تخطأتك جلل، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل؛ وإن حادثا ألم بك، فاستبد بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك! وقد تناهت اليك أنباء من رزىء فصبر، وأصيبت فاغتفر، اذ كان شوى فيما يرتقب ويحذر؛ فاستشعر اليأس مما فات اذ كان ارتجاعه ممتنعا، ومرامه

مستصعبا، فلشيء ما ضربت الأسى، وفزع أولو الألباب الى حسن العزاء. وقام جعادة فقال: أيها الملك، لا تشعر قلبك الجزع على ما فات، فيغفل ذهنك على الاستعداد لما يأتي، وناضل عوارض الحزن بالأنفة عن مضاهاة أفعال أهل وهي العقول، فإن العزاء لحزماء الرجال، والجزع لربات الحجال، ولو كان الجزع يرد فائتا، أو يحيي تالفا، لكان فعلا دنيئا، فكيف به وهو مجانب لأخلاق ذوي الألباب! فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت فيه الأرذلون، وصن قدرك عما يركبه المخسوسون، وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام، ضلة كأحلام النيام.." (١)

" الواو مع النون

١٤٠٨ – ونبل العبد اكثرها المرامى : هى سهام الهدف والمعنى أن الحر يغالى بالسهام فيشترى المعبلة وأمثالها لأنه صاحب صيد وحرب والعبد إنما يكون راعيا فتقنعه المرامى لأنها أرخص أثمانا إن اشتراها وإن استوهبها لم يكد أحد يجود له إلا بالمرماة لهونها يضرب لمماثلة الشيء صاحبه

الواو مع الياء

١٤٠٩ – ويا رب حام انفه وهو جادعه : يضرب لمن يأنف من الشيء فتوقعه الأنفة فى أشد منه

قال البعيث

(الطويل)

(لعمرى لقد سب الفرزدق أمه ... وكان كحامى أنفه وهو جادعه)

قاله لما رأى أن الشر وقع بين الفرزدق وبينه

١٤١٠ – ويل اهون من ويلين

١٤١١ – . . للشعر من راوية السوء : ويروى من رواة السوء قاله الحطيئة فى وصيته ." (٢)

"ثم شهقت فماتت فواريناهما معا. قال عبد الله: فأقمت سبع سنين ثم رجعت إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لا أبرح أو أزور عتبة، وجئت فإذا أنا بشجرة عليها ألوان من الورق قد نبتت على القبر، فسألت عنها فقالوا شجرة العريسين.

*

أخبار الصمة وصاحبته ريا

---

(١) أمالي القالي، ص/١٧٨

(٢) المستقصى في أمثال العرب، ٣٨٣/٢

هو أبو مالك الصمة بن عبد الله بن مسعود بن رقاش القشيري التغلبي من بني ربيعة، كان أديبا شجاعا عارفا بأيام العرب ووقائعها ومواضعها وكثيرا ما يسند إليه إبن دريد والأصمعي، قال الفوار والوزير أنه أدرك أوائل الإسلام.

و " ريا " هي بيت مسعود ن رقاش أيضا، كانت ذات ظرافة وفراسة ومعرفة وحسن نشأت مع الصمة صغيرين وكانا يتذاكران الأدب وملح الأشعار فأعجب بها وتمكنت منه ولم يكن عندها منه مقدار ما عنده منها، فلما شكا ما يجد منها إلى بعض أصدقائه أرشده إلى تزوجها، فخطبها إلى عمه، فأنعم على مائة من الإبل، فمضى الصمة إلى أبيه فأعطاه تسعا وتسعين فأبى مسعود إلا التمام وعد الله إلا ذلك وحلف كل على ما قال وأقفلوا الأمر فحملت الصمة **الأنفة** على أن خرج عنهما إلى العراق.

فقالت الريا ما رأيت رجلا أضاعه أبوه وعمه ببعير إلا بالصمة لما عندها من العلم بحبه لها، فلما طال عليه الأمر وتنازعه الشوق والشهامة المانعة له من العود بلا طلب مرض حتى أضناه السقم، وقيل أتى كاهنا بالعراق فسأله عما أضمر فأخبره أنه لا يتزوج بها أبدا فضعف، والصحيح كما حكاه صاحب قوت القلوب في أخبار المحب والمحبوب أنه قدم رجل يقال له غاوي بن رشيد بن طلابة المذحجي على مسعود فخطب منه ريا وأمهرها ثلثمائة ناقة برعائها، فزوجه بها فحملها إلى مذحج الصمة ذلك فلزم الوساد وطال امره، فدخل عليه رجل كان يألفه فعنفه وسلاه فأنشد:

أمن ذكر دار بالرقاشين أعصفت ... به بارحات الصيف بدأ ورجعا

حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وسعيا كما معا

فما حسن أن يأتي الأمر طائعا ... وتجزع إن داعي الصبابة اسمعا

كأنك لن تسمع وداع مفارق ... ولم تر شعبي صاحبين تقطعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

الرفاشين إسم واد بين نجد واليمن كانت تنزله بنو ربيعة، والبارحات رياح معلومة صيفية تستبشر بها العرب والضمير يعود على الوادي.

وفي قوت القلوب أعصفت بها سانحات الصيف يريد بالدار، والسانحات أيضا لكنها لا تخص الصيف فيشكل التعيين هنا وقوله وسعيا كما هو معطوف على قوله ونفسك باعدت يريدان السعي والنفس أبعداه عن المحبوبة وغلط في قوت القلوب حيث أعرب وسعييكما نصبا بالياء على أنه معمول باعدت عطفا على مزارك.

وقوله فما حسن أن يأتي المر وبكت عيني اليمنى البيتين قد إستعارهما المجنون وباقي الشعر واضح ويقال أن في القصيدة طولا:

ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وجالت بنات الشوق تحتي نزعا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... رجعت إلى الإصغاء ألوي وأجزعا

وأذكر أيام الحمى ثم إنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا

أما وجلال الله لو تذكريني ... كذكراك ما كففت للعين مدمعا

فقالت بلى والله ذكرى لو أنه ... تضمنه صم الصفا لتصدعا

ولما طالت عليه دعا له صاحبه العراقي بطيب حاذق، فما تأمله قال إنما يشكو العشق لا غيره وأرى أن يلزم النزهة والفرح نحو البساتين ليتشاغل عما هو فيه أخرجه صاحبه مع بعض اخدم إلى الثغور، فبينا هو يوما على شاطيء هر وقد جد به اكرب إذ سمع امرأة تنادي إبنتها يا ريا فسقط مغشيا عليه فأحتملوه إلى بستان هناك وأضجعوه، فلما أفاق أنشد: تعز بصبر لا وجدك لا ترى سنام الحمى إحدى الليالي الغواير

كأن لساني من تذكري الحمى ... وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

ولم يزل يرددها حتى قضى، ولما وصل خبره إلى الريا داخلها من الوجد ما أمسكت معه عن الطعام والشراب وجعلت تبكي حى ماتت، ومن لطيف شعه قوه:

ألا من لعين لا ترى قلل الحمى ... ولا جبل إلا ثال إلا إستهلت." (١)

"ورجل صادق في حاله، غير كامل في تصرفه، يخشى العطب في الأخذ، ويؤثر جانب السلامة، فهذا سالم في نفسه، ولا ربح معه للناس من هذا الوجه.

ورجل كامل قد تضلع من العلم والحال، فهذا حقه الأخذ لحق الغير نصحا له وإعانة له على الخير، اللهم إلا أن يعرض ما يمنع كاطلاعه على اختلاف قصد المتصدق أو فساد في المال أو نحو ذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من أصحابه ما يأتون به من النفقة إعانة لهم على الخير، وتزكية لهم عن الأخلاق المذمومة، ونفعا للمسلمين بما أنفقوا وإلا فهو صلى الله عليه وسلم أغنى الخلق ظاهرا وباطنا، وقد عرض عليه أن تجعل له الجبال ذهبا يتفق منها فلم يرض، وقد لا يقبل لعوارض، وقد قال صلى الله عليه وسلم في آخر الأمر: " هممت ألا أقبل إلا من قرشي أو ثقفي أو دوسي " والكامل من المشايخ له

---

(١) المرقصات والمطربات، ص/٩٠

مدخل في ذلك.

ومنهم من يطعم من الفتوح أو من الأمرين، فإن استقام أخذه وتصرفه فهو ينتفع بما مر في الأول، وإن كان لا يبلغ في أجر النفقة مبلغ من أنفق في كد يمينه، وعرق جبينه، وبمعاونة الناس على الخير، وإدخال السرور عليهم في الأخذ، وتربية أحوالهم المحمودة، وتزكيتهم من المذمومة، وبالسلامة من **الأنفة** والاشتهار بالنزاهة المتوقع في الأول، وبتيسر رزقه في خلال ذلك ليتفرغ للعباده، إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية، وينتفع الناس معه بما مر، والمنفقون بذلك مع حصول أجر ما أنفقوا، والتخلي والتحلي كما مر، وغير ذلك، ومن سوى هذين الشخصين من كل من يستظهر بالخرقة ويتجر باللقمة فلا عبرة له، وقد ينتقع المنفق كما مر إن سلم من أتباعه على زيغه والسقوط في مهاوي بدعته، وهذا كله في الإطعام والإنفاق جملة.

وأما أكل المريد لطعام شيخه والنزول في مثواه وافتراش فراشه وغير ذلك من الانتفاعات فقد يسلم في ذلك وقد يحصل له انتفاع زيادة على السلامة كحصول بركة ونور في قلبه أو رحمة من الله تعالى بذلك، وقد جاءت امرأة من لكتاوة إلى دار أشياخنا، وأظنه في حياة سيدي أحمد بن إبراهيم بقصد الزيارة فأكلت من طعام الزاوية ثم رجعت إلى بلدها وبقيت أياما فماتت فريئت بعد موتها فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقالت: رحمني بالطعام الذي أكلت من الزاوية.

وقد يتضرر المريد بذلك من جهات منها أن يتشوف إلى ذلك أو إلى المزية فيه فيفسد قصده، ويختل حاله، ومنها أن يستشعر شيخه منه أحيانا ثقلا في ذلك لما يقتضيه الطبع البشري، فينفر منه، وفي ذلك ضرره، وقد تذهب زيارته وخدمته في بطنه، وذلك هو الخسران المبين، ومن ذلك وقع ما ذكر في صدر هذه الترجمة للشيخ أحمد بن يوسف من ترك الإطعام كما قال، وقد يدخل عليه في ذلك من مزاحمة الإخوان والواردين الشغل والفتنة والشحناء والتدابر والتقاطع وغير ذلك.

وقد حدثونا عن شيخ شيوخنا سيدي عبد الله بن حسين الرقي - رضي الله عنه – أنه "كان " إذا ذهب مع الفقراء لزيارة شيخهم سيدي أحمد بن علي يأخذ معه زادا تحت إبطه فإذا وصلوا إلى زاوية الشيخ انفرد عنهم ودخل المسجد واشتغل بحاله واقتات من زاده فلا جرم " أن "كان هو الذي أنجح وأفلح.

هذا ولا يخلو شيء من مصالح وآفات، والمعصوم من عصمة الله، والموفق من وفقه الله، والورع من ورعه الله، فلا يمكن الاعتراض على من أكل، ولا من ترك، ولا من أطعم، ولا من ترك، ولا من اشتهر، ولا من اختفى، اللهم إلا " على " من كان في تربيته على يده بوجهه، فمن عرف فليتبع، ومن جهل فليسلم، والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقية في محلها بشرطها.

وبلغني أن الفقيه الصالح سيدي الصغير ابن المنيار مر ذات مرة بسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي فأخرج إليه الطعام من الزاوية فلم يأكله فبلغ ذلك ابن أبي بكر فذكر ذلك وكأنه اعتل بما يقع من خدمة الناس في الحصاد والدرس، فقال له ابن أبي بكر: أيما أفضل أنت أم جدك؟ يعني سيدي علي بن إبراهيم، وقد جاءه بنو موسى بسبعمائة منجل ليحصدوا، فلما رأى عددهم قال لهم: بخلتمونا يا بني موسى، فقال له سيدي الصغير: جدي أعرف بحاله وأقدر على ما يفعل، وأنا أتصرف بمقتضى حالي أو نحو هذا " من " الكلام. وقد يكون للولي حال مع الله تعالى فيسأل الناس ويأخذ من الله تعالى لا من الناس، ويتصرف بالله وفي الله، ولا يصح الاعتراض عليه لاستقامته.." (١)

" (خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا)

(سمع ابن عمته به وبحاله ... فمضى يهرول أمس منك مهولا)

(وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا)

(تلف الذي اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا) وسأحكم بين هاتين القصيدتين والذي يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه يالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله

(أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا) ثم إنه تفنن في ذكر الأسدفوصف صورته وهيئته ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله ووصف خلق نجله مع شجاعته وشبه الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك في أحسن مخرج وأبرزه في أشرف معنى وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه والبحتري وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره في أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشرلأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا

(١) المحاضرات في اللغة والأدب، ص/٧٣

واعلم أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معانكتوارد البحتري والمتنبي ." (١)

"وأنشدني أحمد بن عبد الله قال: أنشدني ابن الكلبي لابن أمينة:

وإني على السر الذي هو داخل، ... إذا باح أصحاب الهوى، لضموم

وإني ما استودعت، يا أم مالك، ... على قدم من عهدنا، لكتوم

وقال أبو الطيب: الضموم: الممسك، وكذلك الزميت أيضا. وقال آخر:

وحاجة دون أخرى قد شجيت بها، ... خلفتها للذي أخفيت عنوانا

إني كأني أرى من لا حياء له، ... ولا أمانة، وسط الناس، عريانا

وأنشدني أحمد بن يحيى بن الخطيم:

وإن ضيع الأحرار سرا، فإنني ... كتوم لأسرار العشير، أمين

يكون له عندي إذا ما ضمنته ... مكان بسوداء الفؤاد مكين

وقال بشار بن برد المرعث:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم، ... حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

لأخرجن من الدنيا وسرهم ... بين الجوانح، لم يعلم به أحد

وأحسن، والله، الذي يقول:

يأبى لي الذم أخلاق ومكرمة ... مني، وأذن عن الفحشاء صماء

والنجم أقرب من سري إذا اشتملت ... مني على السر أضلاع وأحشاء

والذي قيل في ذلك كثير جدا يطول به الخطب ويتسع فيه القول. وليس قصدنا في كتابنا هذا المعنى، وإنما تقدمنا بذكر ما شرحناه ونعت ما وصفناه، لأنه لا بد للظريف من استعمال كل ما ذكرناه من حدود الأدب وشرائع المروة، واعلم أن مذهبنا في هذا المتاب إلى معنى صفة الظرف، وما يجب على الظريف استعماله، وذكر ما يجب عليه تركه، وما اخترعنا في كتابنا هذا علما من عند أنفسنا، يجب لنا به الامتحان، ولا يلحقنا فيه عيب من عاب، إن عاب، ولا على أنه لا يطلب لفظه، ولا يمتنع عند معايبهم إلا معيب.

وأنشدنا أحمد بن يحيى قال: أنشدني ابن السكيت:

رب غريب ناصح الجيب، ... وابن أب متهم الغيب

(١) المثل السائر، ٣٨٧/٢

ورب عياب له منظر ... مشتمل منه على العيب

ولكنا ألفناه وجمعناه من أقاويل جماعة من الظرفاء والمتظرفات، وأهل الأدب والمروات، سمعناهم، ورأيناهم يتكلمون به، ويستعملونه، فأحببنا أن نجمع ذلك، ونجعله لهوا لمن أراد سماعه، وعلما لمن أراد اتباعه، وهديا لمن أراد رشده، ومنارا لمن أراد قصده، وطيبا لمن أراد شمه، وأدبا لمن أراد فهمه. وكتابنا هذا روضة تتنزه فيها العقول، وعقود جوهر زينتها الفصول، إذ لم نخله من أخبار طريفة، وأشعار ظريفة، وأشياء نمت إلينا من زي ظرفاء الناس في الطعام، والشراب، والعطر، واللباس، ومذهبهم فيما اجتنبوه من ذميم الأفعال، واستحسنوه من جميل الشيم والأخلاق، وسأشرح ذلك وأبينه بابا بابا لتقف عليه، إن شاء الله.

سنن الظرف

اعلم أن عماد الظرف، عند الظرفاء وأهل المعرفة والأدباء، حفظ الجوار، والوفاء بالذمار، **والأنفة** من العار، وطلب السلامة من الأوزار، ولن يكون الظريف ظريفا، حتى تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة، والبلاغة، والعفة، والنزاهة.

وسألت بعض الظرفاء عن الظرف فقال: التودد إلى الإخوان، وكف الأذى عن الجيران.

وقال آخر: الظرف ظلف النفس، وسخاء الكف، وعفة الفرج.

وأخبرني أحمد بن عبيد قال: قال الأصمعي وابن الأعرابي: لا يكون الظرف إلا في اللسان. يقال: فلان ظريف، أي هو بليغ، جيد المنطق، ومنه حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إذا كان اللص ظريفا لم يقطع أي لأنه يكون له لسان فيحتج به، فيدفع عن نفسه.

قال: وروي عن محمد بن سيرين أنه قال: الظرف مشتق من الفطنة.

وقال غيره: الظرف حسن الوجه والهيئة. وقال بعض المشيخة: الظريف الذي قد تأدب، وأخذ من كل العلوم، فصار وعاء لها، فهو ظرف.

وقال أحمد بن عبيد: معناه أنه يعي أدبا وعلما، كما يعي ظرف الشيء ما يكون فيه، ولذلك معنى: إذا كان اللص ظريفا لم يقطع، إذا كان واعيا للعلم لم يسرق إلا بتأول، كما فعل الشعبي، وقد دخل بيت المال، فأخذ منه دراهم، وإنما أراد به التأول لما له فيه من الحق.

وسألت بعض متظرفات القصور عن الظرف، فقالت: من كان فصيحا عفيفا كان عندنا متكاملا ظريفا، ومن كان غنيا عاهرا كان ناقصا فاجرا.." (١)

---

(١) الموشى، ص/١٧

"وشادن ظل للوع ... ظ تاليا بين جمع
متعت طرفي بمرآ ... ه في حفاوة سمعي
وتوفي يوم الإثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة وكان مولده في الخامس من رجب سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.
أخوه
مالك بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
جال في بلاد الأندلس وبر العدوة، وآل به الأمر إلى أن كتب ليحيى الميورقي صاحب الفتنة الطويلة بإفريقية، وهنالك مات وترك عقبا بودان .
وأحسن شعره قوله في محبوب له مرض واصفر لونه:
غدا ورد من أهواه بالسقم نرجسافجر عيني عند ذاك عيانه
فقلت لخديه عزاء فقال لي ... كذا كل ورد لا يدوم أوانه
وقوله:
الخيل والليل تدري ... صنعي إذا افتر فجر
ما مر لي قط يوم ... إلا ولي فيه كر
لا تخدعن بالأماني ... فما سواها يغر
لا تفكرن في أوان ... ما دمت فيه تسر
أخوهما
عبد الرحمن بن محمد
كان صعب الخلق، كثير **الأنفة**، لا صبر لأحد على صحبته، فجرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه عن المغرب الأقصى إلى أقصى المشرق، ووصلت رسالته من بخارى فيها هذه الأبيات:
إذا هبت رياح الغرب طارت ... إليها مهجتي نحو التلاق
وأحسب من تركت به يلاقي ... إذا هبت صباها ما ألاقي
فيا ليت التفرق كان عدلا ... فحمل ما نطيق من اشتياق
وليت العمر لم يبرح وصالا ... ولم يحكم علينا بالفراق
وقتله التتر في بخارى، رحمه الله.

علي بن موسى بن محمد

بن عبد الملك بن سعيد

هو مكمل تصنيف هذا الكتاب، ولد بغرناطة في شوال سنة عشر وستمائة، ورحل منها فجال مع أبيه في بر الأندلس وبر العدوة والمغرب الأوسط وإفريقية إلى الإسكندرية، وترك والده بالإسكندرية، ورحل إلى القاهرة، ثم عاد إليها، فحضر وفاته، ثم رجع إلى القاهرة، ثم رحل إلى حلب في صحبة الصاحب الكبير المحسن كمال الدين بن أبي جرادة، ثم عزم على الحج في هذه السنة، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة، يسر الله ذلك بمنه. ومن نظمه قوله:

كأنما النهر صفحة كتبت ... أسطرها والنسيم منشئها

لما أبانت عن حسن منظره ... مالت عليها الغصون تفرؤها

وقوله من قصيدة:

بحر وليس نواله بمشقة ... المال في يده شبيه غثاء

وقوله:

برء كما آب الغمام الصيب ... فتراجع الروض الهشيم المذنب

عطفت به النعمى على ألافهاواسترجع الزمن المسيء المذنب

ما كنت إلا السيف يصدأ متنه ... وغراره ماض إذا ما يضرب

وقوله وقد دوعب بسرقة سكين:

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب ... على يده قطع وفيه نصاب

ستندبه الأقلام عند عثارها ... ويبكيه أن يعدو الصواب كتاب

وقوله في فرس أصفر أغر أكحل الحلية:

وأجرد تبري أثرت به الثرى ... وللفجر في خصر الظلام وشاح

له لون ذي عشق وحسن معشق ... لذلك فيه دلة ومراح

عجبت له وهو الأصيل، بعرفه ... ظلام وبين الناظرين صباح

وقوله:

خجلت والستر يحجبها ... كيف تخفي الخمرة القدح

وقوله:

رق الأصيل فواصل الأقداحا ... واشرب إلى وقت الصباح صباحا." (١)

"أنفة عقيل بن علفة

وكان عقيل بن علفة من المغيرة والأنفة على ما ليس عليه أحد علمناه، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه، وكانت لعقيل إليه حاجات فقال: أما إذ كنت فاعلا فجنبني هجاءك. وخطب إليه ابنته إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة–وهو خال هشام بن عبد الملك ووالي المدينة، وكان أبيض شديد البياض– فرده عقيل وقال:

رددت صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

وكانت حفصة بنت عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله قد ميت عنها، فخطبها جماعة من قريش، أحدهم عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وأحدهم إبراهيم بن هشام، فكان أخوها محمد بن عمران، إذا دخل إلى إبراهيم بن هشام أوسع له وأنشده:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

أحبك أن نزلت جبال حسمى ... وأن ناسبت بثينة من قريب

وهذا الشعر لجميل بن عبد الله بن معمر الذري، فأما جميل بن معمر الجمحي فلا نسب بينه وبين معمر، أي ليس بينه وبين أب آخر، وكانت له صحبة، وكان خالصا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.." (٢)

"ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزعوا إلى الزنج في البسالة والأنفة. فذكر خفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس، وابنى شداد: عنترة الفوارس وأخاه هراسة، وسليك بن السلكة. فهؤلاء أسد الرجال، وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأسا، وبهم يضرب المثل.

ومنهم: عبد الله بن خازم السلمى، وبنو الحباب: عمير بن الحباب وإخواته.

وكان أيضا منهم: الجحاف بن حكيم.

وهم أيضا يفخرون برباح أخي بلال وحاله وصلاحه.

ويفخرون بعامر بن فهيرة، بدرى استشهد يوم بئر معونة، فرآه الناس قد رفعه الله بين السماء والأرض، فليس له في الأرض قبر.

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ص/١٤٥

(٢) الكامل في اللغة والأدب، ٣٨/٢

ومنهم: آل ياسر.

قالوا: ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر. لم يكن في الأرض أشد منه؛ كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء.

وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزر، كان مثلا في الشجاعة.

ويقولون: ومنا مربح الأشرم، غلام أبى بحر القائد، الذي كان قدم من الشام أيام قتيبة بن مسلم، وكان لا يرام لقاؤه، وأمره مشهور.

قالوا: ومنا المغلول وبنوه، وهم من الخول، ليس في الأرض أعرف ولا أثقف ولا أعلم بالبادية منهم.

قالوا: ومنا أفلح، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة. قالوا: وإنما قتله مالك بن الريب، لأنه وطئه في جوف الليل وهو سكران خائر. والشاهد على قولنا قول ابنه:

أمالك لولا السكر أيقنت أنه ... أخو الورد أو يربى على الأسد الورد

قالوا: ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة، وجرت أحكامنا في ذلك أجمع. وهزمنا ذا نواس، وقتلنا أقيال حمير. وأنتم لم تملكوا بلادنا. وقد قال شاعركم:

وخرب غمدانا وهدم سقفه ... رباط بأجناد وصولته هصر

أطافت به الأحبوش ليلا فقوضوا ... بنا شده الأقيال في سالف الدهر

بجمع من اليكسوم سود كأنهم ... أسود الشرى اجتابت جلودا من النمر

قالوا: ومنا كباجلا، لم يصعد نهر سليمان ولا قاتل في المخارجات أحد قط يشبهه.

قالوا: ومنا الأربعون الذين خرجوا بالفرات أيام سوار بن عبد الله القاضي، فأجلوا أهل الفرات عن منازلهم، وقتلوا من أهل الأبلة مقتلة عظيمة.

قالوا: ومنا الذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعمان، بمنجل بحراني، بعد أن لم يجسر عليه أحد.

قالوا: والناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم، وعليها أغلب من الزنج. وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم.

وهي أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم.

وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم. وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم.

وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفاء والعيى، ومن في لسانه حبسة، غيرهم.
والرجل منهم يخطب عند الملك بالز◌◌نج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه.
وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما. وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء. وهذه هي خصال الشرف.
والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى، لا تراه أبدا إلا طيب النفس، ضحوك السن، حسن الظن. وهذا هو الشرف.
وقد قال ناس: إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم، ولقصر روياتهم، ولجهلهم بالعواقب.
فقلنا لهم: بئس ما أثنيتم على السخاء والأثرة، وينبغى في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلا وأكثر الناس علما أبخل الناس بخلا وأقلهم خيرا.
وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم، والروم أبعد روية وأشد عقولا. وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغى أن تكون الصقالبة أسخى أنفسا وأسمح أكفا منهم.." (١)

"جعلت فداك، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرواة، ولضغينة حفاظ المثالب، وللسان من قد عرف بالصدق والتوخي، وبقله الخطل والتنكب، ما وجدت عن ذلك مندوحة، ووجدت المذهب عنه واسعا. ولا تعاقب وادا وإن اضطرك الواد، ولا تجعل طول الصحبة سببا للضجر، واصبر على خلقه خير من جديد غيره.وصداقة المتطرف غرور، وملالة الصديق أفن، والعلم بأقدار الذنوب غامض، وحدود الذنوب في العقاب خفية. ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب. والأجرام كثيرة الأشكال، ومتفاوتة في الأقدار. وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه، وإلى معدنه الذي منه نجم، وعشه الذي منه درج، ومغرسه الذي منه نبت، وإلى جهة صاحبه في التتايع والتترع، وفي النزوع والثبات، وإلى قحته عند التقريع، وإلى حيائه عند التعريض، وإلى فطنته عند الرشق والتورية؛ فإن فضل الفطنة ربما دل على فرط الاكتراث، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام. فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر وغلظ طباع وحدة مرار، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير، أو من طريق فرط **الأنفة** وغلبة طباع **الحمية** من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله، وأنه مقصر به مؤخر عن مرتبته، أو كان مبلغا عنه أو مكذوبا عليه، وكان ذلك جائزا عليه غير ممتنع فيه فإذا كانت ذنوبه

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٤٣

من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب، وفي هذه المجاري، فليس يقف عليها كريم، ولا يلتفت لها حليم.
ولست أسميه بكثرة معروفة كريما حتى يكون عقله غامرا لعلمه، وعلمه غالبا لطبعه، وحتى يكون عالما بما ترك، وعارفا بما أخذ. واسم الحليم جامع للكظم، والقدرة، والفهم.

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء، ولصوب رأيك عالم من الأشراف.

ومتى كانت علته طبيعة البذاء، وخلقه الشرارة والتسرع، فاقتله قتل العقارب، وادمغه دمغ رءوس الحيات.

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه على الخوف، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفدك، واحتل في منعه من قبل غيرك؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة، وأعظمته من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك، واستدعيت الألسنة البذية إلى عرضك، وكنت عونا لهم عليك.

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه على الخوف، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفدك، واحتل في منعه من قبل غيرك؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة، وأعظمته من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك، واستدعيت الألسنة البذية إلى عرضك، وكنت عونا لهم عليك.

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره، وأنت فيه قسيمه، إلا أن عليك غرمه ولك غنمه.

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطّ عن الحسود نصف عقابه، وأن تقتصر على بعض مقداره، لأن ألم حسده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه.

وأما المواد فلا تعرض له البتة، ولا تلتفت لفته، ولو أتى على الحرث والنسل، وحتى على الروح والقلب. ولا تغتر بقوله إني واد، ولا تحكم له بدعواه بأني جد وامق. وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه، وإلى لحن قوله، وإلى طريقته وطبيعته، وإلى خلقه وخليقته، وإلى تصرفه وتصميمه وإلى توقفه وتهوره. وتأمل مقدار جزعه من قلة اكتراثه، وانظر إلى غضبه فيك ولك، وإلى انصرافه عمن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك، وإلى تسلمه من الشر وتعضه له، وإلى مداهنته وكشف قناعه. بل لا تقض له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك، وإن طالت الأيام وكثرت الشهور، حتى تنتظم احالات، وتستوي فيه الأزمان.

نعم، ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك، ومحنوة على نصيحتك، بالعلل التي توجب الأفعال. والأسباب التي تسخر القلوب للمودات، كالعلل الثابتة في الصنيعة، والأسباب الموجودة

مع مولى العتاقة؛ فإن عللهما خلاف علل مولى الكلالة، وخلاف علل الصديق الذي لم يزل يرى أنه مثلك، وأنه يستوجب منك استيجابك، ولا سيما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتها، وأنت أبو عذرتها.." (١)

"وقد نظرت في التجارة التي اخترتها، والسوق التي أقمتها، فلم أر فيها شيئا ينفق إلا العلم والبيان عنه، وإلا العمل الصالح والدعاء إليه، وإلا التعاون على مصلحة العباد، ونفي الفساد عن البلاد.

وأنا – مد الله في عمرك – رجل من أهل النظر، ومن جمال الأثر، ولا أكمل لكل ذلك ولا أفي؛ إلا أني في سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه. والمرء مع من أحب، وله ما اكتسب.

وعندي – أبقاك الله – كتاب جامع لاختلاف الناس في أصول الفتيا، التي عليها اختلفت الفروع وتضادت الأحكام، وقد جمعت فيه جميع الدعاوي مع جميع العلل. وليس يكون الكتاب تاما، ولحاجة الناس إليه جامعا، حتى تحتج لكل قول بما لا يصاب عند صاحبه، ولا يبلغه أهله؛ وحتى لا نرضى بكشف قناع الباطل دون تجريده، ولا بتوهينه دون إبطاله. وقد قال رسول رب العالمين وخاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم: " تهادوا تحابوا " .

فحث على الهدية وإن كان كراعا وشيئا يسيرا. وإذا دعا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثمين الخطير أدعى، وبه أرضى.

ولا أعلم شيئا أدعى إلى التحاب، وأوجب في التهادي، وأعلى منزلة وأشرف مرتبة، من العلم الذي جعل الله العمل له تبعا، والجنة له ثوابا.

ولا عذر لمن كتب كتابا وقد غاب عنه خصمه، وقد تكفل بالإخبار عنه، في ترك الحيطة له، والقيام بكل ما احتمله قوله. كما أنه لا عذر له في التقصير عن فساد كل قول خالف عليه، وضاد مذهبه، عند من قرأ كتابه وتفهم أدخاله، لأن أقل ما يزيل عذره ويزيح علته، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه، وأصحر للسانه ومكنه من نفسه، وسلطه على إظهار عورته. فإذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جليسه، فلم يبق إلا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجز عنه.

ومن شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن تحتمل ثقل مؤونتهم في تعريفهم، و أن تتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل ما يسدي إليهم.

ولم يصن العلم بمثل بذله، ولم يستبق بمثل نشره. على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد **الحمية**. وعند المواجهة يفرط حب الغلبة، وشهوة

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٥٢

المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الحلية، امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة. وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة؛ لأن المتوحد بقراءتها، والمتفرد بفهم معانيها، لايباهي نفسه، ولا يغالب عقله.

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويرجح على واضعه بأمور: منها أنه يوجد مع كل زمان على تفاوت الأعصار، وبعد ما بين الأمصار. وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة و الجواب. وقد يذهب العالم وتبقى كتبه، ويفنى المعقب ويبقى أثره. ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمها، ودونت من أنواع سيرها؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها المستغلق علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد خس حظنا في الحكمة، وانقطع سببنا من المعرفة، وقصرت الهمة، وضعفت النية، فاعتقم الرأي وماتت الخواطر، ونبا العقل.

وأكثر من كتبهم نفعا، وأحسن ما تكلموا به موقعا، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة.

فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا. على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا.

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، والناشر للحق من القيام بما يلزمه. فقد أمكن القول وصلح الدهر، وخوى نجم التقية،وهبت ريح العلماء، وكسد الجهل والعي وقلعت سوق العلم والبيان.

وهذا الكتاب – أرشك الله – وإن حسن في عيني، وحلا في صدري، فلست آمن أن يعتريني فيه من الغلط ما يعتري الأب في ابنه، والشاعر في قريضه.." (١)

"ولم تر العيون، ولا سمعت الآذان، ولا توهمت العقول عملا اجتباه ذو عقل، أو اختاره ذو علم، بأوبأ مغبة، ولا أنكد عاقبة، ولا أوخم مرعى، ولا أبعد مهوى، ولا أضر على دين، ولا أفسد لعرض، ولا أوجب لسخط الله، ولا أدعى إلى مقت الناس، ولا أبعد من الفلاح، ولا أظهر نفورا عن التوبة، ولا أقل دركا عند الحقيقة، ولا أنقض للطبيعة، ولا أمنع من العلم، ولا أشد خلافا على الحلم، من التكبر في غير موضعه، والتنبل في غير كنهه.

وما ظنك بشيء العجب شقيقه، والبذخ صديقه، والنفج أليفه، والصلف عقيده.

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٧٠

والبذاخ متزيد، والنفاج كذاب، والمتكبر ظالم، والمعجب صغير النفس. وإذا اجتمعت هذه الخصال، وانتظمت هذه الخصال في قلب طال خرابه، واستغلق بابه.

وشر العيوب ما كان مضمنا بعيوب، وشر الذنوب ما كان علة للذنوب.

والكبر أول ذنب كان في السماوات والأرض، وأعظم جرم كان من الجن والإنس، وأشهر تعصب كان في الثقلين، وعنه لج إبليس في الطغيان، وعتا على رب العالمين، وخطأ ربه في التدبير، وتلقى قوله بالرد. ومن أجله استوجب السخطة، وأخرج من الجنة، وقيل له: " ما يكون لك أن تتكبر فيها " .

ولإفراطه في التعظيم خرج إلى غاية القسوة، ولشدة قسوته اعتزم على الإصرار، وتتابع في غاية الإفساد، ودعا إلى كل قبيح، وزين كل شر، وعن معصيته أخرج آدم من الجنة، وشهر في كل أفق وأمة، ومن أجله نصب العداوة لذريته، وتفرغ من كل شيء إلا من إهلاك نسله، فعادى من لا يرجوه ولا يخافه، ولا يضاهيه في نسب، ولا يشاكله في صناعة، وعن ذلك قتل الناس بعضهم بعضا، وظلم القوي الضعيف، ومن أجله أهلك الله الأمم بالمسخ والرجف، وبالخسف وبالطوفان، والريح العقيم، وأدخلهم النار، وأقنطهم من الخروج.

والكبر هو الذي زين لإبليس ترك السجود، ووهمه شرف **الأنفة**، وصور له عز الانتقاض، وحبب إليه المخالفة، وآنسه بالوحدة والوحشة، وهون عليه سخط الرب، وسهل عليه عقاب الأبد، ووعده الظفر، ومناه السلامة، ولقنه الاحتجاج بالباطل، وزين له قول الزور، وزهده في جوار الملائكة، وجمع له خلال السوء، ونظم له خلال الشر؛ لأنه حسد والحسد ظلم، وكذب والكذب ذل، وخدع والخديعة لؤم. وحلف على الزور، وذلك فجور. وخطأ ربه، وتخطئة الله جهل، وأخطأ في جلي القياس وذلك غي، ولج واللجاج ضعف. وفرق بين التكبر والتبدي. وجمع بين الرغبة عن صنيع الملائكة وبين الدخول في أعمال السفلة.

واحتج بأن النار خير من الطين. ومنافع العالم نتائج أربعة أركان: نار يابسة حارة، وماء بارد سيال، وأرض باردة يابسة، وهواء حار رطب. ليس منها شيء مع مزاوجته لخلافه إلا وهو محي مبق. على أن النار نقمة الله من بين جميع الأصناف، وهي أسرعهن إتلافا لما صار فيها. وأمحقهن لما دنا منها.

هذا كله ثمرة الكبر، ونتاج النية. والتكبر شر من القسوة، كما أن القسوة شر المعاصي. والتواضع خير الرحمة، كما أن الرحمة خير الطاعات.

والكبر معنى ينتظم به جماع الشر، والتواضع معنى ينتظم به جماع الخير، والتواضع عقيب الكبر، والرحمة عقيب القسوة. فإذا كان للطاعة قدر من الثواب فلتركها وعقيبها، ولما يوازنها ويكايلها، مثل ذلك القدر من العقاب. وموضع الطاعة من طبقات الرضا، كموضع تركها من طبقات السخط إذ كانت الطاعة واجبة،

والترك معصية.

والكبر من أسباب القسوة. ولو كان الكبر لا يعتري إلا الشريف والجميل، أو الجواد، أو الوفي أو الصدوق، كان أهون لأمره، وأقل لشينه، وكان يعرض لأهل الخير، وكان لا يغلط فيه إلا أهل الفضل، ولكنا نجده في السفلة، كما نجده في العلية، ونجده في القبيح كما نجده في الحسن، وفي الدميم كما نجده في الجميل، وفي الدني الناقص، كما نجده في الوفي الكامل، وفي الجبان كما نجده في الشجاع، وفي الكذوب كما نجده في الصدوق، وفي العبد كما نجده في الحر، وفي الذمي ذي الجزية والصغار والذلة، كما نجده في قابض جزيته والمسلط على إذلاله.

ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية أظهر منه في دهر الإسلام، ولما كان في العبد أفشى منه في الحر، ولما كان في دهره الجاهلية أظهر منه في دهره الإسلام، ولما كان في العبد أفشى منه في الحر، ولما كان في السند أعم منه في الروم والفرس.." (١)

"فهمت كتاب صاحبك، ووقفت منه على تعد في القول، وحيف في الحكم؛ وسمعت قوله. وهو على كل حال حائر، وطريقه طريقهم، وكتبه تشاكل كتبهم، وألفاظه تطابق ألفاظهم.

وكذلك حالنا وحال صاحب كتابك فيما يسخطه من أمرنا، أني لا أعتذر منه، وأستنكف من الانتساب إليه، بل أستحي من الكتابة، وأستنكف بأن أنسب إليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها، ومن السجع أن يظهر مني، ومن الصنعة أن تعرف في كتبي، ومن العجب بكثير ما يكون مني.

وقديما كره ذلك أهل المروءة **والأنفة**، وأهل الاختيار للصواب والصد عن الخطأ. حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة، أملى كتابا إلى رجل فقال فيه: " لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة " ثم قال: " امح: من كلاب الحرة، واكتب: من الكلاب " . كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، وأري أنه ليس في موضعه.

فصل منه

وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان. فأما عليتهم ومصاصهم، وذوو البصائر والتمييز منهم، ومن فتقته الفطنة، وأرهفه التأديب، وأرهقه طول الفكر وجرى فيه الحياء وأحكمته التجارب، فعرف العواقب وأحكم التفصيل وتبطن غوامض التحصيل، فإنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم، ويحكمون لهم بالسلامة في الدين، وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أودع الناس بدنا وأهنؤهم عيشا، وآمنهم سربا، لأنهم

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٢٧٣

في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم، يرغب إليهم أهل الحاجات، وينزع إليهم ملتمسو البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم.

وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه، وقاربه بخدمته؛ فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة، قد لبسها الرعب، وألفها الذل، وصحبها ترقب الاحتياج؛ فهم مع هذا في تكدير وتنغيص، خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب، وتغيير الدول، واعتراض حلول المحن. فإن هي حلت بهم، وكثيرا ما تحل، فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الأعداء فضلا عن الأولياء.

فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله، وبين من قد نال الرفاهية والدعة، وسلم من البوائق، مع كثرة الإثراء وقضاء اللذات، من غير منة لأحد، ولا منة يعتد بها رئيس ومن هو من نعم المفضلين خلي، وبين من قد استرقه المعروف، واستعبده الطمع، ولزمه ثقل الصنيعة، وطوق عنقه الامتنان، واسترهن بتحمل الشكر.

فصل منها

وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤتمن على وحيه، من أهل بيت التجارة، وهي معولهم وعليها معتمدهم، وهي صناعة سلفهم، وسيرة خلفهم.

ولقد بلغتك بسالتهم، ووصفت لك جلادتهم، ونعتت لك أحلامهم، وتقرر لك سخاؤهم وضيافتهم، وبذلهم ومواساتهم. وبالتجارة كانوا يعرفون. ولذلك قالت كاهنة اليمن " لله در الديار لقريش التجار " .

وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشمي، وزهري وتيمي؛ لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشا فينتسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش، فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم، وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه، وخصهم به في محكم وحيه وتنزيله، فجعله قرآنا عربيا يتلى في المساجد، ويكتب في المصاحف، ويجهر به في الفرائض، وحظوة على الحبيب والخالص.

ولهم سوق عكاظ، وفيهم يقول أبو ذؤيب:

إذا ضربوا القباب على عكاظ ... وقام البيع واجتمع الألوف

وقد غبر النبي صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجرا، وشخص فيه مسافرا، وباع واشترى حاضرا، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولم يقسم الله مذهبا رضيا، ولا خلقا زكيا ولا عملا مرضيا إلا وحظه منه أوفر الحظوظ، وقسمه فيه أجزل الأقسام.

ولشهرة أمره في البيع والشراء قال المشركون: " ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق " ، فأوحى الله إليه: " وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق " . فأخبر أن الأنبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات.

فصل منه

وإن الذي دعا صاحبك إلى ذم التجارة توهمه بقلة تحصيله، أنها تنقص من العلم والأدب وتقتطع دونهما وتمنع منهما. فأي صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية، أو يأخذوا منه بنصيب، أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم؟ !." (١)

"وأن وزارات الخلافة دونكم ... كما جاءكم ذو العرش دون العشائر

فهلا وزيرا واحدا تجتبونه ... بغير وداد منكم وأواصر

سقى الله سعدا يوم ذاك ولا سقى ... عراجلة هابت صدور المنابر

وقال رجل من الأنصار، ودعاه علي رضوان الله عليه إلى عونه ونصرته، إما يوم الجمل، أو يوم صفين:

ما لي أقاتل عن قوم إذا قدروا ... عدنا عدوا وكنا قبل أنصارا

ويل لها أمة لو أن قائدها ... يتلو الكتاب ويخشى النار والعارا

أما قريش فلم نسمع بمثلهم ... غدرا وأعجب في الإسلام آثارا

إلا تكن عصبة خالوا نبيهم ... بالعرف عرفا وبالإنكار إنكارا

أبا عمارة والثاوي ببلقعة ... في يوم مؤتة لا ينفك طيارا

أبا عمارة: حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه، وقد كان يكنى أبا يعلى، والثاوي في يوم مؤتة: جعفر بن أبي طالب.

وقال رجل من الأنصار من ولد أبي زيد القارىء، وذكر أمر الأنصار وأمر قريش:

دعاها إلى استبدادها وحقودها ... تذكر قتلى في القليب تكبكبوا

هنالك قتلى لا تؤدى دياتهم ... وليس لباكيها سوى الصبر مذهب

فإن تغضب الأبناء من قبل من مضى ... فوالله ما جئنا قبيحا فتعتبوا

فصل منه

قد حكينا قول من خالفنا في وجوب الإمامة وتعظيم الخلافة، وفسرنا وجوه اختلافهم، واستقصينا جميع

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٢٨٧

حججهم، إذ كان على عذر لما غاب عنه خصمه، وقد تكفل بالإخبار عنه في ترك الحيطة له، والقيام بحجته. كما أنه لا عذر له في التقصير عن إفناد من يخالفه، وكشف خطاء من يضاده عند ما قرأ كتابه، وتفهم حجته. لأن أقل ما يزيل عذره، ويزيح علته، أن يكون قول خصمه قد استهدف لعقله، وأصحر للسانه، وقد مكنه من نفسه، وسلطه على إظهار عورته. فإذا استراح شغب المنازع، ومداراة المستمع لم يبق إلا أن يقوى على خلافه أو يعجز عنه.

ومن شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم: أن يحتمل ثقل مؤنتهم وتعريفهم، وأن يتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل من يسدي إليهم.

ولن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره.

وأعلم أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يقوى التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتنبعث **الحمية**. وعند المزاحمة تشتد الغلبة وشهوة المباهاة، والاستحياء من الرجوع، **والأنفة** من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين، وإذا كانت القلوب على هذه الصفة، وبهذه الحالة، امتنعت من المعرفة وعميت عن الدلالة.

وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة؛ لأن المتوحد بقراءتها، والمتفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله ولا يعاز خصمه.

والكتاب قد يفضل ويرجح على واضعه بأمور: منها: أن الكتاب يقرأ بكل مكان وفي كل زمان، على تفاوت الأعصار، وبعد ما بين الأمصار. وذلك أمر يستحيل في الواضع ولا يطمع فيه من المنازع. وقد يذهب العالم وتبقى كتبه، ويفنى ويبقى أثره.

ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلقت من عجيب حكمها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها المستغلق علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا في الحكمة، وانقطع سبيلنا إلى المعرفة.

ولو ألجئنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا، بما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، لقد قلت المعرفة وقصرت الهمة وضعفت المنة، فاعتقم الرأي ومات الخاطر، وتبلد العقل، واستبد بنا سوء العادة.

وأكثر من كتبهم نفعا، وأحسن مما تكلفوا موقعا، كتب الله تعالى، التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة.

فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا سبيل من قبلنا فينا. مع أنا قد وجدنا في العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن

من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا.

فما ينتظر الفقيه بفقهه والمحتج لدينه، والذاب عن مذهبه، ومواسي الناس في معرفته، وقد أمكن القول وأطرق السامع، ونجا من التقية، وهبت ريح العلماء.

فصل منه." (١)

"... وقد آثر عدد من الدارسين العرب معنى مماثلا لهذا، إذ يرى جواد علي أن

» الجاهلية من السفه والحمق **والأنفة** والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام «(١)، ويرى شوقي ضيف أن

» كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز، وما ينطوي فيها من سلوك خلقي كريم «(٢) .

... ويؤكد هذا المعنى عدد من المفسرين من قدامى ومحدثين، فالطبري في أثناء تفسيره لكلمة الجاهلية يرى أنها تدل على أهل الشرك يقول : » وأما قوله » ظن الجاهلية« فإنه يعني أهل الشرك « (٣)، ويؤكد هذا محمد الطاهر بن عاشور، فالجاهلية هي » المدة التي كان عليها العرب قبل الإسلام ... والجاهلية نسبة إلى الجاهل، لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع « ويؤكد في موطن آخر المعنى ذاته يقول : إن الجاهلية » نسبة إلى الجاهل الذي لا يعلم الدين والتوحيد، فإن العرب أطلقت الجهل على ما قابل الحلم، قال ابن الرومي :

بجهل كجهل السيف والسيف منتض

وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

وأطلقت لفظة الجهل على عدم العلم، قال السموأل :

... فليس سواء عالم وجهول

وقال النابغة :

... وليس جاهل شيء مثل من علما

وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن وصف به أهل الشرك تنفيرا من الجهل وترغيبا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم « (٤).

---

(١) الرسائل للجاحظ، ص/٢٩٥

(١) . جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ٤٠ .

(٢) . شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٩ .

(٣) . الطبري، تفسير الطبري، ٤/ ١٤٢ .

(٤) . نفسه، ٤/ ١٣٦ .." [١]

"... إن هذه الدلالات المتعددة لكلمة » الجاهلية « قد أربكت بعض الدارسين ودفعتهم إلى المقارنة بين هذه الدلالات وحال العرب قبل الإسلام، وأخذوا يترددون بين استخدام هذا المصطلح الذي يبدو عندهم مضللا، أو استخدام مصطلح آخر أقل لمعانا وبريقا وهو مصطلح » مرحلة ما قبل الإسلام « .

... إن مصطلح » مرحلة ما قبل الإسلام « الذي آثره بعض الباحثين، على الرغم من دعاوى التبرير التي يعرضونها فإنه لا يعنى إلا بتحديد البعد الزماني لمرحلتين إحداهما سابقة للإسلام وأخرى لاحقة للبعثة النبوية، ويعضد أصحاب هذا الرأي موقفهم في أن مصطلح الجاهلية مصطلح مضلل، ويصل وصفه إلى درجة المبالغة في أنه يرى في » هذه الفترة من حياة العرب إظلاما تاما في كل نواحي الحياة « (١)، ويتساءل باحث آخر في قوله : » إذا صح أن نطلق على هذا العصر لفظ الجاهلية من وجهة نظر دينية فهل يصح أن نعممه من وجهة نظر علمية«(٢)، ويؤكد أنه لا يستطيع أن ينفي عن هذا العصر» صفات السفه والحمق والأنفة والاستجابة السريعة للغضب وعدم الانقياد والتعصب القبلي والتسلط والتجبر والكبر عن مجتمع هذا العصر، لأن أدبه قد جاء معبرا عنها ومؤكدا لها « (٣)، ولكنه يرى » أن مصطلح الجاهلية قد لا يصلح من وجهة نظر علمية أن نطلقه على ما صدر عن هذا العصر من معارف وآداب « (٤)، ومع هذا فإن الباحث استخدم مصطلح الجاهلية في ثنايا كتابه على الرغم من عدم توافقه من وجهة علمية ،وذلك لإيمانه بعدم » جدوى تغييره بعد أن أصبح شائعا على ألسنة المشتغلين بالأدب وفي بطون كتب السلف والخلف « (٥) .

(١) . علي البطل، الصورة في الشعر العربي، ص ٣٣ .

(٢) . محمد عثمان علي، في أدب ماقبل الإسلام، ص ١٥ .

(٣) . نفسه، ص ١٨ .

---

(١) الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص/٢٤

(٤) . نفسه، ص ١٧ .

(٥) . نفسه، ص ١٨ .." [١]

"كما لم تغضب ابنة عمه عنيزة التي أذلها وأهانها، وأقسرها على ما لم تك إليه راغبة أمام صويحباتها، وربما أمام العبيد أيضا(مادام ذكر العبيد ورد في نص هذه الحكاية): فأين الشهامة العربية التي تتحلى بها سير الرجال، والتي تكتظ بها نصوص الشعر؟ وأين الشرف العربي الذي تحفل به مواقف الأبطال، في المجتمع الجاهلي؟ ألم تتفان بكر وتغلب، ابنا وائل، وهما أختان، من أجل جرح ضرع ناقة كانت للبسوس خالة جساس بن مرة الشيباني: على مدى أربعين سنة؟ وإذا اندلعت حرب طاحنة من أجل شرف ناقة امرأة كان جساس بن مرة أجارها، في رواية، وأنها خالته في رواية أخرى، ومن أجل شرف طائر كان أجاره كليب وائل(٢٧) أعز العرب: فما القول في شرف امرأة سيدة، بل في شرف سيدات عربيات كن يتنزهن فوقع اغتصابهن...؟

وكانوا يأنفون أشد **الأنفة** أن يزوجوا بناتهم لأي رجل شاع بينهم أنه وقع في غرام من يريد التزوج منها: خشية العار، وحرصا على السمع، ورغبة في حسن الصيت.

أم لم يقتل رباح بن الأسل الغنوي شأس بن زهير لمجرد أن حليلته نظرت إليه(ونلاحظ أن المرأة هي التي حانت منها التفاتة فشاهدت الرجل وهو يغتسل في عين، وبدون قصد منها هي... لا هو الذي كان ينظر إليها؛ ومع ذلك لم يرحمه بعلها، فرماه، وهو غافل في العين، بسهم كان فيه حتفه...) (٢٨)؟ وعلى أننا لا نريد استيعاب هذه المسألة، ولا استقراء البحث فيها، هنا، لأنها معروفة لدى الناس... فكيف إذن يجوز أن نصدق أن دارة جلجل حادثة تاريخية، وأن حكاية تعرية العذارى، ومعاقرتهن الخمر، ومغازلتهن في وضح النهار –وقد كن عقيلات كريمات– مما يجوز أن يحدث في حي من أحياء العرب؟." [٢]

"وإذا تجاوز الدارس صيغة (أنف) إلى صيغ أخر من الجذر المشترك، ومنها (الأنوف)؛ أي المرأة الطيبة ريح الأنف، يعجبك شمك لها، و(الأنف)؛ أي الأبي الكريم النفس، و(**الأنفة**)؛ أي الكبرياء وعزة النفس وإباء الضيم (١٢)، تبين له أن عنترة لم يختر لفظة (أنف) صفة للروضة اختيارا عبثيا عشوائيا، وأيقن أنه كان يعيش – لحظة الإبداع الشعري– في عالم الدلالات المتنوعة للجذر (أنف)، التي تصور عبلة (الحلم) بصفاتها التي ذكرت آنفا؛ من طيب رائحة، وعفة ونقاء، وعزة نفس، وكبرياء، وتأب، وتمام، وكمال.

---

(١) الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص/٢٥

(٢) السبع المعلقات [مقاربة سيمائية/ أنتروبولوجية لنصوصها]– دراسة –، ص/١٧٠

ولا يغيب عن مدقق أن هذا الجذر اللغوي الذي يلد (**الأنفة**) كان يحيا في داخل عنترة الفارس الشجاع الأبي، وأن صفة (أنف) التي أضفاها على الروضة – عبلة – استلها من مكنونات النفس، والسيرة الذاتية، وانتقاها من معجمه اللغوي الخاص؛ ولعل خلو صور الروضة من هذه اللفظة، لدى غيره من الشعراء، دليل على ذلك.

الغيث القليل اللبث (غيث قليل الدمن) الذي أصاب الروضة جلا ما ظهر فيها من نبات وعشب، وداعبه مداعبة لطيفة، كي يفوح بما في الثنايا من الروائح الزكية العطرة، ولامس الأرض ملامسة خفيفة عابرة لتبث ما تختزنه من رائحة منعشة، وما تحبسه من أنفاس شهية. وغيث عنترة المداعب، الملامس، المهيج هذا – فيما يبدو – يثير في الروضة رغبة قوية في معانقة السماء، واحتضان الماء، ويهيئ لفعل الإخصاب.." (١)

"ط. هذا قول الأصمعي، وقال قوم: أي يركبون فتقرع أسواقهم بعضها بعضا.

وقيل: الظنبوب مسمار، يكون في جبة السنان، حيث يركب الرمح. " وقال " الخليل: قرع لذلك الأمر ظنبوبه: إذا أتاه من جهته. وكانوا يقرعون ظنابيب الإبل، لتبرك، فتركب، وأنشد ابن الأعرابي: " الطويل "

قرعت ظنابيب الهوى يوم عالج ... ويم اللوى حتى قسرت الهوى قسرا

أي أذللته كما يقرع ظنبوب البعير، ليركب. وقال الليث: أراد أن تقرع ظنابيب الخيل بالسياط، ركضا البالعدو. وأما المسمار فهو الكلب، وبعد هذا البيت " البسيط "

وشد كور على وجناء ناوية ... وشد سرج على جرداء سرحوب

وعلى قوله " ٣،١٩ " قرع لذلك الأمر ظنبوبه.

ش: كون الهاء في طنبوبه عائدة على الأمر جائز على الاستعارة من الظليم يقرع طنبوبه فيكون ذلك غالبا له، يملكه به فاعله، ولا يمتنع منه، ولا يفلته.، فكذلك الأمر، إذا أتاه الإنسان من بابه، وحاوله على وجهه، فقد ملكه زضبطه بجهوده كملك قارع طنبوب الظليم إياه، وقهره له، هذا وجه حسن. وقال أبو عبيدة: الظنبوب من الفرس مقدم الزظيف ومن الإنسان حرف عظم الساق.

ط: قبل بيت الكلحبة " الطويل " .

إن تنج منها يا حزيم بن طارق ... فقد تركت ما خلف ظهرك بلقعا

---

(١) الروضة الغزلية في قصائد قديمة ـ مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٧) العدد (١) ٢٠٠٥، ص/١٢

ونادى منادي الحي أن قد أتيتم ... وقد شربت ماء المزادة أجمعا

وقال غير أبي العباس: كاس بنته. وقال النحاس هي أخته، وكانت العربتؤثر الخيل، ولا تولي أمرها إلا لأهلها. والكلحبة ضوء السراج.

ش:وقول أبي الحسن " من بني عرين يربوع " على أن يربوعا من نبي عرين، لجده، خطأ إذا ليس عرين، ابن يربوع ولكنه ابن ابنه، وهو عرين بن ثعلبة بن يربوع.

وعلى قوله " ٤،١٢١ " لعمري لقد لاقت سليم وعامر... البيت

ط: الأخطل اسمه غياث بن غوث. يكنى أبا مال، والثرثار واد بين دجلة والفرات ورغية مصدر جاء على فاعل كقولهمهو في علفة وفلج فالج.

وهذا اليوم كان لتغلب على قيس، قتلوا فيه عمير بن الحباب السلمى. " وقيل الثرثار " نهر على الحس يقول: نابهم قوم صالح، حين رغا فيهم سقب الناقة إذا عقر فهلكوا.

وعلة قوله " ٤،١٢٢ " رغا فيهم... البيت

ط: العلقمة الحنظلة وبها سمى علقمة. والعبدة بفتح الباء صلاءة الطيب،وبها سمى أبوه. قاله أبو علي في " البارع " وقال المطرز مثله. والعبدة: جودة الثوب، وصفاقته، والعبدة **الأنفة** أيضا، وبها سمى الرجل كل ذلك مفتوح الباء. وقال أبو علىالقالي: كان بعض العلماء يرويه: فداحض بالضاد معجمة، وهذا الحرف أحدما " نسب فيه " إلى التصحيف، وقال غيره: الداحض: الزالق والداحص: الفاحص برجله عند الموت. والذبح.

وعلى قوله عليه السلام " ٤،١٢٢ " " المتفيهقون "

ط: جاء " ٣الف " في بعض " الروايات قالوا يا " رسول الله قد عرفنا الثرثارين والمتشدقين " فمن المتفيهقون " قال المتكبرون.

وعلى قول الأعشى " ١٤،١٤٢ " :

نفى الذم عن رهط المحلق " جفنة كدابية الشيخ العراقي تفهق " .

ط: المحلق، اسمه عبد العزيز بن حثيم، وقيل: إنما قيل له المحلق، لأن فرسا كدمه في وجهه، فبقي أثر ذلك كالحلقة فيه. وقال الموصلي: أصابه داء فاكتوى في حلقه. وكان الأحمر يقول: الشيخ تصحيف، وإنما هو السيح، بالسين، والحاء غير معجمتين، وهو الماء الجاري على وجه الأرض، يذهب ويجئ والجابية: الحوض، وجمعه الجوابي، و كل ما " يحبس " فيه الماء فهو جابية. وقيل أراد بالشيخ العراقي

كسى. وحكله أبو عبيدة في كلام ذكره عن الأصمعي في شرح الحديث، وخص بالشيخ على تأويل أبي العباس، لأنه قد جرب الأمور، وقاسى الخير، والشر، فهو يأخذ بالحزم في أحواله.

وعلى قول أبي الحسن " ٥،١٢٤ " هي أم الهيثم الكلابية.

ش: اسمها غنية سماها، وروى عنها أبو حاتم.

ط: أم الهيثم هذه هي رواية أهل الكوفة.

وعلى قول ذي الرمة " ٥،١٢٤ " لها ذنب... البيت.

ط: يصف ناقة، وقبله " الطويل " :

إذا ارفض أطراف السياط وهللت ... جروم المطايا عارضتهن صيدح

ومن نون جعل الفه للإلحاق، ومن لم ينونه جعل ألفه للتأنيث.

وعلى قوله " ٥،١٥٥ " الصوف الأذري.." [1]

"قبضت منيته يديه وعنقه ... فكأنما صادفته مغلولا

سمع ابن عمته به وبحاله ... فنجا يهرول منك أمس مهولا

وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا

تلف الذي اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

والذي يشهد به الحق، أن معاني أبي الطيب أكثر عددا، وأسد مقصدا، ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح. في تشبيهه بالأسد مرة، وتفضيله عليه أخرى، ولم يأت بشيء سوى ذلك؛ وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد: فوصف صورته، وهيئته، ووصف أحواله، في انفراده في خيلائه، وفي هيئة مشيه. واختياله مع شجاعته، وشبه الممدوح به في الشجاعة، وفضله عليه بالسخاء،ثم ذكر **الأنفة**، **والحمية** التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مخرج، وأبرزه في أحسن مخرج، وأبرزه في أحسن معنى، ولفطانة أبي الطيب لم يتعرض لما ذكر بشر في أبياته التي ذكرناها، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني، واستحوذ عليها، ولم يترك لغيره شيئا يقوله، ولم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر، لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا، ولما كان الأمر كذلك، عدل أبو الطيب عن سلوك

---

(١) القرط على الكامل، ص/٦٩

تلك الطريقة، وسلك غيرها، فجاء فيما أورده مبرزا، فإن بشرا قال:

إذا لرأيت ليثا أم ليثا ... هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

مشى ومشيت من أسدين راما ... مراما كان إذ طلباه وعرا

وقال البحتري:

فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكا إذا الهيابه النكس كذبا

هزبر مشى يبغي هزبرا وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

وقال بشر:

وقلت له وقد أبدى نصالا ... محددة ووجها مكفهرا

يدل بمخلب وبحد ناب ... وباللحظات تحسبہن جمرا

وقال البحتري:

غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد نابا للقاء ومخلبا

ومما توارد عليه أبو الطيب وأبو عبادة البحتري وصف السيف: قال أبو الطيب:

كفرندي فرند سيفي الجزار ... لذة العين عدة للبزار

تحسي الماء خط في لهب النا ... ر أدق الخطوط في الأحراز

كلما رمت لونه منع النا ... ظر موج كأنه منك هازي

ودقيق قدى الهباء أنيق ... متوال في مستو هزهاز

ورد الماء فالجوانب قدرا ... شربت والتي تليها جوازي

حملته حمائل الدهر حتى ... هي محتاجة إلى خراز

وهو لا تلحق الدماء غراري ... ه ولا عرض منتضيه المخازي

يا مزيل الظلام عني وروضي ... يوم شربي ومعقلي في البراز

واليماني الذي لو اسطعت كانت ... مقلتي غمده من الإعزاز

لإن برقي إذا برقت فعالي ... وصليلي إذا صللت ارتجازي

لم أحملك معلما ہكذا إلام ... لضرب الرقاب والأجواز

ولقطعي بك الحديد عليها ... فكلانا لجنسه اليوم غازي

سله الركض بعد وهن بنجد ... فتصدى للغيث أهل الحجاز

وتمنيت مثله فكأني ... طالب لابن صالح من يوازي

ومن قصيدته الأسدية:

وكأن برقا في متون غمامة ... هندية في كفه مسلولا

ومحل قائمه يسيل مواهبا ... لو كن سيلا ما وجدن مسيلا

رقت مضاربه فهن كأنما ... يبدين من عشق الرقاب نحولا

ومن قصيدته النوروزية:

قلدتني يمينه بحسام ... أعقبت منه واحدا أجداده

كلما استل ضاحكته إياه ... تزعم الشمس أنها أرآده

مثلوه في جفنه خشية الفق ... د ففي مثل أثره إغماده

منعل لا من الحفا ذهبا يح ... مل بحرا فرنده إزهاده

يقسم الفارس المدجج لا ... نسلم من شفرتيه إلا بداده

جمع الدهر حده ويديه ... وثنائي فاستجمعت آحاده

وتقلدت شامة في ندَاه ... جلدها منفساته وعتاده." (١)

"وجرح اللسان كجرح اليد. ومع ذلك كله فلا ينبغي للشاعر أن يكون شرسا، ولا حرجا عريضا؛ لما يدل به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته.

فهذا الفرزدق كان شاعر زمانه ورئيس قومه، لم يكن في جيله أطرف منه نادرة، ولا أغرب مدحا، ولا أسرع جوابا: اجتاز بنسوة وهو على بغلة فهمزها فحبقت، فتضاحكن، وكان عريضا، فقال: ما يضحككن وما حملتني أنثى قط إلا فعلت مثل هذا؟ قالت إحداهن: فما صنعت التي حملتك تسعة أشهر؟ فانصرف خجلا.

ومر به رجل فيه لين، فقال له: من أين أقبلت عمتنا؟ فقال: نفاها الأغر بن عبد العزيز، فكأن الفرزدق صب عليه الماء؛ لأنه عرض له بقول جرير فيه حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة:

نفاك الأغر بن عبد العزيز ... وحقك تنفى من المسجد

وكان الفرزدق مرة ينشد، والكميت صبي، فأجاد الاستماع إليه، فقال له: يا بني أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبي فلا أرى به بدلا، ولكن يسرني أنك أمي، فأفحمه حتى غص بريقه، وزعم قوم أن هذه الحكاية إنما

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ص/٩٥

وقعت مع كثير.

ومر يوما بمضرس الفقعسي، وهو غلام حديث السن، ينشد الناس شعره فحسده على ما سمعه منه، فقال له بعد كلام طويل فيه تعريض وتصريح: أدخلت أمك البصرة؟ وفهم عنه مضرس ما أراد، فقال: كلا ولكن أبي! ورجع إلى إنشاده فاستحيا الفرزدق، حكى ذلك شيخنا أبو عبد الله، وإنما أراد الفرزدق أنها إن دخلت البصرة فقد وقعت عليها فأنت ابني، قال مضرس: بل أبي وقع على أمك.

ومثل هذا بعينه عرض للفرزدق مع الحطيئة؛ فإن الحطيئة قال له وقد سمعه ينشد شعرا أعجبه: أنجدت أمك؟ قال: بل أنجد أبي!! ونظم ذلك جرير، ونعاه عليه، وادعى أنه صحيح فقال:

كان الحطيئة جار أمك مرة ... والله يعلم شأن ذاك الجار

من ثم أنت إلى الزناء بعلة ... بأشر شيخ في جميع نزار

لا تفخرن بغالب ومحمد ... وافخر بعبس كل يوم فخار

وكان يزعم أن الحطيئة جاور لينة بنت قرطة فأعجبته فراودها فوقع عليها وزوجها أخوها العلاء غالبا أبا الفرزدق وقد تبين حملها فولدت الفرزدق على فراشه.

واحتذى هذا الحذو سواء أبو السمط مروان الأصغر بن أبي الجنوب بن مروان أبي حفصة فقال يهجو علي بن الجهم بن بدر:

لعمرك ما الجهم بن بدر بشاعر ... وهذا علي بعده يصنع الشعرا

ولكن أبي قد كان جارا لأمه ... فلما تعاطى الشعر أوهمني أمرا

والشاعر أولى من كف منطقه، وأقال عثرات اللسان؛ لما رزق من القدرة على الكلام، والعفو من القادر أحسن، وبه أليق " ولمن انتصر بعد ظلمه فاؤلئك ما عليهم من سبيل؛ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " .

باب التكسب بالشعر والأنفة منه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنهاكم عن قيل وقال، وعن كثرة السؤال، وإضاعة المال، وعقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات " .

وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بني تيم رهط المعلى:

أقر حشا امرئ القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء، لقتله بني أبيه الذين قتل بدير مرينا، فقيل لبني تيم " مصابيح الظلام " من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس. وقال أيضا لسعد بن الضباب:

سأجزيك الذي دافعت عني ... وما يجزيك عني غير شكري

فأخبره أن شكره هو الغاية في مجازاته كما قدمت.

حتى نشأ النابغة الذبياني؛ فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيما، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك.

وتكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر يسيرا مع هرم بن سنان.." (١)

"فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان، وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب، واقتداء بهم فيه، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له، بل استهجنه واستخف به، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب.

وأكثر العلماء يقولون: إنه أول من سأل بشعره، وقد علمنا أن النابغة أسن منه وأقدم شعرا، وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع ما فيه من قبح: من مجاعلة الحاجب، ودس الندماء على ذكره بين يديه، وما أشبه ذلك.

وذكر أن أبا عمرو بن العلاء سئل: لم خضع النابغة للنعمان؟ فقال: رغب في عطائه وعصافيره.

وأما زهير فما بلغه الطائي قط معرفة باجتداء من يمدحه، ويدلك على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنة زهير حين سألها: ما فعلت حلل هرم بن سنان التي كساها أباك؟ قالت: أبلاها الدهر، قال: لكن ما كساه أبوك هرما لم يبله الدهر، وقال عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم بن سنان: أنشدني ما قال فيكم زهير، فأنشده، فقال: لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل، قال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر، وانحطاط الهمة فيه، والإلحاف، حتى مقت وذل أهله وهلم جرا، إلى أن حرم السائل وعدم المسئول.

إلا بقايا من أناس بهم ... إلى سبيل المكرمات يهتدى

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص/٢٢

كالسيد أبي الحسن أحسن الله إلى الدنيا ببقائه. وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم **الأنفة** من السؤال بالشعر، وقلة التعرض به لما في أيدي الناس، إلا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة كالفلتة النادرة والمهمة العظيمة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته. ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها كعادته عند هبوب الصبا، وقد أسن وأقل، وكان يطعم الناس ما هبت الصبا، قال لابنته: اشكري هذا الرجل فإني لا أجد نفسي تجيبني، ولقد أراني لا أعيا بجواب شاعر، فقالت هذه الأبيات:

إذا هبت رياح أبي عقيل ... دعونا عند هبتها الوليدا

أغر الوجه أبيض عبشميا ... أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا ... عليها من بني حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا ... نحرناها وأطعمنا الثريدا

فعد إن الكريم له معاد ... وظني بابن أروى أن يعودا

وعرضتها عليه فقال: لقد أجدت لولا أنك استعدت، كراهية في قولها:

فعد إن الكريم له معاد ويروى: لولا أنك استزدت.

وقالوا: كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب؛ لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر، وشدة العارضة، وحماية العشيرة، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل؛ فلا يقدم عليهم خوفا من شاعرهم على نفسه وقبيلته، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلة، إلا من وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها، حتى قبض تقي العرض مصون الوجه، ما لم يكن به اضطرار تحل به الميتة، فأما من وجد البلغة والكفاف فلا وجه لسؤاله بالشعر.

فقد حكى عن ابن ميادة أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها:

فوجدت حين لقيت أيمن طائر ... ووليت حين وليت بالإصلاح

وعفوت عن كسر الجناح ولم يكن ... لتطير ناهضة بغير جناح

قوم إذا جلب الثناء إليهم ... بيع الثناء هناك بالأرباح

وأتاه راعي إبله بلبن فشرب ثم مسح على بطنه وقد عزم على الرحلة فقال: سبحان الله أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني؟!! وصرف وجهه عن قصده، فلم يفد عليه، هذا على أنه ساقة الشعراء، فأنت

ترى كبر نفسه، وبعد همته.
على أن عبد الله بن عمر على جلالته، والحسن البصري، وعكرمة، ومالك بن أنس المدني وجملة من أهل العلم غير هؤلاء، كانوا يقبلون صلات الملوك.
وقد سئل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن مال السلطان، فقال: لحم طير زكي.." (١)
"ولأنت أشجع حين تتجه ال ... أبطال من ليث أبي أجر
وأما النابغة فقال من يحتج له: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، ومدحا، وهجاء، وفخرا، وصفة.
وقال بعض متقدمي العلماء: الأعشى أشعر الأربعة، قيل له: فأين الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء؟ فقال: بهذا الخبر صح للأعشى ما قلت، وذلك أنه ما من حامل لواء إلا على رأس أمير، فامرؤ القيس حامل اللواء، والأعشى الأمير.
وقالت طائفة من المتعقبين: الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز. وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر.
وطائفة أخرى تقول: بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نواس. وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف.
وقال قوم: بل الثلاثة مهلهل وابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف، وهذا قول من يؤثر **الأنفة**، وسهوله الكلام، والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس. لكن أبا العتاهية تصرف.
وليس في المولدين أشهر اسما من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحتري ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين وامرئ القيس في القدماء؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.
والاشتهار بالشعر أقسام وحدود، ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد الخبزرزي أشهر من منصور النمري وكلثوم العتابي وأبي يعقوب الخريمي وأبي سعيد المخزومي.
وفوق هؤلاء كلهم طبقة في السن أشهرهم وأشعرهم بشار بن برد، وليس يفضل على الحسن مولد سواه،

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص/٢٣

وكذا روى الجاحظ وغيره من العلماء... ومن طبقة بشار مروان بن أبي حفصة، وأبو دلامة زند بن الجون الأعرابي، وقيل: زبد، بالباء معجمة بواحدة ساكنة ومتحركة حكاه المرزباني، والسيد الحميري، وسلم الخاسر، وأبو العتاهية، وجماعة يطول بهم الشرح ليس فيهم مثله.

ومن طبقة أبي نواس العباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد صريع الغواني، والفضل الرقاشي، وأبان اللاحقي، وأبو الشيص، والحسين بن الضحاك الخليع، ودعبل، ونظراء هؤلاء ساقتهم دعبل ليس فيهم نظير أبي نواس.

وأما طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي فطبقة متداركة قد تلاحقوا، وغطوا على من سواهم، حتى نسي معهم بقية من أدرك أبا نواس كابن المعذل، وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين، غمره حبيب ذكرا واشتهارا، وكأبي عفان أيضا، أدرك أبا نواس، ولحق البحتري فستره، وكذلك الجماز، وللجماز يقول أبو نواس:

اسقني يا بن أذين ... من سلاف الزرجون

وديك الجن، وهو شاعر الشام، لم يذكر مع أبي تمام إلا مجازا، وهو أقدم منه، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلة من شعره يحتذى عليها فسرقها، ودعبل ما أصاب مع أبي تمام طريقا على تقدمه في السن والشهرة، ولم يذكر من أصحاب ابن الرومي وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما في مكاتبة أو مناقضة، وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه، وكان الصنوبري والخبزرزي مقدمين عليه للسن، ثم سقطا عنه، على أن الصنوبري يسمى حبيبا الأصغر لجودة شعره، ولقيه مرة بالمصيصة أو غيرها فقال له يهزأ به: أنت صاحب بغادين؟ يريد قصيدته:

شربنا في بغادين ... على تلك الميادين

لما فيها من المجون والخلاعة، فقال له الصنوبري: أنت صاحب الطرطبة؟ يريد قصيدته:

ما أنصف القوم ضبه ... وأمه الطرطبه

لما فيها من الركاكة، ولكل كلام وجه وتأويل، ومن التمس عيبا وجده، وقيل: بل قال له: أنت صاحب جاخا؟ قال: نعم، قال: أنت شاعر بلدك، يريد قوله في صفة الوعل:

ذاك أم أعصم كأن مدرياه ... حين عاجا على القذالين جاخا

باب المقلين من الشعراء والمغلبين." (١)

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص/٣٠

"ومثل هذا وإن لم يكن من هذا الباب بحتا قول الفرزدق لعمر بن لجأ لما أعانه الفرزدق على جرير بشعر، وفطن له جرير، فدهش عمر ولم يجد جوابا، فقال الفرزدق حين بلغه ذلك يستضعفه ويستوهن عز

وما أنت إن قرما تميم تساميا ... أخا التيم إلا كالوشيظة في العظم

فلو كنت مولى العز أوفى طلابه ... ظلمت ولكن لا بدى لك بالظلم

والفرزدق قال فيه الطرماح من شعر هجا فيه بيوت بني سعد:

واسأل فقيرة بالمروت هل شهدت ... شوط الحطيئة بين الكسر والنضد

أو كان في غالب شعر فيشبهه ... شعر ابنه فينال الشعر من صدد

جاءت به نطفة من شر ماء صرى ... سيقت إلى شر واد شق في بلد

فقال الفرزدق يتهاون بأمره ويستحقره:

إن الطرماح يهجوني لأرفعه ... أيهات أيهات عيلت دونه القضب

" عيلت دونه القضب أي: رفعت عنه القصائد، من قولهم: عالت الفريضة، أي: ارتفعت، والقضيب: القصيدة لأنها تقتضب.

وجرير هجاه بشار بن برد بأشعار كثيرة فلم يجبه، قال بشار: ولم أهجه لأغلبه، ولكن ليجيبني فأكون من طبقته، ولو هجاني لكنت أشعر الناس.

وهجا حماد عجرد بشارا، فلم يجبه أنفة واحتقارا، إلى أن قال فيه:

له مقلة عمياء واست بصيرة ... إلى الأير من تحت الثياب تشير

على وده أن الحمير تنيكه ... وأن جميع العالمين حمير

فغضب وهجاه. قال الجاحظ: ما كان ينبغي لبشار أن يضاد حماد عجرد من جهة الشعر؛ لأن حمادا في الحضيض وبشارا في العيوق، وليس مولد قروي يعدله شعر في المحدث إلا وبشار أشعر منه، ولا نعلم مولدا بعد بشار أشعر من أبي نواس.

وهجا ابن الرومي البحتري، وابن الرومي من علمت، فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم، وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه، ولكن رقة عليه، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط:

شاعر لا أهابه ... نبحتني كلابه

إن من لا أعزه ... لعزيز جوابه

وأبو تمام: هجاه دعبل وغيره من الأكفاء فجاوبهم، وابتدأ بعضهم، ولم يلتفت إلى مخلد بن بكار الموصلي

حين قال فيه وكانت في حبيب حبسة شديدة إذا تكلم:

يا نبي الله في الشع ... ر ويا عيسى بن مريم

أنت من أشعر خلق ... الله ما لم تتكلم

وقال فيه أشعارا كثيرة منها:

انظر إليه وإلى خبثه ... كيف تطايا وهو منشور

ويحك من دلاك في نسبة ... قلبك منها الدهر مذعور

إن ذكرت طاء على فرسخ ... أظلم في ناظرك النور

بل رآه دون المهاجاة والجواب، ولو هجاه لشرفت حاله ونبه ذكره.

وكذلك فعل المتنبي حين بلي بحماقات ابن حجاج البغدادي: سكت عنه اطراحا واحتقارا، ولو أجابه لما كان بحيث هو من **الأنفة** والكبر؛ لأنه ليس من أنداده، ولا من طبقته.

ولما وصل أبو القاسم بن هانئ إلى أفريقية هجاه الشعراء، فقال: لا أجيب منهم أحدا إلا أن يهجوني علي التونسي فإني أجيبه، فلما بلغ قوله عليا قال: أما إني لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرفني على أصحابي وجعلني من بينهم كفئا له.

ومن الشعراء من يتزيا بالكبر، ويظهر **الأنفة** في الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوفا من الزراية على نفسه، كما وقع من جماعة أعرفهم من أهل عصرنا، وهو يتسرعون إلى أعراض السوقة والباعة، ويستفحلون على الصبيان ومن ليس من أهل الصناعة، ولو كانت لهم أنفة كما يزعمون إلا عن الأكفاء لكانوا عمن لا يحسن شيئا بالجملة ولا يعد في الخاصة أشد تنزها.

ومنهم من لا يهجو كفئا ولا غيره؛ لما في الهجو من سوء الأثر، وقبح السمعة: كالذي يحكى عن العجاج أنه قيل له: لم لا تهجو؟ فقال: ولم أهجو؟ إن لنا أحسابا تمنعنا من أن نظلم، وأحلاما تمنعنا من أن نظلم، وهل رأيتم بانيا لا يحسن أن يهدم؟ ثم قال: أتعلمون أني أحسن أن أمدح؟ قالوا: نعم، قال:." (١)

"ولي عدة تمضي العصور وإنها ... كعهدك من أيام مصر لحائل

سنون قطعناهن عشرا كأن ما ... قطعنا لقرب العهد منها مراحل

وإن جزيلات الصنائع لامرئ ... إذا ما لليالي ناكرته معاقل

وإن المعالي يسترم بناؤها ... سريعا، كما قد تسترم المنازل

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص/٣٣

ولو حاردت شوال عذرت لقاحها ... ولكن حرمت الدر والضرع حافل

منحتكها تشفي الجوى وهو لاعج ... وتبعث أشجان الفتى وهو ذاهل

ترد قوافيها إذا هي أرسلت ... هوامل مجد القوم وهي هوامل

وكيف إذا حليتها بحليها ... تكون وهذا حسنها وهي عاطل؟؟!

أكابرنا، عطفا علينا؛ فإننا ... بنا ظمأ برح وأنتم مناهل

وقال ابن الرومي لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل يعاتبه في قصيدة جيدة مختارة:

عقيل الندى، أطلق مدائح جمة ... خواصي حسرى قد أبت أن تسرحا

وكنت متى تنشد مديحا ظلمته ... يكن لك أهجى كلما كان أمدحا

عذرتك لو كانت سماء تقشعت ... سحائبها أو كان روض تصوحا

ولكنها سقيا حرمت رويها ... وعارضها ملق كلاكل جنحا

وأكلأ معروف حميت مريعها ... وقد عاد منها الحزن والسهل مسرحا

فيا لك بحرا لم أجد فيه مشربا ... وإن كان غيري واجدا فيه مسبحا

مديحي عصا موسى، وذاك لأنني ... ضربت به بحر الندى فتضحضحا

فيا ليت شعري إن ضربت به الصفا ... أيحدث لي فيه جداول سيحا

كتلك التي أبدت ثرى البحر يابسا ... وشقت عيونا في الحجارة سفحا

سأمدح بعض الباخلين لعله ... إذا اطرد المقياس أن يتسمحا

فهذا هو الذي لا يبلغ جودة، ولا يجاري سبقا، على أن البحتري قد تقدم إلى بعض المعنى في قوله للفتح بن خاقان:

غمام خطاني صوبه وهو مسبل ... وبحر عداني فيضه وهو مفعم

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا ... وموضع رحلي منه أسود مظلم

وما بخل الفتح بن خاقان بالندى ... ولكنها الأقدار تعطي وتحرم

وأما أبو الطيب المتنبي فكان في طبعه غلظة، وفي عتابه شدة، وكان كثير التحامل، ظاهر الكبر **والأنفة**، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الناس جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي ... حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

فهذا الكلام في ذاته في نهاية الجودة، غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية في القبح والرداءة، وإنما عرض بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ويعارضونه في أشعاره، والإشارة كلها إلى سيف الدولة، ثم قال بعد أبيات:

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم

إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم؟!

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذي عند صواعقه ... يزيلهن إلى من عنده الديم

أرى النوى يقتضيني كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم." (١)

"وقال هشام الرقاشي : أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام قدمت قبلي رجالا ما يكون لهم في الحق أن يلجوا الأبواب قدامى لو عد قوم وقوم كنت أقربهم قربى وأبعدهم من منزل الذام حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت بباب قصرك أدلوها بأقوام قيل لمعاوية : إن آذنك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس .

قال : وما عليه إن المعرفة لتنفع في الكلب العقور والسبع الهصور والجمل الصؤول فكيف في رجل حسيب ذي كرم ودين وقالت الحكماء : لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحمل الأذى ويكظم وقالوا : من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له .

وقال الشاعر : كم من فتى قصرت في الرزق خطوته أصبته بسهام الرزق قد فلجا إن الأمور إذا انسدت

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص/١٦٦

مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا لا تيأسن – وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر – أن ترى فرجا أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفا في الشمس عند باب المنصور فقال له : قد طال وقوفك في الشمس فقال : ليطول وقوفي في الظل .

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان فقال له : أمثلك يرضى بهذا فقال : أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ولا يكرم النفس الذي لا يهينها وفي كتاب للهند : إن السلطان لا يقرب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبعدهم ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم فيقرب البعيد لنفعه ويبعد القريب لضره وشبهوا ذلك بالجرذ الذي هو في البيت مجاور فمن أجل ضره نفي والبازي الذي هو وحشي فمن أجعل نفعه اقتني .

استأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال : أألج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان وقل له يقول : السلام عليكم أأدخل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع .." [(١)]

"ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثر أصحابه .

فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه وأعطاهم موثقا لا يغزوهم أبدا ونصب لهم حجرا جعله حدا بينه وبينهم وحلف لهم أن لا يجاوزه هو ولا جنوده وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته .

فمنوا عليه وأطلقوه ومن معه .

فلما عاد إلى مملكته أخذته **الأنفة** مما أصابه فعاد إلى غزوهم ناكثا لعهده غادرا بذمته إلا أنه لطف في ذلك بحيلة ظنها مجزية في أيمانه فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فيل في مقدمة عسكره وتأول في ذلك أنه لا يجاوزه .

فلما صار إليهم ناشدوه الله وذكروه الأيمان به وما جعل على نفسه من عهده وذمته .

فأبى إلا لجاجا ونكثا .

فواقعوه فضفروا به فقتلوه وقتلوا حماته واستباحوا عسكره .

أسامة بن زيد الليثي : قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى ويقول : الحرب خدعة .

زياد عن مالك بن أنس : كان مالك عبد الله الخثعمي وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل

---

(١) العقد الفريد، ص/٤٠

فيحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يقول : إني دارب بالغداة إن شاء الله تعالى درب كذا .

فتتفرق الجواسيس عنه بذلك .

فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقا أخرى .

فكانت الروم تسميه الثعلب .

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح : إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال : اغزوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا .

فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك .." (١)

"وإذا أضمر الوالي لما فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفردا والشر مجردا ليس معهما طمع يكسرهم ولا لين يثنيهم امتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين : إما أن تدخلهم **الحمية** من الشدة **والأنفة** من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف الاستبسال في القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة وقال : في قول الفضل أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان وأبين خبر بان قد اجتمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل .

قال المهدي : ذلك رأى .

قال هارون : خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدي : لقد قلت قولا بديعا خالفت به أهل بيتك جميعا والمرء متهم بما قال وظنين بما ادعى حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدي إن الحرب خدعة والأعاجم قوم مكرة وربما اعتدلت الحال بهم واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افترقت الحالان وخالف القلب اللسان فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخوله لا تعلن .

---

(١) العقد الفريد، ص/٧٠

والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء .." (١)

"ولكن من لأعنه الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة قال الصالح : لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك وتستودعه جندك ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة .

وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة مخبور التجارب محمود العواقب معصوم العزم فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله منه ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدي : إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه .

ولكن أحب الموافقة على الرأي والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهل خراسان أيها المهدي قوم ذو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع **الحمية** فيهم نابتة وملابس **الأنفة** عليهم ظاهرة .

فالروية عنهم عازبة والعجلة فيهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا بالشدة ولا يفطمون إلا بالقهر .

وإن ولى المهدي عليهم وضيعا لم تنقد له العظماء وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء .

وإن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحا يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا عصبية تنفرهم تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر كبير .." (٢)

"وإذا أضمر الوالي لما فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفردا والشر مجردا ليس معهما طمع يكسرهم ولا لين يثنيهم امتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين : إما أن تدخلهم **الحمية** من الشدة **والأنفة** من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف الاستبسال في

---

(١) العقد الفريد، ص/١٠٩

(٢) العقد الفريد، ص/١١١

القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة وقال : في قول الفضل أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان وأبين خبر بان قد اجتمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل .

قال المهدي : ذلك رأى .

قال هارون : خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدي : لقد قلت قولا بديعا خالفت به أهل بيتك جميعا والمرء متهم بما قال وظنين بما ادعى حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدي إن الحرب خدعة والأعاجم قوم مكرة وربما اعتدلت الحال بهم واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افترقت الحالان وخالف القلب اللسان فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخوله لا تعلن .

والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء .." (١)

"ولكن من لأعنه الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة قال الصالح : لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك وتستودعه جندك ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة .

وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة مخبور التجارب محمود العواقب معصوم العزم فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله منه ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدي : إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه .

ولكن أحب الموافقة على الرأي والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهل خراسان أيها المهدي قوم ذو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع **الحمية** فيهم

---

(١) العقد الفريد، ص/١٤٣

نابتة وملابس الأنفة عليهم ظاهرة .

فالروية عنهم عازبة والعجلة فيهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا بالشدة ولا يفطمون إلا بالقهر .

وإن ولى المهدي عليهم وضيعا لم تنقد له العظماء وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء .

وإن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحا يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا عصبية تنفرهم تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر كبير .." (١)

"أبيات أبو ذؤيب تفيض ألما ورقة، واستفهامه وتوجعه يثيران تعاطفا معه واستسلاما للألم العميق الذي لا دفع له، والدهر ليس براجع عما تكره لما تحب.

إن مشاعر الألم الدفين لدى الشاعر انعكست على ألفاظه، حتى لنسمع كل نأمة في هيكل الشاعر الدامي، ونكاد نسمع نبضات قلبه، بيد أنه يحاول أن يخفي الفجيعة بما أسبغه من حكمة يرتفع فيها من التوجع العلني إلى صوت التأسي الشفيف في وقار الحكماء، فهو في صراع، وينبثق في أعماقه صوتان، صوت الألم، وصوت الوقار والحكمة.

صوت الحكمة يجد طريقه إلى الخارج في نصيحة اتجهت في مسارب الحكمة، يفعمها صوت الاستفهام الممتزج بالتوجع، والعتاب، والبكاء، وكلها أصوات تعبر عن الفجيعة لا تدفع قدرا، ولا تعيد الذين رحلوا إلى العالم الآخر، ومن رحل لا يسمع البكاء.

على أن الأفعال، وتكرار الألفاظ قد أدت دورها إلى جانب الألفاظ السمعية الصريحة، فتشكلت الصورة السمعية وبجانبها صورة حسية أخرى اتخذت من الاستعارة المكنية أساسا لها، وإن تكرار أصوات الحروف مثل (العين) أدى إلى إشاعة النغم الحزين المتآلف معنى وصوتا، وقد استوعب البحر الكامل تلك المشاعر الحزينة، وتنغيمها بين الشجو والانكسار النفسي وبين الحكمة الهادئة، ولا يخفى أن صوت الروي (العين) المضموم المشحون بالموسيقى المتدفقة من موسيقى النفس ونبضات القلب قد تكثف فيه المعنى وإيقاع الألم.

ومن الملاحظ أن هذه الحكمة في إطار من الفنية إنما انبثقت من الرثاء الصادق، ومن أب مفجوع فقد

---

(١) العقد الفريد، ص/١٤٥

أبناءه، ولذلك اتسمت هذه القصيدة بالذات بالشهرة الواسعة لجودتها، وتأثيرها.

وقال الربيع بن زياد في الحكمة التي تعبر عن **الأنفة** والامتناع عن الضيم:

الحرب أحلى إذا ما خفت نائرة ... من المقام على ذل وتصغير." (١)

"""""""" صفحة رقم ٢٣١ """""""

فهو بالناطقة منها يتحرك نحو الشهوات التي يتناول بها اللذات البدنية كلها .

وبالغضبية منها يتحرك إلى طلب الرئاسات ويشتاق إلى أنواع الكرامات وتعرض له **الحمية والأنفة** ويلتمس العز والمراتب الجليلة العالية ويظهر أثرها من القلب .

وإنما تقوى فيه واحدة من هذه القوى بحسب مزاج قوة هذه الأعضاء التي تسمى الرئيسية في البدن .

فربما خرج عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط أو إلى ناحية النقصان والتفريط فيجب عليه حينئذ أن يعد لها ويردها إلى الوسط – أعني الاعتدال الموضوع له – ولا يسترسل لها بترك التقويم والتأديب فإن هذه القوى تهيج لما ذكرناه .

فإن تركت وسومها وترك صاحبها إصلاحها وعلاجها بالأعقال واتباع الطبيعة – تفاقم أمرها وغلبت حتى تجمح إلى حيث لا يطمع في علاجها ويؤيس من برئها .

وإنما يملك أمرها وتأديبها في مبدأ الأمر بالنفس التي هي رئيسة عليها كلها – أعني المميزة العاقلة التي تسمى القوة الإلهية – فإن هذه القوة ينبغي أن تستولي وتكون لها الرئاسة على الباقية .

فمحبة الإنسان للرئاسة أمر طبيعي له ولكن يجب أن تكون مقومة لتكون في موضعها وكما ينبغي .

فإن زادت أو نقصت في إنسان لأجل مزاج أو عادة سيئة وجب عليه أن يعد لها بالتأديب ليتحرك كما ينبغي وعلى ما ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي .

وقد مضى من ذكر هذه القوى وآثارها في موضعه ما يجب أن يقتصر بها هنا على هذا المقدار .

ونقول : إنه كما يعرض لبعض الناس ان يلقى الأسنة بنحره ويركب أهوال البر والبحر لنيل الشهوات بحسب حركة قوة النفس البهيمية فيه وتركه قمعها .." (٢)

---

(١) الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، ص/٦٨

(٢) الهوامل والشوامل ، ص/٢٣١

"""""""" صفحة رقم ٢٩٠ """"""""

رئاسة باجتماع الناس إليه أو لأرب له من الدنيا .

فأي موقع لكلام مثل هذا إذا عرف الموعوظ غايته وأشرف على نيته ومذهبه .

والأمر بالضد فيمن عمل واجتهد وأخلص سره ووافق عمله علمه وقوله نيته فإنه يصير إماما يقتدى به ويوثق بكلامه ويكثر اتباعه والناظرون فيما ينظر فيه والمصدقون بحكمه .

مسألة لم عظم ندم الإنسان على ما قصر فيه من إكرام الفاضل

وتعظيمه واقتباس الحكمة منه بعد فقده ولم كان يعرض له الزهد فيه مع التمكن منه والانقطاع إليه وقد كان في الوقت الأول أفرغ قلبا وأوسع مذهبا .

الجواب : قال أبو علي مسكويه – رحمه الله : هذه مسألة قد أجيب عنها فيما تقدم ولا معنى لتكرير الكلام فيها .

مسألة لم اعتزت العرب والعجم في مواقف الحروب

وأيام الهياج والاعتزاء هو الانتساب إلى الآباء والآجداد وإلى أيام مشهورة وأفعال مذكورة .

وما الذي حرك أحدهم من هذه الأشياء حتى ثار وتقدم وبارز وأقدم وأخطر نفسه واقتحم وربما سمع في ذلك الوقت بيتا أو تذكر مثلا أو رأى من دونه في البيت والمنصب والعرق والمركب دون ما يقدر – يفعل فوق ما يفعل فتأتيه **الأنفة** فتقوده بأنفه إلى مباشرة حتفه ما هذه الغرائب المبثوثة والعجائب المدفونة في هذا الخلق عن هذا الخلق جل من هذا بعلمه وبأمره ومن فعله وهو الإله الذي انقادت له." (١)

"٢١ على الاشتغال ليلا ونهارا وكان فقيرا لا يملك شيئا وقاسى في أيام طلبه من الجوع والمكابدة ما هو مشهور عنه وبرع في سائر العلوم وحقق الفنون وساد الأقران وسارت بفضله الركبان ووقع على تقدمه الاجماع وابتهجت بذكره النواظر والاسماع وصار عمدة يرجع إلى قوله وفتواه في زمن مشايخه وقرت به عيونهم وزوجه شيخه أبو شكيل بابنته ورزق منها أولادا فضلاء نجباء وكان مهابا جدا تخضع له الملوك آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر لا يراعى أحدا في دين الله تعالى ولا يخاف في الله لومة لائم وكلفه علي بن طاهر قضاء عدن فدام قريب أربعة أشهر ثم ترك وتوجه لنفع الطلبة خاصة وعمل على جامع المختصرات نكتا في مجلدة وكذا على ألفية النحو وشرح الملحة شرحا حسنا ولخص شرح ابن الهائم على هائميته إلى غير ذلك من الرسائل في علم الهندسة وغيرها قاله السخاوي وممن تخرج به عفيف الدين ابن الحاج ومحمد

---

(١) الهوامل والشوامل . ، ص/٢٩٠

باقضام والعلامة م‍مد بحرق وغيرهم وله نظم كثير جدا منه (اعط المعية حقها * واحفظ له حسن الأدب) (واعلم بأنك عبده * في كل حال وهو رب) وتوفي بعدن يوم السبت حاجي عشرى المحرم وفيها جمال الدين محمد بن إبراهيم المكدش بفتح الميم وسكون الكاف وكسر الدال المهملة آخره شين معجمة فقيه اللامية ومفتيها ببلده سامر وكان له بها مشهد عظيم وبنو المكدش هؤلاء أخيار صالحون اشتهر منهم جماعة بالولاية التامة وظهور الكرامات وقريتهم يقال لها **الأنفة** بفتح الهمزة وفتح النون والفاء آخره تاء تأنيث جهة بوادي سهام وهي محلة مقصودة للزيارة والتبرك ونسبهم في الغنميين وهم قبيلة مشهورة من قبائل عك بن عدنان ومسكنهم فيما بين وادي سهام ووادي سردد قاله في النور السافر وفيها جمال الدين محمد بن حسين بن محمد بن حسين القماط الزبيدي الشافعي ولد بزبيد في صفر." (١)

""إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض؛ للغلظة **والأنفة** وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية؛ كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة **والأنفة**، الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله؛ يذهب منهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق؛ تم اجتماعهم، وحصل لهم الملك

والتغلب "(١).

وقال أيضا: "إن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين: إما من نبوة، أو دعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية، واتفاق ا‌‌لقلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه؛ قال تعالى :

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ (٢).

وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا؛ حصل التنافس، وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله؛ اتحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة"(٣) اهـ.

وهكذا؛ فإن دولة آل سعود التي عظمت؛ إنما أصلها الدين، أصلها الدعوة إلى الإسلام والسنة، التي قام

---

(١) شذرات الذهب - ابن العماد، ٢٠/٨

بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقبلوها، وأقاموها خالصة من أي شيء يخالف عقيدة السلف الصالح ونهجهم السليم.

إن الشيخ وابن سعود وأتباعهم قصدوا إقامة دين الله، ونشر

---

(١) "مقدمة ابن خلدون" (ص ١٥١).

(٢) سورة الأنفال آية : ٦٣,

(٣) "مقدمة ابن خلدون " (ص ١٥٧).." [١]

"مكانته، وإشباع طموحه في الزعامة، والذي كان هو سبب ضعفه عن نصرة الإسلام، عسى أن يجد في الإسلام ما فقده في غيره، وعسى أن يغتبط بهذا الفضل وينسى ما يطمح إليه، وقد قصر عن مستواه(١) ولكنه ظل متأرجحا بين الحق والباطل، ثم أدركه حب الرياسة والاستقلال، وأعمته **الأنفة** عن طريقه الذي سلكه، وهو الصواب، ولم يصبر على ما توهم أنه تبعية مذلة لابن سعود وابن عبد الوهاب، فنزعت به نفسه إلى سلوك ما يريب منه ويشينه ويفتح عليه باب المؤاخذة والعقوبة، فيقتله بعض جماعته من أهل العيينة بسبب ذلك(٢) والعيينة يحرسها الله بولائها للشيخ وابن سعود من استشراء الفتن فيها وتمزيقها لها، فما كان إلا أن تداركها الله بسرعة مجيء الشيخ إليها، وتعيين أمير يخلف الراحل، وتستمر العيينة بأهلها في مسيرتها تحت لواء الدعوة استمرارا يسحق ما يقف في طريقها، حتى ولو كان الواقف في طريقها أميرهم عثمان(٣) أو قصر آل معمر فيها(٤).

وفشلت كل معارضات علماء السوء النجديين، وخططهم، وسعاياتهم، وانكشفت تشبيهاتهم، وزهق باطلهم؛ بانتشار دعوة الحق

ودولتها، حتى انهزم أمير الرياض، وافتتحها عبد العزيز بن محمد بعد حروب استمرت حوالي ثمانية وعشرين عاما، تخللتها فترات صلح، يلجأ إليها دهام بن دواس حين يحس بضعف موقفه، فيظهر الطاعة، ثم ينكث، وأخيرا هرب منها، فأدخلوها تحت حكمهم الراشد، وغنموا ما فيها من عائدات الدولة(٥).

---

(١) ابن بشر "عنوان المجد. . . " (١/ ٢١)، و"روضة ابن غنام" (٢/ ٩,١٠,١١,١٢,١٣,١٤).

(٢) ابن بشر "عنوان المجد" (١/ ٢٣،٢٤)، و"روضة ابن غنام" (٢/ ٩،١١،١٢،١٣،١٤).

---

[١] عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، ص/١٩٠

(٣) "روضة ابن غنام" (٢/١٤).

(٤) "روضة ابن غنام" (٢/ ٥٧)، وابن بشر في "عنوان المجد ... " (١/٤٣).

(٥) "روضة ابن غنام" (٢/ ٨٣- ٨٨).." [1]

" شذر مذر وبعج الأرض وبخعها فقاءت أكلها ولفظت خبيئها تر أمه ويصدف عنها وتصدى له ويأباها ثم ورع فيها وودعها كما صحبها فأروني ماتريبون وأي يوم تنقمون أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه فقد نظر لكم أستغفر الله العظيم لي ولكم وقد روى هذا الحديث جعفر بن عون عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها

تفسير كلمات غريبة فيه

الأزفلة الجماعة وتعطوه تناوله والطود الجبل والمنيف المشرف وأكديتم خبتم ويئس من خيركم وونيتم فترتم والأمد الغاية والمملق الفقير ويرأب يجمع والشعب المتفرق واستشرى احتد والشكيمة **الأنفة والحمية** والوقيذ العليل والجوارح معروفة وفي رواية الجوانح وهي الضلوع القصار التي تقرب من الفؤاد والشجى الحزين والنشيج صوت البكاء وانتثلوه مأخوذ من النثلة وهي الجعبة وفلوا كسروا والصفاة الصخرة الملساء وقولها على سيسائه أي على شده والجران الصدر وهو البرك ومعنى فرفع حاشيته وجمع قطريه تحزم للأمر ." [2]

" ٤ - عبد الله بن الزبير بن العوام أبو بكر الأسدي القرشي

كان عالما بالقرآن ومعانيه وكان كثير الصيام والصلاة وأشجع الناس وصاحب **الأنفة** وشديد البأس

قتل بمكة في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ٢أ

٥ - عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي

روي عنه القرآن ومعانيه والقصص والأخبار أشياء كثيرة وكانت وفاته بمكة سنة ثمان وستين

٦ - أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو ابن مالك بن النجار أبو المنذر الأنصاري المدني

أخذ القرآن ومعانيه عن رسول الله ." [3]

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، ص/١٩٢

(٢) صفة الصفوة، ٢/٣٥

(٣) طبقات المفسرين - الأدنروي، ص/٥

"أبو القاسم الزمخشري جار الله، كان إماما في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفننا في علوم شتى، معتزل المذهب متجاهرا بذلك. قال ابن اخته أبو عمر وعامر بن الحسن المسار: ولد خالي بزمخشر من أعمال خوارزم يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة. واخذ الأدب عن أبي مضر محمود بن جريرالضبي الأصبهاني، وأبي الحسن علي ابن المظفر النيسابوري، وسمع من شيخ الاسلام أبي منصور نصر الحارثي، ومن أبي سعد الشقاني، وأصابه خراج في رجله فقطعها واتخذ رجلا من خشب، وقيل أصابه برد الثلج في بعض أسفاره بنواحي خوارزم فسقطت رجله وحكى أن الدامغاني المتكلم الفقيه، سأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني أمسكت عصفورا وأنا صبي صغير وربطت برجله خيطا فأفلت من يدي ودخل خرقا فجذبته فانقطعت رجله، فتألمت له والدتي وقالت: قطع الله رجلك كما قطعت، فلما رحلت إلى بخارى في طلب العلم سقطت عن الدابة في أثناء الطريق فانكسرت رجلي وأصابني من الألم ما أوجب قطعها، ولما قدم الزمخشري إلى بغداد قاصدا الحج زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهنئا له بقدومه، فلما جلس إليه أنشده متمثلا:

كانت مساءلة الركبان تخبرني ... عن أحمد بن دواد طيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأنشد أيضا:

واستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صغر الخبر الخبر

ثم أخذ يثني عليه فلم ينطق الزمخشري حتى فرغ ابن الشجري من كلامه، فلما أتم كلامه شكر الشريف وعظمه، وتصاغر له ثم قال إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بصر بالنبي صلى الله عليه وسلم رفع صوته بالشهادتين، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يازيد الخيل: كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا أنت، فإنك فوق ما وصفت، وكذلك سيدنا الشريف، ثم دعا له وأثنى عليه. توفي أبو القاسم الزمخشري بقصبة خوارزم ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

ومن شعره:

ألعلم للرحمن جل جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغم

ماللتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لايعلم

وقال أيضا:

كثر الشك والخلاف وكل ... يدعى الفوز بالصراط السوي

فاعتصامي بلا إله سواه ... ثم حبي لأحمد وعلي

فاز كلب بحب أصحاب كهف ... كيف أشقى بحب آل نبي؟

وقال في مدح تفسير الكشاف:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ومن كلامه ما استخرجته من كتابة الأطواف قال: استمسك بحبل مواخيك ماستمسك باواخيك واصحبه ما صحب الحق وأذعن، وحل مع أهله وظعن، فان تنكرت أنحاؤه، ورشح بالباطل إناؤه، فتعوض عن صحبته وإن عوضت الشع، وتصرف بحبله ولو أعطيت النسع، فصاحب الصدق أنفع من الترياق النافع، وقرين السوء أضر من السم الناقع. وقال: الدعة من الضعة مرة لاتشره إليها نفس حرة. وقال: الكريم إذا ريم على الضيم نبا، والسرى متى سيم الخسف أبي، وقلما عرفت **الأنفة** والإباء في غير من شرفت منه الإباء. وقال: عزة النفس وبعد الهمة، الموت الأحمر والخطوب المدلهمة، ولكن من عرف منهل الذل فعافه، استعذب نقيع العز وذعافه. وقال: أحمق من النعامة من افتخر بالزعامة، لم أر أشقى من الزعيم، ولا أبعد منه من الفوز بالنعيم، هالك في الهوالك، خابط في الظلم الحوالك، على آثاره العفاء، أدركته بمجانيقها الضعفاء. وقال: الدنيا أدوار، والناس أطوار، فالبس لكل يوم بحسب مافيه من الطوارق، وجانس كل قوم بقدر مالهم من الطرائق، فلن تجري الأيام على أمنيتك، ولن تنزل الأقوام على قضيتك. وقال: ألا أحدثك عن بلد الشوم؟ ذلك بلد الوالي الغشوم، فإياك وبلد الجور، وإن كنت أعز من بيضة البلد، وأحظى أهله بالمال المثمر والولد. وتوقع أن تسقط فيه الطيور النواعق، وتأخذ أهله الرجفة والصواعق.." (١)

"فقال: لما التقينا العدو خفت على الإسلام فانفردت، ونزلت، ومرغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي، من محمود في البين؟ الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك.

قال: فنصرنا الله عليهم+(١).

ب: العدل: كان نور الدين × عادلا متحريا للعدل في كافة أموره، حتى إنه أصبح مضربا للمثل في العدل، بل إنه يسمى الملك العادل.

قال ابن الأثير: =وقد طبق الأرض بحسن سيرته، وعدله، وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريا منه للعدل+(٢).

---

(١) معجم الأدباء، ٤٥٦/٢

وقال ــ أيضا ــ: =وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا، بل أطلقا جميعا في مصر، والشام، والجزيرة، والموصل.

وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها.

وأحضره إنسان الى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكما؛ فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك ما يدعيه، وإنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر **والأنفة** من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده+(٣).

وقال ــ أيضا ــ في كتابه التاريخ الباهر: =كان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء+(٤).

وقال الذهبي: =صاحب الشام الملك العادل نور الدين+(٥).

وقال: =وكان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، قل أن ترى العيون مثله+(٦).

---

(١) ــ سير أعلام النبلاء ٥٣٨/٢٠.

(٢) ــ الكامل ١٢٥/٩.

(٣) ــ الكامل ١٢٥/٩.

(٤) ــ التاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٦٥.

(٥) ــ سير أعلام النبلاء ٥٣١/٢٠.

(٦) ــ سير أعلام النبلاء ٥٣٢/٢٠.." [1]

" على الاشتغال ليلا ونهارا وكان فقيرا لا يملك شيئا وقاسى في أيام طلبه من الجوع والمكابدة ما هو مشهور عنه وبرع في سائر العلوم وحقق الفنون وساد الأقران وسارت بفضله الركبان ووقع على تقدمه الاجماع وابتهجت بذكره النواظر والاسماع وصار عمدة يرجع إلى قوله وفتواه في زمن مشايخه وقرت به عيونهم وزوجه شيخه أبو شكيل بابنته ورزق منها أولادا فضلاء نجباء وكان مهابا جدا تخضع له الملوك آمرا

---

(١) تراجم لتسعة من العلماء، ص/٢٠

بالمعروف ناهيا عن المنكر لا يراعى أحدا في دين الله تعالى ولا يخاف في الله لومة لائم وكلفه علي بن طاهر قضاء عدن فدام قريب أربعة أشهر ثم ترك وتوجه لنفع الطلبة خاصة وعمل على جامع المختصرات نكتا في مجلدة وكذا على ألفية النحو وشرح الملحة شرحا حسنا ولخص شرح ابن الهائم على هائميته إلى غير ذلك من الرسائل في علم الهندسة وغيرها قاله السخاوي وممن تخرج به عفيف الدين ابن الحاج ومحمد باقضام والعلامة محمد بحرق وغيرهم وله نظم كثير جدا منه

(اعط المعية حقها ** واحفظ له حسن الأدب)

(واعلم بأنك عبده ** في كل حال وهو رب)

وتوفي بعدن يوم السبت حادي عشرى المحرم وفيها جمال الدين محمد بن إبراهيم المكدش بفتح الميم وسكون الكاف وكسر الدال المهملة آخره شين معجمة فقيه اللامية ومفتيها ببلده سامر وكان له بها مشهد عظيم وبنو المكدش هؤلاء أخيار صالحون اشتهر منهم جماعة بالولاية التامة وظهور الكرامات وقريتهم يقال لها **الأنفة** بفتح الهمزة وفتح النون والفاء آخره تاء تأنيث جهة بوادي سهام وهي محلة مقصودة للزيارة والتبرك ونسبهم في الغنميين وهم قبيلة مشهورة من قبائل عك بن عدنان ومسكنهم فيما بين وادي سهام ووادي سردد قاله في النور السافر وفيها جمال الدين محمد ابن حسين بن محمد بن حسين القماط الزبيدي الشافعي ولد بزبيد في صفر

". (١)

"القرار: المكان الذي يستقر به الماء. لعي وسي: السي: إتباع العي، كقولهم حسن بسن، وشيطان ليطان، وجائع بائع. الرتق: ضد الفتق. الرهق: فساد الشيء. الخنزوانة: التكبر. الفراش: عظام رقاق. الشجا: ما يغص به من عود، وعظم، وشبهه. الوحرة: الحقد. الشراسيف: أطراف الضلوع. الدحس: ورم يصيب الدابة في حافرها، شبه به الانتفاخ من الغضب. الداس البحث عن الأخبار، والتجسس. الخور: الضعف. لبست بسببه جلد النمر: يقال: لبس فلان لفلان جلد النمر، إذا تنكر، وتهيأ لحربه. الشحناء: العداوه. السرى: سير الليل. ابن أنقد - بالدال المهملة - : القنفذ. العوان: التي كان لها زوج. الخمرة: شد الخمار على الرأس. الحصان: المرأة العفيفة. الخبرة: الاختبار. الفرعاء: الكثيرة الشعر. الخال: الحديدة التي يفرق بها الشعر. محتبس: مقيد. معبد: مذلل. ملمس، أي: ما يلمس. مانس: أي تأثير. المزع: القطع. الأثرة:

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب . مفهرس، ٨/٢١

أي ما يؤثر به الرجل دون غيره: أي يخص. مأمونة على الرتق، والفتق: يعني الإصلاح، والفساد. مفتئتا: يعنى بغير اختيارهم. **الحمية**: **الأنفة**. انتكث رشاها نقض حبلها. انتضب ماؤها: يقال نضب الماء، إذا جف، وأنضبته أنا، وانتضبته. الأيد: القوة. بأي تدرع: من الدرع. ولهت: أي حنت. تطامن: انخفض. الحبوة: العطية سربله: ألبسه سربالها. قربى أمس: أي ألصق. العرق: الأصل. البازل: الجمل المسن. الهبع: الصغير من أولاد الإبل، وهو الذي يولد في آخر زمن النتاج، فإن ولد في أوله، فهو ربع. تهحر به شقشقتك: يقال هدر البعير، إذا صاح، والشقشقة: ما يخرج من حلقه عند هديره. الصاغية: القرابة. المناضلة: المراماة بالسهام. حدبت: أي أنفت، وقيل: خضعت، وهو لا معنى له هنا، والصواب الأول. الفظ: اطرح. السخيمة: العداوة. النفاث: ما ينفث به. يمض إهابك: أي يشق جلدك. ويفري قادمتك: أي يقطع، والقادمة: ريش مقدم الجناح، جمعها قوادم. استبرأتها: أي تخليت منها. التزمل: الالتفاف. أتوجى: أتعارج. حلت معلوطة: أي نزلت، والمعلوطة: الناقة وسم عنقها بالنار، واسم تلك السمة العلاط. مخروطة: أي دقيقة المؤخر، وهو مكروه في الإبل، ويقال للناقة إذا زجرت. حل حل: يقال حلحلت بالإبل، إذا قلت لها: حل حل، فإذا لم تزدجر يقال: حل لا حليت: أي لا ظفرت، ولا فزت. فهيسى هيسى: يضرب مثلا لمن وقع في داهية، وأمر عظيم يحتاج إلى الانزعاج وترك الإخلاد إلى الراحة، وفي القاموس هيسى هيسى على الكسر: يضرب للتمكن من الأمر، والإغراء به انتهى. والهيس: السير الشديد، وأصل هذا المثل أن طسما أوقعت بجديس، وأبادتها بسبب قصة – أمرها يطول – جرت بينهما، فقال في ذلك بعض الرجال هذا المثل الذي ضرب علي – رضي الله تعالى عنه – في هذه الرسالة. لعا: هذه كلمة تقال عند العرب للعاثر إذا عثر؛ دعاء له معناها: انتعش، وقم. على غره: يقال: طويت الثوب على غره - بفتح الغين المعجمة، وبالراء المهملة، والهاء – : أي على طيه الأول، يضرب مثلا للأمر الذي لم يغير عما كان عليه. مخطي قدمي: حيث تخطو قدمي. أزمت على فاسي: فاس اللجام: ما يدخل منه في فم الفرس، يقال: أزم الفرس على فاس اللجام، إذا عض عليه استعارة للسكوت. الأدالة: هي انقلاب الأمور. الغرب: الحد. اللحاء: القشر. الرشاء: الحبل. أورينا: من أورى الزند، إذا ظهر منه النار. الماتح – في قوله: وإن متحنا: الذي يخرج الدلو، ومن أمثالهم: أعرف من الماتح باست المائح. مقصور: مقروح. الجوى: داء يعترى في الجوف. العصام: حبل القربة، يضرب به مثلا. المؤازرة: المعاونة. تداعت: أي دعا بعضها بعضا.." (١)

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١/٣٩١

"قال بعض أئمة أهل البيت النبوي من العترة الطاهرة: وقد تأملت كلماتهم – يعني الرافضة – فرأيت قوما أعمى الله بصائرهم؛ فلم يبالوا بما يترتب على مقالتهم من المفاسد؛ ألا ترى إلى قولهم: إن عمر – رضي الله عنه – قاد عليا بحمائل سيفه، وحصر فاطمة فهابت، فأسقطت ولدا اسمه المحسن، فقصدوا بهذه الفرية القبيحة، والغباوة التي أورثتهم العار والبوار والفضيحة؛ إيغار الصدور على عمر – رضي الله تعالى عنه – ولم يبالوا بما يترتب ويلزم على ذلك؛ من نسبة علي إلى الذلة والعجز والخور؛ بل نسبة جميع بني هاشم، وهم أهل النجدة والنخوة **والأنفة**، إلى ذلك العار الذي لا أقبح منه عليهم؛ بل نسبة جميع الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – ! إلى ذلك مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم ودينهم، وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته، حتى قاتلوا فقتلوا الآباء والأبناء؛ في طلبهم مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتوهم إلحاق أدنى نقص، أو السكوت على باطل من هؤلاء العصابة الكمل، الذين طهرهم الله من كل رجس ودنس ونقص، على لسان نبيه في الكتاب والسنة، كما تقدم – بواسطة صحبتهم له صلى الله عليه وسلم، وموته وهو راض عنهم، وبسبب صدقهم في محبته واتباعه؛ إلا عبد أضله الله وخذله؛ فباء منه تعالى بعظيم الخسار والبوار؛ وأحله نار جهم وبئس القرار؛ نسأل الله السلامة من الموبقات، في الحياة وبعد الممات! آمين!.

ولهذه الطائفة الرذلة شبه، لا حاجة لنا إلى إيرادها؛ وتسويد الطرس بسوادها، فقد ردها الأئمة المتقدمون والمتأخرون في غير ما كتاب؛ وأماطوا عن مشوهاتها الخمار والنقاب.

وقد روت أقاويل الأئمة المعتبرين من أهل البيت، في الترضي عن الشيخين وتوليهما، والثناء عليهما – الأئمة الحفاظ الذين عليهم المعول في معرفة الحديث والآثار، وتمييز صحيحها من سقيمها بأسانيدهم المتصلة.

فمنها: م١ أخرجه أبو نعيم عن الإمام الحسن المثنى ابن الحسن السبط، أنه لما قيل له ذلك – أي: أن خبر: " من كنت مولاه فعلي مولاه " نص في إمامة علي قال: أما والله، لو يعني بذلك الإمارة والسلطان، لأفصح لهم به؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أنصح للمسلمين، ولقال لهم: " يا أيها الناس، هذا ولي أمري، والقائم عليكم بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا. ما كان من هذا شيء " ، فوالله! لئن كان الله ورسوله اختارا عليا لهذا الأمر والقيام به للمسلمين من بعده، ثم ترك علي أمر الله ورسوله أن يقوم به، أو يعذر فيه إلى المسلمين – إن كان أعظم الناس خطيئة لعلي؛ إذ ترك أمر الله ورسوله، وحاشاه من ذلك!.

وفي رواية عنه: ولو كان هذا الأمر كما تقول، وأن الله اختار عليا للقيام على الناس؛ لكان أعظم الناس خطيئة؛ أن ترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقم به، فقال الرجل: ألم يقل رسول الله صلى الله

عليه وسلم: " من كنت مولاه " فقال الحسن ما تقدم ذكره. وأخرج الدارقطني عن الإمام أبي حنيفة – رضي الله تعالى عنه – أنه لما قدم المدينة سأل أبا جعفر محمد الباقر عن أبي بكر وعمر، فترحم عليهما، فقال له أبو حنيفة: إنهم يقولون عندنا بالعراق: إنك تتبرأ منهما، فقال: معاذ الله؛ كذبوا ورب الكعبة. ثم ذكر لأبي حنيفة تزويج علي ابنته أم كلثوم بنت فاطمة من عمر – رضي الله تعالى عنه – وأنه لو لم يكن لها أهلا لما زوجه إياها، فقال له أبو حنيفة: لو كتبت إليهم؛ فقال: لا يطيعونني بالكتب. وتزويج علي أم كلثوم لعمر – رضي الله عنه – يقطع ببطلان ما زعمته الرافضة فيه.

قلت: وجه القطع: ما يلزم أن عليا زوج ابنته أم كلثوم من كافر – على زعمهم الفاسد – معلوم كفره وسبب كفره؛ فيبطلوا أصلهم في اعتقاد العصمة لواجبها؛ إذ تزويج الكافر بالمسلمة حرام بنص: " لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن " الممتحنة: ١٠، وهذه الرواية عن الحسن وأشباهها من الروايات زوز عندهم وافتراء، وكذب صراح لا شبهة فيه ولا مراء؛ لأنها تفت في أعضادهم وتنكث قواهم، وتبت قوتهم وتحل عراهم.." (١)

"ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين، بعث إلى إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد، وبعث معه بالكرسي الذي يستنصر به، وهو كرسي قد غشاه بالذهب، وقال للشيعة: هذا فيكم مثل التابوت في بني إسرائيل، فكثر السبئية، وأحضره قتال ابن زياد، فكان له الظهور، فازدادت الشيعة فتنة، ويقال: إنه كرسي علي بن أبي طالب، وإن المختار أخذه من ولد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبي طالب، فهو ابن أخت علي، ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر السير، وأوغل في أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مر، فلما دخل إبراهيم أرض الموصل، عبأ أصحابه، ولما بلغ نهر الخابور، بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط النخعي، ونزل ابن زياد قريبا من النهر، وكانت قيس مضطغنة على بني مروان من وقعة المرج، وجند عبد الملك يومئذ كليب، فلقي عمير بن الحباب السلمي إبراهيم ابن الأشتر، ووعده بأن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمناجزة، ورأى عند ابن الأشتر ميلا إلى المطاولة فثناه عن ذلك، وقال: إنهم ملئوا منكم رعبا، وإن طاولتهم اجترءوا عليكم، قال: وبذلك أوصاني صاحبي، ثم عبأ أصحابه في السحر الأول يمشي ويحرض الناس حتى أشرف على القوم، وجاء عبد الله بن زهير السكوني بأنهم خرجوا على دهش وفشل، وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم فعال ابن زياد وأبيه، ثم التقى الجمعان، وحمل الحصين بن نمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم، فقتل علي بن مالك الخثعمي، ثم أخذ الراية قرة بن علي،

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١/٤٠٧

فقتل، وانهزمت الميسرة كما كانوا، وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد، وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم، فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالا شديدا، وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القصارين، وإبراهيم يقول لصاحب الراية: انغمس برايتك فيهم، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب ابن زياد، وقال ابن الأشتر: إني قتلت رجلا تحت راية منفردة، شممت منه رائحة المسك، وضربته بسيفي فقصمته نصفين فالتمسوه، فإذا هو ابن زياد، فأخذ رأسه وأحرقت جثته.

وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين من غير سلاح، فاعتنقه وجاء به أصحابه، فقتلوا الحصين، ويقال: إن الذي قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع، وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدي، وورقاء بن عازب الأسدي، وعبيد الله بن زهير السلمي، واتبع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين، فغرق في البحر أكثر ممن قتل وغنموا جميع ما في العسكر، وطير ابن الأشتر البشارة إلى المختار، فأتته بالمدائن، وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد، فبعث أخاه عبد الرحمن إلى نصيبين، وغلب على سنجار ودارة وما والاهما من أرض الجزيرة، وولى زفر ابن الحارث قرقيسيا، وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها وسميساط، وعمير بن الحباب السلمي كفر توثا وطور عبدين، وأقام بالموصل، وأنفذ رءوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب إلى المختار وقتله إياه

كان ابن الزبير في أول سنة سبع وستين – أو آخر سنة ست – عزل الحارث بن أبي ربيعة – وهو القباع – وولى مكانه أخاه مصعبا، فقدم البصرة، وصعد المنبر، وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة، ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل، ولحق به أشراف الكوفة، حين هربوا من المختار، ودخل عليه شبيب بن ربعي، وهو ينادي: واغوثاه، ثم قدم محمد بن الأشعث بعده، واستحثوه على المسير، وبعث عن المهلب بن أبي صفرة، وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار، فأبطأ، واعتل، فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريدا غيرك؟! فقال: ما أنا ببريد، ولكن غلبنا عبيدنا على آبائنا وحرمنا، فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال، وعسكر مصعب عند الجسر.." (١)

"إني والله ما أغمز غمز التين، ولا يقعقع لي بالشنان، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وحذيت من الغابة، وإنكم يا أهل العراق طالما أوضعتم في الضلالة، وسلكتم سبيل الغواية، أما والله لألحينكم

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١١٢/٢

لحى العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، يا عبيد العصا، أنا الغلام الثقفي، لا أعد إلا وفيت، ولا أحلف إلا فريت، إنما مثلكم كما قال الله تعالى: " وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " " النحل: ١١٢ " شاهت الوجوه؛ فإنكم أشباه ذلك، فاستوثقوا واستقيموا. أقسم بالله، لتدعن الإرجاف، ولتقبلن على الإنصاف، ولتنزعن عن القيل والقال، وكان وكان، والهبر وما الهبر؟، أو لأهبرنكم بالسيف يدع النساء أيامى والولدان يتامى، ألا إن أمير المؤمنين نثل كنانته بين يديه، فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا؛ فوجهني إليكم، فاستقيموا ولا يميلن منكم مائل. واعلموا أني إذا قلت قولا وفيت به، من كان منكم من بعث المهلب، فليلحق به، فإني لا أجد أحدا بعد ثالثة إلا ضربت عنقه. وإياي وهذه الزرافات، فإني لا أجد أحدا يسير في زرافة إلا سفكت دمه واستحللت ماله. ثم نزل.

هذا ما رواه المبرد، وزاد الذهبي بإسناد عن الثوري: قم يا غلام، فاقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من في الكوفة، سلام عليكم، فسكتوا، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل عليهم، فقال: يسلم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون عليه شيئا؟ هذا أدب ابن نهية، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمن، اقرأ يا غلام، فقرأ قوله: السلام عليكم، فلم يبق في المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين أفضل السلام.

قلت: العصلبي: الشديد من الرجال، والسواق الحطم: العنيف في سوقه، الوضم: كل ما وقى به اللحم من الأرض، عجمت العود: إذا عضضته بنابك لتعرف أصلب هو أم رخو، الزرافات: الجماعات.

وحضر الناس عنده للعطاء واللحاق بالمهلب، فقام إليه عمير بن ضابئ وقال: أنا شيخ كبير عليل، وابني هذا أشد مني، فقال: هذا خير لنا منك، ثم قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابئ، قال: الذي دخل على عثمان في داره، وداس على ظهره، فكسر ضلعين من أضلاعه؟ قيل: نعم، فقال: يا عدو الله، أفلا بعثت إلى عثمان بدلا؟ قال: إنه حبس أبي، وكان شيخا كبيرا، فقال: إني لأحسب في قتلك صلاح المصرين، وأمر به فقتل، وانتهب ماله.

وقيل: إن عتبة بن سعيد بن العاص هو الذي أغرى به الحجاج حين دخل عليه، ثم أمر الحجاج مناديه فنادى: ألا إن ضابئا تخلف بعد ثالثة من النداء فأمر بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة عن جند المهلب، فتسارع الناس إلى المهلب وهو برامهرمز، وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر، وقد كان من أخذ

الحصباء بيده يريد أن يحصب بها الحجاج تساقط من يده خوفا ورعبا، فثبتت مهابته في قلوبهم، وتحكم حينئذ في رقابهم.

وكان القاسم بن سلام يقول: قاتل الله أهل العراق، أين قبائلهم وعشائرهم وأهل **الأنفة**، وأين تجبرهم؟! قتلوا عليا، وطعنوا الحسن، وقاتلوا المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة، وقد جاءهم في اثني عشر راكبا وهم في مائة ألف، ولكن ظهر به تصديق قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في قوله: اللهم سلط عليهم الغلام الثقفي.

ثم بعث الحجاج إلى البصرة الحكم بن أيوب الثقفي، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله، وبلغه الخبر، فقسم في أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها.

ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبي: كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي، تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولى مصعب، أضاف إليه حلق الرءوس واللحي، فلما ولي بشر، أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط، فيخرق المسمار يده، وربما مات، فلما جاء الحجاج، ترك ذلك كله، وجعل عقوبة من يخل بمكانه من الثغر أو البعث: القتل.." (١)

"وتوجه الديباجة إلى بلاد جهينة فجمع منها جيشا وسار إلى المدينة، وقاتل واليها من جهة المأمون وهو هارون بن المسيب، فانهزم الديباجة أيضا، وفقئت عينه بنشابة، وقتل من عسكره خلق كثير، ثم عاد إلى مكة وطلب الأمان من الجلودي، فآمنه فدخل مكة في أواخر ذي الحجة من السنة المذكورة فأصعده الجلودي المنبر، والجلودي فوقه بمرقاتين عليه قباء أسود، فاعتذر محمد بأنه إنما وافق على المبايعة؛ لأنه بلغه موت المأمون، ثم قدم على المأمون بمرو واعتذر واستعفى، فقبل عذره وعفا عنه وأكرمه، فلم يلبث قليلا حتى مات فجأة بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل في لحده وقال: هذه رحم قطعت مذ سنين.

وكان موته في شعبان سنة ثلاث ومائتين. وسبب موته على ما قيل أنه جامع وافتصد ودخل الحمام في يوم واحد.

وفي موسم سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين وليها كذلك بالتغلب إبراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر، جاء إليها من اليمن وعليها إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي، فلما سمع بوصوله خندق عليها وبنى سورا على الجبال دائرا بالبنيان.

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١٢٤/٢

وكان في السنة التي قبلها سنة إحدى ومائتين وصل إلى مكة صنم من ذهب على صورة إنسان لملك من ملوك الهند، أرسل به إلى الكعبة، وعلى رأس الصنم تاج مكلل بالجوهر والياقوت والزبرجد، والصنم جالس على سرير من فضة وعلى السرير أنواع الفرش من الحرير والديباج، فوضع السرير عليه الصنم في وسط المسعى ثلاثة أيام ومعه معرف لمن كان له هذا الصنم وأنه أسلم وأرسل به هدية للكعبة فاحمدوا الله تعالى أن هداه للإسلام. ثم أخذ أمير مكة العباسي المذكور ذلك الصنم من الحجبة قهرا وضربه دنانير وأنفقها على العسكر، وحارب إبراهيم بن موسى فكسر الأمير وهرب ودخل إبراهيم بن موسى مكة.

ثم وليها في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالتغلب أيضا إسماعيل بن يوسف الأخيصر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهرب منها عامل المستعين، وهو جعفر بن الفضل ابن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بشاشات، قتل إسماعيل الجند الذين بمكة وجماعة من أهلها.

ونهب منزل جعفر شاشات وغيره وأخذ من الناس نحو مائتي ألف دينار، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها، وما جدد في خزانتها من الأموال، وما كان أعد من المال لإصلاح العين، ونهب مكة وأحرق بعضها، ثم خرج منها بعد مقامه بها خمسين يوما في شهر ربيع الأول، وقصد المدينة الشريفة فتوارى عنه عاملها فظلم أهلها، وأخرب دورهم، وعطلت الجماعة من مسجده عليه الصلاة والسلام أكثر من نصف شهر، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى ماتوا جوعا وعطشا وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بدرهم والشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه بلاء شديدا.

ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ووافى الموقف والناس بعرفات فقتل من الحجاج نحوا من ألف ومائة نفس فهرب الحجاج ولم يقف بعرفة أحد ليلا ولا نهارا سوى إسماعيل وعسكره، ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة ثانيا وأفنى أموالها وفعل أمورا قبيحة لا حاجة بنا إلى ذكرها. كذا ذكره العلامة ابن جار الله، وقبله التقى الفاسي في تاريخه شفاء الغرام. انتهى.

قلت: لا يظن ظان أن صدور هذا الفعل وشبهه من مثل هؤلاء السادة لنقص في دينهم واختلال في يقينهم حاشا وكلا، وإنما ذاك والله أعلم مما جرت إليه **الحمية والأنفة** والشهامة التي تناسب أقداسهم من استيلاء ولاة الجور على ما هم الأحقون به، فيقصدون بذلك ثلم وجوههم وتفريق جموعهم ما أمكن لتعديهم بأصل الدخول في الخلافة، ولم ينعقد إذ ذاك إجماع على حرمة الخروج على أئمة الجور، فقدى أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز الخروج على أبي جعفر المنصور منهم، وكذلك الإمام مالك رحمهما الله تعالى، وإنما انعقد

الإجماع على ذلك بعد زمنهم بكثير هذا ما ظهر لجامعه الفقير. على إني أعلم أن هذا الجواب ينسب إلى الإقناع، فلا يكن منك أيها الناقد لرأس الاعتراض إقناع.

ولم يزل العمال عليها من بني العباس وشيعتهم والخطبة بها لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبني سليمان بن داود ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

ذكر دولة السليمانيين." (١)

"مليك بلاد الله سعد العلا ومن ... يشابه أباه في علاه فما أخطا

طويل البنا رحب القنا منهل الغنا ... مزيل العنا مولى المنا باللها سفطا

عريض الجدا غوث الندا مورد الندا ... حمام العدى مردي الردا للهدى فرطا

فيا ابن رسول الله وابن وصيه ... ودرة عقد أنت أنت له وسطا

لقد حطت أكناف الخلافة عزمة ... وقمت بها حفظا وشيدتها ضبطا

وأيدتها بالحزم والرأي حينئذ ... ثبت جنانا لا فزوعا ولا قنطا

فأنسيتنا حزنا ولم ننس من مضى ... تغشت شآبيب الرضا رمسه همطا

أبى الله إلا أن تحل محله ... بمرتبة عزت لغيرك أن تمطى

فوافاك بالتأييد ما كان كامنا ... من الأزل العلوي ينتظر الشرطا

فما خط تقليدا على الطرس كاتب ... ولكن قضاء الله من قبله خطا

إذا أبرمت في سابق العلم لامرئ ... عنايته استغنى العشيرة والرهطا

ولكنني أرجو من الله جمعهم ... على خير حال ما رجاه بمستبطا

فطأ في العلا فالسعد وطأ لاسمه ... أشار لذا بحر الطويل روي الطا

إليك ابن خير الناس عذراء مدحة ... غذتها القوافي لا سناد ولا إيطا

أتاك بها فكري الكليل ومهرها ... قبولكها مني وحسبي به إعطا

سأملأ ديواني بمدحك مدحة ... لشعري كي يستوجب الحمد والغبطا

فدم وابق واسلم لا برحت مؤيدا ... على العز مهما أن تحاوله تعطى

ولا زلت محفوظ الجناب عزيزه ... رعاياك لا تخشى اهتضاما ولا قنطا

مدى الدهر ما طاب القريض بمدحكم ... فأخجل مسك الختم والند والقسطا

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٢/٣٨٠

ولما تم أمر الصلح بين الشريف سعد، وبين السيد حمود، واستقرت البلاد وأهلها لأن استقرارهم باستقراره، وتعبهم بتعبه وهو معهم كالرأس مع الجسد، وكالمضغة وهي القلب كما ورد. جاءه مولانا السيد حمود – رحمه الله تعالى – إلى بيته موافقا له فيما يحبه ويهواه هو وأتباعه يهنونه ويباركون له فيما منحه الله وأعطاه، وصار يتردد إليه بكرة وعشية مظهرا له الود والصداقة ملينا له القول من غير تعب ولا حماقة، وكان في هذه المدة يطلبه ما كان وزيادة، ولم يخالفه مولانا الشريف في قول ولا فعل بل يجيبه إلى ما أراده أدام الله نعمه عليه وإمداده بحيث أن الرعية نسبت هذه الموافقة منه إلى أثر عمل من الأعمال من الحركات والسكنات، لكن إنما الأعمال بالنيات.

وفي هذه المدة كان بمكة المشرفة غلاء في الطعام كالحب ونحوه في شعبان ورمضان وشوال واشتد في آخر الوقت وعدم من الأسواق، ووصلت الكيلة الحب إلى خمسة عشر محلقا والرز كذلك، وفي أول ذي القعدة حصل الفرج بدخول المراكب المصرية، وزال التعب عن المسلمين ببركة قدوم الحجاج الوافدين.

ثم إنه حصل تنافر بين مولانا الشريف سعد، والسيد حمود من جهة عدم الوفاء بالمعلوم الذي له مع ما في خاطره من التعب، فدعته **الأنفة** إلى الخروج لهذا السبب، فبرز يوم الأربعاء ثامن في القعدة الحرام من سنة سبع وسبعين وألف، وأقام بالزاهر مدة، وهو من الغيظ في أعظم شدة، فبرزت إليه لموادعته، واستغرقت اليوم أجمع في محادثته، فكان من جملة كلامه جوابا لقولي: لعل مولانا – حفظه الله – يتداركه الله بسعة فيها حصول المنا، فيكفيكم الله بسببها تعب الجلا والعنا: ما أرى، إلا أن بيت الشريف قتادة المستشهد به في سابق الزمان، قد قارب مصداقه في هذا الأوان، يشير إلى قوله: من الطويل:

مصارع آل المصطفى عدت مثل ما ... بدأت ولكن صرت بين الأقارب

فقلت: الله يقمر بخير، ويكفيكم كل ضيم وضير.." (١)

"وفي شهر ذي الحجة منها: لم يخرج السادة الأشراف جميعهم مع الشريف سعيد إلى العرضة، فبعد أن حج الناس، ونزلوا عقد الشريف سعيد محضرا فيه أمير الشامي صالح باشا، وأحمد باشا صاحب جدة، وأمير الحاج المصري ذو الفقار بك، وأمين الصرة والسرادير، وأكابر الحج وأغواته، وشكا من الشريف أحمد بن غالب كتابة العسكر، وأنه مناكد لي في البلاد وأنه أفسد علي الأشراف، وأنه حصل ومن جماعته الفساد في البلاد.

وأرسلوا السيد غالب بن زامل إليه ليحضر فيظهر ممن الخلاف، فامتنع من الحضور في بيت الشريف،

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٣/٤٤

وقال: إن كان القصد الاجتماع ففي المسجد، وإن كان لكم دعوى، فأوكل وكيلا يسمع ما تدعون به علي، ثم أرسلوا إليه عن كتابة العسكر وما بعده، فأجاب بما أجاب أولا أن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن صاحب الربع له أن كتب عسكرا. وأما قولكم: إنه قد حصل من جماعتي أو عسكري مفسدة، فأطلقوا مناديا في البلاد: معاشر الناس كافة هل أحد يشكو مني أو من جماعتي أو عسكري شيئا أو أخذوا حق أحد ظلما أو ضربوا أحدا؟ فإن وجدتم مشتكيا صح ما قلتموه، وإلا فلا وجه لكم.

وأما تركي العرضة فكان خوفا أن يقع شيء فينسب ذلك إلي أو إلى جماعتي.

كل هذا والأشراف جميعهم اجتمعوا على قلب رجل واحد ولم تزل خيولهم مسرجة، ودروعهم عيابها غير مشرجة، بل قد لبسوها، وملئوا الأجياد إلى العقد، وتحركت **الأنفة** الهاشمية التي تأبى الضيم والضهد.

وبلغني عن الثقة أن صالح باشا أمير الحاج الشامي كان من جملة كلامه إلى الشريف أحمد متع الله بحياته: إن لم تصطلحوا طوعا أصلحناكم بالسيف، فأرسل له في الجواب: السيف لنا يا بني هاشم ما هو لفلاليح الشام، ولكن إذا نمت فأحكم تزرير مضربك عليك.

ولما أن سمع الأمراء والأكابر جواب الشريف أحمد بالكلام الأول، وعلموا أنه لا وجه عليه، ولا خلاف ينسب إليه، سعوا في الصلح بينه وبين الشريف سعيد على أن يكفل كل منهما جماعة من الأشراف، ولا يتعدى أحد على صاحبه، وكتبت بينهما حجة شرعية، وطلبوا من الشريف أحمد متع الله بحياته أن يأتي إلى الشريف سعيد، فوصل إليه ليلة في شهر الحج قبل خروج الحاج الشامي، ثم بعدها وصل إليه الشريف سعيد ليلة أخرى، وتم الصلح ولله الحمد.

وأما صالح باشا ففي يوم الاجتماع المذكور وصل في نحو مائة من عسكره إلى بيت مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وقبل يده واعتذر مما تكلم به، فقبله وقابله بوجهه الطلق الصبيح، ولاطفه بلفظه العذب الفصيح، ورفع عنه الملام، وأكرمه كما هو طبعه الشريف غاية الإكرام.

وفيها – أعني سنة أربع وتسعين وألف – : أمر مولانا الشريف سعيد بالنداء في البلاد ثامن عشر ذي الحجة الحرام أن لا يقيم أحد من الغرباء بالبلاد من جميع الأجناس على حسب ما ورد به الأمر السلطاني، ثم إن أرباب الأموال من الأتراك وغيرهم تكلموا مع سرادير العسكر، وجعلوا لهم مصلحة فاجتمعوا، وعزموا إلى أحمد باشا صاحب جدة، وذكروا له أن هؤلاء التجار المصارية أموالنا معهم، وأنهم نافعون لنا في البلاد، وحسنوا له التكلم مع الشريف سعيد، فأرسل إلى الشريف سعيد فتكلم معه في إبقائهم فساجل على ذلك، وأطلق مناديه سابع عشري ذي الحجة المذكورة: أن من كانت له مدة طويلة يقيم ولا خلاف عليه، فما

أسرع انتقاض الحكم بضده بعد تسعة أيام.
وفي ثاني عشر شعبان منها: كانت وفاة والدة مولانا السلطان الغازي المجاهد السلطان محمد خان، كانت صاحبة خيرات وصلات، تغمدها الله بأتم الرحمات.
وفي عاشر ذي القعدة: كانت وفاة شيخنا الشيخ محمد بن سليمان المغربي المالكي السوسي المفتن في جميع العلوم، المشهور عند العرب والروم. توفي بدمشق الشام، مولده سنة ثلاث وثلاثين وألف. قرأ على كبار المشايخ ببلده، من أجلهم قاضي القضاة مفتي مراكش، ومحققها سيدى عيسى السجستاني، والعلامة محمد بن سعيد المراكشي، ومحمد بن بكر الدلائي، والشيخ سعيد بن إبراهيم المشهور بقدورة مفتي الجزائر ستين سنة، وتلقن منه الذكر ولبس الخرقة، ولازم الشيخ محمد بن ناصر الزرعي أربعة أعوام في التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها، وصحبه وتخرج به.." (١)

"٥- وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وأرى أن يكتفي بشراء مصاحف مجردة من التفسير وتوزع على الفنادق .

نائب رئيس اللجنة الدائمة

للبحوث العلمية والإفتاء

عبد الرزاق عفيفي

من أسباب الانحراف والصدود عن الحق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد .

فللصدود عن الحق اسباب عديدة وموانع كثيرة منها الغرور الفكري والتقليد عن غير بينة وبصيرة وتحكم العادات السيئة في النفوس **والأنفة** والاستكبار والحسد الممقوت وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال وما إلى ذلك وكلها امراض أخلاقية وبيلة وأدواء مستعصية فتاكة والحديث عنها يطول فليكن حديثي في هذه الحلقة عن الغرور الفكري :

الغرور الفكري هو إعجاب الإنسان بعقله وافتتانه برأيه وإنزاله فوق منزلته وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهل له حتى يدخل فيما لا يعنيه وما ليس في وسعه وحدود طاقته فيعارض العبد به ربه في خلقه وتشريعه فضلا عن معارضته لنظرائه ومن هو أوسع منه فكرا وأكثر تجربة من العلماء .

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٣/٧٢

لقد وجد الشيطان منفذا لوسوسته في اغترار قوم بعقولهم وعلومهم فاستهواهم وزين لهم إن يخوضوا فيما ليس من شأنهم وأن يهجموا على بحث ما ليس في وسعهم بحثه .." (١)

"١٠- وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وأرى أن يكتفي بشراء مصاحف مجردة من التفسير وتوزع على الفنادق .

نائب رئيس اللجنة الدائمة

للبحوث العلمية والإفتاء

عبد الرزاق عفيفي

من أسباب الانحراف والصدود عن الحق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد .

فللصدود عن الحق اسباب عديدة وموانع كثيرة منها الغرور الفكري والتقليد عن غير بينة وبصيرة وتحكم العادات السيئة في النفوس **والأنفة** والاستكبار والحسد الممقوت وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال وما إلى ذلك وكلها امراض أخلاقية وبيلة وأدواء مستعصية فتاكة والحديث عنها يطول فليكن حديثي في هذه الحلقة عن الغرور الفكري :

الغرور الفكري هو إعجاب الإنسان بعقله وافتتانه برأيه وإنزاله فوق منزلته وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهل له حتى يدخل فيما لا يعنيه وما ليس في وسعه وحدود طاقته فيعارض العبد به ربه في خلقه وتشريعه فضلا عن معارضته لنظرائه ومن هو أوسع منه فكرا وأكثر تجربة من العلماء .

لقد وجد الشيطان منفذا لوسوسته في اغترار قوم بعقولهم وعلومهم فاستهواهم وزين لهم إن يخوضوا فيما ليس من شأنهم وأن يهجموا على بحث ما ليس في وسعهم بحثه .." (٢)

"منه خلعة فسألهم هلن الأشراف راضون فقيل له نعم فأتوا بها إليه فلبسها ونودى في البلاد باسمه ومع المنادى السيد الحسين بن يحيى والسيد عبد الله بن هاشم ثم جهز الشريف وصلى عليه ضحى أماما بالناس الشيخ عبد الواحد الشيبى فاتح البيت في مشهد حافل حضرت الأشراف والعلماء وعامة الناس ودفن بحوطة السيفى على يسار الذاهب إلى المعلاة بوصية منه ولم يحصل بموته للناس خوف ولا فزع ثم عقد

---

(١) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ١/١٨٠

(٢) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ١/٤٤٩

مجلس الاجتماع يوم الجمعة ثاني يوم وفاة أبيه بالحطيم حضرت الأشراف والعلماء ولأعيان والعساكر فأظهر الشريف سعيد أمر اسلطانيا كان برز له لما أرسله والده إلى السلطان أن الملك له بعد أبيه فقرئ بذلك المجمع ولم تقع مخالفة من أحد ثم ورد الأمر الذي كان طلبه الشريف بركات بالأرباع بعد موته فأخفاه الشريف سعيد وكان الإشراف متحققين خبره قبل وصوله إلى مكة فطلبوه من الشريف فأحضره إلى مجلس الشرع وسجل مضمونه وقسموا م دخول البلا دار باعا ربع لشريف مكة وربع تشيخ فيه السيد محمد بن أحمد بن عبد الله والسيد ناصر بن أحمد الحرث ومعهما جماعة من الاشراف والربع الثالث تشيخ فيه السيد أحمد بن غالب والسيد أحمد بن سعيد ومعهما جماعة والربع الرابع تشيخ فيه السيد عمرو بن محمد والسيد غالب بن زامل ومعهما جماعة فحصل بذلك التشاجر في القسمة والتعب والتشاحن ووقع في البلاد السرقة والنهب واختلفوا فيما بينهم وصارت الرعية بلا راع ولزم من ذلك أن كل صاحب ربع يكون له كتبة وخدام يجمعون ما هو له وجمع ابن غالب عسكرا وانضم إليه من العبيد كثير فتعب الشريف سعيد بذلك وأمرهم بترك العسكر فامتنعوا وقالوا أن السوالف سبقت بمثل هذا لصاحب الربع وشهد بذلك كبار الأشراف وذكر الشريف سعيد أنه متوهم من هذا الفعل وطلب من يكفل له ابن غالب فكلفه عشرة من الإشراف واصطلحا على ذلك ثم ادعى الشريف سعد أن عبيدهم أتلفوا البلاد والقصد أن أهل الأرباع كل منهم يرسل رجلا من جانبه يعس البلاد بالليل مع جماعته فأرسل ابن غالب أهاه السيد حسن وأرسل السيد محمد بن أحمد ابنة السيد بركات وأرسل الشريف سعيد السيد حمزة بن موسى بن سليمان في جماعة من الخيالة والمشاة ومعهم حاكم مكة القائد أحمد بن جوهر ولما قدم الحاج وخرج الشريف لملاقاته على المعتاد لم يخرج معه الإشراف في العرضة فبعد أن حج الناس ونزلوا عقد الشريف مجلسا فيه أحمد باشا حاكم جدة وأمير الحاج الشامي صالح باشا وأمير الحاج المصري ذو الفقار بيك وأمير الصرة وأكابر عسكر الحجين فلما حضروا جميعهم شكا من السيد أحمد بن غالب من جهة كتابة العسكر وأنه منا كد له في البلاد وأنه أفسد عليه والاشراف وأنه حصل منه ومن جماعته الفساد في البلاد وأرسلوا له السيد غالب بن زامل ليحضر فيظهر ممن الخلاف فامتنع من الحضور في بيت الشريف سعيد وقال أن كان القصد الاجتماع ففي المسجد وأن كان لكم دعوى فأوكل وكيلا يسمع ما تدعون به على فأرسلوا له من جهة كتابة العسكر وما بعده فأجاب بأن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن لصاحب الربع أن يكتب عسكر وأما قولكم أنه قد حصل من جماعتي أو عسكري مفسدة فأطلقوا مناديا ينادي معاشر الناس كافة هل أحد منكم يشتكى من أحمد ابن غالب أو من جماعته أو من عسكره مشيئا أو أخذوا حق أحد ظلما أو ضربوا أحدا فإن وجدتم مشتبكيا

صح ما قاله الشريف سعيد والأفلا وجه له ولكم وأما قولكم أنا تركنا العرضة معه فخفنا أن يقع شئ فينسب إلينا أو إلى جماعتنا كل هذا وجميع الأشراف اجتمعوا على قلب واحد وخيولهم مسرجة ودروعهم على أظهرهم وملؤا أجياد إلى العقد وتحركت **الأنفة** الهاشمية التي تأبى الضيم ولما سمعوا جواب السيد أحمد بن غالب علموا أنه لا وجه له عليه فسعوا في الصلح بينهما وكتب بينهما بذلك حجة وطلبوا من ابن غالب أن يأتي إلى الشريف سعيد فأتاه ليلة ثم أتاه الشريف سعيد ليلة أخرى وتم الصلح وحصل من الشريف سعيد في ذلك الموسم أنه أمر مناديا ينادى في البلاد بإخراج الأغراب من مكة من جميع الطوائف فحصل للناس مزيدة تعب فتكمل العسكر معه في ذلك فرجع فلما رأى أحمد باشا حاكم جدة اختلال حالة تسطى على ربع الحب الجراية التي ترد إلى مكة وأراد الاستيلاء عليه فبلغ ذلك الإشراف فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين أراد لنزول إلى جدة فحشكت عليه الاشراف بعد أن كملوه." (١)

"عليه فما بال الجبل لم يؤو والحمى لم يحم والعماد لم يحو وما باله في مسراته وأنا في ليل الهموم أتوقع تنفس صحبها وأبتهل إلى الله تعالى في طلوع شمسها فعند ما حلت أكف الابتهال عري الدجى ولاح من تنفس صبح الوصال أشعة شمس المنى حال بين طرفي وسناها قذاة العين وأصبحت مصابا بعين أعوذ بالله من أن يلهى الشيخ بزخرف المتمشدق أو تستميله أقاويل المتملق والزخرف عتبة التلاشي والتمشدق باب الهوى والأقاويل مطية الكذب والدخيل قذال يد الرد والتملق مزراب النفاق ولي في محبته الود الثابت والقلب الصابر واللسان الرطب والفم الشاكر وله مني الوداد المحض والقصائدا لغر ولي منه أنه المتوجع ولوعة المصاب وحرقة المهجور وخشية المرتاب وما أراه من اقتفائه أثر المتلبس عليهم الأمر في كسر زجاجة ودادي من زيد بن عمرو ولا غرو قديد مي الجبين أكليله وتهجر الحسام قيونه وكثيرا ما يضل المدلج دليله وتخطى المؤمل ظنونه وكان مع ظهوره بزي الفقراء من الدارويش كثير **الأنفة** زائد الكبرياء والعجب ومن هنا حرم لذات المعاشرة واستعرض أكدار المذمة وهذا عندي من الحمق العظيم مع إنه ينافيه جودة تخيله في الشعر وقد يقال إن الشعر موهبة لا يتوقف أمره على وجود الصفات الكاملة بأسرها وأما أمر التناقض في الأحوال فكثير من يتبلى بها وهي وصمة لا راد للطعن فيها بحال ومما يحسن إيراده في هذا الشأن ما يروى عن الاسكندر إنه رأى رجلا عليه ثياب أو تلبس ثيابا على قدر كلامك وقولهم غن تشاكل بعضك أصله أن سكرانا مر وهو يهلل فقيل له ذلك انتهى وأشعار فتح الله كثيرة مطبوعة مرغوبة

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ١/٢٨١

فمن جيدها قصيدته اللامية التي مطلعها:

غير وفاء الحسان يحتمل ... وفي سوى الصبر يحسن الأمل

فخل ما القلب فيه مطرب ... لبعده والمزاج منفعل

وعد عن نظرة رميت بها ... فغير جرح اللحاظ يندمل

سمعت بالوصل ثم همت به ... أكل صب قبل الهوى غفل

دنوت من منهل على ظمأ ... ودونه البيض دونها الأسل

فمن زلال الوصال خذ بدلا ... فما لمثلي إذا قضى بدل

هم الظباء الذين إن بعدوا ... قتلت شوقا وإن دنوا قتلوا

السالبون البقاء إن رحموا ... السافكون الدماء إن عدلوا

لاهون لا يستخفهم حزن ... عليك مستحسنون ما فعلوا

ولا لقتلى لحاظهم عدد ... ولا لا طراف بيضها فلل

هم حرمونا الخدود نلثمها ... وكل وقت يمسها الخجل

وحرموا العطف قسوة وهم ... الغصون والغصن شأنه الميل

أولوا الثنايا البرد سلسلها ... والمقل المنتمى لها النجل

من فرق السحر فيهم اجتمعت ... أسماء منها الرضاب والكحل

من جعلوا الورد يستظل به ... الطلع وأعلاه نرجس خضل

هي الأماني المبيد موردها ... ورب ورد من دونها الأجل

ولي فؤاد أطاع ناظره ... كلاهما بالمشيب مشتعل

فالطرف فيما عناه متهم ... وذا بما لا يعنيه مشتغل

وذبت عشقا لم أدر أم سقما ... بل في ما أعظمى له سبل

لكل عضو إذا وضعت يدي ... يصدها من صبابتي شعل

أود آها وليس تنفعني ... وكتمها فوق علتي علل

لا الرشد عندي ولا الفؤاد ولا ... العقل ولا الصبر لي ولا الحلول

أنا الذي في الأنام حيره الحب ... فما الاهتداء ما الحيل

فمن لطرفي أومن لقلبي في ... الحب وذا هائم وذائمل

خلقت صبا كأنما خلقت ... له العيون الفواتك النحل

يودع أحشاه من كنائنها ... ودائعا ما اهتدى لها ثقل

كمكرمات الأستاذ تودعه ... الجود ولا يتهدي لها البخل

وهي قصيدة طويلة وفي هذا القدر منها كفاية وأرق منها وأشهى قصيدته الدالية التي مدح بها أبا الأسعاد الوفائي وأخاه ومطلعها:." (١)

"محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن جمال الدين بن حسن بن زين العابدين الملقب علاء الدين الحصني الأصل الدمشقي المعروف بالحصكفي مفتي الحنفية بدمشق وصاحب التصانيف الفائقة في الفقه وغيره منها شرح مطول عليه قدره في عشرة أسفار كتب منها سفرا واحدا وصل فيه إلى باب الوتر والنوافل وسماه خزائن الأسرار وبدائع الأفكار وله شرح ملتقى الأبحر سماه الدر المنتقى وشرح المنار في الأصول سماه أفاضة الأنوار وشرح القطر في النحو ومختصر الفتاوى الصوفية والجمع بين فتاوى ابن نجيم جمع التمرتاشي وجمع ابن صاحبها وله تعليقة على صحيح البخاري تبلغ نحو ثلاثين كراسة وعلى تفسير القاضي البيضاوي من سورة البقر وسورة الأسراء وغير ذلك من رسائل وتحريرات وكان عالما محدثا فقيها نحويا كثير الحفظ والمرويات طلق اللسان فصيح العبارة جيد التقرير والتحرير إلا أن علمه أكثر من عقله ولد بدمشق وقرأ على والده وعلى الإمام محمد المحاسني خطيب دمشق المقدم ذكره ولازمه وانتفع به وبلغت محبته له إلى أن صيره معيد درسه في البخاري وأجازه إجازة عامة في شوال سنة اثنتين وستين وألف وارتحل إلى الرملة فأخذ بها الفقه عن شيخ الحنفية خير الدين الرملي ثم دخل القدس وأخذ بها عن الفخر بن زكرياء المقدسي الحنفي السالف الذكر وحج في سنة سبع وستين وأخذ بالمدينة عن الصفي القشاشي وكتب له إجازة مؤرخة بعاشر المحرم سنة ثمان وستين وله مشايخ كثيرون منهم الشيخ منصور بن علي السطوحي نزيل دمشق والاستاذ القطب أيوب الخلوتي والشيخ عبد الباقي الحنبلي واشتغل عليه خلق كثير وأخذوا عنه وانتفعوا به أجلهم شيخنا الشيخ إسماعيل بن علي المدرس فقيه الشام الآن وأصحابنا الإجلاء الشيخ درويش الحلواني والشيخ إسماعيل بن عبد الباقي الكاتب والشيخ عثمان بن حسن بن هدايات والشيخ عمر ابن مصطفى الوزان وغيرهم وحضرته أنا بحمد الله تعالى وهو يقري تنوير الأبصار في داره وتفسير البيضاوي في المدرسة التقوية والبخاري في الجامع الأموي وانتفعت به وكان في أول عمره فقير الحال جدا فسافر إلى الروم في سنة ثلاث وسبعين ونهض به حظه لإقبال الوزير

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٢٨٠/٢

الفاضل عليه فولي المدرسة الجقمقية ثم فرغ عنها وطلب افتاء الشام فناله وقدم إلى دمشق بحشمة باهرة واستمر مفتيا خمس سنين وكان متحريا في أمر الفتيا غاية التحري ولم يضبط عليه شيء خالف فيه القول المصحح ولما توفي الشمس محمد بن يحيى الخباز الشهير بالبطنيني انحلت عنه بقعة التحديث بجامع دمشق فوجهت إليه ودرس بها وعلا صيته واشتهر أمره ثم سعى بعض حساده في كتابه ما هو عليه من الأنفة والخيلاء وزادوا أشياء وأرسلوا في ذلك كتبا إلى جانب الدولة فاستقر ذلك في عقول أصحاب الحل والعقد واتفق أنه مات في غضون ذلك العلامة المنلا أبو بكر بن عبد الرحمن الكردي المقدم ذكره وكان م درس السليمية فعرض فيها قاضي القضاة بدمشق المولى عبد الله بن محمد الطويل لنائبه شيخنا الهمام أحمد بن محمد المهمنداري فوجهت السليمية لشيخنا صاحب الترجمة ووجهت الفتيا لشيخنا المهمنداري وأعطى درس التحديث عنه للشمس محمد بن محمد العيثي وبقي على هذا نحو سنة ثم سافر إلى الروم واجتمع بشيخ الإسلام يحيى المنقاري وشكى إليه حاله فوجه إليه قضاء قاره وعجلون على التأييد وأعاد إليه بقعة التحديث وكان الوزير الفاضل يومئذ في محاصرة جزيرة كريت فتوجه إليه فلما وصل استقبله وأكرمه وفتحت مدينة قندية وهو ثمة فعينه الوزير لخطبة الفتح في الجامع الذي وسم باسم السلطان محمد بن إبراهيم وحصل له بذلك كمال الاشتهار ووجه إليه قضاء حماة فقدم إلى دمشق ودرس مدة ثم أشيع موته في الروم فوجهت عنه المدرسة السليمية والقضاء فبقي مدة صفر اليد ثم لما مات السيد محمد بن كمال الدين بن حمزة نقيب الشام وجهت إليه مدرسة التقوية ثم سافر إلى الروم وأضاف إليها قضاء صيدا ثم رجع إلى دمشق وبقي يفيد ويدرس إلى أن مات وكان موته يوم الاثنين عاشر شوال سنة ثمان وثمانين وألف عن ثلاث وستين سنة ودفن بمقبرة باب الصغير واتفق له قبل موته أحوال تدل على حسن الختام له منها إنه كان من حين ابتدأ درس البخاري في سنة موته يقرأ الفاتحة كل يوم في أول درسه وآخره ويهديها للنبي صلى الله عليه وسلم فوافق أنها كانت ختام درسه فإنه انتهى درسه في البخاري عند." (١)

"فتجريح المخالف بسبب المخالفة في الاجتهاد حرام، فقد يكون غيبة وقد يكون بهتانا. وقد عمل النورسي رحمه الله بهذا المنهج، فقد كان كثير من علماء عصره يخالفونه في كثير من القضايا، لكنه ما نطق بتجريح ولا تنقيص لواحد منهم. من ذلك مثلا عدم موافقته لبعضهم في ما ذهبوا إليه من أن السير في بعض أمور الحياة على النمط الغربي لا حرج فيه ولو كان مخالفة صريحة للشرع وذلك تمسكا بقاعدة الضرورات تبيح المحظورات. لكنه ما نطق بتجريح ولا تنقيص، ولما تمت محاجته في ذلك أجاب جواب

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤٦٦/٢

العالم الورع فأورد أدلته على خطأ هذا المذهب بأدب من غير تعنيف ولا تحقير ولا تهييج للمخالف. قال وهو يحكي ذلك: ((أرسل إلي قائد عام عددا من الضباط وحتى بعض العلماء الأئمة من اجل أن يعيدوني شيئا إلي الأمور الدنيوية، فقالوا نحن الآن مضطرون أي أننا مضطرون في تقليد بعض الأصول الأوربية وموجبات المدنية حسب القاعدة المعروفة-أن الضرورات تبيح المحضورات-، قلت لهم: إنكم منخدعون تماما، لأن الضرورة النابعة من سوء الاختيار لا تبيح المحظورات فلا يجعل الحرام بمثابة الحلال... فمثلا إذا سكر شخص بسوء اختياره بشربه الحرام ثم اقترف جريمة وهو سكران فإن الحكم يجري عليه ولا يكون بريئا بل يعاقب... وهكذا قلت للقواد والأئمة أي الأمور تعد ضرورية مما سوى الأكل والعيش، فالأعمال النابعة من سوء الاختيار والميول غير المشروعة لا تكون عذرا كجعل الحرام حلال... وحتى القانون الإنساني قد أخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار وميز بين الضرورة القاطعة غير الداخلة ضمن إطار الاختيار والأحكام الناشئة من سوء الاختيار. الا أن القانون الإلهي قد فرق بينهما بشكل أساسي وثابت راسخ ومحكم))(١). فأقام الحجة لمذهبه على مذهب غيره بأدلة علمية من غير تعرض لشخص المخالف ولا لحاله ولا وصفه بالنعوت المجرحة المثيرة لهوى النفوس وما جبلت عليها من الأنفة وحب الظهور. وزاد على ذلك

---

(١) –((سيرة ذاتية)) ص ٤٧٠-٤٧١.." (١)

"العام))(١). ثم بين وجه ذلك بقوله: ((فإن كان من مقتضى العادة أن التعريف بهم على التعيين يورث العداوة والفرقة وترك الموالفة لزم من ذلك أن يكون منهيا عنه إلا أن تكون البدعة فاحشة جدا... وما سوى ذلك فالسكوت عن تعيينه أولى))(٢). ((فالترجيح بما يؤدي إلي افتراق الكلمة وحدوث العداوة والبغضاء ممنوع))(٣) وحكى عن أبي حامد الغزالي أن أكثر الأخطاء والجهالات إنما رسخها العلماء من فرط المبالغة في إنكارها وتعيين أصحابها فتثور في نفوسهم نوازع الأنفة فتحصل العداوة بين الفريقين، ويبقى الإصرار على الجهالات، فلا الألفة بقيت ولا الجهالات ذهبت. وهذا ما يشير إليه بقوله: ((أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإذلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة.))(٤) وفي هذا المعنى أيضا يقول سعيد النورسي :" لو كان البعض

---

(١) رسائل عن النورسية، ٥٦/١

يضمر سوءا، فينبغي ألا يهاجم ، لأن كثيرا من السيئات كلما بقيت مستورة تحت ستار الحسنة ولم يمزق عنها حجابها وتغو فل عنها ، انحصرت في نطاق ضيق، وربما يسعى صاحبها لإصلاحها تحت حجاب الحياء، ولكن ما أن يمزق الحجاب ويرفع حتى يرمي بالحياء فيزال، وإذا ما أظهر معه الهجوم تتوسع السيئة توسعا هائلا "(٥).

٣-التزام آداب الحوار والمناظرة كما عرفها السلف الصالح.

---

(١) -((الموافقات)) ٤/١٠١. (دار إحياء الكتب العربية).

(٢) -نفسه ٤/١٠٢-١٠٣

(٣) -نفسه ٤/١٥٤.

(٤) -نفسه ٤/١٥٥.

(٥) - "مرشد أهل القرآن " ص ١٢٦." [١]

"فلطف الجمال مما يحول بين "الأنا" في دواخلنا وبين الكبر والعجب والطغيان، وهيبة الجلال تنهض "الأنا" من وهاد الضعف والسقوط والذلة والقنوط.. الجمال يغرينا بسمو الفكر، وشرف العدل، وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب. بينما يفجر الجلال فينا ينبوعا دفاقا من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة ويمنحنا **الحمية والأنفة** والاستعلاء على الجبن والخوف.

وما زال "الأنا" في الإنسان المعاصر، هو المعضلة الكبرى المستعصية على الحل، وهو ما فتئ في طغيانه أو انسحاقه يشكل سوسا ينخر في إنسانية الإنسان، وقد أعيا علاجه الفلاسفة والحكماء، وحار فيه الاخلاقيون والتربويون. لأن الدواء الذي يقدمونه له هو من صنع "الأنا" المريض نفسه، فيأتي معلولا لا جدوى منه.

أما الدواء الذي تقدمه "رسائل النور" فهو مزيج من الجمال والجلال الإلهيين، وهو موزون بميزان من رفع السماء ووضع الميزان، وخلق "الأنا" في الإنسان، وجعله مناطا للتكليف والسؤال، وهو دواء علته، وبلسم مرضه، الذي يفي بحاجته، ويحفظ له دوام الاستقامة والاعتدال، وباعتداله تعتدل الدنيا، أما إذا فرط أو أفرط فعلى الدنيا العفاء، لأن "الأنا" في الإنسان منبع كل خير في العالم إذا اعتدل واستقام، ومنبع كل شر في الدنيا إذا جنح وانحرف. وإذا كان ما من جميل إلا ويمازج جماله مهابة الجلال، ووقار العظمة والكبرياء،

---

(١) رسائل عن النورسية، ١/٧٠

وما من جليل إلا وله من الجمال نصيب، فكذلك فان كل ذي حياة – ولا سيما الإنسان – تشع من حياته معاني الأسماء الإلهية الحسنى، وصفاتها الجميلة والجليلة ، كما يرى النورسي.." (١)

"لقد تميزت هذه الشخصية بتصاعد حميتها القتالية على الدوام، وقد انتهى بها ذلك التصعيد إلى حد اشهار الحرب على أشرس الجحافل وأكثرها ضراوة، من معسكر الردة، وأعداء الملة..

لقد دفعت بهذا الرجل الفذ ظروف التاريخ والجغرافيا – بحكم انتمائه إلى بلد كان يعقد على رأسه راية الأمة الإسلامية – إلى أن يبارز كتائب الغرب المحتل، وأن يخرج فردا إلى الساحة، يحمل سيف البسالة الدينية والتحميس، في وقت كانت سنابك خيل العدو تقدح شررا، وتدنس شوارع الحاضرة الاسلامية اسطنبول، على إثر انهزام الدولة العثمانية في الحرب الكونية الأولى..

لقد ارتفع يومها صوت النورسي متمزقا بالحسرة **والحمية** يخترق الأسماع، يعيد إليها الوعي **والأنفة**، بعد أن أذهلتها النكبة، وكبلها الخذلان..

واضطرته الأقدار إلى أن يتصدى للسفياني وجها لوجه، وأن يرفع عقيرته بالاعتراض والإدانة لأعمال الحيدة والارتكاس عن الدين التي باشرت٥ا طغمة المرتدين، وأن يبادل المرتدين اللكمة لكمتين عن كل خطوة يخطونها على طريق الانحراف الملي..

لقد ولد النورسي في تربة تهيئه مؤهلاتها الثقافية والمعنوية لأن يكون معلم كتاتيب، أو لأن يضحى ربما – وبشيء من الحظ – مريد طريقة يردد في الحلقة راتب الأوراد والأذكار، أو هو خلق ليعيش– في أقصى حالات التوفيق – ليضحى وجها ضمن نخبة مجتثة عن ريفيتها، يتقلب في الحاضرة التركية، تتداوله أهواء الساسة والأحزاب، متأرجحا بين فترات الزهو والانتصار حينا، وفترات المرارة والاندحار أحيانا، لينتهي به المسار جفافة عركتها الأرجل و ألحستها كل أقذار العتبات..." (٢)

"إننا نجد حوادث كثيرة – تعد من صميم المغامرة – قد عاشها النورسي وتمرس بها وخرج منها على أكمل ما يكون قوة وصلابة، غير أنه لم يتخذ منها شواهد لعز شخصي أو مجد ذاتي، ولا جعلها خلفية إخبارية يومئ إليها كلما شاء أن يذكر بمرصود عطائه لأمته وملته.. وكل ذلك يكشف طبيعة الانخراط التجندي الخالص الذي طفق يقتحم به المعارك الحاسمة، بدءا من واقعة تخندقه على خطوط اللهب الأولى حين دعاه الواجب الملي والوطني إلى الجهاد..

---

(١) رسائل عن النورسية، ١٤/٢

(٢) رسائل عن النورسية، ٩/١١

لقد ظلت ذكرياته الحربية، وما وقع له في الجبهة من أحوال الابتلاء، وما لحقه في الالتحامات من شدائد وإصابات، وما استتبع ذلك من وقوعه في قبضة العدو، وما عاشه في الزنزانة من تجارب المنافحة الإيمانية وإظهار **الأنفة** وتحدي المخاطر، وما أسفرت عنه محنة الاعتقال من انعتاق أمكنه أن يفلت من الأسر وأن يشق آماد سيبيريا الثلجية مطاردا، مستترا، عائدا إلى جبهة القتال، ليستأنف دوره في المعركة التي لم تكن متكافئة، والتي كان يعرف أنها مصيرية، وأن مستقبل الأمة معلق بها وبما ستفرزه من نتائج على الصعيدين القومي والعالمي..

لقد ظل ذلك كله حبيس المواجد لا يكاد النورسي يومئ إليه إلا في معرض الترشيد والموعظة .. بل لقد أضحت تلك الذكريات مناط عاطفة مفعمة بالحمد والشكر والامتنان لربها بما هيأ وما أتاح لها من أسباب التوفيق والحماية .. ولم نلمس قط فيها أي وازع اعتدادي أو غروري يخرج الحدث عن نطاقه القدري المكين ..

بل إننا لم نعرف بعض تفاصيل تلك المرحلة إلا من خلال ما رواه بعض طلبة الإمام، مما يدل على أن النورسي لم يكن من الصنف الذي يعيش على مراجعة دفتره التجاري استنفادا لوطأة البطالة أو الإفلاس أو لدغدغة مشاعر الغرور التي تتضخم بها تفاهة النفس المنحطة..." (١)

"الرسائل كانت الإنجاز الروحي والفكري والمعرفي الباهر الذي فك به النورسي عن نفسه الحصار والعزلة، ومد جسور التواصل مع المجتمع ، بل ومع الأمة قاطبة حتى في تعاقب أجيالها. فقد حقق من خلال الرسائل ذاته، لا على أساس نرجسي أو تعويض قصوري أو مطمحي زائل،إذ الرسائل إنجاز من عمل العقل الباطن أو الروح الاستبصارية الجياشة، بدليل أن النورسي لبث يؤكد أنه كان يكرر قراءة الرسائل قراءة مستكشف، أو كمن كان أجنبيا عنها..

لقد أنجز النورسي رسائله القرآنية بتوفيق رباني ثابت، ذلك لأنه عندما قرر أن ينجو بنفسه المؤمنة وأن يقصيها عن القطيع، كانت دوافعه في ذلك هي روحه المفعمة بالإيمان وجبلته المشتحنة **بالأنفة** والتأبي عن التدجين والرضى بالدنية..

وواضح أن النورسي لم يكن يتوقع أن عقود الحبس ستتمخض عن تشييد ذلك الصرح الروحي القرآني الذي هو رسائل النور، إذ لم يكن مهيأ لذلك الإنجاز على أكثر من صعيد، فهو من الناحية الفكرية كان صاحب عقلية خطابية جدالية، فهو خطيب مرشد، ميداني، عملي، ولم يكن ذا نزعة نظرية طاغية نجدها تجنح –

---

(١) رسائل عن النورسية، ١٥/١١

عادة – بأهل النظر إلى طلب العزلة والسكينة وإدمان التأمل.. إنها صفات لم تتعمق في حياة النورسي قبل مرحلة العزلة.. وهو من الناحية النفسية لم يكن شخصية انعزالية تحضن بيض فكرها في دفء الخلوة والسكينة والانقطاع كما هو شأن أغلب المفكرين.

" إن أكثر أحداث حياتي قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيري، إذ أعطيت سيرا معينا ووجهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم" (١).

لقد كان شخصية اجتماعية راسخة لا تجد أكسوجينها إلا من خلال تفعيل أواصر الجدال والمحاورة. ولم يكن النورسي – آنئذ – محتبس الروح في مزاج نفسي ديدنه الانغلاق التأملي السلبي، بل كان شخصا استقطابيا، مبادرا.

---

(١) المكتوبات ٤٨٤." [1]

"فروح النورسي روح عسكرية بجبلتها، وهو ما تكشف عنه محبته الشديدة للنظام والانضباط وأخذه بمبدإ الصرامة في الحياة وبالدقة الكبيرة في استغلال الوقت .. بل لقد ظلت جبلته العسكرية تعرب عن نفسها من خلال التجسيدات المجازية والاستعارية التي كانت تتقمصها نصوصه وتعابيره وخطبه.. فأدبية النورسي كانت تستمد مادتها –كما سنرى لاحقا – من وجدان يعتد بالنظام، ومن مشاعر متفتحة على الانضباط، ومن عاطفة ترى في الجندية خير إطار تأهيبي يتيح للإرادات المتعددة أن تتظافر وتنصهر في إرادة واحدة قوية وخارقة..

لقد أحب النورسي القوة، ورأى مجال تحققها يتم على صعيد الجماعة المنظمة، وكانت الجندية هي الصعيد الذي كان يجد فيه مبتغاه النفسي ماثلا: القوة والنظام والدقة وتحدي الصعاب وقهر الضعف..

عاش النورسي جنديا من غير أن ينخرط في المؤسسة العسكرية بمعناها الوضعي والرسمي، فقد نزعت به حميته البطولية إلى أن يتخذ صفه حين كان يدرس في بعض أكوار الجهات الشرقية، مرفقا للتدريب الحربي والتمرس بالقتالية، إذ حول طلابه إلى جنود وفدائيين مسلحين ومتأهبين لخوض غمار المعركة ضد العدو الملي، فلما اجتاح العدوان بلاده، كانت فرقته الطلابية في طليعة المتصدين، وكان الضحايا منهم يتكاثرون، وقد رجحت بسالتهم الفذة الكفة حينا، وأعاقت حركة العدو حينا آخر، وحمت الانسحاب حينا ثالثا، لتجد ما تبقى من عناصرها في النهاية، وعلى رأسهم النورسي، يواجهون بصدورهم الموت ويقعون في قبضة

---

(١) رسائل عن النورسية، ١٣/١٤

العدو نازفين..

لم يكن النورسي ليأتي هذا كله لو أنه كان مجرد مثقف نزاع إلى السكينة، جانح إلى العافية المادية ولو على حساب الذمة **والأنفة** كما هو السائد في أوساط من المثقفين. لقد حارب النورسي لأنه كان يحمل روحية جبلت على **الحمية** ورد الضيم وصون الشرف..." (١)

"وربما كانت هناك حادثة واحدة لفتتنا إليها سيرته، وتتمثل في واقعة صدامه مرة مع بعض من غاروا منه من الصبيان. وما عدا هذه الحادثة، فليس هناك مكدر يذكر في تلك المرحلة، بل لا يمكننا أن نعتبر تلك الحادثة مكدرا حقيقيا، إذا ما استحضرنا ملابستها وما انطوت عليه من منازع التجاوز الانتصاري غير المشوب، إذ سارع الطفل إلى خصومه يطلب إليهم النزال فرادى، وهو ما يعكس روحا انتصارية ظاهرة وملموسة لم يكن يسع المحيط المتساكن معها – منذ الصغر والنعومة – إلا أن يتحاشاها ويتفادى تحديها وألا يواجهها إلا على نحو قطيعي زمري جبان. ثم هل تخلو سيرة طفل ما في هذا الوجود – لاسيما إذا كان نابغا – من حوادث صدام مبعثها الغيرة ؟

على أنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن مرحلة التلمذة والتحصيل ميزت في شخصيته فرادة وبطولة، من خلال فوز تحصيلي وتعال على الأتراب، واستجابة قائمة على التحدي **والأنفة**. وكلها مو ا صفات لابد أن تستمر معه إذا كانت صفات أصيلة في النفس، إذ لا يخفى أن ملامح الفردية تتحدد من على مقعد الابتدائية.

ترى هل نسابق النتائج، ونقرر أنها كانت مرحلة استوعبت في فهرسها خصائص روح النورسي ومنحاه الوجودي، وأن جوهره النفسي وطبيعته المزاجية ومقومات شخصيته قد استجمعتها هذه المرحلة الغضة من حياته، إذ تكشفت فرديته عن شخصية دائبة في تنفيذ برنامجها، غائبة عن غير ما يتصل بإطار ذلك البرنامج، متجاوزة للتواضعات والأعراف التي تؤطر المسار الاعتيادي للناس؟." (٢)

"لا تمشمشوا مشاش الطير : المشاش هو كل عظم لا مخ فيه أى لا تمصوه ممضوغا

لا تنهكي : لا تبالغي في القطع

لا توله والدة عن ولدها : أى لا يفرق بينهما

لا خلاق له : أى لا حظ له ولا نصيب

لا خلاق لهم : أى لا حظ ولا نصيب لهم فى الخير

---

(١) رسائل عن النورسية، ٢٩/١٣

(٢) رسائل عن النورسية، ٤٨/١٣

لا دعوة فى الإسلام : أى لا ادعاء للأولاد فى الإسلام وكان من أمر الجاهلية أن من ادعى ولدا نسب إليه فلما جاء الإسلام جع

لا عقر فى الإسلام : أى لا ذبح على القبور فى الإسلام لأنهم كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر

لا يتخذ خبنة : لا يأخذ فى ثوبه

لا يتسنى : لا يتغير

لا يتمثل : لا يظهر بصورتي لأحد في المنام

لا يحتسب : لا يظن ولا يرجو ولا يخطر بباله

لا يحل : أى لا يدخل

لا يسمن : أى لا يكوين

لا يعضد : أى لا يقطع

لا يغل : من الغل والإغلال وهو الخيانة في كل شيء ، والمعنى أن هذه الثلاث تستصلح بها القلوب فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر

لا يفتر : أى لا يكسل

لا يفرك : أى لا يبغض

لا يقصرون : لا يتوبون ولا يرجعون

لا يواسى بينهم : لا يسوى بينهم فيعلم ابن الغنى ومن يعطيه مالا أكثر ما لا يعلم ابنالفقير أو اليتيم

لائتفكت : يقال ائتفكت

لابتى المدينة : ما بين جبليها

لاتوعى : أى لا تمسكى

لأواء : لأواء مشقة وشدة

لأمة : اللأمة هى الدرع

لأمتهم : اللامة هى الدرع يلبسه المحارب

لأوائها : اللأواء هى الشدة وضيق العيش

لبا

لب : أى عقل الرجل المحترز فى الأمور المستظهر فيها

لباسكم : ما تلبسونه من نحو إزار ورداء أو قميص وعمامة

لبتك : اللبة النقرة التى فوق الصدر وفيها تنحر الإبل

لبثوا : مكثوا وأقاموا

لبحرا : أى واسع الجرى

لحاء : أى منازعة ومخاصمة

لحاكم : أى قبحكم ولعنكم

لحانا : كثير اللحن فى الكلام

لخلوف : أى رائحة الفم

لذى مرة : أى صاحب قوة

لط : أخفى وستر

لط : أى ستر

لغيرى : من الغيرة وهى **الحمية والأنفة**

لقا : كثير الكلام وكان فى أبى ذر شدة على الأمراء وإغلاظ لهم فى القول وكان عثمان يبلغ عنه يقال رجل لقاق بقا

لقاصفين : أى الذين يزدحمون حتى يقصف بعضهم بعضا

لقحة : اللقحة هى الناقة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة

لقحة : الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة

لقست : أصابها الغثيان والكسل والخمول أو المرض

لقوح

لكظيظ : أى ممتلئ مزحوم

لكع : اللكع هو الأحمق ا

للمتحابين : لمن وقع بينهما العشق ، وهو محتمل للتثنية والجمع

للمقوين : أى المسافرين إذا نزلوا بأرض قفر

لم تقبل لها صلاة : أى لا تصح صلاتها إلا بغطاء رأسها وسائر جسدها إلا الوجه والكفين

لم يتند بدم حرام : أى لم يصب دما حراما

لم يرتفع عنها : أى تسلسل فيهم واستمر

لم يرجع كفافا : لم يرجع بخير أو بثواب يغنيه

لمثل هذا : أى للجلوس قبل الصلاة

لمحابك : ما تحبه و

لن تحصوا : لن تطيقوا

لهاته : اللهاة أقصى الفم

لوديك : الودى صغار النخل

لولا أن أشق : أي لولا أن أثقل عليهم، من المشقة وهي الشدة.

ليمدر : ليطين

لينتثر : من الانتثار والاستنثار وهو إخراج ما فى الأنف بالنفس

ليوث : جمع ليث وهو الأسد

مج : لفظ الماء ونحوه من فمه وطرحه وألقاه

مد : طول لهم فى العمر

مشربته : غرفته

مؤدب : أى صانع مأدبة وعليها طعام

مراح الغنم : الموضع الذى تروح إليه الماشية أى تأوى إليه ليلا

مزهد : المزهد القليل الشىء

مضرجين : ملطخين

مضر : قبيلة من قبائل العرب

مؤ

مؤخرة الرحل : خشبة توضع على ظهر البعير يستند إليها الراكب

ما أفرك : أى ما الذى جعلك تفر وتهرب من لا إله إلا الله

ما حملتم : أى من الطاعة والصبرعلى البلية

ما حملوا : ما كلفوا من العدل وإعطاء حق الرعية

ماحل : خاصم وجادل

مبتنى : وقت دخوله عليها وابتنائه بها

مبغي عليهم : مظلومون

مبير : مهلك يسرف فى إهلاك الناس

متخوض : متصرف في مال الله بما لا يرضاه وآخذ له بغير حق

متضمخ : متلطخ به

متوافرون : متواجدون بكثرة

مثراة : مسببة للغنى وزيادة المال

مثنين : شاكرين ذاكرين لتفضلك بها علينا

مجاف : مغلق

مجامرهم : جمع مجمرة وهى المبخرة سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الج

مجخيا : أى مائلا عن الاستقا

مجللة : مكسوة برداء ثمين

مجمعون : أى مجتمعون لصلاة الجمعة

محبنطئا : هو الغاضب المستبطئ للشيء

محتاجين فى المسجد

محدثة : أمر جديد لم يكن موجودا

محشته النار : أحرقته

محض : أى أخلص

محفلة : المحفلة هى التى حبس اللبن فى ضرعها تغريرا للمشترى

محفلة : المحفلة هى التى حبس اللبن فى ضرعها تغريرا للمشترى

محفلة : مجموع فى ضرعها اللبن من حفل أى جمع

محفلة : هى التى حبس اللبن فى ضرعها تغريرا للمشترى

محل الهدي : الموضع والوقت الذي يحل فيه ذبحه

محلي : مكان إحلالي من الإحرام

مخرفة الجنة : أى فى بساتينها الزاهية وروضاتها البهية

مدى : جمع مدية وهى السكين

مد رشائها : حبلها الذى يتوصل به لمائها والمراد من جميع الجهات

مدر : مفردها مدرة وهى التراب الملبد أو قطع طين يابسة أو نحو ذل

مذحج : اسم قبيلة

مرابض : مفردها مربض وهو مأوى الغنم

مرابض الغنم : مأواها ومقرها

مرابضها : أى مأواها." (١)

"مأتم : في بعض الحديث ﴿ فأقاموا عليه مأتما ﴾ المأتم في الأصل: مجتمع الرجال والنساء في الحزن والسرور، ثم خص به اجتماع النساء للموت. وقيل: هو للشواب منهن لا غيره. والميم زائدة

مأثرة : فيه ﴿ الا إن كل دم ومأثرة من مآثر الجاهلية فإنها تحت قدمي هاتين ﴾ مآثر العرب: مكارمها ومفاخرها التي تؤثر عنها وتروى. والميم زائدة

مأرب : قد تكرر في الحديث ذكر ﴿ مأرب ﴾ بكسر الراء، وهي مدينة باليمن كانت بها بلقيس

مأزم : فيه ﴿ إني حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها ﴾ المأزم: المضيق في الجبال حيث يلتقي بعضها ببعض ويتسع ما وراءه. والميم زائدة، وكأنه من الأزم: القوة والشدة. ومنه حديث ابن عمر ﴿ إذا كنت بين المأزمين دون منى، فإن هناك سرحة سر تحتها سبعون نبيا ﴾ وقد تكرر في الحديث

مأصر : في حديث سعيد بن زيد ﴿ حبست (ضبط في ا: ﴿ حبست ﴾) له سفينة بالمأصر ﴾ هو موضع تحبس فيه السفن، لأخذ الصدقة أو العشر مما فيها. والمأصر: الحاجز. وقج تفتح الصاد بلا همز، وقد تهمز، فيكون من الأصر: الحبس. والميم زائدة. يقال: أصره يأصره أصرا، إذا حبسه. والموضع: مأصر ومأصر. والجمع: مآصر

مأق : فيه ﴿ أنه كان يكتحل من قبل مؤقه مرة، ومن قبل مأقه مرة ﴾ مؤق العين: مؤخرها، ومأقها: مقدمها. قال الخطابي: من العرب من يقول: مأق ومؤق، بضمهما، وبعضهم يقول: مأق ومؤق، بكسرهما، وبعضهم [يقول] (زيادة من ا) : ماق بغير همز، كقاض. والأفصح الأكثر: المأقي، بالهمز والياء، والؤق بالهمز والضم، وجمع المؤق: آماق وأماق، وجمع المأقي: مآقي. ومنه الحديث ﴿ أنه كان يمسح المأقيين ﴾ هي

---

(١) جامع غريب الحديث، ٣٢/١

تثنية المأقي. وفي حديث طهفة ﴿ ما لم تضمروا الإماق ﴾ الإماق: تخفيف الإمآق، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم، وهو من أمأق الرجل، إذا صار ذا مأقة، وهي **الحمية والأنفة**. وقيل: الحدة والجراءة. يقال: أماق الرجل يمئق إمآقا، فهو مئيق. فأطلقه على النكث والغدر؛ لأنهما (في الهروي: ﴿ لأنه يكون من أجل **الأنفة والحمية** أن يسمعوا ويطيعوا ﴾ ورواية اللسان كرواية ابن الأثير، لكن فيه: ﴿ أن تسمعوا وتطيعوا ﴾. وجاء في الصحاح: ﴿ يعني الغيظ والبكاء مما يلزمكم من الصدقة. ويقال: أراد به الغدر والنكث ﴾) من نتائج **الأنفة والحمية** أن يسمعوا ويطيعوا. قال الزمخشري: ﴿ وأوجه من (في الفائق ٢/٨: ﴿ منه ﴾) هذا المكان الإماق مصدر: أماق (بعده في الفائق: ﴿ على ترك التعويض. كقولهم: أريته إراء. وكقوله تعالى: وإقام الصلاة ﴾) ، وهو أفعل من الموق، بمعنى الحمق. والمراد إضمار الكفر، والعمل على ترك الاستبصار في دين الله تعالى ﴾

مأل : في حديث عمرو بن العاص ﴿ إني والله ما تأبطتني الإماء، ولا حملتني البغا في غبرات المآلي ﴾ المآلي: جمع مئلاة بوزن سعلاة وهي ها هنا خرقة الحائض، وهي خرقة النائحة أيضا. يقال: آلت المرأة إيلاء، إذا اتخذت مئلاة، وميمها زائدة. نفى عن نفسه الجمع بين سبتين: أن يكون لزنية، وأن يكون محمولا في بقية حيضة

مأم : في حديث ابن عباس ﴿ لا يزال أمر الناس مؤاما، ما لم ينظروا في القدر والولدان ﴾ أي لا يزال جاريا على القصد والاستقامة. والمؤام: المقارب، مفاعل من الأم، وهو القصد، أو من الأمم: القرب. وأصله: مؤامم، فأدغم. ومنه حديث كعب ﴿ لا تزال الفتنة مؤاما بها ما لم تبدأ من الشام ﴾ مؤام ها هنا: مفاعل بالفتح، على المفعول؛ لأن معناه: مقاربا بها، والباء للتعدية. ويروى ﴿ مؤما ﴾ بغير مد

مأن : في حديث ابن مسعود ﴿ إن طول الصلاة وقصر الخطبة مئنة من فقه الرجل ﴾ أي إن ذلك مما يعرف به فقه الرجل. وكل شيء دل على شيء فهو مئنة له، كالمخلقة والمجدرة. وحقيقتها أنها مفعلة من معنى ﴿ إن ﴾ التي للتحقيق والتأكيد، غير مشتقة من لفظها، لأن الحروف لا يشتق منها، وإنما ضمنت حروفها، دلالة على أن معناه١ فيها. ولو قيل: إنها اشتقت من لفظها بعد ما جعلت اسما لكان قولا. ومن أغرب ما قيل فيها: أن الهمزة بدل من ظاء المظنة، والميم في ذلك كله زائدة. وقال أبو عبيد: معناه أن هذا مما يستدل به على فقه الرجل. قال الأزهري: جعل أبو عبيد فيه الميم أصلية، وهي ميم مفعلة (بعد هذا في الهروي: ﴿ فإن كان كذلك فليس هو من هذا الباب ﴾)." (١)

---

(١) جامع غريب الحديث، ٢/٣٣٣

"

٦١

٣٦ . باب حديث الإفك

وفيه وكلهم حدثني أي كل واحد منهم حدثني ولذلك أفرد حدثني وجعل مفعوله طائفة من حديثها.

قوله : (فكنت أحمل) على بناء المفعول وقولها وأنزل فيه من بناء المفعول أو الفاعل من النزول والله تعالى أعلم اهـ سندي.

٦٢

قوه : (وهو يريبني) ضمير هو للشأن أو هو مبهم وقولها إني لا أعرف إلخ بيان هـ اهـ سندي.

٦٣

قوله : (أغمصه) بغين معجمة وصاد مهملة أي أعيبه عليها. قوله : (الداجن) بكسر الجيم الشاة وقيل ك ما يألف البيوت شاة أو غيرها.

قوله : (رجلا صالحا) كاملا في الصلاح لم يتقدم منه ما يتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمية** ولم تغمصه في دينه ولكن كان بين الحيين مشاحة قبل الإسلام ثم زالت وبقي حكمها ببعض **الأنفة** اهـ قسطلاني.

٦٤

قوله : (قلص دمعي) بالقاف واللام المفتوحتين والصاد المهمة انقطع لأن الحزن والغضب إذا أخذ أحدهما فقد الدمع لفرط حرارة المصيبة.

قوله : (ما رام) بالر ا ء والألف بعدها ميم ما فارق.

رقم الجزء : ٣ رقم الصفحة : ٣

قوله : (من البرحاء) بضم الموحدة وفتح الراء والحاء المهملة ممدودا أي من الشدة من ثقل الوحي اهـ. قسطلاني.

قوله : (ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي) هو بمنزلة التأكيد بكلمة ثم مثل كلا سيعلون ثم كلا سيعلمون اهـ. سندي.

٦٥

قوله : (قالت : ابني الخ) قال الحافظ ابن حجر ، والذين تكلموا في الافك من الأنصار ممن عرفت أسماءهم عبداللهبن أبي وحسانبن ثابت ، ولم تكن أم واحد منهما موجودة إلا أن يكون لأحدهما ، أم من

رضاع ، أو غيره اهـ قسطلاني.

٦٦

قوله : (فقالت : أي عذاب أشد من العمى) كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان ، وإلا فهي في ابن أبي ، والله تعالى أعلم.

٣٧ . باب : غزوة الحديبية

." (١)

"يختص بعد إحصانها بل يجري مع إحصانها كما صرح به في قوله : ﴿فإذا أحصن﴾ الآية ، أو لأن الأمة المسؤول عنها كانت غير محصنة ، وقيل : الإحصان هنا بمعنى العفة عن الزنا. قوله : (ولو بضفير) أي : بشعر منسوخ ، وبحبل مفتول ، فهو بمعنى مضفور.

٢٣ . باب لا يثرب على الأمة إذا زنت ولا تنفى

قوله : (لا يثرب على الأمة) : بمثلثة ، أي : لا يعنفها ويوبخها.

قوله : (ولا تنفى) الجمهور على أنها تنفى كالعبد ، ولا يبالي بضرر السيد في عقوبات الجرائم بدليل أنه يقتل ، وإن تضرر السيد. قوله : (فليبعها) إنما جاز بيعها مع أنه لم يرتضها لنفسه لرجاء أنها قد تستعف عند المشتري.

٣٤٩

٢٦ . باب من أدب أهله أو غيره دون السلطان

قوله : (يطعن) : بضم العين. قوله : (فبي الموت) أي : فالموت متلبس بي.

رقم الجزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٢٨

قوله : (وقد أوجعني) أي : لكزه إياي ، وقوله : ونحوه ، أي : نحو الحديث المذكور.

٠٥٣

٧٢ . باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله

قوله : (باب من رأى مع امرأته رجلا ، فقتله) لم يبين حكمه ، وقد اختلف فيه ، فالجمهور على أن عليه القود ، ولا يسقط عنه في ظاهر الحكم ، وإن جاز له فيما بينه وبين الله قتله إذا علم إحصانه وزناه.

قوله : (غير مصفح) : بفتح الفاء وكسرها.

---

(١) حاشية السندى على صحيح البخارى، ١٦/٣

قوله : (من غيرة سعد) الغيرة : بفتح الغين. قال ابن الأثير : **الحمية والأنفة**. وقال الكرماني المنع ، أي : المنع من التعلق بأجنبي بنظر ، أو غيره وغيرة الله منعة عن المعاصي.

قوله : (أورق) هو ما في لونه بياض إلى سواد من الورقة ، وهو اللون الرمادي.

قوله : (عرق) أي : أصل من النسب ، اه شيخ الإسلام.

٣٥١

٣٥٢

٣٠ . باب من أظهر الفاحشة واللطخ والتهمة بغير بينة

". (١)

"قوله : (فكنت أحمل) على بناء المفعول وقولها وأنزل فيه من بناء المفعول أو الفاعل من النزول والله تعالى أعلم اه سندي.

٦٢

قوه : (وهو يريبني) ضمير هو للشأن أو هو مبهم وقولها إني لا أعرف إلخ بيان ه اه سندي.

٦٣

قوله : (أغمصه) بغين معجمة وصاد مهملة أي أعيبه عليها. قوله : (الداجن) بكسر الجيم الشاة وقيل ك ما يألف البيوت شاة أو غيرها.

قوله : (رجلا صالحا) كاملا في الصلاح لم يتقدم منه ما يتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمية** ولم تغمصه في دينه ولكن كان بين الحيين مشاحة قبل الإسلام ثم زالت وبقي حكمها ببعض **الأنفة** اه قسطلاني.

٦٤

قوله : (قلص دمعي) بالقاف واللام المفتوحتين والصاد المهمة انقطع لأن الحزن والغضب إذا أخذ أحدهما فقد الدمع لفرط حرارة المصيبة.

قوله : (ما رام) بالراء والألف بعدها ميم ما فارق.

رقم الجزء : ٣ رقم الصفحة : ٣

قوله : (من البرحاء) بضم الموحدة وفتح الراء والحاء الـمهملة ممدودا أي من الشدة من ثقل الوحي اه. قسطلاني.

---

(١) حاشية السندى على صحيح البخارى، ٨٥/٤

قوله : (ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي) هو بمنزلة التأكيد بكلمة ثم مثل كلا سيعلون ثم كلا سيعلمون اهـ. سندي.

٦٥

قوله : (قالت : ابني الخ) قال الحافظ ابن حجر ، والذين تكلموا في الافك من الأنصار ممن عرفت أسماءهم عبداللهبن أبي وحسانبن ثابت ، ولم تكن أم واحد منهما موجودة إلا أن يكون لأحدهما ، أم من رضاع ، أو غيره اه قسطلاني.

٦٦

قوله : (فقالت : أي عذاب أشد من العمى) كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان ، وإلا فهي في ابن أبي ، والله تعالى أعلم.

٣٧ . باب : غزوة الحديبية

(١٦/٣)

قوله : (باب غزوة الحديبية) وفيه قولهصلى الله تعالى عليه وسلم : "فإن يأتونا كان الله قد قطع عينا من المشركين".

٦٧." (١)

"قوله : (وقد أوجعني) أي : لكزه إياي ، وقوله : ونحوه ، أي : نحو الحديث المذكور.

٣٥٠

٢٧ . باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله

قوله : (باب من رأى مع امرأته رجلا ، فقتله) لم يبين حكمه ، وقد اختلف فيه ، فالجمهور على أن عليه القود ، ولا يسقط عنه في ظاهر الحكم ، وإن جاز له فيما بينه وبين الله قتله إذا علم إحصانه وزناه.

قوله : (غير مصفح) : بفتح الفاء وكسرها.

قوله : (من غيرة سعد) الغيرة : بفتح الغين. قال ابن الأثير : **الحمية والأنفة**. وقال الكرماني المنع ، أي : المنع من التعلق بأجنبي بنظر ، أو غيره وغيرة الله منعة عن المعاصي.

قوله : (أورق) هو ما في لونه بياض إلى سواد من الورقة ، وهو اللون الرمادي.

---

(١) حاشية السندى على صحيح البخارى، ٣٤/٥

قوله : (عرق) أي : أصل من النسب ، اهـ شيخ الإسلام.

٣٥١

٣٥٢

٣٠ . باب من أظهر الفاحشة واللطخ والتهمة بغير بينة

(٨٥/٤)

قوله : (واللطخ) أي : الرمي بالشر. وقوله : والتهمة بفتح الهاء وسكونها.

قوله : (وحرة) : بفتح المهملة دويبة كسام أبرص. وقيل : دويبة حمراء تلصق بالأرض. وقيل : كالوزعة تقع في الطعام فتفسده.

قوله : (أعلنت) أي : بالسوء والفجور.

قوله : (خذلا) بمعجمة مفتوحة ، فمهملة ساكنة ، أي : غليظ الساق.

٣٥٣

٣١ . باب رمي المحصنات

قوله : (السبع الموبقات) أي : المهلكات والتقييد بالسبع مثال إذ الموبقات لا تنحصر فيها إذ ورد منها : اليمين الفاجرة ، وعقوق الوالدين ، والإلحاد في الحرم ، وشرب الخمر ، وقول الزور ، والغلول ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله وغير ذلك.

قوله : (والتولي) أي : الأعراض والفرار.

وقوله : (يوم الزحف) ، أي : القتال ، وقوله : الغافلات ، أي : عما نسب إليهن.

٣٣ . باب هل يأمر الإمام رجلا فيضرب الحد غائبا عنه

قوله : (باب هل يأمر الإمام رجلا فيضرب الخ) جواب الاستفهام محذوف ، أي : نعم ، اهـ شيخ الإسلام.." (١)

" التحتية لقبه واسمه عامر

١٤٧٤ – ما من أحد أغير من الله هو أفعل تفضيل من الغيرة بفتح المعجمة وهو في اللغة تغير يحصل من **الحمية والأنفة** وأصلها في الزوجين والأهلين وذلك محال على الله لأنه منزه عن كل تغير ونقص

---

(١) حاشية السندى على صحيح البخارى، ٢١٤/٥

فيتعين حمله على المجاز قال بن دقيق العيد أهل التنزيه في مثل هذا على قولين اما ساكت واما مؤول على أن المراد بالغيرة شدة المنع والحماية فهو من مجاز الملازمة لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قال الباجي يريد أنه عليه الصلاة و السلام قد خصه الله تعالى بعلم لا يعلمه غيره ولعله مما أراه في مقامه من النار وشناعة منظرها وقال النووي لو تعلمون من عظم انتقام الله تعالى من أهل الجرائم وشدة عقابه وأهوال القيامة وما بعدها كما علمت وترون النار كما رأيت في مقامي هذا وفي غيره لبكيتم كثيرا ويقل ضحككم لفكركم فيما علمتموه

١٤٧٥ – عائذا بالله قال بن السيد هو منصوب على المصدر الذي يجيء على مثل فاعل كعوفي عافية أو على الحال المؤكدة النائبة مناب المصدر والعامل فيه محذوف كأنه قال أعوذ بالله عائذا وروى بالرفع أي أنا عائذ قال الحافظ بن حجر وكأن ذلك كان قبل ان يطلع صلى الله عليه و سلم على عذاب القبر ." (١)

"٦٣٤ ـ (الرابع: عن أنس رضي الله عنه قال): مخاطبا للمتساهلين في الأعمال (إنكم لتعملون أعمالا) تستهونونها لعدم نظركم إلى عظم المعصي بها (هي) لذلك (أدق في أعينكم من الشعر) استخفافا بها (كنا نعدها) لكمال الخشية الناشئة عن كمال المعرفة با الحاصلة بحلول نظر النبي (على عهد) زمن (رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الموبقات) وهذا كما جاء في الخبر الآخر «لا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى عظم من عصيت» وفي الخبر الآخر «المؤمن يرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب يمر على أنفه». وفي الحديث كمال مراقبة القوم تعالى وكمال استحيائهم منه، حتى إنهم يرون تلك الأمور التي استهون غيرهم الوقوع فيها مهلكات لهم لعظم شهودهم جلال الله تعالى وعظمته. أحيا الله قلوبنا من موت الغفلة بمنته (رواه البخاري، وقال) أي: البخاري (الموبقات) بضم الميم (المهلكات) وفيه أن الإنسان ينبغي له أن يحذر من صغار الذنوب فلعلها تكون المهلكة له في دينه، كما يحترز من يسير السموم خشية أن يكون فيها حتفه.

٦٤٥ ـ (الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه) أي: منعه أن يأتي ذلك (متفق عليه) ورواه أحمد والترمذي كلهم بزيادة «والمؤمن يغار» ورواه بإسقاطها البخاري (والغيرة بفتح الغين) المعجمة وسكون التحتية بعدها راء مهملة (وأصلها) في وضع اللغة (**الأنفة**) بفتح أولية، أي الامتناع من الضيم ونحوه، وفي «شرح مسلم» «أصلها المنع» والرجل غيور

---

(١) شرح السيوطي لسنن النسائي، ٣/١٣٣

على أهله يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو غيرة، ومعنى غيره الله تعالى: منعه الناس من الفواحش: أي: وسائر المحرمات كما في حديث الباب، لكن الغيرة في حق الناس يقارنها تغير حال الإنسان وانزعاجه، وهذا مستحيل في حق الله تعالى اهـ.." (١)

"تعتقد أن الكسوف يوجب حدوث تغير بالأرض من موت أو ضرر فاعلم أنه اعتقاد باطل وأنهما خلقان مسخران لا سلطان لهما في غيرهما ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما

(فإذا رأيتم ذلك) الكسوف في أحدهما لاستحالة كسوفهما معا في وقت واحد عادة وإن كان ذلك جائزا في قدرة الله (فادعوا الله وكبروا وتصدقوا) وقع الأمر بالصدقة في رواية هشام هذه دون غيرها

قال الحافظ (ثم قال يا أمة محمد) فيه معنى الإشفاق كما يخاطب الواحد ولده إذا أشفق عليه بقوله يا بني وكان قضية ذلك أن يقول يا أمتي لكن لعدوله عن المضمر إلى المظهر حكمة ولعلها أن المقام مقام تحذير وتخويف لما في الإضافة إلى المضمر من الإشعار بالتكريم ومثله يا فاطمة بنت محمد إلى أن قال لا أغني عنكم من الله شيئا

(الله) أتى باليمين لإرادة تأكيد الخبر وإن كان لا يرتاب فيه (ما من أحد أغير) بالنصب خبر ومن زائدة ويجوز الرفع على لغة تميم أو هو بالخفض بالفتحة صفة لأحد والخبر محذوف أي موجود أغير (من الله) أفعل تفضيل من الغيرة بفتح المعجمة وهي لغة تحصل من **الحمية والأنفة** وأصله في الزوجين والأهلين وذلك محال على الله تعالى لأنه منزه عن كل تغير ونقص فتعين حمله على المجاز فقيل لما كانت ثمرة الغيرة صون الحريم ومنعهم وزجر من يقصد إليهم أطلق عليه ذلك لأنه منع من فعل ذلك وزجر فاعله وتوعده فهو من تسمية الشيء بما يترتب عليه

وقال ابن فورك المعنى ما أحد أكثر زجرا عن الفواحش من الله

وقال غيره غيرة الله ما يغير حال العاصي بانتقامه منه في الدنيا والآخرة أو في أحدهما ومنه قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ سورة الرعد الآية ١١ وقال ابن دقيق العيد أهل التنزيه في مثل هذا على قولين إما ساكت وإما مؤول بأن المراد بالغيرة شدة المنع والحماية فهو من مجاز الملازمة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ١/٢٩٠

وقال الطيبي وغيره وجه اتصال هذا بقوله فاذكروا الله الخ من جهة أنهم لما أمروا باستدفاع البلاء بالذكر والصلاة والصدقة ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء وخص منه الزنى لأنه أعظمها في ذلك

وقيل لما كانت هذه المعصية من أقبح المعاصي وأشدها تأثيرا في إثارة النفوس وغلبة الغضب ناسب ذلك تخويفهم في هذا المقام من مؤاخذة رب العزة (أن يزني عبده أو تزني أمته) متعلق بأغير وحذف من قبل أن قياس مستمر وتخصيصهما بالذكر رعاية لحسن الأدب مع الله لتنزهه عن الزوجة والأهل ممن يتعلق بهم الغيرة غالبا ثم كرر النداء فقال (يا أمة محمد) ويؤخذ منه أن الواعظ ينبغي له حال وعظه أن لا يأتي بكلام فيه تفخيم نفسه بل يبالغ في التواضع لأنه أقرب إلى انتفاع السامع (والله لو تعلمون ما أعلم) من عظيم قدرة الله وانتقامه من أهل الجرائم وشدة عقابه وأهوال القيامة وما بعدها وقيل معناه لو دام علمكم كما دام علمي لأن علمه متواصل بخلاف علم غيره (لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) لتفكركم فيما عملتموه وقيل معناه لو

". (١)

"كان الفضل بن عباس) أكبر ولده وبه كان يكنى أبوه استشهد في خلافة عمر بأجنادين هكذا قال مالك وأكثر الرواة عن الزهري أن الحديث من مسند عبد الله وخالفهم ابن جريج عن ابن شهاب في الصحيحين فقال عن ابن عباس عن الفضل أن امرأة فذكره فجعله من مسند الفضل وتابعه معمر قال الترمذي سألت محمدا يعني البخاري عن هذا فقال أصح شيء في هذا ما روي عن ابن عباس عن الفضل قال محمد ويحتمل أن يكون ابن عباس سمعه من الفضل وغيره ثم رواه بلا واسطة انتهى

وكأنه رجح هذا لأن الفضل كان رديف المصطفى حينئذ وكان عبد الله تقدم من مزدلفة إلى منى مع الضعفة فكأن الفضل حدث أخاه بما شاهده في تلك الحالة لكن عند أحمد والترمذي أن العباس كان حاضرا فلا مانع أن عبد الله كان معه فحمله تارة عن أخيه وتارة حدث به عن مشاهدة فقال كان الفضل (رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم) زاد البخاري من رواية شعيب عن الزهري على عجز راحلته وفيه جواز الإرداف وهو من التواضع ولا خلاف فيه إذا أطاقته الدابة والرجل الجليل جميل به الارتداف **والأنفة** منه تجبر وتكبر قاله أبو عمر

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ١/٥٢٩

(فجاءته امرأة) قال الحافظ لم تسم (من خثعم) بفتح الخاء المعجمة وسكون المثلثة وفتح المهملة غير مصروف للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة لا العلمية ووزن الفعل قبيلة مشهورة سميت باسم جدها واسمه أفتل بن أنمار قال ابن الكلبي عن أبيه إنما سمي خثعم بجمل يقال له خثعم ويقال إنه لما تحالف ولد أفتل على إخوته نحروا بعيرا ثم تخثعموا بدمه أي تلطخوا به بلغتهم (تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر) المرأة (إليه) وكان جميلا قال القرطبي هذا النظر هو بمقتضى الطباع فإنها مجبولة على النظر إلى الصورة الحسنة ولذا قال في بعض طرق الحديث وكان الفضل أبيض وسيما

(فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر) الذي ليس فيه المرأة منعا له عن مقتضى الطبع وردا إلى مقتضى الشرع

وقال ابن عبد البر وتبعه عياض فيه ما يلزم الأئمة من تغيير ما يخشى فتنته ومنعه ما ينكر في الدين

وقال النووي فيه حرمة النظر إلى الأجنبية وتغيير المنكر باليد لمن قدر عليه

قال الأبي الأظهر أن صرفه وجه الفضل ليس للوقوع في المحرم كما يعطيه كلام عياض والنووي وإنما هو لخوف الوقوع كما يعطيه كلام القرطبي انتهى

وقال الولي العراقي إن أراد النووي تحريم النظر عند خوف الفتنة فهو محل وفاق من العلماء وإن أراد الأعم من خوفها وأمنه ففي حالة أمنها خلاف مشهور للعلماء وهما وجهان ولا يصح الاستدلال بالحديث على التحريم في هذه الحالة لأن الأمر محتمل لكل منهما بل الظاهر أن

". (١)

"صلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالناس وهو حامل أمامة بنت ابنته زينب ليعلم الناس أن مثل هذا العمل سائغ في الصلاة إذا كان لحاجة ، وليطعن في **الأنفة** الجاهلية المبنية على التغطرس والكبرياء والعظمة الجوفاء ؛ لأن العرب كانوا يأنفون من حمل البنات بل ويئدونهن . فسحقا ثم سحقا لمن زعم أن شريعته تهضم المرأة حقها ، مع أنه ينتمي إلى دينه ، فليت شعري من يفهمهم أن دين الحق والعدل وحفظ المصالح والحقوق للأفراد والجماعات هو الإسلام ، وأن ما ملأوا به أجوافهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، من مبادئ الشرق أو الغرب ، ما هي إلا فضلات عقول مريضة وقلوب منكوسة ، وأذهان منحرفة ، فليس لها قائد إلا الهوى ، ولا سائق إلا الشيطان .

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ٣٨٩/٢

فقه الحديث :

أولا : في الحديث دليل على جواز حمل الصبي في الصلاة ، وأن ذلك ليس بمبطل لها ، وهو قول أكثر أهل العلم ، وحمله مالك في رواية عنه على الضرورة ، وفي رواية عنه أنه محمول على النافلة ، وعنه رواية ثالثة أنه منسوخ ، ولكنه لم يظهر مستند النسخ ، أما القائلون به فهم حملوه على أنه عمل غير متوال .

ثانيا : أخذ منه أن ثياب الأطفال محمولة على الطهارة ؛ لأنها الأصل ، ولا تخرج عن الطهارة إلا بتيقن النجاسة . والله أعلم .

ثالثا : أخذ من الحديث جواز إدخال الأطفال في المساجد ، ومثله في ذلك حديث أبي هريرة عند أحمد بن حنبل – رحمه الله – في ركوب الحسن والحسين على ظهره – صلى الله عليه وسلم – وهو ساجد ، وحديث أبي بكرة عند البخاري رقم (٣٧٤٦) بلفظ سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المنبر والحسن إلى جنبه يقول : " ابني هذا سيد ..." الحديث .

وكانت ولادة الحسن في السنة الثالثة من الهجرة .." (١)

"سئل عن الرجل يقاتل شجاعة قال ابن الملقن الشجاعة ضد الجبن وهي شدة القلب عند البأس

ويقاتل حمية : الحمية هي الأنفة وهي إما أن تكون حمية لعصبية جاهلية أو حمية لحزب أو مذهب كل هذا يدخل في الحمية

قوله ويقاتل رياء : الرياء هو أن يظهر القصد الحسن وأنه يريد الآخرة وهو لا يريد إلا الدنيا كقوله – صلى الله عليه وسلم – (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)

(١) أي الذي يريد بعمله الدنيا من غير قصد لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)

فهذا حكم فصل لأن كل مقصد لا يكون كذلك فإن صاحبه لا يكون في سبيل الله .

المعنى الإجمالي

أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – حين سئل عمن يقاتل شجاعة أو حمية أو رياء أو ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله فقال صلوات الله وسلامه عليه من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل أي من كان قاصدا بقتاله نصرة الدين وإعلاء كلمته على كل كلمة غيرها وإظهار أحكامه وإعزاز أهله فهو في سبيل الله .

---

(١) تأسيس الأحكام، ٦١/٢

فقه الحديث

أولا : يؤخذ من هذا الحديث أن من قاتل لمقصد من هذه المقاصد بأن يكون قاصدا إظهار شجاعته أو قاتل حمية لقبيلته وعصبيته أو لمنهجه وحزبه أو لمذهبه أو أظهر القصد الحسن بأنه يقاتل من أجل إعلاء كلمة الله وهو في الباطن بخلاف ذلك فكل هؤلاء قتالهم لم يكن في سبيل الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال رقم ٦٤٣٥ وفي كتاب الجهاد والسير باب الحراسة في الغزو في سبيل الله رقم ٢٨٨٧ وابن ماجة في كتاب الزهد باب في المكثرين رقم ٤١٣٦ واللفظ له وابن حبان في كتاب الزكاة باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك رقم ٣٢١٨." [1]

" ١٤ -

(باب ما جاء في الغيرة)

بفتح المعجمة وسكون التحتانية بعدها راء قال عياض وغيره هي مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الإختصاص وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين

هذا في حق الادمي وأما في حق الله فقال الخطابي أحسن ما يفسر به ما فسر في حديث أبي هريرة يعني حديث الباب وهو قوله وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه

قال عياض ويحتمل أن تكون الغيرة في حق الله الإشارة إلى تغيير حال فاعل ذلك

وقيل الغيرة في الأصل **الحمية والأنفة**

وهو تفسير بلازم التغير فيرجع إلى الغضب

وقد نسب سبحانه وتعالى إلى نفسه الغضب والرضا

وقال بن العربي التغير محال على الله بالدلالة القطعية فيجب تأويله بلازمه كالوعيد وإيقاع العقوبة بالفاعل ونحو ذلك انتهى

[١١٦٨] قوله (إن الله يغار) بفتح التحتانية والغين المعجمة من الغيرة ومعنى غيرة الله مبين في هذا الحديث (والمؤمن يغار) تقدم معنى الغيرة في الادمي (وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه) من الفواحش وسائر المنهيات والمحرمات

---

(١) تأسيس الأحكام، ٥/٢٥١

قوله (وفي الباب عن عائشة) أخرجه البخاري في الكسوف والنكاح (وعبد الله بن عمر) لينظر من أخرج حديثه

قوله (حديث أبي هريرة حديث حسن غريب) وأخرجه البخاري ومسلم

قوله (وقد روي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عروة عن أسماء ابنة أبي بكر عن النبي صلى الله عليه و سلم هذا الحديث) أخرجه البخاري ومسلم (يكنى أبا الصلت) بمفتوحة وسكون لام وبمثناة فوقية كذا في المغنى

قوله (حدثنا أبو عيسى أخبرنا أبو بكر العطار الخ) كذا في بعض النسخ فهو مقولة تلميذ الترمذي وليس في بعض ." (١)

" من عبد الله بن مسعود (ورفعه) أي رفع بن مسعود الحديث يعني رواه مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قوله لا أحد أغير أفعل التفضيل من الغيرة بفتح الغين وهي **الأنفة والحمية**

قال النحاس هو أن يحمي الرجل زوجته وغيرها من قرابته ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهن غير ذي محرم والغيور ضد الديوث والقندع بضم الدال وفتحها الديوث هذا في حق الآدميين وأما في حق الله فقد جاء مفسرا في الحديث وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرمه الله عليه أي أن غيرته منعه وتحريمه ولما حرم الله الفواحش وتواعد عليها وصفه صلى الله عليه و سلم بالغيرة وقال صلى الله عليه و سلم من غيرته أن حرم الفواحش ولذلك أي لأجل الغيرة حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال الله تعالى قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال بن جرير إن أهل التأويل اختلفوا في المراد بالفواحش فمنهم من حملها على العموم وساق ذلك عن قتادة قال المراد سر الفواحش وعلانيتها ومنهم من حملها على نوع خاص وساق عن بن عباس قال كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسا في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنى في السر والعلانية

ومن طريق سعيد بن جبير ومجاهد ما ظهر نكاح الأمهات وما بطن الزنى ثم اختار بن جرير القول الأول قال وليس ما روى عن بن عباس وغيره بمدفوع ولكن الأولى الحمل على العموم انتهى ولا أحد أحب إليه المدح من الله يجوز في أحب الرفع والنصب وهو أفعل التفضيل بمعنى المفعول وقوله المدح بالرفع فاعله وحب الله المدح ليس من جنس ما يعقل من حب المدح وإنما الرب أحب الطاعات ومن جملتها مدحه ليثيب على ذلك فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح

---

(١) تحفة الأحوذي، ٢٧٧/٤

ونحن نحب المدح لننتفع ويرتفع قدرنا في قومنا

فظهر من غلط العامة قولهم إذا أحب الله المدح فكيف لا نحبه نحن فافهم ولذلك أي ولأجل حبه المدح

قوله (هذا حديث حسن صحيح) وأخرجه الشيخان

٠٠ - باب [٣٥٣١] قوله (عن أبي الخير) اسمه مرثد بن عبد الله اليزني بفتح التحتانية والزاي بعدها نون (عن عبد الله بن عمرو) بن العاص السهمي قوله (أدعو به في صلاتي) أي عقب التشهد كما قيده ." (١)

"أي أغضبته **والحمية الأنفة** والغضب والتغضب وحكى ابن السكيت أن الاحتمال الغضب وقيل حملته **الحمية** على ذلك القول

ويروى

اجتهلته **الحمية**

أي حملته على الجهل ويقال أجهله هذا الأمر أي جعله جاهلا والمجهلة الأمر يحملك على الجهل

قلص الدمع

انقطع انسكابه ويقال قلص الشيء وتقلص إذا تضام ونقص

ما رام من مجلسه

أي ما برح من مكانه يقال رام يريم إذا برح وزال وقل ما يستعمل إلا في النفي ورام يروم إذا طلبه

الجمانة

الدرة وجمعها جمان

فسري عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾

أي كشف

الإفك

الكذب يقال أفك يأفك إذا كذب وأصله صرف الكلام عن

الحق إلى الباطل قال تعالى

) أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (

---

(١) تحفة الأحوذي، ٣٥٧/٩

أي لتصرفنا

العصبة

من الرجال نحو العشرة والعصابة الجماعة من الناس والطير والخيل

) ولا يأتل (

من الألية وهي اليمين يقال الى وائتلي

أحمي سمعي وبصري

أي أمنع سمعي وبصري من أن أخبر أني سمعت ما لم أسمع وأبصرت ما لم أبصر تنفي بذلك عن نفسها الكذب

المساواة المفاعلة

من السمو أي تطلب من السمو والعلو والغلبة ما أطلب

فعصمها الله

أي منعها من الشر بالورع

والورع

المعدلة ومجانبة ما لا يحل أو ما لا ينبغي تحليله

وما كشفت عن كنف امرأة قط

أي ما رمت كشف ما سترته من نفسها إشارة إلى التعفف

وكان يستوشي الحديث

أي يثيره ويسخرجه بالبحث عنه وقد تقدم

الإحصان

في كلام العرب المنع فتكون المرأة محصنة بالإسلام لأن الإسلام يكفها عن ما لا يحل وتكون محصنة بالعفاف والحياء من أن تفعل ما تعاب به وتكون محصنة بالحرية وبالتزويج أيضا والمرأة حصان بفتح الحاء بينة الحصن أي مستعملة لما يوجبه عليها الإحصان من الامتناع عما لا يحل ولا يحسن والحاصن أيضا المتعففة

وفرس حصان بكسر الحاء بين التحصن إذا كان منجبا وبناء حصين بين الحصانة

الرزانة

الثبات وهو ضد الطيش ويقال رجل رزين وامرأة رزان

وما تزن برية

أي لا تتهم يقال أزننت فلانا بكذا أي أتهمته فهو يزن بكذا

الغرث

الجوع يقال رجل غرثان وامرأة غرثى

". (١)

"الأحنف عنه (تفقهوا قبل أن تسودوا) بضم المثناة الفوقية وتشديد الواو أي تصيروا سادة من ساد قومه يسودهم سيادة. قال أبو عبيدة أي تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم **الأنفة** عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالا، ولا وجه لمن خصه بالتزوج لأن السيادة أعم لأنها قد تكون به وبغيره من الأشياء الشاغلة، ولا يخفى تكلف من جعله من السواد في اللحية فيكون أمر الشباب بالتفقه قبل أن تسود لحيته، والكهل قبل أن تتحول لحيته من السواد إلى الشيب، وزاد الكشميهني في روايته (قال أبو عبد الله) أي المؤلف وفي نسخة وقال محمد بن إسماعيل: (وبعد أن تسودوا) وإنما عقب المؤلف السابق بهذا اللاحق ليبين أن لا

مفهوم له خوف أن يفهم منه أن السيادة مانعة من التفقه، وإنما أراد عمر رضي الله عنه أنه قد يكون سببا للمنع لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين. (وقد تعلم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- في كبر سنهم) أورده تأكيدا للسابق، وليس قول عمر رضي الله عنه هنا من تمام الترجمة، نعم قال البرماوي وغير تبعا للكرماني إلا أن يقال الاغتباط في الحكمة على القضاء لا يكون إلا قبل كون الغابط قاضيا. قالوا: ويؤول حينئذ بمصدر، والتقدير باب الاغتباط وقول عمر انتهى. وتعقب بأنه كيف يؤول الماضي بالمصدر وتأويل الفعل بالمصدر لا يكون إلا بوجود أن المصدرية.

٧٣ - حدثنا الحميدي قال: حدثنا سفيان قال: حدثني إسماعيل بن أبي خالد -على غير ما حدثناه الزهري- قال: سمعت قيس بن أبي حازم قال: سمعت عبد الله بن مسعود قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها». [الحديث ٧٣ - أطرافه في: ١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٦].

---

(١) تفسير غريب ما فى الصحيحين البخارى ومسلم، ص/٢٥٩

وبه قال: (حدثنا الحميدي) أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى المكي، المتوفى سنة تسع عشرة ومائتين (قال: حدثنا سفيان) بن عيينة (قال: حدثني) بالإفراد وفي رواية أبوي ذر والوقت حدثنا (إسماعيل بن أبي خالد على غير ما) أي على غير اللفظ الذي (حدثناه الزهري) محمد بن مسلم بن شهاب المسوق روايته عند المؤلف في التوحيد، والحاصل أن ابن عيينة روى الحديث عن إسماعيل بن أبي خالد وساق لفظه هنا، وعن الزهري وساق لفظه في التوحيد، وسيأتي ما بين الروايتين من التخالف في اللفظ إن شاء الله تعالى. (قال) أي إسماعيل بن أبي خالد (سمعت قيس بن أبي حازم) بالحاء المهملة والزاي (قال: سمعت عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه أي كلامه حال كونه (قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-).

(لا حسد) جائز في شيء (إلا في) شأن (اثنتين) بتاء التأنيث أي خصلتين، وللمؤلف في الاعتصام اثنين بغير تاء أي في شيئين (رجل) بالرفع بتقدير إحدى الاثنتين خصلة رجل، فلما حذف المضاف اكتسب المضاف إليه إعرابه والجر بدل من اثنين، وأما على رواية تاء التأنيث فبدل أيضا على تقدير حذف المضاف أي خصلة رجل لأن الاثنتين معناه كما مر خصلتان والنصب بتقدير أعني وهو رواية ابن ماجة (آتاه الله) بمد الهمزة كاللاحقة أي أعطاه (مالا فسلط) بضم السين مع حذف الهاء وهي لأبي ذر وعبر بسلط ليدل على قهر النفس المجبولة على الشح، ولغير أبي ذر فسلطه (على هلكته) بفتح اللام والكاف أي إهلاكه بأن أفناه كله (في الحق) لا في التبذير ووجوه المكاره. (ورجل) بالحركات الثلاث كما مر (آتاه الله الحكمة) القرآن أو كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح (فهو يقضي بها) بين الناس (ويعلمها) لهم وأطلق الحسد وأراد به الغبطة وحينئذ فهو من باب إطلاق المسبب على السبب، ويؤيده ما عند المؤلف في فضائل القرآن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه باللفظ فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت بمثل ما يعمل، فلم يتمن السلب بل أن يكون

مثله أو الحسد على حقيقته، وخص منه المستثنى لإباحته كما خص نوع من الكذب بالرخصة، وإن كانت جملته محظورة فالمعنى هنا لا إباحة في شيء من الحسد إلا فيما كان هذا سبيله أي لا حسد محمود إلا في هذين، فالاستثناء على الأول من غير الجنس، وعلى الثاني منه كذا قرره الزركشي والبرماوي والكرماني والعيني. وتعقبه البدر الدماميني بأن الاستثناء متصل على الأول قطعا، وأما على الثاني فإنه يلزم على إباحة

الحسد في الاثنتين كما صرح به، والحسد الحقيقي وهو كما تقرر تمني زوال نعمة المحسود عنه وصيرورتها إلى الحاسد لا يباح أصلا، فكيف يباح تمني زوال نعمة الله." (١)

"(فأبوا أن يضيفوهما) ولم يجدوا في تلك القرية قرى ولا مأوى وكانت ليلة باردة (فوجدا فيها) أي في القرية (جدارا) على شاطئ الطريق وكان سمكه مائتي ذراع بذراع تلك القرية وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا (يريد أن ينقض) أي يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة وإلا فالجدار لا إرادة له حقيقة. وكان أهل القرية يمرون تحته على خوف (قال الخضر بيده) أي أشار بها وفي رواية قال فمسح بيده (فأقامه) وقيل نقضه وبناه وقيل بعمود عمده به، وفيه إطلاق القول على الفعل. وفي رواية أبي ذر والمستملي يريد أن ينقض فأقامه (قال موسى) وفي رواية غير أبي ذر فقال له موسى أي للخضر (لو شئت لاتخذت) بهمزة وصل وتشديد التاء وفتح الخاء على وزن افتعلت من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين، وفي رواية أبي ذر والأصيلي وابن عساكر لتخذت أي لأخذت (عليه أجرا) فيكون لنا قوتا وبلغة على سفرنا، قال القاضي: كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه. (قال) الخضر لموسى عليه السلام: (هذا فراق بيني وبينك) بإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع والإشارة في قوله هذا إلى الفراق الموعود بقوله: فلا تصاحبني أو تكون الإشارة إلى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض سبب للفراق أو إلى الوقت أي هذا الوقت وقت الفراق. (قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: يرحم الله موسى) إنشاء بلفظ الخبر (لوددنا) بكسر الدال الأول وسكون الثانية أي والله لوددنا (لو صبر) أي صبره لأنه لو صبر لأبصر أعجب الأعاجيب (حتى يقص) على صيغة المجهول (علينا من أمرهما) مفعول لم يسم فاعله، وفي هذه القصة حجة على صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه. ولو كان مستقيما في باطن الأمر على أنه ليس في شيء مما فعله الخضر مناقضة للشرع، فإن نقض لوح السفينة لدفع الظالم عن غصبه، ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعا وعقلا، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر وقد وقع ذلك صريحا عند مسلم، ولفظه: فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة. وأما قتله الغلام فلعله كان تلك الشريعة. وقد حكى القرطبي عن صاحب العرس والعرائس أن موسى لما قال للخضر: أقتلت نفسا زاكية اقتلع الخضر كتف الصبي الأيسر وقشر عنه اللحم فإذا في عظم كتفه كافر لا يؤمن بالله أبدا. وفي مسلم وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا لا يؤمن بالله، وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان.

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٧٢/١

وهذا الحديث أخرجه البخاري في أكثر من عشرة مواضع، وفيه رواية تابعي عن تابعي وصحابي عن صحابي، وفيه التحديث والإخبار بصيغة الإفراد والسؤال.

٤٥ - باب من سأل وهو قائم عالما جالسا

هذا (باب من سأل وهو قائم عالما جالسا) بالنصب صفة لعالما المنصوب على المفعولية بسأل ومن موصول والواو للحال، والمراد جواز فعل ذلك إذا أمنت النفس فيه من الإعجاب وليس هو من باب من يتمثل له الناس قياما.

١٢٣ - حدثنا عثمان قال: أخبرنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية. فرفع إليه رأسه -قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما- فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل». [الحديث ١٢٣ - أطرافه في: ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨].

وبالسند إلى المؤلف قال: (حدثنا عثمان) بن أبي شيبة (قال: أخبرني) بالإفراد وفي رواية حدثنا (جرير) هو ابن عبد الحميد (عن منصور) هو ابن المعتمر (عن أبي وائل) هو شقيق بن سلمة (عن أبي موسى) عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه (قال):

(جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله) مبتدأ وخبره وقع مقول

القول، (فإن أحدنا يقاتل غضبا) نصب مفعول له والغضب حالة تحصل عند غليان الدم في القلب لإرادة الانتقام، (ويقاتل حمية) نصب مفعول له أيضا وهو بفتح الحاء وكسر الميم وتشديد المثناة التحتية وهي **الأنفة** من الشيء أو المحافظة على الحرم. (فرفع) رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (إليه) أي إلى السائل (رأسه) الشريف (قال) أبو موسى أو من دونه: (وما رفع إليه رأسه إلا أنه) أي السائل (كان قائما) أي ما رفع لأمر من الأمور إلا لقيام الرجل فإن واسمها وخبرها في تقدير المصدر وفيه جواز وقوف

المستفتي لعذر أو لحاجة (فقال) -صلى الله عليه وسلم-: (من قاتل) بمقتضى القوة العقلية (لتكون) أي لأن تكون (كلمة الله) أي دعوته إلى الإسلام." [١]

"(قلت يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر) بفتح الموحدة صفة مشبهة (والفاجر) الفاسق وهو مقابل البر (فنزلت آية الحجاب): ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ [الأحزاب: ٥٩] (واجتمع نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغيرة عليه) بفتح الغين المعجمة وهي **الحمية والأنفة** (فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) ليس في ما يدل على أن في النساء خيرا منهن لأن المعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه (فنزلت هذه الآية).

وبه قال: (حدثنا ابن أبي مريم) سعيد بن محمد بن الحكم كذا في رواية كريمة ولأبي ذر عن المستملي، قال أبو عبد الله أي المؤلف: وحدثنا ابن أبي مريم، ولابن عساكر قال محمد أي المؤلف أيضا. وقال ابن أبي مريم، وللأصيلي وأبي ذر عن الحموي والكشميهني، وقال ابن أبي مريم: (أخبرنا يحيى بن أيوب) الغافقي (قال: حدثني) بالإفراد (حميد) الطويل (قال: سمعت أنسا) أي ابن مالك (بهذا) أي بالحديث المذكور سندا ومتنا، وفائدة إيراد هذا الإسناد ما فيه من التصريح بسماع حميد من أنس، فحصل الأمن من تدليسه، واستشكل بأن يحيى بن أيوب لم يحتج به البخاري، وإن خرج له في المتابعات. وأجيب: بأن هذه من جملة المتابعات ولم ينفرد يحيى بن أيوب بالتصريح المذكور، فقد أخرجه الإسماعيلي من رواية يوسف القاضي عن أبي الربيع الزهراني عن هشيم أخبرنا حميد حدثنا أنس قاله في الفتح.

٤٠٣ - حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: "بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشأم فاستداروا إلى الكعبة". [الحديث ٤٠٣ - أطرافه في: ٤٤٨٨، ٤٤٩٠، ٤٤٩١، ٤٤٩٣، ٤٤٩٤، ٧٢٥١].

وبه قال: (حدثنا عبد الله بن يوسف) التنيسي (قال: أخبرنا مالك بن أنس) وسقط قوله ابن أنس عند الأصيلي وابن عساكر (عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر) بن الخطاب رضي الله عنهما (قال): (بينا الناس بقباء) بالمد والتذكير والصرف على الأشهر أي بينا الناس بمسجد قباء وهم (في صلاة الصبح) ولا منافاة بين قوله هنا الصبح وقوله في حديث البراء العصر إذ المجيء إلى بني حارثة داخل المدينة وإلى

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٢١٧/١

بني عمرو بن عوف بقباء وقت الصبح، وقوله: بنا أضيف إلى المبتدأ والخبر وجوابه قوله: (إذ جاءهم) أي أهل قباء (آت) بالمد هو عباد بن بشر بتشديد الموحدة لأن القصد البعض، وفي رواية الأصيلي القرآن بأل التي للعهد أي قوله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة: ١٤٤] الأيات وأطلق الليلة على بعض اليوم الماضي وما يليه مجازا، (وقد أمر) رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بضم الهمزة مبنيا رلمفعول (أن) أي بأن (يستقبل) أي باستقبال (الكعبة فاستقبلوها) بفتح الموحدة عند جمهور الرواة على أنه فعل ماض، (وكانت وجوههم إلى الشام) تفسير من الراوي للتحول المذكور، والضمير في فاستقبلوها ووجوههم لأهل قباء أو للنبي-صلى الله عليه وسلم-ومن معه، وفي رواية الأصيلي فاستقبلوها بكسر الموحدة بصيغة الأمر لأهل قباء، ويؤيده ما عند المؤلف في التفسير، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ألا فاستقبلوها، (فاستداروا إلى الكعبة) بأن تحول الإمام من مكانه في مقدم المسجد إلى مؤخره، ثم تحولت الرجال حتى صاروا خلفه؟ وتحول النساء حتى صرن خلف الرجال، واستشكل هذا لما فيه من العمل الكثير في الصلاة. وأجيب باحتمال وقوعه قبل التحريم أو لم تتوال الخطأ عند التحويل بل وقعت مفرقة.

واستنبط من الحديث أن الذي يؤمر به عليه الصلاة والسلام يلزم أمته، وأن أفعاله يؤتسى بها كأقواله حتى يقوم دليل على الخصوصية، وأن حكم الناسخ لا يثبت في حق المكلف حتى يبلغه وقبول خبر الواحد ووجه استدلال المؤلف به أنهم صلوا إلى القبلة المنسوخة التي هي غير القبلة الواجب استقبالها جاهلين بوجوبه ولم يؤمروا بالإعادة. ورواة هذا الحديث أئمة مشهورون، وفيه التحديث والأخبار والعنعنة والقول، وأخرجه في التفسير ومسلم والنسائي في الصلاة.

٤٠٤ - حدثنا مسدد قال: حدثنا يحيى عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: "صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- الظهر خمسا، فقالوا: أزيد في الصلاة؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صليت خمسا، فثنى رجليه وسجد سجدتين".

وبه قال: (حدثنا مسدد) هو ابن مسرهد (قال: حدثنا يحيى) القطان (عن شعبة) بن الحجاج (عن الحكم) بن عتيبة." (١)

"الحديث سبق في التفسير.

٦٨٤٥ - حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنى ابن وهب، أخبرنى عمرو أن عبد الرحمن بن

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٤١٨/١

القاسم حدثه عن أبيه عن عائشة قالت: أقبل أبو بكر فلكزنى لكزة شديدة، وقال: حبست الناس فى قلادة فبى الموت لمكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد أوجعنى نحوه، لكز ووكز: واحد.

وبه قال: (حدثنا يحيى بن سليمان) الكوفي نزيل مصر قال: (حدثني) بالإفراد (ابن وهب) عبد الله المصري قال: (أخبرني) بالإفراد (عمرو) بفتح العين ابن الحارث المصري (أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن أبيه) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (عن عائشة) -رضي الله عنها- أنها (قالت: أقبل أبو بكر) -رضي الله عنه- أي لما فقدت قلادتها وأقاموا على غير ماء (فلكزني لكزة شديدة) بالزاي فيهما أي ضربني ضربة شديدة (وقال: حبست الناس في قلادة) بكسر القاف (فبي الموت) أي فالموت ملتبس بي (لمكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-) على فخذي أخاف انتباهه من نومه (وقد أوجعني) لكز أبي بكر إياي وقوله (نحوه) أي نحو الحديث السابق وزاد أبو ذر عن المستملي (لكز ووكز): بالواو بدل اللام (واحد). في المعنى وهو من كلام أبي عبيدة قال: اللكز الضرب بالجمع على الصدر، وقال أبو زيد في جميع الجسد والجمع بضم الجيم وسكون الميم الضرب بجميع الأصابع المضمومة يقال ضربه بجمع كفه.

٤٠ - باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله

(باب) حكم (من رأى مع امرأته رجلا فقتله).

٦٨٤٦ - حدثنا موسى، حدثنا أبو عوانة، حدثنا عبد الملك، عن وراد، عن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك النبى -صلى الله عليه وسلم- فقال: «أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه والله أغير منى».

وبه قال: (حدثنا موسى) بن إسماعيل التبوذكي قال: (حدثنا أبو عوانة) الوضاح اليشكري قال: (حدثنا عبد الملك) بن عمير (عن وراد) بفتح الواو والراء المشددة وبعد الألف دال مهملة وللمستملي زيادة كاتب المغيرة (عن المغيرة) بن شعبة أنه (قال: قال سعد بن عبادة) الأنصاري -رضي الله عنه- (لو رأيت رجلا مع امرأتي) أي غير محرم لها (لضربته بالسيف غير مصفح) بضم الميم وسكون الصاد المهملة وفتح الفاء بعدها حاء مهملة غير ضارب بعرضه بل بحده للقتل والإهلاك (فبلغ ذلك) الذي قاله سعد (النبي) ولأبي ذر رسول الله (-صلى الله عليه وسلم- فقال):

(أتعجبون من غيرة سعد) بفتح الغين المعجمة. قال في الصحاح: مصدر قولك غار الرجل على أهله يغار غيرا وغيرة وغارا أو ورجل غيور وغيران وجمع غيور غير وجمع غيران غيارى وغيارى ورجل مغيار وقوم مغايير، وامرأة غيور ونسوة غير، وامرأة غيرى ونسوة غيارى، وقال الكرماني: الغيرة المنع أي تمنع من التعلق بأجنبي

بنظر أو غيره، وقال في النهاية: الغيرة **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور بلا تاء مبالغة كشكور لأن فعولا يستوي فيه الذكر والأنثى

(لأنا أغير منه) بلام التأكيد (والله أغير مني) وغيرة الله تعالى منعه عن المعاصي، وقد اختلف في حكم من رأى مع امرأته رجلا فقتله فقال الجمهور: عليه القود، وقال الإمام أحمد: إن أقام بينة أنه وجده مع امرأته فدمه هدر، وقال إمامنا الشافعي: يسعه فيما بينه وبين الله قتل الرجل إن كان ثيبا وعلم أنه نال منها ما يوجب الغسل، ولكن لا يسقط عنه القود في ظاهر الحكم، وقال الداودي الحديث دال على وجوب القود فيمن قتل رجلا وجده مع امرأته لأن الله عز وجل وإن كان أغير من عباده فإنه أوجب الشهود في الحدود فلا يجوز لأحد أن يتعدى حدود الله ولا يسقط الدم بدعوى. وقال ابن حبيب: إن كان المقتول محصنا فالذي ينجي قاتله من القتل أن يقيم أربعة شهداء أنه فعل بامرأته وإن كان غير محصن فعلى قاتله القود وإن أتى بأربعة شهداء.

والحديث سبق في أواخر النكاح في باب الغيرة.

٤١ - باب ما جاء فى التعريض

(باب ما جاء في التعريض) بالعين المهملة آخره ضاد معجمة وهو ضد التصريح.

٦٨٤٧ - حدثنا إسماعيل، حدثنى مالك، عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاءه أعرابى فقال: يا رسول الله إن امرأتى ولدت غلاما أسود فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر قال: «فيها من أورق؟» قال: نعم. قال: «فأنى كان ذلك؟» قال: أراه عرق نزعه قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق».

وبه قال: (حدثنا إسماعيل) بن أبي أويس قال: (حدثني) بالإفراد (مالك) إمام دار الهجرة (عن ابن شهاب) محمد بن مسلم الزهري (عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاءه أعرابي) اسمه ضمضم بن قتادة رواه عبد الغني بن سعيد في المبهمات وابن فتحون من طريقه وأبو موسى في الذيل، وعند أبي داود من رواية ابن وهب أن أعرابيا من فزارة وكذا عند بقية أصحاب الكتب الستة (فقال: يا رسول الله إن امرأتي) لم أقف على اسمها (ولدت غلاما) لم أقف على اسمه أيضا (أسود) صفة لغلام وهو لا ينصرف للوزن والصفة أي وأنا أبيض، فكيف يكون ابني فعرض بأن." (١)

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٠/٣٣

"ومن آذاه -صلى الله عليه وسلم- وجب قتله (وإن كان من إخواننا من الخزرج) من الأولى تبعيضية والثانية بيانية، ولأبي ذر: من إخواننا الخزرج بإسقاط من البيانية (أمرتنا ففعلنا فيه أمرك) وإنما قال ذلك لما كان بينهم من قبل فبقيت فيهم بعض أنفة أن يحكم بعضهم في بعض فإذا أمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمر امتثلوا أمره.

(فقام سعد بن عبادة) شهد العقبة وكان أحد النقباء ودعا له -صلى الله عليه وسلم- فقال: "اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة" رواه أبو داود (وهو سيد الخزرج) بعد أن فرغ سعد بن معاذ من مقالته (وكان قبل ذلك رجلا صالحا) أي كاملا في الصلاح، (ولكن) لأبوي ذر والوقت: وكان (احتملته من مقالة سعد بن معاذ (**الحمية**) أي أغضبته (فقال) لابن معاذ (كذبت) زاد في رواية أبي أسامة في التفسير أما والله لو كان من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم (لعمر الله) بفتح العين أي وبقاء الله (لا تقتله) ولأبي ذر عن المستملي والله لا تقتله قال في الفتح وفسر قوله بقوله (ولا تقدر على ذلك) لأنا نمنعك منه ولم يرد سعد بن عبادة الرضا بما نقل عن عبد الله بن أبي ولم ترد عائشة -رضي الله عنها- أنه ناضل عن المنافقين، وأما قولها: وكان قبل ذلك رجلا صالحا أي لم يتقدم منه ما بتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمية** ولم تغمصه في دينه، لكن كان بين الحيين مشاحنة قبل الإسلام ثم زالت بالإسلام وبقي بعضها بحكم **الأنفة** فتكلم سعد بن عبادة بحكم **الأنفة** ونفى أن يحكم فيهم سعد بن معاذ.

وقد وقع في بعض الروايات بيان السبب الحامل لسعد بن عبادة على مقالته هذه لابن معاذ.

ففي رواية ابن إسحاق فقال: سعد بن عبادة: ما قلت هذه المقالة إلا أنك علمت أنه من الخزرج، وفي رواية يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عند الطبراني فقال سعد بن عبادة: يا ابن معاذ والله ما بك نصرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكنها قد كانت بيننا ضغائن في الجاهلية وإحن لم تحلل لنا من صدوركم فقال ابن معاذ: الله أعلم بما أردت.

وقال في بهجة النفوس: إنما قال سعد بن عبادة لابن معاذ كذبت لا تقتله أي لا تجد لقتله من سبيل لمبادرتنا قبلك لقتله ولا تقدر على ذلك أي لو امتنعنا من النصرة فأنت لا تستطيع أن تأخذه من بين أيدينا لقوتنا. قال: وهذا في غاية النصرة إذ أنه يخبر أنه في القوة والتمكين بحيث لا يقدر له الأوس مع قوتهم وكثرتهم، ثم هم مع ذلك تحت السمع والطاعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- فحملته **الحمية** مثل ما حملت الأول أو أكثر فلم يستطع أن يرى غيره قام في نصرته -صلى الله عليه وسلم- وهو قادر عليها فقال لابن معاذ ما قال، وإنما قالت عائشة: ولكن احتملته **الحمية** لتبين شدة نصرته في القضية مع إخبارها بأنه

صالح لأن الرجل الصالح أبدا يعرف منه السكون والناموس لكنه زال عنه ذلك من شدة ما توالى عليه من الحمية لنبيه -صلى الله عليه وسلم- انتهى. وهو محمل حسن ينفي ما في ظاهر اللفظ مما لا يخفى.

(فقام أسيد بن الحضير) بضم الهمزة من أسيد والحاء المهملة من الحضير مصغرين ولأبي ذر: ابن حضير زاد في التفسير وهو ابن عم سعد بن معاذ أي من رهطه (فقال) لابن عبادة: (كذبت لعمر الله والله لنقتلنه) أي ولو كان من الخزرج إذا أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك وليست لكم قدرة على منعنا قابل قوله لابن معاذ كذبت لا تقتله بقوله كذبت لنقتلنه (فإنك منافق) قال له ذلك مبالغة في زجره عن القول الذي قاله أي إنك تصنع صنيع المنافقين وفسره بقوله: (تجادل عن المنافقين). قال المازري: لم يرد نفاق الكفر وإنما أراد أن يظهر الود للأوس ثم ظهر منه في هذه القضية ضد ذلك فأشبه حال المنافقين لأن حقيقته إظهار شيء وإخفاء غيره، وقال ابن أبي جمرة: وإنما صدر ذلك منهم لأجل قوة حال الحمية التي غطت على قلوبهم حين سمعوا ما قال -صلى الله عليه وسلم- فلم يتمالك أحد منهم إلا قام في نصرته لأن الحال إذا ورد على القلب ملكه فلا يرى غير ما هو لسبيله، فلما غلبهم حال الحمية لم يراعوا الألفاظ فوقع منهم السباب." (١)

"عنهم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-) أنه (قال):

(خير نسائها) أي الدنيا أي خير نساء أهل الدنيا في زمانها (مريم) ابنة عمران (وخير نسائها) أي هذه الأمة (خديجة). وعند مسلم من رواية وكيع عن هشام في هذا الحديث وأشار وكيع إلى السماء والأرض. قال النووي رحمه الله: أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها وأن المراد جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء قال: والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه.

وفي حديث عمار بن ياسر عند البزار والطبراني مرفوعا: "لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين". قال في الفتح: وهو حسن الإسناد، واستدل به على تفضيل خديجة على عائشة، وعند النسائي بإسناد صحيح وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعا "أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية".

٣٨١٦ - حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث قال: كتب إلى هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "ما غرت على امرأة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ما غرت على خديجة، هلكت قبل

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٣٩٦/٤

أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن". [الحديث ٣٨١٦ - أطرافه في: ٣٨١٧، ٣٨١٨، ٥٢٢٩، ٦٠٠٤، ٧٤٨٤].

وبه قال: (حدثنا سعيد بن عفير) بضم المهملة وفتح الفاء أبو عثمان المصري نسبه لجده عفير واسم أبيه كثير بالمثلثة قال: (حدثنا الليث) بن سعد الإمام (قال: كتب إلي هشام) قال في فتح الباري: وقع عند الإسماعيلي من وجه آخر عن الليث حدثني هشام فلعل الليث لقي هشاما بعد أن كتب إليه فحدثه به أو كان مذهبه إطلاق حدثنا في الكتابة، وقد نقل ذلك عنه الخطيب في علوم الحديث (عن أبيه) عروة بن الزبير بن العوام (عن عائشة -رضي الله عنها-) أنها (قالت: ما غرت على امرأة للنبي -صلى الله عليه وسلم-) بكسر الغين المعجمة وسكون الراء من الغيرة وهي **الحمية والأنفة** يقال: رجل غيور وامرأة غيور بلا هاء لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى وما نافية وما في قوله: (ما غرت) مصدرية أو موصولة أي ما غرت مثل غيرتي أو مثل التي غرتها (على خديجة) فيه ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عمن دونهن، وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن من خديجة أكثر (هلكت) ماتت (قبل أن يتزوجني) يعني ولو كانت الآن موجودة لكانت غيرتي أقوى ثم بينت سبب غيرتها بقولها (لما كنت أسمعه يذكرها) وفي الرواية الآتية من كثرة ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إياها (وأمره الله أن يبشرها ببيت) أي في الجنة (من قصب) بفتح القاف والصاد المهملة آخره موحدة لؤلؤ مجوف، وهذا أيضا من جملة أسباب الغيرة لأن اختصاصها بهذه البشرى يشعر بمزيد محبته عليه الصلاة والسلام لها. وعند الإسماعيلي من رواية الفضل بن موسى عن هشام بن عروة: ما حسدت امرأة قط ما حسدت خديجة حين بشرها النبي -صلى الله عليه وسلم- ببيت من قصب (وإن كان ليذبح الشاة) إن مخففة من الثقيلة ولذا أتت باللام في قولها ليذبح الشاة (فيهدي) بضم الياء وكسر الدال (في خلائلها) بالخاء المعجمة أصدقائها (منها) من الشاة (ما يسعهن) أي ما يكفيهن، ولأبي ذر عن الحموي والمستملي: ما يتسعهن بزيادة الفوقية المشددة بعد التحتية أي ما يتسع لهن. قال في الفتح وفي رواية النسفي يشبعهن من الشبع بكسر المعجمة وفتح الموحدة وليس في روايته لفظة ما، وهذا أيضا من أسباب الغيرة لما فيه من الإشعار باستمرار حبه لها حتى كان يتعاهد أصداءها.

٣٨١٧ - حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: "ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- إياها. قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل -أو جبريل عليه السلام- أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب".

وبه قال: (حدثنا قتيبة بن سعيد) أبو رجاء البلخي قال: (حدثنا حميد بن عبد الرحمن) بضم الحاء وفتح الميم في الأول مصغرا الرؤاسي بضم الراء وفتح الهمزة وسين مهملة مكسورة، وليس له في البخاري سوى هذا الحديث وآخر في الحدود (عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-) أنها (قالت: ما غرت على امرأة) أي من أزواجه عليه الصلاة والسلام (ما غرت) أي مثل غيرتي أو مثل التي غرتها (على خديجة من كثرة ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إياها) إذ كثرة ذكر الشيء تدل على محبته، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها. وعند النسائي من رواية النضر بن شميل عن هشام كالمؤلف في النكاح من كثرة ذكره إياها." (١)

"كذا أهلك بالرفع لأبي ذر ولغيره أهلك بالنصب أي أمسك أهلك (ولا نعلم) عليهم (إلا خيرا، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير) بالتذكير على إرادة الجنس (وسل الجارية) بريرة ولعلها كانت تخدم عائشة -رضي الله عنها- حينئذ قبل شرائها أو كانت اشترتها وأخرت عتقها إلى بعد الفتح (تصدقك) بالجزم على الجزاء وهي لم تعلم منها إلا البراءة فتخبرك (قالت: فدعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بريرة فقال):

(أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك) أي من جنس ما قيل فيها (قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه) بغين معجمة وصاد مهملة أي أعيبه عليها (غير أنها) ولأبي ذر وابن عساكر من أنها (جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن) بكسر الجيم الشاة وقيل كل ما يألف البيوت شاة أو غيرها (فتأكله قالت: فقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني) أي من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعله ولا يلمني أو من ينصرني (من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا) هو صفوان بن المعطل (ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي قالت: فقام سعد بن معاذ) سقط لأبي ذر وابن عساكر ابن معاذ (أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك) بفتح الهمزة وكسر الذال المعجمة منه (فإن كان من الأوس) قبيلتنا (ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك) فيه (قالت) عائشة -رضي الله عنها- (فقام رجل من الخزرج وكانت

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٦٧/٦

أم حسان) بن ثابت (بنت عمه من فخذه) بالذال المعجمة (وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج. قالت: وكان) ولأبي ذر فكان (قبل ذلك رجلا صالحا) كاملا في الصلاح لم يتقدم منه ما يتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمي**ة ولم تغمصه في دينه، ولكن كان بين الحيين مشاحة قبل الإسلام ثم زالت وبقي بعضها بحكم **الأنفة** كما قالت (ولكن احتملته) من مقالة سعد بن معاذ (**الحمية**) أغضبته (فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله) لأنا نمنعه منه (ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه) ولو كان من الخزرج إذا أمرنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بذلك وليست لكم قدرة على منعنا، وقابل قوله لابن معاذ كذبت لا تقتله

بقوله كذبت لنقتلنه (فإنك منافق) في الود (تجادل عن المنافقين) ولم يرد نفاق الكفر بل إظهاره الود للأوس ثم ظهر منه في هذه القصة خلاف ذلك.

(قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج) بالمثلثة أي نهض بعضهم إلى بعض من الغضب (حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يخفضهم حتى سكتوا وسكت) عليه الصلاة والسلام (قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت: وأصبح أبواي) أبو بكر وأم رومان (عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أني لأظن أن البكاء فالق كبدي فبينا) بغير ميم (أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار) لم تسم (فأذنت لها فجلست تبكي معي) أي تفجعا لما نزل بها (قالت: فبينا) بغير ميم (نحن على ذلك دخل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– علينا فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها) بفتح القاف وسكون الموحدة (وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني) هذا (بشيء) ليعلم المتكلم من غيره (قالت: فتشهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين جلس ثم قال):

(أما بعد يا عائشة بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة) مما نسبوه إليك (فسيبرئك الله) عز وجل منه بوحي ينزله (وإن كنت ألممت بذنب) أي وقع منك على خلاف العادة (فاستغفري الله وتوبي إليه) منه (فإن العبد إذا اعترف) بذنبه (ثم تاب) منه (تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مقالته قلص دمعي) بالقاف واللام." (١)

"التحليل لم يحرم منها إلا الشحوم الخاصة، واستثنى من الشحم ما علق بظهورهما أو ما اشتمل على الأمعاء فإنه غير محرم، وهو المراد بقوله: ﴿أو الحوايا﴾ جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٦/٣٤١

كسفينة وسفائن. ومن عطف على شحومهما جعل أو بمعنى الواو فهي بمنزلة قولك: لا تطع زيدا أو عمرا أو خالدا أي هؤلاء كلهم أهل أن لا يطاع فلا تطع واحدا منهم ولا تطع الجماعة، ومثله الحسن أو ابن سيرين أو الشعبي فليس المعنى أني أمرتك بمجالسة واحد منهم بل المعنى كلهم أهل أن يجالس فإن جالست واحدا منهم فأنت مصيب وإن جالست الجماعة فأنت مصيب.

وقال ابن الحاجب: أو في قوله: ﴿ولا تطع منه آثما وكفورا﴾ [الإنسان: ٢٤] بمعناها وهو أحد الأمرين وإنما جاء التعميم من النهي الذي فيه معنى النفي، لأن المعنى قبل وجود النهي فيهما تطيع آثما أو كفورا أي واحدا منهما فإذا جاء النهي ورد على ما كان ثابتا في المعنى، فيصير المعنى ولا تطع أحدا منهما فيجيء العموم فيهما من جهة النهي الداخل بخلاف الإثبات فإنه قد يفعل أحدهما دون الآخر وهو معنى دقيق، والحاصل أنك إذا عطفت أو الحوايا أو ما اختلط بعظم على شحومهما دخلت الثلاث تحت حكم النفي فيحرم الكل سوى ما استثني منها وإذا عطفت على المستثنى لم يحرم سوى الشحوم وأو على الأول للإباحة وعلى الثاني للتنويع قاله في فتوح الغيب، وسقط في رواية أبي ذر قوله: ﴿ومن البقر﴾ إلى آخره، وقال بعد قوله: ﴿ظفر﴾ إلى قوله: ﴿وإنا لصادقون﴾.

(وقال ابن عباس): فيما وصله ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه في تفسير قوله: (﴿كل ذي ظفر﴾ البعير والنعامة﴾) ونحوهما (الحوايا المبعر) بفتح الميم وصله ابن جرير عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وعبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وفي رواية أبي الوقت المباعر بالجمع، وكذا قاله سعيد بن جبير فيما أخرجه ابن جرير. وقال: الحوايا جمع حوية وهي ما تحوى

واجتمع واستدار من البطن وهو بنات اللبن وهي المباعر وفيها الأمعاء.

(وقال غيره): غير ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا﴾ [الأنعام: ١٤٦] (صاروا يهودا. وأما قوله) تعالى: إنا (﴿هدنا﴾) إليك بالأعراف فمعناه (تبنا هائد تائب) كذا نقل ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وغيره الخ لأبي ذر.

٤٦٣٣ - حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، قال عطاء: سمعت جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «قاتل الله اليهود لما حرم الله عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوها» وقال أبو عاصم: حدثنا عبد الحميد، حدثنا يزيد كتب إلى عطاء سمعت جابرا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وبه قال: (حدثنا عمرو بن خالد) بفتح العين ابن فروخ بن سعيد الحراني التميمي نزيل مصر قال: (حدثنا

الليث) بن سعد الإمام المصري (عن يزيد بن أبي حبيب) أبي رجاء البصري واسم أبيه سويد أنه قال: (قال عطاء): هو ابن أبي رباح (سمعت جابر بن عبد الله) الأنصاري (-رضي الله عنهما-) يقول: (سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم-) زاد في باب بيع الميتة من كتاب البيع عام الفتح وهو بمكة (قال):
(قاتل الله اليهود) أي لعنهم (لما حرم الله عليهم شحومها) أي أكل شحوم الميتة (جملوه) أي أذابوا المذكور واستخرجوا دهنه (ثم باعوه) ولأبي الوقت وأبي ذر عن الكشميهني: جملوها على الأصل (فأكلوها) أي أثمانها.
(وقال أبو عاصم) الضحاك النبيل شيخ البخاري مما وصله أحمد (حدثنا عبد الحميد) بن جعفر الأنصاري قال: (حدثنا يزيد) بن أبي حبيب قال: (كتب إلي) بتشديد الياء (عطاء) هو ابن أبي رباح قال: (سمعت جابرا) هو ابن عبد الله رضي الله تعالى عنهما (عن النبي -صلى الله عليه وسلم-). زاد أبو ذر مثله أي مثل المذكور من الحديث.

٧ - باب قوله: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ [الأنعام: ١٥١]
(باب قوله) تعالى: (﴿ولا تقربوا الفواحش﴾) الكبائر أو الزنا (﴿ما ظهر منها وما بطن﴾) [الأنعام: ١٥١] في محل نصب بدل اشتمال من الفواحش أي لا تقربوا ظاهرها وباطنها وهو الزنا سرا أو جهرا أو عمل الجوارح والنية أو عموم الآثام ولفظ الباب ثابت لأبي ذر.
٤٦٣٤ - حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو عن أبي وائل، عن عبد الله
-رضي الله عنه- قال: «لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن ولا شيء أحب إليه المدح من الله لذلك مدح نفسه». قلت سمعته من عبد الله قال: نعم. قلت: ورفعه قال: نعم. [الحديث ٤٦٣٤ - أطرافه في: ٤٦٣٧، ٥٢٢٠، ٧٤٠٣].
وبه قال: (حدثنا حفص بن عمر) بضم العين الحوضي قال: (حدثنا شعبة) بن الحجاج (عن عمرو) بفتح العين بن مرة المرادي الكوفي الأعمى (عن أبي وائل) شقيق بن سلمة (عن عبد الله) بن مسعود (رضي الله تعالى عنه) أنه (قال: لا أحد أغير من الله) أفعل التفضيل من الغيرة بفتح الغين وهي **الأنفة والحمية** في حق المخلوق." (١)

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٧/١٢١

"سعد بن معاذ الأنصاري).

واستشكل ذكر سعد بن معاذ هنا بأن حديث الإفك كان سنة ست في غزوة المريسيع وسعد مات من الرمية التي رميها بالخندق سنة أربع. وأجيب: بأنه اختلف في المريسيع، ففي البخاري عن موسى بن عقبة أنها سنة أربع وكذلك الخندق، وقد جزم ابن إسحاق بأن المريسيع كانت في شعبان والخندق في شوال وإن كانا في سنة فلا يمتنع أن يشهدها ابن معاذ، لكن الصحيح في النقل عن موسى بن عقبة أن المريسيع سنة خمس، فالذي في البخاري حملوه على أنه سبق قلم والراجح أيضا أن الخندق أيضا سنة خمس فيصح الجواب.

(فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه) بفتح الهمزة وكسر المعجمة (إن كان من الأوس) قبيلتنا (ضربت عنقه) لأن حكمه فيهم نافذ إذ كان سيدهم ولأن من آذاه عليه الصلاة والسلام وجب قتله (وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت) عائشة: (فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج) بعد فراغ ابن معاذ من مقالته (وكان قبل ذلك رجلا صالحا) كامل الصلاح لم يسبق منه ما يتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمية** (ولكن احتملته) من مقالة ابن معاذ (**الحمية**) أي أغضبته وفي رواية معمر عند مسلم اجتهلته بجيم ففوقية فهاء وصوبها التوربشتي أي حملته على الجهل (فقال لسعد) هو ابن معاذ: (كذبت لعمر الله) بفتح العين أي وبقاء الله (لا تقتله ولا تقدر على قتله) لأنا نمنعك منه ولم يرد ابن عبادة الرضا بقول ابن أبي لكن كان بين الحيين مشاحنة زالت بالإسلام وبقي بعضها بحكم **الأنفة** فتكلم ابن عبادة بحكم **الأنفة** ونفى أن يحكم فيه ابن معاذ (فقام أسيد بن حضير) بضم الهمزة وفتح السين المهملة وحضير بضم المهملة وفتح المعجمة مصغرين ولأبي ذر ابن الحضير (وهو ابن عم سعد) ولأبي ذر زيادة ابن معاذ أي من رهطه (فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه) بالنون ولو كان من الخزرج إذا أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (فإنك منافق تجادل عن المنافقين) تفسير لقوله فإنك منافق فليس المراد نفاق الكفر (فتثاور) بفوقية فمثلثة (الحيان الأوس والخزرج) أي نهض بعضهم إلى بعض من الغضب (حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم على المنبر فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخفضهم حتى سكتوا) بالفوقية والواو ولأبي ذر سكت بحذف الواو أي سكت القوم (وسكت) عليه الصلاة والسلام.

(قالت) عائشة (فمكثت) بالميم وضم الكاف من المكث ولأبي ذر عن الكشميهني فبكيت من البكاء (يومي ذلك لا يرقأ) بالهمزة أي لا ينقطع (لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت فأصبح أبواي) أبو بكر وأم رومان (عندي وقد بكيت ليلتين ويوما) الليلة التي أخبرتها فيها أم مسطح بالخبر واليوم الذي خطب فيه عليه

الصلاة والسلام الناس والليلة التي تليه (لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان) أبي وأمي (أن البكاء فالق كبدي قالت) عائشة: (فبينما) بالميم ولأبي ذر عن الحموي والمستملي فبينا (هما جالسان) ولأبي ذر جالسين (عندي وأنا أبكي) جملة حالية (فاستأذنت علي امرأة من الأنصار) لم تسم (فأذنت لها فجلست تبكي معي) تحزنا علي.

(قالت) عائشة (فبينا) بغير ميم (نحن على ذلك) وللكشميهني نحن كذلك (دخل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني) أي بشيء (قالت: فتشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين جلس ثم قال):

(أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا) كناية عما رماها به أهل الإفك (فإن كنت بريئة) من ذلك (فسيبرئك الله) بوحي ينزله (وإن كنت ألممت بذنب) أي وقع منك مخالفا لعادتك (فاستغفري الله وتوبي إليه) منه (فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله) منه (تاب الله عليه) وسقط لفظ الجلالة لأبي ذر (قالت: فلما قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقالته قلص) بالقاف واللام والصاد المهملة المفتوحات انقطع (دمعي حتى ما أحس) أجد (منه قطرة) لأن الحزن والغضب." [١]

"أو لبعضهن وتقدم من شئت وتؤخر من شئت وتجامع من شئت وتترك من شئت، كذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم، وذلك لأنه -صلى الله عليه وسلم- بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع إلى عبده، ومن ثم قال جماعة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم لم يكن القسم واجبا عليه صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال أبو رزين وابن زيد نزلت الآية عقب آية التخيير ففوض الله تعالى أمرهن إليه يفعل فيهن ما يشاء من قسم وتفضيل بعض في النفقة وغيرها فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط -رضي الله عنه- ومع ذلك قسم اختيارا منه لا على سبيل الوجوب وسوى بينهن وعدل فيهن كذلك.

وحديث الباب الأول يقتضي إن الآية نزلت في الواهبات، والثاني في أزواجه، واختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات واللاتي عنده وهو اختيار حسن جامع للأحاديث.

(وقال ابن عباس) فيما وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه (ترجي) أي (تؤخر) وقوله: (أرجه) في الأعراف والشعراء أي (أخره) وذكره استطرادا وهو من تفسير ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم.

٤٧٨٨ - حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال هشام: حدثنا عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٢٦٢/٧

قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. [الحديث ٤٧٨٨ - طرفه: ٥١١٣].

وبه قال: (حدثنا زكريا بن يحيى) أبو السكين الطائي الكوفي قال: (حدثنا أبو أسامة) حماد بن أسامة: (قال هشام) هو ابن عروة (حدثنا) قال في الفتح فيه تقديم المخبر على الصيغة وهو جائز وتقديره قال: حدثنا هشام (عن أبيه) عروة بن الزبير بن العوام (عن عائشة - رضي الله عنها-) أنها (قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-) كذا روي بالغين المعجمة من الغيرة وهي **الحمية والأنفة**. وعند الإسماعيلي من طريق محمد بن بشر عن هشام كانت تعير اللاتي وهبن أنفسهن بعين مهملة وتشديد التحتية (وأقول: أتهب المرأة نفسها) وظاهر قوله وهبن أن الواهبة أكثر من واحدة منهن خولة بنت حكيم وأم شريك وفاطمة بنت شريح وزينب بنت خزيمة كما سيأتي في النكاح إن شاء الله تعالى الكلام على ذلك. وفي حديث سماك عن عكرمة

عن ابن عباس عند الطبري بإسناد حسن لم يكن عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- امرأة وهبت نفسها له، والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبن أنفسهن له وإن كان مباحا له لأنه راجع إلى إرادته (فلما أنزل الله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت ما أرى): بضم الهمزة أي ما أظن (ربك إلا يسارع في هواك) أي إلا موجدا لك مرادك بلا تأخير.

وهذا الحديث أخرجه مسلم في النكاح والنسائي فيه وفي عشرة النساء والتفسير.

٤٧٨٩ - حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله أخبرنا عاصم الأحول عن معاذة عن عائشة -رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت كنت أقول له: إن كان ذاك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا. تابعه عباد بن عباد سمع عاصما.

وبه قال: (حدثنا حبان بن موسى) بكسر الحاء المهملة وتشديد الموحدة السلمي المروزي قال: (أخبرنا عبد الله) بن المبارك قال: (أخبرنا عاصم) هو ابن سليمان (الأحول) البصري (عن معاذة) بنت عبد الله العدوية (عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يستأذن في يوم المرأة منا) بإضافة يوم إلى المرأة أي يوم نوبتها إذا أراد أن يتوجه إلى الأخرى (بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿ترجي

من نشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾) قالت معاذة: (فقلت لها) أي لعائشة مستفهمة: (ما كنت تقولين؟) له عليه الصلاة والسلام (قالت: كنت أقول له إن كان ذاك) الاستئذان (إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحدا) وظاهره أنه عليه الصلاة والسلام لم يرجئ أحدا منهن وهو قول الزهري فيما أخرجه ابن أبي حاتم ما أعلم أنه أرجى أحدا من نسائه. (وتابعه) أي تابع عبد الله بن المبارك (عباد بن عباد) بفتح العين والموحدة المشددة فيهما أبو معاوية المهلبي فيما وصله ابن مردويه في تفسيره فقال: إنه (سمع عاصما) الأحول.

والحديث أخرجه مسلم في الطلاق وأبو داود في النكاح والنسائي في عشرة النساء.

٨ - باب قوله:

﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن

ذلكم كان عند الله عظيما﴾ يقال إناه: إدراكه أنى يأنى أناة. ﴿لعل الساعة تكون قريبا﴾ إذا وصفت صفة المؤنث قلت قريبة، وإذا جعلته ظرفا وبدلا ولم ترد الصفة نزعت الهاء من المؤنث، وكذلك لفظها في الواحد والاثنين والجميع للذكر والأنثى.

هذا (باب) بالتنوين يذكر فيه (قوله: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾) أي إلا مصحوبين بالإذن فهي." (١)

"خطب على خطبة أخيه. حكاه في النوادر والعتبية.

٤٦ - باب تفسير ترك الخطبة

(باب تفسير ترك الخطبة) بكسر الخاء.

٥١٤٥ - حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني سالم بن عبد الله أنه سمع عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يحدث، أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة قال عمر: لقيت أبا بكر

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٢٩٨/٧

فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلقيني أبو بكر فقال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو تركها لقبلتها. تابعه يونس وموسى بن عقبة وابن أبي عتيق عن الزهري.

وبه قال: (حدثنا أبو اليمان) الحكم بن نافع قال: (أخبرنا شعيب) هو ابن أبي حمزة (عن الزهري) محمد بن مسلم أنه (قال: أخبرني) بالإفراد (سالم بن عبد الله أنه سمع) أباه (عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يحدث أن) أباه (عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة) بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي (قال عمر: لقيت أبا بكر) الصديق (فقلت) له (إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلقيني أبو بكر فقال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت) علي (إلا أني قد علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو تركها لقبلتها).

قال ابن بطال: تقدم في الباب السابق تفسير ترك الخطبة صريحا في قوله: حتى ينكح أو يترك. وحديث هذا الباب في قصة حفصة لا يظهر منه تفسير ترك الخطبة لأن عمر لم يكن علم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب حفصة فضلا عن التراكن، فكيف توقف أبو بكر عن الخطبة أو قبولها من الولي ولكنه قصد معنى دقيقا يدل على ثقوب ذهنه ورسوخه في الاستنباط وذلك أن أبا بكر علم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا خطب إلى عمر أنه لا يرده بل يرغب فيه ويشكر الله على ما أنعم عليه به من ذلك. فقام علم أبي بهذا الحال مقام الركون والتراضي فكأنه يقول: كل من علم أنه لا يصرف إذا خطب لا ينبغي لأحد أن يخطب على خطبته.

(تابعه) أي تابع شعيب بن أبي حمزة (يونس) بن يزيد فيما وصله الدارقطني في العلل (وموسى بن عقبة) فيما وصله الذهلي في الزهريات (وابن أبي عتيق) هو محمد بن عبد الله بن أبي عتيق الصديقي القرشي فيما وصله الذهلي أيضا (عن الزهري) محمد بن مسلم بن شهاب.

وسبق حديث الباب بأتم من هذا في باب عرض الإنسان ابنته.

٤٧ - باب الخطبة

(باب) استحباب (الخطبة) بضم الخاء قبل العقد.

٥١٤٦ - حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم قال: سمعت ابن عمر يقول جاء رجلان من المشرق

فخطبا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن من البيان سحرا». [الحديث ٥١٤٦ - أطرافه في: ٥٧٦٧].

وبه قال: (حدثنا قبيصة) بفتح القاف ابن عقبة قال: (حدثنا سفيان) الثوري أو ابن عيينة (عن زيد بن أسلم) أنه (قال: سمعت ابن عمر يقول: جاء رجلان من المشرق) مشرق المدينة وهما الزبرقان بن بدر التميمي وعمرو بن الأهيم سنة تسع من الهجرة وأسلما (فخطبا) خطبتين بليغتين يأتيان في الطب إن شاء الله تعالى بعون الله تعالى (فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-):

(إن من البيان سحرا) ولأبي ذر عن الحموي والمستملي: لسحرا بزيادة اللام للتأكيد والبيان نوعان ما تحصل به الإنابة عن المراد والآخر تحسين اللفظ بحيث يستميل قلب السامع وهو الذي يشبه بالسحر إذا جلب القلوب وغلب على النفوس وهو عبارة عن تصنع في الكلام وتكلف تحسينه وصرف الشيء عن حقيقته كالسحر الذي هو تخييل لا حقيقة والمذموم منه ما يقصد به الباطل.

قال في فتح الباري: وجه مناسبة الحديث للترجمة كأنه أشار إلى أن الخطبة وإن كانت مشروعة في النكاح فينبغي أن لا يكون فيها ما يقتضي صرف الحق إلى الباطل بتحسين الكلام، وقال المهلب: الخطبة في النكاح إنما شرعت للخاطب ليسهل أمره فشبه حسن التواصل إلى الحاجة بحسن الكلام فيها باستنزال المرغوب إليه بالبيان بالسحر وإنما كان كذلك لأن النفوس طبعت على **الأنفة** من ذكر الموليات في أمر النكاح فكان حسن التوصل لدفع تلك **الأنفة** وجها من وجوه السحر الذي يصرف الشيء إلى غيره انتهى. المستحب في النكاح أربع خطب: خطبة من الخاطب قبل الخطبة بكسر الخاء وخطبة من المجيب قبل الإجابة، وخطبتان قبل النكاح إحداهما من الولي قبل الإيجاب والأخرى من الخاطب قبل القبول لحديث "كل أمر ذي بال" وأخرج أصحاب السنن وصححه أبو عوانة وابن حبان مرفوعا عن ابن مسعود: إذا أراد أحدكم أن يخطب لحاجة من نكاح أو غيره فليقل إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن." (١)

"-صلى الله عليه وسلم- يقول):

(لا يرمي رجل رجلا بالفسوق) كأنه يقول له: يا فاسق (ولا يرميه بالكفر) كأن يقول له: يا كافر (إلا ارتدت عليه) الرمية فيصير فاسقا أو كافرا (إن لم يكن صاحبه) المرمي (كذلك) وإن كان موصوفا بذلك فلا يرتد إليه شيء لكونه صدق فيما قاله فإن قصد بذلك تعييره وشهرته بذلك وأذاه حرم عليه لأنه مأمور بستره

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٥٨/٨

وتعليمه وموعظته بالحسنى، فمهما أمكنه ذلك بالرفق حرم عليه فعله بالعنف لأنه قد يكون سببا لإغوائه وإصراره على ذلك الفعل كما في طبع كثير من الناس من **الأنفة** لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في الدرجة فإن قصد نصحه أو نصح غيره ببيان حاله جاز له ذلك.

والحديث أخرجه مسلم في الإيمان.

٦٠٤٦ - حدثنا محمد بن سنان، حدثنا فليح بن سليمان قال: حدثنا هلال بن على، عن أنس قال: لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاحشا ولا لعانا ولا سبابا كان يقول: عند المعتبة «ما له ترب جبينه»؟.

وبه قال: (حدثنا محمد بن سنان) العوفي قال: (حدثنا فليح بن سليمان) بضم الفاء وفتح اللام بعدها تحتية ساكنة فمهملة العدوي مولاهم المدني قال: (حدثنا هلال بن علي) وهو هلال بن أبي ميمون وهو هلال بن أسامة نسب إلى جده (عن أنس) -رضي الله عنه- أنه (قال: لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاحشا) بالطبع (ولا لعانا ولا سبابا) بتشديد العين والموحدة فيهما أي بالتكلف (كان يقول عند المعتبة): بفتح الميم والفوقية عند الموجدة والسخط.

(ما له) استفهام (ترب) ولأبي ذر عن الحموي والمستملي: تربت (جبينه) أي لا أصاب خيرا فهي دعاء عليه أو هي كلمة تقولها العرب لا يريدون بها ذلك.

والحديث سبق قريبا.

٦٠٤٧ - حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا على بن المبارك، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قلابة أن ثابت بن الضحاك وكان من أصحاب الشجرة حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك، ومن قتل نفسه بشيء فى الدنيا عذب به يوم القيامة، ومن لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله».

وبه قال: (حدثنا محمد بن بشار) بندار البصري قال (حدثنا عثمان بن عمر) بن فارس البصري قال: (حدثنا علي بن المبارك) الهنائي (عن يحيى بن أبي كثير) بالمثلثة الإمام أبي نصر اليماني الطائي أحد الأعلام (عن أبي قلابة) بكسر القاف عبد الله بن زيد الجرمي (أن ثابت بن الضحاك) الأنصاري الأشهلي (وكان من أصحاب الشجرة) شجرة الرضوان بالحديبية (حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال):

(من حلف على ملة غير الإسلام) بتنوين ملة فغير صفة وعلى بمعنى الباء، ويحتمل أن يكون التقدير من حلف على شيء بيمين فحذف المجرور وعدى الفعل بعلى بعد حذف الباء، والأول أقل في التعبير كأن

يقول: إن فعل كذا فهو يهودي أو نصراني كاذبا (فهو كما قال) الفاء جواب الشرط وهو مبتدأ أو كما يقول في محل الخبر أي فهو كائن كما قال، أو الكاف بمعنى مثل فتكون ما مع ما بعدها في موضع جر بالإضافة أي فهو مثل قوله فتكون ما مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف أي فهو كالذي قاله، والمعنى فمثله مثل قوله لأن هذا الكلام محمول على التعليق مثل أن يقول هو يهودي أو نصراني إن كان فعل كذا، والحاصل أنه يحكم عليه بالذي نسبه لنفسه وظاهره أنه يكفر أو هو محمول على من أراد أن يكون متصفا بذلك إذا وقع المحلوف عليه لأن إرادة الكفر كفر فيكفر في الحال، أو المراد التهديد والمبالغة في الوعيد لا الحكم وإن قصد تبعيد نفسه عن الفعل فليس بيمين ولا يكفر به وإن قال: واللات والعزى وقصد التعظيم واعتقد فيها من التعظيم ما يعتقده في الله كفر وإلا فلا. قال في الروضة: وليقل لا إله إلا الله محمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أي الحديث الصحيح عن أبي هريرة مرفوعا: من حلف فقال في حلفه اللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ففيه دليل على أنه لا كفارة على من حلف بغير الإسلام بل يأثم وتلزمه التوبة لأنه –صلى الله عليه وسلم– جعل عقوبته في دينه ولم يوجب في ماله شيئا وإنما أمره بكلمة التوحيد لأن اليمين إنما تكون بالمعبود فإذا حلف باللات والعزى فقد ضاهى الكفار في ذلك فأمره أن يتداركه بكلمة التوحيد قاله البغوي في شرح السنة.

(وليس على ابن آدم نذر) أي ليس عليه وفاء نذر (فيما لا يملك) كأن يقول: إن شفى الله مريضي فعبد فلان حر أو أتصدق بدار زيد أما لو قال نحو: إن شفى الله مريضي فعلي عتق رقبة

ولا يملك شيئا في تلك الحالة، فليس من النذر فيما لا يملك لأنه يقدر عليه في الجملة حالا أو مالا فهو يملكه بالقوة، وقوله نذر رفع اسم ليس وعلى ابن آدم." (١)

" ٢٣ – (آية العز) أي القوة والشدة والصلابة فمنة ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أو **الأنفة** ومنه ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة ﴾ أو الغلبة والمنعة ومنه ﴿ بل الذين كفروا في عزة ﴾ أي ممانعة ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ أي المنعة والمراد هنا من العلامات الدالة على قوة إيمان الإنسان وشدته في دين الله ملازمته لتلاوة هذه الآية مع الإذعان لمدلولها وأنه بذلك يصير قويا شديدا وقيل المراد أن هذه الآية تسمى أية العز لتضمن قوله فيها ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ لذلك أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر لأنه العزيز المعز ﴿ وقل الحمد لله ﴾ أي الوصف بالجميل لله (الآية) كما ذكره في هذا الكتاب والظاهر أنه من تصرفه فأتى بلفظ الآية اختصارا أو اتكالا على حفظ الناس لها فإن الآية بكمالها ثابتة في الحديث كما يحيط به من

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٣٧/٩

سبر الروايات ووقف على الأصول ويشهد لكونه إنما حمله على حذفها رعاية الإيجاز أنه أتى بها في جامعه الكبير ولم يذكر لفظ الآية . " فقال وآية العز وقل الحمد لله " (الذي) قال الحراني اسم مبهم مدلوله ذات موصوفة بوصف يعقب به وهي الصلة اللازمة (لم يتخذ ولدا) أي لم يسم أحد له ولدا وأما التولد فمما لا يتصوره عقل ومعنى الحمد لله لعدم الولد احمدوه حيث برئ من الأولاد فتكون منافعه كلها للعباد (ولم يكن له شريك) أي مشارك (في الملك) أي الألوهية وهذا كالرد على اليهود والمشركين (ولم يكن له ولي) ناصر يواليه (من) أجل (الذل) أي المذلة ليدفعها بمناصرته ومعاونته فلم يحالف أحدا ولا ابتغى نصرة أحد لأن من احتاج إلى نصرة غيره فقد ذل له وهو الغالب القاهر فوق عباده وهذا رد على النصارى والمجوس القائلين لولا أولياء الله لذل فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك ولهذا عطف عليه قوله (وكبره) أي عظمه عن كل ما لا يليق به (تكبيرا) تعظيما تاما عارفا أو اعرف وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك أو ولي من الذل . وفيه تنبيه على أن [ص ٦٢] العبد وإن بالغ في التزيه والتحميد واجتهد في العبادة والتمجيد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه تعالى في ذلك ولعظمة هذه الآية ختمت بها التوراة كما رواه ابن جرير وغيره عن كعب قال المؤلف وتسن قراءتها عند النوم وتعليمها للأهل والعيال لأثر فيه

(حم طب عن معاذ) بضم الميم وفتح المهملة فمعجمة (ابن أنس) الجهني صحابي سكن مصر روى عنه ابنه سهل أحاديث كثيرة . قال الحافظ العراقي : وسنده ضعيف : وقال الهيتمي : رواه أحمد والطبراني من طريقين في أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف وفي الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه وقد رمز المؤلف لحسنه ." (١)

" ١٧٤ - (اجتنبوا التكبر) بمثناة فوقية قبل الكاف بخط المؤلف فما في بعض النسخ من إسقاطها من تحريف النساخ وهو تعظيم المرء نفسه واحتقار غيره **والأنفة** مساواته وينشأ عنه الغضب لأن غيره إذا ساواه غضب والحقد لما أضمره المرء في نفسه من الترفع على من تكبر عليه والغش لأنه لا ينصح من تكبر عليه إذ قصده كون غيره معيبا منقوصا وآفات الكبر كثيرة وما من خلق ذميم إلا والكبر محتاج إليه مصاحب له وقلما ينفك عنه العلماء بل والعباد [ص ١٥٥] والزهاد إذ يعجبون بكثرة أتباعهم وربما سار الواحد وأتباعه حوله ولو انفرد ساءه ذلك ولو لم يكن من الوعيد للمتكبر إلا نفي محبة الله له في النصوص القرآنية

---

(١) فيض القدير، ٦١/١

وخبر لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر لكفى (فإن العبد) الإنسان (لا يزال يتكبر حتى يقول الله تعالى) لملائكته (اكتبوا عبدي) وفي رواية عبدي هذا المعتدي طوره الذي نازع ربه رداءه وتعرض للمقت والهلاك (في) الإضافة للملك لا للتشريف (الجبارين) جمع جبار وهو المتكبر العاتي . وكفى بذلك إعلاما باستقباح الاستكبار كيف وهو يفضي بصاحبه إلى بئس القرار النار وقد أفلح من هدى إلى تجنبه وفاز بخيري الدنيا والآخرة وترك الكبر داع إلى السلامة من شر الناس فينتفي عنه بتركه ما يترتب عليه من أنواع الأذى وضروب المهالك . قال الشافعي : التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من أخلاق اللئام وأرفع الناس قدرا من لا يرى قدره وأكبرهم فضلا من لا يرى فضله وقال القاضي أبو الطيب من تصدى قبل أوانه فقد تصدى لهوانه وفي الشعب : من رضي أن يكون ذنبا أبى الله إلا أن يجعله رأسا وقال الماوردي : الكبر يكسب المقت ويلهي عن التأله ويوغر صدور الإخوان

(أبو بكر) وأحمد بن علي بن أحمد (ابن لال) قال الكمال : ومعنى لال أخرس وهو أبو بكر الهمداني من أهل القرن الرابع فقيه شافعي تفقه على أبي إسحاق وغيره وله مؤلفات كثيرة في الحديث قالوا : والدعاء عند قبره مستجاب (في) كتابه (مكارم الأخلاق) أي فيما ورد في فضلها (وعبد الغني بن سعيد) الحافظ المشهور (في) كتاب (إيضاح الإشكال عد) كلهم (عن أبي أمامة) الباهلي وفيه عثمان بن أبي عاتكة ضعفه النسائي وغيره وهو علي ابن يزيد الالهاني قال في التقريب ضعيف والقاسم بن عبد الرحمن صدوق لكنه يغرب كثيرا ." (١)

" ١٧٥١ - (إن الله تعالى غيور) فعول من الغيرة **الحمية والأنفة** وهي محال على الله تعالى لأنها هيجان الغضب بسبب ارتكاب ما ينهى عنه فالمراد لازمها وهو المنع والزجر عن المعصية (يحب الغيور) في محل الربية كما يفيده قوله في الحديث الآتي غيرتان غيرة يحبها الله (وإن عمر) بن الخطاب رضي الله عنه (غيور) فهو لذلك يحبه لأن من لمح لمحا من وصف كان من الموصوف به باللطف لطف ووصف كل مرتبة بحسبها (رستة) بضم الراء وسكون المهملة وفتح المثناة لقب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني الحافظ

(في الإيمان) أي في كتاب الإيمان له (عن عبد الرحمن بن رافع) التنوخي قاضي أفريقية (مرسلا) قال في الكاشف منكر الحديث مات سنة ١١٣ ." (٢)

---

(١) فيض القدير، ١/١٥٤

(٢) فيض القدير، ٢/٢٤٠

" ١٧٦٧ - (إن الله كتب الغيرة) بفتح الغين أي **الحمية والأنفة** (على النساء) أي حكم بوجود الغيرة فيهن على رجالهن ومن ضرائرهن فليصبرن على جهاد أنفسهن عند ثورانها كما يصبر الرجال على جهاد الأعداء فإن لم تجاهد إحداهن نفسها وشيطانها ذهب كمال دينها وظفر بها شيطانها بتسخطها وظلمها زوجها فضرتها وربما جنت أو أهلكت نفسها فقد قالت امرأة لعمر زنيت فخذني فقال زوجها : ما فعلت بل حملتها الغيرة (والجهاد على الرجال فمن صبر) القياس [ص ٢٥٠] صبرت لكن ذكره رعاية للفظ من (منهن إيمانا واحتسابا) أي لوجه الله تعالى وطلبا للثواب (كان لها مثل أجر الشهيد) أي إنسان قتل في معركة الكفار بسبب القتال فهذه تقابل وتجبر تلك النقيصة وهي عدم قيامهن بالجهاد الذي كتب على الرجال وفيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغير بما يصدر عنها لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة وقد أخرج أبو يعلى بسند قال ابن حجر رحمه الله لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه . وخرج بقوله من صبر من لم يصبر فإن أظهرت الضجر والسخط فلا أجر لها أصلا وبقوله إيمانا واحتسابا من صبرت ولم تحتسب صبرها فلا يكون لها أجر شهيد لكن لها أجر في الجملة

(طب) والبزار كلاهما من حديث عبيد بن الصباح عن كامل عن أبي العلاء عن الحكم عن إبراهيم بن علقمة (عن ابن مسعود) قال : كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ أقبلت امرأة عريانة فقام إليها رجل فألقى عليها ثوبا وضمها إليه فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال أحسبها غيرى ثم ذكره قال البزار لا نعلمه إلا من هذا الوجه وعبيد لا بأس به وكامل كوفي مشهور على أنه لم يشاركه أحد فيه انتهى وقال الهيثمي : فيه عبيد بن الصباح ضعفه أبو حاتم ووثقه البزار وبقية رجاله ثقات وقال في الميزان عبيد بن الصباح ضعفه أبو حاتم وساق هذا الخبر من مناكيره وفي اللسان أورده العقيلي في الضعفاء ولا يتابع عليه ولا يعرف إلا به اه . لكنه في الفتح عزاه للبزار وحده ورجاله ثقات لكن اختلف في عبيد بن الصباح منهم هكذا قال ." (١)

" ٢٠٨٠ - (إن الغضب من الشيطان) بمعنى أنه المحرك له الباعث إليه ليردي الآدمي ويغويه ويبعده عن نعمة الله ورحمته (وإن الشيطان خلق) بالبناء للمفعول وحذف الفاعل للعلم به (من النار) لأنه من الجان الذي قال الله تعالى فيهم ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾ وكانوا سكان الأرض قبل آدم عليه الصلاة و السلام وإبليس أعبدهم فلما عصى جعل شيطانا (وإنما تطفئ) أي تخمد (النار بالماء)

---

(١) فيض القدير، ٢/٢٤٩

لأنه ضدها (فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) ندبا مؤكدا وضوءه للصلاة وإن كان متوضئا والغسل أفضل قال الطيبي : أراد أن يقول إذا غضب أحدكم فليستعذ من الشيطان فإن الغضب من الشيطان قصور حالة الغضب ومنشأه ثم أرشد إلى تسكينه فأخرج الكلام هذا المخرج ليكون أجمع وأنفع وللموانع أزجر وأردع وهذا التصوير لا يمنع من إجرائه على الحقيقة لأنه من باب الكناية . قال ابن رسلان : وورد الأمر بالاغتسال فيحمل على الحالة التي يشتد الغضب فيها جدا وهذا تحذير شديد من الغضب ولا ينافيه قول إمامنا الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار لأن القوة الغضبية محلها القلب ومعناها غليان دمه لطلب الانتقام فمن فرط فيها حتى انعدمت بالكلية أو ضعفت أو أفرط حتى جاوز حدها الشرعي ذم ذما شديدا ومحمل كلام الشافعي الأول والحديث الثاني وسبب ذم الأول استلزامه انعدام الغيرة **والحمية والأنفة** مما يؤلف منه

(حم د) في الأدب (عن عطية) بفتح أوله وكسر المهملة الثانية وشد المثناة تحت ابن عروة (العوفي) صحابي نزل الشام قال في التقريب له ثلاثة أحاديث وسكت عليه هو والمنذري ." [1]

" ٢٨٥٦ - (ألا أخبركم بأهل الجنة) قالوا : بلى قال : (كل ضعيف) قال أبو البقاء : برفع كل لا غير أي هم كل ضعيف عن أذى الناس أو عن المعاصي ملتزم الخشوع والخضوع بقلبه وقالبه (متضعف) بفتح العين كما في التنقيح عن ابن الجوزي قال : وغلط [ص ١٠٢] من كسرها لأن المراد أن الناس يستضعفونه ويحتقرونه وفي علوم الحديث للحاكم أن ابن خزيمة سئل عن الضعيف قال : الذي يبرئ نفسه من الحول والقوة في اليوم عشرين مرة إلى خمسين (لو أقسم على الله لأبره) (١) (ألا أخبركم بأهل النار) قالوا : بلى . قال : (كل عتل) بالضم والتشديد الجافي أو الجموع المنوع أو الأكول الشروب (جواظ) بفتح فتشديد كما تقرر (جعظري مستكبر) صاحب كبر والكبر تعظيم المرء نفسه واحتقاره غيره **والأنفة** من مساواته . [2]قال ابن عربي في كلامه على الأولين : إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله فليس لهم جلوس إلا مع الله ولا حديث إلا مع الله فهم في الله قائمون وفي الله ناظرون وإليه داخلون ومنقلبون وعنه ناطقون ومنه آخذون وعليه متوكلون وعنده قاطنون فما لهم معروف سواه ولا مشهود إلا إياه صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم

---

(١) فيض القدير، ٣٧٧/٢

(٢) تنبيه

نفوسهم فهم في غيابات الغيب المحجوبون وهم ضنائن الحق المستخلصون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر كله حجاب فهذا حال هذه الطائفة

(حم ق) في التفسير وغيره (ت) في صفة النار (ن) في التفسير (هـ) في الزهد (عن حارثة بن وهب الخزاعي) أخي عبد الله بن عمر لأمه قيل هو الذي استطول صلاة معاذ فانصرف وفي الباب أبو هريرة وابن عمر وغيرهما

---

(١) يوجد في النسخة هنا بياض ." (١)

" ٢٩٩٨ - (أيما رجل قام إلى وضوئه) يحتمل كونه بفتح الواو أي الماء ليتوضأ منه ويحتمل بالضم أي إلى فعل الوضوء (يريد الصلاة) بذلك الوضوء (ثم غسل كفيه نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة) تقطر منهما قال القاضي : هو مجاز عن غفرانها لأنها ليست بأجسام فتخرج حقيقة وكذا يقال فيما بعده وقال الطيبي : هذا وما بعده تمثيل وتصوير لبراءته عن الذنوب كلها على سبيل المبالغة لكن هذا العام خص بالتغاير (فإذا غسل وجهه نزلت خطيئته من سمعه وبصره مع أول قطرة) تقطر منه (فإذا غسل يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو له ومن كل خطيئة كهيئة (يوم ولدته أمه) ويصير سالما من الذنوب مثل وقت ولادته (فإذا قام إلى الصلاة) وصلاها (رفعه الله عز و جل بها درجة) أي منزلة عالية في الجنة (وإن قعد) أي عن الصلاة أي لم يصلها بذلك (قعد سالما) من الخطايا قال الطيبي : فإن قلت ذكر لكل عضو ما يختص به من الذنوب وما يزيلها عن ذلك العضو والوجه مشتمل على الأنف والفم فلم خصت بالذكر دونهما قلت العين طليعة القلب ورائده وكذا الأذن فإذا ذكرا أغنيا عن سائرها قال : والبصر واليد والرجل كلها تأكيدات تفيد مبالغة في الإزالة واعلم أنه قد زاد في رواية للطبراني بعد غسل اليدين إلى المرفقين فإذا مسح برأسه تناثرت خطاياه من أصول الشعر والمراد بخطايا الرأس نحو الفكر في محرم وتحريك الرأس استهزاء بمسلم وتمكين المرأة أجنبيا من مسه مثلا والخيلاء بشعره والعمامة وإرسال العذبة فخرا وكبرا ونحو ذلك (٢) قال القصيري : ينبغي للمتطهر أن ينوي مع غسل يديه تطهيرهما من تناول ما أبعده عن الله ونفضهما مما يشغله عنه وبالمضمضة تطهير الفم من تلويث اللسان بالأقوال الخبيثة وبالاستنشاق إخراج استرواح روائح محبوباته [ص ١٥٦] وبتخليل الشعر حله من أيدي ما يملكه ويهبطه

---

(١) فيض القدير، ١٠١/٣

(٢) تنبيه

من أعلا عليين إلى أسفل سافلين وبغسل وجهه تطهيره من توجهه إلى اتباع الهوى ومن طلب الجاه المذموم وتخشعه لغير الله وتطهير الأنف من **الأنفة** والكبر والعين من التطلع إلى المكروهات والنظر لغير الله بنفع أو ضر واليدين تطهيرهما من تناول ما أبعده عن الله والرأس زوال الترأس والرياسة الموجبة للكبر والقدمين تطهيرهما من المسارعة إلى المخالفات واتباع الهوى وحل قيود العجز عن المسارعة في ميادين الطاعة المبلغة إلى الفوز وهكذا ليصلح الجسد للوقوف بين يدي القدوس تعالى

(حم عن أبي أمامة) الباهلي قال المنذري : رواه أحمد وغيره من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب وقد حسبها الترمذي لغير هذا المتن وهو إسناد حسن في المتابعات لا بأس به ." (١)

" ٥٢٢٥ - (ضعي يدك اليمنى على فؤادك) في رواية فامسحيه (وقولي) حال مسحه (بسم الله اللهم داوني بدوائك واشفني بشفائك وأغنني بفضلك عمن سواك واحذر) ضبطها بذال معجمة بخط الشارح وليس بصواب فقد وقفت على خط المصنف في مسودته فوجدته أحدر بدال مهملة (عني آذاك) قاله لغيري بفتح الراء فعلى من الغيرة وهي **الحمية والأنفة**

(طب عن ميمونة بنت أبي عسيب) وقيل : بنت أبي عنبسة قالت : قالت امرأة يا عائشة أغيثيني بدعوة من رسول الله صلى الله عليه و سلم تسكنني بها فذكرته . قال المصنف : كانت غيرا ." (٢)

" ٥٢٩٩ - (طوبى لمن تواضع في غير منقصة) بأن لا يضع نفسه بمكان يزرى به ويؤدي إلى تضييع حق الحق أو الخلق فإن القصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين فالتواضع الذي يعود على الدين بالنقص ليس بمطلوب قال الخواص : إياك والإكثار من ذكر نقائصك لأن به يقل شكرك فما ربحت من جهة نظرك إلى عيوبك خسرته من جهة تعاميك عن محاسنك التي أودعها الحق فيك وقال : شهود المحاسن هو الأصل وأما نقائصك فإنما طلب النظر إليها بقدر الحاجة لئلا يقع في العجب وقال : إذا أغضبك أحد لغير شيء فلا تبدأه بالصلح لأنك تذل نفسك في غير محل وتكبر نفسه بغير حق ومن ثم قيل : الإفراط في التواضع يورث الذلة والإفراط في المؤانسة يورث المهانة قال ابن عربي : الخضوع واجب في كل حال إلى الله تعالى باطنا وظاهرا فإذا اتفق أن يقام العبد في موطن الأولى فيه ظهور عزة الإيمان وجبروته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته ويظهر في المؤمن من **الأنفة** والجبروت ما يناقض الخضوع والذلة فالأولى إظهار ما يقتضيه ذلك الموطن قال تعالى ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب ﴾ الآية

---

(١) فيض القدير، ١٥٥/٣

(٢) فيض القدير، ٢٥٧/٤

وقال ﴿ واغلظ عليهم ﴾ فهذا من باب إظهار عزة الإيمان بعزة المؤمن وفي الحديث أن التبختر مشية يبغضها الله إلا بين الصفين فإذا علمت أن للمواطن أحكاما فافعل بمقتضاها تكن حكيما قال ابن القيم : والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتوالد من بين العلم بالله وصفاته ونعوت جلاله ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فتولد من ذلك خلق هو التواضع وانكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق والمهانة الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به وقال الراغب : الفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته والضعة وضع الإنسان نفسه بمحل يزرى به والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ولذلك قيل : إذا تواضع القلب خشعت الجوارح قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب فأنبل بحسنة غطت على سيئتين وأقبح بسيئة غطت على حسنتين والكبر ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره والتكبر إظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله وحده فمن ادعاها من المخلوقين فهو كاذب وفي أثر : الكبر على المتكبر صدقة لأن المتكبر إذا تواضعت له تمادى في تيهه وإذا تكبر عليه يمكن أن ينبه ومن ثم قال الشافعي : ما تكبر علي متكبر مرتين وقال الزهري : التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام (وأذل نفسه في غير مسكنة) قال الغزالي : تشبث به طائفة الفقهاء فقلما ينفك أحدهم عن التكبر على الأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق ويتعللون بأنه ينبغي صيانة العالم عن الابتذال وأن المؤمن منهي عن إذلال نفسه فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفا [ص ٢٧٨] للاسم وإضلالا للخلق

(١) روى العسكري أن رجلا مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالغ في الخضوع فقال عمر : ألست مسلما قال : بلى قال : فارفع رأسك وامدد عنقك فإن الإسلام عزيز منيع (وأنفق من مال جمعه في غير معصية) أي صرف منه في وجوه الطاعات وفيه إشعار بأن الصدقة لا تكون إلا من مال حلال وعبر بمن التبعيضية إشارة إلى ترك التصدق بكل المال (وخالط أهل الفقه والحكمة) الذين بمخالطتهم تحيى القلوب (ورحم أهل الذل والمسكنة) أي عطف عليهم ورق لهم وواساهم بمقدوره (طوبى لمن ذل نفسه) أي رأى ذلها وعجزها فلم يتكبر وتذلل لحقوق الحق وتواضع للخلق روي أن الصديق لما ولي الخلافة قالت

---

(١) فائدة

جويرية من الحي : إذن لا يحلب لنا منائحنا فسمعها فقال : يا بنية إني لأرجو أن لا يمنعني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه فكان يحلب للقوم شياههم وروي أن الفاروق حمل حال خلافته قربة إلى بيت امرأة أرملة أنصارية ومر بها في المجامع (وطاب كسبه) بأن كان من وجه حل (وحسنت سريرته) بصفاء التوحيد والثقة بوعد الله والخوف منه والرجاء والشفقة على خلقه والمحبة لأوليائه (وكرمت علانيته) أي ظهرت أنوار سريرته على جوارحه فكرمت أفعالها بتقوى الله وبمكارم أخلاق الدين بالصدق والبر ومراعاة الحقوق (وعزل عن الناس شره) فلم يؤذهم ومن ثم قال مالك بن دينار لراهب : عظني فقال : إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سورا من حديد فافعل وقيل لبقراط : لم لا تعاشر الناس فقال : وجدت الخلوة أجمع لدواعي السلوة (طوبى لمن عمل بعلمه) لينجو غدا من كون علمه حجة عليه وشاهدا بتفريطه (وأنفق الفضل من ماله) أي صرف الزائد عن حاجته وحاجة عياله في وجوه القرب لئلا يطغى ويسكن قلبه إليه ويحظى بثوابه في العقبى (وأمسك الفضل من قوله) أي وأمسك لسانه عن النطق بما يزيد على الحاجة بأن ترك الكلام فيما لا يعنيه قال بعض العارفين : من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين وفي بعض النسخ من قوته بدل قوله فليحرر [1] قال الحكيم : هذا من الأحاديث التي قال عنها المصطفى صلى الله عليه و سلم إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم إلخ فهذا تعرفه قلوب المحققين ومن ذلك حديث أنس خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم على ناقته الجدعاء فقال : يا أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب وكأن الحق على غيرنا وجب وكأن ما نشيع من الموتى عن قليل إلينا راجعون نبوءهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون من بعدهم فطوبى لمن شغله عيبه عن عيب الناس (تتمة) قال الغزالي : التواضع خاطر في وضع النفس واحتقارها والتكبر خاطر في رفع النفس واستعظامها والتواضع عامي وخاصي فالعامي اكتفاء بالدون من نحو ملبس ومسكن ومركب والتكبر في مقابلة الترفع عن ذلك والتواضع الخاصي تمرين النفس على قبول الحق من وضيع أو شريف والمتكبر في مقابلة المترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة

(تخ والبغوي) في معجم الصحابة (والباوردي وابن قانع) في معجمه (طب هق) من حديث نصيح العنسي (عن ركب) بفتح فسكون بضبط المصنف (المصري) رمز المصنف لحسنه اغترارا بقول ابن عبد البر حسن وليس بحسن فقد قال الذهبي في المهذب : ركب يجهل ولم يصح له صحية ونصيح ضعيف اه وقال المنذري : رواته إلى نصيح ثقات وقال ابن منده والبغوي : ركب مجهول لا يعرف له صحبة

(١) تنبيه

وأقرهم العراقي رواه البزار عن أنس بسند ضعيف وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني : نصيح العنسي عن ركب لم أعرفه وبقية رجاله ثقات اه . وقال في الإصابة : حديث سنده ضعيف قال : ومراد ابن عبد البر بأنه حسن لفظه وقال السخاوي : ضعيف حتى قال ابن حبان : إنه لا يعتمد عليه [ص ٢٧٩] وإن قال ابن عبد البر حسن فإنما عنى اللغوي ." (١)

" ٥٧١٧ - (العلم علمان فعلم) ثابت (في القلب) وهو ما أورث الخشية وأبعد عن الكبائر الظاهرة والباطنة (فذلك) هو العلم (النافع) لصاحبه (وعلم على اللسان) ولا قرار له لأنه شرارة من شرار الإيمان (فذلك حجة الله على ابن آدم) قال الطيبي : الفاء في فعلم تفصيلية وفي فذلك سببية من باب قوله خولان فأنكح أي هؤلاء الذين اشتهرت نساؤهم بالرغبة فيهما فأنكح منهم فكذلك قوله علم في القلب دل على كونه مرغوبا فيه فرتب عليه ما بعده وفي عكسه قوله فذلك حجة الله فإن صاحب العلم اللساني الذي لم يتأثر منه فإنه محجوج عليه ويقال له ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ويمكن حمل الحديث على علمي الظاهر والباطن قال أبو طالب : علم الباطن وعلم الظاهر أصلان لا يستغني أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل منهما بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما من صاحبه وقيل علم الباطن يخرج من القلب وعلم الظاهر يخرج من اللسان فلا يجاوز الآذان وهذا لا ينصرف إليه اسم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء إذ هم العلماء العاملون الأبرار المتقون الذين آل إليهم العلم الموروث بالصفة التي كان عليها عند المورث لا من علمه حجة عليه وقد منعه سوء ما لديه من خبث نيته وسوء طويته واتباع شهوته أن يلج نور العلم قلبه ويخالط لبه ﴿ فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ قال بعضهم : وهذه صفة علماء زماننا تجدهم يجتهدون في تحسين الهيئة والثياب الفاخرة والمراكب السنية فإذا نظر إلى باطن أحدهم وجد خوف الرزق على قلبه كالخيال يكاد يموت من همه وخوف الخلق وخوف سقوط المنزلة من قلوبهم والفرح بمدحهم والثناء عليه وحب الرئاسة وطلب العلو والتبصبص للظلمة والأغنياء واحتقار الفقراء والأنفة من الفقر والاستكبار في موضع الحق والحقد على أخيه المسلم والعداوة والبغضاء وترك الحق مخافة الذل والقول بالهوى والحمية والرغبة في الدنيا والحرص عليها والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والرياء والسمعة والاشتغال بعيوب الخلق والمداهنة والإعجاب بالنفس والتزيين للمخلوق والصلف والتجبر وعزة النفس والقسوة والفظاظة والغلظة وسوء الخلق وضيق الصدر والفرح بالدنيا والحزن على فوتها وترك القنع والمراء والجفاء والطيش والعجلة والحدة وقلة الرحمة والاتكال على الطاعة وأمن سلب

---

(١) فيض القدير، ٢٧٧/٤

ما أعطى وفضول الكلام والشهوة [ص ٣٩١] الخفية وطلب العز والجاه واتخاذ الإخوان في العلانية على عداوة في السر والغضب إذا رد عليه قوله والتماس المغالبة لغير الله والانتصار للنفس والأنس بالخلق والوحشة من الحق والغيبة والحسد والنميمة والجور والعدوان فهذه كلها مزابل قد انضمت عليها طوية صدورهم وظاهرهم صوم وصلاة وزهد وأنواع أعمال البر فإذا انكشف الغطاء بين يدي الله عن هذه الأمور كان كمزبلة فيها أنواع الأقذار غشيت بالذبائح فأنتنت فهذا عالم مرائي مداهن يتصنع عند شهواته فلم يقدر أن يخلص عمله ونفسه مقيدة بنار الشهوة وقلبه مشحون بهوى نفسه وهذه كلها عيوب والعبد إذا كثرت عيوبه انحطت قيمته

(ش والحكيم) الترمذي وابن عبد البر (عن الحسن) البصري (مرسلا) قال المنذري : إسناده صحيح وقال الحافظ العراقي : إسناده صحيح (خط عنه) أي الحسن (عن جابر) مرفوعا قال المنذري : إسناده صحيح قال الحافظ العراقي : وسند جيد وإعلال ابن الجوزي له وهم وقال السمهودي : إسناده حسن ورواه أبو نعيم والديلمي عن أنس مرفوعا ." (١)

" ٥٧٨٣ - (غيرتان) تثنية غيرة وهي **الحمية والأنفة** (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله ومخيلتان) تثنية مخيلة (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله الغيرة في الريبة) أي عند قيام الريبة (يحبها الله والغيرة في غير الريبة) بل بمجرد سوء الظن (يبغضها الله) وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه ومن الغيرة الفاسدة ما وقع لبعض الصوفية أنه قيل له : أتحب أن تراه قال : لا قيل : ولم قال : أنزه ذاك الجمال عن نظر مثلي وهذه شطحة مذمومة لا تعد من مناقب هذا القائل وإن جل فإن رؤيته تعالى أعلى نعيم الجنة وقد سألها من هو أعلى منزلة منه ومن غيره وهو المصطفى صلى الله عليه و سلم (والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله) لأن الإنسان يهزه رائحة السخاء [ص ٤٠٨] فيعطيها طيبة بها نفسه ولا يستكثر كثيرا ولا يعطي منها شيئا إلا وهو مستقل له (والمخيلة في الكبر يبغضها الله عز و جل) قال ابن حجر : وهذا الحديث ضابط الغيرة التي يلام صاحبها والتي لا يلام فيها قال : وهذا التفصيل يتمحض في حق الرجل لضرورة امتناع اجتماع زوجين لامرأة لطريق الحل وأما المرأة فحيث غارت من زوجها في ارتكاب محرم كزنا أو نقص حق وجور عليها لضرة وتحققت ذلك أو ظهرت القرائن فهي غيرة مشروعة فلو وقع ذلك بمجرد توهم عن غير ريبة فهي الغيرة في غير ريبة وأما لو كان الزوج عادلا ووفى لكل من زوجتيه حقها فالغيرة منها إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من

---

(١) فيض القدير، ٤/٣٩٠

النساء فتعذر فيها ما لم يتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل وعليه حمل ما جاء عن السلف الصالح من النساء في ذلك كعائشة وزينب وغيرهما

(حم طب ك) في الزكاة (عن عقبة بن عامر) قال الحاكم : صحيح وأقره الذهبي وقال الهيثمي : رجال الطبراني رجال الصحيح غير عبد الله بن زيد الأزرق وهو ثقة ." (١)

" ٧٦٩٩ - (ليس مني) أي ليس بمتصل بي (إلا عالم) العلم الشرعي النافع (أو متعلم) لذلك وما سواهما فغير متصل بي

(٢) قال الغزالي : آداب العلم تسعة عشر الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بوقار وإطراق رأس وترك التكبر إلا على الظلمة زجرا لهم وإيثار التواضع في المحافل وترك الهزل والدعاية والرفق بالمتعلم والتأني بالمتعجرف وإصلاح البليد بحسن الإرشاد وترك الأنفة من قول لا أدري وصرف الهمة للسائل وقبول الحجة والانقياد للحق عند الهفوة ومنع المتعلم من كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم غير وجه الله وصده عن الاشتغال بفرض الكفاية قبل العين وآداب المتعلم مع العالم أن يبدأ بالتحية ويقل بين يديه الكلام ولا يقول في معارضة قوله قال فلان خلافه ولا يشير عليه بخلاف رأيه ولا يسأل جليسه بمجلسه ولا يلتفت بل يقعد مطرقا ساكتا متأدبا كأنه في الصلاة لا يكثر عليه عند ملله وإذا قام قام له ولا يسأله في الطريق ولا يسيء الظن به في أفعال ظاهرها منكر عنده

(ابن النجار) في تاريخه (فر) كلاهما (عن ابن عمر) بن الخطاب وفيه مخارق بن ميسرة قال الذهبي في الضعفاء : لا يعرف ." (٣)

" ٩٢٢٩ - (المقيم على الزنا) وفي رواية الطبراني على الخمر (كعابد وثن) في مطلق التعذيب بالنار ولا يلزم منه استواؤهما بل ذلك يخلد وذا يخرج ويدخل الجنة وقد يعفى عنه فلا يدخل النار فإطلاق التساوي زجر وتنفير كيف والزنا يجمع خلال الشر بأسرها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة والحياء والأنفة وعدم المراقبة وسواد الوجه وظلمته والكآبة والمقت وظلمة القلب وطمس النور والفقر اللازم وقلة الهيبة وفقد العفة وعكر الوحشة على الوجه إلى غيره ذلك مما هو كالمحسوس قال جدي رحمه

---

(١) فيض القدير، ٤/٤٠٧

(٢) تنبيه

(٣) فيض القدير، ٥/٣٩٠

الله تعالى : إن العارفين يشاهدون جنابة الزاني على وجهه ويشمون من بدنه نتنا وأنه إذا اغتسل أبصروا أثر الزنا على وجه الماء عيانا

(الخرائطي في) كتاب (مساوي الأخلاق وابن عساكر) في ترجمة سعيد بن عمارة من طريق الخرائطي (عن أنس) بن مالك وضعفه المنذري وذلك أن فيه إبراهيم بن الهيثم أورده الذهبي في الضعفاء وقال ابن عدي : أحاديث مستقيمة سوى حديث الفار عن سعيد بن عمارة قال الأزدي : متروك والحارث بن النعمان قال البخاري : منكر الحديث ." (١)

" ٩٣٢٤ - (النميمة والشتيمة) أي الشتم . قال الجوهري : الشتم السب والاسم الشتيمة (والحمية) الأنفة والغيرة والمراد أهل هذه الصفات الثلاث (في النار) نار جهنم أي يكونون فيها يوم القيامة إن لم يدركهم العفو (لا يجتمعن) أي هذه الصفات (في صدر مؤمن) أي في قلب إنسان كامل الإيمان والمراد إذا صدر كل منها لغير مصلحة شرعية أما لها فيجوز بل قد يجب والأمثلة لا تخفى على من له ممارسة للأحكام الشرعية

(طب عن ابن عمر) بن الخطاب قال الهيثمي : فيه عفير بن معدان أجمعوا على ضعفه وأورده في الميزان في ترجمة يزيد بن سنان وقال : ضعفوه ." (٢)

"واحتج بأن النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته وبقول من كان منكم مصليا بعد الجمعة فليصل أربعا وكان ابن مسعود يصلي قبل الجمعة أربعا وبعدها أربعا وإلى هذا ذهب الثوري وابن المبارك وقال أبو بكر الأثرم وكل هذا جائز

١٠٤٦ ١٢٥٨ وفي الحديث الثامن عشر إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها ١٥ اعلم أن نساء الصحابة كن على طريقة الأزواج في التدين والتعبد وانضم إلى هذا ما في طباع العرب من تقبيح الفواحش خصوصا الحرائر كما قالت هند وهل تزني الحرة فاجتمع ما في الطباع من الأنفة والعفاف إلى ما وهب الله لهن من الدين فأذن لهن رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في الخروج إلى المساجد وقد كن يحضرن موعظته ويصلين خلفه ويسافرن في الغزوات معه فمن علم من امرأته حسن المقصد في خروجها إلى الصلاة فلا يمنعها ولحسن المقصد علامات منها ترك الزينة والطيب والمبالغة في الاستتار ومن لم يجد ذلك منهن جاز له المنع فقد قالت عائشة رضي الله عنها لو علم رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾

---

(١) فيض القدير، ٢٧٥/٦

(٢) فيض القدير، ٣٠٠/٦

ما أحدث النساء بعده لمنعهن المسجد وقد

تكون المرأة حسنة المقصد غير أنها تكون ذات هيكل فتؤذي من يراها فالاستتار لتلك أولى وقد كان عمر بن الخطاب يكره خروج امرأته ويغار من ذلك ولا ينهاها لأجل هذا الحديث وكان عمر يحرص على نزول الحجاب حتى قال يوما لسودة قد عرفناك لئلا تخرج ١٥ والدغل الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يستتر به أهل الفساد

". (١)

"١١٢٥ ١٣٥٠ - وفي الحديث العاشر بعد المائة اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة ١٥ هذا الحديث يتضمن التحذير لذوي **الأنفة** من ذل السؤال وقد روى أبو داود في السنن فقال في بعض الروايات واليد العليا المتعففة وله وجه وهو أن المتعفف قد علت يده إذا سفلت يد السائل قال الخطابي وقد توهم كثير من الناس أن معنى العليا أن يد المعطى مستعلية فوق يد الأخذ يجعلونه من علو الشيء فوق الشيء وليس ذلك عندي بالوجه إنما هو من علاء المجد والكرم يريد به الترفع عن المسألة والتعفف عنها وهذا الذي اختاره الخطابي وجه حسن ولا يمتنع ما أنكره لأنه إذا حملت العليا على المتعففة لم يكن للمنفق ذكر وقد صحت لفظة المنفقة فكان المراد أن هذه اليد

التي علت وقت العطاء على يد السائل هي العالية في باب الفضل وقد زعم قوم مالوا إلى الترفه أن اليد العليا هي الآخذة والسفلى هي المعطية قال ابن قتيبة ولا أرى هؤلاء إلا قوما استطابوا السؤال فهم يحتجون للدناءة والناس إنما يعلون بالمعروف والعطايا لا بالأخذ والسؤال والمعالي للصانعين لا للمصطنع إليهم

١١٢٦ ١٣٥٢ - وفي الحديث الثاني عشر بعد المائة اللهم ارحم المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال اللهم ارحم المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال والمقصرين ١٥ إنما قدم المحلقين لأنه عليه السلام حلق رأسه فحلق قوم وقصر قوم فقدم من وافقه ١٥ فإن قيل فما وجه تركهم الموافقه له فقد أجاب الخطابي فقال كانت عادة أكثر العرب اتخاذ الشعر على الرؤوس وتوفيره وتزيينه وكان التحليق فيهم قليلا وكانوا يرون ذلك نوعا من الشهرة وكان يشق عليهم الحلاق فمالوا إلى التقصير ١٥ وفي هذا الحديث أن ذلك كان في حجة الوداع

١١٢٧ ١٣٥٣ - وفي الحديث الثالث عشر بعد المائة كان إذا قفل من عزو أو حج أو عمرة وافى على

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ص/٦٠٦

ثنية أو فدفد يكبر على كل شرف ثلاثا

". (١)

"والداجن الشاة التي تحبس في البيت لدرها ولا تخرج إلى المرعى يقال دجن بالمكان إذا أقام به وقوله من يعذرني فيه قولان أحدهما من يقيم عذري إن عاتبته أو عاقبته والثاني من يعذرني إن شكوت منه وقولها احتملته **الحمية** أي أغضبته **الأنفة** والتعصب وحكى ابن السكيت أن الاحتمال الغضب وقيل حملته **الحمية** على ذلك القول واجتهلته حملته على الجهل وقلص دمعي أي انقطع انسكابه يقال قلص الشيء وتقلص إذا تضام ونقص وقولها ما رام مجلسه أي ما برح من مكانه والبرحاء من البرح وهو أشد ما يكون من الكرب والأذى وتعني أنه أصابه من الحرارة والكرب ما يصيب المحموم وهذا كان شأنه إذا جاء الوحي والجمان جمع جمانة وهي اللؤلؤة المتخذة من الفضة وثقل القول هيبته وسري عنه أي كشف ما ضامره من الكرب وقولها أحمي سمعي وبصري أي أمنعهما من أن أخبر أني سمعت ما لم أسمع وأبصرت ما لم أبصر تنفي عن نفسها بذلك الكذب

وقولها تساميني المساماة المفاعلة من السمو والمعنى كانت تطلب من السمو والعلو والحظوة عند رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ما أطلب فعصمها الله أي منعها من الشر بالورع وهو مجانبة ما يخاف شره وقول حسان ما تزن بريبة أي ما تتهم والغرث الجوع وهذه استعارة والمعنى أنها لا تغتاب أحد ممن هو غافل عن مثل هذا الفعل وقولها كان ينافح أي يدافع ويذب بلسانه والهجاء ذم الإنسان بخصاله القبيحة وما يضع منه وغالب ذلك أن يكون بالشعر وقد يكون بالكلام المنثور وهذا حديث الإفك كان في غزاة المريسيع وكانت في سنة ست من الهجرة

٢٥٢١ ٣٢٣٢ - والحديث التاسع والثمانون قد تقدم في مسند جبير بن مطعم ٢٥٢٢ ٣٢٣٣ - والحديث التسعون والحادي والتسعون كلاهما في مسند ابن عباس

٢٥٢٣ ٣٢٣٥ - والثاني والتسعون قد سبق

٢٥٢٤ ٣٢٣٦ - وفي الحديث الثالث والتسعين أول مولود ولد في الإسلام عبد الله بن الزبير تعني بهذا بعد الهجرة وقد سبق هذا وما بعده

". (٢)

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ص/٦٤٦

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ص/١٢٠٩

"وقال إنه قول لأبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني وقد اتفق سائر الفرق على تأويل نحو وهو معكم أين ما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم المجادلة الآية فأينما تولوا فثم وجه الله البقرة ونحن أقرب إليه من حبل الوريد الحديد وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمان والحجر الأسود يمين الله في الأرض وهذا الاتفاق يبين لك صحة ما اختاره المحققون أن الوقف على الراسخون في العلم لا الجلالة قلت الجمهور على أن الوقف على إلا الله وعدوا وقفه وقفا لازما وهو الظاهر لأن المراد بالتأويل معناه الذي أراده تعالى وهو في الحقيقة لا يعلمه إلا الله جل جلاله ولا إله غيره وكل من تكلم فيه تكلم بحسب ما ظهر له ولم يقدر أحد أن يقول أن هذا التأويل هو مراد الله جزما ففي التحقيق الخلاف لفظي ولهذا اختار كثيرون من محققي المتأخرين عدم تعيين التأويل في شيء معين من الأشياء التي تليق ب اللفظ ويكلون تعيين المراد بها إلى علمه تعالى وهذا توسط بين المذهبين وتلذذ بين المشربين واختار ابن دقيق العيد توسطا آخر فقال إن كان التأويل من المجاز البين الشائع فالحق سلوكه من غير توقف أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدمه مسألة فقهية اجتهادية والأمر فيها ليس بالخطر بالنسبة للفريقين قلت التوقف فيها لعدم ترجيح أحد الجانبين مع أن التوقف مؤيد بقول السلف ومنهم الإمام الأعظم والله أعلم وقال القاضي المراد بنزوله دنو رحمته ومزيد لطفه على العباد وإجابة دعوتهم وقبول معذرتهم كما هو ديدن الملوك الكرماء والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم ملهوفين محتاجين مستضعفين وقد روى يهبط من السماء العليا إلى السماء الدنيا أي ينتقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي **الأنفة** من الأرذال وعدم المبالاة وقهر العداة والانتقام من العصاة إلى مقتضى صفات الجمال المقتضية للرأفة والرحمة وقبول المعذر والتلطف بالمحتاج." (١)

"والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك أي من غير إتيان بهم وإن مخففة من المثقلة واللام هي الفارقة وضمير الشأن محذوف وفي الكلام تأكيد قال النووي ليس قوله كلا ردا لقوله ومخالفة لأمره وإنما معناه الإخبار عن حالة نفسه عند رؤيته الرجل مع امرأته واستيلاء الغضب عليه فإنه حينئذ يعالجه بالسيف قال رسول الله اسمعوا إلى ما يقول عدى السمع بإلي لتضمنه معنى الإصغاء أي استمعوا إلى ما يذكر سيدكم قال ميرك كذا وقع في بعض الروايات الصحيحة المشهورة ونقل صاحب الكشاف أنه وقع في أكثر الروايات سيدنا ثم قال وإضافته لا تخلو من أحد ثلاثة أوجه إما أنه يضاف إلى من ساده وليس بالوجه ههنا وإما أنه يريد أنه السيد عندنا والمشهود له بالسيادة بين أظهرنا أو الذي سودناه

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٤٠/٤

على قومه كما يقول السلطان فلان أميرنا قال وروى إلى سيدكم قال والسيد فيعل من ساد يسود قلبت واوه ياء لموافقتها الياء وسبقه، بالسكون وقول أم الدرداء حدثني سيدي أبو الدراء أرادت معنى السيادة تعظيما له أو أرادت ملك الزوجية من قوله تعالى وألفيا سيدها لدى الباب يوسف إنه لغيور فيه اعتذار منه لسعد وأن ما قاله سعد قاله لغيرته وفي ذكر السيد هنا إشارة إلى أن الغيرة من شيمة كرام الناس وساداتهم ولذلك اتبعه بقوله وأنا أغير منه والله أغير مني قال المظهر يشبه أن مراجعة سعد النبي كان طمعا في الرخصة لا ردا لقوله فلما أبى ذلك رسول الله سكت وانقاد وفي النهاية الغيرة **الحمية والأنفة** وغيور بناء مبالغة كشكور وكفور وفي شرح السنة الغيرة من الله تعالى الزجر والله غيور أي زجور يزجر عن المعاصي لأن الغيرة تغير يعتري الإنسان عند رؤية ما يكرهه على الأهل وهو على الله تعالى محال رواه مسلم وعن المغيرة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح بكسر الفاء المخففة وفي نسخة بفتحها قال النووي هو بكسر الفاء أي غير ضارب بصفح السيف وهو جانبه بل بحدة ا هـ وفي." (١)

"وعن عبد الله بن أبي أوفي قال كان رسول الله يكثر الذكر أي ذكر الله وما يتعلق به لما في مسند الفردوس عن عائشة من أحب شيئا أكثر من ذكره ويقل اللغو أي غير الذكر المذكور من ذكر الدنيا وما يتعلق بها فإنه ولو كان ما يخلو عن مصلحة وحكمة لكنه بالإضافة إلى الذكر الحقيقي لغو ولذا قال الغزالي ضيعت قطعة من العمر العزيز في تأليف البسيط والوسيط والوجيز فأطلق عليه اللغو نظرا إلى الصورة والمبنى مع قطع النظر عن المعنى ومنه قولهم حسنات الأبرار سيئات المقربين وإلا فقد قال تعالى في حق كمل المؤمنين والذين هم عن اللغو معرضون المؤمنون وقال عز وجل وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه القصص وأما ما قيل من أن المعنى لا يلغو أصلا فإن القلة قد تستعمل في النفي مطلقا نحو قليلا ما تؤمنون الحاقة فيأباه حسن المقابلة بقوله ويكثر وأما قول بعضهم ويجوز أن يراد باللغو الدعابة وأن ذلك كان منه قليلا فمردود إذ عد مزاجه من اللغو هو اللغو فإنه روى الترمذي عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا قال إني لا أقول إلا حقا فلله در مزاح هو الحق فكيف بجده الذي هو الصدق المطلق وقد صرح العلماء بأن المزاح بشرطه من جملة المستحبات فكيف يعد من اللغويات اللهم إلا أن يقال ما قدمناه من الأمر النسبي واللغوي الإضافي ويطيل الصلاة أي خصوصا في الجمعة لقوله ويقصر الخطبة من التقصير وفي نسخة من القصر ولعل وجهه أن الصلاة معراج المؤمن ومحل مناجاة المهيمن فيناسبها الإطالة بلا ملالة والخطبة محل التوجه إلى الخلق ودعائهم إلى الحق وفيها زيادة مظنة الرياء والسمعة لطلاقة اللسان في الفصاحة والبلاغة

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢٧٧/١٠

ولذا ورد من فقه الرجل طول صلاته وقصر خطبته ولا يأنف بفتح النون من **الأنفة** وزاد في الجامع ولا يستنكف أي لا يستكبر أن يمشي مع الأرملة في النهاية الأرامل المساكين من رجال ونساء وهو بالنساء أخص وأكثر والواحد أرمل وأرملة وفي القاموس امرأة أرملة محتاجة أو مسكينة." (١)

"أهله صخب وجلبة وإلا كان في بنائه وإصلاحه نصب وتعب فأخبر الله تعالى أن قصور الجنة خالية عن هذه الآفات قال الطيبي ويؤيد الوجه الثاني أن بناء بيت الجنة حاصل بقوله كن ليس كأبنية الدنيا فإنها إنما يتسبب بناؤها بصخب

ونصب وكذا السكون فيها لا يخلو عنهما وليس حكم بيت في الجنة كذلك متفق عليه ورواه النسائي وعن عائشة قالت ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم بكسر الغين المعجمة من غار يغار نحو خاف يخاف ما غرت على خديجة ما الأولى نافية والثانية موصولة أو مصدرية أي ما غرت مثل التي غرتها أو مثل غيرتي عليها والغيرة **الحمية والأنفة** وما رأيتها الجملة حالية وهي تقتضي عدم الغيرة لعدم الباعث عليها غالبا ولذا قالت ولكن كان يكثر ذكرها أي في مقام المدح وربما بالتشديد ويخفف ذبح الشاة أي شاة من الشياه ثم يقطعها بتشديد الطاء أي يكثر قطعها أعضاء أي عضوا عضوا بأن يجعل كل عضو قطعة ثم يبعثها أي أعضاء الشاة في صدائق خديجة أي أصدقائها جمع صديقة وهي المحبوبة فربما قلت له كأنه أي الشأن لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة بالرفع وفي نسخة صحيحة بالنصب فيقول إنها كانت وكانت أي كانت صوامة وقوامة ومحسنة ومشفقة إلى غير ذلك قال الطيبي كرر كانت ولم يرد به التثنية ولكن التكرير ليتعلق به كل مرة من خصائلها ما يدل على فضلها كقوله تعالى وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا الكهف ولم يذكر هنا متعلقه للشهرة تفخيما وكان أي مع هذا لي منها ولد بضم فسكون وفي نسخة صحيحة بفتحتين والمراد بهما جمع ولد ومنهم فاطمة قال المؤلف خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية كانت تحت أبي هالة بن زرارة ثم تزوجها عتيق بن عابد ثم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ولها يومئذ من العمر أربعون سنة ولم ينكح صلى الله عليه وسلم قبلها امرأة ولا نكح عليها حتى ماتت وهي أول من آمن من كافة الناس ذكرهم وأثناهم وجميع." (٢)

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٤٩٨/١٦

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٥٢/١٨

" ١٩٠٤ – لتكون كلمة الله أي دين الإسلام حمية هي **الأنفة** والغيرة والمحاماة عن عشيرته ." [١]

"٣٩– باب

إذا بدره البصاق فليأخذ بطرف ثوبه

٤١٧– حدثنا مالك بن إسماعيل : ثنا زهير : ثنا حميد ، عن أنس ، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رأى نخامة في القبلة فحكها بيده ، ورئي منه كراهية – أو رئي كراهية– لذلك وشدته عليه ، فقال : ((إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنما يناجي ربه – أو إن ربه بينه وبين القبلة – ، فلا يبزقن في قبلته ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه)) ، ثم أخذ طرف ردائه فبزق فيه ، ورد بعضه على بعض . قال : ((أو يفعل هكذا)) .

ومقصوده بتخريج هذا الحديث في هذا الباب : ذكر حكم البصاق في الثوب خاصة ، وقد بينه – صلى الله عليه وسلم – بقوله وفعله ، كما سبق التنبيه على ذلك ، وأن فيه إشارة إلى أن تلويث الثوب للحاجة إليه مما ينبغي التنزه عنه، كما قد يأنف منه بعض أهل الكبر **والأنفة**.

والمصلي إن كان في المسجد فالأولى أن يبصق في ثوبه ويدلكه بعضه ببعض ، كما فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ ليذهب أثره ، وهو أولى من البصاق في المسجد مع تغييبه ؛ للاختلاف في جوازه .

وإن كان خارج المسجد ، فقالت طائفة من أصحابنا : الأولى أن يبصق عن يساره ؛ لما فيه من صيانة الثوب عن تلويثه بالمستقذرات .

وخرج مسلم من حديث القاسم بن مهران ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، أن

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأى نخامة في قبلة المسجد ، فاقبل على الناس ، فقال :((ما بال حدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه ؟ أيحب أن يستقبل فيتنخع في وجهه ، فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه ، فإن لم يجد فيتفل هكذا)) . ووصف القاسم : فتفل في ثوبه ، ثم مسح بعضه على بعض .

وفي رواية له : قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يرد ثوبه بعضه على بعض .

وهذا يستدل به على أن البصاق على الأرض حيث أمكن فهو أولى من البصاق في الثوب ؛ لأنه لم يأمر به إلا عند تعذر البصاق عن يساره ، وليس المراد أنه لا يجوز فعله إلا عند تعذر البصاق على الأرض ،

---

(١) شرح السيوطي على مسلم، ٤/٤٩٨

بل المراد أنه لا حاجة إلى تلويث ثوبه بالبصاق مع القدرة على الاستغناء عنه .
فهو كقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾ [البقرة :٢٨٣] ، وقوله: ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ [الأحزاب : ٥] .
وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لزيد بن الحارثة : ((أنت أخونا ومولانا)) ، مع أنه كان يعلم أباه .

* * *." (١)

" – قوله " رض رأس جارية " في رواية لمسلم " فقتلها بحجر فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبها رمق "

وفي رواية أخرى " قتل جارية من الأنصار على حلى لها ثم ألقاها في قليب ورضح رأسها بالحجارة فأمر به أن يرجم حتى يموت فرجم حتى مات " والحديث يدل على أنه يقتل الرجل بالمرأة وإليه ذهب الجمهور وحكى ابن المنذر الإجماع عليه إلا رواية عن علي و عن الحسن وعطاء ورواه البخاري عن أهل العلم وروي في البحر عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعكرمة وعطاء ومالك وأحد قولى الشافعي أنه لا يقتل الرجل بالمرأة وإنما تجب الدية وقد رواه أيضا عن الحسن البصري أبو الوليد الباجي والخطابي وحكى هذا القول صاحب الكشاف عن الجماعة الذين حكاه صاحب البحر عنهم ولكنه قال وهو مذهب مالك والشافعي ولم يقل وهو أحد قولي الشافعي كما قال صاحب البحر وقد أشار السعد في حاشيته على الكشاف إلى أن الرواية التي ذكرها الزمخشري وهم محض قال ولا يوجد في كتب المذهبين يعني مذهب مالك والشافعي تردد في قتل الذكر بالأنثى انتهى

وأخرج البيهقي عن أبي الزناد أنه قال كان من أدركته من فقهائنا الذين ينتهي إلى قولهم منهم سعيد بن المسب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبو بكر بن عبد الرحمن وخارجة بن زيد بن ثابت وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسليمان بن يسار في مشيخة جلة من سواهم من نظرائهم أهل فقه وفضل إن المرأة تقاد من الرجل عينا بعين وأذنا بأذن وكل شيء من الجراح على ذلك وإن قتلها قتل بها ورويناه عن الزهري وغيره وعن النخاعي والشعبي وعمر بن عبد العزيز قال البيهقي وروينا عن الشعبي وإبراهيم خلافه

---

(١) فتح الباري لابن رجب، ١٦٨/٣

فيما دون النفس وأختلف الجمهور هل يتوفى ورثة الرجل من ورثة المرأة أم لا فذهب الهادي والقاسم والناصر وأبو العباس وأبو طالب إلى أنهم يتوفون نصف دية الرجل وحكاه البيهقي عن عثمان البتى وحكاه أيضا السعد في حاشية الكشاف عن مالك وذهبت الشافعية والحنفية وزيد بن على والمؤيد بالله والإمام يحيى إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا توفية وقد احتج القائلون بثبوت القصاص بقوله تعالى ﴿ النفس بالنفس ﴾ ويجاب عن ذلك بما قدمنا في الباب الأول من أن هذه الآية حكاية عن بني اسرائيل كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها ﴾ أي في التوراة

وقد صرح صاحب الكشاف بأنها واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها فتكون هذه الآية مفسرة أو مقيدة أو مخصصة بقوله تعالى ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ وهذه الآية تدل على اعتبار الموافقة ذكورة وأنوثة وحرية وقد أجاب عن هذا في حاشيته على الكشاف بوجوه . الأول أن القول بالمفهوم إنما هو على تقدير أن لا يظهر للقيد فائدة وههنا الفائدة أن الآية إنما نزلت لذلك . والثاني أنه لو أعتبر ذلك لزم أن لا تقتل الأنثى بالذكر نظرا إلى مفهوم بالأنثي قال وهذا يرد على ما ذكرنا أيضا ويدفع بأنه يعلم بطريق الأولى . والثالث أنه لا عبرة بالمفهوم في مقابلة المنطوق الدال على قتل النفس بالنفس كيفما كانت (لا يقال) تلك حكاية عما في التوراة لا بيان للحكم في شريعتنا لأنا نقول شرائع من قبلنا لا سيما إذا ذكرت في كتابنا حجة وكم مثلها في أدلة أحكامنا حتى يظهر الناسخ وما ذكرنا هنا يعني في البقرة يصلح مفسرا أفلا يجعل ناسخا وأما أن تلك يعني آية المائدة ليست ناسخة لهذه فلأنها مفسرة بهافلا تكون هي منسوخة بها . ودليل آخر على عدم النسخ أن تلك أعني النفس بالنفس حكاية لما في التوراة وهذه أعني الحر بالحر الخ خطاب لنا وحكم علينا فلا ترفعها تلك وغلى ذلك أشار يعني الزمخشري بقوله

ولأن تلك عطفا على مضمون قوله ويقولون هي مفسرة لكنهم يقولون أن الحكي في كتابنا من شريعة من قبلنا بمنزلة المنصوص المقرر فيصلح ناسخا وما ذكرنا من كونه مفسرا إنما يتم لو كان قولنا النفس بالنفس مبهما ولا إبهام بل هو عام والتنصيص على بعض الأفراد لا يدفع العموم سيما والخصم يدعى تأخر العام حيث يجعله ناسخا لكن يرد عليه أنه ليس فيه رفع شيء من الحكم السابق بل إثبات زيادة حكم آخر اللهم إلا أن يقال أن في قوله الحر بالحر الآية دلالة على وجوب المساواة في الحرية والذكورة دون الرق والأنوثة انتهى كلام السعد (الحاصل) إن الاستدلال بالقرآن على قتل الحر بالعبد أو عدمه أو قتل الذكر بالأنثى أو عدمه لا يخلو عن إشكال في عضد الظن الحاصل بالاستدلال فالأولي التعويل على ما سلف

من الأحاديث القاضية بأنه لا يقتل الحر بالعبد وعلى ما ورد من الأحاديث والآثار القاضية بأنه يقتل الذكر بالأنثى منها حديث الباب وإن كان لا يخلو عن إشكال لأن قتل الذكر الكافر بالأنثى المسلمة لا يستلزم قتل الذكر المسلم بها لما بينهما من التفاوت ولو لم يكن إلا ما أسلفنا من الأدلة القاضية بأنه لا يقتل المسلم بالكافر . ومنها ما أخرجه مالك والشافعي من حديث عمرو بن حزم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتب في كتابه إلى أهل اليمن أن الذكر يقتل بالأنثى وهو عندهما عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن في الكتاب الذي كبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم أن الذكر يقتل بالأنثى ووصله نعيم بن حماد عن ابن المبارك عن معمر عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبيه عن جده وجده محمد بن عمرو بن حزم ولد في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن لم يسمع منه كما قال الحافظ . وكذا أخرجه عبد الرزاق عن معمر ومن طريقه الدارقطني . ورواه أبو داود والنسائي من طريق ابن و ه ب عن يونس عن الزهري مرسلا . ورواه أبو داود في المراسيل عن ابن شهاب قال " قرأة في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم " . ورواه النسائي وابن حبان والحاكم والبهيقي موصولا مطولا من حديث الحكم بن موسى عن يحيى بن حمزة عن سليمان بن داود حدثني الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده وفرقة الدارمى في مسنده عن الحكم مقطعا

قال الحافظ وقد اختلف أهل الحديث في صحة هذا الحديث فقال أبو داود في المراسيل قد أسند هذا الحديث ولا يصح والذي في إسناده سليمان بن داود وهم إنما هو سليمان بن أرقم وقال في موضع آخر لا أحدث به وقد وهم الحكم بن موسى في قوله سليمان بن داود وقد حدثني محمد بن الوليد الدمشقي أنه قرأفي أصل يحيى بن حمزة سليمان بن أرقم وهكذا قال أبو زرعة الدمشقي أنه الصواب وتبعه صالح بن محمد جزرة وأبو حسن الهروى وغيرهما

وقال صالح جزرة حدثنا دحيم قال قرأت في كتاب يحيى بن حمزة حديث عمرو بن حزم فإذا هو عن سليمان بن أرقم قال صالح كتب عني هذه الحكاية مسلم بن الحجاج

قال الحافظ أيضا ويؤيد هذه الحكاية ما رواه النسائي عن الهيثم بن مروان عن محمد بن بكار عن يحيى بن حمزة عن سليمان بن أرقم عن الزهري وقال هذا أشبه بالصواب

وقال ابن حزم في المحلى صحيفة عمرو بن حزم منقطعة لا تقول بها حجة وسليمان بن داود الذي يروي هذه النسخة عن الزهري ضعيف ويقال أنه سليمان بن أرقم وتعقبه ابن عدي فقال هذا خطأ إنما هو

سليمان بن داود وقد جوده الحكم بن موسى وقال أبو زرعة عرضت على أحمد فقال سليمان بن داود اليمامي ضعيف وسليمان بن داود الخولاني ثقة وكلاهما يروي عن الزهري والذي روى حديث الصدقات هو الخولاني فمن ضعفه فإنما ظن أن الراوي هو اليمامي وقد أثنى على سليمان بن داود الخولاني هذا أبو زرعة وأبو حاتم وعثمان بن سعيد وجماعة من الحفاظ . وحكى الحاكم عن أبي حاتم أنه سئل عن عمرو بن حزم فقال سليمان بن داود عندنا ممن لا بأس به وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم والبيهقي ونقل عن أحمد أنه قال أرجو أن يكون صحيحا وصححه أيضا من حيث الشهرة لا من حيث الإسناد جماعة من الأئمة منهم الشافعي فإنه قال في رسالته لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وقال ابن عبد البر هذا كتاب مشهور عند أهل السير معروف ما فيه عند أهل العلم يستغني بشهرته عن الإسناد لأنه أشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة

قال ويدل على شهرته ما روى ابن وهب عن مالك عن الليث ابن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال وجد كتاب عند آل حزم يذكرون أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وقال العقيلي هذا حديث ثابت محفوظ إلا أنا نرى أنه كتاب غير مسموع عمن فوق الزهري

وقال يعقوب ابن أبي سفيان لا أعلم في جميع الكتب المنقولة كتابا أصح من كتاب عمرو بن حزم هذا فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين يرجعون إليه ويدعون رأيهم

قال الحاكم قد شهد عمر بن عبد العزيز وأمام عصره الزهري بالصحة لهذا الكتاب ثم ساق ذلك بسنده إليهما وسيأتي لفظ هذا الحديث في أبواب الديات هذا غاية ما يمكن الاستدلال به للجمهور . ومما يقوي ما ذهبوا إليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم " وهم يقتلون قاتلها " وسيأتي في باب أن الدم حق لجميع الورثة من الرجال والنساء . ووجهه ما فيه من العموم الشامل للرجل والمرأة . ومما يقوي ما ذهبوا إليه أيضا أنا قد علمنا أن الحكمة في شرعية القصاص هي حقن الدماء وحياة النفوس كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وترك الاقتصاص للأنثى من الذكر يفضي إلى إتلاف نفوس الإناث لأمور كثيرة . منها كراهية توريثهن

ومنها مخافة العار لاسيما عند ظهور أدنى شيء منهن لما بقي في القلوب من حمية الجاهلية التي نشأ عنها الوأد ومنها كونهن مستضعفات لا يخشى منرام القتل لهن أن يناله من المدافعة ما يناله من الرجال فلا شك ولا ريب أن الترخيص في ذلك من أعظم الذرائع المفضية إلى هلاك نفوسهن ولا سيما في مواطن

الأعراب المتصفين بغلط القلوب وشدة الغيرة والأنفة اللاحقة بما كانت عليه الجاهلية (يلزم مثل هذا في الحر إذا قتل عبدا لأن الترخيص في القود يفضي إلى مثل ذلك الأمر لأنا نقول هذه المناسبة إنما تعتبر مع عدم معارضتها لما هو مقدم عليها من الأدلة فلا يعمل بها في الاقتياد للعبد من الحر لما سلف من الأدلة القاضية بالمنع ويعمل بها في الاقتياد للأنثى من الذكر لأنها لم تعارض ما هو كذلك بل جاءت مظاهرة للأدلة القاضية بالثبوت (وفي حديث الباب) دليل على أنه يثبت القصاص في القتل بالمثقل وسيأتي بيان الخلاف فيه

وفيه أيضا دليل على أنه يجوز القود بمثل ما قتل به المقتول وإليه ذهب الجمهور ويؤيد ذلك عموم قوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاعتدوا عليه بمثل ما أعتدي عليكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وما أخرجه البيهقي والبزار عنه صلى الله عليه وآله وسلم من حديث البراء وفيه " ومن حرق حرقناه ومن غرق غرقناه "

قال البهيقي في إسناده بعض من يجهل وإنما قاله زياد في خطبته وهذا إذا كان السبب الذي وقع القتل به مما يجوز فعله لا إذا كان لا يجوز كمن قتل غيره بإيجاره الخمر أو اللواط به . وذهبت العترة والكوفيون ومنهم أبو حنيفة وأصحابه إلى أن الاقتصاص لا يكون إلا بالسيف . واستدلوا بحديث النعمان بن بشير عند ابن ماجه والبزار والطحاوي والطبراني والبيهقي بألفاظ مختلفة . منها لاقود إلا بالسيف وأخرجه ابن ماجه أيضا والبزار والبيهقي من حديث أبي بكرة

وأخرجه الدارقطني والبيهقي من حديث أبي هريرة

وأخرجه الدارقطني من حديث علي

وأخرجه البيهقي والطبراني من حديث ابن مسعود

وأخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلا وهذه الطرق كلها لا تخلو واحدة منها من ضعيف أو متروك حتى قال أبو حاتم حديث منكر

وقال عبد الحق وابن الجوزي طرقه كلها ضعيفة

وقال البيهقي لم يثبت له إسناده . ويؤيد معنا هذا الحديث الذي يقوي بعض طرقه بعضا حديث شداد بن أوس عند مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " وإحسان القتل لا يحصل بغير ضرب العنق بالسيف كما يحصل به ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بضرب عنق من أراد قتله حتى صار ذلك هو المعروف

في أصحابه فإذا رأوا رجلا يستحق القتل قال قائلهم يا رسول الله دعني أضرب عنقه حتى قيل إن القتل بغير ضرب العنق بالسيف مثلة وقد ثبت النهي عنها كما سيأتي

وأما حديث ابن عمر " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يقتل القاتل ويصبر الصابر " أخرجه البيهقي والدارقطني وصححه ابن قطان . بالأشهر فيه رواية معمر عن إسماعيل بن أمية مرسلا

وقد قال الدارقطني الإرسال فيه أكثر

وقال البيهقي الموصول غير المحفوظ

وأما حديث أنس المذكور في الباب فقد أجيب عنه بأنه فعل لا ظاهر له فلا يعارض ما ثبت من الأقوال في الأمر بإحسان القتلة والنهي عن المثلة وحصر القود في السيف ." (١)

"وحذف الجار من أن قياس مستمر. قال الحافظ : أغير أفعل تفضيل من الغيرة بفتح الغين المعجمة ، وهي في اللغة تغير يحصل من **الحمية والأنفة** ، وأصلها في الزوجين والأهلين وكل ذلك محال على الله تعالى ؛ لأنه منزه عن كل تغير ونقص فيتعين حمله على المجاز ، فقيل : لما كانت ثمرة الغيرة صون الحريم ومنعم وزجر من يقصد إليهم أطلق عليه ذلك لكونه منع من فعل ذلك وزجر فاعله وتوعده فهو من باب تسمية الشيء بما يترتب عليه. وقال ابن فورك : المعنى ما أحد أكثر زجرا عن الفواحش من الله تعالى. وقال غيره : غيرة الله ما يغير من حال العاصي بانتقامه منه في الدنيا والآخرة أو في أحدهما ، ومنه قوله تعالى : "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " [الرعد : ١١] ، وقال ابن دقيق العيد : أهل التنزيه في مثل هذا على قولين إما ساكت وإما مؤول ، على أن المراد بالغيرة شدة المنع والحماية ، فهو من مجاز الملازمة ، وقال الطيبي : وجه اتصال هذا المعنى بما قبله من قوله : ((فادعوا الله وكبروا...)) الخ ، من جهة أنهم لما أمروا باستدفاع البلاء بالدعاء والذكر والتكبير والصلاة والتصدق ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء وخص منها الزنا ؛ لأنه أعظمها في ذلك. وقيل : لما كانت هذه المعصية من أقبح المعاصي وأشدها تأثيرا في إثارة النفوس وغلبة الغضب ناسب ذلك تخويفهم في هذا المقام من مؤاخذة رب الغيرة وخالقها سبحانه وتعالى. ولعل تخصيص العبد والأمة بالذكر رعاية لحسن الأدب مع الله تعالى لتنزيهه عن الزوجة والأهل ممن يتعلق بهم الغيرة غالبا – انتهى كلام الحافظ ، وقيل : الغيرة من صفات الكمال ، فتثبت لله تعالى كما هو مدلول اللغة ، ولا دليل على صرفه عن ظاهر معناه ،

---

(١) نيل الأوطار، ٩٨/٧

وما ذكروه من حقيقته فهو بالنسبة إلينا ، والله جل وعلا منزه عن مماثلة المخلوقات ، فكما إن ذاته ليست." (١)

" (باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله)

[١٩٠٤] قوله صلى الله عليه و سلم (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله) فيه بيان أن الأعمال انما تحسب بالنيات الصالحة وأن الفضل الذى ورد فى المجاهدين فى سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا قوله (الرجل يقاتل للذكر) أى ليذكره الناس بالشجاعة وهو بكسر الذال قوله (ويقاتل حمية) هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن عشيرته ." (٢)

"بيان اللغات والإعراب قوله إلى النبي إنما عداه بكلمة الانتهاء مع أن جاء جاء متعديا بنفسه إشعارا بأن المقصود بيان انتهاء المجيء إليه قوله فقال عطف على قوله فجاء قوله ما القتال مبتدأ وخبر وقع مقولا للقول قوله فإن أحدنا الفاء فيه للتعليل قوله يقاتل جملة في محل الرفع لأنها خبر إن قوله غضبا نصب على أنه مفعول له والغضب حالة تحصل عند غليان الدم في القلب لإرادة الانتقام قوله حمية بفتح الحاء وكسر الميم وتشديد الياء آخر الحروف نصب على أنه مفعول له أيضا قال الجوهري حميت عن كذا حمية بالتشديد وتحمية إذا أنفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله وقال غيره الحمية هي المحافظة على الحرم وقيل هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن العشيرة والأول إشارة إلى مقتضى القوة الغضبية والثاني إلى مقتضى القوة الشهوانية أو الأول لأجل دفع المضرة والثاني لأجل جلب المنفعة قوله فرفع إليه أي فرفع رسول الله إلى السائل قوله وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما ظاهره أن القائل هو أبو موسى ويحتمل أن يكون من دونه فيكون مدرجا في أثناء الخبر وهو استثناء مفرغ وأن مع اسمها وخبرها في تقدير المصدر أي ما رفع لأمر من الأمور إلا لقيام الرجل قوله قال أي النبي وهو الجواب عن سؤال السائل المذكور فإن قلت السؤال عن ماهية القتال والجواب ليس عنها بل عن المقاتل قلت فيه الجواب وزيادة أو أن القتال بمعنى اسم الفاعل أي المقاتل بقرينة لفظ فإن أحدنا ولفظة ما إن قلنا إنه عام للعالم ولغيره فظاهر وإن قلنا إنه لغيره فكذلك إذا لم يعتبر معنى الوصفية فيه إذ صرحوا بنفي الفرق بين العالم وغيره عند اعتبارها وقال الزمخشري في قوله تعالى بل له ما في السموات وما في الأرض كل له قانتون (البقرة ١١٦) فإن قلت كيف جاء بما

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٣٠٣/٥

(٢) شرح النووي على مسلم، ٤٩/١٣

الذي لغير أولي العلم مع قوله قانتون قلت هو كقوله سبحان ما سخركن لنا أو نقول ضمير فهو راجع إلى القتال الذي في ضمن قاتل أي فقتاله قتال في سبيل الله فإن." (١)

"إبراهيم مصلى جواب لو محذوف ويجوز أن يكون لو للتمني فلا يحتاج إلى جواب واختلفوا فيه فقال ابن الصائغ وابن هشام هي قسم برأسها لا يحتاج إلى جواب كجواب الشرط

ولكن قد يؤتى لها بجواب منصوب كجواب ليت وقال بعضهم هي لو الشرطية أشربت معنى التمني وقال ابن مالك هي لو المصدرية أغنت عن فعل التمني قوله وآية الحجاب هي قوله تعالى يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن وآية الحجاب كلام إضافي يجوز فيه الرفع والنصب والجر أما الرفع فيحتمل وجهين أحدهما بالابتداء محذوف الخبر تقديره وآية الحجاب كذلك والآخر أن يكون معطوفا على مقدر تقديره هو اتخاذ المصلى وآية الحجاب وأما النصب فعلى الاختصاص وأما الجر فعلى أنه معطوف على مجرور وهو بدل من ثلاث والتقدير في ثلاث اتخاذ المصلى وآية الحجاب قوله البر بفتح الباء الموحدة صفة مشبهة من بررت أبر من باب علم يعلم فأنا بر وبار ويجمع البر على أبرار والبار على البررة والبر مقابل الفاجر من الفجور قال الجوهري فجر فجورا أي فسق وفجر أي كذب وأصله الميل والفاجر المائل قوله في الغيرة بفتح الغين المعجمة وهي **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور بلا هاء لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى يقال غرت على أهلي أغار غيرة فأنا غائر وغيور للمبالغة." (٢)

"مقدار الإقامة فيه فالذي ذكره الترمذي عن الشافعي أنه قال ثم سجد سجدتين تامتين ويقيم في كل سجدة نحوا ممأأقام في ركوعه وهي رواية البويطي عن الشافعي أيضا إلا أنه زاد بعد قوله تامتين

طويلتين وهو الذي جزم به النووي في المنهاج قوله ثم انصرف أي من الصلاة قوله وقد تجلت الشمس أي انكشفت وفي رواية ابن شهاب وقد انجلت الشمس قبل أن ينصرف وفي رواية ثم تشهد وسلم قوله فخطب

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٩٧/٣

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٨٤/٦

الناس صريح في إستحبابها وبه قال الشافعي وإسحاق وابن جرير وفقهاء أصحاب الحديث وتكون بعد الصلاة وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد لا خطبة فيها قالوا لأن النبي أمرهم بالصلاة والتكبير والصدقة ولم يأمرهم بالخطبة ولو كانت سنة لأمرهم بها ولأنها صلاة كان يفعلها المنفرد في بيته فلم يشرع لها خطبة وإنما خطب بعد الصلاة ليعلمهم حكمها وكأنه مختص به وقيل خطب بعدها لا لها بل ليردهم عن قولهم إن الشمس كسفت لموت إبراهيم كما في الحديث وقال بعضهم والعجب أن مالكا روى حديث هشام هذا وفيه التصريح بالخطبة ولم يقل به أصحابه قلت ليس بعجب ذلك فإن مالكا وإن كان قد رواها فيه وعللها بما قلنا فلم يقل بها وتبعه أصحابه فيها قوله فحمد الله وأثنى عليه زاد النسائي في حديث سمرة ويشهد أنه عبد الله ورسوله قوله فادعوا الله رواية الكشميهني وفي رواية غيره فاذكروا الله قوله أغير أفعل التفضيل من الغيرة وهي تغير يحصل من **الحمية والأنفة** وأصلها في الزوجين والأهلين وكل ذلك مخال على الله عز وجل وهو مجاز محمول على غاية إظهار غضبه على الزاني قيل لما كانت ثمرة الغيرة صون الحريم ومنعهم وزجرهم من يقصدهم وزجر من يقصد إليهم أطلق ذلك لكونه منع من فعل ذلك وزجر فاعله وتوعده فهو من باب تسمية الشيء بما يترتب عليه وقال ابن فورك المعنى ما أحد أكثر زجرا عن الفواحش من الله تعالى وقال ابن دقيق العيد أهل التنزيه في مثل هذا على قولين إما ساكت وإما مؤول على." (١)

"الرابع أن الجمهور سلكوا في هذا الباب الطريق الواضحة السالمة وأجروا على ما ورد مؤمنين به منزهين لله تعالى عن التشبيه والكيفية وهم الزهري والأوزاعي وابن المبارك ومكحول وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهم من أئمة الدين ومنهم الأئمة الأربعة مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد قال البيهقي في (كتاب الأسماء والصفات) قرأت بخط الإمام أبي عثمان الصابوني عقيب حديث النزول قال الاستاذ أبو منصور يعني الجمشاذي وقد اختلف العلماء في قوله ينزل الله فسئل أبو حنيفة فقال بلا كيف وقال حماد بن زيد نزوله إقباله وروى البيهقي في (كتاب الاعتقاد) بإسناده إلى يونس بن عبد الأعلى قال قال لي محمد بن إدريس الشافعي لا يقال للأصل لم ولا كيف وروى بإسناده إلى الربيع بن سليمان قال قال الشافعي الأصل كتاب أو سنة أو قول بعض أصحاب رسول الله أو إجماع الناس قلت لا شك أن النزول انتقال الجسم من فوق إلى تحت والله منزه عن ذلك فما ورد من ذلك فهو من المتشابهات فالعلماء فيه على قسمين الأول المفوضة يؤمنون بها ويفوضون تأويلها إلى الله عز وجل مع الجزم بتنزيهه عن صفات النقصان والثاني المؤولة يؤولون بها على ما يليق به بحسب المواطن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٥/١١

فأولوا بأن معنى ينزل الله ينزل نمره أو ملائكته وبأنه استعارة ومعناه التلطف بالداعين والإجابة لهم ونحو ذلك وقال الخطابي هذا الحديث من أحاديث الصفات مذهب السلف فيه الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وقال القاضي البيضاوي لما ثبت بالقواطع العقلية أنه منزه عن الجسمية والتحيز امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه فالمراد دنو رحمته وقد روي يهبط الله من السماء العليا إلى السماء الدنيا أي ينتقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي **الأنفة** من الأراذل وقهر الأعداء والانتقام من العصاة إلى مقتضى صفات." [1]

"وقوله مجرور لأنه عطف على قوله باب الصبر والتقدير وباب قوله تعالى واستعينوا (البقرة ٥٤) الآية ويجوز أن يكون مرفوعا عطفا على قوله الصبر عند الصدمة الأولى على تقدير قطع الإضافة في لفظ باب كما ذكرنا فيه الوجهين وجه ذكر هذه الآية الكريمة هنا هو أنه لما كان المعبر من الصبر هو الصبر عند الصدمة الأولى الذي ذكرنا معناه أتى الصابر بصبر مقرون بالصلاة ولهذا كان النبي إذا حزبه أمر صلى رواه أبو داود وروى الطبراني في (تفسيره) بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام وهو يقول واستعينوا بالصبر والصلاة (البقرة ٥٤) الآية قال المفسرون معنى الآية استعينوا على ما يستقبلكم من أنواع البلايا بالصبر والصلاة وقيل في أمر الآخرة وقيل في ترك الرياسة والصبر الحبس لأن الصابر حابس نفسه على ما تكرهه وسمى الصوم صبرا لحبس النفس فيه عن الطعام وغيره ونهى عن قتل شيء من الدواب صبرا وهو أن يحبس حيا وقيل المراد بالصبر في هذه الآية الصوم قاله مجاهد قوله وإنها أي وإن الصلاة ولم يقل وإنهما مع أن المذكور الصبر والصلاة فقيل لأنه رد الضمير إلى ما هو الأهم والأغلب كما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها (التوبة ٤٣) رد الضمير إلى الفضة لأنها أعم وأغلب فإن قلت ما وجه الاستعانة بالصلاة قلت لما كان فيها تلاوة القرآن والدعاء والخضوع لله تعالى كان ذلك معونة على ما تنازع إليه النفس من حب الرياسة **والأنفة** من الانقياد إلى الطاعة قوله لكبيرة أي شديدة ثقيلة على الكافرين إلا على الخاشعين ليست بكبيرة والخاشع الذي يرى أثر الذل والخضوع عليه والخشوع في اللغة السكون قال خشعت الأصوات للرحمن وقيل الخشوع في الصوت والبصر والخضوع في البدن فإن قلت قد علمت أن العبد منهي عن الهجر وتسخط قضاء الرب في كل حال فما وجه خصوص." [2]

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٢٥/١١

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٥٣/١٢

"فيكون من زائدة قوله عذابا أليما (الفتح ٢٥) أي بالقتل والسيف ويجوز أن يكون لوتزيلوا (الفتح ٢٥) كالتكرير للولا رجال مؤمنون لمرجعهما إلى معنى واحد ويكون لعذبنا جوابا لهما قوله إذ جعل الذين كفروا أي أذكر حين جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية**
(الفتح ٢٦) أي **الأنفة** حمية الجاهلية حين صدوا رسول الله وأصحابه عن البيت ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ولا برسالة النبي **والحمية** على وزن فعيلة من قول القائل فلان أنفة يحمي حمية ومحمية أي يمتنع قوله فأنزل الله سكينته (الفتح ٢٦) أي وقاره على رسوله وعلى
المؤمنين (الفتح ٢٦) فتوقروا وصبروا قوله وألزمهم كلمة التقوى (الفتح ٢٦) أي الإخلاص وقيل كلمة التقوى بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله وقيل لا إله إلا الله وقيل لا إله إلا الله محمد رسول الله وعن الحسن الوفاء بالعهد ومعنى لزمهم أوجب عليهم وقيل ألزمهم الثبات عليه ؛ وكانوا أحق بها وأهلها من غيرهم
قال أبو عبد الله معرة العر الجرب تزيلوا إنمازوا **الحمية** حميت أنفي حمية ومحمية وحميت المريض حمية وحميت القوم منعتهم حماية وأحميت الحمى جعلته حمى لا يدخل وأحميت الحديد وأحميت الرجل إذا أغضبته إحماء." (١)

"أبو عبد الله هو البخاري هذا في رواية المستملي وحده وقد فسر هنا ثلاثة ألفاظ التي وقعت في الآيات المذكورة أحدها هو قوله العر أشار بهذا إلى أن لفظ المعرة التي في الآية الكريمة مشتقة من العر بفتح العين المهملة وتشديد الراء ثم فسر العر بالجرب بالجيم وقال ابن الأثير المعرة الأمر القبيح المكروه والأذى وهي مفعلة من العر وقال الجوهري العر بالفتح الجرب تقول منه عرت الإبل تعر فهي عارة والعر بالضم قروح مثل القوباء تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض تقول منه عرت الإبل فهي معرورة الثاني هو قوله تزيلوا وفسره بقوله إنمازوا وهو من الميز يقال مزت الشيء من الشيء إذا فرقت بينهما فانماز وامتاز وميزته فتميز الثالث هو قوله **الحمية** إلى آخره وقد ذكر فيه ستة معاني الأول حميت أنفي حمية وهذا يستعمل في شيء تأنف منه وداخلك ع ار ومصدره حمية ومحمية فالأول بتشديد الياء آخر الحروف يقال حمى من ذلك أنفا أي أخذته **الحمية** وهي **الأنفة** والغيرة الثاني حميت المريض أي الطعام ومصدره حمية بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء وجاء حموه أيضا والثالث حميت القوم منعتهم من حصول الشر والأذى إليهم ومصدره حماية على وزن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٦/٢١

فعالة بالكسر والرابع أحميت الحمى بكسر الحاء وفتح الميم مقصور لا يدخل فيه ولا يقرب منه وهذا حمى على وزن فعل بكسر الفاء وفتح العين أي محظور لا يقرب والخامس أحميت الحديد في النار فهو محمي ولا يقال حميته والسادس أحميت الرجل إذا أغضبته وحميت عليه غضبت ومصدر الأول إحماء بكسر الهمزة وله معنى سابع حمى النهار بالكسر وحمى التنور حميا فيهما أي اشتد حره وحكى الكسائي اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى ومعنى ثامن حاميت على ضيفي إذا احتفلت له ومعنى تاسع احتميت من الطعام احتماء." (١)

"قوله خرج رسول الله إلى الخندق وكان في شوال سنة خمس من الهجرة نص على ذلك ابن إسحاق وعروة بن الزبير وقتادة وقال موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال كانت الأحزاب في شوال سنة أربع وكذلك قال مالك بن أنس وكان سبب ذلك أنه لما بلغه اجتماع الأحزاب وهي القبائل واتفاقهم على محاربته ضرب الخندق على المدينة قال ابن هشام يقال إن الذي أشار به سلمان رضي الله تعالى عنه وقال الطبري والسهيلي أول من حفر الخنادق منوجهر بن أيرج وكان في زمن موسى عليه الصلاة والسلام قوله فإذا كلمة إذ المفاجأة قوله ما بهم أي الأمر الملتبس بهم قوله من النصب أي التعب قوله والجوع

قوله قال أي النبي اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة إلى آخره وقال الداودي إنما قال ابن رواحة لا هم بلا ألف ولا لام فأتى به بعض الرواة على المعنى وهذا موزون وقال ابن التين بالألف واللام إلى آخره فليس بموزون ولا هو رجز وقال ابن بطال ليس هو من قول رسول الله بل هو من قول ابن رواحة ولو كان من لفظه لم يكن بذلك شاعرا ولا ممن ينبغي له الشعر وإنما يسمي به من قصد صناعته وعلم السبب والوتد والشطر وجميع معانيه من الله لزحاف والخرم والقبض ونحو ذلك قلت فيه نظر لأن شعراء العرب لم يكونوا يعلمون ما ذكره من ذلك قوله إن العيش أي العيش المعتبر أو العيش الباقي قوله فاغفر للأنصار ويروى للأنصار ويخرج به عن الوزن قوله بايعوا ويروى بايعنا

وفيه من الفوائد أن للحفر في سبيل الله وتحصين الديار وسد الثغور منها أجر كأجر القتال والنفقة فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى سبعمائة ضعف وفيه استعمال الرجز والشعر إذا كانت فيه إقامة النفوس وإثارة الأنفة والمعرة." (٢)

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٧/٢١

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٨٠/٢١

"واحد لها قوله فحمته أي حفظته ويقال حمته أي عصمته ولهذا سمي عاصم محمي الدبر فعيل بمعنى مفعول ويقال لما عجزوا قالوا إن الدبر يذهب بالليل فلما جاء الليل أرسل الله سيلا فاحتمله فلم يجدوه وقيل إن الأرض ابتلعته والحكمة فيه أن الله حماه من قطع شيء من جسده وما حماه من القتل إذا القتل موجب للشهادة ولا ثواب في القطع مع ما فيه من هتك حرمته

ذكر ما يستفاد منه في نزول خبيب وصاحبه جواز أن يستأسر الرجل قال المهلب إذا أراد أن يأخذ بالرخصة في إحياء نفسه فعل كفعل هؤلاء وعن الحسن لا بأس أن يستأسر الرجل إذا خاف أن يغلب وقال الثوري أكره للأسير المسلم أن يمكن من نفسه إلا مجبورا وعن الأوزاعي لا بأس للأسير المسلم أن يأبى أن يمكن من نفسه بل يأخذ بالشدة والإباء من الأسر **والأنفة** من أن يجري عليه ملك كافر كما فعل عاصم وفيه استيثار الاستحداد لمن أسر ولمن يقتل والتنظيف لمن يصنع بعد القتل لئلا يطلع منه على قبح عورة وفيه أداء الأمانة إلى المشرك وغيره وفيه التورع من قتل أطفال المشركين رجاء أن يكونوا مؤمنين وفيه الامتداح بالشعر حين ينزل بالمرء هو أن في دين أو ذلة القتل يرغم بذلك أنف عدوه ويحدد في نفسه صبرا وأنفة وفيه كرامة كبيرة لخبيب في أكله من قطف عنب في غير أوانه وقال ابن بطال هذا ممكن أن يكون آية لله على الكفار وتصحيحا لرسالة نبيه محمد عند الكفار من أجل ما كانوا عليه من تكذيب رسول الله وفيه علامة من علامات نبوته بإجابة دعوة عاصم بأن أخبر الله نبيه محمدا بالخبر قبل بلوغه على ألسنة المخلوقين

١٧٠ -(باب فكاك الأسير)

أي هذا باب في بيان وجوب فكاك الأسير من أيدي العدو بمال أو غيره والفكاك بفتح الفاء أي التخليص ويجوز بالكسر

فيه عن أبي موسى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -." (١)

"أخرج البخاري هذا الحديث أيضا في فضل عمر رضي الله تعالى عنه عن سعيد بن أبي مريم أيضا وأخرجه ابن ماجه عن محمد بن الحارث المصري عن الليث وقال الترمذي عن أبي هريرة إن النبي قال رأيت في الجنة قصرا من ذهب فقلت لمن هذا قال لعمر بن الخطاب قال ومعنى هذا الحديث أني دخلت البارحة الجنة يعني رأيت في المنام كأني دخلت الجنة هكذا روي في بعض هذا الحديث ويروى عن ابن عباس أنه قال رؤيا الأنبياء حق وقد روى أحمد من حديث معاذ رضي الله تعالى عنه قال إن عمر من أهل

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٣١/٢٢

الجنة وذلك أن النبي كان ما رأى في يقظته ومنامه سواء وأنه قال بينا أنا في الجنة إذ رأيت فيها جارية فقلت لمن هذه فقيل لعمر بن الخطاب

قوله رأيتني أي رأيت نفسي قوله فإذا امرأة كلمة إذا للمفاجأة قوله تتوضأ قال الكرماني تتوضأ من الوضاءة وهي الحسن والنظافة ويحتمل أن يكون من الوضوء وقال الخطابي فإذا امرأة شوهاء وإنما أسقط الكاتب منه بعض الحروف فصار يتوضأ لالتباس ذلك في الخط لأنه لا عمل في الجنة لا وضوء ولا غيره والشوهاء بالشين المعجمة قال أبو عبيد هي المرأة الحسناء والشوهاء واسعة الفم والصغيرة الفم وقال ابن الأعرابي الشوهاء القبيحة وقال الجوهري فرس شوهاء صفة محمودة ويقال يراد بها سعة أشداقها ورد عليه القرطبي وقال الرواية الصحيحة تتوضأ ووضوء هذه المرأة إنما هو لتزداد حسنا ونورا لا أنها تزيل وسخا ولا قذرا إذ الجنة منزهة عن القذر وقال ابن التين وذكر عن الشيخ أبي الحسن أنه قال هذا فيه أن الوضوء موصل إلى هذا القصر والنعيم قوله فذكرت غيرته بالفتح مصدر قولك غار الرجل على أهله من فلان وهي **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور وجاء امرأة غيراء وصيغة غيور للمبالغة

". (١)

"مطابقته للترجمة ظاهرة وسعيد بن عفير بضم العين المهملة وفتح الفاء وسكون الياء آخر الحروف وهو سعيد بن كثير بن عفير أبو عثمان المصري وقد نسب إلى جده والحديث من أفراده

قوله كتب إلي هشام يعني هشام بن عروة ابن الزبير ووقع عند الإسماعيلي من وجه آخر عن الليث حدثني هشام بن عروة قيل لعل الليث لقي هشاما بعد أن كتب إليه بهذا الحديث فحدثه به وقيل كان مذهب الليث أن الكتابة والتحديث سواء ونقل عنه الخطيب ذلك قوله ما غرت بكسر الغين المعجمة من الغيرة وهي **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور بلا هاء لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى وجاء في حديث أن امرأة غيرى على وزن فعلى من الغيرة يقال غرت على أهلي أغار غيرة فأنا غائر وغيور للمبالغة وفيه ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عمن دونهن وكانت عائشة تغار من نساء النبي ولكن تغار من خديجة أكثر وذلك لكثرة ذكر رسول الله إياها وأصل غيرة المرأ من تخيل محبة غيرها أكثر منها وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة وقال القرطبي مرادها بالذكر لها مدحها والثناء عليها قوله هلكت قبل أن يتزوجنيأي ماتت خديجة قبل أن يتزوج النبي بعائشة ويأتي عن قريب بيان المدة إن شاء الله

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٥/٢٣

تعالى وأشارت عائشة بذلك إلى أن خديجة لو كانت حية في زمانها لكانت غيرتها منها أكثر وأشد قوله وأمره الله أن يبشرها أي أمر الله تعالى النبي أن يبشر خديجة ببيت من قصب بفتحتين قال الجوهري هو أنابيب من جوهر وقال النووي المراد به قصب اللؤلؤ المجوف وقيل قصب من ذهب منظوم بالجواهر ويقال القصب هنا اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف وقد جاء في رواية عبد الله بن وهب قال أبو هريرة قلت يا رسول الله وما بيت من قصب قال بيت من لؤلؤة مجوفة رواه السمرقندي في (صحيح مسلم) مجوبة وروى الخطابي مجوبة بضم الجيم أي قطع داخلها فتفرغ وخلا من قولهم جبت الشيء إذا قطعته وروى أبو القاسم بن مطير بإسناده عن." (١)

"٤ -(سورة النساء)

أي هذا تفسير سورة النساء قال العوفي عن ابن عباس نزلت سورة النساء بالمدينة وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم وقال ابن النقيب جمهور العلماء على أنها مدنية وفيها آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن أبي طلحة وهي إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (النساء٥٨) وعدد حروفها ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا وثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة ومائة وست وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

البسملة لم تثبت إلا في رواية أبي ذر

قال ابن عباس يستنكف يستكبر

لم يقع هذا إلا في رواية الكشميهني والمستملي وأشار به إلى قوله تعالى ومن يستنكف عن عبادته (النساء١٧٢) وهذا التعليق وصله ابن أبي حاتم بإسناد صحيح من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى ومن يستنكف عن عبادته قال يستكبر فإن قلت ما وجه ذلك وقد عطف يستكبر على يستنكف في الآية حيث قال ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر والمعطوف غير المعطوف عليه قلت يجوز أن يكون عطفا تفسيريا وقد تعجب بعضهم من صدور هذا عن ابن عباس بطريق الاستبعاد ثم قال ويمكن أن يحمل على التوكيد قلت الصواب ما قلته ومثل هذا لا يسمى توكيدا يفهمه من له إلمام بالعربية وقال الطبري يعني يستنكف يأنف وقال الزجاج هو استنكاف من النكف وهو **الأنفة**

قواما قوامكم من معايشكم

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٤/٤٦١

أشار بهذا إلى قراءة ابن عمر في قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما حيث قرأ قواما ثم فسره بقوله قوامكم معايشكم يعني القيام معا يقيم به الناس معايشهم وكذلك القوام وهذا التعليق وصله ابن أبي حاتم عن أبيه حدثنا أبو صالح حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

لهن سبيلا يعني الرجم للثيب والجلد للبكر." (١)

"قوله أغير أفعل التفضيل من الغيرة بفتح الغين وهي **الأنفة والحمية** وقال النحاس هو أن يحمي الرجل زوجته وغيرها من قرابته ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهن غير ذي محرم والغيور ضد الديوث والقندع بضم الدال وفتحها الديوث وفي (الموعب) لابن التياني رجل غيران من قوم غيارى وغيارى بفتح الغين وضمها وقال ابن سيده غار الرجل غيرة وغيرا وغارا وغيارا وحكى البكري عن أبي جعفر البصري غيرة بكسر الغين والمغيار الشديد الغيرة وفلان لا يتغير على أهله أي لا يغار وقال الزمخشري أغار الرجل امرأته إذا حملها على الغيرة يقال رجل غيور وامرأة غيور هذا كله في حق الآدميين وأما في حق الله فقد جاء مفسرا في الحديث وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه أي إن غيرته منعه وتحريمه ولما حرم الله الفواحش وتواعد عليها وصفه بالغيرة وقال من غيرته أن حرم الفواحش قوله ولذلك أي ولأجل غيرته قوله ولا شيء أحب إليه المدح يجوز في أحب الرفع والنصب وهو أفعل التفضيل بمعنى المفعول وقوله المدح بالرفع فاعله وهو كقولهم ما رأيت رجلا أحسن في عينه الكحل من عين زيد وحب الله المدح ليس من جنس ما يعقل من حب المدح وإنما الرب أحب الطاعات ومن جملتها مدحه ليثيب على ذلك فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح ونحن نحب المدح لننتفع ويرتفع قدرنا في قومنا فظهر من غلط العامة قولهم إذا أحب الله المدح فكيف لا نحبه نحن فافهم قوله قلت سمعته القائل هو عمرو بن مرة يقول لأبي وائل هل سمعت هذا الحديث من عبد الله بن مسعود ورفعه إلى النبي قال أبو وائل نعم سمعته منه ورفعه." (٢)

"١٠٧ -(باب الغيرة)

أي هذا باب في بيان الغيرة بفتح الغين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء قال صاحب (المحكم) من غار الرجل على امرأته والمرأة على بعلها يغار غيرة وغيرا وغارا وغيارا ورجل غيران والجمع غيارى وغيارى ورجل غيور والجمع غير بضم الياء ومن قرأ رسل قال غير ويقال امرأة غيرى وغيور والجمع

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٦٤/٢٧

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢١٣/٢٧

كالجمع والمغيار شديد الغيرة وفلان لا يتغير على أهله أي لا يغار وقال الجوهري نحوه إلا أنه لم يقل في المصادر غيارا وزاد بعد قوله ورجل مغيار وقوم مغايير وزاد صاحب (المشارق) في اسم الفاعل منه رجل غائر وقال معنى الغيرة تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة في الاختصاص من أحد الزوجين بالآخر وتحريمه وذبه عنه وقال صاحب (النهاية) الغيرة هي **الحمية والأنفة** وقال عياض الغيرة مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين هذا محله في حق الآدمي وأما في حق الله تعالى فيأتي عن قريب في حديث الباب

وقال وراد عن المغيرة قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فقال النبي أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني

مطابقته للترجمة ظاهرة ووراد بفتح الواو والراء المشددة وبالدال المهملة اسم لمولى المغيرة بن شعبة وكاتبه وسعد بن عبادة بضم العين المهملة وتخفيف الباب الموحدة ابن دليم الخزرجي الساعدي نقيب بني ساعدة قيل شهد بدرا ونزل الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة خمس عشرة وقيل قبره بالمنيحة فرية من قرى غوطة دمشق

ووصل البخاري هذا المعلق الذي ذكره هنا مختصرا في كتاب الحدود عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن داود وأخرجه مسلم من حديث سليمان بن بلال عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة." (١)

"وكثير من الرواة يحدث بالمعنى وليس كلهم فقهاء وفي كلام آحاد الرواة جفاء وتعجرف وقال بعض كبار التابعين نعم المرء ربنا لو أطعناه ما عصانا ولفظ المرء إنما يطلق على الذكور من الآدميين فأرسل الكلام وبقي أن يكون لفظ الشخص جرى على هذا السبيل فاعتوره الفساد من وجوه أحدها أن اللفظ لا يثبت إلا من طريق السمع والثاني إجماع الأمة على المنع منه والثالث أن معناه أن يكون جسما مؤلفا فلا يطلق على الله وقد منعت الجهمية إطلاق الشخص مع قولهم بالجسم فدل ذلك على ما قلناه من الإجماع على منعه في صفته عز وجل قوله لا شخص كلمة لا لنفي الجنس و أغير مرفوع خبره و أغير أفعل تفضيل من الغيرة وهي **الحمية والأنفة** وقال عياض الغيرة مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص وأشد ذلك ما يكون بين الزوجين هذا في حق الآدمي وأما في حق الله فيأتي عن قريب قوله وقال عبيد الله بن عمرو بتصغير العبد وبفتح العين في عمرو بن أبي الوليد الأسدي مولاهم الرقي يروي

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٥٠٠/٢٩

عن عبد الملك هو ابن عمير بن سويد الكوفي وهو أول من عبر نهر جيحون نهر بلخ على طريق سمرقند مع سعيد بن عثمان بن عفان خرج غازيا معه ومات سنة ست وثلاثين ومائة وعمره يوم مات مائة سنة وثلاث سنين وقال الخطابي انفرد به عبيد الله عن عبد الملك ولم يتابع عليه ورد بعضهم على الخطابي بقوله إنه لم يراجع صحيح مسلم ولا غيره من الكتب التي وقع فيها هذا اللفظ من غير رواية عبيد الله بن عمرو ورد الروايات الصحيحة والطعن في أئمة الحديث الضابطين مع إمكان توجيه ما رووا من الأمور التي أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث وهو يقتضي قصور فهم من فعل ذلك منهم ومن ثمة قال الكرماني لا حاجة لتخطئة الرواة الثقاة بل حكم هذا حكم سائر المتشابهات إما التفويض وإما التأويل انتهى قلت هذا وقع في عين ما أنكر عليه والخطابي لم ينكر هذه اللفظة وحده وكذلك أنكرها الداودي وابن فورك والقرطبي قال أصل وضع." (١)

" وقال الخطابي هذا مثل يقول إن لم تقتص منه اليوم لم تثبت سنتك غدا ولم ينفذ حكمك بعدك أو إن لم تفعل ذلك وجد القاتل سبيلا إلى أن يقول مثل هذا القول أعني قوله اسنن اليوم وغير غدا فتتغير لذلك سنتك وتبدل أحكامها انتهى

وقال السيوطي في مرقاة الصعود إن مثل محلم في قتله الرجل وطلبه أن لا يقتص منه وتؤخذ منه الدية والوقت أول الإسلام وصدره كمثل هذه الغنم النافرة يعني إن جرى الأمر مع أولياء هذا القتيل على ما يريد محلم ثبط الناس عن الدخول في الإسلام معرفتهم أن القود يغير بالدية والعوض خصوصا وهم حراص على درك الأوثار وفيهم **الأنفة** من قبول الديات ثم حث رسول الله على الإقادة منه بقوله اسنن اليوم وغير غدا يريد إن لم تقتص منه غيرت سنتك ولكنه أخرج الكلام على الوجه الذي يهيج المخاطب ويحثه على الإقدام والجرأة على المطلوب منه

(خمسون) أي إبلا لولي المقتول (في فورنا هذا) أي على الوقت الحاضر لا تأخير فيه (وخمسون) إبلا والمعنى أن النبي رضي بالدية بدل القصاص فقال إن على القاتل مائة إبل في الدية لولي المقتول خمسون إبلا في الوقت الحاضر وخمسون إبلا بعد الرجوع إلى المدينة (وذلك) أي القتل والقصة كان (طويل آدم) أي أسمر اللون (وهو) أي محلم جالس (في طرف الناس) أي في جانبهم (فلم يزالوا) أي معاونون لمحلم انتصروا له (حتى تخلص) بفتح الخاء وشدة اللام بصيغة الماضي أي نجا محلم من

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٦٢/٣٦

القتل (وعيناه) أي محلم (تدمعان) أي تسيلان الدمع وهو ماء العين (بصوت عال) أي قال النبي هذه الجملة اللهم الخ بصوت عال (فقام) محلم (وإنه) أي محلما (ليتلقى) أي ليأخذ ويمسح

قال في لسان العرب وتلقاه أي استقبله وأما قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فمعناه أنه أخذها عنه انتهى (فزعم قومه) أي محلم (استغفر له) أي لمحلم مطابقة الحديث للترجمة من حيث أن رسول الله لما أمر عيينة بأخذ الدية عوض القصاص فهو أمر بالعفو

أخرج البخاري في صحيحه عن بن عباس ." (١)

" [٤٥١٧] (بإسناد شعبة مثله) أي مثل حديث شعبة

ولفظ بن ماجه من طريق وكيع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من قتل عبده قتلناه ومن جدعه جدعناه انتهى (نسي هذا الحديث) أي حديث سمرة من قتل عبده قتلناه قال الخطابي يحتمل أنه لم ينس الحديث ولكنه كان يتأوله على غير معنى الإيجاب ويراه نوعا من الزجر ليرتدعوا فلا يقدموا على ذلك

وذهب بعض أهل العلم إلى أن حديث سمرة منسوخ

[٤٥١٨] (لا يقاد الحر بالعبد) أي لا يقتص من الحر إذا قتل الحر العبد

[٤٥١٩] (محمد بن الحسن بن تسنيم) قال في التقريب محمد بن الحسن بن تسنيم بفتح المثناة وسكون المهملة وكسر النون بعدها تحتانية ساكنة الأزدي العتكي بفتح المهملة والمثناة البصري نزيل الكوفة صدوق انتهى (حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده)

قال المنذري وقد تقدم الكلام على اختلاف الأئمة في حديث عمرو بن شعيب (جاء رجل) أي عبد (مستصرخ) أي مستغيث

في النهاية الاستصراخ الاستغاثة (فقال) أي المستصرخ هذه جارية) له أي لفلان يعني لسيدي وقد أوجعني السيد من أجلها (فقال) رسول الله صلى الله عليه و سلم (ويحك) في النهاية ويح كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر وقد ترفع وتضاف ولا تضاف يقال ويح زيد وويحا له وويح له (فقال) العبد المستصرخ (شر) أي حصل شر (أبصر) بيان للشر أي نظر العبد (لسيده جارية له) أي للسيد أي نظر العبد جارية لسيده وفي رواية بن ماجه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم صارخا فقال له رسول الله صلى الله عليه و

---

(١) عون المعبود، ١٤٣/١٢

سلم ما لك قال سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذاكيري الحديث (فغار) من الغيرة وهي **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور ." (١)

"ويحتمل : أن يعود إلى الكلمة ، ومعنى هذا : أن المقول له كافر إن كان كافرا كفرا شرعيا ، فقد صدق القائل له ذلك ، وذهب بها المقول له ، وإن لم يكن كذلك ، رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه.
و أحدهما هنا يعني به : المقول له على كل وجه ؛ لقوله : إن كان كما قال ، وأما القائل ، فهو المعني بقوله : وإلا ، رجعت عليه .
وبيانه بما في حديث أبي ذر الذي قال فيه : من دعا رجلا بالكفر ، أو قال : عدو الله – وليس كذلك – إلا حار عليه ، أي : على القائل.
و حار : رجع ، ويعني بذلك : وزر ذلك وإثمه.
وقوله : ليس من رجل ادعى لغير أبيه – وهو يعلمه – إلا كفر ، أي : انتسب لغير أبيه رغبة عنه مع علمه به.
وهذا إنما يفعله أهل الجفاء والجهل والكبر ؛ لخسة منصب الأب ودناءته ؛ فيرى الانتساب إليه عارا ونقصا في حقه.
ولا شك في أن هذا محرم معلوم التحريم ، فمن فعل ذلك مستحلا ، فهو كافر حقيقة ، فيبقى الحديث على ظاهره.
وأما إن كان غير مستحل له ، فيكون الكفر الذي في الحديث محمولا على كفران النعم والحقوق ؛ فإنه قابل الإحسان بالإساءة ، ومن كان كذلك ، صدق عليه اسم "الكافر" ، وعلى فعله أنه "كفر" ؛ لغة وشرعا على ما قررناه ، ، ويحتمل أن يقال : أطلق عليه ذلك ؛ لأنه تشبه بالكفار أهل الجاهلية وأل الكبر **والأنفة** ؛ فإنهم كانوا يفعلون ذلك ، والله تعالى أعلم.
". (٢)

"وقول هرقل في الضعفاء : ((هم أتباع الرسل)) ، إنما كان ذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنها ، **والأنفة** من الانقياد للغير ، والضعيف خلي عن تلك الموانع ، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا ، وإلا فقد ظهر أن السباق للإسلام كانوا أشرافا في الجاهلية والإسلام ، كأبي بكر ، وعمر ،

---

(١) عون المعبود، ١٥٤/١٢

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ١٩/٢

وحمزة ، رغيرهم من الكبراء والأشراف.
وقوله : ((وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها)) ؛ إنما كان ذلك لما خص الله به الأشراف من مكارم الأخلاق ، والتباعد عن سفسافها . والصدق والأمانة ، ولتنجذب النفوس إليهم ، فإن الأبصار مع الصور ، وأقل ما في الوجود إدراك البصائر .
وقوله : ((وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب)) ؛ هكذا وقعت هذه الرواية هنا ، وفي البخاري : ((حين تخالط بشاشته القلوب)) ، وهي أوضح . وأصل البشاشة : التلطف والتأنس عند اللقاء . يقال : بش به ، وبشبش. ومعنى هذا : أن القلوب المنشرحة إذا سمعمت الإيمان ، وأصغت إليه بشت له ، ورحبت بلقائه ، كما يفعل بالغائب عن اللقاء ، ثم إذا حل الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه ، وتوالت عليه أنواره ، حتى يكره أن يعود في الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار .
وقوله : ((وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لهم العاقبة)) ؛ ابتلاء الرسل بنحو ما ذكر إنما هو ترفيع لدرجاتهم ، وستر لأحوالهم ، حتى لا يصير العلم بهم ضروريا . والله تعالى أعلم .
و ((العاقبة)) : العقبى : الخاتمة الحسنة .
وقوله : ((هل قال هذا القول أحد قبله ؟)) يعني : من عرب قومه ، وإلا فالرسل كثير ، وقد كان في العرب غير قومه رسل ، كهود ، وصالح ، كما ذكر في حديث أبي ذر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم ﴾ ؛ أي : لم يبعث في آبائهم المشهورين عندهم رسول ينذرهم . وهو قول المحققين من المفكرين . وقد دل عليه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾.
." (١)

"على الرفق ، وكشف ضر المبتلى ، فقد رحمه الله سبحانه وتعالى بذلك في الحال ، وجعل ذلك علامة على رحمته إياه في المآل ، ومن سلب الله ذلك المعنى منه ، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلظ ، ولم يلطف بضعيف ، ولا أشفق على مبتلى ، فقد أشقاه في الحال ، وجعل ذلك علما على شقوته في المآل ، نعوذ بالله من ذلك ، ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((الراحمون يرحمهم الرحمن)). وقال : ((لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء)). وقال : ((لا تتزع الرحمة إلا من شقي)) ، وقال : ((من لا يرحم لا يرحم)).
وفي هذه الأحاديث ما يدل على جواز تقبيل الصغير على جهة الرحمة. والشفقة ، وكراهة الامتناع من ذلك

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ١١/١١٦

على جهة الأنفة . وهذه القبلة هي على الفم ، ويكره مثل ذلك في الكبار ؛ إذ لم يكن ذلك معروفا في الصدر الأول ، ولا يدل على شفقة . فإما تقبيل الرأس فإكرام عند من جرت عادتهم بذلك كالأب وال أم . وأما تقبيل اليد فكرهه مالك ، ورآه من باب الكبر ، وإذا كان ذلك مكروها في اليد كان أحرى وأولى في الرجل ، وقد أجاز تقبيل اليد والرجل بعض الناس ، مستدلا بأن اليهود قبلوا يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورجليه حين سألوه عن مسائل ، فأخبرهم بها ، ولا حجة في ذلك ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نزهه الله عن الكبر ، وأمن ذلك عليه ، وليس كذلك غيره ؛ ولأن ذلك أظهر من اليهود تعظيمه ، واعتقادهم صدقه ، فأقرهم على ذلك ليبين للحاضرين – بإذلالهم أنفسهم له – ما عندهم من معرفتهم بصدقه ، وأن كفرهم بذلك عناد وجحد . ولو فهمت الصحابة - رضى الله عنهم - جواز تقبيل يده ورجله لكانوا أول سابق إلى ذلك ، فيفعلون ذلك به دائما وفي كل وقت ، كما كانوا يتبركون ببزاقه ، ونخامته ، ويدلكون بذلك وجوههم ، ويتطيبون بعرقه ، ويقتتلون على وضوئه(٢) ، ولم يرو قط عن واحد منهم بطريق صحيح أنه قتل له يدا ولا رجلا ؛ فصح ما قلناه ، والله ولي التوفيق .

". (١)

""""""""" صفحة رقم ١٥ """""""

وزاد أسباط عن منصور : فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فسقوا الغيث ، فأطبقت عليهم سبعا ، وشكا الناس كثرة المطر ، قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فانحدر السحاب عن رأسه ، فسقوا الناس حولهم) . قال المهلب : استشفاع المشركين بالمسلمين جائز إذا رجى رجوعهم إلى الحق ، وكانت هذه القصة والنبى ، (صلى الله عليه وسلم) ، بمكة قبل الهجرة . وفيه : دليل أن الإمام إذا طمع بدار من دور الحرب أن يسلم أهلها أن يرفق بهم ، ويأخذ عفوهم ، ويدعو لهم بالصلاح ، ويكف عن ثمارهم وزروعهم ، وأما إن يئس من إنابتهم فلا يدعو لهم ؛ بل يدعو عليهم ، ولا بأس حينئذ بقطع ثمارهم وزروعهم . وفيه : إقرار المشركين والمنافقين بفضل النبى ، (صلى الله عليه وسلم) ، وقرب مكانه من ربه ، وأنه المستشفع عنده فيما سأله إياه ، وأن تلك عادة من الله علموها ، ولولا ذلك ما لجئوا إليه فى كشف ضرهم عند إشرافهم على الهلكة ، فسألوه أن يكون وسيلة إلى الله فى إزالة ضرهم ، وذلك أدل الدليل على معرفتهم بصدقه ، ولكن حملهم الحسد والأنفة على معاداته ومخالفته لما سبق فى أم الكتاب من كفرهم ، أعاذنا الله من العناد ، ومكابرة العيان .

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ١٩/ ٤٠

- باب الدعاء في الاستسقاء قائما

/ ١٣ - فيه : عبدالله بن يزيد الأنصاري : أنه خرج مع البراء ، وزيد بن أرقم ، فاستسقى ، فقام على راحلته على غير منبر ، فاستغفر ، ثم صلى ركعتين." (١)

"""""""" صفحة رقم ٣٤٥ """""""

يحتمل وجوها فى التأويل : أحدها : أن يكون ظن (صلى الله عليه وسلم) أن عمه اعتقد أن من آمن فى مثل حاله لا ينفعه إيمانه ، إذ لم يقارنه عمل سواه من صلاة وصيام وزكاة وحج وشرائط الإسلام كلها ، فأعلمه (صلى الله عليه وسلم) أن من قال : لا إله إلا الله ، عند موته أنه يدخل فى جملة المؤمنين ، وإن تعرى من عمل سواها . ويحتمل وجها آخر ، وهو أن يكون أبو طالب قد عاين أمر الآخرة ، وأيقن بالموت ، وصار فى حالة من لا ينتفع بالإيمان لو آمن ، وهو الوقت الذى قال فيه : أنا على ملة عبد المطلب عند خروج نفسه ، فرجا له (صلى الله عليه وسلم) إن قال : لا إله إلا الله ، وأيقن بنبوته أن يشفع له بذلك ، ويحاج له عند الله فى أن يتجاوز عنه ، ويتقبل منه إيمانه فى تلك الحال ، ويكون ذلك خاصا لأبى طالب وحده لمكانه من الحماية والمدافعة عن النبى ، (صلى الله عليه وسلم) ، وقد روى مثل هذا المعنى عن ابن عباس . قال المؤلف : ألا ترى أنه (صلى الله عليه وسلم) قد نفعه وإن كان مات على غير الإسلام ، لأنه يكون أخف أهل النار عذابا ، فنفعه له لو شهد بشهادة التوحيد ، وإن كان ذلك عند المعاينة ، أحرى بأن يكون ، ويحتمل وجها آخر ، وهو أن أبا طالب كان ممن عاين براهين النبى ، (صلى الله عليه وسلم) ، وصدق معجزاته ، ولم يشك فى صحة نبوته ، وإن كان ممن حملته الأنفة وحمية الجاهلية على تكذيب النبى . وكان سائر المشركين ينظرون إلى رؤسائهم ويتبعون ما يقولون ، فاستحق أبو طالب ونظراؤه على ذلك من عظيم الوزر وكبير الإثم أن باءوا بإثمهم على تكذيب النبى ، (صلى الله عليه وسلم) ، فرجا له (صلى الله عليه وسلم) المحاجة بكلمة الإخلاص عند الله ، حتى يسقط عنه إثم العناد والتكذيب لما قد تبين حقيقته وإثم من اقتدى به فى ذلك ، وإن كان الإسلام يهدم ما قبله لكن آنسه بقوله : (أحاج لك بها عند الله) لئلا." (٢)

"""""""" صفحة رقم ٤٦ """""""

وقوله : (فاصبروا) معناه : الحض والندب ؛ لأن الفرض الذى فرض الله على المسلمين عند لقاء العدو

---

(١) شرح صحيح البخارى . لابن بطال، ١٥/٣

(٢) شرح صحيح البخارى . لابن بطال، ٣٤٥/٣

إنما هو عند المثلين ، فما كان أكثر فإنما هو حض وندب والله الموفق .

٣٣ – باب التحريض على القتال

وقوله الله تعالى : (حرض المؤمنين على القتال) [الأنفال : ٦٥] . ١٦٩٤ / فيه : أنس ، خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال : اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره فقالوا مجيبين له : نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا قال المهلب : فيه دليل أن الحفر فى سبيل الله والتحصين للديار ولسد العورة منها أجر كأجر القتال ، والنفقة فيه محسوبة فى نفقات المجاهدين إلى تسعمائة ضعف . وفيه استعمال الرجز والشعر إذا كا ن فيه إقامة النفوس فى الحرب وإثارة الأنفة والعزة . وفيه المجاوبة بالشعر على الشعر ، وليس هذا الشعر من قول النبى (صلى الله عليه وسلم) هو من قول عبد الله بن رواحة ، ولو كان من لفظ النبى لم يكن بذلك شعرا ولا ممن ينبغى له الشعر ؛ لأنه قد يقع فى تضاعيف كلام العامة كلام موزون ولا يسمى ذلك شعرا ولا من تكلم." (١)

"""""""""" صفحة رقم ٢٠٧ """"""""

أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لأصلتها ، اللهم أحصهم عددا : ما أبالى حين أقتل مسلما وذلك فى ذات الإله وإن يشأ على أى شق كان لله مصرعي يبارك على أوصال شلو ممزع فقتله ابن الحارث ، وكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم يوم أصيب ، فأخبر الرسول أصحابه خبرهم ، وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الدبر ، فحمته من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا . قال المهلب : فيه أنه جائز أن يستأنس الرجل إذا أراد أن يأخذ برخصة الله فى إحياء نفسه ، كما فعل خبيب ، وصاحباه . وقال الحسن البصرى : لا بأس أن يستأنس الرجل إذا خاف أن يغلب . وقال الأوزاعى : لا بأس للأسير بالشدة والإبائة من الأسر والأنفة من أن يجرى ملك كافر كما فعل عاصم وأحد صاحبى خبيب ، حتى

---

(١) شرح صحيح البخارى . لابن بطال، ٥/٤٦

أبى من السير معهم ، حتى قتلوه . وقال الثورى : أكره للأسير المسلم أن يمكن من نفسه إلا مجبورا . وفيه استنان الركعتين لكل من قتل صبرا . وفيه استنان الاستحداد لمن أسر ، ولمن يقتل ، والتنظيف لمن." (١)

"""""""" صفحة رقم ٢٦٢ """""""

- باب الخطبة

/ ٤٠ - فيه : ابن عمر ، جاء رجلان من المشرق فخطبا ، فقال النبى عليه السلام : (إن من البيان سحرا) . قال المؤلف : الخطبة عند الحاجة من الأمر القديم المعمول به ، وروى عن ابن مسعود أنه قال : علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطبة الحاجة : الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ثم يقرأ : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . . .) [النساء : ١] الآية ،) اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . . . (إلى) عظيما) [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] ،) اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [آل عمران : ١٠٢] . قال المهلب : إنما استحبت فى خطبة النساء خطبة من الكلام ليسهل بها الخاطب أمره ويرغب فيما دعا إليه ، ألا ترى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد شبه حسن التواصل إلى الحاجة بحسن الكلام فيها ، واستنزال المرغوب إليه بالبيان بالسحر ، وإنما هذا من أجل ما فى النفوس من الأنفة فى أمر الوليات ، فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : إن حسن التواصل إلى هذا الذى تألف النفس منه حتى تحبب ذلك المستبشع وجه من وجوه السحر الحلال . واستحب جمهور العلماء الخطبة فى النكاح ، فقال مالك : وهى من الأمر القديم وما قل منها فهو أفضل . قال ابن حبيب :." (٢)

"" صفحة رقم ١٣٠ "

أي اذا تجاوزت وقاية الله ولم تناليها لم يقك غيره

و

) من دون الله (

متعلق بادعوا أو بشهداءكم فإن علقته بشهداءكم فمعناه ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم انهم يشهدون لكم يوم القيامة انكم على الحق

---

(١) شرح صحيح البخارى ـ لابن بطال، ٢٠٧/٥

(٢) شرح صحيح البخارى ـ لابن بطال، ٢٦٢/٧

أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى

(تريك القذى من دونها وهي دونه)

أي تريك القذى قدامها وهي قدام القذى لرقتها وصفائها

وفي امرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته غاية التهكم بهم

وادعوا شهداءكم من دون الله أي من دون اوليائه ومن غير المؤمنين ليشهدوا لكم انكم أتيتم بمثله

وهذا من المساهلة وارخاء العنان والإشعار بان شهداءهم وهم مدارة القوم الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاولة والمناقلة تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية **والأنفة** أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده وإستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز

وإن علقته بالدعاء فمعناه ادعوا من دون الله شهداءكم يعني لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا الله يشهد ان ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينه تصحح بها الدعاوى عند الحكام

وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم

وان الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثا غير قولهم الله يشهد أنا صادقون

وقولهم لهذا تسجيل منهم على انفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة

وعن بعض العرب انه سئل عن نسبه فقال قرشي والحمد لله فقيل له قولك (الحمد لله) في هذا المقام ريبة

أو ادعوا من دون الله شهداءكم يعني أن الله شاهدكم لأنه أقرب اليكم من حبل الوريد وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم

والجن والإنس شاهدوكم فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس الا الله تعالى لأنه القادر وحده على ان يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم فهو في معنى قوله

) قل لئن اجتمعت الإنس والجن (الاسراء ٨٨ الآية

فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين

البقرة : (٢٤) فإن لم تفعلوا . . . . .

لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون امر النبي (صلى الله عليه وسلم) وما جاء به حتى يعثروا." [1]

---

(١) تفسير الكشاف . ، ١/١٣٠

"" صفحة رقم ٣٤٦ "

في ذلك الوقت ، وأن ينتصب بإضمار اذكر . والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين **والحمية الأنفة** والسكينة والوقار ما روى

(١٠٤٩) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف ، على أن يعرضوا على النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه : (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : (اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أهل مكة) فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال عليه الصلاة والسلام : (اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ، فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه ، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا . و) كلمة التقوى (بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله : قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم . وقيل : هي كلمة الشهادة . وعن الحسن رضي الله عنه : كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد . ومعنى إضافتها إلى التقوى : أنها سبب التقوى وأساسها . وقيل : كلمة أهل التقوى . وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله : (وكانوا أهلها وأحق بها) ، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج .

) لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شآء الله ءامنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (

(١٠٥٠

الفتح : (٢٧) لقد صدق ارله . . . . .

رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا." (١)

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٤/٣٤٦

(متعلق بقوله :) ولا تطع (يعني ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأن كل ذا مال . أي : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى : لكونه متمولا مستظهرا بالبنين كذب آياتنا ولا يعمل فيه) قال (الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . وقرىء : (أأن كان) ؟ على الاستفهام على : إلا لأن كان ذا مال وبنين ، كذب . أو أتطيعه لأن كان ذا مال . وروى الزبيري عن نافع : إن كان ، بالكسر والشرط للمخاطب ، أي : لا تطع كل حلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى :) لعله يتذكر ((طه : ٤٤) الوجه : أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز **والحمية** ، واشتقوا منه **الأنفة** . وقالوا الأنف في الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ، ولقد :

(١٢١٩) وسم العباس أباعر في وجوهها ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : زأكرموا الوجوه) فوسمها في جواعرها وفي لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة . وقيل معناه : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول االله (صلى الله عليه وسلم) عدارة بأن بها عنهم . وقيل : خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه . وقيل : سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعا ، فلا تخفى ، كما لا تخفى السمة على الخرطوم . وعن النضر بن شميل : أن الخرطوم الخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها وهو تعسف . وقيل للخمر : الخرطوم ، كما قيل لها : السلافة . وهي ما سلف من عصير العنب . أو لأنها تطير في الخياشيم .

) إنا بلوناهم كما بلونآ أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طآئف من ربك وهم نآئمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين." (١)

"وقال ابن عباس والسدي وأبو عبيدة وغيرهم هو مشتق من أبلس إذا أبعد عن الخير ووزنه على هذا إفعيل ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه وأجروه مجرى إسحاق من أسحقه الله وأيوب من آب يؤوب مثل قيوم من قام يقوم ولما لم تصرف هذه ولها وجه من الاشتقاق كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه لقلته

---

(١) تفسير الكشاف ، ٥٩٣/٤

وشذوذه ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج

(يا صاح هل تعرف رسما مكرسا

قال نعم أعرفه وأبلسا) " الرجز "

أي تغير وبعد عن العمار والإنس به ومثله قول الآخر

(وفي الوجوه صفرة وإبلاس

) " الرجز "

ومنه قوله تعالى " فإذا هم مبلسون " الأنعام ٤٤ أي يائسون عن الخير مبعدون منه فيما يرون و " أبى " معناه امتنع من فعل ما أمر به و " استكبر " دخل في الكبرياء والإباية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه والاستكبار **والأنفة** مقدمة في معتقده

وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح حسد إبليس آدم وتكبر وشح آدم في أكله من شجرة قد نهي عن قربها

حكى المهدوي عن فرقة أن معنى " وكان من الكافرين " وصار من الكافرين

وقال ابن فورك وهذا خطأ ترده الأصول

وقالت فرقة قد كان تقدم قبل من الجن من كفر فشبهه الله بهم وجعله منهم لما فعل في الكفر فعلهم

وذكر الطبري عن أبي العالية أنه كان

يقول وكان من الكافرين معناه من العاصين

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت

١٢٦

وروي أن الله تعالى خلق خلقا وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا فأحرقهم بالنار ثم خلق آخرين وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله والإسناد في مثل هذا غير وثيق

وقال جمهور المتأولين معنى " وكان من الكافرين " أي في علم الله تعالى أنه سيكفر لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة

وذهب الطبري إلى أن الله أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم وهم اليهود الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم مع علمهم بنبوته ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم

واختلف هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهل السنة ولا خلاف أنه كان عالما بالله قبل كفره فمن قال إنه كفر جهلا قال إنه سلب العلم عند كفره

ومن قال كفر عنادا قال كفر ومعه علمه قال والكفر عنادا مع بقاء العلم مستبعد إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء

ولا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة وبعد إخراجه قال لآدم اسكن

سورة البقرة ٣٥ - ٣٦

." (١)

"حتى اجتمع ملأهم على أن قالوا لنبي الوقت " ابعث لنا ملكا " الآية وإنما طلبوا ملكا يقوم بأمر القتال وكانت المملكة في سبط من أسباط بني إسرائيل يقال لهم بنو يهوذا فعلم النبي بالوحي أنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأمر الحرب ويسر الله لذلك طالوت

وقرأ جمهور الناس نقاتل بالنون وجزم اللام على جواب الأمر وقرأ الضحاك وابن أبي عبلة يقاتل بالياء ورفع الفعل فهو في موضع الصفة للملك

وأراد النبي المذكور عليه السلام أن يتوثق منهم فوقفهم على جهة التقرير وسبر ما عندهم بقوله " هل عسيتم " وقرأ نافع عسيتم بكسر العين في الموضعين وفتح الباقون السين قال أبو علي الأكثر فتح السين وهو المشهور ووجه الكسر قول

٣٣١

العرب هو عس بذلك مثل حر وشج وقد جاء فعل وفعل في نحو نقم ونقم فكذلك عسيت وعسيت فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال عسي زيد مثل رضي فإن قيل فهو القياس وإن لم يقل فسائغ أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره ومعنى هذه المقالة هل أنتم قريب من التولي والفرار

إن كتب عليكم القتال

سورة البقرة ٢٤٦

المعنى وأي شيء يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا وقالوا هذه المقالة وإن كان القائل لم يخرج من حيث قد أخرج من هو مثله وفي حكمه ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ١٠٩/١

الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا أي اضطربت نياتهم وفترت عزائمهم وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة تتمنى الحرب أوقات **الأنفة** فإذا حضرت الحرب كعت وانقادت لطبعها وعن هذا المعنى نهى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا) ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله ثم توعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله " والله عليم بالظالمين " وقرأ أبي بن كعب " تولوا إلا أن يكون قليل منهم "

قوله عز وجل " وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم "

قال وهب بن منبه إنه لما قال الملأ من بني إسرائيل لسمويل بن بالي ما قالوا سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا ويدله عليه فقال الله تعالى له انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه منه وملكه عليهم قال وكان طالوت رجلا دباغا وكان من سبط بنيامين بن يعقوب وكان سبطا لا نبوة فيه ولا ملك فخرج طالوت في

". (١)

"بغاء دابة له أضلها فقصد سمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجا فنش الدهن قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه وهو دهن القدس فيما يزعمون قال فقام إليه سمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت وقال له أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله بتقديمه ثم قال لبني إسرائيل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا و " طالوت " اسم أعجمي معرب ولذلك لم ينصرف

٣٣٢

وقال السدي إن الله أرسل إلى شمعون عصا وقال له من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مر بهم طالوت في بغاء حماره الذي كان يسقي عليه وكان رجلا سقاء فدعوه فقاسوه بالعصا فكان مثلها فقال لهم نبيهم ما قال ثم إن بني إسرائيل تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى وجروا على سننهم فقالوا " إنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه " أي لأنه ليس في بيت ملك ولا سبقت له فيه سابقة

" ولم يؤت " مالا واسعا يجمع به نفوس الرجال حتى يغلب أهل **الأنفة** بماله

---

(١) المحرر الوجيز ، ١/٣٢٤

قال القاضي أبو محمد وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق وأنه مالك الملك فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفائه طالوت وأنه زاده بسطة في العلم وهو ملاك الإنسان والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء قال ابن عباس كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوة والآخر للملك فلا يبعث نبي إلا من الواحد ولا ملك إلا من الآخر فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقالتهم قال مجاهد معنى الملك في هذه الآية الإمرة على الجيش

قال القاضي أبو محمد ولكنهم قلقوا لأن من عادة من تولى الحرب وغلب أن يستمر ملكا و " اصطفى " افتعل مأخوذ من الصفوة وقرأ نافع بصطة بالصاد وقرأ أبو عمرو وابن كثير بسطة بالسين والجمهور على أن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف وقال بعض المتأولين المراد علم الحرب وأما جسمه فقال وهب بن منبه إن أطول رجل في بني إسرائيل كان يبلغ منكب طالوت

سورة البقرة ٢٤٧

لما علم نبيهم عليه السلام تعنتهم وجدالهم في الحجج تتم كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه وهو قوله " والله يؤتي ملكه من يشاء " وظاهر اللفظ أنه من قول النبي لهم وقد ذهب بعض المتأولين إلى أنه من قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وأضيف ملك الدنيا إلى الله

تعالى إضافة مملوك إلى مالك و " واسع " معناه وسعت قدرته وعلمه كل شيء وأما قول النبي لهم " إن آية ملكه " فإن الطبري ذهب إلى أن بني إسرائيل تعنتوا وقالوا لنبيهم وما آية ملك طالوت وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله إن الله قد بعث

." (١)

"عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وذلك أنه كان من رأي عبد الله بن أبي أن لا يخرج إلى كفار قريش فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه قال عبد الله بن أبي أطاعهم وعصاني فانخذل بنحو ثلث الناس فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري أبو جابر بن عبد الله فقال لهم اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا أو نحو هذا من القول فقال له ابن أبي ما أرى أن يكون قتال ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم فلما يئس منهم عبد الله قال اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم ومضى مع النبي صلى الله عليه وسلم فاستشهد واختلف الناس في معنى قوله " أو ادفعوا " فقال السدي وابن جريج وغيرهما معناه

---

(١) المحرر الوجيز ، ١/٣٢٥

كثروا السواد وإن لم تقاتلوا فيندفع القوم لكثرتكم وقال أبو عون الأنصاري معناه رابطوا وهذا قريب من الأول ولا محالة أن المرابط مدافع لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو والمكثر للسواد مدافع وقال أنس بن مالك رأيت يوم القادسية عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء فقيل له أليس قد أنزل الله عذرك قال بلى ولكني أكثر المسلمين بنفسي وروي أنه قال فكيف بسوادي في سبيل الله وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو " أو ادفعوا " إنما هو استدعاء القتال حمية لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله وهو أن تكون كلمة الله هي العليا فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث **الأنفة** أي أو قاتلوا دفاعا عن الحوزة ألا ترى أن قزمان قال والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد لما رأى قريشا قد أرسلت الظهر في زروع قناة قال أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال فكأن عبد الله بن

عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا المقطع العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله " أقرب " مأخوذ من القرب ضد البعد وسدت اللام في قوله " للكفر " و " للإيمان " مسد إلى وحكى النقاش أن قوله " أقرب " مأخوذ من القرب بفتح القاف والراء وهو الطلب والقارب طالب الماء وليلة القرب ليلة الورد فاللفظة بمعنى أطلب واللام متمكنة على هذا القول وقوله " بأفواههم " تأكيد مثل يطير بجناحيه وقوله " ما ليس في قلوبهم " يريد ما يظهرون من الكلمة الحاقنة لدمائهم ثم فضحهم تعالى بقوله " والله أعلم بما يكتمون " أي من الكفر وعداوة الدين وفي الكلام توعد لهم

سورة آل عمران ١٦٨ - ١٦٩

". (١)

"قال القاضي أبو محمد وهذا الخبر يريد ما في السير من أن أبا رغال هو دليل الفيل وحبيسه إلى مكة والله أعلم

قوله عز وجل

سورة الأعراف ٧٤ ٧٥ ٧٦

" بوأكم " معناه مكنكم وهي مستعملة في المكان وظروفه تقول تبوأ فلان منزلا حسنا ومنه قوله

٤٢٣

(١) المحرر الوجيز . ، ٥٧٢/١

تعالى " تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال " وقال الأعشى

(فما بوأ الرحمان بيتك منزلا

بشرقي أجياد الصفا والمحرم) " الطويل "

والقصور جمع قصر وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود وقصرت عن الناس قصرا تاما والنحت النجر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه وقرأ الحسن بن أبي الحسن تنحتون بفتح الحاء وقرأ جمهور الناس بكسرها وبالتاء من فوق وقرأ ابن مصرف بالياء من أسفل وكسر الحاء وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم و " تعثوا " معناه تفسدوا يقال عثا يعثي وعثا يعثو وعثى يعثى كنسى ينسى وعليها لفظ الآية وقرأ الأعمش تعثوا بكسر التاء و " مفسدين " حال

وتقدم القول في " الملأ " وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع وقال الملأ بواو عطف وهي محذوفة عند الجميع و " الذين استكبروا " هم الأشراف والعظماء الكفرة و " استكبروا " يحتمل أن يكون معناه طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر أو يكون بمعنى كبروا كبرهم المال والجاه وأعظمهم فيكون على هذا كبر واستكبر بمعنى كعجب واستعجب والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد والذين استضعفوا هم العامة والأغفال في الدنيا وهم أتباع الرسل وقولهم " أتعلمون " استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأنفة الإشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم

قوله عز وجل

سورة الأعراف ٧٧ ٧٨ ٧٩

قوله تعالى " فعقروا " يقتضي بتشريكهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق وكذلك روي أن قدارا لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان فلما أجمعوا تعاطى فعقر " وعتوا " معناه خشوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم " ائتنا بما تعدنا " وحسن الوعد في هذا الموضع لما تقيد بأنه عذاب قال أبو حاتم قرأ

عيسى وعاصم أيتنا بهمز وإشباع ضم وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمرو والأعمش

و " الرجفة " ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد ومنه قول خديجة فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ومنه قول الأخطل

(أما تريني حناني الشيب من كبر
كالنسر أرجف والإنسان ممدود) " البسيط "
٤٢٤
." (١)

"قال القاضي أبو محمد وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله " واسأل القرية " هو سائغ بسب ما يعقل من أن اسأل القرية لا تسأل ففي الظاهر دليل على ما أضمر وأما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار إما أنه ربما احتج أن الضمير المجموع في " ملئهم " يقتضي ذلك والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجثة ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص وقوله " أن يفتنهم " بدل من " فرعون " وهو بدل الاشتمال ف " أن " في
موضع خفض ويصح أن تكون في موضع نصب على المفعول من أجله وقرأ الحسن والجراح ونبيح أن يفتنهم بضم الياء ثم أخبر عن فرعون بالعلو في الأرض والإسراف في الأفعال والقتل والدعاوى ليتبين عذر الخائفين وقوله تعالى " وقال موسى إلى الكافرين " ابتداء حكاية قول موسى لجماعة بني إسرائيل المؤمنين منهم مؤنسا لهم ونادبا إلى التوكل على الله الذي بيده النصر ومسألة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات والذي أقول إن التوكل الذي أمرنا له هو مقترن بتسبب جميل على مقتضي الشرع وهو الذي في قوله صلى الله عليه وسلم قيدها قيدها وتوكل فقد جعله متوكلا مع التقييد والنبي صلى الله عليه وسلم رأس المتوكلين وقد تسبب عمره كله وكذلك السلف كله فإن شذ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يسرف بها إلى حد قتل نفسه وإهلاكها كمن يدخل غارا خفيا يتوكل فيه فهذا ونحوه مكروه عند جماعة من العلماء وما روي من إقدام عامر بن قيس على الأسد ونحو ذلك كله ضعيف وللصحيح منه قرائن تسهله وللمسلمين أجمعين قال الله تعالى " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " ولهم قال " وعلى ربهم يتوكلون " ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملة واحدة ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب بل كان يغزو ويأخذ سهمه وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء وأما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة فكيف
١٣٨
بمن يحتسب وقال لهم " إن كنتم آمنتم " مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ٢/٤٩٠

الأنفة كما تقول إن كنت رجلا فقاتل تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه وقوله " إن كنتم مسلمين " يريد أهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط فذكر الإسلام فيه زيادة معنى ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنية التوكل على الله والنطق بذلك ثم دعوا في أن لا يجعلهم فتنة للظلمة والمعنى لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق قاله مجاهد وغيره .

". (١)

"قال القاضي أبو محمد ويصح أن يريد " الملعونة " هنا فأكد الأمر بقوله " في القرآن " وقالت فرقة " الملعونة " المبعدة المكروهة وهذا أراد لأنها لعنها بلفظ اللعنة المتعارف وهذا قريب في المعنى من الذي قبله وأيضا فما ينبت في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله وقوله " ونخوفهم " يريد إما كفار مكة وإما الملوك من بني أمية بعد الخلافة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا والأول منها أصوب كما قلنا قبل وقوله " فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا " يريد كفرهم وانتهاكهم فيه كقول أبي جهل في الزقوم والتزقم فقد قال النقاش إن في ذلك نزلت وفي نحوه وقرا الأعمش ويخوفهم وقرأ الجمهور ونخوفهم بالنون .

٤٦٩

قوله عز وجل

سورة الإسراء ٦١ - ٦٥

المعنى واذكر إذ قلنا وكذلك " إذا " في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر وقد تقدم في غير موضع ذكر خلق آدم وأمر السجود واختلف في قوله " إلا إبليس " فقيل هو استثناء منقطع لأن " إبليس " لم يكن من الملائكة وقيل هو متصل لأن إبليس من الملائكة وقوله " طينا " يصح أن يكون تمييزا ويصح أن يكون حالا وقاس " إبليس " في هذه النازلة فأخطأ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى النار أفضل من الطين وجهل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون حيث خصصها الله تعالى ولا ينظر إلى أصولها .

وذكر الطبري عن ابن عباس أن إبليس هو الذي أمره الله فأخذ من الأرض طينة آدم والمشهور أنه ملك الموت وكفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر وكان أصل ذلك الحسد ولذلك قيل إن أول ما عصي الله بالحسد وظهر ذلك من إبليس من قوله " أرأيتك هذا الذي كرمت

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١٥٤/٣

علي " " أنا خير منه " حسبما ذكر الله في آية أخرى .
فهذا هو النص بأن فعلك غير مستقيم والكاف في قوله " أرأيتك " هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه لا موضع لها من الإعراب فهي زائدة ومعنى أرأيت أتأملت ونحوه كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد وقال سيبويه هي بمعنى أخبرني ومثل بقوله أرأيتك زيدا أبو من هو وقاله الزجاج في " آياتنا " ولم يمثل وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله وأما في هذه الآية فهي كما قلت وليست التي ذكر سيبويه رحمه الله وقرأ ابن كثير أخرتني بياء في الوصل والوقف وهذا هو الأصل وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف كمثل قول الأعشى
(فهل يمنعني ارتياد البلاد
من حذر الموت أن يأتين) " المتقارب "
." (١)

"قال الفقيه الإمام القاضي ويظهر من لفظ أبي بن كعب أن معنى قوله " خاصة لك " يراد به جميع هذه الإباحة لأن المؤمنين قصروا على مثنى وثلاث ورباع وقوله تعالى " قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم " يريد الولي والشاهدين والمهر والاقتصار على أربع قاله قتادة ومجاهد وقال أبي بن كعب هو مثنى وثلاث ورباع وقوله تعالى " لكي لا " أي بينا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح " لكي لا يكون عليك حرج " ويظن بك أنك قد أثمت عند ربك في شيء ثم أنس تعالى الجميع من المؤمنين بغفرانه ورحمته
قوله عز وجل من سورة الأحزاب آية ٥١ - ٥٢
" ترجي " معناه تؤخر وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ترجيء بالهمز وقرأ
عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي ترجي بغير همز وهما لغتان بمعنى " وتؤوي " معناه تضم وتقرب وقال المبرد هو معدى رجى يرجو تقول رجى الرجل وأرجيته جعلته ذا رجاء ومعنى هذه الآية أن الله فسح لنبيه فيما يفعله في جهة النساء والضمير في " منهن " عائد على من تقدم ذكره من الأصناف حسب الخلاف المذكور في ذلك وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني منها أن معناه في القسم أن تقرب من شئت في
٣٩٣
القسمة لها من نفسك وتؤخر عنك من شئت وتكثر لمن شئت وتقل لمن شئت لا حرج عليك في ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ، ٣/٤٨٦

فإذا علمن هن أن هذا هو حكم الله تعالى لك وقضاؤه زالت الأنفة والتغاير عنهن ورضين وقرت أعينهن وهذا تأويل مجاهد وقتادة والضحاك

قال الفقيه الإمام القاضي لأن سبب هذه الآيات إنما كان تغايرا وقع بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عليه فشقي بذلك ففسح الله له وأنبهن بهذه الآيات وقال أبو رزين وابن عباس المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته وإمساك من شاء قال أبو زيد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاق بعض نسائه فقلن له أقسم لنا ما شئت فكان ممن أرجى سودة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة وآوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب وقال الحسن بن أبي الحسن المعنى في تزويج من شاء من النساء وترك من شاء وقالت فرقة المعنى في ضم من شاء من الواهبات وتأخير من شاء

قال القاضي أبو محمد وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة له قالت عائشة لما قرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك

قال الفقيه الإمام القاضي وذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ له إلى أن قوله " ترجي من تشاء " الآية ناسخ لقوله " لا يحل لك النساء من بعد " الآية وقال ليس في كتاب الله تعالى ناسخ تقدم المنسوخ إلا هذا

". (١)

"وكان سبب هذه المبايعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث إلى مكة رجلا يبين على قريش ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد حربا وإنما جاء معتمرا فبعث إليهم خراش بن امية الخزاعي وحمله على جمل يقال له الثعلب فلما كلمهم عقروا الجمل وأرادوا قتل خراش فمنعه الأحابيش فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بعث عمر بن الخطاب فقال له عمر يا رسول الله انا قد علمت فظاظتي على قريش وهم يبغضونني وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني ولكن ابعث عثمان بن عفان فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي فنزل عن دابته فحمله عليها وأجاره حتى إذا جاء قريشا فأخبرهم

فقالوا له إن شئت يا عثمان ان تطوف بالبيت فطف واما دخولكم علينا فلا سبيل اليه فقال عثمان ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إن بني سعيد بن العاصي حبسوا عثمان على جهة المبرة فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال فصرخ

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٤/٤٥٤

صارخ من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وقالوا لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ونادى مناديه أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فما تخلف عن البيعة أحد ممن شهد الحديبية الا الجد بن قيس المنافق ١٣٤

وحينئذ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده وقال هذه يد لعثمان وهي خير من يد عثمان ثم جاء عثمان بعد ذلك سالما

و " الشجرة " سمرة كانت هنالك ذهبت بعد سنين فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها فقال عمر سيروا هذا التكلف

وقوله تعالى " فعلم ما في قلوبهم " قال قوم معناه من كراهة البيعة على الموت ونحوه وهذا ضعيف فيه مذمة للصحابة

وقال الطبري ومنذر بن سعيد معناه من الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه وهذا قول حسن ولكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه أما أنه يحتمل ان يجازى ب " السكينة " والفتح القريب والمغانم

وقال آخرون معناه من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر وغيره وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول " السكينة " والتعريض بالفتح القريب

و " السكينة " هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول امر الله تعالى والصبر له ".(١)

"واللام في قوله " ليدخل " يحتمل ان يتعلق بمحذوف من القول تقديره لولا هؤلاء لدخلتم مكة لكن شرفنا هؤلاء المؤمنين بان رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكة " ليدخل الله " أي ليبين للناظر ان الله تعالى يدخل من يشاء في رحمته او ليقع دخولهم في رحمة الله ودفعه عنهم ويحتمل ان يتعلق بالإيمان المتقدم الذكر فكانه قال ولولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته وهذا مذكور لكنه ضعيف لأن قوله " من يشاء "

يضعف هذا التأويل

ثم قال تعالى " لو تزيلوا " أي لو ذهبوا عن مكة تقول ازلت زيدا عن موضعه إزالة أي أذهبته وليس هذا

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١١٨/٥

الفعل من زال يزول وقد قيل هو منه
وقرأ أبو حيوة وقتادة بألف بعد الزاي أي (تزايلوا) أي ذهب هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء
وقوله " منهم " لبيان الجنس إذا كان الضمير في " تزيلوا " للجميع من المؤمنين والكافرين وقال النحاس
وقد قيل إن قوله " ولولا رجال مؤمنون " الآية
يريد من في أصلاب الكافرين من سيؤمن في غابر الدهر وحكاه الثعلبي والنقاش عن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
١٣٨
مرفوعا
والعامل في قوله " إذ جعل " قوله (لعذبنا) ويحتمل ان يكون المعنى أذكر إذ جعلنا
و " **الحمية** " التي جعلوها هي حمية أهل مكة في الصد قال الزهري وحمية سهيل ومن شاهد عقد الصلح
في ان منعوا ان يكتب بسم الله الرحمن الرحيم
ولجوا حتى كتب باسمك اللهم وكذلك منعوا ان يثبت هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله
ولجوا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي (امح واكتب) هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث
وجعلها تعالى (حمية جاهلية) لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها لأن رسول الله صلى الله عليه
وسلم لو جاءهم محاربا لعذرهم في حميتهم وإنما جاء معظما للبيت لا يريد حربا فكانت حميتهم جاهلية
صرفا
والسكينة هي الطمأنينة الى امر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثقة بوعد الله والطاعة وزوال **الأنفة** التي
لحقت عمر وغيره
و "كلمة التقوى " قال الجمهور هي لا إله إلا الله وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم
وقال عطاء بن أبي رباح هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير
وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني هي لا إله إلا الله محمد رسول الله
وقال علي بن أبي طالب هي لا إله إلا الله والله أكبر وحكاه الثعلبي عن ابن عمر
قال القاضي أبو محمد وهذه كلها أقوال متقاربة حسان لأن هذه الكلمة تقي النار فهي "كلمة التقوى "

وقال الزهري عن المسور ومروان "كلمة التقوى " المشار إليها هي باسم الله الرحمن الرحيم وهي التي أباها كفار قريش فألزمها الله المؤمنين وجعلهم " أحق بها "." (١)

" صفحة رقم ٣٢٠

) ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم (أي لم تعلموا إيمانهم .

) أن تطئوهم (فيه قولان :

أحدهما : أن تطئوهم بخيلكم وأرجلكم فتقتلوهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم يعلموهم أن يطئوا آباءهم فيهلك أبناؤهم ، قاله الضحاك .

) فتصيبكم منهم معرة (فيها ستة أقاويل

: أحدها : الإثم ، قاله ابن زيد .

الثاني : غرم الدية ، قاله ابن إسحاق .

الثالث : كفارة قتل الخطأ ، قاله الكلبي .

الرابع : الشدة ، قاله قطرب .

الخامس : العيب .

السادس : الغم .

قوله عز وجل :) لو تزيلوا (فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لو تميزوا ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : لو تفرقوا ، قاله الكلبي .

الثالث : لو أزيلوا ، قاله الضحاك حتى لا يختلط بمشركي مكة مسلم .

) لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (وهو القتل بالسيف لكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار .

قوله عز وجل :) إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية (يعني قريشا . وفي حمية الجاهلية قولان :

أحدهما : العصبية لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، **والأنفة** من أن يعبدوا غيرها ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنفتهم من الإقرار له بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١٢٢/٥

على عادته في الفاتحة ، ومنعهم له من دخول مكة ، قال الزهري .

ويحتمل ثالثا : هو الاقتداء بآبائهم ، وألا يخالفوا لهم عادة ، ولا يلتزموا لغيرهم طاعة كما." (١)

"ص : ٢٣٢

وما الأمر الذي ألام فيه فنعاه الله عليه إذ يقول : فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) [الصافات : ١٤٢]

والمليم : الذي أجرم جرما استوجب به اللوم.

ولم أخرجه من أولي العزم من الرسل ، حين يقول لنبيه ، صلى الله عليه وسلم : فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (٤٨) [القلم : ٤٨].

وإن كان الغضب عليهم بعد أن آمنوا ، فهذا أغلظ مما أنكروا ، وأفحش مما استقبحوا ، كيف يجوز أن يغضب على قومه حين آمنوا ، ولذلك انتخب وبه بعث ، وإليه دعا ؟ !.

وما الفرق بين عدو الله ووليه إن كان وليه يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ؟ .

والقول في هذا أن المغاضبة : المفاعلة من الغضب ، والمفاعلة تكون من اثنين ، تقول : غاضبت فلانا مغاضبة وتغاضبنا : إذا غضب كل واحد منكما على صاحبه ، كما تقول : ضاربته مضاربة ، وقاتلته مقاتلة ، وتضاربنا وتقاتلنا.

وقد تكون المفاعلة من واحد ، فنقول : غاضبت من كذا : أي غضبت ، كما تقول :

سافرت وناولت ، وعاطيت الرجل ، وشارفت الموضع ، وجاوزت ، وضاعفت ، وظاهرت ، وعاقبت.

ومعنى المغاضبة هاهنا : الأنفة ، لأن الأنف من الشيء يغضب ، فتسمى الأنفة غضبا ، والغضب أنفة ، إذا كان كل واحد بسبب من الآخر ، تقول : غضبت لك من كذا ، وأنت تريد أنفت ، قال الشاعر «١» :

غضبت لكم أن تساموا اللفاء بشجناء من رحم توصل

يروى مرة : (أنفت لكم) ، ومرة : (غضبت لكم) ، لأن المعنيين متقاربان.

وكذلك (العبد) أصله : الغضب. ثم قد تسمى الأنفة عبدا.

وقال الشاعر «٢» :

وأعبد أن تهجى تميم بدارم

---

(١) النكت والعيون ، ٥/٣٢٠

(١) البيت من المتقارب ، وهو لخداش بن زهير في المعاني الكبير ١/ ٥٢٨.

(٢) صدر البيت : أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وتقدم البيت مع تخريجه قبل قليل.." [(١)]

"ص : ٢٣٣

يريد : آنف.

وحكى أبو عبيد ، عن أبي عمرو ، أنه قال في قوله تعالى : فأنا أول العابدين [الزخرف : ٨١] : هو من الغضب **والأنفة**. ففسر الحرف بالمعنيين لتقاربهما.

فكأن نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما أخبرهم عن الله أنه منزل العذاب عليهم لأجل ، ثم بلغه بعد مضي الأجل أنه لم يأتهم ما وعدهم - خشي أن ينسب إلى الكذب ويعير به ، ويحقق عليه ، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه ، فدخلته **الأنفة** **والحمية** ، وكان مغيظا بطول ما عاناه من تكذيبهم وهزئهم وأذاهم واستخفافهم بأمر الله ، مشتهيا لأن ينزل بأس الله بهم. هذا إلى ضيق صدره ، وقلة صبره على ما صبر على مثله أولوا العزم من الرسل.

وقد روي في الحديث أنه كان ضيق الصدر ، فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضي الآبق الناد.

يقول الله سبحانه : وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) [الصافات : ١٣٩ ، ١٤٠].

فظن أن لن نقدر عليه ، أي لن نضيق عليه ، وأنا نخليه ونهمله. والعرب تقول : فلان مقدر عليه في الرزق ، ومقتر عليه ، بمعنى واحد ، أي مضيق عليه. ومنه قوله تعالى : وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه [الفجر : ١٦]. وقدر - بالتخفيف والتثقيل - قال أبو عمرو بن العلاء : قتر وقتر وقدر وقدر ، بمعنى واحد ، أي ضيق. فعاقبه الله عن حميته وأنفته وإباقته ، وكراهيته العفو عن قومه ، وقبول إنابتهم - بالحبس له ، والتضييق عليه في بطن الحوت.

وفي رواية أبي صالح : أن ملكا من ملوك بني إسرائيل كان أمره بالمسير إلى نينوى ليدعو أهلها بأمر شعياء النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنف من أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله تعالى ، فخرج مغاضبا للملك ، فعاقبه الله بالتقام الحوت.

قال : فلما قذفه الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم. وأقام بينهم حتى آمنوا.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص/٢٣٢

في سورة يوسف

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء [يوسف : ١١٠]..." (١)

"عجزهم لأن القرآن بلغ فيما اشتمل عليه من الخصائص البلاغية التي يقتضيها الحال حد الإطاقة لأذهان بلغاء البشر بالإحاطة به، بحيث لو اجتمعت أذهانهم وانقدحت قرائحهم وتآمروا وتشاوروا في نواديهم وبطاحهم وأسواق موسمهم، فأبدى كل بليغ ما لاح له من النكت والخصائص لوجدوا كل ذلك قد وفت به آيات القرآن في مثله وأتت بأعظم منه، ثم لو لحق بهم لاحق، وخلف من بعدهم خلف فأبدى ما لم يبدوه من النكت لوجد تلك الآية التي انقدحت فيها أفهام السابقين وأحصت ما فيها من الخصائص قد اشتملت على ما لاح لهذا الأخير وأوفر منه، فهذا هو القدر الذي أدركه بلغاء العرب بفطرهم، فأعرضوا عن معارضته علما بأنهم لا قبل لهم بمثله، وقد كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأي بحيث لا يعرضون أنفسهم للافتضاح ولا يرضون لأنفسهم بالانتقاص لذلك رأوا الإمساك عن المعارضة أجدى بهم واحتملوا النداء عليهم بالعجز عن المعارضة في مثل هذه الآية، لعلهم رأوا أن السكوت يقبل من التأويل **بالأنفة** ما لا تقبله المعارضة القاصرة عن بلاغة القرآن فثبت أنه معجز لبلوغه حدا لا يستطيعه البشر فكان هذا الكلام خارقا للعادة ودليلا على أن الله أوجده كذلك ليكون دليلا على صدق الرسول فالعجز عن المعارضة لهذا الوجه كان لعدم القدرة على الإتيان بمثله وهذا هو رأي جمهور أهل السنة والمعتزلة وأعيان الأشاعرة مثل أبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وهو المشهور عن الأشعري.

وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله ممكنة منهم المعارضة ولكنهم صرفهم الله عن التصدي لها مع توفر الدواعي على ذلك فيكون صدهم عن ذلك مع اختلاف أحوالهم أمرا خارقا للعادة أيضا وهو دليل المعجزة، وهذا مذهب من قول ذهب إليه فريق وقد ذكره أبو بكر الباقلاني في كتابه في إعجاز القرآن ولم يعين له قائلا وقد نسبه التفتزاني في كتاب المقاصد إلى القائلين إن الإعجاز بالصرفة١ وهو قول النظام من المعتزلة وكثير من المعتزلة ونسبه الخفاجي إلى أبي إسحاق الإسفرائيني ونسبه عياض إلى أبي الحسن الأشعري ولكنه لم يشتهر عنه وقال به الشريف المرتضى من الشيعة كما في

ـ

١ وقعت كلمة الصرفة في عبارات المتكلمين ومنهم ابو بكر الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" ولم أر من ضبط الصاد منه فيجوز أن يكون صاده مفتوحا على زنة المرة مرادا بها مطلق وجود الصرف والأظهر أن

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص/٢٣٣

يكون الصاد مقصورا على صيغة الهيئة أي حرفا مخصوصا بقدرة الله ويشعر بهذا قول الباقلاني في كتاب "إعجاز القرآن" صرفهم الله عنه ضربا من الصرف.." (١)

"منه النفوس وتزيله مادامت خلية عن غرض أو هوى وسمي باطلا لأنه فعل يذهب ضياعا وخسارا على صاحبه.

واللبس خلط بين متشابهات في الصفات يعسر معه التمييز أو يتعذر وهو يتعدى إلى الذي اختلط عليه بعدة حروف مثل على واللام والباء على اختلاف السياق الذي يقتضي معنى بعض تلك الحروف. وقد يعلق به ظرف عند. وقد يجرد عن التعليق بالحرف. ويطلق على اختلاط المعاني وهو الغالب وظاهر كلام الراغب في مفردات القرآن أنه هو المعنى الحقيقي، ويقال في الأمر لبسة بضم اللام أي اشتباه، وفي حديث شق الصدر فخفت أن يكون قد التبس بي أي حصل اختلاط في عقلي بحيث لا يميز بين الرؤية والخيال، وفعله من باب ضرب وأما فعل لبس الثياب فمن باب سمع.

فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق. وهذا اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة فإن المزاولين لذلك لا يروج عليهم قصد إبطالها فشأن من يريد إبطالها أن يعمد إلى خلط الحق بالباطل حتى يوهم أنه يريد الحق قال تعالى: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾ [الأنعام: ١٣٧] لأنهم أوهموهم أن ذلك قربة إلى الأصنام. وأكثر أنواع الضلال الذي أدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل، فقد قال الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة أننا كنا نعطي الزكاة للرسول ونطيعه فليس علينا طاعة لأحد بعده وهذا نقض لجامعة الملة في صورة الأنفة من الطاعة لغير الله، وقد قال شاعرهم وهو الخطيل بن أوس:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيالعباد الله ما لأبي بكر

وقد فعل ذلك الناقمون على عثمان رضي الله عنه فلبسوا بأمور زينوها للعامة كقولهم رقي إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المنبر وذلك استخفاف لأن الخليفتين قبله نزل كل منهما عن الدرجة التي كان يجلس عليها سلفه. وسقط من يده خاتم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك رمز على سقوط خلافته. وقد قالت الخوارج لا حكم إلا لله فقال علي رضي الله عنه كلمة حق أريد بها باطل. وحرف أقوام آيات بالتأويل البعيد ثم سموا ذلك بالباطن وزعموا أن للقرآن ظاهرا وباطنا فكان من ذلك لبس كثير، ثم نشأت عن ذلك

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤١/١

نحلة الباطنية. ثم تأويلات المتفلسفين في الشريعة كأصحاب الرسائل الملقبين بإخوان الصفاء. ثم نشأ تلبيس الواعظين والمرغبين والمرجئة فأخذوا بعض الآيات فأشاعوها وكتموا ما يقيدها." (١)

"بالتعاهد بعد الإسلام

وقوله: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ معطوف على نعمة، وجملة ﴿يعظكم به﴾ حال ويجوز جعله مبتدأ؛ وجملة ﴿يعظكم﴾ خبرا، والكتاب: القرآن. والحكمة: العلم المستفاد من الشريعة، وهو العبرة بأحوال الأمم الماضية وإدراك مصالح الدين، وأسرار الشريعة، كما قال تعالى، بعد أن بين حكم الخمر والميسر ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ [البقرة:٢٢٠] ومعنى إنزال الحكمة أنها كانت حاصلة من آيات القرآن، كما ذكرنا، ومن الإيماء إلى العلل، ومما يحصل أثناء ممارسة الدين، وكل ذلك منزل من الله تعالى بالوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن فسر الحكمة بالسنة فقد فسرها ببعض دلائلها.والموعظة الوعظ: النصح والتذكير بما يلين القلوب، ويحذر الموعوظ.

وقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ تذمير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شيء تنزيلا لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة، منزلة من يجهل أن الله عليم، فإن العليم لا يخفي عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء، لأن هذا العليم قدير.

[٢٣٢] ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

المراد من هذه الآية مخاطبة أولياء النساء، بألا يمنعوهن من مراجعة أزواجهن، بعد أن أمر المفارقين بإمساكهن بمعروف ورغبهم في ذلك، إذ قد علم أن المرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإن المرأة سريعة الانفعال قريبة القلب، فإذا جاء منع فإنما يجيء من قبل الأولياء ولذلك لم يذكر الله ترغيب النساء في الرضا بمراجعة أزواجهن ونهى الأولياء عن منعهن من ذلك.

وقد عرف من شأن الأولياء في الجاهلية، وما قاربها، **الأنفة** من أصهارهم، عند حدوث الشقاق بينهم وبين ولاياهم، وربما رأوا الطلاق استخفافا بأولياء المرأة وقلة اكتراث بهم، فحملتهم **الحمية** على قصد الانتقام

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٤٥٥

منهم عند ما يرون منهم ندامة، ورغبة في المراجعة، وقد روى في "الصحيح" أن البداح بن عاصم الأنصاري طلق زوجه جميلا." (١)

"وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم.

أرسل محمد صلى الله عليه وسلم مفطورا على الرحمة، فكان رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحبا لرحمة من اله أودعها الله فيه، إذ هو بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغ الشريعة للعالم.

والعرب أمة عرفت **بالأنفة**، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة. وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق. وورد أن صفح النبي صلى الله عليه وسلم وعفوه ورحمته كان سببا في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب الشفاء.

فضمير ﴿لهم﴾ عائد على جميع الأمة كما هو مقتضى مقام التشريع وسياسة الأمة، وليس عائدا على المسلمين الذين عصوا أمر الرسول يوم أحد، لأنه لا يناسب قوله بعده ﴿لانفضوا من حولك﴾ إذ لا يظن ذلك بالمسلمين، ولأنه لا يناسب قوله بعده ﴿وشاورهم في الأمر﴾ إذا كان المراد المشاورة للاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظا لنفرك كثير ممن استجاب لك فهلكوا، أو يكون الضمير عائدا على المنافقين المعبر عنهم بقوله: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ [آل عمران: ١٥٤] فالمعنى: ولو كنت فظا لأعلنوا الكفر وتفرقوا عنك، وليس المراد أنك لنت لهم في وقعة أحد خاصة، لأن قوله بعده ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ الخ ينافي ذلك المحمل.

واللفظ: السيئ الخلق، الجافي الطبع.

والغليظ القلب: القاسيه، إذ الغلظة مجاز عن القسوة وقلة التسامح، كما كان اللين مجازا في عكس ذلك، وقالت جواري الأنصار لعمر حين انتهرهن أنت أفظ وأغلظ من رسول الله يردن أنت فظ وغليظ دون رسول الله.

والانفضاض: التفرق. و ﴿ومن حولك﴾ أي من جهتك وإزائك، يقال: حوله وحوليه وحواله وبحياله.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٤٠٥

والضمير للذين حول رسول الله، أي الذين دخلوا في الدين لأنهم لا يطيقون الشدة، والكلام تمثيل: شبهت هيئة النفور منه وكراهية الدخول في." (١)

"بدا لي أني لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئا إذا كان جاثيا

ولما قوبل ﴿بدا لهم﴾ في هذه الآية بقوله: ﴿ما كانوا يخفون﴾ علمنا أن البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا،أي خطر لهم حينئذ ذلك المخاطر الذي كانوا يخفونه،أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به.ففي الكلام احتباك، تقديره:بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه.وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة **والأنفة** من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم،وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم، كما ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ في هذه السورة[٥٢]،وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ في سورة الحجر[٢].وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها.

وقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة،أي لو أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه،وهو التكذيب وإنكار البعث،وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات،هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير،وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.

وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزجر والسوط ونحوهما.ويزول بزواله حتى يعاوده مثله.

وقوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ تذييل لما قبله.جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات،أي أن الكذب

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٦/٣

سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإن الكذب سجيتهم.وقد تضمن تمنيهم وعدا،." (١)

"﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ .

والدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى ﴿ما يقولون﴾ إلى أنه لا يعدو كونه قولا، أي أنه غير مطابق للواقع كقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ لأنه لا مال له ولا ولد في الآخرة.

والرزق الكريم: نعيم الجنة. وتقدم أن الكريم هو النفيس في جنسه عند قوله: ﴿درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ في سورة الأنفال.

وبهذه الآيات انتهت زواجر الإفك.

[٢٨,٢٧] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾

ذكرنا أن من أكبر الأغراض في هذه السورة تشريع نظام المعاشرة والمخالطة العائلية في التجاور. فهذه الآيات استئناف لبيان أحكام التزاور وتعليم آداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد.

وقد كان الاستئذان معروفا في الجاهلية وصدر الإسلام وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من ملوك وسوقة فكان غير متماثل. وقد يتركه أو يقصر فيه من لا يهمه إلا قضاء وطره وتعجيل حاجته، ولا يبعد بأن يكون ولوجه محرجا للمزور أو مثقلا عليه فجاءت هذه الآيات لتحديد كيفيته وإدخاله في آداب الدين حتى لا يفرط الناس فيه أو في بعضه باختلاف مراتبهم في الاحتشام **والأنفة** واختلاف أوهامهم في عدم المؤاخذة أو في شدتها.

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدا في بيته لأن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حر وقر ومطر وقتام، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يجب أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٢/٦

(٢) التحرير والتنوير، ١٥٧/١٨

"[٣٩] ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾

كما ضرب الله المثل لقريش بالأمم التي كذبت رسلها فانتقم الله منها، كذلك ضرب المثل لصناديد قريش مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وأبي لهب، بصناديد بعض الأمم السالفة كانوا سبب مصاب أنفسهم ومصاب قومهم الذين اتبعوهم، إنذارا لقريش بما عسى أن يصيبهم من جراء تغرير قادتهم بهم وإلقائهم في خطر سوء العاقبة. وهؤلاء الثلاثة جاءهم موسى بالبينات. وتقدمت قصصهم وقصة قارون في سورة القصص.

فأما ما جاء به موسى من البينات لفرعون وهامان فهي المعجزات التي تحداهم بها على صدقه فأعرض فرعون عنها وأتبعه هامان وقومه. وأما ما جاء به موسى لقارون فنهيه عن البطر.

وأومأ قوله تعالى ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ إلى أنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كما قال تعالى ﴿وأضله الله على علم﴾ فكان حالهم كحال صناديد قريش الذين لا يظن أن فطنتهم لم تبلغ بهم إلى تحقق أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم صدق وأن ما جاء به القرآن حق ولكن غلبت **الأنفة**.

وموقع جملة ﴿ولقد جاءهم موسى﴾ كموقع جملة ﴿وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ [العنكبوت: ٣٨].

والاستكبار: شدة الكبر، فالسين والتاء للتأكيد كقوله ﴿وكانوا مستبصرين﴾ .

وتعليق قوله ﴿في الأرض﴾ بـ ﴿استكبروا﴾ للإشعار بأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها، فيومئ ذلك أن كل واحد من هؤلاء كان سيدا مطاعا في الأرض.

فالتعريف في ﴿الأرض﴾ للعهد، فيصح أن يكون المعهود هو أرض كل منهم، أو أن يكون المعهود الكرة الأرضية مبالغة في انتشار استكبار كل منهم في البلاد حتى كأنه يعم الدنيا كلها.

ومعنى السبق في قوله ﴿وما كانوا سابقين﴾ الانفلات من تصريف الحكم فيهم. وقد." (١)

"العكس، وقد يتوهم بعض الكافرين حين تداخلهم الظنون في مصيرهم بعد الموت أنه إذا ظهر صدق وعيد القرآن إياهم فإن من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك بما يدل به على رب هذا الدين، وقد كان قارا في نفوس العرب التعويل على المولى والنصير تعويلا على أن **الحمية والأنفة** تدفعهم إلى الدفاع عنهم في ذلك الجمع وإن كانوا من قبل مختلفين لهم لضيق عطن أفهامهم يقيسون الأمور على معتادهم. وهذا أيضا وجه الجمع بين نفي جزاء الوالد عن ولده وبين نفي جزاء الولد عن والده ليشمل الفريقين في

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٠/٢٠

الحالتين فلا يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود.
ثم أوثرت جملة ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة ﴿لا يجزي والد عن ولده﴾ ؛ فإنها نظمت جملة أسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وجعل النفي فيها منصبا إلى الجنس. ونكتة هذا الإيثار مبالغة تحقيق عدم جزء هذا الفريق عن الآخر إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم وأمهاتهم في الغالب على الشرك مثل أبي قحافة والد أبي بكر، وأبي طالب والد علي، وأم سعد بن أبي وقاص، وأم أسماء بنت أبي بكر، فأريد حسم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة بشيء. وعبر فيها ب ﴿مولود﴾ دون "ولد" لإشعار ﴿مولود﴾ بالمعنى الاشقاقي دون "ولد" الذي هو اسم بمنزلة الجوامد لقصد التنبيه على أن تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها التعرض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاء له بما تومئ إليه المولودية من تجشم المشقة من تربيته، فلعله يتجشم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسما لطمعه في الجزاء عنه، فهذا تعكيس للترقيق الدنيوي في قوله تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ [الإسراء: ٢٤] وقوله: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾ [لقمان: ١٥].
وجملة ﴿إن وعد الله حق﴾ علة لجملتي ﴿اتقوا ربكم واخشوا يوما﴾ . ووعد الله: هو البعث، قال تعالى ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].
وأكد الخبر ب ﴿إن﴾ مراعاة المنكري البعث، وإذ قد كانت شبهتهم في إنكاره مشاهدة الناس يموتون ويخلقهم أجيال آخرون ولم يرجع أحد ممن مات منهم ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٤] وقالوا: ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ [الأنعام: ٢٩].." (١)

"إسرائيل من مصر، أو أراد: فاعتزلوني زمنا، يعني إلى أن يعين له الله زمن الخروج.
وعدي ﴿تؤمنوا﴾ باللام لأنه يقال: آمن به وآمن له، قال تعالى ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦] وأصل هذه اللام لام العلة على تضمين فعل الإيمان معنى الركون.
وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم إذ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التعجب والتردد فقال ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فرأى منهم

(١) التحرير والتنوير، ١٣٣/٢١

الصلف والأنفة فقال ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ فلم يرعوا فقال ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ ، فلاحت عليهم علامات إضمار السوء له فقال ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنيا عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز.

[٢٢] ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾

التعقيب المفاد بالفاء تعقيب على محذوف يقتضي هذا الدعاء إذ ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبه التعقيب بهذا الدعاء إذ المذكور قبله كلام من موسى إليهم، فالتقدير: فلم يستجيبوا له فيما أمرهم، أو فأصروا على أذاه وعدم متاركته فدعا ربه، وهذا التقرير الثاني أليق بقوله ﴿أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ وهذا كالتعقيب الذي في قوله تعالى ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣]، وقوله ﴿أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ اتفق القراء العشرة على قراءته بفتح الهمزة وشد النون فما بعدها في قوة المصدر، فلذلك تقدر الباء التي يتعدى بها فعل "دعا"، أي دعا ربه بما يجمعه هذا التركيب المستعمل في التعريض بأنهم استوجبوا تسليط العقاب الذي يدعو به الداعي، فالإخبار عن كونهم قوما مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجرام أو في الشكاية من اعتدائهم، أو في التخوف من شرهم إذا استمروا على عدم تسريح بني إسرائيل، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرهم، فلذلك أطلق على هذا الخبر فعل "دعا".

﴿فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون﴾

تفريع على جملة ﴿أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ والمفرع قول محذوف دلت عليه صيغة الكلام، أي فدعا فقلنا: اسر بعبادي. وقرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر ﴿فأسر﴾ بهمزة وصل على أنه أمر من "سرى"، وقرأه الباقون بهمزة قطع من "أسرى"." (١)

"والخروج: مغادرة مكان معين محصورا وغير محصور، فمنه ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ [يوسف: من الآية١٠٠] ومنه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ [الأعراف: من الآية١١٠]

والخروج من عند النبي صلى الله عليه وسلم مغادرة مجلسه الذي في المسجد وهو الذي عبر عنه هنا بلفظ ﴿عندك﴾ .

و﴿من﴾ لتعدية فعل ﴿خرجوا﴾ وليست التي تزاد مع الظروف في نحو قوله تعالى ﴿من عند الله﴾ [البقرة: من الآية٨٩]

والذين أوتوا العلم: هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الملازمون لمجلسه. وسمي منهم عبد الله

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٥/٢٥

بن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس. وروي عنه أنه قال: أنا منهم وسئلت فيمن سئل.

والمعنى: أنهم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن وما يقوله من الإرشاد وحذف مفعول ﴿يستمعون﴾ ليشمل ذلك.

ومعنى ﴿آنفا﴾ : وقتا قريبا من زمن التكلم ، ولم ترد هذه الكلمة إلا منصوبة على الظرفية. قال الزجاج: هو من استأنف الشيء إذا ابتدأه ا ه يريد أنه مشتق من فعل مزيد ولم يسمع له فعل مجرد، وظاهر كلامهم أن اشتقاقه من الاسم الجامد وهو الأنف، أي جارحة الشم وكأنهم عنوا به أنف البعير لأن الأنف أول ما يبدو لراكبه فيأخذ بخطامه، فلوحظ في اسم الأنف معنى الوصف بالظهور، وكني بذلك عن القرب، وقال غيره: هو مشتق من أنف بضم الهمزة وضم النون يوصف به الكأس التي لم يشرب منها من قبل، وتوصف به الروضة التي لم ترع قبل، كأنهم لاحظوا فيها لازم وصف عدم الاستعمال وهو أنه جديد، أي زمن قريب، ف ﴿آنفا﴾ زمانا لم يبعد العهد به. قال ابن عطية: والمفسرون يقولون: آنفا معناه: الساعة القريبة منا وهذا تفسير المعنى اه. وفي كلامه نظر لأن أهل اللغة فسروه بوقت يقرب منا. وصيغ على زنة اسم الفاعل وليس فيه معنى اسم الفاعل، فهذا اسم غريب التصريف ولا يحفظ شيء من شعر العرب وقع فيه هذا اللفظ.

واتفق القراء على قراءته بصيغة فاعل وشذت رواية عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿أنفا﴾ بوزن كتف. وقد أنكر بعض علماء القراءات نسبتها إلى ابن كثير ولكن الشاطبي أثبتها في حرز الأماني وقد ذكرها أبو علي في الحجة. فإذا صحت هذه الرواية عن البزي عنه كان ﴿أنفا﴾ حالا من ضمير ﴿من يستمع﴾ أجري على الإفراد رعيا للفظ ﴿من﴾ . ومعناه: أنه يقول ذلك في حال أنه شديد **الأنفة**، أي التكبر إظهارا لترفعه عن وعي ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم وينتهي الكلام عند ماذا. وزعم أبو علي في الحجة: أن البزي توهمه مثل: حاذر وحذر. ولا يظن مثل هذا بالبزي لو صحت الرواية عنه عن ابن كثير.." (١)

"الله بكل شيء عليما﴾

ظرف متعلق بفعل ﴿صدوكم﴾ [الفتح: ٢٥] أي صدوكم صدا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلا حمية الجاهلية، وإلا فإن المؤمنين جاءوا مسالمين معظمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم فليس من الرشد أن يمنعوا عن العمرة ولكن حمية الجاهلية غطت على عقولهم فصمموا على منع المسلمين، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أن المشركين يمكنوهم من العمرة في القابل وأن العامين سواء عندهم ولكنهم أرادوا التشفي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٤/٢٦

فكان تعليق هذا الظرف بفعل ﴿وصدوكم﴾ مشعرا بتعليل الصد بكونه حمية الجاهلية ليفيد أن **الحمية** متمكنة منهم تظهر منها آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام.

والحمية: **الأنفة**، أي الاستنكاف من أمر لأنه يراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.

ولما كان صدهم الناس عن زيارة البيت بلا حق لأن البيت بيت الله لا بيتهم كان داعي المنع مجرد **الحمية** قال تعالى ﴿وما كانوا أولياءه﴾ [الأنفال: من الآية٣٤] و﴿جعل﴾ بمعنى وضع، كقول الحريري في المقامة الأخيرة اجعل الموت نصب عينيك ، وقول الشاعر:

وإثمد يجعل في العين ١

وضمير ﴿جعل﴾ يجوز أن يكون عائدا إلى اسم الجلالة في قوله ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ من قوله ﴿لعذبنا الذين كفروا﴾ [الفتح: من الآية٢٥] والعدول عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة التفات.

و ﴿الذين كفروا﴾ مفعول أول ل ﴿جعل﴾ . و ﴿**الحمية**﴾ بدل اشتمال من ﴿الذين كفروا﴾ و ﴿في قلوبهم﴾ في محل المفعول الثاني ل ﴿جعل﴾ ، أي تخلقوا **بالحمية** فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة فكذلك حين صدوكم عن المسجد الحرام.

---

١ أوله:

الناس كالأرض ومنها هم ... من خشن الطبع ومن لين

فحجر تدمي به أرجل ... الخ.................

(١) ".

"وقد كانوا إذا ضربوا ضربوا بالسيوف قصدوا الوجوه والرؤوس. قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لعمر بن الخطاب لما بلغه قول أبي حذيفة لئن لقيت العباس لألجمنه بالسيف، فقال رسول الله: "يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف" .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٣/٢٦

وقيل هذا وعيد بتشويه أنفه يوم القيامة مثل قوله: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [آل عمران: ١٠٦] وجعل تشويهه يومئذ في أنفه لأنه إنما بالغ في عداوة الرسول والطعن في الدين بسبب **الأنفة** والكبرياء، وقد كان الأنف مظهر الكبر ولذلك سمي الكبر أنفة اشتقاقا من اسم الأنف فجعلت شوهته في مظهر آثار كبريائه.

[١٧-٢٥] ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين، فانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين﴾.

ضمير الغائبين في قوله: ﴿بلوناهم﴾ يعود إلى ﴿المكذبين﴾ في قوله: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ [القلم:٨]. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعت إليه مناسبة قوله: ﴿أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ [القلم: ١٤-١٥] فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقع من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم. كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص.

والبلوى حقيقتها: الاختبار وهي هنا تمثل بحال المبتلى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا بالنظر إلى النعم السالفة ولا النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.." (١)

"و ﴿بسر﴾ : معناه كلح وجهه وتغير لونه خوفا وكمدا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا ترده العقول، قال تعالى: ﴿ووجوه يومئذ باسرة، ظن أن يفعل بها فاقرة﴾ في سورة القيامة [٢٤-٢٥].

والإدبار: هنا يجوز أن يكون مستعارا لتغيير التفكير الذي كان يفكره ويقدره يائسا من أن يجد ما فكر في انتحاله فانصرف إلى الاستكبار **والأنفة** من أن يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى.

ويجوز أن يكون مستعارا لزيادة إعراضه عن تصديق النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: ﴿ثم أدبر

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٧٤

يسعى﴾ حكاية عن فرعون في سورة النازعات [٢٢].

وصفت أشكاله التي تشكل بها لما أجهد نفسه لاستنباط ما يصف به القرآن وذلك تهكم بالوليد.

وصيغة الحصر في قوله: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ مشعرة بأن استقراء أحوال القرآن بعد السبر والتقسيم أنتج له أنه من قبيل السحر، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التي جالت في نفسه لأنه قال: ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون، كما تقدم في خبره.

ووصف هذا السحر بأنه مأثور، أي مروي عن الأقدمين، يقول هذا ليدفع به اعتراضا يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة.

وجملة ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ بأن السحر يكون أقوالا وأفعالا فهذا من السحر القولي. وهذه الجملة بمنزلة النتيجة لما تقدم، لأن مقصوده من ذلك كله أن القرآن ليس وحيا من الله.

وعطف قوله: ﴿فقال﴾ بالفاء لأن هذه المقالة لما خطرت بباله بعد اكتداد فكره لم يتمالك أن نطق بها فكان نطقه بها حقيقا بأن يعطف بحرف التعقيب.

[٢٦-٣٠] ﴿سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر﴾ .

جملة ﴿سأصليه سقر﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله: ﴿إنه فكر وقدر﴾." (١)

"أدين إذا تقسمت الأمور ؟ !

تركت اللات والعزى جميعا

كذلك يفعل الرجل البصير

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٠٥

اعلم أنه سبحانه لما أقام الدلائل القاطعة على إثبات الصانع ، وأبطل القول بالشريك عقبه بما يدل على النبوة ، ولما كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على كون القرآن معجزا أقام الدلالة على كونه معجزا.

واعلم أن كونه معجزا يمكن بيانه من طريقين : الأول : ألا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إما أن يكون مساويا لكلام الفصحاء ، أو زائدا على كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة ، أو زائدا عليه بقدر ينقض العادة ، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٢٨٨

وإنما قلنا : إنهما باطلان ؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن يأتوا [بمثل سورة منه] إما مجتمعين ، أو منفردين ، فإذا وقع التنازع ، فالشهود والحكام مزيلون الشبهة وذلك نهاية الاحتجاج ؛ لأنه كان من معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية ، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال ، وارتكبوا المهالك والمحن ، وكانوا في **الحمية والأنفة** على حد لا يقبلون الحق ، فكيف الباطل ، وكل ذلك

٤٢٩

يوجب الإتيان بما يقدح في قوله ، فلما لم يأتوا بمثلها علمنا عجزهم عنها ، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم ، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا ، فهو إذن تفاوت ناقص للعادة ، فوجب أن يكون معجزا.

والعم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثير ، تدل على أنه أبلغ في الفصاحة النهاية التي لا غاية لها : أحدها : أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات مثل وصف بعير ، أو فرس ، أو جارية ، أو ملك ، أو ضربة ، أو طعنة أو وصف حرب ، أو وصف غارة ، وليس في القرآن شيء من هذا ، فكان يجب على هذا ألا يحصل فيه شيء من الفصاحة ، التي اتفقت العرب في كلامهم عليها.

وثانيها : أنه – تعالى – راعي فيه [طريقة] الصدق ، وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب ، ولزم الصدق زكي شعره ، ألا ترى لبيد بن ربيعة ، وحسان بن ثابت لما أسلما زكي شعرهما ، [ولم يكن شعرهما] الإسلامي في الوجوه كشعرهما في الجاهلية ، والقرآن مع لزوم الصدق وتنزهه عن الكذب بلغ الغاية في الفصاحة كما ترى.

وثالثها : أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح في القصيدة كلها ، إنما هو بيت أو بيتان والباقي ليس كذلك ، وأما القرآن فكله فصيح ، فعجز الخلق عن بعضه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها : أن كل من وصف شيئا بشعر ، فإن كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وأما القرآن ففيه تكرار كثير ، وهو في غاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلا.

وخامسها : أنهم قالوا : شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب ، وذكر النساء ، وصفة الخيل ، وشعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ، ووصف الخمر ، وزهير عند الرغبة والرجاء ، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن ، ويضعف كرمه في غيره ، والقرآن جاء فصيحا في كل الفنون.

٤٣٠

وسادسها : أن القرآن أصل للعلوم كلها ، فعلم الكلام كله في القرآن ، وعلم الفقه مأخوذ من القرآن ، كذا علم أصول الفقه ، وعلم النحو ، واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا ، وأخبار الآخرة ، واستعمال مكارم الأخلاق.

وأما الطريق الثاني : أن يقول : القرآن لا يخلو إما أن يكون بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز ، أو لم يكن ، فإن كان الأول ثبت أنه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة ، مع توفر داعيهم على الإتيان بها ، أمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزا ، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه.

" إن " حرف شرط يجزم فعلين : شرطا وجزاء ، فلا تقول : " إن غربت الشمس ".

فإن قيل : فكيف قال هاهنا : ﴿وإن كنتم في ريب﴾ ، وهذا خطاب مع الكفار ، والله تعالى يعلم أنه في ريب ، وهم يعلمون ويقرون أنهم في ريب ، ومع ذلك فالتعليق حسن.

فالجواب : الخصائص الإلهية لا تدخل في الأوضاع العربية ، بل الأوضاع العربية مبنية على خصائص الخلق ، والله – تعالى – أنزل القرآن بلغة العرب ، وعلى منوالهم ، فكل ما كان في لغة العرب حسنا نزل القرآن على ذلك الوجه ، وما كان نسخا في لسان العرب لم ينزل في القرآن ، فثبت بهذا أن كل ما جاء في العادة مشكوكا فيه بين الناس ، حسن تعليقه ، سواء كان من قبل الله – تعالى – أو من قل غيره ، وسواء كان معلوما للسامع أو المتكلم أم لا ، وكذلك حسن قوله : إن كان زيد في الدار فأكرمه ، مع أنك علم أن زيدا في الدار ؛ لأن حصول زيد في الدار ، شأنه أن يكون في العادة مشكوكا فيه ، ولا يكون إلا في المحتمل وقوعه ، وهي أم الباب ؛ فلذلك يحذف مجزومها كثيرا ، وقد يحذف الشرط والجزاء معا ؛

قال : [الرجز] ٢٨٧ – قالت بنات العم : يا سلمى وإن

كان فقيرا معدما قالت : وإن

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٢٩

." (١)

"فإن قيل : أليس قد قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال : ٣٣] فكيف قال ههنا : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ ؟ .

فالجواب : المراد من قوله ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال : ٣٣] عذاب الاستئصال والمراد من قوله : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ عذاب القتل والحرب ، والفرق بين البابين : أن عذاب الاستئصال قد

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٩٠

يتعدى إلى غير المذنب ، وإن كان في حقه سببا لمزيد الثواب ، أما عذاب القتل ، فالظاهر أنه مقصور على المذنب.

فصل احتج أهل السنة على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ فإن المراد من هذا العذاب ، القتل والأسر ، وظاهر هذا النص يدل على أن ذلك القتل والأسر فعل الله تعالى ، يدخله في الوجود على أيدي العباد.

وأجاب الجبائي عنه فقال : لو جاز أن يقال إنه يعذب الكفار بأيدي المؤمنين لجاز أن يقال : إنه يعذب المؤمنين بأيدي الكفار ، ولجاز أن يقال : إنه يكذب الأنبياء على ألسنة الكفار ، ويلعن المؤمنين على ألسنتهم ، لأنه تعالى خالق لذلك ، فلما لم يجز ذلك عند المجبرة ، علم أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، وإنما نسب ما ذكر إلى نفسه على سبيل التوسع من حيث إنه حصل بأمره وألطافه ، كما يضيف جميع الطاعات إليه بهذا التفسير.

وأجيب : بأن الذي ألزمتموه علينا فالأمر كذلك ، إلا أنا لا نقوله باللسان ، كما نعلم أنه تعالى هو الخالق لجميع الأجسام ، ثم إنا لا نقول : يا خالق الأبوال والعذرات ، ويا مكون الخنافس ، والديدان ، فكذا ههنا ، وأيضا : أنا توافقنا على أن الزنا واللواط وسائر القبائح ، إنما حصلت بتقدير الله وتيسيره ، ثم لا يجوز أن يقال : يا مسهل الزنا واللواط ، ويا دافع الموانع عنها.

وأما قوله : المراد إذن الإقدار ، فهذا صرف للكلام عن ظاهره ، وذلك لا يجوز إلا لدليل قاهر ، والدليل القاهر من جانبنا ، فإن الفعل لا يصدر إلا عند الداعية الحاصلة ، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى.

وثانيها : قوله : " ويخزهم " أي : يذلهم بالأسر والقهر ، قال الواحدي " إنهم بعد قتلكم إياهم " وهذا يدل على أن الإخزاء وقع بهم في الآخرة ، هذا ضعيف لما تقدم من أن الإخزاء حاصل في الدنيا.

وثالثها : قوله : " وينصركم عليهم " أي : لما حصل لهم الخزي ، بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين [بسبب] كونهم قاهرين.

فإن قيل : لما كان حصول الخزي مستلزما لحصول النصر ، كان إفراده بالذكر عبثا.

فالجواب : ليس الأمر كذلك ؛ لأنه يحتمل أن يحصل الخزي لهم من جهة

٣٨

المؤمنين ، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر ، فلما قال : " وينصركم عليهم " دل على أنهم

ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر.

ورابعها : قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

قرأ الجمهور بياء الغيبة ، ردا على اسم الله تعالى ، وقرأ زيد بن علي " نشف " بالنون ، وهو التفات حسن ، وقال : " قوم مؤمنين " شهادة للمخاطبين بالإيمان ، فهو من باب الالتفات ، وإقامة الظاهر مقام المضمر ، حيث لم يقل " صدوركم ".

والمعنى : ويبرىء داء قلوب قوم مؤمنين مما كانوا ينالونه من الأذى منهم.

ومعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه ، فإنه يعظم سروره به ، ويصير ذلك سببا لقوة النفس ، وثبات العزيمة.

وقال مجاهد والسدي " أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ، حيث أعانت قريش بني بكر عليهم حتى نكلوا بهم ، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي صلى اللہ عليه وسلم ".

وخامسها : قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ كربها ووجدها بمعونة قريش بني بكر عليهم.

فإن قيل : قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وبين قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فهذه المنافع الخمسة ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية ، وهي التبشفي ، ودرك الثأر وإزالة الغيظ ، ولم يذكر فيها وجدان المال ، والفوز بالمطاعم والمشارب ؛ لأن العرب جبلوا على **الحمية والأنفة** ، فرغبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم.

وقرأ الجمهور : " ويذهب " بضم الياء وكسر الهاء من : " أذهب " ، و " غيظ " مفعول به وقرىء " ويذهب " بفتح الياء والهاء ، جعله مضارعا لـ " ذهب " ، و " غيظ " فاعل به

٣٩

". (١)

"الأمر كما قلتم ، لكان من الجواب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه الصلاة والسلام.

السادس : لعل إخوته حملتهم **الأنفة** ، والاستعلاء على ألا يسجدو له على سبيل التواضع ، وعلم يعقوب أنهم إن لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران النفس ، وظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها ، فيعقوب . عليه الصلاة والسلام . مع جلالته وعظم قدره . بسبب الأوبة والشيخوخة ، والتقدم في الدين ، والعلم ، والنبوة فعل ذلك السجود حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال تلك **الأنفة** ، والنفرة عن قلوبهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٢٥٩٠

السابع : لعل الله ـ تعالى ـ أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعلمها إلا هو [كما أمر الملائكة بالسجود لآدم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لحكمة لا يعلمها إلا هو] ، ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت.

ثم إن يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما رأى هذه الحالة : ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ ، وهي قوله : ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا﴾ [يوسف : ٤] وهاذ يقوي الجواب السابع. والمعنى : أنه لا يليق بمثلك على حالتك ، في العلم ، والدين ، والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به ، وأن رؤيا الأنبياء حق ، كما أن رؤيا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذبح ولده كان سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة ، لذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف سببا لوجوب السجود على يعقوب.

قوله : ﴿من قبل﴾ يجوز أن يتعلق ـ بـ " رؤياي " أي تأويل رؤياي في ذلك الوقت ويجوز أن يكون العامل فيه : " تأويل " ؛ لأن التأويل كان من حين وقوعها هكذا والآن ظهر له ، ويجوز أن يكون حالا من : " رؤياي " قاله أبو البقاء.

وقد تقدم أن المقطوع عن الإضافة لا يقع حالا.

قوله : ﴿قد جعلها ربي حقا﴾ حال من : " رؤياي " ، ويجوز أن تكون مستأنفة وفي " حقا " وجوه : أحدها : أنه حال.

والثاني : أنه مفعول ثان.

والثالث : أنه مصدر مؤكد لفعل من حيث المعنى ، أي : حققها ربي حقا بجعله.

قوله : " أحسن بي " " أحسن " أصله أن يتعدى بإلى ، قال تعالى : ﴿وأحسن كمآ أحسن الله إليك﴾ [القصص : ٧٧] فقيل : ضمن معنى : " لطف " متعديا بالباء ، كقوله تعالى : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ وقول كثير عزة : [الطويل]

٢١٥

٣١٥٥ـ أسيئي بنا ، أو أحسني لا ملومة

لدينا ولا مقلية إن تقلت

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٢١٢

وقيل : بل يتعدى بها أيضا ، وقيل : هي بمعنى " إلى " وقيل : المفعول محذوف.

تقديره : أحسن صنعه بى ، فـ : " بي " متعلقة بذلك المحذوف ، وهو تقدير أبي البقاء.

وفيه نظر ؛ من حيث ح‍ذف المصدر ، وإبقاء معموله ، وهو ممنوع عند البصريين.
و " إذ " منصوب ب‍ " أحسن " ، أو المصدر المحذوف ، قاله أبو البقاء وفيه النظر المتقدم.
والبدو : ضد الحضارة ، وهو من الظهور ، بدا يبدوا : إذ سكن البادية.
يروى عن عمر رضي الله عنه : " إذا بدونا جفونا " أي : تخلقنا بأخلاق البدويين.
قال الواحدي : البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد ، ، أصله من بدا يبدوا بدوا ، ثم سمي المكان باسم المصدر ، ويقال : : بدو وحضرن وكان يعقوب وولده بأرض كعنان أهل مواش وبرية.
وقال ابن عباس . رضي الله عنه . : [كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها] ومنها قدم على يوسف ، وبها مسجد تحت جبلها.
قال ابن الأنباري " بدا " اسم موضع معروف ، ياقل : بين شعيب . عليه السلام . وبدا ، وهما موضعان ذكرهما جميعا كثير : [الطويل] ٣١٥٦. وأنت التي حببت شعبا إلى بدا
إلي وأوطاني بلاد سواهما
والبدو على هذا القول معناه : قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا ، يقال : بدا القوم بدوا إذا أتوا بدا ، كما يقال : غار القوم غورا ، إذا أتوا الغور ، وكان معنى الآية : وجاء بكم من قصد بدا ، وعلى هذا القول كان يعقوب ، وولده حضريين ، لأن البدو لم يرد به البادية لكن عني به قصد بدا.
فصل اعلم أن قوله ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ وهو قوله : ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا﴾ [يوسف : ٤] ، ﴿وقد أحسن بى ﴾ أنعم علي ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ ولم يقل من الجب مع كونه أشد من السجن استعمالا للكرم كيلا تخجل إخوته بعدما قال : ﴿لا تثريب عليكم
٢١٦
." (١)

"نفسه أو غيره في مكان والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم " بلى نسمع ذلك " و " نعلم " رسلنا " أي الحفظة " لديهم يكتبون " أي يكتبون عليهم جميع أحوالهم.
جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٩٢
قوله تعالى : ﴿قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين﴾.
قوله ﴿إن كان للرحمان﴾ قيل شرطية على بابها ، واختلف في تأويله ، فقيل : إن ذلك فأنا أول من يعبده

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٠٣

، لكنه لم يصح ألبتة بالدليل القاطع ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها.

فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها.

ذكره الزمخشري.

وقيل : إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي الموحدين لله ، المكذبين لهذا القول.

واعلم أن هذا التأويل فيه نظر ، سواء أثبتوا لله ولدا ، أو لم يثبتو ا له ، فالرسول منكر لذلك الولد ، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراص لذلك الولد ، فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثرا في كون الرسول منكرا للولد.

وهذا التأويل قاله الواحدي.

وقيل : العابدين بمعنى الأنفين ، من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد ، ويؤيده قراءة السلمي واليماني : العبدين دون ألف.

وحكى الخليل قراءة غريبة وهي

٢٩٦

العبدين بسكون الباء وهي تخفيف قارءة السلمي ، فأصلها بالكسر.

قال ابن عرفة : يقال : عبد بالكسر - يعبد - بالفتح - فهو عبد.

وقل ما يقال : عابد والقرآن لا يجيء على القليل أو الشاذ يعني تخريج من قال : إن العابدين بمعنى الأنفين لا يصح ، ثم قال كقول مجاهد.

وقال الفرزدق : ٤٤٢٠. أولئك آبائي فجئني بمثلهم

وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

وق ال آخر : ٤٤٢١. مت ما يشأ ذو الود يصرم خليله

ويعبد عليه لا محالة ظالما

قال ابن الخطيب : وهذا التعليق أيضا فاسد ؛ لأن هذه **الأنفة** سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل.

وقال أبو عبيدة : معناه الجاحدين ، يقال : عبدني حقي ، أي جحدنيه.

وقال أبو حاتم : العبد ـ بكسر الباء ـ الشديد الغضب ، وهو معنى حسن ، أي إن كان له ولد على زعمكم فأنا أول من يغضب لذلك.

وقيل : " إن " نافية ؛ أي ما كان ثم أخبر بقولهن : ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وتكون الفاء سببية.

ومنع مكي أن تكون نافية.

قال : " لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت ، وهذا محال ".

ورد عليه بأن

٢٩٧

" كان " قد تدل على الدوام.

كقوله : " وكان الله غفورا رحيما " إلى ما لا يحصى.

والصحيح من مذاهب النحاة أنها لا تدل على الانقطاع والقائل بذلك يقول ما لم تكن قرينة كالآيات المذكورة.

وروي عن عبدالله بن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ أن المعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك ، جعل " إن " بمعنى الجحد ، وقال السدي معناه : ولو كان للرحمن ولد فأنا أو من عبده بذلك ولكن لا ولد له.

وتقدم الخلاف في قراءتي " ولد " و " ولد " في مريم.

ثم إن تعالى نزه نفسه فقال : ﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ أي عما يقولون من الكذب وذلك أ ، إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، وكل ما كان كذلك فهو لا يقبل التجزيء بوجه من الوجوه ، والولد عبارة أن ينفصل عن الشيء جزء فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله ، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزيء والتبعيض ، وإذا كان ذلك محالا في حق إله العالم امتنع إثبات الولد.

ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال : ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ يعنى يوم القيامة.

والمقصود منه التهديد ، يعني قد ذكرت الحجة على فساد ما ذكروا ، فلم يلتفتوا إليها ، لأجل استغراقهم في طلب المال والجاة ، والرياسة ، فاتركهم في ذلك الباطل ، واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الموعود.

قوله : " يلاقوا " قراءة العامة من الملاقاة.

وابن محيصن ويروى عن ابن عمرو " يلقوا " من " لقي ".

قوله (تعالى) : ﴿وهو الذي في السمآء إلاه﴾ " في السماء " متعلق

٢٩٨

." (١)

" صفحة رقم ١٢٦

الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف ، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر .

ولما أمر ونهى بما ختمه بالصلاة حث على التفاؤل لعظمته سبحانه بتخصيصها بالضمير فقال : (وإنها لكبيرة) أي ثقيلة جدا ، والكبير ما جل قدره أو مقداره في حس ظاهر أو في معنى باطن - قاله الحرالي

.

) إلا على الخاشعين) أي المخبتين الذين هم في غاية السهولة واللين والتواضع لربهم بحيث لا يكون عندهم شيء من كبر وينظرون عواقب الأمر وما أعد عليها من الأجر ، ولذا قال (صلى الله عليه وسلم) : (وجعلت قرة عيني في الصلاة) وغيرهم يمنعهم ثقلها من فعلها ، وإن فعلها فعلى غير رغبة .

قال الحرالي : وهو أي الخشوع هدو الجوارح والخواطر فيما هو الأهم في الوقت ، وأنبأ تعالى بكبر قدر الصلاة عن أن يتناول عملها إلا خاشع خرج عن حظ نفسه وألزم نفسه ذل العبودية التي ختمت بها النبوة ، وفي إشارة كمال الصلاة إشعار بصلاة العصر التي هي صلاة النبي الخاتم الذي زمنه وقت العصر وحالة العبودية ، وذلك مما يكبر على من قرن بنبوته وبملته الملك إلا أن يخشع لما يكبر على النفس ، وخصت الصلاة بالكبر دون الصبر لأن الصب صغار للنفس والصلاة وجهة للحق والله هو العلي الكبير - انتهى .

) الذين يظنون (من الظن وهو رجحان في اعتقاد مع بقاء منازع من مقابله - قال الحرالي .

) أنهم ملاقوا ربهم) أي المحسن إليهم ، وعبر بالظن عن العلم تهويلا للأمر وتنبيها على أنه يكفي العاقل في الحث على ملازمة الطاعة في ظن لقاء الملك المطاع المرجو المخوف فكيف والأمر متيقن لا مراء فيه ولا تطرق للريب إليه ويجوز أن يراد ظن الموت في كل لحظة ، فإنه إذا كان على ذكر من الإنسان أوجب له السعادة .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٥٠٦

ولما كانت هذه الجملة مشيرة مع الترهيب لذوي الهمم العلية **والأنفة والحمية** من الوقوع فيما يلم بعيب أو يوقع في عتب إلى الاستحياء من المحسن الذي ما قطع إحسانه." (١)

" صفحة رقم ١٣٢

المواعدة وهي التقدم في اللقاء والاجتماع والمفاوضة ونحوه) موسى (كلمة معربة من لفظ العبراني بما تفسيره فيما يقال ماء وشجر ، سمي به لما أودع فيه من التابوت المقذوف في اليم) أربعين ليلة (هي كمال وقت الليل والليل وقت انطماس المدركات الظاهرة – انتهى .

وخص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألذ المناجاة فيه وإلى أنه لا نوم في تلك المدة بل المناجاة عامة لليلها ونهارها ، وانتصب أربعين بوقوعه موقع المفعول الثاني لوعدنا أي انقضاء أربعين أي الكلام أو إنزال التوراة عند انقضاء الأربعين وهي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة وقيل ذو الحجة وعشر من المحرم .

قال الحرالي : وفيه إشعار بأن المناجاة إنما يتهيأ لها لميقات حبس النفس عما به قوامها وكمال ذلك إنما هو الصوم وكمال العدد الذي هو طور مصير من حال إلى حال هو الأربعون ، وذكر الميقات بالليالي يشعر أن مناجاته صباح من ظلمة الكون في حال خصوص الخلقة من حيث إن الظلمة آية على فوت مرام نور الحق والنهار آية على ظهور نور الحق وأول باد بدأ من الحق للخلق كلامه لمصطفى من خلقه بغير واسطة وهو بعد في دنياه وفي أرضه التي كانت سجنا ، فلما جاءها الحق لعبد من عبيده مناجيا له كما يأتيها يوم الجزاء بعد البعث صارت موطن رحمة وهدى ونور وهو مجيء الله سبحانه من سيناء المذكور في الكتاب الأول – انتهى .

وهذا دون قصة المعراج التي كانت لنبينا (صلى الله عليه وسلم) في اختراق السماوات العلى إلى سدرة المنتهى إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى وسمع الكلام من غير واسطة ورجع إلى بيته في ليلته وقد قطع من المسافات ما مسيرته خمسون ألف سنة كما سأبينه إن شاء الله تعالى في سورة السجدة .

ولما كانت الأنفس الأبية والهمم العلية تقتضي النفرة من الظالم **والأنفة** من كل ما ينسب إليه ويذكر به وكانوا قد اتخذوا من آثار آل فرعون من حليهم ما دخلوا في رقه وعبوديته وكانت مشاهدتهم لما رأوا من الآيات مقتضية لغاية البعد من الكفر عبر عن مواقعتهم له بثم فقال : (ثم اتخذتم (قال الحرالي : من الاتخاذ وهو افتعال مما منه المواخذة كأنه الوخذ ، وهو تصيير في المعنى نحو الأخذ في الحس ، وفيه تكلف ،) العجل (وذكر في هذا التقرير أصل المواعدة وذكر الميقات وتجاوز الخطاب ما بعد ذلك من

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٢٦/١

مهل حسب ما تفهمه كلمة ثم ، فاقتضى إفهام ذلك ما نالوه من الخير ثم تعقبوا ذلك لالتزام عادتهم في معاودة ما اعتادوه من أعمالهم إلى أدنى عمل من لا عقل له ولا بقية نظر له من اتخاذ جسد عجل إلها بعد معرفة آثار الإلهية على الغيب ، ففيه تعجيب من أن موسى عليه السلام إنما واعده الله بالمناجاة بعد ميقات أربعين صوما ونسكا وتحنثا وانقطاعا إلى ربه ثم يرونهم أنهم شهدوا الإله مصورا محسوسا على أن موسى." (١)

" صفحة رقم ٣٨٧

ولما كان الإباء والعناد الذي يحمل عليه **الأنفة** والكبر فعل الشيطان وثمرة كونه من نار قال : (ولا تتبعوا) أي تكلفوا أنفسكم من أمر الضلال ضد ما فطرها الله تعالى عليه وسهله لها من الهدى) خطوات الشيطان) أي طرق المبعد المحترق في الكبر عن الحق .

قال الحرالي : ففي إفهامه أن التسليط في هذا اليوم له ، وفيه إشعار وإنذار بما وقع في هذه الأمة وهو واقع وسيقع من خروجهم من السلم إلى الاحتراب بوقوع الفتنة في الألسنة والأسنة على أمر الدنيا وعودهم إلى أمور جاهليتهم ، لأن الدنيا أقطاع الشيطان كما أن الآخرة خلاصة الرحمن ، فكان ابتداء الفتنة منذ كسر الباب الموصد على السلم وهو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلم يزل الهرج ولا يزال إلى أن تضع الحرب أوزارها .

ثم علل ذلك سبحانه وتعالى بقوله : (إنه لكم عدو مبين) أي بما أخبرناكم به في أمر أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما شواهده ظاهرة ، وما أحسن هذا الختم المضاد لختم التي قبلها فإن تذكر الرأفة منه سبحانه على عظمته والعبودية منا الذي هو معنى الولاية التي روحها الانقياد لكل ما يحبه الولي وتذكر عداوة المضل أعظم منفر منه وداع إلى الله سبحانه وتعالى .

ولما أقام سبحانه وتعالى الأدلة على عظمته التي منها الوحدانية وأزال الشبه ومحا الشكوك وذكر بأنواع اللطف والبر إلى أن ختم الآيتين بما ذكر من ولايته وعداوة المضل عن طريقه سبب عن ذلك قوله) فإن زللتم (مشيرا بأداة الشك إلى أنهم صاروا إلى حالة من وضوح الطريق الواسع الأمكن الأمين المستقيم الأسلم يبعد معها كل البعد أن يزلوا عنه ولذلك قال : (من بعد ما جاءتكم البينات) أي بهذا الكتاب الذي لا

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/١٣٢

ريب فيه .

قال." (١)

" صفحة رقم ٥٥٢

وتهمل لآلهتهم .

وروى البخاري في المناقب ومسلم في صفة النار عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء .

وكذا رواه البخاري أيضا في التفسير وقال : والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى .

وكانوا ييسبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر وقال البرهان السفاقسي في إعرابه : قال أبو عبيد : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، في الآخر .

ذكر ، شقوا أذنها وخلو سبيلها لا تركب ولا تحلب – وقيل غير ذلك ، وقال أبو حيان في النهر : قال ابن عباس : السائبة هي التي تسيب للأصنام أي تعتق ، وكان الرجل يسيب من ماله شيئا فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون من لبنها للسبيل ، والوصيلة قال ابن عباس – إنها الشاة تنتج سبعة أبطن ، فإن كا ن السابع أنثى لم تنتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء ، وإن كان ذكرا ذبحوه وأكلوه جميعا ، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فتترك مع أخيها فلا تذبح ، ومنافعها للرجال دون النساء ، فإذا ماتت اشترك الرجال والنساء فيها .

وقال ابن هشام : والحامي الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، حمى ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك .

وقال السفاقسي : قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم – واختاره أبو عبيدة و الزجاج – : هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن فيقولون : قد حمى ظهره ، فيسيبونه لأصنامهم فلا يحمل عليه شيء ولما كانوا قد حرموا هذه الأشياء ، وكان التحريم والتحليل من خواص الإله ، وكان لا إله إلا الله ، كان حكمهم عليها بالحرمة نسبة لذلك إلى الله سبحانه كذبا ، فقال تعالى بعد أن نفى أن يكون جعل شيئا من ذلك : (ولكن الذين كفروا) أي ستروا ما دل عليه عقلهم من أن الله ما جعل هذا ، لأنهم لا وصول لهم إليه سبحانه وعز شأنه ، فلذلك قال : (يفترون ( ) أي يتعمدون بجعل هذه الأشياء من تحريم وتحليل) على الله) أي

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٣٨٧

الملك الأعلى) الكذب (فيحرمون ما لم يحرمه ويحللون ما لم يحلله) وأكثرهم) أي هؤلاء الذين جعلوا هذه الأشياء) لا يعقلون) أي لا يتجدد لهم عقل ، وهم الذين ماتوا على كفرهم .

ثم لما حرموا هذه الأشياء اضطروا إلى تحليل الميتة فحرموا الطيب وأحلوا الخبيث .

ولما اتخذوه دينا واعتقدوه شرعا ومضى عليه أسلافهم ، دعتهم الحظوظ **والأنفة** من نسبة آبائهم إلى الضلال والشهادة عليهم بالسفه إلى الإصرار عليه." (١)

" صفحة رقم ٢٣٨

العدواة) وألف بين قلوبهم (بعد غاية التباغض ، فصار البعيد منهم قريبا والبغيض حبيبا والعدو صديقا ، وكانوا على قلب واحد ؛ ثم استأنف الإخبار بما دل على تعذر ألفتهم لولا هو فقال : (لو أنفقت) أي وأنت أتقن الخلق لما تصنعه) ما في الأرض جميعا) أي في إرادة ذلك) ما ألفت بين قلوبهم (ثم أكد ذلك بقوله : (ولكن الله) أي وهو الذي له جميع صفات الكمال) ألف بينهم (ثم علل نفوذ فعله وأمره فيه بقوله : (إنه عزيز حكيم (اي لأنه لولا عزته التي تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء وحكمته التي يتقن بها ما أراد بحيث لا يمكن لأحد أن يغير شيئا منه لما تألفوا بعد أن كان قبل كل أحد من فريقهم للآخر أشهى من لذيذ الحياة وصافي العيش لما بينهم من الإحن التي لا تزال تثور فتغلي لها الصدور حتى تفور بقتل الأحباب من الوالدين والأولاد والقهر بأنواع الأذى مع المجاورة المقتضية لدوام المنتشر مع ما لهم من **الحمية والأنفة** الحاملة على الانتقام .

والذي امدك بهذه الألطاف حي لا يموت باق على ما كان عليه من القدرة والقوة ، فهو الكفيل بحراستك ممن يريد خداعك ، فإذا امركم بأمركم بأمر فامثلوه غير مفكرين في عاقبته ، فإنه قد بينه بعزته وأتقنه بحكمته وستعلمون .

الأنفال : (٦٤ - ٦٧) يا أيها النبي. .. . . .

) يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (( )

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٥٢/٢

ولما صرح بأن الله كافيه ، وكانت كفاية الله للعبد اعظم المقاصد ، والتفتت الأنفس إلى أنه هل يكفيه مطلقا أو هو فعل مع المؤمنين أيضا مثل ذلك ، فأتبعها بقوله معبرا بوصف النبوة الذي معناه الرفعه والاطلاع من جهة الله على ما لا يعلمه العباد ، لأنه في سياق الإخبار ببعض المغيبات والتصرف في الملكوت : (يأيها النبي) أي العالي القدر الذي نعلمه بعواقب أموره) حسبك) أي كافيك) الله) أي الذي بيده كل شيء) ومن) أي مع من) اتبعك من المؤمنين (يجوز أن يكون الميعه من ضميره (صلى الله عليه وسلم) فيكون المؤمنون مكفيفين ، وأن يكون من الجلالة فيكونوا كافين ، حتى يكون المعنى : فهو كافيهم أيضا وهم كافوك لأنه معهم ، وساق سبحانه هذا هكذا تطبيقا لقوبهم وجبرا." (١)

" صفحة رقم ١٩٤

أشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره فقال : (ولوالدي (وقد كان اسغفاره لهما قبل أن يعلم أن أباه مات كافرا ، وقد علم من السياق أنه إذا كان وحده أضاف إلى ضميره ، وإذا تقدم ما يحسن جمعه معه جمع إن كان ما بعده مستقلا ، ثم كل من تبعه في الدين من ذريته وغيرهم فقال : (وللمؤمنين) أي العريقين في الوصف) يوم يقوم) أي يظهر ويتحقق على أعلى وجوهه) الحساب (.

ولما ختمم دعاءه بيوم الحساب الموجب ذكره لكل سعادة ونسيانه لكل شقاوة ، ذكر بعض ما يتفق فيه رجوعا إلى ما مضى من أحوال يوم القيامة على أحسن وجه ، فقال - عاطفا على قوله) قل لعبادي (وجل المقصد تهديد أهل الظلم بالإشراك وغيره ، وخاطب الرأس الذي لا يمكن ذلك منه ليكون أوقع في قلب غيره - : (ولا تحسبن الله) أي الملك الأعظم الذي هو أحكم الحاكمين .

ولما كان اعتقاد ترك الحساب يلزم منه نسبة الحاكم إلى العجز أو السفه أو الغفلة ، وكان قد أثبت قدرته وحكمته في هذه السورة وغيرها نزهة عن الغفلة لينتبه المنكرون للبعث من غفلتهم فقال : (غافلا (والغفلة : ذهاب المعنى عن النفس) عما يعمل الظالمون (الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، فكانوا عريقين في الظلم وإن كان مستند ظلمهم شبها علمية يقيمونها ، فكأنه قيل : فما الذي يفعل بهم ؟ فقال : (إنما يؤخرهم) أي يؤخر حسابهم على النقير والقطمير سواء عذبوا في الدنيا أو لا) ليوم تشخص) أي تفتح فتكون بحيث لا تطرف) فيه (منهم) الأبصار) أي حال كونهم) مهطعين) أي مسرعين غاية الإسراع إلى حيث دعوا خوفا وجزعا ، مع الإقبال بالبصر نحو الداعي لا يلفتونه إلى غيره) مقنعي رؤوسهم) أي رافعيها وناصبيها ناظرين في ذل وخشوع إلى جهة واحدة ، وهي جهة الداعي ، لا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، وهذا كناية عن

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣٨/٣

أشد الذل والصغار ، ثم أتبعه ما يؤكده فقال مصرحا بمعنى الشخوص : (لا يرتد إليهم (ولما كانوا في هيئة الأعين في الطرف والسكون قريبا من السواء ، وحد فقال : (طرفهم (بل أعينهم شاخصة دائمة الفتح لا تطرف كالمختصر لما بأصحابها من الهول) وأفئدتهم (جمع فؤاد ، وهو العضو الذي من شأنه أن يحمى بالغضب ؛ قال في القاموس : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب مذكر ، جمعه أفئدة .) هواء) أي عدم فارغة لا شيء فيها من الجرأة والأنفة التي يظهرونها الآن كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

والهواء : الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، والنخب : الجبان ، وكذا الهواء – قاله في القاموس .

فأنذرهم أهوال ذلك اليوم فإنه لا يبقى معهم فيه شيء مما هم فيه من." (١)

" صفحة رقم ١٩٥

الإباء والاستكبار) وأنذر) أي يا محمد) الناس (جميعا ، ما يحل بهم) يوم يأتيهم العذاب (وينكشف عنهم الغطاء بالموت أو البعث .

ولما كانوا عند إتيان العذاب قبل الموت لا ينكسرون بالكلية ، بين أنهم إذ ذاك على غير هذا ، فقال عاطفا على (يأتيهم) : (فيقول الذين ظلموا) أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى الوجوه منهم ومن غيرهم بسبب إتيانه من غير تمهلن وقد زال عنهم ما يفتخرون به من الأنفة والحمية والشماخة والكبر لما رأوا من الأهوال التي لا قبل لهم بها ولا صبر عليها : (ربنا) أي أيها المحسن إلينا بالخلق والرزق والتربية) أخرنا) أي أمهلنا) إلى أجل قريب (فإنك إن تؤخرنا إليه) نجب دعوتك) أي استدراكا لما فرطنا فيه ؛ والإجابة : القطع على موافقة الداعي بالإرادة) ونتبع) أي بغاية الرغبة) الرسل (فيقال لهم : إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، أولم تكونوا تقولون : إن عرى صبركم لا تنحل ، وحد عزائمكم لا يفل ؟) أولم تكونوا) أي كونا أنتم فيه في غاية المكنة) اقسمتم) أي جهلا وسفها أو أشرا وبطرا .

ولما لم يكن وقت إقسامهم مستغرقا للزمان قال : (من قبل (وبين الجواب المقسم عليه بقوله – حاكيا معنى قولهم لا لفظه – ليكون صريحا في المراد من غير احتمال لتعنت لو قيل : ما لنا ؟ : (ما لكم (وأكد النفي فقال : (من زوال (عما أنتم عليه من الكفران وعدم الإذعان للإيمان ، أو من هذه الدار إلى الدار الآخرة ، أو من منازلكم التي أنتم بها ، كناية عن ثبات الأمر وعدم المبالاة بالمخالف كائنا من كان

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٩٤/٤

) و (الحال أنكم) سكنتم) أي في الدنيا) في مساكن الذين ظلموا) أي بوضع الأشياء في غير مواضعها كما فعلتم أنتم) أنفسهم (فأحلوا قومهم مثلكم دار البور) وتبين) أي غاية البيان) لكم (بالخبر والمشاهدة .

ولما كان حال أحدهم في غاية العجب ، بنه بالاستفهام على أنه أهل لأن يسأل عنه فقال : (كيف فعلنا) أي على ما لنا من العظمة) لكم الأمثال (المبينة أن سنة الله جرت - ولن تجد لسنة الله تبديلا - أن الظالمين كما جمعهم اسم الظلم يجمعهم ميسم الهلاك ، فجمعنا لكم بين طريقي الاعتبار : السمع والبصر ، ثم لم تنتفعوا بشيء منهما) و (الحال أنه بان لكم أنهم حين فعلنا بهم ما فعلنا) قد مكروا مكرهم) أي الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم بحيث لم يبق لهم مكر غيره في تأييد الكفر وإبطال الحق ؛ والمكر : الفتل إلى الضرر على وجه الحيلة) و (الحال أنه) عند الله) أي المحيط علما وقدرة) مكرهم (هو وحده به عالم من جميع وجوهه وإن دق ، وعلى." (١)

" صفحة رقم ٣٨١

وعلى آله وسلم : (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسهم ما لم تعمل به أو تكلم) .

)

الإسراء : (٣٧ - ٤٠) ولا تمش في. . . .

) ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ذلك ممآ أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما (( )

ولما كان الكبر والأنفة أعظم موقف عن العلم الداعي إلى كل خير ، ومرض بمرض الجهل الحامل على كل شر ، قال تعالى : (ولا تمش) أي مشيا ما ، وحقق المعنى بقوله تعالى : (في الأرض) أي جنسها) مرحا (وهو شدة الفرح التي يلزمها الخيلاء ، لأن ذلك من رعونات النفس بطيش الهوى وداعي الشهوة وما طبعت عليه من النقائص ، فإنه لا يحسن إلا بعد بلوغ جميع الآمال التي تؤخذ بالجد ولن يكون ذلك لمخلوق ، ولذلك علله بقوله تعالى : (إنك لن تخرق) أي ولو بأدنى الوجوه) الأرض) أي تقطعها سيرا من مكانك إلى طرفها) ولن تبلغ) أي بوجه من الوجوه) الجبال طولا) أي طول الجبال كلها بالسير فيها ، فإذا كنت تعجز في قدرتك أوتادها فبماذا تفخر ؟ وبأي شيء تتكبر حتى تتبخر ؟ وذلك من فعل من

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/١٩٥

بلغ جميع ما أمل ؛ ثم عظم جميع ما مضى من المنهيات وأضداد المأمورات بقوله تعالى : (كل ذلك) أي الأمر البعيد من المكارم) كان) أي كونا غير مزايل .

ولما كانت السيئة قد صارت في حكم الأسماء كالإثم والذنب وزال عنها حكم الصفات ، حملها على المذكر ووصفها به فقال تعالى : (سيئة (وزاد بشاعته بقوله تعالى : (عند ربك) أي المحسن إليك إحسانا لا ينبغي أن يقابل عليه إلا بالشكر) مكروها) أي يعامله معاملة المكروه من النهي عنه والذم لفاعله والعقاب ، والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن إليه حياء منه ، فإن لم يكن فخوفا من قطع إحسانه ، وخضوعا لعز سلطانه ، ويجوز أن يكون المراد بهذا الإفراد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إشارة إلى أنه لا يقدر أحد غيره على امتثال هذا المعنى على ما ينبغي ، لأنه لا." (١)

" صفحة رقم ٤٦٤

ولما بلغ في أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمجالسة المسلمين ، نهاه عن الالتفات إلى الغافلين ، وأكد الإعراض عن الناكبين فقال تعالى : (ولا تطع من أغفلنا (بعظمتنا) قبله) أي جعلناه غافلا ، لأن الفعل فيه لنا لا له) عن ذكرنا (بتلك الزينة .

ولما كان التقدير : فغفل ، لأن عظمتنا لا يغلبها شيء فلا يكون إلا ما نريد ، عطف على فعل المطاوعة قوله تعالى : (واتبع هوه (بالميل إلى ما استدرجناه به منها والأنفة من مجالسة أوليائنا الذين أكرمناهم بالحماية منها لأن ذكر الله مطلع الأنوار ، فإذا أفلت الأنوار تراكمت الظلمة فجاء الهوى فأقبل على الخلق) وكان أمره فرطا) أي متجاوزا للحد مسرفا فيه متقدما على الحق ، فيكون الحق منبوذا به وراء الظهر مفرطا فيه بالتقصير فإن ربك سبحانه سينجي أتباعك على ضعفهم منهم كما أنجى أصحاب الكهف ، ويزيدك بأن يعليهم عليهم ويدفع الجبابرة في أيديهم لأنهم مقبلون على الله معرضون عما سواه ، وغيرهم مقبل على غيره معرض عنه .

الكهف : (٢٩ - ٣١) وقل الحق من. .. . .

) وقل الحق من ربكم فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بمآء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وسآءت مرتفقا إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرآئك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨١/٤

( )

ولما رغبه في أوليائه ، وزهده في أعدائه ، ترضية بقدره بعد أن قص الحق من قصة أهل الكهف للمتعنيتن ، علمه ما يقول لهم على وجه يعمهم ويعم غيرهم ويعم القصة وغيرها فقال تعالى مهددا ومتوعدا – كما نقل عن علي رضي الله عنه وكذا عن غيره : (وقل) أي لهم ولغيرهم : هذا الذي جئتكم به من هذا الوحي العربي العري عن العوج ، الظاهر الإعجاز ، الباهر الحجج) الحق (كائنا) من ربكم (المحسن إلأيكم في أمر أهل الكهف وغيرهم من صبر نفسي مع المؤمنين ، والإعراض عمن سواهم وغير ذلك ، لا ما قلتموه في أمرهم ، ويجوز أن يكون الحق مبتدأ) فمن شاء) أي منكم ومن غيركم) فليؤمن (بهذا الذي قصصناه فيهم وفي غيرهم ، فهو مقبول مرغوب فيه وإن." (١)

" صفحة رقم ٥٤٨

للمقصود بالذات ، وهو الراحة الدائمة بالوراثة لدار الخلد على وجه الإقامة المستمرة ، وصفة الملك الذي لا كدر فيه بوجه وال تخلف عن مراد ، أتبعه ما بعده إشارة إلى ما تنال به التقوى ، وهو الوقوف مع الأمر مراقبة للأمر على

٧٧ ( ) وبالحق أنزلناه ( ) ٧

[الإسراء : ١٠٥] لأنه لما كان العلم واقعا بأن جميع سورة الكهف شارحة لمسألتين من مسائل قريش ، وبعض سورة سبحان شارح للثالثة ، ولطول الفصل صدرت قصة ذي القرنين بقوله) ويسألونك (إعلاما بعطفها على مسألة الروح المصدرة بمثل ذلك ، وجاءت سورة مريم كاشفة – تبكيتا لأهل الكتاب الكاتمين للحق – عن أغرب من تلك القصص زأقدم زمانا وأعظم شأنا من أخبار الأنبياء المذكورين ومن أسرع التبديل بعدهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات ، فثبت بذلك أن هذا كله مرتب لإجابة سؤالهم وأنه كلام الله قطعا ، إذ لو كان من عند النبي (صلى الله عليه وسلم) ما وعدهم الإجابة في الغد إلا وهو قادر عليها ، لما هو معلوم قطعا من رزانة عقله ، وغزارة فطنته ، ومتانة رأيه ، ولو قدر على ذلك ما تركهم يتكلمون في عرضه بما الموت أسهل منه ، لما علم منه من الشهامة **والأنفة** والبعد عما يقارب الشين ، وبان بذلك أن الله سبحانه وعز شأنه ما أجمل أمر الروح ولا أخر الإجابة خمس عشرة ليلة أو أقل أو أكثر من عجز ولا جهل ، وثبت بذلك كله وبما بين من صنعه لأهل الكهف ولذي القرنين وفي ولادة عيسى وإسحاق عليهم الصلاة والسلام تمام قدرته المستلزم لكمال علمه ، وكان الإخبار عن ذلك مطابقا للواقع الذي ثبت بعضه بالنقل

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٤٦٤

الصحيح وبعضه بأدلة العقل القاطعة ، ثبت مضمون قوله تعالى) وبالحق أنزلناه وبالحق نزل (وأن هذا الكتاب قيم لا عوج فيه ، فعطف عليه الجواب عن قول النبي (صلى الله عليه وسلم) لجبرئيل عليه الصلاة والسلام (لقد أبطات علي يا جبرئيل حتى سؤت ظنا) ونحوه مما ذكر في أسباب النزول ، فقال على لسان جبرئيل عليه الصلاة والسلام : (وما نتنزل) أي أنا ولا أحد من الملائكة بإنزال الكتاب ولا غيره) إلا بأمر ربك (المحسن إليك في جميع الأمر في التقديم والتأخير لئلا يقع في بعض الأوهام أنه حق في نفسه ، ولكنه نزل بغير أمره سبحانه ، ووقع الخطاب مقترنا بالوصف المفهم لمزيد الإكرام تطييبا لقلبه (صلى الله عليه وسلم) وإشارة إلى أنه محسن إليه ، ولفظ التنزل مشير إلى الإكرام ، وهو التردد مرة بعد مرة ووقتا غب وقت ، ولا يكون إلا لذلك لأن النزول للعذاب يقتضي به الأمر في مثل لمح البصر ، وكان هذا عقب ذكر القيامة بذكر الجنة كما كان المعطوف عليه عقب

٧٧ ( ) فإذا جاء وعد الآخرة ( ) ٧

[الإسراء : ٧] وكما كان ختام مسائلهم بذكر الآخرة في قوله

٧٧ ( ) فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ( ) ٧

[الكهف : ٩٨] - إلى." [١]

" صفحة رقم ٩

القرآن ودوامه ، وما فيه من الجمع المشار إليه بالتعبير بالقرآن لجميع ما في الكتب السالفة من الأحكام أصولا وفروعا ، والمواعظ والرقائق ، والمعارف والآداب ، وأخبار الأولين والآخرين ، ومصالح الدارين ، وزيادته عليها بما شاء الله ، لأن كثرة الأمة على قدر جلالة الكتاب ، والتعبير عن (لكن) بالإشارة إلى أنه يمكن أن يمون من باب :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأشار بالمصدر الجاري على غير الفعل في قوله) تنزيلا (إلى أنه يتمهل عليهم ترفقا بهم ، ولا ينزل هذا القرآن إلا تدريجا ، إزالة لشبههم ، وشرحا لصدورهم ، وتسكينا لنفوسهم ، ومدا لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم ، كما أنه لم يهلكهم بمعاصيهم اكتفاء ببينة ما في الصحف الأولى ، بلبل أرسل إليهم رسولا لئلا يقولوا : ربنا لولا - كما اقتضته حكمته وتمت به كلمته ، ولما كان رجوعهم إلأى الدين على ما يشاهد منهم من الشدة **والأنفة** والسماحة التي سماهم الله به قوما لدا في غاية البعد ، شرع سبحانه

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤٨/٤

بقدرته إشارة إلى أن القلوب بيده يقلبها كيف شاء كما صورها كيف شاء ، وأن شأنه الرفق والأناة ، فقال ملتفتا من التكلم إلأى الغيبة ليدل على ما افتضته النون من العظمة مقدما ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوين المعتنى بتذكرتهم وهداية من أريد منهم) ممن خلق الأرض (المنخفضة .

ولما قدم الأرض إعلاما بالاعتناء برحمها بالترفق بسكانها ليملأها بالإيمان منهم تحقيقا لمقصود السورة تشريفا للمنزل عليه ، أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقي من بيت العزة إلى ما كنزة في خزانة العرش فقال) السموات العلى (في ستى أيام ، ولو شاء كانتا في لحظة .

ولما كان القادر قد لا يكون ملكا ، قال دالا على ملكه مادحا له بالقطع خبرا لمبتدأ محذوف : (الرحمن (مفتتحا بالوصف المفيض للنعم العامة رلطائع والعاصي ، ثم ذكر خبرا ثانيا دالا على عموم الرحمة فقال : (على العرش (الحاوي لذلك كله) استوى) أي أخذ في تدبير ذلك منفردا ، فخاطب العباد بما يفهمونه من قولهم فلان استوى ، أي جلس معتدلا على سرير الملك ، فانفرد بتدبيره وإن لم يكن هناك سرير ولا كون عليه أصلا ، هذا روح هذه العبارة ، كما أن روح قوله عليه الصلاة والسلام الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما " القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء " أنه سبحانه وتعالى عظيم القدرة على ذلك ، وهو عليه." (١)

" صفحة رقم ٧١

ولما تم ذلك على هذا الوجه ، نبه أنه يتعين على كل ذي لب الإقبال عليه والمسارعة إليه ، فحسن جدا قوله منكرا عليهم منبها على أن علم ذلك لا يحتاج إلى غير العقل المجرد عن الهوى : (أفلا تعقلون (.

ولما كان التقدير : فإن عدلتم بقبوله شرفناكم ، وإن ظلمتم برده عنادا أهلكناكم كما أهلكنا من كان قبلكم ، عطف عليه قوله : (وكم قصمنا) أي بعظمتنا) من قرية (جعلناها كالشيء اليابس الذي كسر فتباينت أجزاؤه ، والإناء الذي فت فانكب ماؤه ؛ وأشار بالقصم الذي هو أفظع الكسر إلى أنها كانت باجتماع الكلمة وشدة الشكيمة كالحجر الرخام في الصلابة والقوة ، و (كم) في هذا السياق يقتضي الكثرة ، ثم علل إهلاكها وانتقالها بقوله : (كانت ظالمة (ثم بين الغنى عنها بقوله : (وأنشأنا) أي بعظمتنا .

ولما كان الدهر لم يخل قط بعد آدم من إنشاء وإفناء ، فكان المراد أن الإنشاء بعد الإهلاك يستغرق الزمان على التعاقب ، بيانا لأن المهلكين ضروا أنفسهم من غير افتقار إليهم ، اسقط الجار فقال : (بعدها قوما) أي الأقوياء ، وحقق أنهم لا قرابة قريبة بينهم بقوله : (ءاخرين (ثم بين حالها عند إحلال البأس بها فقال

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٩/٥

: (فلما أحسوا (اي أدرك أهلها بحواسهم) باسنا (اي بما فيه من العظمة) إذا هم) أي من غير توقف أصلا) منها) أي القرية) يركضون (هاربين عنها مسرعين كمن يركض الخيل - أي يحركها - للعدو ، بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم

٧٧ ( ) لنخرجكم من أرضنا أو لتعدن في ملتنا ( ) ٧

[إبراهيم : ١٣] فنادهم لسان الحال تقريعا تبشيعا لحالهم وتفظيعا : (لا تركضوا (وصور التهكم بهم بأعظم صورة فقال : (وارجعوا (إلى قريتكم) إلى ما (.

ولما كان الاسيف إنما هو على العيش الرافه لا على كونه من معط معين ، بني للمفعول قوله : (أترفتم فيه) أي منها ، ويجوز أن يكون بني للمجهول إشارة إلى غفلتهم عن العلم لمن أترفهم أو إلى أنهم كانوا ينسبون نعمتهم إلى قواهم ، ولو عدوها من الله لشكروه فنفعهم .

ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن ، قال : (ومساكنهم) أي التي كنتم تفتخون بها على الضعفاء من عبادي بما أتقنتم من بنائها ، وأوسعتم من فنائها ، وعليتم من مقاعدها ، وحسنتمك نم مشاهدها ومعاهدها) لعلكم تسألون (في الإيمان بما كنتم تسألون ، فتابوا بما عندكم من **الأنفة** ومزيد **الحمية** والعظمة ، أو تسألون في الحوائج والمهمات ، كما يكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ، ومراتبهم البهية ، فيجيبون سائلهم بما شاؤوا على تؤدة وأحووال مهل تخالف أحوال الراكض العجل

٧٧ ( ) أولم تكنوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ( ) ٧

[إبراهيم : ٤٤] .." (١)

" صفحة رقم ٣٥٧

يبقى عذر لإنسان ، رجاء النزوع عن الطغيان ، والرجوع إلى الإيمان ، لأن من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف ، والرجوع إلى الحق والاعتراف) أولو) أي أتسجنني ولو) جئتك بشيء مبين) أي لرسالتي) قال (طمعا في أن يجد موضعا للتكذيب أو التلبيس : (فأت به (أس تسبب عن قولك هذا أني أقول لك : ائت بذلك الشيء) إن كنت) أي كونا أنت راسخ فيه) من الصادقين (اي فيما ادعيت منالرسالة والبينة ، وهذا إشارة إلى أنه بكلامه المتقدم قد صار عنده في غير عدادهم ، ولزم عليه أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق لأنها تصديق من الله للمدعي ، وعادته سبحانه وتعالى جارية في أنه لا يصدق الكاذب) فألقى) أي فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٧١/٥

ولما كان الكلام مع موسى عليه السلام ، فكان إضماره غير ملبس ، لم يصرح باسمه اكتفاء بضميره فقال : (عصاه) أي التي تقدم في غير سورة أن الله تعالى أراه آياتها) فإذا هي ثعبان (اي حية في غاية الكبر) مبين) أي ظاهر الثعبانية ، لا شك عند رائية فيه ، لا كما يكون عند الأمور السحرية من التخييلات والتشبيهات) ونزع يده) أي التي كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو في حجر فرعون ، وبذل فرعون جهده في علاجها بجميع من قدر عليه من الأطباء فعجز عن إبرائها ، نزعها من جيبه بعد أن أراه إياها على ما يعهده منها ثم أدخلها في جيبه) فإذا هي (بعد النزع) بيضاء للناظرين) أي بياضا تتوفر الدواعي على نظره لخروجه عن العادة بأن له نورا كنور الشمس يكاد يغشي الأبصار) قال (اي فرعون) للملأ حوله (لما وضح له الأمر ، يموه على عقولهم خوفا من إيمانهم : (إن هذا لساحر عليم) أي شديد المعرفة بالسحر ، وخص في هذه السورة إسنادا هذا الكلام إليه لأن السياق كله لتخصيصه الخطاب لما تقدمن ونظرا إلى) فظلت أعناقهم لها خاضعين (لأن خضوعه هو خضوع من دونه ، فدلالته على ذلك أظهر ، ولا ينفي ذلك أن يكون قومه قالوه إظهارا للطواعية - كما مضى في الأعراف .

الشعراء : (٣٥ - ٤٤) يريد أن يخرجكم. .. . .

) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدآئن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما جآء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا مآ أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (((

ولما أوقفهم بما خليهم به ، أحماهم لأنفسهم فقال ملقيا لجلباب **الأنفة** لما قهره." [١]

" صفحة رقم ٥٤

بالقدرة على البعث من خلق الخق والإنجاء من كل كرب ونحو ذلك ، أشار إليه بقوله : (بل) أي ليسوا بمنكرين لقدرته سبحانه ، بل) هم بلقاء ربهم (المحسن بالإيجاد والإبقاء مسخرا لهم كل ما ينفعهم في الآخرة للحساب أحياء سويين كما كانوا في الدنيا ، والإشارة بهذه الصفة إلى أنه لا يحسن بالمحسن أن ينغص إحسانه بترك القصاص من الظالم الكائن في القيامة) كافرون) أي منكرون للبعث عنادا ، ساترون لما في طباعهم من أدلته ، لما غلب عليهم من الهوى القائد لهم إلى أفعال منعهم من الرجوع عنها الكبر

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٥٧/٥

عن قبول الحق والأنفة من الإقرار بما يلزم منه نقص العقل .

السجدة : (١١ – ١٣) قل يتوفاكم ملك. .. . .

) قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنآ أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (( )

ولما ذكر استبعادهم ، وأتبعه عنادهم ، وكان إنكارهم إنما هو بسبب اختلاط الأجزاء بالتراب بعد إنقلابها ترابا ، فكان عندهم من المحال تمييزها من بقية التراب .

دل على أن ذلك عليه هين بأن نبهمم على ما هو مقرون به مما هو مثل ذلك بل أدق .

فقال مستأنفا : (قل) أي جوابا لهم عن شبهتهم : (يتوافكم) أي يقبض أوراحكم كاملة من أجسادكم بعد أن كانت مختلطة بجميع أجزاء البلدان ، لا تميز لأحدهما عن الآخر بوجه تعرفونه بنوع حيلة) ملك الموت (ثم أشار إلى أن فعله بقدرته ، وأن ذلك عليه في غاية السهولة ، ببناء الفعل لما لم يسم فاعله فقال : (الذي وكل بكم) أي وكله الخالق لكم بذلك ، وهو عبد من عبيده ، ففعل ما أمر به ، فإذا البدن ملقى لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملا لا نقص في شيء منه يدعي الخلل بسببه ، فإذا كان هذا فعل عبد من عبيده صرفه في ذلك فقام به على ما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب لأنه ربما يستدل بعض الحذاق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه ، فكيف يستبعد شيء من الأشياء على رب العالمين ، ومدير الخلائق أجمعين ؟ فما قان هذا البرهان القطعي الظاهر مع دقته لكل أحد على قدرته التامة على تمييز ترابهم من تراب الأرض ، وتمييز بعض تربهم من بعض ، وتمييز تراب كل جزء من اجزائهم جل أو دق عن بعض .

علم أن التقدير : ثم يعيدكم خلقا جديدا كما كنتم أول مرة ، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره." (١)

" صفحة رقم ٢٥٨

استهزاءهم مع علمهم بأن الله تعالى أجرى سنته أن من استهزأ بالرسل وخالف قولهم فلم يرجع إليه أهلكه ، أطرد ذلك من سنته ولم يختلف في أمة من الأمم كما وقع لقوم نوح وهود ومن بعدهم ، لم يتخلف في واحدة منهم ، وكلهم تعرف العرب أخبارهم ، وينظرون آثارهم ، وكذا ير هؤلاء كثرة من اهلكنا ممن قبلهم

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤/٦

لمخالفتهم للرسل ، أفلا يخشون مثل ذلك في مخالفتهم لرسولهم ؟ وذلك موافق لقراءة الكسر التي نقلها البرهان السفاقسي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره عن الحسن ، وقالوا : إنها استئنافية ، فهي على تقدير سؤال من كأنه قال : لم أهلكهم ؟ وهذا كما إذا شاع أن الوادي الفلاني ما سلكه أحد إلا أصيب ، يكون ذلك مانعا عن سلوكه ، وإن أراد ذلك أحد صح أن يقال له : ألم تر أنه ما سلكه أحد إلا هلك ، فيكون ذلك زاجرا له ورادا عن التمادي فيه ، لكون العلة في الهلاك سلوكه فقط ، وذلك أكف له من أن يقال له : ألم تر أن الناس يموتون وكثرة من مات منهم ولم يرجع أحد منهم ، غير معلل ذلك بشيء من سلوك الوادي ولا غيره ، فإن هذا أمر معلوم له ، غير مجدد فائدة ، وزيادة عدم الرجوع إلى الدنيا لا دخل لها في العلية أيضا لأن ذلك معلوم عند المخاطبين بل هم قائلون بأعظم منه من أنه لا حياة بعد الموت لا إلى الدنيا ولا إلى غيرها ، وعلى تقدير التسليم فربما كان ذكر الرجوع للأموات أولى بأن يكون تهديدا ، فإن كل إنسان منهم يرجع حينئذ إلى ما في يد غيره مما كان مات عليه ويصير المتبوع بذلك تابعا أو يقع الحرب وتحصل الفتن ، فأفاد ذلك أنه لا يصلح التهديد بعدم الرجوع – والله الموفق للصواب .

ولما كان كثير من أهل الجهل وذوي **الحمية والأنفة** لا يبالون بالهلاك في متابعة الهوى اعتمادا على أن موتة واحدة في لحظة يسيرة أهون من حمل النفس على ما لا تريد ، فيكون لهم في كل حين موتات ، أخبر تعالى أن ا لأمر غير منقض بالهلاك الدنيوي ، بل هناك من الخزي والذل والهوان والعقوبة والإيلام ما لا ينقضي أبدا فقال : (وإن كل) أي وإنهم كلهم ، لا يشذ منهم أحد ، وزاد في التأكيد لمزيد تكذيبهم بقوله : (لما (ومن شدد) لما (فالمعنى عنده (وما كل منهم إلا) وأشار إلى أنهم يأتون صاغرين راغمين في بحال التخلف عن الانتصار عليه فقال : (جميع (وأشار إلى غرابة الهيئة التي يجتمعون عليها بقوله : (لدنيا (وزاد في العظمة بإبرازه في مظهرها ، وعبر باسم الفاعل المأخوذ من المبني للمفعول جامعا نظرا إلى معنى) كل (لأنه أدل على الجمع في آن واحد وهو أدل على العظمة : (محضرون) أي في يوم القيامة." (١)

" صفحة رقم ٢٨٤

ولما كان للنصر سببان : ظاهري وهو الاجتماع ، وأصلي باطني وهو الإله المجتمع عليه ، بين غلطهم بتضييع الأمل ، فقال مستأنفا في جواب من كأنه قال : فهل بلغوا ما أرادوا ؟ : (لا يستطيعون) أي الألهة المتخذة) نصرهم) أي العابدين) وهم) أي العابدون) لهم) أي الآلهة) جند (ولما كان الجند مشتركا

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥٨/٦

بين العسكر والأعوان والمدينة ، عين المراد بضمير الجمع ولأنه أدل على عجزهم وحقارتهم فقال : (محضرون) أي يفعلون في الاجتماع إليها والمحاماة عنها فعل من يجمعه كرها إيالة الملك وسياسة العظمة ، فصارت العبرة بهم خاصة في حيازة السبب الظاهري مع تعبدهم للعاجز وذلهم للضعيف الدون مع ما يدعون من الشهامة **والأنفة** والضخامة ، فلو جمعوا أنفسهم على الله لكان لهم ذلك ، وحازوا معه السبب الأعظم .

ولما بين ما بين من قدرته الباهرة ، وعظمته الظاهرة ، وهي أمرهم في الدنيا والآخرة ، وكان قد تقدم ما لوم إلى أنهم نسبوه (صلى الله عليه وسلم) إلى الشعر ، وصرح باستهزائهم بالوعد مع ما قبل ذلك من تكذيبهم وإجابتهم للمؤمنين من تفسفيههم وتضليلهم ، سبب عن ذلك بعد ما نفى عنهم النصرة قوله تسلية له (صلى الله عليه وسلم) : (فلا يحزنك (قراءة الجماعة بفتح الياءئ وضم الزاي ، ومعناه : يجعل فيك ، وقراءة نافع بضم الياء وكسر الزاي تدل على أن المنهي عنه إنما هو كثرة الحزن والاستغراق فيه ، لا ما يعرض من طبع البشر من أصله ، فإن معنى أحزن فلانا كذا ، أي جعله حزينا) قولهم) أي الذي قدمناه تلويحا وتصريحا وغير ذلك فيك وفينا ولما كان علم القادر بما يعمل عدوه سببا لأخذه ، علل ذلك بقوله مهددا بمظهر العظمة : (إنا نعلم ما) أي كل ما) يسرون) أي يجددون إسراره) وما يعلون) أي فنحن نجعل ما يسببونه لأذاك سببا لأذاهم ونفعك إلى أن يصيروا في قبضتك وتحت قهرك وقدرتك .

يس : (٧٧ - ٧٨) أو لم ير. .. . .

) أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (( )

ولما أثبت سبحانه بهذا الدليل قدرته على ما هدد به أولا من التحويل من حال إلى أخرى ، فثبتت بذلك قدرته على البعث ، وختم بإحاطة العلم الملزوم لتمام القدرة ، أتبع ذلك دليلا أبين من الأول فقال عاطفا على) ألم يروا (: (أولم ير) أي يعلم علما هو في ظهوره كالمحسوس بالبصر .

ولما كان هذا المثل الذب قاله هذا الكافر لا يرضاه حمار لو نطق ، أشار إلى غباوته بالتعبير بالإنسان الذي هو - وإن كان أفطن المخلوقات لما ركب فيه سبحانه من." (١)

" صفحة رقم ٣٤٦

بكتابكم إن كنتم صادقين) ٧٣

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٤/٦

( ) ٧١

ولما كان الذي سبق ادعاؤه أمرين أحدهما أن هؤلاء المنذرين يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال ، والثاني أن أكثر الأولين ضلوا ، وسقيت دليلا شهوديا على الثاني هذه القصص الست التي ما اهتدى من أهلها أمة بكمالها إلا قوم يونس عليه السلام ، كان ذلك سببا للأمر بإقامة الدليل على ضلال هؤلاء تبعا لآبائهم بأمر ليس في بيان الضلال أوضح منه ، فقال متهكما بهم مخصصا الأمر به (صلى الله عليه وسلم) إشارة إلى عظم هذه النتيجة وأنه لا يفهمها حق فهمها سواه (صلى الله عليه وسلم) : (فاستفهم) أي فاطلب من هؤلاء الذين يعرضون عن دعوتك إلى أباطيلهم أن يجيبوك فتوة منهم وكرما : بأي دليل وبأي حجة حكموا بما يقولونه تبعا لآبائهم في الملائكة الذين تقدم في فاطر أنهم رسل الله ، وفي يس أنهم في غاية الشدة بحيث إن عذاب الأمة الكثيرة يكفي فيه واحد منهم ، وبحيث إن صيحة واحده من أحدهم يميت الأحياء كلهم ، وصيحة أخرى يحي الأموات كلهم ، هذا إلى ما أفادته هذه السورة لهم من الصف والزجر والتلاوة حين ابتدأت بالإقسام بهم لأن لمقصودها نظرا عظيما إلى أحوالهم في تجرديهم وتقديسهم ، ويلزم من هذا الاستفتاء تنزيههم وتنزيه الي خلقهم وذلك مقصود السورة ، ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها فإن الرسول دال على قدر من أرسله فقال : (ألربك) أي خاصة وهو الملك الأعلى الذي رباك وأحسن إليك بهدايتك والهداية بك وغير ذلك من أمرك حتى كنا أكمل الخلق وأعلاهم في كل أمر يكون به الكمال والقرب من الله فاصطفاك لرسالته ، ففي إفراد الضمير إشارة إلى أنه لا يختار إلا الأكمل الأشرف الأفضل .

ولما كان المراد تبكيتهم بكونوا جعلوا جعلوا الأخس لله ، وكانت الإناث أضعف من الذكور ، ولكنها قد تطلق الأنوثة على غير الحيوان ، وكانت الإناث في بعض الأجناس كالأسحار أشرف ، عدل عن التعبير بالإناث وعبر بما ينص على المراد فقال : (البنات) أي دون البنين ، وهم - مع أنهم مربون مقهورون - يأنفون منهم غاية **الأنفة**) ولهم) أي دونه) البنون (مع أن الرب الذي خصوه بأدنى القبيلين تارة يخلق الذكر من تراب ويربيه أحسن تربية ، وأخرى من غيره أو يخرجه من بطن حوت أو غمرات نار أو غير ذلك ، فبأي وسيلة ادعوا له ولدا والوالد لا يكون إلا بالتدريج في أطوار الخلق من النقطة إلى ما فوقها ، ولا يرضى بذلك إلا عاجز فكيف باعاء أدنى الصنفين من الولد ، سبحان ربك رب العزة .

ولما كان دعواهم لأنوثة الملائكة متضمنة لادعاء العلم باختصاصه عند دعوى الولدية بأدنى القبيلتين أو ادعاء العلم بأنه خلقهم إناثا بمشاهدة منهم أو كتاب منه إليهم ، ." (١)

" صفحة رقم ٤٢٣

ظلمة البطن والرحم والمشيمة – نقل ابن عباس رضي الله عنهما وعزاه ابن أبي الدنيا في كتاب القناعة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام .

ولما ثبت له سبحانه كمال العظمة والقهر ، قال مستأنفا ما أنتجه الكلام السابق معظما باداة البعد رميم الجمع : (ذلكم) أي العالي المراتب شهادتكم أيها الخلق كلكم ، بعضكم بلسان قاله ، وبعضكم بناطق حاله ، الذي جميع ما ذكر من أول السورة إلى هنا أفعاله ، ولما أشار إلى عظمته بأداة البعد ، أخبر عن اسم الإشارة فقال : (الله) أي الجامع لجميع صفات الكمال ، ونبه على جهلهم مما يعلمون من ربوبيته لعملهم بالشرك عمل جاهل بذلك فقال واصفا : (ربكم) أي المالك والمربي لكم بالخلق والرزق .

ولما كان المربي قد لا يكون ملكا قال نتيجة إلها ، قال مثبتا له الإلهية على ما يقتضيه من الوحدانية وهو بمنزلة نتيجة النتيجة : (لا إله إلا الله (.

ولما تكفل هذا السياق بوجوب الإخلاص في الإقبال عليه والإعراض عما سواه ، لأن الكل تحت قهره ، وشمول نهيه وأمره ، سبب عنه قوله : (فأنى) أي كيف ومن أي وجه) تصرفون) أي قهرا عن الإخلاص له إلى الإشراك به بصارف ما وإن كان عظيما ، ونبه بالبناء للمفعول مع هذا على أنهم مقهورون في فعل ما هم عليه لأنهم تابعون للهلاك المحض ، تاركون للأدلة التي لا خفاء في شيء منها ، ومعلوم أنه لا يترك أحد الدليل في الفيافي العطشة الذي إن تركه هلك إلا قرها ؛ وأن الناس هيئوا لطريق الهدى بما خلقوا عليه من أحسن تقويم بسلامة الفطر واستقامة العقول ، وأشار إلى هذا لأنهم يأنفون من النسبة إلى القهر وأن يفعلوا شيئا بغير اختيار لما عندهم من **الأنفة** وعلو الهمم والعظمة .

الزمر : (٧ – ٩) إن تكفروا فإن. .. . .

) إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقآئما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٤٦/٦

يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب (( )

ولما ظهرت الأدلة وبهرت الحجج ، بين ما على من غطاها بالإصرار ، وما لمن تاب ورجع التذكار ، فقال مستأنفا لما هو نتيجة ما مضى ، معرفا لهم نعمته عليهم بأنه ما." (١)

" صفحة رقم ٥٢٢

عنه بصيغة الماضي تأكيدا لتحقيق وقوعه ردا قد يتوهمه الضعيف من أن المستكبر له قوة المدافعة وإباء الأنفة فقال : (قال الذين استكبروا) أي من شدة ما هم فيه .

ولما كان الأتباع قد ظنوا أن المتبوعين يغنون عنهم ، أكدوا إخبارهم لهم بما ينافي ذلك فقالوا : (إنا كل) أي كلنا كائنون) فيها) أي النار ، كل يناله من العذاب بقدر ما يستحقه سواء إن جادلتمونا أو تركتم جدالنا ولا يظلم بك أحدا ، فلة قدرنا على شيء لأغنينا عن أنفسنا ، ولو سألنا أو ننقص لما أجبنا .

فإن هذه دار العدل فاتركونا وما نحن فيه .

ولما كان حكم الله تعالى مانعا مما كان يفعل في الدنيا من فك المجرم وإيثاق غيره به ، وكان سؤالهم في الإغناء سؤال من يجوز أن يكون حكمه على ما عليه الأحكام من حكام أهل الدنيا ، عللوا جوابهم مؤكدين فقالوا : (إن الله) أي المحيط بأوصاف الكمال) قد حكم بين العباد) أي بالعدل ، فأدخل أهل الجنة دارهم ، وأهل النار نارهم ، فلا يغني أحد عن أحد شيئا .

ولما دل على أنه لا يغني أحد عن أحد شيئا ، أخبر انهم لما رأوا بعدهم من الله وأنهم ليسوا بأهل لدعائه سبحانه ، علقوا آمالهم بتوسط الملائكة ، فأخبر عن ذلك منهم بقوله : (وقال الذين في النار) أي جميعا الأتباع والمتبوعون) لخزنة (ووضع موضع الضمير قوله : (جهنم (للدلالة على أن سؤالهم لأهل الطبقة التي من شأنها وشأن خزنتها تجهم داخليها ليدل على أنهم لسوء ما هم فيه لا يعقلون ، فهم لا يضعون شيئا في محله كما كانوا في الدنيا : (ادعوا ربكم) أي المحسن إليكم بأنكم لا تجدون شيئا في محله كما كانوا في الدنيا : (ادعوا ربكم) أي المحسن إليكم بأنكم لا تجدون ألما من النار) يخفف عنه يوما) أي مقداره) من العذاب) أي بعضه .

ولما سألوهم ، استأنفوا جوابهم إشارة إلى ما حصل من تشوف السامع إليه ، معرفين لهم بسياقه بالسبب ، الجاعل لهم في محل الاطراح والسفول عن التأهل أن يسمع لهم كلام ، فقال تعالى مخبرا عنهم : (قالوا) أي الخزنة .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٢٣/٦

ولما كان التقدير : ألم تكن لكم عقول تهديكم إلى الإعتقاد الحق ، عطف عليه قوله إلزامنا لهم الحجة وتوبيخا وتنديما بتفويت أوقات الدعاء المجاب : (أولم (ولما كان المقام خطرا ، والمرام وعرا عسرا ، فكانوا محتاجين إلى الإيجاز ، قالوا مشيرين بذكر فعل الكون مع اقتضاء الحال للإيجاز إلى عراقة الرسل عليهم السلام في النصح المنجي من المخاوف بالمعجزات والرفق والتلطف وطول الأناة والحلم والصبر مع شرف النسب وطهارة الشيم وحسن الأخلاق وبداعة الهيئات والمناظر ولطافة العشرة وجلالة المناصب : (تك (بإسقاط النون مع التصوير للحال بالمضارع) تأتيكم (على سبيل التجدد شئيا في أثر شيء." (١)

" صفحة رقم ٥٨٨

الفرض بقسر قاسر ما) إلى ربي) أي الذي أحسن إلي بهذا الخير الذي أنا فيه) إن لي عنده (وأكده على من يعظه بأنه يعذب إن لم يحسن قبله وقالبه) للحسنى) أي الحالة والرتبة البالغة في الحسن حدا لا يوصف لأني أهل لذلك ، والدليل على تأهيلي له ما أنا فيه الآن من الخير ، ونسي ما يشاهده غالبا من أن كثيرا من النعم يكون للاستدارج ، ومن أن كثيرا من الناس يكون في غاية النعمة فيصبح وقد أحاطت به كل نقمه ، فهو بين أمنيتين في الدنيا بقوله هذا ، وفي الاخرة يقول : يا ليتي كنت ترابا ، فلا يزال في المحال - نعوذ بالله من سوء الحال .

ولما كان هذا هو الكفر الصراح لنسيان نعمة المنعم وجعله الإنعام من الواجب اللازم وشكه فيما أخبر سبحانه على ألسنة جميع الرسل أنه محط حكمته ، سبب عنه سبحانه قوله ، مؤكدا في نظير تأكيد هذا الناسي : (فلننبئن) أي تنبئة عظيمة بخير الوصف فيها مستقصاة على سبيل العدل ، وجعل الضمير الوصف تصريحا بالعموم وبيانا للعلة الموجبة فقال : (الذين كفروا) أي ستروا ما دلت عليه العقول ، وأوجبته صرائح النقول ، من إقامة الساعة لأظهار جلاله وجماله ، ومن أنه تعالى يحل بالإنسان السراء والضراء ليخافه ويرجوه ويشكره ويدعو) بما عملوا (لا ندع منه قليلا ولا كثيرا صغيرا ولا كبيرا ، فليرون عيانا ضد ما ظنوه في الدنيا من أن لهم الحسنى

٧٧ ( ) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ( ) ٧

[الفرقان : ٢٣]) من عذاب غليظ (لا يدع جهة من أجسامهم ولا قواهم إلا أحاط بها ولا تقوى على دفعة قواهم .

ولما بين جهل الإنسان في حالات مخصوصة باليأس عند مس الشر ، والأمن عن ذوق النعمة بعد الضر ،

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٢٢/٦

بين حاله عند النعمة مطلقا ودعاءه عند الشر وإن كان قانطا تكريرا لتقلب أحواله وتناقص أقواله وأفعاله تصريفا لذلك على وجوه شتى ليكون داعيا له إلى عدم **الأنفة** من الرجوع عن الكفر إلى الإيمان ، ومسقطا عنه خوف الشبه بذلك والنسبة إلى الخفة وعدم الثبات ، فقال معبرا بأداة التحقيق دلالة على غلبة نعمه تعالى في الدنيا لنقمه ، ودلالة على حالة الإنسان عند مس النعمة من جهة يتوقعها بعد بيان حاله عند مسها بغتة من غير توقع تأكيدا لبيان جهله حيث جعل ظرف النعمة ظرفا للإعراض من غير خوف من نزعها على قرب عهده بالضر : (وإذا أنعمنا (مما لنا من العظمة يعبر في هذا الجانب بما عبر به في الذي بعده إيذانا بأن المعرض مسيء لمجرد الإعراض لا المبالغة فيه فقال : (أعرض) أي انحرف عن وسواء القصد إلينا عنا في." (١)

" صفحة رقم ٢١١

بكل شيء عليما لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) ٧٣

( ) ٧١

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب ، بين وقته ، وفيه بيان لعلته ، فقال : (إذ) أي حين) جعل الذين كفروا) أي ستروا ما تراءى من الحق في مرأى عقولهم) في قلوبهم) أي قلوب أنفسهم) **الحمية**) أي المنع الشديد **والأنفة** والإباء الذي هو في شدة حره ونفوذه في أشد الأجسام كالسم والنار ، ولما كان مثل هذه **الحمية** قد تكون موجبة للرحمة بأن تكون لله ، قال مبينا معظما لجرمها ،) حمية الجاهلية (التي مدارها مطلق المنع أي سواء كان بحق أو بباطل ، فتمنع من الإذعان للحق ، ومبناها التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع ، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء ، ومن الإقرار بالبسملة ، فأنتجت لهم هذه **الحمية** أن تكبروا عن كلمة التقوى وطاشوا وخفوا إلى الشرك الذي هو أبطل الباطل .

ولما كانت هذه **الحمية** مع الكثرة موجبة ولا بد ذل من تصوب إليه ولا سيما إن كان قليلا ، بين دلالة على أن الأمر تابع لمشيئته لا لجاري العادة أنه تأثر عنها ضد ما تقتضيه عادة ، فقال مسببا عن هذه **الحمية** : (فأنزل الله) أي الذي لا يغلبة شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم) سكينته) أي الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عن الله والروح والموجب لسكون القلب المؤثر للإقدام على العدو

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٨٨/٦

والنصر عليه ، إنزالا كائنا) على رسوله ((صلى الله عليه وسلم) الذي عظمته من عظمته ، ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم ما يرضيه) وعلى المؤمنين (رضي الله تعالى عنهم العريقين في الإيمان لأنهم أتباع رسول (صلى الله عليه وسلم) وأنصار دينه فألزمهم قبول أمره الذي فهمه عن الله وخفي عن أكثرهم حتى فهمتموه (صلى الله عليه وسلم) عند نزول سورة محمد وحماهم عن همزات الشياطين ، ولم يدخلهم ما دخل الكفار من **الحمية** ليقاتلوا غضبا لأنفسهم فيتعدوا حدود الشرع) وألزمهم) أي المؤمنين إلزام إكرام أو تشريف ، لا إلزام إهانة وتعنيف) كلمة التقوى (وهي كل قول أو فعل ناشيء عن التقوى وإعلاء كلمة الإخلاص المتقدم في سورة القتال وهي لا إله إلا الله التي هي أحق الحق ، يقتضي التحقق بمدلولها من أنه لا فاعل إلا الله الثبات على كل ما أخبر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من التوحيد والبسملة والرسالة مع تغيير الكتابة بكل منهما لأجل الكفار في ذلك المقام الدحض الذي لا يكاد يثبت فيه قدم ، وأضافها إلى التقوى التي هي اتخذا ساتر يقي حر النار فجعلها وصفا لازما لهم غير منفك عنهم." (١)

" صفحة رقم ٤٤٨

ولما كان للمسابقة والمنافسة أمر عظيم في تحريك الهمم لأهل **الأنفة** وأولي المعالي قال : (ولا يكونوا كالذين (ولما كان العلم بمجرده كافيا في إعلاء الهمة فكيف إذا كان من عند الله فكيف إذا كان بكتاب ، إشارة إلى ذلك بالبناء للمجهول فقال : (أوتوا الكتاب) أي لو كان الإتيان من عند غير الله لكان جديرا بالهداية فكيف وهو من عنده .

ولما كان إنزال الكتب لم يكن إلا على بني إسرائيل فلم يكن مستغرقا للزمان الماضي أدخل الجار فقال : (من قبل) أي قبل ما نزل إليكم وهم اليهود والنصارى .

ولما كانوا في كل قليل يعبرون قال عاطفا على) أوتوا الكتاب (.

) فطال عليهم الأمد) أي الزمان الذي ضربناه لشرفهم ومددناه لعلوهم من أول إيتائهم الكتاب الذي من شأنه ترقيق القلوب ، والأمد الأجل ، وكل منهما يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، وكذا الغاية بقول النحاة : (من) لابتداء الغاية و (إلى) لانتهائها ، والمراد جميع المدة) فقسمت) أي بسبب الطول) قلوبهم) أي صلبت واعوجت حتى كانت بحيث لا تنفعل للطاعات والخير فكانوا كل قليل في تعنت شديد على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام يسألونهم المقترحات ، وأما بعد ايتائهم فأبعدوا في القساوة ، فمالوا إلى

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١١/٧

دار الكدر بكلياتهم وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات ، قال القشيري : وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة وإن الشهة والصفوة لا تجتمعان .
ولما كان التقدير : فبعضهم ثبت على تزلزل ، عطف عليه قوله : (وكثير منهم (أخرجته قساوته عن الدين أصلا ورأسا فهم) فاسقون) أي عريقون في وصف الإقدام على الخروج من دائرة الحق التي عداها لهم الكتاب ، وعن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلا أربع سنين) رواه الطبراني في الكبير ، قال الهيثمي : وفيه موسى بن يعقوب الربعي وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله رجال الصحيح .
انتهى .
ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث ، وكان العرب يزيدون على أهل الكتاب من موجبات القسوة به ، وكان عمل العامل بما يدل على القسوة عمل من ينكره ، قال مهددا به مقررا لما ابتدأ به السورة من أمر الغحياء مشيرا إلى القدر على إحياء القلوب ممثلا لإزالة القسمة عنها بصقل الذكر والتلاوة ترغيبا في إدامة ذلك : (اعلموا (."[1]
" صفحة رقم ٢٧
زواله فيكون مستغرقا لزمان العمر كما أشار إليه نزع الخافض في قوله تعالى : (بعد ذلك) أي الحادث من الإشارة بالضرار بالإخراج أو تطويل العدة أو غير ذلك) أمرا) أي من الأمور المهمة كالرغبة المفرطة في الزوجة فلا يتأتى ذلك إما بأن كان الضرار بالطلاق الثلاثة أو بأن كانت من ذوي **الأنفة** فأثرت فيها الإساءة وفيمن ينتصر لها فمنعت نفسها منه .
وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم قوله)) يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ( ) [المنافقين : ٩] وقوله في التغابن : ( ) إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ( ) [التغابن : ١٤] وقوله تعالى)) إنما أموالكم وأولادكم فتنة ( ) [التغابن : ١٥] والمؤمن قد يعرض له ما يضطر إلى فراق نم نبه على فتنته وعظيم محنته ، وردت هذه السورة منبه على كيفية الحكم في هذا الافتراق ، وموضحة أحكام الطلاق ، وأن هذه العداوة وإن استحكمت ونار هذه الفتنة ، إن اضطرمت لا توجب التبرؤ بالجملة وقطع المعروف)) لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ( ) [الطلاق : ١] ووصى سبحانه بالإحسان المجمل في قوله : ( ) أو تسريح بإحسان ( ) [البقرة : ٢٢٩] وبين تفصيل

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٤٨/٧

ذلك وما يتعلق به ، فهذا الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها تحذيرا من إيقاع الطلاق في الحيض الموجب تطويل العدة وتكثير المدة ، وأكد هذا سبحانه بقوله)) واتقوا الله ربكم ( ) [الطلاق : ١] ثم نبه سبحانه على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى انقضاء العدة فقال : ( ) لا تخرجوهن من بيوتهن ( ) [الطلاق : ١] إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله .

ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما س ى الرفض والترك بخلاف المرأة ، لم يحتج إلى ما احتيج إليه في حقهن فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع – والله سبحانه وتعالى أعلم انتهى .

الطلاق : (٢ – ٣) فإذا بلغن أجلهن. .. . .

) فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا (( )

ولما حد سبحانه ما يفعل في العدة ، أتبعه ما يفعل عند انقضائها فسبب عما أمره بها فيها معبرا بأداة التحقق لأن الخطاب على تقدير الحياة ، معلما أن له الرجعة إلى آخر." (١)

" صفحة رقم ١٠٣

على الحقوق والتكبر على العباد قال : (أن) أي لأجل أن) كان (هذا الموصوف) ذا مال) أي مذكور بالكثرة) وبنين (أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لأجلهما ، فكان بحيث يجب عليه شكرنا بسببهما) إذا تتلى) أي تذكر على سبيل المتابعة) عليه (ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له) آياتنا) أي العلامات الدالة دلالة في غاية الظهور على الملك الأعلى وعلى ما له من صفات العظمة) قال) أي فاجأ هذا القول من غير تأمل ولا توقف عوضا عن الشكر ، ف (إن) مع جاره متعلق بما دل عليه الكلام نحو كذب لأجل كونه متمكنا ، ولا يتعلق بقال لأنه جزاء الشرط ، ويجوز أن يتعلق بلا تطع أي لا توجد طاعته لأجل إن كان كذا ، وقرىء بالكسر على أنها شرطية ، فيكون النهي عن طاعته لعلة الغنى مفهما للنهي عن طاعته عند الوصف بغيره نم باب الأولى كالتعليل بإملاق في الوأد : (أساطير (جمع سطور جمع سطر) الأ ولين) أي أشياء سطروها ودونها ، وفرغوا فحمله دنيء طبعه على تكبره بالمال فورطه في التكذيب بأعظم ما

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٧/٨

يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من يسمعه ، فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر ، فكان هذا دليلا على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالإسناد إلى ما هو عند العاقل أوهم وأوهى من بيت العنكبوت ، والاستناد إليه وحده كاف في الاتصاف بالرسوخ في الدناءة ، ولا يعمل في (أن قال) بل ما دل عليه لأن ما في حيز الشرط لا يعمل فيما قبله .

ولما كان هذا المكذور قد أغرق في الشر فتوقع السامع جزاءه ، قال معلما أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة : (سنسمه) أي نجعل ما يلحق به من العار ف يالدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره ، تقول العرب : وسمه ميسم سوء .

ولما كان الوسم منكئا ، وكان جعله في موضع لا يستر أنكأ ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان ، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ، ولذلك جعلوه مكان العز **والحمية** واشتقوا منه **الأنفة** قال : (على الخرطوم) أي الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين وسما مستعليا عليه بوضح جدا ليكون هتكة بين الناس وفضيحة لقومه وذلا وعارا ، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع والذنب القبيح من الكفر وما معه ، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا على أنه قد حقق في الدنيا هذا الخطم حسا بأنه ضرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه – قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والتعبير عن الأنف بهذا للاستهانة والاستخفاف .

ولما ذكر في أول الملك أنه خلق الموت والحياة للابتلاء في الأعمال ، وختم هنا." (١)

" صفحة رقم ٤٦١

مرارا ، وكان مجازا أيضا بإحلال جميع معانيه ، وكل ذلك على ما لا يدخل تحت الوصف لا يعبر لكم عنه بأثر من أنه شق بعظمتنا ، فالعلم الذي شق به معرفة الله والدار الآخرة والدين والدنيا ، والحمة التي درت فيه هي وضع الشيء في محله ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وقرأ أبو جعفر المنصور بفتح جاء (نشرح) وخرجها ابن عطية على التأكيد بالنون الخفيفة ثم أبدل ألف من النون ، ثم حذف النون تخفيفا ، وقال أبو حيان بأن اللحياني حكى في نوادره عن بعض العرب النصب بلم والجزم بلن ، وسره هنا أن الفتح في اللفظ مناسب غاية المناسب للشرح ، ووجه قراءة الجمهور أنه لما دل على الفتح بالشرح دل بالجزم على أنه مع ذلك رابط لما أودعه من الحكم ضابط له ، هاد بما فيه من رزانة العلم ، ووقار التقى والحمل ، قال ابن برجان : ففرق ما بين النبي والولي في باطنا ، والكافر ضيق ذلك منه وأبقى بظلمته وحظوظ

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠٣/٨

ا‌ل‌شيطان منه فهو لا يستطيع قبول الهداية ولا الصعود في معارج العبرة إلى على مقدار ما يستطيع الصعود في السماء

٧٧ ( )كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ( ) ٧

[الأنعام : ١٢٥] .

ولما كانت سعة الصدر بالعلم والحكمة هي الجمال باجتماع المحاسن ، وكان ذلك مع حمل ما يعني من أعظم النكد ، وكان الجمال بجمع المحاسن لا يكمل إلا إذا جمع إلى الجمال الجلال بانتفاء الرذائل ، وكان الاستفهام الإنكاري إذا اجتمع مع النفي صار إثباتا ، لأنه نفي للنفي ، قال عاطفا عليه ما لا يعطف إلا مع الإثبات) ووضعنا) أي حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطا لا رجعة له ولا فيه بوجه بما لنا من العظمة ، مجاوزا) عنك وزرك) أي حملك الثقيل الذي لا يستطاع حمله ، ولذلك وصفه بقوله : (الذي أنقض ظهرك) أي جعله وهو عماد بدنك تصوت مفاصله من الثقل كما يصوت الرحل الجديد إذا لز بالحمل الثقيل ، وذلك هو ما دهمه عندما أمر بإنذار قومه ومفاجأتهم بما يكرهون عن عيب دينهم وتضليل آبائهم وتسفيه حلومهم في التدين بدين لا يرضاه أدنى العقلاء إذا تأمل شيئا من تأمل مع التجرد من حظ النفس مع ما عندهم من الأنفة والحمية وإلقاء الأنفس في المهالك لأدنى غضب ، فقال : (يا رب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة) فخفف سبحانه وتعالى عنه ذلك بما أظهر له من الكرامات وأيده به من المعجزات ، وضمن له من الحماية إلى أمور لا يحيط بها علما إلا الذي أيده بها

٧٧ ( ) والله يعصمك من الناس ( ) ٧

[المائدة : ٦٧] حتى خف ذلك عليه ، فصار أشفق أهله عليه." (١)

" صفحة رقم ٤٨٧

ولما كان الحال غير محتاج إلى أكثر من التأكذ لإيقاع الفعل ، عبر بالحقيقة ولم ينقلها إشارة إلى أن هذا الناهي أقل منأن يحتاج فيه غلى فعل شديد ، بل أقل نفحة من العذاب تكفي في إهلاكه ، وما كان أصل التأكيد إلا تطييبا لقلوب الأولياء وتكذيبا للأعداء فقال : (لنسفعا) أي والله لنأخذن ونقبضن قبضا وأخذا بشدة وعنف مع الجر والاجتذاب واللطم والدفع والغيظ أخذ من يعض مأخوذه ويذله ويسود وجهه ويقذره) بالناصية) أي بالشعر الذي في مقدم رأسه وهو أشرف ما فيه ، والعرب لا تأنفس من شيء أنفتهم من أخذ الناصية ، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره ، واستغنى بتعريف العهد عن الإضافة .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٦١/٨

ولما كان من المعلوم أن من صار في القبضة على هذه الهيئة المهينة المزرية فهو هالك ، اغتنى به عن أن يقول : ولنسحبنه بها على وجهه إلى النار ، ووصفها بما يدل على ذلك فقال مبدلا لأن البدل وصف بما قربه من المعرفة : (ناصية) أي عظيمة القبح) كاذبة) أي متعمدة للكذب) خاطئة (فهي صادر عنها الذنب من الكذب وغيره من غير تعمد ، فأغلب أحوالها على غير صواب تارة عن عمد وتارة عن غير عمد ، وما ذاك إلا لسوء جبلة صابحها حتى كاد لا يصدر عنه فعل سديد ، ووصفها بما هو لصاحبها على الإسناد المجازي مبالغة في تكذيبه في أنه لا يقدر على منع المهتدي أو إذلاله أو شيء من أذاه إلا إن أذن له صاحب الأمر كله فيما يكون سببا لزيادة رفعته ، وفي العدول عن الحقيقة ، كأن يقال : ناصية كاذب خاطئ ، بالإضافة إلى هذا المجاز ، من الجزالة والفخامة والجلالة ما لا يخفى .

ولما كان هذا هو غاية الإهانة ، وكان الكفار إنما يقصدون بأعراضهم الشماخة والأنفة والعز عن أن يكونوا أتباعا أذنابا ، وإنما عزهم بقومهم ، وأقرب من يعتز به الإنسان أهل ناديه ، وهم القوم الذين يجتمعون نهارا ليحدث بعضهم بعضا ويستروح بعضهم إلى بعضهم لما عندهم من التصافي لأنهم لا يتركون أشغالهم نهارا ويجتمعون لذلك إلا عن ذلك ، قال تعالى مسببا عن أخذه على هذا الوجه المزري : (فليدع) أي دعاء استغاثة) ناديه) أي القوم الذي كانوا يجتمعون معه نهارا يتحدثون في مكان ينادي فيه بعضهم بعضا من أنصاره وعشيرته ليخلصوه مما هو فيه ، والذي نزلت فيه هو أبو جهل ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا .

ولما كان كأنه قيل : فلو دعا ناديه يكون ماذا ؟ قال : (سندع) أي بوعد لا خلف فيه) الزبانية) أي الأعوان الموكلين بالنار ليجروه إليها ، وهم في الأصل الشرط ، الواحد زبنية كهبرية ، من الزبن وهو الدفع أو زبني على النسبة ، أصلها زباني والتاء." (١)

"﴿إن يوحى إلى﴾ : أي ما يوحى إلي ، ﴿أنمآ أنا نذير﴾ : أي للإنذار ، حذف اللام ووصل الفعل والمفعول الذي لم يسم فاعله يجوز أن يكون ضميرا يدل عليه ، المعنى ، أي أن يوحى إلي هو ، أي ما يوحى إلا الإنذار ، وأقيم إلى مقامه ، ويجوز أن يكون إنما هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، أي ما يوحى إلي إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر : إلا إنما ، بكسر همزة إنما على الحكاية ، أي ما يوحى إلي إلا هذه الجملة ، كأن قيل له : أنت نذير مبين ، فحكى هو المعنى ، وهذا كما يقول الإنسان : أنا عالم ، فيقال له : قلت إنك عالم ، فيحكى المعنى. وقال الزمخشري : وقرىء إنما بالكسر على الحكاية ، أي إلا هذا

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٨٧/٨

القول ، وهو أن أقول لكم ﴿أنمآ أنا نذير مبين﴾ ، فلا أدعي شيئا آخر. انتهى. في تخريجه تعارض ، لأنه قال : أي إلا هذا القول ، فظاهره الجملة التي هي ﴿أنمآ أنا نذير مبين﴾ ، ثم قال : وهو أن أقول لكم إني نذير ، فالمقام مقام الفاعل هو أن أقول لكم ، وأن وما بعده في موضع نصب ، وعلى قوله : إلا هذا القول ، يكون في موضع رفع فيتعارضا. وتقدم أن ، إذ قال بدل من : إذ يختصمون ، هذا إذا كانت الخصومة في شأن من يستخلف في الأرض ، وعلى غيره من الأقوال يكون منصوبا باذكر.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٩٩

ولما كانت قريش ، خالفوا الرسول ، عليه السلام ، بسبب الحسد والكبر. ذكر حال إبليس ، حيث خالف أمر الله بسبب الحسد والكبر وما آل إليه من اللعنة والطرد من رحمة الله ، ليزدجر عن ذلك من فيه شيء منهما. وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم : ﴿إنى خالقا بشرا﴾ ، وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إني خالق خلقا من صفة كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم. انتهى. والبشر هو آدم عليه السلام ، وذكر هنا أنه خلقه من طين ، وفي آل عمران : ﴿خلقه من تراب﴾ ، وفي الحجر : ﴿من صلصال من حمإ مسنون﴾ ، وفي الأنبياء : ﴿من عجل﴾ ؛ ولا منافاة في تلك المادة البعيدة ، وهي التراب ، ثم ما يليه وهو الطين ، ثم ما يليه وهو الحمأ المسنون ، ثم المادة تلي الحمأ وهو الصلصال ؛ وأما من عجل فمضى تفسير.

﴿فإذا سويته﴾ : تقدم الكلام على هذا في الحجر ، وهنا ﴿استكبر وكان من الكافرين﴾ ، وفي البقرة : ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ ، وفي الأعراف : ﴿لم يكن من الساجدين﴾ ، وفي الحجر : ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ ، وفي الإسراء : ﴿قال ءأسجد لمن خلقت طينا﴾ ، وفي الكهف : ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربها﴾ . والإستثناء في جميع هذه الآيات يدل على أنه لم يسجد ، فتارة أكد بالنفي المحض ، وتارة ذكر إبايته عن السجود ، وهي الأنفة من ذلك ، وتارة نص على أن ذلك الامتناع كان سببه الاستكبار. والظاهر أن قوله : ﴿وكان من الكافرين﴾ أريد به كفره ذلك الوقت ، وإن لم يكن قبله كافرا ؛ وعطف على استكبر ، فقوى ذلك ، لأن الاستكبار عن السجود إنما حصل له وقت الأمر. ويحتمل أن يكون إخبارا منه بسبق كفره في الأزمنة الماضية في علم الله.

﴿يا إبليس ما منعك أن تسجد﴾ ، وفي الأعراف : ﴿يا إبليس ما منعك أن تسجد﴾ ، فدل أن تسجد هنا ، على أن لا في أن لا تسجد زائدة ، والمعنى أيضا يدل على ذلك ، لأنه لا يستفهم إلا عن المانع من السجود ، وهو استفهام تقرير وتوبيخ. وما في ﴿لما خلقت﴾ ، استدل بها من يجيز إطلاق ما على آحاد

من يعقل ، وأول بأن ما مصدرية ، والمصدر يراد به المخلوق ، لا حقيقة المصدر. وقرأ الجحدري : لما بفتح اللام وتشديد الميم ، خلقت بيدي ، على الإفراد ؛ والجمهور : على التثنية ؛ وقرىء بيدي ، كقراءة بمصرخي ؛ وقال تعالى : ﴿مما عملت أيدينآ﴾ بالجمع ، وكلها عبارة عن القدرة والقوة ، وعبر باليد ، إذ كان عند البشر معتادا أن البطش والقوة باليد. وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن اليد صفة ذات. قال ابن عطية : وهو قول مرغوب عنه.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٩٩
." (١)

"﴿فسجدوا ﴾ ، ثم : محذوف تقديره : فسجدوا له ، أي لآدم. دل عليه قول : ﴿اسجدوا لادم﴾ ، واللام في لآدم للتبيين ، وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها عند شرح ﴿الحمد لله﴾ . ﴿إلا إبليس﴾ : هو مستثنى من الضمير في فسجدوا ، وهو استثناء من موجب في نحو هذه المسألة فيترجح النصب ، وهو استثناء متصل عند الجمهور : ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب وقتادة وابن جريج ، واختاره الشيخ أبو الحسن والطبري ، فعلى هذا يكون ملكا ثم أبلس وغضب عليه ولعن فصار شيطانا. وروى في ذلك آثار عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ، وقد اختلف في اسمه فقيل : عزازيل ، وقيل : الحارث. وقيل : هو استثناء منقطع ، وأنه أبو الجن ، كما أن آدم أبو البشر ، ولم يكن قط ملكا ، قاله ابن زيد والحسن ، وروي عن ابن عباس. وروي عن ابن مسعود وشهر بن حوشب : أنه من الجن الذين كانوا في الأض وقاتلتهم الملائكة ، فسبوه صغيرا وتعبد مع الملائكة وخوطب معهم ، واستدل على أنه ليس من الملائكة بقوله تعالى : ﴿جاعل الملئاكة رسلا﴾ فعم ، فلا يجوز على الملائكة الكفر ولا الفسق ، كما لا يجوز على رسله من البشر ، وبقوله : ﴿لا يعصون الله مآ أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ، وبقوله : ﴿كان من الجن﴾ ، وبأن له نسلا ، بخلاف الملائكة ، والظاهر أنه استثناء متصل لتوجه الأمر على الملائكة ، فلو لم يكن لما توجه الأمر عليه ، فلم يقع عليه ذم لتركه فعل ما لم يؤمر به. وأما جاعل الملائكة رسلا ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، فهو عام مخصوص ، إذ عصمتهم ليست لذاتهم ، إنما هي بجعل الله لهم ذلك ، وأما إبليس فسلبه الله تعالى الصفات الملكية وألبسه ثياب الصفات الشيطانية. وأما قوله تعالى : ﴿كان من الجن﴾ ، فقال قتادة : هم صنف من الملائكة يقال لهم الجنة. وقال ابن جبير : سبط من الملائكة خلقوا من نار ، وإبليس منهم ، أو أطلق عليه من الجن لأنه لا يرى ، كما سمي الملائكة جنة ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، /

أو لأنه سمي باسم ما غلب عليه ، أو بما كان من فعله ، أو لأن الملائكة تسمى جنا. قال الأعشى في ذكر سليمان على نبينا وعليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعةقياما لديه يعملون بلا أجر

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٥١

﴿أبى ﴾ : امتنع وأنف من السجود لآدم. ﴿واستكبر﴾ : تكبر وتعاظم في نفسه وقدم الإباء على الاستكبار ، وإن كان الاستكبار هو الأول ، لأنه من أفعال القلوب وهو التعاظم ، وينشأ عنه الإباء من السجود اعتبارا بما ظهر عنه أولا ، وهو الامتناع من السجود ، ولأن المأمور به هو السجود ، فلما استثنى إبليس كان محكوما عليه بأنه ترك السجود ، أو بأنه مسكوت عنه غير محكوم عليه على الاختلاف

١٥٣

الذي نذكره قريبا إن شاء الله. والمقصود : الإخبار عنه بأنه خالف حاله حال الملائكة. فناسب أن يبدأ أولا بتأكيد ما حكم به عليه في الاستثناء ، أو بإنشاء الإخبار عنه بالمخارفة ، والذي يؤدي هذا المعنى هو الإباء من السجود. والخلاف الذي أشرنا إليه هو أنك إذا قلت : قام القوم إلا زيدا ، فمذهب الكسائي أن التخريج من الاسم ، وأن زيدا غير محكوم عليه ام ولا غيره ، فيحتمل أن يكون قد قام ، وأن يكون غير قائم. ومذهب الفراء أن الاستثناء من القول ، والصحيح مذهبنا ، وهو أن الاسم مستثنى من الاسم وأن الفعل مستثنى من الفعل. ودلائل هذه المذاهب مذكورة في كتب النحو ، ومفعول أبي محذوف لأنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد ، قال الشاعر :

أبى الضيم والنعمان يحرق نابهعليه فأفضى والسيوف معاقله

والتقدير : أبى السجود ، وأبى من الأفعال الواجبة التي معناها النفي ، ولهذا يفرغ ما بعد إلا كما يفرغ لفعل المنفي ، قال تعالى : ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ ، ولا يجوز : ضربت إلا زيدا على أن يكون استثناء مفرغا لأن إلا لا تدخل في الواجب ، وقال الشاعر :

أبى الله إلا عدله ووفاءهفلا النكر معروف ولا العرف ضائع

وأبى زيد الظلم : أبلغ من لم يظلم ، لأن نفي الشيء عن الشخص قد يكون لعجز أو غيره ، فإذا قلت : أبى زيد كذا ، دل على نفي ذلك عنه على طريق الامتناع والأنفة منه ، فلذلك جاء قوله تعالى : ﴿أبى ﴾ ، لأن استثناء إبليس لا يدل إلا على أنه لم يسجد ، فلو اقتصر عليه لجاز أن يكون تخلفه عن السجود

لأمر غير الإباء ، فنص على سبب كونه لم يسجد وهو الإباء **والأنفة**.

(١) ".

"لهم من غيره ، والمراد جميع الأمور الشاغلة عن الصلاة. وقال الزمخشري : فإن قلت : فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه ؟ قلت : لأن الشحم داخل في ذكر اللحم بدليل قوله : لحم سمين ، يريدون أنه شحيم. انتهى. وقولهم هذا ليس بدليل على أن الشحم داخل في ذكر اللحم ، لأن وصف الشيء بأنه يمازجه شيء آخر ، لا يدل على أنه مندرج تحت مدلول ذلك الشيء ، ألا ترى أنك تقول مثلا رجل لابن ، أو رجل عالم ؟ لا يدل ذلك على أن اللبن أو العلم داخل في ذكر الرجل ، ولا أن ذكر الرجل. مجردا عن الوصفين يدل عليهما. وقال ابن عطية : وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ، ذكي أو لم يذك ، وليعم الشحم وما هناك من الغضاريف وغيرها. وأجمعت الأمة على تحريم شحمه. انتهى كلامه. وليس كما ذكر ، لأن ذكر اللحم لا يعم الشحم وما هناك من الغضاريف ، لأن كلا من اللحم والشحم وما هناك من غضروف وغيره ، وليس له اسم يخصه. إذ أطلق ذلك الاسم ، لم يدخل فيه الآخر ، ولا يدل عليه ، لا بمطابقه ، ولا تضمن. فإذن ، تخصيصه بالذكر يدل على تخصيصه بالحكم ، إذ لو أريد المجموع ، لدل بلفظ يدل على المجموع. وقوله : أجمعت الأمة على تحريم شحمه ، ليس كما ذكر. ألا ترى أن داود لا يحرم إلا ما ذكره الله تعالى ، وهو اللحم دون الشحم ؟ إلا أن يذهب ابن عطية إلى ما يذكر عن أبي المعالي عبد الملك الجويني ، من أنه لا يعتد في الإجماع ، بخلاف داود ، فيكون ذلك عنده إجماعا. وقد اعتد أهل العلم الذين لهم الفهم التام والاجتهاد ، قبل أن يخلق الجويني بأزمان ، بخلاف داود ، ونقلوا أقاويله في كتبهم ، كما نقلوا أقاويل الأئمة ، كالأوزاعي ، وأبي حنيفة ، ومالك ، والثوري ، والشافعي ، وأحمد. ودان بمذهبه وقوله وطريقته ناس وبلاد وقضاة وملوك الأزمان الطويلة ، ولكنه في عصرنا هذا قد حمل هذا المذهب. ولما كان اللحم يتضمن عند مالك الشحم ، ذهب إلى أنه لو حلف حالف أن لا يأكل لحما ، فأكل شحما ، أنه يحنث. وخالفه أبو حنيفة والشافعي فقالا : لا يحنث ، كما لو حلف أنه لا يأكل شحما ، فأكل لحما. وقال تعالى : ﴿حرمنا عليهم شحومهمآ﴾ . والإجماع ، أن اللحم ليس بمحرم على اليهود ، فالحق أن كلا منهما لا يندرج تحت لفظ الآخر.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧

واختلفوا في الانتفاع بشعره ، في خرز وغيره ، فأجاز ذلك مالك وأبو حنيفة والأوزاعي ، ولم يجز ذلك

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١/١٢٨

الشافعي. وقال أبو يوسف : أكره الخرز به. وروي عنه الإباحة أيضا. وهل يتناول لفظ الخنزير خنزير البحر ؟ ذهب إلى ذلك أبو حنيفة وأصحابه ؟ فمنعوا من أكله ؟ وقال ابن أبي ليلى والأوزاعي والشافعي : لا بأس بأكله. وقال الليث : لا يؤكل خنزير الماء ، ولا إنسانه ، ولا كلبه. وسئل مالك عن خنزير الماء ، فتوقف وقال : أنتم تسمونه خنزيرا. وقال ابن القاسم : أنا أتقيه ولا أحرمه. وعلة تحريم لحم الخنزير قالوا : تفرد النصارى بأكله ، فنهى المسلمون عن أكله ، ليكون ذلك ذريعة إلى أن تقاطعوهم ، إذ كان الخنزير من أنفس طعامهم. وقيل : لكونه ممسوخا ، فغلظ تحريم أكله لخبث أصله. وقيل : لأنه يقع الغيرة ويذهب بالأنفة ، فيتساهل الناس في هتك المحرم وإباحة الزنا ، ولم تشر الآية الكريمة إلى شيء من هذه التعليلات التي ذكروها.

وما أهل به لغير الله : أي ما ذبح للأصنام والطواغيت ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، أو ما ذكر عليه اسم غير الله ، قاله الربيع بن أنس وغيره ، أو ما ذكر اسم المسيح عليه ، قاله الزهري ، أو ما قصد به غير وجه الله تعالى للتفاخر والتباهي ، قاله علي والحسن. وروي أن عليا قال في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق : إنها مما أهل بها لغير الله ، فتركها الناس ، راعى علي النية في ذلك. ومنع الحسن من أكل جزور ذبحتها امرأة للعبها وقال : إنها نحرت لصنم. وسئلت عائشة عن أكل ما يذبحه الأعاجم لأعيادهم ويهدون للمسلمين فقالت : لا تأكلوه ، وكلوا من أشجارهم. والذي يظهر من الآية تحريم ما ذبح لغير الله ، فيندرج

٤٨٨

(١) ".

"وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من أواخر أقوال الحج وأفعاله الأمر بذكر الله في أيام معدودات ، أي : قلائل ، ودل الذكر على الرمي وإن لم يصرح به ، لأن الذكر المأمور به في تلك الأيام هو عند الرمي ، ودل الأمر على مشروعية في أيام ، وهو : جمع ، ثم رخص في التعجيل عند انقضاء يومين منها ، فسقط الذكر المختص به اليوم الثالث ، وأخبر أن حال المتعجل والمتأخر سواء في عدم الإثم ، وإن كان حال من تأخر أفضل ، وكان بعض الجاهلية يعتقد أن من تعجل أثم ، وبعضهم يعتقد أن من تأخر أثم ، فلذلك أخبر أن الله رفع الإثم عنهما ، إذ كان التعجل والتأخر مما شرعه الله تعالى ، ثم أخبر أن ارتفاع الإثم لا يكون إلا لمن اتقى الله تعالى.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤٢٦/١

ثم أمر بالتقوى ، وتكرار الأمر بها في الحج ، ثم ذكر الحامل على التلبس بالتقوى ، وهو كونه تعالى شديد العقاب لمن لم يتقه ، ثم لما كانت التقوى تنقسم إلى من يظهرها بلسانه وقلبه منطو على خلافها ، وإلى من تساوى سريرته وعلانيته في التقوى ، قسم الله تعالى ذلك إلى قسمين ، فقال : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيواة الدنيا﴾ أي : يؤنقك ويروق لفظه ، يحسن ما يأتي به من الموافقة والطواعية ظاهرا ، ثم لا يكتفي بما زور ونمق من كلامه اللطيف حتى يشهد الله على ما في قلبه من ذلك ، فيحلف بالله أن سريرته مثل علانيته ، وهو إذا خاصم كان شديد الخصومة ، وإذا خرج من عندك تقلب في نواحي الأرض ، ثم ذكر تعالى سبب سعيه وأنه للإفساد مطلقا ، وليهلك الحرث والنسل اللذين هما قوام الوجود ، ثم أخبر تعالى أنه لا يحب الفساد ، فهذا المتولي الساعي في الأرض يفعل ما لا يحبه الله ولا يرضاه ، ثم ذكر أنه من شدة الشكيمة في النفاق إذا أمر بتقوى الله تعالى استولت عليه **الأنفة** والغضب بالإثم. أي : مصحوبا بالإثم فليس غضبه لله. إنما هو لغير الله ، فلذلك استصحبه الإثم.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١٠٧

ثم ذكر تعالى ما يؤول إليه حال هذا الآنف المغتر بغير الله ، وهو جهنم ، فهي كافية له ، ومبدلته بعد عزه ذلا ، ثم ذم تعالى ما مهد لنفسه من جهنم ، وبئس الغاية الذم ، ثم ذكر تعالى القسم المقابل لهذا القسم ، وهو : من باع نفسه في طلاب رضى الله تعالى ، واكتفى بهذا الوصف الشريف ، إذ دل على انطوائه على جميع الطاعات والانقيادات ، إذ صار عبد الله

١٣٢

يوجد حيث رضي الله تعالى ، ثم ذكر تعالى أن من كان بهذه المثابة رأف الله به ورحمه ، ورأفة الله به تتضمن اللطف به والإحسان إليه بجميع أنواع الإحسان ، وذكر الرأفة التي هي ، قيل : أرق من الرحمة.

ثم نادى المؤمنين بقوله : ﴿ذلك بأن الذين كفروا ﴾ وأمرهم بالدخول في الإسلام ، وثنى بالنهي ، لأن الأمر أشق من النهي ، لأن الأمر فعل والنهي ترك ، ولمجاورته قوله : ﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ فصار نظير : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ فأما الذين اسودت وجوهم﴾ ولما نهاهم تعالى عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي : سلوك معاصي الله ، أخبر أنه إن زلوا من بعد ما أتتهم البينات الواضحة النيرة التي لا ينبغي أن يقع الزلل معها ، لأن في ايضاحها ما يزيل اللبس ، فاعلموا أن الله عزيز لا يغالب ، حكيم يضع الأشياء مواضعها ، فيجازي على الزلل بعد وضوح الآيات التي تقتضي الثبوت في الطاعة بما يناسب ذلك الزلل ، فدل بعزته على القدرة ، وبحكمته على جزاء العاصي والطائع : ولما نهاهم تعالى عن اتباع خطوات

الشيطان ، وهي : سلوك معاصي الله ، أخبر أنه إن زلوا من بعد ما أتتهم البينات الواضحة النيرة التي لا ينبغي أن يقع الزلل معها ، لأن في ايضاحها ما يزيل اللبس ، فاعلموا أن الله عزيز لا يغالب ، حكيم يضع الأشياء مواضعها ، فيجازي على الزلل بعد وضوح الآيات التي تقتضي الثبوت في الطاعة بما يناسب ذلك الزلل ، فدل بعزته على القدرة ، وبحكمته على جزاء العاصي والطائع : ﴿ليجزى الذين أسا ءاوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ .

ثم أعرض تعالى عن خطابهم ، وأخبر عنهم إخبار الغائبين ، مسليا لرسوله عن تباطئهم في الدخول في الإسلام ، فقال : ما ينتظرون إلا قيام الساعة يوم فصل الله بين العباد ، وقضاء الأمر ، ورجوع جميع الأمور إليه ، فهناك تظهر ثمرة ما جنوا على أنفسهم ، كما جاء في الحديث : "إن يوم القيامة يأتيهم الله في صورة" كذا ، على ما يليق بتقديسه عن جميع ما يشبه المخلوقين ، وننزهه عما يستحيل عليه من سمات الحدوث وصفات النقص.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١٠٧

ثم قال تعالى : ﴿سل بنى إسرا ءيل﴾ منبها على أن من أرسل إليهم الأنبياء ، وظهرت لهم المعجزات الإعراض عن ذلك ، وعدم قبول الإيمان ، وأنهم يرتبون على الشيء غير مقتضاه ، فيكذبون بالآيات التي جاءت دالة على الصدق.

." (١)

"وأما الثاني : فبعيد جدا ، لأنه لو كان بدلا من : بعد ، لكان على تقدير العامل ، وهو لا يصح دخوله عليه ، أعنى : من ، الداخلة على : بعد ، لا تدخل على : إذ ، لا تقول : من إذ ، ولو كان من الظروف التي يدخل عليها : من ، كوقت وحين ، لم يصح المعنى أيضا ، لأن : من ، بعد : موسى ، حال ، كما قررناه. إذا العامل فيه : كائنين ، ولو قلت : كائنين من حين قالوا لنبي لهم إبعث لنا ملكا ، لما صح هذا المعنى ، وإذا بطل هذان الوجهان ، فينظر ما يعمل فيه مما يصح به المعنى ، وقد وجدناه ، وهو : أن يكون ثم محذوف به يصح المعنى ، وهو العامل ، وذلك المحذوف تقديره : ألم تر إلى قصة الملأ ، أو : حديث الملأ ، وما في معناه. لأن الذوات لا يتعجب منها ، وانما يتعجب مما جرى لهم ، فصار المعنى : ألم تر إلى ما جرى للملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا ؟ فالعامل في : إذ ، هو ذلك المحذوف ، والمعنى ءلى تقديره ، وتعلق قوله : لنبي ، بقالوا ، واللام فيه كما تقدم للتبليغ ، واسم هذا

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر (، ٨٨/٢

النبي : شمويل بن بالي ، قاله ابن عباس ووهب بن منبه ، أو : شمعون ، قاله السدي ، أو يوشع بن نون ، وقال المحاسبي اسمه عيسى ، وضعف قول من قال : إنه يوشع بأن يوشع هو فتى موسى عليه السلام ، وبينه وبين داود قرون كثيرة ، وقد طول المفسرون في هذه ونحن نلخصها فنقول :
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٤٨
لما مات موسى عليه السلام ، خلف من بعده في بني إسرائيل يوشع يقيم فيهم التوارة ، ثم قبض فخلف حزقيل ، ثم قبض ففشت فهم الأحداث ، حتى عبدوا الأوثان فبعث إليهم إلياس ، ثم من بعده اليسع ، ثم قبض ، فعظمت فيهم الأحداث ، وظهر لهم عدوهم العمالقة قوم جالوت ، كانوا سكان ساحل بحر الروم ، بين مصر وفلسطين ، وظهروا عليهم وغلبوا على كثير من بلادهم ، وأسروا من أبناء ملوكهم كثيرا ، وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا توراتهم ، ولم يكن لهم من يدبر أمرهم ، وسألوا الله أن يبعث لهم نبيا يقاتلون معه ، وكان سبط النبوة هلكوا إلا امرأة حبلى دعت الله أن يرزقها غلاما ، فرزقها شمويل ، فتعلم التوراة في بيت المقدس ، وكفله شيخ من علمائهم ؛ وتبناه فلما بلغ النبوة ، أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ ، وكان لا يأمن عليه ، فدعاه بلحن الشيخ : يا شمويل ، فقام فزعا ، وقال : يا أبت دعوتني ، فكره أن يقول له : لا ، فيفزع ، فقال : يا بني نم ، فجرى بذلك له مرتين ، فقال له : إن دعوتك الثالثة فلا تجبني ، فظهر له جبريل ، فقال له إذهب فبلغ قومك رسالة ربك ، قد بعثك نبيا فأتاهم فكذبوه ، وقالوا إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله آية من نبوتك وكان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك ، وكان الملك يسير بالجموع ، والنبي يسدده ويرشده وقال
٢٥٤
وهب : بعث شمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ، وكان الله أسقط عنهم الجهاد إلا من قاتلهم ، فلما كتب عليهم القتال تولوا ، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان.
ومعنى : ابعث لنا ملكا : انهض لنا من نصدر عنه في تدبير بالحرب ، وننتهي إبلى أمره ، وانجزم : نقاتل ، على جواب الأمر.
وقرأ الجمهور بالنون والجزم ، والضحاك ، وابن أبي عبلة بالياء ورفع اللام على الصفة للملك ؛ وقرىء بالنون ورفع اللام على بالحال من المجرور وقرىء بالياء والجزم على جواب الأمر.
﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ لما طلبوا من نبيهم أن ينهض لهم ملكا ، ورتبوا على بعثه أن يقاتلوا وكانوا قد ذلوا ، وسبي ملوكهم ، فأخذتهم **الأنفة** ، ورغبوا في الجهاد ، أراد أن يسثبت ما

طلبوه من الجهاد ، وأن يتعرف ما انطوت عليه يواطنهم ، فاستفهم عن مقاربتهم ترك القتال إن كتب عليهم ، فأنكروا أن يكون لهم داع إلى ترك القتال ، فقالوا : ﴿سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ا قالوا وما لنآ ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنآانا ﴾ أي هذه حال من يبادر إلى القتال ، لأنه طالب ثأر ، ومترج أن يكون له الظفر من الله تعالى ، لأنهم علموا أن ما أصابهم إنما كان بذنوبهم ، فلم أقلعوا وتابوا ، ورجعوا لطوع الأنبياء ، قويت آمالهم بالنصر والظفر ، قيل : وكان النبي قد ظن منهم الجبن والفشل في القتال ، فلذلك استفهم ، وليبين أن ما ظنه وتوقعه من ذلك يكون منهم ، وكان كما توقع.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٤٨

وقرأ نافع : عسيتم ، بكسر السين هنا وفي سورة القتال ، وقرأ الباقون بفتحها.

." (١)

"قيل : وتضمنت هذه الآيات أنواعا من الفصاحة والبديع. فمنها التجنيس المغاير في : يخادعون وخادعهم ، وشكرتم وشاكرا. والمماثل في : وإذا قاموا. والتكرار في : اسم الله ، وفي : هؤلاء وهؤلاء ، وفي : ويرون ويريدون ، وفي : الكافرين والكافرين ، وفي : أهل الكتاب وكتابا ، وفي : بميثاقهم وميثاقا. والطباق في : الكافرين والمؤمنين ، وفي : إن تبدوا أو تخفوه ، وفي : نؤمن ونكفر ، والاختصاص في : إلى الصلاة ، وفي : الدرك الأسفل ، وفي : الجهر بالسوء. والإشارة في مواضع. الاستعارة في : يخادعون الله وهو خادعهم استعار اسم الخداع للمجازاة وفي : سبيلا ، وفي سلطانا لقيام الحجة والدرك الأسفل لانخفاض طبقاتهم في النار ، واعتصموا للالتجاء ، وفي : أن يفرقوا ، وفي : ولم يفرقوا وهو حقيقة في الأجسام استعير للمعاني ، وفي : سلطانا استعير للحجة ، وفي : غلف وبل طبع الله. وزيادة الحرف لمعنى في : فبما نقضهم ، وإسناد الفعل إلى غير فاعله في : فأخذتهم الصاعقة وجاءتهم البينات وإلى الراضي به وفي : وقتلهم الأنبياء ، وفي : وقولهم على مريم بهتانا وقولهم إنا قتلنا المسيح. وحسن النسق في : فبما نقضهم ميثاقهم والمعاطيف

٣٩٣

عليه حيث نسقت بالواو التي تدل على الجميع فقط. وبين هذه الأشياء أعصار متباعدة فشرك أوائلهم وأواخرهم لعمل أولئك ورضا هؤلاء. وإطلاق اسم كل على بعض وفي : كفرهم بآيات الله وهو القرآن

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٨٧/٢

والإنجيل ولم يكفروا بشيء من الكتب إلا بهما وفي قولهم إنا قتلنا ولم يقل ذلك إلا بعضهم. والتعريض في رسول الله إذا قلنا أنه من كلامهم. والتوجيه في غلف من احتمال المصدر جمع غلاف أو جمع أغلف. وعود الضمير على غير مذكور وهو في ليؤمنن به قبل موته على من جعلهما لغير عيسى. والنقل من صيغة فاعل إلى فعيل في شهيد. والحذف في مواضع.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٧٦

الغلو : تجاوز الحد. ومنه غلا السعر وغلوة السهم. الاستنكاف : **الأنفة** والترفع ، من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من حدك ، ومنعته من الجري قال :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٩٤

فباتوا فلولا ما تذكر منهممن الحلق لم ينكف بعينك مدمع

وسئل أبو العباس عن الاستنكاف فقال : هو من النكف ، يقال : ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف ، والنكف أن يقال له سوء ، واستنكف دفع ذلك السوء.

﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ المعنى : فبظلم عظيم ، أو فيظلم أي ظلم. وحذف الصفة لفهم المعنى جائز كما قال : لقد وقعت على لحم أي لحم متبع ، ويتعلق بحرمنا. وتقدم السبب على المسبب تنبيها على فحش الظلم وتقبيحا له وتحذيرا منه. والطيبات هي ما ذكر في قوله : ﴿وعلى الذين هادوا ﴾ الألبان وبعض الطير والحوت ، وأحلت لهم صفة الطيبات بما كانت عليه. وأوضح ذلك قراءة ابن عباس : طيبات كانت أحلت لهم.

﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾ أي ناسا كثيرا ، فيكون كثيرا مفعولا بالمصدر ، وإليه ذهب الطبري. قال : صدوا بجحدهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم جمعا عظيما من الناس ، أو صد كثيرا. وقدره بعضهم زمانا كثيرا.

﴿وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه﴾ وهذه جملة حالية تفيد تأكيد قبح فعلهم

٣٩٤

وسوء صنيعهم ، إذ ما نهى الله عنه يجب أن يبعد عنه. قالوا : والربا محرم في جميع الشرائع.

﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ أي الرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب. وفي هذه الآية فصلت أنواع الظلم الموجب لتحريم الطيبات. قيل : كانوا كلما أحدثوا ذنبا حرم عليهم بعض الطيبات ، وأهمل هنا تفصيل الطيبات ، بل ذكرت نكرة مبهمة. وفي المائدة فصل أنواع ما حرم ولم يفصل السبب.

فقيل : ذلك جزيناهم ببغيهم ، وأعيدت الباء في : ﴿وبصدهم﴾ لبعده عن المعطوف عليه بالفصل بما ليس معمولا للمعطوف عليه ، بل في العامل فيه. ولم يعد في : ﴿وأخذهم﴾ وأكلهم لأن الفصل وقع بمعمول المعطوف عليه. ونظير إعادة الحرف وترك إعادته قوله : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ الآية. وبدىء في أنواع الظلم بما هو أهم ، وهو أمر الدين ، وهو الصد عن سبيل الله ، ثم بأمر الدنيا وهو ما يتعلق به الأذى في بعض المال ، ثم ارتقى إلى الأبلغ في المال الدنيوي وهو أكله بالباطل أي مجانا لا عوض فيه. وفي ذكر هذه الآية امتنان على وجه الأمة حيث لم يعاملهم معاملة اليهود فيحرم عليهم في الدنيا الطيبات عقوبة لهم بذنوبهم.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٩٤

." (١)

"وقرأ زيد بن علي : بدوكم بغير همز ، ووجهه أنه سهل الهمزة من بدأت بإبدالها ياء ، كما قالوا في قرأت : قريت ، فصار كرميت. فلما أسند الفعل إلى واو الضمير سقطت ، فصار بدوكم كما تقول : رموكم. أتخشونهم تقرير للخشية منهم ، وتوبيخ عليها. فالله أحق أن تخشوه فتقتلوا أعداءه. ولفظ الجلالة مبتدأ وخبره أحق ، وأن تخشوه بدل من الله أي : وخشية الله أحق من خشيتهم وأن تخشوه في موضع رفع ، ويجوز أن تكون في موضع نصب أو جر على الخلاف إذا حذف حرف الجر ، وتقديره : بأن تخشوه أي أحق من غيره بأن تخشوه. وجوز أبو البقاء أن يكون أن تخشوه مبتدأ ، وأحق خبره قدم عليه. وأجاز ابن عطية أن يكون أحق مبتدأ وخبره أن تخشوه ، والجملة خبر عن الأول. وحسن الابتداء بالنكرة لأنها أفعل التفضيل ، وقد أجاز سيبويه أن تكون المعرفة خبرا للنكرة في نحو : اقصد رجلا خير منه أبوه. إن كنتم مؤمنين أي كاملي الإيمان ، لأنهم كانوا مؤمنين. وقال الزمخشري : يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى : ﴿ولا يخشون أحدا إلا الله﴾ .

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشآءا والله عليم حكيم﴾ قررت الآيات قبل هذا أفعال

١٦

الكفرة المقتضية لقتالهم ، والحض على القتال ، وحرم الأمر بالقتال في هذه ، وتعذيبهم بأيدي المؤمنين

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣١٩/٣

هو في الدنيا بالقتل والأسر والنهب ، وهذه وعود ثبتت قلوبهم وصححت نياتهم ، وخزيهم هو إهانتهم وذلهم ، وينصركم يظفركم بهم ، وشفاه الصدور بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم.
وقرأ زيد بن علي : ونشف بالنون على الالتفات ، وجاء التركيب صدور قوم مؤمنين ليشمل المخاطبين وكل مؤمن ، لأن ما يصيب أهل الكفر من العذاب والخزي هو شفاء لصدر كل مؤمن. وقيل : المراد قوم معينون. قال ابن عباس : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديدا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال : "أبشروا فإن الفرج قريب" وقال مجاهد والسدي : هم خزاعة. ووجه تخصيصهم أنهم هم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب ، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير. ألا ترى إلى قول الخزاعي المستنصر بالنبي صلى الله عليه وسلم :
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
وفي آخر الرجز : وقتلونا ركعا وسجدا
وإذهاب الغيظ بما نال الكفار من المكروه ، وهذه الجملة كالتأكيد للتي قبلها ، لأن شفاء الصدر من آلة الغيظ هو إذهاب الغيظ. وقرأ فرقة : ويذهب فعلا لازما غيظ فاعل به. وقرأ زيد بن علي : كذلك إلا أنه رفع الباء. وهذه المواعيد كلها وجدت ، فكان ذلك دليلا على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته وبدىء أولا فيها بما تسبب عن النصر وهو تعذيب الله الكفار وبأيدي المؤمنين وإخزاؤهم ، إذا كانت البداءة بما ينال الكفار من الشر هي التي يسر بها المؤمنون ، ثم ذكر ما السبب وهو نصر الله المؤمنين على الكافرين ، ثم ذكر ما تسبب أيضا عن النصر من شفاء صدور المؤمنين وإذهاب غيظهم تتميما للنعم ، فذكر ما تسبب عن النصر بالنسبة للكفار ، وذكر ما تسبب للمسلمين من الفرح والسرور بإدراك الثأر ، ولم يذكر ما نالوه من المغانم والمطاعم ، إذ العرب قوم جبلوا على **الحمية والأنفة** ، فرغبتهم في إدراك الثأر وقتل الأعداء هي اللائقة بطباعهم.
إن الأسود أسود الغاب همتهايوم الكريهة في المسلوب لا السلب
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢
". (١)

"فاعمد لما تعلو فما لك بالذيلا تستطيع من الأمور يدان أي لما تقهر أقوال متقاربة ، وإسرافه كونه كثير القتل والتعذيب. وقيل : كونه من أخس العبيد فادعى الإلهية ، وهذا الإخبار مبين سبب خوف أولئك

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٢/٥

المؤمنين منه.

وفي الآية مسلاة للرسول صلى الله عليه وسلم بقلة من آمن لموسى ومن استجاب له مع ظهور ذلك المعجز الباهر ، ولم يؤمن له إلا ذرية من قومه ، وخطاب موسى عليه السلام لمن آمن بقوله : يا قوم ، دليل على أن المؤمنين الذرية كانوا من قومه ، وخاطبهم بذلك حين اشتد خوفهم مما توعدهم به فرعون من قتل الآباء وذبح الذرية. وقيل : قال لهم ذلك حين قالوا إنا لمدركون. وقيل : حين قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قيل : والأول هو الصواب ، لأن جواب كل من القولين مذكور بعده وهو : ﴿كلا إن معى ربى سيهدين﴾ وقوله : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الآية وعلق توكلهم على شرطين : متقدم ، ومتأخر. ومتى كان الشرطان لا يترتبان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول ، فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدما عليه. فالإسلام هو الانقياد للتكاليف الصادرة من الله ، وإظهار الخضوع وترك التمرد ، والإيمان عرفان القلب بالله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته ، وأن ما سواه محدث تحت قهره وتدبيره. وإذا حصل هذان الشرطان فو العبد جميع أموره إلى الله تعالى ، واعتمد عليه في كل الأحوال. وأدخل أن على فعلي الشرط وإن كانت في الأغلب إنما تدخل على غير المحقق مع علمه بإيمانهم على وجه إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة ، كما تقول : إن كنت رجلا فقاتل ، تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة البينة. وطول ابن عطية هنا في مسألة التوكل بما يوقف عليه في كتابه ، وأجابوا موسى عليه السلام بما أمرهم به من التوكل على الله لأنهم كانوا مخلصين في إيمانهم وإسلامهم ، ثم سألوا الله تعالى شيئين : أحدهما : أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين. قال الزمخشري : أي موضع فتنة لهم ، أي عذاب تعذبوننا أو تفتنوننا عن ديننا ، أو فتنة لهم يفتنون بها ويقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا. وقال مجاهد وأبو مجلز وأبو الضحى وغيرهم : معنى القول الآخر قال : المعنى لا ينزل بنا ملأنا بأيديهم أو بغير ذلك مدة محاربتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن هلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق. وقالت فرقة : المعنى لا تفتنهم ونبتليهم بقتلنا وإذايتنا فنعذبهم على ذلك في الآخرة. قال ابن عطية : وفي هذا التأويل قلق. وقال ابن الكلبي : لا تجعلنا فتنة بتقتير الرزق علينا وبسطه لهم. والآخر : ينجيهم من الكافرين أي : من تسخيرهم واستعبادهم. والذي يظهر أنهم سألوا الله تعالى أن لا يفتنوا عن دينهم ، وأن يخلصوا من الكفار ، فقدموا ما كان عندهم أهم وهو سلامة دينهم لهم ، وأخروا سلامة أنفسهم ، إذ الاهتمام بمصالح الدين آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٧٨

﴿وأوحينآ إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلواةا وبشر المؤمنين﴾ : لم يصرح باسم أخيه لأنه قد تقدم أولا في قوله : ﴿ثم بعثنا منا بعدهم موسى وهارون﴾ وتبوآ اتخذا مباءة أي مرجعا للعبادة والصلاة كما تقول : توطن اتخذ موطنا ، والظاهر اتخاذ البيوت بمصر. قال الضحاك : وهي مصر المحروسة ، ومصر من البحر إلى أسوان ، والاسكندرية من أرض مصر. وقال مجاهد : هي

١٨٥

الاسكندرية ، وكان فرعون قد استولى على بني إسرائيل خرب مساجدهم ومواضع عباداتهم ، ومنعهم من الصلوات ، وكلفهم الأعمال الشاقة. وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ، فيردوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام. وقرأ حفص في رواية هبيرة : تبويا بالياء ، وهذا تسهيل غير قياسي ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف ، والظاهر أن المأمور بأن يجعل قبلة هي المأمور بتبوئها. ومعنى قبلة مساجد : أمروا بأن يتخذوا بيوتهم مساجد قاله : النخعي ، وابن زيد ، وروي عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضا : واجعلوا بيوتكم قبل القبلة ، وعنه أيضا : قبل مكة. وقال مجاهد وقتادة ومقاتل والفراء : أمروا بأن يجعلوها مستقبلة الكعبة. وعن ابن عباس أيضا وابن جبير : قبلة يقابل بعضها بعضا. وأقيموا الصلاة وهذا قبل نزول التوراة ، لأنها لم تنزل إلا بعد إجارة البحر. وبشر المؤمنين يعني : بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة ، وهو أمر لموسى عليه السلام أن يتبوآ لقومهما ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم نسق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيما له وللمبشر به.
." (١)

"قال الزمخشري : (فإن قلت) : فإذا وصف به العذاب ؟ (قلت) : مجازى مثله ، لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهاره صائم انتهى. وهذا على أن يكون أليم صفة مبالغة من آلم ، وهو من كثر ألمه. فإن كان أليم بمعنى مؤلم ، فنسبته لليوم مجاز ، وللعذاب حقيقة. لما أنذرهم من عذاب الله وأمرهم بإفراده بالعبادة ، وأخبر أنه رسول من عند الله ، ذكروا أنه مماثلهم في البشرية ، واستبعدوا أن يبعث الله رسولا من البشر ، وكأنهم ذهبوا إلى مذهب البراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق ، ثم

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٥١/٥

عيروه بأنه لم يتبعه إلا الأراذل أي : فنحن لا نساويهم ، ثم نفوا أن يكون له عليهم فضل. أي : أنت مساوينا في البشرية ولا فضل لك علينا ، فكيف امتزت بأنك رسول الله ؟ وفي قوله : إلا الذين هم أراذلنا ، مبالغة في الأخبار ، وكأنه مؤذن بتأكيد حصر من اتبعه ، وأنهم هم الأراذل لم يشركهم شريف في ذلك. وفي الحديث "إنهم كانوا حاكة وحجامين" وقال النحاس : هم الفقراء والذين لا حسب لهم ، والخسيسوا الصناعات. وفي حديث هرقل : "أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل قبل" وإنما كان كذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها ، **والأنفة** من الانقياد لغيرهم ، والفقير خلى عن تلك الموانع فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. ونراك يحتمل أن تكون بصرية ، وأن تكون علمية. قالوا : وأراذل جمع الجمع ، فقيل : جمع أرذل ككلب وأكلب وأكالب. وقيل : جمع أرذلنا ، وقياسه أزاذيل. والظاهر أنه جمع أرذل التي هي أفعل التفضيل وجاء جمعا ، كما جاء أكابر
٢١٤
مجرميها وأحاسنكم أخلاقا. وقال الزمخشري : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملأ ومووازيهم في المنزلة ، فما جعلك أحق منهم ؟ ألا ترى إلى قولهم : وما نرى لكم علينا من فضل ، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشرا ، ولا يظهر ما قاله الزمخشري من الآية.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٩٨

وقرأ أبو عمرو ، وعيسى الثقفي : بادىء الرأي من بدأ يبدأ ومعناه : أول الرأي. وقرأ باقي السبعة : بادي بالياء من بدا يبدو ، ومعناه ظاهر الرأي. وقيل : بادي بالياء معناه بادىء بالهمز ، فسهلت الهمزة بإبدالها ياء لكسر ما قبلها. وذكروا أنه منصوب على الظرف ، والعامل فيه نراك أو اتبعك أو أراذلنا أي : وما نراك فيما يظهر لنا من الرأي ، أو في أول رأينا ، أو وما نراك اتبعك أول رأيهم ، أو ظاهر رأيهم. واحتمل هذا الوجه معنيين : أحدهما : أن يريد اتبعك في ظاهر أمرهم ، وعسى أن تكون بواطنهم ليست معك. والمعنى الثاني : أن يريد اتبعوك بأول نظر وبالرأي البادىء دون تعقب ، ولو تثبتوا لم يتبعوك ، وفي هذا الوجه ذم الرأي غير المروي. وقال الزمخشري : اتبعوك أول الرأي ، أو ظاهر الرأي ، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول أمرهم أو وقت حدوث ظاهر رأيهم ، فحذف ذلك ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، أرادوا أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر انتهى. وكونه منصوبا على الظرف هو قول أبي على في الحجة ، وإنما حمله على الظرف وليس بزمان ولا مكان ، لأن في مقدرة فيه أي : في ظاهر الأمر

، أو في أول الأمر. وعلى هذين التقديرين أعني أن يكون العامل فيه نراك ، أو اتبعك يقتضي أن لا يجوز ذلك ، لأن ما بعد إلا لا يكون معمولا لما قبلها إلا إن كان مستثنى منه نحو : قام إلا زيدا القوم ، أو مستثنى نحو : جاء القوم إلا زيدا ، أو تابعا للمستثنى منه نحو : ما جاءني أحد إلا زيد أخبرني عمرو ، وبادىء الرأي ليس واحدا من هذه الثلاثة. وأجيب بأنه ظرف ، أو كالظرف مثل جهد رأي أنك ذاهب ، أي أنك ذاهب في جهد رأي ، والظروف يتسع فيها. وإذا كان العامل أراذل فمعناه الذين هم أراذلنا بأدل نظر فيهم ، وببادىء الرأي يعلم ذلك منهم. وقيل : بادي الرأي نعت لقوله : بشرا. وقيل : انتصب حالا من ضمير نوح في اتبعك ، أي : وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك. وقيل : انتصب على النداء لنوح أي : يا بادي الرأي ، أي ما في نفسك من الرأي ظاهر لكل أحد ، قالوا : ذلك تعجيزا له. وقيل : انتصب على المصدر ، وجاء الظرف والمصدر على فاعل ، وليس بالقياس. فالرأي هنا إما من رؤية العين ، وإما من الفكر. قال الزمخشري : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ، لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال انتهى. وظاهر الخطاب في لكم شامل لنوح ومن اتبعه ، والمعنى : ليس لكم علينا زيادة في مال ، ولا نسب ، ولا دين. وقال ابن عباس : في الخلق والخرلق ، وقيل : بكثرة الملك والملك ، وقيل : بمتابعتكم نوحا ومخالفتكم لنا ، وقيل : من شرف يؤهلكم للنبوة ، وقال الكلبي : نظنكم نتيقنكم ، وقال مقاتل : نحسبكم أي في دعوى نوح وتصديقكم ، وقال صاحب العتيان : بل نظنكم كاذبين توسلا إلى الرئاسة والشهرة.
". (١)

"وقال ابن عباس : ﴿لاحتنكن﴾ لأستولين عليهم وقاله الفراء. وقال ابن زيد لأضلنهم. وقال الطبري : لأستأصلن وكفر إبليس بجهله صفة العدل من الله حين لحقته **الأنفة** والكبر ، وظهر ذلك في قوله ﴿قال أرءيتك هذا الذى كرمت﴾ إذ نص على أنه لا ينبغي أن يكرم بالسجود مني من أنا خير منه ، وأقسم إبليس على أنه يحتنك ذرية آدم وعلم ذلك إما بسماعه من الملائكة ، وقد أخبرهم الله به أو استدل على ذلك بقولهم : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء﴾ أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه ذو شهوة وعوارض كالغضب ونحوه ، وأرى خلقته مجوفة مختلفة الأجزاء ، وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عز ما فظن ذلك بذريته وهذا ليس بظاهر لأن قول ذلك كان قبل وسوسته لآدم في أكل الشجرة ، واستثنى القليل لأنه علم أنه يكون في ذرية آدم من لا يتسلط عليه كما قال ﴿لاغوينهم أجمعين﴾ والأمر

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/١٧٧

بالذهاب ليس على حقيقته من نقيض المجيء ولكن المعنى اذهب لشأنك الذي اخترته ، وعقبه بذكر ما جره سوء فعله من جزائه وجزاء اتباعه جهنم ، ولما تقدم اسم غائب وضمير خطاب غلب الخطاب فقال : ﴿جزآؤكم﴾ ويجوز أن يكون ضمير من على سبيل الالتفات والموفور المكمل ووفر متعد كقوله :
ومن يجعل المعروف من دون عرضهيفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ولازم تقول وفر المال يفر وفورا ، وانتصب ﴿جزآء﴾ على المصدر والعامل فيه ﴿جزآؤكم﴾ أو يجاوز مضمره أو على الحال الموطئة. وقيل : تمييز ولا يتعقل ﴿واستفزز﴾ معطوف على فاذهب وعطف عليه ما بعده من الأمر وكلها بمعنى التهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ومن في ﴿من استطعت﴾ موصولة مفعولة باستفزز. وقال أبو البقاء : ﴿من استطعت﴾ من استفهام في موضع نصب باستطعت ، وهذا ليس بظاهر لأن ومفعول ﴿فإن استطعت﴾ محذوف تقديره ﴿من استطعت﴾ أن تستفزه والصوت هنا الدعاء إلى معصية الله. وقال مجاهد : الغناء والمزامير واللهو. وقال الضحاك : صوت المزمار وذكر الغزنوي أن آدم أسكن ولد هابيل أعلى الجبل وولد قابيل أسفله. وفيهم بنات حسان ، فزمر الشيطان فلم يتمالكوا أن انحدروا واقترنوا. وقيل : الصوت هنا الوسوسة.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢
وقرأ الحسن ﴿وأجلب عليهم﴾ بوصل الألف وضم اللام من جلب ثلاثيا ، والظاهر أن إبليس له خيل ورجالة من الجن جنسه قاله قتادة ، والخيل تطلق على الأفراس حقيقة وعلى أصحابها مجازا وهم الفرسان ، ومنه : يا خيل الله اركبي ، والباء في ﴿بخيلك﴾ قيل زائدة. وقيل : من الآدميين أضيفوا إليه لانخراطهم في طاعته وكونهم أعوانهم على غيرهم قاله مجاهد.
وقال ابن عطية : وقوله ﴿بخيلك ورجلك﴾ . وقيل : هذا مجاز واستعارة بمعنى اسع سعيك وابلغ جهدك انتهى. وقال أبو علي ليس للشيطان خيل ولا رجل ولا هو مأمور إنما هذا زجر واستخفاف به كما تقول لمن تهدده اذهب فاصنع ما شئت واستعن بما شئت. وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم ، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم انتهى. وقرأ الجمهور : ﴿ورجلك﴾ بفتح الراء وسكون الجيم وهو اسم جمع واحد راجل كركب وراكب ، وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية وحفص بكسر الجيم. قال صاحب اللوامح بمعنى الرجال. وقال ابن عطية هي صفة يقال فلان يمشي رجلا أي غير راكب ومنه قول الشاعر :

رجلا إلا بأصحاب

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢

وقال

٥٨

." (١)

"لما ذكر تعالى أن الكفار يعبدون ما لا دليل على عبادته لا من سمع ولا من عقل ويتركون عبادة من خلقهم ، ذكر ما عليه معبوداتهم من انتفاء القدرة على خلق أقل الأشياء بل على رد ما أخذه ذلك الأقل منه ، وفي ذلك تجهيل عظيم لهم حيث عبدوا من هذه صفته لقوله ﴿إن الذين تدعون﴾ بتاء الخطاب. وقيل : خطاب للمؤمنين أراد الله أن يبين لهم خطأ الكافرين فيكون ﴿تدعون﴾ خطابا لغيرهم الكفار عابدي غير الله. وقيل : الخطاب عام يشمل من نظر في أمر عبادة غير الله ، فإنه يظهر له قبح ذلك. و﴿ضرب﴾ مبني للمفعول ، والظاهر أن ضارب المثل هو الله تعالى ، ضرب مثلا لما يعبد من دونه أي بين شبها لكم ولمعبودكم. وقيل : ضارب المثل هم الكفار ، جعلوا مثلا لله تعالى أصنامهم وأوثانهم أي فاسمعوا أنتم أيها الناس لحال هذا المثل ونحوه ما قال الأخفش قال : ليس ههنا ﴿مثل﴾ وإنما المعنى جعل الكفار لله مثلا. وقيل : هو ﴿مثل﴾ من حيث المعنى لأنه ﴿ضرب مثل﴾ من يعبد الأصنام بمن يعبد ما لا يخلق ذبابا.

وقال الزمخشري : فإن قلت : الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم انتهى.

وقرأ الجمهور ﴿تدعون﴾ بالتاء. وقرأ الحسن ويعقوب وهارون والخفاف ومحبوب عن أبي عمرو بالياء وكلاهما مبني للفاعل. وقرأ اليماني وموسى الأسواري بالياء من أسفل مبنيا للمفعول. وقال الزمخشري ﴿لن﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلا أن تنفيه نفيا مؤكدا ، وتأكيده هنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم كأنه قال : محال أن يخلقوا انتهى. وهذا القول الذي قاله في ﴿لن﴾ هو المنقول عنه أن ﴿لن﴾ للنفي على التأبيد ، ألا تراه فسر ذلك بالاستحالة وغيره من النحاة يجعل ﴿لن﴾ مثل لا في النفي ألا ترى إلى قوله ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ كيف جاء النفي بلا وهو الصحيح ، والاستدلال

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٦/٤١

عليه مذكور في النحو. وبدأ تعالى بنفي اختراعهم وخلقهم أقل المخلوقات من حيث أن الاختراع صفة له تعالى ثابتة مختصة لا يشركه فيها أحد ، وثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز وهو أمر سلب ﴿الذباب﴾ وعدم استنقاذ شيء مما ﴿يسلبهم﴾ وكان الذباب كثيرا عند العرب ، وكانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك. وعن ابن عباس : كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها فيدخل الذباب من الكوى فيأكله. وموضع ﴿ولو اجتمعوا لها﴾ قال الزمخشري : نصب على الحال كأنه قال مستحيل : أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه ، وتعاونهم عليه انتهى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٧٠

وتقدم لنا الكلام على نظير ﴿ولو﴾ هذه ، وتقرر أن الواو فيه للعطف على حال محذوفة ، كأنه قيل ﴿لن يخلقوا ذبابا﴾ على كل حال ولو في هذه الحال التي كانت تقتضي أن يخلقوا لأجل اجتماعهم ، ولكنه ليس في مقدورهم ذلك.

﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ قال ابن عباس : الصنم والذباب ، أي ينبغي أن يكون الضم طالبا لما سلب من طيبهم على معهود **الأنفة** في الحيوان. وقيل الآلهة و﴿ضعف الطالب﴾ الذباب فضعف الآلهة أن لا منعة لهم ، وضعف الذباب في استلابه ما على الآلهة. وقال الضحاك : العابد والمعبود فضعف العابد في طلبهم الخير من غير جهته ، وضعف المعبود في إيصال ذلك لعابده. وقال الزمخشري : وقوله ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ . وقيل : معناه التعجب أي ما أضعف الطالب والمطلوب.

﴿ما قدروا الله حق قدرها﴾ أي ما عرفوه حق معرفته منافيتين لصفات آلهتهم من القوة والغلبة حيث عبدوا من هو منسلخ عن صفاته وسموه باسمه ، ولم يؤهلوا خالقهم للعبادة ثم ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم من القوة والغلبة ﴿الله يصطفى﴾ الآية نزلت بسبب قول

٣٩٠

الوليد بن المغيرة ﴿عليه الذكر منا بيننا بل﴾ الآية ، وأنكروا أن يكون الرسول من البشر فرد الله عليهم بأن رسله ملائكة وبشر ، ثم ذكر أنه عالم بأحوال المكلفين لا يخفى عليه منهم شيء وإليه مرجع الأمور كلها. (١) ".

"والرفع على العطف على تقاتلونهم ، أو على القطع ، أي أو هم يسلمون دون قتال. ﴿فإن تطيعوا ﴾ : أي فيما تدعون إليه. ﴿كما توليتم من قبل﴾ : أي في زمان الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٨٣/٦

، في زمان الحديبية. ﴿يعذبكم﴾ : يحتمل أن يكون في الدنيا ، وأن يكون في الآخرة. ﴿ليس على الاعمى حرج﴾ : نفي الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ، ومع ارتفاع الحرج ، فجائز لهم الغزو ، وأجرهم فيه مضاعف ، والأعرج أحرى بالصبر وأن لا يفر. وقد غزا ابن أم مكتوم ، وكان أعمى ، في بعض حروب القادسية ، وكان رضي الله عنه يمسك الراية ، فلو حضر المسلمون ، فالغرض متوجه بحسب الوسع في الغزو. وقرأ الجمهور : يدخله ويعذبه ، بالياء ؛ والحسن ، وقتادة ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وابن عامر ، ونافع : بالنون ، قوله عز وجل :

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ .

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٧

لما ذكر تعالى حال من تخلف عن

٩٥

السفر مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذكر حال المؤمنين الخلص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضا الله تعالى عنهم ، ولذا سميت : بيعة الرضوان ؛ وكانوا فيما روي ألفا وخمسمائة وعشرين. وقال ابن أبي أوفى : وثلاثمائة.

وأصل هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل الحديبية ، بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له يقال له : الثعلب ، يعلمهم أنه جاء معتمرا ، لا يريد قتالا. فلما أتاهم وكلمهم ، عقروا جمله وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد بعث عمر. فقال : قد علمت فظاظتي ، وهم يبغضوني ، وليس هناك من بني عدي من يحميني ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني وأحب إليهم ، عثمان بن عفان. فبعثه ، فأخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، معظما لحرمته. وكان أبان بن سعيد بن العاصي حين لقيه ، نزل عن دابته وحمله عليها وأجاره ، فقالت له قريش : إن شئت فطف بالبيت ، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه. فقال : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال ، فصرخ صارخ من العسكر : قتل عثمان ، فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وقالو : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم. فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : البيعة البيعة ، فنزل روح القدس ، فبايعوا كلهم إلا الجد بن قيس المنافق. وقال الشعبي :

أول من بايع أبو سنان بن وهب الأسدي ، والعامل في إذ رضي. والرضا على هذا بمعنى إظهار النعم عليهم ، فهو صفة فعل ، لا صفة ذات لتقييده بالزمان وتحت ، يحتمل أن يكون معمولا ليبايعونك ، أو حالا من المفعول ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان تحتها جالسا في أصلها. قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائما على رأسه ، وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره. بايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : "أنتم اليوم خير أهل الأرض". وكانت الشجرة سمرة. قال بكير بن الأشجع : يوم فتح مكة. قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة يصلون عندها ، فبلغ عمر ، فأمر بقطعها. وكانت هذه البيعة سنة ست من الهجرة. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل النار من شهد بيعة الرضوان".

﴿فعلم ما فى قلوبهم﴾ ، قال قتادة ، وابن جريج : من الرضا بالبيعة أن لا يفروا. وقال الفراء : من الصدق والوفاء. وقال الطبري ، ومنذر بن سعيد : من الإيمان وصحته ، والحب في الدين والحرص عليه. وقيل : من الهم والانصراف عن المشركين ، **والأنفة** من ذلك ، على نحو ما خاطب به عمر وغيره ؛ وهذا قول حسن يترتب معه نزول السكينة والتعريض بالفتح القريب. والسكينة تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وعلى الأقوال السابقة قيل هذا القول ، لا يظهر احتياج إلى إنزال السكينة إلا أن يجازي بالسكينة والفتح القريب والمغانم. وقال مقاتل : فعلم ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت ، ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ حتى بايعوا. قال ابن عطية : وهذا فيه مذمة للصحابة ، رضي الله تعالى عنهم. انتهى.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٧

". (١)

"﴿بغير علم﴾ : أخبار عن الصحابة وعن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والامتناع من التعدى حتى أنهم لو أصابوا من ذلك أحدا لكان من غير قصد ، كقول النملة عن جند سليمان : ﴿وهم لا يشعرون﴾ . وبغير علم متعلق بأن تطؤهم. وقيل : متعلق بقوله : ﴿فتصيبكم منهم معرة﴾ من الذين بعدكم ممن يعتب عليكم. وقرأ الجمهور : لو تزيلوا ؛ وابن أبي عبلة ، وابن مقسم ، وأبو حيوة ، وابن عون : لو تزايلوا ، على وزن تفاعلوا ، ليدخل متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة ، وانتفاء العذاب. ﴿ليدخل الله فى رحمتها من يشآء﴾ : وهذا المحذوف هو مفهوم من جواب لو ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٧٢/٨

ومعنى تزيلوا : لو ذهبوا عن مكة ، أي لو تزيل المؤمنون من الكفار وتفرقوا منهم ، ويجوز أن يكون الضمير للمؤمنين والكفار ، أي لو افترق بعضهم من بعض. ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية﴾ : إذ معمول لعذبنا ، أو لو صدوكم ، أو لا ذكر مضمرة. **والحمية** : **الأنفة** ، يقال : حميت عن كذا حمية ، إذا أنفت عنه وداخلك عار وأنفة لفعله ، قال المتلمس :

إلا أنني منهم وعرضي عرضهمكذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما

وقال الزهري : حميتهم : أنفتهم عن الإقرار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو. وقال ابن بحر : حميتهم : عصبيتهم لآلهتهم ، **والأنفة** : أن يعبدوا وغيرها. وقيل : قتلوا آباءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبدا ؛ وكانت حمية جاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها ، وإنما ذلك محض تعصب لأنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء معظما للبيت لا يريد حربا ، فهم في ذلك كما قال الشاعر في حمية الجاهلية :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٧

وهل أنا إلا من غزية إن غوتغوين وإن ترشد غزية أرشد

وحمية : بدل من **الحمية** والسكينة الوقار والاطمئنان ، فتوقروا وحلموا ؛ و﴿كلمة التقوى ﴾ : لا إله إلا الله. روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه قال علي ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعمرو بن ميمون ، وقتادة ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وسلمة بن كهيل ، وعبيد بن عمير ، وطلحة بن مصرف ، والربيع ، والسدي ، وابن زيد. وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضا : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير. وقال علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، رضي الله تعالى عنهما : لا إله إلا الله ، والله أكبر. وقال أبو هريرة ، وعطاء الخراساني : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها. وقيل : هو على حذف مضاف ، أي كلمة أهل التقوى. وقال المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم : كلمة التقوى هنا هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي التي أباه ا كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها. وقيل : قولهم سمعا وطاعة. والظاهر أن الضمير في : ﴿وكانوا ﴾ عائد على المؤمنين ، والمفضل عليهم محذوف ، أي ﴿أحق بها﴾ من كفار مكة ، لأن الله تعالى

٩٩

اختارهم لدينه وصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم. وقيل : من اليهود والنصارى ، وهذه الأحقية هي في الدنيا. وقيل : أحق بها في علم الله تعالى. وقيل : ﴿وأهلها﴾ في الآخرة بالثواب. وقيل : الضمير في وكانوا عائد على كفار مكة لأنهم أهل حرم الله ، ومنهم رسوله لولا ما سلبوا من التوفيق.
﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾ ، إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ورفع الكفار عنهم ، وإلى علمه بصلح الكفار في الحديبية ، إذ كان سببا لامتزاج العرب وإسلام كثير منهم ، وعلو كلمة الإسلام ؛ وكانوا عام الحديبية ألفا وأربعمائة ، وبعده بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف.
." (١)

"المبالغة ، ثم جاء : ﴿مناع للخير معتد أثيم﴾ ، فمناع وأثيم صفتا مبالغة ، والظاهر أن الخير هنا يراد به العموم فيما يطلق عليه خير. وقيل : الخير هنا المال ، يريد مناع للمال عبر به عن الشح ، معناه : متجاوز الحد في الظلم. وفي حديث شداد بن أوس قلت : يعني لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وما العتل الزنيم ؟ قال : الرحيب الجوف ، الوتير الخلق ، الأكول الشروب ، الغشوم الظلوم. وقرأ الحسن : عتل برفع اللام ، والجمهور : بجرها بعد ذلك. وقال الزمخشري : جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده" ، وبعد ذلك نظير ثم في قوله : ﴿ثم كان من الذين ءامنوا ﴾ . وقرأ الحسن : عتل رفعا على الذم ، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك. انتهى. وقال ابن عطية : ﴿بعد ذالك﴾ : أي بعد أن وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف ، وإلا فكونه عتلا هو قبل كونه صاحب خبر يمنعه. انتهى. والزنيم : الملصق في القوم وليس منهم ، قاله ابن عباس وغيره. وقيل : الزنيم : المريب القبيح الأفعال ، وعن ابن عباس أيضا : الزنيم : الذي له زنمة في عنقه كزنمة الشاة ، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بزنمته. انتهى. وروي أن الأخفش بن شريف كان بهذه الصفة ، كان له زنمة. وروى ابن جبير عن ابن عباس أن الزنيم هو الذي يعرف بالشر ، كما تعرف الشاة بالزنمة. وعنه أيضا : أنه المعروف بالابنة. وعنه أيضا : أنه الظلوم. وعن عكرمة : هو اللئيم. وعن مجاهد وعكرمة وابن المسيب : أنه ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم ، وكان الوليد دعيا في قريش ليس من منحهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده. وقال مجاهد : كانت له ستة أصابع في يده ، في كل إبهام أصبع

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٨/٧٥

زائدة ، والذي يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين. ألا ترى إلى قوله : ﴿كل حلاف﴾ ، وقوله : ﴿إنا بلوناهم﴾ ؟ فإنما وقع النهي عن طواعية من هو بهذه الصفات.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤

قال ابن عطية ما ملخصه ، قرأ النحويان والحرميان وحفص وأهل المدينة : ﴿أن كان﴾ على الخبر ؛ وباقي السبعة والحسن وابن أبي إسحاق وأبو جعفر : على الاستفهام ؛ وحقق الهمزتين حمزة ، وسهل الثانية باقيهم. فأما على الخبر ، فقال أبو علي الفارسي : يجوز أن يعمل فيها عتل وأن كان قد وصف. انتهى ، وهذا قول كوفي ، ولا يجوز ذلك عند البصريين. وقيل : ﴿زنيم﴾ لا سيما على قول من فسره بالقبيح الأفعال. وقال الزمخشري : متعلق بقوله : ﴿ولا تطع﴾ ، يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب ، ﴿أن كان ذا مال﴾ : أي ليساره وحظه من الدنيا ، ويجوز أن يتعلق بما بعده على م؟نى لكونه متمولا مستظهرا بالبنين ، كذب آياتنا ولا يعمل فيه ، قال الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب. انتهى. وأما على الاستفهام ، فيحتمل أن يفسر عامل يدل عليه ما قبله ، أي أيكون طواعية لأن كان ؟ وقدره الزمخشري : أتطيعه لأن كان ؟ أو عامل يدل عليه ما قبله ، أي أكذب أو جحد لأن كان ؟ وقرأ نافع في رواية اليزيدي عنه : إن كان بكسر الهمزة. قال الزمخشري : والشرط للمخاطب ، أي لا تطع كل حلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه ، فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الرجاء إليه في قوله : ﴿أو يذكر﴾ . انتهى. وأقوال : إن كان شرط ، وإذا تتلى شرط ، فهو مما اجتمع فيه شرطان ، وليسا من الشروط المترتبة الوقوع ، فالمتأخر لفظا هو المتقدم ، والمتقدم لفظا هو شرط في الثاني ، كقوله :

فإن عثرت بعده١ا إن والتنفسي من هاء تاء فقولا لها لها

لأن الحامل على ترك تدبر آيات الله كونه ذا مال وبنين ، فهو مشغول القلب ، فذلك غافل عن النظر

٣١٠

والفكر ، قد استولت عليه الدنيا وأبطرته. وقرأ الحسن : أئذا على الاستفهام ، وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله القرآن أساطير الأولين لما تليت عليه آياته الله. ولما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ، ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد فقال : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ، والسمة : العلامة. ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان ، والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه ، ولذلك جعلوه مكان العز **والحمية** ، واشتقوا منه **الأنفة** وقالوا : حمي الأنف شامخ العرنين. وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه. وكان أيضا مما تظهر السمات فيه

لعلو ، قال : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ، وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبلاد ، إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف ، وإذا كان الوسم في الوجه شينا ، فكيف به على أكرم عضو فيه ؟ وقد قيل : الجمال في الأنف ، وقال بعض الأدباء :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤

". (١)

"وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطلفكيف إذا ما الخال كان له حليا

وسنسمه فعل مستقبل لم يتعين زمانه. وقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف ، أي يضرب به وجهه وعلى أنفه ، فيجيء ذلك كالوسم على الانف ، وحل به ذلك يوم بدر. وقال المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنوفهم. وقال آخرون : ذلك يوم القيامة ، أي نوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره. وقال قتادة وغيره : معناه سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به ، فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتا بينا ، كما تقول : سأطوقك طوق الحمامة : أي أثبت لك الأمر بينا فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي

وفي الوسم على الأنف تشويه ، فجاءت استعارته في المذمات بليغة جدا. قال ابن عطية : وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه ، وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأخروية ، رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم. انتهى. وقال أبو العالية ومقاتل ، واختاره الفراء : يسود وجهه قبل دخول النار ، وذكر الخرطوم ، والمراد الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض. وقال أبو عبد الله الرازي : إنما بالغ الكافر في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب **الأنفة والحمية** ، فلما كان شاهد الإنكار هو **الأنفة والحمية** ، عبر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ . انتهى كلامه. وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف ، لأن حقيقة الخرطوم هو للسباع. وتلخص من هذا أن قوله : ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ، أهو حقيقة أم مجاز ؟ وإذا كان حقيقة ، فهل ذلك في الدنيا أو في الآخرة ؟ وأبعد النضر بن شميل في تفسيره الخرطوم بالخمر ، وأن معناه سنحده على شربها.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤

ولما ذكر المتصف بتلك الأوصاف الذميمة ، وهم كفار قريش ، أخبر تعالى بما حل بهم من الابتلاء

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٣٢/٨

بالقحط والجوع بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف" الحديث ، كما بلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم. كانت بأرض اليمين بالقرب منهم قريبا من صنعاء لرجل كان يؤدي حق الله منها ، فمات فصارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله تعالى ، فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بهم. وقيل : كانت بصوران على فراسخ من صنعاء لناس بعد رفع عيسى عليه السلام ، وكان صاحبها ينزل للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكراس وما أخطاه القطاف من العنب وما بقي على السباط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير. فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ﴿ليصرمنها مصبحين﴾ في السدف خفية من المساكين ، ولم يستثنوا في يمينهم ؛ والكاف في ﴿كما بلونآ﴾ في موضع نصب ، وما مصدرية. وقيل : بمعنى

٣١١

الذي ، وإذ معمول لبلوناهم ليصرمنها جواب القسم لا على منطوقهم ، إذ لو كان على منطوقهم لكان لنصرمنها بنون المتكلمين ، والمعنى : ليجدن ثمرها إذا دخلوا في الصباح قبل خروج المساكين إلى عادتهم مع أبيهم. ﴿ولا يستثنون﴾ : أي ولا يثنون عن ما عزموا عليه من منع المساكين. وقال مجاهد : معناه : لا يقولون إن شاء الله ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره. وقال الزمخشري ، متبعا قول مجاهد : ولا يقولون إن شاء الله. فإن قلت : لم سمي استثناء ، وإنما هو شرط ؟ قلت : لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث أن معنى قولك : لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد. انتهى.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٤

". (١)

"تحية من غادرته غرض الردى ... إذا زار عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما وهذا قيس أول من وأد البنات في الجاهلية للغيرة **والأنفة** من النكاح، وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام.

(٩) وأما الأمير بدر الدين لؤلؤ المذكور، فإنه توفي يوم الجمعة ثالث شعبان سنة سبع وخمسين وستمائة بقلعة الموصل، ودفن بها في مشهد هناك، وعمره مقدار ثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

٧٦ - (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٨/٢٣٣

صلاح الدين الإربلي

أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإربلي الملقب صلاح الدين، وهو من بيت كبير بإربل؛ وكان حاجبا عن الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فتغير عليه واعتقله مدة، فلما أفرج عنه خرج منها قاصدا بلاد الشام في سنة ثلاث وستمائة (٢) صحبة الملك القاهر بهاء الدين أيوب ابن الملك العادل، فاتصل بخدمة الملك المغيث ابن الملك العادل، وكان قد عرفه من إربل، وحسنت حاله عنده، فلما توفي المغيث انتقل الصلاح إلأى الديار المصرية، وخدم الملك الكامل، فعظمت منزلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يصل إليه غيره، واختص به في خلواته وجعله أميرا.

وكان الصلاح ذا فضيلة تامة ومشاركات حسنة. بلغني أنه كان يحفظ

---

(١) للصلاح اربلي ترجمة في مرآة الزمان: ٦٩٢ والوافي ٧، الورقة: ٢٩ والشذرات ١٤٣.

(٢) هـ : ٦٠٦.." (١)

"فرقه فرقا، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى، وكلت حملاته وكان قدرا يضرب فيه العنان بالعنان (١) ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية، مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في نار الأنفة (٢) لهم نصرة، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم (٣) بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار، فكم أهلة سيوف تقارض

---

(١) وفيات الأعيان، ١٨٤/١

الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخا وكان الإسلام

---

(١) س: وكانت قدرا يصرف فيه العنان.

(٢) ق والمختار: الأكفة؛ س: الأنف.

(٣) وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم: هذه هي قراءة ر، وقد جاءت مضطربة في سائر النسخ؛ وربما قرئت " وعن أنصاف " .." (١)

"... وهم بأسفل مكة من ناحية يلملم(١)، وكان ذلك في شوال بعد فتح مكة قبل الخروج إلى حنين، فخرج إليهم في ثلاثمائة وخمسين، داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا.

... ٤٣٣٩- صبأنا: خرجنا من دين إلى دين. فجعل خالد يقتل: كأنه نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، وفهم أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة** وعدم الانقياد إلى الدين، فقاتلهم متأولا، قاله الخطابي(٢).

... أبرأ إليك مما صنع خالد: قال الخطابي: (أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: "صبأنا" (٣)، زاد الباقر في روايته: (ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليا، فقال: اخرج إلى هؤلاء، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فذهب حتى جاءهم ومعه مال، فلم يبق لهم أحد إلا وداه)(٤).

---

(١) موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن، انظر معجم البلدان ٥/٤٤١.

(٢) في أعلام السنن، ص: ٩٦٥-٩٦٦، وقد نقله الشبيءي من الفتح ٨/٧١.

(٣) أعلام السنن ص: ٩٦٥، وهو في الفتح ٨/٧٢.

(٤) نقلا عن الفتح ٨/٧٢.

وفي القصة من عظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ورأفته بالناس، ما ذكره ابن إسحاق من حديث ابن أبي حدرد الأسلمي قال: "كنت في خيل خالد فقال لي فتى من بني جذيمة قد جمعت يداه في عنقه برمة: يا فتى هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النسوة؟ فقلت نعم، فقدته بها فقال: أسلمي

---

(١) وفيات الأعيان، ٧/١٨٢

حبيش، قبل نفاد العيش، قال: ثم ضربت عنق الفتى، فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت".

وقد روى النسائي والبيهقي في الدلائل بسند صحيح من حديث ابن عباس نحو هذه القصة وفيها: " فقال إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم فدعوني أنظر إليها نظرة، فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟".

وأخرجها البيهقي، وفي آخرها: " فانحدرت إليه من هودجها فحنت عليه حتى ماتت، انظر فتح الباري ٨/٧٢.." (١)

"... وهم بأسفل مكة من ناحية يلملم(١)، وكان ذلك في شوال بعد فتح مكة قبل الخروج إلى حنين، فخرج إليهم في ثلاثمائة وخمسين، داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا.

... ٤٣٣٩- صبأنا: خرجنا من دين إلى دين. فجعل خالد يقتل: كأنه نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، وفهم أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة** وعدم الانقياد إلى الدين، فقاتلهم متأولا، قاله الخطابي(٢).

... أبرأ إليك مما صنع خالد: قال الخطابي: (أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: "صبأنا" (٣)، زاد الباقر في روايته: (ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليا، فقال: اخرج إلى هؤلاء، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فذهب حتى جاءهم ومعه مال، فلم يبق لهم أحد إلا وداه)(٤).

---

(١) موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن، انظر معجم البلدان ٥/٤٤١.

(٢) في أعلام السنن، ص: ٩٦٥-٩٦٦، وقد نقله الشبيهي من الفتح ٨/٧١.

(٣) أعلام السنن ص: ٩٦٥، وهو في الفتح ٨/٧٢.

(٤) نقلا عن الفتح ٨/٧٢.

وفي القصة من عظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ورأفته بالناس، ما ذكره ابن إسحاق من حديث ابن أبي حدرد الأسلمي قال: "كنت في خيل خالد فقال لي فتى من بني جذيمة قد جمعت يداه في عنقه برمة: يا فتى هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النسوة؟ فقلت نعم، فقدته بها فقال: أسلمي حبيش، قبل نفاد العيش، قال: ثم ضربت عنق الفتى، فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت".

---

(١) إتحاف القاري بدرر البخاري، ٥/٦٨

وقد روى النسائي والبيهقي في الدلائل بسند صحيح من حديث ابن عباس نحو هذه القصة وفيها: " فقال إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم فدعوني أنظر إليها نظرة، فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟".

وأخرجها البيهقي، وفي آخرها: " فانحدرت إليه من هودجها فحنت عليه حتى ماتت، انظر فتح الباري ٧٢/٨.." (١)

"لتكون كلمة الله أي دين الإسلام.

حمية هي الأنفة والغيرة والمحاماة عن عشيرته.." (٢)

"تخريجه) (ك حب طس بز) وصححه ابن حبان والحاكم واقره الذهبي وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (باب) (٥) الغيرة بفتح الغين المعجمة وسكون التحتية وفتح الراء والغيرة في حقنا هي الحمية والأنفة يقال رجل غيور وامرأة غيور بلا هاء لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى (٦) (سنده) حدثنا اسود بن عامر انا كامل

٢٠٧@@@

غيرة الله على مرتكب المعاصي

قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اما تغار ؟ قال والله أني لأغار والله أغير منى (١) ومن غيرته نهى عن الفواحش (وعنه من طريق ثان) (٢) ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن يغار (٣) والله يغار ومن غيرة الله أن يأتي المؤمن شيئا حرم الله (٤) (وعنه أيضا) (٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن المؤمن مرتين أو ثلاثا يغار يغار (٦) والله أشد غيرا (عن المغيرة بن شعبة) (٧) الله قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امراتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتعجبون من غيرة سعد واله لأنا أغير منه والله أغير مني (٧) ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا شخص أغير من الله (٩) ولا شخص أحب اليه العذر (١٠) من الله من أجل ذلك بعث

---

(١) الفجر الساطع/الزرهوني -شرح البخاري، ٦٨/٥

(٢) الديباج على مسلم، ٤٩٨/٤

الله المرسلين مبشرين ومنذرين ولا شخص أحب إليه مدحة من الله (١١) من أجل ذلك وعد الله الجنة (ومن طريق ثان) قال حدثنا عبيد الله القواريري ليس." [١]

"صحيح الإسناد (تخريجه) (نس حب) والبغوي وسنده صحيح (سنده) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن سالم بن عبد الله الخ (غريبة)أي ظنه، وقد جاء في رواية البخاري بني جزيمة بالتحقيق بدون ظن أي دخلنا في دين الصابئة، وكان أهل الجاهلية سيمون من أسلم صابئا وكأنهم قالوا أسلمنا، والصابئي في الأصل الخارج من دين إلى دين كما في القاموس أنكر النبي (ص) على خالد عدم التثبت في أمرهم وأنه لم يتئد حتى يقف على المراد من قولهم: وفهم خالد أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة** ولم ينقادوا إلى دخولهم في دين الله عز وجل ففعل ما فعل، ولذلك تبرأ النبي(ص) من فعله ولم يتبرأ منه، وهكذا ينبغي أن يقال لمن فعل ما يخالف الشرع ولاسيما إذا كان خطأ، وقد عذر النبي (ص) خالدا في اجتهاده ولذا لم يقتض منه (تخريجه)(خ. وغيره) (باب) (سنده) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا سليمان بن داود الها شمي أنبأن أبو بكر بن عياض ثنا عاصم عن أبي وائل الخ (غريبة) على وزن غرفة هم الجند والجمع شرط مثل غرف ورطب بضم الهمزة ولم يصرح باسمه في الطريقين وسيأتي ذكرا بن أثال في باب سرية محمد بن مسلمة قبل نجد من أبواب الغزوات مصرحا باسمه بلفظ (ثمامة بن أثال) وترجمة الحافظ في الإصابة بأنه ثمامة بن أثال بن النعمان وجاء في هذا الحديث (ابن أثال بن جحر فيكون هذا غير ذلك والله أعلم) (سنده) حدثنا عبد الله

-٦٢- @@@

النهي عن قتل المشرك غدرا ماله." [٢]

"٩-٣٢٠

قال في الجزء التاسع ص ٣٢٠ لما تكلم على قوله ما أحد أغير من الله " قال عياض: ويحتمل أن تكون الغيرة في حق الله الإشارة إلى تغير حال فاعل ذلك، وقيل: الغيرة في الأصل **الحمية والأنفة**، وهو تفسير بلازم التغير فيرجع إلى الغضب، وقد نسب سبحانه وتعالى إلى نفسه في كتابه الغضب والرضا.وقال ابن العربي: التغير محال على الله بالدلالة القطعية، فيجب تأويله بلازمه، كالوعيد أو إيقاع العقوبة بالفاعل، ونحو ذلك "

---

(١) الفتح الرباني/ الساعاتي (أجزاء منه)، ١٤/١

(٢) الفتح الرباني/ الساعاتي (أجزاء منه)، ١٢١/١

ج . الصواب إثبات صفة الغيرة لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تمثيل بغيرة المخلوقين وما ذكره هؤلاء الذين نقل عنهم لا حاجة إليه . (١)

---

(١) إلى هنا وقف المؤلف رحمه الله .." [١]

"وقوله فى الضعفاء : أتباع الرسل دون أشرافهم : لأن الرياسة (١) والشرف يأبى من انحطاطه لغيره وتسويد غيره عليه برياسة ، وأنفسهم تأنف من الاتباع إلا من هداه الله – سبحانه – لرشده .

والضعفاء ليس عليهم معنى للشيطان من ذلك ، فكانوا أقبل للاتباع وأطوع للهدى من اولئك ، وأعدم لأسباب **الأنفة**[و] (٢) الحسد فى الظهور منهم .

وقوله : (كذلك الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب) : أصل البشاشة : اللطف بالرجل وتأنيسه ، يقال : بش وبشش .

وهذه الرواية أصح من رواية : (بشاشة القلوب) .

قال الإمام : الذى استدل به هرقل على نبوته طه مما لاينتصب دليلا قاطعا عند المحققين ، د انما الدليل القاطع على النبوعة المعجزات الخارقة للعادات المعلوم منها المعارضات .

وأما قوله : (ذو حسب) ، وكون أتباعه شرفاء / أو ضعفاء يزيدون أو ينقصون ،

وهل الحرب سجال أم لا ؟ فليس بأدلة قاطعة على نبوة النبى! ، كما قرنا .

ولعل هرقل كان عنده اخبار عن كون هذه علامات فى هذا للنبى محل ، وقد قال فى الحديث : (وقد كنت اعلم انه خارج ولم كن أظن انه منكم) .

وكتابته ! إليه فيه دلالة على ان اليسير من القرار كالآية ونحوها بخلاف حكم كثيره ؛ لأن القرآن لايسافر به إلى بلد الحرب (٣) والجنب ابيح له منه الآية والآيتان على جهة التعوذ .

وقوله : (الحرب سجال) : أصل المستقيان بالسجل يكون لكل واحد منهما سجل .

والسجل : الدلو الملأى .

وقوله ! : (فإن توليت فإن عليك إثم الأرشيين) : قال الإمام : ويروى (اليريسيين) (٤) بالياء و(الاءرشيين) بالهمزة ، وقد اضطرب فى معنى هذه اللفظة

(١) فى الأصل : الدياسة ، وهو تصحيف ، والمثبت من س .

---

(١) التعليق على فتح الباري – للدويش، ص/٤٣

(٢) فى الأصل : فى ، ولا معنى لها .
(٣) الاستذكار ١٤ / ٥٢ وما بعدها .
(٤) رواية حسن لطلولنى ، وعبد بن حميد .
قال الخطابى : روى هكذا بالياه جميع روايات البخارى .
انظر : اعلام الحديث للخطابى ١ / ١٣٦ .

١ / ٨٠
١٢٠ كتاب الجهاد / باب كتاب النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ضعفاؤهم ، وهم آدباع الرشل .
وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكنب قتل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أثه لم يكن ليدع الكذب على الئاس ثم ينهب فيكذب على الله .
وسألتك : هل يرتد أحد منهم عن !ينه بعد أن يدخله سخطة له ؟ فزعمت أن لا ، ولنلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب .
وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت
اضطرابا كثيرا ، وأمثل ما أحفظ فى ذلك أن المراد به : الاكارون (١) او الملوك والروساء .
قال ابن الأعرابى : أرس الرجل يأرس أرسا صار أريسا ، أى كارا ، وآرس يورس محله وهو ا لأرش! ، وجمعه ا لأرشميون ، والإريس وجمعه ا لأرش!ون وأرارسة .
قال الإمام : فيكون المعنى على هذا : إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لك .
ونبه بالأكارين على الرعايا ؛ لأنهم الأغلب فى رعاياه ؛ إذ هم أكثر انقيادا من غيرهم ، وقد يراد به – أيضا – الملوك والرؤساء فيكون المعنى على هذا التأويل : فإن عليك إثم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها ، وهذا يعود إلى قريب من المعنى الأول .
قال القاضى : يعضد التأويل الأول الذي اختاره انه قد جاء منصوصا فى الحديث .
ذكره أبو عبيد فى كتاب الأموال ، وقال فيه : دان لم تدخل فى الإسلام فاعط الجزية ، ثم قال : وإلا فلاتحل بين الفلاحن وبن الإسلام .
وفى رواية ابن وهب : (وإثمهم عليك) .
قال أبو عبيد : الفلاحون هنا : الزارعون خاصة ، لكن اراد بهم جميع أهل مملكته ؛ لأن كل من يزرع عند

العرب فلاح ، ولى ذلك بيده او وليه له غيره .

وأصل هذا فى كتاب الله قوده تعالى : ﴿ رئنا إتا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السيلا﴾ (٢) وقوده تعالى : ﴿ يقول النين امشغ!عفوا لئنفى امتكبروا لولا أنتم لـ كتا مؤمنين﴾ (٣) .

وقال بعضهم : من قال : (اليريسيون) فمن التبختر ، يقال : رأس يرأس ريسا وريسانا : إذا تبختر ، ورأس يراس روسا أيضا .

وحكى الخطابى : إن الذين كانوا يحرثون أرضهم كانوا مجوسا ، يقول : عليك إثم المجوس (٤) .

وأنكر ابو عبد الله القزاز الياء فى ذلك ، وقال : صوابه عندى : (الاءريسيون) .

وقال أبو عبيدة : المحفوظ : (الاءريسين) ، وفى كتاب ابن السكن فى تفسيره : يعنى اليهود والنصارى ، قيل : هم أتباع عبد الله بن اريس ، وهذا الذى ينسب إليه الأروسية () من النصارى ، ولهم

(١) جا فى رولية ابن بسحق : (فإن إثم الاريين عليك) .

البداية وللنهاية ٤ / ٢٦٣ .

(٢) ١ لأحزاب : ٦٧ .

(٣) سبأ : ٣١ .

(٤) أعلام الحديث ١ / ١٣٧ ، غريب الحديث ١ / ٤٩٩ وما بعدها .

(٥) فى المال : الأرسية .

". (١)

" حلو اللسان له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية شريف الأنفة عظيم النزاهة كريم الأخلاق مأمون الغائلة مؤدب الخدام

قال محمد بن إبراهيم الشيباني من صفة الكاتب اعتدال القامة وصغر الهامة وخفة اللهازم وكثاثة اللحية وصدق الحس ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وخطف الإشارة وملاحة الزي قال ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس نظيف المجلس ظاهر المروءة عطر الرائحة دقيق الذهن حسن البيان رقيق حواشي اللسان حلو الإشارة مليح الاستعارة لطيف المسلك مستفره المركب ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة

---

(١) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم - للقاضي عياض، ٦٠/٦

متفاوت الأجزاء طويل اللحية عظيم الهامة فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة ولله القائل

(وشمول كأنما اعتصروها ... من معاني شمائل الكتاب)

وقال أبو الفضل الصوري ينبغي أن يكون الكاتب فصيحا بليغا أديبا سني الرتبة قوي الحجة شديد العارضة حسن الألفاظ له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود

قال المهذب بن مماتي أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعمله من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفائها قلت وهذا قد يخالف ما تقدم من أنه ينبغي أن يكون الكاتب ." (١)

" أكفائه ونظرائه من بطانته والمقربين من حضرته ليكون ذلك داعيا إلى محبته والثناء عليه مكافأة له وإمساك الألسن عن الطعن فيه

ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه ويورده إيراد مستفيد لا مفيد ومتعلم لا معلم ويتلطف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعوه إلى العمل به فإن من عادة الملوك والرؤساء **الأنفة** من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة وإن تمكن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادعة بذلك لنفسه الأبية وعزته المتقاعسة

الضرب الثاني آداب عشرة الأكفاء والنظراء

قال علي بن خلف ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء والمساواة في الصفاء ومقابلة كل حالة بما يضاهيها أما المسامحة بالحقوق والإغضاء عمن قصر والمحافظة على ود من فرط فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حق الاعتزاء إليها عن حقوق القرابات الدانية والأنساب الراسخة ولذلك وقع في كلام بعضهم الكتابة نسب قال علي بن خلف والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسب نفساني لا جسماني يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوة إلى الفعل بدليل ما نراه من اتفاق خواطرهم على كثير من المعاني التي يستنبطونها وتواردهم فيها ولولا تناسب الغرائز وتشابهها لم يكن أن يتواطؤا في أكثر الأحوال على معان متكافئة متوافية

---

(١) صبح الأعشى، ١/١٠٠

قال وإذا كنا نحفظ من مت إلينا بالأنساب الجسمية التي لا تعارف بينها فأولى أن نحفظ من مت إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف ولذلك ." (١)

" حاكيا له

ولمثل ذلك توضع الدساتر وتدون الدواوين على أنه ربما غير وبدل وحرف وصحف وأزال اللفظ عن وضعه وأحال المعنى عن حكمه وبعضهم ربما حملته **الأنفة** والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته فعدل إلى كلام غيره فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده وينتهي إلى مراده

فإن كان لطيف الذوق حسن الاختيار رائق الترتيب فاختار من خلال السجع لطيفه وأحسن رصفه وتأليفه جاء بهجا رائقا لأنه أتى من كلام بأحسنه إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذي قصده الناثر وتفريق ما دون من كلام الأفاضل وتبديد شمله وخروج الكلام عن أن يعرف قائله ويعلم منشئه فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدي بهديه وينسج على منواله

وإن لم يكن لطيف الذوق ولا حسن الاختيار جاء مالفقه من كلام غيره رثا ركيكا نابيا عن الذوق بعيدا عن الصنعة يعاد من النسخ إلى المسخ وأخرج الكلام عن موضوعه وأفسده في وضعه وتركيبه فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ثم لا يكتفي بذلك حتى يتبجح به ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته محتجا في ذلك بقول الحريري إن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق ظانا أن التفليق هو ضم سجعات منتظمة وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها وإضافة كلمة إلى مشاكلتها وشتان ما بين التلفيقين وبعدا لما بين الطريقين

(وللزنبور والبازي جميعا ... لدى الطيران أجنحة وخفق)

(ولكن بين ما يصطاد باز ... وما يصطاده الزنبور فرق)

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهرا مكشوفا فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته واللفظ بصورته فيصير ناسخا لكلام غيره وناقلا له فأي فضيلة في ذلك ." (٢)

---

(١) صبح الأعشى، ١/١١٤

(٢) صبح الأعشى، ٢/٣١٦

" الإماق وتأكلوا الرباق من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة

وهذا الكتاب مما يحتاج إلى شرح غريبه ليفهم فالوظيفة النصاب في الزكاة وأصله الشيء الراتب والفريضة الهرمة المسنة والمراد أنها لا تؤخذ منهم في الزكاة بل تكون لهم والفريش بالفاء والشين المعجمة ما انبسط من النبات وفرش على وجه الأرض ولم يقم على ساق وقد يطلق على الفرس إذا حمل عليها بعد النتاج أيضا وذو العنان الركوب الفرس الذلول والفلو المهر الصغير وقيل الفطيم من جميع أولاد الحافر والضبيس بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة العسر الصعب الذي لم يرض والسرح السارحة وهي المواشي والمعنى أنها لا تمنع من المرعى والعضد القطع والطلح شجر عظام من شجر العضاه والدر اللبن والمراد ذوات الدر من المواشي أراد أنها لا تحشر إلى المصدق وتمنع المرعى إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد لما في ذلك من الإضرار والإماق مخفف من أمأق الرجل إذا صار ذا مأقة وهي **الحمية والأنفة** وقيل مأخوذ من الموق وهو الحمق والمراد إضمار النكث والغدر أو إضمار الكفر والرباق بالراء المهملة والباء الموحدة والقاف جمع ربقة وهي في الأصل اسم لعروة تجعل في الحبل وتكون في ." (١)

" والأمور بحمد الله ساكنة والبلاد والمنة لله آمنة والرعايا في مكانها قاطنة والسيوف في أغمادها مثل النيران في قلوب حسادها كامنة وأقام أهل الطاعة بالفرض واستوفى بهم القرض وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض وأعز أنصار المقام الشريف العالي وأعز نصره وأعد لعدوه حصره وأتى بدولته الغراء تسمو شموسها وتثمر غروسها وتظهر في حلل الصباح المشرق عروسها وتجيء منه بخير راع للرعية يسوسها وبشره بالملك والدوام وسره بما اجتمع له من طاعة الأنام وأقدمه على كرسي ملكه تظله الغمام وأراه يوم أعدائه وكان لا يظن أن يرى في المنام ولا يزال مؤيد الهمم مؤكد الذمم مجدد البيعة على رقاب الأمم ولا برحت أيامه المقبلة مقبلة بالنعم خضر الأكناف على رغم من كاد وغيظ من رغم ولا فتئت عهود سلفه الشريفة تنشأ له كما كانت ورعاياه تدين له بما دانت وجنوده تفديه من النفوس بأعز ما ذخرت وما صانت وسعادة سلطانه تكشف الغمم وتنشر الذمم وتعيد إلى أنوف أهل **الأنفة** الشمم وتحفظ ما بقي لأوليائه من بياض الوجوه وسواد اللمم

سطرها وأصدرها وقد حققت بعوائد الله الظنون وصدقت الخواطر العيون وأنجز الله وعده وأتم سعده وجمع على مقامه الكريم قلوب أوليائه وفرق فرق عدوه وأباته بدائه ووطد لرقيه المنابر ورجل لترقيه العساكر

---

(١) صبح الأعشى، ٦/٣٥٥

وهيأ لمقاتل أعدائه في أيدي أوليائه السيوف البواتر وأخذ قوصون وأمسك ونهب ماله واستهلك وهدمت أبنيته وهدت أفنيته وخربت دياره وقلعت آثاره وأخليت خزائنه وأخرجت من بطون الأرض دفائنه وما مانعت عنه تلك الربائب التي ظنها قساور ولا ناضلت تلك القسي التي طبعها أساور ولا أغنى عنه ذلك المال الذي ذهب ولا ذلك الجوهر الذي كان عرضا لمن نهب وأعيد إلى المهد ذلك الطفل الذي أكل الدنيا باسمه وقهر أبناءها بحكمه ومو ه ب على الناس وأخلى له الغاب وما خرج من الكناس وغالب به الغلب حتى وطيء الرقاب وداس الأعقاب وخادع ودله الشيطان بغروره ودلس عليه عاقبة أموره فاعتد ." (١)

" فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد المتكاثرة المدد الموعودة بالنصر الذي يحفها في الظعن والإقامة الواثقة به من قوله (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة)

المبلغة في نصر دين الله آمالا المستعدة لإجابة داعي الله إذا قال (انفروا خفافا وثقالا)

وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا وأكرمنا وفادتهم وغزرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم وسمعنا خطابهم وأعدنا عليهم جوابهم هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم ولا ضعف أمرهم وأنهم ما دفعوا لأفواه الخطوب إلا لما ارتكبوه من ذنوب وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله ولا ينتدب لمثل هذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابه وفضله

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها

وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب فأحسن له الجواب وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها وأدركت **الأنفة** من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها فنقول إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله تعالى به مجتنبا ما عنه

(١) صبح الأعشى، ٦/٦١٤

نهى وانتظم في سلك الإيمان وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان وتجنب التشبه بمن قال ." (١)

" واحد لا سيما إذا فعل ذلك مستبيحا له ومن أعظم العظائم عندهم إنكار خلافة هارون عليه السلام والأنفة من كونها

وقد رتب في التعريف يمينهم على مقتضى ذلك فذكر أن يمينهم

إنني والله والله العظيم الباريء القادر القاهر القديم الأزلي رب موسى وهارون منزل التوراة والألواح الجوهر منقذ بني إسرائيل وناصب الطور قبلة للمتعبدين وإلا كفرت بما في التوراة وبرئت من نبوة موسى وقلت إن الإمامة في غير بني هارون ودكيت الطور وقلعت بيدي أثر البيت المعمور واستبحت حرمة السبت وقلت بالتأويل في الدين وأقررت بصحة توراة اليهود وأنكرت القول بأن لا مساس ولم أتجنب شيئا من الذبائح وأكلت الجدي بلبن أمه وسعيت في الخروج إلى الأرض المحظور علي سكنها وأتيت النساء الحيض زمان الطمث مستبيحا لهن وبت معهن في المضاجع وكنت أول كافر بخلافة هارون وأنفت منها أن تكون

الفرقة الثالثة ممن تدعو الضرورة إلى تحليفه النصرانية

وقد اختلف في اشتقاقها فقيل أخذا من قول المسيح للحواريين (من أنصاري إلى الله) وقول الحواريين (نحن أنصار الله) وقيل من نزوله هو وأمه بعد عودها به من مصر بالناصرة وهي قرية من بلاد فلسطين من الشام وقيل غير ذلك

والنصارى هم أمة عيسى عليه السلام وكتابهم الإنجيل وقد اختلف في اشتقاقه على ثلاثة مذاهب حكاها أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب ." (٢)

"وأما ما وجدته في أخلاقها ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخلق الجمال والبسطة، ومنها في الخلق السخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء، والعفاف، والبر، والعقل، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشكر، والمداراة، والعفو، والعدل والإحسان، وصلة الرحم، وكتم السر، والمواناة، وأصالة الرأي، والأنفة، والدهاء وعلو الهمة، والتواضع، والبيان، والبشر، والجلد، والتجارب، والنقض والإبرام. وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قرى

(١) صبح الأعشى، ٢٧١/٧

(٢) صبح الأعشى، ٢٧٣/١٣

الأضياف، وإعطاء العفاة، وحمل المغارم، وقمع الأعداء، وكظم الغيظ، وفهم الأمور، ورعاية العهد، والفكرة في العواقب، والجد، والتشمير، وقمع الشهوات، والإيثار على النفس، وحفظ الودائع، والمجازاة، ووضع الأشياء مواضعها، والذب عن الحريم، واجتلاب المحبة، والتنزه عن الكذب، واطراح الحرص، وإدخار المحامد والأجر، والاحتراز من العدو، وسيادة العشيرة، واجتناب الحسد، والنكاية في الأعداء، وبلوغ الغابات، والاستكثار من الصدق، والقيام بالدية وكبت الحساد، والإسراف في الخير، واستدامة النعمة، وإصلاح كل فاسد، واعتقاد المنن، واستعباد الأحرار بها، وإيناس النافر، والإقدام على بصيرة، وحفظ الجار.
وأضداد هذه الخلال: البخل، والجبن، والطيش، والجهل، والغدر، والاغترار، والفشل، والفجور، والعقوق، والخيانة، والحرص والمهانة، والكذب، والهلع، وسوء الخلق، ولؤم الظفر، والخور، والإساءة، وقطيعة الرحم، والنميمة، والخلاف، والدناءة، والغفلة، والحسد، والبغي، والكبر، والعبوس، والإضاعة، والقبح، والدمامة، والقماءة، والابتذال، والخرف، والعجز، والعي.
ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حسنها، وتزيد في جلالة المتمسك بها، كما أن لأضدادها أيضا حالات تزيد في الحط ممن وسم بشيء منها ونسب إلى استشعار مذمومها، والتمسك بفاضحها، كالجود في حال العسر موقعه فوق موقعه في حال الجدة، وفي حال الصحو أحمد منه في حال السكر، كما أن البخل من الوافر القادر أشنع منه من المضطر العاجز، والعفو في حال المقدرة أجل موقعا منه في حال العجز، والشجاعة في حال مبارزة الأقران أحمد منها في حال الإحراج ووقوع الضرورة، والعفة في حال اعتراض الشهوات والتمكن من الهوى أفضل منها في حال فقدان اللذات، واليأس من نيلها، والقناعة في حال تبرج الدنيا ومطامعها أحسن منها في حال اليأس وانقطاع الرجاء منها.
وعلى هذا التمثيل، وجميع الخصال التي ذكرناها. فاستعملت العرب هذه الخلال وأضدادها، ووصفت بها في حالي المدح والهجاء مع وصف ما يستعد به لها ويتهأ لاستعماله فيها، وشعبت منها فنونا من القول وضروبا من الأمثال وصنوفا من التشبيهات ستجدها على تفننها واختلاف وجوهها في الاختيار الذي جمعناه، فتسلك في ذلك منهاجهم، وتحتذي على مثالهم إن شاء الله تعالى.
؟عيار الشعر
علة حسن الشعر." (١)

(١) عيار الشعر، ص/٥

"قال أخشنوار: لا يغرنك ما تخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك، فإن الناس لو كانوا يعطون العهود على ما تصف من إسرار أمر وإعلان آخر، إذا ما كان ينبغي لأحد أن يغتر بأمان ولا يثق بعهد، وإذا لما قبل الناس شيئا مما يعطونه من ذلك، ولكنه وضع على العلانية وعلى نية من تعقد العهود والشروط له. فانصرفا يومهما ذلك فقال فيروز لأصحابه: لقد كان أخشنوار حسن المحاورة، وما رأيت للفرس الذي كان تحته نظيرا في الدواب فإنه لم يزل قوائمه ولم يرفع حوافره عن موضعهم ولا صهل ولا أحدث شيئا يقطع به المحاورة في طول ما تواقفنا. وقال أخشنوار لأصحابه: لقد واقفت فيروز كما علمتم وعليه السلاح كله فلم يحرك رأسه ولم ينزع رجله من ركابه ولا حنا ظهره ولا التفت يمينا ولا شمالا، ولقد توركت أنا مرارا وتمطيت على فرسي وتلفت إلى من خلفي ومددت بصري في أمامي وهو منتصب ساكن على حاله، ولولا م حاورته إياي لظننت أنه لا يبصرني. وإنما أرادا بما وصفا من ذلك أن ينتشر هذان الحديثان في أهل عسكريهما فيشغلوا بالإفاضة فيهما عن النظر فيما تذاكراه. فلما كان في اليوم الثاني أخرج أخشنوار الصحيفة التي كتبهم لهم فيروز، فرفعهم على رمح لينظر إليهم أهل عسكر فبروز فيعرفوا غدره وبغيه ويخرجوا من متابعته، فانتقض عسكر فيروز واختلفوا وما لبثوا إلا يسيرا حتى انهزموا وقتل منهم خلق كثير وهلك فيروز، فقال أخشنوار: لقد صدق الذي قال: لا راد لما قدر، ولا أشد إحالة لمنافع الرأي من الهوى واللجاج، ولا أضيع من نصيحة يمنحهم من لا يوطن نفسه على قبولهم والصبر على مكروههم ، ولا أسرع عقوبة ولا أسوأ عاقبة من البغي والغدر، ولا أجلب لعظيم العار والفضوح من إفراط الفخر **والأنفة**.

بين شبيب الخارجي والحجاج

وقال أبو اليقظان: لما خرج شبيب بن يزيد نعيم الخارجي بالموصل بعث إليه الحجاج قائدا، فقتله كذلك حتى أتى على خمسة قواد قتلهم وهزم جيوشهم وكان أحد القواد موسى بن طلحة بن عبيد الله، ثم خرج شبيب من الموصل يريد الكوفة وخرج الحجاج من البصرة يريد الكوفة فطمع شبيب أن يلقى الحجاج قبل أن يصل إلى الكوفة فأقحم الحجاج خيله فدخل الكوفة قبله، ومر شبيب بعتاب بن ورقاء فقتله ومر بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهرب منه، وقدم شبيب الكوفة آلى ألا يبرح عنهم أو يلقى الحجاج فيقتله أو يقتل دونه، فخرج الحجاج إليه في خيله، فلما قرب منه عمد إلى سلاحه فألبسه أبا الورد مولاه وحمله على الدابة التي كان عليهم ، فلما تواقفا قال شبيب: أروني الحجاج، فأومأوا له إلى أبي الورد فحمل عليه فقتله، ثم خرج من الكوفة يريد الأهواز فغرق في دجيل وهو يقول: " ذلك تقدير العزيز العليم " .

الأوقات التي تختار للسفر والحرب

للزهري عن الرسول

قال: حدثني محمد بن عبيد قال: حدثنا يزيد بن هم رون عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري قال: كان أحب الأيام إلى رسول الله أن يعقد فيه رايته يوم الخميس، وكان أحب إلى رسول الله أن يسافر فيه يوم الخميس.

وقالت العجم: أخر الحرب ما استطعت فإن لم تجد بدا فاجعل ذلك آخر النهم ر.

وحدثني محمد بن عبيد عن معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن ابن عون عن محمد بن سيرين أن النعمان بن مقرن قال لأصحابه: إني لقيت مع رسول الله فكان من أحب ما يلقى فيه إذا لم يلق في أول النهم ر إذا زالت الشمس و حلت الصلاة وهبت الرياح ودعا المسلمون.

ويروي قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يكره الحجامة والابتداء بعمل في محاق القمر وفي حلوله في برج العقرب. " وقال بعضهم: كنت مع عمر بن عبد العزيز فوق سطح وهو يريد الركوب، فنظرت فإذا القمر بالدبران فقلت: انظر إلى القمر ما أحسن استواءه! فرفع رأسه ثم نظر فرأى منزلته فضحك، وقال: إنما أردت أن ننظر إلى منزلته، وإنا لا نقيم لشمس ولا لقمر ولكنا نسير بالله الواحد القهم ر " .

ما كان يقال عن أيام الأسبوع

وكان يقال: يوم السبت يوم مكر وخديعة، ويوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الأثنين يوم سفر وابتغاء رزق، ويوم الثلاثاء يوم حرب ودم، ويوم الأربعاء يوم الأخذ و الإعطاء، ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحوائج، ويوم الجمعة يوم خطب ونكاح.." (١)

"وليس له أن يكون حقودا الآن خطره عظيم عن المجازاة وقال عبد الله بن طاهر لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يستدفع الظلم ولا أن يعجل ومنه تلتمس الأناة ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود وقالوا ينبغي للملك أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير وحافظا لا يبلغ البخل وشجاعا لا يبلغ التهور ومحترسا لا يبلغ الجبن وقائلا لا يبلغ الهذر وصموتا لا يبلغ الغي وحليما لا يبلغ العجز وقال أسماء ابن خارجة لا أشاتم أحدا ولا أرد سائلا فإنما هو كريم أسد خلته أو لئيم أستر عرضي منه وروى البيهقي في كتابه شعب الايمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله لمن

---

(١) عيون الأخبار، ص/٥٢

شاء من عباده صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمواساة بالنائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم للجار وقرى الضيف ورأسهن الحياء ومن أخلاقهم صون الوجه بقناع الحياء وعقل اللسان عن اللجاج والمراء الحياء دليل الدين الصحيح وشاهد الفضل الصريح وسمة الصلاح الشامل وعنوان الفلاح الكامل من كان فيه نظم قلائد المحامد ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شيء خلقا وخلق هذا الدين الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء من الايمان والايمان في الجنة وقال الحياء لا يأتي إلا بخير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قيل كيف ذلك يا رسول الله قال من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلا وترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء فالحياء اسم جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى لأن ذمه فوق كل ذم ومدحه فوق كل مدح وقال يزيد ابن علي إني لأستحيي من الله تعالى أن أفضي إليه بشيء أخفيه من غيره والحياء من الناس يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال من تقوى الله اتقاء الناس وقيل هو أن يستحيي منهم في سره كما يستحيي منهم في جهره وقيل من المروأة أن لا تعمل شيأ في السر يستحيا منه في العلانية وكان يقال أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عليك بالحياء **والأنفة** فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة وأما استحياء الرجل من نفسه فهو أن لا يأتي في الخلاء إلا ما يأتي في الملا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيأ عرفناه في وجهه وكان عثمان بن عفان قد خص من الحياء بأجل السهام ومنح منه بأوفر الأقسام وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تستحيي منه الملائكة الكرام قال الامام مالك رضي الله عنه إنه أول من ضرب الأبنية في السفر وقالوا من لا يستحيي من نفسه فجدير أن لا يستحيي من غيره وقالوا في حده الحياء التوقي من فعل المساوي خوف الذم ويقال الحياء خوف المستحيي من تقصير يقع به من غير من هو أفضل منه وقال عمرو بن بحر الجاحظ الحياء لباس سابغ وحجاب واق وستر من العيب وأخو العفان وحليف الدين ورقيب من العصمة وعين كالئة تذود عن الفحشاء وتنهى عن ارتكاب الأرجاس وسبب إلى كل جميل وقالوا من عفت أطرافه حسنت أوصافه ويقال لا ترض قول امرئ حتى ترضي فعله ولا ترض فعله حتى ترض عقله ولا ترض عقله حتى ترضي حياءه فإن ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم فإذا قوى الحياء قوى الكرم وإذا ضعف الحياء قوى اللؤم وقال بشار بن برديس له أن يكون حقودا الآن خطره عظيم عن المجازاة وقال عبد

الله بن طاهر لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يستدفع الظلم ولا أن يعجل ومنه تلتمس الأناة ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود وقالوا ينبغي للملك أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير وحافظا لا يبلغ البخل وشجاعا لا يبلغ التهور ومحترسا لا يبلغ الجبن وقائلا لا يبلغ الهذر وصموتا لا يبلغ الغي وحليما لا يبلغ العجز وقال أسماء ابن خارجة لا أشاتم أحدا ولا أرد سائلا فإنما هو كريم أسد خلته أو لئيم أستر عرضي منه وروى البيهقي في كتابه شعب الايمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله لمن شاء من عباده صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمواساة بالنائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم للجار وقرى الضيف ورأسهن الحياء ومن أخلاقهم صون الوجه بقناع الحياء وعقل اللسان عن اللجاج والمراء الحياء دليل الدين الصحيح وشاهد الفضل الصريح وسمة الصلاح الشامل وعنوان الفلاح الكامل من كان فيه نظم قلائد المحامد ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شيء خلقا وخلق هذا الدين الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء من الايمان والايمان في الجنة وقال الحياء لا يأتي إلا بخير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قيل كيف ذلك يا رسول الله قال من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلا وترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء فالحياء اسم جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى لأن ذمه فوق كل ذم ومدحه فوق كل مدح وقال يزيد ابن علي إني لأستحيي من الله تعالى أن أفضي إليه بشيء أخفيه من غيره والحياء من الناس يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال من تقوى الله اتقاء الناس وقيل هو أن يستحيي منهم في سره كما يستحيي منهم في جهره وقيل من المروأة أن لا تعمل شيأ في السر يستحيا منه في العلانية وكان يقال أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عليك بالحياء والأنفة فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة وأما استحياء الرجل من نفسه فهو أن لا يأتي في الخلاء إلا ما يأتي في الملا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيأ عرفناه في وجهه وكان عثمان بن عفان قد خص من الحياء بأجل السهام ومنح منه بأوفر الأقسام وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تستحيي منه الملائكة الكرام قال الامام مالك رضي الله عنه إنه أول من ضرب الأبنية في السفر وقالوا من لا يستحيي من نفسه فجدير أن لا

يستحيي من غيره وقالوا في حده الحياء التوقي من فعل المساوي خوف الذم ويقال الحياء خوف المستحيي من تقصير يقع به من غير من هو أفضل منه وقال عمرو بن بحر الجاحظ الحياء لباس سابغ وحجاب واق وستر من العيب وأخو العفان وحليف الدين ورقيب من العصمة وعين كالئة تذود عن الفحشاء وتنهى عن ارتكاب الأرجاس وسبب إلى كل جميل وقالوا من عفت أطرافه حسنت أوصافه ويقال لا ترض قول امرئ حتى ترضي فعله ولا ترض فعله حتى ترض عقله ولا ترض عقله حتى ترضي حياءه فإن ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم فإذا قوى الحياء قوى الكرم وإذا ضعف الحياء قوى اللؤم وقال بشار بن برد." (١)

"قالوا توضع للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيا وانتصف ممن أساء إليك وإن كان حرا قرشيا وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه الخير بالخير والبادي أكرم والشر بالشر والبادي أظلم وقال الشعبي يعجبني الرجل إذا سيم هوانا دعته **الأنفة** إلى المكافأة وجزاء سيئة سيئة مثلها فبلغ كلامه الحجاج فقال لله دره أي رجل بين جنبيه وتمثل

ولا خير في عرض امرئ لا يصونه ... ولا خير في حلم امرئ ذل جانبه

وقالوا من ترك العقوبة أغرى بالذنب ولولا السيف كثر الحيف وقالوا من مال معك إلى الحيف فلا تبخلن عليه بالسيف وقالوا السفيه يخالف ولا يؤالف ويماري ولا يداري وقال أوس بن حسان

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواخره

فإن أنت لم تقدر على أن تهينه ... فدعه إلى اليوم الذي أنت قادره

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة ... وصمم إذا أيقنت إنك عاقره

وقيل لأعرابي أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسئ إلى من أساء إليك قال لا بل يسرني إن أدرك الثار وأدخل مع فرعون النار أبو عبادة البحتري

تذم الفتاة الرود شيمة بعلها ... إذا بات دون النار وهو ضجيعها

ويقال إنما هو مالك وسيفك فازرع بمالك من شكرك واحصد بسيفك من كفرك وقال الشاعر

قط العدى قط اليراعة وانتهز ... بظبا السيوف سوائم الأضغان

إن البيادق أن توسع خطها ... أخذت إليك مآخذ الفرزان

وقال المأمون الحلم يحسن بالملوك إلا في ثلاثة أشياء فادح في ملك ومتعرض بجرم ومذيع لسر وقال أعرابي لابن عباس أتخاف علي جناحا إن ظلمني رجل فظلمته فقال له العفو أقرب للتقوى فقال ولمن

---

(١) غرر الخصائص الواضحة، ص/٩

انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل وقال الشاعر
إذا كان حلم المرء عون عدوه ... عليه فإن الجهل أعفى وأروح
وفي الحلم صغر والعقوبة هيبة ... إذا كنت تخشى أيد من عنه تصفح
آخر
أرى اللين ضعفا والتشجع هيبة ... ومن لا يهب يحمل على مركب وعر
وما كل حين ينفع الحلم أهله ... ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر
وقال الجاحظ من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدبيره وظن أن رحمة الله دون رحمته فإنه تعالى يقول من يعمل سوأ يجز به وقال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فجازي على الخير بالثواب والشر بالعقاب وقال أكثم بن صيفي من تعمد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة فإن الأدب رفق والرفق يمن وقال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي
من الحلم أن يستعمل الجهل دونه ... إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
آخر
من أكرم الناس أكرموه ... ووقروه وبجلوه
ومن يهنهم يهن عليهم ... في حر أميه يدخلوه
وقال الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار كما أن من استرضى فلم يرض فإنما هو جبار وقال رجل لابن سيرين إني وقعت فيك فاجعلني في حل قال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك وقال علي كرم الله وجهه رد الحجر من حيث جاء فإن الشر لا يدفع إلا بالشر وقال الشاعر
ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
احتجاج من جازى السيئة بمثلها ... ممن ملك عقد الأمور وحلها
لما ولي طاهر بن عبد الله بن الحسين خراسان بعد موت أبيه استؤمر في رجلين أحدهما ضعيف والآخر عليل فوقع في أمرهما الضعيف يقوى والعليل يبرأ فإن يكونا ممن لا يؤمن شرهما فدعهما مكانهما فإن من أطلق مثلهما على الناس فهو شر منهما وشريكهما في أعمالهما واعتذر بعض بني أمية إلى السفاح فهم بالصفح عنهم فقال أبو مسلم إن الصفح مقرب إلى الله تعالى مبعد من النار إذا قصد طريقه وأصيب به أهله وأما هؤلاء الذين تضمنت قلوبهم غدرا وأورى زندهم شرا فلم تنفد ضغائنهم ولا نيب بوائقهم فالقتل لهم أشفى والراحة منهم أولى فأمر بقتلهم فقتلوا ودخل إسمعيل الملقب بسديف على السفاح وعنده سليمان

بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها فلما رأى سديف ذلك قام بين يدي السفاح وأنشده قصيدة يمدحه فيها ويحرضه على قتل من ظفر به من بني أمية جاء منها." (١)

"سأنسيك نفسي إن نسيت مودتي ... كأنك لم تخطر ببالي ولا وهمي

وأكفيك إذ لم تبغ حمد مذمتي ... فتبرأ من حمدي وتبرأ من ذمي

وأنساك نسيان القرون التي مضت ... عليها الليالي من جديس ومن طسم

فإن قيل لي أين الذي كان بينكم ... رددت عليه أنه كان في الحلم

جرير

فإن تك قد مللت الآن مني ... فسوف ترى مجانبتي وبعدي

وسوف تلوم نفسك إن بقينا ... وتبلو الناس والاخوان بعدي

فلا والله لا أنساك حتى ... أوسد مضجعي وأزور لحدي

ابن الرومي

تخذتكمو حصنا منيعا لتدافعوا ... نبال العدا عني فكنتم نصالها

إذا كنتم لا تدفعون ملمة ... عن النفس كونوا لا عليها ولا لها

إبراهيم بن العباس رحمه الله تعالى

وكنت أخي يا أخي الزمان ... فلما نبا صرت حربا عوانا

وكنت أعدك للنائبات ... فها أنا أطلب منك الأمانا

وكنت أذم إليك الزمان ... فها أنا أطلب فيك الزمانا

وقال بعض الأمويين يعاتب عيسى بن موسى

إن تكلمت لم يكن لكلامي ... موقع والسكوت ليس بمجدي

وأراني إذا تأملت أمري ... ناقص الحظ في دنوي وبعدي

فابن لي أكل هذا التواني ... في جميع الاخوان أم لي وحدي

أم ترى ما اصطنعته عند غيري ... واجبا أن أعده لك عندي

قد لعمري أيست منك حياتي ... ومحال أني أرجيك بعدي

وينبغي للفطن اللبيب أن لا يوغل في عتاب الحبيب فإنهم قالوا في كلام بعض الحكماء بعض المعاتبة حزم

---

(١) غرر الخصائص الواضحة، ص/٢١٥

وكلها عزم كالخشبة المنصوبة في الشمس تمال فيزيد ظلها وتفرط في الامالة فتنقصه وقالوا الجواد إذا ضرب في غير وقته كبا والحسام إذا استكره نبا ولهذا قال بعض الأعراب أقل الناس عقلا من أفرط في اكتساب الاخوان وأقل عقلا منه من ضيع من ظفر به منهم ويقال قارب الاخوان فإن المقاربة أقرب الأنساب ولا تتقص عليهم فإن التقصي أقطع الأشياء للأسباب ويقال بدقيق العتب على الأحباب تنفر وحشيات الخواطر والألباب وليعمل الصاحب في مصاحبة أخيه يقول القائل

صاف الصديق وأصفه صفو الصفا ... واخصص صديقك بالصداقة تخصص

أو بقول الآخر وهو أليق بمن حسنت أخلاقه وكرمت أعراقه

خذ من صديقك مرأى غير مستمع ... لا تعدون عيان المرء للخبر

إن كنت لا تصطفى ممن ترى أحدا ... فاخلق لنفسك اخوانا على قدر

وقالوا كثرة العتاب تحيي مودات الضغائن وتثير كوامن الدفائن شاعر

كثر العتاب فقلت إن عاتبتها ... كان العتاب لوصلها استهلاكا

ورجوت أن تبقى المودة بيننا ... موقوفة فتركت ذاك لذاكا

وما أظرف من قال

وأخ كأيام الحياة اخاؤه ... تلون ألوانا علي خطوبها

إذا عبت منه خلة فكرهتها ... دعتني إليه خلة لا أعيبها

وكتب يزيد بن معاوية لسالم بن زياد قليل العتاب يؤكد أواخي الأسباب وكثيره يقطع وصائل الأنساب

لا تكثرن في كل حادثة ... عتب الصديق فإنه يهفو

هب مشربا يصفو فتحمده ... أترى المشارب كلها تصفو

آخر

لا يؤيسنك من صديقك نبوة ... ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم

فإذا نبا فاستبقه وتأنه ... حتى يفئ به الطباع الأكرم

آخر

وأرى الصديق إذا استشاط تغيظا ... فالغيظ يخرج كامن الأحقاد

ولربما كان التغيظ باعثا ... لتناول الآباء والأجداد

آخر

كاف الخليل على الجميل بمثله ... فإذا أساء فكافه بعتابه

وإذا عتبت على امرئ آخيته ... فتوق طائر عتبه وسبابه

وألن جناحك ما استلان مودة ... وأجب دعاه إذا دعا بجوابه

ومن ذوي **الأنفة** من أطاع أمر عقله فكافأ المتكلف للهوى على فعله بمثله كقول الشاعر

إذا تاه الصديق عليك كبرا ... فته كبرا على ذاك الصديق." (١)

"فليس كما قال فإنه بالرتبة يشمخ أنفه بعد الخسة والضعة ويفرد صديقه بالبؤس وإن كان من قبل شريكه وقسيمه في الدعة ويقابل اقباله في الزيارة بالملالة ويعد معرفته له عثرة لا يرجى لها اقالة فإن وقف ببابه حجبه وإن دخل في غمار الناس ازدراه ومن تبرم به أعجبه وخذ بما قال الفقيه منصور بن إسمعيل المقري

إذ ما رأيت امرأ في حال عشرته ... بادي الصداقة ما في وده دغل

فلا تمن له حالا يسر بها ... فإنه بانتقال الحال ينتقل

وكان منصورا ألم بقول بعض البلغاء لا تطلبن لأخيك رتبة هي أرفع من رتبته التي هو مساويك فيها فإنه ينتقل عنك في أحوال ثلاثة يكون صديقك عند حاجته إليك ومعرفتك عند استغنائه عنك وعدوك حال احتياجك إليه وقال بعض الأعراب يذكر صديقا تلون عليه صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها واكفهرت سوالف وجوه المسرات وكانت نضرة بمائها فأدبر ما كان بيني وبينه مقبلا وأقبل ما كان مدبرا وصارت مودته متنقلة كتنقل الأفياء واخوته متلونة كتلون الحرباء وقال بعضهم المتلون إن ودك لشيء ملك عند انقضائه ويقال إياك ومن مودته على قدر حاجته إليك فعند ذهاب الحاجة ذهاب المودة وقال بعض الأعراب لولده يا بني لا تصحب من إذا أيس من خيرك مال إلى غيرك وقالوا إذا انقطع من صديقك رجاؤك فألحقه بعدوك وما أحسن قول بعضهم

إذا تاه الصديق عليك كبرا ... فته زهدا على ذاك الصديق

وإن سلك الغرام به طريقا ... فخذ عرضا سوى ذاك الطريق

فايجاب الحقوق لغير راع ... حقوقك رأس تضييع الحقوق

ولبشار بن برد

إذا كان ذواقا أخوك من الهوى ... موجهة في كل أوب ركائبه

---

(١) غرر الخصائص الواضحة، ص/٢٤١

فحل له وجه الفراق ولا تكن ... مبطية رحال كثير مذاهبه

الكميت بن زيد ولقد أحسن في **الأنفة** إذا عطس بأنف شامخ وأبان عن أنف في الكرم راسخ من أبيات يفتخر

وما أنا بالنكس الدني ولا الذي ... إذا صد عنه ذو المروأة يقرب

ولكنه إن دام دمت وإن يكن ... له مذهب عني فلي عنه مذهب

ألا إن خير الود ود تطوعت ... به الأنفس لا ود أتى وهو متعب

وقيل لبعض الولاة كم لك من صديق فقال أما في حال الولاية فكثير ثم أنشد

الناس اخوان من دامت له نعم ... والويل للحر إن زلت به القدم

آخر

تلونت حتى لست أدري من العمى ... أريح جنوب أنت أم ريح عاصف

قريب بعيد جاهل متبصر ... سخي بخيل مستقيم مخالف

صدوق كذوب لست أدري خليله ... أيجفوه من تلوينه أم يلاطف

ولست بذي غش ولست بناصح ... وإني من عجبي لشأنك واقف

كذاك لساني شاتم لك مادح ... كما أن قلبي جاهل بك عارف

كتب بعضهم إلى صديق له تلون عليه أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الأمر فيك لأنك بدأتني بلطف من غير جراءة ثم أعقبتني جفاء من غير جريمة فأطمعني أولك في اخائك وآيسني آخرك من وفائك فسبحان من لو شاء لكشف بايضاح الرأي في أمرك عن ظلمة الشك فيك فأقمنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف والسلام وكتب آخر

قل للذي لست أدري من تلونه ... أناصح أم على غش يداجيني

إني لأكثر مما شتمه عجبا ... يد تشح وأخرى منك تولييني

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدا من أصحابه وآله واخوانه الذين كانوا ملازمين له في حال تصرفه واشتغاله فلما ردت إليه الوزارة اجتمعوا إليه وعطفوا عليه وجعل كل منهم يأخذ في السبق للقياه والنظر إلى محياه فحين رآهم كذلك أنشد

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا

يعمون أخا الدنيا فإن وثبت ... عليه يوما بما لا يشتهي وثبوا

لا يحلبون لحي در لقحته ... حتى يكون لهم شطر الذي حلبوا." (١)

"نعم يجوز بناء اسم التفضيل من الرباعي على أفعل عند بعض المحققين كأعطى. وعرقوب رجل من العمالقة وعد أخاه تمرا فأخلفه وسيأتي. قال علقمة:

وقد وعتك موعدا لو وفت به ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

و قلت أنا من قصيدة:

فسيحتبيك بوعد غانية ... أو وعد عرقوب جنى التمر

خله درج الضب!

التخلية: الترك والدرج بفتحتين الطريق؛ والضب معروف.

والمثل يضرب في **الأنفة** من مصاحبة من يرغب عن صحبته.

والمعنى: خله يذهب حيث شاء وقيل معناه الذهاب ، كأنه قيل: يذهب ذهاب الضب! أي خله كخلال الضب! لأن الضب أسوأ الحيوان هداية ولذلك يضرب به المثل فيقال. أضل من ضب. ويقال أيضا: خل درج الضب! أي خل طريقه لئلا يمر بين يديك فتنتفخ! وهذا قريب في المعنى مما تقدم من قولهم: الخنفساء إذا مست نتنت، كما مر ذلك.

خلي سبيل من وهى سقاؤه!

التخلية مرت، وتقول: خليت سبيل الرجل إذا تركته ولم تتعرض له. ووهى السقاء بالفتح يهي وهيا: تمزق. والسقاء بالكسر والمد القربة.

قال الشاعر:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ... ونحن بوادي عبد شمس وهي: شم!

أي أقول له حين وهى سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس: شم البرق! أي انظر إليه! فشم، في آخر البيت فعل أمر وهو معمول القول. وهذا المثل قد يروى رجزا فيقال:

خل سبيل من وهى سقاؤه ... ومن هريق بالفلاة ماؤه

---

(١) غرر الخصائص الواضحة، ص/٢٥٩

يقال: أرقت وهرقت بقلب الهمزة هاء فأنا مريق ومهريق بفتح الهاء وكان القياس حذف الهاء لأنها في مكان همزة أفعل وهي تحذف في المضارع لكنها لما صارت هاء ذهب الثقل فبقيت. قال الشاعر:

فظللت كالمهريق فضلة مائه ... في ظل هاجرة للمع سراب

و قد يقال: أهرقته بتسكين الهاء والجمع بين الهمزة وبدلها تناسيا لأصل فأنا مهريق بالسكون أيضا. قال:

فصرت كمهريق الذي في سقائه ... لرقراق آل فرق رابية صلد

و الفلاة: القفرة والجمع فلى وفلوات.

وهذا المثل كالذي قبله مضربا. وقد قيل إنه يضرب في الرجل لا يستقيم في أمره وإنه لا ينبغي أن يعاني. وقيل إنه يضرب في اقتناء السر بمعنى إنه إذا باح صاحبك بسرك ونضح به كما ينضح هذا السقاء الواهي بالماء فدعه عنك ولا تؤاخه ولا تصاحبه فلا خير لك فيه! وهذا مناسب لتشبيههم من لا يكتم السر بالغربال كما قال الحطيئة:

أ غربالا إذا استودعت سرا ... وكانونا على المتحدثينا؟

خلاؤك أقنى لحيائك.

الخلاء بفتح الخاء والمد يطلق مصدرا من قولك: خلا المكان وغيره يخلو خلاء وخلوا. ومكان حال وخلاء: لا أحد به. قال حسان رضي الله عنه:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

و قد يطلق على المتوضأ كما في الحديث ويطلق على المكان القفر لا شيء به وهو المراد. قال زهير:

فأما ما فريق العقد منها ... فمن أدماء مرتعها الخلاء

و الحياء بالمد معروف وقني الرجل الحياء وقناه بالكسر والفتح وأقناه واقتناه: لزمه وحفظه. قال عنترة:

قامت تخوفني الختوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها: إن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل!

أي: الزمي حياءك واحفظيه ولا تضيعيه! وقال العطوي:

أيقني جميل الصبر من هد ركنه ... وهيض جناحاه وجد الأنامل؟

و معنى المثل أن منزلك إذا خلوت به هو ألزم وأحفظ لحيائك.

الخلة تدعو إلى السلة.

الخلة بفتح الخاء الحاجة والخصاصة والفقر. قال:

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت

و يقال للرجل إذا مات: اللهم أخلف على أهله بخير واسدد خلته! أي فرجته التي تركها. قال أوس بن حجر:

لهلك فضالة لا تستوي ... الفقود ولا خلة الذاهب

يقول: إنه كان سيدا فلما مات ترك ثلمة لم تسد. تقول: خل الرجل وأخل به بالضم إذا احتاج. ورجل مخل ومختل وخليل أي فقير. قال زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسألة ... يقول: لا غائب مالي ولا حرم." (١)

"وحق أوجب يقال حق لك أن تفعل كذا وحق عليك فإذا قلت حق قلت لك وإذا قلت حق قلت عليك ومعناه وجب عليك أن تفعل وهو حقيق أن يفعل كذا من الفعلين جميعا. وقوله لمن قام لله أي حفظ ما استرعاه الله وتمسك به وأدى حقوقه يقال للخليفة هو القائم بالأمر وفلان قائم بكذا وكذا إذا كان حافظا له متمسكا قال الله تعالى " ومن أهل الكتاب أمة قائمة " إنما هو من المواظبة على الأمر والقيام به. وقوله وصبر على الجهاد صبره أي حبس نفسه عليه أخبرني المبارك بن عبد الجبار عن الحسن بن علي عن المازني عن ابن الأنباري قال: قال بعض أهل العلم صبر النفوس سمي صبرا لأن تمرره في القلب وإزعاجه للنفس كتمرر الصبر في الفم قال وقال غيره سمي صبر النفوس صبرا لأنه حبس لها عن الاتساع في الغي والانبساط فيما يؤثر ومما يسخط الرب تعالى ذكره والجهاد مصدر جاهد في سبيل الله مجاهدة وجهادا. ونوى فيه نيته أي قصد قصده يقال فلان ينوي كذا من سفر أو عمل أي يقصده أن يلبسه الله لباس الضمير أي يظهر الله عز وجل ضميره الجميل. ويرديه رداء العمل معناه أن كل من عمل عملا لله تعالى فيه طاعة أبان الله ذلك في بشرة وجهه وألبسه نورا ومن كان عاصيا كان بالضد من ذلك فالرداء في هذا الموضع النور استعارة. ويصور يميل إليه ويضم أي يجمع إليه ما اختلف من الأهواء حتى يقع الإجماع على محبته وتصطحب القلوب على طاعته ويقال صار عنقه يصورها ويصيرها إذا أمالها وأصار لغة. ولسان الصدق في الآخرين الثناء الحسن في الأمة الآخرة.

وقوله " فإني رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب الفكر حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة وقد لعمري

---

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم، ص/٢٢٢

كان ذاك فأين همة النفس وأين **الأنفة** من مجانسة البهائم " .

سائر عند البصريين مأخوذ من سؤر الشيء وهو بقيته فيرون أنه يجب أن يقدم قبل هذه الكلمة بعض الشيء الذي هي مضافة إليه فيقال لقيت الرجل دون سائر بني فلان لأن الرجل بعضهم وكذلك هي هنا لأن المعنى كبقية أهله ولا يحسن أن يقول لقيت القوم سائر الناس وعلى هذا المنهج أكثر كلام العرب وقال قوم سائر ماخوذ من سار يسير وقولهم لقيت سائر القوم أي الجماعة التي ينتشر فيها هذا الاسم ويسير ومما يدل على أن سائرا قد يكون بمعنى الجميع وما أنشدنيه أبو زكريا عن أبي العلاء المعري:

لو أن من يزجر الحمام ... يقوم يوم وردها مقامي

إذا أضل سائر الأحلام

وقال الأحواص ؟فجلتها لنا لبابة لما وقذ النوم سائر الحراس وقال ذو الرمة:

أصاب خصاصة فبدا كليلا ... كلا وانفل سائره انفلالا

يصف ظهور القمر من خلل السحاب. والدعة الراحة والخفض في العيش وفاؤها محذوفة وهي واو الفعل منها ودع يودع دعة فهو وادع واتدع تدعة وتدعة فهو متدع واستوطئوا مركب العجز وجدوه وطيأ لا تعب فيه وهو استفعلوا من الشيء الوطئ وهو اللين الوثير. والعجز الضعف تقول منه عجزت عن الشيء أعجز إذا ضعفت عنه. وأعفوا أنفسهم أراحوها ورفهوها. والكد الشدة في العمل والتعب والدرك المطلوب وأصل الدرك قطعة حبل تشد في الرشاء إذا لم يلحق الركية وقل ماء الطوى فينالون حاجتهم من سقي الماء ثم قيل لكل من نال مراده قد نال الدرك وقولهم أنا ضامن الدرك أي بلوغ محابك. والسبب الحبل ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى أرب سبب والبغية ما تطلبه. والآلة الأداة والمراد به ما يحتاج إليه الكاتب من العلم الذي به تتم كتابته كأداة الصانع التي بها تظهر صناعته. **والأنفة** الاستنكاف والاستكبار يقال أنفت من الشيء آنف أنفا وانفه واناقا وأرقت البارحة والمجانسة المشاكلة وأخبرني ثابت بن بندار عن محمد بن عبد الواحد عن أبي سعيد السيرافي عن ابن دريد قال كان الأصمعي يدفع قول العامة هذا مجانس لهذا ويقول ليس بعربي خالص يعني لفظة الجنس. والبهائم جمع بهيمة وسميت بهيمة لأنها أبهمت عن أن تميز وقيل للاصبع إبهام لأنها تبهم الكف أي تطبق عليها وطريق مبهم إذا كان خفيا لا يستبين وضربه فوقع مبهما أي مغشيا عليه.." (١)

---

(١) شرح أدب الكاتب، ص/١٧

"الأسد أحمى الحيوان أنفا، ويبلغ من عجبه بنفسه أنه لا يتواضع لأكل صيد غيره. ونسب **الأنفة** إلى الأنف كما ينسب **الحمية** إليه. يقال: هو أحمى أنفا من فلان، وآنف أنفا منه، وحمى فلان أنفه من كذا، أي أنف منه ولم يرض به. وحسن في الكناية عن الإباء والتصون عن الدناءة والمذلة قوله: " لا شم مرغما " بعد ذكر الأنف. فيقول: وكان بنو التيم في التمنع كالليث الذي لا يغمض على قذى، ولا يشم مرغما ومذلا، ولا يصبر لشيء على هوان، ولا يعطف على مكره وصغار، ولا ينال الصيد قط حتى يكون هو المعفر. والعفر: التراب. هذا إذا رويت " قط الصيد حتى تعفرا " وقال ذلك لأنه فيما يتصيده لا يرضى بالاختلاس، ولا يعتمد على صيد غيره والإصابة منه. ويروى: ولا نال فظ الصيد حتى تعفرا. والفظ: ماء الكرش. ويقال افتظظت الكرش، إذا استخرجت ذلك الماء منه. والمعنى: ولا نال الفظ من بطن الصيد حتى يتعفر أي يسقط في العفر ويتمكن منه. والأسد يبدأ من الصيد بحشو بطنه، فلذلك خص الفظ. والثميلة خلاف الفظ، لأنه اسم لما يبقى في البطن من العلف والرطب. وقط في الماضي كأبدا في المستقبل، وهو معرفة مبني كأمس، وأبدا نكرة كغدا. ولا نال ولا شم في معنى لم يشم ولم ينل. ومثله قوله تعالى: " فلا صدق ولا صلى " .

؟وقال هلال بن رزين

وبالبيداء لما أن تلاقت ... بها كلب وحل بها النذور

يقول: لما تلاقت كلب وحمير بالبيداء وأدركوا الأوتار، فحل بها النذور وسقطت الأقسام عن الحالفين بها لإدراكهم الآثار. وجواب لما يجوز أن يكون ما دل عليه قوله " فحانت حمير " أو قوله " وحل بها النذور " . ويجوز أن يكون قوله " أجادت وبل مدجنة " ، وهو أول البيت الرابع، وعند من يجوز زيادة الحروف في مثل هذا المكان يكون " حل بها النذور " أو فحانت " الجواب، فيكون الفاء والواو مقحمة، وهكذا يقولون في قول الله تعالى: " حتى إذا جاءوها وفتحت أبوبها " عندهم الواو زائدة، والمراد فتحت، وقول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

يقولون: المراد انتحى، والواو زائدة.

فحانت حمير لما التقينا ... وكان لهم بها يوم عسير

يقول: هلكت حمير عند الالتقاء، لأن الدبرة كانت عليهم لا لهم، وكان لهم بالبيداء يوم صعب. ويقال: يوم وأمر عسر وعسير، والفعل منه عسر بالضم وعسر بالكسر، ويقال هو العسر واليسر، والعسري واليسري.

وأيقنت القبائل من جناب ... وعامر أن سيمنعها نصير

يقول: وتيقنت جاب وعامر بطون بني كلب أنه سيذب عنها نصير ظهير، ومعين قوي. ويعني بالنصير بني التيم. وجعل اللفظ نكرة ليكون أبلغ في تعظيم النصرة، لأنه أراد نصير من النصار، أي كامل في معناه. وجعلهم كلهم نصيرا لا نصارا. لاتفاق كلمتهم وأهوائهم. وقوله " أن سيمنعها " أن مخففة من الثقيلة، واسمه محذوف، يريد: أنه سيمنعها والسين في الفعل لئلا تلتبس المخففة بالناصبة للفعل. و الهاء الذي أظهرته ضمير الأمر والشأن.

أجادت وبل مدجنة فدرت ... عليهم صوب سارية درور

يقال: هذا يوم دجن، أي يوم إلباس غيم. والدجنة: الظلمة، وليلة مدجان. فيقول: أتت سحابة الجيش بمطر جود، فوبلت وبل مدجنة – أي سحابة لها ظلام، لكثافتها وقربها من الأرض – فصبت عليهم المنايا در سارية، أي سحابة تسري ليلا. والدرور، هي الكثيرة الدر. ويرتفع على أنه فاعل درت. وصوب مصدر من غير لفظه، كأنه قال صابت درور صوب سارية. وجعل ما في العجز من هذا في مقابلة ما في الصدر، من قوله " أجادت وبل مدجنة " كأنه قال: أجادت الخيل وبل مدجنة فدرت درور الموت در سارية، فالسارية بإزاء المدجنة لا غير. وكل ذلك مثل لتكثير الشر، وتفظيع البلاء والقتل. وفي هذه الطريقة قول النابغة:

ومعلقين على الجياد حليها ... حتى تصوب سماؤهم بقطار

وذكر بعضهم أن أجادت ودرت فعلان جمعا للدرور، فهو كما يقال قام وقعد زيد. قال: و الدرور: حرب تدر بالدماء. ويقال: جادت وأجادت بمعنى واحد؛ والمراد جادت درور فدرت عليهم كوبل مدجنة، وكصوب سارية. والأول أقرب وأكشف وأصح.

فولوا تحت قطقطها سراعا ... تكبهم المهندة الذكور." (١)

"قوله " تمت عبيدة إلا في محاسنها " ، أطلق القول بتمامها، ثم استثنى المحاسن من خصالها، فخلص التمام في المقابح لا غير. وقوله " والملح منها مكان الشمس " ، لك أن تنصب مكان على الظرف، يريد أن الملح بعيد، فهو في السماء، ولك أن ترفعه كما تقول: هو مني فرسخان، فتجعل الملح منها نفس السماء، كما تجعل المخبر عنه في قولك: هو مني نفس الفرسخين، وعلى هذا ينعطف قوله " والقمر " ، فإما أن تجري على موضع مكان وقد نصب لأنه وهو ظرف في موضع الرفع، وإما أن تجري

---

(١) شرح ديوان الحماسة، ١٠٢/١

على لفظ مكان وقد رفع لأنه يصح أن يقال الملح منها القمر كما يصح أن يقال الملح منها مكان القمر. وإذا جررت " والقمر "كان معطوفا على الشمس، ويكون الشاعر مقويا في البيت الذي بعده.

وقوله: " فرأس الذي قد عيب " ، أي رأس الإنسان الذي قد عيب، لذلك لم يقل فرأس التي. وعطف الحجر على الرأس على أحد وجهين: إما أن يريد رأسه والحجر مقرونان على طريق الدعاء لا على طريق الإخبار، فحذف الخبر لأن المراد مفهوم. وهذا كما يقال: كل امرىء وشأنه. وإما أن يريد بالواو معنى مع، كأنه قال رأسه مع الحجر وحينئذ يكون الخبر في الواو، وهذا يكون كقولهم: الرجال وأعضادها، والنساء وأعجازها، لأن المراد الرجال بأعضادها والنساء بأعجازها. وإنما قال: " قل للذي عابها من عائب حنق " تخفيفا لقبحها وتسليمالانتهاء عيبها. والحنق: أشد الغيظ.

وقال آخر:

لا تنكحهن الدهر ما عشت أيما ... مجربة قد مل منها وملت

تحك قفاها من وراء خمارها ... إذا فقدت شيئا من البيت جنت

تجود برجليها وتمنع ردها ... وإن طلبت منها المودة هرت

قوله " لا تنكحن " أراد بالنكاح العقد لا الجماع. والأيم: التي قد مات عنها زوجها. وقد آمت تئيم أيمة.

وقوله " قد مل منها وملت " يريد أنها طعنت في السن، فقضت مآرب الشهوات وقضيت منها.

وقوله " تحك قفاها من وراء خمارها " أي تركت التنظف والتنطس، ونسيت الحياء والأنفة، فرأسها تحكها دائبا، ومحبتها للحقير تجننها، حتى إذا فقدت ما لا خطر له، كان عندها كالكبير الذي لاعوض منه.

وقوله " تجود برجليها وتمنع درها " ، ويجوز أن يكون مثلا لقلة خيرها، فشبهها بالشاة التي تفاج رجليها، فإذا أريد حلبها منعت. ويجوز أن يكون المراد أنها قعدت عن الولاد فهي تساعد في الجماع ولا تحمل ولا تلد.

وقوله " وإن طلبت منها المودة هرت " يريد أنها لا يبتغى عندها من نتائج الود وأسباب الشفقة والحب شيء إلا نبحت نبيح الكلاب. ويجوز أن يريد بهرت كرهت وتقبضت.

آخر:

لأسماء وجه بدعة من سماجة ... يرغبني في نيك كل أتان

بدا فبدت لي شقة من جهنم ... فقمت ومالي بالجحيم يدان

وغادرت أصحابي الذين تخلفوا ... بما شيت من خزي وطول هوان

وما كنت أدري قبلها أن في النسا ... جحيما أراها جهرة وتراني

قوله " بدا " الفعل للوجه، وشقه ، أي قطعة. ولك أن ترويه بـ كسر الشين، فيكون كصرمة وكسرة وجذوة وقطعة وفدرة، ولك أن تضم الشين فيكون كالشعبة والعجرة والعقدة ؛ فاروه كيف شئت. وقوله " فقمت ومالي بالجحيم يدان " أي تهيأت للهرب منها، إذ لم يكن لي طاقة بالصبر عليها، ولا قوة في ملاقاتها .

وقوله " وغادرت أصحابي "كأنه شايعه في النهضة قوم وتخلف عنه قوم، فقال: من تخلف عني كانت حاله على ذلك .

آخر :

لا تنكحن عجوزا إن أتيت بها ... واخلع ثيابك منها ممعنا هربا

فإن أتوك وقالوا إنها نصف ... فإن أمثل نصفيها الذي ذهبا

المراد بالنكاح العقد ههنا، وفي القرآن: " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع " . وقوله " واخلع ثيابك " يجوز أن يكون مثل قول امرئ القيس :

فسلى ثيابي من ثيابك تنسل

وكما يقال ضم إليك من كذا جناحك. ويجوز أن يريد به تشمر وتخفف واخرج من مسكك. ومعنى " منها " أي من أجلها. ونصب " ممعنا " على الحال. ويقال: أمعن في السير، إذا أبعد. و " هربا " يريد هاربا. وإنما سامه ما سامه ليكون أخف سيرا وأسرع حراكا .." (١)

"النابغ في الشعر بعد أن كان مكديا:

قال السيد الحميري: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه في حديقة سجنه فيها نخل طوال، ويجنبها أرض كأنها كافورة ليس فيها أشجار. فقال لي: أتدري لمن هذه النخيل؟ فقلت: لا. فقال: لامرىء القيس: فأقلعها وأغرسها في هذه. ففعلت، فما أصبحت أتيت ابن سيرين فقصصت رؤياي عليه فقال: أتقول الشعر؟ قلت: لا. فقال: أما أنك ستقول مثل شعر امرىء القيس، إلا إنك تقوله في قوم طهرة، فما انصرفت إلا وأنا أقول الشعر، والنابغتان سميا بذلك لأنهما عاشا دهرا لا يقولون شعرا ثم نبغا فيه.

تسهيل قول الشعر على ذي آلته:

عمل سقراط بيتين فقيل له: ما أحسن ما قلت. فقال: إن حفر بئر بقرب قناة يجري منها الماء. سهل البديهي:

---

(١) شرح ديوان الحماسة، ٧٠/٢

وأرى القوافي لا تصير مطيعة ... إلا إلى المثرين من أدواتها

والطبع ليس بمقنع إلا إذا ... حصلت إضافته إلى آلاتها

آخر:

وما الطبع مغن وحده في نظامه ... ولا العلم من حد الطباع بنائب

إذا لم تكن مجموعة أدواته ... فأيسر مبناه كنسج العناكب

وقيل: أصح الشعر وأسهله ما يقوله من بعثه أنف أو دخله كلف.

من تداخله لسماعه **الأنفة والحمية:**

كان بالمدينة فتى يتعشق امرأة، فوعدته يوما فلما اجتمعا غنت مغنية بهذا الصوت:

من الخفرات لم تفضح أخاها ... ولم ترفع لوالدها شنارا

فأبت إلا الخروج، فرجعت إلى منزلها وبعثت إلى الرجل ألف دينار وقالت: إن رغبت في فاجعل هذا مهري واخطبني من أبي. ودخل رجل على أبي دلف فاستماعه فقال له: أتسأل وجدك يقول:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ... ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

فقال: نعم وتضجر، فلقي وكيلا لأبي دلف يأتي بمال فسلبه واتصل الخبر بأبي دلف فقال: أنا الذي علمته هذا فدعوه. وهذا الباب من جنس منفعة الشعر.

شعر سائر:

أبو العتاهية:

في كل أرض قرى من منطقي مثلا ... بين المشاهد أو يبكي به وتر

الطرمي:

لقد سار ري شرقا وغربا قصائد ... تغبر حسنا في وجوه القصائد

المتنبي:

أبقى على كنف الأيام من كنفي ... رضوى وأسير في الآفاق من مثل

الكندي:

يقصر عن مداها الريح جريا ... وتعجز عن مواقعها السهام

تناهب حسنها حاد وشاد ... فحث بها المطابا والمدام

المسيب:

ترد المياه فلا تزال غريبة ... في القوم بين تمثل وسماع

النابغة:

أوابد كالسلام إذا استمرت ... فليس يرد فدفدها التمني

شعر أثر في المقول فيه فرفعه أو وضعه:

كان بنو قريع متى قيل لهم أنف الناقة أستحيوا حتى قال فيهم الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذئاب غيرهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يتبجحون به ويقولون: نحن من أنف الناقة، وغير كانوا يتبجحون باسمهم حتى قال فيهم الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فكانوا بعد إذا سئلوا قالوا من بني عامر. وقال جرير:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حك أسته وتمثل الأمثالا!

فقالوا: لو طعنوا بعد هذا في أستاههم ما حكوها!

مفاضلة قصار الشعر وطواله:

قيل لعقيل: لم لا تطيل الشعر؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق! وقيل لآخر ذلك فقال: يكون أحوك وعلى أفواه الرواة أعلق. وقالت مليكة بنت الحطيئة: يا أبت كنت ترغب عن القصار فصرت ترغب فيها. فقال: لأنها في الآذان أولج، وعلى الفكر أروج، والناس إليها أحوج. وقيل لآخر مثل ذلك فقال: حسبك غرة لائحة وسمة واضحة. وقال آخر: إذا مدحتم فاقصروا، وإذا هجوتم فأطيلوا، فالشر لا يمل. وقال الصاحب أن عبدان إذا أطال قصر وإذا قصر لم يقصر

إعتذار من أكدى في شعره أو نادرته:

قال عبد الملك لعدي بن أرطاة: لم لا تقول الشعر؟ فقال: كيف أقوله وأنا لا أشرب ولا أطرب ولا أغضب؟ وقال الفرزدق: ربما أتت علي ساعة وقلع ضرس أهون علي من قول بيت. وقال عبيد: حال الجريض دون القريض. واستأذن الغالبي على عباد فأذن له فأنشده:." (١)

"ولا نلين لسلطان يكايدنا ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

الأوسي:

---

(١)

وما زلنا جحاجحة ملوكا ... تدين لنا الملوك ولا ندين

المتنبي:

تعزز لا مستعظما غير نفسه ... ولا قائلا إلا بخالقه حكما

الحث على مصابرة السلطان:

قيل: من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطرح **الأنفة**، وصل إلى حاجته. حكي أنه وجد مكتوب على باب هراة: بدر بادشاه كاربر آيد آخر الأمر دادزنك ردايد، أي إنما يرتفع الأمر على باب الملوك بالبذل والعقل والتثبت. فكتب بعضهم تحته: من كان معه هذه الثلاثة فهو مستغن عن السلطان. ونحو ذلك ما روي أن أبا العيناء عتب على بغا، فتقضاه فقال بغا: أما علمت أن من طالب السلطان احتاج إلى عقل وصبر ومال؟ فقال: لو كان لي عقل عقلت عن الله أمره ونهيه، أو صبر صبرت عن السلطان حتى يأتيني رزقي، أو مال لاستغنيت به عن بابك والوقوف بجنابك! وقيل: من صحب السلطان احتاج إلى الصبر على قسوته صبر الغواص على ملوحة ماء بحره.

أمارات السلاطين لندمائهم إذا أرادوا نهوضهم:

كان لكل ملك أمارة يستدل به أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه، فكان ازدشير إذا تمطى قام سماره، وكان كيشاسف يدلك عينه، ويزدجرد يقول شب بشد وبهرام يقول خرم خسفاذ وسابور يقول حسبك يا إنسان وأبرويز يمد رجليه، وقباذ يرفع رأسه إلى السماء، وأنوشروان يقول قرت أعينكم وكان عمر يقول: قامت الصلاة، وعثمان يقول: العزة لله، ومعاوية يقول: ذهب الليل، وعبد الملك يقول: إذا شئتم، والوليد يلقي المخصرة، والرشيد يقول: سبحان الله، والواثق يمس عارضيه. وحكي عن بعض البخلاء أنه سئل: ما أمارتك لقيامنا؟ قال: قولي يا غلام هات الطعام.

ومما جاء في القضاء والشهادة

مدح القضاء وذمه:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: القضاة ثلاثة، اثنان في النار وواحد في الجنة، فاللذان في النار أحدهما من يقضي ولم يعلم، والآخر من يعلم فيقضي بغير الحق، وأما الذي في الجنة فهو الذي يعلم ويقضي بالحق.وقال صلى الله عليه وسلم: إن مع القاضي ملكين يسددانه ويوفقانه، فإن عدل أرشداه وأعاناه، وإن جار قذفاه في النار. وقيل: المذموم من القضاة من سعى في طلبه. وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن ابن سمرة: يا عبد الرحمن لا تسأل الأمارة، فإنك إن سألتها وكلت إليها، وإن سئلتها أعنت عليها. وقال

صلى الله عليه وسلم: من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين! وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: شكت بقعة من الأرض إلى ربها أنها جعلت حشا، فأوحى الله إليها أما ترضين أني لم أجعلك بقعة قاض؟ وكان ابن شبرمة يقول: يا جارية، هاتي غذائي لأخرج إلى بلائي.

الممتنع من تولي القضاء:

أمر المنصور أبا حنيفة رحمه الله أن يتولى القضاء فقال: لا أصلح لذلك! فقال: إنك تصلح. فقال: إن كنت صادقا فلا يجوز لك أن توليني، وإن كنت كاذبا فقد فسقت! فقال: والله لتلين. فقال: والله لا وليت! فقال حاجبه: أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف. فقال: أمير المؤمنين أقدر على الكفارة مني. قيل: لما مات عبد الرحمن بن أذينة ذكر أبو قلابة للقضاء، فهرب حتى أتى الشام فوافق ذلك عزل قاضيها، فهرب حتى أتى اليمامة، فقيل له في ذلك فقال: ما وجدت مثلا للقاضي العالم إلا مثل رجل سابح وقع في بحر، فكم عسى يسبح حتى يغرق؟

الممدوح بترك الميل والعفة والحلم:." (١)

"ما إن نفى عنك قوما أنت تكرههم ... كمثل وقمك جهالا بجهال

آخر:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا ... ولكنني أرضى به حين أحوج

وقيل: الشر لا يدمغه إلا الشر، والحديد بالحديد يفلح

من حلم وقتا ونهى عن الاغترار به:

بعضهم:

فلا يغررك طول الحلم مني ... فما أبدا تصادفني حليما

المتنبي:

وأطمع عامر البقيا عليهم ... وترفها احتمالك والوقار

وصف الحلم بأنه مضر مذلل:

قيل: الشهرة بالملاينة والخير شر من الاشتهار بالغلظة والشر، لأن من عرف بالخير اجترأ عليه الناس، ومن عرف بالشر هابه الناس وتجنبوه. وقيل: آفة الحلم الذل. وقيل للأحنف: ما الحلم؟ فقال: الرضا بالذل.

---

(١) محاضرات الأدباء، ٨٧/١

كون الحلم مغريا:

قال معاوية: ما ولدت قرشية خيرا لقرشي مني! فقال ابن زرارة الكلابية: بل ما ولدت شرا لهم منك! فقال: كيف؟ قال: لأنك عودتهم عادة يطلبونها ممن بعدك فلا يجيبونهم إليها، فيحملون عليهم كحملهم عليك، وكأني بهم كالزقاق المنفوخة على طرقات المدينة. وقال الأحنف لرجل: ليت طول حلمنا عليك لا يدعو جهل غيرنا إليك.

النهي عن إكرام اللئام:

قال يزيد بن معاوية لأبيه: هل ذممت عاقبة حلم؟ قال: ما حلمت عن لئيم وإن كان وليا إلا أعقبني ندما، ولا أقدمت على كريم وإن كان عدوا إلا أعقبني أسفا.

شاعر:

متى تضع الكرامة في لئيم ... فإنك قد أسأت إلى الكرامة

وقد ذهبت صنيعته ضياعا ... وكان جزاء فاعلها الندامة

وقيل: الكريم يستصلح بالكرامة واللئيم بالمهانة. المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقيل: استعمال الحلم مع اللئيم أضر من استعمال الجهل مع الكريم.

الاستخفاف بما لا يصلحه الإكرام:

إذا لم تنفع الكرامة فالإهانة أحزم. وقيل: من لا يصلحه الطالي أصلحه الكاوي. من كان الإكرام له مفسدة لم تكن الزيادة فيما يفسده له مصلحة. جنب كرامتك اللئام فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا.

شاعر:

سأحرمكم حتى يذل صعابكم ... فانجع شيء في صلاحكم الفقر

آخر:

إن اللئيم إذا رأى ... لينا تزايد في خسرانه

لا تكذبن فصلاح من ... جهل الكرامة في هوانه

الاستعانة بالجهل عند الحاجة إليه:

أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار. وبينا ابن عمر رضي الله عنهما جالس إذ أقبل أعرابي فلطمه، فقام إليه رجل فجلد به الأرض، فقال ابن عمر: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه. وقيل: اجعل لكل كلب كلبا يهر دونك، فالعرض لا يصان بمثل سفيه يصول وحاد يقول:

لابد للسودد من أرماح ... ومن سفيه دائم النباح

الأحنف:

ومن يحلم وليس له سفيه ... يلاق المعضلات من الرجال

آخر:

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا ... أخا الحلم! ما لم يستعن بجهول

الرخصة في عقاب المجرم والحث عليه:

قال الله تعالى: " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " . وقال: " ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " . وجاء أعرابي إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: أتخاف علي جناحا إن ظلمني رجل فظلمته؟ فقال ابن عباس: وإن تعفو أقرب للتقوى ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. وقال الشعبي: يعجبني الرجل يكافىء بالسيئة السيئة، فإذا سيم هوانا أبت له **الأنفة** إلا المكافأة، فبلغ قوله الحجاج فقال: لله دره! أي نفس بين جنبيه؟ وقال الجاحظ: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الرب في تدبير، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى، والناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب. وضرب الحجاج رجلا فقال: اعتديت أيها الأمير، فقال: لا عدوان إلا على الظالمين. ووقع إبراهيم بن العباس: إذا كان للمحسن من الحق ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الحق له رغبة وانقاد المسيء له رهبة.

حث القادر على العقاب قبل فوته:." (١)

"قيل: جديدة في لعيبة. وقال خالد بن صفوان: رماني بأصلب من الجندل ونشقني بأحر من الخردل ثم قال: إني أمازحك!

لي صاحب ليس يخلو ... لسانه من جراحي

يجد تمزيق عرضي ... على طريق المزاح

مما جاء في الحياء والوقاحة

---

(١) محاضرات الأدباء، ١/١١١

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحياء شعبة من شعب الإيمان ومن لا حياء له فلا إيمان له. وفسر قوله تعالى: ولباس التقوى بالحياء، وقال: أبى عليك بالحياء والأنفة فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت من الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك أحد في مرتبة. وقيل: احي حياءك بمجالسة من يستهي منه. وقيل: من جمع بين الحياء والسخاء فقد أجاد الخلة إزارها ورداءها.

الممدوح بالحياء:

في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: إنه شديد الحياء، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا في وجهه. وسأل يحيى بن خالد رجلا عن ابنه فقال: تركته وماء الحياء يتحدر من أسارير وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله، ولآلئ العلم متناثرة من ميازيب منطقه! شاعر:

ترك الحياء بها رداع سقيم

المتنبي:

وأوجه فتيان حياء تلثموا ... عليهن لا خوفا م الحر والبرد

وليس حياء الوجه في الذئب شيمة ... ولكنه من شيمة الأسد الورد

مروان بن أبي حفصة:

يكاد يخرج في ديباج أوجههم ... خوف المذلة حتى ينفطرن دما

من مدح بالحياء في السلم والوقاحة في الحرب:

شاعر:

كريم بغض الطرف فرط حيائه ... ويدنوا وأطراف الرماح دوان

آخر:

يتلقى الندى بوجه حيي ... وسيوف العدا بوجه وقاح

الموسوي:

يجري الحياء الغض من قسماتهم ... في حين يجري في أكفهم الدم

من يستحي من الناس دون نفسه وربه:

قال كعب: استحيوا من الله في سرائركم كما تسحيون من الناس في علانيتكم. وقيل: من يستحي من الناس ولا يستحي من نفسه فلا قدر لنفسه عنده. قال رجل للنعمان: أوصني فقال استحي من الله كما تستحي من رجل من عشيرتك. وفي ضد ذلك:

إذا كان ربي عالما بسريرتي ... فما الناس في عيني بأعظم من ربي

ذم الوقاحة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن مما أدرك النسا من كلام النبوة، إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

شاعر في معناه:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

وفي معناه أيضا:

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا ... وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

وقيل: إذا لم تستح فقل، وإذا لم تخش فقل، الفاقة خير من الصفاقة.

هجاء وقح:

قيل: فلان بعد الحياء جنة والوقاحة جنة، هو أوقح من الدهر، وجه صلب ولسان خلب.

شاعر:

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة ... فأقد منها حافرا للأشهب

منصور بن ماذان: الصخر هش عند وجهك في الوقاحه. ومن الأبيات الرائقة الرائعة التي لا أرتاب لها:

إن يعجزوا أو يبخلوا ... أو يغدروا لم يجفلوا

وغدوا عليك مرجلين ... كأنهم لم يفعلوا

الناجم:

لك عرش مثلم من قوار ... يرو وجه ململم من حديد.

مدح الوقاحة:

قال علي رضي الله عنه: قرنت الخيبة بالهيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مر السحاب.

شاعر:

إذا رزق الفتى وجها وقاحا ... تقلب في الأمور كما يشاء

ولم يك للأمور ولا لشيء ... يعالجه له فيه عناء

وقال معاوية لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: ما اللذة؟ فقال: ترك الحيا واتبع الهوى.

الشاكي حياءه:

قال العتابي: في خصلتان اعتقلتاني عن كثير من المنافع: حصر مقيد بالحياء، وعزة نفس شبيهة بالجفاء.

أبو الأسود:

وأعطيت حظا من حياء واشتكى ... من العجز ما لم يبد للناس عائبه

أخر:

لساني وقلبي شاعران كلاهما ... ولكن وجهي مفحم غير شاعر

العباس بن الأحنف:

من راقب الناس مات غما ... وفاز باللذة الجسور

الحث على الأمانة والنهي عن الخيانة:." (١)

"يقول: تشابه الخلقان؛ منك ومن الأسد في الإقدام، واختلفا في بذل المطاعم، فإنك تبذل مأكولك، وهو يضن به ويذب عنه.

أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متنا أزل وساعدا مفتولا

المتن: الصلب. والأزل: الأرسخ الممسوح العجز. والمفتول: القوي المكلم.

يقول: رأى الأسد فيك متنه الأزل، وساعده المفتول، وذلك من علم الشجاع البطل.

في سرج ظامئة الفصوص طمرة ... يأبى تفردها لها التمثيلا

الظامئة: قليلة اللحم. والفصوص: المفاصل، واحدها فص. والطمرة: الوثابة، وقيل: المرتفعة الشاخصة.

يقول: نظر إليك الأسد وأنت على فرس لطيفة الأوصال، يأبى تفرد هذا الفرس بالكمال، أن يكون له مثل، وقيل: أراد لا يحتاج صاحبه معه إلى فرس آخر.

نيالة الطلبات لولا أنها ... تعطي مكان لجامها ما نيلا

يقول: إنها تدرك كل ما تطلبه وهي طويلة العنق، فلولا أنها تمكن ملجمها من رأسها ما وصل إليها، وقيل: إنه وصف صعوبتها. أي لولا أنها تحط رأسها للجام، لما كان ينال رأسها أحد، لكنها مكنت من نفسها ملجمها فأمكن إلجامها لذلك.

تندى سوالفها إذا استحضرتها ... وتظن عقد عنانها محلولا

السوالف: صفحات العنق. وتندى: أي تبتل من العرق، وذلك من أمارات العنق. والاستحضار: طلب الحضر.

يقول: من ازدياد جريها؛ عرقت سوالفها. وقوله: وتظن عقد عنانها محلولا: أي أنها تدخل في العنان وتدني

---

(١) محاضرات الأدباء، ١/١٣٠

صدرها، فيتسع العنان في يد فارسها، فكأنه محلول.

ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا

الزور: أعلى الصدر، عاد إلى وصف الأسد.

يقول: ما زال يجمع نفسه في صدره للوثبة، حتى حسبت عرضه، طولا. وقيل: أراد أن الفرس إذا أراد الوثوب ضم نفسه إلى صدره.

ويدق بالصدر الحجار كأنه ... يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا

الحجار: كالحجارة، وأراد بالحضيض: هاهنا أسفل الأرض.

يقول: إن المذكور قبله ما زال يدق الحجارة بصدره عند وثوبه، حتى كأنه يريد أن يشقها ويغوص فيها.

وكأنه غرته عين فادني ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا

ادنى: افتعل من الدنو: أي دنا.

يقول: كأن الأسد غرته عينه حين رآك إنسانا كسائر الناس فدنا إليك، ولم يعلم أنك أسد، ولو علم بأسك لم يجرء عليك، فلما لم يعلم ذلك، رأى الإقدام عليك خطبا حقيرا.

أنف الكريم من الدنية تارك ... في عينه العدد الكثير قليلا

الأنف **والأنفة**: بمعنى. والدنية: النقيصة. وهذا مثل. وأراد: أن الأسد أنف من الفرار فأقدم عليك، كما أن الكريم يطرح نفسه على العدد الكثير ويرى ذلك الكثير قليلا لعلو همته. فكذلك الأسد أقدم عليك مخافة **الأنفة**.

والعار مضاض، وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

مضاض: أي مؤلم، وهذا أيضا مثل.

يقول: من أنف من العار لم يخف حتفه؛ لأنه يرى حتفه أسهل عليه من مقال الناس فيه.

سبق التقاءكه بوثبة هاجم ... لو لم تصادمه لجازك ميلا

عدى الالتقاء إلى الكاف وهو لا يتعدى إلا بالواو أو مع.

يقول: لما رآك تقرب منه سبقك بوثبة هاجم، فلولا أنك صادمته لجازك ميلا؛ لشدة وثبه. فضله على الأسد.

خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا

المكافحة: المواجهة. والتجديل. السقوط على الجدالة: وهي الأرض.

يقول: لولا قوته لما قتلته؛ لأنه لقوته أقدم عليك، فلما واجهته بقوتك خذلته وخذلت قوته، حتى استنصر

التسليم، فانقاد لك واختار السقوط على الأرض.

قبضت منيته يديه وعنقه ... فكأنما صادفته مغلولا

يقول: إن أجله قبض يديه وعنقه لك، فكأنه كان مغلولا قبل أن تلحقه، فصادفته مغلولا لما لم يمكنه المدافعة.

سمع ابن عمته به وبحاله ... فنجا يهرول منك أمس مهولا

نجا: أسرع المشي. والهرولة: اضطراب العدو. والمهول: الذي قد هاله أمر.

يقول: إن ابن عمة هذا الأسد وهو أسد مثله سمع بحال الأول، وقتلك إياه، فلما ركبت إليه فر منك مسرعا، خوفا أن تقتله كما قتلت الأول.

وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا

أمر: أي أشد مرارة.." [(١)]

"ثاقب العقل ثابت الحلم لا يق ... در أمر له على إقلاق

ثاقب: قيل معناه: عقله صادق من الجهل منير، يرى به الأمور على حقائقها.

وقيل: بين العقل. وقيل: نافذ العقل ثابت الحلم أي أنه متمكن من حلمه لا يطيش ولا يزعجه شيء ولا يقلقه أمر، لثبات عقله وزيادة حلمه.

يا بني الحارث بن لقمان لا تع ... دمكم في الوغى متون العتاق

يقول لقومهم: لا عدمتكم ظهور الخيل في الحرب. وخص ذلك في حال الحرب؛ دلالة على شجاعتهم. لأن ملازمة ركوب الدواب عادة الرائضين.

بعثوا الرعب في قلوب الأعادي ... فكأن القتال قبل التلاقي

يقول: ملئوا قلوب أعاديهم من الخوف، فانهزموا منهم قبل ملاقاتهم وقتالهم، فكان القتال والحرب قبل الالتقاء.

وتكاد الظبي لما عودوها ... تنتضي نفسها إلى الأعناق

الظبي: جمع ظبية وهي حد السيف. والتأنيث عائد إليها.

يقول: إنهم عودوا سيوفهم إخراجها من الأغماد، وضرب أعناق الأعداء بها، فهي تكاد تخرج نفسها من أغمادها، وتتوصل إلى الأعناق قبل أن يسلوها منها ويضربوا بها.

---

(١) معجز أحمد، ص/١٢٩

وإذا أشفق الفوارس من وق ... ع القنا أشفقوا من الإشفاق

يقول: إذا اشتدت الحرب وخاف الفرسان من الطعن، خاف هؤلاء من الخوف، فلا يقدمون في الحرب.

كل ذمر يزيد في الموت حسنا ... كبدور تمامها في المحاق

الذمر: الشجعان يقتحمون المعركة. وقوله: تمامها في المحاق إن أراد بذلك استكمال ضوئها، ففي الظاهر تناقض.

وتأويله: أن كل واحد منهم إذا مات زاد حسنه، لأنه لا يموت إلا قتلا. فكأنه يقول: هم في الحسن بدور، وإذا قتلوا زاد حسنهم بما يظهر من صبرهم وإقدامهم فكأنهم بدور، تمامها في المحاق على سبيل التقدير: أي لو وجدت بدور إتمامها في محاقها لكانوا مشبهين بها.

وذلك من تعليق الجائز بالمحال.

وقيل: أراد بالتمام غاية ما يفضى إليه أمر البدور وهو المحاق. ومعناه: أن هؤلاء تمام أمرهم في قتلهم. كبدور يفضي أمرها بالمحاق فكذلك يفضي أمر هؤلاء إلى القتل، ولا يموت أحد منهم إلا حتف أنفه.

جاعل درعه منيته إن ... لم يكن دونها من العار واق

الهاء في دونها للمنية.

يقول: كل واحد منهم إذا لم يمكن دفع العار عن نفسه إلا بتدرع الموت، يجعل المنية درعه حتى يقي بها عن نفسه.

كرم خشن الجوانب منهم ... فهو كالماء في الشفار الرقاق

يقول: فيه كرم يحمله على خشونة جوانبه على الأعداء، ففيه لين من حيث الكرم، وخشونة من حيث البأس والامتناع من الأنفة، فهو كالسيف إذا سقي صلبت شفرته وألبسها خشونة مع ما فيه من الرقة والصفاء.

وهذا من بدائع المتنبي.

ومعال إذا ادعاها سواهم ... لزمته جناية السراق

يقول: لهم معال مشهورة لا يمكن لأحد أن يدعيها لنفسه، فإن ادعى مدع ذلك لزمه ما يلزم السارق من قطع اليد.

يابن من كلما بدوت بدا لي ... غائب الشخص حاضر الأخلاق

نصب غائب وحاضر على الحال. وبدا فعل من وأراد به الأب.

يقول: إذا رأيناك كأنا رأينا أباك، لأن أخلاقه موجودة فيك فلم تفتقد منه إلا شخصه.

لو تنكرت في المكر لقوم ... حلفوا أنك ابنه بالطلاق

يقول: إنك تشبه أباك في إقدامه وشجاعته، فلو تنكرت: أي أخفيت نفسك. في المكر: أي في الحرب. لحلفوا بالطلاق أنك ابنه. وخص المكر: إشارة إلى أنه في الإقدام والشجاعة لا يشبه إلا أباه، إذ مثل ذلك لا يوجد إلا منه، أو من أبيه، أو لأن هذا الموقف أشرف المواقف وأفخرها والشبه هنا أقوى الأشياء وأنفسها.

كيف يقوى بكفك الزند والآ ... فاق فيها كالكف في الآفاق

الهاء في فيها للكف.

يقول: كيف يطيق زندك حمل كفك؟ مع أن كفك قد أحاطت بنواحي الأرض! حتى صارت الآفاق في كفك بمنزلة كف الإنسان في الآفاق قلة وحضارة. وأراد بذلك سعة عطائه، وأنه يريد منافع العالم.

وقيل: معناه كيف يوري الزند النار ولا ينكسر من قوتك؟! وكفك يحيط بالآفاق إحاطة الآفاق بكف غيرك.

قل نفع الحديد فيك فما يل ... قاك إلا من سيفه من نفاق

يقول: الحديد لا يعمل فيك، فعجز أعداؤك عن المجاهرة بعداوتك وأعادوا السيوف والرماح واختاروا مواراتك والنفاق في حبك، فأظهروا الحب والانقياد. ولطوا على العماوة والشقاق.." (١)

"ومر سيف الدولة بسمندو وعبر آلس وهو نهر عظيم فنزل على صارخة وأحرق ربضها وكنائسها وربض الخرشنه وما حولها وأكثر القتل، وأقام بمكانه يوما ثم رحل حتى عبر آلس راجعا، فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش وسرى حتى جاز خرشنة، وانتهى إلى بطن اللقان في غد ظهرا، ولقى الدمستق في الألوف من الخيل، فلما نظر الدمستق إلى أوائل الخيل، ظنها سرية، فثبت لها وقاتل أول الناس حتى هزمهم، وأشرف عليه سيف الدولة فانهزم. قيل: وقتل من فرسانه خلق كثير، وأسر من بطارقته وزراورته ووجوه رجاله خلق كثير نيف على ثمانين، وأفلت الدمستق، وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده، وقفل غانما فلما وصل إلى عقبة تعرف بمقطعة الأثفار فصادفه العدو على رأسها، فأخذ ساقة الناس يحميهم، فلما انحدر بعد عبور الناس ركبه العدو فخرج من الفرسان جماعة، فنزل سيف الدولة على بردى وهو نهر عظيم وضبط العدو، وعقبة السير صعبة طويلة، فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها، فعدل متيا سرا في طريق وصفه له بعض أدلته، وأخذ ساقة الناس يحميهم، وكانت الإبل كثيرة مثقلة وجاءه العدو آخر النهار من خلفه، وقاتله إلى العشاء وأظلم الليل، فتسلل أصحاب سيف الدولة يطلبون سوادهم، فلما خف عنه أصحابه سار حتى لحق بالسواد تحت عقبة قريبة من بحية الحدث، فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين، فجعل

---

(١) معجز أحمد، ص/١٩٩

سيف الدولة يستنفر الناس فلا ينفر أحد فمن نجا من العقبة نهارا لم يرجع، ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة ! وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر، فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة والزراورة ولك من كان في السلاسل – وكان فيها مئات – وانصرف سيف الدولة.

فاجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين، بعضهم نيام بين القتلى – من التعب – وبعضهم يحركونهم فيجهزون على من تحرك، فلذلك قال:

وجدتموهم نياما في دمائكم ... كأن قتلاكم إياهم فجعوا

فقال أبو الطيب: يصف الحال بعد القفول في جماد الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة. ويقال: إنه قد قتل في هذه الغزاة من المسلمين زهاء مئة ألف فارس ولم ينج سيف الدولة إلا في شرذمة يسيرة.

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

قوله: هذا الناس إنما وجه فيه الإشارة، أنه حمله على لفظ الناس ثم قال: إن قاتلوا إلى آخره، فرد الكناية إلى المعنى، وروى: هذا الخلق: وهذا ظاهر.

يقول: غيري ينخدع بأكثر هؤلاء الناس، ويغتر بأقوالهم، فأما أنا، لا أنخدع بهم، ولا أغتر بقولهم، لأني جربتهم فوجدتهم لا خير فيهم، يقولون ما لا يفعلون ! فهم في ألسنتهم شجعان، وفي القتال جبناء لا خير عندهم، ولا غناء.

أهل الحفيظة إلا أن تجربهم ... وفي التجارب بعد الغي ما يزع

الحفيظة: الشجاعة وأصلها: الغضب؛ لأن الشجاع يغضب عند الحروب، فيحمى عن قومه. وقيل: الحفيظة: الحمية والأنفة، والتجارب: جمع التجربة. ويزع: أي يكف يقول: هم أهل الشجاعة والحمية في الظاهر، وإذا جربتهم ظهر لك ما يزع عن الاغترار بهم، والانخداع بظاهر أحوالهم.

وما الحياة ونفسي بعدما علمت ... أن الحياة كما لا تشتهي طبع ؟

الطبع: الدنس، ثم سمى العار والعيب طبعا وما استفهام في قوله: وما الحياة وموضعها رفع بالابتداء، والحياة: خبره، ونفسي: معطوفة على الحياة. يعني: وما الحياة، وما نفسي.

يقول: ما لنفسي وطلب الحياة، وكيف ترغب نفسي في حياة هي عار عليها، وغير موافقة لها ! وقد علمت نفسي أن الحياة إذا كانت تنغص بما لا تشتهيه: مرة فقر، ومرة تعب، فهي طبع وعار.

ليس الجمال لوجه صح مارنه ... أنف العزيز بقطع العز يجتدع

المارن: مالان من طرف الأنف. يجتدع: أي ينقطع.

يقول: ليس جمال الرجل في صحة وجهه ومارنه، ولكن جماله في عزته ومنعته، فإن العزيز إذا ذهب عزه ذهب جماله، وكان في الحقيقة مثل من جدع أنفه، لأن السماجة فيه أكثر من قطع الأنف.

أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ؟ ... وأترك ألغيث في غمدي وأنتجع ؟!

يقول: المجد وحسن الحال إنما يكسبان بالسيف. فأطرح هذا المجد عن كتفي ثم أطلبه ! وأترك سيفي في غمدي، وأنتجع المعروف من وجه آخر ! فإذا فعلت ذلك فكأني قد طلبت الأمر من غير وجهه.." (١)

"قدروا عفوا، وعدوا وفوا، سئلوا ... أغنوا، علوا أعلوا، ولواعدلوا

علوا: من عليت في المكارم، مثل علوت في المكان.

يقول: إذا قدروا على أعدائهم عفوا عنهم عند القدرة، وإذا وعدوا وفوا وأنجزوا، وإذا سألهم سائل أعطوه وأغنوه. ولما ارتفعوا في المكارم شاركوا أولياءهم في معاليهم، ولما ولوا بثوا العدل في الرعية.

فوق السماء وفوق ما طلبوا ... فمتى أرادوا غاية نزلوا

فوق السماء: أي علوا فوق الغايات التي يضرب بها المثل، وعلوا الرتب فإذا أرادوا غاية نزلوا إليها من العلو.

قطعت مكارمهم صوارمهم ... فإذا تعذر كاذب قبلوا

تعذر: أي اعتذر كاذب.

يقول: إن كرمهم قد قطع سيوفهم: أي منعها من القتل بالعفو، فإذا اعتذر إليهم مذنب قبلوا عذره، وإن كان كاذبا. كرما منهم.

لا يشهرون على مخالفهم ... سيفا يقوم مقامه العذل

يقول: إذا قدروا على دفع مخالفهم باللوم، لم يشهروا عليه السيف، ولم يتعدوا إلى القتال. يصفهم بذلك لكرم أخلاقهم.

فأبو علي من به قهروا ... وأبو شجاع من به كملوا

يقول: إن آل بويه إنما قهروا أعداءهم بأبي علي ركن الدولة، وكمل فضلهم وفخارهم بأبي شجاع عضد الدولة.

حلفت لذا بركات نعمة ذا ... في المهد: ألا فاتهم أمل

يقول: حلفت لأبي علي بركات أبي شجاع أنه يريك فيه جميع آماله: أي كانت مخايل سؤدده لائحة عليه وهو صغير في المهد، فذا الأول لأبي علي، والثاني لأبي شجاع، وقيل المعنى: حلفت لأبي شجاع بركات

---

(١) معجز أحمد، ص/٢٥٤

نعمة أبي علي ألا يتجاوزها المل، فذا الأول إشارة إلى أبي شجاع والثاني إلى أبي علي.

وقال أيضا يعزى عضد الدولة بعمته وقد توفيت بمدينة السلام.

آخر ما الملك معزى به ... هذا الذي أثر في قلبه

هذا دعاء بلفظ الخبر يعني: جعل الله هذه المصيبة التي أثرت في قلبك آخر ما تعزى به. أي: لا أعادها الله بعد هذه.

لا جزعا بل أنفا شابه ... أن يقدر الدهر على غصبه

يقول: لو لم يؤثر هذا المصاب في قلبه جزعا، لكن تداخلته **الحمية والأنفة** حيث قدر الدهر على غصبه عمته.

لو درت الدنيا بما عنده ... لاستحيت الأيام من عتبه

يقول: لو علمت الدنيا بما عنده من الفضل والمجد، لاستحيت من عتبه عليها؛ لأنها إذا أساءت إليه عتب عليها، لأجل هذه الإساءة.

لعلها تحسب أن الذي ... ليس لديه من حزبه

يقول: لعل الأيام ظنت أن من غاب عن حضرته، ليس من حزبه فأقدمت على ذلك لما رأتها بعيدة عن نصرته.

وأن من بغداد دار له ... ليس مقيما في ذرا عضبه

الذرا: الناحية.

يقول: لعل الأيام ظنت أن من داره بغداد ليس في حماية سيفه، فلهذا عرضت لعمته لما كانت مقيمة ببغداد.

وقيل: كان ابن معز الدولة مقيما ببغداد وهو ابن عمه. يعني: أنه في حماية سيفه. والمقصد تفضيله عليه.

وأن جد المرء أوطانه ... من ليس منها ليس من صلبه

يقول: لعل الأيام ظنت ألا نسب بينك وبين عمتك لما بعدت عنك، ولم تكن مقيمة في وطنك الذي من عادتك وعادة أجدادك أن يكونوا فيه، ولعلها ظنت أن القوم يتناسبون بأوطانهم، فمن فارق وطنه لم يكن بينه وبين أهله نسب؛ فلهذا أقدمت عليها لما فارقت وطنك. والهاء في أوطانه للمرء وفي صلبه للجد.

أخاف أن يفطن أعداؤه ... فيجفلوا خوفا إلى قربه

يقول: أخشى أن يفطن أعداؤه إلى أن من قرب منه آمن حوادث الدهر، فيسرعون إلى قربه؛ ليحصلوا في

ذمته.

لا بد للإنسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه

يقول: لا بد للإنسان من الموت، فعبر عنه بالضجعة، ثم قال: تلك الضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه. يعني: لا بد للإنسان أن يرقد رقدة لا ينقلب فيها من جنب إلى جنب، ولا ينتبه منها أبدا. ويعني بها ضجعة القبر.

ينسى بها ما كان من عجبه ... وما أذاق الموت من كربه

الهاء في بها للضجعة.

يقول: صاحب هذه الضجعة ينسى بسببها تكبره، وينسى عندها أيضا ما ذاقه من مرارة الموت؛ لأنه لا يحس شيئا.

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه ؟!." (١)

"لا تراني راتعا في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم٥٧٦

إن شر الناس من يكشر لي حين يلقاني وإن غبت شتم٥٧٧

وكلام سيئ قد وقرت أذني عنه وما بي من صمم٥٧٨

فتعزيت خشاة أن يرى جاهل أني كما كان زعم٥٧٩

ولبعض الصفح والإعراض عن ذى الخنا أبقى وإن كان ظلم٥٨٠

وأما خبراتهم بالحياة وثمرات تجاربهم، فقد أودعوها في حكمهم التي تكون في العادة ذات ألفاظ قصيرة ولكن معانيها كثيرة وقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن النثر الجاهلي أن الحكم تأتي نثرا وتأتي شعرا، وهي في النثر أكثر، ولذلك تحدثنا عنها هناك. وهي في الشعر تأتي منتثرة في ثنايا القصائد حينما تحين الفرصة المناسبة لها في سياق الكلام وقد سبقت لها نماذج كثيرة في المعلقات، وفي الأمثلة الشعرية التي ذكرناها فيما سبق.

ومن ينظر فيها يجد أنها مستقاة من بيئتهم وحياتهم ونظراتهم في الحياة وفي الناس، وهي تدل من ناحية على صدق إحساسهم ودقة ملاحظاتهم، كما أنها تدل من ناحية أخرى على مقدرتهم الفنية القوية في التعبير والتصوير.

---

(١) معجز أحمد، ص/٤٥٤

٥٧٦ راتعا: آكلا بشره. الضرم "بكسر الراء" الشديد النهم.

٥٧٧ يكشر: يضحك ويبدي أسنانه.

٥٧٨ الوقر: ثقل في الأذن، أو هو الصمم.

٥٧٩ تعزيت: تصبرت. خشاة: خشية.

٥٨٠ الخنا: العيب والفحش.

٤٣٧ ٤٧٨

Results ١،١،١،٣٨٦

في تاريخ الأدب الجاهلي

الصعاليك

الصعاليك:

الصعاليك: جمع صعلوك وهو الفقير: ويطلق لفظ الصعاليك -في عالم الأدب- على فئة من الفقراء اتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة في حياتهم، فسلكوا سلوكا له سمات معينة، أهمها: **الأنفة** والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، معتمدين في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة الجري والهجوم الخاطف والسلب والنهب والفتك بالأعداء مع الحرص على البر والاهتمام بالمرضى والضعفاء والمحتاجين.

". (١)

"وما كان البدوي يفكر في الاشتغال بمورد ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طول حياته، وتستره حيطانه عن نور الفضاء، واتساعه الفسيح الأرجاء، ومن ثم أنف من الاشتغال بالزراعة، أو الصناعة فتركوا ذلك لغيرهم ممن كانوا يعتبرونهم أقل من البدو، أنفة وكبرياء، وكان مبدأ العربي: "الذل بالحراث، والمهانة بالبقر. والعز بالإبل، والشجاعة بالخيل"٩. ولهذا تمسكوا بالصحراء، وعاشوا بين جنباتها الواسعة، تحت سقوف

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي، /

خيامهم، وبين حيواناتهم، يتنفسون من هوائها العذب، ونسيمها العليل، يحمل بين هبوبه وحركاته، الحرية والسيادة المطلقة، فكان يغذي روحهم المتعشقة للانطلاق، والمطبوعة على **الأنفة** من الحدود والقيود.

ولكن بسبب الجدب الضارب أطنابه لم يكن هناك من الموارد ما يكفي لإنعاش هؤلاء البدو، وتوفير عيشة هنيئة لهم جميعا، لذلك انتشر الفقر والبؤس فيهم، ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة، خصوصا في متاهات هذه الصحراء الواسعة وبين مرتفعاتها ومنحدراتها ومنحنياتها، حيث تضل الطريق وتعمى السبل حتى على كثير ممن لديهم خبرة بطرقاتها ودروبها. ومن ثم وجدت جماعة الصعاليك١٠ وانتشر قطاع الطرق، وكثرت الغارات، وكان الأمن معدوما، والقوة فقط هي صاحبة السيادة والسلطان.

". (١)

"ومنها أنهم مثلوا النفس الإنسانية بالملك المستولي، وأفضل أحواله أن يكون عالما عادلا لينا مهيبا مطاعا قويا من غير غلطة، رؤوفا من غير مهانة والنفس الغضبية مقال جنده الذين يسدون ثغوره ويقهرون أعداءه، ويقومون رعيته، وينفذون أمره وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب في نفسهم سهلة الانقياد لسلطانها المستخدم لها، والنفس الشهوانية مثال رعيته الذين يجب أن يكون عريكتهم لينة مواتية ورهبتهم منه، ومن جنده ثابتة مستحكمة فمتى أخذت هذه القوى مأخذها، وتعادلت في أوزانها وأقسامها كان الإنسان كاملا وإن زال عن ذلك نقص، وكان نقصانه بمقدار زواله، والنفس الإنسانية، لا تسلم من معارضتها إلا أن تكون صارمة قوية أبية، فإنها إذا كملت شدتها واستحكمت قوتها ثبتت لمقابلة العدوين اللذين معها، إذ قيل للقوي بين الضعيفين، فأما إن كانت وضعيفة بين قوتين فهناك تجتمع المعايب والمثالب وترتفع المحاسن والمناقب.

ومنها أن البدن كالمدينة، والنفس الإنسانية كالملك، والحواس الباطنة والظاهرة كالجنود، والأعضاء كالرعية، والغضب والشهوة كعدوين ينازعانه الملك ويسعيان في هلاك رعيته، فإن قصد الملك قهرها استقامت مملكته وصارت إلى العاقبة رعيته وإن لم ينازعهما، وضيع الحزم اختلت مملكته وصارت عاقبة أمره إلى الهلاك.

ومنها أنهم قالوا: مثل النفس الإنسانية مثل الفارس ركب لأجل الصيد فشهوته فرسه وغضبه كلبه، فمتى كات الفارس حاذقا، وفرسه مرتاضا، وكلبع معلما كان جديرا بالنجح، ومتى كان الفرس جموحا والكلب عقورا، ولا فرسه تنبعث تحته على حسب إرادته، ولا كلبه يسترسل بإشارته، فهو خليق بالعطب فضلا عن

---

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي، /

أن ينال ما طلب.

ومنها أن البدن كبيت فيه إنسان وسبع، وخنزير، فالإنسان النفس الإنسانية، والسبع الغضب، والخنزير الشهوة، فأي الثلاثة غلب فالمسكن له فيجب أن تكون هاتان النفسان تحت سلطان النفس الإنس١نية فيجريهما مجرى المركب الذي يركبه عند الحاجة بسرج يذلله وشكيمة تحنكه، وحنان يلينه وسوط يخفيه فإذا نزل عنه ألزمه الشكال والرباط لئلا يجد على حال من الأحوال شيئا إلى أن يشرد فيهلك ويجني على صاحبه، والقول الحق أن الخلق مشتق من الخلق وكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق ولكن لا مندوحة على الاستبصار، وقمع التلون بعزائم الاستبصار حتى يصير المحمود من الأخلاق بحتا والموصوف لا يشتغل بالأرزاء به وقتا ولو لم يكن ذلك ممكنا لما وضعت الحكماء الكتب في الحض على تهذيب الأخلاق وإصلاحها، وليس ذلك بالعبث فيها بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة، مثاله أن الحبشي يتدلك بالماء والغسول لا ليستفيد بياضا، ولكن ليستفيد نقاء شبيها بالبياض والنفس الإنسانية إذا ساست القوتين أعني " الغضبية والشهوية " ، فحذفت زوائدهما ونقت فواضلهما ووفت نواقصهما، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلمة في الشهوة أخمدت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنائها فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم فيعود السفه حلما، أو تحالما، والحسد غبطة، أو تغابطا، والغضب كظما أو تكاظما، وصرفت هذه الكوامن في هذه المكامن إذا سارت سورتها، وثارت ثورتها على مناهج الصواب تارة بالعظمة واللطف، وتارة بالزجر والعنف، وتارة **بالأنفة** وكبر النفس وتارة بإشعار الحذر وتارة بعلو الهمة، وهناك يصير العفو عند القادر ألذ من الانتقام، والعفاف عند الهائج أحلى من قضاء الوطر، والقناعة عند المحتاج أشرف من الإسفاف، والصداقة عند الموتور آثر من العداوة والمرارة عند المحفظ أطيب من المماراة على أن الأمرين بالتخلق والتطبع غير منكرين." (١)

"اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الواقعة التي كانت بيننا وبين الأسماعليية، وإن لم تكن سواء.لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان ابن حرار ابن عمي سنان الدولة شبيب ابن حامد بن حميد رحمه الله في الحصن وهو تربى فيه.ولدت أنا وهو في يوم واحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانية وثمانين وأربع مائة إلا انه ما باشر الحرب ذلك اليوم وأنا كنت قطبها.فأراد علوان اصطناعها.فقال لهارجع إلى بيتك احمل منه ما تقدر عليه ورح لا تقتل، فالحصن قد ملكناه.فرجع إلى الدار وقالمن كان له شيئا يعطيني إياه يقول ذلك لعمته ونساء عمه، فكل منهم أعطاه شيئا، فهو في ذلك إذا إنسان وقد دخل

---

(١) مباهج الفكر ومناهج العبر، ص/١٥

الدار عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس.فلما رآه ايقن بالموت، فوضع الخوذة وإذا هي ابن عمه ليث الدولة يحيى رحمه الله.فقالتأي شيئا تريد تعمل ؟قالآخذ ما قدرت عليه، وانزل من الحصن بحبل وأعيش بالدنيا.قالتبئس ما تفعل، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح؟أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك انهزمت عنهم؟أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم، فعل الله بك وفعل.ونعته رحمها الله من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

والدة أسامة في القتال

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي رحمها الله سيوفي وكزاغنداتي، وجاءت إلى أخت لي كبيرة في السن وقالتألبسي خلفك وإزارك.فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن، ونصرنا الله سبحانه عليهم.وجأت إلى داري أطلب شيئا من سلاحي ما وجدت إلى جهازات السيوف وعيب الكزاغندات.قلتيا أمي أين سلاحي؟قالتيا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عن، وما ظننتك سالما قلتوأختي أي شيء تعمل هاهنا؟قالتيا بني أجلستها على الروشن وجلست برا منها.إذا رأيت الباطنية وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة.فشكرتها على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيرا، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال.

عجوز تضرب بالسيف

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي رحمه الله يقال لها فنون فأخذت سيفا وخرجت إلى القتال وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم.

وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي .

جدة أسامة تنصحه

ولقد خرجت يوما من الأيام مع الوالد رحمه الله إلى الصيد، وكان مشغوفا بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغارية ما لا يكاد يجتمع عند غيره، ويركب في أربعين فارسا من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص، وله بشيزر مصيدانيوما يركب إلى غربي البلد إلى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج والطير الماء والأرنب والغزلان ويقتل الخنازير، ويما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والأرانب.فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى، وإذا غلام قد جاء يركض قالهذا الأسد!فسلمت قبل الوالد رحمه الله لكيلا يمنعني من قتال الأسد وركبت ومعي رمحي فحملت عليه فأستقبلني وهدر، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطا جيدا، ثم رجع إلى سفح

الجبل ووقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة جائع وكلما دنون منه نزل من الجبل، طرد الخيل وعاد إلى مكانه، وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا.." (١)

"وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل أخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، يقابلها من الجانب الطريق الأخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار قد فتح بيته من هذا الخمر، من أراد منها شيئا فهي من موضع كذا وكذا، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة فجاء يوما ووجد رجل مع امرأته في الفراش فقال لهأي شيء أدخلك عند امرأتي؟قالوجدت فراشا مفروشا نمت فيه قالوالمرأة نائمة معك؟قال الفراش لها كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟قال وحق ديني إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت.فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته.

ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله قالفتحت حماما في المعرة أتعيش فيا، فدخل إليها فارس منهم وهم ينكرون على من يشد في وسطه الئزر في الحمام، فمد يده وجذب مئزري من وسطي رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقالسالم فتقربت منه، فمد يده على عانتي وقالسالم جيد!وحق ديني أعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقته فمر يده عليه فستوطأه فقالسالم بحق دينك اعمل للدام والدام بلسانهم الست يعني امرأته.وقال لغلام لهقل للداما تجيء.فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقالاعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي.فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيمما فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعته العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة **والأنفة** من سوء الأحدوثة.ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة فيها.فقال لي بعض غلماني في الحما معنا امرأة.فلما خرجت جلست على المسطاب وإذا التي كانت بالحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفه مع أبيها ولم أتحقق أنها امرأة.فقلتبالله أبصر هذه امرأة هي.وأنا أقصد أن يسأل عنها.فمضى وأنا أراه رفع ذيلها وطلع فيها فألتفت إلي أبوها وقال هذه ابنتي ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها.قلتجيد عملت، هذا لك فيه ثواب.

عجائب طبهم أيضا

---

(١) كتاب الاعتبار، ص/٤٣

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليما دبور صاحب طبرية وأنا معه، فحدثنا في الطريق فقالكان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت، فجئنا إلى قس من قسوسنا قلناتجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا؟قال نعم.فمشا معنا ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي فلما رآه قالأعطوني شمعا.فاحضرنا له قليل شمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس فقلنا لهقد مات قالنعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح.

دع ذا وعد القول في هرم .

سباق ومحاكمات." (١)

"أخبرني ولده بهاء الدين أبو القاسم عبد المجيد بن الحسن قال: سمعت والدي يقول أنه كان يقرأ القرآن في صباه بالمسجد الجامع، على رجل من القراء يقال له ابن الضريبة، وكان يقرأ معه أخوه أبو الفضل بن عبد الله بن الحسن، قال: وكان أخي ذكيا فطنا يحفظ سريعا، وكنت بطيء الحفظ واقف الخاطر حتى أنني تعبت أياما في حفظ قوله تعالى: " سنسمه على الخرطوم " ولا أحفظها فقال ابن الضريبة يوما: لا إله إلا الله، هذا أخو أبي الفضل، فأخذتني الأنفة على نفسي وصغرت عندي لذلك، ودعوت الله ن يسهل لي حفظ القرآن، ثم اجتهدت حتى بلغ من أمري أنني كنت آخذ ستين آية وسبعين آية وأحفظها.

حدثني والدي رحمه الله قال: كان للقطب أبي علي بن العجمي جب فيه حنطة، في داره، فأمر بفتحه وبيع ما فيه من الحنطة، ففتح لتباع الحنطة عند تحرك السعر فوجدوا الماء في رأس الجب فوق الحنطة فجاؤوا إليه وأخبروه بذلك فقال: في سبيل الله، ثم نزحوا الماء، فوجوده قد جرى من قناة إلى رأس الجب، ولم يصل منه إلى الحنطة إلا القليل، وفسد شيء يسير من الحنطة، فأخبر بذلك فقال: الحمد لله، وقد جعلته في سبيل الله، لا أرجع فيه، فأخذ ثمنه، وصرفه في ملك اشتراه بحلب، ووقفه على فقراء المسلمين.

وحدثني شرف الدين أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمي قال: لما وقعت الفتنة بحلب بين السنة والشيعة، وهي الفتنة التي قتل ابن الخشاب بسببها، نهب الشيعة دار القطب ابن عمي بالقرب من الزجاجين، ونهبت دار الشيخ أبي يعلى بن أمين الدولة، وكانت بالقرب من دار القطب بالجرن الأصفر، وكان عنده أموال الأيتام بحلب مودعة، وكان القطب في القرية، فلما قتل ابن الخشاب وسكنت الفتنة ظفروا بشيء من الذهب المنهوب، فأرسله الوالي إلى القطب وقال له: هذا قد خلصناه من ذهبك فقال: قد نهبت دار ابن أمين الدولة، وفيها أموال الأيتام، ولا أتحقق يقينا أن هذا عين مالي، وأخاف أن

---

(١) كتاب الاعتبار، ص/٤٧

يكون للأيتام فأرسلوه إلى الشيخ أبي يعلى فلا حاجة لي فيه.
أخبرني أبو القاسم عبد المجيد بن الحسن بن العجمي أن أباه توفي في ذي القعدة من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ودفن في داره التي انتقل إليها بعد النهب بالبلاط، فأقام بها دفينا إلى أن نقله ابن ابنه منها إلى تربة جددت له ولابنه ظاهر باب النصر بالقرب من الهزازة، في سنة خمس وخمسين وستمائة.
الحسن بن عبد الله بن الحسن الختلي: أبو علي بن أبي طاهر الفقيه الشافعي، إمام جامع دمشق، قدم حلب حاجا مع إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، حين قدم الشام، ومر معه بحلب، وحدث عنه وعن أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني.
روى عنه أبو محمد هبة الله بن أحمد الأكفاني، وعبد العزيز بن أحمد الكتاني وسمع منه أبو طاهر إبراهيم بن حمزة الجرجرائي.
أنبأنا أبو المحاسن سليمان بن الفضل قال: أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمد قال: أخبرنا أبو محمد بن الأكفاني قال: حدثنا عبد العزيز بن أحمد قال: أخبرنا أبو علي الحسن بن أبي طاهر الختلي الفقيه، قدم علينا، قال: حدثنا أبو سعيد فضل الله بن أحمد قال: حدثنا أبو العباس المستغفري قال: حدثنا أبو العباس بن أبي الحسن قال: أخبرنا أبي الحسن قال: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال: حدثنا الحسن عن الحسن عن الحسن بن أبي الحسن البصري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن أحسن الحسن الخلق الحسن " .
أخبرنا عبد الرحمن بن أبي منصور، في كتابه قال: أخبرنا علي بن أبي محمد قال: أنبأنا أبو محمد هبة الله بن أحمد، ونقلته من خطه، قال: أخبرنا أبو علي الحسن بن عبد الله بن الحسن الختلي، الشيخ الفقيه الشافعي، إمام الجامع بدمشق، قال: حدثنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، إملاء بدمشق، فذكر حديثا.
أنبأنا أبو نصر بن الشيرازي قال: أخبرنا الحافظ أبو القاسم الدمشقي قال: الحسن بن أبي طاهر بن الحسن أبو علي الختلي الفقيه، سكن دمشق وحدث بها عن أبي سعيد بن الخير الميهني، وإسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، ومعه قدم دمشق حاجا حدث عنه عبد العزيز.." (١)
"من أطاع الغضب حرم السلامة، ومن عصى الحق غمره الذل. وقال بعض الحكماء: كظم الغيظ حلم والحلم صبر، والتشفي ضرب من الجزع. وقال آخر: أول الغضب جنون وآخره ندم. وقال بعض

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ٤٤٨/٢

الحكماء: إذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب: الرغبة والرهبة والشهوة والغضب. وقيل لبعض الصالحين: إن فلانا يقع فيك بقول. فقال: لأغيظن من أمره يغفر الله لي وله! قيل له: ومن أمره؟ قال: الشيطان. وقال رجل لأخيه: إني مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك بأشياء رحمتك منها. قال: فهل سمعتني أذكره بشيء؟ قال: لا. قال: فإياه فارحم، وقال الفضيل: ثلاثة لا يلامون على الغضب: المريض والصائم والمسافر. وقال الأحنف بن قيس: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري. إني لجالس معه في فناء بيته وهو يحدثنا إذ جاءت جماعة يحملون قتيلا، ومعهم رجل مأسور فقيل له: هذا ابنك قتله أخوك! فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقته، ثم أنشد:

أقول لنفسي تصبيرا وتعزية: ... إحدى يدي أصابتني، ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه، وذا ولدي

ثم التفت إلى بعض ولده وقال: قم أطلق عمك ووار أخاك التراب، وسق إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة.

ومن أنبل بيت قالته العرب:

فصح بالخير خرس بالخنا ... رجح الأحلام ذيال الأزر

وقال آخر:

بأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... إذا نطق العوراء عرب لسان

إذا حدثوا لم يخش سوء استماعهم ... وإن حدثوا أدوا بحسن بيان

وقال المسيح عليه السلام: ما حلم من لم يصبر عند الجهل، وما قوة من لم يرد الغضب، وما عبادة من لم يتواضع للرب تعالى؟ وقيل للإسكندر: إن فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهم! فقال: هم بعد العقوبة أعذر في ثلبي وتنقيصي. ويروى عن جرير بن عبد الله: بينما هو راكب قد أردف ابنه إذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت، فلما ولي قال له ابنه: يا أبت لم سكت عنه؟ قال له: يا بني إذن أوسع جرحي. وقال بعض الحكماء: متى أشفي غيظي، أحين أقدر فيقال لو عفوت، أم حين أعجل فيقال لو صبرت؟ وسئل بعض أصحاب الأحنف: أكان الأحنف يغضب؟ قال: نعم، لو لم يغضب ما بان حلمه، كان يغضبه الشيء فيتبين في وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم.

ومن لم يغضب من الأشياء التي مثلها فقد فقد من الفضائل الشجاعة، **والأنفة والحمية** والدفاع والأخذ بالثأر والغيرة، فإن هذه الخصال نتائج الغضب، فمن فقد الغضب فقد فقد أس الفضائل على ما سنذكره في باب الشجاعة، إن شاء الله. وقيل: عند فقد الشجاعة تكون المهانة، ومن المهانة يكون سفساف

الأخلاق ورذالة الطباع، فلا يبقى لسائر فضائله موقع. وكان يقال: من لم يغضب فليس بحليم، لأن الحليم يعرف عند الغضب. وقال الشعبي: الجاهل خصم والحليم حاكم. قال الشافعي رضي الله عنه: من استغضب ولم يغضب فهو حمار، ومن استرضي ولم يرض فهو جبار. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب، ولكنه إنما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه. واعلم أن الله تعالى ما مدح من لم يغضب، وإنما مدح من كظم الغيظ فقال: " والكاظمين الغيظ " آل عمران: ١٣٤. وقد أنشد النابغة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم:

فلا خير في علم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر النبي قوله. وكان عمر رضي الله عنه إذا سافر استتبع سفيها ويقول: أدفع به شر السفهاء عني! واعلموا أرشدكم الله أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدرا، وهي حلية الأنبياء ولبسة الأصفياء والأولياء، وأعملها على الرعايا نفعا وأخلدها على ممر الأيام ذكرا، وأجلها في المحافل والمجالس نشرا، وهي الفضيلة التي تعم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن، وهي الحلم. وها أنا أتلو عليك من ذلك ما يقضى فيه بالعجب: هذه دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح إلى يومنا هذا لم يكن يفهم أحلم من المأمون، بلغ من حلمه أنه كان يقول:." (١)

"من حكم شاتاق الهندي من كتابه الذي سماه منتحل الجواهر للملك ابن قمابص الهندي: يا أيها الوالي أتق عثرات الزمان واخش تسلط الأيام ولؤم غلبة الدهر، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب وللأيام غدرات فكن على حذر وللأقدار بغتات فاستعد لها. والزمان منقلب متولى فاحذر تقلبه، لئيم الكرة فخف سطوته، سريع الغيرة فلا تأمن دولته، واعلم أن من لم يداو نفسه من سقام الآثام في أيام حياته، فما أبعده من الشفاء في دار لا دواء له فيها! ومن أذل حواسه واستعبدها فيما يقدم من خير لنفسه بان فضله وظهر نبله. ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة لم يضبط حواسه وهي خمس، وإذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم، فكانت عامة الرعية في نواحي البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط، فليبدأ الملك بسلطانه على نفسه، فليس من عدو أحق من أن يبدأ بالقهر من نفسه، ثم يشرع في قهر حواسه الخمس لأن قوته الواحدة منهن دون صويحباتها قد تأتي على النفس القوية الحذرة، فكيف إذا اجتمعت خمسة أنفس على واحدة؟ واعلم أن لكل واحدة منهن شرا ليس للأخرى فاقهرها تسلم

---

(١) سراج الملوك، ص/٦٩

من شرها، وإنما يهلك الحيوان بالشهوات، ألا ترى أن الفراش يكره الشمس فيستكن من حرها ويعجبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه؟ والظبى على نفار قلبه وشدة حرصه ينصت لسماع الملاهي فيمكن القانص من نفسه، وذباب الورد المتتبع لطيب الروائح يطلب ما يقطر من أذن الفيل لطيب رائحته، فإنه في طيب رائحته المسك فيلهيه طيب الرائحة عن الاحتراس من تحريك الفيل أذنه، فيتولج في أصل أذنه فتقع عليه ضربة الأذن فتقتله. والسمك في البحر تحمله لذة الطعم أن يبتلعه فتحصل السنارة في جوفه فيكون في حتفه. وذكر هذا الحكيم أن خصالا معروفة قتلت بالإفراط فيها ملوكا معروفين فالصيد مات منه قيدة الملك، والإفراط في القمار مات منه قيشوب الملك، والإفراط في السكر مات منه مخارق الملك، وشدة الحرص مات منها مهريق الملك، والغضب أحر سبحى الملك، والطمع وائل، والفرح واطاب، **والأنفة** بوليس، والتواني زمير نهر. وأخلق بخصال أهلكت ملوكا أن يتجنبها الملوك. واعلم أن الرعية تستمطر الملك العادل استمطار أهل الجدب للغيث، وينتعشون بطلعته عليهم كانتعاش النبات بما يناله من القطر، بل الرعية بالملك العادل أتم نفعا منها بالغيث، لأن لمنفعة الغيث وقتا معلوما وعدل الملك لا يتعين له وقت. ويحسن بالملك أن يشبه تصاريف تدبيره بطباع ثمانية أشياء: الغيث والشمس والقمر والريح والنار والأرض والماء والموت. فأما شبه الغيث فتواتره في أربعة أشهر من السنة ومنفعته لجميع السنة، وكذلك ينبغي للملك أن يعطي جنده وأعوانه أربعة أشهر تقدير التتمة السنة، فيجعل رفيعهم ووضيعهم في الحق الي يستوجبونه بمنزلة واحدة كما يسري المطر بين كل أكمة وشرف وغائط م ستفعل ويغمر كلا من مائه بقدر حاجته، ثم يستجبي الملك في الثمانية أشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم كما تجبى الشمس بحرها وحدة فعلها نداوة الغيث في أربعة أشهر الأمطار.

وأما شبه الريح فإن الريح لطيفة المداخل تسرح في جميع المنافذ حتى لا يفوتها مكان، كذلك الملك ينبغي أن يتولج في قلوب الناس بجواسيسه وعيونه لا يخفون عنه شيئا حتى يعرف ما يأتمرون به في بيوتهم وأسواقهم. وكالقمر إذا استهل تمامه فأضاء واعتدل نوره على الخلق وسر الناس بضوئه، وينبغي أن يكون الملك ببهجته وزينته وإشراقه في مجلسه وإيناسه رعيته ببشره، فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله. وكالنار على أهل الدعارة والفساد. وكالأرض على كتمان السر والاحتمال والصبر والأمانة. وكعاقبة الموت في الثواب والعقاب يكون ثوابه لا يقصر عن إقامة حد ولا يتجاوزه. وكالماء في لينه لمن لا ينه، وهدمه واقتلاعه عظيم الشجر لمن جاذبه.." (١)

---

(١) سراج الملوك، ص/١٦١

"وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: لو كان المؤمن في رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه يا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه، من عدو أقلقه وحاسد حسده، طب نفسا وقر عينا وانعم عيشا، بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم لك بالإيمان، ولعدوك بالنفاق. بخ بخ إن عقلتها! أما لك في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أسوة؟ أما لك في الصالحين قدوة؟ فلو لم نلق الله عز وجل من الحسنات إلا بما اقترفناه اختيارا للقينا الله تعالى فقراء من الحسنات ثقالا من السيئات. قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

وقال بعض الحكماء: الذي رأينا مما نحب فيما نكره أكثر مما رأينا مما نكره فيما نحب. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما أهمني ذنب أمهلت بعده حتى أصلي ركعتين. السجون قبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء، وأسعد الناس من كان القضاء له مساعدا وكان لمساعدته أهلا. غلب على الكريم من بدر إليه. الشماتة لؤم. عوام الناس عدة لخواصهم. مجيء القدر يسبق الحذر. من سخر من شيء حاق به. من عير بشيء عير به. الخلق نهب المصائب. مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها. أقل ما في الحيلة الخروج من الاستكانة.

جاني العقوبة على نفسه أعظم جرما عليها من المعاقب له عليها. قرابة بغير منفعة بلية عظيمة. والنعمة منعة. كفاك أدبا لنفسك ما كرهته من غيرك. **الحمية** ثوب الجهل. **الأنفة** قوام السفيه. قل آنف لم يعقب ذلا. العادة كمين لا يأمن ازدحام الكلام مضلة الصواب. عجلوا القرا قبل سوء الظن وإلحاق السيئة. أعجب ما في هذا الإنسان قلبه وله مؤاد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سخ له الرخاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه الأياس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد بالغيظ، وإن استعد بالرضاء نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمر أسلمته الغرة، وإن حدثت له نعمة أخذته العزة، وإن امتحن بمصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة أشغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد.

أفضل القول بديهة آمنة وردت في مقام خوف. أشد الناس غما الذي يرى غيره في الموضع الذي هو به أولى. ما أخذ الله طاقة أحد إلا رفع عنه طاعته. من العجب أن لا ترضى عمن ابتغى رضاك، وأعجب من ذلك أن تسخط عليه. زئير الأسد يشبه صولته. علامة العلم العلم بالعراض عند المناوهة. لا تغاروا حتى تروا. لا تفخروا حتى تفعلوا. لا تأنفوا حتى تظلموا. أوجب الشفعاء براءة الساحة. من لزم الصحة والاستقامة

لزمته الغبطة والسلامة. قصص الأولين مواعظ الآخرين. البحث يوضح الحق كما يورى النار القدح. ليس من الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط غنى.

قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه: عجبت لمن بلى بخمس كيف يغفل عن خمس عجبت لمن ابتلى بالضر كيف يذهب عنه أن نقول " مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " الأنبياء: ٨٣. والله تعالى يقول " فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر " الأنبياء: ٨٤ وعجبت لمن بلي بالغم كيف يذهب عنه أن يقول " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " الأنبياء: ٨٧ والله تعالى يقول " فاستجبنا ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين " الأنبياء:٨٨ وعجبت لمن خاف شيئا كيف يذهب عنه أن يقول " حسبنا الله ونعم الوكيل " آل عمران: ١٧٣ والله تعالى يقول فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء " آل عمران:١٧٤ وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول " وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد " المؤمن:٤٤والله تعالى يقول " فوقاه الله سيئات ما مكروا " المؤمن: ٤٥ وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول " ما شاء الله لا قوة إلا بالله " الكهف: ٣٩ والله تعالى يقول " ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله " الكهف: ٣٩ كذا سنة الله تبارك وتعالى فيمن صدق في التجائه إليه، ولم يتوكل في مهماته إلا عليه.." (١)

"وقد بلغني أن للسيد " عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " مجلسا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعراء. ولو تحرى في التطوع متحوب فقادني برسني حتى أقف من ذلك المجلس بمرأى ومسمع لألقيت " مسألة " ثم فرعتها فخاض فيها الفقهاء والمتكلمون والشعراء سحابة ليلتهم تلك. وكأني بك قد قلت في نفسك: ليت شعري ما تلك المسألة؟ ثم أدركتك الأنفة أن تسألني عنها. وأنا أبتديء لك بذكرها غير باخل عليك ولا على غيرك بشيء مما أحسنه.

كنت أقول للفقهاء: ماذا تقولون في رجل طاف بالكعبة سبعا وهو ينشد:

" فقا نبك " .ما توجبون عليه؟

فإذا أجابوا، فرعتها عليهم. وقد علمت أن الضحضاح بعده الغمر وأن الدخان تحته اللهيب الجمر.

وكنت أقول للمتكلمين: أخبروني عمن يقول بقدم العالم: أقفا نبك كانت قبل " امريء القيس " أم بعده؟ وأخبروني عن: قفا نبك، أجوهر هي أم عرض؟ فإن قالوا: جوهر، فقد أحالوا في رأي المتكلمين. وإن قالوا: عرض، قلت: فالأعراض لا قوام لها في أنفسها وإنما تعرف إذا تعلقت بالجواهر.

---

(١) سراج الملوك، ص/١٦٥

وقد نجد رجلين يقفان على ضيفي واد وبينهما مدى بعيد فينشد أحدهما: قفا نبك، فيسمعه الآخر. فبم تعلقت حتى وصلت إليه؟ ثم أشجر الكلام وأشجنه.

وكنت أقول للشعراء: أخبروني عن ثلاثة منكم أحضرهم " السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " - أعز الله نصره - وكان أحدهم يعمل البيت من قرى " قفا نبك " في دقيقة، والآخر في دقيقتين، والثالث في ثلاث دقائق. فأمرهم أن يصنعوا بيتا على ذلك العراق ويتعاطوا فيه النصفة، أكان هذا يمكن أم يتعذر؟ وهل تجري الأبيات كلها مجرى واحدا أم تختلف لاختلاف مهيئات الحروف؟ فإن حملهم ادعاء الرتبة والفرار من حياء الغلبة على أن يقولوا: كنا نتناصف ونتماثل ونجيب " السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " - خلد الله أيامه إلى ما أمر؛ قلت لهم: فكم المدة التي ينجز معها فرغ البيت؟ فإن قالوا: لا نعلم، فقد رجعوا عن دعواهم وأقروا بالعجز لمن سألهم.... وإن قالوا: نعمله في ستة أجزاء من أحد عشر من دقيقة يعمل الذي جرت عادته أن يعمل البيت في دقيقة، ستة أجزاء من أحد عشر من البيت. وكان يعمل صاحب الدقيقتين ثلاثة أجزاء من أحد عشر، وكان يعمل صاحب ثلاثة جزءين.

قلت: كيف السبيل إلى تناصفكم في هذه القسمة، وقد علمتم أن أحد عشر عدد أصم؟ وهل في طاقتكم أو طاقة غيركم قسمة الحرف الواحد أو الحركة، على هذه الأجزاء؟ ثم يتنوع الخطاب في ذلك إلى ما شاء الله.

وأما قولك إن صوتي جنسان: حمحمة وشحيج، وأنه لا يبنى منها النظام، فإن الأشياء لها جمل، والجمل لها تفصيل، والتفصيل له تأويل " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم " .

قد جعلت صوتي، لأنه جنسان، قريبا من حد الإبانة. ولعله قد بلغك حديث " أبي مالك الأشجعي " الذي يروي عنه أنه قال: "كنا مع علي عليه السلام منصرفه من صفين، فمر بالحيرة وهي كثيرة النصارى فسمع صوت الناقوس فقال: ما يقول الناقوس؟ فقلنا: ما قول يا أمير المؤمنين؟ فقال: يقول:

إن الدنيا قد أغوتنا ... واستغوتنا واستهوتنا

لسنا ندري ما قدمنا ... فيها إلا لو قد متنا

تفنى الدنيا قرنا قرنا ... يا ابن الدنيا مهلا مهلا

زن ما يأتي وزنا وزنا ... ما من يوم يمضي عنا

إلا أوهى منا ركنا

أفلا ترى إلى أمير المؤمنين كيف صرف صوت الناقوس وهو جنس واحد، لأنه يحدث باصطكاك جسمين

جماديين؟ فصوتي أولى بالتفريع من صوت الناقوس، وصوت الناقوس أولى بالتفريع من الصمت الدائم والجمادى.

وقد روى أن " عدي بن زيد "كان مع " النعمان بن المنذر " تحت شجرة كان يشرب عندها ملوك الحيرة. فقال له عدي بن زيد: أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: وما تقول؟ قال: إنها تقول:

رب شرب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحوا لعب الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفلا ترى كيف تأول " عدي " صمت الشجرة؟ وقد قال " الحارثي " :

فأسمعنا بالصمت رجع كلامنا ... فأبلغ به من ناطق لم يحاور." (١)

"رجال المعلقات العشر مصطفى الغلاييني الصفحة : ٩

على أن أميتهم وإن لم تقف في تيار نهضتهم فقد نشأ عنها – لعدم الرابطة بين القبائل المتنائية – اضطراب في اللغة: لتعدد الأوضاع، واختلاف اللهجات، وغير ذلك مما دعا أولي الرأي منهم أن يفكروا في توحيد اللسان العام وتهذيبه. فأقاموا لذلك أسواقا أشبه بالمؤتمرات اللغوية، بثوا فيها وحدته – كما قدمنا – فكانت لغة (قريش) فارس الحلبة، وصاحبة الغلب. ولولا (عكاظ) ونظائرهم لم يكن ذلك أمرا ميسورا.

النظم والنثر فيه

كان للشعر في عصر الجاهلية أسمى المنازل وأشرف الدرجات، لأنه ديوان علومهم وحكمهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، والضابط لأيامهم وأنسابهم. وقد كان الشاعر صاحب الكلمة، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الأمر والنهي، وإليه الحل والعقد.

وكانت القبائل يهنئ بعضهم بعضا إذا نبع فيهم شاعر. وتقام لذلك الولائم والأفراح.

وكان الشاعر يقول الشعر طبءا من غير تكلف، وسهلا من غير تعسف. إلا إذا تعمد ذلك كزهير، فقد كان لا ينشد بعض قصائده حتى يحول عليها الحول. كما سترى ذلك في الكلام على شعره، إن شاء الله.

وقد طرق الشعراء في هذا العصر أبوابا كثيرة كالمدح والهجاء والفخر والحماسة وضرب الأمثال. فصاغوا ذلك كله في قالب الإجادة والإبداع.

وكانوا يأبون الإجازة عليه حتى جاء (النابغة الذبياني) و(زهير) و(الأعشى) فقبلوها. وكان أول من سنها

---

(١) رسالة الصاهل والشاحج، ص/٢٤

(النابغة). فأنفت الناس من قول الشعر بعض **الأنفة**. إلا أن ذلك لم يحط من قدره لقلة من فعل ذلك من الشعراء في الجاهلية.

ونهضة الشعر في هذا العصر تتناول مئة وخمسين (١٥٠) سنة. يمتاز فيها برسم الحقيقة رسما ناطقا، ووصف الشيء على علاته، وبيانه على طبيعته.

وأجود ما قيل فيه المعلقات. وصفوة فحوله شعراؤها.

أما الكلام المنثور فقد كان لهم فيه اليد الطولى كالمنظوم. ما بين مسجع ومرسل. وقد أثر عنهم منه شيء كثير مما يعلق بالضمير لنفاسته كالأمثال والحكم والوصايا والخطب.

". (١)

" ما لا يدري أيلحقه أم يحول الموت بينه وبينه ولو لزم الحريص ترك الإفراط فيه واتكل على خالق السماء لأتحفه المولى جل وعز بإدراك ما لا يسعى فيه والظفر بما لو سعى فيه وهو حريص عسى لتعذر عليه وجوده

وأنشدني علي بن محمد البسامي ... ألا رب باغ حاجة لا ينالها ... وآخر قد تقضي له وهو أيس ... يحاولها هذا وتقضي لغيره ... وتأتى الذي تقضي له وهو جالس ...

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش ... وكم من أكلة منعت أخاها ... بلذة ساعة أكلات دهر ... وكم من طالب يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدري ...

قال أبو حاتم رضى الله عنه الحرص علامة الفقر كما أن البخل جلباب المسكنه والبخل لقاح الحرص كما أن **الحمية** لقاح الجهل والمنع أخو الحرص كما أن **الأنفة** توأم السفه وأنشدني عمر بن محمد قال أنشدني الغلابي ... لا تأتين نذالة لمنالة ... فليأتينك رزقك المقدور ... واعلم بأنك آخذ كل الذي ... لك في الكتاب محبر مسطور ... والله ما زاد امرءا في رزقه ... حرص ولا أزرى به التقصير ...

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي ... وارض من العيش في الدنيا بأيسره ... ولا ترومن ما إن رمته صعبا ... إن الغني هو الراضي بعيشته ... لا من يظل على ما فات مكتئبا ...

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز حدثنا عبد الله بن يحيى بن حميد الطويل حدثنا أبو عبد الرحمن العتبي حدثني ابي قال اختصمت بنو إسرائيل في القدر خمسمائة عام ثم تحاكموا الى عالم من علمائهم فقالوا له أخبرنا عن القدر وقصر وبين لتفهمه عنك العوام فقال حرمان عاقل وحظ جاهل

---

(١) رجال المعلقات العشر للغلاييني، /

قال أبو حاتم رضى الله عنه لاحظ في الراحة لمن أطاع الحرص إذ الحرص ." (١)

"ظهير الدولة الإسماعيلية ذي السابقة لدعوتها والأولية والاختصاص بتشييد أركانها والمزية أسد الحروب إذا اضطرمت نارها وفار تيارها وبدر دجاها إذا احتجبت بالنقع أقمارها الكريم المآثر في الدفاع عن الدين حسام كبير السلاطين أسد العرين شيخ المجاهدين من مشايخ بني مرين المقدس الأرضي المعظم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الخطير المعظم الأوحد الأظهر الأطهر الأمجد المعظم المقدس الأرضي أبي العلاء إدريس بن عبد الحق النسب المعروف والمعدن الذي تنسب إليه هذه السيوف والعنصر الذي تشمخ به هذه المعاطير **الأنفة** و الأنوف فحين ظهر بهذا البيت الذي هيأ له التوفيق اتفاقه ومد عليه السعد رواقه شديد الظنين على ذخره وثابر منه على مرجح فخره وعرض غرضه على المقام الكريم اليوسفي الذي أوى إلى إيالته واستظل بظل جلالته ملتمسا بركة إشارته وراجيا أثر استخارته فاسترجع أيد الله نظره واستحسن مأخذه في ذلك وشكره ورأى أنها وشايج على مظاهرة مقامه تلتحم وعقود مجد في لبة دولته الرفيعة تنتظم وقلوب على محبته تأتلف وألسن بحقه الواجب تعترف وشآجيب مجد ببابه إن شاء الله تقف كافأ الله مقامه ببلوغ الأمل وإنجاح العمل حتى يودي حقه من صنايعه هؤلاء الحفدة والبنون وتجنى من غرس الخير في أهله ووضعه في محله ما تقر العيون فخطب للشيخ الأجل الأغر الأرفع الماجد المعظم أبي الحسن علي ابن الشيخ الكذا ابي سرحان مسعود ابن أبي سعيد المذكور قبل أخته الحرة الماجدة الفاضلة مسعودة وصل الله سعدها وحرس مجدها خطبة قابلها

." (٢)

"المتوعد ممسكها بالويل أين الجهاد وارتباط الخيل أين الحج وركبانه تتدافع تدافع السيل أين تلاوة القرآن الذي تطمئن به القلوب أين الخلق الذي لا يصح دونها المطلوب أين الحظ المغلوب أين الصبر والسكون وانتظار الفرج ممن يقول للشيء كن فيكون أين قيدها وتوكل أظنه أشكل أين **الأنفة** من الاشتهار أين الأنس بالخلوة بياض النهار عدل عن ذلك كله إلى البخل على المساكين والسلاطة على أهل الدكاكين وهجر الممورد المعين والتعويل على الوصول إلى الله من خرجة ابن سبعين والحرمان تتضاعف مكاسبه والمقصد الخبيث يمده الشيطان بما يناسبه مقام التوبة لم يحصل وسوء الولاية تفصل وعقود العقد الصحيح لم تبرم والمحرمات بعد لم تحرم والمواجد لم يخطب المحل الأكرم القواعد بعد مضاعة ومعرفة الله قد

---

(١) روضة العقلاء، ص/١٣١

(٢)

حفلت براعة الخلق لم تهذب والنفوس في التماس الكمال تعذب ثمرات العمل لم تحصد وغاياتها في الحوانيت تقصد كان جمهور المسلمين همج مهمل كأن الأنبياء لم تبين ما يعمل كان الشريعة ليس لأوضاعها سوق ولا لنخلها بسوق كأن الشافعي أو مالك ليس بسالك وإن ما دون أشياخكم هالك هذا لو كان لكم أشياخ أو لمسير جيرتكم مناخ إنما هي أعلام للشهرة تنصب وتيجان للخطوب تعصب النسي يذكر والذكر ينسى وظهور الولد والمساكين تعرى والخليلي يكسى وابدأ بمن تعول يوسع رسمه طمسا والاعتدال يحكم فيه الجدال بالله خلوا عنكم الاصطلاح الخالي وهذا التنوين الغالي مع حرمان المخالي والقنوع بالقراغ مع حرونة المراغ والغليان الذي يبغضكم إلى الله وإلى خلقه وهم الشهداء في رقة مع الغفلة عما أوضح لكم المشرع من حقه وتخطى الظاهر المضمون إلى المشكل المظنون فلو كان سيركم مستقيما لم يكن القياس ." (١)

"... وهل تغني الرسائل في عدو إذا ما لم يكن ظبى رقاقا (١)

... وإن جزعنا له فلا عجب ذا الجزر في البحر غير معهود (٢)

... فما ترجي النفوس من زمن أحمد حاليه غير محمود (٣)

... من يعرف الشمس لا ينكر مطالعها أو يبصر الخيل لا يستكرم الرمكا (٤)

... وما ذاك بخلا بالنفوس على القنا ولكن صدم الشر بالشر أحزم (٥)

... أهل الحفيظة إلا أن تجربهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع (٦)

---

(١) من الوافر ، ديوانه ٢/٤٣

الظبى : جمع ظبة ، وهي حد السيف ، وهذا استفهام إنكاري ، يقول : إن حاسدي لا تكفي أمرهم الرسائل ، إنما يكفي أمرهم السيوف ، يعني ليس يشفيني منهم الرسائل ، إنما يشفيني منهم القتل بالسيف .

(٢) من المنسرح ، ديوانه ٢/٤٤

يقول : إن المصائب قد تقع ، ولكن لم يعهد مثل هذه المصيبة ، كما أن الجزر يكون فيما دون البحر ، فإن جزر البحر فذلك أمر عظيم ، فشبه موته بجزر البحر ، وهو رجوع مائه إلى الخلف ونضوبه . التبيان ١/٢٦٢

---

(١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ٢/٤٣١

(٣) من المنسرح ، ديوانه ٢/٤٥

يقول : مستفهما ، ومعناه الإنكار : لا رجاء عند زمان أحكد حاليه البقاء ، وهو غير محمود ، لأن معجله بلاء ، ومؤجله فناء . التبيان ١/٢٦٣

(٤) من البسيط ، ديوانه ٢/٤٨

الرمك : جمع رمكة ، وهي الفرس التي تتخذ للنتاج دون الركوب ، يقول : من عرف الشمس لا ينكر مطالعها باختلافها ، ومن عرف سيف الدولة لم يستعظم غيره ؛ لاختلاف مقاصده ، ومن أبصر عتاق الخيل لم يستكرم الهجان الرمك . التبيان ٢/ ٣٧٤

(٥) من الطويل ، ديوانه ٢/٥٦

اعتذر للفوارس عند تحصنهم ، فقال : لم يفعلوا ذلك بخلا بنفوسهم ، لأنهم شجعان لا يخافون الموت ، ولا يبالون بالقتل إلا أنهم قابلوا الشر بمثله ، وهو فعل الحازم اللبيب ، ومن شهد الحرب غير مستعد ، بغير سلاح ، فهو أخرق . التبيان ٣/٣٦٠

(٦) من البسيط ، ديوانه ٢/٦٢

الحفيظة : الحمية والأنفة ، والغي : الفساد ، ويزع : يكف ، يقول : أصحاب سيف الدولة يظهرون الحمية والصبر والجلد والإقدام ، ويتزينون بذلك ، ما لم يجربوا ، فإذا جربوا لم يكونوا كذلك . التبيان ٢/٢٢١." [1]

" ** إن فضلي على الزجاجة أني ** لا أذيع الأسرار وهي تذيع ** ** ذهب سائل حواه لجين ** جامد إن ذا لشيء بديع ** قال الفقيه عمارة حدثني الفقيه أبو السعود بن علي الحنفي قال حدثني ابن أبي الصباح أنه لما دخل العراق وحضر مجلس الوزير يومئذ وعنده جماعة يتذاكرون الشعر فقال لي هل تحفظ شيئا لأحد من أهل اليمن فأنشدته قول ابن القم من قصيدته ** الليل يعلم أني لست أرقده ** فلا يغرنك من قلبي تجلده ** ** فإن دمعي كصوب المزن أنشره ** وإن وجدي كحر النار أبرده ** ** لي في هوادجكم قلب أضن به ** فسلموه وإلا قمت أنشده ** ** وبان للناس ما قد كنت أكتمه ** من الهوى وبدا ما كنت أجحده ** وكان الوزير متكئا فاستوى جالسا واستعادها مرارا ثم بعثني في الموسم إلى مكة فاشتريت له الديوان فلما جئته به كان من أقوى الذرائع إلى صحبته والانقطاع إلى جملته ومناقب ابن

---

(١) رسالة ابن عباد في أمثال المتنبي، ص/٤٧

القم في الفضل والأنفة على أهله في ال نسب والصنعة كثيرة وكفى شاهدا على ذلك ما خاطب به جياش حين قتل القاضي الحسن وقد تقدم أنه قام برئاسة البيت بعد الحسن ابن عمه القاضي الأجل أبو الفتوح وهو ابن أخي الحسن وله الذرية الكثيرة التي توجد بقيتها بزبيد

قال عمارة كان أبو الفتوح أوحد عصره وإمام مصره قام بالعلم قياما كليا وصنف فيه كتبا جليلة في الفقه خاصة ومذهب الشافعي لم يتفقه أحد من أهل زبيد ومن حولها في مذهب الشافعي بعد وجودها إلا منها ومنها كتاب التحقيق عنه نقل صاحب البيان عدة مسائل وكفى له شاهدا بجواز الأخذ عنه نقل صاحب البيان إلى مصنفه الذي انتفع به كل إنسان وله مختصر في أحكام الجنايات وكان تفقهه بالإمام أبي الغنائم عن الشيخ أبي حامد المقدم الذكر

قال عمارة وكان أبو الفتوح لا تأخذه في الله لومة لائم عظيم الغضب فيه مر بداره ابن بجارة أحد فقهاء الحنفية الآتي ذكره وقد انتشى من الشراب وكان رجلا ماجنا يحذو طريق أبي نواس في الخلاعة والشعر فجعل يغني بصوت عال وذلك في ليل فصاح به القاضي إلى هذا الحد يا حمار ولم يكن ثم عون على الباب وارتجل ابن بجارة

". (١)

" التي يعبدونها ولنعقرها عليهم فلا ينتفعوا بها فنهاهم العقلاء وأسرع إلى ذلك الجهلاء فضربوا العلبة بفأس حتى أوقعوها الأرض وألقى الله بقلوب أهل المدينة القوة والأنفة فخرجوا مسرعين نحوهم فهزموهم هزيمة شنيعة وقتلوا منهم جمعا أولهم عاقر الشجرة وحين وقع هبروه بالسيوف تهبيرا عظيما وتعرف هذه التربة بتربة من سمع النداء بالصلاة عليه في الحرم ولم ير المنادي

ومنهم أبو سعيد منصور بن علي بن عبد الله بن إسماعيل بن مسكين مولده صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة تفقه بزوج والدته الفقيه أحمد بن أبي بكر بن أحمد التباعي وأما هذا فمولده ومنشأه ناحية دلال بقرية تيثد المقدم ذكرهما وقدمتهما سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لغرض الزيادة والفحص عن آثار الأخيار فيها وزيارة تربته فلم أكد أجد أحدا من أهل العناية بذلك غير أنه أخرج لي فقيه القرية وإمام الجامع بها كتابا به أخبار يسيرة لم يكن به شيء من أخبار هذا الفقيه ولا ذكر له ابن سمرة تاريخا ولعله كان حيا بزمانه

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ١/٢٦٠

ومنهم عبد الله بن الفقيه يحيى بن محمد المذكور أولا من أهل الملحمة وفي أصحاب اليفاعي وصاحب الشعر الذي مدح به شيخه زيد اليفاعي مولد عبد الله سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وتفقهه بتلميذ أبيه محمد بن سالم الأصبحي وتوفي سنة ست وخمسين وخمسمائة ومنهم أبو يحيى فضل بن أسعد بن جعفر بن أبي سالم المليكي ثم الحميري قدم والده أسعد من ردمان وسكن موضعا من دلال وأولد ابنه فضلا هناك في شهر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة أثنى عليه ابن سمرة ثناء مرضيا وقال هو فقيه مجود ارتحل إليه الأصحاب رغبة في علمه وكرمه وابنه يحيى سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى قال ابن سمرة وهذا فضل بن يحيى هو مدرس الملحمة الآن يعني في عصره وذلك لنيف أو بضع وثمانين وخمسمائة إذ لم أجد

". (١)

" الحكمي وابن عمه محمد بن يوسف الشويري ثبت لي سند بخط الفقيه الإمام الصالح أحمد بن موسى بن عجيل الآتي ذكره أنه قال بلغني أن الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا كان من الصالحين الكابر والعلماء المشهورين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد سئل عن مسألة فاستدعى بالثاني من المهذب وفتحه ووضعه بين يديه وأخذ ورقة ووضعها على ركبتيه وجعل يستملي الجواب من المهذب ويكتبه في الورقة وكفى به شهادة ابن عجيل له بالصلاح والعلم وكان راتبه كل يوم سبعا من القرآن واقتدى به في ذلك جمع من أصحابه وتوفي على الحال المرضي سنة تسع وستمائة فلزم مجلس التدريس بعده تلميذه موسى بن عجيل الآتي ذكره إذ لم يكن في أهله من يكمل غير محمد بن يوسف التزم العكفة تواريا عن ذلك وتوقيا بأن الفقيه موسى لا يترك الموضع شاغرا من مدرس لما فيه من **الأنفة** على الأصحاب على ما سيأتي ذكر بيان ذلك مع ذكره إن شاء الله فأقام يدرس مدة ثم إن محمد بن يوسف خرج من معتكفه فما هو أن رآه الفقيه موسى فخرج من الشويري يريد بلده فقيل لمحمد بن يوسف قد ذهب الفقيه موسى واتجه عليك أن تدرس فلازم المدرسة ودرس وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن زكريا تفقه بالفقيه محمد بن زكريا كما تقدم وكان فقيها كبيرا عارفا محققا أجوبته على مشكلات التنبيه تدل على

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٣٥٧/١

ذلك سمعت العارف بالفقه يثني عليه ويقول أجاب عليها جمع من أهل اليمن والشام وأهل العراق فلم يكن فيها ما يرتضي غير جواب محمد هذا وتفقه به جماعة من أهله وغيرهم وكانت وفاته سنة خمس وعشرين وستمائة وخلف إبراهيم ولدا يقال له محمد اشتغل بالعبادة وكان له ولدان هما عبد الرحمن وعبد الله تفقها بالبداية بجدهما إبراهيم وكان تفقههما بتلميذه وابن عمه محمد بن يوسف فلما توفي خلفاه في التدريس فرأسا ودرسا فتوفي عبد الرحمن سنة إحدى وأربعين وستمائة ,وتوفي عبد الله سنة اثنتين وأربعين وستمائة ثم خلفهما في التدريس ابن عم لهما اسمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا تفقه بمحمد بن يوسف أيضا وكان فاضلا محققا مدققا توفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثم خلفه ابن عمه عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا مولده سنة تسع عشرة وستمائة وكان فاضلا بالفقه تفقه بابن عمه محمد بن عمر مقدم الذكر وأخذ عن صالح بن علي الحضرمي ولي قضاء الكدرا من قبل بني عمران وقدم تعز فأخذ عنه أبو بكر بن اليحيوي الآتي ذكره في تعز كتاب الوجيز وتوفي عليه سنة ثمان وثمانين وستمائة وخلفه في القضاء ولده أبو بكر وهو

---

(١) ".

" الرعيني عرف بابن المقري مولده سنة اثنتين واربعين وستمائة كان تربا لابن الحرازي وزميلا له بالقراه قل ما قراء كتابا الا وسمعه معه وكان محققا لعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة ولما صار يدرس بالمدرسة الى ابن الحرازي جعل هذا معيدا له فاقام مدة طويلة في الاعادة ولقد اخبر من قرأ عليه الفرائض انه قال كنت اغلط في المسلة واستمر ثم استدرك ذلك فاريد تغير ما قد صورته على البحث فيقول لا تطمس الا من موضع كذا فاعمل لما قال فاجده

صوابا وكان ذا حمية على من صحبه وصولا لرحمه وكان ذا دنيا بخلاف ابن الحرازي كان غالب عليه الفقر وكانت وفاته شهر رمضان سنة اربع عشرة وسبعمائة

ومنهم محمد بن ابي بكر عرف بان حرابة بضم الحاء وفتح الراء ثم الف ثم فتح الباء الموحدة وهاء ساكنة تفقه بابي شعبة واخذ شيا من الأصول عن البيلقاني وسبب تفقهه انه اشترى وعائين من الأرز من الفقيه ابي حجر فاكتال احدهما ثم فتح الوعا الآخر وجده أبو حجر احسن من الأول فاسترجع وقال بعتك ما لم اره فلا يصح فحملت **الأنفة** ابن حرابة على قراة الفقه فقراء علي ابي شعبة ثم ان ابا حجر حدث معه

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٤١١/١

حادث استدعى شيا من الزعفران وكان معدوما لم يوجد مع غير ابن حرابة إذ كان عطارا فوصل الفقيه أبو حجر إليه وعول على شيء منه فأجابه وباعه أصنافا معلومة من غير نظر الزعفران ثم استدعاه بوعائه فلما فتحه فقال يا فقيه بعتك ما لم أره ولم تره فالبيع فاسد فتوقف الفقيه فناوله ابن حرابه دراهمه فاخذها وهم ان يرجع خائبا فذكره بما فعل معه يوم الأرز ثم باعه الزعفران وكانت وفاته قبل أبي شعبة باشهر قلائل سنة ست وسبعين وستمائة وصلى عليه شيخه أبو شعبة بعد أن تقدم قاضي البلد وكان ممن يكرهه فقيل له أنه اوصى أن لا يصلي عليه إلا شيخه أبو شعبة فتأخر القاضي وانصرف عن المصلي مغضبا لم يحضر الصلاة ولا القبران قال ولم يكن شيء من ذلك انما كان غالب الناس يكرهون القاضي لقلة ورعه وتقواه

." (١)

"أموالكم ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره الخبر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبت وأحسنت أي وزاد

وفي رواية والذي أنا عبده لهي أحب إلي من حمر النعم ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة شاهرا يديه بقول اللهم إني أبرا إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات أنتهى

ووقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما شر بسبب ذلك فقال له عبد الرحمن عملت بأمر الجاهلية في الإسلام فقال له إنما أخذت بثأر أبيك فقال له عبد الرحمن كذبت أنا قتلت قاتل ابي أي وفي رواية كيف تأخذ مسلمين بقتل رجل في الجاهلية فقال خالد ومن أخبركم انهم أسلموا فقال أهل السرية كلهم أخبروا بأنك قد وجدتهم بنوا المساجد وأقروا بالإسلام فقال جاءني أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أغير فقال له عبد الرحمن بن عوف كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أخذت بثار عمك الفاكه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته أي والغدوة السير في أول النهار إلى الزوال والروحة السير من الزوال إلى آخر النهار

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٤٢٧/٢

والمراد باصحابه هنا السابقون إلى الإسلام ومنهم عبد الرحمن بن عوف بل هو المراد كما تصرح به الرواية الآتية فقد نزل صلى الله عليه وسلم الصحابة غير السابقين الذي يقع منهم الرد على الصحابة غير السابقين لكون ذلك لا يليق بهم منزلة غير الصحابة

قال ولما عاب عبد الرحمن على خالد الفعل المذكور أعان عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عن خالد وقال يا خالد ذر أصحابي وفي رواية لا تسب أصحابي لو كان لك أحد ذهبا فانفقته قيراطا قيراطا في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن انتهى

اي ولا يخفى أنه يبعد أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إنما قتلهم لقولهم صبأنا ولم يقولوا أسلمنا إلا أن يقال يجوز أن يكون خالد فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل **الأنفة** وعدم الانقياد إلى الإسلام وأنه صلى الله عليه وسلم إنما أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا ثم لا يخفى أنه جاء لا تسبوا أصحابي فلو أنفق

". (١)

"وليست منافع العلم وآثاره وأره وثوابه وقفا على من علم وعلم وألف ودون بل ينال ذلك بفضل الله ورحمته من أعان عليه بوسائله المتنوعة واسبابه الكثيرة من طلع الكتب النافعة والرسائل المفيدة ونشهرا بين طلاب العلم وتيسير طريق وصولها الى ايديهم وانشاء المبانى المناسبة لدراستهم وسكانهم وبذل ما يلزم لفقرائهم من النفقات والسخاء بما يكفل لهم راحة بالهم وتفرغهم لما قصدوا اليه ليتوفروا على الدراسة والتحصيل ويتمكنوا من تأليف والتبليغ فإن للوسائل حكم مقاصدها والساعى فى الخير كفاعله " وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

وفى الحديث : " لا حسد إلا فاثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته بالخير ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقتضى بها ويعلمها الناس " .

٦- " من أسباب الانحراف والصدود عن الحق " .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم

-----

(١) السيرة الحلبية، ٢١١/٣

بإحسان الى يوم الدين الفكرى والتقليد عن غير بينه وبصيرة وتحكم العادات السيئة فى النفوس **والأنفة** والاستكبار والحسد الممقوت وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال وما الى ذلك وكلها أمراض أخلاقية وبيلة وأدواء مستعصية فتاكة والحديث عنها يطول فليكن حدثنى فى هذه الحلقة عن الغرور الفكرى .

الغرور الفكرى هو إعجاب الانسان بعقله وافتتانه برأيه وانزاله فوق منزلته وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهل له حتى يتدخل فيما لا يعينه وما ليس فى وسعه وحدود طاقته فيعارض العبد ربه فخلقه وتشريعه فضلا عن معارضته لنظرائه ومنهو أوسع منه فكرا وأكثر تجربة منالعلماء .." (١)

"لكل أمة على حدة، وهو شيء يأخذ بالظاهر الأغلب، وعن ذلك عبر صاحب الامتناع والمؤانسة حين قال: " فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم والعلم والحكمة، وللهند الفكر والروية والسحر والأناة، وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكد والفرح، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان (١) " . ومن أطراف ما يمر به المرء متصلا بهذا الموضوع ما ورد في رسالة السياسة العامية المنسوبة إلى ارسطاطاليس فإن الكاتب يقرن فيها بين العرب والهند في مميزات شتى منها: أنهم على السنة " ولهم الكرم والمروءة **والأنفة** وبذل الأموال والصبر في اللقاء ولزوم الغيرة والمعرفة بالشعر والسعة في الكلام؟ " ثم ينصح الإسكندر بإن يكثر لهم من المخاطبة " فإنهم يأنسون باللفظ ويميلون إلى حسن الكلام " ، ويملي عليه كتابا يكتبه إليهم وفيه: " واعلموا أن الشعر جزء من أجزاء كثيرة من الحكمة فتنازعوا على طلب الحكمة (٢) .. " ، وفي هذا ما فيه من إقرار اليونانيين أنفسهم بما للعرب من تفوق في هذه الناحية، إلا أنها مفردة لا بد من موازنتها بسائر أجزاء الحكمة، وهذا ما يفسر ؟أو يسوغ - إقبال العرب على ترجمة حكمة اليونانيين والفرس، تتميما واستكمالا لما ينقصهم، حسبما تمليه هذه النصيحة المنسوبة لارسطاطاليس.

ولا ريب في أن موقف الجاحظ كان ينبع من إيمانه العميق بإن العرب ذوو حظ متفرد في البلاغة، وفيهم نزل القرآن لما أوتوا من ذوق أدبي رفيع، وربما زاد من تمسكه بهذه النظرة أمران: أولهما بعض النماذج الأدبية المترجمة، وهذه ؟مهما يكن حظها من الروعة في لغتها الأصلية - تفقد كثيرا من روائها وروعتها حين تقرأ في غير لغتها، والثاني أن الجاحظ كان يتخذ من هذه الفكرة سندا يدافع به عن العرب، ضد الشعوبية، وبه يثبت فضل العرب وتميزهم عن سواهم من الأمم، ويرى في شعرهم " ديوانا "كاملا للمعارف

---

(١) اتحاف النبلاء بسيرة العلامة عبد الرزاق عفيفى رحمه الله، ص/٦٤

الإنسانية، ويسوءه ؟من ثم – أن يرى كتاب عصره – مدفوعين بروح معادية للعرب وتراثهم – يبحثون عن ثقافتهم في كتاب مزدك ودفتر كليلة ودمنة وأمثال بزرجمهر (٣) .

---

(١) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ١: ٧٤.

(٢) مخطوطة كوبريللي، الورقة ١٠٠، ١٠١ – ١٠٢.

(٣) الجاحظ: رسالة في ذم أخلاق الكتاب (ضمن ثلاث رسائل): ٤٢.." [1]

"لباب الآداب: ولتكن مشاورتك بالليل فإنه أجمع للفكر، وأعون على الذكر، ثم شاور في أمرك من تثق بعقله ووده (١) .

٤ – السياسة العامية: وصير الأرزاق على الضعيف، وصير رزق الجندي ما يحمله ويحمل عياله؟ وإذا أمرت بالأرزاق فأنجزها لهم؟ وأي صاحب لقاء أو بطريق أو جندي اتهمته، فإن كانت له درجة فأسقطها، وإن كان جنديا، وكان ذلك أول فعله فأصفح عنه، وإذا كان يوم الحرب قربت الأمناء يكتبون بين الصفين ما يحدث في كل ناحية، ثم غنمهم على ذلك وأبرز لهم العطايا فإنهم يبذلون أنفسهم لها؟ وأجر الأرزاق على ولد الشهيد في الحرب وما أشبه ذلك، وأجر الأرزاق على الجرحى سوى أرزاق العامة، ومن ضرب في وجهه فكافئه بجائزة، ومن ضرب في ظهره فوبخه بالكلام فقط، ومن قطعت يده وبطلت له جارحة فقد وجب عليك رزقه بقية عمره. (٢) .

لباب الآداب: وقال الحكيم: أفض على جيشك سيب عطائك، واصرف إليهم أحسن عنايتك وإرعائك، فإنهم أهل الأنفة والحمية، وحفظة الحوزة والرعية، وسيوف الملك وحصون الممالك والبلدان، وأوثق الأصحاب والأعوان، بهم تدفع العوادي، وتقهر الأعادي، ويزال الخلل، ويضبط العمل، قوي ضعيفهم يقو أمرك، وأغن فقيرهم يشد أزرك، وامنحهم قبل الفرض، واختبرهم عند العرض. ولا تثبت منهم إلا الوفي الكمي الذي لا يعدل عن الوفاء، ولا يجبن لدى االهيجاء، فإن المراد منهم قوة العدة، لا كثرة العدة. وإن أصاب أحدهم في وقعة تندبه لها، أو حملة تبرزه فيها، ما يعطله عن اللقاء، ويؤخره عن الاكفاء، فلا تمح اسمه، ولا تمنعه رسمه، وأن قتل في طاعتك، واستشهد تحت رايتك، فأكفل بنيه، وذب عن أهله وذويه، فإن ذلك يزيدهم رغبة في خدمتك، ويسهل عليهم بذل المهج والأرواح في نصرة دولتك ودعوتك (٣) .

وفي هذه الأمثلة المقارنة نموذج لمن شاء أن يتصور كيف أصبحت الوصايا السياسية رسائل أدبية، ذات

---

(١) ملامح يونانية في الأدب العربي، ص/٢٥

أسلوب مسجع، ولكن المثل الأخير منها يحمل مشكلة جديدة، ذلك لأن التطابق بينه وبين النقل الأسلوبي محمول على الجملة لا على التفصيل، ولعل

---

(١) لباب الآداب: ٦٤.

(٢) رسالة في السياسة العامية، مخطوطة كوبريللي، الورقة: ٨٨ وقارن السعادة والإسعاد: ٣٣٤.

(٣) لباب الآداب: ٥٩ – ٦٠.." [1]

"عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز أبو الحسن قاضي بلنسية ووالد قاضيها وأميرها أبي عبد الملك مروان سمع من أبي علي بمرسية رحل إليه هو وإخوة لأبيه الخطيب أبو بكر أحمد بن مروان فأخذا عنه في صفر سنة ٥٠٢ وأجاز له أبو الوليد الوقشي وأبو مروان بن سراج وغيرهما وولي قضا بلنسية بعد أبي الحسن محمد بن واجب وهو أول قضاة بني عبد العزيز وأقام في ولايته نحوا من عشر سنين ثم صرف بأبي محمد بن جحاف وكان حميد السيرة صليبا في الحق أيلسي الزكن والفطن له في ذلك أخبار محفوظة ولما صرف إحتاج إلى النيابة في حق له عند ابن جحاف فقال يأتي إلى مجلسي حتى أعذر إليه وبالحضرة أبو حفص عمر بن أبي الحسن بن واجب وكان بينه وبين ابن عبد العزيز من التهاجر أشد ما يكون بين اثنين ولاكن أدركته الحفيظة وملكته الأنفة فأشار بخلاف ذلك حفظا لجانبه من الهضيمة ورعيا لذوي المناصب النبيهة وقال أتوجه أنا وأبو عامر بن شروية وهو يومئذ الخطيب إلى دارة حتى نعذر عنك إليه فاقنع ذلك ابن جحاف وكان سهل الخليفة وحيد الطريقة وسبق الخبر إلى ابن عبد العزيز مخرج لهما متلقيا وبهما متحفيا والتقوا بالمسجد الذي يلي موضعه وأحكما كل ما ألزمته الأحكام معه واصطلحا وشكر له أبو الحسن هذا ما صنعه ثم لم يمض دهر طويل حتى صرف ابن جحاف بابنه مروان بن عبد الله واحتاج في حكومة إلى ما احتاج إليه أبوه فقال مروان بحضر مجلسي أبو محمد حتى أعذر إليه وكأنما سمع قوله فرده عليه وحضر ذلك أيضا أبو حفص ابن واجب فقال ليس هذا من الأدب معه وقد سلفت له قبل أبيك يد وذكر القصة إلى آخرها فقال والله لا يكون الحكم إلا في داره دون توكيل ولا مكتوب ثم نهض إليه فاصلا تلك الحكومة ومخلدا هذه الأكرومة وتوفي أبو الحسن في رجب سنة ٥٣٥ ومن روايته عن أبي علي ما قرأ عليه إخوة أبو بكر وهو يسمع وقد حدثني به أبو الخطاب بن واجب في آخرين عن أبي عبد الله بن سعادة عن أبي علي قراة قال قرأت على القاضي أبي الحسن الخلعي قال أنا أبو محمد بن

---

(١) ملامح يونانية في الأدب العربي، ص/١٢٩

النحاس أنا أبو سعيد بن الأعرابي نا سعدان هو ابن نصر نا سفين بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن أبي الأوبر عن أبي هريرة قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حافيا وناعلا وقائما وقاعدا وينفتل عن يمينه وعن شماله أبو الأوبر اسمه زياد الحارثي قاله مسلم ولم يبلغني أن لمروان رواية عن أبيه عبد الله فيتصل به الإسناد ولا يبعد ذلك عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي أبو محمد المعروف بابن شبوية من أهل سبتة سمع من أبي علي في إجتيازه بها وكان قد تفقه بأبي الأصبغ بن سهل وأبي عبد الله بن عيسى وله رواية عن أبي محمد بن أبي جعفر وكان أحد الحفاظ للمذهب حلق بجامع سبتة ونوظر عليه ثم خرج منها لقصة جرت بينه وبين شيخه ابن عيسى فنزل علي بني عشرة بسلا فأكرموه وتوسعوا له ودرس عندهم ثم انتقل إلى أغمات فراس بها وهنالك توفي سنة ٥٣٧ وقد قارب الثمانين." [١]

"كان الملك مع خلصائه وأعوانه على سنة العدل والرشاد ، ويروى أن الملك- رحمه الله- كان يجلس بين حاشيته ، وفي المجلس أحد وجهاء سوريا ، وأثير النقاش في مسألة اختلف فيها رأي الملك عن رأي الجالس معه ضمن حاشيته ، وعلى الرغم من تأثر الملك بأسلوب النقاش- مع اختلاف الرأي- فلم تأخذ الملك الأنفة أو العزة بالملك ، ففي اليوم التالي كان يتحدث مع من خالفه الرأي بكل مودة ، وهذا نادر من الملوك ، لا سيما حين يقع الخلاف بين الملك ، وأحد أعوانه على ملأ من حاشيته (١) .

* وقد كان حزم الملك ، وعدله خيرا للرعية ، فقد ألزم قضاة محكمة الطائف الشرعية أن يتعجلوا في إنجاز مصالح الناس ومعاملاتهم القضائية ، واستعانت به امرأة مسنة وقفت على باب قصره ، فتابع قضيتها حتى حكم فيها (٢) .

وهذه الأمثلة وغيرها كثير ، يصعب حصره ، مما يدل على رغبة الملك – رحمه الله- في أن يكون مشرفا ومراقبا لكل ما يمس مصالح رعيته ، مهما كان شأن صاحب المصلحة ، وهو أمر يذكر بمسلك الراشدين من خلفاء المسلمين ، وولاة أمورهم .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٥٨ .

(٢) المصدر السابق٢ / ٦٤ .." [٢]

---

(١) المعجم، ص/٩٢

(٢) الملك عبد العزيز آل سعود أمة في رجل، ص/٩٣

"الحاجب الملك المنصور الأندلسي محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد القحطاني المعافري الأندلسي الحاجب الملك المنصور أبو منصور، كان مدبر دولة المؤيد بالله هشام بن المستنصر الأموي، عمد أول تغلبه إلى خزاين كتب المستنصر فأبرز ما فيها من صنوف التواليف بمحضر خواصه العلماء وأمرا بإفراد ما فيها من كتب الأوايل حاشى كتب الطب والحساب وأمر باحراقها وأحرقت وطم بعضها وكنت كثيرة جدا فعل ذلك تحببا إلى العوام وتقبيحا لرأي المستنصر، غزا ما لم يغزه أحد الملوك وفتح كثيرا وكان المؤيد معه صورة ودانت له الأندلس، وكان إذا حضر من غزوة نفض غباره وجمعه وأمر عند موته أن يذر ما جمع على كفنه، وتوفي مبطونا بمدينة سالم سنة ثلث وتسعين وثلث ماية، وللشعراء فيه أمداح كثيرة، وكان ربما صلى العيد فحدثت له نية في الغزو فلم يرجع إلى القصر وسار لوجهته على الفور. وأصابه النقرس فكان يغزو في محفة وكان مجدودا في الحروب، غزا إحدى وخمسين غزوة، قال صاحب الريعان والريحان: والروم تعظم قبره إلى اليوم، وكانت مدته ستا وعشرين سنة وولى بعده ابنه عبد الملك بن محمد، والحاجب محمد بن عبد الله بن أبي عامر المذكور هو الذي فرق شمل القبايل بالأندلس ودون الدواوين للمرتزقة من الجنود وألزم الناس المعاون دون الحركات على قدر غلاتهم فصار العرب وأصناف الناس رعية وإنما كان الناس من قبل هذا يجاهدون في قبايلهم وعلى أموالهم وحرك **الأنفة** بينالمضرية واليمانية واستظهر بالبربر والموالي وكان مبلغ المرتزقين في ديوانه اثنى عشر ألف فارس وأربع ماية، ثلث من العرب وثلث من البربر وثلث من الموالي لكي لا يتألف على خلافه صنف فيستظهر بالصنفين على مخالفيه وكان حزر المطوعين معه من أهل الأندلس اثنين وعشرين ألف فارس، وملك من العدوة إلى سجلماسة وبني مدينة الزاهرة بشرقي قرطبة على النهر الأعظم محاكيا للزهراء وبني قنطرة رشنشاقة على النهر الأعظم محاكيا للجسر الأكبر بقرطبة وزاد في الجامع مثليه.

ابن المستكفي بالله محمد بن عبد الله بن علي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو الحسن ابن المستكفي بالله أمير المؤمنين ابن المكتفي ابن المعتضد ابن الأمير الموفق ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور، فارق أبو الحسن هذا بغداد لما خلع والده وسملت عيناه وهرب فدخل الشام ومصر وأقام هناك ذكر ثابت بن سنان الصابئ أن محمد بن المستكفي كان عند كافور الأخشيذي فلاذ به جماعة وأطمعوه في الخلافة وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المهدي من بعدي اسمه أسمى واسم أبيه اسم أبي، وأنت إن عدت إلى بغداد بايع لك الديلم بالخلافة، فدخلها سرا وبايعه جماعة من الديلم

سنة سبع وخمسين وثلثماية فاطلع الملك عز الدولة بختيار ابن معز الدولة على ذلك وكان قد قال: إن والدي كان نصبني في الخلافة بعده وكتب اسمي على الدينار والدرهم، وصحبه خلق من أهل بغداد منهم أبو القاسم اسماعيل بن محمد المعروف بزنجي وترتب له وزيرا، فأمر عز الدولة بالقبض عليه ونفذ إلى دار الخلافة فجدع أنفه وقطعت شفته العليا وشحمتا أذنيه وحبس في دار الخلافة وكان معه أخوه علي وأنهما هربا من دار الخلافة في يوم عيد واختلطا بالناس مضيا فلم يعلم لهما خبر إلى هذه الغاية، قال ابن النجار: ولما هرب قصد خراسان ودخل ما وراء النهر وسمع الحديث ببخارا من أبي حاتم البستي سنة تسع وستين وثلث ماية، وكان قد اجتمع بالمتنبي في مصر وروى عنه شيئا من شعره قال: أنشدني المتنبئ لنفسه:

لاعبت بالخاتم إنسانة ... كمثل بدر في الدجا الفاحم

فكلما حاولت أخذي له ... من البنان المترف الناعم

ألقته في فيها فقلت انظروا ... قد خبت الخاتم في الخاتم." (١)

"""""""" صفحة رقم ٢٣٨ """""""

التدبير الذي يبلغ به غاية آماله ، بحيث لا يبلغ غيره بعضها إلا بإنفاق الجمل العظيمة ، وتفريغ بيوت الأموال ؛ ثم لا يكاد يظفر ببلوغ أمل في جهة من الجهات إلا دوخها وثبتت آثاره فيها الدهر الطويل . وصار أعداؤه يتعجبون مما يتأتى له من السعادة وتعينه عليه الأقدار . واستطالوا مدته ، فابتغوا له الغوائل ، ونصبوا له الحبائل ، وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكه بأقل الناس وأحقرهم ، وأدناهم منزلة ، وأضعفهم قدرة ، وهم من أطراف الخدام . فأقاموا رجلين ، أحدهما خادم يعرف بمفرج المغربي كان في حاشيته ، والآخر خازن يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا ؟ . وحكوا أنه نقل الأموال إلى الشام في التوابيت وفي شمع سبكه وأعده إلى القدس وإلى الخليل ، وأنه قد عول على الهرب إلى بغداد ؛ واستظهروا بكتابه الذي ذكر إلى طغرلبك ؛ مع ما في طبيعة الملك من الحسد والملل ، **والأنفة** من الاستبداد عليهم ومحبة الانفراد بالمجد . وكان من أسباب الخذلان أن المستنصر التمس من صفي الملك ، ولد اليازوري ، عمل دعوة يدعوه إليها ، فدافعه عن ذلك استعظاما لحضوره عنده ؛ فأقام مدة حتى بعثه والده الوزير على تكلف عملها له ؛ فتهمم لذلك ، واصطنع ما يجب إعداده ، وتقرر الحال على يوم يحضر فيه . فلما كان قبل ذلك بيوم حضر صفي الملك عند الوزير وأعلمه بإنجاز ما يحتاج إليه ، فصار معه إلى الدار واستصحب خواصه ، فرأى ما يقصر عنه الوصف . وفرش مجلسين بديباج بياض كله ، وفيه جامات كبار وحمر منقوش ، كل

(١) الوافي بالوفيات، ١/٤٢٤

مجلس بثلاث مراتب وبساط ملء المجلس ؛ وسراديق وحجلين للصدر والباب كله جديد كما حمل من الأعدال ؛ فقدر ذلك بخمسة آلاف دينار . فأقبل كل من حضر يبالغ في صفته ويدعو ، وشخص منهم ساكت . فلحظ الوزير وأمسك حتى فرغ من تطواف المجالس وعرض كل ما أعده ، وعدل إلى بيت الطهارة وقد أعد في دهليزه من الفرش والآلات والطيب ، وداخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن . ودعا الوزير الرجل الذي سكت عند مبالغة من حضر في الوصف ، وقال : يا عمدة الملك ، مالي لم أسمعك تؤمن على ما قال الجماعة ؟ فقال له بد ما سأله الإعفاء عنه وتركه من القول ، فأبى إلا أن يقول : سيدنا فيما أعده من هذا الجمال بين أحد رأيين ، إما أن يأمر بإزالته ونصب غيره مما قد." (١)

"تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على أعمال النار -وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته- وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقص من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تعين مقاييس الأخلاق في الأرض بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقدا فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضا، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير معدما ويتعفف، ويكون الغني موسرا ويتصدق، ويكون الشره طامعا ويمسك، ويكون القوي قادرا ويحجم، وكما قال العربي في تحقيق ناموس **الأنفة والحمية** وغلبته على الناموس الاقتصادي: "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".." (٢)

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٢/٢٣٨

(٢) وحي القلم، ص/٧

"يا بني: إن الزاهد يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كان فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وايم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعا، لهو الخالي من الفضائل جميعا.

يا بني: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية؛ ينبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائله. وما أرك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن في أعراقكم دم نبي يقتل أو يصلب!

قال المسيب: وانتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت عليه المصائب، وتوالت النكبات، وتواترت الأسقام... ثم اقتصصت ما قال ابنه حرفا حرفا، ثم قلت؛ وإنه الآن موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا؛ وقد "هداه الله إليك فجاء يسلك، أيموت مسلما من ألجئ وأكره واضطر واستضاق واختل، فتحسى سما فهلك، أو توجأ بحديدة فقضى، أو ذبح نفسه بنصل فخفت، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه، أو تردى من شاهق فطاح!

وأدرك الشيح معنى قولي: "هداه الله إليك" ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المرادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه؛ فعلم أن لم أسأله الفتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا –والله– رجل كريم، أخذته **الأنفة** وعزة النفس، وما أنا الساعة بمعزل عن همه، فنذهب نكلمه والله المستعان.

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآكما، وربما استفز بنفسه فأزهقها، وسأتسور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده.." (١)

"احذري فنهم الاجتماعي الخبيث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال أن تؤدي أجسامهن ضريبة الفن.

احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلى... إلى الفضيحة.

احذري تلك النسائية١ الغزلية؛ إنها في جملتها ترخيص اجتماعي للحرة أن... أن تشارك البغي في نصف عملها.

---

(١) وحي القلم، ص/٩١

١ نحن نستعمل: النسائية والنسوية، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار في كل موضع للأفصح في موقعه.

قصيدة مترجمة عن الملك: احذري...!

أيتها الشرقية! احذري احذري!

احذري التمدن الذي اخترع لقتل لقب الزوجة المقدس، لقب "المرأة الثانية".

واخترع لقتل لقب العذراء المقدس، لقب "نصف عذراء".

واخترع لقتل دينية معاني المرأة، كلمة "الأدب المكشوف".

وانتهى إلى اختراع السرعة في الحب، فاكتفى الرجل بزوجة ساعة.

وإلى اختراع استقلال المرأة، فجاء بالذي اسمه "الأب" من الشارع، ﻟﺘﻠﻘﻲ بالذي اسمه "الابن" إلى الشارع.

أيتها الشرقية؛ احذري احذري!

احذري، وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة، أن تقلدي هذه الشمعة التي أضاءت منذ قليل.

إن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لآداب دينها الإنساني العظيم.

هي دائما شديدة الحفاظ، حارسة لحوزتها؛ فإن قانون حياتها دائما هو قانون الأمومة المقدس.

هي الطهر والعفة، هي الوفاء **والأنفة**، هي الصبر والعزيمة، وهي كل فضائل الأم.

فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة، إلا طريقها القديم بعينه.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

احذري "ويحك" تقليد الأوروبية التي تعيش في دنيا أعصابها، محكومة بقانون أحلامها.

لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط، بل حالة عقلية أيضا تشك وتجادل.

أنوثة تفلسفت فرأت الزوج نصف الكلمة فقط، والأم نصف المرأة فقط.

ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة.

إنها بذلك حرة مساوية للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها.." (١)

""""""""" صفحة رقم ٣٣٢ """""""""

وطيبها وذكائها . وأهلها عرب في الأنساب والعزة **والأنفة** ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل والإهانة ، والنزاهة عن الخضوع ؛ هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها ؛ بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم ، ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ؛ نبطيون في استنباط المياه

---

(١) وحي القلم، ص/٢٦٨

، معاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة ؛ صينيون في إتقان الصنائع العلمية ، وإحكام المهن الصورية ؛ تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إن للجنة بالأندلس . . . مجتلى عين وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب . . . ودجى ليلتها من لعس .

وقد أظهرت الأندلس جماعة من الفضلاء والأعيان والأكابر ؛ ذكرهم ابن بسام في كتابة المترجم بالذخيرة ، في محاسن أهل الجزيرة وذكرهم الفتح بن خاقان في كتابة المطمح وقلائد العقيان وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وابتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو في الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة اثنان وتسعون من الهجرة .

وأما البصرة وما اختصت به

فمن خصائصها أن للغربان بها ضربا من العجب . وذلك أنها تقع إليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أصرم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تصرم ، ولو بقي عليها عذق واحد .." [1]

""""""""" صفحة رقم ١٢٥ """""""""

رب حام لأنفه وهو جادعه . يضرب لمن أنف من الشيء فتوقعه **الأنفة** في أشد منه .

مات حتف أنفه .

جدع الحلال أنف الغيرة . قاله رسول الله ، (صلى الله عليه وسلم) .

أنف في السماء ، واست في الماء

ذكر الفم ، واللسان ، والأسنان

كل جان يده إلى فيه .

حدثني ، فاه إلى في .

فلان خفيف الشفة . أي قليل المسألة .

سكت ألفا ، ونطق خلفا .

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٣٣٢/١

قرع سن النادم .

كدمت في غير مكدم . أي طلب غير مطلب .." [1]

""""""""" صفحة رقم ١٣٦ """""""

ومن ذلك ما كتب عامل إلى المصروف به : قد قلدت العمل بناحيتك ، فهنأك الله بتجدد ولايتك ، فأنفذت خليفتي لخلافتك ، فلا تخله من هدايتك ، إلى أن يمن الله بزيارتك .

فأجابه : ما انتقلت عني نعمة صارت إليك ، ولا خلوت من كرامة اشتملت عليك . وإني لأجد صرفي بك ولاية ثانية وصلة وافية ، لما أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود العاقبة . والسلام .

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهنئ إبراهيم بن المدبر بالعزل عن عمل :

ليهنئ أبا إسحاق أسباب نعمة . . . مجددة بالعزل ، والعزل أنبل

شهدت لقد منوا عليك وأحسنوا . . . لأنك بعد العزل أعلى وأفضل

آخر :

إن الأمير هو الذي . . . يضحي أميرا عند عزله

إن زال سلطان الولا . . . ية فهو في سلطان فضله

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه : قد جعلك الله – وله الحمد – من أهل التحصيل ، والرأي الأصيل ، وصحة الدين ، وخلق ذي اليقين . فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله ، فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره . وتأدى إلي من اتصال الوالدة – يسر الله لها في مدتك ، وأحسن بالبقية منها إمتاعك – بأبي فلان ، أعزه الله ، ما علمت فيه أنك بين طاعة للديانة توخيتها ، ومشقة تجشمتها ، وأنك جدعت أنف الغيرة بها ، وأضرعت خد **الحمية** فيها ، وأسخطت نفسك بإرضائها ، وعصيت هواك لرأيها . فنحن نهيك بعزيمة صبرك ، ونعزيك عن فائت مرادك ، ونسأل الله الخيرة لك فيه ، وان يجعلها أبدا معك فيما شئت وأبيت ، وتجنبت وأتيت .." [2]

""""""""" صفحة رقم ٦١ """""""

يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " .

وقال أكثم بن ضيفي : من تعمد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة ، فإن الأدب رفق ، والرفق يمن .

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٢٥/٢

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٣٦/٥

قال أبو الطيب المتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه . . . إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وقالوا : تواضع للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيا ، وانتصف ممن أساء إليك وإن كان حرا قرشيا .

وقال الشعبي : يعجبني الرجل إذا سيم هوانا دعته الأنفة إلى المكافأة وجزاء سيئة سيئة مثلها .

ورفع كلامه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي فقال : لله دره أي رجل بين جنبيه وتمثل بقول الشاعر :

ولا خير في عرض امرئ لا يصونه . . . ولا خير في حلم امرئ ذل جانبه

وقال رجل لابن سيرين : إني وقعت فيك فاجعلني في حل ؛ قال : ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك .

وقالوا : من ترك العقوبة أغرى بالذنب ، ولولا السيف كثر الحيف .

قال الشاعر :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله . . . هوانا وإن كانت قريبا أواصره

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه . . . فدعه إلى اليوم الذي أنت قادره

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة . . . وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وقيل : استؤمر عبد الله بن طاهر بن الحسين في رجلين كانا في السجن ، أحدهما ضعيف والآخر عليل ، فوقع : الضعيف يقوى والعليل يبرأ ، فإن يكن في." (١)

"""""""""" صفحة رقم ١٨٢ """"""""

ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها

الأزفلة : الجماعة . وتعطوه : تناوله . والطود : الجبل . والمنيف : المشرف .

وأكديتم : خبتم ويئس من خيركم . وونيتم : فترتم وضعفتم . والأمد : الغاية .

ويريش : يعطي ويفضل . والمملق : الفقير . ويرأب : يجمع . والشعب : المفترق .

ويلم : يضم . واستشرى : جد وانكمش . والشكيمة : الأنفة والحمية . والوقيذ : العليل . والجوانح : الضلوع القصار التي تقرب من الفؤاد . والشجي : الحزين . والنشيج : صوت البكاء . وانعطفت : انثنت . وامتثلوه : مثلوه . والغرض : الذي يقصد للرمي . وفلوا : كسروا . والصفاة : الصخرة الملساء . وقصفوا : كسروا . وسيساؤه : شدته . والسيساء : عظم الظهر ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٦/٦١

لقد حملت قيس بن عيلان حربن . . . على يابس السيساء محدودب الظهر

والجران : الصدر . ورست : ثبت . ومرج : اختلط . وماج أهله : اضطربوا وتنازعوا . وبغي الغوائل ، معناه وطلب البلايا . وأكثب : قرب . والنهز : اختلاس الشيء والظفر به مبادرة . ولات حين الذي يطلبون ، معناه : وليست الساعة حين ظفرهم . وقولها : فجمع حاشيتيه ورفع قطريه ، معناه تحزم للأمر وتأهب له . والقطر : الناحية . والطب : الدواء . والأود : العوج . والثقاف : تقويم الرماح وغيرها . وابذعر : تفرق . وانتاش الدين ، أي أزل عنه ما يخاف عليه . ونعشه : رفعه . وأراح الحق على أهله أي أعاد الزكاة التي منعتها العرب فقاتل عليها حتى ردت إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرر الرءوس على كواهلها ، معناه وقى المسلمين القتل . والكاهل : أعلى الظهر وما يتصل به . وحقن الدماء في أهبها ، معناه أنه حقن دماء المسلمين في أجسادهم . والأهب : جمع إهاب وأصل الإهاب الجلد . فكنت به عن الجسد . وقولها : لله درذأم حفلت له ، أي جمعت له اللبن . وقولها : أوحدت به ، معناه جاءت به منفردا لا نظير له . وقولها : ففنخ الكفرة ، معناه أذلها . وديخها : صغر بها . وبعج الأرض وبخعها ، معناه شقها واستقصى غلتها . وشذر مذر معناه تفريقا ، يقال : شذر مذر ، وشغر بغر ، بمعنى واحد . قولها : حتى قاءت أكلها ، معناه أخرجت خبزها . وترأمه : تعطف عليها . وتصدى له : تعرض له .." (١)

"""""""" صفحة رقم ١٤٦ """""""

طاعة فيروز والإقرار بعبوديته ، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يرضيه ؛ فرق له الملك فيروز ورحمه وأمر بحمله معه ، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم ، ثم قال له ذلك الأقطع كالمتنصح له : أنا أدل الملك على طريق مختصر تدخل منه في مفازة إلى بلاد أخشنوار ، فتصادف غرته ؛ وسأله أن يشفى له منه . فاغتر فيروز بذلك ؛ وأخذ الأقطع بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة . فلما شكوا العطش مناهم بقرب الماء وقطع المفازة . ولم يزل يتقدم بهم حتى بلغ بهم موضعا علم أنها لايقدرون فيه على التقدم ولا الرجوع ، فتبين لهم أمره ، فعندها سقط في أيدي القوم وقالوا لفيروز : ألم ننهك عن هذا الرجل فلم تنته ؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش ، ومضى على وجهه بمن نجا معه ؛ فوافى أخشنوار وقومه ؛ وهو من نجا معه على سوأ حال ، وقد أجهدهم العطش ، فدعوا أخشنوار إلى الصلح على أن يخلي سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم ، وعاهدوه على ألا يغزوهم أبدا ، فرضي أخشنوار بذلك وحصل اتفاقهما على أن يجعلا بينهما حذا لا يتجاوزه واحد منهما ، ووضع عند الحد حجر ، وحلفه

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٨٢/٧

أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر ، فحلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار ، فعاد فيروز إلى بلاده . فلما سار إلى مملكته داخلته الحمية وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به ، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبحوا عليه نقض العهود والمواثيق ، فلم يرجع إلى أقوالهم وأبى إلا غزوه . وسار بجيوشه حتى أتى الحد الذي بينهما والحجر الذي حلف أنه لا يتجاوزه إلى بلاد الهياطلة ، فأمر فيروز بالحجر أن يصمد فيه خمسون فيلا وثلثمائة رجل ، فجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجر ولا يتقدم الفيلة ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه . فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل إليه يقول : إن الله عز وجل لا يخادع ولا يماكر ونهاه عن الغدر وقبحه عليه ، وهو لا يكترث بقوله ، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها ، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر في وجوه المكايد والمكر والخداع ، فحفر حول عسكره خندقا عرضه عشرة أذرع ، وعمقه عشرون ذراعا ، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب ، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد ، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره ،." (١)

"""""""" صفحة رقم ١٦٣ """""""

زين سلطاننا ، وجعلناه سنة وعادة ، ولم تنازعنا أنفسنا إلى ما تميل به أهواؤنا ، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به ، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السير ونهيناهم عنه وتقدمنا إليهم فيه ؛ غير أنا لم نكره أحدا على غير دينه وملته ، ولم نحسدهم ما قبلنا ، ولا منع ذلك انقباض بعلم ما عندهم ، فإن الإقرار بمعرفة الحق والعلم والأتباع له من أعظم ما تزينت به الملوك . ومن أعظم المضرة على الملوك الأنفة من العلم والحمية من طلبه ، ولا يكون عالما من لا يتعلم .

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة ، ووصلت بين مكارم أسلافي ، وما أحدثته بالرأي ، وأخذت به نفسي ، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا ، وثبت على الأمر الذي نلت به الظفر والخير ، ورفضت سائر الأمم لأني لم أجد عندهم رأيا ولا عقولا ولا أحلاما ، ووجدتهم أصحاب بغي وحسد وكلب وحرص وشح وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة . وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية ، ولا تتم لها نعمة .

قال ابن مسكويه : وقرأت مع هذه االسير في آخر هذا الكتاب الذي كتبه أنوشروان في سيرة نفسه أن أنوشروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القواد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال :

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٤٦/١٥

ذكر خطبة أنوشروان

قال : أيها الناس ، أحضروني فهمكم ، أعطوني أسماعكم ، وناصحوني أنفسكم ، فإني لم أزل واضعا سيفي على عنقي منذ وليت عليكم غرضا للسيوف والأسنة ، وكل ذلك للمدافعة عنكم ، والإبقاء عليكم ، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق ، وتارة في آخر المغرب ، وأخرى في نهاية الجنوب ، ومثلها في جانب الشمال ، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم ، ووضعت الوضائع في بلدان الترك ، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية ، ولم أزل أصعد جبلا شامخا وأنزل عنه ، وأطأ." (١)

""""""""" صفحة رقم ٢٦ """"""""

فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصا منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة ، أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدرككم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح .

وكان موعكا فاشتد عليه الوعك ، فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقي المنبر ، فقال : الحمد لله شكرا الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) . أيها الناس : الآن قد قشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطالعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه ، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم . أيها الناس : والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكنز لجينا ، ولا عقيانا ، ولا نحفر نهرا ، ولا نبني قصرا ، وإنما أخرجتنا **الأنفة** من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرهنا من أموركم ، فلقد كانت أموركم ترمضنا ، ونحن على فراشنا ، وتشتد علينا سوء سيرة بني

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٥/١٦٣

أمية فيكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، تبا تبا لبني حرب." [١]

"""""""""" صفحة رقم ٢٠١ """"""""""

تقتل بالسيف ، والخنق أهون عليك ، فقال : شأنكم وما تريدون . فخنقوه وخرجوا من عنده حتى يبرد ثم يدخلوا عليه فيقطعوا رأسه . فلما دخلوا عليه وجدوه قد أفاق وجلس ، فضربوا عنقه . هذا ما نقله شهاب الدين المنشى في سبب قتله . وقال غيره من المؤرخين : إن سبب خلاف شرف الملك على السلطان وانضمام الناس إليه أن جلال الدين ظهر منه في هذه السنة – وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة – نقائص وأمور دلت على نقص عقله ، وأوجبت انحراف وزيره وعساكره عنه . فمنها أنه كان له خادم خصى يسمى قلج ، وكان جلال الدين يحبه ، فمات فأظهر عليه من الهلع والجزع ما لم يسمع بمثله ، ولا نقل عن مجنون ليلى ولا غيره من جهال العرب ، الذين ضرب بهم المثل ، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجاله . وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس كما أمرهم ، ومشى هو بعض الطريق راجلا ، فألزمه وزيره وأمراؤه بالركوب ، وأرسل إلى أهل تبريز أن يتلقوا الجنازة فتلقوها ، فأنكر عليهم لتأخرهم وكونهم ما تقدموا الموضع الذي لقوها فيه ، وكونهم لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما أظهروا ، وقصد معاقبتهم على ذلك ، فشفع فيهم الأمراء فتركهم ولم يدفن الخادم ، وكان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكي ، وامتنع من الأكل والشرب . وكان إذا اقدم له طعام يقول : احملوا من هذا إلى قلج ، فيحملونه ويعودون فيقولون : هو يقبل الأرض ويقول : إنني الآن أصلح مما كنت ، ولا يتجاسر أحد يقول : إنه مات ، فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل . فحصل لأمرائه من الغيظ **والأنفة** ما حملهم على الخروج عن طاعته والانحياز عنه والانضمام إلى وزيره ؛ فكان ذلك سبب خروجه .

ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها ثانيا

قال : كان أوباش كنجة قد قتلوا من بها من الخوارزمية وتجاهروا بالفساد ، وملك زمام أمرهم رجل يعرف ببندار وأطاعه الأوباش فبسط يده في المصادرات ،." [٢]

"""""""""" صفحة رقم ٢٧٢ """"""""""

وفادتهم ، وغزرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم ، وسمعنا خطابهم ، وأعدنا جوابهم هذا ، مع كوننا لم

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٢٦/٢٢

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٢٠١/٢٧

يخف علينا انحطاط قدرهم ، ولا ضعف أمرهم . وأنهم ما دعفوا الأفواه الخطوب إلا لما ارتكبوه من ذنوب . وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله . ولا ينتدب لهذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابه وفضله .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فلو قدموا من هداياهم حسنة ، لعوضناهم بأحسن منها . ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجمل عوض عنها . وقد كان عمهم الملك أحمد ، راسل والدنا السلطان الشهيد وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد . وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسن له الجواب ، وأتى البيوت من أبوابها ، بحسن الأدب ، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن ، فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت **الأنفة** من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها ، فنقول : إذا جنح الملك للسلم ، جنحنا لها ، وإذا دخل في الملة المحمدية ، ممتثلا ما أمر الله به ، مجتنبا ما عنه نهى ، وانضم في سلك الإيمان ، وتمسك بموجباته ، تمسك المتشرف بدخول فيه لا المنان ، وتجنب التشبه بمن قال الله عز وجل في حقهم : " قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان " . وطابق فعله قوله ، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا ؛ ويروق خطابه وجوابه ، حتى يتلو كل أحد عند عوده " يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا " . صارت حجتنا وحجته المركبة على من خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك ، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا ؛ والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى : " واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل الصلح ، أحسن انتظام . ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة ولا انفصال لها ولا انفصام . وتستقر قواعد الصلح ، على ما يرضي الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، إن شاء الله تعالى .

كتب في ثامن وعشرين المحرم سنة إحدى وسبعمائة .." (١)

""""""""" صفحة رقم ١٩٢ """""""

رقعة إلى رجل تزوجت أمه

أملى علي أبو إسحاق ، إبراهيم بن هلال الكاتب ، الصابىء ، نسخة رقعة إلى رجل زوج أمه ، كتبها إليه : قد جعلك الله ، وله الحمد ، من أهل التحصيل ، والرأي الأصيل ، وصحة الدين ، وخلوص اليقين ، كما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله ، فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره ، وتأدى إلينا من إيقاعك

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٢٧٢/٣١

العقد ، بين الوالدة – نفس الله لها في مدتك – وبين فلان ، ما علمنا أنك بين طاعة للديانة توخيتها ، ومشقة فيها تجشمتها ، فإنك جدعت أنف الغيرة لها ، وأضرعت خد **الحمية** فيها ، وأسخطت نفسك لرضاها ، وعصيت هواك لرأيها ، فنحن نهنئك بعزيمة صبرك ، ونعزيك عن فائت مرادك ، ونسأل الله الخيرة لك ، وأن يجعلها أبدا معك ، فيما شئت وأبيت ، وتجنبت وأتيت ، والسلام .

رقعة الصابي إلى الوزير ابن بقية

وأنشدني لنفسه ، قال : وكتبت بها وأنفذتها إلى الوزير ابن بقية وهو في حضرة الأمير ، وقد كان وعدني بتخليصي ، فأخر ذلك : أيا ناصرا للدين والدولة التي . . . رددت إليها العز إذ فات رده أيعجزك استخلاص عبدك بعدما . . . تخلصت مولاك الذي أنت عبده." (١)

""""""""" صفحة رقم ١٥٥ """""""""

فيها . والفريضة : الهرمة وهي الفارض أيضا ، يقال : فرضت إذا هرمت . والعارض : المريضة . والفريش : هي التي وضعت حديثا كالنفساء من النساء ، يريد لا يأخذ منكم ذا العيب فيضر بأهل الصدقة فهى لكم ، ولا يأخذ منكم ذات الدر فيضر بكم فهى لكم ، ولكنا نأخذ الوسط . وذو العنان : الفرس ، والركوب الذلول . والفلو : المهر . والضبيس : الصعب . وقوله : لا يمنع سرحكم : أي لا يدخل عليكم في مرعاكم أحد يمنع سرحكم عن شيء منه ، ولا يحبس دركم ، يريد : ذوات اللبن ، لا تحشر إلى المصدق وتحبس عن المرعى ، إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد ، لما في ذلك من الإضرار بها . والإماق أصله الإمآق بالهمزة ، وهو من المأقة ، والمأقة : **الأنفة** والحدة والجرأة ، يقال رجل مثق ، وإنما أراد بالاماق النكث والغدر . والرياق : جمع ربق وهو الحبل وإنما أراد به العهد . وقوله : فمن أبى فعليه الربوة يريد : الزيادة . وكتب (صلى الله عليه وسلم) بين قريش والأنصار كتابا ، وفي الكتاب : إنهم من أمة واحدة دون الناس ، المهاجرون من قيس على رباعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى ، ويفكون عاتيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا منهم أن يعينوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى عليهم ، وابتغى دسيعة ظلم ، وأن سلم المؤمنين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضا ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا يعينها على مؤمن ، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا ، فإنه قود إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل ، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أنفسهم ومواليم أمة من

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ١٩٢/٢

المؤمنين ، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوبغ إلا نفسه وأهل بيته ، وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحبين من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، فلا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في." (١)

"""""""""" صفحة رقم ١٨١ """""""""

في قلبك بدا في وجهك إن كنت حليما ، وعلى لسانك إن كنت سفيها ؛ وإذا ظهر ذلك للولي كان قلبه أسرع إلى التغير والتعتب من قلبك . إذا أصبت الجاه والخاصة عند السلطان فلا تتغير لأحد من أهله وأعوانه ؛ فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة فتذل لهم ، وفي ذلك من العار ما فيه . لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقى عنه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ . ويرفق بالناس إلا كاد يخلص إلى حاجته عند السلطان .." (٢)

"""""""""" صفحة رقم ٤١ """""""""

إلى السلامة ، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ؛ لأن الواحد رهن بما أفشي إليه ، وهو أحرى ألا يظهره رهبة للملك ، ورغبة إليه ، وإذا كان عند اثنين فظهر ، دخلت على الملك الشبهة ، واتسعت على الرجلين المعاريض ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما عفا عن واحد لا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه ' .

نسخة عهد أردشير بن بابك إلى من يخلفه من بعده

من ملك الملوك أردشير بن بابك إلى من يخلفه بعقبه من ملوك فارس السلام والعافية . أما بعد : فإن صنيع الملوك على غير صنيع الرعية ، فالملك يطيعه العز والأمن والسرور والقدرة على طباع الأنفة والجرأة والعبث والبطر . ثم له ، كلما ازداد في العمر تنفسا وفي الملك سلامة ، زيادة في هذه الطبائع الأربعة حتى تسلمه إلى ' سكر السلطان الذي هو أشد من سكر الشراب ' فينسى النكبات و العثرات والغير والدوائر . ويحين تسلط الأيام ولؤم غلبة الدهر ، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول . وقد قال الأولون منا : ' عند حسن الظن بالأيام تحدث الغير ' . وقد كان من الملوك من يذكره عزه الذل ، وأمنه الخوف ، وسروره الكآبة ، وقدرته العجز ، فإذا هو قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة السوقة ، ولا حزم إلا في جمعهما . اعلموا أن الذي أنتم لاقوه بعدي هو الذي لقيني من الأمور ، وهي بعدي واردة عليكم بمثل الذي وردت به علي ، فيأتيكم

---

(١) نثر الدر . ، ١٥٥/١

(٢) نثر الدر . ، ١٨١/٤

السرور والأذى في الملك من حيث أتياني ، وأن منكم من سيركب الملك صعبا فيمنى من شماسه وجماحه وخبطه واعتراضه بمثل الذي منيت به ، وأن منكم من سيرث الملك عن الكفاة المذللين له مركبه ، وسيجري على لسانه ويلقى في قلبه أن قد فرغ له وكفي واكتفى وفرغ للسعي في العبث والملاهي ، وأن من قبله من الملوك إلى التوطيد له أجروا ، وفي التمكين له سعوا ، وأن قد خص بما حرموا ، وأعطي ما منعوا ، فيكثر أن يقول مسرا ومعلنا ، خصوا بالعمل وخصصت بالدعه ، وقدموا قبلي إلى الغرر وخلفت في الثقة .." [1]

"قال: ثم إنه سار نحو هولاكو، فلما مر بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال:

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت ... لحاظي إلى الدار التي رحلوا عنها

ولو كان عندي ألف عين وقمت في ... معالمها عمري لما شبعت منها وصنع في نعيها أشعارا يغني بها المسمعون، ثم رحل إلى صحراء يوش في جهة طريق أرمينية، فوجد هولاكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب، فأنزله، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨ (١) ، فقتلوه وخلعوا عظم كتفه، وجعلوه في أحد الأعلام على عادته في أكتاف الملوك، انتهى باختصار.

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (٢) ، وكان صعب الخلق، شديد الأنفة، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق، وفي ذلك يقول، وكتب به إليهم:

من لصب يرعى النجوم صبابه ... ضيء السير في الهموم شبابه

زدت بعدا فزدت فيه اقترابا ... بودادي كذاك حكم القرابه

منزلي الآن سمرقند وبالقل ... عة ربع وطئت طفلا ترابه

شد ما أبعد الفراق انتزاحي ... هكذا الليث ليس يدري اغترابه

لا ولا أرتجي الإياب لأمر ... إن يكن يرتجي غريب إيابه

---

(١) في ق: سنة خمسمائة وثمانين، وسقط التاريخ من ج.

(٢) له ترجمة في المغرب ٢: ١٧٢.." [2]

---

(١) نثر الدر ، ٧/٤١

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٢/٣٧٠

"على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحوره ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله، ورب (١) محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان، وقد كتبت لأرباب هذا الشان، من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب، ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من **الأنفة**، فأملى في محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للأصبهاني، فأضربت أنا عما ألف، ولم أعرض لشيء مما صنف، ولا تعديت أهل عصري، مما شاهدته بعمري أو لحقه أهل دهري، إذ كل مردد ثقيل، وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماع:

يا دار مية بالعلياء فالسند

إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي وغيرهم ممن يطول، ما صورته: وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور، في تأليفه المشهور، المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. انتهى المقصود منه.

---

(١) الذخيرة: ويا رب.." [1]

"**والأنفة** وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف (١) الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب "كتاب الفلاحة " الذي شهدت له التجربة بفضله، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع أحذق

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٥٠١/٢

الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

وعد رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم، قال: وكان خطهم أولا مشرقيا، انتهى. قال ابن سعيد: أما أصول الخط المشرقي وما تجد له في القلب واللحظ من القبول فمسلم له، لكن خط الأندلس الذي رأيته في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، انتهى.

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكور في رسالة لابن حزم، وقال فيها: إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها، انتهى.

وعد ابن غالب من فضائلهم اختراعهم للموشحات التي قد (٢) استحسنها

---

(١) م: وأصناف.

(٢) قد: سقطت من ب.." [(١)]

"لأسرحن نواظري ... في ذلك الورد النضير

ولآكلنك بالمنى ... ولأشربنك بالضمير ٤١٣ - وقال ابن عبد ربه (١) :

اشرب على المنظر الأنيق ... وامزج بريق الحبيب ريقي

واحلل وشاح الكعاب رفقا ... خوفا على خصرها الرقيق

وقل لمن لام في التصابي ... خل قليلا عن الطريق وسيأتي إن شاء الله تعالى قريبا من بلاغة أهل الأندلس في الجد والهزل ما فيه مقنع لمن اقتصر عليه.

٤١٤ - ومن حكاياتهم في عدم احتمال الضيم والذل والوصف **بالأنفة**: أنه لما ثار أيوب بن مطروح في المائة الخامسة في الفتنة على ملك غرناطة عبد الله بن بلقين بن حبوس وخاض بحار الفتنة حتى رماه موجها فيمن رمى على الساحل، وحصل فيما بث عليهم يوسف بن تاشفين من الحبائل، وكانت له همة وأنفة عظيمة، وخلع عن إمارته، وحصل في حبالته، أدخل رأسه تحته، فانتظر من حضر معه أن يتكلم أو يخرج رأسه، فلم يكن إلا قليل حتى وقع ميتا، رحمه الله تعالى.

٤١٥ - ولما ثار الميورقي بإفريقية على بني عبد المؤمن الثورة المشهورة، وخدمه جملة من أعيان أهل

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١٥١/٣

الأندلس، وكان من جملتهم مالك بن محمد بن سعيد العنسي (٢) ، كتب عنه من رسالة: وبعد، فإنا لا نحتاج لك إلى برهان على أمير لسانه الحسام، وأيده التأييد الرباني الذي لا يرام، قد نصب خيامه

---

(١) العقد ٦: ٢٨٥، ٤٢٧.

(٢) انظر ترجمة مالك في المغرب ٢: ١٧١.." [1]

"أما ترى نرجسا نضيرا ... يرنو إليه بمقلتيه

نشر حبيبي على رباه ... وصفرتي فوق وجنتيه وقال:

بمهلكة يستهلك الحمد عفوها ... ويترك شمل العزم وهو مبدد

ترى عاصف الأرواح فيها كأنها ... من الأين تمشي ظالع أو مقيد وقال فيه في المطمح: محرز الخصل، مبرز في كل معنى وفصل (١) ، متميز بالإحسان، منتم إلى فئة البيان، ذكي الخلد مع قوة العارضة، والمنة الناهضة، حضر مجلس بعض القضاة وكان مشتهرا لضبط منتهرا (٢) لمن انبسط فيه بعض البسط، حتى إن أهله لايتكلمون فيه إلارمزا، ولا يخاطبون إلا إيماء فلا تسمع لهم ركزا، فكلم فيه خصما له كلاما استطال به عليه لفضل بيانه، وطلاقة لسانه، ففارق عادة المجلس في رفض **الأنفة**، وخفض الحجة المؤتنفة، وهز عطفه وحسر عن ساعده، وأشار بيده، مادا بها لوجه خصمه، خارجا عن حد المجلس ورسمه، فهم الأعوان بتقويمه وتثقيفه، ووزعهم رهبة منه وخشية، حتى تناوله القاضي بنفسه، وقال له: مهلا عافاك الله اخفض صوتك، واقبض يدك، ولاتفارق مركزك، ولا تعد حقك، وأقصر عن إدلالك (٣) ، فقال له: مهلا يا قاضي، أمن المخدرات أنا فأخفض صوتي وأستر يدي، وأغطي معاصمي لديك أم من الأنبياء أنت فلا يجهر بالقول عندك وذلك لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله عليه الصلاة والسلام، لقول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي -

---

(١) المطمح: وفضل.

(٢) في الأصول والمطمح: مشهرا.

(٣) المطمح: انتمائك وإدلالك.." [2]

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٣/٥٦٨

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٤/٤٧

"إن عمت الأفق من نقع الوغى سحب ... فشيم بها بارقا من لمع إيماضي
وإن نوت حركات النصر أرضص عدا ... فليس لفتح إلا فعلي الماضي والله سبحانه أعلم.

[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاط]

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طركاط، وهو " القضاء – حفظ الله تعالى كمالك، وأنجح آمالك – إذا لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتج، كما أنه إذا حاطه العدل حادة لنجاة، وسبب في حصول رحمة الله تعالى المرتجاة، وسوق لنفاق بضاعة العبد المزجاة، وأجمل العدل ما تحلى به في نفسه الحكم، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم، حتى يكون عن البغي رادعا، وبالقسط صادعا، ولأنف **الأنفة** من الإذعان للحق جادعا، وأنت أجلك الله تعالى على سعة إطلاعك، وشدة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك، ممن لا ينبه على ما ينبغي، ولا يرد على طلبته من الإنصاف المبتغي، فلك في الطريقة القاضوية التبريز، وأنت إذا كان غيرك الشبه الذهب الإبريز، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز، وليتني كنت لمظهرك الحكمي حاضرا، ولإعلام القضاة بآرائك المرتضاة محاضرا، والوازع قد تمرس بالخصوم، وجعل المتصدي للإذن في محل المخصوم، وأنت حفظك الله تعالى قد قمت من غلط الحجاب بالمقام المعصوم، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المصوم، والباب قد سد، وداعي الشفاعة قد رد، والميقات للإذن قد حد، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد، حتى إذا قضي الواجب، وأذن في دخول الخصمين الحاجب، وكبح السابقين إلى الحد الذي." (١)

"وما يراه؛ وإن هو ألقاه، فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني.

قال الملك بيدبا تكلم كيف شئت: فإنني مصغ إليك، ومقبل عليك، وسامع منك، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله. قال بيدبا: إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوانات أربعة أشياء، وهي جماع ما في العالم، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل. والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة. والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل. والحياء والكرم والصيانة **والأنفة** داخلة في باب العفة. والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل. وهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ. فمتى كملت هذه في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمة إلى

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١٥٣/٦

سوء الحظ من دنياه ولا إلى نقص في عقباه، ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولك يدهش." [١]

"ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حق وحرمة؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي. وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح **الأنفة** ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السر؛ فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده. قال كليلة: هبك وصلت إلى الأسد، فما توفيقك عنده الذي ترجو أن تنال به المنزلة والحظوة لديه؟ قال دمنة: لو دنوت منه وعرفت أخلاقه، لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له. وإذا أراد أمرا هو في نفسه صواب، زينته له وصبرته عليه، وعرفته بما فيه من النفع والخير؛ وشجعته عليه وعلى الوصول إليه، حتى يزداد به سرورا. وإذا أراد أمرا بما فيه الضر والشين، وأوقفته على ما في تركه من النفع والزين، بحسب ما أجد إليه السبيل. وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة ويرى مني ما لا يراه من غيري: فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقا أو يحق باطلا." [٢]

"وتضرعك لهن قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها، ونحى عن نفسه **الأنفة** **والحمية**، ووطنها على الصبر حمد غب رأيه، كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره، وشبع بذلك وعاش قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيات كبر، وضعف بصره وذهبت قوته: فلم يستطع صيدا ولم يقدر على طعام وأنه انساب يتلمس شيئا يعيش به، حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع، قد كان يأتيها قبل ذلك، فيصيب من ضفاضعها رزقه فرمى نفسه قريبا منهن مظهرا للكآبة والحزن فقال له ضفدع: ما لي أراك أيها الأسود كئيبا حزينا؟ قال: ومن أحرى بطول الحزن مني! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت ببلاء وحرمت على الضفادع من أجله، حتى إني إذا التقيت ببعضها لا أقدر على إمساكه.." [٣]

"عمر أيضا إنه قال: ما بال رجل لا يزال أحدهم كاسرا وساده عند امرأة مغزية، يتحدث إليها وتحدث إليه، عليكم بالجبنة فإنها عفاف، إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه.

باب الرجل يدخله **الأنفة** من صاحب من يرغب عن صحبته.

---

(١) كليلة ودمنة ابن المقفع ص/٢٤

(٢) كليلة ودمنة ابن المقفع ص/١٠٠

(٣) كليلة ودمنة ابن المقفع ص/٢٢٦

قال أبو عبيد: جاء الأثر عن بعض أهل العلم: لا تصحب من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له.

وقال الأصمعي: من أمثالهم في نحو هذا: خل سبيل من وهى سقاؤه.

أي إذا كره صحبتك، ولم يستقم لك فدعه وازهد فيه كزهده فيك. قال الأصمعي بعض هذا الكلام. وكذلك قولهم: خله درج الضب.

قال أبو عبيد: ومثله قولهم: إنما يضن بالصنين.

قاله الأغلب بن جشعم العجلي. ومعناه: تمسك باخاء من تمسك بإخائك، ومثله قول لبيد بن ربيعة.." (١)

"٣٩٨٧ - سمعت يحيى يقول قال عباد بن عباد لم يمنع هشيم من أن يسمع من سعيد بن أبي عروبة إلا الكبر والأنفة

٣٩٨٨ - سمعت يحيى يقول قد سمع بن سيرين بالكوفة الحديث سمع من عبيدة ونحوه وسمع من شريح قلت ليحيى فإن بن شبرمه يروي عن بن سيرين قال دخل بن سيرين الكوفة في وقت لم يكن بن شبرمة ولكن لعله سمع منه في الموسم قال هذا أو نحوه

٣٩٨٩ - سمعت يحيى يقول عباد بن العوام وعباد بن عباد جميعا ثقة وعباد بن عباد أوثقهما وأكثرهما حديثا

٣٩٩٠ - سمعت يحيى يقول عيسى بن إبراهيم يعني القرشي ليس حديثه بشيء

٣٩٩١ - سمعت يحيى يقول في حديث عبد الله بن رباح عن عائشة قال يحيى بينهما رجل وهو عبد العزيز بن النعمان." (٢)

"إليه الأماني انسراب الماء إلى الغور، وأتت الدولة اليوسفية ففازت به قداحها، وأورى زنده اقتداحها، فقال فيها ما شاء، وأقال من عثاره الإنشاء، بعد خطوب أصارته طريدا، وقطعت منه وريدا، وما زال يرتضع أخلافها، وينتجع أكتفها، ويسم ببيانه غفلها، ويتمم فرضها ونفلها، حتى طواه ضريحه، وركدت ريحه، فسقط بسقوطه نجم البيان، وأضحى دائر الأثر خفي العيان، وقد أثبتت في هذا التصنيف، من كلامه العالي المنيف، ما تتخذه سميرا، وتجعله على الكلام أميرا، فمن ذلك رقعة راجعني بها، وافتني أعزك الله لك أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس في حلل إبداعها كالغصن الأملود، وأنك لسابق هذه الحلبة لا يدرك

---

(١)>الأمثال لابن سلام أبو عبيد القاسم بن سلام ص/١١١

(٢) تاريخ ابن معين - رواية الدوري يحيى بن معين ٤/٢٠٨

غبارك في مضمارها، ولا يضاف سرارك إلى أبدارها، وما أنت في أهل البلاغة إلا نكتة فلكها، ومعجزة تتشرف الدول بتملكها، وما كان أخلقك بملك يدينك، وملك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولا تقف إلى على من توقف، ولو اتفقت بحسب الرتب لما ضربت إلا عليك قبابها، ولا خلعت إلا عليك أثوابها، وأما ما عرضت فلا أرى أنفاذه أقواما، ولا أرضى لك أن تترك عيون أرائك نياما، ولو كففت من هذا الخلق، وانصرفت عن تلك الطرق، لكن أليق بك، واذهب مع حسن مذهبك، وقديما أوردت الأنفة أهلها، موارد لم حمدوا صدرها، والموفق من أبعدها وهجرها، وسأستدرك الأمر قبل فواته، وأرهف لك مفلول شباته، فتوقف قليلا، ولا تنفذ فيه دبرا ولا قبيلا، حتى ألقاك هذه العشية وأعلمك بما تنبني عليه القضية، إن شاء الله، وكتب عن أمير المسلمين وناصر الدين أيده الله إلى طائفة متعدية، وأما بعد يا أمة اتعقل رشدها، ولا تجري إلى اتقتضيه نعم الله عندها، ولا تقلع عن أذى تفشيه قربا وبعدا وجهدها، فإنكم لا ترعون لجار ولا لغيره حرمة، ولا تراقبون في مومن إلا ولا ذمة، فد أعماكم عن مصالحكم الأشر، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم، وأتيتم ما ينكر مقتديا في ذلك صغيركم بكبيركم، وخاملكم بمشهوركم، ليس فيكم زاجر، ولا منكم إلا غوي فاجر، ولم نرى إلا أن الله عز وجل قد شاء مسلخكم، وأراد نسخكم وفسخكم، فسلط عليكم الشيطان ويغركم ويغريكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم، وكأنكم به قد نكص على عقبيه عنكم، وقال أني بريء منكم، وتركم في صفقة خاسرة، لا تستقيلونها إن لم تتوبوا في دنيا ولا آخره، وحسبنا." (١)

"عشرة من وجوههم لأجبرهم الامام عليه ولما التفت إلى ما كان من بغيهم عليه وغلطهم فيه.

ولكنا نزعم أن عليا دافع بمعاريض الكلام وبالتورية وبما يشبه التوهيم وأعمل المكيدة عند الحاجة إلى المكيدة حين رأى اختلاف القلوب وانتشار الامور ونقصان البصائر والركون الى الراحة وطمع أن تكون عظته وتصرفه وتعريفه وتخويفه مما ينفع فيهم ويسري في طبائعهم وينبههم من رقدتهم ويحرك مواضع الأنفة من قلوبهم إلى انقضاء تلك المدة وفي تلك المهلة والهدنة حين ارتبق فيهم حبله ولم يبق غاية، وبعد ان كتم الداء ودثر الدواء وأرفق العلاج؛ فلما أعضل الداء واستفحل البلاء وظهر العيب واستتم الفساد وصار ستره عيا وكتمه عجزا، خطب بالموعظة على المنابر وقرع بالتأنيب في المحافل وأعذر عنه المقبل والمدبر، وكان على يقين من انهزامهم إن مضى بهم مكرهين غير متبصرين ومختلفين غير متفقين، هذا أسوأ ما كان [...] فه الجيوش عنه فتظهر له الخلة وتتشنع به المثلة.

---

(١) قلائد العقيان الفتح بن خاقان، أبو محمد ص/١٠٤

[١٤- العمل عند المعتزلة كالقول]

وأعلم أن لصاحب الفتنة والمكر والمخبر من معاريض القول من التورية في الكلام ومن إضمار المعاني في الالفاظ إلى ما يخرجه من الكذب وإن وهم ذلك القول السامع الطالب والمستحلف الغاصب الموافقة والرضى بحكمه ما ليس لغيره، وهذا هو المعنى في الفتنة التي أناخها الله تعالى بعباده، وقد كان له أن يتعبدهم بالإفصاح وإن قتلوا عن آخرهم.

ونحن نزعم أن اليمين إذا كانت لازمة لك فهي على ضمير من استحلفك، وإذا كانت غير لازمة فهي على ضمير الحالف؛ وكذلك البيعة وجميع الكلام، والعمل عندنا في ذلك كالقول؛ ولو أن غاصبا أخذ عليك يمينا للبيعة له، كان لك أن تقول «نعم» ولست تريد التي هي خلاف «لا» ولكن تر [يد]." (١)

"إن امرأ جعل المراغة وابنها ... مثل الفرزدق جائر قد قالا

والزنج لو لاقيتهم في صفهم ... لاقيت ثم جحاجحا أبطالا

فسل ابن عمرو حين رام رماحهم ... أرأى رماح الزنج ثم طوالا

فجعوا زيادا بابنه وتنازلوا ... لما دعوا لنزال ثم نزالا

ومربطين خيولهم بفنائهم ... وربطت حولك شيها وسخالا

كان ابن ندبة فيكم من نجلنا ... وخفاف المتحمل الأثقالا

وابنا زبيبة: عنتر وهراسة ... ما إن نرى فيكم لهم أمثالا

سل ابن جيفر حين رام بلادنا ... فرأى بغزوتهم عليه خبالا

وسليك الليث الهزبر إذا عدا ... والقرم عباس علوك فعالا

هذا ابن خازم ابن عجلى منهم ... غلب القبائل نجدة ونوالا

أبناء كل نجيبة لنجيبة ... أسد تربب عندها الأشبالا

فلنحن أنجب من كليب خؤولة ... ولأنت الأم منهم أخوالا

وبنو الحباب مطاعن ومطاعم ... عند الشتاء إذا تهب شمالا

أما ابن عمرو الذي ذكر، فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكي، كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج، فغلب رباح شار الزنجي على الفرات، فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه واستباح عسكره.

وأما ابن جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندى.

---

(١) الرسائل السياسية الجاحظ ص/٣٦٣

كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره.

ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزعوا إلى الزنج في البسالة **والأنفة**. فذكر خفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس، وابني شداد: عنترة الفوارس وأخاه هراسة، وسليك بن السلكة. فهؤلاء أسد الرجال، وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأسا، وبهم يضرب المثل.

ومنهم: عبد الله بن خازم السلمي، وبنو الحباب: عمير بن الحباب وإخوته.." (١)

"اللصوص مالك، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار، ولا أم رؤوم.

وسألت أن أكتب لك علة «خباب» «١» في نفي الغيرة، وأن بذل الزوجة داخل في باب المؤاساة والأثرة؛ وأن فرج الأمة في العارية، كحكم الخدمة؛ وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة، وأن الأمة مال كالذهب والفضة، وأن الرجل أحق ببنته من الغريب، وأولى بأخته من البعيد؛ وأن البعيد أحق بالغيرة، والقريب أولى **بالأنفة**، وأن الإستزادة في النسل كالإستزادة في الحرث، إلا أن العادة هي التي أوحشت منه، والديانة هي التي حرمته، ولأن الناس يتزيدون أيضا في استعظامه، وينتحلون أكثر مما عندهم في استشناعه.

وعلة «الجهجاه» «٢» في تحسين الكذب في مواضع، وفي تقبيح الصدق في مواضع، وفي إلحاق الكذب بمرتبة الصدق، وفي حط الصدق الى موضع الكذب. وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه «٣» ، وتذكر مثالبه «٤» ، ويحابون «٥» الصدق بتذكر منافعه، وبتناسي مضاره.

وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما، وعدلوا بين خصالهما، لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون. ومذهب «صحصح» «٦» في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء، في الجملة، أنفع من الفطنة، في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس، من عيش العقلاء؛ وأنك لو أسمنت بهيمة، ورجلا ذا مروءة، أو امرأة ذات عقل وهمة، وأخرى ذات غباء وغفلة،." (٢)

"واحذر أن تخرج من مالك درهما، حتى ترى مكانه خيرا منه. ولا تنظر إلى كثرته، فإن رمل عالج «١» لو أخذ منه، ولم يرد عليه، لذهب عن آخره.

إن القوم قد أكثروا في ذكر الجود وتفضيله، وفي ذكر الكرم وتشريفه، وسموا السرف جودا وجعلوه كرما. وكيف يكون كذلك وهو نتاج ما بين الضعف والنفج «٢» ؟ وكيف والعطاء لا يكون سرفا إلا بعد مجاوزة الحق، وليس وراء الحق إلى الباطل كرم؟ وإذا كان الباطل كرما كان الحق لؤما. والسرف، حفظك الله،

---

(١) الرسائل السياسية الجاحظ ص/٥٣٧

(٢) البخلاء للجاحظ الجاحظ ص/٢٠

معصية، وإذا كانت معصية الله كرما، كانت طاعته لؤما. ولئن جمعهما إسم واحد، وشملهما حكم واحد (ومضادة الحق للباطل، كمضادة الصدق للكذب، والوفاء للغدر، والجور للعدل، والعلم للجهل) ليجمعن هذه الخصال اسم واحد، وليشملنها حكم واحد.

وقد وجدنا الله عاب السرف، وعاب **الحمية** «٣» ، وعاب العصبية، ووجدناه قد خص السرف بما لم يخص به **الحمية**، لأنه ليس حب المرء لرهطه من العصبية، وما أنفته من الضيم من حمية الجاهلية. وإنما العصبية ما جاوز الحق، **والحمية** المعيبة ما تعدى القصد. فوجدنا اسم **الأنفة** قد يقع محمودا ومذموما وما وجدنا اسم العصبية ولا اسم السرف يقع أبدا إلا مذموما «٤» وإنما يسر باسم السرف جاهل لا علم له، أو رجل إنما يسر به لأن أحدا لا يسميه مسرفا، حتى يكون عنده قد جاوز حد الجود، وحكم له بالحق، ثم أردفه بالباطل. فإن سر من غير هذا الوجه، فقد شارك المادح في الخطأ، وشاكله في وضع الشيء في غير موضعه.." (١)

"أظهر لأعدائك من مقاتلهم. وقالوا: «الفرار بقراب أكيس» ، وقال أبو الأسود: «ليس من العز أن تتعرض للذل، ولا من الكرم أن تستدعي اللؤم» . ومن أخرج ماله من يده افتقر، ومن افتقر فلا بد له أن يضرع، والضرع «١» لؤم. وإن كان الجود شقيق الكرم، **فالأنفة** أولى بالكرم. وقد قال الأول: «اللهم لا تثر لي ماء سوء فأكون أمرأ سوء» . وقد قال الشاعر:

واخط مع الدهر إذا ما خطا ... واجر مع الدهر كما يجري

وقد قال الآخر:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع ... كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع «٢»

وقد صدق قول القائل: «من احتاج اغتفر، ومن اقتضى تجوز «٣» » ، وقيل لديسموس «٤» : «تأكل في السوق» ؟ قال: «إن جاع ديسموس في السوق أكل في السوق» ، وقال: «من أجدب انتجع، ومن جاع خشع» ، وقال:

«احذروا نفار النعمة فإنها نوار. وليس كل شارد بمردود، ولا كل ناد بمصرود «٥» » وقال علي بن أبي طالب: «قل ما ادبر «٦» شيء فاقبل» . وقالوا:." (٢)

---

(١) البخلاء للجاحظ الجاحظ ص/٢٢٥

(٢) البخلاء للجاحظ الجاحظ ص/٢٤٥

"ولا قال أحد منهم إن عبد الله بن عمر كان أرقش، وهو الذي سماه العجل، وكان شديد الأدمة، أتاه ذلك من قبل أخواله آل مظعون [١] .

ومن العجب خبر ضبر الأعمش [٢] مع أبي حنيفة وسفيان، وهذان من المرجئة والأعمش من الغالية.

وقال ابن عنقاء الفزاري [٣] في المرقع بن ذي الرأسين [٤] ، وهو أبو شوال بن المرقع:

فقلت لشوال توق ذبابه ... ولا تحم أنفا أن يخيم مرقع [٥]

وقال أبو عاصم في أيمن بن خريم [٦] فيما أظن:

فأرغم الله أنفا أنت حامله ... وزاد جلدك في تبقيعه بقعا

جلد تسربل ثوب الذل ظاهره ... واستبطن اللؤم حتى ضاق فانصدعا

---

[١] أمه زينب بنت مظعون الحمحية. الإصابة ٤٨٢٥، وجمهرة ابن حزم ١٥٢، والمعارف ٧٩.

[٢] الضبر: الجمع، ومنه الإضبارة للحزمة من الصحف. وضبر الفرس: جمع قوائمه ليثب.

[٣] هو قيس بن بجرة، يعرف بأمه عنقاء، ومو شاعر فحل من فحول غطفان، وهو أحد بني لأي بن عصيم بن شمخ بن فزارة. قال المرزباني: عاش في الجاهلية دهرا، وأدرك الإسلام كبيرا وأسلم، وله مع عامر بن الطفيل خبر. وانظر المؤتلف ١٥٨، ومعجم المرزباني ٣٢٣، والإصابة ٧٢٨٥، والسمط ٤٥٣.

[٤] ذو الرأسين هذا اسمه خشين بن لأي بن عصيم بن شمخ بن فزارة. جمهرة ابن حزم ٢٥٩.

[٥] حمى أنفه: أخذته **الحمية**، وهي **الأنفة** والغيرة. وفي حديث معقل بن يسار: «فحمى من ذلك أنفا» . وخام يخيم: جبن وتراجع.

[٦] سبقت ترجمته في ص ٩١.." (١)

"وناس سلموا من الهجاء بالخمول والقلة، كما سلمت غسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم، وابتليت الحبطات لأنها أنبه منها شيئا.

والنباهة التي لا يضر معها الهجاء مثل نباهة بني بدر وبني فزارة، ومثل نباهة بني عدس بن زيد وبني عبد الله بن دارم، ومثل نباهة الديان بن عبد المدان وبني الحارث بن كعب: فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا خامل جدا أو نبيه جدا.

وقد هجيت فزارة بأكل أير الحمار، وبكثرة شعر القفا، لقول الحارث بن ظالم:

---

(١) البرصان والعرجان والعميان والحولان الجاحظ ص/١١٩

فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقابا

ثم افتخر مفتخرهم بذلك ومدحهم به الشاعر، قال مزرد بن ضرار:

منيع بين ثعلبة بن سعد ... وبين فزارة الشعر الرقاب

فما من كان بينهما بنكس ... لعمرك في الخطوب ولا بكاب «١»

وأما قصة أير الحمار فإنما اللوم على المطعم لرفيقه ما لا يعرفه. فهل كان على حذف الفزاري في حق **الأنفة** أكثر من قتل من أطعمه الجوفان من حيث لا يدري «٢» ؟

فقد هجوا بذلك وشرفهم وافر. وقد هجيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتابا فما ضعضع ذلك منهم، حتى كان قد كتبه لهم.

ولولا الربيع بن خثيم، وسفيان الثوري ما علم الناس أن في الرباب حيا يقال لهم بنو ثور.

وفي عكل شعر وفصاحة، وخيل معروفة الأنساب، وفرسان في الجاهلية." (١)

"وأقنطهم من الخروج.

والكبر هو الذي زين لإبليس ترك السجود، ووهمه شرف **الأنفة**، وصور له عز الانتقاض، وحبب إليه المخالفة، وآنسه بالوحدة والوحشة، وهون عليه سخط الرب، وسهل عليه عقاب الأبد، ووعده الظفر، ومناه السلامة، ولقنه الاحتجاج بالباطل، وزين له قول الزور، وزهده في جوار الملائكة، وجمع له خلال السوء، ونظم له خلال الشر، لأنه حسد والحسد ظلم، وكذب والكذب ذل، وخدع والخديعة لؤم. وحلف على الزور، وذلك فجور. وخطأ ربه، وتخطئة الله جهل، وأخطأ في جلي القياس وذلك غي، ولج واللجاج ضعف. وفرق بين التكبر والتبدي. وجمع بين الرغبة عن صنيع الملائكة وبين الدخول في أعمال السفلة.

واحتج بأن النار خير من الطين. ومنافع العالم نتائج أربعة أركان: نار يابسة حارة، وماء بارد سيال، وأرض باردة يابسة، وهواء حار رطب. ليس منها شيء مع مزاوجته لخلافه إلا وهو محي مبق. على أن النار نقمة الله من بين جميع الأصناف، وهي أسرعهن إتلافا لما صار فيها. وأمحقهن لما دنا منها.

هذا كله ثمرة الكبر، ونتاج النية، والتكبر شر من القسوة، كما أن القسوة شر المعاصي. والتواضع خير الرحمة، كما أن الرحمة خير الطاعات.

[٩- الكبر رذيلة تعتري مختلف طبقات الناس]

والكبر معنى ينتظم به جماع الشر، والتواضع معنى ينتظم به جماع الخير، والتواضع عقيب الكبر، والرحمة

---

(١) البيان والتبيين الجاحظ ٣/٢٧٠

عقيب القسوة. فإذا كان للطاعة قدر من الثواب فلتركها وعقيبها، ولما يوازنها ويكايلها، مثل ذلك القدر من." (١)

"[١- مقدمة]

فصل منه: أدام الله لك السلامة، وأسعدك بالنعمة، وختم لك بالسعادة، وجعلك من الفائزين.

فهمت كتاب صاحبك، ووقفت منه على تعد في القول، وحيف في الحكم؛ وسمعت قوله. وهو على كل حال حائر، وطريقه طريقهم، وكتبه تشاكل كتبهم، وألفاظه تطابق ألفاظهم.

وكذلك حالنا وحال صاحب كتابك فيما يسخطه من أمرنا، أني لا أعتذر منه، وأستنكف من الانتساب إليه، بل أستحي من الكتابة، وأستنكف بأن أنسب إليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها، ومن السجع أن يظهر مني، ومن الصنعة أن تعرف في كتبي، ومن العجب بكثير ما يكون مني.

وقديما كره ذلك أهل المروءة **والأنفة**، وأهل الاختيار للصواب والصد عن الخطإ، حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة، أملى كتابا إلى رجل فقال فيه: «لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة» ثم قال: «امح: من كلاب الحرة، واكتب: من الكلاب» . كأنه كره اتصال." (٢)

"عنه، في ترك الحيطة له، والقيام بكل ما احتمله قوله. كما أنه لا عذر له في التقصير عن فساد كل قول خالف عليه، وضاد مذهبه، عند من قرأ كتابه وتفهم أدخاله، لأن أقل ما يزيل عذره ويزيح علته، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه، وأصحر للسانه ومكنه من نفسه، وسلطه على إظهار عورته. فإذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جليسه، فلم يبق إلا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجز عنه.

ومن شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن تحتمل ثقل مؤونتهم في تعريفهم، وأن تتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم.

[٤- الكتاب افضل من صاحبه]

ولم يصن العلم بمثل بذله، ولم يستبق بمثل نشره. على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد **الحمية**. وعند المواجهة يفرط حب الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، **والأنفة** من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الحلية، امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة.

---

(١) الرسائل الأدبية الجاحظ ص/١٣٩

(٢) الرسائل ا لأدبية الجاحظ ص/٢٣٩

وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة؛ لأن المتوحد بقراءتها، والمتفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله.

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويرجح على واضعه بأمور:

منها أنه يوجد مع كل زمان على تفاوت الأعصار، وبعد ما بين الأمصار. وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب. وقد يذهب العالم وتبقى كتبه، ويفنى المعقب ويبقى أثره. ولولا." (١)

"خلقه خير من جديد غيره. وصداقة المتطرف غرور، وملالة الصديق أفن، والعلم بأقدار الذنوب غامض، وحدود الذنوب في العقاب خفية. ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب. والأجرام كثيرة الأشكال، ومتفاوتة في الأقدار. وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه، وإلى معدنه الذي منه نجم، وعشه الذي منه درج، ومغرسه الذي منه نبت، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتترع، وفي النزوع والثبات، وإلى قحته عند التقريع، وإلى حيائه عند التعريض، وإلى فطنته عند الرشق والتورية؛ فإن فضل الفطنة ربما دل على فرط الاكتراث، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام. فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر وغلظ طباع وحدة مرار، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير، أو من طريق [فرط] **الأنفة** وغلبة طباع **الحمية** من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله، وأنه مقصر به مؤخر عن مرتبته، أو كان مبلغا عنه أو مكذوبا عليه، وكان ذلك جائزا عليه غير ممتنع فيه- فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب، وفي هذه المجاري، فليس يقف عليها كريم، [ولا يلتفت لها حليم] .

ولست أسميه بكثرة معروفه كريما حتى يكون عقله غامرا لعلمه، وعلمه غالبا لطبعه، وحتى يكون عالما بما ترك، وعارفا بما أخذ. واسم الحليم جامع للكظم، والقدرة، والفهم.

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء، ولصوب رأيك عالم من الأشراف.

ومتى كانت (علته طبيعة البذاء، وخلقه الشرارة والتسرع، فاقتله قتل العقارب، وادمغه دمغ رؤوس الحيات.." (٢)

---

(١) الرسائل الأدبية الجاحظ ص/٢٤٩

(٢) الرسائل الأدبية الجاحظ ص/٣٣١

"أما ابن عمرو الذي ذكر، فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكى، كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج، فغلب رباح شار الزنجى على الفرات، فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه واستباح عسكره. وأما ابن جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندى. كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره.

ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزعوا إلى الزنج في البسالة **والأنفة**. فذكر خفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس، وابنى شداد: عنترة الفوارس وأخاه هراسة، وسليك بن السلكة. فهؤلاء أسد الرجال، وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأسا، وبهم يضرب المثل.

ومنهم: عبد الله بن خازم السلمى، وبنو الحباب: عمير بن الحباب وإخواته.

وكان أيضا منهم: الجحاف بن حكيم.

وهم أيضا يفخرون برباح أخى بلال وحاله وصلاحه.

ويفخرون بعامر بن فهيرة، بدرى استشهد يوم بئر معونة، فرآه الناس قد رفعه الله بين السماء والأرض، فليس له في الأرض قبر.." (١)

"وملالة الصديق أفن، والعلم بأقدار الذنوب غامض، وحدود الذنوب في العقاب خفية. ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب. والأجرام كثيرة الأشكال، ومتفاوتة في الأقدار. وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه، وإلى معدنه الذي منه نجم، وعشه الذي منه درج، ومغرسه الذي منه نبت، وإلى جهة صاحبه في التتايع والتترع، وفي النزوع والثبات، وإلى قحته عند التقريع، وإلى حيائه عند التعريض، وإلى فطنته عند الرشق والتورية؛ فإن فضل الفطنة ربما دل على فرط الاكتراث، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام. فكل ذنب كان سببه الدالة وضيق صدر وغلظ طباع وحدة مرار، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير، أو من طريق فرط **الأنفة** وغلبة طباع **الحمية** من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله، وأنه مقصر به مؤخر عن مرتبته، أو كان مبلغا عنه أو مكذوبا عليه، وكان ذلك جائزا عليه غير ممتنع فيه." (٢)

"وتفهم أدخاله، لأن أقل ما يزيل عذره ويزيح علته، أن قول خصمه قد استهدف لخصمه، وأصحر للسانه ومكنه من نفسه، وسلطه على إظهار عورته. فإذا استراح واضع الكتاب من شغب خصمه ومداراة

---

(١) الرسائل للجاحظ الجاحظ ١٩٢/١

(٢) الرسائل للجاحظ الجاحظ ٢٣٧/١

جليسه، فلم يبق إلا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجز عنه.

ومن شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن تحتمل ثقل مؤونتهم في تعريفهم، وأن تتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل ما يسدي إليهم.

ولم يصن العلم بمثل بذله، ولم يستبق بمثل نشره. على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد **الحمية**. وعند المواجهة يفرط حب الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، **والأنفة** من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الحلية، امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة.." (١)

"في نسب، ولا يشاكله في صناعة، وعن ذلك قتل الناس بعضهم بعضا، وظلم القوي الضعيف، ومن أجله أهلك الله الأمم بالمسخ والرجف، وبالخسف وبالطوفان، والريح العقيم، وأدخلهم النار، وأقنطهم من الخروج.

والكبر هو الذي زين لإبليس ترك السجود، ووهمه شرف **الأنفة**، وصور له عز الانتقاض، وحبب إليه المخالفة، وآنسه بالوحدة والوحشة، وهون عليه سخط الرب، وسهل عليه عقاب الأبد، ووعده الظفر، ومناه السلامة، ولقنه الاحتجاج بالباطل، وزين له قول الزور، وزهده في جوار الملائكة، وجمع له خلال السوء، ونظم له خلال الشر؛ لأنه حسد والحسد ظلم، وكذب والكذب ذل، وخدع والخديعة لؤم. وحلف على الزور، وذلك فجور. وخطأ ربه، وتخطئة الله جهل، وأخطأ في جلي القياس وذلك غي، ولج واللجاج ضعف. وفرق بين التكبر والتبدي. وجمع بين الرغبة عن صنيع الملائكة وبين الدخول في أعمال السفلة.

واحتج بأن النار خير من الطين. ومنافع العالم نتائج أربعة." (٢)

"أدام الله لك السلامة، وأسعدك بالنعمة، وختم لك بالسعادة، وجعلك من الفائزين.

فهمت كتاب صاحبك، ووقفت منه على تعد في القول، وحيف في الحكم؛ وسمعت قوله. وهو على كل حال حائر، وطريقه طريقهم، وكتبه تشاكل كتبهم، وألفاظه تطابق ألفاظهم.

وكذلك حالنا وحال صاحب كتابك فيما يسخطه من أمرنا، أني لا أعتذر منه، وأستنكف من الانتساب إليه، بل أستحي من الكتابة، وأستنكف بأن أنسب إليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها، ومن

---

(١) الرسائل للجاحظ الجاحظ ١٥٣/١

(٢) الرسائل للجاحظ الجاحظ ١٨٠/٤

السجع أن يظهر مني، ومن الصنعة أن تعرف في كتبي، ومن العجب بكثير ما يكون مني.

وقديما كره ذلك أهل المروءة **والأنفة**، وأهل الاختيار للصواب والصد عن الخطأ. حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة، أملى كتابا إلى رجل فقال فيه: " لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من." (١)

"على إظهار عورته. فإذا استراح شغب المنازع، ومداراة المستمع لم يبق إلا أن يقوى على خلافه أو يعجز عنه.

ومن شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم: أن يحتمل ثقل مؤنتهم وتعريفهم، وأن يتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل من يسدي إليهم.

ولن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره.

وأعلم أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يقوى التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتنبعث **الحمية**. وعند المزاحمة تشتد الغلبة وشهوة المباهاة، والاستحياء من الرجوع، **والأنفة** من الخضوع. وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين، وإذا كانت القلوب على هذه الصفة، وبهذه الحالة، امتنعت من المعرفة وعميت عن الدلالة.

وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة؛ لأن المتوحد بقراءتها، والمتفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله ولا يعاز خصمه.

و الكتاب قد يفضل ويرجح على واضعه بأمور:." (٢)

"نفسها، فكيف بمن ذهب أبوها وأخوها، فبقي بعلها؟ أفتحب أن تهلكه؟

على أن مثلك، في رداءة همتك، وخبث نيتك، مثل الغراب والحمامة.

قال الملك: وما كان من حديثهما؟ قالت: «زعموا أن غرابا ألف مطبخا لبعض الملوك، فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئا، فظنوا أن الغراب أخذه لقلة وفائه، ولؤم جوهره، فطردوه عن مطبخهم، وقالوا: ما نرجو من هذا الغراب، وهو من الطيور التي تعاف، ويتطير منها؟؟ فأفشى ذلك الغراب أمره إلى حمامة قد كان بينهما معرفة، وفزع إلى رأيها، وأخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب. فقالت له الحمامة:

انطلق بي حتى تريني هذا المطبخ. فانطلق حتى أتى سطح المطبخ، فقالت الحمامة: إني أرى هذا البيت

---

(١) الرسائل للجاحظ الجاحظ ٢٥٣/٤

(٢) الرسائل للجاحظ الجاحظ ٢٩٦/٤

ليس فيه موضع مدخل، فاحفر لي بمنقارك قدر ما أدخل، فإن منقاري يضعف عن ذلك. فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره، فجعل لها خازن المطبخ موضعا تأوي إليه، فلبثت في ذلك البيت قريرة عين، فنادها الغراب: «ما هكذا قدرت فيك» . فقالت الحمامة: «لو وفيت لك، حل بي غدرك، وإن القوم عرفوا وفائي، وحسن جواري، وعرفوا غدرك، وقلة وفائك، ونكث عهدك» .

فهذا مثلي ومثلك، يا ابنة السائس! إني لو وفيت لك، أرداني غدرك، وقتلني مكرك» ! قالت ابنة السائس: «أيتها السيدة! إن الذي سمعت مني، كان لشدة **الأنفة**، فأردت أن أنفي عن نفسي الذي أردت من إنكاحي خادمك فلانا» .

قالت الهندية: «لا بد من ذلك» . فقالت ابنة السائس: «من اعتاد معالي الأمور، لم تطب نفسه بأسافلها، الآن استعذبت الموت» ، فعمدت إلى سم كان معها، فقذفته في فيها، فخرت ميتة، ووفت الهندية لزوجها، فأفلحا.

ومنهن «شيرين» ، امرأة أبرويز، فإن شيرويه بن أبرويز، لما قتل أباه، وتوطد له الملك، بعث إلى شيرين يدعوها إلى نفسه، فامتنعت عليه،." (١)

"(بسم الله الرحمن الرحيم) وبه ثقتي

١-[مؤلفات الجاحظ والرد على من عابها]

جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة.

ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوب في أمرك، وأدل على مقدار وزنك، وعلى الحال التي وضعت نفسك فيها، ووسمت عرضك بها، ورضيتها لدينك حظا، ولمروءتك شكلا، فقد انتهى إلي ميلك على أبي إسحاق، وحملك عليه، وطعنك على معبد، وتنقصك له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه، وفي ذكر منافع الكلب ومضاره، والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومن تتبعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما. ثم عبتني بكتاب حيل اللصوص «١» ، وكتاب غش الصناعات، وعبتني بكتاب الملح والطرف «٢» ، وما حر من النوادر وبرد، وما عاد بارده حارا لفرط برده حتى أمتع بأكثر من إمتاع الحار، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضتهم للسمحاء، والقول في الفرق بين

---

(١) المحاسن والأضداد الجاحظ ص/٢٢٨

الصدق إذا كان ضارا في العاجل، والكذب إذا كان نافعا في الآجل، ولم جعل الصدق أبدا محمودا، والكذب أبدا مذموما، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في **الحمية والأنفة**، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الاكتراث لسوء القالة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيد فيه." (١)

"الرجوع، **والأنفة** من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من التعرف، وعميت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بدرسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب «١» .

٥١-[الكتاب قد يفضل الكاتب] «٢»

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور:

منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته. وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره.

ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب ح كمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيما، والخاطر فاسدا، ولكل الحد وتبلد العقل.

٥٢-[أشرف الكتب]

وأكثر من كتبهم نفعا، وأشرف منها خطرا، وأحسن موقعا، كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف، والمهارق «٣» والمصاحف. وقال الله عز وجل الم ذلك الكتاب لا ريب فيه

«٤» . وقال ما فرطنا في الكتاب من شيء

---

(١) الحيوان الجاحظ ١/٧

» .

ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب.." (١)

"٧٣- عمرو بن شأس [١]

٧١٥* هو أبو عرار؛ وفيه يقول عمرو لامرأته [٢] :

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد ... عرارا بنى بالهوان فقد ظلم [٣]

فإن كنت منى أو تريدين صحبتى ... فكونى له كالسمن ربت له الأدم [٤]

وإلا فبينى مثل ما بان راكب ... تيمم خمسا ليس فى سيره أمم [٥]

وإن عرارا إن يكن ذا شكيمة ... تقاسينها منه فما أملك الشيم [٦]

وإن عرارا إن يكن غير واضح ... فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم [٧]

٧١٦* ووفد على عبد الملك بن مروان [٨] وفد أهل الكوفة، فلما دخلوا

---

[١] ترجمته فى الجمحى ٤٦- ٤٧ والمرزبانى ٢١٢- ٢١٣ واللآلى ٧٥٠- ٧٥١ والأغانى ١٠: ٦٠- ٦٣ وقد مضى له ذكر فى تعليقنا على بيت للمتلمس ١٧٨. وهو عمرو ابن شأس الأسدى قال الجمحى: «كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام، وهو أكثر طبقته شعرا، وكان ذا قدر وشرف ومنزلة فى قومه» . وأسلم فى صدر الإسلام وشهد القادسية.

[٢] من قصيدة ذكر بعضها فى الأغانى، والحماسة ١: ٢٧٢- ٢٧٣ من شرح التبريزى.

[٣] عرار: بكسر العين، وضبط فى اللسان ٦: ٢٣٦ بفحها، وهو خطأ. س ب «عرارا لعمرى بالهوان» وهو يوافق رواية الكامل والحماسة والأغانى وغيرها.

[٤] البيت فى اللسان ١: ٣٩٠ وقال: «أراد بالأدم النحى، يقول: لزوجته: كونى لولدى عرارا كسمن رب أديمه، أى طلى برب التمر، لأن النحى إذا أصلح بالرب طابت رائحته ومنع السمن من أن يفسد طعمه أو ريحه» .

[٥] الخمس، بكسر الخاء: من أظماء الإبل، وهو أن ترد الإبل الماء اليوم الخامس. يريد: وإلا ففارقينى وليكن سيرك سير راكب تكلف ورود الماء للخمس. الأمم: القرب والقصد. أراد: أنه على غير قصد فيكون أشقى له.

---

(١) الحيوان الجاحظ ٥٩/١

[٦] الشكيمة: شدة النفس والأنفة والإباء، وأصله من شكيمة اللجام. والبيت فى اللسان ١٥: ٢١٧.

[٧] الواضح: الأبيض اللون الحسنة. الجون: الأسود، العمم: التام أو الطويل. والبيت فى اللسان ١: ٣٩٠ و ٦: ٢٣٦ و ١٥: ٣٢١.

[٨] القصة فى الكامل ٢٣٤- ٢٣٥ بمعناها.." (١)

"لقد كان اخشنوار حسن المحاورة. وما رأيت للفرس الذي كان تحته نظيرا في الدواب فإنه لم يزل قوائمه ولم يرفع حوافره عن موضعها ولا صهل ولا أحدث شيئا يقطع به المحاورة في طول ما تواقفنا. وقال اخشنوار لأصحابه: لقد واقفت فيروز كما علمتم وعليه السلاح كله فلم يحرك رأسه ولم ينزع رجله من ركابه ولا حنا ظهره ولا التفت يمينا ولا شمالا، ولقد توركت أنا مرارا وتمطيت على فرسي وتلفت إلى من خلفي ومددت بصري أمامي وهو منتصب ساكن على حاله، ولولا محاورته إياي لظننت أنه لا يبصرني. وإنما أرادا بما وصفا من ذلك أن ينتشر هذان الحديثان في أهل عسكريهما فيشغلوا بالإفاضة فيهما عن النظر فيما تذاكراه. فلما كان في اليوم الثاني أخرج اخشنوار الصحيفة التي كتبها لهم فيروز، فرفعها على رمح لينظر إليها أهل عسكر فيروز فيعرفون غدره وبغيه ويخرجون من متابعته، فانتقض عسكر فيروز واختلفوا وما لبثوا إلا يسيرا حتى انهزموا وقتل منهم خلق كثير وهلك فيروز، فقال اخشنوار: لقد صدق الذي قال: لا راد لما قدر، ولا أشد إحالة لمنافع الرأي من الهوى واللجاج، ولا أضيع من نصيحة يمنحها من لا يوطن نفسه على قبولها والصبر على مكروهها، ولا أسرع عقوبة ولا أسوأ عاقبة من البغي والغدر، ولا أجلب لعظيم العار والفضوح من إفراط الفخر والأنفة.

وقال أبو اليقظان: لما خرج شبيب «١» بن يزيد بن نعيم الخارجي بالموصل بعث إليه الحجاج قائدا فقتله ثم قائدا فقتله كذلك حتى أتى علي." (٢)

"وقال الشاعر «١» : [طويل]

شفاء العمى طول السؤال وإنما ... تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقال بعضهم: خير خصال المرء السؤال. ويقال: إذا جلست إلى عالم فسل تفقها ولا تسل تعنتا. قال الحسن. من استتر عن الطلب بالحياء لبس للجهل سرباله، فقطعوا سرابيل الحياء، فإنه من رق وجهه رق علمه؛ وقال:

---

(١) الشعر والشعراء الدينوري، ابن قتيبة ١/٤١٥

(٢) عيون الأخبار الدينوري، ابن قتيبة ١/٢٠١

إني وجدت العلم بين الحياء والستر. وقال الخليل؛ منزلة الجهل بين الحياء **والأنفة**. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والحكمة ضالة المؤمن فليطلبها ولو في يدي أهل الشرك. وقال عروة بن الزبير لبنيه: تعلموا العلم فإن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين، فيا سوءتا ماذا أقبح من جهل بشيخ! وكان يقال: علم علمك من يجهل، وتعلم ممن يعلم، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت.

قيل لبزرجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ فقال: ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار. وقال الحسن:

طلب العلم في الصغر كالنقش في الحجر، وطلب العلم في الكبر كالنقش على الماء. ويقال: التفقه على غير علم كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح. وفي الحديث المرفوع «ارحموا عزيزا ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين جهال» ويقال: أحق الناس بالرحمة عالم يجوز عليه حكم جاهل.

قال المسيح عليه السلام: يا بني إسرائيل، لا تلقوا اللؤلؤ إلى الخنازير." (١)

"أنفة عقيل بن علفة

وكان عقيل بن علفة من المغيرة **والأنفة** على ما ليس عليه أحد علمناه، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه، وكانت لعقيل إليه حاجات فقال: أما إذ كنت فاعلا فجنبني هجاءك. وخطب إليه ابنته إبراهيم بن هشام بن اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة–وهو خال هشام بن عبد الملك ووالي المدينة، وكان أبيض شديد البياض– فرده عقيل وقال:

رددت صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

وكانت حفصة بنت عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله قد ميت عنها، فخطبها جماعة من قريش، أحدهم عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وأحدهم إبراهيم بن هشام، فكان أخوها محمد بن عمران، إذا دخل إلى إبراهيم بن هشام أوسع له وأنشده:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

أحبك أن نزلت جبال حسمى ... وأن ناسبت بثينة من قريب

---

(١) عيون الأخبار الدينوري، ابن قتيبة ١٣٩/٢

وهذا الشعر لجميل بن عبد اللہ بن معمر الذري، فأما جميل بن معمر الجمحي فلا نسب بينه وبين معمر، أي ليس بينه وبين أب آخر، وكانت له صحبة، وكان خالصا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.." [1]

"وقال زياد الأعجم١ "من الطويل":

ونبئتهم يستنصرون بكاهل ... وللؤم منهم كاهل وسنام٢

وفي هذا البيت تجنيس واستعارة. وقال رجل من بني عبس "من البسيط":

أبلغ لديك بني سعد مغلغلة ... إن الذي بيننا قد مات أو دنفا

وذاكم أن ذل الجار حالفكم ... وأن أنفكم لا يعرف الأنفا٣

وقال مسكين٤ الدارمي "من البسيط":

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهية ... إذا الكواكب كانت في الدجى سرجا٥

وقال حيان بن ربيعة الطائي "من الوافر"٦:

---

١ شاعر مشهور جزل الشعر فصيح الألفاظ، مات بخراسان عام ٨٥هـ.

٢ كاهل الأول اسم، والثاني المراد به الحارك وهو ما بين الكتفين، السنام واحد أسنمة الإبل، نبئ: خبر.

٣ المغلغلة: الرسالة، دنف المريض: ثقل. حالفه: صار حليفا له. الأنف بفتح النون والأنفة: الاستنكاف والعزة.

٤ شاعر إسلامي، جزل الشعر مطبوعه، اتصل بمعاوية ويزيد، وتوفي في آخر القرن الأول، ولقب المسكين ببيت شعر لہ "٢٥٦/ ٢ الخزانة نشر الأستاذ محيي الدين".

٥ الخرق: الصحراء الواسعة. الخرقاء: الناقة تخرق الأرض أي: تجوبها. سرج: جمع سراج.

٦ ذكره أبو تمام في حماسته وروى البيت: ذوو حد، وذكره المؤتلف "ص٩٨".." [2]

"له على استعمال آلة وأداة، إلا أنه أقرب الآلات والأدوات إلى هذا الفاعل. ويرى أن يجتهد الإنسان بالطب الجسداني وهو الطب المعروف، والطب الروحاني وهو الإقناع بالحجج والبراهين في تعديل أفعال هذه النفوس لئلا تقصر عما أريد بها ولئلا تجاوزه. والتقصير في فعل النفس النباتية أن تغدو ولا تنمى ولا تنشئ بالكمية والكيفية المحتاجة إليها جملة الجسد. وإفراطها أن تتعدى ذلك وتجاوزه حتى يخصب

---

(١) الكامل في اللغة والأدب محمد بن يزيد المبرد ٣٨/٢

(٢) البديع في البديع لابن المعتز ابن المعتز ص/١١٠

الجسد فوق ما يحتاج إليه ويغرق في اللذات والشهوات. وتقصير فعل النفس الغضبية أن لا يكون عندها من الحمية والأنفة والنجدة ما يمكنها أن تزم وتقهر النفس الشهوانية في حال اشتهائها حتى تحول دونها ودون شهواتها، وإفراطه أن يكثر فيها الكبر وحب الغلبة حتى تروم قهر الناس وسائر الحيوان ولا يكون لها هم إلا الاستعلاء والغلبة كالحالة التي كان عليها الاسكندر الملك. وتقصير فعل النفس الناطقة أن لا يخطر ببالها استغراب هذا العالم واستكباره والفكر فيه والتعجب منه والتطلع والتشوق إلى معرفة جميع ما فيه وخاصة علم جسدها الذي هي فيه وهيئته وعاقبته بعد موته، فإن من لم يستكبر ويستغرب هذا العالم ولم يتعجب من هيئته ولم تتطلع نفسه إلى معرفة جميع ما فيه ولم يهتم ويعن بتعرف ما تؤول إليه الحال بعد الموت فنصيبه من النطق نصيب البهائم لا بل الخفاش والحيتان والخشار التي لا تتفكر ولا تتذكر البتة. وإفراطه أن يميل به ويستحوذ عليه الفكر في هذه الأشياء ونحوها حتى لا يمكن النفس الشهوانية أن تنال من الغذاء وما به يصلح الجسم من النوم." (١)

"الظريف استعماله، وذكر ما يجب عليه تركه، وما اخترعنا في كتابنا هذا علما من عند أنفسنا، يجب لنا به الامتحان، ولا يلحقنا فيه عيب من عاب، إن عاب، ولا على أنه لا يطلب لفظه، ولا يمتنع عند معايبهم إلا معيب. وأنشدنا أحمد بن يحيى قال: أنشدني ابن السكيت:

رب غريب ناصح الجيب، ... وابن أب متهم الغيب

ورب عياب له منظر ... مشتمل منه على العيب

ولكنا ألفناه وجمعناه من أقاويل جماعة من الظرفاء والمتظرفات، وأهل الأدب والمروات، سمعناهم، ورأيناهم يتكلمون به، ويستعملونه، فأحببنا أن نجمع ذلك، ونجعله لهوا لمن أراد سماعه، وعلما لمن أراد اتباعه، وهديا لمن أراد رشده، ومنارا لمن أراد قصده، وطيبا لمن أراد شمه، وأدبا لمن أراد فهمه. وكتابنا هذا روضة تتنزه فيها العقول، وعقود جوهر زينتها الفصول، إذ لم نخله من أخبار طريفة، وأشعار ظريفة، وأشياء نمت إلينا من زي ظرفاء الناس في الطعام، والشراب، والعطر، واللباس، ومذهبهم فيما اجتنبوه من ذميم الأفعال، واستحسنوه من جميل الشيم والأخلاق، وسأشرح ذلك وأبينه بابا بابا لتقف عليه، إن شاء الله.

سنن الظرف

اعلم أن عماد الظرف، عند الظرفاء وأهل المعرفة والأدباء، حفظ الجوار، والوفاء بالذمار، والأنفة من العار،

---

(١) رسائل فلسفية للرازي الرازي، أبو بكر ص/٢٩

وطلب السلامة من الأوزار، ولن يكون الظريف ظريفا، حتى تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة، والبلاغة، والعفة، والنزاهة.." (١)

"بين معاوية وابن الأشعث في الدخول على الملوك

: ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أموركم نلي ادابكم، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه.

وقال همام الرقاشي «١» :

أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة ... وفي العتاب حياة بين أقوام

قدمت قبلي رجالا ما يكون لهم ... في الحق أن يلجوا الأبواب قدامى

لو عد قبر وقبر كنت أقربهم ... قربى وأبعدهم من منزل الذام

حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت ... بباب قصرك أدلوها بأقوام «٢»

لمعاوية في آذنه

: قيل لمعاوية: إن آذنك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه؟

إن المعرفة لتنفع في الكلب العقور والجمل الصئول «٣» ؛ فكيف في رجل حسيب ذي كرم ودين؟

للحكماء في الوصول إلى المراد

: وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالوا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.." (٢)

"القوام بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده، أم من شغله يومه عن غده؟ فإن قيل له: لا يخدع عن أخباره؛ والغنى فيمن قل شرهه واشتد انفه، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده، قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له

---

(١) الموشى = الظرف والظرفاء الوشاء ص/٥١

(٢) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي ٦٥/١

ضد ذلك قال: نار كانة تنتظر موقدا، وأضغان مزملة «١» تنتظر مخرجا، اقصدوا له، فلا حين أحين من سلامة مع تضييع، ولا عدو أعدى من أمن أدى إلى اغترار.

وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد

: كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ، ثم نزلت بابل، ثم نزل أردشير ابن بابك فارس، فصارت دار مملكتهم، وصار بخراسان ملوك الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك فارس، وكان غزاهم؛ فكاده ملك الهياطلة بأن عمد إلى رجل ممن عرفه بالمكايدة وحسن الإدارة، فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعا قبيحا ونكل به تنكيلا شديدا. ثم أرسله وقد واطأه «٢» على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز في طريقه، فأظهر النزوع «٣» إليه والاستنصار به من عظيم ما ناله. فلما رأى فيروز ما به من التوقيع والنكاية فيه، وثق به واستنام إليه. فقال: أنا أدلك أيها الملك على غرة القوم وعورتهم وأعلمك مكان غفلتهم. فسلك به سبيل مهلكة معطشة؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثر أصحابه، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه، وأعطاهم موثقا لا يغزوهم أبدا، ونصب لهم حجرا جعله حدا بينه وبينهم، وحلف لهم ألا يجاوزه هو ولا جنوده، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته؛ فمنوا عليه وأطلقوه ومن معه.

فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفة مما أصابه، فعاد إلى غزوهم ناكثا لعهده غادرا بذمته، إلا أنه تلطف في ذلك بحيلة ظنها مجزئة في أيمانه، فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فيل في مقدمة عسكره، وتأول في ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه." (١)

"وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته، الخوف مفردا والشر مجردا، ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض «١» من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكره، ويذعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تورث النفاق، وتعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان. قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش، إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى

---

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي ١/١١٤

ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب؛ ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولا بديعا، وخالفت به أهل بيتك جميعا، والمرء متهم بما قال، وظنين بما ادعى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة، فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخولة لا تعلن؛ والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده، وموضع ميسمه «٢» ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء؛ فالرأي للمهدي- وفقه الله- أن يفر «٣» باطن أمرهم فر المسنة، ويمخض ظاهر حالهم." (١)

"قال صالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك؛ وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم، ذو دين فاضل ورأي كامل، وتدبير قوي، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة، مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله ما تحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك. لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان- أيها المهدي- قوم ذو وعزة ومنعة، وشياطين خدعة زرع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة «١» ، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذلهم، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفطمون إلا بالقهر؛ وإن ولى المهدي عليهم وضيعالم تنقد له العظماء، وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحا يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم «٢» ، بلا أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم،

---

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي ١/١٦٩

ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبر والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي- وفقه الله- فاطما عاداتهم ولا قارعا صفاتهم «٣» بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك." [١]

".. وإنما قوله فيها رجس، كقوله تعالى: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم «١» أي كفرا إلى كفرهم.

وأما منافعها التي ذكرها الله تعالى في قوله: يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما

«٢» فإنها كثيرة لا تحصى: فمنها أنها تدر الدم، وتقوي المعدة، وتصفي اللون، وتبعث النشاط، وتفتق اللسان، ما أخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار، فإذا جاوز ذلك عاد نفعها ضررا.

وقال ابن قتيبة في كتاب الأشربة: كانت بنو وائل تقول: الخمر حبيبة الروح، ولذلك اشتق لها اسم من الروح، فسميت راحا، وربما سميت روحا. وقال إبراهيم النظام:

ما زلت آخذ روح الدن في لطف ... وأستبيح دما من غير مذبوح «٣»

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي ... والدن مطرح، جسم بلا روح

وقد تسمى دما، لأنها تزيد في الدم؛ قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

مزجنا دما من كرمة بدمائنا ... فأظهر في الألوان منا الدم الدم

قال ابن قتيبة: وحدثني الرياشي أن عبيدا راوية الأعشى قال: سألت الأعشى عن قوله:

وسلافة مما تعتق بابل ... كدم الذبيح سلبتها جريالها «٤»

فقال: شربتها حمراء، وبلتها بيضاء. يريد أن حمرتها صارت دما.

ومن منافع الخمر أنها تزيد في القوة، وتولد الحرارة، وتهيج **الأنفة**، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان.." [٢]

"فقال: أيها الملك، لا تشعر قلبك الجزع على ما فات، فيغفل ذهنك عن الاستعداد لما يأتي، وناضل عوارض الحزن **بالأنفة** عن مضاهاة أفعال أهل وهي العقول، فإن العزاء لحزماء الرجال، والجزع لربات الحجال، ولو كان الجزع يرد فائتا، أو يحيي تالفا، لكان فعلا دنيئا، فكيف به وهو مجانب لأخلاق ذوي

---

(١) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي ١٧١/١

(٢) العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي ٧٤/٨

الألباب! فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت فيه الأرذلون، وصن قدرك عما يركبه المخسوسون، وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام، ضلة كأحلام النيام: المقاول والأقيال: دون الملوك العظماء، ووقصه: كسره، ويؤسونه: يعزونه، وأصله، أن يقال: لك أسوة بفلان وفلان، والجلل: الصغير، والجلل: الكبير، وهو من الأضداد، والبدة: النصيب، واستبد به أي جعله نصيبه، والشوى: الهين اليسير، والشوى أيضا: رذال المال، والمناضلة: المراماة.

والمضاهاة: المشاكلة، والتهافت: التتابع.

وقرأنا على أبي بكر بن دريد:

حبسن بين رملة وقف ... وبين نخل هجر الملتف

ثمت أصدرن بغير كف

هذه إبل خرجت للميرة فرجعت بغير كف من طعام

خطبة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

وحدثنا أبو بكر بن الأنبارى، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أحمد بن عبيد، قال: حدثنا الزنادي، قال: يقال: إن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، تكلم بهذا الكلام في خطبته: ما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما سيزول! وإنما الشيء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله! إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن! وإنما نتقلب في قدرة الطالب، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غدا، وأكبر خيبة الخائب فيه! والسلام.." (١)

"١٣٧ رقعة إلى رجل تزوجت أمه

أملى علي أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال الكاتب، الصابئ «١» ، نسخة رقعة إلى رجل زوج أمه، كتبها إليه:

قد جعلك الله، وله الحمد، من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وصحة الدين، وخلوص اليقين، كما أنك لا [١٧٦] تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره، وتأدى إلينا من إيقاعك

(١) أمالي القالي أبو علي القالي ٢/١٠٠

العقد، بين الوالدة– نفس الله لها في مدتك– وبين فلان، ما علمنا أنك بين طاعة للديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها، فإنك جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت خد **الحمية** فيها، وأسخطت نفسك لرضاها، وعصيت هواك لرأيها، فنحن نهنئك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وأن يجعلها أبدا معك، فيما شئت وأبيت، وتجنبت وأتيت، والسلام.." (١)

"(ولحده التصميم حين تلاحقت ... أقرانه ولشأوه التقديم)

ومن أعجب ما جاء في التهنئة والتعزية قول عبد الملك بن صالح:

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال قيل للرشيد إن عبد الملك بن صالح يعد كلامه فأنكر الرشيد ذلك وقال بل هو طبع فيه حتى جلس يوما ودخل عبد الملك فقال للفضل قل له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن ففعل الفضل ذلك فدنا عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين سرك الله فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجعلها واحدة بواحدة ثواب الشاكر وأجر الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي زعموا أنه يصنع الكلام ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة. وقلت في تهنئة بمولود:

(فاستقبل الخير في نجيب ... عما يعيب الورى نزيه)

(شمس نهار وبدر ليل ... يملك أبصار ناظريه)

(يملأها بهجة إذا ما ... كشف عن وجهه الوجيه)

(رزقته كاملا سويا ... تكثر علات عائبيه)

(جنى لذيذ المذاق حلو ... يقرب من كف مجتنيه)

(وعن قليل يصير شهما ... يشقى به جد كاشحيه)

(ألا فعش في ضمان خير ... حتى ترى الشيب من بنيه)

وقلت في تهنئة بإملاك:

(تجلى لك الأملاك عما تحبه ... فإنك قد فصلت بالتبر جواهرا)

(فصيرته للدهر عقدا مفصلا ... وطيرته في الأفق نشرا معطرا)

(هو اليمن لم يعدمك محبوبة دنت ... ومكروهة شطت وصعبا تيسرا)

ومن عجائب المعاني تهنئة لأبي إسحاق الصابئ مشوبة بالعقد لرجل زوج أمه: قد جعلك الله وله الحمد

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة التنوخي، المحسن بن علي ٢١١/٣

من أهل التحصيل والرأي الأصيل وخلوص اليقين فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره ويأوي." (١)

"فإن صفق وجهه وقال: نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه، ومن تخنث وتليث لم يكن رجلا ولا امرأة، ولا يكون أبا ولا أما، وهذا كما نرى.

ونرجع فنقول: ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياذ من التقوى، ولا عماد من الصبر، ولا دعامة من **الأنفة**، ولا اصطبار على المرارة.

وقد بلينا بهذا الدهر الخالي من الربانيين الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سعتهم، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا، ويحرصون على ودائع الأجر المؤجل في الأخرى، ويتلذذون بالثناء، ويهتزون للدعاء، وتملكهم الأريحية عند مسألة المحتاج، وتعتريهم الهزة معها والابتهاج وذلك لعشقهم الثناء الباقي، والصنيع الواقي، ويرون الغنيمة في الغرامة، والربح في البذل، والحظ في الإيثار، والزيادة في النقص، أعني بالزيادة: الخلف المنتظر من الله، وبالنقص: العطاء، ورأيت الناس يعيبون ابن العميد حين قال: أنا أعجب من جهل الشاعر الذي قال:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

قال: ولو كان هذا صحيحا كان لا ينبغي أن يكتسب المال، لأنه ليس في ترك كسبه أكثر من إخراجه بالإنفاق. هذا لقولهم بحكمته وعقله وتحصيله، وصواب الجاهل لا يستحسن كما يستقبح خطأ العاقل.

نعم، وكانوا إذا ولوا عدلوا، وإذا ملكوا أفضلوا، وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا، وإذا عالوا صبروا، وإذا نالوا شكروا، وإذا أنفقوا واسوا، وإذا امتحنوا تأسوا، وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب «١» مأمونة، وإلى ديانات قوية، وأمانات ثخينة، وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة، ومع عباد الله معاملة جميلة، ورحمة واسعة ومعدلة فاشية، وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة، وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة وربحهم من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة، وكانوا إذا تلاقوا تواصوا بالخير، وتناهوا عن الشر، وتنافسوا في اتخاذ الصنائع، وادخار

---

(١) ديوان المعاني العسكري، أبو هلال ١/١٠٠

البضائع (أعني صنائع الشكر، وبضائع الأجر) .

فذهب هذا كله، وتاه أهله، وأصبح الدين وقد أخلق لبوسه، وأوحش مأنوسه،." [1]

"إلى شيء معتاد في بيت بيت، إلى شيء خاص بشخص شخص وإنسان إنسان، وهذا التحول من أمة إلى أمة، يشير إلى فيض جود الله تعالى على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله ومن رقي إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها، أبصر الحق عيانا بلا مرية، وأخبر عنه بلا فرية، ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كله كالنهار إذا متع «١» ، واستنار كالقمر إذا طلع، ولم يبق حينئذ ريب في عرفان الحق وحصول الصواب، إلا ما يلتاث بالهوى، ويسمج بالتعصب، ويجلب اللجاج، ويخرج إلى المحك «٢» ، فهناك يطيح المعنى ويضل المراد.

فإذا آثرت أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرأي، فاسمع ما أرويه، قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: انصرف العباس بن مرداس السلمي من مكة فقال:

«يا بني سليم، إني رأيت أمرا، وسيكون خيرا، رأيت بني عبد المطلب كأن قدودهم الرماح الردينية، وكأن وجوههم بدور الدجنة وكأن عمائمهم فوق الرجال ألوية، وكأن منطقهم مطر الوبل على المحل، وإن الله إذا أراد ثمرا غرس له غرسا، وإن أولئك غرس الله، فترقبوا ثمرته وتوكفوا غيثه، وتفيئوا ظلاله، واستبشروا بنعمة الله عليكم به» . ولقد قرع العباس بهذا الكلام باب الغيب، وشعر بالمستور، وأحس بالخافي، واطلع عقله على المستتر، واهتدى بلطف هاجسه إلى الأمر المزمع، والحادث المتوقع، وهذا شيء فاش في العرب، لطول وحدتها، وصفاء فكرتها، وجودة بنيتها واعتدال هيئتها، وصحة فطرتها، وخلاء ذرعها، واتقاد طبعها، وسعة لغتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجولانها في اشتقاقاتها، ومآخذها البديعة في استعاراتها، وغرائب تصرفها في اختصاراتها، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها، وفنون تبحبها في أكناف مقاصدها، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها، وهذا وأضعافه مسلم لهم، وموفر عليهم، ومعروف فيهم ومنسوب إليهم، مع الشجاعة والنجدة والذمام والضيافة والفطنة والخطابة **والحمية والأنفة** والحفاظ والوفاء، والبذل والسخاء، والتهالك في حب الثناء والنكل الشديد عن الذم والهجاء، إلى غير ذلك مما خصت به في جاهليتها قبل الإسلام، مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده، والبهت فيه، والمكابرة عليه، وقد سمعنا لغات كثيرة- وإن لم نستوعبها- من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب

---

(١) الإمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدي ص/٤١

وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي نذوقها في." (١)

"ومردود عند كل ذي فطرة سليمة، ومستبشع في نفس كل من له جبلة معتدلة. قال:

ومن تمام طغيانهم، وشدة بهتانهم، أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى، وبشريعة أتت من عند الله، والله تعالى حرم الخبائث من المطعومات فكيف حلل الخبائث من المنكوحات؟ قال: وكذب القوم، لم يكن زرادشت نبيا، ولو كان نبيا لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الذين نوه بأسمائهم وردد ذكرهم في كتابه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» لأنه لا كتاب لهم من عند الله منزل على مبلغ عنه. وإنما هو خرافة خدعهم بها زرادشت بقوة الملك الذي قبل ذلك منه وحمل الناس عليه طوعا وكرها، وترغيبا وترهيبا، وكيف يبعث الله نبيا يدعو إلى إلهين اثنين؟ وهذا مستحيل بالعقل، وما خلق الله العقل إلا ليشهد بالحق للمحق والباطل للمبطل، ولو كان شرعا لكان ذلك شائعا عند أهل الكتابين، أعني اليهود والنصارى، وكذلك عند الصابئين، وهم كانوا أكثر الناس عناية بالأديان والبحث عنها، والتوصل إلى معرفة حقائقها، ليكونوا من دينهم على ثقة، فكيف صارت النصارى تعرف عيسى، واليهود تعرف موسى، ومحمد- صلى الله عليه وسلم- يذكرهما ويذكر غيرهما، كداود وسليمان ويحيي وزكريا، وغير هؤلاء، ولا يذكر زرادشت بالنبوة وأنه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى ... «١» لكني بعثت ناسخا لكل شريعة، ومجددا لشريعة خصني الله بها من بين العرب.

قال: وهذا بيان نافع في كذبهم، وإنما جاءوا إلى وهي فرقعوه، وإلى حرام بالعقل فأباحوه، وإلى خبيث بالطبع فارتكبوه وإلى قبيح في العادة فاستحسنوه.

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أنزي الفحل منها على أمه لم يطاوع، وإذا أكره وخدع وعرف غضب على أهله وند عنهم، وشرر عليهم، فما تقول في خلق لا ترضاه البهيمة، ولا تطاوعه فيه الطبيعة، بل يأباه حسه مع كلوله وتبرد شهوته مع اشتعالها، ويرضاه هؤلاء القوم مع عجبهم بعقولهم، وكبرهم في أنفسهم.

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخصلة اللئيمة والفعلة الذميمة كل آية وكل برهان، ونثر عليهم نجوم السماء، وأطلع لهم الشمس من المغرب، وفتت لهم الجبال، وغيض لهم البحار، وأراهم الثريا تمشي على الأرض تخترق السكك وتشهد له بالصدق، لكان من الواجب بالعقل وبالغيرة **وبالحمية وبالأنفة** وبالتقزز وبالتعزز ألا يجيبوه إلى ذلك، ويشكوا في كل آية يرون منه، ويقتلوه، وينكلوا به.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدي ص/٧٣

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مزدك ما قبلوه مرة، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحدا، ولا كان الحق إلا منصورا، ولا كان الباطل." [١]

"ومن لم يعرفها قتلته شر قتلة، وذلك أني لا أقتله قتلا وحيا «١» يستريح به مني، ولكن أقتله أولا فأولا في زمان طويل، بحسرات على فوت مأمول بعد مأمول، وبلايا يكون بها كالمغلول المكبول» .

قال: هذا كلام شريف في أعلى ذروة الحكمة، لكنك خليت يدك من طرف الحديث في الخلق.

قلت: إذا طاب الحديث باسترسال السجية ووقوع الطمأنينة لها الإنسان عن مباديه، وسال مع الخاطر الذي يستهويه، ولتحفظ الإنسان في قوله وعمله من الخطل والزلل حد إذا بلغه كل الخاطر واختل.

ثم نعود فنقول: أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث: أعني النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية، وسمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع.

ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما. فمن أخلاق النفس الناطقة- إذا صفت- البحث عن الإنسان ثم عن العالم، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بجوده وجد ما وجد، وبقدرته ثبت ما ثبت، وبحكمته ترتب ما ترتب، وبمجموع هذا كله دام ما دام.

بهذا البحث يتبين له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوة الشهوية فإن توابع هاتين القوتين أكثر، لأنهما بالتركيب أظهر، وفي الكثرة أدخل وعن الوحدة أخرج، فإذا ساستهما الناطقة حذفت زوائدهما، ونفت فواضلهما ووفت نواقصهما، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلمة في الشهوية أخمدت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنانها، فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم، فيعود السفه حلما أو تحالما، والحسد غبطة أو تغابطا والغضب كظما أو تكاظما، والغي رشدا أو تراشدا، والطيش أناة أو تآنيا وصرفت هذه الكوامن في المكامن- إذا سارت سورتها، وثارت ثورتها- على مناهج الصواب، تارة بالعظة واللطف، وتارة بالزجر والعنف وتارة **بالأنفة** وكبر النفس، وتارة بإشعار الحذر، وتارة بعلو الهمة، وهناك يصير العفو عند القادر ألذ من الانتقام، والعفاف عند الهائج ألذ من قضاء الوطر، والقناعة عند المحتاج أشرف من الإسفاف، والصداقة عند الموتور آثر من العداوة، والمداراة عند المحفظ أطيب من المماراة.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدي ص/٨٠

وفي الجملة، الخلق الحسن مشتق من الخلق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق، لكن الحض على إصلاح الخلق وتهذيب النفس لم." (١)

"العفة طباع، فكأنها توجد في فطرته.

وأما الأنيف فالذي أصيب أنفه، كأنه مأنوف، والكلام في الأنوف قد مر في الجزء الخامس وإعادته تشق. وأما الشنيف فالمبغض، ولا تقل المبغوض، لأنه لا يقال بغضه، هذا لفظ العامة وهو مرود عند البصراء بالأصول، ولكنه يقال: بغض الشيء في نفسه فهو بغيض، فكأنه أخذ من شنفته إذا أبغضته، وكذلك: شنفت له. وقال بعض الأدباء: وهو أيضا الذي علق في أذنه الشنف – بفتح الشين وسكون النون – وهو أيضا بمعنى مفعول؛ وأما فلان شنف أنف صلف فهو الشنف – بحركة النون – وهو البغض **والأنفة** والصلف؛ ويقال: شانفني مشانفة أي عاداني معاداة، وهذا كله محصل عن السماع والكتب والصحاح وأهل الأدب الموثوق بهم بالعراق.

وأما الرفيف فهو بريق الشيء وبصيصه ونوره وبهاؤه وماؤه، ويقال منه: رف الشيء إذا أنار ونار واستنار، كل ذلك بمعنى واحد، ومضارع هذا يرف بكسر الراء، فأما رف يرف بالضم فمعناه أكل، وأما رف خفيفه يرف فمعناه كثر، والرف سألت عنه السيرافي فقال: هو من كلام العرب، وهو الذي يضاف إلى الحائط ليوضع عليه شيء.

وأما الطريف – بالطاء غير معجمة – فهو ضد التالد، وفي الكلام يقال: بذلت له طريفي وتالدي، والتالد: الموروث، والطريف: المكتسب، وأما الطرف فهو الفرس الكريم، وأما الطراف فالخباء من الأدم وجمعه الطرف، والطرف: العين نفسها، بل قيل: هو جفنها، وقال بعض الكتاب: كبدي بيد العراق مخطوفة، وعيني بقذى الفراق مطروفة؛ وهذا أمر طريف أي لم يعتد؛ ورجل طريف أي معجب؛ وقال صاحب الاشتقاق: الطرف دائر في هذه الأبنية، لأن الطارف في طرف من التالد، لن هذا ولد عندك، وذاك كسبت، فهما طرفان، والطرف الذي هو الفرس الكريم في." (٢)

"والبسطة؛ ومنها في الخلق: الشجاعة والسخاء والحلم والعلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكتم السر والمؤاتاة وأصالة الرأي **والأنفة** والدعاء وعلو الهمة والتواضع والبيان والبشر والجلد والتجارب والنقض والإبرام.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدي ص/١١١

(٢) البصائر والذخائر أبو حيان التوحيدي ٥/١١٨

ومما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من الأصناف: قرى الأضياف وإعطاء العفاة وحمل المغارم وكظم الغيظ وقمع الأعداء وفهم الأمور ورعاية العهد والفكر في العواقب والجد والتشمير وقمع الشهوات والإيثار على النفس وحفظ الودائع والمجازاة ووضع الأشياء مواضعها والذب عن الحريم واجتلاب المحبة والتنزه عن الكذب واطراح الحرص وادخار المحامد والاحتراز من العدو وسيادة العشيرة واجتناب الحسد والنكاية في الأعداء وبلوغ الغايات والاستكثار من الصديق والقيام بالحجة وكبت الحساد والإسراف في الخير واستدامة النعمة وإصلاح كل فاسد واعتقاد المنن واستعباد الأحرار بها." (١)

"إذا كنت ذا مال ضنينا ببذله ... فأنت فقير حيث زلت من الأرض

وإن كنت في عيش فليس بعيشة ... إذا كنت مشؤوم الخلائق والعرض

خاتمة النسخة ف

تمت الأمثال المستخرجة من كتاب كليلة ودمنة وما ضاهاها من أشعار العرب بحمد الله وكرمه وعونه فله الحمد والشكر أبدا وصلى الله على محمد وآله وسلم، أواخر يوم السبت من أواخر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثماني مائة سنة وكاتبه إبراهيم بن علي بن يحيى بن محمد بن عيسى بن أسعد المالكي ثم المرادي ثم المذحجي غفر الله لوالديه ولأقاربه ولمشايخه في الدين ولجميع المسلمين والمسلمات آمين آمين.

؟ خاتمة النسخة ب

قال أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر اليمني: هذا آخر ما استخرجته من الأشعار المضاهية لأمثال كليلة ودمنة. وكان ذلك في مناف الاربعين وثلاثمائة وحملته إلى المعز في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى المنصورية.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

جدول بالقطع المختارة كما وردت في كليلة ودمنة والأدب الصغير وعيون الأخبار وجاويدان خرد.

ووجدت الناسك قد فكر فعلته السكينة وشكر فتواضع وقنع فاستغنى ورضي فلم يهتم وخلع الدنيا فنجا من الشرور ورفض الشهوات فصار طاهرا وانفرد فكفي الأحزان وطرح الحسد فظهرت منه المحبة وسنحت نفسه عن كل شيء فإن استكمل العقل وأبصر العاقبة فأمن من الندامة ولم يخف الناس فأمن منهم " ك٣٥ ".

وأعلمي أن هذا الجسد ذو آفات وأنه مملوء أخلاطا فاسدة قذرة تجمعها أربعة أشياء متعادية متغالبة

---

(١) البصائر والذخائر أبو حيان التوحيدي ١٠٠/٧

تعمدهن الحياة وهي إلى نفاذ. كالصم المفصل أعضاؤه إذا ركبت جمعها مسمار واحد وأمسك بعضها على بعض. فإذا أخذ المسمار تساقطت الأوصال " ك٢٧ ".

يا نفس لا يحملنك ما تريدين من صلة أهلك وأقاربك والتماس رضاهم على جمع ما تهلكين به فإذا أنت كالدخنة الطيبة التي تحترق ويذهب بعرفها آخرون " ك٢٧ - ٢٨ ".

وأنه كالماء الملح الذي لا يزداد الظمآن منه شربا إلا أزداد به عطشا " ك٣٦ ".

أو كالعظم المتعرق الذي يصيبه الكلب فيجد فيه ريح لحم فلا يزال يلوكه وكلما أزداد له نهشا زاد كدوحا حتى يدمي فاه " ك٣٦ ".

وكالكوزة من العسل في أسفلها سم والذائق لها مصيب منها حلاوة عاجلة وفي أسفلها موت زعاف " ك٣٦ ".

وكدودة الأبريسم التي لا تزداد على نفسها لفا إلا ازدادت تشبكا ومن الجروح بعدا " ك٣٦ ".

وهي حقيق إلا يغفل عن أمر آخرته والتزود لها، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة وليس بينه بين أحد وقت معلوم " ك١٤٢ ".

وكان يقال: إن العاقل إنما يعد أبويه من الأصدقاء ويعد الأخوة من الرفقاء والأزواج إلفا والبنين ذكرا والبنات خصيمات والأقارب غرماء ويعد نفسه فردا وحيدا " ك٢٣٩ ".

وقيل: ليعد من البقر والغنم من لم تكن همته إلا بطنه وفرجه " ك٤٧ ".

فمن عاش ما عاش غير خامل المنزلة ذا فضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قل عمره طويل العمر " ك٤٧ ".

ومن كان عيشه في وحدة وضيق وقلة خير على نفسه وأصحابه فهو وإن طال عمره قصير العمر " ك٤٧ ".

والارتفاع من ضعة المنزلة التي شرفها شديد المؤنة والانحطاط منها إلى الضعة هين يسير. وإنما مثل ذلك كالحجر الثقيل الذي رفعه من الأرض إلى العاتق شاق وطرحه من العاتق إلى الأرض يسير " ك٤٨ ".

وقد قيل: لا يواظب أحد على باب السلطان ويطرح **الأنفة** ويحمل الأذى ويظهر البشر ويكظم الغيظ ويرفق في أمره إلا خلص إلى حاجته " ع١٩:١ " وقد قالت العلماء: أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوج ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم للتجربة " ك٥٠ ".

وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الوعر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدن السباع المخوفة. فالارتقاء إليه

شديد والمقام فيه أشد وأهول " ك٥٠ ".

فإن لم يكن هذا فعسى أن يكون من سكرات السلطان؛ فإن منها أن يسخط على من لم يستوجب السخط ويرضى عمن لم يستحق ذلك من غير أمر معلوم. وكذلك قيل: قد غرر من لجج في البحر وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان فأنه خليق وأن هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة أن يعثر فلا ينتعش " ك٧٧ ".

ومن ضبب اللؤلؤ والياقوت بالرصاص فليس ذلك بتصغير للياقوت ولكنه جهل ممن فعل ذلك " ك٥٢ ".." [١]

"والوجه الخامس: البرهان العقلي- وهو القرآن-: الذي تحدى به العرب مرة بعد أخرى، وتارة بعد أولى إلى يأتوا بسورة مثله، وفيهم الشعراء والخطباء والبلغاء، ولم يتركهم على ذلك بل توعدهم بأشد الوعيد، ووبخهم أغلظ التوبيخ، إن لم يأتوا بسورة مثله أن يدعوا شهداءهم من دون الله إن كانوا صادقين، قال تعالى: فإن لم تفعلوا شرطا، ولن تفعلوا خبرا حتما، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، يعني: فإن لم تفعلوا ولن تقدروا عليه وأصررتم على ما أنتم عليه من التكذيب فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.

وقال عز وجل: أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات الاية، وقال تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨) .

وكيف يجوز أن يكونوا- مع ما أوتوا من البسطة في اللسان والقدرة على البيان والفصاحة والجزالة **والحمية والأنفة-** قد جاءهم واحد من جملة عددهم بدين يخالف دينهم فسفه عقولهم وضلل أحلامهم وسب آلهتهم وشتت جموعهم، وجاءهم بكلام منظوم يبين بذلك الكلام على صدقه وأنه دليله على نبوته، وأنهم لا يقدرون على أن يأتوا بسورة مثله!! فقرعهم بذلك في المواقف والرد عليهم مقالة في المواطن، وهم قادرون على أن يكذبوه في انتحاله، ويكفون أنفسهم أمره بمعارضته، مختارين بذلك بذل النفوس والأموال، والعزيز من الأهل والأولاد على ما هو أخف وأيسر من مقابلته بكلام يسير يلوح منه كذبه، ويظهر به افتعاله وإفكه، فدل ما قلنا: أن تركهم المعارضة إنما كان لظهور العجز والانقطاع، والكلام في إعجاز القرآن يطول.." [٢]

"يا لكع حيث شئت، والله لأمنعنك القوت، قال: إن الله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه وقال لبنيه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت. فخرج خالد، فلقيه أبو سفيان صخر بن حرب فقال: قد فعلتها

---

(١) مضاهاة أمثال كليلة ودمنة محمد بن حسين اليمني ص/٢٤

(٢) شرف المصطفى الخركوشى ٣/٣٤٠

يا خالد، ما شكرت أباك، ولقد هدمت شرفك الذي ينالك، فقال خالد: بل عمرت ذلك الشرف، قال أنت غلام حدث، لو بسط عليك العذاب لأقصرت،

وصار خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمه، وجعل من لقيه من فوقه يؤنبونه، ويستقصرون فعل أبيه وتركه له، وأنه قد كان ينبغي له أن يبسط عليه المكروه ويواليه عليه. فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا أحيحة، ما أدري أضعفت أم ضجعت الرأي أو أدركتك المأقة «١» ، قال: وما ذاك، قال: تركت ابنك يتبع محمدا أو أنت سيد قريش وكبيرها والمطاع فيها، فيتجرأ علينا شبابنا ويقولون: هذا ولد أبي أحيحه قد أسلم ولم يصنع به شيئا، فقال لا ما ضعفت، إني لأقوى قريش نفسا وأكثرها عددا ومارا. وأما قولك: ضجعت الرأي، فما الرأي عندك في أمره، قال حبسه والتضييق، فقال: والله ضربته حتى كسرت العصا على رأسه، وحرمته القوت، فهذا أشد الأمور عليه، فلم أره حفل بواحدة منها. وأما قولك: المأقه، لقد غاظني أمر محمد أنه أوسطنا نسبا، وأنه نشأ فينا/ كأحسن ما نشأ به أحد من الشباب من حسن الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق، فجاء بدين محدث، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وأذهب بهاءنا واجترأ علينا. وأخرى إن صدقني ظني- وهو صادق- أنه خارج إلى قوم يقوي بهم ثم يدخل بهم عليكم. قال أبو جهل: لا تقل هذا، فما الفرج لنا إلا في اخراجه وتحويله عن ديارنا، فإنه إن خرج عادت إلفتنا، وعدنا لديننا

---

(١) جاء في اللسان: ضجع في أمره واضجع وأضجع: وهن، والضجوع: الضعيف الرأي والمأقة: **الأنفة** وشدة الغضب **والحمية**، ونكث العهد من **الأنفة**." (١)

"كان من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أشدهم عليه وهو من مسلمة الفتح، فاسمع قوله وتأمل أمره.

وكم يحدث معاوية وآل أبي سفيان وآل مروان في ملكهم وفي سلطانهم بعد مضي أئمة الهدى أن الذي أخرهم وأخر أباهم عن الإسلام **الأنفة** أن يكونوا كمن قد قدمنا ذكره.

ومنهم من أخره الحسد والمنافسة، ومنهم من أخره منع إخوانه وساداته وهذا باب مفرد.

وقد علمت أن الملوك والجبابرة قد تكون لهم الهفوات والزلات فتقف عليها ثقاتهم ووزراؤهم وشركاؤهم في الملك ومن يخافهم على دمه في التحدث بعيوبهم فيحدثون به في حياتهم ويلقونه إلى ثقاتهم ولا يملكون أنفسهم لثقل الكتمان على الناس، فأما إذا مات الملك أو الرئيس فيحدثون به كل أحد مجاهرين، هكذا

---

(١) تثبيت دلائل النبوة القاضى عبد الجبار ٢/٣٥١

جرت العادة ودلت عليه العبرة، وهؤلاء تحدثوا بهذا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، لتعلم وثاقة أمر النبوة وأن أمرها وأساسها وضع على مثل الجبال. وما كنا في هذا الباب وإنما كنا في بطلان قول الذين رموا الأنبياء بكتمان الحق وإظهار الباطل، فاتصل الكلام بما أشبهه فخرجنا إلى هذا.

/ ثم عدت إلى بيان بطلان قول هؤلاء فتأمل قوله: «عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى، كلا» .

وقد كان بعض سادات العرب وأغنياؤهم قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض شأنه، فأقبل صلى الله عليه وسلم على كلامه رجاء إسلامه وأتاه في تلك الحال ابن أم مكتوم." (١)

"بالنار غضبا لرسول الله وحمية لدينه، وهم كانوا أشد الناس عليه، ولكن لما أسلموا زال ذلك كله، وأخلصوا أشد الاخلاص. وهؤلاء وأمثالهم قد كانوا عرفوا الحق فمنعهم من الدخول في الاسلام **الحمية** وحب الرئاسة، وقد كانوا علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدمهم على الفقراء والموالي الذين سبقوا إلى الاسلام كما قد تقدم ذكر ذلك لك، فلما قهرهم الحق وجاء الفتح أسلموا، وكانت نفوسهم أبية يأنفون من النفاق والفسق والغيبة، فأسلموا وهذه أخلاقهم فأخلصوا ونصحوا.

وقد تقدم لك ما قاله الحارث بن هشام حين خرج من مكة مهاجرا في سبيل الله، ولهذا المعنى قال أبو جهل لابن مسعود حين أكب عليه ليجهز عليه: ألست رويعيا بتهامة، لقد ركبت مركبا صعبا. وقد تقدم لك للاسباب نزول قوله عز وجل: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» .

ولقد ذكر سهيل بن عمرو، أن **الحمية والأنفة** وحب الرئاسة مما منعهم من الدخول في الاسلام، وكان يقول: وأبو سفيان يعرف من هذا/ الحق ما أعرف، ولكن حسد بني عبد المطلب قد ختم على قلبه. وقد كان أبو سفيان يتحدث بمثل ذلك فيقول: خرجت وأمية بن أبي الصلت الثقفي، وطليق بن سفيان بن أمية تجارا إلى الشام «١» ، وكان أمية بن الصلت يأتي النصارى ويسمع من علمائهم، فقال لي: هل لك في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتب تسأله عما بدا لك؟ قلت: لا أرب لي به، والله لئن حدثني ما أحب

---

(١) تثبيت دلائل النبوة القاضى عبد الجبار ٢/٤٨٢

(١) كلمة سفيان ليست واضحة في الأصل." [١]

"والله ما كنت لأومن لرسول ليس من ثقيف، قال: وأقبلت إلى مكة فوجدته هو وأصحابه يضربون ويقهرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟

ودخلني ما دخل الناس من التعاسة.

ولهذا نظائر من حديثهم، وقد كان معاوية يتحدث به في زمن ملكه وسلطانه، ويتحدث به عنه مروان بن الحكم، ويتحارون الأسباب التي أبطأت بهم عن الهجرة من **الأنفة** والرجال الذين كانوا يصدون عن ذلك من بني أمية، مثل عقبة بن أبي معيط، ومثل الحكم بن أبي العاص، ومثل أبي سفيان من بني أمية، ومن كان كذلك من بني مخزوم، وما كان يلحق من أسلم منهم من الأذى من هؤلاء.

كما كان يتحدث بذلك سهيل بن عمرو، وعمرو بن العاص، وغيرهم، ويذكر بعضهم بعضا في حياة النبي عليه السلام وبعد وفاته وبعد مضي الخلفاء الراشدين، فتعلم بصائر مسلمة الفتح والذين أبطؤوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا تأملت وجدت لبني أمية، وبني مخزوم من المهاجرين منهم. ومن مسلمة الفتح آثارا كثيرة عظيمة في نصرة الاسلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي لهم بعد وفاته أعظم. ولم يكن الخلاف الذي كان بين أولئك القوم وبين أمير المؤمنين رضي الله عنه لشك في النبوة ولا لضعف/ بصائر هم فيها، لأن ذلك لو كان لبان كما قدمنا الدلالة على ذلك، لأنه لا يمكن أن تقول إن عبد الله ابن وهب الراسبي وأصحابه من الخوارج إنما خالفوا أمير المؤمنين وأكفروه وقاتلوه لبغضهم لرسول الله ولا لشكهم في نبوته، وقد كانت لهم عبادة وقراءة القرآن وصوم وأمور كثيرة حسنة، جميلة، يطول تفصيلها، غير أنهم أحبطوا ذلك كله. بمخالفتهم لأمير المؤمنين.

وكذلك معاوية، قد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعمله غير واحد من." [٢]

"الصوائف وهو أول من مسي بذي الوزارتين وكان من أهل الأدب البارع؛ وليس المعني هنا أبا عامر الشهيدي صاحب التوابع والزوابع واسمه أيضا أحمد بن عبد الملك (الحلة ١: ٢٣٧ والجذوة: ١٢٣ وبغية الملتمس رقم: ٤٣٩) .

أحمد بن عبد الوهاب: (٥٣٩، ٥٥٩، ٦٤٠)

(١) تثبيت دلائل النبوة القاضى عبد الجبار ٥٨٩/٢

(٢) تثبيت دلائل النبوة القاضى عبد الجبار ٥٩٢/٢

أظنه أحد رجالات الدولة أيام عبد الرحمن الناصر وهو أحمد بن عبد الوهاب ابن عبد الرؤوف؛ كان أولا صاحب المدينة ثم عزل عنها وقدم للوزارة سنة ٣١٩ (ابن عذاري ٢: ٣٠٨) .

أحمد بن فتح: (٥٣٦)

أحمد بن محمد بن فرج الجياني، أبو عمر:

(٣٤، ٣٥، ٥٥، ٨٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ٢٨٠، ٣٣٧، ٣٥٢، ٥٨١، ٦٠٢)

أبناء محمد بن فرج ثلاثة أحمد وسعيد وعبد الله، وأشهرهم أحمد وأبعدهم صيتا في الشعر والاليف، وقد عرف بكتاب " الحدائق " الذي ألفه للحكم المستنصر في أشعار الأندلسيين معارضا به كتاب " الزهرة " لابن داود. وهو من أهم المصادر الأدبية عن الأندلس حتى عهد الحكم، ويكثر الحميدي في الجذوة وابن الأبار في الحلة النقل عن هذا الكتاب. وله أيضا كتاب المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم. ويبدو أن أبا عمر كان شديد **الأنفة** قوي العارضة، وأن مكانته من الدولة لم تعفه آخر الأمر من السجن، فقد سجنه الحكم المستنصر ويظن الحميدي أنه ظل في السجن حتى توفي، وله في سجنه أشعار كثيرة كانت مشهورة يومئذ، وفي تاريخ وفاته اختلاف بين حوالي ٣٦٠، وحوالي ٣٦٦. (راجع الجذوة ٩٧ وبغية الملتمس رقم: ٣٣١ والمطمح: ٧٩ والمغرب ٢: ٥٦ ومعجم الأدباء ٤: ٢٣٦ والصلة: ١١ واليتيمة ٢: ١٦ ومسالك الأبصار ١١: ١٩٥ والوافي بالوفيات ٨: ٣٤) .." [١]

"فيها. والفريضة: الهرمة وهي الفارض أيضا، يقال: فرضت إذا هرمت. والعارض: المريضة. والفريش: هي التي وضعت حديثا كالنفساء من النساء، يريد لا يأخذ منكم ذا العيب فيضر بأهل الصدقة فهى لكم، ولا يأخذ منكم ذات الدر فيضر بكم فهى لكم، ولكنا نأخذ الوسط. وذو العنان: الفرس، والركوب الذلول. والفلو: المهر. والضبيس: الصعب. وقوله: لا يمنع سرحكم: أي لا يدخل عليكم في مرعاكم أحد يمنع سرحكم عن شيء منه، ولا يحبس دركم، يريد: ذوات اللبن، لا تحشر إلى المصدق وتحبس عن المرعى، إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد، لما في ذلك من الإضرار بها. والإماق أصله الإمآق بالهمزة، وهو من المأقة، والمأقة: **الأنفة** والحدة والجرأة، يقال رجل مئق، وإنما أراد بالاماق النكث والغدر. والرياق: جمع ربق وهو الحبل وإنما أراد به العهد. وقوله: فمن أبى فعليه الربوة يريد: الزيادة. وكتب صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار كتاب ا، وفي الكتاب: إنهم من أمة واحدة دون الناس، المهاجرون من قيس على رباعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، ويفكون عاتيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا منهم

---

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس محمد بن الكتاني الطبيب ص/٢٨٣

أن يعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى عليهم، وابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضا، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا يعينها على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا، فإنه قود إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أنفسهم ومواليم أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوبغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحبين من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، فلا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في." [1]

"في قلبك بدا في وجهك إن كنت حليما، وعلى لسانك إن كنت سفيها؛ وإذا ظهر ذلك للولي كان قلبه أسرع إلى التغير والتعتب من قلبك. إذا أصبت الجاه والخاصة عند السلطان فلا تتغير لأحد من أهله وأعوانه؛ فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة فتذل لهم، وفي ذلك من العار ما فيه. لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقى عنه **الأنفة** ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ. ويرفق بالناس إلا كاد يخلص إلى حاجته عند السلطان.." [2]

"إلى السلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض؛ لأن الواحد رهن بما أفشي إليه، وهو أحرى ألا يظهره رهبة للملك، ورغبة إليه، وإذا كان عند اثنين فظهر، دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعاريض، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم، وإن عفا عنهما عفا عن واحد لا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة عليه ".

نسخة عهد أردشير بن بابك إلى من يخلفه من بعده

من ملك الملوك أردشير بن بابك إلى من يخلفه بعقبه من ملوك فارس السلام والعافية. أما بعد: فإن صنيع الملوك على غير صنيع الرعية، فالملك يطيعه العز والأمن والسرور والقدرة على طباع **الأنفة** والجرأة والعبث والبطر. ثم له، كلما ازداد في العمر تنفسا وفي الملك سلامة، زيادة في هذه الطبائع الأربعة حتى تسلمه إلى " سكر السلطان الذي هو أشد من سكر الشراب " فينسى النكبات والعثرات والغير والدوائر. ويحين تسلط الأيام ولؤم غلبة الدهر، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول. وقد قال الأولون منا: " عند حسن الظن بالأيام تحدث الغير ". وقد كان من الملوك من يذكره عزه الذل، وأمنه الخوف، وسروره الكآبة، وقدرته

---

(١) نثر الدر في المحاضرات الآبي ١/١٥٥

(٢) نثر الدر في المحاضرات الآبي ٤/١٨١

العجز، فإذا هو قد جمع بهجة الملوك، وفكرة السوقة، ولا حزم إلا في جمعهما. اعلموا أن الذي أنتم لاقوه بعدي هو الذي لقيني من الأمور، وهي بعدي واردة عليكم بمثل الذي وردت به علي، فيأتيكم السرور والأذى في الملك من حيث أتياني، وأن منكم من سيركب الملك صعبا فيمنى من شماسه وجماحه وخبطه واعتراضه بمثل الذي منيت به، وأن منكم من سيرث الملك عن الكفاة المذللين له مركبه، وسيجري على لسانه ويلقى في قلبه أن قد فرغ له وكفي واكتفى وفرغ للسعي في العبث والملاهي، وأن من قبله من الملوك إلى التوطيد له أجروا، وفي التمكين له سعوا، وأن قد خص بما حرموا، وأعطي ما منعوا، فيكثر أن يقول مسرا ومعلنا، خصوا بالعمل وخصصت بالدعه، وقدموا قبلي إلى الغرر وخلفت في الثقة.." [1]

"فأما قوله: كان عليه مؤتنفا حراما، فالمعنى كان عليه حرمة شهر مؤتنف حرام، فحذف المضاف وأقام الصفة مقام الموصوف، والتقدير: أن جارهم لعزهم ومنعتهم لا يهاج ولا يضام، فكأنه في حرمة شهر حرام وقوله: ويأكل جارهم أنف القصاع، فإنه يريد أنهم يؤثرون ضيفهم بأفضل الطعام وخيره فيطعمونه أوله لا البقايا، وما أتى على نقاوته، فهذا جمع على أنف مثل: بازل وبزل قابل وقبل. وإذا كان كذلك قريء قراءة من قرأ: ماذا قال آنفا

[سورة محمد، الآية: ١٦] وأما ما روي عن ابن كثير من قوله: أنفا فمجوز أن يكون توهمه مثل حاذر وحذر، وفاكه وفكه والوجه الرواية الأخرى آنفا بالمد كما قرأ عامتهم.

وقال بعض أصحاب المعاني: لا يمتنع أن يكون الباب الذي قسمه كله من أصله واحدا وهو التقدم، وتكون **الأنفة** من الأنف الذي هو الجارحة، وسميت به لتقدمه في الوجه. ثم جعل ما يؤنف منه من الذل، كإضافة الأنف وجدعه يبين هذا ويشهد له قولهم:

بعير أنف ومأنوف: إذا عقره في الخشاش فانقاد لما يراد منه، وفي الحديث: «المسلم هين لين إن قيد انقاد» وقد نسب الذل إلى الأنف في كلامهم حتى قيل: هو يحمي أنفه من كذا وهو حمي الأنف، والشاعر قال:

ولا نال أنفا منه بالذل نائل

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ماذا قال آنفا

[سورة محمد، الآية: ١٦] أراد في أول وقت يقرب منا، وقال الخليل: أنفت فلانا أنفا، كما تقول: الذي قبل أي قبل كأنه أراد أنفته فأنف أنفا، والمعنى حركته من أقرب وقته فابتداء هذا بيان ما رمى به الخليل.

---

(١) نثر الدر في المحاضرات الآبي ٤١/٧

ويجوز فيه وجه آخر: وهو أن يريد ماذا قال فيما أنفه وأنفا ويكون أنفته وأنفا من باب قم قائما وأشباهه. ويكون اسم الفاعل نائبا عن المصدر، قال: وأيتنفت ايتنافا أول ما يبتدأ فيه، والمستأنف من الكلام والأمر كذلك.

قال أحمد: وعلى ما حررناه من كلام المعترض وحكاية الخليل، صح قراءة ابن كثير وتوجه اختياره أنفا غير ممدود قياسا وسماعا، ولم يكن متوهما فاعلمه.

ومن الأحرف التي نداولها قوله تعالى: وأدبار السجود

[سورة ق، الآية: ٤٠] هو مصدر والمصادر تجعل ظروفا على إرادة إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها كقولك: جئتك مقدم الحاج، وخفوق النجم، وخلافة فلان، يريد في ذلك كله وقت كذا فحذفه فكأنه قال: وقت أدبار السجود، إلا أن المضاف المحذوف في هذا الباب لا يكاد يظهر وهذا أدخل في باب الظروف من قولك أدبار السجود إذا فتحت وكأنه أمر بالتسبيح بعد الفراغ من الصلاة.

وقد قيل: أريد به الركعتان بعد المغرب، وأدبار جمع دبر ودبر وقد يستعمل ظرفا نحو: جئتك في دبر الصلاة، أي في أدبار الصلاة، وقال شعرا:." (١)

"أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم ... وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا

أبا، الفعل لبني التيم. يقول: امتنعوا من أن يخلوا بين جيرانهم قبيلة كلب وبين أعدائهم حمير، وقد ارتفع غبار الموت حتى التف في الجو. وأراد بالجار والعدو الكثرة، إذ كان المراد بهما القبيلتين، وإنما أضاف النقع إلى الموت تهويلا، ويجوز أن يريد بالموت الحرب. وتكوثر: تفوعل من الكثرة، يريد تراكم الغبار والتفافه. وهذا الذي أشار إليه بقوله تكوثر من التراكم، جعله بعضهم كالسحاب، وجعله بعضهم يسد عين الشمس حتى ظهرت له الكواكب، وحتى صار النهار بسببه كالليل. وتجاوز المتنبي جميع ذلك، حتى بلغ حدا من الإفراط مسنشنعا فقال:

عقدت سنابكها عليها عثيرا ... لو تبتغي عنقا عليه أمكنا

وإذا أردت بالموت المنية يكون المراد: كأن الموت أثار الرهج في سلب النفوس حتى كثف في الهواء. وهذا مثل.

سموا نحو قيل القوم يبتدرونه ... بأسيافهم حتى هوى فتقطرا

يعني بني تيم. يقول: ارتفعوا نحو رئيس القوم مستبقين إليه بأسيافهم فتناولوه حتى سقط. ومعنى تقطر: وقع

---

(١) الأزمنة والأمكنة المرزوقي ص/١٩٧

على أحد قطريه. والقطران: الجانبان. وفي الكلام اختصار، كأنه قال: ابتدروه بالأسياف وضربوه حتى سقط، فحذف ضربوه. وموضع يبتدرونه نصب على الحال، وتعلق حتى بالمحذوف الذي بينته.

وكانوا كأنف الليث لا شم مرغما ... ولا نال قط الصيد حتى تعفرا

الأسد أحمى الحيوان أنفا، ويبلغ من عجبه بنفسه أنه لا يتواضع لأكل صيد غيره. ونسب **الأنفة** إلى الأنف كما ينسب **الحمية** إليه. يقال: هو أحمى أنفا من فلان، وآنف أنفا منه، وحمى فلان أنفه من كذا، أي أنف منه ولم يرض به. وحسن في الكناية عن الإباء والتصون عن الدناءة والمذلة قوله: " لا شم مرغما " بعد ذكر الأنف. فيقول: وكان بنو التيم في التمنع كالليث الذي لا يغمض على قذى، ولا يشم مرغما ومذلا، ولا يصبر لشيء على هوان، ولا يعطف على مكره وصغار، ولا ينال الصيد قط حتى يكون هو المعفر. والعفر: التراب. هذا إذا رويت " قط الصيد." [١]

"قال: " قل للذي عابها من عائب حنق " تخفيفا لقبحها وتسليمالاتنهاء عيبها. والحنق: أشد الغيظ.

وقال آخر:

لا تنكحهن الدهر ما عشت أيما ... مجربة قد مل منها وملت

تحك قفاها من وراء خمارها ... إذا فقدت شيئا من البيت جنت

تجود برجليها وتمنع ردها ... وإن طلبت منها المودة هرت

قوله " لا تنكحن " أراد بالنكاح العقد لا الجماع. والأيم: التي قد مات عنها زوجها. وقد آمت تئيم أيمة.

وقوله " قد مل منها وملت " يريد أنها طعنت في السن، فقضت مآرب الشهوات وقضيت منها.

وقوله " تحك قفاها من وراء خمارها " أي تركت التنظف والتنطس، ونسيت الحياء **والأنفة**، فرأسها تحكها دائبا، ومحبتها للحقير تجننها، حتى إذا فقدت ما لا خطر له، كان عندها كالكبير الذي لاعوض منه.

وقوله " تجود برجليها وتمنع درها "، ويجوز أن يكون مثلا لقلة خيرها، فشبهها بالشاة التي تفاج رجليها، فإذا أريد حلبها منعت. ويجوز أن يكون المراد أنها قعدت عن الولاد فهي تساعد في الجماع ولا تحمل ولا تلد.

وقوله " وإن طلبت منها المودة هرت " يريد أنها لا يبتغى عندها من نتائج الود وأسباب الشفقة والحب شيء إلا نبحت نبيح الكلاب. ويجوز أن يريد بهرت كرهت وتقبضت.

آخر:

---

(١) شرح ديوان الحماسة المرزوقي ص/٢٤٦

لأسماء وجه بدعة من سماجة ... يرغبني في نيك كل أتان

بدا فبدت لي شقة من جهنم ... فقمت ومالي بالجحيم يدان

وغادرت أصحابي الذين تخلفوا ... بما شيت من خزي وطول هوان

وما كنت أدري قبلها أن في النسا ... جحيما أراها جهرة وتراني." (١)

"يخل كتابه من جوابي وليس يحضرني في الوقت لله علي أن لا أطعم حتى آتي الذي فيأمن حقها ان شاء الله، فدخل بيتا مظلما، وأغلق عليه بابه [وانشغل] في قراءة القرآن حتى بلغ سورة الجاثية وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه فصاح بأعلى صوته: افتحوا الباب فقد وجدت، ففتحوا، ودعا الغلام وقرأ عليه الآية بين يدي الرشيد، وقال: إن كان قوله (وروح منه) توجبان عيسى بعض منه وجب أن يكون ما في السماوات وما في الأرض بعضا منه، فانقطع النصراني وأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل علي بن الحسين بصلة فاخرة فلما عاد إلى مرو صنف كتاب «النظائر في القرآن» وهو كتاب لا يوازيه في بابه كتاب.

فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة قال أبو عبيدة: معناه ولا تقولوا هم ثلاثة.

وقال الزجاج: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك أنهم قالوا: أب وابن وروح القدس، انتهوا عن كفركم خيرا لكم إلى قوله ن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله

وذلك

إن وفد نجران قالوا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟

قالوا: عيسى. قال: وأي شي أقول؟ قال: تقول أنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار لعيسى إن يكون عبدا لله. قالوا: بلى، فنزلت ن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله الآية.

لم يأنف ولم يتعظم ولم [يختتم] «١» وأصله الأنفة، والتجنب وأصله في اللغة من قولهم نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك.

قال الشاعر:

فباتوا فلولا ما تذكر عنهم ... من الحلف لم ينكف لعينيك تدمع

لا الملائكة المقربون

هم حملة العرش لا يأبون ان يكونوا عبيدا لله، لأن من الكفار من اتخذ الملائكة آلهة فلذلك ذكرهم ثم

---

(١) شرح ديوان الحماسة المرزوقي ص/١٣١٠

أوعدهم فقال من يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا
المستكبر والمقر فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله في [التضعيف] ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.
وأما الذين استنكفوا عن عبادته واستكبروا عن السجود فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ثم قال (الله ولي الذين آمنوا) .

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٤ الى ١٧٦]
يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (١٧٤) فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما (١٧٥) يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (١٧٦)

---

(١) هكذا في الأصل.." [(١)]
"ومنها الآراء المسماة بالمحمودة وربما خصصناها باسم المشهورة إذ لا عمدة لها وفي نسخة لا عمدتها إلا الشهرة
وهي آراء لو خلى الإنسان وعقل المجرد ووهمه وحسه ولم يؤدب بقبول قضايا ما وفي نسخة قضاياها والاعتراف بها
ولم يمل الاستقراء بظنه القوي إلى حكم لكثرة الجزئيات ولم يستدع إليها ما في طبيعة الإنسان من الرحمة والخجل والأنفة والحمية وغير ذلك
لم يقض بها الإنسان طاعة لعقله أو وهمه أو حسه
مثل حكمنا أن وفي نسخة بأن سلب مال الإنسان قبيح وأن الكذب قبيح لا ينبغي أن يقدم عليه

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣/٤٢٠

والفرق بينها وبين الأوليات ما ذكره الشيخ من أن العقل الصريح الذي لا يلتفت إلى شيء غير تصور طرفي الحكم إنما يحكم بالأوليات من غير توقف

ولا يحكم بها بل يحكم منها بحجج تشتمل على حدود وسطى كسائر النظريات ولذلك يتطرق التغير إليها دون الأوليات فإن الكذب قد يستحسن إذا اشتمل على مصلحة عظيمة

والكل لا يستصغر بالقياس إلى جزئه في حال من الأحوال

وللشهرة أسباب

منها كون الشيء حقا جليا كقولنا الضدان لا يجتمعان

ومنها ما يناسب الحق الجلي ويخالفه بقيد خفي فيكون مشهورا مطلقا وحقا مع ذلك القيد كقولنا حكم الشيء حكم شبيهه وهو حق لا مطلقا ولكن فيما هو شبيه له

ومنها كونه مشتملا على مصلحة شاملة للعموم كقولنا العدالة أحسن

وقد يسمى بعضها بالشرائع غير المكتوبة فإن المكتوبة منها ربما لا يعم الاعتراف بها

وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله وما تتطابق عليه الشرائع الإلهية

ومنها كون بعض الأخلاق والانفعالات مقتضية لها كقولنا الذب عن الحرام واجب وإيذاء الحيوان لا لغرض قبيح." (١)

"الأنف

أنفك منك وإن كان أجدع في القريب السوء. شفيت نفسي وجدعت أنفي، لمن يضر نفسه من وجه ويشتفي من وجه. كل شيء أخطأ الأنف خلل. جرحه حيث لا يضع الراقي انفه، للأمر الذي لا دواء له. لأمر ما جدع قصير أنفه، يضرب في طلب الثأر. رب حام لأنفه وهو جادعه، يضرب لمن يأنف من الشيء فتوقعه **الأنفة** في شيء أشد منه.

الفم واللسان

كل جان يده إلى فيه. حياك من خلا فوه، للمشغول عن صاحبه. ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة. اللسان سبع صغير الجرم، عظيم الجرم.

وجرح الدهر ما جرح اللسان

---

(١) الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسي ابن سينا ص/٣٥١

وجرح اللسان كجرح اليد

حفظ اللسان فاحفظ اللسانا ... قد ينفع الطائر والإنسانا." (١)

"في رحمته، يعني: في جنته يوم القيامة.

﴿ذلك هو الفوز المبين﴾، أي: دخولهم في رحمته يومئذ هو الظفر الظاهر.

ثم قال: ﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن ءاياتى تتلى عليكم﴾، / جواب " أما " محذوف، والتقدير: فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم، أي تقرأ عليكم فاستكبرتم عن اتباعها والإيمان بها. والاستكبار في اللغة: **الأنفة** عن اتباع الحق.

وروي عن النبي A أنه قال: " قال الله جل ذكره: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ".." (٢)

"كتاب الصلح فامتنع أن يكتب في الكتاب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وأن يكتب فيه ﴿محمد رسول الله﴾، وقال: لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك، وامتنع هو وأصحابه من دخول النبي وأصحابه مكة.

قال الزهري: كانت حميتهم أنهم لم يقروا أن محمدا نبي الله ولم يقروا بباسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت.

والعامل في قوله: " إذا جعل ": " لعذبنا " فلا يبتدأ بها، ويجوز أن يكون العامل فعلا مضمرا معناه: اذكر إذ جعل، فتبتديء بها إن شئت.

والحمية: **الأنفة** والإنكار.

ثم قال: ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي: أنزل عليهم الصبر والطمأنينة.

ثم قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي: وألزم الله المؤمنين قول لا إله إلا الله، وكانوا أحق بها من المشركين، وكانوا هم أهلها.

قال علي بن أبي طالب وابن عباس: كلمة التقوى لا إله إلا الله. وكذلك." (٣)

---

(١) التمثيل والمحاضرة الثعالبي، أبو منصور ص/٣١٢

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٧٩٨/١٠

(٣) الهداية الى بلوغ النه ا ية مكي بن أبي طالب ٦٩٦٧/١١

"وقد بلغني أن للسيد " عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " مجلسا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعراء. ولو تحرى في التطوع متحوب فقادني برسني حتى أقف من ذلك المجلس بمرأى ومسمع لألقيت " مسألة " ثم فرعتها فخاض فيها الفقهاء والمتكلمون والشعراء سحابة ليلتهم تلك. وكأني بك قد قلت في نفسك: ليت شعري ما تلك المسألة؟ ثم أدركتك **الأنفة** أن تسألني عنها. وأنا أبتديء لك بذكرها غير باخل عليك ولا على غيرك بشيء مما أحسنه.

كنت أقول للفقهاء: ماذا تقولون في رجل طاف بالكعبة سبعا وهو ينشد:

" فقا نبك ".ما توجبون عليه؟

فإذا أجابوا، فرعتها عليهم. وقد علمت أن الضحضاح بعده الغمر وأن الدخان تحته اللهيب الجمر.

وكنت أقول للمتكلمين: أخبروني عمن يقول بقدم العالم: أقفا نبك كانت قبل " امريء القيس " أم بعده؟ وأخبروني عن: قفا نبك، أجوهر هي أم عرض؟ فإن قالوا: جوهر، فقد أحالوا في رأي المتكلمين. وإن قالوا: عرض، قلت: فالأعراض لا قوام لها في أنفسها وإنما تعرف إذا تعلقت بالجواهر.

وقد نجد رجلين يقفان على ضيفي واد وبينهما مدى بعيد فينشد أحدهما: قفا نبك، فيسمعه الآخر. فبم تعلقت حتى وصلت إليه؟ ثم أشجر الكلام وأشجنه.

وكنت أقول للشعراء: أخبروني عن ثلاثة منكم أحضرهم " السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " – أعز الله نصره – وكان أحدهم يعمل البيت من قرى " قفا نبك " في دقيقة، والآخر في دقيقتين، والثالث في ثلاث دقائق. فأمرهم أن يصنعوا بيتا على ذلك العراق ويتعاطوا فيه النصفة، أكان هذا يمكن أم يتعذر؟ وهل تجري الأبيات كلها مجرى واحدا أم تختلف لاختلاف مهيئات الحروف؟ فإن حملهم ادعاء الرتبة والفرار من حياء الغلبة على أن يقولوا: كنا نتناصف ونتماثل ونجيب " السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء " – خلد الله أيامه إلى ما أمر؛ قلت لهم: فكم المدة التي ينجز معها فرغ البيت؟ فإن قالوا: لا نعلم، فقد رجعوا عن دعواهم وأقروا بالعجز لمن سألهم.... وإن قالوا: نعمله في ستة أجزاء من أحد عشر من دقيقة يعمل الذي جرت عادته أن يعمل البيت في دقيقة، ستة أجزاء من أحد عشر من البيت. وكان يعمل صاحب الدقيقتين ثلاثة أجزاء من أحد عشر، وكان يعمل صاحب ثلاثة جزءين.

قلت: كيف السبيل إلى تناصفكم في هذه القسمة، وقد علمتم أن أحد عشر عدد أصم؟ وهل في طاقتكم أو طاقة غيركم قسمة الحرف الواحد أو الحركة، على هذه الأجزاء؟ ثم يتنوع الخطاب في ذلك إلى ما شاء الله.

وأما قولك إن صوتي جنسان: حمحمة وشحيج، وأنه لا يبنى منها النظام، فإن الأشياء لها جمل، والجمل لها تفصيل، والتفصيل له تأويل " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ".
قد جعلت صوتي، لأنه جنسان، قريبا من حد الإبانة. ولعله قد بلغك حديث " أبي مالك الأشجعي " الذي يروي عنه أنه قال: "كنا مع علي علىه السلام منصرفه من صفين، فمر بالحيرة وهي كثيرة النصارى فسمع صوت الناقوس فقال: ما يقول الناقوس؟ فقلنا: ما قول يا أمير المؤمنين؟ فقال: يقول:

إن الدنيا قد أغوتنا ... واستغوتنا واستهوتنا

لسنا ندري ما قدمنا ... فيها إلا لو قد متنا

تفنى الدنيا قرنا قرنا ... يا ابن الدنيا مهلا مهلا

زن ما يأتي وزنا وزنا ... ما من يوم يمضي عنا

إلا أوهى منا ركنا

أفلا ترى إلى أمير المؤمنين كيف صرف صوت الناقوس وهو جنس واحد، لأنه يحدث باصطكاك جسمين جماديين؟ فصوتي أولى بالتفريع من صوت الناقوس، وصوت الناقوس أولى بالتفريع من الصمت الدائم والجمادى.
وقد روى أن " عدي بن زيد "كان مع " النعمان بن المنذر " تحت شجرة كان يشرب عندها ملوك الحيرة. فقال له عدي بن زيد: أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: وما تقول؟ قال: إنها تقول:

رب شرب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحوا لعب الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفلا ترى كيف تأول " عدي " صمت الشجرة؟ وقد قال " الحارثي ":

فأسمعنا بالصمت رجع كلامنا ... فأبلغ به من ناطق لم يحاور." (١)

"يقول: تشابه الخلقان؛ منك ومن الأسد في الإقدام، واختلفا في بذل المطاعم، فإنك تبذل مأكولك، وهو يضن به ويذب عنه.

أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متنا أزل وساعدا مفتولا

المتن: الصلب. والأزل: الأرسخ الممسوح العجز. والمفتول: القوي المكلم.
يقول: رأى الأسد فيك متنه الأزل، وساعده المفتول، وذلك من علم الشجاع البطل.

---

(١) رسالة الصاهل والشاحج أبو العلاء المعري ص/٢٤

في سرج ظامئة الفصوص طمرة ... يأبى تفردها لها التمثيلا
الظامئة: قليلة اللحم. والفصوص: المفاصل، واحدها فص. والطمرة: الوثابة، وقيل: المرتفعة الشاخصة.
يقول: نظر إليك الأسد وأنت على فرس لطيفة الأوصال، يأبى تفرد هذا الفرس بالكمال، أن يكون له مثل، وقيل: أراد لا يحتاج صاحبه معه إلى فرس آخر.
نيالة الطلبات لولا أنها ... تعطي مكان لجامها ما نيلا
يقول: إنها تدرك كل ما تطلبه وهي طويلة العنق، فلولا أنها تمكن ملجمها من رأسها ما وصل إليها، وقيل: إنه وصف صعوبتها. أي لولا أنه؛ تحط رأسها للجام، لما كان ينال رأسها أحد، لكنها مكنت من نفسها ملجمها فأمكن إلجامها لذلك.
تندى سوالفها إذا استحضرتها ... وتظن عقد عنانها محلولا
السوالف: صفحات العنق. وتندى: أي تبتل من العرق، وذلك من أمارات العنق. والاستحضار: طلب الحضر.
يقول: من ازدياد جريها؛ عرقت سوالفها. وقوله: وتظن عقد عنانها محلولا: أي أنها تدخل في العنان وتدني صدرها، فيتسع العنان في يد فارسها، فكأنه محلول.
ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا
الزور: أعلى الصدر، عاد إلى وصف الأسد.
يقول: ما زال يجمع نفسه في صدره للوثبة، حتى حسبت عرضه، طولا. وقيل: أراد أن الفرس إذا أراد الوثوب ضم نفسه إلى صدره.
ويدق بالصدر الحجار كأنه ... يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا
الحجار: كالحجارة، وأراد بالحضيض: هاهنا أسفل الأرض.
يقول: إن المذكور قبله ما زال يدق الحجارة بصدره عند وثوبه، حتى كأنه يريد أن يشقها ويغوص فيها.
وكأنه غرته عين فادني ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا
ادنى: افتعل من الدنو: أي دنا.
يقول: كأن الأسد غرته عينه حين رآك إنسانا كسائر الناس فدنا إليك، ولم يعلم أنك أسد، ولو علم بأسك لم يجرء عليك، فلما لم يعلم ذلك، رأى الإقدام عليك خطبا حقيرا.
أنف الكريم من الدنية تارك ... في عينه العدد الكثير قليلا

الأنف **والأنفة**: بمعنى. والدنية: النقيصة. وهذا مثل. وأراد: أن الأسد أنف من الفرار فأقدم عليك، كما أن الكريم يطرح نفسه على العدد الكثير ويرى ذلك الكثير قليلا لعلو همته. فكذلك الأسد أقدم عليك مخافة **الأنفة**.

والعار مضاض، وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

مضاض: أي مؤلم، وهذا أيضا مثل.

يقول: من أنف من العار لم يخف حتفه؛ لأنه يرى حتفه أسهل عليه من مقال الناس فيه.

سبق التقاءكه بوثبة هاجم ... لو لم تصادمه لجازك ميلا

عدى الالتقاء إلى الكاف وهو لا يتعدى إلا بالواو أو مع.

يقول: لما رآك تقرب منه سبقك بوثبة هاجم، فلولا أنك صادمته لجازك ميلا؛ لشدة وثبه. فضله على الأسد.

خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا

المكافحة: المواجهة. والتجديل. السقوط على الجدالة: وهي الأرض.

يقول: لولا قوته لما قتلته؛ لأنه لقوته أقدم عليك، فلما واجهته بقوتك خذلته وخذلت قوته، حتى استنصر التسليم، فانقاد لك واختار السقوط على الأرض.

قبضت منيته يديه وعنقه ... فكأنما صادفته مغلولا

يقول: إن أجله قبض يديه وعنقه لك، فكأنه كان مغلولا قبل أن تلحقه، فصادفته مغلولا لما لم يمكنه المدافعة.

سمع ابن عمته به وبحاله ... فنجا يهرول منك أمس مهولا

نجا: أسرع المشي. والهرولة: اضطراب العدو. والمهول: الذي قد هاله أمر.

يقول: إن ابن عمة هذا الأسد وهو أسد مثله سمع بحال الأول، وقتلك إياه، فلما ركبت إليه فر منك مسرعا، خوفا أن تقتله كما قتلت الأول.

وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا

أمر: أي أشد مرارة.." (١)

"ثاقب العقل ثابت الحلم لا يق ... در أمر له على إقلاق

ثاقب: قيل معناه: عقله صادق من الجهل منير، يرى به الأمور على حقائقها.

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/١٢٩

وقيل: بين العقل. وقيل: نافذ العقل ثابت الحلم أي أنه متمكن من حلمه لا يطيش ولا يزعجه شيء ولا يقلقه أمر، لثبات عقله وزيادة حلمه.

يا بني الحارث بن لقمان لا تع ... دمكم في الوغى متون العتاق

يقول لقومهم: لا عدمتكم ظهور الخيل في الحرب. وخص ذلك في حال الحرب؛ دلالة على شجاعتهم. لأن ملازمة ركوب الدواب عادة الرائضين.

بعثوا الرعب في قلوب الأعادي ... فكأن القتال قبل التلاقي

يقول: ملئوا قلوب أعاديهم من الخوف، فانهزموا منهم قبل ملاقاتهم وقتالهم، فكان القتال والحرب قبل الالتقاء.

وتكاد الظبي لما عودوها ... تنتضي نفسها إلى الأعناق

الظبي: جمع ظبية وهي حد السيف. والتأنيث عائد إليها.

يقول: إنهم عودوا سيوفهم إخراجها من الأغماد، وضرب أعناق الأعداء بها، فهي تكاد تخرج نفسها من أغمادها، وتتوصل إلى الأعناق قبل أن يسلوها منها ويضربوا بها.

وإذا أشفق الفوارس من وق ... ع القنا أشفقوا من الإشفاق

يقول: إذا اشتدت الحرب وخاف الفرسان من الطعن، خاف هؤلاء من الخوف، فلا يقدمون في الحرب.

كل ذمر يزيد في الموت حسنا ... كبدور تمامها في المحاق

الذمر: الشجعان يقتحمون المعركة. وقوله: تمامها في المحاق إن أراد بذلك استكمال ضوئها، ففي الظاهر تناقض.

وتأويله: أن كل واحد منهم إذا مات زاد حسنه، لأنه لا يموت إلا قتلا. فكأنه يقول: هم في الحسن بدور، وإذا قتلوا زاد حسنهم بما يظهر من صبرهم وإقدامهم فكأنهم بدور، تمامها في المحاق على سبيل التقدير: أي لو وجدت بدور إتمامها في محاقها لكانوا مشبهين بها.

وذلك من تعليق الجائز بالمحال.

وقيل: أراد بالتمام غاية ما يفضى إليه أمر البدور وهو المحاق. ومعناه: أن هؤلاء تمام أمرهم في قتلهم. كبدور يفضي أمرها بالمحاق فكذلك يفضي أمر هؤلاء إلى القتل، ولا يموت أحد منهم إلا حتف أنفه.

جاعل درعه منيته إن ... لم يكن دونها من العار واق

الهاء في دونها للمنية.

يقول: كل واحد منهم إذا لم يمكن دفع العار عن نفسه إلا بتدرع الموت، يجعل المنية درعه حتى يقي بها عن نفسه.

كرم خشن الجوانب منهم ... فهو كالماء في الشفار الرقاق

يقول: فيه كرم يحمله على خشونة جوانبه على الأعداء، ففيه لين من حيث الكرم، وخشونة من حيث البأس والامتناع من **الأنفة**، فهو كالسيف إذا سقي صلبت شفرته وألبسها خشونة مع ما فيه من الرقة والصفاء. وهذا من بدائع المتنبي.

ومعال إذا ادعاها سواهم ... لزمته جناية السراق

يقول: لهم معال مشهورة لا يمكن لأحد أن يدعيها لنفسه، فإن ادعى مدع ذلك لزمه ما يلزم السارق من قطع اليد.

يابن من كلما بدوت بدا لي ... غائب الشخص حاضر الأخلاق

نصب غائب وحاضر على الحال. وبدا فعل من وأراد به الأب.

يقول: إذا رأيناك كأنا رأينا أباك، لأن أخلاقه موجودة فيك فلم تفتقد منه إلا شخصه.

لو تنكرت في المكر لقوم ... حلفوا أنك ابنه بالطلاق

يقول: إنك تشبه أباك في إقدامه وشجاعته، فلو تنكرت: أي أخفيت نفسك. في المكر: أي في الحرب. لحلفوا بالطلاق أنك ابنه. وخص المكر: إشارة إلى أنه في الإقدام والشجاعة لا يشبه إلا أباه، إذ مثل ذلك لا يوجد إلا منه، أو من أبيه، أو لأن هذا الموقف أشرف المواقف وأفخرها والشبه هنا أقوى الأشياء وأنفسها.

كيف يقوى بكفك الزند والآ ... فاق فيها كالكف في الآفاق

الهاء في فيها للكف.

يقول: كيف يطيق زندك حمل كفك؟ مع أن كفك قد أحاطت بنواحي الأرض! حتى صارت الآفاق في كفك بمنزلة كف الإنسان في الآفاق قلة وحضارة. وأراد بذلك سعة عطائه، وأنه يريد منافع العالم.

وقيل: معناه كيف يوري الزند النار ولا ينكسر من قوتك؟! وكفك يحيط بالآفاق إحاطة الآفاق بكف غيرك.

قل نفع الحديد فيك فما يل ... قاك إلا من سيفه من نفاق

يقول: الحديد لا يعمل فيك، فعجز أعداؤك عن المجاهرة بعداوتك وأعادوا السيوف والرماح واختاروا مواراتك والنفاق في حبك، فأظهروا الحب والانقياد. ولطوا على العماوة والشقاق.." (١)

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/١٩٩

"ومر سيف الدولة بسمندو وعبر آلس وهو نهر عظيم فنزل على صارخة وأحرق ربضها وكنائسها وربض الخرشنه وما حولها وأكثر القتل، وأقام بمكانه يوما ثم رحل حتى عبر آلس راجعا، فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش وسرى حتى جاز خرشنة، وانتهى إلى بطن اللقان في غد ظهرا، ولقى الدمستق في الألوف من الخيل، فلما نظر الدمستق إلى أوائل الخيل، ظنها سرية، فثبت لها وقاتل أول الناس حتى هزمهم، وأشرف عليه سيف الدولة فانهزم. قيل: وقتل من فرسانه خلق كثير، وأسر من بطارقته وزراورته ووجوه رجاله خلق كثير نيف على ثمانين، وأفلت الدمستق، وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده، وقفل غانما فلما وصل إلى عقبة تعرف بمقطعة الأثفار فصادفه العدو على رأسها، فأخذ ساقة الناس يحميهم، فلما انحدر بعد عبور الناس ركبه العدو فخرج من الفرسان جماعة، فنزل سيف الدولة على بردى وهو نهر عظيم وضبط العدو، وعقبة السير صعبة طويلة، فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها، فعدل متيا سرا في طريق وصفه له بعض أدلته، وأخذ ساقة الناس يحميهم، وكانت الإبل كثيرة مثقلة وجاءه العدو آخر النهار من خلفه، وقاتله إلى العشاء وأظلم الليل، فتسلل أصحاب سيف الدولة يطلبون سوادهم، فلما خف عنه أصحابه سار حتى لحق بالسواد تحت عقبة قريبة من بحية الحدث، فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين، فجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلا ينفر أحد فمن نجا من العقبة نهارا لم يرجع، ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة! وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر، فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة والزراورة ولك من كان في السلاسل – وكان فيها مئات – وانصرف سيف الدولة.

فاجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين، بعضهم نيام بين القتلى – من التعب – وبعضهم يحركونهم فيجهزون على من تحرك، فلذلك قال:

وجدتموهم نياما في دمائكم ... كأن قتلاكم إياهم فجعوا

فقال أبو الطيب: يصف الحال بعد القفول في جماد الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة. ويقال: إنه قد قتل في هذه الغزاة من المسلمين زهاء مئة ألف فارس ولم ينج سيف الدولة إلا في شرذمة يسيرة.

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

قوله: هذا الناس إنما وجه فيه الإشارة، أنه حمله على لفظ الناس ثم قال: إن قاتلوا إلى آخره، فرد الكناية إلى المعنى، وروى: هذا الخلق: وهذا ظاهر.

يقول: غيري ينخدع بأكثر هؤلاء الناس، ويغتر بأقوالهم، فأما أنا، لا أنخدع بهم، ولا أغتر بقولهم، لأني جربتهم فوجدتهم لا خير فيهم، يقولون ما لا يفعلون! فهم في ألسنتهم شجعان، وفي القتال جبناء لا خير

عندهم، ولا غناء.

أهل الحفيظة إلا أن تجربهم ... وفي التجارب بعد الغي ما يزع

الحفيظة: الشجاعة وأصلها: الغضب؛ لأن الشجاع يغضب عند الحروب، فيحمى عن قومه. وقيل: الحفيظة: **الحمية والأنفة**، والتجارب: جمع التجربة. ويزع: أي يكف يقول: هم أهل الشجاعة **والحمية** في الظاهر، وإذا جربتهم ظهر لك ما يزع عن الاغترار بهم، والانخداع بظاهر أحوالهم.

وما الحياة ونفسي بعدما علمت ... أن الحياة كما لا تشتهي طبع؟

الطبع: الدنس، ثم سمى العار والعيب طبعا وما استفهام في قوله: وما الحياة وموضعها رفع بالابتداء، والحياة: خبره، ونفسي: معطوفة على الحياة. يعني: وما الحياة، وما نفسي.

يقول: ما لنفسي وطلب الحياة، وكيف ترغب نفسي في حياة هي عار عليها، وغير موافقة لها! وقد علمت نفسي أن الحياة إذا كانت تنغص بما لا تشتهيه: مرة فقر، ومرة تعب، فهي طبع وعار.

ليس الجمال لوجه صح مارنه ... أنف العزيز بقطع العز يجتدع

المارن: مالان من طرف الأنف. يجتدع: أي ينقطع.

يقول: ليس جمال الرجل في صحة وجهه ومارنه، ولكن جماله في عزته ومنعته، فإن العزيز إذا ذهب عزه ذهب جماله، وكان في الحقيقة مثل من جدع أنفه، لأن السماجة فيه أكثر من قطع الأنف.

أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه؟ ... وأترك ألغيث في غمدي وأنتجع؟!

يقول: المجد وحسن الحال إنما يكسبان بالسيف. فأطرح هذا المجد عن كتفي ثم أطلبه! وأترك سيفي في غمدي، وأنتجع المعروف من وجه آخر! فإذا فعلت ذلك فكأني قد طلبت الأمر من غير وجهه.." [1]

"قدروا عفوا، وعدوا وفوا، سئلوا ... أغنوا، علوا أعلوا، ولوا عدلوا

علوا: من عليت في المكارم، مثل علوت في المكان.

يقول: إذا قدروا على أعدائهم عفوا عنهم عند القدرة، وإذا وعدوا وفوا وأنجزوا، وإذا سألهم سائل أعطوه وأغنوه. ولما ارتفعوا في المكارم شاركوا أولياءهم في معاليهم، ولما ولوا بثوا العدل في الرعية.

فوق السماء وفوق ما طلبوا ... فمتى أرادوا غاية نزلوا

فوق السماء: أي علوا فوق الغايات التي يضرب بها المثل، وعلوا الرتب فإذا أرادوا غاية نزلوا إليها من العلو.

قطعت مكارمهم صوارمهم ... فإذا تعذر كاذب قبلوا

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/٢٥٤

تعذر: أي اعتذر كاذب.

يقول: إن كرمهم قد قطع سيوفهم: أي منعها من القتل بالعفو، فإذا اعتذر إليهم مذنب قبلوا عذره، وإن كان كاذبا. كرما منهم.

لا يشهرون على مخالفهم ... سيفا يقوم مقامه العذل

يقول: إذا قدروا على دفع مخالفهم باللوم، لم يشهروا عليه السيف، ولم يتعدوا إلى القتال. يصفهم بذلك لكرم أخلاقهم.

فأبو علي من به قهروا ... وأبو شجاع من به كملوا

يقول: إن آل بويه إنما قهروا أعداءهم بأبي علي ركن الدولة، وكمل فضلهم وفخارهم بأبي شجاع عضد الدولة.

حلفت لذا بركات نعمة ذا ... في المهد: ألا فاتهم أمل

يقول: حلفت لأبي علي بركات أبي شجاع أنه يريك فيه جميع آماله: أي كانت مخايل سؤدده لائحة عليه وهو صغير في المهد، فذا الأول لأبي علي، والثاني لأبي شجاع، وقيل المعنى: حلفت لأبي شجاع بركات نعمة أبي علي ألا يتجاوزها المل، فذا الأول إشارة إلى أبي شجاع والثاني إلى أبي علي.

وقال أيضا يعزى عضد الدولة بعمته وقد توفيت بمدينة السلام.

آخر ما الملك معزى به ... هذا الذي أثر في قلبه

هذا دعاء بلفظ الخبر يعني: جعل الله هذه المصيبة التي أثرت في قلبك آخر ما تعزى به. أي: لا أعادها الله بعد هذه.

لا جزعا بل أنفا شابه ... أن يقدر الدهر على غصبه

يقول: لو لم يؤثر هذا المصاب في قلبه جزعا، لكن تداخلته **الحمية والأنفة** حيث قدر الدهر على غصبه عمته.

لو درت الدنيا بما عنده ... لاستحيت الأيام من عتبه

يقول: لو علمت الدنيا بما عنده من الفضل والمجد، لاستحيت من عتبه عليها؛ لأنها إذا أساءت إليه عتب عليها، لأجل هذه الإساءة.

لعلها تحسب أن الذي ... ليس لديه من حزبه

يقول: لعل الأيام ظنت أن من غاب عن حضرته، ليس من حزبه فأقدمت على ذلك لما رأتها بعيدة عن

نصرته.

وأن من بغداد دار له ... ليس مقيما في ذرا عضبه

الذرا: الناحية.

يقول: لعل الأيام ظنت أن من داره بغداد ليس في حماية سيفه، فلهذا عرضت لعمته لما كانت مقيمة ببغداد.

وقيل: كان ابن معز الدولة مقيما ببغداد وهو ابن عمه. يعني: أنه في حماية سيفه. والمقصد تفضيله عليه.

وأن جد المرء أوطانه ... من ليس منها ليس من صلبه

يقول: لعل الأيام ظنت ألا نسب بينك وبين عمتك لما بعدت عنك، ولم تكن مقيمة في وطنك ، الذي من عادتك وعادة أجدادك أن يكونوا فيه، ولعلها ظنت أن القوم يتناسبون بأوطانهم، فمن فارق وطنه لم يكن بينه وبين أهله نسب؛ فلهذا أقدمت عليها لما فارقت وطنك. والهاء في أوطانه للمرء وفي صلبه للجد.

أخاف أن يفطن أعداؤه ... فيجفلوا خوفا إلى قربه

يقول: أخشى أن يفطن أعداؤه إلى أن من قرب منه آمن حوادث الدهر، فيسرعون إلى قربه؛ ليحصلوا في ذمته.

لا بد للإنسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه

يقول: لا بد للإنسان من الموت، فعبر عنه بالضجعة، ثم قال: تلك الضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه. يعني: لا بد للإنسان أن يرقد رقدة لا ينقلب فيها من جنب إلى جنب، ولا ينتبه منها أبدا. ويعني بها ضجعة القبر.

ينسى بها ما كان من عجبه ... وما أذاق الموت من كربه

الهاء في بها للضجعة.

يقول: صاحب هذه الضجعة ينسى بسببها تكبره، وينسى عندها أيضا ما ذاقه من مرارة الموت؛ لأنه لا يحس شيئا.

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه؟!." (١)

"كريمته، ويولى أمرها غير نفسه، ورأينا من يجاوز ذلك إلى ألا ينكح مستنكحا، وزاد به العلو إلى ترك ما ذكره أولى؛ وكنا عرفنا حال إنسان تزوجت أمه؛ فعظم لذلك همه، وانفرد عن أودائه، وتوارى عن

---

(١) معجز أحمد أبو العلاء المعري ص/٤٥٤

أصفيائه؛ حياء من لقائهم، وكرها لتهنئتهم له أو عزائهم، واضطرته الوحشة إلى قصد من ظن به منهم المسكة في تحامى خطابه فيما اجتنب لأجله خلانه، وفارق بسببه إخوانه، وتخيل ذلك المقصود أنه إنما لجأ إليه ليسليه؛ فأفاض معه فيما قدر أنه قصد له من المعنى الذى جعله وحيدا خوف المفاوضة.

ثم مضت الأيام واختلف الحال، ورجع إلى العشرة وأبناء المودة؛ فكان عنده من لم يخاطبه أحظى، وفي نفسه أوفى، وعلى قلبه أخف، وفي نفسه أشف، ونقم على ذلك الصديق وعتب؛ إذ لكل من الناس- إلا من طاب محتده وطال سؤدده- حال من الإلف والرغبة تحسن المساوى، ثم حال من الملل والزهادة تقبح المحاسن؛ واعتذر المتكلف من التسلية بما لم يلزمه، ولم يرده صفيه، فإنه فعل ما أوجبته الأخوة، وحقوق الخلطة، وأسباب العشرة، وانبساط المفاوضة؛ ودبت عقارب الظنون والوشاية، إلى أن خرجا بالملاحاة إلى المعاداة؛ فلما وقع بعض الناس بينهما من معاودة الحسنى، ومراجعة الأولى؛ جاهر هذا الماقت بقرع سن الأسف على تخيل النهى والوقار من الممقوت، وظاهر الممقوت بتقريع الماقت، بتزويج أمه الذى تجشم من كلامه فيه فضلا، وتكلف من خطابه عليه ما من حسرة خلا؛ فأفضى الأمر بينهما إلى الأوتار، وطلب الثار.

فإن اضطر إلى القول في هذا المعنى أحد بأمر قاهر من السلطان، أو حوادث الأزمان، أو تطارح الإخوان، فليقل وليكتب ما مثلنا إن لم يجد منه بدا: أنت- بفضل الله عليك وإحسان تبصيره إياك- من أهل الدين، وخلوص اليقين، فكما لا تتبع الشهوة فى محظور تبيحه، فكذا لا تتبع الأنفة في مباح تحظره؛ وقد اتصل بنا اختاره الله والقضاء لذات الحق عليك، المنسوبة- بعد نسبك إليها- إليك." (١)

"قدرك، والزم الحياء والأنفة؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت عن الغلبة، لم يتقدمك نظير في مرتبة.

قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يوصى آخر أراد سفرا؛ فقال: آثر بعملك معادك، ولا تدع لشهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك إلى الهدى، ويجنبك من الردى، واحبس هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم؛ فإنك تبر بذلك سلفك، وتشيد به شرفك.

وأوصت أعرابية ابنها في سفر، فقالت: يا بنى؛ إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء؛ فخالط الناس بجميل البشر، واتق الله في العلانية والسر.

وقال بعض الملوك لحكيم وقد أراد سفرا: قفنى على أشياء من حكمتك أعمل بها في سفرى؛ فقال:

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني ٢/٤٠١

اجعل تأنيك أمام عجلتك، وحلمك رسول شدتك، وعفوك مالك قدرتك، وأنا ضامن لك قلوب رعيتك، مالم تحرجهم بالشدة عليهم، أو تبطرهم بالإحسان إليهم.

وقال أبان بن تغلب: شهدت أعرابية توصى ولدا له، أراد سفرا وهي تقول:

أبى بنى! اجلس أمنحك وصيتى، وبالله توفيقك، قال أبان: فوقفت مستمعا لكلامها، مستحسنا لوصيتها، فإذا هي تقول: أى بنى! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام؛ وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته، حتى يهى ما اشتد من قوته؛ وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك؛ وإذا هززت فاهزز كريما يلن لمهزتك؛ ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها، ومثل بنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه؛ ومن كانت مودته بشره، وخالف منه ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها.." (١)

"الحفيظة والسري السجايا، من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنئ المروءة خسيس الهمة ساقط **الأنفة**، وفي ذلك أقول قطعة منها: [من الوافر] .

هواك فلست أقربه غرور ... وأنت لكل من يأتي سرير وما إن تصبرين على حبيب ... فحولك منهم عدد كثير فلو كنت الأمير لما تعاطى ... لقاءك خوف جمعهم الأمير رأيتك كالأماني ما على من ... يلم بها ولو كثروا غرور ولا عنها لمن يأتي دفاع ... ولو حشد الأنام لهم نفير ٨ - ثم سبب ثامن: وهو لا من المحب ولا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس، وفروعه ثلاثة، إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلة الحب التي من أجلها وثق المحبوب فيغيرها؛ وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر.

وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل، وإن لليأس لعملا في النفوس عجيبا، وثلجا لحر الأكباد كبيرا؛ وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخرا فالتأني فيها واجب، والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر.

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن، ويثنون على المثابر على اللذات، وهذا يدخل في

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني ٢/٤٣٨

باب السلو؛ ولقد أكثر الحسن بن هانئ في هذا الباب وافتخر به، وهو كثيرا ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره، تحكما بلسانه واقتدارا على القول، وفي مثل هذا أقول شعرا منه: [من الخفيف]." [1]

"المتمكن في القوب، فاما هجر الدلال فهو ألذ من كثير الوصال وأما هجر الملال فيبطله مر الأيام والليال، إما بنأي الدار وإما بطول الاهتجار " ويؤسس ابن حزم على هذه القسمة فيجعل الهجر سبعة أقسام منها الأربعة التي عدها ابن داود كما يتحدث عن الهجر الذي يعد مكافأة على ذنب وعن هجر الملال ويحلل هذا الثاني تحليلا دقيقا ويورد عليه أمثلة، ويشفق فيما سماه ابن داود " هجر يوجبه البغض " فيتخلص من كلمة بغض، ويستعمل بدلا من ذلك " الجفاء " و " القلى " واللفظة الأخيرة مبهمة لأنها تعني الهجر، فإذا قلت " هجر الهجر " لم تفد معنى واضحا.

٣ – ويتوقف ابن داود (١٥٥) عند السلو الناتج عن الغدر، فيراه غير معيب، لان السالي إنما ينفر عمن خالف شكله، ولكن عليه ألا يشنع بهذا الغدر على المحبوب أو يذيعه عنه، ويعود إلى الموضوع (١٧٠) فيرى أن الصبر أحيانا على الغدر يقع لدى بعض المحبين، لأن حالة المحب قد تجاوزت حد العشق إلى الرضى بكل ما يفعله المحبوب ولو كان غدرا؛ أي أن ابن داود لا يقطع برأي وإنما يجيز حدوث السلو أو بقاء الحب مع الصبر؛ ويتعرض ابن حزم أيضا لظاهرة السلو الناتج عن الغدر فيرى ان السالي غير ملوم، ويحدد موقفه على نحو أدق إذ يلوم من يسبر عليه لأنه يرى ان الغدر لا يحتمله أحد ولا يغضي عليه كريم " ولا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذي الحفيظة والسري السجايا من الغدر، فما يصبر إلا دنئ المروءة خسيس الهمة ساقط **الأنفة** "؛ ومع مخالفته لابن داود فان الذي مهد له الانطلاق في هذه المخالفة هو ابن داود نفسه.

٤ – ويرد ابن داود (١٦٣) أسباب السلو إلى: نيل المحب لما أمله، أو لملل بسبب جفاء المحبوب ومخالفته، أو من الغدر المطلوب، أو التأذي من رقيب وحاجب، أو بسبب سعاية واش وعذول ويفرع ابن حزم على هذه الأسس، فيجعل بعض الأسباب ناجما من قبل المحب: ومنها الملل والرغبة في الاستبدال (وهي تقابل نيل المحب لما أمله وسعيه." [2]

"الهجر وهو آفات الحب، وهما يقفان متباعدين إذا التزمنا بالمقولات الثلاث. لهذا بعد ان قرر ابن حزم هذا الهيكل المنطقي عاد فغير ترتيب الفصول بحيث يتوازى كل موضوع مع ضده إن وجد له ضد.

---

(١) طوق الحمامة لابن حزم ابن حزم ص/٢٥٤

(٢) رسائل ابن حزم ابن حزم ٤٧/١

وقد حتم عليه هذا المنهج ان يستبعد موضوعات تتصل بالحب أو يجعلها هامشية بينما يعالجها غيره في فصول مستقلة مثل الشوق والحنين، والبكاء والعتاب والغيرة، ودرجات المحبة، ولا ريب في أن ابن حزم تحدث عن هذه الموضوعات، إلا أنه رآها تفريعا على موضوعات أكبر منها، فجعل البكاء من علامات الحب، والمح إلى العتاب في مواطن، وتحدث عن غيرته هو وعن القنوع بالشركة في المحبوب لذهاب الغيرة وعن سقوط ابن الجزيري وغيره لسقوط الغيرة من نفوسهم، ولعله أدرك من بعد أن منهجه في الطوق لم يمكنه من تحديد بعض الأمور المتعلقة بموضوع الحب فعاد إلى " الغيرة " في رسالته " في مداواة النفوس " فحددها بأنها " خلق فاضل متركب من النجدة والعدل لان من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره على حرمته، ومن كانت النجدة له طبعا حدثت فيه عزة، ومن العزة **الأنفة** من الاهتضام " (١) وقرر هنالك ان الغيرة إذا ارتفعت ارتفعت المحبة (٢) . فابن حزم إذن لا يمكن أن يفرد للغيرة بابا في رسالة عن الحب لأنها " خلق " ولكنه قد يتحدث عنها في معرض الحديث عن ظواهر معينة من الحب.

وفي رسالة مداواة النفوس توقف عند درج المحبة، وهو موضوع لم يتح له منهجه في الطوق أن يعالجه فقال: " درج المحبة خمسة أولها الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة أو يستحسن أخلاقه، وهذا يدخل في باب التصادق، ثم الإعجاب وهو رغبة الناظر في المنظور اليه في قربه، ثم الألفة وهي الوحشة إليه متى غاب، ثم

---

(١) رسائل ابن حزم: ١٤١.

(٢) المصدر نفسه.." [1]

"يلازمانه. أما الغيرة أو **الأنفة** الشديدة فقد حملته على بضعه لانكاح الحرم جملة، وأما سوء الظن فإنه امتد حتى شمل الرجال، وقد ظل يراه حزما ما لم يخرج عن حدود الدين. كذلك استمر لديه التحمل للأذى والصبر على الألم من الخصوم والإخوان على السواء، حتى اتهمه بعضهم بتبلد الإحساس في هذه الناحية، وهو يرد على ذلك بان الإحساس بالألم في مثل ذلك أمر طبيعي ولكن كل ما هنالك أنه راض نفسه على عدم الثورة والهياج والتخبط، ولكنه يستطيع ان يرد بكلام مؤلم دون إفحاش متحريا الصدق فيما يقول.

---

(١) رسائل ابن حزم ابن حزم ٥٧/١

كذلك اتهم بأنه مذل بأسرار إخوانه، ولعل في هذا إشارة إلى كتاب الطوق نفسه إذ كشف فيه أسرار كثيرين ممن عرفهم، وكان الناس في أيامه يعرفونهم حتى وان لم يذكر أسماءهم؛ كما اتهموه بأنه يسمع الذم في اخوانه ولا يمتعض لهم، ويرد على هذه التهمة بأنه يمتعض امتعاضا رقيقا، يحمل الذام على الندم والاعتذار والخجل، دون مهارشة له أو استثارة لغضبه، لان ذلك قد يحمله على التمادي في ذم أحد إخوانه، ويتعدى الذم إلى سب الأبوين وإلى السفه والبذاءة.

وأخذ عليه أنه متلف لماله، ولابد أن تكون هذه التهمة بعد إذ أصبح يستطيع الحصول على مال يمكن التوفير فيه، وهذه الحال غير مستنكرة في من عانى شظف العيش بعد استقرار ورفاهية، واني لأظنها مأخذا صحيحا، ولكن ابن حزم يعتذر عنها بأنه لا يتلف من ماله إلا ما فيه حفظ دينه من النقص وعرضه من الأخلاق ونفسه من التعب، وكأني به يقر بتلك الخصلة على نحو غير مباشر.

ويطالعنا ابن حزم بخصلة كانت فيه ليس من السهل أن يستشف من مؤلفاته، وهي دعابة غالية، وتلك صفة حاول فيها الاعتدال بتجنب ما يغضب الممازح، وظل يحتفظ منها بالقسط الذي لا يؤذي الآخرين. وقد نحمل عليها ثلاثة مواقف في الطوق أولها: أن ابن حزم توقف في." (١)

"الحفيظة والسري السجايا، من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنئ المروءة خسيس الهمة ساقط **الأنفة**، وفي ذلك أقول قطعة منها: [من الوافر] .

هواك فلست أقربه غرور ... وأنت لكل من يأتي سرير

وما إن تصبرين على حبيب ... فحولك منهم عدد كثير

فلو كنت الأمير لما تعاطى ... لقاءك خوف جمعهم الأمير

رأيتك كالأماني ما على من ... يلم بها ولو كثروا غرور

ولا عنها لمن يأتي دفاع ... ولو حشد الأنام لهم (١) نفير ٨ - ثم سبب ثامن: وهو لا من المحب ولا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس، وفروعه ثلاثة، إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلة الحب التي من أجلها وثق المحبوب فيغيرها؛ وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر.

وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل، وإن لليأس لعملا في النفوس عجيب ا، وثلجا لحر الأكباد كبيرا؛ وكل هذه الوجوه

---

(١) رسائل ابن حزم ابن حزم ٧٧/١

المذكورة أولا وآخرا فالتأني فيها واجب، والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر.

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن، ويثنون على المثابر على اللذات، وهذا يدخل في باب السلو؛ ولقد أكثر الحسن بن هانئ في هذا الباب وافتخر به، وهو كثيرا ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره، تحكما بلسانه واقتدارا على القول، وفي مثل هذا أقول شعرا منه: [من الخفيف]

---

(١) برشيه: له.." (١)

"ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يوما ان شاء الله.

(أ) فمنها كلف في الرضاء وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار وتحملت من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مضض مؤلم كان ربما امرضني، وأعجزني ذلك في الرضى وكأني سامحت نفسي في ذلك، لأنها تمثلت ان ترك ذلك لؤم.

(ب) ومنها دعابة غالبة، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهيا للكبر.

(ج) ومنها عجب شديد: فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع.

(د) ومنها حركات كانت تولدها غرارة الصبا وضعف الأعضاء فقسرت نفسي على تركها فذهبت.

(هـ) ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي، مع ظهور النفس الغضبية إذا كانت منقادة للناطقة فضل وخلق محمود.

---

(١) رسائل ابن حزم ابن حزم ٢٥٤/١

(و) ومنها إفراط في **الأنفة** بغضت الي إنكاح الحرم جملة بكل وجه وصعبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الافراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي، والله المستعان.." (١)

"عدل كره ان يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره على حرمته. ومن كانت النجدة له طبعا حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث **الأنفة** من الاهتضام.

١٢٠ - اخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتلي بالمحبة فغار. وكان هذا المخبز فاسد الطبع، خبيث التركيب، إلا انه [كان] (١) من أهل الفهم والجود.

١٢١ - درج المحبة خمسة: أولها الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنة أو يستحسن اخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق، ثم الاعجاب، وهو رغبة الناظر في المنظور اليه وفي قربه، ثم الألفة وهي الوحشة اليه متى غاب، ثم الكلف، وهو غلبة شغل البال به، وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق، ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك، وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت. وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلا.

١٢٢ - فصل: كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بلها.

(١) زيادة من م.." (٢)

"وأما صحبتهم بالنجوم فلا يدخل في ذلك ذو مسكة عقل ألبتة، لأنه يتعاطى ما ليس في قوته الوفاء به، فهو دهره في كذب متصل ومواعيد وخدائع متصلة، وفضائح متواترة، وخزايا متتابعة. وكد من اتصل بسلطان إصلاح أخلاقهم وحملهم على البر وصرفهم عن المأثم جهده وطاقته.

ودعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت (١) ، ثم قصد إلى عين العلم، ليخرج به عن جملة أشباه البهائم فقط، لا يجعله مكتسبه ولا ليمدح به، وذكاء وفهم وبحث وذكر وصبر على كل ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلوا كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به. فإذا لا سبيل إلى ذلك فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد. وهذا

(١) رسائل ابن حزم ابن حزم ٣٥٤/١

(٢) رسائل ابن حزم ابن حزم ٣٧٤/١

خطأ ممن ذم الإكثار منها، ولو أخذ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادعوا ما شاءوا. فلولا شهادة الكتب لا ستوت دعوى العالم والجاهل. وسقوط الأنفة في التكرر على العلماء، وتقييد ما [يسمع] وجمعه، وملازمة المحبرة والكتب يده وكمه، وسكنى حاضرة فيها العلم، ولقاء المتنازعين وحضور المتناظرين، فبهذا تلوح الحقائق، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد كمن تكلم عن غيره، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة، ومن لم يسمع إلا من عالم واحد أوشك أن لا يحصل على طائل، وكان كمن يشرب من بئر واحدة ولعله اختار الملح المكدر، وقد ترك العذب. ومع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحق، ولا بد، فمن طلبه كما ذكرنا أوشك أن ينجح مطلبه وأن لا يخفق سعيه، وأن يحصل في المدة اليسيرة على الفائدة العظيمة. ومن تعدى هذه الطريق كثر تعبه، وقلت منفعته. ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره؛ أوشك أن يكون ضحكة وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه، أكثر مما أدرك منه لتعليق العلوم بعضها ببعض، كما ذكرنا، وأنها درج بعضها إلى بعض، كما وصفنا، ومن طلب الاحتواء على كل علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء،

---

(١) الصوت والصات والصيت: الذكر الحسن.." (١)

"ففيهم أنزل الله عز وجل إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله إلى قوله: إلى جهنم يحشرون [(٤)] .

فلما اجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحابيشها، ومن أطاعها من بني كنانة وأهل تهامة، خرجوا معهم بالظعين [(٥)] التماس الحفيظة [(٦)] وأن لا يفروا [(٧)] ، فخرجوا حتى نزلوا يعنين ببطن السبخة على شفير واد مما يلي المدينة [(٨)] .

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين: إني قد رأيت بقرا [تذبح] [(٩)] وأولتها خيرا، ورأيت في ذؤابة [(١٠)]

[(٤)] الآية الكريمة (٣٦) من سورة الأنفال.

[(٥)] (الظعن) جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج

---

(١) رسائل ابن حزم ابن حزم ٤/٧٧

[(٦)] (الحفيظة) : الأنفة، والغضب.

[(٧)] في سيرة ابن هشام جاء بعده، فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس، (معه) بهند ابنة عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحرث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن امية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية، وهي أم عبد الله بن صفوان (بن أمية) .

قال ابن هشام: ويقال رقية.

قال ابن إسحاق: وخرج عمرو بن العاص برقطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة (وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار) بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، وهي أم بني طلحة: مسافع، والجلاس: وكلاب، قتلوا يومئذ هم وأبوهم وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب، إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير، وهي أم مصعب بن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى او مر بها قالت: وبها أبا دسمة اشف واشتف، وكان وحشى يكنى بأبي دسمة.

[(٨)] في سيرة ابن هشام: «على شفير الوادي مقابل المدينة» .

[(٩)] الزيادة من سيرة ابن هشام.

[(١٠)] ابن هشام «ذباب سيفي» .." [(١)]

"ما عليهم من سبيل؛ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ".

باب التكسب بالشعر والأنفة منه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنهاكم عن قيل وقال، وعن كثرة السؤال، وإضاعة المال، وعقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات ".

وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بني تيم رهط المعلى:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي محققا البيهقي، أبو بكر ٢٢٥/٣

أقر حشا امرئ القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء، لقتله بني أبيه الذين قتل بدير مرينا، فقيل لبني تيم " مصابيح الظلام " من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس. وقال أيضا لسعد بن الضباب:

سأجزيك الذي دافعت عني ... وما يجزيك عني غير شكري

فأخبره أن شكره هو الغاية في مجازاته كما قدمت.

حتى نشأ النابغة الذبياني؛ فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيما، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك.." (١)

"إلا بقايا من أناس بهم ... إلى سبيل المكرمات يهتدى

كالسيد أبي الحسن أحسن الله إلى الدنيا ببقائه. وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم **الأنفة** من السؤال بالشعر، وقلة التعرض به لما في أيدي الناس، إلا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة كالفلتة النادرة والمهمة العظيمة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته. ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها كعادته عند هبوب الصبا، وقد أسن وأقل، وكان يطعم الناس ما هبت الصبا، قال لابنته: اشكري هذا الرجل فإني لا أجد نفسي تجيبني، ولقد أراني لا أعيا بجواب شاعر، فقالت هذه الأبيات:

إذا هبت رياح أبي عقيل ... دعونا عند هبتها الوليدا

أغر الوجه أبيض عبشميا ... أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا ... عليها من بني حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا ... نحرناها وأطعمنا الثريدا

فعد إن الكريم له معاد ... وظني بابن أروى أن يعودا

وعرضتها عليه فقال: لقد أجدت لولا أنك استعدت، كراهية في قولها:

فعد إن الكريم له معاد ويروى: لولا أنك استزدت.

وقالوا: كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب؛ لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر، وشدة

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ١/ ٨٠

العارضة، وحماية العشيرة، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل؛ فلا يقدم عليهم خوفا من شاعرهم على نفسه وقبيلته، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة." (١)

"عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء؟ فقال: بهذا الخبر صح للأعشى ما قلت، وذلك أنه ما من حامل لواء إلا على رأس أمير، فامرؤ القيس حامل اللواء، والأعشى الأمير.

وقالت طائفة من المتعقبين: الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز. وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر.

وطائفة أخرى تقول: بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نواس. وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف.

وقال قوم: بل الثلاثة مهلهل وابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف، وهذا قول من يؤثر **الأنفة**، وسهوله الكلام، والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس. لكن أبا العتاهية تصرف.

وليس في المولدين أشهر اسما من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحتري ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين وامرئ القيس في القدماء؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.

والاشتهار بالشعر أقسام وحدود، ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد الخبزرزي أشهر من منصور النمري وكلثوم العتابي وأبي يعقوب الخريمي وأبي سعيد المخزومي.

وفوق هؤلاء كلهم طبقة في السن أشهرهم وأشعرهم بشار بن برد، وليس يفضل على الحسن مولد سواه، وكذا روى الجاحظ وغيره من العلماء ... ومن." (٢)

"يا نبي الله في الشع ... ر ويا عيسى بن مريم

أنت من أشعر خلق ... الله ما لم تتكلم

وقال فيه أشعارا كثيرة منها:

انظر إليه وإلى خبثه ... كيف تطايا وهو منشور

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ٨٢/١

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ١٠٠/١

ويحك من دلاك في نسبة ... قلبك منها الدهر مذعور

إن ذكرت طاء على فرسخ ... أظلم في ناظرك النور

بل رآه دون المهاجاة والجواب، ولو هجاه لشرفت حاله ونبه ذكره.

وكذلك فعل المتنبي حين بلي بحماقات ابن حجاج البغدادي: سكت عنه اطراحا واحتقارا، ولو أجابه لما كان بحيث هو من **الأنفة** والكبر؛ لأنه ليس من أنداده، ولا من طبقته.

ولما وصل أبو القاسم بن هانئ إلى أفريقية هجاه الشعراء، فقال: لا أجيب منهم أحدا إلا أن يهجوني علي التونسي فإني أجيبه، فلما بلغ قوله عليا قال: أما إني لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرفني على أصحابي وجعلني من بينهم كفئا له.

ومن الشعراء من يتزيا بالكبر، ويظهر **الأنفة** في الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوف، من الزراية على نفسه، كما وقع من جماعة أعرفهم من أهل عصرنا، وهو يتسرعون إلى أعراض السوقة والباعة، ويستفحلون على الصبيان ومن ليس من أهل الصناعة، ولو كانت لهم أنفة كما يزعمون إلا عن الأكفاء لكانوا عمن لا يحسن شيئا بالجملة ولا يعد في الخاصة أشد تنزها.

ومنهم من لا يهجو كفئا ولا غيره؛ لما في الهجو من سوء الأثر، وقبح." (١)

"عقيل الندى، أطلق مدائح جمة ... خواصي حسرى قد أبت أن تسرحا

وكنت متى تنشد مديحا ظلمته ... يكن لك أهجى كلما كان أمدحا

عذرتك لو كانت سماء تقشعت ... سحائبها أو كان روض تصوحا

ولكنها سقيا حرمت رويها ... وعارضها ملق كلاكل جنحا

وأكلأ معروف حميت مريعها ... وقد عاد منها الحزن والسهل مسرحا

فيا لك بحرا لم أجد فيه مشربا ... وإن كان غيري واجدا فيه مسبحا

مديحي عصا موسى، وذاك لأنني ... ضربت به بحر الندى فتضحضحا

فيا ليت شعري إن ضربت به الصفا ... أيحدث لي فيه جداول سيحا

كتلك التي أبدت ثرى البحر يابسا ... وشقت عيونا في الحجارة سفحا

سأمدح بعض الباخلين لعله ... إذا اطرد المقياس أن يتسمحا

فهذا هو الذي لا يبلغ جودة، ولا يجاري سبقا، على أن البحتري قد تقدم إلى بعض المعنى في قوله للفتح

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ١/ ١١١

بن خاقان:

غمام خطاني صوبه وهو مسبل ... وبحر عداني فيضه وهو مفعم

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا ... وموضع رحلي منه أسود مظلم

وما بخل الفتح بن خاقان بالندى ... ولكنها الأقدار تعطي وتحرم

وأما أبو الطيب المتنبي فكان في طبعه غلظة، وفي عتابه شدة، وكان كثير التحامل، ظاهر الكبر والأنفة، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم." (١)

"ثم لما صار هؤلاء القوم إلى الدين وتمسكوا بالشريعة وعادوا أصحاب كتاب يدرس ومذهب يروى ظهر لعمري من دقيق أفهامهم وعجيب كلامهم ما هو موجود لا يخفى على أحد جالس العلماء وخالط الكتب سبقهم إليه ومعجزهم فيه وأنهم فرعوا من المذاهب وولدوا من العلوم ما كان من قبلهم كان ممنوعا منه ومصروفا عنه.

وأما حب الذكر وجميل الثناء والفرق من الذم وسوء القول فمما هو معلوم من عادتهم معروف من شيمتهم. حتى كانوا إذا أسروا شاعرا شدوا لسانه بن سعة خوفا من أن يسبقهم ببيت يشرد أو يعجلهم بقول يؤثر. وقد قال أبو عثمان الجاحظ: لأمر ما قال حذيفة بن بدر لأخيه والرماح شوارع في صدره إياك والكلام المأثور. وقال هذا مذهب فرعت فيه العرب جميع الأمم وهو مذهب جامع لأصناف الخير.

وأما الغيرة والأنفة والصبر والجلد فمعلوم منهم حتى نسبوا إلى الفظاظة وذكروا بالقساوة وعلل ذلك بإكثارهم أكل لحوم الإبل وإدمانهم ال تقوت بها وزعموا أن في طباعها قسوة القلوب ومن عادتها غلظ الأكباد. هذا وهم متى هب في أحدهم نسيم الصبابة ودبت في مفاصله نشوة الهوى لانت تلك المعاطف ورقت تلك الشمائل وعاد ذلك العز ذلا وفرقا وصارت تلك النخوة توسلا وخضوعا لكنه مع العفاف من الريب والبعد من التهم والمساواة بين الباطن والظاهر والاتفاق بين الغائب والبادي. وأشعارهم وأخبارهم بهذا كله مملوءة حتى كان هذا الحي من عذرة١ قوما إذا نظروا عشقوا وإذا عشقوا ماتوا.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ٢/١٦٤

١ قبيلة اشتهرت بالحب العذري.." (١)

"أ- في مجال التفسير:

١ - الفخر الرازي (١) وتفسيره مفاتيح الغيب:

إن أكثر المفسرين تأثرا واستفادة من كتاب "البسيط" للواحدي هو "الفخر الرازي" في تفسيره "مفاتيح الغيب" حيث نقل عن الواحدي كثيرا من أقواله مؤيدا ومعجبا بها، وربما نقل عنه وناقشه ورد عليه قوله، وكثيرا ما ينص على اسم "البسيط"، وقد ينقل عنه ولا يسمي كتابه، بل ربما نقل عنه بدون عزو.

وأذكر بعض الأمثلة التي توضح ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] قال الرازي: قال الواحدي: قوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة﴾ معناه أن رسول الله دعاه إلى ترك هذه الأفعال فدعاه الكبر **والأنفة** إلى الظلم (٢)، ثم يرد الرازي قول الواحدي ويبين ضعفه كما يرى فيقول: واعلم أن هذا التفسير ضعيف، لأن قوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة﴾ ليس فيه دلالة إلا على أنه متى قيل له هذا القول أخذته العزة، فأما أن هذا القول قيل أو ما قيل، فليس في الآية دلالة عليه، فان ثبت ذلك برواية وجب المصير إليه ... (٣).

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عمر بن حسين الرازي، المفسر الأصولي، شافعي المذهب، له تصانيف كثيرة، مات سنة ٦٠٦ هـ. انظر ترجمته في "النجوم الزاهرة" ٦/ ١٩٧، و"طبقات المفسرين" للداودي ٢/ ٢١٥.

(٢) "تفسير الرازي" ٥/ ٢٠٢، انظر كلام الواحدي في "البسيط" ١/ ل ١٢٥، من النسخة الأزهرية.

(٣) الرازي ٥/ ٢٠٢.." (٢)

"ولم أخرجه من أولي العزم من الرسل حين يقول لنبيه: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾ [القلم: ٤٨]؟ وإن كان مغاضبا لقومه (١) فإن كان غضبه قبل أن يؤمنوا فإنما غضب على من يستحق في المدة أن يغضب (٢). وإن كان الغضب عليهم بعد أن آمنوا فكيف يجوز أن يغضب على قومه حين آمنوا؟ وبه بعث، وإليه دعى. ولكن (٣) نبي الله عليه السلام لما أخبرهم (٤) عن الله أنه منزل العذاب

(١) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص/٥٥

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٣٤٨/١

عليهم لأجل، ثم بلغه بعد مضى الأجل أنه لم يأتهم ما وعدهم، خشي أن ينسب إلى الكذب، ويعير به، ويحقق عليه، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه، فدخلته (٥) **الأنفة والحمية**، وكان مغيظا بطول ما عاناه من تكذيبهم وهزئهم وأذاهم واستخفافهم بأمر الله، مشتهيا لأن ينزل بأس الله بهم. هذا إلى ضيق صدره وقلة صبره على ما صبر على مثله أولو العزم من الرسل.

وقد روي في الحديث (٦): أنه كان ضيق الصدر، فلما حمل أعباء

---

(١) (لقومه) ساقطة من (ت).

(٢) العبارة في "مشكل القرآن" لابن قتيبة ص ٤٠٥: (فإن كان نبي الله -صلى الله عليه وسلم- ذهب مغاضبا على قومه قبل أن يؤمنوا، فإنما راغم من استحق -في الله- أن يراغم، وهجر من وجب أن يهجر، واعتزل من علم أن قد حقت عليه كلمة العذاب.

(٣) في "المشكل" لابن قتيبة ص ٤٠٧: (فكأن).

(٤) في (د)، (ع): (خبرهم).

(٥) في (ت): (فأخذته)، وما أثبتناه هو الموافق لما في "مشكل ابن قتيبة" ص ٤٠٧.

(٦) روى الطبري في "تفسيره" ١٧/ ٧٧ والحاكم في "مستدركه" ٢/ ٥٨٤ - ٥٨٥ عن وهب بن منبه اليماني قال: إن يونس بن متى كان عبدا صالحا، وكان في خلقه ضيق، فلما حملت عليه أثقال النبوة - وهلا أحمال لا يحملها إلا قليل- تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل، فقذفها تحت يديه، وخرج هاربا منها، يقول الله =." [١]

"معنى المغاضبة هاهنا: **الأنفة**؛ لأن الآنف من الشيء يغضب، فتسمى **الأنفة** غضبا، والغضب أنفة؛ إذ (١) كان كل واحد سببا (٢) من الآخر، فمعنى ﴿ذهب مغاضبا﴾ ذهب (٣) أنفا من ظهور خلف وعده وقال: والله لا أرجع إليهم كذابا أبدا، وعدتهم العذاب في يوم ما فلم يأت.

وهذا الوجه اختيار ابن قتيبة (٤).

وفي رواية أبي صالح: أن ملكا من ملوك بني إسرائيل كان أمره بالمسير (٥) إلى ننوى (٦) ليدعو أهلها، بأمر شعيا النبي فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله، فخرج مغاضبا للملك، فعاقبه الله (٧) بالتقام الحوت، فلما قذفه الحوت بعثه الله (٨) إلى قومه، فدعاهم، وأقام بينهم حتى آمنوا (٩).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٥٧/١٥

(١) في "المشكل" ص ٤٠٦: (إذا).

(٢) في "المشكل" ص ٤٠٦: (بسبب).

(٣) في (ت): (وذهب).

(٤) "مشكل القرآن" لابن قتيبة ص ٤٠٦. قال القرطبي في "تفسيره" ١١/ ٣٣١ بعد حكايته لهذا القول، وأنه من قولهم غضب إذا أنف: وهذا فيه نظر، فإنه يقال لصاحب هذا القول: إن تلك المغاضبة -وإن كانت من **الأنفة- فالأنفة** لابد أن يخالطها الغضب، وذلك الغضب -وإن دق- على من كان؟ وأنت تقول لهم يغضب على ربه ولا على قومه. أهـ

(٥) في (د)، (ع): (بالمصير).

(٦) نينوى: بكسر أوله وسكون ثانية وفتح النون والواو، قرية بالموصل. انظر: "معجم البلدان" ٨/ ٣٦٨، "مراصد الاطلاع" ٣/ ١٤١٤.

(٧) لفظ الجلالة ليس في (ت) في الموضعين.

(٨) لفظ الجلالة ليس في (ت) في الموضعين.

(٩) ذكر رواية أبي صالح: ابن قتيبة في "مشكل القرآن" ص ٤٠٩ بهذا النص.." [١]

"معنى لا يظهر في بنية صورتها (١) ولذلك تركت على حال واحدة بعد العطف بها على مخاطبة جماعة.

و ﴿سكارى﴾ جمع سكران. وقرئ (سكرى) (٢).

قال أبو الهيثم: النعت (٣) [الذي على فعلان يجمع] (٤) على فعالى (٥) وفعالى مثل: غيران وغيارى وغيارى (٦)، وسكران [وسكارى. وإنما قالوا سكرى، وأكثر] (٧) ما يجيء فعلى جمعا لفعيل بمعنى مفعول، [مثل قتيل وقتلى وجريح وجرحى وصريع وصرعى] (٨)؛ لأنه شبه بالنوكى (٩) والجمعى [والهلكى لزوال عقل السكران (١٠).

---

(١) العبارة في (أ): (ولا ينكر أن تكون "ترى" كلمة في معنى لا يطهر ضمنت نيه صورتها)، وهي عبارة ركيكة.

---

[١] التفسير البسيط الواحدي ١٥/١٦٠

(٢) قرأ حمزة والكسائي: "سكرى" بفتح السين من غير ألف، وقرأ البافون: "سكارى" بضم السين وبألف بعد الكاف. "السبعة" ص ٤٣٤، "التبصرة" ص ٢٦٥، "التيسير" ص ١٥٦.

(٣) في (ظ): (البعث)، وهو خطأ.

(٤) ما بين المعقوفين كشط في (ظ).

(٥) في (ظ): (فعال)، وهو خطأ.

(٦) غيارى: سا قطة من (ظ)، وفي (أ): (عبارى).

وغيارى: جمع غيران وهو فعلان من المغيرة وهي **الحمية والأنفة**. انظر: "لسان العرب" ٥/ ٤٢ "غير".

(٧) غيارى: ساقطة من (ظ)، وفي (أ): (عبارى).

وغيارى: جمع غيران وهو فعلان من المغيرة وهي **الحمية والأنفة**. انظر: "لسان العرب" ٥/ ٤٢ "غير".

(٨) ما بين المعقوفين كشط في (ظ).

(٩) في (أ): (بالنكوى)، هو خطأ.

والنوكى: جمع أنوك، وهو: الأحمق. "الصحاح" للجوهري ٤/ ١٦١٣ (نوك).

(١٠) قول أبي الهيثم في "تهذيب اللغة" للأزهري ١٠/ ٥٧ (سكر).." [١]

"٢ - قوله: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ قال ابن عباس (١): جحدوا وكذبوا وأشركوا. وقال مقاتل: كفروا بالتوحيد من أهل مكة.

(في عزة) قال: يعني حمية، كقوله: ﴿أخذته العزة﴾ [البقرة: ٢٠٦] (٢). وقال الكلبي: يكفروا عن محمد -صلى الله عليه وسلم- (٣). قال المبرد: العزة التعزز عن الحق، نحو قوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] وتحقيقه **الأنفة** عن الانقياد للحق (٤).

وقوله: ﴿وشقاق﴾ قال ابن عباس: يريد الاختلاف (٥). والكلام في هذا تقدم (٦).

٣ - ثم خوفهم فقال: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ قال مقاتل: يعني الأمم الخالية حين كذبوا الرسل. ﴿فنادوا﴾ عند نزول العذاب في الدنيا (٧).

= أن هذا لا يجعلنا نقول: إن هذا هو الجواب؛ لوجود ما يصلح جوابا قبله. وأما الثالث: وهو أن الجواب

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٤٨/١٥

قوله: ﴿إن كل إلا كذب الرسل﴾ فبعيد أيضا لطول الفصل. وأما الرابع: وهو قول الأخفش: يجوز أن يكون لـ ﴿ص﴾ معنى يقع عليه القسم لا ندري نحن ما هو، كانه قولك الحق والله، فبعيد؛ لأن الجواب ظاهر ومفهوم ولا يحتاج إلى تقدير شيء.

(١) لم أقف عليه

(٢) "تفسير مقاتل" ١١٥ أ.

(٣) هكذا جاءت في العبارة في النسخ، وهو خطأ، فإن يكفروا تعدى بالباء وليس بعن، فالصحيح: يكفروا بمحمد. ولم أقف على قول الكلبي.

(٤) انظر: "اللسان" ٥/ ٣٧٨ (عزز).

(٥) "تفسير ابن عباس" بهامش المصحف ص ٣٨٠.

(٦) عند الآية (٢٥٦) من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾.

(٧) "تفسير مقاتل" ١١٥ أ.." [1]

"الفضل. وإليه ذهبت المعتزلة (١).

وقوله (٢) تعالى: ﴿أبى واستكبر﴾. هما بمعنى واحد، وكرر للتأكيد (٣)، وحقيقة الاستكبار: **الأنفة** مما لا ينبغي أن يؤنف منه (٤).

وقوله تعالى: ﴿وكان من الكافرين﴾. أي وصار (٥). كقوله: ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [هود: ٤٣].

وقال الأكثرون معناه: وكان في سابق علم الله من الكافرين (٦).

---

(١) أي: إلى أن إبليس ليس من الملائكة. انظر: "تفسير الرازي" ١/ ٢١٣. قال الزمخشري: إنه كان جنيا واحد بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بهم، فغلبوا عليه في قوله: "فسجدوا". "الكشاف" ١/ ٢٧٣.

(٢) في (ب): (وكان).

(٣) (أبى) امتنع عن السجود، و (استكبر) تكبر وتعاظم في نفسه فهو من أفعال القلوب، والإباء: الامتناع من السجود، والامتناع نابع من الكبر. انظر "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٤٨، "البحر" ١/ ١٥٣، وأبي السعود

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٤٢/١٩

في "تفسيره" ١/ ٨٥.

(٤) ذكر الأزهري عن ابن الأنباري: الاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا. "التهذيب" (كبر) ٤/ ٣٠٩٠، "مفردات الراغب": ص ٤٢١.

(٥) في (ب): (وصار من الكافرين). هذا هو القول الأول أن (كان) بمعنى: صار، انظر. "تفسير أبي الليث" ١/ ١١٠، و"تفسيرالثعلبي" ١/ ٦٤ أ، و"تفسير ابن عطية" ١/ ٢٤٨، و"زاد المسير" ١/ ٦٥، و"تفسير القرطبي" ١/ ٢٥٢، و"البحر" ١/ ١٥٤، وفي "تفسير ابن كثير" ١/ ٨١، قال ابن عطية بعد أن ذكر هذا القول: قال ابن فورك: وهذا خطأ ترده الأصول، ونقل هذا القرطبي وابن كثير.

(٦) قول جمهور المفسرين على أن (كان) على بابها، انظر: "تفسير أبي الليث" ١/ ١١٠، و"الثعلبي" ١/ ٦٤ أ، و"ابن عطية" ١/ ٢٤٨، و"القرطبي" ١/ ٢٥٢، و"زاد المسير" ١/ ٦٥، و"ابن كثير" ١/ ٨١، "البحر" ١/ ٣٢١. قال ابن جرير: (ومعنى قوله: ﴿وكان من الكافرين﴾: أنه كان حين أبى السجود من الكافرين حينئذ). "تفسير الطبري" ١/ ٨٢٢.." [١]

"حمية، أي أنفا وغضبا، منه لرجل حمي لا يحتمل الضيم، وحمي الأنف (١).

قال المبرد: **الحمية الأنفة** والإنكار، فإذا كانت مما لا يوقف من مثله فهو ضلالة وعلو، كما قال تعالى: ﴿حمية الجاهلية﴾ وإذا كانت لما يجب أن يوقف منه فصاحبها محمود.

قال الفراء: حموا أنفا أن يدخلها عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- (٢).

قال المقاتلان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا ونسائنا، وتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا -يعنون محمدا وأصحابه- فهذه **الحمية** الجاهلية التي دخلت قلوبهم (٣).

وقال الزهري: كانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم (٤). وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وذلك أن سهيل بن عمرو كان عند النبي صلى -صلى الله عليه وسلم- وهو يملي كتاب الصلح، وسهيل مشرك فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعلي: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: لا ندري ما الرحمن، ولكن اكتب: بسمك اللهم. ثم قال:

---

(١) انظر: "العين" (حمى) ٣/ ٣١٢، "تهذيب اللغة" (حمى) ٥/ ٢٧٤ لكن بلفظ (أنفا وغيظا) بدل

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٧٥/٢

غضبا.

(٢) انظر: "معاني القرآن" للفراء ٣/ ٦٨. ولم أقف على قول المبرد.

(٣) انظر: "تفسير مقاتل" ٤/ ٧٥، ٧٦، وأورد السمرقندي ٣/ ٢٨٥ هذا القول ولم ينسبه، وذكره البغوي ٧/ ٣٢١ ونسبه لمقاتل، وأورده ابن الجوزي في "زاد المسير" ولم ينسبه ٧/ ٤٤١، ونسبه في "الوسيط" ٤/ ١٣ للمقاتلان.

(٤) أخرج ذلك الطبري١٣/ ١٠٣ عن الزهري. وأورده الثعلبي ولم ينسبه ١٠/ ١٥١ ب، ونسبه للزهري: الماوردي ٥/ ٣٢٠، والقرطبي ١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩.." [1]

"قوله تعالى: ﴿الحر بالحر﴾ أراد: الحر يقتص بالحر، فحذف لدلالة ذكر القصاص عليه. والحر: نقيض (١) العبد، قال أهل الاشتقاق: أصله من الحر الذي هو ضد (٢) البرد، وذلك أن الحر له من **الأنفة** وحرارة **الحمية** ما يبعثه على المكرمة، بخلاف العبد، ثم قيل للأكرم من كل شيء: حر تشبيها بالرجل الحر (٣).

قال المفسرون: نزلت الآية في حيين من العرب، لأحدهما طول على الآخر، فكانوا يتزوجون نسائهم بغير مهور، فقتل الأوضع منهما من الشريف قتلى، فحلف الشريف ليقتلن الحر بالعبد، والذكر بالأنثى. وليضاعفن الجراح، فأنزل الله هذه الآية، ليعلم أن الحر المسلم، كفء للحر المسلم، وكذلك العبد للعبد، والذكر للذكر، والأنثى للأنثى (٤).

= أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فرض عليه الوقوف عند قتل قاتل وليه، وترك التعدي على غيره، كما كانت العرب تتعدى وتقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله، وأن الحكام وأولي الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وليس القصاص باللزام، إنما اللزام أن لا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأما إذا وقع الرضى بدون القصاص من دية أو عفو فذاك مباح، فالآية معلمة أن القصاص هو الغاية عند التشاح.

(١) في (ش): (يقتص).

(٢) في (م): (نقيض).

(٣) ينظر في معاني الحر: "تهذيب اللغة" ١/ ٧٨٠ - ٧٨٣، "اللسان" ٢/ ٨٢٧ - ٨٣٢.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣١٩/٢٠

(٤) ينظر في سبب النزول "تفسير الطبري" ٢/ ١٠٣، "معاني القرآن" للفراء ١/ ١٠٨، "المحرر الوجيز" ٢/ ٨٣ - ٨٤، "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٧٥، "أسباب النزول" للواحدي ص ٥٢ - ٥٣، "زاد المسير" ١/ ١٨٠، "العجاب" لابن حجر ١/ ٤٢٣ - ٤٢٦، "لباب النقول" للسيوطي ص ٣٢ - ٣٣، وقد استطرد الطبري -رحمه الله- في ذكر أسباب نزول للآية، وكلها تدور حول هذا المعنى الذي ذكره الواحدي.." [١]

"﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ وإذا قيل له: مهلا مهلا ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم ﴿فحسبه جهنم﴾ كافيه الجحيم جزاء له ﴿ولبئس المهاد﴾ ولبئس المقر جهنم." [٢]

"وحكى ابن الأنباري، عن الفراء، وجماعة من الأئمة: أن سجود الملائكة لآدم كان تحية ولم يكن عبادة، وكان ذلك سجود تعظيم وتسليم وتحية، لا سجود صلاة وعبادة، وكان ذلك تحية الناس وتعظيم بعضهم بعضا ولم يكن وضع الوجه على الأرض، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام.

وآدم سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: إنه كان أدأم بالعبرانية، وهو التراب، فعربته العرب فقالوا: آدم.

وقوله: ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ [البقرة: ٣٤] قال أكثر أهل اللغة والتفسير: سمي إبليس بهذا الاسم لأنه أبلس من رحمة الله، أي: أيس، والمبلس: المكتئب الآيس الحزين، وفي القرآن ﴿فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: ٤٤] .

وقال ابن الأنباري: لا يجوز أن يكون مشتقا من أبلس، لأنه لو كان كذلك لانصرف ونون كما ينون إكليل وإحليل وبابه، وترك التنوين في القرآن يدل على أنه أعجمي معرب معرفة، والأعجمي لا يعرف له اشتقاق.

قال مجاهد، وطاوس، عن ابن عباس: كان إبليس قبل أن يركب المعصية ملكا من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان سكان الأرض من الملائكة يسمون الجن، ولم يكن من الملائكة أشد اجتهادا، ولا أكثر علما منه، فلما تكبر على الله وأبى السجود لآدم وعصاه، طرده الله ولعنه، وجعله شيطانا وسماه إبليس.

وهذا قول ابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وأكثر المفسرين.

وقوله: أبى أي: أبى السجود ولم يسجد، وقوله: واستكبر ومعنى الاستكبار: الأنفة مما لا ينبغي أن يؤنف منه.

---

(١) التفسير البسيط ا الواحدي ٣/٥٣٢

(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/١٥٩

وقوله: وكان من الكافرين أي: صار، كقوله: ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [هود: ٤٣] ، وقال الأكثرون: وكان في سابق علم الله من الكافرين.." [1]

"وأراد بالحرث: الزرع والنبات، وبالنسل: نسل الدواب، على ما روي أنه أهلك المواشي وأحرق الزرع.

﴿والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة: ٢٠٥] قال الكلبي، عن ابن عباس: لا يرضى بالفساد والعمل بالمعاصي.

وذكر في تفسير الفساد ههنا: الخراب، وقطع الدراهم، وشق الثياب، لا على وجه المصلحة.

وقوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ [البقرة: ٢٠٦] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى إجابة الله في ظاهره وباطنه، فدعاه **الأنفة** والكبر إلى الإثم والظلم، وهو قوله: ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] معنى العزة ههنا: المنعة والقوة.

قال قتادة: إذا قيل له: مهلا مهلا.

ازداد إقداما على المعصية.

والمعنى: حملته العزة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم، فحسبه جهنم كافيه الجحيم جزاء له وعذابا، يقال: حسبك كذا.

أي: كفاك.

وحسبنا الله: أي: كافينا الله، قال امرؤ القيس:

وحسبك من غنى شبع وري

أي: يكفيك الشبع والري.

ولبئس المهاد جهنم، على معنى: بئس الموضع وبئس المقر، والمهاد: جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم.

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ [البقرة: ٢٠٧] قوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية، قال سعيد بن المسيب: أقبل صهيب مهاجرا نحو." [2]

"ب المؤمنات: أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية، وهو قول مجاهد، وسعيد، والحسن، ومذهب مالك، والشافعي.

وعند أبي حنيفة يجوز التزوج بالأمة الكتابية، والآية حجة عليه.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١٢٠/١

(٢) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣١١/١

وقوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ [النساء: ٢٥] قال الزجاج: أي: اعملوا على الظاهر من الإيمان فإنكم محاسبون بما ظهر، والله يتولى السرائر والحقائق.

وقوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ [النساء: ٢٥] أي: في النسب كلكم بنو آدم، فلا يتداخلنكم **الأنفة** من تزوج الإماء عند الضرورة.

وقوله جل جلاله: ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ [النساء: ٢٥] قال ابن عباس: يريد أخطبها إلى سيدها. ونكاح الأمة دون إذن السيد باطل.

وقوله: وآتوهن أجورهن أي: مهورهن بالمعروف من غير مطل ولا إضرار.

وقوله: محصنات يريد: عفائف، غير مسافحات غير زوان، ﴿ولا متخذات أخدان﴾ [النساء: ٢٥] جمع خدن وهو الذي يخادنك.

قال قتادة، والضحاك: المسافحة: هي التي تؤجر نفسها معلنة بالزنا، والتي تتخذ الخدن: هي التي تزني سرا.

وكانت العرب في الجاهلية يعيبون الزنا العلانية، ولا يعيبون اتخاذ الأخدان، فجاء الله تعالى بالإسلام، فهدم ذلك وقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ [الأعراف: ٣٣] .

قال قتادة: نهى الله تعالى عن نكاح المسافحة، وذات الخدن.

وقوله: فإذا أحصن أي: الأزواج على معنى تزوجن، ومن فتح الألف، فمعناه أسلمن، والإحصان." [١]

"وأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ [الفتح: ٢٤] والمعنى أن الله تعالى ذكر منته بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتتلا، وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح

ثم ذكر سبب منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك العام دخول مكة، فقال: ﴿هم الذين كفروا﴾ [الفتح: ٢٥] يعني: كفار مكة، ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ [الفتح: ٢٥] أن تطوفوا به، وتحلوا من عمرتكم، والهدي وصدوا الهدي، وهي: البدن التي ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، وكانت سبعين بدنة، معكوفا محبوسا، يقال: عكفته عن كذا عكفا، أي: حبسته فعكف عكوفا، كما يقال: رجعته رجعا، فرجع رجوعا، ﴿أن يبلغ محله﴾ [الفتح: ٢٥] منحره، وهو حيث تحل نحره يعني: الحرم، ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ [الفتح: ٢٥] يعني: المستضعفين من المؤمنين الذين كانوا بمكة بين الكفار،

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣٦/٢

لم تعلموهم لم تعرفوهم، أن تطئوهم بالقتل وتوقعوا بهم، قال الزجاج: المعنى: لولا أن تطئوا رجالا مؤمنين، ونساء مؤمنات.

﴿فتصيبكم منهم معرة﴾ [الفتح: ٢٥] إثم، وجناية بغير علم، وذلك: أنهم لو كبسوا مكة وفيها قوم مؤمنون، لم يتميزوا من الكفار، لم يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة، وتلحقهم سبة بأنهم قتلوا من هو على دينهم، فهذه المعرة التي صان الله المؤمنين عنها، وقوله: بغير علم موضعه التقديم، لأن التقدير: لولا أن تطئوهم بغير علم، ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ [الفتح: ٢٥] اللام متعلقة بمحذوف دل عليه معنى الكلام على تقدير: حال بينكم وبينهم، ليدخل الله في رحمته من يشاء، يعني: من أسلم من الكفار بعد الصلح، لو تزيلوا لو تميزوا، يعني: المؤمنين من الكفار، ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾ [الفتح: ٢٥] يعني: بالقتل، والسبي بأيديكم.

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية**﴾ [الفتح: ٢٦] وهي **الأنفة** والإنكار، يقال: فلان ذو حمية منكرة، إذا كان ذا غضب وأنفة، قال المقاتلان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا رغم أنفنا! واللات والعزى لا يدخلونها علينا.

فهذه حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم، ﴿فأنزل الله." (١)

"فلا تأمني غزو أفراسه ... بني وائل وازهبيه جديلا

وكيف اتقاء امرئ لا يئو ... ب بالقوم في الغزو حتى يطيلا

بشعث معطلة كالقسي ... غزون مخاضا وأدين حولا

نواشز أطباق أعناقها ... وضمرها قافلات قفولا

وإذا أدلجوا لحوال الغوا ... ر لم تلف في القوم نكسا ضئيلا

ولكن جلدا جميع السلا ... ح ليلة ذلك عضا بسيلا

فلما تبلج ما فوقه ... أناخ فشن عليه الشليلا

وضاعف من فوقها نثرة ... يرد القواضب عنها فلولا

مضاعفة كأضاة المسي ... ل تغشى على قدميه فضولا

فنهنهها ساعة ثم قا ... ل للوازعين خلوا السبيلا

فأتبعهم فيلقا كالسراب ... جأواء تتبع شخبا ثعولا

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/١٤٣

عناجيج في كل رهو ترى ... رعالا سراعا تبارى رعيلا

جوانح يخلجن الظبا ... ء يركضن ميلا وينزعن ميلا

فظل قصيرا على صحبه ... وظل على القوم يوما طويلا

@طرفة بن العبد

ترجمته والمختار من شعره

طرفة الشاعر الشاب ٥٤٠ - ٥٦٥ م

ترجمة الشاعر

تمهيد

طرفة شاعر صاحب شخصية واضحة في شعره، وصاحب مذهب واضح في حياته، وداعية من دعاة اللهو واللذة والعبث، وشاب جمع إلى فتوة الشاب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم، ويعجب النقاد والمستشرقون به وبشخصيته وشعره إعجابا شديدا؛ وشعره صورة واضحة لحياته كل الوضوح، بما كان فيها من مطامح وآمال وآلام وأحداث.

أسرة الشاعر وبيئته

١ - وطرفة شاعر فحل من أعلام الشعر الجاهلي، وهو من ربيعة من بكر بن وائل إحدى قبيلتيها العظيمتين المشهورتين - وهما بكر وتغلب - فهو بكري ربعي.

وربيعة أخت مضر في الشرف والسيادة وضخامة الحسب والقوة والعدد. وبكر أخت تغلب في المجد والجاه والعزة والأنفة، وهما جميعا من ربيعة. ومن شعراء بكر: الحارث بن حلزة الشاعر الجاهلي المشهور والمعدود من أصحاب المعلقات، وتوفي أواخر القرن السادس الميلادي، ومنهم المرقش الأكبر والمرقش الأصغر.

ذلك هو نسب الشاعر بين العرب وحسبه، أما أسرته القريبة فهي سعد بن مالك من بني قيس. إذ هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار من عدنان الجد الأعلى للعرب الحجازيين العدنانيين كما علمت.. واسم طرفة عمرو، وكنيته أبو عمرو.

٢ - كان قومه في عزة ومنعة بعددهم وحسبهم وشرفهم ومكانتهم بين العرب وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرئاسة، وكان أبو شابا قويا ظاهر الفتوة والجرأة والإقدام، مات وطرفة طفل صغير. وترك غير طرفة ابنا آخر اسمه معبد ورد ذكره في معلقة طرفة:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي على الجيب يا ابنة معبد

وأم طرفة اسمها وردة، وورد ذكرها في شعره، قال:

ما تنظرون بحق وردة فيكمو ... صغر البنون ورهط وردة غيب

ولا نعلم من أمر وردة هذه شيئا آخر غير هذا البيت، ولكننا نعرف أن المتلمس الشاعر خال طرفة، فهو غالبا أخو وردة لأمه وأبيه، وتكون هي بنت عبد المسيح من بني ضبيعة من بكر من ربيعة من عدنان، فصلة القرابة واضحة بين أسرتي والدته وأبيه.

٣ - كان طرفة وقومه يعيشون في البحرين، وهي واقعة في شرق الجزيرة العربية وتمتد من عمان إلى حدود العراق، ومن أشهر مدنها هجر التي ضرب المثل بكثرة تمرها، فقالوا: "كناقل التمر إلى هجر"، ومن مدنها كذلك "قطر" كان يسكن البحرين قبائل كثيرة من العرب، وجوها جميل معتدل نوعا لقربها من البحر، وهي قريبة من الحيرة وكانت تخضع لنفوذها.. والقبائل التي تعيش فيها والشعراء الذين نشأوا في أرضها لهم صلات واضحة بملوك الحيرة الذين يخضعون لنفوذ أكاسرة الفرس وسلطانهم.

وهذه البقعة من أرض الجزيرة العربية قريبة من العراق وإيران، يمر بها الكثير من المسافرين بين هذه البلاد، وهي خاضعة للحيرة، والحيرة ملتقى الأفكار والديانات والمذاهب المختلفة، وتعيش في ظلال قسط من الحضارة، والنصرانية منتشرة فيها، فلابد أن يكون لكل هذه العوامل الظاهرة أثرها في عقلية أبنائها وتفكيرهم في الحياة، وفي عقلية وتفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص.." (١)

"- ١ -

حياته

تمهيد

هو عمرو بن كلثوم، أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم وأشرافهم، ومن أصحاب المعلقات، ومكانته في الشعر الجاهلي تضارع مكانة كثير من الشعراء وإن كان ليس له ديوان شعر معروف.

نسبه

هو أبو الأسد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن ربيعة بن زهير التغلبي، من تغلب بن وائل، وتغلب هم من الأهم في الشرف والسيادة والمجد وضخامة العدد وجلال المحتد والأرومة. وأسرته سادات تغلب

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين الأعلم الشنتمري ص/٥٧

ورؤساؤها وفرسانها حتى قيل: لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس.. كان أبوه كلثوم سيد قومه وأمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب المشهور، واشتهرت أمه ليلى **بالأنفة** وعظم النفس، كما كانت لجلالة محتدها من فضليات السيدات العربيات قبل الإسلام.

بيئته وموطنه

ولد ونشأ عمرو بن كلثوم في أرض قومه التغلبيين، وكانوا يسكنون الجزيرة الفراتية وما حولها، وتخضع قبيلته لنفوذ ملوك الحيرة مع استقلالهم التام في شؤونهم الخاصة والعامة، والحيرة كما نعلم إمارة عربية أقامها الفرس على حدود الجزيرة العربية، وحموها بالسلاح والجنود.

نشأته وحياته

ولد عمر بين مجد وحسب وجاه وسلطان، فنشأ شجاعا هماما خطيبا جامعا لخصال الخير والسؤدد والشرف، وبعد قليل ساد قومه وأخذ مكان أبيه وله من العمر خمس عشرة سنة، وقال الشعر وأجاد فيه وإن كان من المقلين.

قاد عمر الجيوش وحارب أعداء قومه وكان مظفرا في كثير من أيامهم وحروبهم، وأكثر ما كانت فتن تغلب وحروبها مع أختها بكر بن وائل بسبب الحرب المشهورة "البسوس"، وفي آخر الأمر أصلح بينهما المنذر ملك الحيرة وأخذ من كل منهما رهينة من الغلمان مائة غلام من أشرافهم حتى لا يعودوا إلى القتال، ولما تولى الحيرة عمرو بن هند عام ٥٦٢ م حذا حذو أبيه، فحدث أن عمرو بن هند وجه قوما من بكر وتغلب إلى جبل طيء في أمر من أموره، فنزلوا على ماء لبني شيبان وهم من بكر، فأبعدوا التغلبيين عن الماء حتى ماتوا عطشا، وقيل بل أصابتهم شموم في بعض مسيرهم فهلكوا وسلم البكريون، فطلب التغلبيون دينهم من بكر، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند، وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم، وشاعر بكر هو الحارث بن حلزة، فتفاخرت القبيلتان بين يديه، وفي هذا الموقف قال الحارث بن حلزة معلقته يفتخر فيها ببكر وقال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفتخر فيها بتغلب، وأثرت قصيدة الحارث بن حلزة على عمرو بن هند، فقضى لبكر حقدا على تغلب وحسدا لعمرو، لإدلاله بشرفه وحسبه ومجده.." (١)

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين الأعلم الشنتمري ص/٨٦

"ويقال إن عمرو بن هند الملك – وكان جبارا متكبرا مستبدا – كان يريد إذلال عمرو وإهانته ويضمر ذلك في نفسه، وأنه كان جالسا يوما مع ندمائه، فقال لهم: "هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي هند؟ فقالوا نعم، أم عمرو وبن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا لأن أباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه، وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر المشهور وكانت أم ليلى بنت مهلهل هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس وبينهما هذا النسب، فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه. ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وكان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بطرف، فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فأعادت عليها فصاحت ليلى: "واذلاه، يا لتغلب! " فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرفي وجهه فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب به رأس ابن هند وقتله وكان ذلك نحو سنة ٥٦٩م ونادى عمرو في بني تغلب فانتبهوا مافي الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة وجاشت نفس ابن كلثوم وحمى غضبه وأخذته الأنفة والنخوة فنظم بعض معلقته في هذه الحادثة، يصف فيها حدثه مع ابن هند ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة.

وهكذا عاش عمرو عظيما من عظماء الجاهلية ,وأشرافهم وفرسانهم، عزيز النفس مرهوب الجانب، شاعرا مطبوعا على الشعر.. وعمر طويلا حتى مات نحو سنة ٦٠٠ م.

ولعمرو ابن اسم عتاب بن عمرو بن كلثوم، كان كأبيه شجاعا فارسا وهو الذي قتل بشر بن عمرو بن عدس، كما أن مرة بن كلثوم أخا عمرو بن كلثوم هو الذي قتل المنذر بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ولذلك يقول الأخطل التغلبي مفتخرا:

ابني كليب إن عمى اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

ماضر تغلب وائل: أهجوتها ... أم بلت حيث تناطح البحران

قومي همو قتلوا ابن هند عنوة ... عمرا، وهم قسطوا على النعمان

- ٢ -

شعر عمرو بن كلثوم

أهم الدراسات عنه

كتب عن عمرو بن كلثوم من الأدباء والباحثين: أ - منهم من المحدثين: جورجي زيدان، وأصحاب الوسيط والمفصل، والزيات وصاحب شعراء النصرانية.

ب - ومن القدماء: أبو زيد الأنصاري في الجمهرة، وابن سلام في طبقات الشعراء، وأبو الفرج في الأغاني، وابن قتيبة في الشعر والشعراء.

ج - وشرح معلقته ورواها: الزوزني في كتابه "شرح المعلقات السبع"، والنعساني الحلبي في كتابه نهاية الأدب في شرح معلقات العرب، ورواها صاحب الجمهرة، وهي سبعة ومائة بيت. وقد طبعت المعلقة في مدينة بونا سنة ١٨١٩ مع ترجمتها اللاتينية بقلم كوزغارتن.

معلقة الشاعر

١ - عمرو بن كلثوم جاهلي قديم، قتل عمر بن هند الملك، أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب أعز العرب، ووالده كلثوم بن عتاب فارس العرب، وكان عمرو سيدا في قومه من بني تغلب، وتوفي في أواخر القرن السادس الميلادي.

وعمرو شاعر قوي الشاعرية مجيد، ومعلقته "ألا هي بصحنك فاصبحينا" مشهورة، وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات، وكان قام بها خطيبا فيما كان بينه وبين عمرو بن هند.

يمتاز عمر في شعره بالبديهة والارتجال، وبأسلوبه الرائق، وأغراضه العالية. وهو مقل لم ينظم في فنون الشعر جميعها، وكل ما روي عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج من موضوعها. أجاد في الفخر إجادة منقطعة النظير.

٢ - والمعلقة مشهورة بالرقة والسلاسة والسهولة، وفيها تكرير في بعض معانيها وألفاظها، ومبالغة واضحة شديدة في الفخر مما لم يؤلف نظيرها في الشعر الجاهلي، مثل:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما ... تخر له الجبابر ساجدينا

ومثل:." (١)

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين الأعلم الشنتمري ص/٨٧

"٥- ديانته وأخلاقه:

كان عمرو بن كلثوم نصرانيا، على الأغلب٢، وذلك لأن نصرانية تغلب ثابتة حتى القرن الثالث والرابع بعد الهجرة٣، لكن ليس في ديوانه وأخباره التي وصلت إلينا ما يؤكد ذلك. أما صفاته وأخلاقه، فيظهر من أخباره وشعره، أنه كان فارسا مقداما، سيدا في قومه، شاعرا مفلقا، شديد **الأنفة** إلى حد الكبرياء، فخورا بنفسه وبقبيلته إلى حد الادعاء الصبياني، كريما سخيا٤، فاتكا، وقد ضرب المثل بفتكه، فقيل: "أفتك من عمرو بن كلثوم"٥ ولعل سبب هذا القول فتكه بالملك عمر بن هند.

---

٢ جعله الأب لويس شيخو من شعراء النصرانية "راجع كتابه شعراء النصرانية ص ١٩٧- ٢٠٤".

٣ راجع الأب لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية. ص ١٢٥.

٤ وروي أنه قال ردا على لوم امرأته لشدة إتلافه ماله "من الرمل":

لا تلوميني فإني متلف ... كل ما تحوي يميني وشمالي

لست، إن أطرفت مالا، فرحا ... وإذا أتلفته لست أبالي

يخلق المال، فلا تستيئسي ... كري المهر على الحي الحلال

٥ ورد المثل في جمهرة الأمثال للعسكري ٢/ ١١٢؛ والدرة الفاخرة لأبي حمزة الأصفهاني ١/ ٣٢٩؛ ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ٩٠؛ والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري ١/ ٢٦٦.." (١)

"وأما المصراع الثاني فيقول كأن قصر أوقات كل نعمة فيه، قصر وقت الوثب، وكأن كل زيادة من الحبيب وثبة، وكل ساعة من اللقاء وثبة، وكل يوم من الاجتماع وثبة، ولعمري لئن كان القائل:

ويوم كإبهام القطاة مزين ... إلي صباه غالب لي باطله

أجاد، والقائل:

ظللنا عند دار أبي نعيم ... بيوم سالفة الذباب

بالغ، فالوثب في هذا المعنى الذي قصده أبلغ واحسن، وقد وقع في هذا البيت سهو على القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، فأنه ذكره في كتابه الموسوم) بالوساطة (فأدعى أنه أخذه من الهذلي حيث يقول:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني الزوزني، أبو عبد الله ص/٢١١

قال أخذه منه، فجعل أبو الطيب السعي وثبا، وقد ملح في اللفظ، وهذا قول القاضي وهذا عجب منه مع علمه بالشعر وغوصه على المعاني الدقيقة. وكونه في النقد في الذروة العليا، فإذا زل الشيخ أبو الفتح في معنى بيت عذرناه، لكونه عن صناعة الشعر بمعزل، فأما القاضي أبو الحسن فلا عذر له، وإنما هو من جناية العجلة، وحاشا لله أن أدعي الفضل على أحد تلامذتهما، فكيف عليهما! ولعل السهو يتفق علي في كثير مما أظنني أحرزت أطرافه من هذا الكتاب، فضلا عما سواه، إلا أن الدلالة على السهو واجبة بوقف البغي على من به اقتديت، مما أعوذ بالله منه، وبحوله وقوته أعتصم، وهو حسبي ونعم الوكيل. وأقول أن الهذلي لم يرد بالسعي المشي الصريح. فيجعله أبو الطيب وثبا وإنما أراد من قولهم سعيت بفلان إلى الأمير سعيا وسعاية، ولعمري أن السعاية في مصادر هذا الفعل أشهر، إلا أن السعي القياس الذي لا محيص عنه، ويضطرنا إلى ذلك أن معنى البيت لا يتم، وغرض قائله لا يحصل، إلا بما ذكرناه.

يقول لم يزل الدهر يسعى بي إليها، ويسعى بالمكروه بيننا، فلما انقضى ما بيننا بالفراق سكن الدهر من تلك السعاية، ألا ترى أنه أراد السعي الذي هو المشي، لم يكن له معنى، وليكن ما ظنه القاضي أبو الحسن سائغا، فما يصنع بقوله) فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر (أترى الزمان لما وقع الفراق سكن عن المضي. ومل الفلك من الدوران. والزمان إنما هو استمرار دورانه، فلا مجاورة بين بيت الهذلي وبيت أبي الطيب في شيء مما ذكره.

فيا شوق ما أبقى ويا لي من النوى ... ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

قال أبو العلاء: حذف الياءات التي للإضافة، وهي اللغة الجيدة وقوله) يالي (يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون أراد اللام المفتوحة التي للاستغاثة، كما يقال يا لفلان ويا لبكر والآخر: أن يكون أراد اللام المكسورة التي تكون في المستغاث من أجله كأنه قال يا قوم أعجبوا لي من النوى، وقوله) ما أبقى وما أجرى وما أصبى (كله على إرادة الكاف.

لقد لعب البين المشت بها وبي ... وزودني في السير ما زود الضبا

قال ابن جني: أراد لم يزودني البين شيئا أستعين به على السير ضربه مثلا يردي شدة البين.

قال أبو العلاء: يجب أن يكون خص البين لفرق بينه وبين غيره، وإلا فلا فائدة لذكره وقد زعموا أن الضب لا يشرب الماء، فيحتمل أنه أراد فزودني صبرا عن الماء، كأني أصبر به ضبا: وقيل أن الضب إذا خرج من بيت فبعد لم يهتد للرجوع إليه، وضربوا به المثل في الحيرة، فيجوز أن يكون قصد هذا المعنى.

فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

قال ابن جني: أي لم يرد الشجاع الحرب إلا ليبلي بلاء، يتشرف ذكره به في حياته، أو يقتل فيذكر بالصبر والأنفة بعد موته وأحسن ما جاء في هذا قول الحصين بن الحمام المري:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ومن التي أولها: ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا

وقد كان يدني مجلسي من سمائه ... أحادث فيها بدرها والكواكبا

قال ابن جني: شبه مجلسه، فجعله كالبدر وجعل خصاله سماء، وأفعاله كالكواكب حوله وهو قوله:

أقلب فيك طرفي في خصال ... وإن طلعت كواكبها خصالا

قال أبو العلاء: عني بالكواكب جلساء سيف الدولة وغلمانه وأقاربه.." (١)

"تسهيل قول الشعر على ذي آلته

عمل سقراط بيتين، فقيل له: ما أحسن ما قلت. فقال: إن حفر بئر بقرب قناة يجري منها الماء، سهل.

قال البديهي:

وأرى القوافي لا تصير مطيعة ... إلا إلى المثرين من أدواتها

والطبع ليس بمقنع إلا إذا ... حصلت إضافته إلى آلاتها

وقال آخر:

وما الطبع مغن وحده في نظامه ... ولا العلم من حد الطباع بنائب

إذا لم تكن مجموعة أدواته ... فأيسر مبناه كنسج العناكب

وقيل: أصح الشعر وأسهله ما يقوله من بعثه أنف «١» أو دخله كلف «٢» .

من تداخله لسماعه الأنفة والحمية

كان بالمدينة فتى يتعشق امرأة، فوعدته يوما، فلما اجتمعا غنت مغنية بهذا الصوت:

من الخفرات لم تفضح أخاها ... ولم ترفع لوالدها شنارا «٣»

فأبت إلا الخروج فرجعت إلى منزلها، وبعثت إلى الرجل ألف دينار، وقالت: إن رغبت في فاجعل هذا مهري واخطبني من أبي.

ودخل رجل على أبي دلف فاستماحه فقال له: أتسأل وجدك يقول:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ... ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

---

(١) تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي أبو مرشد المعري ص/١٦

فقال: نعم، وتضجر. فلقي وكيلا لأبي دلف يأتي بمال فسلبه. واتصل الخبر بأبي دلف «٤» فقال: أنا الذي علمته هذا فدعوه. وهذا الباب من جنس منفعة الشعر.

شعر سائر

قال أبو العتاهية:

في كل أرض قرى من منطقي مثلا ... بين المشاهد أو يبكي به وتر

وقال الطرمي:

لقد سار لي شرقا وغربا قصائد ... تغبر حسنا في وجوه القصائد." (١)

"الحث «١» على مصابرة السلطان

قيل: من لزم باب السلطان بصبر جميل، وكظم «٢» الغيظ، واطرح **الأنفة** وصل إلى حاجته، حكي أنه وجد مكتوب على باب هراة بدر ٧/٨ادشاه كاربرآيد آخر الأمر دادن نك زدايد أي إنما يرتفع الأمر على باب الملوك بالبذل والعقل والتثبت. فكتب بعضهم تحته من كان معه هذه الثلاثة فهو مستغن عن السلطان ونحو ذلك ما روي أن أبا العيناء عتب على بغا فتقضاه فقال بغا: أما علمت أن من طالب السلطان احتاج إلى عقل وصبر ومال، فقال: لو كان لي عقل عقلت عن الله أمره ونهيه، أو صبر صبرت عن السلطان حتى يأتيني رزقي، أو مال لاستغنيت به عن بابك والوقوف بجنابك. وقيل: من صحب السلطان احتاج إلى الصبر على قسوته صبر الغواص على ملوحة ماء بحره.

أمارات السلاطين لندمائهم إذا أرادوا نهوضهم

كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه فكان أردشير إذا تمطى قام سمارة وكان كيشاسف يدلك عينيه ويزدجرد يقول شب بشدو بهرام يقول خرج خسفاذ وسابور يقول حسبك يا إنسان وابرويز يمد رجليه وقباذ يرفع رأسه إلى السماء وأنوشروان «٣» يقول قرت أعينكم. وكان عمر يقول: قامت الصلاة وعثمان يقول العزة لله، ومعاوية يقول: ذهب الليل، وعبد الملك. يقول: إذا شئتم والوليد يقلي المخصرة «٤» والرشيد يقول سبحان الله والواثق يمس عارضيه، وحكي عن بعض البخلاء أنه سئل ما أمارتك لقيامنا قال: قولي يا غلام هات الطعام.

شب بشد معناه الليل حرم وزان سكر معناه المسرور وطيب الوقت ومستريح الحال وخسفاد معرب خوش باد سابور معرب شاهبور وكيشاسف معرب كشتاسب بضم الكاف الفارسية وهو من الكيانية كما في ص

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء الراغب الأصفهاني ١١٦/١

٣٤ من أول تتمة المختصر ابرويز معرب برريز يزدجر معرب يزدكر دكان ظالما فلذا تقول له الفرس بزه كار والعرب تقول له يزدجرد الأثيم قباذ معرب قباد قاله محمد عارف وكيل جميعة المعارف.

(٣) ومما جاء في القضاء والشهادة

مدح القضاء وذمه

قال النبي صلى الله عليه وسلم: القضاة ثلاثة: اثنان في النار وواحد في الجنة فاللذان في النار أحدهما من." (١)

"كان الإكرام مفسده لم تكن الزيادة فيما يفسده له مصلحة. جنب كرامتك اللئام فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا.

قال شاعر:

سأحرمكم حتى يذل صعابكم ... فانجع «١» شيء في صلاحكم الفقر

قال آخر:

إن اللئيم إذا رأى ... لينا تزايد في خسرانه

لا تكذبن فصلاح من ... جهل الكرامة في هوانه

الاستعانة بالجهل عند الحاجة إليه

أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار، وبينما ابن عمر رضي الله عنهما جالس إذ أقبل أعرابي فلطمه فقام إليه رجل فجلد به الأرض، فقال ابن عمر: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه. وقيل: اجعل لكل كلب كليبا يهر دونك، فالعرض يصان بمثل سفيه يصول «٢» وحاد يقول:

لا بد للسؤدد من أرماح ... ومن سفيه دائم النباح

قال الأحنف:

ومن يحلم وليس له سفيه ... يلاقي المعضلات من الرجال

وقال آخر:

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا ... أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

الرخصة في عقاب المجرم والحث عليه

قال الله تعالى: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء الراغب الأصفهاني ٢٤٢/١

«٣» وقال: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم

«٤» ، وجاء أعرابي إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال:

أتخاف علي جناحا إن ظلمني رجل فظلمته؟ فقال ابن عباس: وإن تعفوا أقرب للتقوى ولمن انتصر بعد ظلمه، فأولئك ما عليهم من سبيل.

وقال الشعبي: يعجبني الرجل يكافىء بالسيئة السيئة، فإذا سيم هوانا «٥» أبت له **الأنفة** إلا المكافأة. فبلغ قوله الحجاج فقال: لله دره «٦» . أي نفس بين جنبيه. وقال الجاحظ: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى والناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب.." (١)

"النهي عن تعاطي ما يضحك

قال النبي صلى الله عليه وسلم ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك القوم، ويل له ويل له. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرجل يتكلم بالكلمة يضحك بها الناس فيذل أبعد ما بين السماء والأرض، وقيل لأبي العيناء: فلان يضحك منك فقال: إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون.

إيراد جد في مسلك هزل

قيل: جديدة في لعيبة، وقال خالد بن صفوان رماني بأصلب من الجندل ونشقني بأحر من الخردل، ثم قال أني أمازحك.

لي صاحب ليس يخلو ... لسانه من جراحي

يجد تمزيق عرضي ... على طريق المزاح «١»

(٤) ومما جاء في الحياء والوقاحة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحياء شعبة من الإيمان ومن لا حياء له فلا إيمان له وفسر قوله تعالى: ولباس التقوى

«٢» بالحياء وقال: أبى عليك بالحياء **والأنفة** فإنك إن استحييت من الغضاضة «٣» اجتنبت من الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك أحد في مرتبة. وقيل: أحي حياءك بمجالسة من يستحى منه، وقيل: من جمع بين الحياء والسخاء فقد أجاد الخلة إزارها ورداءها.

الممدوح بالحياء

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء الراغب الأصفهاني ١/٣٠٠

في وصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان شديد الحياء، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها «٤» ، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه. وسأل يحيى ابن خالد رجلا عن ابنه فقال تركته وماء الحياء يتحدر من أسارير وجهه، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله ولآلىء العلم متناثرة من ميازيب «٥» منطقه. قال شاعر:

ترك الحياء بها رداع سقيم «٦»

قال المتنبي:

وأوجه فتيان حياء تلثموا ... عليهن لا خوفا من الحر والبرد." [(١)]

"(قد كنت لي جبلا ألوذ بظله ... فتركتني أضحى بأجرد ضاح)

(قد كنت ذات حمية ما عشت لي ... أمشي البراز وكنت أنت جناحي)

٣ - (فاليوم أخضع للذليل وأتقي ... منه وأدفع ظالمي بالراح)

٤ - (وأغض من بصري وأعلم أنه ... قد بان حد فوارسي ورماحي)

٥ - (وإذا دعت قمرية شجنا لها ... يوما على فنن دعوت صباحي)

وقالت أيضا

البكاء عليه في هذا الوقت والمراد بالأربعة قبائل الرأس وهي مجاري الدمع إلى العين وتريد بهذا الكثرة والمعنى يا عيني أكثري البكاء كل صباح على الجراح واستنزلي الدموع الكثيرة عليه

١ - الأجرد الأملس والضاحي البارز للشمس والمعنى كنت لي ملجأ أعتصم به والآن قد تركتني غرضا لسهام الأيام

٢ - **الحمية الأنفة** والعزة والبراز الفضاء وجناحي أي قوتي والمعنى قد كنت في حياتك صاحبة عزة وأنفة أقطع الفلاة الواسعة وحيدة لا أرهب أحدا إذ كنت قوتي وحصني

٣ - الراح الكف والمعنى أني أصبحت اليوم ذليلة خاضعة لكل امرئ ولو ذليلا خائفة ممن أرادني بسوء ليس لي ما أدفع به ظالمي إلا كفي

٤ - بان انفصل والمعنى أني أعرض عمن نالني بسوء لعلمي أن الذي كان قائدا للفوارس وكان كحد الرمح

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء الراغب الأصفهاني ٣٤٨/١

في الشدة والقوة انفصل عني

٥ – الشجن الحزن أو الحبيب فعلى الأول يكون مفعولا له وعلى الثاني مفعولا به والفنن الغصن الناعم والمعنى أني إذا سمعت نوح القمرية حزنا على إلفها فوق الغصن ناديت وا سوء صباحاه." (١)

"(إذا قناة امرء أزرى بها خور ... هز ابن سعد قناة صلبة العود)

وقال النابغة الجعدي تقدمت ترجمته

(ألم تعلمي أني رزئت محاربا ... فمالك منه اليوم شيء ولا ليا)

٣ – (ومن قبله ما قد رزئت بوحوح ... وكان ابن أمي والخليل المصافيا)

٤ – (فتى كملت خيراته غير أنه ... جواد فما يبقي من المال باقيا)

٥ – (فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا)

حالا بين جماعة منهم فكان حلولك فيهم بمحل الرأس من الجسد كشفت غمته بكلام بين وقلب ثابت عند **الأنفة** وإظهار كرم النفس وشرفها

١ – ضرب القناة هنا مثلا للإباء والامتناع وأزرى نقص والخور الضعف والمعنى إذا لم يبق في إباء أحد مطمع فابن سعد له إباء صحيح ثابت لا يزرى بقناته ضعف كما يزري بقناة غيره

٢ – ألم تعلمي ظاهره تفرير ولكنه توجع وتلهف والخطاب لزوجته ومحارب ابنه ورزئته فجعت به والمعنى ألم تعلمي م، فجعنا به من موت محارب فليس لك ولا لي شيء منه غير التحسر والتوجع

٣ – وحوح اسم أخيه وأصله من قولهم وحوح الرجل إذا ردد صوتا في صدره مما يشبه جرس الحاء وهو قريب من النحنحة والمعنى أن هذه المصيبة ليست أول مصيبة نزلت بي إذ قبل مصيبتي بمحارب فجعت بفقد أخي وحوح وقد كان ابن أمي والمخلص لي بالود والوفاء

٤ – فتى منصوب على المدح والاختصاص والمعنى أذكر فتى استكمل كل الخير إلا أنه كان من جوده إذا أنفق لم يبق شيئا من المال لكثرة بذله

٥ – المعنى أذكر فتى كان جامعا لخصلتي الخير والشر فمورد الخير لسرور الأحباب والأصدقاء." (٢)

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي التبريزي، أبو زكريا ٣٧٧/١

(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزي التبريزي، أبو زكريا ٤٣٩/١

"المستقبل أو لم يكن للمعاقب مصلحة فهو أيضا قبيح، والله قادر على إفاضة النعم على الخلق من غير إيلام، ومن غير تكليف وإلزام، فايذاؤهم بالتكليف أولا وبالعقوبة آخرا أحرى بأن يكون قبيحا مما ذكروه، وجعلوه قبيحا من إيلام البريء عن الجنايات.

السبب الثاني

ما جبل عليه الإنسان من **الحمية والأنفة**، ولأجله يحكم باستقباح الرضا بفجور امرأته، ويظن أن هذا حكم ضروري للعقل مع أن جماعة من الناس يتعودون إجارة أزواجهم ليألفوا ذلك ولا ينفروا عنه، بل جميع الزناة يستحسنون الفجور بمرأة الغير ولا يستقبحونه لموافقة شهواتهم، ويستقبحون من ينبه الأزواج عليه ويعرفهم فعل الزناة، ويزعمون أن ذلك غمز وسعاية ونميمة، وهو في غاية القبح. وأهل الصلاح يقولون: هو خيانة وترك الأمانة؛ فتتناقض أحكامهم في الحسن والقبح ويزعمون أنها قضايا العقل، وإنما منشأها هذه الأخلاق التي جبل الإنسان عليها.

السبب الثالث

م حبة التسالم والتصالح والتعاون على المعايش، ولذلك يحسن عندهم التودد بإفشاء السلام وإطعام الطعام ويقبح لديهم السب والتنفير ومقابلة النعمة بالكفران وأمثاله." (١)

"[أنشد المبرد]

وأنشد أبو العباس: [مجزوء الكامل]

لله دري في الشبي ... بة من أخي ثقة أريب

أيام يحملني الشبا ... ب على التهاون بالذنوب

ألقي يدي علي كثي ... ب مرة وعلى قضيب

وأظل يسقيني المدا ... م أغن كالرشأ الربيب

[من شعر دعبل]

وأنشد المبرد لدعبل: [١] [الطويل]

بعيد على من حل بالجوف وارتمى ... به الهرمان أن يؤوب مسلما

---

(١) معيار العلم في فن المنطق أبو حامد الغزالي ص/١٩٥

[١٧٥ و] نأيت عن البيض الحسان وأصبحت ... بنات أبي يكسوم عندي محرما [٢]

أروح على مزر السكركة مشربا ... وأغدو على لحم الزرافة مطعما [٣]

إذا انحدرت أخرى النجوم حسبتني ... إليها بشرقياتهن محزما

حللت محلا يقصر البرق دونه ... ولا يستطيع الطيف أن يتجشما

لدى معشر لا تعرف العتق فيهم ... ولا سببا للجار إلا مجذما

إذا احتفلوا عدوا البلقص غذاء هم ... وإن فخروا عدوا حدنجا وقحرما [٤]

[عقيل بن علفة وابنته الجرباء]

حدثنا الزيادي عن الأصمعي، قال: كان عقيل بن علفة [٥] رجلا غيورا،

---

[١] لم أجد الأبيات في ديوان دعبل الخزاعي جمع وتحقيق محمد يوسف نجم، ط- دار الثقافة، بيروت. ١٩٦٢

[٢] في الأصل فوق كلمة أبي يكسوم: (ملك الحبشة) .

[٣] المزر: نبيذ الذرة، السكركة: شراب الذرة.

[٤] البلقص والحدنج والقحرم: أسماء أطعمة، لم أجدها في المعجمات.

[٥] عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية اليربوعي الذبياني: أبو العميس، شاعر مجيد مقل، من شعراء الدولة الأموية، كان من بيت شرف في قومه، ترغب قريش في مصاهرته، وفيه خيلاء وغطرسة، قال المبرد: «كان عقيل بن علفة من الغيرة **والأنفة**." (١)

"استطال به عليه لفضل بيانه وطلاقة لسانه ففارق عادة المجلس في رفض **الأنفة** وخفض الحجة المؤتنفة وهز عطفه وحسر عن ساعده وأشار بيده مادا بها لوجه خصمه خارجا عن حد المجلس ورسمه فهم الأعوان بتقويمه وتثقيفه ووزعهم وهبة منه وخشية حتى تناوله القاضي بنفسه وقال له مهلا عافاك الله اخفض صوتك واقبض يدك ولا تفارق مركزك ولا تعد حقك وأقصر من أسبابك وإدلالك بأدابك فقال له مهلا يا قاضي أمن المخدرات أنا فاخفض صوتي واستريدي وأغطي معاصمي لديك أم من الأنبياء أنت فلا يجهر بالقول عندك وذلك لم يجعله الله إلا لرسوله

لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم

---

(١) المجموع اللفيف ابن هبة الله ص/٤٦٦

لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ ولست به ولا كرامة وقد ذكر الله أن النفوس تجادل في القيامة في موقف الهول الذي لا يعد له مقام ولا يشبه انتقامه انتقام." (١)

"المازري

عصره

الدولة الصنهاجية بين التشيع والسنة (٣٦١ - ٥٤٣)

وأكبت حياة المازري الدولة الصنهاجية في أعقاب أيامها، وقد عاشت هذه الدولة في التراب الإفريقي طيلة قرنين إلا قليلا رأت فيهما العز الباذخ، والسلطان الواسع، كما رأت فيهما أخيرا ذهاب السلطان، وذبول النفوذ، ونزو المتطلعين إلى السلطان واستبدادهم على الدولة.

والدولة الصنهاجية ذات طابع خاص عاشته في حياتها حيث إنها تفرعت من غيرها وفي نفسها **الأنفة** من تلك التبعية لدولة غيرها تراها قامت على جهودها، ولكنها لما أعلنت بما هو في دخيلة نفوس رجالها لاقت عنتا من ذلك.

فهي الدولة الأولى المناهضة للتبعية بعد ذهاب الفدرالية الإسلامية في ظل الخلافة، فإن كل الدول كانت تعيش في ظل الخلافة وهي أشبه شيء بالأم الجامعة لكل بنيها، وكانت الدول المتفرعة من الخلافة تتمتع باستقلال محدود، ونفوذ في مناطقها، ولكنها تخضع في أصول الروابط إلى الخلافة.

وحين ضعفت الخلافة وحتى قبل ضعفها استبدت عليها دول خرجت." (٢)

"وهذا ما أبداه ابن الأثير في الذي وقر في نفوس صنهاجة منذ التحامهم بالفاطميين فذكر: "أن بلكين بن زيري قصد محمد بن حسين الزناتي، وقد خرج عن طاعة المعز، وكثر جمعه وعظم شأنه فظفر به يوسف بلكين، وأكثر القتل في أصحابه، فسر المعز بذلك سرورا عظيما لأنه كان يريد أن يستخلف يوسف بلكين على الغرب لقوته وكثره أتباعه، وكان يخاف أن يتغلب على البلاد بعد مسيره عنها إلى مصر فلما استحكمت الوحشة بينه وبين زناتة أمن تغلبه على البلاد" (٣٢).

وكرر ابن الأثير هذا بعد ذلك: "ثم إن يوسف بلكين جمع فأكثر وقصد زناتة وأكثر القتل فيهم وسبى نساءهم وغنم أولادهم، وأمر أن تجعل القدور على رؤوس قتلاهم، ويطبخ فيها، ولما سمع المعز بذلك سره أيضا وزاد في إقطاع بلكين المسيلة وأعمالها" (٣٣).

---

(١) مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس الفتح بن خاقان، أبو نصر ص/٣٣٣

(٢) المعلم بفوائد مسلم المازري ١/٩

فالانتفاضة بعثت في نفس المعز الصنهاجي ما دار في خلد أجداده منذ القدم وهو الأنفة من التبعية للفاطميين وكأنهم يرونهم غير أهل للخلافة لقيام الدولة العباسية التي تمثلت فيها الخلافة منذ انقراض الدولة الأموية.

وكما جعل غضب الأفارقة المعز الضنهاجي يفكر في التخلص من التبعية أولا جعله كذلك ثانيا يرمي إلى محو دعوتهم من الديار الإفريقية. لأنه رأى أن الفاطميين منذ تأسست دولتهم وهم في صراع مع علماء إفريقية وعامة رجالها، فقد تذرعوا بكل الوسائل حتى تتمكن دعوتهم من النفوس فتنوعوا في وسائلهم بين ترغيب وترهيب، وإقناع، فقامت المناظرات بين رجالهم الداعين لمذهبهم، وبين علماء السنة، فما أجدى شيء من ذلك.

ويدل على قلة الداخلين في دعوتهم أن الانتفاضات النابعة في المدن

---

(٣٢) الكامل لابن الأثير عز الدين الجزري ج٧ ص٤٧.

(٣٣) المصدر نفسه ج٧ ص٤٧.." (١)

"أى إذا تجاوزت وقاية الله ولم تناليها لم يقك غيره. و (من دون الله) متعلق بادعوا أو بشهدائكم. فإن علقته بشهدائكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق. أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى:

تريك القذى من دونها وهى دونه «١»

أى تريك القذى قدامها وهي قدام القذى، لرقتها وصفائها. وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته: غاية التهكم بهم. وادعوا شهداءكم من دون الله، أى من دون أوليائه ومن غير المؤمنين، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله. وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مدارة القوم، «٢» الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلى في عقولهم إحالته، وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز. وإن علقته بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم، يعنى لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا: الله يشهد أن ما ندعيه حق، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم المازري ١/ ٢٥

وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم. وأن الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثا غير قولهم: الله يشهد أنا صادقون. وقولهم هذا: تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة.

---

(١) .

وساق إذا شئنا كميش بمعشر ... وصهباء زياد إذا ما ترقرق

تريك القذى من دونها وهي دونه ... إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

للأعشى في مدح المحلق عبد الرحيم بن خيثم بن شداد. والكميش: السريع. وماضى العزم: أى سريع في سقى الناس ولو كثروا. والزياد- كرمان-: رغوة اللبن ونحوه. والترقرق: الترشرش والانصب ا ب. وترقرق: أصله تترقرق، فحذف منه إحدى التاءين، أى تتحرك. تريك: أى الصهباء وهي الخمر، لأن فيها لون الصهبة. والقذى ما يتساقط في الشراب والعين. دونها: أى قدمها حائلا بينها وبينك، والحال أنها دونه أى قدمه حائلة بينه وبينك إذا ذاقها: أى الخمر، من ذاقها: من أراد ذوقها، يتمطق: أى يصوت بفتح فمه ومص لسانه وشفتيه، أو يطبق فمه ويفتحه تلذذا بها فيصوت. وقيل إن ضمير «تريك» عائد للزجاجة يصفها بالصفاء، فلعله أطلق الصهباء عليه لتلونها بلون الخمرة. وضمير «ذاقها» عائد لها بمعنى الخمرة، فيكون في الكلام استخدام. وروى «وهي فوقه» بدل «دونه» وفيه نوع تأييد لعود الضمير على الخمرة.

(٢) . قوله «مدارة القوم» المدارة جلد يدار ويخرز على هيئة الدلو، لكنها تكون واسعة الجوف قصيرة الجوانب لتنغمس في الماء وإن كان قليلا فتمتلئ منه. أفاده الصحاح فهي هنا مجاز. (ع)." [١]

"من كف الأيدى عن أهل مكة، والمنع من قتلهم، صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته، أى: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم لو تزيلوا لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض: من زاله يزيله. وقرئ: لو تزايلوا.

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/ ١٠٠

إذ يجوز أن يعمل فيه ما قبله. أى: لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين- **والحمية الأنفة** والسكينة الوقار- ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى وم كرز بن حفص بن الأخيف، على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، «١» وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: اكتب «هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنى رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا. وكلمة التقوى بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله: قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم. وقيل: هي كلمة الشهادة. وعن الحسن رضى الله عنه: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد. ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: كلمة أهل التقوى. وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله: وكانوا أهلها وأحق بها، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

---

(١) . أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الخ مطولا. والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ومن رواية مروان والمسور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت اليماني عن عبد الله بن مغفل.." [١]

"رفعا على الذم وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك. والزنيم: من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها، لأنه زيادة معلقة بغير أهله أن كان ذا مال متعلق بقوله ولا تطع يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب، لأن كان ذا مال. أى: ليساره وحظه من الدنيا. ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى: لكونه متمولا مستظهرا بالبنين كذب آياتنا «١» ولا يعمل فيه قال الذي هو جواب إذا، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب. وقرئ: أأن كان؟ على الاستفهام

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٣٤٤

على: إلا لأن كان ذا مال وبنين، كذب. أو أتطيعه لأن كان ذا مال. وروى الزبيري عن نافع: إن كان، بالكسر والشرط للمخاطب، أى: لا تطع كل حلاف شارطا يساره، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى لعله يتذكر الوجه: أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز **والحمية**، واشتقوا منه **الأنفة**. وقالوا الأنف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، «٢» فكيف بها على أكرم موضع منه، ولقد وسم العباس أباعر «٣» في وجوهها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكرموا الوجوه» «٤» فوسمها في جواعرها «٥» وفي لفظ الخرطوم: استخفاف به واستهانة. وقيل معناه: سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة، كما

---

(١) . قوله «كذب آياتنا» عبارة النسفي: كذب بآياتنا. (ع)

(٢) . قوله «وإذالة» في القاموس «أذلته» أهنته اه. (ع)

(٣) . قوله «أباعر» لعله أباعره بالاضافة إلى الضمير، لأن الجمع أبعرة وأباعر، كما في الصحاح. (ع)

(٤) . لم أره هكذا. وفي ابن حبان من حديث ابن عباس «أن العباس وسم بعيرا له. ودابة في وجهها فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب: فقال العباس: لا أسمه إلا في آخره فوسمه في جاعرتيه» وأصله في مسلم بلفظ «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا موسوم الوجه، فأنكر ذلك فقال الرجل: والله لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه. فأمر بحمار له فكوى في جاعرتيه. فهو أول من كوى في الجاعرتين، زاد الطبراني «وكان الرجل الذي كوى: العباس بن عبد المطلب»

(٥) . قوله «فوسمها في جواعرها» الجاعرة: ما حول الدبر- أفاده الصحاح. (ع)." [1]

"الواو مع النون

١٤٠٨ - ونبل العبد اكثرها المرامى هى سهام الهدف والمعنى أن الحر يغالى بالسهام فيشترى المعبلة وأمثالها لأنه صاحب صيد وحرب والعبد إنما يكون راعيا فتقنعه المرامى لأنها أرخص أثمانا إن اشتراها وإن استوهبها لم يكد أحد يجود له إلا بالمرماة لهونها يضرب لمماثلة الشىء صاحبه

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٨٨/٤

١٤٠٩ – ويا رب حام انفه وهو جادعه يضرب لمن يأنف من الشيء فتوقعه الأنفة فى أشد منه قال البعيث (الطويل)

(لعمرى لقد سب الفرزدق أمه ... وكان كحامى أنفه وهو جادعه)

قاله لما رأى أن الشر وقع بين الفرزدق وبينه

١٤١٠ – ويل اهون من ويلين

١٤١١ – للشعر من راوية السوء ويروى من رواة السوء قاله الحطيئة فى وصيته." (١)

"الباب الحادي عشر الأنفة والاباء والحمية والإجارة والإغاثة والنصرة والذب عن الحريم والغيرة وغير ذلك

١- لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، أراد أن يتألف أبا سفيان «١» ويريه كرم القدرة فقال: من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن؛ فقال أداري يا رسول الله أداري؟ قال: نعم دارك.

٢- وعن أبي المظفر ناصر بن ناصر الدين أنه لما فتح سرخس «٢» قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، يعني أبا سفيان القاضي السرخسي، فاستحسنها الناس منه.

٣- علي رضي الله عنه: من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أشداء الباطل.

– وعنه: من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن." (٢)

"المقالة السادسة عشرة:

الكريم والضيم

الكريم إذا ريم على الضيم نبا، والسري متى سيم الخسف أبى. والرزين المحتبي بجمالة الحلم، ينفر نفرة الوحشي عن الظلم. إشفاقا على ظفره أن يقلم، وعلى ظهره أن يكلم. وقلما عرفت الأنفة والإباء، في غير من شرفت منه الآباء. ولا خير فيمن لم يطب له عرق، وذنب الكلب ما به طرق.

---

(١) المستقصى في أمثال العرب الزمخشري ٢/٣٨٣

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري ١/٣٣٥

المقالة السابعة عشرة:

الوجه القبيح

الوجه ذو الوقاحة، من وجوه الرقاحة. يفيء على صاحبه الأنفال، ويفتح الأقفال. ويلقطه الأرطاب، ويلقمه ما استطاب. ويحسره على قول المنطيق، وييسر فعل ما لايطبق. وكل ذي وجه حيي، ذو لسان عيي. معتقل لا ينشط لمقال، ولا ينشط من عقال. ولا يزال ضيق الذرع، بكيء الضرع. يشبع غيره وهو طيان، ويعطش هو وصاحبه ريان. ولكن لا كان من يتوقح، لاجل أن يترفه ويترقح. فلعمري ما النائل الوتح، إلا ما ناله الوقح. وأيم اله إن الرشحة في الجبين، أحشن من الشمم في العرنين. ولأن تفر عرضك وما في سقائك جرعة، خير من أن تملك البحر وما في وجهك مزعة.

المقالة الثامنة عشرة:

عزة النفس والموت الأحمر

عزة النفس وبعد الهمة، الموت الأحمر والخطوب المدلهمة. ولكن من عرف منهل الذل فعافه، استعذب نقيع العز وذعافه. ومن لم يصطل بحر الهيجاء، لم يصل إلى برد المغنم. ومن." (١)

"الجميل. ويرديه رداء العمل معناه أن كل من عمل عملا لله تعالى فيه طاعة أبان الله ذلك في بشرة وجهه وألبسه نورا ومن كان عاصيا كان بالضد من ذلك فالرداء في هذا الموضع النور استعارة. ويصور يميل إليه ويضم أي يجمع إليه ما اختلف من الأهواء حتى يقع الإجماع على محبته وتصطحب القلوب على طاعته ويقال صار عنقه يصورها ويصيرها إذا أمالها وأصار لغة. ولسان الصدق في الآخرين الثناء الحسن في الأمة الآخرة.

وقوله " فإني رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب الفكر حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة وقد لعمري كان ذاك فأين همة النفس وأين **الأنفة** من مجانسة البهائم ".

سائر عند البصريين مأخوذ من سؤر الشيء وهو بقيته فيرون أنه يجب أن يقدم قبل هذه الكلمة بعض الشيء الذي هي مضافة إليه فيقال لقيت الرجل دون سائر بني فلان لأن الرجل بعضهم وكذلك هي هنا لأن المعنى كبقية أهله ولا يحسن أن يقول لقيت القوم سائر الناس وعلى هذا المنهج أكثر كلام العرب وقال قوم سائر

---

(١) أطواق الذهب في المواعظ والخطب = كتاب المقالات الزمخشري ص/٩

ماخوذ من سار يسير وقولهم لقيت سائر القوم أي الجماعة التي ينتشر فيها هذا الاسم ويسير ومما يدل على أن سائرا قد يكون بمعنى الجميع وما أنشدنيه أبو زكريا عن أبي العلاء المعري:

لو أن من يزجر الحمام ... يقوم يوم وردها مقامي

إذا أضل سائر الأحلام

وقال الأحواص؟ فجلتها لنا لبابة لما وقذ النوم سائر الحراس وقال ذو الرمة:

أصاب خصاصة فبدا كليلا ... كلا وانفل سائره انفلالا." (١)

"يصف ظهور القمر من خلل السحاب. والدعة الراحة والخفض في العيش وفاؤها محذوفة وهي واو الفعل منها ودع يودع دعة فهو وادع واتدع تدعة وتدعة فهو متدع واستوطئوا مركب العجز وجدوه وطيأ لا تعب فيه وهو استفعلوا من الشيء الوطئ وهو اللين الوثير. والعجز الضعف تقول منه عجزت عن الشيء أعجز إذا ضعفت عنه. وأعفوا أنفسهم أراحوها ورفهوها. والكد الشدة في العمل والتعب والدرك المطلوب وأصل الدرك قطعة حبل تشد في الرشاء إذا لم يلحق الركية وقل ماء الطوى فينالون حاجتهم من سقي الماء ثم قيل لكل من نال مراده قد نال الدرك وقولهم أنا ضامن الدرك أي بلوغ محابك. والسبب الحبل ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى أرب سبب والبغية ما تطلبه. والآلة الأداة والمراد به ما يحتاج إليه الكاتب من العلم الذي به تتم كتابته كأداة الصانع التي بها تظهر صناعته. **والأنفة** الاستنكاف والاستكبار يقال أنفت من الشيء آنف أنفا وانفه وانافا وأرقت البارحة وأرقت والمجانسة المشاكلة وأخبرني ثابت بن بندار عن محمد بن عبد الواحد عن أبي سعيد السيرافي عن ابن دريد قال كان الأصمعي يدفع قول العامة هذا مجانس لهذا ويقول ليس بعربي خالص يعني لفظة الجنس. والبهائم جمع بهيمة وسميت بهيمة لأنها أبهمت عن أن تميز وقيل للاصبع إبهام لأنها تبهم الكف أي تطبق عليها وطريق مبهم إذا كان خفيا لا يستبين وضربه فوقع مبهما أي مغشيا عليه.

وقوله " واي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسره فقرأ عليه يوما كتابا وفي الكتاب ومطرنا مطرا كثر عنه الكلأ فقال الخليفة ممتحنا له وما الكلأ فتردد في الجواب وتعثر لسانه ثم قال لا أدري فقال سل عنه ".

أخزى أفعل من الخزي والخزي الهوان والسوء يقال خزى الرجل يخزي خزيا وأخزاه الله إخزاء. والخليفة السائل عن الكلأ المعتصم وكان أميا لأن الرشيد سمعه يقول وقد مات بعض الخدم استراح من المكتب

---

(١) شرح أدب الكاتب ابن الجواليقي ص/٤١

فقال أو قد بلغت منك كراهة المكتب هذا وأمر بإخراجه منه والرجل الذي اصطفاه أحمد بن عمار بن شاذي المذاري ويكنى أبا العباس وكان ولي العرض للمعتصم بعد الفضل بن مروان ولم يكن وزيرا وإنما كان الفضل بن مروان اصطنعه لنفسه لثقته وصدقة فلما نكب الفضل رد المعتصم الأمر إلى أحمد بن عمار وكان محمد بن عبد الملك." (١)

"تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه كان من الملائكة» .

وقوله عز وجل: كان من الجن ففسق عن أمر ربه [الكهف: ٥٠] يتخرج على أنه عمل عملهم فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جنا لاستتارها، قال تعالى: وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. [الصافات: ١٥٨] وقال الأعشى في ذكر سليمان عليه السلام: [الطويل]

وسخر من جن الملائك تسعة ... قياما لديه يعملون بلا أجر

أو على أن يكون نسبهم إلى الجنة كما ينسب إلى البصرة بصري، لما كان خازنا عليها، وإبليس لا ينصرف لأنه اسم أعجمي معرف.

قال الزجاج: «ووزنه فعليل» .

وقال ابن عباس والسدي وأبو عبيدة وغيرهم: هو مشتق من أبلس إذا أبعد عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه، وأجروه مجرى إسحاق من أسحقه الله، وأيوب من آب يؤوب، مثل قيوم من قام يقوم، ولما لم تصرف هذه- ولها وجه من الاشتقاق- كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه لقلته وشذوذه، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج: [الرجز] .

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا ... قال نعم أعرفه وأبلسا

أي تغير وبعد عن العمار والإنس به ومثله قول الآخر: [الرجز] وفي الوجوه صفرة وإبلاس ومنه قوله تعالى: فإذا هم مبلسون [الأنعام: ٤٤] أي يائسون عن الخير مبعدون منه فيما يرون- وأبى معناه امتنع من فعل ما أمر به، واستكبر دخل في الكبرياء، والإباية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه، والاستكبار **والأنفة** مقدمة في معتقده.

وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح، حسد إبليس آدم وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نهي عن قربها.

حكى المهدوي عن فرقة أن معنى وكان من الكافرين: وصار من الكافرين.

---

(١) شرح أدب الكاتب ابن الجواليقي ص/٤٢

وقال ابن فورك: «وهذا خطأ ترده الأصول» .

وقالت فرقة: «قد كان تقدم قبل من الجن من كفر فشبهه الله بهم وجعله منهم، لما فعل في الكفر فعلهم» .

وذكر الطبري عن أبي العالية أنه كان يقول: «وكان من الكافرين معناه: من العاصين» .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت.." (١)

"العرب هو عس بذلك مثل حر وشج، وقد جاء فعل وفعل في نحو نقم ونقم، فكذلك عسيت وعسيت، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال عسي زيد مثل رضي، فإن قيل فهو القياس، وإن لم يقل فسائغ أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره، ومعنى هذه المقالة:

هل أنتم قريب من التولي والفرار. إن كتب عليكم القتال؟.

قوله عز وجل:

ألم تر إلى الملإ.......

المعنى وأي شيء يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا؟ وقالوا هذه المقالة وإن كان القائل لم يخرج من حيث قد أخرج من هو مثله وفي حكمه، ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات **الأنفة**، فإذا حضرت الحرب كعت وانقادت لطبعها، وعن هذا المعنى نهى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا» ، ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله، ثم توعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله والله عليم بالظالمين، وقرأ أبي بن كعب «تولوا إلا أن يكون قليل منهم» .

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٧]

وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٢٥/١

والله واسع عليم (٢٤٧)

قال وهب بن منبه: «إنه لما قال الملأ من بني إسرائيل لسمويل بن بالي ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل، فادهن رأسه منه وملكه عليهم، قال: وكان طالوت رجلا دباغا، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكان سبطا لا نبوة فيه ولا ملك، فخرج طالوت في بغاء دابة له أضلها، فقصد سمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجا، فنش الدهن» .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: وهو دهن القدس فيما يزعمون، قال: فقام إليه سمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله بتقديمه، ثم قال لبني إسرائيل «إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا» ، وطالوت اسم أعجمي معرب ولذلك لم ينصرف." (١)

"وقال السدي: «إن الله أرسل إلى شمعون عصا وقال له: من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم، فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مربهم طالوت في بغاء حماره الذي كان يسقي عليه، وكان رجلا سقاء، فدعوه فقاسوه بالعصا فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ما قال، ثم إن بني إسرائيل تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى، وجروا على سننهم فقالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، أي لأنه ليس في بيت ملك ولا سبقت له فيه سابقة. ولم يؤت مالا واسعا يجمع به نفوس الرجال حتى يغلب أهل **الأنفة** بماله.

قال القاضي أبو محمد: وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفائه طالوت، وأنه زاده بسطة في العلم وهو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء، قال ابن عباس:

«كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوة والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد ولا ملك إلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقالتهم» ، قال مجاهد: معنى الملك في هذه الآية الإمرة على الجيش.

قال القاضي أبو محمد: ولكنهم قلقوا لأن من عادة من تولى الحرب وغلب أن يستمر ملكا، و «اصطفى» افتعل، مأخوذ من الصفوة، وقرأ نافع «بصطة» بالصاد، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «بسطة» بالسين، والجمهور على أن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف، وقال بعض المتأولين: المراد علم الحرب، وأما

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٣١/١

جسمه فقال وهب بن منبه: إن أطول رجل في بني إسرائيل كان يبلغ منكب طالوت.
والله يؤتي.....
لما علم نبيهم عليه السلام تعنتهم وجدالهم في الحجج تمم كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه، وهو قوله: والله يؤتي ملكه من يشاء، وظاهر اللفظ أنه من قول النبي لهم، وقد ذهب بعض المتأولين إلى أنه من قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، والأول أظهر، وأضيف ملك الدنيا إلى الله تعالى، إضافة مملوك إلى مالك، وواسع معناه وسعت قدرته وعلمه كل شيء، وأما قول النبي لهم: إن آية ملكه فإن الطبري ذهب إلى أن بني إسرائيل تعنتوا وقالوا لنبيهم: وما آية ملك طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله إن الله قد بعث.
قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٨]
وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٢٤٨)
قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويحتمل أن نبيهم قال لهم ذلك على جهة التغبيط والتنبيه على هذه النعمة التي قرنها الله بملك طالوت وجعلها آية له دون أن تعن بنو إسرائيل لتكذيب نبيهم، وهذا عندي أظهر من لفظ الآية، وتأويل الطبري أشبه بأخلاق بني إسرائيل الذميمة، فإنهم أهل تكذيب وتعنت واعوجاج، وقد حكى الطبري معناه عن ابن عباس وابن زيد والسدي.." (١)

"عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم- أحد- وذلك أنه كان من رأي عبد الله بن أبي أن لا يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فانخذل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري أبو جابر بن عبد الله فقال لهم:
اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم، فلما يئس منهم عبد الله قال: اذهبوا أعداء الله، فسيغني الله رسوله عنكم، ومضى مع النبي صلى الله عليه وسلم فاستشهد، واختلف الناس في معنى قوله:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٣٢/١

أو ادفعوا فقال السدي وابن جريج وغيرهما معناه: كثروا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكثرتكم، وقال أبو عون الأنصاري: معناه رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثر للسواد مدافع، وقال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكني أكثر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله، وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو: أو ادفعوا، إنما هو استدعاء القتال حمية، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث **الأنفة**، أي أو قاتلوا دفاعا عن الحوزة، ألا ترى أن قزمان قال: والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم- أحد- لما رأى قريشا قد أرسلت الظهر في زروع قناة قال: أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب؟ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال، فكأن عبد الله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا المقطع العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله، وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: أقرب مأخوذ من القرب ضد البعد، وسدت- اللام- في قوله: للكفر، وللإيمان- مسد إلى، وحكى النقاش: أن قوله أقرب مأخوذ من القرب بفتح القاف والراء وهو الطلب، والقارب طالب الماء، وليلة القرب ليلة الورد، فاللفظة بمعنى أطلب، واللام متمكنة على هذا القول، وقوله: بأفواههم تأكيد، مثل يطير بجناحيه، وقوله: ما ليس في قلوبهم يريد ما يظهرون من الكلمة الحاقنة لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله: والله أعلم بما يكتمون أي من الكفر وعداوة الدين وفي الكلام توعد لهم.

قوله تعالى:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٨ الى ١٧٠]

الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين (١٦٨) ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠)

الذين بدل من «الذين» المتقدم، و «إخوانهم» المقتولون من الخزرج وهي أخوة نسب ومجاورة." (١)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٣٩/١

"تعالى تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال [آل عمران: ١٢١] وقال الأعشى: [الطويل]

فما بوأ الرحمان بيتك منزلا ... بشرقي أجياد الصفا والمحرم

و «القصور» : جمع قصر وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود وقصرت عن الناس قصرا تاما، و «النحت» النجر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «تنحتون» بفتح الحاء، وقرأ جمهور الناس: بكسرها وبالتاء من فوق، وقرأ ابن مصرف: بالياء من أسفل وكسر الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء، وكانوا «ينحتون» الجبال لطول أعمارهم، وتعثوا معناه تفسدوا يقال: عثا يعثي وعثا يعثو وعثى يعثى كنسى ينسى وعليها لفظ الآية، وقرأ الأعمش «تعثوا» بكسر التاء ومفسدين: حال.

وتقدم القول في الملأ، وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع «وقال الملأ» بواو عطف وهي محذوفة عند الجميع، والذين استكبروا هم الأشراف والعظماء الكفرة، واستكبروا يحتمل أن يكون معناه طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر، أو يكون بمعنى كبروا كبرهم المال والجاه وأعظمهم فيكون على هذا كبر و «استكبر» بمعنى كعجب واستعجب، والأول هو باب استفعل كاستوقد واسترفد، والذين استضعفوا هم العامة والأغفال في الدنيا وهم أتباع الرسل، وقولهم أتعلمون استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأنفة الإشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم.

قوله عز وجل:

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]

فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩)

قوله تعالى: فعقروا يقتضي بتشريكهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق وكذلك: روي أن قدارا لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال والنساء والصبيان، فلما أجمعوا تعاطى فعقر، وعتوا معناه خشوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم ائتنا بما تعدنا وحسن الوعد في هذا الموضع لما تقيد بأنه عذاب، قال أبو حاتم قرأ عيسى وعاصم أيتنا بهمز وإشباع ضم، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمرو والأعمش.

والرجفة ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد. ومنه قول خديجة فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، ومنه قول الأخطل:
[البسيط] :
أما تريني حناني الشيب من كبر ... كالنسر أرجف والإنسان ممدود." (١)

"بمن يحتسب، وقال لهم: إن كنتم آمنتم مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة **الأنفة** كما تقول، إن كنت رجلا فقاتل، تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه، وقوله إن كنتم مسلمين، يريد أهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط، فذكر الإسلام فيه زيادة معنى، ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنية التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في أن لا يجعلهم فتنة للظلمة، والمعنى لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق، قاله مجاهد وغيره.

قال القاضي أبو محمد: فهذا الدعاء على هذا التأويل يتضمن دفع فصلين، أحدهما القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون، والآخر ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض، ونحو هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، «ليس الميت أبو امامة اليهود والمشركين يقولون: لو كان نبيا لم يمت صاحبه» ، ويحتمل اللفظ من التأويل وقد قالته فرقة: إن المعنى لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة وفي هذا التأويل قلق، وباقي الآية بين.

قوله عز وجل:

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٧ الى ٨٩]

وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (٨٧) وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (٨٨) قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون (٨٩)

روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتا بمصر، قال مجاهد: «مصر» في هذه الآية الإسكندرية،

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٤٢٣

ومصر ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر، وتبوءا معناه كما قلنا تخيرا واتخذا، وهي لفظة مستعملة في الأماكن وما يشبه بها، ومن ذلك قول الشاعر: [الطويل]

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت ... لأنحامها مرعى تبوأ مضجعا

وهذا البيت للراعي وبه سمى المراعي ومنه قول امرئ القيس: [الكامل]

يتبوأون مقاعدا لقتالكم ... كليوث غاب ليلهن زئير

وقرأ الناس «تبوآ» بهمزة على تقدير تبوعا، وقرأ حفص في رواية هبيرة «تبويا» وهذا تسهيل ليس بقياسي، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف، قوله قبلة ومعناه مساجد، قاله ابن عباس والربيع والضحاك والنخعي وغيرهم، قالوا: خافوا فأمروا بالصلاة في بيوتهم، وقيل يقابل بعضها بعضا، قاله سعيد بن جبير والأول أصوب، وقيل معناه متوجهة إلى القبلة، قاله ابن عباس، ومن هذا حديث عن النبي." [1]

"قوله عز وجل:

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦١ الى ٦٥]

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (٦٥)

المعنى: واذكر إذ قلنا، وكذلك إذ [الإسراء: ٦٠] في الآية المتقدمة: هي منصوبة بفعل مضمر، وقد تقدم في غير موضع ذكر خلق آدم وأمر السجود، واختلف في قوله إلا إبليس فقيل هو استثناء منقطع، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، وقيل هو متصل لأن إبليس من الملائكة، وقوله طينا يصح أن يكون تمييزا، ويصح أن يكون حالا، وقاس إبليس في هذه النازلة فأخطأ، وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه، من حيث رأى النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء، إنما تكون حيث خصصها الله تعالى، ولا ينظر إلى أصولها. وذكر الطبري عن ابن عباس أن إبليس هو الذي أمره الله فأخذ من الأرض طينة آدم، والمشهور أنه ملك الموت، وكفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى، حين لحقته **الأنفة**، والكبر، وكان

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٣٨/٣

أصل ذلك الحسد، ولذلك قيل: إن أول ما عصي الله بالحسد، وظهر ذلك من إبليس، من قوله أرأيتك هذا الذي كرمت علي أنا خير منه [الأعراف: ١١] حسبما ذكر الله في آية أخرى. فهذا هو النص بأن فعلك غير مستقيم، والكاف في قوله أرأيتك هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه، لا موضع لها من الإعراب، فهي زائدة، ومعنى أرأيت: أتأملت ونحوه، كأن المخاطب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد، وقال سيبويه: هي بمعنى أخبرني، ومثل بقوله أرأيتك زيدا أبو من هو؟ وقاله الزجاج: في آياتنا [طه: ٥٦] ولم يمثل، وقول سيبويه: صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله، وأما في هذه الآية، فهي كما قلت، وليست التي ذكر سيبويه رحمه الله، وقرأ ابن كثير «أخرتني» بياء في الوصل والوقف، وهذا هو الأصل، وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف، كمثل قول الأعشى: [المتقارب]

فهل يمنعني ارتياد البلاد ... من حذر الموت أن يأتين

وقرأ نافع وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «أخرتن» بحذف الياء في الوصل والوقوف، وهذا تشبيه بياء قاض ونحوه، لكونها ياء متطرفة قبلها كسرة، ومنه قوله تعالى: يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه [هود: ١٠٥] وقوله لأحتنكن معناه: لأميلن." (١)

"وكقولك ضربت الجزية، وضرب البعث، ويحتمل أن يكون «ضرب المثل» من الضريب الذي هو المثل ومن قولك هذا ضرب هذا فكأنه قال مثل مثل، وقرأت فرقة «يدعون» بالياء من تحت والضمير للكفار، وقرأت فرقة «يدعون» بالياء على ما لم يسم فاعله والضمير للأصنام، وبدأ تعالى ينفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به، فكأنه قال ليس لهم صفتي ثم ثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز، وذكر تعالى أمر سلب الذباب لأنه كان كثيرا محسوسا عند العرب، وذلك أنهم كانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك وكانوا متألمين من هذه الجهة فجعلت مثلا، و «الذباب» جمعه أذبة في القليل وذبان في الكثير كغراب وأغربة وغربان ولا يقال ذبابات إلا في الديون لا في الحيوان، واختلف المتأولون في قوله تعالى، ضعف الطالب والمطلوب، فقالت فرقة أراد ب الطالب الأصنام وب المطلوب الذباب، أي أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما يسلب من طيبهم على معهود **الأنفة** من الحيوان، وقالت فرقة معناه ضعف الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وضعف الأصنام في إعطاء ذلك وإنالته ع ويحتمل أن يريد ضعف الطالب وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام وضعف الأصنام في أن لا منفعة لهم وعلى كل قول، فدل ضعف الذباب الذي هو محسوس مجمع عليه

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤٦٩/٣

وضعف الأصنام عن هذا المجمع على ضعفه على أن الأصنام في أحط رتبة وأخس منزلة، وقوله ما قدروا الله حق قدره، خطاب للناس المذكورين، والضمير في قدروا للكفار والمعنى ما وفوه حقه من التعظيم والتوحيد ثم أخبر بقوة الله وعزته وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام.

قوله عز وجل:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور (٧٦) يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧)

روي أن هذه الآية إلى قوله الأمور نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا الآية فأخبر الله تعالى أنه يصطفي أي يختار من الملائكة رسلا إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث ومن الناس وهم الأنبياء المبعثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النبوءة والرسالة.

وقوله ما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن إحاطة علمه بهم وحقيقتها ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم، والأمور، جمع أمر ليس يراد به المصدر ثم أمر الله تعالى المؤمنين بعبادته وخص «الركوع والسجود» بالذكر تشريفا للصلاة، واختلف الناس هل في هذه الآية سجدة؟ ومذهب مالك أنه لا يسجد هنا، وقوله وافعلوا الخير، ندب، فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها من غير هذا الموضع، وقوله لعلكم ترج في حق المؤمنين كقوله لعله يتذكر أو يخشى [طه: ٤٤] و «الفلاح» في هذه الآية نيل البغية وبلوغ الأمل.." (١)

"القسمة لها من نفسك، وتؤخر عنك من شئت، وتكثر لمن شئت، وتقل لمن شئت، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن هن أن هذا هو حكم الله تعالى لك وقضاؤه زالت **الأنفة** والتغاير عنهن ورضين وقرت أعينهن وهذا تأويل مجاهد وقتادة والضحاك.

قال الفقيه الإمام القاضي: لأن سبب هذه الآيات إنما كان تغايرا وقع بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عليه فشقي بذلك، ففسح الله له وأنبهن بهذه الآيات، وقال أبو رزين وابن عباس المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته وإمساك من شاء، قال أبو زيد: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاق بعض نسائه فقلن له أقسم لنا ما شئت فكان ممن أرجى سودة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة وآوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب وقال الحسن بن أبي الحسن المعنى في تزويج من شاء من

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٣٤/٤

النساء وترك من شاء، وقالت فرقة المعنى في ضم من شاء من الواهبات وتأخير من شاء.
قال القاضي أبو محمد: وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة له، قالت عائشة: لما قرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.
قال الفقيه الإمام القاضي: وذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ له إلى أن قوله ترجي من تشاء الآية ناسخ لقوله لا يحل لك النساء من بعد الآية، وقال ليس في كتاب الله تعالى ناسخ تقدم المنسوخ إلا هذا.
قال الفقيه الإمام القاضي: وكلامه يضعف من جهات، وقوله عز وجل ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك يحتمل معاني: أحدها أن تكون من للتبعيض، أي من إرادته وطلبته نفسه ممن قد كنت عزلته فلا جناح عليك في رده إلى نفسك وإيوائه إليه بعد عزلته، ووجه ثان وهو أن يكون مقويا ومؤكدا لقوله ترجي من تشاء وتؤوي من تشاء فيقول بعد ومن ابتغيت ممن عزلت فذلك سواء فلا جناح عليك في جمعه، وهذا كما تقول من لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكر وأنت تريد من لقيك ومن لم يلقك، وهذا المعنى يصح أن يكون في معنى القسم، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك وفي الواهبات، وبكل واحد قالت فرقة. وقرأ جمهور الناس «ذلك أدنى أن تقر أعينهن» برفع «الأعين» ، وقرأ ابن محيصن «أن تقر أعينهن» بضم التاء ونصب «الأعين» ، وقوله بما آتيتهن أي من نفسك ومالك، وقرأ جمهور الناس «كلهن» بالرفع على التأكيد للضمير في يرضين ولم يجوز الطبري غير هذا، وقرأ جويرية بن عابد بالنصب على التأكيد في آتيتهن.
قال الفقيه الإمام القاضي: والمعنى أنهن يسلمن لله ولحكمه وكن قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة ولا يسلمن للنبي صلى الله عليه وسلم أنفة، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد وقتادة، وقوله تعالى: والله يعلم ما في قلوبكم خبر عام، والإشارة به هنا إلى ما كان في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل في المعنى أيضا المؤمنون. وقوله حليما صفة تقتضي صفحا وتأنيسا في هذا المعنى، إذ هي خواطر وفكر لا يملكها الإنسان في الأغلب، واتفقت الروايات على أنه." (١)

"وحينئذ جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده وقال: هذه يد لعثمان، وهي خير من يد عثمان ثم جاء عثمان بعد ذلك سالما.
والشجرة سمرة كانت هنالك، ذهبت بعد سنين، فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فاختلف

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٩٣/٤

أصحابه في موضعها، فقال عمر سيروا هذا التكلف.

وقوله تعالى: فعلم ما في قلوبهم قال قوم معناه: من كراهة البيعة على الموت ونحوه وهذا ضعيف، فيه مذمة للصحابة. وقال الطبري ومنذر بن سعيد معناه: من الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه، وهذا قول حسن، لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أما أنه يحتمل أن يجازى ب السكينة والفتح القريب والمغانم.

وقال آخرون معناه: من الهم بالانصراف عن المشركين **والأنفة** في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر وغيره، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول السكينة والتعريض بالفتح القريب. والسكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له.

وقرأ الناس: «وأثابهم» قال هارون وقد قرئت: «وأتابهم» بالتاء بنقطتين والفتح القريب: خيبر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف بالمؤمنين إلى المدينة وقد وعده الله بخيبر وخرج إليها لم يلبث، قال أبو جعفر النحاس، وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكة، والمغانم الكثيرة: فتح خيبر.

وقرأ يعقوب في رواية رويس: «تأخذونها» على مخاطبتهم بالتاء من فوق. وقرأ الجمهور: «يأخذونها» على الغيبة.

واختلف في عدة المبايعين فقيل: ألف وخمسمائة، قاله قتادة، وقيل: وأربعمائة قاله جابر بن عبد الله، وقيل: وخمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عباس، وقيل: وثلاثمائة قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأول من بايع في ذلك رجل من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب قاله الشعبي.

قوله عز وجل:

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٠ الى ٢٤]

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما (٢٠) وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا (٢١) ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣) وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤)

قوله تعالى: وعدكم الله الآية مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ويأخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره.." (١)

"مرفوعا. والعامل في قوله: إذ جعل قوله: لعذبنا ويحتمل أن يكون المعنى: أذكر إذ جعلنا.

و: **الحمية** التي جعلوها هي حمية أهل مكة في الصد، قال الزهري: وحمية سهيل ومن شاهد عقد الصلح في أن منعوا أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولجوا حتى كتب باسمك اللهم، وكذلك منعوا أن يثبت: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. ولجوا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي: امح واكتب:

هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث وجعلها تعالى «حمية جاهلية» ، لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءهم محاربا لعذرهم في حميتهم، وإنما جاء معظما للبيت لا يريد حربا، فكانت حميتهم جاهلية صرفا. والسكينة هي الطمأنينة إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثقة بوعد الله والطاعة وزوال **الأنفة** التي لحقت عمر وغيره.

و: كلمة التقوى قال الجمهور: هي لا إله إلا الله، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال علي بن أبي طالب: هي لا إله إلا الله والله أكبر، وحكاه الثعلبي عن ابن عمر.

قال القاضي أبو محمد: وهذه كلها أقوال متقاربة حسان، لأن هذه الكلمة تقي النار، فهي كلمة التقوى.

وقال الزهري عن المسور ومروان: كلمة التقوى المشار إليها هي بسم الله الرحمن الرحيم وهي التي أباها كفار قريش، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها قال القاضي أبو محمد: ولا إله إلا الله أحق باسم: كلمة التقوى. من: بسم الله الرحمن الرحيم.

وفي مصحف ابن مسعود: «وكانوا أهلها وأحق بها» . والمعنى: كانوا أهلها على الإطلاق في علم الله وسابق قضائه لهم، وقيل أحق بها من اليهود والنصارى في الدنيا، وقيل أهلها في الآخرة بالثواب.

وقوله تعالى: وكان الله بكل شيء عليما إشارة إلى علمه بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، فيروى أنه لما انعقد، أمن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وامتزجوا، وعلت دعوة الإسلام، وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد الإسلام أضعاف ما كان قبل ذلك.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٣٤/٥

قال القاضي أبو محمد: ويقتضي ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الحديبية في أربع عشرة مائة، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل:." [1]

"المجلس الثامن والخمسون

يتضمن الكلام فى أصل حركة التقاء الساكنين

[وفرعها (١)] وذكر مسائل (٢) استفتيت فيها، بعد ما استفتى المكنى بأبى نزار (٣)، فجاء بخلاف ما عليه أئمة النحويين أجمعين، وكذلك خالف العرب قاطبة فى كلمة أجمعوا عليها، وأثبت خطه بما سنح له من هذيانه، وأثبت بعده خطه الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد [المعروف بابن الجواليقى (٤)].

نسخة الفتوى

ما يقول السادة النحويون، أحسن الله توفيقهم فى قول العرب: «يا أيها الرجل»، /هل ضمة اللام فيه ضمة إعراب؟. وهل الألف واللام فيه للتعريف؟ وهل يأمل ومأمول، وما يتصرف منهما جائز؟ وهل يكون سوى بمعنى غير؟

---

(١) ليس فى د.

(٢) حكاها السيوطى فى الأشباه والنظائر ٣/ ١٥٠ - ١٦٥، عن ابن الشجرى. وكذلك حكى ابن هشام عن ابن الشجرى ما يتصل بمأمول. شرح قصيدة بانت سعاد ص ٤٦، ومثله صنع البغدادى فى الخزانة ٩/ ١٤٨ - ١٥٢، وما يتصل بسوى. الخزانة ٣/ ٤٣٥ - ٤٣٧.

(٣) هو الحسن بن صافى بن عبد الله بن نزار البغدادى الشافعى، عرف بملك النحاة، وهو الذى لقب نفسه بذلك، وكان يسخط على من يخاطبه بغيره. ولد ببغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وتوفى بدمشق سنة ثمان وستين وخمسمائة. وكان بارعا فى النحو، فهما ذكيا فصيحا، إلا أنه كان عنده عجب بنفسه وتيه بعلمه، وذكروا من صفته أيضا أنه كان عزيز النفس كريما كثير الأنفة عن المطامع الدنية. إنباه الرواة ١/ ٣٠٥، وطبقات الشافعية ٧/ ٦٣. وانظر مقدمة (ملك النحاة حياته وشعره ومسائله العشر) تحقيق الدكتور

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٣٨/٥

حنا جميل حداد.

(٤) زيادة من د. والأشباه والنظائر.." [(١)]

"الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية؛ إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من **الأنفة**؛ فأملى في محاسن أهل زمانه "كتاب الحدائق " معارضا ل - "كتاب الزهرة " للإصبهاني، فأضربت أنا عما ألف، ولم أعرض لشيء مما صنف. ولا تعديت أهل عصري، ممن شاهدته بعمري، أو لحقه بعض أهل دهري؛ إذ كل مردد ثقيل، وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماع: " يا درا مية بالعلياء فالسند "، وملت الطباع: " لخولة أطلال ببرقة ثهمد "؛ ومحت: " قفا نبك " في يد المتعلمين، ورجعت على ابن حجر بلائمة المتكلفين؛ فأما " أمن أم أوفى "، فعلى آثار من ذهب العفا. أما آن أن يصم صداها، ويسأنم مداها - وكم من نكتة أغفلتها الخطباء، ورب متردم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل." [(٢)]

"منه على عظيم ما كان يعطي في فديته، وتولى قتله بنفسه [مع] أخيه بلقين إغراقا في العداوة وتحققا في **الأنفة**. فانصرف يوما من بعض ركباته مع أخيه بلقين، فلما توسط الدار التي فيها أحمد بن عباس وقف فيها هو وأخوه بلقين وصاحبه الخاصة علي بن القروي لا رابع لهم، وأمر بإخراج أحمد إليه، فأقبل يرسف في قيوده، حتى أقيم بين يديه، فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يلطفه ويسأله إراحته مما هو فيه، فقال له: اليوم تستريح من هذا الألم وتنتقل إلى ما هو أشد! وجعل يراطن أخاه بلقين بكلامه، فبان لأحمد وجه الموت منه، وجعل يكثر الضراعة لباديس ويضعف له عدد المال، فأثار غضبه وهز مزرقته، فأخرجها من صدره، فاستغاث الله عند ذلك - زعموا - وذكر أولاده، فاعتوره أخوه بلقين بزرقات كثيرة كبته لوجهه، وشركهما ابن القروي فمزقوه. وأمر باديس بحز رأسه، ووو ري خارج القصر. وزعموا أن القيد الذي بساقه عسر إخر ا جه بعد موته على خازن باديس فرض قدميه حتى، انتزعه وهما القدمان الدرمان والكعاب التي لم يخشن لها موطئ في سالف الزمان. فمضى ابن عباس [بسبيله] ، رحمه الله، على هذه السبيل، ولم تبك أرض عليه، ولا قطع ذنب عنز فيه.

وكان أحمد بن عباس كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب، قوي المعرفة، شارعا

---

(١) أمالي ابن الشجري ابن الشجري ٢/٣٦٣

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ١/١٣

في الفقه، مشاركا في العلوم، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعا للأدوات." [1]

"إلى (١) الوضم، فكيف لا (٢) يتربص خروج الدجال، أو ينزل المطر على هذه الحال، أو تتأخر القيامة، ومقاتل قد صار (٣) قدامه، يقتل الأحرار، ولا قود ولا ثار!! ألا مغيثا، ألا مشيا إلى الموت (٤) حثيثا، ألا دعوة نوح، من قلب قريح!!

ولأبي بكر أيضا فصول من جواب عن أهل قرطبة على خطاب ورد من قبل المستعين بن هود قال فيه: وصل كتابك، فوقفنا على جميع معانيه، وأحطنا علما بما فيه، ورأينا ما تضمنه من المقال الذي لم يوفه أعزه الله – حق النظر، ولا تدبره أحسن التدبر، بل أطاع فيه سلطان هواه، ودعاه الحرج (٥) إليه فاستهواه، ولو حكم عادل النصفة، وعصى أمر **الأنفة**، لخاصم نفسه قبل أن يخاصم عنها، وكان قبل أن يأخذ لها آخذا منها، ولعلم أن الحق ليس بأقوال تسطر، ولا حجج (٦) تصرف عن طريقها وتغير؛ والشيطان قد ينصب للعاقل أشراك الخدع، ويروم أن يستنزل الحليم بأصناف الطمع، فمن صرفته عصمة الله انصرف (٧) ، ومن وقفته خشيته أحجم ووقف.

وفي فصل منها: وقد كنت (٨) خاطبتنا المرة بعد المرة، وكاتبتنا الكرة بعد

---

(١) م س: إلى الصور من.

(٢) لا: سقطت من م س ط.

(٣) قد صار: سقط من م س.

(٤) ك: للمنية.

(٥) م: الخروج.

(٦) م: بحجج.

(٧) ط: أنصف.

(٨) وقد كنت: سقطت من م.." [2]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٢/٦٦٤

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٤/٥٤٥

"الجمهور –! كلا والله، إني لعاجز مع تمكينها وإعراضها، وقلة عللها وأعراضها، ولقد رفع الله من هذا الأدب الذي جددت رسومه بعد دثورها، وأطلعت نجومه بعد غؤورها، ونهجت سبلة بعد انشعابها وطموسها، وبصرت أعلامه بعد ذهابها ودروسها، حتى مالت إليه الأعناق، وانثالت عليه الرفاق، وطمحت نحوه الأحداق، وحق لشيء نفقته أن يعز وينفق، ولنجم أطلعته أن ينير ويشرق، ولغصن سقيته أن يسبق ويورق، وجددته عن قدم، وأوجدته من عدم، ونشرته من كفن، وبعثته من جنن، فهو يثني بآلائك ثناء الأزهار للأمطار، ويعبق بشيمك عبق الأنوار بالأسحار، ويشير إليك إشارة المصنوع إلى الصانع، ويدل عليك دلالة الليل على النجوم الطوالع.

وفي فصل من أخرى: ان سبقت إلى الفضل فالمعهود منك السبق، وان أوجبت [لك] علي حقا فقديما كان لك الحق، وقد أبى الله أن يرتدي برداء الحمد، ويتقعد ذروة المجد، إلا من قرع أنف **الأنفة**، بيد النصفة، وعصى سلطان **الحمية** الجاهلية، بالانقياد لأحكام الملة الحنيفية، وما أربحه متجرا، وأرجحه مفخرا، لمن أهداه إليه توفيق، وهداه عليه تحقيق، وأنت – أيدك الله – ذلك الناظر بعين اليقين، الساهر." (١)

"الله دارك، وأدنى أوطارك – كشفت إليك صفحة اعتزاء، وتخطت حماك بقدم اعتداء، فقد تراجعت تمشي على استحياء، متنصلة مما اجترمت، متأسفة على ما اخترمت، وعند مثلك للقدر التسليم، فأنت الخبير العليم، أنه ما اختلف الليل والنهار، إلا بنقض وإمرار، ولا دار الفلك المدار، إلا بطوالع ومغار، وكنت في الأرض من أسنى مطالعها الباهرة الأنوار، فلا غرو أن أدركك ما يدركها من الأفول حينا والسرار. فقد تكسف البدور، ثم تعاودها الاضاءة والنور، والحمد لله أخرجك من ظلمات تلك الغماء، خروج السيف من الجلاء، والبدر بعد الانجلاء، تقي الثياب من تلك الطيخاء، وستر الله تعالى دونك ضاف منسدل، وقدحك في كل حال من بلاء وإعفاء فائز معتدل، ولا تأس على أعراض الدنيا فهي رهينة بزوال وذهاب، " وكل الذي فوق التراب "، هنأك الله وهنأ أهل الفضل فيك طرا هذا الصنع الأجمل، وجزى الله الوزير الأجل [الأكمل] عماد الكل جزاء السادة الذادة الأحرار، ذوي **الأنفة** والانتصار، فيا لها منقبة [تنقب] في البلاد، ومكرمة غراء ترد بهيما كل أغر جواد، سرى لها." (٢)

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ١٧٢/٥

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٤٥٠/٥

"الآن أنصف، وفقارك أقصف.

علم حلم: علم بالتداوي من القرم ومنافع العلم، حلم عن كل مجاوز الحلم ذي طعن سديد بعرد شديد.

جمح طمح: الآن صدقت، وغلطك يا فطن استدركت: جمح في الإحجام عن الإقدام، طلب الفرار يوم الانتصار وإدراك الثار، طمح إلى كل رموح طموح، يطول الشبر ويطيل الشبر، معلب مغلب، ذي خلق مرصوص وهامة كالفصوص، إياك ولعابك أن يمحو كتابك.

حماة السروج بناة الصروح: النصفة يا كشاجم لا الأنفة، غض قليلا من طرفك، وأمسك بعض عنان طرفك، وانحاكم في ذلك إلى ظرفك، هل يجوز في التحصيل، أو يصح في العقول، أن يحمي قومك سروح شائهم، وقد أباحوا فروج نسائهم – أليس هذا عين المحال ومغالطة الجهال – فهلا توهمت يا فتى الجواب قبل الخطاب، وأبصرت الورطة قبل السقطة –!

وأما ما قعقعت به ووعوعت من صواحب الرايات، فهن وأبيك." (١)

"مزيد أيضاح: إعلموا، وفقكم الله تعالى، أن شيئا من الحركات العلوية في السموات ليس لها تأثير في الموجودات الأرضية، لا من الأبدان ولا من الأحوال ولا من شيء من الأشياء، وإنما الكل يتعلق بقدر الله تعالى، هو الذي يخلق بعضها مع بعض ويخلق بعضها في أثر بعض فإذا رآه الغافل قال لهذا من هذا ﴿قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ (١).

ومن أغرب ما سمعت في الدنيا ما أنا أبو الحسين (٢) المبارك بن عبد الجبار (٣) ببغداد قال: أنا أبو القاسم محمد بن عبد الملك بن بشران (٤) قال أنا محمد بن عطية (٥) الزاهد قال (أنفاس العبد التي تجري في بدنه وتخرج على فمه هي التي تحرك الأفلاك في السموات عددا بعدد وتقديرا (٦) بتقدير)، وذكر ذلك عن جماعة من الأوائل (٧)، فأضرب طائفة بطائفة وارجع إلى الله تعالى في الجميع، وإلى هذا المعنى أشار النبي – صلى الله عليه وسلم –، بقوله: "لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته" (٨) وهذا معلوم قطعا.

توحيد:

قوله "ما من أحد أغير من الله" (٩)، والغيرة هي تغير النفس عند الحفاظ على الأهل والقيام بالأنفة في حمايتها، وذلك كله محال على الله تعالى لأنه هو الموجود الذي لا

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٧١٦/٦

(١) سورة النساء آية ٧٨.

(٢) في (ك) و (م) أبو الحسن، وهو الصواب.

(٣) هو ابن الطيوري المبارك بن عبد الجبار بن أحمد، أبو الحسن، الأزدي البغدادي الصيرفي المعروف بابن الطيوري، عالم بالحديث، ثقة، مكثر له مصنفات، توفي سنة ٥٠٠ هـ. الأعلام ٦/ ١٥١، والرسالة المستطرفة ٩٢، ولسان الميزان ٥/ ٩.

(٤) هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران، ولد سنة ٣٧٣ هـ ومات سنة ٤٤٨ هـ. قال الخطيب: وصليت عليه في جامع المدينة. تاريخ بغداد ٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٦، الرسالة المستطرفة ص ١٢٠.

(٥) محمد بن عطية لم أعثر على ترجمة.

(٦) لم أطلع على هذا الكلام.

(٧) هذا كلام لم يثبت نقلا ولا يتفق مع العقل ولانظريات العلم الحديث، وقد رده الشارح وكان الأولى عدم نقله لقلة فائدته.

(٨) تقدم.

(٩) متفق عليه. البخاري في صلاة الكسوف باب الصدقة في الكسوف ٢/ ٤٢ - ٤٣، ومسلم في كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف ٢/ ٦١٨، ومالك في الموطأ ١/ ١٨٦ كلهم عن عائشة.." [1]

"الخضروات، وقد كان بالطائف الرمان والفرسك (١) والأترج (٢) فما اعترضه رسول الله، - صلى الله عليه وسلم -، ولا ذكره ولا أحد من خلفائه ..

الجزية: هي فعلة من جازاه كأنها تجزىء عنهم فيما كان واجبا من القتل (٣). وقال (ش) (٤): تجزىء عنهم فيما لزمهم من كراء الدار إذا نزلوا بدار الإسلام فتعين عليهم الكراء، والصحيح أنها بدل عن القتل قال الله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون﴾ (٥) الآية. سمعت أبا الوفاء علي (٦) بن أبي عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها فقال ﴿قاتلوا﴾ وذلك أمر بالعقوبة ثم قال: ﴿الذين لا يؤمنون﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة، وقوله: ﴿ولا باليوم

(١) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ابن العربي ص/٣٨١

الآخر﴾ تأكيدا للذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة **والأنفة** عن الاستسلام، ثم قال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ تأكيدا للحجة لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة وعين البدل الذي ترتفع به، وهذا من الكلام البديع، فقبلها النبي، – صلى الله عليه وسلم –، حتى من المجوس، على ما رواه عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه.

لأن قوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ كما بيناه لم يكن شرطا وإنما كان تأكيدا للحجة، وقال – صلى الله عليه وسلم –، في المجوس:"سنوا بهم سنة أهل الكتاب" (٧)، وهذا عموم اتفق

---

(١) الفرسك كزبرج الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر أو ما ينفلق عن نولت. ترتيب القاموس ٣/ ٤٦٩.

(٢) الأترج والأترنج: واحدته أترجة وأترجة. شجر من جنس الليمون. المنجد. في مادة اترج.

(٣) الجزية: أورد الحافظ في تفسيرها عدة أقوال. فقال: الجزية من جزأت الشيء إذا قسمته ثم سهلت الهمزة. وقيل من الجزاء أي لأنها جزاء تركهم ببلاد الإسلام أومن الإجزاء لأنها تكفي من توضع عليه في عصمة دمه. فتح الباري ٦/ ٢٥٩.

(٤) انظر الروضة للنووي ١٠/ ٣٠٧ وفح الباري ٦/ ٢٥٩.

(٥) التوبة آية ٢٩.

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) البخاري في كتاب الجزية باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ٤/ ١١٧ من حديث بجالة قال: أتانا كتاب عمر ابن الخطاب قبل موته بسنة وفيه (ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله، – صلى الله عليه وسلم –، أخذها من مجوس هجر)، وأبو عبيد في الأموال ص ٤٠.

ورواه مالك في الموطأ ١/ ٢٧٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: =." (١)

---

(١) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ابن العربي ص/٤٧٣

"يكون حرا بالغا عاقلا مسلما، وليس من شرطه أن يكون عدلا، خلافا للشافعي (١)؛ لأن الولاية عمادها الشفقة والحمية على الحسب والأنفة، والفسق لا يؤثر في ذلك. ورأى الشافعي أن ولاية النكاح خطة ومنزلة كريمة، والمراتب لا ينزلها الفساق ولو كان من فسق الرجل ما عسى أن يكون؛ فإن نظره لوليته لا ينقطع عنه بكرا على حالة البكارة أو ثيبا على حالة الثيوبة، واختلف العلماء في ثيوبة الصغيرة فقالوا: إذا رجعت الصغيرة ثيبا إلى أبيها زوجها كما يزوج البكر قسرا. وقال أشهب (٢)؛ ذلك ما لم تحض. قال سحنون (٣): له جبرها وإن حاضت (٤) حتى يستأنف زواجا ثانيا بعد البلوغ لأنه رأى أن الثيوبة الأولى جرح لم يقع لها (٥) به خبرة، ولا يحصل لها به مقصد النكاح، والأخذ بمطلق الحديث في الفرق بين الثيب والبكر وتقسيمه وتعليله أولى من هذا. واختلف الناس وعلماؤنا هل يكون الكافر وليا في نكاح فيه مسلم، أو مسلم في نكاح فيه كافر على تفصيل بيانه في مسائل الفقه. والصحيح أنه لا يدخل المسلم في نكاح فيه كفر، ولا الكافر في نكاج فيه إسلام إلا نكاح السيد لعبده الكافر من طريق المملوكية (٦) بخلاف طريق الولاية فإن الله تعالى أثبت الملك مع الكفر ولم يثبت الولاية معه بل نفاها بعدم الهجرة فقال ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ (٧).

ما جاء في الصداق والحباء:

الصداق عقد منفصل عن النكاح بائن عنه في ذاته وأحكامه، والدليل على صحة ذلك أن النكاح يجوز لونه لأن عقد النكاح إنما ركناه الزوج والزوجة، كل واحد منهما يحل لصاحبه ويستمتع به، وقد قال الله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ (٨)، وقال: ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ (٩) وقال تعالى: ﴿اللاتي آتيت أجورهن﴾ (١٠) في أزواج

---

(١) انظر الروضة للنووي ٧/ ٦٤.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) انظر بداية المجتهد ٢/ ٥.

(٥) ليست في (م) وهي في بقية النسخ.

(٦) انظر الكافي لابن عبد البر ٢/ ٥٢٧.

(٧) سورة الأنفال آية ٧٢.

(٨) سورة النساء آية ٤.

(٩) سورة النساء آية ٢٥.

(١٠) سورة الأحزاب آية ٥٠.." (١)

"وسألتك: هل كان فى آبائه ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل

بالتقديم فى أمور المسلمين ومهمات الدنيا والدين؛ ولذلك جعلت الخلافة على قول دهاة المسلمين، وصحيح الآثار فى قريش؛ ولأن ذوى الأحساب أحفظ على تدنيس أحسابهم بما لا يليق بهم.

وقوله فى الضعفاء: أتباع الرسل دون أشرافهم: لأن الرياسة (١) والشرف يأبى من انحطاطه لغيره وتسويد غيره عليه برياسة، وأنفسهم تأنف من الاتباع إلا من هداه الله – سبحانه – لرشده. والضعفاء ليس عليهم معنى للشيطان من ذلك، فكانوا أقبل للاتباع وأطوع للهدى من أولئك، وأعدم لأسباب الأنفة [و] (٢) الحسد فى الظهور منهم.

وقوله: "كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ": أصل البشاشة: اللطف بالرجل وتأنيسه، يقال: بش وبشش. وهذه الرواية أصح من رو ا ية: " بشاشة القلوب ".

قال الإمام: الذى استدل به هرقل على نبوته صلى الله عليه وسلم مما لا ينتصب دليلا قاطعا عند المحققين، وإنما الدليل القاطع على النبوءة المعجزات الخارقة للعادات المعلوم منها المعارضات.

وأما قوله: " ذو حسب "، وكون أتباعه شرفاء أو ضعفاء يزيدون أو ينقصون، وهل الحرب سجال أم لا؟ فليس بأدلة قاطعة على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم، كما قلنا. ولعل هرقل كان عنده أخبار عن كون هذه علامات فى هذا للنبى صلى الله عليه وسلم، وقد قال فى الحديث: " وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ".

وكتابته صلى الله عليه وسلم إليه فيه دلالة على أن اليسير من القرآن كالآية ونحوها بخلاف حكم كثيره؛ لأن القرآن لا يسافر به إلى بلد الحرب (٣) والجنب أبيح له منه الآية والآيتان على جهة التعوذ.

وقوله: " الحرب سجال ": أصل المستقيان بالسجل يكون لكل واحد منهما سجل. والسجل: الدلو الملأى.

---

(١) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ابن العربي ص/٦٩٠

وقوله صلى الله عليه وسلم: " فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ": قال الإمام: ويروى " اليريسيين " (٤) بالياء و " الأريسيين " بالهمزة، وقد اضطرب فى معنى هذه اللفظة

---

(١) فى الأصل: الدياسة، وهو تصحيف، والمثبت من س.

(٢) فى الأصل: فى، ولا معنى لها.

(٣) الاستذكار ١٤/ ٥٢ وما بعدها.

(٤) رواية حسن الحلوانى، وعبد بن حميد. قال الخطابى: روى هكذا بالياء جميع روايات البخارى. انظر: أعلام الحديث للخطابى ١/ ١٣٦.." [1]

"(٧) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله

٥١ - (٢٩٨٩) حدثنا يحيى بن يحيى وأبو بكر بن أبى شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير وإسحاق بن إبراهيم وأبو كريب - واللفظ لأبى كريب - قال يحيى وإسحاق: أخبرنا. وقال الآخرون: حدثنا - أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن أسامة بن زيد، قال: قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال أترون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم؟ والله، لقد كلمته فيما بينى وبينه، ما دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه، ولا أقول لأحد، يكون على أميرا: إنه خير الناس بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور

وقوله: فى حديث أسامة بن زيد: " أترون أنى لا أكلمه إلا بسمعكم " ويروى: " سمعكم "، [ويروى: " أسمعكم "] (١) وكله بمعنى.

وقوله بعد: " دون أن أفتح بابا لا [أحب أن] (٢) أكون أول من فتحه ": يعنى فى المجاهرة (٣) بالنكير والقيام بذلك على الأمراء، وما يخشى من سوء عقباه كما تولد من إنكارهم جهارا على عثمان بعد هذا، وما أدى إلى سفك دمه واضطراب الأمور بعده.

وفيه التلطف مع الأمراء، وعرض ما ينكر عليهم سرا، وكذلك يلزم مع غيرهم من المسلمين ما أمكن ذلك، فإنه أولى بالقبول وأجدر بالنفع، وأبعد لهتك الستر وتحريك **الأنفة**.

وقوله: " لا أقول لأحد يكون على أميرا: إنه خير الناس " إلى آخره: الحديث حجة كله على ذم المداهنة

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم القاضي عياض ٦/١١٩

فى الحق والمواجهة بما يبطن خلافه، والملق بالباطل، وهذا هو المذموم. والحال الأولى هى المداراة المحمودة؛ لأنه ليس فيها قدح فى الدين ولا حظ منه، إنما هى ملاطفة فى الكلام، أو هى مجاملة بأسباب الدنيا ومعاطاة بها لصلاح دين أو دنيا. والمداهنة: إنما هى إعطاء بالدين ومصانعة بالكذب، والتزيين للقبيح، وتصويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها.

وقوله: " فتندلق أقتاب بطنه "، قال الإمام: قال أبو عبيد (٤): الأقتاب: الأمعاء، قال الكسائى: واحدها قتب، وقال الأصمعى: واحدها قتبة، قال: وبها سمى الرجل قتيبة، وهو تصغيرها، فقال أبو عبيد: القتب: ما تحوى من البطن، يعنى استدار،

---

(١) من ز.

(٢) من متن الحديث، وح.

(٣) فى ز: المهاجرة.

(٤) انظر: غريب الحديث ٢/ ٣٠، ٣١.." [1]

"لو أمطرته السماء أنجمها ... عزا لما قال للسماء قد

لا يسأل الضيف عن منازله ... ومنزل البدر غير مفتقد

نوادر من هذا الباب

«٣٤٦» - كان عقيل بن علفة من الغيرة **والأنفة** على ما ليس عليه [١] أحد، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه، وكانت لعقيل إليه حاجات، فقال له: إما إذ كنت فاعلا فجنبني هجناءك.

وخطب إليه ابنته إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة، وهو خال هشام بن عبد الملك ووالي المدينة، وكان أبيض شديد البياض، فرده عقيل وقال: [من الوافر]

رددت صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

٣٤٧- قدم أعرابي رجلا إلى القاضي واستعدى عليه، وتقدم شاهدان فقالا: نشهد أنه قد ظلم الأعرابي، فقال الأعرابي: كذبا ما ظلمني ولكنه لوى حقي، (كأنه أنف أن يكون مظلوما) .

«٣٤٨» - ومثل هذا أن أعرابيا من بني سليم قيل له: أيما أحب إليك:

أن تلقى الله ظالما أو مظلوما؟ فقال: بل ظالما، قالوا: سبحان الله أتحب الظلم؟ قال: فما عندي إذا أتيته

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم القاضي عياض ٥٣٨/٨

مظلوما يقول لي: خلقتك مثل البعير

---

[١] م: مثله.." (١)

"الفصل الثامن شواذ التهاني

٤٥٠- حضر أعرابي وليمة فرأى نعمة فقال: النعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأدام الله لك ما أنت فيه، وحقق ظنك في ما ترجوه، وتفضل عليك بما لا تحتسبه.

«٤٥١» -كتب جعفر بن يحيى إلى صديق له: ما جاوزتني نعمة خصصت بها، وما قصرت دوني ما كان محلها بك.

«٤٥٢» - وكتب أبو إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه: قد جعلك الله- وله الحمد- من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وصحة الدين، وخلوص اليقين، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع **الأنفة** في مباح تحظره. وتأدى إلي من اتصال الوالدة- نفس الله لها في مدتها ومدتك، وأحسن في البقية منها إمتاعك- بأبي فلان، أعزه الله، ما علمت فيه أنك بين طاعة للديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها، وأنك جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت خد **الحمية** فيها، وأسخطت نفسك بإرضائها، وعصيت هواك إلي٥١.

فنحن نهنئك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك فيه، وأن يجعلها أبدا معك في ما شئت وأتيت، وتجنبت وأبيت.." (٢)

"وأما قصة أير الحمار فإنما اللوم على المطعم لرفيقه ما لا يعرفه، فهل كان على الفزاري في حق **الأنفة** أكثر من قتل من أطعمه الجردان من حيث لا يدري.

وقد هجيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتابا، فما وضع ذلك منهم حتى كأنه قد كتبه لهم. ولما كانت نمير دون هؤلاء في الشرف وضعهم قول جرير: [من الوافر]

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قال أبو عبيدة كان الرجل من بني نمير اذا قيل له: ممن الرجل؟ قال نميري كما ترى، حتى قال جرير بيته

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ١٥٨/٢

(٢) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ١٨٤/٤

هذا فصار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟

قال: من بني عامر. فعند ذلك قال الشاعر يهجو قوما آخرين: [من الوافر]

وسوف يزيدكم ضعة هجائي ... كما وضع الهجاء بني نمير

ولما هجاهم أبو الرديني العكلي، فتوعدوه بالقتل، قال أبو الرديني:

[من الوافر]

توعدني لتقتلني نمير ... متى قتلت نمير من هجاها

فشد عليه رجل منهم فقتله.

وما لقيت قبيلة من العرب مهجوة ما لقيت نمير من بيت جرير هذا.

«٢٥٦» - ومن متوسطي الشرف في القبائل: عنزة وجرم وسلول وباهلة وغني، وهذه قبائل فيها فضل كثير، ومنها شعراء وفصحاء وفرسان مذكورون، فمحا ذلك الفضل هجاء الشعراء وغض منهم.

ومن الحبطات حسكة بن عتاب وعباد بن الحصين وولده وهم من الأشراف." (١)

"طياش، وعجول فحاش، يعجل عن التوبة، ويقطع دون الوصية، ومعه من الحرق بقدر قسطه من التهاب المرة الحمراء. وأنت روح كما أنت جسم، من قرنك إلى قدمك. وعمل الآفة في الدقاق العتاق «١» أسرع، وصدها عن الغلاظ الجفاة آكد، فلذلك اشتد جزعي لك من سلطان الغيظ وغلبة الغضب. فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك، من مقدار عقابك عليه، فانظر في علته وفي مخرج سببه، وإلى معدنه الذي فيه «٢» نجم، وعشه الذي منه درج، ومغرسه الذي فيه نبت، وإلى جهة صاحبه في التتايع والنزع، وفي التسرع والثبات، وإلى حاله عند التقريع «٣» ، وإلى حيائه عند التعريض، إلى فطنته عند الرشق والتورية، فإن فضل الغيظ ربما دل على فرط الاكتراث بكون الاقدام والاحجام، فكل ذنب كان سببه الرأي، أو ضيق صدر وغلق طباع، وجد مرارا، أو من جهة تأويل أو من جهة الغيظ في المقادير أو من طريق فرط الأنفة، وغلبة طباع الحمية من بعض الجفوة أو ل بعض الأثرة، أو من جهة استحقاقه عند نفسه، وفيما زين له عمله أنه مقصر به، مؤخر عن مرتبته، أو كان مبلغا عنه، أو مكذوبا عليه، أو كان ذلك جائزا فيه غير ممتنع منه، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب، وفي هذه المجاري، فليس يقف عليها كريم، ولا يلتفت لفتها حليم، ولست أسميه بكبير معروفه كريما، حتى يكون عقله غامرا لعلمه، وعلمه غالبا لطبعه، كما أني لا أسميه بالذي أرى من كفه «٤» [عن] القصاص حليما «٥» ، حتى يكون عالما بما

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٥/٩٩

ترك، وعارفا بما اخذ. واسم الحلم «٦» جامع للظلم والقدرة والفهم، فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة وإلا تشفي." [١]

"«١٧٢» – وقالت له: أجئت من بينهم؟ فقال: «لو خيروك لاخترت» .

«١٧٣» – ومن أمثالهم: «وابأبي وجوه اليتامى» ، حكاه المفضل عن سعد القرقرة، وهو رجل من أهل هجر كان النعمان يضحك منه، فدعا بفرسه اليحموم، وقال لسعد: اركبه فاطلب عليه الوحش، قال سعد: إذن والله أصرع، فأبى النعمان إلا أن يركبه، فلما ركبه سعد نظر إلى بعض ولده فقال: وابأبي وجوه اليتامى.

«١٧٤» – ومن كلامهم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» .

«١٧٥» – ويقولون: «أعن أخاك ولو بالصوت» ، أي إن لم تقدر على معونته بيدك فاستصرخ له حتى يغاث.

«١٧٦» – ويقولون: «مولاك ولو عناك» .

٩- ومن الأمثال في **الحمية والأنفة**

«١٧٧» – قول أكثم بن صيفي: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» .

«١٧٨» – «الفحل يحمي معقولا شوله» .

«١٧٩» – ومنه: «الخيل تجري على مساويها» ، أي وإن كان بها أوصاب وعيوب.." [٢]

"محتويات الكتاب

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٦/٣٨٣

(٢) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٧/٤٥

٦- الأخذ بالحزم والاستعداد للأمر ٣٦

٧- ما جاء في الاغترار والتحيل والإطماع ٤٠

٨- البر والعقوق والمحافظة على الأهل والإخوان ٤٢

٩- في **الحمية والأنفة** ٤٥

١٠- في الحلوم والثبات ٤٨

١١- في الصدق والكذب ٤٩

١٢- وصف الرجل بالتبريز والفعل الحميد ٥٢

١٣- التمسك بالأمر الواضح ٥٤

١٤- التوسط في الأمور ٥٥

١٥- التساوي في الأمر ٥٧." (١)

"قال وأنبأنا السلمي قال سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت سعيد بن حاتم يقول قال أبو الحارث الأولاسي من اشتغل بما لم يكن فكان فاته من لم يزل ولا يزال أخبرنا أبو المعالي أحمد بن أبي الحسن (١) بن أحمد بن أبي منصور الشاه البامنجي بيامين (٢) أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن عبد الوارث بن علي بن أحمد الشيرازي الحافظ أنبأنا أبو محمد هياج بن عبيد بن الحسن (٣) الشيخ الصالح الفقيه أنبأنا أبو أحمد محمد بن أحمد ابن سهل أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد الجلاء حدثنا أبو بكر بن داود (٤) حدثنا أبو الحارث الأولاسي قال كتب إلي بعض إخواني أيش تشتهي من هذه الدنيا فقلت أشتهي وجها مصفرا وخدا معفرا ودمعا مقطرا وطمرا مشمرا وعيشا مكدرا وقلبا منورا كالقنديل يزهر وقوتا مقترا قال فكتب إلي يا أخي ما أحسن ما اشتهيت من هذه الدنيا ولكن ما أحسن الليل على الساجد والاتصال بالماجد والزهد على الزاهد أحسن من الحلي على الناهد ثم قال يا أخي احفظ الله في خفي كل نظرة وفتش كل لقمة وزن كل خطوة وانتخب (٥) الأحوال وأحب كل أخ صحيح المودة ثم قال يا أخي من عرف الله عاش ومن أحب الدنيا طاش والأحمق يغدو أو يروح في لاش والعاقل لذنوبه فتاش قرأت على أبي يعلى حمزة بن أحمد بن فارس عن أبي الفتح نصر بن إبراهيم أنبأنا أبو نصر أحمد بن علي بن عبيد الله السلمي أنبأنا أبو الحسن بن جهضم حدثنا أبو بكر محمد بن داود حدثني محمد بن إسماعيل الفرغاني قال سمعت أبا الحارث الأولاسي يقول دخلت مسجد طرسوس فرأيت فتيين (٦) يتكلمان في علم **الأنفة** (٧)

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٤٢١/٧

وسوء أدب الخلق وحسن صنيع الله تعالى إليهم ويذمان نفوسهما في ما يجب لله تعالى عليهما فقال أحدهما لصاحبه يا أخي قد تحدثنا في العلم فتعال حتى نعامل الله به فيكون لعلمنا فائدة ومنفعة

---

(١) الاصل: الحسين تصحيف والتصويب عن م وز قارن مع المشيحة ٥ / أ

٢) كذا بالاصل وم وز: وكتب في المشيخة أنها من ناحية هراة

وكتب على هامش " ز ": بيامنجين

(٣) كذا بالاصل وم وفي " ز ": الحسين

(٤) في م وز: يزداد

(٥) إعجامها مضطرب بالاصل والتصويب عن م وز

(٦) كذا بالاصل وم وفي " ز ": اثنين

(٧) كذا بالاصل وم وز." [١]

"ط. هذا قول الأصمعي، وقال قوم: أي يركبون فتقرع أسواقهم بعضها بعضا.

وقيل: الظنبوب مسمار، يكون في جبة السنان، حيث يركب الرمح. " وقال " الخليل: قرع لذلك الأمر ظنبوبه: إذا أتاه من جهته. وكانوا يقرعون ظنابيب الإبل، لتبرك، فتركب، وأنشد ابن الأعرابي: " الطويل "

قرعت ظنابيب الهوى يوم عالج ... ويم اللوى حتى قسرت الهوى قسرا

أي أذللته كما يقرع ظنبوب البعير، ليركب. وقال الليث: أراد أن تقرع ظنابيب الخيل بالسياط، ركضا النالعدو. وأما المسمار فهو الكلب، وبعد هذا البيت " البسيط "

وشد كور على وجناء ناوية ... وشد سرج على جرداء سرحوب

وعلى قوله " ٣،١٩ " قرع لذلك الأمر ظنبوبه.

ش: كون الهاء في طنبوبه عائدة على الأمر جائز على الاستعارة من الظليم يقرع طنبوبه فيكون ذلك غالبا له، يملكه به فاعله، ولا يمتنع منه، ولا يفلته.، فكذلك الأمر، إذا أتاه الإنسان من بابه، وحاوله على وجهه، فقد ملكه زضبطه بجهوده كملك قارع طنبوب الظليم إياه، وقهره له، هذا وجه حسن. وقال أبو عبيدة: الظنبوب من الفرس مقدم الزظيف ومن الإنسان حرف عظم الساق.

ط: قبل بيت الكلحبة " الطويل ".

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٢٩/٤٩

إن تنج منها يا حزيم بن طارق ... فقد تركت ما خلف ظهرك بلقعا

ونادى منادي الحي أن قد أتيتم ... وقد شربت ماء المزادة أجمعا

وقال غير أبي العباس: كاس بنته. وقال النحاس هي أخته، وكانت العربتؤثر الخيل، ولا تولي أمرها إلا لأهلها. والكلحبة ضوء السراج.

ش: وقول أبي الحسن " من بني عرين يربوع " على أن يربوعا من نبي عرين، لجده، خطأ إذا ليس عرين، ابن يربوع ولكنه ابن ابنه، وهو عرين بن ثعلبة بن يربوع.

وعلى قوله " ٤،١٢١ " لعمري لقد لاقت سليم وعامر ... البيت

ط: الأخطل اسمه غياث بن غوث. يكنى أبا مال، والثرثار واد بين دجلة والفرات ورغية مصدر جاء على فاعل كقولهمهو في علفة وفلج فالج.

وهذا اليوم كان لتغلب على قيس، ةقتلوا فيه عمير بن الحباب السلمى. " وقيل الثرثار " نهر على الحس يقول: نابهم قوم صالح، حين رغا فيهم سقب الناقة إذا عقر فهلكوا.

وعلة قوله " ٤،١٢٢ " رغا فيهم ... البيت

ط: العلقمة الحنظلة وبها سمى علقمة. والعبدة بفتح الباء صلاءة الطيب، وبها سمى أبوه. قاله أبو علي في " البارع " وقال المطرز مثله. والعبدة: جودة الثوب، وصفاقته، والعبدة الأنفة أيضا، وبها سمى الرجل كل ذلك مفتوح الباء. وقال أبو علىالقالي: كان بعض العلماء يرويه: فداحض بالضاد معجمة، وهذا الحرف أحدما " نسب فيه " إلى التصحيف، وقال غيره: الداحض: الزالق والداحص: الفاحص برجله عند الموت. والذبح.

وعلى قوله عليه السلام " ٤،١٢٢ " " المتفيهقون "

ط: جاء " ٣الف " في بعض " الروايات قالوا يا " رسول الله قد عرفنا الثرثارين والمتشدقين " فمن المتفيهقون " قال المتكبرون.

وعلى قول الأعشى " ١٤،١٤٢ ":

نفى الذم عن رهط المحلق " جفنة كدابية الشيخ العراقي تفهق ".

ط: المحلق، اسمه عبد العزيز بن حثيم، وقيل: إنما قيل له المحلق، لأن فرسا كدمه في وجهه، فبقي أثر ذلك كالحلقة فيه. وقال الموصلي: أصابه داء فاكتوى في حلقه. وكان الأحمر يقول: الشيخ تصحيف، وإنما هو السيح، بالسين، والحاء غير معجمتين، وهو الماء الجاري على وجه الأرض، يذهب ويجئ

والجابية: الحوض، وجمعه الجوابي، وكل ما " يحبس " فيه الماء فهو جابية. وقيل أراد بالشيخ العراقي كسى. وحكله أبو عبيدة في كلام ذكره عن الأصمعي في شرح الحديث، وخص بالشيخ على تأويل أبي العباس، لأنه قد جرب الأمور، وقاسى الخير، والشر، فهو يأخذ بالحزم في أحواله.

وعلى قول أبي الحسن " ٥،١٢٤ " هي أم الهيثم الكلابية.

ش: اسمها غنية سماها، وروى عنها أبو حاتم.

ط: أم الهيثم هذه هي رواية أهل الكوفة.

وعلى قول ذي الرمة " ٥،١٢٤ " لها ذنب ... البيت.

ط: يصف ناقة، وقبله " الطويل ":

إذا ارفض أطراف السياط وهللت ... جروم المطايا عارضتهن صيدح

ومن نون جعل الفه للإلحاق، ومن لم ينونه جعل ألفه للتأنيث.

وعلى قوله " ٥،١٥٥ " الصوف الأذري.." (١)

"والجود والأنفة والحمية التي لا يدانيهم أحد فيها، ولا يتعلق بها رومي ولا هندي ولا فارسي، لأن هذه الأمم كلها بخلاف العرب شيما.

ثم لهم من بعد الهمم، والطلب بالطوائل، ما ليس لغيرهم، مع المعرفة بمساقط النجوم، والعلم بالأنواء، وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء.

ولهم خط العربية، مع الحفظ لأنسابهم، ومحاسن أسلافهم، ومساوئ أكفائهم، للتعاثر بالقبيح والتفاخر بالحسن، ليجعلوا ذلك عونا لهم على إثبات الجميل، واصطناع المعروف، ومزجرة لهم عن إثبات القبيح وفعل العار، وليؤدبوا أولادهم بما أدبهم به آباؤهم، ثم الحفظ الذي لا يقدر أحد على مثله، وإن دونه عنده وجلده في كتبه.

وخصلة لا تصاب إلا فيهم، وذلك أن العي والبيان في كل قوم مبثوث متفرق، ولست واجدا بالبادية عيا رأسا، على أنهم وإن تفاوتوا في البيان فليس ذلك بمخرج أحسنهم إلى العي.

وفيهم أيضا خصلة لا تصاب إلا فيهم، وذلك أن سلفة كل جيل وعلية كل صنف إذا اشتد تشاجرهم، فطالت ملاحاتهم، وكثر مزاحمهم، والدعابة بينهم، وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات، وشتم الأمهات، واللفظ السيئ، والسفه الفاحش، ولست بسامع من هذا وشبهه حرفا بالبادية، لا من صغيرهم ولا كبيرهم،

---

(١) القرط على الكامل ابن سعد الخير ص/٦٩

ولا جاهلهم، ولا عالمهم، وكيف يقولون هذا والحيان منهم يتعاييان بدون ذلك.
وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم، وكل شيء تقوله." (١)

"سليلة سابقين تناجلاها ... إذا نسبا يضمهما الكراع
وفيها عزة من غير نفر ... يحيدها إذا حر القراع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها ... ومنعكها بشيء يستطاع
وكفى يستقل بحمل سيفي ... وبي ممن تهضمني امتناع
وحولى من بني قحفان شيب ... وشبان إلى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع ... وإن لاقوا فأيديهم شعاع

ولهم أشعار كثيرة غير هذه في إكرام الخيل في الجاهلية، غير ما قالوا في الإسلام.
قال: وهم مع ما حكيت لك من صحة العقل، وكرم الطبيعة، وحسن البيان، وسعة المعرفة، وجودة الرأي، وشدة الأنفة: يعبدون الحجارة، ويحلفون بها، ويحاربون دون كسرها، وتهجينها، وينكسون لها، ويدعونها آلهة، ويخاطبونها، ولا يستجيزون عيبها، وينكرون على من ينتقصها، ثم مع ذلك ربما رموا بها، واتخذوا سواها، ثم كانوا يرون أن الرجل منهم إذا مات فلم يأخذ وليه بعده بعيره، فيحفر له حفرة ثم يقيده على شفيرها، ويطرح برذعته علي وجهه ورأسه، ثم لا يسقيه ولا يعلفه حتى يموت، ثم ن ذلك الرجل الميت بزعمهم يحيا يوم القيامة حافيا راجلا، وإذا فعل ذلك أتى راكبا، وذلك البعير البلية، قال أبو زبيد:." (٢)

"ذكر سلفنا الصالح – رضي الله عنهم – أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء، وهي التي ذكر المسعودي أنها جزيرة الوقواق لان تلك الجزيرة اعدل بقاع الأرض هواء؛ أتممها لشروق النور الأعلى عليها استعداد، وان كان ذلك خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء، فانهم يرون إن اعدل ما في المعمورة الإقليم الرابع، فان كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم انه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية، فلقولهم: أن الإقليم الرابع اعدل بقاع الأرض وجه، وان كانوا إنما أرادوا بذلك إن ما على خط الاستواء شديد الحرارة، كالذي يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه.
وذلك أنه قد تبرهن في العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكون الحرارة إلا الحركة أو ملاقاة الأجسام الحارة

---

(١) الحور العين الحميري، نشوان ص/٢١٨
(٢) الحور العين الحميري، نشوان ص/٢٢٣

والإضاءة؛ وتبين فيها أيضا إن الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشيء من هذه الكيفيات المزاجية؛ وقد تبين فيها أيضا إن الأجسام التي تقبل الإضاءة أتم القبول، هي الأجسام الصقيلة غير الشفافة، ويليها في قبول ذلك الأجسام الكثيفة غير الصقيلة، فأما الأجسام الشفافة التي لاشيء فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه.

وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو علي خاصة، ولم يذكره من تقدمه، فإذا صحت هذه المقدمات، فاللازم عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجسام أخر تماسها، لان الشمس في ذاتها غير حارة ولا الأرض أيضا تسخن بالحركة لأنها ساكنة وعلى حالة واحدة في شروق الشمس عليها وفي وقت مغيبها عنها.

وأحوالها في التسخين والتبريد، ظاهرة الاختلاف للحس في هذين الوقتين.

ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط سخونة الهواء، وكيف يكون ذلك ونحن نجد أن ما قرب من الهواء من الأرض في وقت الحر، أسخن كثيرا من الهواء الذي يبعد منه علوا؟ فبقي أن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير، فان الحرارة تتبع الضوء أبدا: حتى إن الضوء إذا افرط في المرأة المقعرة، أشعل ما حاذاها.

وقد ثبت في علوم التعاليم بالبراهين القطعية، أن الشمس كروية الشكل، وأن الأرض كذلك، وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرا، وأن الذي يستضيء من الشمس أبدا هو أعظم من نصفها، وأن هذا النصف المضيء من الأرض في كل وقت أشد ما يكون الضوء في وسطه، لأنه أبعد المواضع من المظلمة، ولأنه يقابل من الشمس أجزاءا أكثر، وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهي إلى الظلمة عند محيط الدائرة الذي ما أضاء موقعه من الأرض قط، وإنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه، وحينئذ تكون الحرارة في ذلك الموضع أشد ما يكون فان كان الموضع مما تبعد الشمس عن مسامتة رؤوس أهله، كان شديد البرودة جدا، وان كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة، وقد ثبت في علم الهيئة أن بقاع الأرض التي على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين في العام: عند حلولها برأس الحمل؛ وعند حلولها برأس الميزان.

وهي في سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم، وستة أشهر شمالا منهم: فليس عندهم حر مفرط، ولا برد مفرط.

وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة.

وهذا القول يحتاج إلى بيان أكثر من هذا، لا يليق بما نحن بسبيله؛ وإنما نبهناك عليه، لأنه من الأمور التي تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب.

فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بأن حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبرا نقصه عليك، فقال: انه كان بازاء تلك الجزيرة، جزيرة عظيمة متسعة الأكتاف، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد **الأنفة** والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذا لم يجد لها كفوا.

وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم.

ثم إنها حملت منه ووضعت طفلا.." (١)

"ووصى حكيم ابنه فقال: يا بني، إن المدبر لا يوفق لطرق المراشد. فإياك وصحبة المدبر؛ فإنك إن صحبته علق بك إدباره، وإن تركته بعد صحبتك إياه تتبعت نفسك آثاره.

وقال الحكيم: من التوفيق حفظ التجربة.

وقال بعض العلماء: صن عفتك بالحلم، ومروءتك بالعفاف، ونجدتك «١» بمجانبة الخيلاء، وجهدك بالإجمال في الطلب.

كتب حكيم إلى حكيم: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن لم يحلم ندم، ومن صبر غنيم، ومن خاف رحم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم.

قال أنو شروان لابنه: يا بني، إن من أخلاق الملوك العز **والأنفة**. وإنك ستبلى بمداراة أقوام، وإن سفه السفيه ربما تطلع «٢» منه فإن كافأته بالسفه فكأنك رضيت بما أتى. فاجتنب أن تحتذي على مثاله، فإن كان سفهه عندك مذموما فحقق ذمك إياه بترك معارضته بمثله.

عن عطاه بن مسلم الخفاف قال، قال لي سفيان رضي الله عنه «٣» : يا عطاء، احذر الناس، وأنا فاحذر بي. فلو خالفت رجلا في رمانة، قال: حامضة، وقلت: حلوة؛ أو قال «٤» : حلوة، وقلت: حامضة-: لخشيت أن يشيط بدمي. «٥»

أوصى رجل ابنه فقال: إن وصيتي مع وصية الله عز وجل لهجنة، وإن." (٢)

---

(١) حي بن يقظان ابن طفيل ص/١

(٢) لباب الآداب لأسامة بن منقذ أسامة بن منقذ ص/١٩

"وأشركه في سلطانه، وندبه لرعاية خلقه، ونصبه لنصرة حقه. فإن أطاعه في أوامره ونواهيه تكفل بنصره، وإن عصاه فيهما وكله إلى نفسه.

وقال الحكيم: من ملكه الله من أرضه وبلاده، وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محله ومكانه-: فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة، ويخلص الديانة، ويجمل السيرة، ويحسن السريرة، ويجعل الحق دأبه المعهود، والأجر غرضه المقصود، فالظلم يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب النقم، ويهلك الأمم.

وقال: من أبلى جدته في خدمتك، وأفنى مدته في طاعتك-: فارع ذمامه في حياته، وتكفل أيتامه بعد وفاته. فإن الوفاء لك، بقدر الرجاء فيك.

أفض على جيشك سيب عطائك، وأصرف إليهم أحسن عنايتك وإرعائك «١» ، فإنهم أهل **الأنفة** **والحمية**، وحفظ «٢» الحوزة والرعية، وسيوف الملك، وحصون الممالك والبلدان، وأوثق الأصحاب والأعوان، بهم تدفع العوادي وتقهر الأعادى، ويزال الخلل، ويضبط العمل. قوضعيفهم يقو أمرك، وأغن فقيرهم يشد أزرك، وامنحهم قبل الفرض، واختبرهم عند العرض، ولا تثبت منهم إلا الوفي الكمي الذي لا يعدل عن الوفاء، ولا يجبن لدى الهيجاء وفان المراد منهم قوة العدة، لا كثرة العدة. وإن أصاب أحدهم في وقعة تندبه لها، أو حملة تبرز فيها، ما يعطله عن اللقاء، ويؤخره عن الأكفاء-:." (١)

"[قال:] «١» من ضرر الكذب أن صاحبه ينسى الصورة المحسوسة الحقيقية، وتثبت عنده الصورة الوهمية الكاذبة، فيبني عليها أمره، فيكون غشه قد بدأ بنفسه.

[وقال:] «٢» لا تعان «٣» ما قوي فساده فيحيلك إلى الفساد قبل [أن] «٤» تحيله إلى الصلاح.

وقال الحكيم: إفهم كل ما «٥» يصدر عنك عند غلبة الغضب، فإنك تستقبحه عند انصرافه.

وقال: أحسن ما في **الأنفة** الترفع عن معايب الناس، وترك الخضوع لما زاد على الكفاية «٦» .

إذا تسمح في دولة بالتجوز في القضاة والأطباء فقد أدبرت وقرب انحلالها.

[قال:] «٧» الأخيار يترفعون عن ذكر معايب الناس، ويتهمون المخبر بها، ويؤثرون الفضائل ويتعصبون لأهلها، ويستصغرون فضائل الرؤساء، ويطالبون أنفسهم بالمكافأة عليها وحسن الرعاية لها «٨» .

أحسن ما في الأمانة المكافأة على الصنيعة.

---

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ أسامة بن منقذ ص/٥٩

إذا أردت أن تعرف طبقتك من الناس فانظر إلى من تحبه لغير علة.

وقال: السخيف مثل الجسم الرخو المتحلل: يسخن سريعا، ويبرد." (١)

"باسم أبيها. ثم ذهبت العجوز. وقال عاصم بن عمر أبيات شعر. ثم دخل زوجها واستقر في منزله، فلما فرغ من شعره سمعه وهو يضربها فصبر حتى علم أنه شفى غيظه ثم إنه أتاه، فصاح به، فخرج، فقال له: بأبي أنت، ما عرضك لي؟ فأخبره خبره وخبرها، فقال: بأبي أنت، لو كنت معي في منزلي ما كان علي منك بأس.

قال كان عقيل بن علقمة من الغيرة **والأنفة** على ما ليس عليه أحد علمناه، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه، فقال: أما إذا كنت فاعلا فجنبني هجناك. وخطب عقيل وقال:

رددت صحيفة القرشي لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

علي بن سليمان الأخفش قال: قال ابن الكلبي: كان لقمان بن عاد حكيم العرب غيورا، فبنى لامرأته صرحا وجعلها فيه، فنظر إليها رجل من الحي فعلقها، فأتى قومه فأخبرهم وجده بها، وسألهم الحيلة في أمره. فأمهلوه حتى أراد لقمان الغزو، فعمدوا إلى صاحبهم وشدوه في حزمة سيوف وأتوا إلى لقمان فاستودعوها إياه، فوضع السلاح في بيته، فلما مضى تحرك الرجل في السيوف، فقانت إليه المرأة تنظر فإذا هي برجل، فشكا إليها حبه إياها، فأمكنته من نفسها، فلم يزل معها مقيما حتى قدم لقمان فردته في السيوف كما كان، وجاء قومه فاحتملوه. وإن لقمان نظر يوما إلى نخامة في السقف فقال: من تنخم هذه؟ فقالت: أنا. قال: فتنخمي. فقصرت فقال: يا ويلتاه والسيوف دهتني. فقتلها ثم." (٢)

"إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحا يبسطها إذا شاء ترفيها وإنعاما، ويقبضها إذا أراد تنبيها وإلهاما، ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا، وعلى آخرين فسادا وضيرا، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد، وأنه بعد ما كان من امتساك الحيا، وتوقف السقيا، الذي ريع به الآمن، واستطير له الساكن، ورجفت الأكباد فزعا، وذهبت الألباب جزعا، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها واكتست الأرض غبرة بعد خضرة، ولبست شحوبا بعد نضرة، وكادت برود الأرض

---

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ أسامة بن منقذ ص/٤٥٤

(٢) أخبار النساء لابن الجوزي ابن الجوزي ص/١١٣

تطوى، ومدود نعمه تزوى. يسر الله تعالى رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته، وأزاح محنته، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح، بماء دفق، ورواء غدق، من سماء طبق، استهل جفنها فدمع، وسح مزنها وهمع، وصاب وبلها ونفع، فاستوفت الأرض ريا، واستكملت من نباتها أثاثا وريا، فزينة الأرض مشهورة، وحلة الرياض منشورة، ومنة الرب موفورة، والقلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجوع ممحوة، وسور الحمد متلوة ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق، ونستعيذ به من المنة أن تصير فتنة، ومن المنحة أن تعود محنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الوزير أبو بكر محمد بن القصيرة

قرأت له في بعض التعاليق، هذا البيت شاهدا له بجودة النظم بالتوفيق والتحقيق، وهو من أبيات يهنيء فيها بمولود:

لم يستهل بكى ولكن منكرا ... أن لم تعد له الدروع لفائفا

ولم يورد القيسي مصنف قلائد العقيان شيئا من شعره، لكنه وشح كتابه بنثره، ووصفه بترجح الأقلام في بيانه، وتبجح الأيام بمكانه، وإنه كان في سماء العلى وتاجها دريا ودره، ولمشرفي الشرف وجهة الوجاهة غرارا وغرة، واشتملت عليه دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اشتمال الجفن على البصر، والأكمام على الثمر، والهالة على القمر، إلى أن أضمر رمسه، وكورت شمسه. قال القيسي: فمن كلامه رقعة راجعني بها: وافتني لك – أطال اله بقاءك – أحرف كأنها الوشم في الخدود، تميس في حلل إبداعها كالغصن الاملود، وإنك لسابق هذه الحلبة لا يدرك غبارك في مضمارها، ولا يضاف سرارك إلى إبدارها، وما أنت في أهل البلاغة إلا نكتة فلكها، ومعجزة تتشرف الدول بتملكها، وما كان أخلقك بملك يدنيك، وملك يقتنيك، ولكنها الحظوظ لا تعتمد من تتجمل به وتتشرف، ولا تقف إلا على من توقف، ولو اتفقت بحسب الرتب لما ضربت إلا عليك قبابها، ولا خلعت إلا عليك أثوابها، وأما ما عرضته فلا أرى إنفاذه قواما، ولا أرضى لك أن تترك عيون آرائك نياما، ولو كففت من هذا الخلق، وانصرفت عن تلك الطرق، لكان أليق بك، وأذهب مع حسن مذهبك، فقديما أوردت الأنفة أهلها موارد لم يحمدوا صدرها والموفق من أبعدها وهجرها، وسأستدرك الأمر قبل فواته، وأرهف لك مفلول شباته، فتوقف قليلا، ولا تنفذ فيه دبيرا ولا قبيلا، حتى ألقاك هذه العشية، وأعلمك بما تنبني عليه القضية.

وكتب عن أمير المسلمين إلى طائفة متعدية: يا أمة لا تعقل رشدها، ولا تجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها، ولا تقلع عن أذي تفشيه قربا وبعدا جهدها، فإنكم لا ترعون لجار ولا غيره حرمة، ولا تراقبون في

مؤمن إلا ولا ذمة، قد أعماكم عن مصالحكم الأشر، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم، وأتيتم ما ينكر مقتديا في ذلك صغيركم بكبيركم، وخاملكم بمشهوركم، ليس فيكم زاجر، ولا منكم إلا غوي فاجر، وما ترى إلا الله عز وجل قد شاء مسخكم وأراد نسخكم وفسخكم، فسلط عليكم الشيطان الرجيم يغركم ويغريكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم، وكأنكم به قد نكص على عقبيه عنكم، وقال إني بريء منكم، وترككم في صفقة خاسرة، لا تستقيلونها إن لم تتوبوا في دنيا ولا آخرة، وحسبنا هذا إعذارا لكم، وإنذارا قبلكم، فتوبوا وأنيبوا وأقلعوا وانزعوا، واقضوا من أنفسكم كل من وترتموه، وأنصفوا جميع من ظلمتموه وغششتموه ولا تستطيلوا على أحد بعد، ولا يكن إلى أذاه صدر ولا ورد، إلا عاجلكم من عقوبتكم ما يجعلكم مثلا سائرا، وحديثا غابرا، فاتقوا الله في أنفسكم وأهليكم، وإياكم والاعتزاز فإنه يورطكم فيما يرديكم ويسوقكم، إلى ما يشمت به أعاديكم، وكفى بهذا تبصرة وتذكرة، ليست لكم بعدها حجة ولا معذرة ...." (١)

"يا مال. أراد يا مالك، فحذف الكاف للترخيم. (وقوله) : مال الحسب. هو منصوب لأنه بدل من الأول وهو أيضا مرخم، وإن كان مضافا للضرورة، وهو كقول الآخر:

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا. البيت، أراد عكرمة فرخمه، وإن كان مضافا: وهذا النوع قليل. والحسب الشرف، وأنشد أذكر. وذو التذمم هو الذي له ذمام أي عهد. (وقوله) : ذو رحم. أي ذو قرابة. (وقوله) : ومن لم يرحم. من رواه بفتح الحاؤء فهو من الرحمة، ومن رواه بضمها فهو من الرحم وهي القرآبة. والحلف العهد، والبلد المحرم يعني مكة، والحطيم ما بين الحجر إلى ميزاب الكعبة. (وقوله) : وخرجوا معهم بالظغن. الظغن هنا النساء، وأصل الظغن الهوادج، فسميت النساء بها. والححفيظة **الأنفة** والغضب تقول: أحفظت الرجل إذا أغضبته. وقال بعض اللغويين: الحفيظة الغضب في الحرب خاصة. (وقول) هند: ويها. هي كلمة معناها الإغراء والتحضيض. واللأمة الدرع، وربما سمي السلاح كله لأمة. (وقوله) : فذب فرس بذنبه. يريد أنه حرك ذنبه ليطير الذباب عنه، والكلاب." (٢)

"يدل له، فإن العقل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار له. إذا عرفت هذا فنقول حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزمه أن يكون كل قصد واختيار مسبوقا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال. فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر – أقسام أخرى العماد الأصبهاني ٨٩٨/٢

(٢) الإملاء المختصر في شرح غريب السير أبو ذر الخشني ص/٢١٧

إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة. فالإنسان مضطر في صورة مختار، ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله هذا المعنى في باب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فقال: فإن قلت إني أجد في نفسي وجدانا ضروريا أني إن شئت الفعل قدرت على الفعل وإن شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بي لا بغيري. وأجاب عنه، وقال: هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل. بل العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام فحصول المشيئة في القلب أمر لازم وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضا أمر لازم وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فيه فوائد:

الفائدة الأولى: الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعي محال.

الفائدة الثانية: أن صيغة الأمر لا لمعنى الطلب في كتاب الله كثيرة ثم نقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير.

الفائدة الثالثة: أنها تدل على أنه تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين، بل نفع الإيمان يعود عليهم، وضرر الكفر يعود عليهم، كما قال تعالى: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها [الإسراء: ٧] ، واعلم أنه تعالى لما وصف الكفر والإيمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة، وبذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح. أما الوعيد فقوله تعالى: إنا أعتدنا للظالمين نارا يقول أعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها **والأنفة** في غير محلها فعند ما استحسن بهواه وأنف عن قبول الحق لأجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين، فهذا كله ظلم ووضع للشيء في غير موضعه. فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الأقوام نارا وهي الجحيم، ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين: الصفة الأولى: قوله:

أحاط بهم سرادقها والسرادق هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئا شبيها بذلك يحيط بهم من جميع الجهات، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير

النار بل هي محيطة بهم من كل الجوانب. وقال بعضهم: المراد من هذا السرادق الدخان الذي وصفه الله في قوله:

انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب [المرسلات: ٣٠] وقالوا: هذه الإحاطة بهم إنما تكون قبل دخولهم النار فيغشاهم هذا الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط. والصفة الثانية: لهذه النار قوله: وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل

قيل في حديث مرفوع إنه دردي الزيت

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل بيت المال." (١)

"يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان، ودلت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوي التأثير الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معينا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق وقال في آية أخرى ولا تنازعوا فتفشلوا [الأنفال: ٤٦] .

ثم قال تعالى: الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وفيه وجهان الأول: أنه تعالى لما أرشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة الثاني: أنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرا وأنفة فبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء في الحوض فقوله الله يجتبي إليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٥٩/٢١

أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله من يشاء كقوله تعالى: يعذب من يشاء ويرحم من يشاء [العنكبوت: ٢١] .

ثم قال: ويهدي إليه من ينيب وهو كما

روي في الخبر «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»

أي من أقبل إلي بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح له صدره وأسهل أمره.

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي/ وطلب الرياسة فحملتهم **الحمية** النفسانية **والأنفة** الطبعية، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلبا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب، لأن لكل عذاب عنده أجلا مسمى، أي وقتا معلوما، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة، وهو معنى قوله ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة، واختلفوا في الذين أريدوا." (١)

"جحود الولد لأنه بدل عن القذف والنفي معا.

وقوله: "وهو ينظر إليه" وهو يريد يراه أنه منه ويعلم أنه ولده لم ينكره.

وقوله: "احتجب الله منه" من أعظم أسباب الوعيد والتغليظ، لأن لا غاية في النعيم أعظم من النظر إلى الله تعالى في الدار الآخرة، وهي النهاية القصوى من الخير، فإذا احتجب الله تعالى عن إنسان فويل له ويل له.

وقوله: "وفضحه به" يريد بجحوده ولده وإظهار كذبه على زوجته وافترائه عليها، وهذا من أقوى أسباب الوعيد، ولا سيما عند العرب الذين هم أولو **الأنفة** **والحمية**، وإنما قدم ذكر المرأة على الرجل في هذا المقام: لأن المرأة هي التي باشرت الزنا ، ولولا إرادتها وإجابتها لم يقع -اللهم إلا كرها- وهي كانت السبب في إلحاق الولد به، والرجل إنما يقف على أمرها بعد وقوع الفعل منها، وعلى نحو من هذا جاء قول الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٨٨

-عز وجل-: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ فقدم المرأة على الرجل في الذكر. والله أعلم.." (١)

"- ١ - المعنى يقول هذا الذى أثر فى قلبه من المصيبة هو آخر ما يعزى به وهذا لفظ معناه الدعاء ولفظه الخبر ومعناه أنه لا يصيبه بعد هذا مصاب

٢ - الإعراب جزعا مصدر وتقديره لم يجزع جزعا وقيل هو منصوب بفعل دل عليه أثر فى قلبه تقديره لم يؤثر جزعا والأنف **الحمية** المعنى يقول لم يؤثر هذا المصاب فى قلبه وإنما دخله **الأنفة** من أجل أن قدر الدهر على اغتصابه واستباحة حريمه

٣ - المعنى يقول لو علمت الدنيا بما عنده من الفضل لأخذها الحياء من عتبه عليها ولكفت عنه أذاها وقال الخطيب لعل الأيام لم تعلم من غاب عن حضرته من أهله وأسرته ولو علمت لما عرضت لشئ من أسبابه فلهذا قال فى البيت الذى بعده

(لعلها تحسب ...)

٤ - المعنى هذه المتوفاة هى عمته توفيت على البعد منه فلعل الأيام ظنت أن كل من لم يكن عنده من عشيرته وقومه ليس من حزبه أى أهله فلذلك أخذت هذه

٥ - الغريب الذرى الكهف والكنف والعضب السيف وبغداد فيها لغات بالدال المهملة فى الأول وفى الآخر الإعجام وبالمهملتين وبالمعجمتين وبالنون فى الآخر المعنى يريد أن الأيام لعلها ظنت أن عمتك لما كانت فى بغداد ولم تكن فى حضرتك لم تكن فى كنف سيفك وممن يحميه سيفك فلذلك تعرضت لها

٦ - الإعراب الضمير فى صلبه راجع إلى المرء المعنى يقول لعل الأيام ظنت أن هذه المتوفاة لما لم تكن عندك فى بلدك لم تكن من صلب جدك فلهذا اجترأت عليها المنية وظنت أنه لا نسبة بينكما فلهذا أقدمت عليها وظنت أن أقاربه الذين يساكنونك فى الوطن هم عشائره وأن من بعد عن وطنه لا يكون من عشريته وأسرته ومن روى بالحاء فالمعنى أن حريمه وطنه فمن لم يكن مستوطنا معه لم يكن من عشيرته." (٢)

---

(١) الشافي في شرح مسند الشافعي ابن الأثير، أبو السعادات ٥/٥٦

(٢) شرح ديوان المتنبي للعكبري العكبري، أبو البقاء ١/٢١٠

"- ١ - الإعراب الناس اسم من أسماء الجموع عبر عنه بإشارة الواحد على اللفظ لا على المعنى ولو أراد المعنى لقال هؤلاء الغريب الخداع الغرور وأصله من خدع الضب فى حجره إذا دخل فيه ومنه قول شاس بن نهارى العبدى

(أرقت فلم تخدع بعينى نعسة ... ومن يلق ما لاقيت لابد يأرق)

والخداع أن يتمكن الكلام الباطل فى قلب مستمعه فينخدع به وخدعته خدعا وخدعا بالكسر والفتح وخدع يخدع كسحر يسحر من الأفعال التى جاءت على فعل يفعل بالفتح والاسم الخديعة والخدعة المعنى لا أعتقد فى هؤلاء الناس الخير ولكن غيرى ممن يجهل أمرهم يغتر بقولهم فينخدع به لأنهم إذا قاتلوا جبنوا وانهزموا وإذا حدثوا أظهروا الشجاعة أى أن شجاعتهم بالقول لا بالفعل وإذا كانوا كذلك فالجاهل يغتر بهم

٢ - الإعراب روى أهل بالحركات الثلاث فالرفع على الابتداء أى هم أهل الحفيظة والنصب على الذم لهم والجر على البدل من الناس الغريب الحفيظة الحمية والأنفة والغى الفساد ويزع يكف وزعته أزعه وزعا كففته فاتزع هو أى كف وأوزعته بالشيء أغريته به وأوزع به فهو موزع به أى مغرى به المعنى يقول هم أهل الحفيظة غير مجربين فإذا جربتهم لم ترهم كذلك وفى تجربتهم ما يكفك عن مخالطتهم وهذا يشير به إلى ما ظهر من عجز أصحاب سيف الدولة فى الغزاة التى جبنوا فيها وقال هم يظهرون الحمية والصبر والجلد والإقدام ويتزينون بذلك ما لم تقع التجربة لهم فإذا جربوا تركوا

٣ - الإعراب نفسى فى موضع رفع عطفا على الحياة كقولك ما أنت وزيد الغريب الطبع الدنس يقول طبع الرجل بالكسر أصله من طبع السيف إذا علاه الصدأ قال أبو محمد الراجز الفقعسى

(إنا إذا قلت طخارير القزع ... وصدر الشارب منها عن جرع)

(نفحلها البيض القليلات الطبع ١ ...)

المعنى يقول ما لنفسى والحياة وقد علمت أن حياة الإنسان على الحال التى يكرهها والطريقة التى لا يستحسنها دناءة ودنس فعلام الحرص على الحياة والركون إليها مع هذه الحال فلا أريد حياة ولا أشتهيها إذا كانت كذا وفيه نظر إلى قول بيت الحماسة قول قطرى

(وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع)." (١)

---

(١) شرح ديوان المتنبي للعكبري العكبري، أبو البقاء ٢٢١/٢

"الرصين، ورأيك الوثيق، فإن فيما أتيته ضروبا من المصالح وفنونا من المرافق، فمنها أنك سترت عورة واستفدت طهرا وعصمة، وقضيت لمن ارتكضت في حشاها ذماما وحرمة، ومنها أنك نزهت نفسك عن التوسم بالعقوق للذهاب مع **الأنفة**، وصنتها عن أن تتبع فيها المقالة للائمة، لا سيما وفيها علالة من الشباب تنطلق معها ألسنة الاغتياب، فلا تملكنك دواعي الهم والحسرة، فقد جدع الحلال أنف الغيرة.

وإن ساءتك هذه الحال من جانب إنها لتسر من جوانب، وكذاك رياح الأيام تختلف فتارة تهب شمائل وأخرى جنائب. جعل الله عز وجل نعمه عليك مصفاة من سوء يكدرها، ومواهبه لديك مبرأة من شائبة ترنقها، وجعل ما يوليك بعدها جامعا للعز الأشد والنظر الأشوس، وحرسه عما يغري القذى بطرفك، ويوكل الأذى بلبك، بمنه وسعة طوله.

ولما مات الصاحب قال أبو العلاء ابن سهلويه يرثيه [١] :

يا كافي الملك ما أوفيك حقك [٢] من ... وصفي وإن طال تـم جيد وتأبين

فت الصفات فما يرثيك من أحد ... إلا وتزيينه إياك تهجين

سقى الحيا قبرك الثاوي بمصرعه ... ليث وغيث وصمصام وتنين

بناظري ثرى أرض حللت بها ... فردا وفرشك فيه الترب والطين

ما مت وحدك لا بل مات من ولدت ... حواء طرا بل الدنيا بل الدين

تبكي عليك العطايا والصلات كما ... تبكي عليك الرعايا والسلاطين

هذي نواعي العلا قد قمن [٣] نادبة ... أضعاف ما ندبتك الخرد العين

لم يبق للسؤدد اسم مذ نأيت ولا ... للجود رسم ولا للمجد آيين [٤]

---

[١] أورد الثعالبي هذه الأبيات في اليتيمة (٣: ٢٨٤) ونسبها لأبي القاسم ابن أبي العلاء الأصبهاني، ثم ترجم في الكتاب نفسه (٣: ٣٢٤) لمن اسمه أبو القاسم غانم بن أبي العلاء الأصبهاني، ولا يتضح من هذا صلة هذا الشاعر بابن سهلويه أبي العلاء، وبعض هذه الأبيات ورد في ترجمة الصاحب ابن عباد.

[٢] اليتيمة: ما وفيت حظك.

[٣] اليتيمة: مذ مت.

[٤] لـم يرد هذا البيت في اليتيمة.." (١)

---

(١) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب الحموي، ياقوت ١١٥٥/٣

"ثم أخذ يثني عليه، فلم ينطق الزمخشري حتى فرغ ابن الشجري من كلامه، فلما أتم كلامه شكر الشريف وعظمه وتصاغر له ثم قال: إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بصر بالنبي صلى الله عليه وسلم رفع صوته بالشهادتين، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا زيد الخيل، كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلا انت فانك فوق ما وصفت، وكذلك سيدنا الشريف، ثم دعا له وأثنى عليه.

توفي أبو القاسم الزمخشري بقصبة خوارزم ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

ومن شعره:

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقال أيضا:

كثر الشك والخلاف وكل ... يدعي الفوز بالصراط السوي

فاعتصامي بلا إله سواه ... ثم حبي لأحمد وعلي

فاز كلب بحب أصحاب كهف ... كيف أشقى بحب آل نبي

وله في مدح «تفسير الكشاف» :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ومن كلامه ما استخرجته من كتابه «الأطواق» قال: استمسك بحبل مواخيك، ما استمسك بأواخيك، واصحبه ما صحب الحق وأذعن، وحل مع أهله وظعن، فان تنكرت أنحاؤه، ورشح بالباطل إناؤه، فتعوض عن صحبته وإن عوضت الشسع، وتصرف بحبله ولو أعطيت النسع. فصاحب الصدق أنفع من الترياق النافع، وقرين السوء أضر من السم الناقع.

وقال: الدعة من الضعة مرة، لا تشره إليها نفس حرة.

وقال: الكريم إذا ريم على الضيم نبا، والسري متى سيم الخسف أبى. وقلما عرفت **الأنفة** والإباء، في غير من شرفت منه الآباء.." (١)

---

(١) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب الحموي، ياقوت ٦/٢٦٨٩

"والفريش ١ وذو العنان الركوب ٢ والفلو الضبيس ٣، لا يمنع سرحكم٤، ولا يعضد طلحكم ٥، ولا يحبس دركم ٦، ولا يؤكل أكلكم، ما لم تضمروا الإماق ٧، وتأكلوا الرباق ٨، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الربوة".

وفصاحة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها، كهذا الحديث وما جرى مجراه، على أنه قد كان في زمنه متداولا بين العرب، ولكنه –صلى الله عليه وسلم– لم يستعمله إلا يسيرا؛ لأنه أعلم بالفصيح والأفصح.

وهذا الكلام هو الذي نعده نحن في زماننا وحشيا لعدم الاستعمال.

فلا تظن أن الوحشي من الألفاظ ما يكرهه سمعك، ويثقل عليك النطق به، وإنما هو الغريب الذي يقل استعماله، فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة، وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة.

وذلك في اللفظ عيبان:

أحدهما: أنه غريب الاستعمال.

والآخر: أنه ثقيل على السمع، كريه على الذوق.

وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته، وهو الذي يسمى

---

١ هي التي وضعت حديثا، فهي كالنفساء من النساء، والفرس بعد نتاجها بسبع ليال.

٢ ذو العنان الركوب: الفرس الذلول.

٣ الفلو: المهر الصغير، وقيل: العظيم من جميع أولاد الحافر، والضبيس: العسر الصعب الذي لم يرض.

٤ السرح: المواشي السائمة، أي: إنها لا تمنع من المرعى.

٥ يعضد: يقطع، والطلح: شجر عظام.

٦ الدر: اللبن، والمراد ذوات الدر من المواشي.

٧ الإماق –مخفف من الإمآق، ترك الهمز منه ليوازن الرباق، والإماق: نكث العهد من **الأنفة.**

٨ الرباق: جمع ربق –بالكسر، وهو حبل فيه عدة عرى تشد به البهيمة من يدها أو عنقها، والمعنى تقطعوا رباق العهد الذي في أعناقكم وتنقضوه، واستعار الأكل لذلك؛ لأن البهيمة إذا أكلت الربقة خلصت من الشد.." (١)

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ١٨٠/١

"وسأحكم بين هاتين القصيدتين، والذي يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عددا، وأسد مقصدا، ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالأسد مرة، وتفضيله عليه أخرى، ولم يأت بشيء سوى ذلك، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد، وهو قوله:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا؟

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد، فوصف صورته وهيئته، ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئه مشيه واختياله، ووصف خلق نجله مع شجاعته، وشبه الممدوح به في الشجاعة، وفضله عليه بالسخاء، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر **الأنفة والحمية** التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مخرج، وأبرزه في أشرف معنى.

وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه.

والبحتري وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ ا لألفاظ وطلاوة السبك، فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني.

= معفر: ممرغ في التراب. الهزبر: الأسد الشديد. الصارم: السيف القاطع. ورد: لونه محمر. البحيرة: بحيرة طبرية. الفرات والنيل: نهران بالعراق، والنيل أيضا نهر بمصر لكن المبالغة على هذا تكون قد جاوزت الغلو. الغيل: الأجمة. اللبدة: الشعر المجتمع على كتف الأسد. الفريق الحلول: الجماعة النازلة بمكان. الغفرة: الشعر المجتمع على قفاه. اليافوخ: الرأس. الإكليل: التاج. الكمي: البطل المتستر في سلاحه. مشكول: مقيد. زمجر: صاح، وكذلك بربر. تطفيل: تطفل أي: دخول على الآكل من غير دعوة. تشابه القربان أو الخلقان أي: تشابهما في الجرأة والإقدام، وتخالفتما في أن الأسد بخيل بطعامه وأنت جواد. متن: جانب الصلب. أزل: قليل لحم العجز والفخذيين مقتول: مندمج شديد.

زوره: وسط صدره. أدنى: قرب. مضاض: مؤلم. التجديل: الانطراح على ال أرض. ابن عمته: الأسد الذي هرب من بدر بعد ذلك.." (١)

"خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا

سمع ابن عمته به وبحاله ... فمضى يهرول أمس منك مهولا

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ٢٨٧/٣

وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا

تلف الذي اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

وسأحكم بين هاتين القصيدتين، والذي يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عددا، وأسد مقصدا، ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح: في تشبيهه بالأسد مرة، وتفضيله عليه أخرى، ولم يأت بشيء سوى ذلك، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد، وهو قوله:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد؛ فوصف صورته وهيئته، ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله، ووصف خلق نجله مع شجاعته، وشبه الممدوح به في الشجاعة، وفضله عليه بالسخاء، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مخرج، وأبرزه في أشرف معنى، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه، والبحتري وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره في أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها، ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها، ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر؛ لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها، فجاء فيما أورد مبرزا.

واعلم أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان؛ كتوارد البحتري والمتنبي." (١)

"مذهب الشافعى، سماه الحاكم، مجلدتان. مختصر فى أصول الفقه مختصر فى أصول الدين. ديوان مجموع من شعره «١».

أنبأنا محمد بن محمد بن حامد «٢» فى كتابه «٣» - وذكر ملك النحاة هذا- فقال: «أحد الفضلاء المبرزين؛ بل واحدهم فضلا، وماجدهم نبلا، وكبيرهم قدرا، ورحيبهم صدرا. قد غلبت عليه سمة ملك النحاة، وشهدت بفضله خلانه والعداة، سمح البديهة فى المقاصد النبيهة، عزيز النفس كثير الأنفة عن المطامع الدنية بالمطالب النزيهة، والمراتب الوجيهة. ولقد كانت نجابته للنحاة بضاعة وافية، وبراعة يراعته للكفاة

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد ابن الأثير، ضياء الدين ٢/٣٨٧

كافية، يأخذ القلم فيمشق الطرس «٤» فى عرضه نظما يعجز، ونثرا يعجب، ونكتا ترقص. ونتفا تطرب. طاف بلاد العجم، ولقى كرماء كرمان، ووصل فى سنة إحدى وأربعين إلى أصفهان، وسافر إلى دمشق، فأقام بها إلى آخر عمره فى رعاية نور الدين محمود بن زنكى «٥» - رحمه الله».
«وكان مطبوعا متناسب الأحوال والأعمال. يحكم على أهل التمييز بحكم ملكه فيقبل ولا يستثقل؛ يقول: [هل] «٦» سيبويه إلا من رعيتى وحاشيتى! ولو عاش." (١)

"دار زاد لمن تزود منها ... وغرور لمن يميل إليها

مهبط الوحي والمصلى التي كم ... عفرت صورة بها خديها

متجر الأولياء قد ربحوا الجن؟ ... نة فيها وأوردوا عينيها

رغبت ثم رهبت ليرى كل؟ ... ل لبيب عقباه من حالتيها

فإذا أنصفت تعين أن يث؟ ... نى عليها ذو البر من ولديها

وأما قوله مغايرا لنفسه فإنه في أكثر كلامه يذم الدنيا، ومنه قوله: يا دنيا أبي تعرضت، أم إلي تشوفت؟ هيهات هيهات، غري غيري، قد بنتك ثلاثا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

وروى له عليه السلام في ذلك سريع:

يا مؤثر الدنيا على دينه ... والتائه الحيران في قصده

أصبحت ترجو الخلد فيها وقد ... أبرز ناب الموت عن حده

هيهات، إن الموت ذو أسهم ... من يرمه يوما بها يرده

لا يشرح الواعظ صدر امرئ ... لم يعزم الله على رشده

وأما ما جاء من ذلك في الشعر، فقول بعض العرب يمدح قوما بالأنفة كامل:

لا يشربون دماءهم بأكفهم ... إن الدماء الشافيات تكال." (٢)

"فإنه وصف هؤلاء القوم بالأنفة من أخذ الدية عن قتلاهم، فيصير حاصل ما يأخذونه شربهم اللبن، فكأنهم شربوا دماءهم، ثم قال: إن مثل هذا الدم لا يشفي، وإنما يشفي من الدماء ما أخذه مكايلة صاعا بصاع، يعني دما بدم كفء، فحاصل معناه أن الدماء تكال؛ وقال الآخر مغايرا لهذا المعنى وقد قتل بقتيله

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة القفطي، جمال الدين ٣٤٤/١

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٢٧٩

دونه معتذرا عن ذلك، مغايرا للمعنى الأول طويل:

فيقتل خير بامرئ لم يكن له ... وفاء ولكن لا تكايل بالدم

ويروى: لم يكن له بواء بباء موضع الفاء، أي كفء مأخوذ من قولهم لمن يقتلونه في دم: بؤبدم فلان، فذهب هذا القائل إلى أن قتيله لا نظير له، فلو ذهب إلى أنه لا يقبل به إلا كفأه لطاح دمه هدرا، إذ لم يجد له كفؤا، فلهذا اضطر إلى قتل من دونه، ثم قال: لا تكايل بالدم، مستدلا بذلك القول على صحة ما أتاه، لكون أرباب الدماء متفاوتي الدرجات، فلا تتكافأ دماؤهم، هذا مذهب الجاهلية، قد أتى الإسلام بخلافه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المسلمون تتكافأ دماؤهم " ولهذا قال عمر رضي الله عنه لجبلة: الإسلام ساوى بينكما فتغاير المعنيان، وهما مع المغايرة صحيحان، وقد أتى حكم الله في كتابه العزيز مغايرا هذا الحكم، فقوله تعالى: " ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل " وقوله: " الحر بالحر والعبد." (١)

"بين العلماء درجته، وتطير بين الفضلاء سمعته، ويقبل قوله في لفظ كل كلام ومعناه، وليحذر من أن يقف خاطره بسبب معاندة الزمان، وتواتر صروف الحدثان، وتعذر المكسب، وعز المطلب وتقدم الجهال، واختصاص الأرذال بالأموال، فيكون ذلك داعيا إلى ترك الاشتغال، وسببا في فتور عزمه عن تحصيل العلوم، وذريعة لقعوده عن رياضة نفسه، واستعمال خاطره، فيلحق بالأخسرين أعمالا، والمخطئين أفعالا وأقوالا، بل يكون اجتهاده في ذلك اجتهاد راغب في الكمال، شديد **الأنفة** من مساومة الجهال، عاشق في تزكية نفسه، مائلا للتقدم بنفس العلم على أبناء جنسه، وما أحسن قول القائل طويل:

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل

فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

ولا بد للمجتهد من يوم تحمد فيه عاقبة اجتهاده، ويحصل فيه على مراده، وإن كان قصير الهمة مهين النفس، قد أوتي طبعا في العمل سليما، وذهنا مستقيما، فظن أنه يستغني بذلك عن الاشتغال، ويبعد عم مماثلة الجهال، إدلالا بطبعه، واتكالا على حذقه، كأكثر شعراء زماننا وكتابه، والمنتظمين في سلك أرباب آدابه، حاشا من احتفل بالأدب احتفالا أوجب لذوي الآداب، والانتفاع بهذا الكتاب، فلا يأنف من عرض

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٢٨٠

ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن بمعرفته، ويتحقق أن مرتبته في العلم فوق مرتبته، ولا تهمل ذلك فإن خطره عظيم، " وفوق كل ذي علم عليم "، هذا وإن كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا." (١)

"الضريبة يوما: لا إله إلا الله، هذا أخو أبي الفضل، فأخذتني **الأنفة** على نفسي وصغرت عندي لذلك، ودعوت الله أن يسهل علي حفظ القرآن، ثم اجتهدت حتى بلغ من أمري أنني كنت آخذ ستين آية وسبعين آية وأحفظها.

حدثني والدي رحمه الله قال: كان للقطب أبي علي بن العجمي جب فيه حنطة، في داره، فأمر بفتحه وبيع ما فيه من الحنطة، ففتح لتباع الحنطة عند تحرك السعر فوجدوا الماء في رأس الجب فوق الحنطة فجاؤوا إليه وأخبروه بذلك فقال: في سبيل الله، ثم نزحوا الماء، فوجدوه قد جرى من قناة إلى رأس الجب، ولم يصل منه الى الحنطة إلا القليل، وفسد شيء يسير من الحنطة، فأخبر بذلك فقال: الحمد لله، وقد جعلته في سبيل الله، لا أرجع فيه، فأخذ ثمنه، وصرفه في ملك اشتراه بحلب، ووقفه على فقراء المسلمين (٢٥٧- و) .

وحدثني شرف الدين أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمي قال: لما وقعت الفتنة بحلب بين السنة والشيعة، وهي الفتنة التي قتل ابن الخشاب بسببها، نهب الشيعة دار القطب ابن عمي بالقرب من الزجاجين، ونهبت دار الشيخ أبي يعلى بن أمين الدولة، وكانت بالقرب من دار القطب بالجرن الأصفر، وكان عنده أموال الأيتام بحلب مودعة، وكان القطب في القرية، فلما قتل ابن الخشاب وسكنت الفتنة ظفروا بشيء من الذهب المنهوب، فأرسله الوالي إلى القطب وقال له: هذا قد خلصناه من ذهبك فقال: قد نهبت دار ابن أمين الدولة، وفيها أموال الأيتام، ولا أتحقق يقينا أن هذا عين مالي، وأخاف أن يكون للأيتام فأرسلوه إلى الشيخ أبي يعلى فلا حاجة لي فيه.

أخبرني أبو القاسم عبد المجيد بن الحسن بن العجمي أن أباه توفي في ذي القعدة من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ودفن في داره التي انتقل إليها بعد النهب بالبلاط، فأقام بها دفينا إلى أن نقله ابن ابنه منها الى تربه جددت له ولابنه ظاهر باب النصر بالقرب من الهزازة «١» ، في سنة خمس وخمسين وستمائة.." (٢)

"تحية من غادرته غرض الردى ... إذا زار عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما وهذا قيس أول من وأد البنات في الجاهلية

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٤٠٩

(٢) بغية الطلب فى تاريخ حلب ابن العديم ٢٤٣١/٥

للغيرة **والأنفة** من النكاح، وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام.

(٩) وأما الأمير بدر الدين لؤلؤ المذكور، فإنه توفي يوم الجمعة ثالث شعبان سنة سبع وخمسين وستمائة بقلعة الموصل، ودفن بها في مشهد هناك، وعمره مقدار ثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

٧٦ - (١)

صلاح الدين الإربلي

أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإربلي الملقب صلاح الدين، وهو من بيت كبير بإربل؛ وكان حاجبا عن الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فتغير عليه واعتقله مدة، فلما أفرج عنه خرج منها قاصدا بلاد الشام في سنة ثلاث وستمائة (٢) صحبة الملك القاهر بهاء الدين أيوب ابن الملك العادل، فاتصل بخدمة الملك المغيث ابن الملك الءادل، وكان قد عرفه من إربل، وحسنت حاله عنده، فلما توفي المغيث انتقل الصلاح إلأى الديار المصرية، وخدم الملك الكامل، فعظمت منزلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يصل إليه غيره، واختص به في خلواته وجعله أميرا.

وكان الصلاح ذا فضيلة تامة ومشاركات حسنة. بلغني أنه كان يحفظ

---

(١) للصلاح اربلي ترجمة في مرآة الزمان: ٦٩٢ والوافي ٧، الورقة: ٢٩ والشذرات ١٤٣.

(٢) ه: ٦٠٦.." (١)

"فرقه فرقا، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى، وكلت حملاته وكان قدرا يضرب فيه العنان بالعنان (١) ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية، مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في نار **الأنفة** (٢) لهم نصرة، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

---

(١) وفيات الأعيان ابن خلكان ١٨٤/١

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم (٣) بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخا وكان الإسلام

---

(١) س: وكانت قدرا يصرف فيه العنان.

(٢) ق والمختار: الأكفة؛ س: الأنف.

(٣) وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم: هذه هي قراءة ر، وقد جاءت مضطربة في سائر النسخ؛ وربما قرئت " وعن أنصاف "..." [١]

"١٠- تنوير: ولأن النفوس أيضا قد اعتقدت أن الشعر كله زور وكذب على ما رآه قوم ابن سينا رادا عليهم. وكان يجب على هؤلاء إن كان لهم علم بالشعر ألا يحملهم الحسد فيما قصرت عنه طباعهم على أن يتكلموا في ذلك بغير تحقيق. وكثيرا ما يذم الإنسان ما منعه، شيمة ثعالية، فيحملهم الحسد على الغض من الشعر ومن أهله بإخراجه من الحقائق جملة، وإن كانوا ممن ليس لهم به علم، وما أجدرهم أيضا بهذا! فكان يجب عليهم أن يتعلموا أو لا يتكلموا فيما لم يعملوا. فالناس إذا اعتقدوا هذا الاعتقاد كانوا خلفاء بأن يأخذوا أنفسهم بألا تتحرك للشعر ولا تهتز غليه. وأنت إذا نظرت من تعلم منه شيمة حسد من الكهول والشيوخ الذين يئسوا من البلاغة في النظم والنثر وجدته إذا أنشدته شعرا حسنا إما شديد الحبوس مربد الوجه لشدة الاغتياط، وإما باديا فيه يسير من الهزة وظاهرا منه أنه يقمع نفسه ويمنعها تسريح العنان في الهزة لئلا يسر بذلك المنشد ولاسيما إن كان الشعر له. فأما الأحداث فمثل هذا الحسد فيهم قليل لأنهم لم يقطعوا يأسهم من إدراك البلاغة، وأيضا فإنهم لا يطالبون أنفسهم في السن الحديثة من الاستكمال **والأنفة** من النقص في المعارف بما طالب به أنفسهم أولئك.

١١- إضاءة: وربما قال قائل: إذا كانت الأقاويل الشعرية منها ما يخيل الشيء ويمثله نفسه بتعرف صورة

---

(١) وفيات الأعيان ابن خلكان ١٨٢/٧

الشيء مما أعطاه ومثله القول المخيل، كالذي يحاكي بالدمية صورة امرأة فتعرف صفاتها بها، ومنها ما يترك فيه المعنى المخيل للشيء ويخيل بما يكون مثالا لذلك المعنى، كالذي يتخذ مرآة فيقابل الدمية بها فيريك تمثالها فتعرف أيضا صورة الشيء المحاكى بالدمية بالتمثال الذي يبدو للدمية في المرآة. وقد رأينا من يرى الدمية أو تمثالها في المرآة لا يتحرك لها ولا لتمثالها بنسبة مما كان يتحرك لرؤية الشخص الذي حوكيت صورته بالدمية. فيجب على هذا أن لا يكون التحرك لما يتخيل من الشعر بنسبة من التحرك لمشاهدة الأشياء التي خليت. وأنتم تقولون إن الأقاويل الشعرية ربما كان التحرك لما يتخيل من محاكاتها أشد من التحريك لمشاهدة الشيء الذي حوكي، وابتهاج النفس بما تتخيله من ذلك فوق ابتهاجها بمشاهدة المخيل. فيقال له أولا: إن الدمية والشخص الذي صورت على صورته يختلف اعتبارهما في تحريك النفوس. فالدمية تحركها بالتعجيب من حسن محاكاتها وإبداع الصنعة في تقديرها على ما حكي بها، والشخص الذي هو تمثال له إن كان مستحسنا فإنه يحرك الذي هي تمثال له من هذا الطريق، بل الأمر في الأكثر على ذلك. والقول المخيل قل ما يخلو من التعجيب، بل كأنه مستصحب له من اقل ما يمكن من ذلك في القول المخيل على أكثر ما يمكن. والتعجيب في القول المخيل يكون إما من جهة إبداع محاكاة الشيء وتخييله كما كان ذلك في الدمية، ويكون من جهة كون الشيء المحاكي من الأشياء المستغربة والأمور المستطرفة. وإذا وقع التعجيب من الجهتين المذكورتين على أتم ما من شأنه أن يوجد فيهما فتلك الغاية القصوى من التعجيب. وللنفوس على ما بلغ هذه الغاية تحريك شديد.

١٢- تنوير: ثم يقال لمن اعترض بأن محاكاة الشيء يجب أن يكون التحرك لها أقل من التحرك لمشاهدته أن تمثلنا في المحاكتين بالدمية والمرآة على جهة من التسامح. وإنما ينبغي أن يمثل حسن المحاكاة في القول بأحسن ما يمكن أن يوجد من ضروب تصاوير الأشياء وتماثيلها. فأقول إن من أحسن ما يرى من ذلك تصور أشعة الكواكب والشمع والمصابيح المسرجة في صفحات المياه الصافية الساكنة التموج من الخلجان والأودية والمذانب والأنهار. وكذلك نمثل أفانين شجر الدوح بما ضم من ثمر وزهر في صفحات الماء الصفو إذا كان الدوح مطلا عليه. فإن اقتران طرتي الغدير الدوحية بما يبدو من مثالها في صفاء الماء من أعحب الأشياء وأبهجها منظرا. ونظير ذلك من المحاكاة في حسن الاقتران أن يقرن بالشيء الحقيقي في الكلام ما يجعل مثالا له مما هو شبيه به على جهة من المجاز تمثيلية أو استعارية كقول حبيب: (الخفيف -ق- المترادف)

دمن طالما التقت أدمع ال ... مزن عليها وأدمع العشاق

وقول ابن التنوخي: (الطويل -ق- المترادف)
لما ساءني أن وشحتني سيوفهم ... وأنك لي دون الوشاح وشاح." (١)
"الحاج على الحقيقة والمنتفع به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما. واتقوا الله في مجامع أموركم ليعبأ بكم. واعلموا أنكم إليه تحشرون للجزاء بعد الإحياء. وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٠٤]
ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤)
ومن الناس من يعجبك قوله يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه. في الحياة الدنيا متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من إدعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو يعجبك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحبسة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ويشهد الله على ما في قلبه يحلف ويستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. وهو ألد الخصام شديد العداوة والجدال للمسلمين، والخصام المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خصم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة.
قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعي الإسلام.
وقيل في المنافقين كلهم.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٠٥ الى ٢٠٦]
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (٢٠٥) وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦)
وإذا تولى أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار واليا. سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد لا يرتضيه

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء القرطاجني ص/٤١

فاحذروا غضبه عليه.

وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم حملته **الأنفة** وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقانه لجاجا، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه. فحسبه جهنم كفته جزاء وعذابا، وجهنم.

علم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرب. ولبئس المهاد جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٠٧]

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد (٢٠٧)

ومن الناس من يشري نفسه يبيعها أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ابتغاء مرضات الله طلبا لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنت معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبلوه منه وأتى المدينة. والله رؤف بالعباد حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة و الشهداء.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٠٨ الى ٢٠٩]

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (٢٠٨) فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم (٢٠٩)

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة السلم بالكسر والفتح الاستسلام والطاعة، ولذلك يطلق في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافة اسم للجملة لأنها تكف الأجزاء." (١)

"أناسا مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم. ليدخل الله في رحمته علة لما دل عليه كف الأيدي عن أهل مكة صونا لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام. من يشاء من مؤمنيهم أو مشركيهم. لو تزيلوا لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض، وقرئ «تزايلوا» . لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبي.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١/١٣٣

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)

إذ جعل الذين كفروا مقدر باذكر أو ظرف لعذبنا أو صدوكم. في قلوبهم **الحمية الأنفة**.

حمية الجاهلية التي تمنع إذعان الحق. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فأنزل عليهم الثبات والوقار وذلك ما

روي «أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن يخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون»

فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا عليهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وتحملوا. وألزمهم كلمة التقوى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد وإضافة ال كلمة إلى التقوى لأنها سببها أو كلمة أهلها. وكانوا أحق بها من غيرهم. وأهلها والمستأهلين لها. وكان الله بكل شيء عليما فيعلم أهل كل شيء وييسره له.

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا (٢٨)

لقد صدق الله رسوله الرؤيا رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أن ذلك يكون في عامهم، فلما تأخر قال بعضهم والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت فنزلت والمعنى صدقة في رؤياه. بالحق ملتبسا به فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل، ويجوز أن يكون بالحق صفة مصدر محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق

وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه، وأن يكون قسما إما باسم الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله: لتدخلن المسجد الحرام جوابه وعلى الأولين جواب قسم محذوف. إن شاء الله تعليق للعدة. بالمشيئة تعليما للعباد، أو إشعارا بأن بعضهم لا يدخل لموت أو غيبة أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه. آمنين حال من الواو والشرط معترض. محلقين رؤسكم ومقصرين أي محلقا بعضكم ومقصرا آخرون. لا تخافون حال مؤكدة أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك. فعلم ما لم تعلموا من الحكمة في تأخير ذلك. فجعل من دون ذلك من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة. فتحا قريبا هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود.

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ملتبسا به أو بسببه أو لأجله. ودين الحق وبدين الإسلام.

ليظهره على الدين كله ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقا وإظهار فساد ما كان باطلا، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح.." (١)

"ثم شهقت فماتت فواريناهما معا. قال عبد الله: فأقمت سبع سنين ثم رجعت إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لا أبرح أو أزور عتبة، وجئت فإذا أنا بشجرة عليها ألوان من الورق قد نبتت على القبر، فسألت عنها فقالوا شجرة العريسين.

*

أخبار الصمة وصاحبته ريا

هو أبو مالك الصمة بن عبد الله بن مسعود بن رقاش القشيري التغلبي من بني ربيعة، كان أديبا شجاعا عارفا بأيام العرب ووقائعها ومواضعها وكثيرا ما يسند إليه إبن دريد والأصمعي، قال الفوار والوزير أنه أدرك أوائل الإسلام.

و" ريا " هي بيت مسعود ن رقاش أيضا، كانت ذات ظرافة وفراسة ومعرفة وحسن نشأت مع الصمة صغيرين وكانا يتذاكران الأدب وملح الأشعار فأعجب بها وتمكنت منه ولم يكن عندها منه مقدار ما عنده منها، فلما شكا ما يجد منها إلى بعض أصدقائه أرشده إلى تزوجها، فخطبها إلى عمه، فأنعم على مائة من الإبل، فمضى الصمة إلى أبيه فأعطاه تسعا وتسعين فأبى مسعود إلا التمام وعد الله إلا ذلك وحلف كل على ما قال وأقفلوا الأمر فحملت الصمة **الأنفة** على أن خرج عنهما إلى العراق.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٣١/٥

فقالت الريا ما رأيت رجلا أضاعه أبوه وعمه ببعير إلا بالصمة لما عندها من العلم بحبه لها، فلما طال عليه الأمر وتنازعه الشوق والشهامة المانعة له من العود بلا طلب مرض حتى أضناه السقم، وقيل أتى كاهنا بالعراق فسأله عما أضمر فأخبره أنه لا يتزوج بها أبدا فضعف، والصحيح كما حكاه صاحب قوت القلوب في أخبار المحب والمحبوب أنه قدم رجل يقال له غاوي بن رشيد بن طلابة المذحجي على مسعود فخطب منه ريا وأمهرها ثلثمائة ناقة برعائها، فزوجه بها فحملها إلى مذحج الصمة ذلك فلزم الوساد وطال امره، فدخل عليه رجل كان يألفه فعنفه وسلاه فأنشد:

أمن ذكر دار بالرقاشين أعصفت ... به بارحات الصيف بدأ ورجعا

حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وسعيا كما معا

فما حسن أن يأتي الأمر طائعا ... وتجزع إن داعي الصبابة اسمعا

كأنك لن تسمع وداع مفارق ... ولم تر شعبي صاحبين تقطعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

الرفاشين إسم واد بين نجد واليمن كانت تنزله بنو ربيعة، والبارحات رياح معلومة صيفية تستبشر بها العرب والضمير يعود على الوادي.

وفي قوت القلوب أعصفت بها سانحات الصيف يريد بالدار، والسانحات أيضا لكنها لا تخص الصيف فيشكل التعيين هنا وقوله وسعيا كما هو معطوف على قوله ونفسك باعدت يريدان السعي والنفس أبعداه عن المحبوبة وغلط في قوت القلوب حيث أعرب وسعييكما نصبا بالياء على أنه معمول باعدت عطفا على مزارك.

وقوله فما حسن أن يأتي المر وبكت عيني اليمنى البيتين قد إستعارهما المجنون وباقي الشعر واضح ويقال أن في القصيدة طولا:

ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وجالت بنات الشوق تحتي نزعا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... رجءت إلى الإصغاء ألوي وأجزعا

وأذكر أيام الحمى ثم إنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا

أما وجلال الله لو تذكرينني ... كذكراك ما كففت للعين مدمعا

فقالت بلى والله ذكرى لو أنه ... تضمنه صم الصفا لتصدعا

ولما طالت عليه دعا له صاحبه العراقي بطبيب حاذق، فما تأمله قال إنما يشكو العشق لا غيره وأرى أن يلزم النزهة والفرح نحو البساتين ليتشاغل عما هو فيه أخرجه صاحبه مع بعض اخدم إلى الثغور، فبينا هو يوما على شاطيء هر وقد جد به اكرب إذ سمع امرأة تنادي إبنتها يا ريا فسقط مغشيا عليه فأحتملوه إلى بستان هناك وأضجعوه، فلما أفاق أنشد: تعز بصبر لا وجدك لا ترى سنام الحمى إحدى الليالي الغواير

كأن لساني من تذكري الحمى ... وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

ولم يزل يرددها حتى قضى، ولما وصل خبره إلى الريا داخلها من الوجد ما أمسكت معه عن الطعام والشراب وجعلت تبكي حى ماتت، ومن لطيف شعه قوه:

ألا من لعين لا ترى قلل الحمى ... ولا جبل إلا ثال إلا إستهلت." (١)

"قال القاسم بن جريال: فقلت له: هل لك في ارتشاف قرقف المرافقة، والاعتكاف بجامع هذه الموافقة، لنطفئ بماء المواصلة نيران البعاد، ونرفئ قارب المقاربة إلى ساحل قطع هذا الإصعاد، ونهزم بين أفياء الفتاء، عنترة عنبرة شدة هذا الشتاء، فقال لي: قسما بمن يسر طيب هذا الإلمام، وبرقع برقعا ببراقع الغمام، لقد نطقت بلسان مأربتي، وطرقت باب الأرب، بأنامل لبانتي وأشرت بما نشر لواء سعادتي، وخزق نبال الغرض بغرض إرادتي فأشرت رهطك من إذا زجرته تاب، أو هجرته انتاب، أو سللته جاب، أو سألته أجاب، ثم إنه مرج لتحصيل البيت، وإحياء قربنا الميت، وبيع الأدهم لشراء الكميت ولما أخذ في تحويل أداته وإصلاح لحمة الأدب وسداته، وشرع في نقل دوياته مع حسن أدواته، كنت بحمل جلائله من المجلين، وبقبلة مقابلته من المصلين، وحين حصل بها الخندريس واتصل بنا الأنيس، وبدت مسرتنا تميس، كأنها لميس، جعلت أكشف بها خمار المخامرات، وأضرب بصولجان الفكر كرة المذكرات، وأوقد مصباح مصاحبته في مشكاة مشاكهته وأسرح ببستان مناسمته آمنا من صرامة مصارمته، وأنصر خمائل عسرته، بنصر يمين الميمنة ويسرته، إلى أن دفؤ جسد الزمان، وورد من ديوان الزعازع توقيع الأمان، ولما انسلخ البرد انسلاخ الأرقم، وانفدخ الروض عن السوسن المزرقم، وتجلل الورد بغلائل الدم، وانجلا الشقائق في الوشاح المعندم، وطاب طلب التزاور والمزار، وأعلن بالدوح نوح الهزار، اقترحت عليه الخروج إلى بعض الحدائق في يوم مزن مشقق البنائق، مع صحابة صرموا وصال المصارم، وربوا بين خفق الألوية، وسل الصوارم تسمح بالهجان الأوراك، وتشمخ بأنف **الأنفة** على أولاد الفوارك: البسيط:

كأنما خلقوا من درة فعلوا ... فرق السماك بفضل فائض نضر

---

(١) المرقصات والمطربات ابن سعيد المغربي ص/٩٠

لا يلبس الباس قلبا في قلوبهم ... يوما ولا انخفضوا من خافض وضر

ولما تخيرنا مقاعد الجلوس، وتحيرنا لصفاء تلك الكؤوس، أقبلنا نستوي على خلوف خلفة المفاخرات، ونشتوي سمك المكاسرة في لهيب نار حريق المحاورات، إلى أن اتصل بنا ما لا يعود بعسكه سدى، كقولك: أدبك بدا، قال الراوي: فأشار إليه من بحذائه بأن يحذو مواقع حذائه، فأقبل بوجهه إلي وقال لي: يا بن جريال، فز بحل إشاح هذا الضحضاح، وتوق لذع رماح مر الافتضاح، فقلت له: أنى مع صدا شدة النقصان، أحدث روحي باجتناء هذه الأغصان، أو ما علمت أن الإنسان أخبر بوسمه، وحسان أعرف باسمه، أفتفخر بين الأبيضاض؟ من أزاهير الرياض، خميلة خاملة، بل أظري فإنك ناعلة فقال لي: تالله لقد أصبت بنصال مصداقك، وقرنت بعذق المصادقة حلاوة أعذاقك، ثم إنه انكفت لاستخراج كمينه، والتفت إلى من عن يمينه، وقال: إلفك فلايا من يجوز الفلا فلا ثم أجج المناظرة لمصليه وأزعج ضرام المفاخرة لمصطليه، وقال: يا من بربع المعاني يلم، منتك لك تنم، ثم أرقل إلى مسليه، وأقبل يرمق من سيليه، وقال: يا من به قمر المعالي يتم من يمل لم ينم، ثم اسمهر طرفه إلى التالي، واستمر على ذلك التوالي، وقال: يا منعما قد أطواق الشقاق وشق، قد بلاء إذا ألب دق، ثم لوى، ليته إلى المرتاح، واستوى استواء المرح المرتاح، وقال: يا ذا الذي شرف الشرب بلطف قد قرب، بحر سنا فنك كنف أنس رحب، ثم عطف للشادي العاطف، العطر المعاطف، وقال: إني لأعجب مع امتداد طيل تلافيك كيف يلذ لك، إذا كل ذلي فيك، قال القاسم بن جريال: ثم إنه نفحهم بنظمه المجيب، ومنحهم به على ذا النمط العجيب، وقال: الرجز:

افصل خلا إذا وجا ... واجد إذا الخل صفا

أفر أذا إذا فرا ... وارف أذا إذا رفا

افعل علا إذا كبا ... وابك إذا العل عفا

أفل سنا مجالب ... بلا جمان سلفا

افرج ملما ذا أذا ... إذا ملم جرفا." (١)

"فلما عمهم بنضارة نضاره، وخصهم بخصائص اختصاره، بوؤه نمارق الإجلال، وخولوه أيانق الإفضال، ثم إنه انبسط فضله وانتشر، وانخرط في مسامع الملك واشتهر، وأحب بأن يتحفه بدرة من فاخر لبابه، أو بدرة من زاخر عباد، فمال إلى مراده، وأملى له من لطائف إيراده، ما يخضع لصحيح فضله الصحاح، ولا

---

(١) المقامات الزينية ابن الصيقل الجزري ص/٣٧

ينكح لؤلؤ إفصاحه النصاح، فتدبرتها وقد حلت أجياد المردمين، وجلت بحلبة قريض المتقدمين، وتأملتها إذ زانت، وأعجزت الأفاضل وازدانت، وتغطرست وما استكانت وضوع عرف عبيرها فكانت: الخفيف:

أترع الكأس أكؤس الندماء ... أضحك النور أدمع الأنواء

بسقاة برت بحسن بنود ... بل بدور بدت بأوج بهاء

تلني لم تلوها تموج تلال ... تتهادى تطيل تيه توائي

ثيبات ثوابهن ثلوثي ... ثملات ثمالهن ثرائي

جابرات جنانهن جناني ... جائرات جحيمهن جفائي

حط حالي حؤول حب حبيب ... حاكم حاسم حوا حوبائي

خائن خاذم خدين خداع ... خادر خاتل خفي خباء

دائل دائم ديار دلال ... دار دهما دنية وهماء

ذابل ذابل ذميم ذرار ... ذي ذمام ذميمة ذناء

رافل راقد ربيع رواء ... رزم رائع رثيث رفاء

زائغ زيغه زواه زميع ... زاجر زاخر زبى زمعاء

سائغ سابغ سحوح سداد ... ساكب سامع سني سناء

شاكم شاكر شموس شموس ... شبع شهبا شديدة شقاء

صارم صابر صديق صفاح ... صادق صالح صحيب صفاء

ضرب ضارب ضراح ضيوف ... ضيغم ضامر ضليع ضياء

طافح طاهر طليق طباع ... طارق طاعن طريد طلاء

ظلف ظاهر ظهر ظليم ... ظالم ظالما ظبى ظرفاء

عالم عادل عروف عزوف ... عاصم عارف عظيم علاء

غائر غائم غرير غمام ... غدق غيره غثيث غثاء

فطن فاخر فريد فرند ... فارس فيلق فتي فتاء

قرع قارع قريع قراع ... قاهر قاسر قضيب قباء

كاشف كاسف كمي كفاح ... كامل كافل كريم كفاء

لقم لسلس لجين لبان ... لؤلؤ لهذم لهيم لواء

ملك مالك معين معين ... مانح مانع مبيد مراء

نائل نابل نبيه نضال ... ناصر ناضر نبي نماء

هاطل هائل هموس هجان ... هاتم هاثم هزبر هباء

وزر واكف وراء ودود ... ورد ود وديمة وطفاء

لاحق لاذ لائذوه لإعلى ... لاحب لا لأفة لأواء

يقق يافع يفاع يفاع ... يوح يوحى يتيمة يهماء

قال: فلما تمطرت إلى جنابه، وعطرت بأنابها فائح إنابه، نفحه بخلعة مسهوهبة الميدان وخلعة مغدودنة الأردان، وأحله لهذا الإبداع، ونفاسة هذيا الإيداع محل **الأنفة** من القارن، والقصبة من المارن، فصائح بشثن ثنائه، وكفوف اكتفائه، بطون رواجب سمائه، وفض ما فض له على ندمائه، ثم إنه قصد المرحاض، فما آض، فغاض المرح بعدما فاض، وإنهاض ساق السعادة إذ أفاض فحصلت منهم على كثب، وفصلت عنهم عن كثب، فلم أر أزهر من ليلة قدر ذلك القدر، ولا أعطر من نكهة ثغر ذلك الثغر.

المقامة السادسة عشرة الصادية الظفارية." (١)

"إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)

والعامل في ﴿إذ جعل الذين كفروا﴾ أي قريش لعذبنا أي لعذبناهم في ذلك الوقت أو اذكر ﴿فى قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ المراد بحمية الذين كفروا هى **الأنفة** وسكينة المؤمنين وهي الوقار ما يروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكر زبن حفص على ان يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه السلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل وأصحابه ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا م١ صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة فقالوا لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه السلام اكتب ما يريدون فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهم

---

(١) المقامات الزينية ابن الصيقل الجزري ص/٣٨

المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ الجمهور على أنها كلمة." (١)

"الرجل قبل أن تعلقك حبائله فإني رأيت هديا ورأيا ستغلب به أهل الغلب رأيت خصالا أعجبتني رأيته يحب الفقير ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف حق الكبير وما رأيت أحدا أجود منه ولا أكرم صلى الله عليه وسلم وقال معاوية لا ينبغي للملك أن يكون كذابا ولا حديدا ولا بخيلا ولا جبانا ولا حسودا فإنه إن كان كذابا ووعد بخير لم يرج أو أوعد بشر لم يخف وإن كان حديدا مع القدرة هلكت الرعية وإن كان بخيلا لم يناصحه أحد ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة وإن كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره فذل وإن كان حسودا لم يشرف أحدا ولا يصلح الناس إلا بأشرافهم ويقال ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته وليس له أن يكذب لأن أحدا يسترده حديثا ولا أحد يكرهه على ما يريد

وليس له أن يكون حقودا الآن خطره عظيم عن المجازاة وقال عبد الله بن طاهر لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يستدفع الظلم ولا أن يعجل ومنه تلتمس الأناة ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود وقالوا ينبغي للملك أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير وحافظا لا يبلغ البخل وشجاعا لا يبلغ التهور ومحترسا لا يبلغ الجبن وقائلا لا يبلغ الهذر وصموتا لا يبلغ الغي وحليما لا يبلغ العجز وقال أسماء ابن خارجة لا أشاتم أحدا ولا أرد سائلا فإنما هو كريم أسد خلته أو لئيم أستر عرضي منه وروى البيهقي في كتابه شعب الايمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله لمن شاء من عباده صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمواساة بالنائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم للجار وقرى الضيف ورأسهن الحياء ومن أخلاقهم صون الوجه بقناع الحياء وعقل اللسان عن اللجاج والمراء الحياء دليل الدين الصحيح وشاهد الفضل الصريح وسمة الصلاح الشامل وعنوان الفلاح الكامل من كان فيه نظم قلائد المحامد ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شيء خلقا وخلق هذا الدين الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء من الايمان والايمان في الجنة وقال الحياء لا يأتي إلا بخير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قيل كيف ذلك يا رسول الله قال من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلا وترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٤٢/٣

فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء فالحياء اسم جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى لأن ذمه فوق كل ذم ومدحه فوق كل مدح وقال يزيد ابن علي إني لأستحيي من الله تعالى أن أفضي إليه بشيء أخفيه من غيره والحياء من الناس يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال من تقوى الله اتقاء الناس وقيل هو أن يستحيي منهم في سره كما يستحيي منهم في جهره وقيل من المروأة أن لا تعمل شيأ في السر يستحيا منه في العلانية وكان يقال أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عليك بالحياء **والأنفة** فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة وأما استحياء الرجل من نفسه فهو أن لا يأتي في الخلاء إلا ما يأتي في الملا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيأ عرفناه في وجهه وكان عثمان بن عفان قد خص من الحياء بأجل السهام ومنح منه بأوفر الأقسام وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تستحيي منه الملائكة الكرام قال الامام مالك رضي الله عنه إنه أول من ضرب الأبنية في السفر وقالوا من لا يستحيي من نفسه فجدير أن لا يستحيي من غيره وقالوا في حده الحياء التوقي من فعل المساوي خوف الذم ويقال الحياء خوف المستحيي من تقصير يقع به من غير من هو أفضل منه وقال عمرو بن بحر الجاحظ الحياء لباس سابغ وحجاب واق وستر من العيب وأخو العفان وحليف الدين ورقيب من العصمة وعين كالئة تذود عن الفحشاء وتنهى عن ارتكاب الأرجاس وسبب إلى كل جميل وقالوا من عفت أطرافه حسنت أوصافه ويقال لا ترض قول امرئ حتى ترضي فعله ولا ترض فعله حتى ترض عقله ولا ترض عقله حتى ترضي حياءه فإن ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم فإذا قوى الحياء قوى الكرم وإذا ضعف الحياء قوى اللؤم وقال بشار بن برديس له أن يكون حقودا الآن خطره عظيم عن المجازاة وقال عبد الله بن طاهر لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يستدفع الظلم ولا أن يعجل ومنه تلتمس الأناة ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود وقالوا ينبغي للملك أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير وحافظا لا يبلغ البخل وشجاعا لا يبلغ التهور ومحترسا لا يبلغ الجبن وقائلا لا يبلغ الهذر وصموتا لا يبلغ الغي وحليما لا يبلغ العجز وقال أسماء ابن خارجة لا أشاتم أحدا ولا أرد سائلا فإنما هو كريم أسد خلته أو لئيم أستر عرضي منه وروى البيهقي في كتابه شعب الايمان بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله لمن شاء من عباده صدق الحديث وصدق البأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمواساة بالنائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذمم

للجار وقرى الضيف ورأسهن الحياء ومن أخلاقهم صون الوجه بقناع الحياء وعقل اللسان عن اللجاج والمراء الحياء دليل الدين الصحيح وشاهد الفضل الصريح وسمة الصلاح الشامل وعنوان الفلاح الكامل من كان فيه نظم قلائد المحامد ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق." (١)

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شيء خلقا وخلق هذا الدين الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء من الايمان والايمان في الجنة وقال الحياء لا يأتي إلا بخير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قيل كيف ذلك يا رسول الله قال من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلا وترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء فالحياء اسم جامع يدخل فيه الحياء من الله تعالى لأن ذمه فوق كل ذم ومدحه فوق كل مدح وقال يزيد ابن علي إني لأستحيي من الله تعالى أن أفضي إليه بشيء أخفيه من غيره والحياء من الناس يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال من تقوى الله اتقاء الناس وقيل هو أن يستحيي منهم في سره كما يستحيي منهم في جهره وقيل من المروأة أن لا تعمل شيأ في السر يستحيا منه في العلانية وكان يقال أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عليك بالحياء والأنفة فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة وأما استحياء الرجل من نفسه فهو أن لا يأتي في الخلاء إلا ما يأتي في الملا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيأ عرفناه في وجهه وكان عثمان بن عفان قد خص من الحياء بأجل السهام ومنح منه بأوفر الأقسام وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تستحيي منه الملائكة الكرام قال الامام مالك رضي الله عنه إنه أول من ضرب الأبنية في السفر وقالوا من لا يستحيي من نفسه فجدير أن لا يستحيي من غيره وقالوا في حده الحياء التوقي من فعل المساوي خوف الذم ويقال الحياء خوف المستحيي من تقصير يقع به من غي." (٢)

"رسول الله تصدق بي على بناتي واعف عني عفا الله عنك قال نعم علي أن لا تعين علي بقول ولا فعل فعاهده على ذلك وخلى سبيله ثم إنه خرج مع أبي سفيان يحرض قريشا على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ يوم أحد فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ألم تعاهدني على أن لا تعين علي بقول ولا فعل فقال غلبت فتصدق بي على بناتي واعف عني عفا الله عنك فقال عليه الصلاة والسلام إن

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٢٨

(٢) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٢٩

العفو لمكرمة ما مثلها مكرمة ولكن لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين ثم أمر بقتله فقتل

فمما للحكماء من تحريض الحر ... على مقابلة المسيئ بالنكال المر

قالوا توضع للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيا وانتصف ممن أساء إليك وإن كان حرا قرشيا وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه الخير بالخير والبادي أكرم والشر بالشر والبادي أظلم وقال الشعبي يعجبني الرجل إذا سيم هوانا دعته **الأنفة** إلى المكافأة وجزاء سيئة سيئة مثلها فبلغ كلامه الحجاج فقال لله دره أي رجل بين جنبيه وتمثل

ولا خير في عرض امرئ لا يصونه ... ولا خير في حلم امرئ ذل جانبه

وقالوا من ترك العقوبة أغرى بالذنب ولولا السيف كثر الحيف وقالوا من مال معك إلى الحيف فلا تبخلن عليه بالسيف وقالوا السفيه يخالف ولا يؤالف ويماري ولا يداري وقال أوس بن حسان

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواخره

فإن أنت لم تقدر على أن تهينه ... فدعه إلى اليوم الذي أنت قادره

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة ... وصمم إذا أيقنت إنك عاقره

وقيل لأعرابي أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسئ إلى من أساء إليك قال لا بل يسرني إن أدرك الثار وأدخل مع فرعون النار أبو عبادة." (١)

"آخر

وأرى الصديق إذا استشاط تغيظا ... فالغيظ يخرج كامن الأحقاد

ولربما كان التغيظ باعثا ... لتناول الآباء والأجداد

آخر

كاف الخليل على الجميل بمثله ... فإذا أساء فكافه بعتابه

وإذا عتبت على امرئ آخيته ... فتوق طائر عتبه وسبابه

وألن جناحك ما استلان مودة ... وأجب دعاه إذا دعا بجوابه

ومن ذوي **الأنفة** من أطاع أمر عقله فكافأ المتكلف للهوى على فعله بمثله كقول الشاعر

إذا تاه الصديق عليك كبرا ... فته كبرا على ذاك الصديق

وإن سلك الغرام به طريقا ... فخذ عرضا سوى ذاك الطريق

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٤٩٣

فليجاب الحقوق بغير راع ... حقوقك رأس تضييع الحقوق

آخر

وإذا الصديق نأى بجانب نفعه ... وحماك صوب غمامه المتدفق

وازور عنك بجاهه وبماله ... وببشره وجنى ولم يتخلق

فاعدده في الموتى فلا معنى له ... وأرمي به الغرض البعيد وحلق

إن ظنني للنار منه شفاعة ... يوم القيامة ساء ظن الأحمق

الكميت

ولست إذا ولي الصديق بوده ... بمكتئب أبكى عليه وأندب." (١)

"الكميت بن زيد ولقد أحسن في **الأنفة** إذا عطس بأنف شامخ وأبان عن أنف في الكرم راسخ من أبيات يفتخر

وما أنا بالنكس الدني ولا الذي ... إذا صد عنه ذو المروأة يقرب

ولكنه إن دام دمت وإن يكن ... له مذهب عني فلي عنه مذهب

ألا إن خير الود ود تطوعت ... به الأنفس لا ود أتى وهو متعب

وقيل لبعض الولاة كم لك من صديق فقال أما في حال الولاية فكثير ثم أنشد

الناس اخوان من دامت له نعم ... والويل للحر إن زلت به القدم

آخر

تلونت حتى لست أدري من العمى ... أريح جنوب أنت أم ريح عاصف

قريب بعيد جاهل متبصر ... سخي بخيل مستقيم مخالف

صدوق كذوب لست أدري خليله ... أيجفوه من تلوينه أم يلاطف

ولست بذي غش ولست بناصح ... وإني من عجبي لشأنك واقف

كذاك لساني شاتم لك مادح ... كما أن قلبي جاهل بك عارف

كتب بعضهم إلى صديق له تلون عليه أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الأمر فيك لأنك بدأتني بلطف من غير جراءة ثم أعقبتني جفاء من غير جريمة فأطمعني أولك في اخائك وآيسني آخرك من وفائك فسبحان من لو شاء لكشف بايضاح الرأي في أمرك عن ظلمة الشك فيك فأقمنا على ائتلاف

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٥٥١

وافترقنا على اختلاف والسلام وكتب آخر

قل للذي لست أدري من تلونه ... أناصح أم على غش يداجيني

إني لأكثر مما شتمه عجبا ... يد تشح وأخرى منك توليني." (١)

"ومنها أنهم مثلوا النفس الإنسانية بالملك المستولي، وأفضل أحواله أن يكون عالما عادلا لينا مهيبا مطاعا قويا من غير غلطة، رؤوفا من غير مهانة والنفس الغضبية مقال جنده الذين يسدون ثغوره ويقهرون أعداءه، ويقومون رعيته، وينفذون أمره وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب في نفسهم سهلة الانقياد لسلطانها المستخدم لها، والنفس الشهوانية مثال رعيته الذين يجب أن يكون عريكتهم لينة مواتية ورهبتهم منه، ومن جنده ثابتة مستحكمة فمتى أخذت هذه القوى مأخذها، وتعادلت في أوزانها وأقسامها كان الإنسان كاملا وإن زال عن ذلك نقص، وكان نقصانه بمقدار زواله، والنفس الإنسانية، لا تسلم من معارضتها إلا أن تكون صارمة قوية أبية، فإنها إذا كملت شدتها واستحكمت قوتها ثبتت لمقابلة العدوين اللذين معها، إذ قيل للقوي بين الضعيفين، فأما إن كانت وضعيفة بين قوتين فهناك تجتمع المعايب والمثالب وترتفع المحاسن و ا لمناقب.

ومنها أن البدن كالمدينة، والنفس الإنسانية كالملك، والحواس الباطنة والظاهرة كالجنود، والأعضاء كالرعية، والغضب والشهوة كعدوين ينازعانه الملك ويسعيان في هلاك رعيته، فإن قصد الملك قهرها استقامت مملكته وصارت إلى العاقبة رعيته وإن لم ينازعهما، وضيع الحزم اختلت مملكته وصارت عاقبة أمره إلى الهلاك.

ومنها أنهم قالوا: مثل النفس الإنسانية مثل الفارس ركب لأجل الصيد فشهوته فرسه وغضبه كلبه، فمتى كات الفارس حاذقا، وفرسه مرتاضا، وكلبع معلما كان جديرا بالنجح، ومتى كان الفرس جموحا والكلب عقورا، ولا فرسه تنبعث تحته على حسب إرادته، ولا كلبه يسترسل بإشارته، فهو خليق بالعطب فضلا عن أن ينال ما طلب.

ومنها أن البدن كبيت فيه إنسان وسبع، وخنزير، فالإنسان النفس الإنسانية، والسبع الغضب، والخنزير الشهوة، فأي الثلاثة غلب فالمسكن له فيجب أن تكون هاتان النفسان تحت سلطان النفس الإنسانية فيجريهما مجرى المركب الذي يركبه عند الحاجة بسرج يذلله وشكيمة تحنكه، وحنان يلينه وسوط يخفيه فإذا نزل عنه ألزمه الشكال والرباط لئلا يجد على حال من الأحوال شيئا إلى أن يشرد فيهلك ويجني على

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٥٩٧

صاحبه، والقول الحق أن الخلق مشتق من الخلق وكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق ولكن لا مندوحة على الاستبصار، وقمع التلون بعزائم الاستبصار حتى يصير المحمود من الأخلاق بحتا والموصوف لا يشتغل بالأرزاء به وقتا ولو لم يكن ذلك ممكنا لما وضعت الحكماء الكتب في الحض على تهذيب الأخلاق وإصلاحها، وليس ذلك بالعبث فيها بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة، مثاله أن الحبشي يتدلك بالماء والغسول لا ليستفيد بياضا، ولكن ليستفيد نقاء شبيها بالبياض والنفس الإنسانية إذا ساست القوتين أعني " الغضبية والشهوية "، فحذفت زوائدهما ونقت فواضلهما ووفت نواقصهما، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلمة في الشهوة أخمدت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنائها فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم فيعود السفه حلما، أو تحالما، والحسد غبطة، أو تغابطا، والغضب كظما أو تكاظما، وصرفت هذه الكوامن في هذه المكامن إذا سارت سورتها، وثارت ثورتها على مناهج الصواب تارة بالعظمة واللطف، وتارة بالزجر والعنف، وتارة **بالأنفة** وكبر النفس وتارة بإشعار الحذر وتارة بعلو الهمة، وهناك يصير العفو عند القادر ألذ من الانتقام، والعفاف عند الهائج أحلى من قضاء الوطر، والقناعة عند المحتاج أشرف من الإسفاف، والصداقة عند الموتور آثر من العداوة والمرارة عند المحفظ أطيب من الممارة على أن الأمرين بالتخلق والتطبع غير منكرين." (١)

".. إن فضلي على الزجاجة أني ... لا أذيع الأسرار وهي تذيع

ذهب سائل حواه لجين ... جامد إن ذا لشيء بديع ... قال الفقيه عمارة حدثني الفقيه أبو السعود بن علي الحنفي قال حدثني ابن أبي الصباح أنه لما دخل العراق وحضر مجلس الوزير يومئذ وعنده جماعة يتذاكرون الشعر فقال لي هل تحفظ شيئا لأحد من أهل اليمن فأنشدته قول ابن القم من قصيدته ... الليل يعلم أني لست أرقده ... فلا يغرنك من قلبي تجلده

فإن دمعي كصوب المزن أنشره ... وإن وجدي كحر النار أبرده

لي في هوادجكم قلب أضن به ... فسلموه وإلا قمت أنشده

وبان للناس ما قد كنت أكتمه ... من الهوى وبدا ما كنت أجحده ... وكان الوزير متكئا فاستوى جالسا واستعادها مرارا ثم بعثني في الموسم إلى مكة فاشتريت له الديوان فلما جئته به كان من أقوى الذرائع إلى صحبته والانقطاع إلى جملته ومناقب ابن القم في الفضل **والأنفة** على أهله في النسب والصنعة كثيرة وكفى شاهدا على ذلك ما خاطب به جياش حين قتل القاضي الحسن وقد تقدم أنه قام برئاسة البيت بعد

---

(١) مباهج الفكر ومناهج العبر الوطواط ص/١٥

الحسن ابن عمه القاضي الأجل أبو الفتوح وهو ابن أخي الحسن وله الذرية الكثيرة التي توجد بقيتها بزبيد قال عمارة كان أبو الفتوح أوحد عصره وإمام مصره قام بالعلم قياما كليا وصنف فيه كتبا جليلة في الفقه خاصة ومذهب الشافعي لم يتفقه أحد من أهل زبيد ومن حولها في مذهب الشافعي بعد وجودها إلا منها ومنها كتاب التحقيق عنه نقل صاحب البيان عدة مسائل وكفى له شاهدا بجواز الأخذ عنه نقل صاحب البيان إلى مصنفه الذي انتفع به كل إنسان وله مختصر في أحكام الجنايات وكان تفقهه بالإمام أبي الغنائم عن الشيخ أبي حامد المقدم الذكر

قال عمارة وكان أبو الفتوح لا تأخذه في الله لومة لائم عظيم الغضب فيه مر بداره ابن بجارة أحد فقهاء الحنفية الآتي ذكره وقد انتشى من الشراب وكان رجلا ماجنا يحذو طريق أبي نواس في الخلاعة والشعر فجعل يغني بصوت عال وذلك في ليل فصاح به القاضي إلى هذا الحد يا حمار ولم يكن ثم عون على الباب وارتجل ابن بجارة." (١)

"التي يعبدونها ولنعقرها عليهم فلا ينتفعوا بها فنهاهم العقلاء وأسرع إلى ذلك الجهلاء فضربوا العلبة بفأس حتى أوقعوها الأرض وألقى الله بقلوب أهل المدينة القوة **والأنفة** فخرجوا مسرعين نحوهم فهزموهم هزيمة شنيعة وقتلوا منهم جمعا أولهم عاقر الشجرة وحين وقع هبروه بالسيوف تهبيرا عظيما وتعرف هذه التربة بتربة من سمع النداء بالصلاة عليه في الحرم ولم ير المنادي

ومنهم أبو سعيد منصور بن علي بن عبد الله بن إسماعيل بن مسكين مولده صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة تفقه بزوج والدته الفقيه أحمد بن أبي بكر بن أحمد التباعي وأما هذا فمولده ومنشأه ناحية دلال بقرية تيثد المقدم ذكرهما وقدمتهما سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لغرض الزيادة والفحص عن آثار الأخيار فيها وزيارة تربته فلم أكد أجد أحدا من أهل العناية بذلك غير أنه أخرج لي فقيه القرية وإمام الجامع بها كتابا به أخبار يسيرة لم يكن به شيء من أخبار هذا الفقيه ولا ذكر له ابن سمرة تاريخا ولعله كان حيا بزمانه

ومنهم عبد الله بن الفقيه يحيى بن محمد المذكور أولا من أهل الملحمة وفي أصحاب اليفاعي وصاحب الشعر الذي مدح به شيخه زيد اليفاعي مولد عبد الله سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وتفقهه بتلميذ أبيه محمد بن سالم الأصبحي وتوفي سنة ست وخمسين وخمسمائة ومنهم أبو يحيى فضل بن أسعد بن جعفر

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجندي، بهاء الدين ١/٢٦٠

بن أبي سالم المليكي ثم الحميري قدم والده أسعد من ردمان وسكن موضعا من دلال وأولد ابنه فضلا هناك في شهر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة أثنى عليه ابن سمرة ثناء مرضيا وقال هو فقيه مجود ارتحل إليه الأصحاب رغبة في علمه وكرمه وابنه يحيى سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى قال ابن سمرة وهذا فضل بن يحيى هو مدرس الملحمة الآن يعني في عصره وذلك لنيف أو بضع وثمانين وخمسمائة إذ لم أجد." (١)

"الحكمي وابن عمه محمد بن يوسف الشويري ثبت لي سند بخط الفقيه الإمام الصالح أحمد بن موسى بن عجيل الآتي ذكره أنه قال بلغني أن الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا كان من الصالحين الكابر والعلماء المشهورين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد سئل عن مسألة فاستدعى بالثاني من المهذب وفتحه ووضعه بين يديه وأخذ ورقة ووضعها على ركبتيه وجعل يستملي الجواب من المهذب ويكتبه في الورقة وكفى به شهادة ابن عجيل له بالصلاح والعلم وكان راتبه كل يوم سبعا من القرآن واقتدى به في ذلك جمع من أصحابه وتوفي على الحال المرضي سنة تسع وستمائة فلزم مجلس التدريس بعده تلميذه موسى بن عجيل الآتي ذكره إذ لم يكن في أهله من يكمل غير محمد بن يوسف التزم العكفة تواريا عن ذلك وتوقيا بأن الفقيه موسى لا يترك الموضع شاغرا من مدرس لما فيه من **الأنفة** على الأصحاب على ما سيأتي ذكر بيان ذلك مع ذكره إن شاء الله فأقام يدرس مدة ثم إن محمد بن يوسف خرج من معتكفه فما هو أن رآه الفقيه موسى فخرج من الشويري يريد بلده فقيل لمحمد بن يوسف قد ذهب الفقيه موسى واتجه عليك أن تدرس فلازم المدرسة ودرس وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن زكريا تفقه بالفقيه محمد بن زكريا كما تقدم وكان فقيها كبيرا عارفا محققا أجوبته على مشكلات التنبيه تدل على ذلك سمعت العارف بالفقه يثني عليه ويقول أجاب عليها جمع من أهل اليمن والشام وأهل العراق فلم يكن فيها ما يرتضي غير جواب محمد هذا وتفقه به جماعة من أهله وغيرهم وكانت وفاته سنة خمس وعشرين وستمائة وخلف إبراهيم ولدا يقال له محمد اشتغل بالعبادة وكان له ولدان هما عبد الرحمن وعبد الله تفقها بالبداية بجدهما إبراهيم وكان تفقههما بتلميذه وابن عمه محمد بن يوسف فلما توفي خلفاه في التدريس فرأسا ودرسا فتوفي عبد الرحمن سنة إحدى وأربعين وستمائة وتوفي عبد الله سنة اثنتين وأربعين وستمائة ثم خلفهما في التدريس ابن عم لهما اسمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا تفقه بمحمد بن يوسف أيضا وكان فاضلا محققا مدققا توفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثم خلفه ابن عمه عبد الله بن

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجندي، بهاء الدين ١/٣٥٧

الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا مولده سنة تسع عشرة وستمائة وكان فاضلا بالفقه تفقه بابن عمه محمد بن عمر مقدم الذكر وأخذ عن صالح بن علي الحضرمي ولي قضاء الكدرا من قبل بني عمران وقدم تعز فأخذ عنه أبو بكر بن اليحيوي الآتي ذكره في تعز كتاب الوجيز وتوفي عليه سنة ثمان وثمانين وستمائة وخلفه في القضاء ولده أبو بكر وهو." (١)

"الرعيني عرف بابن المقري مولده سنة اثنتين واربعين وستمائة كان تربا لابن الحرازي وزميلا له بالقراه قل ما قراء كتابا الا وسمعه معه وكان محققا لعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة ولما صار يدرس بالمدرسة الى ابن الحرازي جعل هذا معيدا له فاقام مدة طويلة في الاعادة ولقد اخبر من قرأ عليه الفرائض انه قال كنت اغلط في المسلة واستمر ثم استدرك ذلك فاريد تغير ما قد صورته على البحث فيقول لا تطمس الا من موضع كذا فاعمل لما قال فاجده

صوابا وكان ذا حمية على من صحبه وصولا لرحمه وكان ذا دنيا بخلاف ابن الحرازي كان غالب عليه الفقر وكانت وفاته شهر رمضان سنة اربع عشرة وسبعمائة

ومنهم محمد بن ابي بكر عرف بان حرابة بضم الحاء وفتح الراء ثم الف ثم فتح الباء الموحدة وهاء ساكنة تفقه بابي شعبة واخذ شيا من الأصول عن البيلقاني وسبب تفقهه انه اشترى وعائين من الأرز من الفقيه ابي حجر فاكتال احدهما ثم فتح الوعا الآخر وجده أبو حجر احسن من الأول فاسترجع وقال بعتك ما لم اره فلا يصح فحملت **الأنفة** ابن حرابة على قراة الفقه فقراء علي ابي شعبة ثم ان ابا حجر حدث معه حادث استدعى شيا من الزعفران وكان معدوما لم يوجد مع غير ابن حرابة إذ كان عطارا فوصل الفقيه أبو حجر إليه وعول على شيء منه فأجابه وباعه أصنافا معلومة من غير نظر الزعفران ثم استدعاه بوعائه فلما فتحه فقال يا فقيه بعتك ما لم أره ولم تره فالبيع فاسد فتوقف الفقيه فناوله ابن حرابه دراهمه فاخذها وهم ان يرجع خائبا فذكره بما فعل معه يوم الأرز ثم باعه الزعفران وكانت وفاته قبل أبي شعبة باشهر قلائل سنة ست وسبعين وستمائة وصلى عليه شيخه أبو شعبة بعد أن تقدم قاضي البلد وكان ممن يكرهه فقيل له أنه اوصى أن لا يصلي عليه إلا شيخه أبو شعبة فتأخر القاضي وانصرف عن المصلي مغضبا لم يحضر الصلاة ولا القبران قال ولم يكن شيء من ذلك انما كان غالب الناس يكرهون القاضي لقلة ورعه وتقواه." (٢)

---

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجندي، بهاء الدين ٤١١/١

(٢) السلوك في طبقات العلماء والملوك الجندي، بهاء الدين ٤٢٧/٢

"وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنس بالبصرة حيث يقول:

زر وادى القصر نعم القصر والوادى! ... لا بد من زورة من غير ميعاد.

زره فليس له شيء يشاكله ... من منزل حاضر إن شئت أو بادى.

ترى به السفن والظلمان حاضرة ... والضب والنون والملاح والحادى.

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، يصف جبل الرصد مثل ما وصف به قصر أنس:

يا نزهة الرصد المصرى قد جمعت ... من [١] كل شيء حلا فى جانب الوادى.

فذا غدير، وذا روض، وذا جبل: ... فالضب والنون والملاح والحادى.

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة فى الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا.

وأما جزيرة الأندلس

فقد اقتصرت فى وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال:

« ... أرضها شامية فى طيبها، تهامية فى اعتدالها واستوائها، أهوازية فى عظم خراجها وجبايتها، عدنية فى منافع سواحلها، صينية فى معادنها، هندية فى عطرها وطيبها وذكائها. وأهلها عرب فى الأنساب والعزة **والأنفة**، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والإهانة، والنزاهة عن الخضوع؛ هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها؛ بغداديون فى ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم

---

[١]- هذه رواية المقريزى. أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق فى الوزن للبقية هكذا:

يا نزهة الرصد التى قد نزهت ... عن كل شيء الخ." (١)

"فخلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار، فعاد فيروز إلى بلاده.

فلما سار إلى مملكته داخلته **الحمية** وحملته **الأنفة** على محاربة أخشنوار والغدر به، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبحوا عليه نقض العهود والمواثيق، فلم يرجع الى أقوالهم وأبى إلا غزوه. وسار بجيوشه حتى أتى الحد الذى بينهما والحجر الذى حلف أنه لا يتجاوزه الى بلاد الهياطلة، فأمر فيروز بالحجر أن يصمد فيه خمسون فيلا وثلاثمائة رجل، فجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجر ولا يتقدم الفيلة، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه. فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل اليه يقول: إن الله عز وجل لا يخادع ولا يماكر، ونهاه عن الغدر وقبحه عليه، وهو لا يكترث بقوله، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ١/٣٥٨

وكرهها، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر في وجوه المكايد والمكر والخداع، فخفر حول عسكره خندقا عرضه عشرة أذرع، وعمقه عشرون ذراعا، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره، فما شك أنه انهزم منه، فركب في طلبه وأغذ السير بجنوده- وكان مسلكهم على الخندق- فلما مروا عليه تردى فيروز وعامة جنوده فيه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار واحتوى على كل شيء كان في معسكر فيروز، وأسر موبذان موبذ وجماعة من نساء فيروز منهن دخت ابنة فيروز، فكان هذا عاقبة مكره. وكان ملكه سبعا وعشرين سنة.

ولما هلك تنازع الملك بعده ابناه قباذ وبلاش؛ فملك بلاش بن فيروز ابن يزدجرد. وكان حسن السيرة حريصا على العمارة؛ وبلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتا خرب وجلا عنه أهله إلا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك." (١)

"والعلم والاتباع له من أعظم ما تزينت به الملوك. ومن أعظم المضرة على الملوك **الأنفة** من العلم **والحمية** من طلبه، ولا يكون عالما من لا يتعلم.

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة، ووصلت بين مكارم أسلافي، وما أحدثته بالرأي، وأخذت به نفسي، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا، وثبت على الأمر الذي نلت به الظفر والخير، ورفضت سائر الأمم لأني لم أجد عندهم رأيا ولا عقولا ولا أحلاما، ووجدتهم أصحاب بغي وحسد وكلب وحرص وشح وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة. وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية، ولا تتم لها نعمة.

قال ابن مسكويه: وقرأت مع هذه السير في آخر هذه الكتاب الذي كتبه أنوشروان في سيرة نفسه أن أنوشروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القواد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال:

ذكر خطبة أنوشروان

قال: أيها الناس، أحضروني فهمكم، وارعوني أسماعكم، وناصحوني أنفسكم، فإني لم أزل واضعا سيفي على عنقي منذوليت عليكم غرضا للسيوف والأسنة، وكل ذلك للمدافعة عنكم، والإبقاء عليكم، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق، وتارة في آخر المغرب، وأخرى في نهاية الجنوب، ومثلها في جانب الشمال، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم، ووضعت الوضائع في بلدان الترك، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية،

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ١٥/١٨٦

ولم أزل أصعد جبلا شامخا وأنزل عنه، وأطأ حزونه بعد سهوله، وأصبر على المخمصة «١» والمخافة، وأكابد البرد والحر، وأركب هول البحر وخطر المفازة؛." [١]

"ومن الأبيات:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة؛ ... ولكن عين السخط تبدى المساويا.

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى:

كم والد يحرم أولاده ... وخيره يحظى به الابعد.

كالعين لا تنظر ما حولها، ... ولحظها يدرك ما يبعد.

ما يتمثل به من ذكر الأنف

أنفك منك وإن كان أجدع. يضرب في القريب السوء.

شفيت نفسى وجدعت أنفى.

لأمر ما جدع قصير أنفه.

كل شيء أخطأ الأنف جلل.

لدغت حيث لا يضع الراقى أنفه. يضرب للأمر الذى لا دواء له.

رب حام لأنفه وهو جادعه. يضرب لمن أنف من الشيء فتوقعه **الأنفة** في أشد منه.

مات حتف أنفه.

جدع الحلال أنف الغيرة. قاله رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

أنف في السماء، واست في الماء!

ما يتمثل به من ذكر الفم، واللسان، والأسنان

كل جان يده إلى فيه.

حدثنى، فاه إلى في.

فلان خفيف الشفة. أى قليل المسألة.." [٢]

"مطالعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه، فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ١٥/٢٠٧

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٢/١١٢

أيها الناس: والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكنز «١» لجينا، ولا عقيانا، ولا نحفر نهرا، ولا نبنى قصرا، وإنما أخرجتنا **الأنفة** من ابترازهم حقنا، والغضب لبنى عمنا، وما كرهنا «٢» من أموركم، فلقد كانت أموركم ترمضنا، ونحن على فراشنا، وتشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستذلالهم «٣» لكم. واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم. تبا تبا لبنى حرب وبنى أمية «٤» ، آثروا مدتهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم «٥» ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم «٦» فى البلاد «٧» ، ومرحوا فى أعنة المعاصى، وركضوا فى ميدان «٨» الغى، جهلا باستدارج الله. وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون.

فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق، فبعدا للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور، وأرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل." (١)

"فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل. فحصل لأمرائه من الغيظ **والأنفة** ما حملهم على الخروج عن طاعته والانحياز عنه والانضمام إلى وزيره؛ فكان ذلك سبب خروجه.

ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها ثانيا

قال: كان أوباش كنجة قد قتلوا من بها من الخوارزمية وتجاهروا بالفساد، وملك زمام أمرهم رجل يعرف ببندار وأطاعه الأوباش فبسط يده فى المصادرات، واقتصرت أذيته على من لم يدخل معه فى العتو. فوجه السلطان إليه يدعوه إلى الطاعة، ويحذره ويحذرهما من المخالفة، فلم يجيبوا إلى ذلك. فسار السلطان إليها، ونزل ببعض بساتينها، وترددت الرسائل فى بذل الأمان والوعد بالعفو، فلم يجيبوا إلى ذلك، وخرجوا للحرب، ورموا خيمة السلطان بالسهام ووصلوا إلى حائط البستان. فركب فيمن حضر من خواصه، وأوقع بهم، وسار حتى دخل المدينة. وأقام بكنجة سبعة عشر يوما ينتظر ما يسوغه التدبير، ثم أجمع على الاستنجاد بالملك الأشرف موسى على التتار، وكان جماعة من الجبناء يسيرون عليه بذلك وهو يخالفهم باطنا ويوافقهم ظاهرا. فسار إلى خلاط من طريق كيلكون، والغارات تنقلب بلاد الكرج بطنا لظهر، والسلطان يتابع رسله إلى الملك الأشرف يستنجد به. ولما بلغ الملك الأشرف توجه الرسل إليه يستمدونه، توجه إلى

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٤٢/٢٢

مصر واجتمع رسل السلطان بدمشق، والكتب ترد عليهم من الملك الأشرف بأننا واصلون من مصر لإنجاد السلطان.." (١)

"والآن، فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت **الأنفة** من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم، جنحنا لها، وإذا دخل فى الملة المحمدية، ممتثلا ما أمر الله به، مجتنبا ما عنه نهى، وانضم «١» فى سلك الإيمان، وتمسك بموجباته، تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان، وتجنب التشبه بمن قال الله عز وجل فى حقهم: (قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان)

«٢» . وطابق فعله قوله: ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا؛ ويروق خطابه وجوابه، حتى يتلو كل أحد عند عوده (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا)

«٣» . صارت حجتنا وحجته المركبة «٤» على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك فى سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب «٥» الكافرين هوانا؛ والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)

«٦» .

وينتظم إن شاء الله تعالى شمل الصلح، أحسن انتظام. ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة «٧» بعروة ولا انفصال لها ولا انفصام. وتستقر قواعد الصلح، على ما يرضى الله ورسوله علية أفضل الصلاة والسلام، إن شاء الله تعالى.." (٢)

"وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهنئ إبراهيم بن المدبر بالعزل عن عمل:

ليهنئ أبا إسحاق أسباب نعمة ... مجددة بالعزل، والعزل أنبل

شهدت لقد منوا عليك وأحسنوا ... لأنك بعد العزل أعلى وأفضل

آخر:

إن الأمير هو الذى ... يضحى أميرا عند عزله

إن زال سلطان الولا ... ية فهو فى سلطان فضله

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٢٩٤/٢٧

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٤٤١/٣١

وكتب أبو إسحاق الصابى الى رجل زوج أمه:

قد جعلك الله- وله الحمد- من أهل التحصيل، والرأى الأصيل؛ وصحة الدين، وخلق ذى اليقين. فكما أنك لا تتبع الشهوة فى محظور تحله، فكذلك لا تطيع **الأنفة** فى مباح تحظره. وتأدى إلى من اتصال الوالدة- يسر الله لها فى مدتك، وأحسن بالبقية منها إمتاعك- بأبى فلان، أعزه الله، ما علمت فيه أنك بين طاعة للديانة توخيتها، ومشقة تجشمتها؛ وأنك جدعت أنف الغيرة بها، وأضرعت خد **الحمية** فيها، وأسخطت نفسك بإرضائها، وعصيت هواك لرأيها.

فنحن نهنيك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك؛ ونسأل الله الخيرة لك فيه، وأن يجعلها أبدا معك فيما شئت وأبيت، وتجنبت وأتيت.

وقال كاتب متقدم فى مثل ذلك:

الرضا بما يبيحه حكم الله أولى من الامتعاض فيما تحظره أنفة **الحمية**. ولا قبح فيما أحل الله، كما لا جمال فيما حرم الله. فعرفك الله الخيرة فيما اختارته من طهارة العفاف ونبل الحصانة، وعطفك من برها على ما تؤدى به حقها، وما لزمك من المعروف فى مصاحبتها.." (١)

"وجزاء سيئة سيئة مثلها

، وقال تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

. وقال أكثم بن صيفى: من تعمد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة، فإن الأدب رفق، والرفق يمن. قال أبو الطيب المتنبى:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ... إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وقالوا: تواضع للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيا، وانتصف ممن أساء إليك وإن كان حرا قرشيا.

وقال الشعبى: يعجبنى الرجل إذا سيم هوانا دعته **الأنفة** [١] إلى المكافأة، وجزاء سيئة سيئة مثلها. ورفع كلامه إلى الحجاج بن يوسف الثقفى فقال: لله دره! أى رجل بين جنبيه! وتمثل بقول الشاعر:

ولا خير فى عرض امرئ لا يصونه ... ولا خير فى حلم امرئ ذل جانبه

وقال رجل لابن سيرين: إنى وقعت فيك فاجعلنى فى حل؛ قال: ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك.

وقالوا: من ترك العقوبة أغرى بالذنب، ولولا السيف كثر الحيف. قال الشاعر:

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواصره

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٥/١٣٩

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه ... فدعه إلى اليوم الذى أنت قادره

وقارب إذا ما لم تكن لك [٢] حيلة ... وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وقيل: استؤمر عبد الله بن طاهر بن الحسين فى رجلين كانا فى السجن، أحدهما ضعيف والآخر عليل، فوقع: الضعيف يقوى والعليل يبرأ، فإن يكن

---

[١] فى الأصل: «اذا سيم هو انا ودعته إلى الأنفة ... » ولعله تحريف من الناسخ.

[٢] فى الاصل: «وقارب اذا لم تكن له حيلة» وهو تحريف.." (١)

"ذكر شرح غريب رسالتها رضى الله عنها

الأزفلة: الجماعة. وتعطوه: تناوله. والطود: الجبل. والمنيف: المشرف.

وأكديتم: خبتم ويئس من خيركم. وونيتم: فترتم وضعفتم. والأمد: الغاية.

ويريش: يعطى ويفضل. والمملق: الفقير. ويرأب: يجمع. والشعب: المتفرق.

ويلم: يضم. واستشرى: جد وانكمش. والشكيمة: الأنفة والحمية. والوقيذ:

العليل. والجوانح: الضلوع القصار التى تقرب من الفؤاد. والشجى: الحزين.

والنشيج: صوت البكاء. وانعطفت: انثنت. وامتثلوه: مثلوه «١» . والغرض:

الذى يقصد للرمى. وفلوا: كسروا. والصفاة: الصخرة الملساء. وقصفوا:

كسروا. وسيساؤه: شدته، والسيساء: عظم الظهر، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر، قال الشاعر «٢» :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا «٣» ... على يابس السيساء محدودب الظهر

والجران: الصدر. ورست: ثبتت. ومرج: اختلط. وماج أهله:

اضطربوا وتنازعوا. وبغى الغوائل، معناه وطلب البلايا. وأكثب: قرب.

والنهز: اختلاس الشيء والظفر به مبادرة. ولات حين الذى يطلبون «٤» ، معناه:

وليست الساعة «٥» حين ظفرهم. وقولها: فجمع «٦» حاشيتيه ورفع قطريه، معناه تحزم." (٢)

"فعدد له كما ترى خصالا فاضلة من المضاء على الأحداث مقدما، والصبر على ألم الجوع، والأنفة من أن يعد الشبعة مغنما، وينمم كبرى المكرمات، والتأهب للحرب بأدواتها، ثم عقب ذلك بقوله "فذلك"

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٦/٦٦

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٧/٢٣٢

فأفاد أنه جدير بإنصافه بما ذكر بعده.

وكذا قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [لقمان: ٥] ، أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باستحقاق الهدى من ربهم والفلاح١.

وإما لاعتبار آخر مناسب٢.

---

١ فقد عقب المشار إليه وهو "الذين يؤمنون" بأوصاف متعددة من الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وغير ذلك ثم عرف المسند إليه بالإشارة تنبيها على أن المشار إليهم أحقاء بما يرد بعد "أولئك" وهو كونهم على الهدى عاجلا والفوز بالفلاح آجلا من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة.

٢ مثل تنزيل المعقول منزلة المحسوس نحو: ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ ، و"ذلك هو النبل والشرف". ومثل تنزيل الغائب منزلة الحاضر، ومثل الاعتبارات التي ستأتي في وضع اسم الإشارة المظهر موضع المضمر.." (١)

"[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥١ الى ١٥٢]

كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (١٥١) فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢)

كما أرسلنا فيكم كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه فقيل ترجع إلى ما قبلها ومعناه ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم وقيل إن إبراهيم قال: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، فبعث الله فيهم رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعده إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة، والمعنى كما أجبت دعوته ببعثة الرسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه، وأجعلكم مسلمين، وأتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية. وقيل: إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله: فاذكروني أذكركم والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكروني، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بإرسال الرسول، وإن قلنا: إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليه لما فيه من الشرف لهم ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والمعنى كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة القزويني ، جلال الدين ٢/ ٢١

رسولا منكم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يتلوا عليكم آياتنا يعني القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر ويزكيكم أي ويطهركم من دنس الشرك والذنوب وقيل يعلمكم ما إذا فعلتموه صرتم أزكياء مثل محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ويعلمكم الكتاب يعني أحكام الكتاب وهو القرآن وقيل إن التعليم غير التلاوة فليس بتكرار والحكمة يعني السنة والفقه في الدين ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون يعني يعلمكم من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلية مما لم تكونوا تعلمون وذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذكروني قيل الذكر يكون باللسان، وهو أن يسبحه ويحمده ويمجده ونحو ذلك من الأذكار، ويكون بالقلب وهو أن يتفكر في عظمة الله تعالى، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح وهو أن تكون مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، مثل الصلاة وسائر الطاعات التي للجوارح فيها فعل أذكركم أي بالثواب والرضا عنكم قال ابن عباس:

اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، وقال أهل المعاني: اذكروني بالتوحيد والإيمان: أذكركم بالجنان والرضوان. وقيل: اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص اذكروني بالقلوب، أذكركم بغفران الذنوب. اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» قوله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» قيل: معناه بالغفران إذا استغفر وبالقبول والإجابة، إذا دعا، وبالكفاية إذا طلب الكفاية. وقيل: المراد منه تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح قوله: وأنا معه إذا ذكرني يعني بالرحمة والتوفيق والهداية والإعانة. وقوله: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». النفس في اللغة لها معان: منها ذات الشيء والله تعالى له ذات حقيقة. ومنها الغيب فعلى هذا يكون المعنى فإن ذكرني خاليا ذكرته بالإثابة والمجازاة مما لا يطلع عليه أحد. قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». الملأ أشراف الناس وعظماؤهم الذين يرجع إلى رأيهم وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء. وأجيب عنه بأن الذكر غالبا يكون في جماعة لا نبي فيهم. قوله:

«وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا إلخ». وهذا من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره فلا بد من

التأويل فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشي والهرولة استعارة، ومجازا فيكون المراد بقرب العبد من الله." (١)

"وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزه عن صفات الأعراض والأجسام وكفى بالله وكيلا يعني أنه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه فلا حاجة له إلى غيره، وكل الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه وهو غني عنهم.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا (١٧٢) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١٧٣) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (١٧٤) فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما (١٧٥)

وقوله تعالى: ن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله

وذلك أن وفد نجران قالوا يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف الاستكبار مع **الأنفة** يقال نكفت من كذا واستنكفت منه أي أنفت منه وأصله من نكفت الشيء نحيته ونكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك من خدك والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبد الله لا الملائكة المقربون

يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش والكروبيون وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيد الله لأنهم في ملكه ومن جملة خلقه وقيل لما ادعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات، أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات التي وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبدا لله. وكذلك الملائكة المقربون فإنهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ووجه الدليل أن الله تعالى

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٩٢

ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقي إلا من الأدنى إلى الأعلى ولا حجة لهم فيه والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعا لمقامهم على مقام البشر بل قاله ردا على من يقول إن الملائكة بنات الله أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله وقاله أيضا ردا على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة يعني كما أن المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيد الله. وقوله تعالى: من يستنكف عن عبادته ويستكبر

يعني ومن يتعظم عن عبادة الله ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه سيحشرهم إليه جميعا

يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لأنفسهم شيئا فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم يعني يوفيهم جزاء أعمالهم الصالحة ويزيدهم من فضله يعني ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب على أعمالهم الصالحة من التضعيف على ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأما الذين استنكفوا واستكبروا يعني الذين أنفوا وتكبروا عن عبادة الله تعالى فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله يعني من سوى الله لأنفسهم وليا يعني ينجيهم من عذابه ولا نصيرا يعني ولا ناصرا ينصرهم منه، ويدفع عنهم عقوبته بقي في الآية سؤال وهو أن التفصيل غير مطابق للمفصل لأن التفصيل اشتمل على ذكر فريقين: وهو قوله: «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيوفيهم أجورهم وأما الذين استنكفوا واستكبروا» والمفصل اشتمل على ذكر فريق واحد وهو قوله: «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر» والجواب أنه لا إشكال فيه فهو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به، وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر." (١)

"صهيل الخيل يرهب الجن. وقوله سبحانه وتعالى: وما تنفقوا من شيء في سبيل الله قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره يوف إليكم يعني أجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا وأنتم لا تظلمون يعني وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئا قوله تبارك وتعالى:

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦١ الى ٦٥]

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٥٣/١

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٦٣) يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤) يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم ل١ يفقهون (٦٥)

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بإعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح إن مالوا إليه وسألوه فقال تعالى: وإن جنحوا للسلم يعني مالوا إلى السلم يعني المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أي مل إليها يعني إلى المصالحة. روي عن الحسن وقتادة إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وقيل: إنها غير منسوخة لكنها تتضمن الأمر بالصلح إذا كان فيه مصلحة ظاهرة فإن رأى الإمام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وإن كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم إنهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة.

وقوله تعالى: وتوكل على الله يعني فوض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك في ج‍ميع أحوالك إنه هو السميع يعني لأقوالهم العليم يعني بأحوالهم: قوله عز وجل: وإن يريدوا أن يخدعوك يعني يغدروا بك قال مجاهد: يعني بني قريظة والمعنى وإن أرادوا بإظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم فإن حسبك الله يعني فإن الله كافيك بنصره ومعونته هو الذي أيدك بنصره يعني هو الذي قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفي سائر أيامك وبالمؤمنين يعني وأيدك بالمؤمنين يعني الأنصار.

فإن قلت: إذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين.

قلت: التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله «هو الذي أيدك بنصره» لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله «وبالمؤمنين» لأن أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسب١ب وهو الذي أقامهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى: وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم وذلك أن العرب كانت فيهم **الحمية** الشديدة **والأنفة** العظيمة والأنفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شيء حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم

لا يكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة." (١)

"ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى:

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين (٩٩) ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رءياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (١٠٠)

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه يعني ضم إليه أبويه قال أكثر المفسرين: هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد، وقيل: إن الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والأول أصح وقال ادخلوا مصر قيل المراد بالدخول الأول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها أي أدخلوا مصر مستوطنين فيهما إن شاء الله آمنين قيل إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله وقيل إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر، وقيل: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله وقيل إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع علمه أنه لا حق بهم ورفع أبويه على العرش يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل إلى لعلو وخروا له سجدا يعني يعقوب وخالته ليا وإخوته

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٢٤/٢

وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة.

فإن قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا في النبوة والشيخوخة؟ قلت: يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك لتحقيق رؤياه، ثم في معنى هذا السجود قولان: أحدهما أنه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا إشكال فيه، والقول الثاني أنه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لأن السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، وأجيب عن هذا الإشكال بأن السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وإنما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لأن ذلك أبلغ في التواضع.

فإن قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله «رأيتهم لي ساجدين» وقوله «خروا له سجدا» فإن الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام.

قلت: يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجدا لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل أن الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي أن إخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا في ذلك الزمان فلما جاء الإسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقال." (١)

"بالرحيل، قولها فإذا عقد لي من جزع أظفار وهو نوع من الخرز وهو الحجر اليماني المعروف، قولها لم يهبلن أي يكثر لحمهن فيثقلن، قولها إنما يأكلن العلقة من الطعام هو بضم العين أي البلغة من الطعام وهو قدر ما يمسك الرمق، قولها وليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جوابا، قولها فتيممت أي قصدت قولها قد عرس من وراء الجيش فأدلج، التعريس نزول المسافر في آخر الليل للراحة والإدلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله، قولها باسترجاعه هو قوله «إنا لله وإنا إليه راجعون» قولها فخمرت أي غطيت وجهي بجلبابي أي إزاري، قولها موغرين في نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذا نحر الظهيرة أي أولها، قولها والناس يفيضون أي يخوضون ويتحدثون، قولها وهو

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٥٥٦

يريبني يقال رابني الشيء يريبني أي شككت فيه، قولها ولا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف أي الرفق بها واللطف في الأفعال الرفق وفي الأقوال لين الكلام، قولها حتى نقهت أي أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضي فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف أو خز، قولها تعس مسطح أي عثر وهو من الدعاء على الإنسان أي سقط لوجهه، قولها يا هنتاه أي بلهاء كأنها تنسبها إلى البله وقلة المعرفة، قولها لا يرقأ لي دمع أي لا ينقطع وقول بريرة إن رأيت بمعنى النفي أي ما رأيت منها أمرا أغمصه بالصاد المهملة أي أعيب والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به: قوله صلى الله عليه وسلم: من يعذرني أي من يقوم بعذري إن أنا كافأته على سوء صنيعه إن عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك قولها وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه أي من قبيلته قولها ولكن احتملته **الحمية** أي حمله الغضب **والأنفة** والتعصب على الجهل للقرابة، قولها فتثاور الحيان أي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة، قولها فلم يزل يخفضهم أي يهون عليهم ويسكن، قوله صلى الله عليه وسلم إن كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغائر الذنوب وقيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل، قولها قلص دمعي أي انقطع جريانه، قولها ما رام أي ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والكرب والجمانة وجمعها جمان فسري عنه أي كشف عنه وقول زينب أحمي سمعي وبصري أي أمنعهما أن أخبر بما لم أسمع ولم أبصر، قولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله أي منعها من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت من كنف أي من ستر أنثى قوله ويستوشيه أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء فيه وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء يقال امرأة حصان أي متعففة رزان أي ثابتة ما تزن أي ترمي ولا تتهم بريبة أي بأمر يريب الناس حيية وتصبح غرثى أي جائعة والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة، والمعنى أنها لا تغتاب أحدا مما هو غافل عن مثل هذا الفعل وقول عائشة في حسان إنه كان ينافح أي يناضل ويخاصم عن الله ورسوله: وأما التفسير فقوله عز وجل إن الذين جاؤ بالإفك أي بالكذب والإفك أسوأ الكذب لكونه مصروفا عن الحق وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل وجاء بالإفك، عصبة أي جماعة منكم أي عبد الله بن أبي ابن سلول ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة ابن عبيد الله. فإن قلت عبد الله بن أبي ابن سلول كان رأس المنافقين فكيف قال منكم. قلت كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر وقيل قوله منكم خرج مخرج الأغلب فإن حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين لا تحسبوه شرا لكم يعني الإفك الخطاب لعائشة وصفوان وقيل

لعائشة ولأبويها وللنبي صلى الله عليه وسلم ولصفوان بل هو خير لكم يعني أن الله آجركم على ذلك وأظهر براءتكم وشهد بكذب العصبة
وأوجب لهم الذم وهذا غاية الشرف والفضل لكم لكل امرئ منهم أي من العصبة الكاذبة ما اكتسب من الإثم أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه والذي تولى كبره يعني تحمل معظمه وبدأ بالخوض فيه وأقام بإشاعته وهو عبد الله بن أبي ابن سلول منهم من العصبة له عذاب عظيم يعني عذاب النار في الآخرة روي «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا جميعا ثمانين ثمانين».
قوله عز وجل:." (١)

"أدم شبه الجراب يوضع فيه السيف مغمودا ويعلق في مؤخرة الرحل. قوله: يرسف بضم السين وكسرها لغتان، وهو: مشي المقيد. قوله: فأجره لي. قال ابن الأثير: يجوز أن يكون بالزاي من الإجازة أي اجعله جائزا غير ممنوع ولا محرم أو أطلقه لي وإن كان بالراء المهملة فهو من الإجارة والحماية والحفظ وكلاهما صالح في هذا الموضوع.
قوله: فلم نعطى الدنية، أي القضية التي لا نرضى بها أي لم نرض بالأدون والأقل في ديننا؟ قوله:
فاستمسك بغرزه الغرز لكور الناقة كالركاب لسرج الفرس والمعنى: فاستمسك به ولا تفارقه ساعة كما لا تفارق رجل الراكب غرز رحله فإنه على الحق الذي لا يجوز لأحد تركه. قوله: ويل أمه، هذه كلمة تقال للواقع فيما يكره ويتعجب بها أيضا، ومسعر الحرب أي موقدها. يقال: سعرت النار وأسعرتها إذا أوقدتها. والمسعر:
الخشب الذي توقد به النار وسيف البحر بكسر السين جانبه وساحله والله أعلم وأما تفسير الآية فقوله عز وجل:

[سورة الفتح (٤٨): آية ٢٥]
هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢٥)
هم الذين كفروا، يعني كفار مكة، وصدوكم أي منعوكم عن المسجد الحرام أن تطوفوا به والهدي أي وصدوا

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٨٧/٣

الهدي وهو البدن التي ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سبعين بدنة معكوفا أي محبوسا أن يبلغ محله أي منحره وحيث يحل نحره وهو الحرم ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يعني المستضعفين بمكة لم تعلموهم أي لم تعرفوهم أن تطؤهم أي بالقتل وتوقعوا بهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم أي إثم وقيل: غرم الدية، وقيل: كفارة قتل الخطأ، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية. وقيل: هو أن المشركين يعتبونكم ويقولون: قتلوا أهل دينهم.

والمعرة: المشقة يقول: لولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم به كفارة أو سيئة وجواب لولا محذوف تقديره لأذن لكم في دخول مكة ولكنه حال بينكم وبين ذلك لهذا السبب ليدخل الله في رحمته من يشاء أي في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقيل دخولها لو تزيلوا أي لو تميزوا المؤمنين من الكفار لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما أي بالسبي والقتل بأيديكم وقيل: لعذبنا جواب لكلامين أحدهما لولا رجال. والثاني: لو تزيلوا. ثم قال: ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني المؤمنين والمؤمنات في رحمته أي في جنته. قال قتادة: في الآية إن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة.

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦) لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧)

قوله تعالى: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم **الحمية** أي **الأنفة** والغضب وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت ومنعوا الهدي محله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وأنكروا أن يكون محمد رسول." (١)

"١٢٢٣ - وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ينزل ربنا تبارك وتعالي كل ليلة إلي السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)) متفق عليه.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/١٧٠

وفي رواية لمسلم: ((ثم يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم؟ حتى ينفجر الفجر)).

مع العمل، كما قال تعالي: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم﴾ وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، والحديث الوارد فيه مشهور. وهذا الحديث وإن خص بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالتقدير رب نفس أو نسمة كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، والله أعلم.

الحديث الخامس عن أبي هريرة: قوله: ((ينزل ربنا)) ((قض)): لما ثبت بالقواطع العقلية والنقلية أنه تبارك وتعالي منزه عن الجسمية والتحيز، والحلول، امتنع عليه النزول علي معنى الانتقال من موضع أعلي إلي ما هو أخفض منه، بل المعنى به علي ما ذكره أهل الحق دنو رحمته، ومزيد لطفه علي العباد، وإجابة دعوتهم، وقبول معذرتهم، كما هو ديدن الملوك الكرماء، والسادة الرحماء، إذا نزلوا بقرب قوم محتاجين، ملهوفين فقراء مستضعفين. وقد روى: ((يهبط من السماء العليا إلي الدنيا)) أي ينتقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي الأنفة من الأرذال، وعدم المبالاة، وقهر العداة، والانتقام من العصاة، إلي مقتضى صفات الإكرام المقتضية للرأفة والرحمة، وقبول المعذرة، والتلطف بالمحتاج، واستعراض الحوائج، والمساهلة والتخفيف في الأوامر والنواهي، والإغضاء عما يبدو من المعاصي. انتهي كلامه. وقوله: ((تبارك وتعالي)) جملتان معترضتان بين الفعل والظرف، لما أسند ما لا يليق إسناده بالحقيقة إليه، أتى بما يدل علي التنزيه معترضا، كقوله تعالي: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ ((نه)): تخصيصا بالليل وبالثلث الأخير منه، لأنه وقت التهجد، وغفلة الناس عمن يتعرض لنفحات رحمة الله. وعند ذلك تكون النية خالصة، والرغبة إلي الله تعالي وافرة، وذلك مظنة القبول والإجابة. و ((من يقض غير عدوم ولا مظلوم)) أي من يقرض غنيا لا يعجز عن أداء حقه والوفاء بعهده، عادلا لا يظلم المقرض بنقض دينه، وتأخير الأداء عن وقته. والله تعالي غير عدوم لاستغنائه عن غيره، وافتقار غيره إليه: وغير ظلوم؛ لأنه يضعف أضعافا، قال الله تعالي: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾. وإنما وصف الله تعالي نفسه بالوصفين المذكورين ههنا؛ لأنهما المانعان غالبا عن الإعراض. أقول: إخراج العمل مخرج القرض تمثيل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، وإيذان بكونه واجب الأداء بسبب الوعد، كالدين.." (١)

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ١٢٠٤/٤

"فلم أر كاليوم منظرا قط أفظع. ورأيت أكثر أهلها النساء)). قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: ((بكفرهن)): قيل: يكفرن بالله؟ قال: ((يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلي إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط)). متفق عليه.

١٤٨٣ - وعن عائشة نحو حديث ابن عباس، وقالت: ثم سجد فأطال السجود، ثم انصرف وقد انجلت الشمس، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا

قوله: ((لأكلتم منه)) الخطاب عام في كل جماعة يتأتى منهم السماع والأكل إلي يوم القيامة، بدليل قوله: ((ما بقيت الدنيا)). ((قض)): ووجه ذلك إما بأن يخلق الله تعالي مكان كل حبة تقتطف حبة أخرى، كما هو المروي في خواص ثمر الجنة، أو بأن يتولد منه مثله في الزرع فيبقى نوعه ما بقيت الدنيا، فيؤكل منه. ((مظ)): وسبب تركه صلى الله عليه وسلم تناول العنقود أنه لو تناوله ورآه الناس لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب، فيرتفع التكليف. قال تعالي" ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها﴾. قوله: ((ولم أر كاليوم منظرا)) أي لم أر منظرا مثل المنظر الذي رأيته اليوم أي منظرا هولا وفظيعا. والفظيع: الشديد الشنيع. قوله: ((وتكفرن الإحسان)) أي إحسان العشير. والجملة مع الواو مبينة للجملة الأولي علي طريقة أعجبني زيد وكرمه، والخطاب في ((لو أحسنت)) عام لكل من يتأتى منه الإحسان.

الحديث الرابع عن عائشة: قوله: ((أغير من الله)) ((نه)) الغيرة هي **الحمية والأنفة**، يقال: غرت علي أهلي، أغار غيرة، فأنا غائر. وغيور للمبالغة. ((نه)): ((أن يزني)) متعلق بـ ((أغير)) – وحذف الجار من ((أن)) قياس مستمر – ونسبة الغيرة إلي الله تعالي مجاز محمول علي غاية إظهار غضبه علي الزإني، وإنزال نكاله عليه. ووجه اتصال هذا المعنى بما قبله هو أنه صلى الله عليه وسلم لما خوف أمته من الكسوفين، وحرضهم علي الفزع والالتجاء إلي الله تعالي بالتكبير والدعاء، والصلاة، والتصدق، أراد أن يردعهم عن المعاصي كلها، فخص منها الزنا، وفخم شأنها في الفظاعة، وندب أمته بقوله: ((يا أمة محمد)) ونسب الغيرة إلي الله تعالي. ولعل تخصيص العبد والأمة بالذكر رعاية لحسن الأدب، لأن أصل الغيرة أن يستعمل في الأهل والزوج، فامتنع من نسبة ذلك إلي الله تعالي تنزيها لجنابه الأقدس عنه. ويجوز أن تكون نسبة هذه الغيرة إلي الله تعالي من باب الاستعارة المصرحة التبعية، شبه حالة ما يفعل الله تعالي مع عبده الزإني من الانتقام وحلول العقاب عليه بحالة ما يفعل السيد بعبده الزإني من الزجر والتعزير، ثم كرر الندبة

ليتعلق به ما ينتسبه به علي سبب الندبة، والفزع إلي الله تعالي من علم بالله تعالي وبغضبه، فقال: ((يا أمة محمد – إلي قوله: لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا)). والقلة ها هنا بمعنى العدم، كما في قوله: ((قليل التشكي)) أي عديمه، وقوله تعالي: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا﴾ وأنشد صاحب الكشاف:." [1]

"٣٣٠٨ – وعن أبي هريرة، قال: قال سعد بن عبادة: لو وجدت مع أهلي رجلا لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((نعم)). قال: كلا، والذي

كلام الإمام. وفي الحديث أن لعان الرجل يقدم علي لعان المرأة؛ لأنه مثبت وهذا دارئ، والدرء إنما يحتاج إليه بعد الإثبات.

الحديث الخامس عن أبي هريرة رضي الله عنه: قوله: ((لم أمسه)) جواب ((لو)) ((مظ)): حرف الاستفهام هنا مقدر. أقول: والوجه أن تكون ((لو)) مع جوابها إخبار علي سبيل الإنكار، وفي كلام الله تعالي مثل هذا غير عزيز، ويدل علي الإنكار قوله: ((كلا))، وفي الحديث الثاني ((لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح)). وأما جوابه صلى الله عليه وسلم: ((نعم)) فحمل كلامه علي الاستفهام من الأسلوب الحكيم و ((إن)) في قوله: ((إن كنت)) هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وضمير الشأن محذوف، وفي الكلام تأكيد. و ((اسمعوا)) ضمن معنى الإصغاء، وعدي بـ ((إلي)) وفيه اعتذار منه صلى الله عليه وسلم لسعد وأن ما قاله قاله عن غيرة. وفي ذكر السيد هنا إشارة إلي أن الغيرة من شيم كرام الناس وساداتهم؛ ولذلك أتبعه بقوله: ((وأنا أغير منه، والله أغير مني)).

[((مظ))] *: يشبه أن مراجعة سعد النبي صلى الله عليه وسلم كان طمعا في الرخصة لا ردا لقوله صلى الله عليه وسلم، فلما أبي ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت وانقاد. ((مح)): ليس قوله: ((كلا)) ردا لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفة لأمره، وإنما معناه الإخبار عن حال نفسه عند رؤية الرجل مع امرأته واستيلاء الغضب عليه؛ فإنه حيئئذ يعالجه بالسيف. أقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلقى سؤاله بقوله: ((نعم)) علي الأسلوب الحكيم، وأجرى إنكاره مجرى الاستفسار، بين بقوله: ((كلا)) أي ما أردت الاستفسار بل أردت الإنكار.

((نه)): الغيرة هي **الحمية والأنفة**، يقال: رجل غيور وامرأة غيور بناء مبالغة كشكور وكفور؛ لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى. ((حس)): الغيرة من الله تعالي الزجر والله غيور أي زجور يزجر عن المعاصي؛ لأن الغيرة

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٤/١٣١٢

تغير يعترى الإنسان عند رؤية ما يكرهه علي الأهل، وهو علي الله محال.

الحديث السادس عن المغيرة: قوله: ((مصفح)) ((مح)): هو بكسر الفاء أي غير ضارب بصفح السيف – وهو جانبه – بل بحده. قوله: ((أتعجبون من غيرة سعد؟)) فإن قلت: كيف التوفيق بين قوله: ((إنه لغيور)) وقوله هنا: أتعجبون من غيرته؟ فإن الجملة الأولي دلت علي أنهم أنكروا غيرته حتى رد إنكارهم ((فإن)) و ((اللام))، وها هنا دل التعجب علي أنهم كانوا مثبتين لغيرته جاهلين بسببها. قلت: قول سعد في الحديث الأول: ((كلا)) إلي آخره حملهم علي التعجب من مثل سعد سيد الأنصار كيف يقول مثل ذلك بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعثه علي ذلك؟ فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تعجبوا منه، وهو إثبات الغرة. وقوله: ((أتعجبون من غيرة سعد)) وارد." (١)

"٦١٨٦ – وعن عائشة، قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: ((إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)). متفق عليه.

٦١٨٧ – وعن أبي سلمة أن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا عائش! هذا جبريل يقرئك السلام)). قالت: وعلي السلام، ورحمة الله قالت: وهو يرى ما لا أرى. متفق عليه.

و ((الصخب)) اختلاط الأصوات.

و ((النصب)) التعب.

فنفي عن البيت النصب والصخب لأنه ما من بيت في الدنيا يسكنه قوم إلا كان بين أهله صخب وجلبة، وإلا كان في بنائه وإصلاحه نصب وتعب، فأخبر أن قصور الجنة خالية عن هذه الآفات.

أقول: يريد بالوجه الثاني أن بناء بيت الجنة حاصل بقوله كن، ليس كأبنية الدنيا فإنها يتسبب بناؤها بصخب ونصب، وكذا السكون فيها لا يخلو عنهما، وليس حكم بيت الجنة كذلك بل أصحاب الجنة ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... سلام قولا من رب رحيم﴾ والله أعلم.

الحديث الثالث عن عائشة رضي الله عنها:

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٢٣٥٨/٧

قوله: ((ما غرت على خديجة)) ((ما)) فيه يجوز أن تكون مصدرية أو موصولة أي: ما غرت مثل غيرتي، أو مثل التي غرتها.

الغيرة: **الحمية والأنفة**، يقال: رجل غيور وامرأة غيرو بلا هاء لأن فعول يشترك فيه الذكر والأنثى.

قوله: ((كانت وكانت)) كرر ولم يرد به التثنية، ولكن للتكرير ليعلق به في كل مرة من خصائلها ما يدل على فضلها كقوله تعالى: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا﴾ ولم يذكر هنا متعلقة للشهرة تفخيما.." [1]

"وفي البخاري: لم يحسنوا أن يقولوا ذلك، فقالوا: صبأنا (١).

فقال لهم: استأسروا. فلما كان السحر نادى مناديه: من كان معه أسير فليقتله. فقتلت بنو سليم من كان بأيديهم، وأبى ذلك المهاجرون والأنصار، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» (٢).

وبعث عليا فودى لهم قتلاهم (٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (٤٣٣٩)، وفي الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور، أو خلاف أهل العلم، فهو رد (٧١٨٩)، وقال الحافظ: إن قريشا كانوا يقولون لكل من أسلم: صبأ. حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا يطلقونها مقام الذم، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت، استعملها هؤلاء، وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها، أو أنه نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة**، ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولا قتلهم.

(٢) قالها مرتين كما في البخاري، وقال الخطابي: أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم، قبل أن يعلم المراد من قولهم: صبأنا. (انظر أعلام الحديث ٣/ ١٧٦٤ - ١٧٦٥).

(٣) السيرة ٢/ ٤٣٠ والطبقات ٢/ ١٤٨.." [2]

"كثيرة وكان ربما صلى العيد فحدثت له نية في الغزو فلم يرجع إلى القصر وسار لوجهته على الفور وأصابه النقرس فكان يغزو في محفة وكان مجدودا في الحروب غزا إحدى وخمسين غزوة قال صاحب

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٣٩٢١/١٢

(٢) الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا علاء الدين مغلطاي ص/٣١٦

الريعان والريحان والروم تعظم قبره إلى اليوم وكانت مدته ستا وعشرين سنة وولى بعده ابنه عبد الملك بن محمد والحاجب محمد بن عبد الله بن أبي عامر المذكور هو الذي فرق شمل القبايل بالأندلس ودون الدواوين للمرتزقة من الجنود وألزم الناس المعاون دون الحركات على قدر غلاتهم فصار العرب وأصناف الناس رعية وإنما كان الناس من قبل هذا يجاهدون في قبايلهم وعلى أموالهم وحرك **الأنفة** بينالمضرية واليمانية واستظهر بالبربر والموالي وكان مبلغ المرتزقين في ديوانه اثنى عشر ألف فارس وأربع ماية ثلث من العرب وثلث من البربر وثلث من الموالي لكي لا يتألف على خلافه صنف فيستظهر بالصنفين على مخالفيه وكان حزر المطوعين معه من أهل الأندلس اثنين وعشرين ألف فارس وملك من العدوة إلى سجلماسة وبني مدينة الزاهرة بشرقي قرطبة على النهر الأعظم محاكيا للزهراء وبني قنطرة رشنشاقة على النهر الأعظم محاكيا للجسر الأكبر بقرطبة وزاد في الجامع مثليه

ابن المستكفي بالله محمد بن عبد الله بن علي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو الحسن ابن)

المستكفي بالله أمير المؤمنين ابن المكتفي ابن المعتضد ابن الأمير الموفق ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور فارق أبو الحسن هذا بغداد لما خلع والده وسملت عيناه وهرب فدخل الشام ومصر وأقام هناك ذكر ثابت بن سنان الصابئ أن محمد بن المستكفي كان عند كافور الأخشيذي فلاذ به جماعة وأطمعوه في الخلافة وقالوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المهدي من بعدي اسمه أسمى واسم أبيه اسم أبي وأنت إن عدت إلى بغداد بايع لك الديلم بالخلافة فدخلها سرا وبايعه جماعة من الديلم سنة سبع وخمسين وثلث ماية فاطلع الملك عز الدولة بختيار ابن معز الدولة على ذلك وكان قد قال إن والدي كان نصبني في الخلافة بعده وكتب اسمي على الدينار والدرهم وصحبه خلق من أهل بغداد منهم أبو القاسم اسماعيل بن محمد المعروف بزنجي وترتب له وزيرا فأمر عز الدولة بالقبض عليه ونفذ إلى دار الخلافة فجدع أنفه وقطعت شفته العليا وشحمتا أذنيه وحبس في دار الخلافة وكان معه أخوه علي وأنهما هربا من دار الخلافة في يوم عيد واختلطا بالناس مضيا فلم يعلم لهما خبر إلى هذه الغاية قال ابن النجار ولما هرب قصد خراسان ودخل ما وراء النهر وسمع الحديث ببخارا من أبي حاتم البستي سنة تسع وستين وثلث ماية وكان قد اجتمع بالمتنبي في مصر وروى عنه شيئا من شعره قال أنشدني المتنبئ لنفسه." (١)

---

(١) الوافي بالوفيات الصفدي ٢٥٤/٣

"اعلم أنه سبحانه لما أقام الدلائل القاطعة على إثبات الصانع، وأبطل القول بالشريك عقبه بما يدل على النبوة، ولما كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على كون القرآن معجزا أقام الدلالة على كونه معجزا. واعلم أن كونه معجزا يمكن بيانه من طريقين:

الأول: ألا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة:

إما أن يكون مساويا لكلام الفصحاء، أو زائدا على كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة، أو زائدا عليه بقدر ينقض العادة، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث.

وإنما قلنا: إنهما باطلان؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن يأتوا [بمثل سورة منه] إما مجتمعين، أو منفردين، فإذا وقع التنازع، فالشهود والحكام مزيلون الشبهة وذلك نهاية الاحتجاج؛ لنه كان من معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال، وارتكبوا المهالك والمحن، وكانوا في **الحمية والأنفة** على حد لا يقبلون الحق، فكيف الباطل، وكل ذلك." (١)

"المؤمنين، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر، فلما قال: «وينصركم عليهم» دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر.

ورابعها: قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ . قرأ الجمهور بياء الغيبة، ردا على اسم الله تعالى، وقرأ زيد بن علي «نشف» بالنون، وهو التفات حسن، وقال: «قوم مؤمنين» شهادة للمخاطبين بالإيمان، فهو من باب الالتفات، وإقامة الظاهر مقام المضمر، حيث لم يقل «صدوركم» .

والمعنى: ويبرىء داء قلوب قوم مؤمنين مما كانوا ينالونه من الأذى منهم.

ومعلوم أن من طال تأذيه من خصمه، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه، فإنه يعظم سروره به، ويصير ذلك سببا لقوة النفس، وثبات العزيمة.

وقال مجاهد والسدي «أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله، حيث أعانت قريش بني بكر عليهم حتى نكلوا بهم، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم » .

وخامسها: قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ كربها ووجده ا بمعونة قريش بني بكر عليهم.

فإن قيل: قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وبين قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فهذه المنافع الخمسة ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية، وهي التبشفي، ودرك الثأر وإزالة الغيظ، ولم يذكر فيها وجدان المال، والفوز بالمطاعم والمشارب؛ لأن العرب جبلوا على **الحمية والأنفة**، فرغبهم في هذه المعاني

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/٤٢٩

لكونها لائقة بطباعهم.

وقرأ الجمهور: «ويذهب» بضم الياء وكسر الهاء من: «أذهب» ، و «غيظ» مفعول به وقرىء «ويذهب» بفتح الياء والهاء، جعله مضارعا ل «ذهب» ، و «غيظ» فاعل به." (١)

"الأمر كما قلتم، لكان من الجواب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه الصلاة والسلام .

السادس: لعل إخوته حملتهم الأنفة، والاستعلاء على ألا يسجدو له على سبيل التواضع، وعلم يعقوب أنهم إن لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران النفس، وظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها، فيعقوب عليه الصلاة والسلام مع جلالته وعظم قدره بسبب الأوبة والشيخوخة، والتقدم في الدين، والعلم، والنبوة فعل ذلك السجود حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال تلك الأنفة، والنفرة عن قلوبهم.

السابع: لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعلمها إلا هو [كما أمر الملائكة بالسجود لآدم صلوات الله وسلامه عليه لحكمة لا يعلمها إلا هو] ، ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت.

ثم إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى هذه الحالة: ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ ، وهي قوله: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا﴾ [يوسف: ٤] وهاذ يقوي الجواب السابع.

والمعنى: أنه لا يليق بمثلك على حالتك، في العلم، والدين، والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به، وأن رؤيا الأنبياء حق، كما أن رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده كان سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة، لذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف سببا لوجوب السجود على يعقوب.

قوله: ﴿من قبل﴾ يجوز أن يتعلق ب «رؤياي» أي تأويل رؤياي في ذلك الوقت ويجوز أن يكون العامل فيه: «تأويل» ؛ لأن التأويل كان من حين وقوعها هكذا والآن ظهر له، ويجوز أن يكون حالا من: «رؤياي» قاله أبو البقاء.

وقد تقدم أن المقطوع عن الإضافة لا يقع حالا.

قوله: ﴿قد جعلها ربي حقا﴾ حال من: «رؤياي» ، ويجوز أن تكون مستأنفة وفي «حقا» وجوه:

أحدها: أنه حال.

والثاني: أنه مفعول ثان.

والثالث: أنه مصدر مؤكد لفعل من حيث المعنى، أي: حققها ربي حقا بجعله.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩/١٠

قوله: «أحسن بي» «أحسن» أصله أن يتعدى بإلى، قال تعالى: ﴿وأحسن كمآ أحسن الله إليك﴾ [القصص: ٧٧] فقيل: ضمن معنى: «لطف» متعديا بالباء، كقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ وقول كثير عزة: [الطويل]." (١)

"العبدين بسكون الباء وهي تخفيف قارءة السلمي، فأصلها بالكسر.

قال ابن عرفة: يقال: عبد بالكسر يعبد بالفتح فهو عبد. وقل ما يقال: عابد والقرآن لا يجيء على القليل أو الشاذ يعني تخريج من قال: إن العابدين بمعنى الأنفين لا يصح، ثم قال كقول مجاهد. وقال الفرزدق:

٤٤٢٠ - أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

وقال آخر:

٤٤٢١ - مت ما يشأ ذو الود يصرم خليله ... ويعبد عليه لا محالة ظالما

قال ابن الخطيب: وهذا التعليق أيضا فاسد؛ لأن هذه **الأنفة** سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل.

وقال أبو عبيدة: معناه الجاحدين، يقال: عبدني حقي، أي جحدنيه. وقال أبو حاتم: العبد بكسر الباء الشديد الغضب، وهو معنى حسن، أي إن كان له ولد على زعمكم فأنا أول من يغضب لذلك.

وقيل: «إن» نافية؛ أي ما كان ثم أخبر بقولهن: ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وتكون الفاء سببية. ومنع مكي أن تكون نافية. قال: «لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت، وهذا محال» . ورد عليه بأن «." (٢)

"أوليته: قد مر «١»

ما حدث بين أبيه زيري وبين قرابته من ملوك إفريقية، وباديس بن منصور من المشاحنة التي أوجبت مخاطبة المظفر بن أبي عامر في اللحاق بالأندلس، وإذنه في ذلك، فدخل الأندلس منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار الحتوف، مع شيخهم هذا وأميرهم، ودخل منهم معه أبناء أخيه ماكسن وحباسة وحبوس، وقاموا في جملة المظفر، وزاوي مخصوص باسم الحجابة؛ فلما اختل بناء الخلافة، بمحمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، أذلهم وتنكر لهم، وأشاع بينهم وبين أمثالهم من البرابر، المغايرة، فكان ذلك سبب الفتنة التي يسميها أهل الأندلس بالبربرية؛ فانحاشوا، ونفروا عهده، وبايعوا سليمان بن الحكم، واستعانوا بالنصارى، وحركوا على أهل قرطبة خصوصا، وعلى أهل الأندلس عموما، ما شاء الله من استباحة،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢١٥/١١

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٧/١٧

وإهلاك النفوس، وغلبوا على ملك الأندلس، وما وراء البيضة، واقتسموا أمهات الأقطار، وانحازوا إلى بلاد تضمهم، فانحازت صنهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة، فأووا إليها، واتخذوها ملجأ، وحماها زاوي المذكور، وأقام بها ملكا، وأثل بها سلطانا لذويه، فهو أول من مدن غرناطة، وبناها وزادها تشييدا ومنعة، واتصل ملكه بها، وارتشحت عروقه، إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها، على عساكر الموالي، الراجعين بإمامهم المرتضى إلى قرطبة، البادين بقتاله، والآخذين بكظمه، بما تقرر ويتقرر في اسم المرتضى، من باب المحمدين.

وكان زاوي كبش الحروب، وكاشف الكروب، خدم قومه شهير الذكر أصيل المجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأي، والشجاعة، **والأنفة**، والحزم.

قال بعضهم: أحكم التدبير، والدولة تسعده، والمقادر تنجده، وحكيت له في الحروب حكايات عجيبة.

بعض أخباره في الرأي: قال أبو مروان: وقد مر ذكر الفتنة البربرية؛ لما خلص ملأ القوم، لتشاور أميرهم، وهم فرض في خروجهم من قرطبة، عندما انتهوا إلى فحص هلال. واجتمعوا على التأسي، وضرب لهم زعيمهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة، ودفعها لأشد من حضره منهم، وقال: اجهد نفسك في كسرها كما هي وأغمزها، فعالج ذلك فلم." (١)

"يقدر عليه، فقال له: حلها وعالجها رمحا رمحا، فلم يعد عليه دقها، فأقبل على الجماعة، فقال: هذا مثلكم يا برابرة، إن جمعتم لم تطاقوا، وإن تفرقتم لم تبقوا، والجماعة في طلبكم، فانظروا لأنفسكم وعجلوا، فقالوا: نأخذ بالوثيقة، ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة، فقال لهم: بايعوا لهذا القرشي سليمان، يرفع عنكم **الأنفة** في الرياسات، وتستميلون إليه العامة بالجنسية، ففعلوا، فلما تمت البيعة قال: إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الاستطالة، فيقيد له رئيس كل قبيلة منكم، قبيلة يتكفل السلطان بتقويمهم، وأنا الكفيل بصنهاجة، قال: وامتارت بطون القبائل على أرحامها، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها، فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيده، فاجتمعت صنهاجة على كبيرها زاوي، ولم تزل تلك القبائل المتألفة بالأندلس لطاعة أميرها، المنادين له إلى أن أورثوهم الإمارة.

التوقيع: قالوا «١»

: ولما نازله المرتضى الذي أجلب به الموالي العامريين بظاهر غرناطة، خاطبه بكتاب يدعوه فيه إلى طاعته، وأجمل موعده فيه؛ فلما قرىء على زاوي قال لكاتبه: اكتب على ظهر رقعته: قل يا أيها الكافرون

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ٢٩٤/١

(١) السورة «٢»
. فلما بلغت المرتضى أعاد عليه كتابا يعده فيه بوعيده، فلما قرىء على زاوي، قال: رد عليه: ألهاكم التكاثر
(١) «٣»
إلى آخرها، فازداد المرتضى غيظا، وناشبه القتال، فكان الظهور لزاوي.
قال المؤرخ «٤»
: واقتتلت صنهاجه مع أميرهم مستميتين لما دهمهم من بحر العساكر، على انفرادهم وقلة عددهم، إلى أن انهزم أهل الأندلس، وطاروا على وجوههم، مسلموهم وإفرنجهم، لا يلوون على أحد، فأوقع البرابر «٥» بهم السيف، ونهبوا تلك المحلات، واحتووا على ما لا كفاء له اتساعا وكثرة؛ ظل الفارس يجيء من أتباع المنهزمين ومعه العشرة، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر النهب، وخير الفساطيط، ومضارب الأمراء والرؤساء.." (١)

"ولده «١» ، العظيم الهمة، القوي العزيمة «٢» ، أبو يعقوب يوسف، وجاز إلى الأندلس على عهده، واجتمع به بظاهر مربلة «٣» ، وتجدد العهد، وتأكد الود؛ ثم عادت الوحشة المفضية إلى تغلب العدو على مدينة «٤» طريف، فرضة المجاز الأدنى، واستمرت أيام السلطان أبي يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم «٥» به، ومدة ولده بعده.
وبوطن تلمسان، أبو يحيى يغمور «٦» ، وهو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن بندوس بن طاع الله بن علي بن يمل، وهو أوحد أهل «٧» زمانه جرأة وشهامة، ودهاء، وجزالة، وحزما. مواقفه في الحروب «٨» شهيرة، وكانت بينه وبين بني مرين وقائع، كان عليه فيها الظهور، وربما ندرت الممانعة؛ وعلى ذلك فقوي الشكيمة، ظاهر المنعة. ثم ولي بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به، وبعضا من دولة ولده.
وبوطن إفريقية، الأمير الخليفة، أبو عبد الله بن أبي زكريا بن أبي حفص، الملقب بالمستنصر، المثل المضروب، في البأس «٩» والأنفة، وعظم الجبروت «١٠» ، وبعد الصيت، إلى أن هلك سنة أربع «١١» وسبعين وستمائة؛ ثم ولده الواثق بعده، ثم الأمير أبو إسحاق وقد تقدم ذكره. ثم كانت دولة الدعي «١٢» ابن أبي عمارة المتوثب على ملكهم؛ ثم دولة أبي حفص مستنقذها من يده، وهو عمر بن أبي زكريا بن «١٣» عبد الواحد، ثم السلطان الخليفة الفاضل، الميمون النقيبة، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ٢٩٥/١

المستنصر «١٤» أبي عبد الله بن الأمير زكريا «١٥» .
وبوطن النصارى، بقشتالة، ألفنش «١٦» بن هراندة، إلى أن ثار عليه ولده شانجه، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب، واستجار به؛ وكان من لقائه بأحواز الصخرة من كورة تاكرنا ما هو معلوم. ثم ملك «١٧» بعده ولده شانجه، واتصلت." (١)

"باختياري، مستظهرة منه ببطل كفاية، وباذل حمل كلفة، فانتقل «١» رئيسا في غرض إعانتي وانتشالي من الكلفة «٢» ، على الضعف وإلمام المرض، والترفع عن الابتذال، **والأنفة** من الاستخدام، فرفع الكل، ولطف من الدولة محله. ثم لما حال الأمر، وحتم التمحيص، وتسورت القلعة، وانتثر النظم، واستأثر به الاصطناع، كشفت الخبرة منه عن سوءة لا توارى، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى، فسبحان من علم النفس فجورها وتقواها، إذ لصق بالدائل «٣» الفاسق، فكان آلة انتقامه، وجارحة صيده، وأحبولة كيده، فسفك الدماء، وهتك الأستار، ومزق الأسباب، وبدل الأرض غير الأرض، وهو يزقه في أذنه، فيؤم «٤» النصيحة، وينحله «٥» لقب الهداية، ويبلغ في شد أزره إلى الغاية: «عنوان عقل الفتى اختياره، يجري في جميل «٦» دعوته» ، طوالا، أخرق، يسيء السمع، وينسى «٧» الإجابة، بدويا، قحا، جهوريا، ذاهلا عن عواقب الدنيا والآخرة، طرفا في سوء العهد، وقلة الوفاء، مردودا في الحافزة «٨» ، منسلخا من آية السعادة، تشهد عليه بالجهل «٩» يده، ويقيم عليه الحجج شرهه، وتبوئه «١٠» هفوات الندم جهالته. ثم أسلم المحروم مصطنعه، أحوج ما كان إليه، وتبرأ منه، ولحقته بعده مطالبة مالية، لقي لأجلها ضغطا. وهو الآن بحال خزي، واحتقاب تبعات، خلصنا الله من ورطات الدنيا والآخرة.
أوليته وشيوخه: وبسط كثير من مجمل حاله حسبما نقلت من خطه.
قال يخاطبني بما نصه «١١» : [البسيط]
يا سيدا، فاق في مجد وفي شرف ... وفات سبقا بفضل الذات والسلف
وفاضلا عن سبيل الذم منحرفا ... وعن سبيل المعالي غير منحرف." (٢)

"ظهير الدولة الإسماعيلية، ذي السابقة لدعوتها والأولية، والاختصاص بتشييد أركانها والمزية، أسد الحروب، إذا اضطرمت نارها وفار تيارها، وبدر دجاها إذا احتجبت بالنقع أقمارها، الكريم المآثر في الدفاع عن الدين، حسام كبير السلاطين، أسد العرين، شيخ المجاهدين، من مشايخ بني مرين، [المقدس، الأرضي،

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ٣٣١/١
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ٤٢٦/٣

المعظم] ، أبي سعيد عثمان ابن الشيخ [الجليل الكبير، الشهير الخطير، المعظم الأوحد، الأظهر الأطهر، الأمجد، المعظم المقدس الأرضي] ، أبي العلاء إدريس بن عبد الحق، النسب المعروف، والمعدن الذي تنسب إليه هذه السيوف، والعنصر الذي تشمخ به هذه المعاطير الأنفة والأنوف. فحين ظهر بهذا البيت، الذي هيأ له التوفيق اتفاقه، ومد عليه السعد رواقه، شديد الظنين على ذخره، وثابر منه على مرجح فخره، وعرض غرضه على المقام الكريم اليوسفي، الذي أوى إلى إيالته، واستظل بظل جلالته، ملتمسا بركة إشارته، وراجيا أثر استخارته، فاسترجع، أيد الله نظره، واستحسن مأخذه في ذلك وشكره، ورأى أنها وشايج على مظاهرة مقامه تلتحم، وعقود مجد في لبة دولته الرفيعة، تنتظم، وقلوب على محبته تأتلف، وألسن بحقه الواجب تعترف، وشآجيب مجد ببابه إن شاء الله تقف، كافأ الله مقامه ببلوغ الأمل، وإنجاح العمل، حتى يودي حقه من صنايعه، هؤلاء الحفدة والبنون، وتجنى من غرس الخير [في أهله، ووضعه في محله] ما تقر العيون.

فخطب للشيخ [الأجل الأغر الأرفع، الماجد المعظم] ، أبي الحسن علي ابن الشيخ الكذا ابي سرحان مسعود ابن أبي سعيد المذكور قبل، أخته الحرة الماجدة الفاضلة، مسعودة، وصل الله سعدها، وحرس مجدها، خطبة قابلها." (١)

"المتوعد ممسكها بالويل، أين الجهاد وارتباط الخيل، أين الحج وركبانه، تتدافع تدافع السيل، أين تلاوة القرآن الذي تطمئن به القلوب، أين الخلق الذي لا يصح دونها المطلوب، أين الحظ المغلوب، أين الصبر والسكون، وانتظار الفرج ممن يقول للشيء كن فيكون، أين قيدها وتوكل، أظنه أشكل، أين الأنفة من الاشتهار، أين الأنس بالخلوة بياض النهار، عدل عن ذلك كله إلى البخل على المساكين، والسلاطة على أهل الدكاكين، وهجر الممورد المعين، والتعويل على الوصول إلى الله من خرجة ابن سبعين. والحرمان تتضاعف مكاسبه، والمقصد الخبيث يمده الشيطان بما يناسبه، مقام التوبة لم يحصل، وسوء الولاية تفصل، وعقود العقد الصحيح لم تبرم، والمحرمات بعد لم تحرم، والمواجد لم يخطب المحل الأكرم، القواعد بعد مضاعة، ومعرفة الله قد حفلت براعة، الخلق لم تهذب، والنفوس في التماس الكمال تعذب، ثمرات العمل لم تحصد، وغاياتها في الحوانيت تقصد، كان جمهور المسلمين همج مهمل، كأن الأنبياء لم تبين ما يعمل، كان الشريعة ليس لأوضاعها سوق، ولا لنخلها بسوق، كأن الشافعي أو مالك ليس بسالك، وإن ما دون أشياخكم هالك، هذا لو كان لكم أشياخ، أو لمسير جيرتكم مناخ. إنما هي أعلام للشهرة تنصب،

---

(١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لسان الدين بن الخطيب ٩٩/١

وتيجان للخطوب تعصب النسي يذكر، والذكر ينسى، وظهور الولد والمساكين تعرى، والخليلي يكسى، وابدأ بمن تعول يوسع رسمه طمسا، والاعتدال يحكم فيه الجدال، بالله خلوا عنكم الاصطلاح الخالي، وهذا التنوين الغالي مع حرمان المخالي، والقنوع بالقراغ مع حرونة المراغ، والغليان الذي يبغضكم إلى الله وإلى خلقه، وهم الشهداء في رقة مع الغفلة عما أوضح لكم المشرع من حقه، وتخطى الظاهر المضمون إلى المشكل المظنون، فلو كان سيركم مستقيما، لم يكن القياس." [1]

"كان قد مات على غير دين الإسلام؛ لأن يكون أخف أهل النار عذابا فهو في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه، ولولا الشارع لكان في الدرك الأسفل، فنفعه له لو شهد بشهادة التوحيد، وإن كان ذلك عند المعاينة أحرى بأن يكون.

ثالثها: أن أبا طالب كان ممن عاين البراهين، وصدق معجزاته ولم يشك في صحة نبوته، وإن كان ممن حملته **الأنفة** وحمية الجاهلية على تكذيبه، وكان سائر المشركين ينظرون إلى رؤسائهم ويتبعون ما يقولون، فاستحق أبو طالب ونظراؤه على ذلك من عظيم الوزر وكبير الإثم، إن باءوا بإثمهم على تكذيبه، فرجا له المحاجة بكلمة الإخلاص عند الله حتى يسقط عنه إثم العناد والتكذيب لما قد تبين حقيقته، وإثم من اقتدى به في ذلك، وإن كان الإسلام يهدم ما قبله، لكنه آنسه بقوله: "أحاج لك بها عند الله" لئلا يتردد في الإيمان ولا يتوقف عنه لتماديه على خلاف ما تبين حقيقته وتورطه في أنه كان مضلا لغيره.

وقيل: إن قوله: "أحاج لك بها عند الله" كقوله "أشهد لك بها عند الله"؛ لأن الشهادة للمرء حجة له في طلب حقه، ولذلك ذكر البخاري هنا الشهادة؛ لأنه أقرب للتاويل وذكر "أحاج" في قصة أبي طالب في كتاب المبعث (١)، لاحتمالها التأويل، ووقع لابن إسحاق أن العباس قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يا ابن أخي، إن الكلمة التي عرضتها على عمك سمعته يقولها. فقال - صلى الله عليه وسلم - : "لم أسمع" (٢).

قال السهيلي: لأن العباس قال ذلك في حال كونه على غير

---

(١) سيأتي برقم (٣٨٨٤).

(٢) رواه ابن إسحاق في "السيرة" ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (٣٢٨).." [2]

---

(١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لسان الدين بن الخطيب ٤٤٨/٢

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١١٧/١٠

"قالوا: ولا يجوز للحر أن يحترف بالحجامة، وإن كان غلامه حجاما لم ينفق على نفسه من كسبه، وإنما ينفقه على العبيد وعلى بهائمه. والقصد بالحجام: في يحجم ليس في يزين الناس.

وذكر ابن الجوزي: أن أجرة الحجام إنما كرهت؛ لأنه مما يعين به المسلم أخاه إذا احتاج إليه، فلا ينبغي له أن يأخذ من أخيه على ذلك أجرا.

وروى ابن حبيب: أن قريشا كانت تتكرم في الجاهلية عن كسب الحجام؛ فلذلك جاء فيه النهي على وجه التكرم **والأنفة** عن دقائق الأمور. وروى ربيعة أنه قال: كان للحجامين سوق على عهد عمر، ولولا أن يأنف رجال لأخبرتك عن آبائهم أنهم كانوا حجامين (١).

وقال يحيى بن سعيد: لم يزل المسلمون مقرين بأجر الحجامة ولا ينكرونها (٢).

وحاصل الخلاف: كراهة التنزيه، التحريم مطلقا، الفرق بين الحر والعبد، يجوز الإعطاء دون الأخذ. قول ابن جرير.

فصل:

قوله: (ونهى عن الواشمة والموشومة)؛ أي: عن فعل الواشمة.

و الوشم: أن يغرز ظهر كف المرأة ومعصمها بإبرة، ثم يحشى بالكحل و (النئور) (٣) (٤) فيخضر، وقال الداودي: فيسود موضعه إذا حشي بالإثمد، وهو من عمل الجاهلية، وفيه تغيير لخلق الله.

---

(١) ذكره ابن عبد البر في "التمهيد" ١١/ ٨١.

(٢) رواه الطحاوي في "شرح معاني الاثار" ٤/ ١٣٢.

(٣) ورد بهامش الأصل ما نصه: النئور يلج، وهو دخان الشحم يعالج به الوشم حتى يخضر ولك أن تقلب الواو، المضمومة همزة كما في "الصحاح".

(٤) النئور: هو دخان الشحم، انظر: لسان العرب، مادة: وشم ٥/ ١٨٩.." [1]

"وهو سعد بن معاذ، وإنما قال ذلك؛ لأن الأوس من قومه، وهم بنو النجار، ومن آذى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجب قتله ولم يقل كذلك في الخزرج، لما كان بينهم وبين الخزرج، فبقي فيهم بعض **الأنفة** أن يحكم بعضهم في بعض، فإذا أمرهم الشارع امتثلوا أمره، وتكلم سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان من وهط عبد الله بن أبي، وهم بنو ساعدة أنفة أن يحكم فيهم سعد بن معاذ وليس أنه رضي

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١٧٥/١٤

قول أبي.

وقولها: (فقام سعد بن معاذ) كذا في الأصول وقال ابن التين: قوله: فقام سعد بن عبادة ليس بصحيح، والأحاديث: سعد بن معاذ، والذي عارضه ابن عبادة، وفي بعضها سعد بن عبادة.

ووهم ابن حزم الأول؛ لأن سعد بن معاذ مات إثر بني قريظة بلا شك، وبنو قريظة كان في آخر ذي القعدة سنة أربع، فبين الغزوتين نحو سنتين، والوهم لم يعر منه أحد من البشر (١).

وكذا قال ابن العربي: ذكر سعد بن معاذ هنا وهم اتفق عليه الرواة.

وقال أبو عمر: وهو وهم وخطأ (٢). وتبعه عليه جماعة وآخرهم القرطبي، فقال: إن ابن معاذ توفي منصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قريظة سنة أربع لم يختلف فيه أحد من الرواة (٣).

وفي البخاري: أنها سنة ست، وقال موسى بن عقبة: سنة أربع (٤).

فليس وهما مخففا.

وذكر ابن منده أن ابن معاذ مات سنة خمس من الهجرة.

---

(١) "جوامع السيرة" لابن حزم ص ٢٠٦.

(٢) "الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر ص ١٩٠.

(٣) "المفهم" ٧/ ٣٨٠.

(٤) كتاب المغازي، باب: غزوة بني المصطلق قبل حديث (٤١٣٨).." [١]

"قال المهلب: إذا كان في أجل النية إعلاء كلمة الله تعالى ثم دخل عليها من حب الظهور والمغنم ما دخل فلا يضرها ذلك "ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا" فخليق أن يحب الظهور بإعلاء كلمة الله وأن يحب الغني لإعلاء كلمة الله فهذا لا يضره إن كان عقده صحيحا، (**والحمية**) في الرواية التي أوردناها هي **الأنفة**، والغيرة عن عشيرته والغضب وحميت عن كذا حمية بالتشديد وتحمية إذا أنفت منه، والرياء أيضا يمد وقد يقصر وهو قليل، وقد أسلفنا أنه ضد الإخلاص. وقال الغزالي: إنه إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة (١)، أي: إما متمحضا أو مشاركا.

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٥٨٣/١٦

(١) انظر: "الإحياء" ٣/ ٣٦٨.." [١]

"٣٣ - باب التحريض على القتال

وقوله تعالى: ﴿حرض المؤمنين على القتال﴾. [الأنفال: ٦٥].

٢٨٣٤ - حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن حميد قال: سمعت أنسا - رضي الله عنه - يقول: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

"اللهم إن العيش عيش الآخره ... فاغفر للأنصار والمهاجره"

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

[٢٨٣٥، ٢٩٦١، ٣٧٩٥، ٣٧٩٦. ٤١٠٠، ٦٤١٣، ٧٢٠١ - مسلم: ١٨٠٥ - فتح: ٦/ ٤٥]

ذكر فيه حديث أنس: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

"اللهم إن العيش عيش الآخره ... فاغفر للأنصار والمهاجره"

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

فيه أحكام وفوائد:

أحدها: أن الحفر في سبيل الله والتحصين للديار وسد العورة، منها أجره كأجر القتال والنفقه فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى سبعمائة ضعف.

ثانيها: استعمال الرجز والشعر إذا كانت فيه إقامة النفوس في الحرب وإثارة **الأنفة** والعزة فيها.." [٢]

"الحسن البصري: لا بأس أن يستأسر الرجل إذا خاف أن يغلب. وقال الأوزاعي: لا بأس بالأسير المسلم أن يأبى أن يمكن من نفسه ويمد عنقه للقتل (١).

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١٧/٣٩٤

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١٧/٤٦٦

وفيه: الأخذ بالشدة والإنابة من الأسر **والأنفة** من أن يجري عليه ملك كافر، كما فعل عاصم، واحد صاحبي خبيب حين أبى من السير معهم حتى قتلوه. وقال الثوري: أكره للأسير المسلم أن يمكن من نفسه إلا مجبورا.

وفيه استنان الركعتين لكل من قتل صبرا.

وفيه: استنان الاستحداد لمن أسر ولمن يقتل، والتنظيف لمن يضيع بعد القتل لئلا يطلع منه على قبح عورة.

وفيه: أداء الأمانة إلى المشرك وغيره، وفيه: التورع من قتل أطفال المشركين؛ رجاء أن يكونوا مؤمنين.

وفيه: الامتداح بالشعر في حين ينزل بالمرء هوان في دين أو ذلة ليسلي بذلك نفسه ويرغم بذلك أنف عدوه ويجدد في نفسه صبرا وأنفة.

وأما قولها: (يأكل من قطف عنب وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبا). قال ابن بطال: هذا ممكن أن يكون آية لله على الكفار وبرهانا لنبيه، وتصحيحا لرسالته عند الكافرة وأهل بلدها الكفار؛ من أجل ما كانوا عليه من تكذيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأما من يدعي اليوم مثل هذا بين ظهراني المسلمين، فليس له وجه. إذ المسلمون كلهم قد دخلوا في دين الله أفواجا وآمنوا بمحمد وأيقنوا به، فأي معنى لإظهار آية عندهم؟ وعلى ما يستشهد

---

(١) انظر: "النوادر والزيادات" ٣/ ٣١٧.." (١)

"في الفواحش ما أعلن منها فأظهر وما بطن فعل سرا، وقيل: ﴿ما ظهر﴾: ما بينهم وبين الخلق، ﴿وما بطن﴾: بينهم وبين الخالق، وقيل: ﴿ما ظهر﴾: العناق والقبلة، ﴿وما بطن﴾: النية.

والغيرة -بفتح الغين- **الأنفة والحمية**، وحكى البكري كسرها. قال النحاس: أن يحمي الرجل زوجته وغيرها من قرابته، ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهن غير ذي محرم، وهو ضد الديوث والقنذع. وقال ابن التياني في "موعبه": رجل غيران من قوم غيارى -بفتح الغين وضمها. قال صاحب "المطالع": معناه: تغير القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة في الاختصاص من أحد الفرجين بالآخر، هذا في حق الآدميين، وأما في حق الله تعالى فقد جاء مفسرا من كلام نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام: "وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه" (١)، أي: غيرته منعه وتحريمه، ولما حرم الله تعالى الفواحش وتوعد عليها، وصفه - عليه السلام - بالغيرة، قال: "من غيرته أن حرم الفواحش".

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٢٧١/١٨

وحب الله المدح ليس من جنس ما نفعل من حب المدح، وإنما الرب تعالى أحب الطاعات ومن جملتها مدحه ليثيب على ذلك، فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح ونحن نحب المدح لننتفع به ويرتفع قدرنا في قومنا، فظهر أن من غلط العامة قولهم: إذا كان الله يحبه فكيف لا نحبه نحن، نبه على ذلك ابن عقيل.

---

(١) سيأتي برقم (٥٢٢٣) كتاب: النكاح، باب: الغيرة.." (١)

"فيها، واستنزال المرغوب إليه بالبيان بالسحر، وإنما هذا من أجل ما في النفوس من **الأنفة** في أمر (المووليات) (١)، فقال - عليه السلام - أن حسن التواصل إلى هذا (الذي) (٢) تأنف النفوس منه حتى تحبب إلى ذلك المستبشع وجه من وجوه السحر الحلال.

واستحب جمهور العلماء الخطبة في النكاح، قال مالك: هذا الأمر القديم وما قل منها فهو أفضل.

قال ابن حبيب: كانوا يستحبون أن يحمد الله الخاطب ويصلي على نبيه، ثم يخطب المرأة، ثم يجيب المخطوب إليه بمثل ذلك من حمد الله والصلاة على نبيه، ثم يذكر إجابته. وأوجبها أهل الظاهر فرضا، واحتجوا بأنه - عليه السلام - خطب حين زوج فاطمة، وأفعاله على الوجوب.

واستدل الفقهاء على عدم وجوبها بقوله: "قد زوجتكها بما معك من القرآن" ولم يخطب، وبقوله: "كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع" أي: ناقص ولم يقل: إن العقد لا يتم، بدليل تزويجه المرأة ولم يخطب (٣).

وفي أبي داود أنه - عليه السلام - خطب إليه رجل قال: فأنكحني من غير أن يتشهد (٤)، وفي كتاب ابن أبي شيبة: زوج الحسين بن علي بعض بنات أخيه وهو يتعرق العرق، وزوج مسروق شريحا ولم يخطب،

---

(١) في (غ): الوليات.

(٢) من (غ).

(٣) "شرح ابن بطال" ٧/ ٢٦٢ - ٢٦٣. وانظر: "بداية المجتهد" ٣/ ٩٣٧، "أسنى المطالب" ٣/ ١١٧، "المغني" ٩/ ٤٦٧،٤٦٦.

(٤) أبو داود (٢١٢٠).." (٢)

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٣٣٩/٢٢

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٤٤٨/٢٤

"وفيه من الفوائد:
إجازة استشفاع المشركين بالمسلمين، والإجابة إذا رجي رجوعهم إلى الحق، وقد ترجم عليه البخاري بذلك كما ستعلمه قريبا. وكانت هذه القصة والشعبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل الهجرة كما سلف آنفا.
وفيه: أن الإمام إذا طمع بدار من دور الحرب أن يسلم أهلها أن يرفق بهم ويأخذ عفوهم، ويدعو لهم بالصلاح، ويكف عن ثمارهم وزرعهم، وإن أيس من إنابتهم فلا يدعو لهم بل عليهم، ولا بأس حينئذ بقطع ثمارهم وزرعهم.
وقال المهلب: الدعاء على المشركين يختلف معناه، فإذا كانوا منتهكين لحرم الدين وحرم أهله، فالدعاء عليهم واجب وعلى كل من سار بسيرهم من أهل المعاصي في الانتهاك، فإن لم ينتهكوا حرم الدين وأهله، وجب أن يدعى لهم بالتوبة، كما قال - صلى الله عليه وسلم - حين سئل أن يدعو على دوس: "اللهم اهد دوسا وأت بهم" (١) وقيل: إنما يجب الدعاء على أهل المعاصي في حين انتهاكهم وأما عند إدبارهم وتركهم، فيجب أن يدعى لهم بالتوبة. وروي أن الصديق وزوجته كانا يدعوان على ابنهما عبد الرحمن بالهلاك يوم بدر إذا حمل على المسلمين، وإذا أدبر يدعوان له بالتوبة.
وفيه أيضا: إقرار الكفار بفضل نبينا، وقربه من ربه، والتشفع به، وأن ذلك عادة من الله علموها، ولولاها ما لجأوا إليه في كشف الضر عند إشرافهم على الهلاك، وذلك أدل دليل على معرفتهم بصدقه، ولكن الحسد **والأنفة** الجاهلية حملتهم على معاندته ومعاداته

(١) سيأتي برقم (٦٣٩٧) كتاب: الدعوات، باب الدعاء للمشركين.." [١]
"حلو اللسان، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية، شريف **الأنفة**، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة، مؤدب الخدام» .
قال محمد بن إبراهيم الشيباني «١» : من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم «٢» ، وكثاثة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزي. قال: ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستفره «٣» المركب، ولا

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٢٢٤/٨

يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة، فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ ولله القائل!:

وشمول كأنما اعتصروها ... من معاني شمائل الكتاب»

وقال أبو الفضل الصوري: «ينبغي أن يكون الكاتب فصيحا بليغا أديبا، سني الرتبة، قوي الحجة، شديد العارضة «٤» ، حسن الألفاظ، له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود» .

قال المهذب بن مماتي: «أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفائها» . قلت: وهذا قد يخالف ما تقدم: من أنه ينبغي أن يكون الكاتب." [١]

"أكفائه ونظرائه من بطانته، والمقربين من حضرته، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والثناء عليه مكافأة له وإمساك الألسن عن الطعن فيه.

ومنها: أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه، ويورده إيراد مستفيد لا مفيد، ومتعلم لا معلم، ويتلطف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعوه إلى العمل به. فإن من عادة الملوك والرؤساء **الأنفة** من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة؛ وإن تمكن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادعة بذلك لنفسه الأبية وعزته المتقاعسة.

الضرب الثاني آداب عشرة الأكفاء والنظراء

قال علي بن خلف: ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء، والمساواة في الصفاء، ومقابلة كل حالة بما يضاهيها. أما المسامحة بالحقوق والإغضاء عمن قصر، والمحافظة على ود من فرط، فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله، لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حق الاعتزاء إليها عن حقوق القرابات الدانية، والأنساب الراسخة. ولذلك وقع في كلام بعضهم «الكتابة نسب» . قال علي بن خلف: والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسب نفساني لا جسماني، يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة، وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوة إلى الفعل، بدليل ما نراه من اتفاق خواطرهم على كثير من المعاني التي يستنبطونها، وتواردهم فيها. ولولا تناسب الغرائز وتشابهها، لم يكن أن يتواطؤا في أكثر الأحوال على معان متكافئة متوافية.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١/١٠٠

قال: «وإذا كنا نحفظ من مت إلينا بالأنساب الجسمية التي لا تعارف بينها فأولى أن نحفظ من مت إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف. ولذلك." [1]

"واحد، لا سيما إذا فعل ذلك مستبيحا له. ومن أعظم العظائم عندهم إنكار خلافة هارون عليه السلام، **والأنفة** من كونها.

وقد رتب في «التعريف» يمينهم على مقتضى ذلك، فذكر أن يمينهم:

«إنني والله والله العظيم، الباريء، القادر، القاهر، القديم، الأزلي، رب موسى وهارون، منزل التوراة والألواح الجوهر، منقذ بني إسرائيل، وناصب الطور قبلة للمتعبدين، وإلا كفرت بما في التوراة، وبرئت من نبوة موسى، وقلت:

إن الإمامة في غير بني هارون، ودكيت الطور، وقلعت بيدي أثر البيت المعمور، واستبحت حرمة السبت، وقلت بالتأويل في الدين، وأقررت بصحة توراة اليهود، وأنكرت القول بأن لا مساس، ولم أتجنب شيئا من الذبائح، وأكلت الجدي بلبن أمه، وسعيت في الخروج إلى الأرض المحظور علي سكنها، وأتيت النساء الحيض زمان الطمث مستبيحا لهن، وبت معهن في المضاجع، وكنت أول كافر بخلافة هارون، وأنفت منها أن تكون.

[الملة الثانية] الفرقة الثالثة «١» (ممن تدعو الضرورة إلى تحليفه- النصرانية)

وقد اختلف في اشتقاقها، فقيل: أخذا من قول المسيح للحواريين: من أنصاري إلى الله*

«٢» وقول الحواريين: نحن أنصار الله*

«٣» وقيل: من نزوله هو وأمه- بعد عودها به من مصر- بالناصرة: وهي قرية من بلاد فلسطين من الشام: وقيل غير ذلك.

والنصارى- هم أمة عيسى عليه السلام، وكتابهم الإنجيل. وقد اختلف في اشتقاقه «٤» على ثلاثة مذاهب حكاها أبو جعفر النحاس «٥» في «صناعة الكتاب» :." [2]

"حاكيا له. ولمثل ذلك توضع الدساتر، وتدون الدواوين؛ على أنه ربما غير وبدل، وحرف وصحف، وأزال اللفظ عن وضعه؛ وأحال المعنى عن حكمه؛ وبعضهم ربما حملته **الأنفة** والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته، فعدل إلى كلام غيره، فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات، ورتب بعضها على

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١/١١٤

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٣/٢٧٣

بعض حتى تقوم بمقصوده، وينتهي إلى مراده.

فإن كان لطيف الذوق، حسن الاختيار، رائق الترتيب، فاختار من خلال السجع لطيفه، وأحسن رصفه وتأليفه، جاء بهجا رائقا، لأنه أتى من كل كلام بأحسنه، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذي قصده الناثر، وتفريق ما دون من كلام الأفاضل وتبديد شمله، وخروج الكلام عن أن يعرف قائله، ويعلم منشئه، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدي بهديه، وينسج على منواله.

وإن لم يكن لطيف الذوق، ولا حسن الاختيار، جاء مالفقه من كلام غيره رثا ركيكا، نابيا عن الذوق، بعيدا عن الصنعة، يعاد من النسخ إلى المسخ، وأخرج الكلام عن موضوعه، وأفسده في وضعه وتركيبه، فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى؛ ثم لا يكتفي بذلك حتى يتبجح به ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته، محتجا في ذلك بقول الحريري:

«إن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق» ظانا أن التفليق هو ضم سجعات منتظمة، وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض، ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها، وإضافة كلمة إلى مشاكلتها وشتان ما بين التلفيقين، وبعدا لما بين الطريقين:

وللزنبور والبازي جميعا ... لدى الطيران أجنحة وخفق

ولكن بين ما يصطاد باز ... وما يصطاده الزنبور فرق

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهرا مكشوفا، فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصير ناسخا لكلام غيره، وناقلا له! فأي فضيلة في ذلك؟." (١)

"الإماق «١» ، وتأكلوا الرباق «٢» . من أقر [بما في هذا الكتاب «٣»] فله [من رسول الله «٤»] الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي فعليه الربوة «٥» » .

وهذا الكتاب مما يحتاج إلى شرح غريبه ليفهم. «فالوظيفة» النصاب في الزكاة وأصله الشيء الراتب. «والفريضة» الهرمة المسنة، والمراد أنها لا تؤخذ منهم في الزكاة بل تكون لهم. «والفريش» بالفاء والشين المعجمة ما انبسط من النبات وفرش على وجه الأرض ولم يقم على ساق، وقد يطلق على الفرس إذا حمل عليها بعد النتاج أيضا. «وذو العنان الركوب» الفرس الذلول، «والفلو» المهر الصغير وقيل الفطيم من جميع أولاد الحافر. «والضبيس» بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة العسر الصعب الذي لم يرض. «والسرح» السارحة، وهي المواشي، والمعنى أنها لا تمنع من المرعى. والعضد القطع.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢/٣١٦

والطلح شجر عظام من شجر العضاه. والدر اللبن، والمراد ذوات الدر من المواشي، أراد أنها لا تحشر إلى المصدق وتمنع المرعى إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد لما في ذلك من الإضرار. و «الإماق» مخفف، من أمأق الرجل إذا صار ذا مأقة، وهي **الحمية والأنفة**، وقيل مأخوذ من الموق وهو الحمق، والمراد إضمار النكث والغدر أو إضمار الكفر. و «الرباق» بالراء المهملة والباء الموحدة والقاف جمع ربقة، وهي في الأصل اسم لعروة تجعل في الحبل وتكون في." (١)

"والأمور- بحمد الله- ساكنة، والبلاد- والمنة لله- آمنة، والرعايا في مكانها قاطنة، والسيوف في أغمادها مثل النيران في قلوب حسادها كامنة، وأقام أهل الطاعة بالفرض واستوفى بهم القرض، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض، وأعز أنصار المقام الشريف العالي وأعز نصره، وأعد لعدوه حصره، وأتى بدولته الغراء تسمو شموسها، وتثمر غروسها، وتظهر في حلل الصباح المشرق عروسها وتجيء منه بخير راع للرعية يسوسها، وبشره بالملك والدوام وسره بما اجتمع له من طاعة الأنام، وأقدمه على كرسي ملكه تظله الغمام، وأراه يوم أعدائه وكان لا يظن أن يرى في المنام، ولا يزال مؤيد الهمم، مؤكد الذمم، مجدد البيعة على رقاب الأمم، ولا برحت أيامه المقبلة مقبلة بالنعم، خضر الأكناف على رغم من كاد وغيظ من رغم؛ ولا فتئت عهود سلفه الشريفة تنشأ له كما كانت، ورعاياه تدين له بما دانت، وجنوده تفديه من النفوس بأعز ما ذخرت وما صانت، وسعادة سلطانه تكشف الغمم وتنشر الذمم وتعيد إلى أنوف أهل **الأنفة** الشمم، وتحفظ ما بقي لأوليائه من بياض الوجوه وسواد اللمم.

سطرها وأصدرها وقد حققت بعوائد الله الظنون، وصدقت الخواطر العيون، وأنجز الله وعده، وأتم سعده، وجمع على مقامه الكريم قلوب أوليائه، وفرق فرق عدوه وأباته بدائه، ووطد لرقيه المنابر، ورجل لترقيه العساكر، وهيأ لمقاتل أعدائه في أيدي أوليائه السيوف البواتر. وأخذ قوصون وأمسك ونهب ماله واستهلك، وهدمت أبنيته وهدت أفنيته، وخربت دياره وقلعت آثاره، وأخليت خزائنه وأخرجت من بطون الأرض دفائنه، وما مانعت عنه تلك الربائب التي ظنها قساور ولا ناضلت تلك القسي التي طبعها أساور، ولا أغنى عنه ذلك المال الذي ذهب، ولا ذلك الجوهر الذي كان عرضا لمن نهب. وأعيد إلى المهد ذلك الطفل الذي أكل الدنيا باسمه، وقهر أبناءها بحكمه، وموه به على الناس وأخلى له الغاب وما خرج من الكناس، وغالب

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٥٥/٦

به الغلب حتى وطيء الرقاب وداس الأعقاب، وخادع ودله الشيطان بغروره ودلس عليه عاقبة أموره، فاعتد." (١)

"فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد؛ والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد، المتكاثرة المدد؛ الموعودة بالنصر الذي يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة [به] «١» من قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة» . المبلغة في نصر دين الله آمالا، المستعدة لإجابة داعي الله إذا قال: انفروا خفافا وثقالا

«٢» .

وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا؛ وأكرمنا وفادتهم، وغزرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا عليهم جوابهم؛ هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم؛ وأنهم ما دفعوا لأفواه الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب؛ وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا ينتدب لمثل هذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها، ولو أتحفونا بتحفة، لقابلناها بأجل عوض عنها. وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد، وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد؛ وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب؛ وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها؛ فنقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله تعالى به مجتنبا ما عنه نهى، وانتظم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان، وتجنب التشبه بمن قال." (٢)

"يسارع إلى كل من طمع على يديه بفرح، وأن يستجيب إلى كل ما دعي إليه، وإن أكثر من في هذا البلاء يستجيز عبادة من أخرجه منه إلى العز والحرمة، ومع هذا فقد كان بنو إسرائيل أهل عسكر مجتمع، يمكن منهم التواطؤ.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤١٦/٦

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٧١/٧

وأما عيسى عليه السلام فما اتبعه إلا نحو اثني عشر رجلا معروفين ونساء قليل، وعدد لا يبلغ المائة، وكانوا مع هذه القلة مشردين غير ظاهرين، ولا يقوم بمثل هذا ضرورة يقين العلم.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلا يختلف أحد من أهل شرق الأرض وغربها، في أنه أتى إلى قوم لئام، لا يقرون ملك، ولا يطيعون لأحد، ولا ينقادون لرئيس، نشأ على هذا أجدادهم وأسلافهم، منذ ألوف من الأعوام، وقد سرى الفخر والنخوة، والكبر والظلم، **والأنفة** في طباعهم، وهم أعداد عظيمة، قد [ملكوا] [(١)] جزيرة العرب، وهي نحو مسيرة شهرين في شهرين، فدعاهم بلا مال ولا أتباع، بل قد خذله قومه إلى أن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة، ومن الحرية إلى جري الأحكام عليهم، ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا، أو أخذ ماله إلى القصاص من النفس [والأعضاء] [(١)] ، واللطمة من أجل من فيهم لأقل علج [(٢)] دخل فيهم، وإلى إسقاط **الأنفة** والفخر، وإلى ضرب الظهور بالسياط أو بالنعال إن شربوا خمرا، أو إن قذفوا إنسانا، وإلى الرجم بالحجارة حتى يموتوا إن زنوا.

وانقاد أكثرهم طوعا، ما منهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة فقط، فتبدلت به صلى الله عليه وسلم طبائعهم من الظلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن العسف والقسوة إلى الرأفة والرحمة، وسيرة العدل العظيم الذي لا يبلغه أكابر الفلاسفة.

فقد رأى الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكيف كانت طاعة العرب لهما، كل ذلك بلا رزق جار، ولا عطاء [دائر] [(١)] ، ولا غلبة ملوكية، إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم، وكسر لطبائعهم، كما قال تعالى: لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف

[(١)] زيادة للسياق.

[(٢)] العلج: الرجل من كفار العجم وغيرهم.." [1]

"غيرتك، قال: وعليك أغار يا رسول الله [(١)] ؟ وخرجه في النكاح، في باب الغيرة [(٢)] .

وخرجه مسلم من حديث سفيان، عن عمرو، وابن المنكدر [أنهما] سمعا جابرا [رضى الله عنه] ، يخبر عن النبي فذكره [(٣)] .

وخرج الإمام أحمد من حديث سفيان، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله رضى الله [عنهما] ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت كأني أتيت بكثلة تمر، فعجمتها في فمي، فوجدت فيها

---

(١) إمتاع الأسماع المقريزي ٤/٣٨٥

نواة آذتني، فلفظتها، ثم أخذت فيها نواة، فلفظتها] ، فقال أبو بكر رضى الله عنه: دعني، فلأعبرها، فقال صلى الله عليه وسلم: اعبرها، قال [رضى الله عنه:] هو جيشك الذي بعثت، يسلمون ويغنمون، فيلقون رجلا، فينشدهم ذمتك، فيدعونه، ثم

[(١)] (المرجع السابق) : حديث رقم (٧٠٢٤) ، قوله: «القصر في المنام» قال أهل التعبير: القصر في المنام عمل صالح لأهل الدين، ولغيرهم حبس وضيق، وقد يفسر دخول القصر بالتزويج.

[(٢)] (فتح الباري) : ٩/ ٣٩٩، كتاب النكاح، باب (١٠٨) الغيرة، حديث رقم (٥٢٢٦) .

[(٣)] (مسلم بشرح النووي) : ١٥/ ١٧٢، كتاب فضائل الصحابة، باب (٢) من فضائل عمر رضى الله عنه، حديث رقم (٢٣٩٤) .

قوله: «الغيرة بفتح المعجمة وسكون التحتانية بعدها راء. قال عياض وغيره: هي مشتقة من تغير القلب، وهيجان الغضب، بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين.

هذا في حق الآدمي.

وأما في حق الله تعالى، فقال الخطابي: أحسن ما يفسر به، ما فسر به، حديث أبى هريرة: «وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه» .

قال عياض: ويحتمل أن تكون الغيرة في حق الله الإشارة إلى تغير حال فاعل ذلك، وقيل: الغيرة في الأصل **الحمية والأنفة**، وهو تفسير يلازم التغير فيرجع الغضب، وقد نسب سبحانه وتعالى إلى نفسه في كتاب العزيز الغضب والرضا.

وقال ابن العربي: التغير محال على الله بالدلالة القطعية، فيجب تأويله بلازمه، كالوعيد أو إيقاع العقوبة بالفاعل، ونحو ذلك.

ثم قال: ومن أشرف وجوه غيرته تعالى، اختصاصه قوما بعصمته، يعنى فمن ادعى شيئا من ذلك لنفسه عاقبه، قال: وأشد الآدميين غيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغار لله ودينه، ولهذا كان لا ينتقم لنفسه صلى الله عليه وسلم.." (١)

"عبد العزيز بن عبد الرحيم بن محمد بن الحسن بن عساكر المنتقى الصغير من الغيلانيات انا ابن طبرزذ وحدث ومات ... ...

---

(١) إمتاع الأسماع المقريزي ١٢١/٨

– ٧٢٠ لؤلؤ بن عبد الله القبطي البعلي اليونيني سمع من غريب البعلبكي مشيخته وحدث بها عنه سمعها منه شيخنا العراقي وأرخ وفاته سنة ٧٦٠ ببعلبك وسمع أيضا من التاج عبد الخالق

– ٧٢١ لؤلؤ بن عبد الله ابو الدر عتيق القاضي أبي محمد بن محمد بن علاء بن حسن بن علاء الاذرعي الحنفي سمع من مولاه المذكور وأجاز له ابن عبد الدائم سمع منه الذهبي والسبكي

حرف الميم

– ٧٢٢ ماجد بن قروينة فخر الدين الوزير القبطى ولي وزارة الشام أولا ثم نقل إلى مصر وأضيف إليه الخاص وكان كاتبا مجيدا عارفا لكنه كان ظالما جماعا للمال كثير **الأنفة** مستطيلا على الأكابر بجاه يلبغا وقد خلف لما مات بيوت الأموال عامرة بالذهب والفضة والاهراء بالغلال حتى قيل إنه ترك تكفية ثلاث سنين ثم سلم بعد يلبغا لشاد الدواوين فأذاقه أنواع العذاب حتى لف مشاق الكتان على أصابعه وغمرت بالزيت وأوقدت في النار إلى غير ذلك إلى أن هلك في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٦٨." (١)

"ملة عبد المطلب بأن عبد المطلب مات على الإسلام، واستدل بأثر مقطوع عن جعفر الصادق. وسأذكره بعد، ولا حجة فيه، لانقطاعه وضعف رجاله.

وأما الثاني وفيه شهادة أبي طالب بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فالجواب عنه وعما ورد من شعر أبي طالب في ذلك أنه نظير ما حكى الله تعالى عن كفار قريش: وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [النمل: ١٤] ، فكان كفرهم عنادا، ومنشؤه من **الأنفة** والكبر، وإلى ذلك أشار أبو طالب بقوله: لولا أن تعيرني قريش.

وأما الثالث وهو أثر الهوزني فهو مرسل، ومع ذلك فليس في قوله: «وصلتك رحم» ما يدل على إسلامه، بل فيه ما يدل على عدمه، وهو معارضته لجنازته، ولو كان أسلم لمشى معه وصلى عليه.

وقد ورد ما هو أصح منه، وهو

ما أخرجه أبو داود والنسائي، وصححه ابن خزيمة من طريق ناجية بن كعب، عن علي، قال: لما مات أبو طالب أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إن عمك الضال قد مات. فقال لي: «اذهب فواره» ، ولا تحدثني شيئا حتى تأتيني» «١» . ففعلت ثم جئت فدعا لي بدعوات.

وقد أخرجه الرافضي المذكور من وجه آخر عن ناجية بن كعب، عن علي بدون قوله:

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٢٠

الضال.

وأما الرابع والخامس، وهو أمر أبي طالب ولديه باتباعه فتركه ذلك هو من جملة العناد، وهو أيضا من حسن نصرته له وذبه عنه ومعاداته قومه بسببه.

وأما قول أبي بكر فمراده لأنا كنت أشد فرحا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، أي لو أسلم.

ويبين ذلك

ما أخرجه أبو قرة موسى بن طارق، عن موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: جاء أبو بكر بأبي قحافة يقوده يوم فتح مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تركت الشيخ حتى تأتيه؟» قال أبو بكر: أردت أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحا بإسلام أبي طالب لو كان أسلم مني بأبي.

وذكر ابن إسحاق أن عمر لما عارض العباس في أبي سفيان لما أقبل به ليلة الفتح، فقال له العباس: لو كان من بني عدي ما أحببت أن يقتل. فقال عمر: إنا بإسلامك إذا

---

(١) أخرجه النسائي في السنن ١/ ١١٠ كتاب الطهارة باب ١٢٨ الغسل من مواراة المشرك حديث رقم ١٩٠. وأحمد في المسند ١/ ١٣١، وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٤٨.." [١]

"[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٤ الى ٧٩]

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٧٤) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون (٧٦) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨)

فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩)

وقوله سبحانه: واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض ...

الآية: بوأكم: معناه مكنكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، و «القصور» : جمع قصر، وهي الديار التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود، وقصرت على الناس قصرا تاما، و

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني ٧/٢٠٠

«النحت» : النجر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود، ونحوه، وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم، و (تعثوا) معناه تفسدوا.

قال أبو حيان «١» : ومفسدين: حال موكدة. انتهى.

والذين استكبروا هم الأشراف والعظماء الكفرة، و «الذين استضعفوا» : هم العامة والأغفال في الدنيا، وهم أتباع الرسل، وقولهم: أتعلمون: استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله، فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم، واستمروا على كفرهم.

وقوله سبحانه: فعقروا الناقة يقتضي بتشريكهم أجمعين في الضمير أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم واتفاق، وكذلك روي أن قدارا لم يعقرها حتى كان يستشير، وعتوا: معناه: خشنوا وصلبوا، ولم يذعنوا للأمر والشرع، وصمموا على تكذيبه، واستعجلوا النقمة بقولهم: ائتنا بما تعدنا، فحل بهم العذاب، والرجفة: ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان، وهو أن يتحرك ويضطرب/، ويرتعد ومنه:

«فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده» وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل صوت مهول، وكانت مفرطة شقت قلوبهم، فجثموا على صدورهم، والجاثم اللاطئ «٢» بالأرض

- وأحمد (٢/ ٩، ٥٨) ، والحميدي (٢/ ٢٩٠) برقم: (٦٥٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٤/ ٣٣٢) .

(٢) لطأت بالأرض ولطئت أي: لزقت.

ينظر: «اللسان» (٤٠٣٨) (لطا) .." [1]

"أن يقول لهم على جهة الوعيد والتقريع: أفأنبئكم أي: أخبركم. بشر من ذلكم:

والإشارة بذلكم إلى السطو، ثم ابتدأ بخبر كأن قائلا قال له: وما هو؟ قال: النار «١» أي: نار جهنم.

وقوله: وعدها الله الذين كفروا يحتمل أن يكون أراد: أن الله تعالى وعدهم بالنار، فيكون الوعد في الشر، ويحتمل أنه أراد: أن الله سبحانه وعد النار «٢» بأن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه، إذ الذي يقتضي قولها: هل من مزيد [ق: ٣٠] ونحو ذلك، أن ذلك من مسارها.

قلت: والظاهر الأول.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥١/٣

وقوله سبحانه: وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ... الآية: ذكر تعالى أمر سالب الذباب، وذلك أنهم كانوا يضمخون «٣» أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يتسلط ويذهب بذلك الطيب، وكانوا يتألمون من ذلك، فجعلت مثلا، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ضعف الطالب والمطلوب فقالت فرقة: أراد بالطالب: الأصنام، وبالمطلوب:

الذباب، أي: أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما يسلب من طيبهم على معهود **الأنفة** في الحيوان، وقيل: معناه: ضعف الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وضعف الأصنام في إعطاء ذلك وإنالته.

قال ع «٤» : ويحتمل أن يريد: ضعف الطالب وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام، وضعف الأصنام في أن لا منعة لهم، وبالجملة فدلتهم الآية على أن الأصنام في أحط رتبة، وأخس منزلة لو كانوا يعقلون. وما قدروا الله حق قدره المعنى: ما وفوه حقه سبحانه من التعظيم والتوحيد.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور (٧٦) يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧)

---

(١) في ج: النار، فيكون الوعد في الشر.

(٢) في ج: الناس.

(٣) الضمخ: لطخ الجسد بالطيب حتى كأنما يقطر.

ينظر: «لسان العرب» (٢٦٠٥) .

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٤) .." [1]

"" فرط بن كعب":

أول من نيح عليه بالبصرة، كما في سلم.

" القاسم ابن النبي صلى الله عليه وسلم":

أول ولد له عليه السلام؛ قاله النووي.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٣٧/٤

" القاسم بن عبيد الله" «١»

: وزير المعتضد، ثم المكتفي، فلقبه المكتفي: ولي الدولة، وهو أول من لقب بالدولة.

ولقب ابنه الحسن:" عميد الدولة".

" قابيل":

أول ولد آدم.

وأول من قتل قتيلا.

وأول من نصب نارا وعبدها.

" القضيب":

أول سيف تقلده النبي صلى الله عليه وسلم.

" قيس بن عاصم":

أول من وأد البنات في الجاهلية للغيرة **والأنفة** من نكاحهن.

" قليبص" «٢»

: أول ملك من ملوك اليونان.." (١)

"القطر فهلك الحرث والنسل، (والله لا يحب الفساد): لا يرتضيه، (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم)، حملته **الأنفة**، وحمية الجاهلية على الإثم المأمور بتركه لجاجا -الخصومة- يقال: أخذته بكذا، إذا حملته عليه، (فحسبه جهنم): كفته جزاء، (ولبئس المهاد)، أي: والله لبئس المقر جهنم، (ومن الناس من يشري): يبيع، (نفسه)، بالبذل في الجهاد، أو في جميع الأوامر، (ابتغاء): طلب، (مرضات الله)، نزلت في صهيب بن سنان الرومي، عذبه المشركون ليرتد فأعطى جميع أمواله وخلص دينه وأتى المدينة، وأكثر السلف على أنه عام في كل مجاهد في سبيل الله، (والله رءوف بالعباد)، لإرشادهم إلى الهدى، (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة): في الإسلام، أو في الطاعة، وكافة: حال من السلم، أي: خذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه." (٢)

"تزيلوا " كالتكرير لـ (لولا رجال)؛ لأن مرجعهما واحد، (إذ جعل الذين كفروا) ظرف لعذبنا، أو صدوكم، (في قلوبهم **الحمية**): **الأنفة**، (حمية الجاهلية): التي تمنع قبول الحق، (فأنزل الله سكينته): وقاره،

---

(١) كنوز الذهب فى تاريخ حلب سبط ابن العجمي، موفق الدين ٧٤/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٤٣/١

(على رسوله وعلى المؤمنين): حتى صالحوهم، فلم يدخلهم ما دخلهم من **الحمية**، فيعصوا الله تعالى في قتالهم، فإنه قد هم المؤمنون أن يأبوا كلام رسول الله في الصلح، ودخلوا من ذلك في أمر عظيم كادوا أن يهلكوا، ويدخل الشك في قلوب بعضهم حتى إنه قال - عليه السلام - ثلاث مرات: قوموا وانحروا، ثم احلقوا، وما قام منهم رجل ثم أنزل الله تعالى السكينة عليهم فاطمأنوا، (وألزمهم كلمة التقوى): اختار كلمة الشهادة لهم، أو بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه لما أمر - عليه الصلاة والسلام - عليا - رضي الله عنه - أن يكتب في كتاب الصلح " بسم الله الرحمن الرحيم " قالوا: لا نعرف هذا اكتب باسمك." (١)

"فلما سمع القاضي جودة منطقه، وحسن نسقه، وقدرته على الكلام، وثباته في الخصام، وقوته في النظر، ومعرفته بالأثر، وروايته للخبر، علم أنه عود بازل [١] ، وقضاء نازل، وعالم لا يجارى، وفقيه لا يمارى، ومتكلم لا يصطلى بناره، ولا يبصر في غباره، وأنه إنما حمله على ذلك ضرورة القلة والإعدام، **والأنفة** من الحاجة إلى السفلة واللئام، نزع الخاتم من إصبعه، وقال: هاك يا فقيه، يا متكلم، يا محدث، يا شاعر، يا لص، فأخذه منه، وحل عقاله، وأوسع مجاله، ونفس خناقه وأطلق/ وثاقه، ومضى عنه وهو يقول: [البسيط]

اعذر أخاك خلاك الذم من رجل ... صلب المجس له ناب وأظفور

لولا تفقدني سلمى لما بكرت ... بي نحو ما كنت تخشاه المقادير [٢]

قالت وقد رابها عدمي ثكلتك من ... راض ببرض معاش فيه تكدير [٣]

مهلا سليمى سينفي العار عن هممي ... هم وعزم وإدلاج وتشمير

سأنزع الرزق من أيدي معاشرها ... فيهم كريم له خيم ولا خير [٤]

قوم إذا أحوج الدهر الخؤون فتى ... إليهم مقلته أعين زور [٥]

ماذا أومل من علم ومن أدب ... مع معشر كلهم حول الندى عور

تا الله أطلب من أيديهم أبدا ... رزقا ولي فاتك الحدين مأثور [٦]

ثم مضى القاضي إلى منزله، وقد ملأ قلبه ما رأى من شجاعته، وشاهد من براعته، وما راقه من علمه، وشاقه من فهمه، فلبس من فاخر ثيابه، وخرج إلى عدوله وأصحابه، فلما استقر مجلسه، وثاب إليه حسه وأنسه، حدث عدوله ما لقي في ليلته من التعب، وقاسى من النصب، وأخذ في/ وصف اللص فأطنب، ومر في مدحه فأسهب، وأراق فأعجب، ثم قال: ولقد قلت فيه أبياتا أنعته فيها، وأذكر مقامه وموقفه [٧] ، فقيل

---

(١) تفسير الإيجي جام ع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٦٢/٤

له: وما الأبيات أيها القاضي؟ فأنشأ يقول: [البسيط]

---

[١] العود: المسن من الإبل، والبازل: الذي طلع نابه، وبزل الرجل: كملت تجربته، واستحكم رأيه، وأراد هذا المعنى.

[٢] في ب: لولا تعبدني سلمى. في ل: لولا تفندنى سلمى.

[٣] في ب، ش، ل: برص معاش، بالصاد المهملة، والصواب: برض، بالضاد المعجمة، والبرض القليل.

[٤] الخيم: الأصل والسجية والطبيعة.

[٥] مقلته: رمقته ونظرت إليه.

[٦] في ش: (تا الله لا أطلب) ، و (فاتك الجنبين) ، ولا يستقيم بها الوزن، وتا الله أطلب: أي لا أطلب. والمأثور: ذو الأثر، أي القاطع، والمأثور أيضا: الأثير، أي المفضل.

[٧] (وموقفه) ساقطة من ش.." (١)

"فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب «١»

ولما تبن منا ومنكم سوالف ... وأيد أترت بالقساسية الشهب «٢»

أليس أبونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب

ولكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرعب «٣»

[نقض الصحيفة]

فلما أراد الله تعالى حل ما عقدوه، وإبطال ما أكدوه، اجتمع في أواخر السنة التاسعة ستة من سادات قريش ليلا بأعلى (مكة) /، فتعاقدوا على نقض الصحيفة، منهم: المطعم بن عدي النوفلي، وزمعة بن الأسود بن أسد الأسدي، فلما أصبحوا قال قائلهم:

أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة، فقال أبو جهل: كذبت والله [لا تشق] ، فقال [زمعة] : أنت والله الكاذب، ووثبوا، فقال أبو جهل:

هذا أمر قد برم بليل، ثم قاموا إلى الصحيفة ليشقوه ا، فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرضة «٤»

---

(١) المحاضرات والمحاورات السيوطي ص/٤٤٣

قد أكلت جميعها، إلا ما فيه اسم الله،

---

(١) عض الزمان: شدته.

(٢) السوالف: ما تقدم من عنق الفرس، أترت: قطعت. القساسية: سيوف تنسب إلى قساس، وهو جبل لبني أسد يحوي على معدن الحديد.

(٣) الحفائظ: مفردها الحفيظة؛ وهي الأنفة. النهى- جمع نهية-: العقل. الرعب: الوعيد.

(٤) الأرضة: دويبة تأكل الخشب ونحوه.." [1]

"الثأر- بثاء مثلثة فهمزة ويجوز تسهيلها- وهو الذحل- بفتح الذال المعجمة والحاء المهملة وتسكن: الحقد. يقال: ثأرت القتيل وثأرت به، إذا قتلت قاتله.

أجمعت قريش: عزمت.

يستنفرونها- بتحتية فسين مهملة ففوقية فنون ففاء فراء-: يستعجلونها.

ألبوا: جمعوا. والألب- بالفتح والكسر- القوم يجتمعون على عداوة إنسان.

الحلفاء- بالحاء المهملة- جمع حليف وهو المعاهد.

الأحابيش: الذين حالفوا قريشا، وهم بنو المصطلق: سعد بن عمرو، وبنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناف، اجتمعوا بذنبة حبشي- وهو بحاء مهملة مضمومة فموحدة ساكنة فشين معجمة مكسورة فتحتية مشددة كما في معجم البلدان لياقوت- وهو جبل بأسفل مكة، فتحالفوا: إنا يد على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار، وما رئي حبشي مكانه، فسموا الأحابيش، باسم الجبل. وقيل: بل هو واد بمكة، وقيل: سموا أحابيش لاجتماعهم.

والتجمع في كلام العرب هو التحبش. والحباشة- بالضم- الجماعة ليسوا من قبيلة واحدة، وكذلك الأحبوش والأحابيش.

دارع: لابس درع.

لا أم لك يأتي الكلام عليه في لا أبا لك.

خل عنها: فعل أمر، أي اتركها.

---

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار بحرق اليمني ص/١٩١

شرح غريب خروج قريش من مكة

الظعن- بضم الظاء المعجمة المشالة، والعين المهملة وتسكن-: النساء، واحدتها ظعينة، وأصل الظعينة الراحلة التي ترحل ويظعن عليها، وقيل للمرأة: ظعينة، لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت، وقيل: الظعينة: المرأة في الهودج، ثم للهودج قيل بلا امرأة وللمرأة بلا هودج: ظعينة، ويجمع على ظعائن وأظعان.

الالتماس: الطلب.

الحفيظة- بفتح الحاء المهملة وكسر الفاء وسكون التحتية وبالظاء المعجمة المشالة- وهي **الأنفة** والغضب للحرم، ويقال الحفيظة: الغضب في الحرب خاصة.

يخطئ (بضم أوله وبالهمز) .

ويها: كلمة معناها الإغراء والتحضيض.." (١)

"فيقدر مبتدأ لم تقدروا عليها بعد، لما كان فيها من الجولة، والمراد: فارس والروم قد أحاط الله بها علم إنها ستكون لكم وكان الله على كل شيء قديرا لأن قدرته دائمة لا تختص بشيء دون شيء ولو قاتلكم الذين كفروا بالحديبية ولم يصالحوا لولوا الأدبار لانهزموا ثم لا يجدون وليا يحرسهم ولا نصيرا ينصرهم سنة الله مصدر مؤكد بمضمون الجملة قبله من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين، أي سن الله- تعالى- ذلك سنة التي قد خلت مضت في الأمم كما قال- تعالى- لأغلبن أنا ورسلي [المجادلة ٢١] من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا تغييرا منه وهو الذي كف أيديهم عنكم أي كفار مكة وأيديكم عنهم ببطن مكة بالحديبية من بعد أن أظفركم عليهم فإن ثمانين طافوا بعسكركم ليصيبوا منكم غرة فأخذوا، فأتى بهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح وكان الله بما تعملون من مقاتلتهم، وقرأ أبو عمرو بالتحتية بصيرا فيجازيهم عليه هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام عن الوصول إليه والهدي معكوفا عليكم، معكوفا: محبوسا، حال أن يبلغ محله الذي ينحر فيه عادة وهو الحرم بدل اشتمال ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون بمكة مع الكفار لم تعلموهم بصفة الإيمان أن تطؤهم تقتلوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح، بدل اشتمال فتصيبكم منهم من جهتهم معرة مكروه، بوجوب الدية، أو الكفارة بقتلهم، أو التأسف عليهم، أو غير ذلك بغير علم منكم به، وضمائر الغيبة به للصنفين بتغليب الذكور، وجواب لولا محذوف أي لأذن لكم في الفتح لكن لم يؤذن فيه حينئذ ليدخل الله في رحمته من

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحي الشامي ٢٥٧/٤

يشاء كالمؤمنين المذكورين لو تزيلوا تميزوا عن الكفار لعذبنا الذين كفروا منهم من أهل مكة حينئذ بأن نأذن لكم في فتحها عذابا أليما مؤلما إذ جعل متعلق بعذبنا الذين كفروا فاعل في قلوبهم **الحمية الأنفة** من الشيء حمية الجاهلية بدل من حمية، وهي صدهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عن المسجد الحرام فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فصالحوهم، على أن هذا يعود من قابل، ولم يلحقهم من **الحمية** ما لحق الكفار حتى يقاتلوهم وألزمهم كلمة التقوى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأضيفت إلى التقوى لأنها سببها وكانوا أحق بها من الكفار وأهلها عطف تفسير وكان الله بكل شيء عليما أي لم يزل متصفا بذلك، ومن معلومه تعالى أن المؤمنين أهلها لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق رأى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في النوم عام الحديبية قبل خروجه أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين ويحلقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية ورجعوا، وشق عليهم ذلك، وراب بعض المنافقين." (١)

"الثنية البيضاء: عقبة تهبطك إلى فخ- بالخاء المعجمة- وأنت مقبل من المدينة تريد أسفل مكة قبل ذي طوى.

الريف- بالكسر: الخصب والسعة في المطعم، وحيث تكون الخضرة والحياة.

يتحسبون الأخبار- بفتح التحتية والفوقية والحاء، والسين المشددة المهملتين وضم الموحدة، أي يتطلبونها.

التبطوا لجنب ناقتي: مشوا إلى جنبها كمشي العرجاء لازدحامهم حولها.

الحجاز: ما بين نجد والسراة.

الأنفة- بفتح الهمزة، والنون: **الحمية**.

المنعة- بالتحريك: جمع مانع، ككاتب وكتبة، ويسكن على معنى منعة واحدة، وهي العشيرة فالحماة.

الريع- بكسر الراء، والتحتية وسكون: المكان المرتفع.

الفل- بفتح الفاء: القوم المنهزمون.

يقدم- بضم أوله، وفتح الدال.

أحث- بالثاء المثلثة: أسرع.

الشامت: الذي يفرح ببلاء ينزل على غيره.

وبين مسلم ومسلمة: أي ومؤمن ومؤمنة.

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحي الشامي ٦٨/٥

المؤنة- بضم الميم: القوة.

ليخل لي في بعض بيوته: أي لينفرد فيه.

ناشده الله: ذكره به.

انتثل ما فيها- بهمزة، فنون ساكنة ففوقية فثاء مثلثة: استخرج.

العروس: وصف يستوي فيه الذكر والأنثى.

الخلوق: نوع من الطيب.

خطر في مشيته: أقبل بيده وأدبر كثيرا.

التجلد: التصبر.

الكآبة: الحزن.

أولى له: كلمة معناها الوعيد من ولي الأمر أي تداوله شر.." (١)

"﴿إذ جعل الذين كفروا﴾ منصوب باذكر على المفعولية أو بعذابنا على الظرفية وقيل بمضمر هو أحسن الله إليكم وأيا ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى ﴿فى قلوبهم **الحمية**﴾ أي **الأنفة** والتكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿حمية الجاهلية﴾ بدل من **الحمية** أي حمية الملة الجاهلية أو **الحمية** الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ على الأول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عله وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثاني على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل إلخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار يروى أن رسول الله صلى الله عليہ وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز ابن حفص بن الأحنف عل أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ما هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحي الشامي ١٧٠/٥

المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه وإضافتها إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها أو كلمة أهلها ﴿وكانوا أحق بها﴾." (١)

"وقال ابن الأحمر سلطان الأندلس

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكي ... على كل حال أنت لا بد لي منك

فأما بذل وهو أليق بالهوى ... وأما بعز وهو أليق بالملك

وقال ابن طاهر صاحب خراسان

فإني وإن حنت إليك ضمائري ... فما قدر حبي أن يذلك له قدري

ودونهم أفرغ لقلة الاشتغال حتى يكون المتفرغ له بالذات أهل البادية لعدم اشتغالهم بعوائق ومن ثم هم أكثر الناس موتا به. ثم أعلم أن العشق متى استولى لم يبق صفة سواه ولذلك يذهب الأخلاق العسرة وقوة النفس وفي معنى ذلك أنشد بعضهم حيث قال في رسالة أرسلها إلى محبوبته

شكوت فقالت كل هذا تبرم ... بحبي أراح الله قلبك من حبي

فما كتمت الحب قالت لشد ما ... صبرت وما هذا بفعل شجى القلب

وأدنو فتعصيني فأبعد طالبا ... رضاها فتعد التباعد من ذنبي

فشكواي يؤذيها وصبري يسوءها ... وتجزع من بعدي وتنفر من قربي

فيا قوم هل من حيلة تعرفونها ... أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ومنهم من تحمله **الأنفة** على أن يفارق بعد إظهار شدة شوق وقوة ميل وكذا شدة الإقبال من المحبوب فيتوهم حيث تشيع نفسه أن الشوق لا يعاوده فيفارق ويعود ذلك عليه بتلف نفسه والحق أن ذلك كله مع عدم التمكن وهو الموسوم بالاشراك وإلا فالصدق منه لا يرى وجودا لسوى المحبوب ومن ثم طعن على من يرى الدنيا مثالا لمحبوبه أو يظن وجوده ودونوا ما صدر عمن بدأ بالسلوان ثم ندم فمن ألطف ما قيل في ذلك قول الهذلي

ويمنعني من بعض إظهار ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر

مخافة أني قد علمت إذا بدا ... لي الهجر منها ما على هجرها صبر

وإني لا أدري إذا النفس أشرفت ... على هجرها ما يبلغن بي الهجر

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٢/٨

وقال ابن الجهم

نوب الزمان كثيرة وأشدها ... شمل تحكم فيه يوم فراق

يا قلب لم عرضت نفسك للهوى ... أو ما رأيت مصارع العشاق

فصل في الترغيب في العشق والحث عليه

قيل أن بهرام جور لم يرزق سوى ولد فأخذ في ترشيحه للملك وهو ساقط الهمة إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيره على أن لا نافع له غير العشق فسلط عليه الجواري يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن فأمرها الملك بالتجني عليه وإنها لا تطلب إلا رفيع الهمة ذا رغبة في العلم والملك فكان بسبب ذلك من أجل ملوك الفرس وأعلمها وفي المعنى قال ابن الأحنف:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال بعضهم:

وما سرني إني خلي من الهوى ... ولو أن لي ما بين شرق إلى غرب

وقال ابن أبي كثير لابن أبي الزرقاء هل عشقت حتى تكاتب وتراسل فقال لا قال لن تفلح والله أبدا وأنشد الشعبي:

إذا أنت لم تعشق ولم تدري ما الهوى ... فأنت وعير في الفلاة سواء

وعجزه غيره فقال:

فكن حجرا من يابس الصخر جلدا

وأنشد ابن معاذ:

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر ... خليلا ولم ينظر إليك حبيب

وقالت امرأة فيه أيضا:

رأيت الهوي حلوا إذا اجتمع الشمل ... ومرا على الهجران لا بل هو القتل

ومن لم يذق للهجر طعما فإنه ... إذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل

وقد ذقت طعميه على القرب والنوي ... فأبعده قتل وأقربه خبل

فصل في رسومه وحدوده

وما جاء عن الحكماء وغيرهم في ذلك." (١)

---

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق داود الأنطاكي ص/٨

"(بقوله تعالى: سنسمه على الخرطوم [القلم: ١٦]) أي سنكويه على أنفه إهانة له وخص الأنف لأن السمة عليه أبشع وظهورها اشنع وأشيع وقيل أي نجعل على وجهه يوم القيامة سمة سوداء تكون منبهة عليه ومعرفة به قبل دخوله النار كما قال الله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم أو معناه أنه يعذب إذ ذاك بنار تجعل على أنفه فتكون فيه كالسمة وقيل هذا في الدنيا وهي كناية عن ضربة يضرب بها وجهه وأنفه فتبقى فيه كالسمة قالوا وقد حل ذلك يوم بدر على أنف الوليد جراحة ظاهرة وعلامة باهرة وقيل ليس السمة هنا على حقيقتها وإنما هي كناية عن شهرته بما يبقى له مذموما ولا يمكنه إخفاؤه كالموسوم بسمة على أنفه والخرطوم في الأصل إنما هو للسباع كالفيل واستعمل في الآية للإنسان استعارة وإشارة إلى أنه شبيه بالحيوان صورة وسيرة كما قال تعالى أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون أي الكاملون في الغفلة عن الحضرة ,وقيل إنما عدل عن الأنف إلى الخرطوم لأن الأنف محل العز **والأنفة** لا كذلك الخرطوم لأنه محل المذلة والإهانة ولذا قيل الأنف في الأنف وقيل الخرطوم الوجه كله وهذا في الإنسان وربما قيل له في الأنف كغيره ومجمل الكلام وزبدة المرام في هذا المقام أي سنجعل له سمة أي علامة على الخرطوم أي على أنفه إما حسا كضرب أنفه بالسيف يوم بدر وبقيت علامة في أنفه حتى يأنف من أنفه أو يكون سوادا في وجهه زائدا عن غيره من الكفار في القيامة لشدة عناده وعتوه وأما معنى كسوء ذكره بالذم والمقت والاشتهار بالشر بحيث لا يخفى ذلك بوجه فيكون ذلك كوسمة على أنفه ويمكن تحقيق الجميع في حقه (فكانت نصرة الله له) أي لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم على عدوه (أتم من نصرته) عليه الصلاة والسلام بنفسه (لنفسه) أي فإن من كان لله كان الله له، (ورده) أي كان رده (تعالى على عدوه أبلغ من رده) صلى الله تعالى عليه وسلم (وأثبت في ديوان مجده) أي في ديوان كرمه وشرفه وهو بكسر الدال وتفتح والجمع دواوين ودياوين وأصله ديوانه بالفارسية وذلك أن كسرى أمر كتابه أن يجتمعوا في دار واحدة ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام وأعجلهم فيه وأطلع عليهم لينظر ما يصنعون فنظر إليهم فرآهم يحسبون بأسرع ما يمكن وينسخون كذلك فعجب من كثرة حركتهم فقال أين ديوانه أي هؤلاء مجانين وقيل شياطين ثم قيل في كل مخفل ديوان وأول من دون في الإسلام عمر رضي الله تعالى عنه.

الفصل السادس [فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه الصلاة والسلام مورد الشفقة والإكرام]

(فيما ورد من قوله تعالى في جهته) أي في حقه (صلى الله تعالى عليه وسلم مورد الشفقة والإكرام) أي مورد الرحمة والكرامة وهو منصوب على المصدرية (قال تعالى: طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢)

[طه: ١- ٢] قيل طه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام) أي الحديث تقدم لي عند ربي عشرة اسماء وذكر منها طه وهو في حساب العدد." (١)

"الخيل التي تركب كما أن الرقيق يراد به ما يخدم فالخيل السائمة والرقيق للتجارة فيهما الزكاة، (لا يمنع سرحكم) بصيغة المفعول نفي بمعنى النهي وفصل عما قبله لعدم مناسبة بينهما ويقال سرحت الماشية مخففا وسرحت هي متعد ولازم وإذا رجعت يقال راحت تروح وارحتها أنا ومنه قوله تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون أي حين تردونها من مرعاها إلى منازلكم وحين تخرجونها إليه ولعل تقديم الإراحة لما فيها من زيادة إفادة الراحة والمعنى لا تمنع ماشيتكم السارحة من مرعى مباح تريده (ولا يعضد) بصيغة المفعول أي لا يقطع (طلحكم) وهو شجر عظام من شجر الغضاة له شوك كالسدر وهو شجر حسن اللون لخضرته أي نضر له أنوار طيبة الرائحة ولكون العرب يستحسنوته لخضرته وحسن لونه وعطره نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن قطع ما ألفوه جبرا لخواطرهم ووعدا لهم ببقاء ما يحبون وهو المراد بقوله تعالى وطلح منضود وهو في الآية الموز وقيل الطلع وقرئ بالعين (ولا يحبس دركم) بمهملة مفتوحة فراء مشددة أي لا تمنع ماشيتكم التي هي ذات الدر أي اللبن عن الخروج إلى المرعى لتجتمع بموضع يعدها فيه المصدق لما فيه من الإضرار بها لعدم رعيها وفي رواية لا تحشر دركم أي لا تحشر إلى المصدق ليعدها بل إنما يعدها عند أصحابها وأغرب اليمني في تفسيره الدر هنا بمعنى المطر ولعل وجهه أنه جعل قوله ولا يحبس خبرا مغيا لقوله ما لم تضمروا وأما على ما ذهب عليه الجمهور فمتعلق ما دام مقدر ثم المعنى لكم ما قرر وما عليكم حرر (ما لم تضمروا الرماق) من الإضمار ضد الإظهار والرماق بالكسر بمعنى النفاق يقال رامقته رماقا نظرت إليه نظر العداوة أو المعنى ما لم تضق قلوبكم عن الحق يقال عيشه رماق أي ضيق قاله ابن الأثير ويروى الإماق بفتح الهمزة وكسرها وأصله إلا معاق فخفف همزه قال في المجمل يقال أماق الرجل إذا دخل في المأقة وهي الأنفة وفي الحديث ما لم تضمروا الامئاق أي ما لم تضمروا الأنفة انتهى والأنفة التعاظم وقيل هو الغدر وقيل الرمق القطيع من الغنم فارسي معرب فالمعنى لا تخفوا القطيع من الغنم والله أعلم (وتأكلوا الرباق) بالكسر جمع ربقة بكسر فسكون وهي في الأصل عروة تجعل في حبل يربط بها ما خيف ضياعه من البهم فشبه ما يلزم الاعناق من العهد بالرباق واستعار الأكل لنقض العهد فإن البهيمة إذا أكلت الربقة خلصت من الرباط والمعنى ما لم تنقضوا عهود الإسلام التي الزمها أعناقكم وما لم تخلعوها ومنه حديث حذيفة من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام

---

(١) شرح الشفا الملا على القاري ١٠٨/١

من عنقه قال التلمساني والربقة بكسر وبفتح وفي بعض النسخ الرفاق بالفاء بدل من الباء جمع رفقة أي بحيث لا تقطعون الطرق وتظهرون الحرب إذ كل ذلك يقتضي نقض العهد ونكث البيعة وقد يقع التصحيف في مثل هذا والله أعلم، (من أقر) استئناف آخر أي من ثبت واستقر واعترف مذعنا منقادا بالملة (فله الوفاء بالعهد) أي بما عوهد عليه (والذمة) أي وبالأمان أو الضمان الحاصل لديه (ومن أبى) أي امتنع من مقتضيات الملة أو تقاعد وتقاصر عن أداء الزكاة والصدقة (فعليه." (١)

"الحد يعني التعدي بغير حق (و) الثاني (عقوق الوالدين) أي إيذاؤهما أو أحدهما والمراد من له ولادة وإن علا من الجهتين (تخ طب عن أبي بكرة) نفيع بن حارث بن كلدة الثقفي

(أثيبوا) كافؤا (أخاكم) في الدين على صنعه معكم معروفا بضيافة ونحوها قالوا بأي شيء نثيبه قال (ادعوا له بالبركة) أي بالنمو والزيادة في الخير (فإن الرجل) ذكره غالبي والمراد الإنسان (إذا أكل طعامه وشرب شرابه) ببناء أكل وشرب للمجهول أي أكل ضيفه من طعامه وشرب من شرابه (ثم دعى له بالبركة) ببناء دعى للمجهول أي دعا له الأضياف بها (فذاك) أي مجرد الدعاء (ثوابه) أي مكافأته (منهم) أي من الأضياف أي إن عجزوا عن مكافأته بضيافة أو غيرها أو تعسر ذلك لعذر كما بين في خبر آخر (د هب عن جابر) بن عبد الله

(اجتمعوا) يا من شكوا إلينا أنهم يأكلون فلا يشبعون (على طعامكم) ندبا (واذكروا) حال شروعكم في الأكل (اسم الله) عليه بأن تقولوا بسم الله والأكمل إكمالها فإنكم إذا فعلتم ذلك (يبارك) بالجزم جواب الأمر (لكم فيه) فالاجتماع على الطعام وتكثير الأيدي عليه مع التسمية سبب للبركة التي هي سبب للشبع (حم د هـ) في الأطعمة (حب ك) في الجهاد (عن وحشي بن حرب) قاتل حمزة بإسناد حسن

(اجتنب) أبعد افتعال من الجنب (الغضب) أي أسبابه أو لا تفعل ما يأمر به ويحمل عليه من قول أو فعل (ابن أبي الدنيا) أبو بكر القرشي (في) كتاب (ذم الغضب وابن عساكر) في التاريخ (عن رجل من الصحابة) وجهالته لا تقدح لأن الصحب كلهم عدول

(اجتنبوا) ابعدوا وهو أبلغ من لا تفعلوا (السبع) أي الكبائر السبع المذكور في هذا الخبر لاقتضاء المقام ذكرها فقط وإلا فهي إلى السبعين بل قيل إلى السبعمائة أقرب (الموبقات) أي المهلكات (الشرك) بنصبه على البدل ورفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف (بالله) أي جعل أحد شريكا له والمراد الكفر به (والسحر) وهو مزاولة النفس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة (وقتل النفس التي حرم الله) قتلها عمدا

---

(١) شرح الشفا الملا على القاري ١/١٩٠

أو شبه عمد (إلا بالحق) أي بفعل موجب للقتل شرعا (وأكل الربا) أي تناوله بأي وجه كان وخص الأكل لما مر (وأكل مال اليتيم) يعني التعدي فيه كيف كان وخص الأكل لما مر (والتولي) الادبار من وجوه الكفار (يوم الزحف) إلا إن علم أنه إن ثبت قتل من غير نكاية في العدو (وقذف المحصنات) أي الحافظات فروجهن (المؤمنات) بالله (الغافلات) عن الفواحش وما قذفن به (ق د ن عن أبي هريرة) الدوسي

(اجتنبوا الخمر) أي شربها والتسبب فيه والمراد بها كل ما أسكر عند الأكثر وقال أبو حنيفة المتخذ من العنب (فإنها) يعني شربها (مفتاح كل شر) كان مغلقا من زوال العقل والوقوع في المنهيات واقتحام المستقبحات ونزول الأسقام والآلام (عد ك) في الأطعمة (هب) كلهم (عن ابن عباس) قال ك صحيح

(اجتنبوا) وجوبا (الوجوه) من كل آدمي محترم أريد حده أو تأديبه أو بهيم قصد استقامته وتدريبه (لا تضربوها) لأن الوجه لطيف شريف والضرب يشوهه وربما يعطبه فيحرم أو أراد بالوجه أكابر الناس فيكون من قبيل خبر أقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم إلا الحدود (عد عن أبي سعيد) الخدري بإسناد ضعيف

(اجتنبوا التكبر) بمثناة فوقية قبل الكاف بخط المؤلف وهو تعظيم المرء نفسه واحتقاره غيره **والأنفة** من مساواته وقال الغزالي حقيقته أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكال." (١)

"عز وجل) التي أنعم الله بها عليكم لأن الإنسان حسود غيور بالطبع فإذا تأمل ما أنعم به على غيره حمله ذلك على الكفران والسخط وعبر بأقلوا دون لا تدخلوا لنحو ما مر (حم د ن عن عبد الله بن الشخير) بكسر الشين وشدة الخاء المعجمتين العامري صححه الحاكم وأقروه

(أقلى) يا عائشة والحكم عام (من المعاذير) أي لا تكثري من الاعتذار لمن تعتذري إليه لأنه قد يورث ريبة كما أنه ينبغي للمعتذر إليه أن لا يكثر من العتاب والاعتذار طلب رفع اللوم (فر عن عائشة) ضعيف لضعف حارثة بن محمد وغيره

(أقم الصلاة) عد أركانها واحفظها عن وقوع خلل في أفعالها وأقوالها (وأد الزكاة) إلى مستحقيها أو الإمام (وصم رمضان) أي شهره حيث لا عذر من نحو مرض أو سفر (وحج البيت واعتمر) إن استطعت إلى ذلك سبيلا (وبر والديك) أي أصليك المسلمين بأن تحسن إليهما (وصل رحمك) قرابتك وإن بعدت (واقري الضيف) النازل بك (وأمر بالمعروف) بما عرف من الطاعة (وأنه عن المنكر) ما أنكره الشرع حيث قدرت وأمنت العاقبة (وزل مع الحق حيثما زال) بزيادة ما أي در معه كيف دار (تخ ك عن ابن عباس) صححه الحاكم فرد عليه

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ١/٣٤

(أقيلوا ذوي الهيآت) أي أهل المروأة والخلال الحميدة التي تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم بنسبة الشر إليها (عثراتهم) أي ارفعوا عنهم العقوبة على زلاتهم فلا تؤاخذوهم بها (إلا الحدود) إذا بلغت الإمام وإلا حقوق الآدمي فإن كلا منهما يقام فالمأمور بالعفو عنه هفوة أو زلة لا حد فيها وهي من حقوق الحق والخطاب للأئمة ومن في معناهم (حم خد د عن عائشة) الصديقة ضعيف لضعف عبد الملك بن زيد العدوي

(أقيلوا السخي) أي المؤمن الكريم الذي لا يعرف بالشر (زلته) هفوته الواقعة منه على سبيل الندور (فإن الله آخذ بيده) منجيه ومسامحه (كلما عثر) بعين مهملة ومثلثة زل أي سقط في أثم نادرا (الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عباس) وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

(أقيموا حدود الله في البعيد والقريب) أي القوي والضعيف وقيل المراد البعد والقرب في النسب ويؤيده خبر لو سرقت فاطمة لقطعتها (ولا تأخذكم في الله) خبر بمعنى النهي (لومة لائم) أي عذل عاذل سواء كان في الغزو أو غيره ومن خصه بالغزو فعليه البيان والقصد الصلابة في دين الله واستعمال الجد والاهتمام فيه (هـ عن عبادة) بن الصامت قال الذهبي واه

(أقيموا الصفوف) سووها في الصلاة (وحاذوا بالمناكب) اجعلوا بعضها في محاذاة بعض أي مقابلته بحيث يصير منكب كل من المصلين مسامتا لمنكب الآخر (وأنصتوا) عن القراءة خلف الإمام حال قراءته الفاتحة ندبا (فإن أجر المنصت الذي لا يسمع) قراءة الإمام (كأجر المنصت الذي يسمع) قراءته (عب عن زيد بن أسلم) مرسلا وهو الفقيه العمري (وعن عثمان بن عفان) موقوفا عليه وهو في حكم المرفوع

(أقيموا الصفوف فإنما تصفون بصفوف الملائكة) قالوا كيف تصف الملائكة قال يتمون الصفوف المقدمة ويتراصون هكذا جاء مبينا في الخبر (وحاذوا) قابلوا (بين المناكب) اجعلوا منكب كل مسامتا لمنكب الآخر (وسدوا الخلل) بفتحتين الفرج التي في الصفوف (ولينوا) بكسر فسكون (بأيدي إخوانكم) فإذا جاء من يريد الدخول في الصف فوضع يده على منكبه لان وأوسع له." (١)

"اللسانين المعبرين عما في القلب (ت عن زيد بن ثابت) قال دخلت على المصطفى وبين يديه كاتب فذكره // وإسناده ضعيف //

(ضع أنفك) على الأرض في الصلاة (ليسجد معك) وجوبا عند ابن عباس وندبا عند ابن عمر والخلاف في الجواز لا الصحة فلو ترك السجود على أنفه صح اتفاقا (هق عن ابن عباس)

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ١/١٩٧

قال مر النبي [صلى الله عليه وسلم] على رجل يسجد على جبهته فذكره // وإسناده حسن //
(ضع إصبعك السبابة على ضرسك) الذي يؤلمك (ثم اقرأ آخر) سورة (يس) أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين إلى آخرها قاله لرجل اشتكى ضرسه ويظهر أن غيره من الأسنان كذلك (فر عن ابن عباس
ضع بصرك موضع سجودك) أي انظر إلى محل سجودك ما دمت في الصلاة تمامه قال أنس قلت يا رسول الله هذا شديد لا أطيقه قال ففي المكتوبة إذن والأمر للندب (فر عن أنس) // وهو حديث منكر //
(ضع يدك) واليمنى أولى (على الذي تألم من جسدك وقل) حال الوضع (بسم الله) والأكمل إكمال البسملة وكرره (ثلاثا) من المرات (وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) وهذا من الطب الروحاني الإلهي (حم م هـ عن عثمان بن أبي العاص) الثقفي قال شكوت إلى المصطفى وجعا أجده في جسدي منذ أسلمت فذكره
(ضع يمينك على المكان الذي تشتكي) إياه (فامسح بها سبع مرات وقل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد) من الوجع تقول ذلك (في كل مسحة) من المسحات السبع وإنما يظهر أثره لمن قوي يقينه وكمل إخلاصه (طب ك عنه) أي عثمان المذكور
(ضعوا السوط حيث يراه الخادم) في البيت فإنه أبعث على التأدب وفيه إشارة إلى أن الرجل لا ينبغي أن يترك خدمه هملا بل يتعاهدهم بالتأديب وفيه إشارة أيضا إلى أنه يقصد بذلك التخويف ولا يقصد به الاستعداد لضربه ابتداء لكن لا يفعل ذلك لحظ نفسه بل يقصد الإصلاح ولا يتعدى اللائق (البزار عن ابن عباس) // وإسناده حسن //
(ضعي) يا أم بجيد (في يد المسكين) المراد به هنا ما يشمل الفقير (ولو ظلفا محرقا) أراد المبالغة في رد السائل بما تيسر وإن كان قليلا حقيرا فإن الظلف المحرق لا ينتفع به (حم طب عن أم بجيد) بضم الموحدة وفتح الجيم قلت يا رسول الله يأتيني السائل فاتزاهد له بعض ما عندي فذكره
(ضعي يدك) يا أسماء بنت أبي بكر (عليه) أي الخراج الذي خرج في عنقك (ثم قولي ثلاث مرات بسم الله اللهم اذهب عني شر ما أجد بدعوة نبيك الطيب) أي الطاهر (المبارك المكين) أي العظيم المنزلة (عندك) محمد (بسم الله) والأكمل إكمال البسملة (الخرائطي في) كتاب (مكارم الأخلاق وابن عساكر) في تاريخه (عن أسماء بنت أبي بكر) الصديق كان بها خراج فشكته إليه فذكره
(ضعي يدك اليمنى على فؤادك وقولي بسم الله اللهم داوني بدوائك واشفني بشفائك واغنني بفضلك عمن

سواك واخذل) بذال معجمة كذا رأيته مضبوطا بخط الشارح العلقمي وليس بصواب فقد وقفت على خط المؤلف فوجدته أحدر بدال مهملة مضمومة هكذا ضبطه بخطه (عني أذاك) قاله لغيراء بفتح الراء فعلاء من الغبرة وهي **الحمية والأنفة** (طب عن ميمونة بنت أبي عسيب) وقيل بنت أبي عنبسة قالت جاءت امرأة فقالت يا عائشة اغنيني بدعوة من رسول الله فذكره

(ضمن الله) بشد الميم المفتوحة (خلفه أربعا للصلاة والزكاة وصوم رمضان والغسل من الجنابة." [١]

"يقتله العطش) لشدته (فنزعت خفها فأوثقته) أي شدته (بخمارها) بكسر المعجمة أي بغطاء رأسها (فنزعت) جذبت (له من الماء) فسقته (فغفر لها بذلك) أي بسبب سقيها للكلب على الوجه المشروح فإنه تعالى يتجاوز عن الذنب الكبير بالعمل اليسير (خ عن أبي هريرة) ورواه عنه مسلم أيضا بالمعنى

(غفر الله عز وجل لزيد بن عمرو) بن نفيل (ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم) الخليل وهذا خبرا ودعاء (ابن سعد) في الطبقات (عن سعيد بن المسيب مرسلا

غلظ القلوب والجفاء في أهل المشرق) كان ذلك في عهده ويكون حين يخرج الدجال (والإيمان والسكينة) أي الطمأنينة والسكون (في أهل الحجاز) لا يعارضه خبر الإيمان يمان إذ ليس فيه النفي عن غيرهم (حم م عن جابر) بن عبد الله

(غنيمة مجالس الذكر) لفظ رواية أحمد أهل الذكر فسقط من قلم المؤلف لفظ أهل (الجنة) أي غنيمة توصل للدرجات العلا في الجنة لما فيه من مزيد الثواب (حم طب عن ابن عمرو) بن العاص // بإسناد حسن //

(غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال) يعني أخاف على أمتي من غير الدجال أكثر من خوفي منه (الأئمة المضلين) كذا وقع في رواية بالنصب وتقديره من تعني بغير الدجال قال أعني الأئمة وعلى رواية الرفع فتقديره الأئمة المضلون أخوف من الدجال (حم عن أبي ذر) // وإسناده جيد //

(غيرتان تثنية غيرة وهي **الحمية والأنفة** (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله ومخيلتان) تثنية مخيلة وهي الكبر (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله الغيرة في الريبة) أي عند قيامها (يحبها الله والغيرة في غير الريبة) بل بمجرد سوء الظن (يبغضها الله) وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة (والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله) لأن الإنسان تهزه رائحة السخاء فيعطيها طيبة بها نفسه ولا يستكثر كثيرا (والمخيلة في الكبر يبغضها الله عز وجل) وهذا ضابط الغيرة التي يلام صاحبها والتي لا يلام فيها (حم طب ك عن

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٢/١١١

عقبة) بالقاف (ابن عامر) // بإسناد صحيح //
(غيروا) ندبا (الشيب) بنحو حناء أو كتم لا بسواد لحرمته (ولا تشبهوا باليهود) في ترك الخضاب فإنهم لا يخضبون فخالفوهم ندبا (حم ن عن الزبير) بن العوام (ت عن أبي هريرة) رمز المصنف لصحته تبعا للترمذي ورد
(غيروا الشيب) أي لونه (ولا تشبهوا باليهود و) لا (النصارى) في عدم تغييره (حم حب عن أبي هريرة
غيروا الشيب ولا تقربوا السواد) فإنه محرم لغير جهاد (حم عن أنس) وهو في مسلم بنحوه
(الغازي في سبيل الله عز وجل والحاج والمعتمر وفد الله) أي قادمون عليه امتثالا لأمره (دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم) ما سألوه (ه حب عن ابن عمر) // بإسناد صحيح //
(الغبار في سبيل الله (أسفار الوجوه يوم القيامة) أي يكون ذلك نورا على وجوههم فيها (حل عن أنس) بن مالك
(الغدو والرواح إلى المساجد من الجهاد في سبيل الله) لأنه جهاد للشيطان و ا لنفس (طب) والديلمي (عن أبي أمامة) // بإسناد حسن //
(الغدو والرواح في تعلم العلم) أي الشرعي (أفضل عند الله من الجهاد في سبيل الله) ما لم يتعين الجهاد (أبو مسعود الأصبهاني في معجمه وابن النجار) في تاريخ (فر عن ابن عباس
الغرباء في الدنيا أربعة قرآن في جوف ظالم ومسجد في نادى قوم لا يصلي فيه ومصحف في بيت لا يقرأ فيه ورجل صالح مع قوم سوء) والنادي مجتمع القوم (فر) وابن لال (عن أبي هريرة) وفيه مجهول
(الغرفة) أي في الجنة (من." [1]

"٢٣ - (آية العز) أي القوة والشدة والصلابة فمنة ﴿فعززنا بثالث﴾ أو **الأنفة** ومنه ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة﴾ أو الغلبة والمنعة ومنه ﴿بل الذين كفروا في عزة﴾ أي ممانعة ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ أي المنعة والمراد هنا من العلامات الدالة على قوة إيمان الإنسان وشدته في دين الله ملازمته لتلاوة هذه الآية مع الإذعان لمدلولها وأنه بذلك يصير قويا شديدا وقيل المراد أن هذه الآية تسمى أية العز لتضمن قوله فيها ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ لذلك أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر لأنه العزيز المعز ﴿وقل الحمد لله﴾ أي الوصف بالجميل لله (الآية) كما ذكره في هذا الكتاب والظاهر أنه من تصرفه فأتى بلفظ الآية اختصارا أو اتكالا على حفظ الناس لها فإن الآية بكمالها ثابتة في الحديث كما يحيط به من سبر الروايات ووقف

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٢/١٦٢

على الأصول ويشهد لكونه إنما حمله على حذفها رعاية الإيجاز أنه أتى بها في جامعه الكبير ولم يذكر لفظ الآية. " فقال وآية العز وقل الحمد لله " (الذي) قال الحراني اسم مبهم مدلوله ذات موصوفة بوصف يعقب به وهي الصلة اللازمة (لم يتخذ ولدا) أي لم يسم أحد له ولدا وأما التولد فمما لا يتصوره عقل ومعنى الحمد لله لعدم الولد احمدوه حيث برئ من الأولاد فتكون منافعه كلها للعباد (ولم يكن له شريك) أي مشارك (في الملك) أي الألوهية وهذا كالرد على اليهود والمشركين (ولم يكن له ولي) ناصر يواليه (من) أجل (الذل) أي المذلة ليدفعها بمناصرته ومعاونته فلم يحالف أحدا ولا ابتغى نصرة أحد لأن من احتاج إلى نصرة غيره فقد ذل له وهو الغالب القاهر فوق عباده وهذا رد على النصارى والمجوس القائلين لولا أولياء الله لذل فنفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا أو اضطرارا أو ما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك ولهذا عطف عليه قوله (وكبره) أي عظمه عن كل ما لا يليق به (تكبيرا) تعظيما تاما عارفا أو اعرف وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك أو ولي من الذل. وفيه تنبيه على أن -[٦٢]- العبد وإن بالغ في التنزيه والتحميد واجتهد في العبادة والتمجيد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه تعالى في ذلك ولعظمة هذه الآية ختمت بها التوراة كما رواه ابن جرير وغيره عن كعب قال المؤلف وتسن قراءتها عند النوم وتعليمها للأهل والعيال لأثر فيه

(حم طب عن معاذ) بضم الميم وفتح المهملة فمعجمة (ابن أنس) الجهني صحابي سكن مصر روى عنه ابنه سهل أحاديث كثيرة. قال الحافظ العراقي: وسنده ضعيف: وقال الهيتمي: رواه أحمد والطبراني من طريقين في أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف وفي الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه وقد رمز المؤلف لحسنه." (١)

"١٧٤ - (اجتنبوا التكبر) بمثناة فوقية قبل الكاف بخط المؤلف فما في بعض النسخ من إسقاطها من تحريف النساخ وهو تعظيم المرء نفسه واحتقار غيره **والأنفة** مساواته وينشأ عنه الغضب لأن غيره إذا ساراه غضب والحقد لما أضمره المرء في نفسه من الترفع على من تكبر عليه والغش لأنه لا ينصح من تكبر عليه إذ قصده كون غيره معيبا منقوصا وآفات الكبر كثيرة وما من خلق ذميم إلا والكبر محتاج إليه مصاحب له وقلما ينفك عنه العلماء بل والعباد -[١٥٥]- والزهاد إذ يعجبون بكثرة أتباعهم وربما سار الواحد وأتباعه حوله ولو انفرد ساءه ذلك ولو لم يكن من الوعيد للمتكبر إلا نفي محبة الله له في النصوص القرآنية وخبر

---

(١) فيض القدير المناوي ٦١/١

لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر لكفى (فإن العبد) الإنسان (لا يزال يتكبر حتى يقول الله تعالى) لملائكته (اكتبوا عبدي) وفي رواية عبدي هذا المعتدي طوره الذي نازع ربه رداءه وتعرض للمقت والهلاك (في) الإضافة للملك لا للتشريف (الجبارين) جمع جبار وهو المتكبر العاتي. وكفى بذلك إعلاما باستقباح الاستكبار كيف وهو يفضي بصاحبه إلى بئس القرار النار وقد أفلح من هدى إلى تجنبه وفاز بخيري الدنيا والآخرة وترك الكبر داع إلى السلامة من شر الناس فينتفي عنه بتركه ما يترتب عليه من أنواع الأذى وضروب المهالك. قال الشافعي: التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من أخلاق اللئام وأرفع الناس قدرا من لا يرى قدره وأكبرهم فضلا من لا يرى فضله وقال القاضي أبو الطيب من تصدى قبل أوانه فقد تصدى لهوانه وفي الشعب: من رضي أن يكون ذنبا أبى الله إلا أن يجعله رأسا وقال الماوردي: الكبر يكسب المقت ويلهي عن التأله ويوغر صدور الإخوان

(أبو بكر) وأحمد بن علي بن أحمد (ابن لال) قال الكمال: ومعنى لال أخرس وهو أبو بكر الهمداني من أهل القرن الرابع فقيه شافعي تفقه على أبي إسحاق وغيره وله مؤلفات كثيرة في الحديث قالوا: والدعاء عند قبره مستجاب (في) كتابه (مكارم الأخلاق) أي فيما ورد في فضلها (وعبد الغني بن سعيد) الحافظ المشهور (في) كتاب (إيضاح الإشكال عد) كلهم (عن أبي أمامة) الباهلي وفيه عثمان بن أبي عاتكة ضعفه النسائي وغيره وهو علي ابن يزيد الالهاني قال في التقريب ضعيف والقاسم بن عبد الرحمن صدوق لكنه يغرب كثيرا." (١)

"١٧٥١ - (إن الله تعالى غيور) فعول من الغيرة **الحمية والأنفة** وهي محال على الله تعالى لأنها هيجان الغضب يسبب ارتكاب ما ينهى عنه فالمراد لازمها وهو المنع والزجر عن المعصية (يحب الغيور) في محل الريبة كما يفيده قوله في الحديث الآتي غيرتان غيرة يحبها الله (وإن عمر) بن الخطاب رضي الله عنه (غيور) فهو لذلك يحبه لأن من لمح لمحا من وصف كان من الموصوف به باللطف لطف ووصف كل مرتبة بحسبها (رستة) بضم الراء وسكون المهملة وفتح المثناة لقب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني الحافظ

(في الإيمان) أي في كتاب الإيمان له (عن عبد الرحمن بن رافع) التنوخي قاضي أفريقية (مرسلا) قال في الكاشف منكر الحديث مات سنة ١١٣." (٢)

---

(١) فيض القدير المناوي ١/١٥٤

(٢) فيض القدير المناوي ٢/٢٤٠

"١٧٦٧ - (إن الله كتب الغيرة) بفتح الغين أي **الحمية والأنفة** (على النساء) أي حكم بوجود الغيرة فيهن على رجالهن ومن ضرائرهن فليصبرن على جهاد أنفسهن عند ثورانها كما يصبر الرجال على جهاد الأعداء فإن لم تجاهد إحداهن نفسها وشيطانها ذهب كمال دينها وظفر بها شيطانها بتسخطها وظلمها زوجها فضرتها وربما جنت أو أهلكت نفسها فقد قالت امرأة لعمر زنيت فخذني فقال زوجها: ما فعلت بل حملتها الغيرة (والجهاد على الرجال فمن صبر) القياس -[٢٥٠]- صبرت لكن ذكره رعاية للفظ من (منهن إيمانا واحتسابا) أي لوجه الله تعالى وطلبا للثواب (كان لها مثل أجر الشهيد) أي إنسان قتل في معركة الكفار بسبب القتال فهذه تقابل وتجبر تلك النقيصة وهي عدم قيامهن بالجهاد الذي كتب على الرجال وفيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغير بما يصدر عنها لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة وقد أخرج أبو يعلى بسند قال ابن حجر رحمه الله لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه. وخرج بقوله من صبر من لم يصبر فإن أظهرت الضجر والسخط فلا أجر لها أصلا وبقوله إيمانا واحتسابا من صبرت ولم تحتسب صبرها فلا يكون لها أجر شهيد لكن لها أجر في الجملة

(طب) والبزار كلاهما من حديث عبيد بن الصباح عن كامل عن أبي العلاء عن الحكم عن إبراهيم بن علقمة (عن ابن مسعود) قال: كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت امرأة عريانة فقام إليها رجل فألقى عليها ثوبا وضمها إليه فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أحسبها غيرى ثم ذكره قال البزار لا نعلمه إلا من هذا الوجه وعبيد لا بأس به وكامل كوفي مشهور على أنه لم يشاركه أحد فيه انتهى وقال الهيثمي: فيه عبيد بن الصباح ضعفه أبو حاتم ووثقه البزار وبقية رجاله ثقات وقال في الميزان عبيد بن الصباح ضعفه أبو حاتم وساق هذا الخبر من مناكيره وفي اللسان أورده العقيلي في الضعفاء ولا يتابع عليه ولا يعرف إلا به اه. لكنه في الفتح عزاه للبزار وحده ورجاله ثقات لكن اختلف في عبيد بن الصباح منهم هكذا قال." (١)

"٢٠٨٠ - (إن الغضب من الشيطان) بمعنى أنه المحرك له الباعث إليه ليردي الآدمي ويغويه ويبعده عن نعمة الله ورحمته (وإن الشيطان خلق) بالبناء للمفعول وحذف الفاعل للعلم به (من النار) لأنه من الجان الذي قال الله تعالى فيهم ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ وكانوا سكان الأرض قبل آدم عليه الصلاة والسلام وإبليس أعبدهم فلما عصى جعل شيطانا (وإنما تطفئ) أي تخمد (النار بالماء) لأنه ضدها

---

(١) فيض القدير المناوي ٢/٢٤٩

(فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) ندبا مؤكدا وضوءه للصلاة وإن كان متوضئا والغسل أفضل قال الطيبي: أراد أن يقول إذا غضب أحدكم فليستعذ من الشيطان فإن الغضب من الشيطان قصور حالة الغضب ومنشأه ثم أرشد إلى تسكينه فأخرج الكلام هذا المخرج ليكون أجمع وأنفع وللموانع أزجر وأردع وهذا التصوير لا يمنع من إجرائه على الحقيقة لأنه من باب الكناية. قال ابن رسلان: وورد الأمر بالاغتسال فيحمل على الحالة التي يشتد الغضب فيها جدا وهذا تحذير شديد من الغضب ولا ينافيه قول إمامنا الشافعي من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار لأن القوة الغضبية محلها القلب ومعناها غليان دمه لطلب الانتقام فمن فرط فيها حتى انعدمت بالكلية أو ضعفت أو أفرط حتى جاوز حدها الشرعي ذم ذما شديدا ومحمل كلام الشافعي الأول والحديث الثاني وسبب ذم الأول استلزامه انعدام الغيرة **والحمية والأنفة** مما يؤلف منه

(حم د) في الأدب (عن عطية) بفتح أوله وكسر المهملة الثانية وشد المثناة تحت ابن عروة (العوفي) صحابي نزل الشام قال في التقريب له ثلاثة أحاديث وسكت عليه هو والمنذري." (١)

"٢٨٥٦ - (ألا أخبركم بأهل الجنة) قالوا: بلى قال: (كل ضعيف) قال أبو البقاء: برفع كل لا غير أي هم كل ضعيف عن أذى الناس أو عن المعاصي ملتزم الخشوع والخضوع بقلبه وقالبه (متضعف) بفتح العين كما في التنقيح عن ابن الجوزي قال: وغلط -[١٠٢]- من كسرها لأن المراد أن الناس يستضعفونه ويحتقرونه وفي علوم الحديث للحاكم أن ابن خزيمة سئل عن الضعيف قال: الذي يبرئ نفسه من الحول والقوة في اليوم عشرين مرة إلى خمسين (لو أقسم على الله لأبره) (١) (ألا أخبركم بأهل النار) قالوا: بلى. قال: (كل عتل) بالضم والتشديد الجافي أو الجموع المنوع أو الأكول الشروب (جواظ) بفتح فتشديد كما تقرر (جعظري مستكبر) صاحب كبر والكبر تعظيم المرء نفسه واحتقاره غيره **والأنفة** من مساواته. (٢)قال ابن عربي في كلامه على الأولين: إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله فليس لهم جلوس إلا مع الله ولا حديث إلا مع الله فهم في الله قائمون وفي الله ناظرون وإليه داخلون ومنقلبون وعنه ناطقون ومنه آخذون وعليه متوكلون وعنده قاطنون فما لهم معروف سواه ولا مشهود إلا إياه صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم فهم في غيابات الغيب المحجوبون وهم ضنائن الحق المستخلصون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر كله حجاب

---

(١) فيض القدير المناوي ٢/٣٧٧

(٢) تنبيه

فهذا حال هذه الطائفة

(حم ق) في التفسير وغيره (ت) في صفة النار (ن) في التفسير (هـ) في الزهد (عن حارثة بن وهب الخزاعي) أخي عبد الله بن عمر لأمه قيل هو الذي استطول صلاة معاذ فانصرف وفي الباب أبو هريرة وابن عمر وغيرهما

---

(١) يوجد في النسخة هنا بياض." (١)

"٢٩٩٨ - (أيما رجل قام إلى وضوئه) يحتمل كونه بفتح الواو أي الماء ليتوضأ منه ويحتمل بالضم أي إلى فعل الوضوء (يريد الصلاة) بذلك الوضوء (ثم غسل كفيه نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة) تقطر منهما قال القاضي: هو مجاز عن غفرانها لأنها ليست بأجسام فتخرج حقيقة وكذا يقال فيما بعده وقال الطيبي: هذا وما بعده تمثيل وتصوير لبراءته عن الذنوب كلها على سبيل المبالغة لكن هذا العام خص بالتغاير (فإذا غسل وجهه نزلت خطيئته من سمعه وبصره مع أول قطرة) تقطر منه (فإذا غسل يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو له ومن كل خطيئة كهيئة (يوم ولدته أمه) ويصير سالما من الذنوب مثل وقت ولادته (فإذا قام إلى الصلاة) وصلاها (رفعه الله عز وجل بها درجة) أي منزلة عالية في الجنة (وإن قعد) أي عن الصلاة أي لم يصلها بذلك (قعد سالما) من الخطايا قال الطيبي: فإن قلت ذكر لكل عضو ما يختص به من الذنوب وما يزيلها عن ذلك العضو والوجه مشتمل على الأنف والفم فلم خصت بالذكر دونهما قلت العين طليعة القلب ورائده وكذا الأذن فإذا ذكرا أغنيا عن سائرها قال: والبصر واليد والرجل كلها تأكيدات تفيد مبالغة في الإزالة واعلم أنه قد زاد في رواية للطبراني بعد غسل اليدين إلى المرفقين فإذا مسح برأسه تناثرت خطاياه من أصول الشعر والمراد بخطايا الرأس نحو الفكر في محرم وتحريك الرأس استهزاء بمسلم وتمكين المرأة أجنبيا من مسه مثلا والخيلاء بشعره والعمامة وإرسال العذبة فخرا وكبرا ونحو ذلك (٢) قال القصيري: ينبغي للمتطهر أن ينوي مع غسل يديه تطهيرهما من تناول ما أبعده عن الله ونفضهما مما يشغله عنه وبالمضمضة تطهير الفم من تلويث اللسان بالأقوال الخبيثة وبالاستنشاق إخراج استرواح روائح محبوباته -[١٥٦]- وبتخليل الشعر حله من أيدي ما يملكه ويهبطه من أعلا عليين إلى أسفل سافلين وبغسل وجہه تطهيره من توجهه إلى اتباع الهوى ومن طلب الجاه المذموم

---

(١) فيض القدير المناوي ١٠١/٣

(٢) تنبيه

وتخشعه لغير الله وتطهير الأنف من **الأنفة** والكبر والعين من التطلع إلى المكروهات والنظر لغير الله بنفع أو ضر واليدين تطهيرهما من تناول ما أبعده عن الله والرأس زوال الترأس والرياسة الموجبة للكبر والقدمين تطهيرهما من المسارعة إلى المخالفات واتباع الهوى وحل قيود العجز عن المسارعة في ميادين الطاعة المبلغة إلى الفوز وهكذا ليصلح الجسد للوقوف بين يدي القدوس تعالى

(حم عن أبي أمامة) الباهلي قال المنذري: رواه أحمد وغيره من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب وقد حسبها الترمذي لغير هذا المتن وهو إسناد حسن في المتابعات لا بأس به." (١)

"٥٢٢٥ - (ضعي يدك اليمنى على فؤادك) في رواية فامسحيه (وقولي) حال مسحه (بسم الله اللهم داوني بدوائك واشفني بشفائك وأغنني بفضلك عمن سواك واحذر) ضبطها بذال معجمة بخط الشارح وليس بصواب فقد وقفت على خط المصنف في مسودته فوجدته أحدر بدال مهملة (عني آذاك) قاله لغيري بفتح الراء فعلى من الغيرة وهي **الحمية والأنفة**

(طب عن ميمونة بنت أبي عسيب) وقيل: بنت أبي عنبسة قالت: قالت امرأة يا عائشة أغيثيني بدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسكنني بها فذكرته. قال المصنف: كانت غيرا." (٢)

"٥٢٩٩ - (طوبى لمن تواضع في غير منقصة) بأن لا يضع نفسه بمكان يزرى به ويؤدي إلى تضييع حق الحق أو الخلق فإن القصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين فالتواضع الذي يعود على الدين بالنقص ليس بمطلوب قال الخواص: إياك والإكثار من ذكر نقائصك لأن به يقل شكرك فما ربحت من جهة نظرك إلى عيوبك خسرته من جهة تعاميك عن محاسنك التي أودعها الحق فيك وقال: شهود المحاسن هو الأصل وأما نقائصك فإنما طلب النظر إليها بقدر الحاجة لئلا يقع في العجب وقال: إذا أغضبك أحد لغير شيء فلا تبدأه بالصلح لأنك تذل نفسك في غير محل وتكبر نفسه بغير حق ومن ثم قيل: الإفراط في التواضع يورث الذلة والإفراط في المؤانسة يورث المهانة قال ابن عربي: الخضوع واجب في كل حال إلى الله تعالى باطنا وظاهرا فإذا اتفق أن يقام العبد في موطن الأولى فيه ظهور عزة الإيمان وجبروته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته ويظهر في المؤمن من **الأنفة** والجبروت ما يناقض الخضوع والذلة فالأولى إظهار ما يقتضيه ذلك الموطن قال تعالى ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب﴾ الآية وقال ﴿واغلظ عليهم﴾ فهذا من باب إظهار عزة الإيمان بعزة المؤمن وفي الحديث أن التبختر مشية يبغضها الله إلا بين

---

(١) فيض القدير المناوي ٣/١٥٥

(٢) فيض القدير المناوي ٤/٢٥٧

الصفين فإذا علمت أن للمواطن أحكاما فافعل بمقتضاها تكن حكيما قال ابن القيم: والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتوالد من بين العلم بالله وصفاته ونعوت جلاله ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فتولد من ذلك خلق هو التواضع وانكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق والمهانة الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به وقال الراغب: الفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته والضعة وضع الإنسان نفسه بمحل يزرى به والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب فأنبل بحسنة غطت على سيئتين وأقبح بسيئة غطت على حسنتين والكبر ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره والتكبر إظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله وحده فمن ادعاها من المخلوقين فهو كاذب وفي أثر: الكبر على المتكبر صدقة لأن المتكبر إذا تواضعت له تمادى في تيهه وإذا تكبر عليه يمكن أن ينبه ومن ثم قال الشافعي: ما تكبر علي متكبر مرتين وقال الزهري: التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام (وأذل نفسه في غير مسكنة) قال الغزالي: تشبث به طائفة الفقهاء فقلما ينفك أحدهم عن التكبر على الأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق ويتعللون بأنه ينبغي صيانة العالم عن الابتذال وأن المؤمن منهي عن إذلال نفسه فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفا -[٢٧٨]- للاسم وإضلالا للخلق

(١) روى العسكري أن رجلا مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالغ في الخضوع فقال عمر: ألست مسلما قال: بلى قال: فارفع رأسك وامدد عنقك فإن الإسلام عزيز منيع (وأنفق من مال جمعه في غير معصية) أي صرف منه في وجوه الطاعات وفيه إشعار بأن الصدقة لا تكون إلا من مال حلال وعبر بمن التبعيضية إشارة إلى ترك التصدق بكل المال (وخالط أهل الفقه والحكمة) الذين بمخالطتهم تحيى القلوب (ورحم أهل الذل والمسكنة) أي عطف عليهم ورق لهم وواساهم بمقدوره (طوبى لمن ذل نفسه) أي رأى ذلها وعجزها فلم يتكبر وتذلل لحقوق الحق وتواضع للخلق روي أن الصديق لما ولي الخلافة قالت جويرية من الحي: إذن لا يحلب لنا منائحنا فسمعها فقال: يا بنية إني لأرجو أن لا يمنعني ما دخلت فيه عن خلق

---

(١) فائدة

كنت عليه فكان يحلب للقوم شياههم وروي أن الفاروق حمل حال خلافته قربة إلى بيت امرأة أرملة أنصارية ومر بها في المجامع (وطاب كسبه) بأن كان من وجه حل (وحسنت سريرته) بصفاء التوحيد والثقة بوعد الله والخوف منه والرجاء والشفقة على خلقه والمحبة لأوليائه (وكرمت علانيته) أي ظهرت أنوار سريرته على جوارحه فكرمت أفعالها بتقوى الله وبمكارم أخلاق الدين بالصدق والبر ومراعاة الحقوق (وعزل عن الناس شره) فلم يؤذهم ومن ثم قال مالك بن دينار لراهب: عظني فقال: إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سورا من حديد فافعل وقيل لبقراط: لم لا تعاشر الناس فقال: وجدت الخلوة أجمع لدواعي السلوة (طوبى لمن عمل بعلمه) لينجو غدا من كون علمه حجة عليه وشاهدا بتفريطه (وأنفق الفضل من ماله) أي صرف الزائد عن حاجته وحاجة عياله في وجوه القرب لئلا يطغى ويسكن قلبه إليه ويحظى بثوابه في العقبى (وأمسك الفضل من قوله) أي وأمسك لسانه عن النطق بما يزيد على الحاجة بأن ترك الكلام فيما لا يعنيه قال بعض العارفين: من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين وفي بعض النسخ من قوته بدل قوله فليحرر [1] قال الحكيم: هذا من الأحاديث التي قال عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم إلخ فهذا تعرفه قلوب المحققين ومن ذلك حديث أنس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال: يا أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب وكأن الحق على غيرنا وجب وكأن ما نشيع من الموتى عن قليل إلينا راجعون نبوءهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون من بعدهم فطوبى لمن شغله عيبه عن عيب الناس (تتمة) قال الغزالي: التواضع خاطر في وضع النفس واحتقارها والتكبر خاطر في رفع النفس واستعظامها والتواضع عامي وخاصي فالعامي اكتفاء بالدون من نحو ملبس ومسكن ومركب والتكبر في مقابلة الترفع عن ذلك والتواضع الخاصي تمرين النفس على قبول الحق من وضيع أو شريف والمتكبر في مقابلة المترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة

(تخ والبغوي) في معجم الصحابة (والباوردي وابن قانع) في معجمه (طب هق) من حديث نصيح العنسي (عن ركب) بفتح فسكون بضبط المصنف (المصري) رمز المصنف لحسنه اغترارا بقول ابن عبد البر حسن وليس بحسن فقد قال الذهبي في المهذب: ركب يجهل ولم يصح له صحبة ونصيح ضعيف اه وقال المنذري: رواته إلى نصيح ثقات وقال ابن منده والبغوي: ركب مجهول لا يعرف له صحبة وأقرهم العراقي رواه البزار عن أنس بسند ضعيف وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني: نصيح العنسي عن ركب لم أعرفه

---

(١) تنبيه

وبقية رجاله ثقات اه. وقال في الإصابة: حديث سنده ضعيف قال: ومراد ابن عبد البر بأنه حسن لفظه وقال السخاوي: ضعيف حتى قال ابن حبان: إنه لا يعتمد عليه -[٢٧٩]- وإن قال ابن عبد البر حسن فإنما عنى اللغوي." (١)

"٥٧١٧ - (العلم علمان فعلم) ثابت (في القلب) وهو ما أورث الخشية وأبعد عن الكبائر الظاهرة والباطنة (فذلك) هو العلم (النافع) لصاحبه (وعلم على اللسان) ولا قرار له لأنه شرارة من شرار الإيمان (فذلك حجة الله على ابن آدم) قال الطيبي: الفاء في فعلم تفصيلية وفي فذلك سببية من باب قوله خولان فأنكح أي هؤلاء الذين اشتهرت نساؤهم بالرغبة فيهما فأنكح منهم فكذلك قوله علم في القلب دل على كونه مرغوبا فيه فرتب عليه ما بعده وفي عكسه قوله فذلك حجة الله فإن صاحب العلم اللساني الذي لم يتأثر منه فإنه محجوج عليه ويقال له ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ويمكن حمل الحديث على علمي الظاهر والباطن قال أبو طالب: علم الباطن وعلم الظاهر أصلان لا يستغني أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل منهما بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما من صاحبه وقيل علم الباطن يخرج من القلب وعلم الظاهر يخرج من اللسان فلا يجاوز الآذان وهذا لا ينصرف إليه اسم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء إذ هم العلماء العاملون الأبرار المتقون الذين آل إليهم العلم الموروث بالصفة التي كان عليها عند المورث لا من علمه حجة عليه وقد منعه سوء ما لديه من خبث نيته وسوء طويته واتباع شهوته أن يلج نور العلم قلبه ويخالط لبه ﴿فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ قال بعضهم: وهذه صفة علماء زماننا تجدهم يجتهدون في تحسين الهيئة والثياب الفاخرة والمراكب السنية فإذا نظر إلى باطن أحدهم وجد خوف الرزق على قلبه كالخيال يكاد يموت من همه وخوف الخلق وخوف سقوط المنزلة من قلوبهم والفرح بمدحهم والثناء عليه وحب الرئاسة وطلب العلو والتبصبص للظلمة والأغنياء واحتقار الفقراء **والأنفة** من الفقر والاستكبار في موضع الحق والحقد على أخيه المسلم والعداوة والبغضاء وترك الحق مخافة الذل والقول بالهوى **والحمية** والرغبة في الدنيا والحرص عليها والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والرياء والسمعة والاشتغال بعيوب الخلق والمداهنة والإعجاب بالنفس والتزيين للمخلوق والصلف والتجبر وعزة النفس والقسوة والفظاظة والغلظة وسوء الخلق وضيق الصدر والفرح بالدنيا والحزن على فوتها وترك القنع والمراء والجفاء والطيش والعجلة والحدة وقلة الرحمة والاتكال على الطاعة وأمن سلب ما أعطى وفضول الكلام والشهوة -[٣٩١]- الخفية وطلب العز والجاه واتخاذ الإخوان في العلانية على عداوة في

---

(١) فيض القدير المناوي ٢٧٧/٤

السر والغضب إذا رد عليه قوله والتماس المغالبة لغير الله والانتصار للنفس والأنس بالخلق والوحشة من الحق والغيبة والحسد والنميمة والجور والعدوان فهذه كلها مزابل قد انضمت عليها طوية صدورهم وظاهرهم صوم وصلاة وزهد وأنواع أعمال البر فإذا انكشف الغطاء بين يدي الله عن هذه الأمور كان كمزبلة فيها أنواع الأقذار غشيت بالذبائح فأنتنت فهذا عالم مرائي مداهن يتصنع عند شهواته فلم يقدر أن يخلص عمله ونفسه مقيدة بنار الشهوة وقلبه مشحون بهوى نفسه وهذه كلها عيوب والعبد إذا كثرت عيوبه انحطت قيمته (ش والحكيم) الترمذي وابن عبد البر (عن الحسن) البصري (مرسلا) قال المنذري: إسناده صحيح وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح (خط عنه) أي الحسن (عن جابر) مرفوعا قال المنذري: إسناده صحيح قال الحافظ العراقي: وسند جيد وإعلال ابن الجوزي له وهم وقال السمهودي: إسناده حسن ورواه أبو نعيم والديلمي عن أنس مرفوعا." (١)

"٥٧٨٣ - (غيرتان) تثنية غيرة وهي **الحمية والأنفة** (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله ومخيلتان) تثنية مخيلة (إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله الغيرة في الريبة) أي عند قيام الريبة (يحبها الله والغيرة في غير الريبة) بل بمجرد سوء الظن (يبغضها الله) وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه ومن الغيرة الفاسدة ما وقع لبعض الصوفية أنه قيل له: أتحب أن تراه قال: لا قيل: ولم قال: أنزه ذاك الجمال عن نظر مثلي وهذه شطحة مذمومة لا تعد من مناقب هذا القائل وإن جل فإن رؤيته تعالى أعلى نعيم الجنة وقد سألها من هو أعلى منزلة منه ومن غيره وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم (والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله) لأن الإنسان يهزه رائحة السخاء -[٤٠٨]- فيعطيها طيبة بها نفسه ولا يستكثر كثيرا ولا يعطي منها شيئا إلا وهو مستقل له (والمخيلة في الكبر يبغضها الله عز وجل) قال ابن حجر: وهذا الحديث ضابط الغيرة التي يلام صاحبها والتي لا يلام فيها قال: وهذا التفصيل يتمحض في حق الرجل لضرورة امتناع اجتماع زوجين لامرأة لطريق الحل وأما المرأة فحيث غارت من زوجها في ارتكاب محرم كزنا أو نقص حق وجور عليها لضرة وتحققت ذلك أو ظهرت القرائن فهي غيرة مشروعة فلو وقع ذلك بمجرد توهم عن غير ريبة فهي الغيرة في غير ريبة وأما لو كان الزوج عادلا ووفى لكل من زوجتيه حقها فالغيرة منها إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من النساء فتعذر فيها ما لم يتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل وعليه حمل ما جاء عن السلف الصالح من النساء في ذلك كعائشة وزينب وغيرهما

---

(١) فيض القدير المناوي ٤/٣٩٠

(حم طب ك) في الزكاة (عن عقبة بن عامر) قال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي وقال الهيثمي: رجال الطبراني رجال الصحيح غير عبد الله بن زيد الأزرق وهو ثقة." [1]

"٧٦٩٩ - (ليس مني) أي ليس بمتصل بي (إلا عالم) العلم الشرعي النافع (أو متعلم) لذلك وما سواهما فغير متصل بي

[2] قال الغزالي: آداب العلم تسعة عشر الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بوقار وإطراق رأس وترك التكبر إلا على الظلمة زجرا لهم وإيثار التواضع في المحافل وترك الهزل والدعاية والرفق بالمتعلم والتأني بالمتعجرف وإصلاح البليد بحسن الإرشاد وترك **الأنفة** من قول لا أدري وصرف الهمة للسائل وقبول الحجة والانقياد للحق عند الهفوة ومنع المتعلم من كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم غير وجه الله وصده عن الاشتغال بفرض الكفاية قبل العين وآداب المتعلم مع العالم أن يبدأ بالتحية ويقل بين يديه الكلام ولا يقول في معارضة قوله قال فلان خلافه ولا يشير عليه بخلاف رأيه ولا يسأل جليسه بمجلسه ولا يلتفت بل يقعد مطرقا ساكتا متأدبا كأنه في الصلاة لا يكثر عليه عند ملله وإذا قام قام له ولا يسأله في الطريق ولا يسيء الظن به في أفعال ظاهرها منكر عنده

(ابن النجار) في تاريخه (فر) كلاهما (عن ابن عمر) بن الخطاب وفيه مخارق بن ميسرة قال الذهبي في الضعفاء: لا يعرف." [3]

"٩٢٢٩ - (المقيم على الزنا) وفي رواية الطبراني على الخمر (كعابد وثن) في مطلق التعذيب بالنار ولا يلزم منه استواؤهما بل ذلك يخلد وذا يخرج ويدخل الجنة وقد يعفى عنه فلا يدخل النار فإطلاق النساوي زجر وتنفير كيف والزنا يجمع خلال الشر بأسرها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة والحياء **والأنفة** وعدم المراقبة وسواد الوجه وظلمته والكآبة والمقت وظلمة القلب وطمس النور والفقر اللازم وقلة الهيبة وفقد العفة وعكر الوحشة على الوجه إلى غيره ذلك مما هو كالمحسوس قال جدي رحمه الله تعالى: إن العارفين يشاهدون جنابة الزاني على وجهه ويشمون من بدنه نتنا وأنه إذا اغتسل أبصروا أثر الزنا على وجه الماء عيانا

(الخرائطي في) كتاب (مساوي الأخلاق وابن عساكر) في ترجمة سعيد بن عمارة من طريق الخرائطي (عن

---

(١) فيض القدير المناوي ٤٠٧/٤

(٢) تنبيه

(٣) فيض القدير المناوي ٣٩٠/٥

أنس) بن مالك وضعفه المنذري وذلك أن فيه إبراهيم بن الهيثم أورده الذهبي في الضعفاء وقال ابن عدي: أحاديث مستقيمة سوى حديث الفار عن سعيد بن عمارة قال الأزدي: متروك والحارث بن النعمان قال البخاري: منكر الحديث." (١)

"٩٣٢٤ - (النميمة والشتيمة) أي الشتم. قال الجوهري: الشتم السب والاسم الشتيمة (**والحمية**) **الأنفة** والغيرة والمراد أهل هذه الصفات الثلاث (في النار) نار جهنم أي يكونون فيها يوم القيامة إن لم يدركهم العفو (لا يجتمعن) أي هذه الصفات (في صدر مؤمن) أي في قلب إنسان كامل الإيمان والمراد إذا صدر كل منها لغير مصلحة شرعية أما لها فيجوز بل قد يجب والأمثلة لا تخفى على من له ممارسة للأحكام الشرعية

(طب عن ابن عمر) بن الخطاب قال الهيثمي: فيه عفير بن معدان أجمعوا على ضعفه وأورده في الميزان في ترجمة يزيد بن سنان وقال: ضعفوه." (٢)

"قال: ثم إنه سار نحو هولاكو، فلما مر بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال:

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت ... لحاظي إلى الدار التي رحلوا عنها

ولو كان عندي ألف عين وقمت في ... معالمها عمري لما شبعت منها وصنع في نعيها أشعارا يغني بها المسمعون، ثم رحل إلى صحراء يوش في جهة طريق أرمينية، فوجد هولاكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب، فأنزله، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨ (١) ، فقتلوه وخلعوا عظم كتفه، وجعلوه في أحد الأعلام على عادته في أكتاف الملوك، انتهى باختصار.

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (٢) ، وكان صعب الخلق، شديد **الأنفة**، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق، وفي ذلك يقول، وكتب به إليهم:

من لصب يرعى النجوم صبابه ... ضيع السير في الهموم شبابه

زدت بعدا فزدت فيه اقترابا ... بودادي كذاك حكم القرابه

منزلي الآن سمرقند وبالقل ... عة ربع وطئت طفلا ترابه

---

(١) فيض القدير المناوي ٦/٢٧٥

(٢) فيض القدير المناوي ٦/٣٠٠

شد ما أبعد الفراق انتزاحي ... هكذا الليث ليس يدري اغترابه

لا ولا أرتجي الإياب لأمر ... إن يكن يرتجي غريب إيابه

---

(١) في ق: سنة خمسمائة وثمانين، وسقط التاريخ من ج.

(٢) له ترجمة في المغرب ٢: ١٧٢.." [١]

"على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحوره ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله، ورب (١) محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان، وقد كتبت لأرباب هذا الشان، من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب، ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من الأنفة، فأملى في محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للأصبهاني، فأضربت أنا عما ألف، ولم أعرض لشيء مما صنف، ولا تعديت أهل عصري، مما شاهدته بعمري أو لحقه أهل دهري، إذ كل مردد ثقيل، وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماع:

يا دار مية بالعلياء فالسند

إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي وغيرهم ممن يطول، ما صورته: وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور، في تأليفه المشهور، المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. انتهى المقصود منه.

---

(١) الذخيرة: ويا رب.." [٢]

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٢/٣٧٠

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٢/٥٠١

"**والأنفة** وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف (١) الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب "كتاب الفلاحة " الذي شهدت له التجربة بفضله، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

وعد رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم، قال: وكان خطهم أولا مشرقيا، انتهى. قال ابن سعيد: أما أصول الخط المشرقي وما تجد له في القلب واللحظ من القبول فمسلم له، لكن خط الأندلس الذي رأيته في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، انتهى.

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكور في رسالة لابن حزم، وقال فيها: إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها، انتهى.

وعد ابن غالب من فضائلهم اختراعهم للموشحات التي قد (٢) استحسنها

---

(١) م: وأصناف.

(٢) قد: سقطت من ب.." [1]

"لأسرحن نواظري ... في ذلك الورد النضير

ولآكلنك بالمنى ... ولأشربنك بالضمير ٤١٣ - وقال ابن عبد ربه (١) :

اشرب على المنظر الأنيق ... وامزج بريق الحبيب ريقي

واحلل وشاح الكعاب رفقا ... خوفا على خصرها الرقيق

وقل لمن لام في التصابي ... خل قليلا عن الطريق وسيأتي إن شاء الله تعالى قريبا من بلاغة أهل الأندلس

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ١٥١/٣

في الجد والهزل ما فيه مقنع لمن اقتصر عليه.

٤١٤ - ومن حكاياتهم في عدم احتمال الضيم والذل والوصف **بالأنفة**: أنه لما ثار أيوب بن مطروح في المائة الخامسة في الفتنة على ملك غرناطة عبد الله بن بلقين بن حبوس وخاض بحار الفتنة حتى رماه موجها فيمن رمى على الساحل، وحصل فيما بث عليهم يوسف بن تاشفين من الحبائل، وكانت له همة وأنفة عظيمة، وخلع عن إمارته، وحصل في حبالته، أدخل رأسه تحته، فانتظر من حضر معه أن يتكلم أو يخرج رأسه، فلم يكن إلا قليل حتى وقع ميتا، رحمه الله تعالى.

٤١٥ - ولما ثار الميورقي بإفريقية على بني عبد المؤمن الثورة المشهورة، وخدمه جملة من أعيان أهل الأندلس، وكان من جملتهم مالك بن محمد بن سعيد العنسي (٢) ، كتب عنه من رسالة: وبعد، فإنا لا نحتاج لك إلى برهان على أمير لسانه الحسام، وأيده التأييد الرباني الذي لا يرام، قد نصب خيامه

---

(١) العقد ٦: ٢٨٥، ٤٢٧.

(٢) انظر ترجمة مالك في المغرب ٢: ١٧١.." [1]

"أما ترى نرجسا نضيرا ... يرنو إليه بمقلتيه

نشر حبيبي على رباه ... وصفرتي فوق وجنتيه وقال:

بمهلكة يستهلك الحمد عفوها ... ويترك شمل العزم وهو مبدد

ترى عاصف الأرواح فيها كأنها ... من الأين تمشي ظالع أو مقيد وقال فيه في المطمح: محرز الخصل، مبرز في كل معنى وفصل (١) ، متميز بالإحسان، منتم إلى فئة البيان، ذكي الخلد مع قوة العارضة، والمنة الناهضة، حضر مجلس بعض القضاة وكان مشتهرا لضبط منتهرا (٢) لمن انبسط فيه بعض البسط، حتى إن أهله لايتكلمون فيه إلارمزا، ولا يخاطبون إلا إيماء فلا تسمع لهم ركزا، فكلم فيه خصما له كلاما استطال به عليه لفضل بيانه، وطلاقة لسانه، ففارق عادة المجلس في رفض **الأنفة**، وخفض الحجة المؤتنفة، وهز عطفه وحسر عن ساعده، وأشار بيده، مادا بها لوجه خصمه، خارجا عن حد المجلس ورسمه، فهم الأعوان بتقويمه وتثقيفه، ووزعهم رهبة منه وخشية، حتى تناوله القاضي بنفسه، وقال له: مهلا عافاك الله اخفض صوتك، واقبض يدك، ولاتفارق مركزك، ولا تعد حقك، وأقصر عن إدلالك (٣) ، فقال له: مهلا يا قاضي، أمن المخدرات أنا فأخفض صوتي وأستر يدي، وأغطي معاصمي لديك أم من الأنبياء أنت فلا يجهر

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٥٦٨/٣

بالقول عندك وذلك لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله عليه الصلاة والسلام، لقول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي –

---

(١) المطمح: وفضل.

(٢) في الأصول والمطمح: مشهرا.

(٣) المطمح: انتمائك وإدلالك.." (١)

"إن عمت الأفق من نقع الوغى سحب ... فشيم بها بارقا من لمع إيماضي

وإن نوت حركات النصر أرضص عدا ... فليس لفتح إلا فعلي الماضي والله سبحانه أعلم.

[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاط]

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طركاط، وهو " القضاء – حفظ الله تعالى كمالك، وأنجح آمالك – إذا لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتج، كما أنه إذا حاطه العدل حادة لنجاة، وسبب في حصول رحمة الله تعالى المرتجاة، وسوق لنفاق بضاعة العبد المزجاة، وأجمل العدل ما تحلى به في نفسه الحكم، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم، حتى يكون عن البغي رادعا، وبالقسط صادعا، ولأنف الأنفة من الإذعان للحق جادعا، وأنت أجلك الله تعالى على سعة إطلاعك، وشدة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك، ممن لا ينبه على ما ينبغي، ولا يرد على طلبته من الإنصاف المبتغي، فلك في الطريقة القاضوية التبريز، وأنت إذا كان غيرك الشبه الذهب الإبريز، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز، وليتني كنت لمظهرك الحكمي حاضرا، ولإعلام القضاة بآرائك المرتضاة محاضرا، والوازع قد تمرس بالخصوم، وجعل المتصدي للإذن في محل المخصوم، وأنت حفظك الله تعالى قد قمت من غلط الحجاب بالمقام المعصوم، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المصوم، والباب قد سد، وداعي الشفاعة قد رد، والميقات للإذن قد حد، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد، حتى إذا قضي الواجب، وأذن في دخول الخصمين الحاجب، وكبح السابقين إلى الحد الذي." (٢)

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٤٧/٤

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ١٥٣/٦

"كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما أخذت بثأر عمك الفاكه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

مهلا يا خالد، دع عنك أصحابي، فو الله لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته، أي والغدوة: السير في أول النهار إلى الزوال.

والروحة: السير من الزوال إلى آخر النهار.

والمراد بأصحابه هنا السابقون إلى الإسلام ومنهم عبد الرحمن بن عوف، بل هو المراد كما تصرح به الرواية الآتية، فقد نزل صلى الله عليه وسلم الصحابة غير السابقين الذين يقع منهم الرد على الصحابة غير السابقين- لكون ذلك لا يليق بهم- منزلة غير الصحابة.

قال: ولما عاب عبد الرحمن على خالد الفعل المذكور أعان عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عن خالد وقال: يا خالد ذر أصحابي. وفي رواية: «لا تسب أصحابي لو كان لك ذهبا فأنفقته قيراطا قيراط ا في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن» انتهى.

أي ولا يخفى أنه يبعد أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إنما قتلهم لقولهم صبأنا ولم يقولوا أسلمنا، إلا أن يقال: يجوز أن يكون خالد فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا، ثم لا يخفى أنه جاء:

«لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» ونقل الإمام السبكي عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: فإنه كان يحضر مجلس وعظه أن قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي كان خطايا لمن يأتي بعده من أمته، لأنه صلى الله عليه وسلم كان له تجليات، فرأى في بعضها سائر أمته الآتين من بعده، فقال خطابا لهم: لا تسبوا أصحابي، وارتضي منه هذا التأويل اه. فالنهي والخط ا ب بلا تسبوا أصحابي لغير الصحابة تنزيلا للغائب الذي لم يوجد منزلة الموجود الحاضر. وفيه أن هذا لا يساعد عليه المقام.

وفي الحديث من التنويه برفعة الصحابة وعلو منزلتهم ما يقطع الأطماع عن مداناتهم، فإن كون ثواب إنفاق مثل جبل أحد ذهبا في وجه الخير لا يبلغ ثواب التصديق بنصف المد الذي إذا طحن وعجن لا يبلغ الرغيف المعتاد أمر عظيم.

أقول: ووقع لخالد رضي الله تعالى عنه نظير ذلك في زمن خلافة الصديق فإن العرب لما ارتدت بعد موته صلى الله عليه وسلم عين خالدا لقتال أهل الردة وكان من جملتهم مالك بن نويرة، فأسره خالد هو وأصحابه، وكان الزمن شديد البرد، فنادى منادي خالد: أن أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد ادفنوا أسراكم: أي اقتلوهم، فقتلوهم، وقتل مالك بن نويرة، فلما سمع خالد بذلك، قال: إذا أراد الله أمرا أمضاه، وتزوج." (١)

"٤ – عبد الله بن الزبير بن العوام أبو بكر الأسدي القرشي

كان عالما بالقرآن ومعانيه وكان كثير الصيام والصلاة وأشجع الناس وصاحب الأنفة وشديد البأس

قتل بمكة في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين [٢ أ]

٥ – عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي

روي عنه القرآن ومعانيه والقصص والأخبار أشياء كثيرة وكانت وفاته بمكة سنة ثمان وستين

٦ – أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو ابن مالك بن النجار أبو المنذر الأنصاري المدني

أخذ القرآن ومعانيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم." (٢)

"الإرادات " لم يكمله وكان رحمه الله تعالى حسن السمت ساكنا ساكتا عما لا يعنيه خاشعا، سريع الدمعة، لطيف الطباع، حسن المعاشرة وله مع ذلك شهامة، وكان طويل القامة، أبيض اللون، عليه عمامة كبيرة على عادة علماء ذلك العصر، ورأيته بعد موت والدي مرة، وأنا ابن ثماني سنوات داخل الجامع الأموي فتواجهت معه بين البئر، والحنفية فقال له بعض من معه: يا سيدي هذا ولد المرحوم شيخ الإسلام الشيخ بدر الدين الغزي فنظر إلي، وسألني عن اسمي فذكرت له، وسألني عما أقرأ فذكرت له فدعا لي، وترحم على والدي، وحدثني ولده الشيخ يحيى خطيب الجامع الأموي الآن نفع الله تعالى به أن والده كان له نخوة، وشهامة في أول أمره فدخل على شيخه الشيخ أبي الفتح السبستري، فقال له يا شيخ: أريد أن تذهب إلى السوق تشتري لي بهذه القطعة الفضية بطيختين، وتحملها بنفسك من السوق إلى خلوتي، وكان الشيخ أبو الفتح ساكنا بالخانقاه السميصاتية فذهب الشيخ محمد البهنسي، واشترى بطيختين كبيرتين، وأنف من حملهما، وأراد أن ينظر من يحملهما عنه فذكر كلام الشيخ، وخشي أن يكاشفه بما يفعله إذا حملهما لأحد، ولا يرضى بفعله فحملهما إلى منزل الشيخ أبي الفتح، وقد تصبب عرقا، وانكد لمحل نظر

---

(١) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون نور الدين الحلبي ٢٧٨/٣

(٢) طبقات المفسرين للأدنه وي أحمد بن محمد الأدنه وي ص/٥

الناس إليه فلما دخل على الشيخ قال له: عسى أن تصغر نفسك الآن قال: فمن حينئذ ذهبت عني **الأنفة**، والكبر وكان الشيخ البهنسي يجمع ما يتحصل له من الغلال في كل سنة، ويتربص به حتى يبيعه آخر السنة، ومثل ذلك لا يعد احتكارا إذ الاحتكار شراء الطعام الذي تمس إليه حاجة العامة في زمن الغلاء ليبيعه بأغلى، وكان بعض حساد الشيخ ربما طعنوا عليه ذلك حتى وشي به إلى قاضي القضاة ابن المفتي، في بعض السنين فبعث إلى حاصل الشيخ البهنسي من فتحه، وباع ما فيه، ثم ارتفع السعر بعد ذلك وفات الشيخ منه جملة من المال فانكف البهنسي عن التردد إلى القاضي بسبب ذلك، ووقع بينهما فاتفق أن القاضي حصل له حمى شديدة، ومرض أياما حتى أعياه المرض، فالتمس من الشيخ عمر الرائي، وكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم، في منامه كثيرا أن يسأل من النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآه في منامه أن يشفع إلى الله تعالى في شفائه، فرجع إليه الشيخ عمر الرائي وقال له: يا قاضي القضاة سألت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قل له يلتمس الدعاء من الشيخ محمد البهنسي يحصل له الشفاء، ولم يعلم الشيخ عمر ما كان بينهما فبعث القاضي من تلطف بالشيخ البهنسي، وأتى به إليه فلما اجتمعا تعانقا، وتباكيا، ودعا الشيخ البهنسي له بالشفاء فشفاه الله تعالى بعد ذلك قريبا، وبالجملة فقد كان – رحمه الله تعالى – من أفراد الدهر وأعاجيب العصر، توفي – رحمه الله تعالى – بعد الظهر يوم الأربعاء أو خامس جمادى الآخرة سنة ست، وقرأت بخط منلا أسد سنة سبع ثمانين وتسعمائة، ودفن بمقبرة باب الصغير بعد العصر عند قبر معاوية، ونصر المقدسي." (١)

"أدل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

لما انتهت النوبة إلى أبي الطيب المتنبي، قال يمدح بدر بن عمار، وقد خرج إلى أسد، فهاجه عن بقرة افترسها فوثب على كفل فرسه؛ وأعجله عن استلال سيفه، فضربه بسوطه، فزل عن كفل فرسه، ودار به الجيش، فقتل، وخرج إلى أسد آخر. فكر عليه، فهرب الأسد منه، بقصيدة أولها:

في الخد أن عزم الخليط رحيلا ... مطر تزيد به الخدود محولا

إلى أن قال:

---

(١) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة الغزي، نجم الدين ١٣/٣

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا؟

وقعت على الأردن منه بلية ... نضدت بها هام الرفاق تلولا

ورد إذا ورد البحيرة شاربا ... ورد الفرات زئيره والنيلا

متخضب بدم الفوارس لابس ... في غبله من لبدتيه غيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظنتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا

في وحدة الرهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا

يطأ الثرى مترفقا من تيهه ... فكأنه آس يجس عليلا

ويرد غفرته إلى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا

وتظنه مما يزمجر نفسه ... عنها لشدة غيظه مشغولا

قصرت مخافته الخطا فكأنما ... ركب الكمى جواده مشكولا

ألقى فريسته وبربر دونها ... وقربت قربا خاله تطفيلا

فتشابه الخلقان في إقدامه ... وتخالفا في بذلك المأكولا

أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متنا أزل وساعدا مفتولا

نيالة الطلبات لولا أنها ... تعطي مكان لجامها مانيلا

في سرج ظامئة الفصوص طمرة ... يأبى تفردها لها التمثيلا

تندى سوالفها إذا استحضرتها ... وتظن عقد عنانها محلولا

ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا

ويدق بالصدر الحجار كأنه ... يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا

وكأنه غرته عين فادني ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا

أنف الكريم من الدنيئة تارك في عينه العدد الكثير قليلا

والعار مضاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

سبق التقاءكه يوثبه هاجم ... لو لم تصادمه لجازك ميلا

خذلته قوته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا

قبضت منيته يديه وعنقه ... فكأنما صادفته مغلولا

سمع ابن عمته به وبحاله ... فنجا يهرول منك أمس مهولا

وأمر مما فر منه فراره ... وكقتله ألا يموت قتيلا

تلف الذي اتخذ الجراءة خلة ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

والذي يشهد به الحق، أن معاني أبي الطيب أكثر عددا، وأسد مقصدا، ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح. في تشبيهه بالأسد مرة، وتفضيله عليه أخرى، ولم يأت بشيء سوى ذلك؛ وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد: فوصف صورته، وهيئته، وو‌صف أحواله، في انفراده في خيلائه، وفي هيئة مشيه. واختياله مع شجاعته، وشبه الممدوح به في الشجاعة، وفضله عليه بالسخاء، ثم ذكر **الأنفة**، **والحمية** التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مخرج، وأبرزه في أحسن مخرج، وأبرزه في أحسن معنى، ولفطانة أبي الطيب لم يتعرض لما ذكر بشر في أبياته التي ذكرناها، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني، واستحوذ عليها، ولم يترك لغيره شيئا يقوله، ولم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر، لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا، ولما كان الأمر كذلك، عدل أبو الطيب عن سلوك تلك الطريقة، وسلك غيرها، فجاء فيما أورده مبرزا، فإن بشرا قال:

إذا لرأيت ليثا أم ليثا ... هزبرا أغلبا لاقى هزبرا." (١)

"الرجال: الذي لا خير فيه مشبه بالنكس من السهام وهو الذي ينكسر فوقه فيجعل أعلاه أسفله.

والوكل: الذي يكل أمره إلى غيره. والميعة: النشاط وأول جري الفرس وأول الشباب.

والآطال: الخواصر واحدها إطل وقد يخفف. وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعل ومنه إبل.

ولاحق الآطال أي: قد لصقت إطله بأختها من الضمر. وجمعت الإطل في موضع التثنية)

وذلك أسهل من الجمع في موضع الوحدة كقولهم: شابت مفارقة.

ولو قالت: لاحق الإطلين بسكون الطاء أعطت الوزن والمعنى حقهما. والنهد من الخيل: الجسيم المشرف.

وقولها: غير أن البأس نصب غير على الاستثناء المنقطع.

والبأس: الشدة في الحرب. والشيمة: الطبيعة. وصروف الدهر: أحداثه. انتهى كلام ابن الشجري.

وقد أرود ابن الناظم وابن عقيل البيت الأول في باب الاشتغال من شرح الألفية.

-

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي يوسف البديعي /

وقال الكندي فيما كتبه: الرواية برفع فارس كذا رواه أبو زكريا عن المعري وغيره وكذا قرأنا ه على الشيوخ عنه. انتهى.

ولا مانع من كون نصب فارس رواية غير المعري فقد رواه بالنصب شراح الحماسة.

والملحم: اسم مفعول من ألحمه إذا تركه طعمة لعوافي السباع. وغادروه: تركوه.

والزميل بضم الزاي وتشديد الميم المفتوحة. والنكس بكسر النون وسكون الكاف. والوكل وقولها: لو يشأ حكت الحال والمراد: لو يشاء لأنجاه فرس له ذو نشاط أي: لو اختار الفرار لأمكنه لكنه كان سجيته البأس **والأنفة** من العار." (١)

"وأما عبدة بن الطبيب فهو بسكون الباء. كذا في الصحاح. والعبدة محركة بمعنى القوة والسمن والبقاء وصلاءة الطيب **والأنفة**.

قال صاحب المؤتلف والمختلف: علقمة في الشعراء جماعة ليسوا ممن أعتمد

ذكره ولكن أذكر علقمة الفحل وعلقمة الخصي وهما من ربيعة الجوع فأما علقمة الفحل فهو علقمة بن عبدة ... إلى آخر نسبه المذكور. ثم قال: وقيل له علقمة الفحل من أجل رجل آخر يقال له علقمة الخصي.

وأما علقمة الخصي فهو علقمة بن سهل أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم ذكر أبو يقظان أنه كان يكنى أبا الوضاح. قال: وكان له إسلام وقدر. ومان سبب خصائه أنه أسر باليمن فهرب فظفر به فهرب ثانية فأخذ وخصي. وكان شاعرا وهو القائل:

(يقول رجال من صديق وصاحب ... أراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا)

(فلا يعدم البانون بيتا يكنهم ... ولا يعدم الميراث مني المواليا)

(وخفت عيون الباكيات وأقبلوا ... إلى مالهم قد بنت ءنه بماليا)

وقال غيره: إنما لقب بالفحل لأنه خلف على امرأة امرىء القيس لما حكمت له بأنه أشعر منه.

وذلك ما حكاه الأصمعي: أن امرأة القيس لما هرب من المنذر بن ماء السماء وجاور في طيء تزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب. ثم إن علقمة بن عبدة نزل عنده ضيفا وتذاكر الشعر فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك وقال علقمة: أنا أشعر منك واحتكما." (٢)

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٣٠٢/١١

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٢٨٣/٣

"ولم يقف ابن الحاجب في أماليه على المفصل على البيت الأول فظنه مرفوعا وقال: شم خبر وقوله: يأوي إلى مجلس إلخ فاعل يأوي ضمير مستتر. يقال: أوى إلى منزله يأوي من باب ضرب أويا على وزن فعول إذا أقام فيه.

والمجلس: موضع الجلوس وقد أطلق هنا على أهله تسمية للحال باسم المحل يقال: انفض المجلس بدليل الأوصاف الآتية ولهذا عاد الضمير إليه من مكارمهم بجمع العقلاء كما يطلق المقامة بالفتح على محل القيام وعلى الجماعة من الناس.

وباد: اسم فاعل من بدا يبدو بدوا إذا ظهر. والمكارم: جمع مكرمة بفتح الميم وضم الراء قال صاحب المصباح: المكرمة بضم الراء: اسم من الكرم وفعل الخير مكرمة أي: سبب للكرم أو التكريم. وباد صفة سببية لمجلس.

وقوله: لا مطمعي ظالم صفة ثانية لمجلس وأصله مطمعين حذفت نونه للإضافة.

وقوله: ولا ظلم بضمتين: جمع ظلوم صفة ثالثة لمجلس. يريد أن الناس قد عرفوا أنه من ظلمهم انتصفو ا منه فليس أحد يطمع في ظلمهم ولا هم يظلمون أحدا.

وقوله: شم صفة رابعة لمجلس وهو جمع أشم وصف من الشمم وهو ارتفاع في قصبة الأنف)

مع استواء أعلاه فإن كان فيها احديداب فهو القنى يقال: أقنى الأنف.

جعل الشمم كناية عن العزة والأنفة. يقال للعزيز شامخ الأنف وللذليل خاشع الأنف.

وقال ابن الحاجب: وصفهم بالارتفاع إما في النسب والكرم أو القدر أو العزة وهو." (١)

"وفيه نظر أيضا فإن ثلاثيه مسموع أيضا. قال صاحب الصحاح: الفقير فعيل

بمعنى فاعل يقال: فقر يفقر من باب تعب إذا قل ماله. قال ابن السراج: ولم يقولوا فقر أي: بالضم استغنوا عنه بافتقر. انتهى.

وتنوين ساعة للتنكير والتقليل كما فهم من كلام ابن السكيت. وقال ابن بري: قال أبو الفتح بن جني: قوله ساعة يريد ساعة الغضب فاستغنى عن الإضافة لدلالة اللفظ عليه. انتهى.

والمعنى أن العرض يصان عند ترك السفه في أقل من ساعة إذا ملك نفسه فكيف لا يصان إذا داوم عليه. والعرض أكثر احتياجا إلى الصون من الثياب النفيسة فإن عرض الرجل أحوج إلى الصيانة عن الدنس والرين من الثوب الموشى المزين. وعنى بالساعة ساعة الغضب والأنفة فإنه كثيرا ما أهلك الحلم وأتلفه. وفي المثل

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٨/١٥١

السائر: الغضب غول الحلم.

والريط واحده ريطة قال صاحب المصباح: الريطة بالفتح: كل ملاءة ليست لفقين أي: قطعتين والجمع رياط وريط أيضا. مثل تمرة وتمر. وقد يسمى كل ثوب رقيق ريطة. انتهى.

والمعنى الأخير هو المراد هنا. قال ابن السكيت: ومسهم: فيه وشي مثل أفواق السهام. وقال الجوهري: المسهم. البرد المخطط.

وقوله: أرى حرب أقوام إلخ قال صاحب المصباح: الدقيق:." (١)

"فإن الصبح لا يكون إلا بعد تبلج الأسحار.

أجيب بأقوال منها: أن الصبح هنا الحق الواضح من وصفه الذي هو كالصبح لأنها تندبه بخلاله الحسنة الواضحة. انتهى.

وقيس بن زهير: جاهلي وهو صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين: داحس والغبراء كما تقدم.

وكان فارسا شاعرا داهية يضرب به المثل فيقال: أدهى من قيس.

ولما طال الحرب ومل أشار على قومه بالرجوع إلى قومهم ومصالحتهم فقالوا: سر نسر معك.

فقال: لا ولله لا نظرت في وجهي ذبيانية قتلت أباها أو أخاها أو زوجها أو ولدها.

وتقدم ذكر الصلح في شرح معلقة زهير بن أبي سلمى.

ثم خرج على وجهه حتى لحق بالنمر بن قاسط وتزوج منهم وأقام عندهم مدة ثم رحل إلى عمان فأقام بها حتى مات.

وقيل: إنه خرج هو وصاحب له من بني أسد عليهما المسوح يسيحان في الأرض ويتقوتان مما تنبت إلى أن دفعا في ليلة باردة إلى أخبية لقوم وقد اشتد بهما الجوع فوجدا رائحة شواء فسعيا يريدانه فلما قاربا أدركت قيسا شهامة النفس

والأنفة فرجع وقال لصاحبه: دونك وما تريد فإن لي لبثا على هذه الأجارع أترقب داهية القرون الماضية. فمضى صاحبه ورجع من الغد فوجده قد لجأ إلى شجرة بأسفل واد فنال من ورقها شيئا ثم مات.." (٢)

"أخلف من صقر.

يقال: خلف فم الصائم بفتح الآم يخلف خلوفا وخلوفة بضمهما؛ وأخلف إذا تغير رائحته. ومنه: نومة

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٢٦٧/٨

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٣٧٢/٨

الضحى مخلفة للفم.

وفي الحديث أيضا: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. والصقر: الطائر المعروف وتقدم. ضربوا المثل بخبث رائحة فمه.

أخلف من عرقوب.

أخلف اسم تفضيل من الإخلاف في الوعد. لكن المعروف فيه الرباعي. يقال: أخلفني فلان ما وعدني وهو أن يثول شيئا ولا يفعله على الاستقبال. وقد يقال: أخلفه إذا وجد وعده خلفا. قال الأعشى:

أثوى وفصر ليلة ليزودا ... فمضت وأخلف من قتيلة موعدا

أي مضت الليلة.

نعم يجوز بناء اسم التفضيل من الرباعي على أفعل عند بعض المحققين كأعطى. وعرقوب رجل من العمالقة وعد أخاه تمرا فأخلفه وسيأتي. قال علقمة:

وقد وعتك موعدا لو وفت به ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا ال أباطيل

وقلت أنا من قصيدة:

فسيحتبيك بوعد غانية ... أو وعد عرقوب جنى التمر

خله درج الضب!

التخلية: الترك والدرج بفتحتين الطريق؛ والضب معروف.

والمثل يضرب في **الأنفة** من مصاحبة من يرغب عن صحبته.

والمعنى: خله يذهب حيث شاء وقيل معناه الذهاب، كأنه قيل: يذهب ذهاب." (١)

"ورجل صادق في حاله، غير كامل في تصرفه، يخشى العطب في الأخذ، ويؤثر جانب السلامة، فهذا سالم في نفسه، ولا ربح معه للناس من هذا الوجه.

ورجل كامل قد تضلع من العلم والحال، فهذا حقه الأخذ لحق الغير نصحا له وإعانة له على الخير، اللهم

---

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم الحسن اليوسي ٢/١٩٦

إلا أن يعرض ما يمنع كاطلاعه على اختلاف قصد المتصدق أو فساد في المال أو نحو ذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من أصحابه ما يأتون به من النفقة إعانة لهم على الخير، وتزكية لهم عن الأخلاق المذمومة، ونفعا للمسلمين بما أنفقوا وإلا فهو صلى الله عليه وسلم أغنى الخلق ظاهرا وباطنا، وقد عرض عليه أن تجعل له الجبال ذهبا يتفق منها فلم يرض، وقد لا يقبل لعوارض، وقد قال صلى الله عليه وسلم في آخر الأمر: " هممت ألا أقبل إلا من قرشي أو ثقفي أو دوسي " والكامل من المشايخ له مدخل في ذلك.

ومنهم من يطعم من الفتوح أو من الأمرين، فإن استقام أخذه وتصرفه فهو ينتفع بما مر في الأول، وإن كان لا يبلغ في أجر النفقة مبلغ من أنفق في كد يمينه، وعرق جبينه، وبمعاونة الناس على الخير، وإدخال السرور عليهم في الأخذ، وتربية أحوالهم المحمودة، وتزكيتهم من المذمومة، وبالسلامة من **الأنفة** والاشتهار بالنزاهة المتوقع في الأول، وبتيسر رزقه في خلال ذلك ليتفرغ للعباده، إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية، وينتفع الناس معه بما مر، والمنفقون بذلك مع حصول أجر ما أنفقوا، والتخلي والتحلي كما مر، وغير ذلك، ومن سوى هذين الشخصين من كل من يستظهر بالخرقة ويتجر باللقمة فلا عبرة له، وقد ينتقع المنفق كما مر إن سلم من أتباعه على زيغه والسقوط في مهاوي بدعته، وهذا كله في الإطعام والإنفاق جملة.

وأما أكل المريد لطعام شيخه والنزول في مثواه وافتراش فراشه وغير ذلك من الانتفاعات فقد يسلم في ذلك وقد يحصل له انتفاع زيادة على السلامة كحصول بركة ونور في قلبه أو رحمة من الله تعالى بذلك، وقد جاءت امرأة من لكتاوة إلى دار أشياخنا، وأظنه في حياة سيدي أحمد بن إبراهيم بقصد الزيارة فأكلت من طعام الزاوية ثم رجعت إلى بلدها وبقيت أياما فماتت فريئت بعد موتها فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقالت: رحمني بالطعام الذي أكلت من الزاوية.

وقد يتضرر المريد بذلك من جهات منها أن يتشوف إلى ذلك أو إلى المزية فيه فيفسد قصده، ويختل حاله، ومنها أن يستشعر شيخه منه أحيانا ثقلا في ذلك لما يقتضيه الطبع البشري، فينفر منه، وفي ذلك ضرره، وقد تذهب زيارته وخدمته في بطنه، وذلك هو الخسران المبين، ومن ذلك وقع ما ذكر في صدر هذه الترجمة للشيخ أحمد بن يوسف من ترك الإطعام كما قال، وقد يدخل عليه في ذلك من مزاحمة الإخوان والواردين الشغل والفتنة والشحناء والتدابر والتقاطع وغير ذلك.

وقد حدثونا عن شيخ شيوخنا سيدي عبد الله بن حسين الرقي – رضي الله عنه – أنه "كان " إذا ذهب مع الفقراء لزيارة شيخهم سيدي أحمد بن علي يأخذ معه زادا تحت إبطه فإذا وصلوا إلى زاوية الشيخ انفرد

عنهم ودخل المسجد واشتغل بحاله واقتات من زاده فلا جرم " أن "كان هو الذي أنجح وأفلح.

هذا ولا يخلو شيء من مصالح وآفات، والمعصوم من عصمة الله، والموفق من وفقه الله، والورع من ورعه الله، فلا يمكن الاعتراض على من أكل، ولا من ترك، ولا من أطعم، ولا من ترك، ولا من اشتهر، ولا من اختفى، اللهم إلا " على " من كان في تربيته على يده بوجهه، فمن عرف فليتبع، ومن جهل فليسلم، والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقية في محلها بشرطها.

وبلغني أن الفقيه الصالح سيدي الصغير ابن المنيار مر ذات مرة بسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي فأخرج إليه الطعام من الزاوية فلم يأكله فبلغ ذلك ابن أبي بكر فذكر ذلك وكأنه اعتل بما يقع من خدمة الناس في الحصاد والدرس، فقال له ابن أبي بكر: أيما أفضل أنت أم جدك؟ يعني سيدي علي بن إبراهيم، وقد جاءه بنو موسى بسبعمائة منجل ليحصدوا، فلما رأى عددهم قال لهم: بخلتمونا يا بني موسى، فقال له سيدي الصغير: جدي أعرف بحاله وأقدر على ما يفعل، وأنا أتصرف بمقتضى حالي أو نحو هذا " من " الكلام.

وقد يكون للولي حال مع الله تعالى فيسأل الناس ويأخذ من الله تعالى لا من الناس، ويتصرف بالله وفي الله، ولا يصح الاعتراض عليه لاستقامته.." (١)

"وأنه حصل منه ومن جماعته الفساد في البلاد وأرسلوا له السيد غالب بن زامل ليحضر فيظهر ممن الخلاف فامتنع من الحضور في بيت الشريف سعيد وقال إن كان القصد الاجتماع ففي المسجد وإن كان لكم دعوى فأوكل وكيلا يسمع ما تدعون به علي فأرسلوا له من جهة كتابة العسكر وما بعده فأجاب بأن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن لصاحب الربع أن يكتب عسكرا وأما قولكم إنه قد حصل من جماعتي أو عسكري مفسدة فأطلقوا مناديا ينادي معاشر الناس كافة هل أحد منكم يشتكي من أحمد ابن غالب أو من جماعته أو من عسكره شيئا أو أخذوا حق أحد ظلما أو ضربوا أحدا فإن وجدتم مشتكيا صح ما قاله الشريف سعيد وإلا فلا وجه له ولكم وأما قولكم إنا تركنا العرضة معه فخفنا أن يقع شيء فينسب إلينا أو إلى جماعتنا كل هذا وجميع الأشراف اجتمعوا على قلب واحد وخيولهم مسرجة ودروعهم على أظهرهم وملؤا أجيادا إلى العقد وتحركت **الأنفة** الهاشمية التي تأبى الضيم ولما سمعوا جواب السيد أحمد بن غالب علموا أنه لا وجه له عليه فسعوا في الصلح بينهما وكتب بينهما بذلك حجة وطلبوا من ابن غالب أن يأتي إلى الشريف سعيد فأتاه ليلة ثم أتاه الشريف سعيد ليلة أخرى وتم الصلح وحصل من الشريف سعيد في ذلك الموسم أنه أمر مناديا ينادي في البلاد بإخراج الأغراب من مكة من جميع الطوائف فحصل للناس

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب الحسن اليوسي ص/٧٣

مزيد تعب فتكلم العسكر معه في ذلك فرجع فلما رأى أحمد باشا حاكم جدة اختلال حاله تسطى على ربع الحب الجراية التي ترد إلى مكة وأراد الاستيلاء عليه فبلغ ذلك الأشراف فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين أراد النزول إلى جدة فحشكت عليه الأشراف بعد أن كلموه في ذلك فامتنع وتحزبوا جميعا وقالوا لا ينزل حتى يعطينا ما هو لنا ولا يبقى لنا عنده شيء وكان ذلك بعد أن قدم أهله وأثقاله إلى خارج مكة قاصدين جدة فصار حينئذ أحير من ضب واجتمعوا كلهم ببيت السيد محمد بن حمود وأرسلوا إليه السيد ثقبة فقال له إن نزلت قبل أن تصلح الأشراف يأخذوا جميع أسبابك التي تقدمتك وينهبوا حرمك ويقتلوك فأذعن حينئذ بوفائهم فقالوا لا نرضى بذلك حتى يكفل لنا فكفله كورد أحمد أغا وجميع رؤساء العسكر وكتب بذلك حجة وأنه إن حصل منه منع لبعض حقوقهم يكن عاصي الشرع والسلطان ثم خرج من مكة بعد العصر كالهارب وطلب منهم شريفا يوصله إلى جدة خوفا من العرب أن يطمعوا فيه ففعلوا ذلك وأرسلوا." (١)

"قدسها ومحضرها، بيت الله المعمور الذي اتخذه لنفسه، وجعله ناظما لحقائق أنسه، مدة مداد نقطة الأكوان، ومنبع ينابيع الحكم والعرفان، الممد من بحر مدد الوفاء على القائل من أهل المعارف والاصطفاء حيث خاطب......................

قدسها"، بضمتين وتسكن داله، أي: مواضع جمع حظيرة وهي في الأصل ما حظرته على الغنم وغيرها من الشجر للحفظ، والقدس، أصل معناه الطهر سمي به جبل المقدس لطهارته بالعبادة فيه، وقدس الله وحظيرة قدسه الجنة. قال التبريزي في شرح ديوان الحماسة: واسم الجبل يقال أنه غير منصرف، وأنشدوا الكثير كالمصرخي غدا فأصبح واقفا في قدس بين مجاثم الأوعال. "ومحضرها،" أي: محل حضورها.

"بيت الله المعمور" بما أورده عليه فوعاه مما لا يطيقه غيره، ولم ينزله على أحد قبله وسماه بيتا على التشبيه، وما يروى: القلب بيت الرب. لا أصل له كما في المقاصد، "الذي اتخذه لنفسه" مجاز عن إدخال علومه فيه، وأطلق النفس على الله؛ كقوله: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ ، وقوله: "أنت كما أثنيت على نفسك"، وقيل: إنما يراد للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ [المائدة: ١١٦] ، "وجعله ناظما" أي: جامعا "لحقائق أنسه"، جمع حقيقة وهي ما أقر في الاستعمال واشتقاقه على أصل وضعه في اللغة، قاله ابن جني وابن فارس، وزاد من قولنا حق الشيء إذا وجب، واشتقاقه من الشيء

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر المحبي ١/٤٤٩

المحقق وهو المحكم، وقال المرزوقي: هي في كلام العرب الأور التي يحق حمايتها، **والأنفة** من تركها عن الرؤساء، وقال الخليل: هي ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه. كما قيل:

ألم ترى أني قد حميت حقيقتي ... وباشرت حد الموت والموت دونها

"مدة" بالنصب والرفع، أي: أصل؛ "مداد نقطة الأكوان؛" أي: مركزه الذي يدور عليه.

ومنبع؛" بفتح الميم والباء مخرج "ينابيع" جمع ينبوع؛ وهي في الأصل العين التي يخرج منها الماء فشبه بها. "الحكم؛" جمع حكمة، وهي تحقيق العلم وإتقان العمل، كما في الأنوار. وقال النووي: فيها أقوال كثيرة صفا لنا منها إنها العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده. والحكيم من جاز ذلك، انتهى ملخصا، قال الحافظ، وقد تطلق الحكمة على القرءان، وهو مشتمل على ذلك كله وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط وعلى المعرفة فقط، انتهى.

"والعرفان" أي: العلم مصدر عرف "الممد" اسم فاعل، "من بحر مدد الوفاء على القائل من أهل المعارف والاصطفاء" الاختيار، وعلل كونه من أهلهما بقوله "حيث خاطب" القائل." (١)

"فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امرأة.

ونزل عليه الصلاة والسلام بأحد ورجع عنه عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه من أهل النفاق

المصطلق وبنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة، الذين حالفوا قريشا بذنبة حبشي، جبل بأسفل مكة، فسموا به، ويقال: هو واد بمكة، ويقال: سموا بذلك، لتجمعهم على أنهم يد واحدة على غيرهم أبدا. "فيهم سبعمائة دارع" لابس الدرع، وهكذا ذكره ابن سعد. "ومائتا فرس" قاله ابن إسحاق، "وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امرأة" من أشرافهم. قال ابن إسحاق: خرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة، وأن لا يفروا، بفتح الحاء المهملة، وكسر الفاء، فتحتية ساكنة، ثم ظاء معجمة مفتوحة، ثم تاء تأنيث.

قال السهيلي: أي الغضب للحرم، وقال أبو ذر: **الأنفة** والغضب، وسمي ابن إسحاق منهن هند بنت عتبة، خرجت مع أبي سفيان، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام مع زوجها عكرمة بن أبي جهل، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام، وبرزة بنت مسعود الثقفية مع زوجها صفوان بن أمية، وريطة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص، وهي أم ابنة عبد الله، وسلافة بنت سعد الأنصارية مع زوجها

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ١٨/١

طلحة الحجبي، وخناس بنت مالك مع ابنها أبي عزيز بن عمير أخي مصعب شقيقه، وخرجت عميرة بنت علقمة، ولم يسم الباقين، ونقله عنه الفتح، ولم يزد عليه.

وكذا ذكر في النور الثمانية فقط، وقد أسلمن بعد ذلك وصحبن الأخناس، وعميرة بنت مالك، فلم أر لما ذكرا في الإصابة، وقد صرح في النور، بأنه لا يعلم لهما إسلاما، "ونزل عليه الصلاة والسلام بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أبي" بن سلول "في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه من أهل النفاق" وقال: كما عند ابن سعد عصاني، وأطاع الولدان ومن لا رأي له ولإبن إسحق قال: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا، فأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وكان خزرجيا كابن أبي، فقال: أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم بعدما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما أبوا، قال: أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه، واعتذاره لعبد الله، بما ذكر، وإن كان كاذبا فلا ينافي قوله أطاعهم وعصاني، كما توهم؛ لأنه خطاب لقومه الذين هم منافقون مثله. قال ابن عقبة: فلما انخزل ابن أبي بمن معه، سقط في أيدي طائفتين من المسلمين، وهما أن يقتتلا، وهما بنو حارثة من الخزرج، وبنو سلمة، بكسر اللام، من الأوس.

وفي الصحيح، عن جابر، نزلت هذه الآية فينا: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ [آل." (١)

"قال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام؛ لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولا، وأنكر صلى الله عليه وسلم العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: صبأنا.

الباقر، ثم دعا عليا، فقال: "يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك"، فخرج حتى جاءهم ومعه مال بعثه به النبي عليه الصلاة والسلام، فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال، حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي: فرغ فرغ هل بقي لكم دم أو مال لم يود لكم، قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم بقية هذا المال، احتياطا لرسول الله بما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إليه صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: "أصبت وأحسنت" ثم استقبل صلى الله عليه وسلم القبلة قائما شاهرا يديه، حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد". ثلاث مرات.

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٤٠١/٢

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أنه حدث عن إبراهيم بن جعفر المحمودي، قال: قال صلى الله عليه وسلم: "رأيت كأني لقمت لقمة من حيس، فالتذذت بطعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها، فأدخل علي يده فنزعه ". فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها، فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض، فتبعث عليا فيسهله.

"قال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم" بفتح القاف وكسرها لغة، كما في المصباح، أي عاب "عليهم العدول عن لفظ الإسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة** ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولا وأنكر عليه صلى الله عليه وسلم العجلة، وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: صبأنا" فظن أن مرادهم خرجنا إلى الدين الباطل، مع أن مرادهم من دين إلى دين.

قال المصنف: ولم ير عليه قودا؛ لأنه تأول أنه كان مأمورا بقتالهم إلى أن يسلموا انتهى، وقال ابن إسحاق: قال بعض من عذر خالدا: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرني عبد الله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام، قال الحافظ قول ابن عمر راوي الحديث: فلم يحسنوا ... إلخ، يدل على أنه فهم أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، ويؤيد فهمه أن قريشا كانوا يقولون لمن أسلم صبا، حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا يطلقونها في مقام الذم، ومن ثم لما أسلم ثمامة، وقدم معتمرا قالوا: أصبأت؟ قال: لا، بل أسلمت. فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت، استعملها هؤلاء، وأما خالد، فحمل اللفظة على ظاهرها." (١)

"وقد قال الله تعالى خطابا له: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ [الأنعام: ٣٣] . ويروى أن رجلا قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي صلى الله عليه وسلم في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب.

وروى أن المشركين كانوا إذا رأوه عليه السلام قالوا: إنه لنبي.

وعن علي: قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت

لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فحاشاه من لو صم، وطوقهم بالمعاندة، بتكذيب الآيات حقيقة الظلم،

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٤٩٤/٣

إذا الجحد إنما يكون ممن علم الشيء، ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ [النمل: ١٤] . انتهى.

"ويروN أن رجلا" هو الحارث بن عامر بن نوفل، كما عند النسائين عن ابن عباس.

وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن أناسا من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن نتبعك تتخطفنا الناس، فنزلت، ﴿وقالوا إن نتبع الهدى﴾ ، فلعل الحارث هو المبتدي، "قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط، فنتهمك اليوم، ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية"، ظاهره أن المراد؛ فإنهم لا يكذبونك، وقد علم من رواية النسائي وابن جرير، أنها: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ [القصص: ٥٧] ، "رواه أبو صالح" مشهور بكنيته، واسمه ميزان البصري، مقبول من أواسط التابعين، خرج له الترمذي "عن ابن عباس رضي الله عنهما".

"وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر" بن نوفل بن عبد مناف: ووقع في الأنوار تسمية أبيه عثمان، وهو خلاف الروايات؛ أنه عامر، "يكذب النبي صلى الله عليه وسلم في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد من أهل الكذب" ووقع في الأنوار؛ أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا﴾ [القصص: ٥٧] .

"وروي أن المشركين كانوا إذا رأوه عليه السلام، قالوا: إنه لنبي" ويتعللون **بالأنفة** عن اتباعه حتى لا يكونوا تابعين، ويأتي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

"و" روى الترمذي والحاكم "عن علي، قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به" وفي نسخة مصححة من الشفاء: ما جئت بدون الباء، "فأنزل الله تعالى"." (١)

"حاله ولسوء خلقه ورداءة عشرته (حم (١) عن سهل بن سعد) رمز المصنف لصحته، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح.

٩١٢٨ - "المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس. (قط) في الأفراد والضياء عن جابر".

(المؤمن يألف ويؤلف) كما سلف (وخير الناس) عند الله (أنفعهم للناس) لأنها تكثر أجوره ويكثر الألفون

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٣٦١/٨

به ويكثر الألفة بالناس فذكره كالتذييل لما قبله (قط في الأفراد والضياء (٢) عن جابر).

٩١٢٩ - "المؤمن يغار، والله أشد غيرا. (م) عن أبي هريرة (صح) ".
(المؤمن يغار) تقدم تفسير المغيرة بأنها **الحمية والأنفة** (والله أشد غيرا) ضبط بخط المصنف بكسر الغين المعجمة وفتح الياء جمع غيرة، وغيرة الله كراهته انتهاك حرمة فالغيرة من صفات الرب وصفات أهل الإيمان. (م (٣) عن أبي هريرة) ونسبه في الفردوس إلى البخاري من حديث أبي سلمة.

٩١٣٠ - "المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم. (د ت ك) عن أبي هريرة" (صح).
(المؤمن غر) بكسر المعجمة صفة مشبهة أن يغتر بكل أحد بحسن ظنه وسلامة صدره (كريم) شريف الأخلاق باذل لما عنده (والفاجر) الفاسق (خب) بفتح المعجمة الخداع أو الساعي بالإفساد بين الناس (لئيم) مظنة لكل

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٥)، وانظر المجمع (١٠/ ٢٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦١) والصحيحة (٤٢٦).
(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد والضياء (١٦٣٧)، والطبراني في الأوسط (٥٧٨٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٥): فيه علي بن بهرام عن عبد الملك بن أبي كريمة ولم أعرفهما، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٢)، والصحيحة (٤٢٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦١).." [١]

"قربه كبناء مسجد ونحوه وفي ما زاد على الحاجة. (ت (١) عن أنس) رمز المصنف لحسنه، وقال الترمذي: غريب، وقال الصدر المناوي (٢): فيه محمد بن حميد الرازي، وزافر بن سليمان، وشبيب ابن بشر، ومحمد، قال البخاري: فيه نظر وكذبه أبو زرعة، وزافر فيه ضعيف وشبيب فيه لين.

٩٣٠٤ - "النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف. (حم) والضياء عن بريدة".
(النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله) في الجهاد لإعلاء كلمة الله تضاعف بـ: (سبعمائة ضعف) ففيه

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٤٥١/١٠

حث على الإنفاق في الحج. (حم والضياء (٣) عن بريدة) قال الهيثمي بعد عزوه لأحمد: فيه أبو زهير لم أجد من ترجمه، وقال الذهبي في المهذب (٤): هذا حديث ضعيف وفيه أبو زهير الضبعي لا أعرفه.

٩٣٠٥ - "النميمة والشتيمة والحمية في النار لا يجتمعن في صدر مؤمن. (طب) عن ابن عمر (ض) ".
(النميمة) قد عرفت بأنها نقل الكلام إلى الغير على جهة الإفساد (وال شتيمة) الشتم، قال الجوهري (٥): الشتم: السب والاسم الشتيمة (والحمية) الغيرة والأنفة (في النار) أي أهلها والمتصفون بها (لا يجتمعن في صدر مؤمن) إذ من سمات المؤمن أن لا يتصف بالصفات القبيحة. (طب (٦) عن ابن عمر) رمز

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٩٤)، والضعيفة (١٠٦١).
(٢) انظر: كشف المناهج والتناقيح (رقم ٤١٦٢).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤)، والطبراني في الأوسط (٥٢٧٤)، وانظر المجمع (٣/ ٢٠٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٩٣)، والضعيفة (٣٥٣٠).
(٤) انظر: المهذب في اختصار السنن الكبير (٧٤١٧).
(٥) الصحاح: مادة شتم (١/ ١٣٩).
(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٥) (١٣٦١٥)، وانظر المجمع (٨/ ٩١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٩٥)، والضعيفة (٤٧٠٣).." [1]

"١٧٤٣ - "إن الله تعالى عفو يحب العفو (ك) عن ابن مسعود (عد) عن عبد الله بن جعفر (صح) ."

(إن الله تعالى عفو) فعول مثل غفور وصبور أي عن ذنوب عباده (يحب العفو) ويحب العافين عن الناس (ك عن ابن مسعود) رمز المصنف لصحته (عد عن عبد الله بن جعفر) (١).

١٧٤٤ - "إن الله تعالى عند لسان كل قائل، فليتق الشر عبد، ولينظر ما يقول (حل) عن ابن عمر الحكيم عن ابن عباس ".
(إن الله تعالى عند لسان كل قائل) يطلع على ما يقوله موكل ملائكة يكتبون ما يلفظ به (فليتق الله عبد

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٥٢٨/١٠

ولينظر ما يقول حل عن ابن عمر الحكيم عن ابن عباس) (٢).

١٧٤٥ - "إن الله تعالى غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور رستة في الإيمان عن عبد الرحمن بن رافع مرسلا ".

(إن الله غيور) فعول من المغيرة وهي **الحمية والأنفة** يقال رجل غيور وامرأة غيور بلا تاء لأن فعولا يستوي فيه الذكر والمؤنث ومنه حديث أم سلمة: "إني امرأة غيور" (٣)، وال‍سكوت عن التأويل في إطلاقه عليه تعالى أسلم من الخوض

= يكتب حديثه. وأورده ابن حبان في المجروحين (٢٩٦) في ترجمة خالد بن إلياس. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٩٩): في إسناده مقال. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٧١٢) وقال لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦١٦).

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٨٢) وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٠١). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٩).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي (كنز ٧٨٤٢)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦٠) عن ابن عمر وقال: غريب لم نكتبه متصلا مرفوعا إلا من حديث وهيب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦١٧) والسلسلة الضعيفة (١٩٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٠).." [١]

"١٧٦١ - "إن الله تعالى كتب الغيرة على النساء، والجهاد على الرجال، فمن صبر منهن إيمانا واحتسابا كان لها مثل أجر الشهيد (طب) عن ابن مسعود (صح) ".

(إن الله تعالى كتب الغيرة على النساء) من غار الرجل على امرأته وهي عليه غيرة بالفتح للغين المعجمة كما في القاموس (١)، وتقدم أنها **الأنفة والحمية** (والجهاد على الرجال) والجامع بينه وبين الغيرة حتى يعطف عليها لأنه متفرع عنها فإنه لولا **الأنفة والحمية** عن عبادة غير الله لما قامت نفوس أهل الإسلام للجهاد فكل من المجاهد والمرأة قد اشتمل على هذه الصفة فالمجاهد يذلها لله ببذل نفسه والمرأة بالصبر كما قال (فمن صبر منهن إيمانا واحتسابا كان لها مثل أجر الشهيد) فمجاهدة نفسها بدفع غيرتها على زوجها

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣/٣١٢

فإن المراد منهن ذوات الأزواج والضرائر ولا يكاد يتخلف منهن عنها امرأة وفي الصحيحين (٢) من حديث أنس: أن أم سلمة أرسلت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعاما في صحفة أو جفنة وهو في بيت عائشة فضربت عائشة يد الخادم فانقلبت فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلف الصحفة ثم جعل يجمع لها الطعام الذي في الصحفة ويقول: "غارت أمكم" مرتين ثم أخذ - صلى الله عليه وسلم - صحفة عائشة وبعث بها إلى أم سلمة وأعطى عائشة صحفة أم سلمة (طب عن ابن مسعود) (٣) رمز المصنف لصحته وقال الشارح: إسناده لا

= الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٤٨): فيه الفضل بن صدقة وهو متروك. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٩٨) والإرواء (١٠٧٢).

(١) القاموس المحيط (ص ٥٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٨٧) رقم (١٠٠٤٠) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠٩): فيه عبيد بن الصباح ضعفه أبو حاتم ووثقه البزار وبقية رجاله ثقات وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٣٢٥) أخرجه البزار وأشار إلى صحته. ورجاله ثقات لكن اختلف في عبيد بن الصباح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٢٦) والسلسلة الضعيفة (٨١٣).." [١]

"يسره الله من حل ألفاظه وإبانة المعاني، ونسأل الله أن ينفع به العباد ويجعله ذخيرة للنجاة في يوم المعاد.

١٩١١ - "إن الله تعالى يعطي الدنيا على نية الآخرة، وأبى أن يعطي الآخرة على نية الدنيا". ابن المبارك عن أنس".

(إن الله تعالى يعطي الدنيا على نية الآخرة) أي على نية العبد الآخرة أي لأعمالها، والمعنى أن من نوى بأعماله الآخرة أعطى الدنيا، ومن نوى بها للدنيا لم يعطها. (وأبى أن يعطي الآخرة على نية الدنيا) أي على نية العبد بأعمال الآخرة الدنيا وذلك كأن يتصدق على الفقير رجاء ثوابه تعالى وجزائه فإنه يعطيه الأجر في الآخرة ويخلف عليه في الدنيا بخلاف إذا أعطى الفقير على غير نية الآخرة فلا يعطى الأجر في الآخرة

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣٢٦/٣

وأما الإخلاف في الدنيا فمسكوت عنه هنا، وقد أفيد من غيره أنه يعطاه. ابن المبارك (١) عن أنس، ورواه عنه أيضا الديلمي بإسناد ضعيف.

١٩١٢ - "إن الله تعالى يغار للمسلم فليغر". (طس) عن ابن مسعود (صح) ".

(إن الله تعالى يغار للمسلم) أي لأجله وتقدم تفسير الغيرة أنها **الحمية والأنفة**: أي بين متعلقها لا أنه بين معناها في حقه تعالى، يجيء فيها القولان: التسليم والتفويض أو التأويل بالحمل على المجاز فيراد بها الكراهة لأنه منه لازم الغيرة، وقد فسرت غيرته تعالى في الحديث الآتي بأنها تعلق بإتيان المؤمن ما حرم عليه. (فليغر) فليكره ما حرم الله عليه ويتجنبه ويغار على نفسه أن يراه مولاه عاصيا له. (طس) (٢) عن ابن مسعود رمز المصنف لصحته وفيه عبد

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٤٩)، والديلمي في الفردوس (٥٤٦)، والقضاعي في الشهاب (١١٠٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٤٤)، والضعيفة (٣١٥٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠٦٨)، والقضاعي في الشهاب (١٠٩١)، وانظر المجمع (٤/ ٣٢٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٤٥)، والضعيفة (١٣١٣).." [١]

"غير ربية يبغضها الله، والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله، والمخيلة في الكبر يبغضها عز وجل". (حم طب ك) عن عقبة بن عامر (صح) ".

(غيرتان) بفتح المعجمة تثنية غيرة وهي **الحمية والأنفة** (إحداهما يحبها الله) أي يحب من اتصف بها لا أنه يحبها لذاتها. (والأخرى يبغضها الله تعالى) كذلك. (ومخيلتان) تثنية مخيلة وهي الخيلاء (أحدهما يحبها الله) ويثيب على فعلها ويحمد فاعلها. (والأخرى يبغضها الله) وهذا لف للأمور الأربعة والتركيب كله من التوسيع. (الغيرة في الريبة يحبها الله) قال ابن حجر: هذا الحديث ضابط الغيرة التي يلام صاحبها والتي لا يلام فيها قال وهذا التفضيل يتمحض في حق الرجال لضرورة اجتماع زوجين لمرأة بطريق الحل وأما المرأة فحيث غارت من زوجها في ارتكاب محرم كزنا أو نقص حق وجور عليها لضرة وتحققت ذلك أو ظهرت القرائن فيه فهي غيرة مشروعة فلو وقع بمجرد توهم من غير ريبة فهي الغيرة في غير الريبة وأما إذا كان الزوج مقسطا عدلا وافيا نحو كل من زوجتيه فالغيرة إن كانت لما في الطباع البشرية التي لا يسلم منها أحد من

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣/٤٠٤

النساء فتعذر فيها ما لم تتجاوز إلى ما حرم عليها من قول أو فعل وعليه يحمل ما جاء عن السلف الصالح (١) من ذلك كعائشة وزينب رضي الله عنهما وقد عرف معنى قوله: (والغيرة في غير ريبة يبغضها الله، والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله) لأن الإنسان يجد رائحة السخاء فيعطيها طيبة بها نفسه ولا يستكثر كثيرا ولا يعطي شيئا إلا وهو مستقل له. (والمخيلة في الكبر يبغضها عز وجل) لأنه يبغض الكبر كله. (حم طب ك (٢) عن عقبة بن عامر) رمز

---

(١) فتح الباري (٩/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٠) (٩٣٩)، والحاكم (١/ ٥٧٨)، وانظر قول الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٩٢٠)، وفي الضعيفة (٣٩٦٢).." [1]

"مسام البدن ويمنع ما تخلل منه والدهن في البلاد الحارة كالحجاز من أعظم أسباب حفظ الصحة وصلاح البدن وهو كالضروري لهم (ويسرح لحيته) بالمشط وقد زاد البيهقي لفظ "بالماء" وقد أخرج أبو داود حديث النهي عن التسريح كل يوم فالإكثار قد يصدق على الشيء الذي يفعل بحسب الحاجة قاله الزين العراقي، قلت: يسرح معطوف على يكثر فليس بمدلول للكثرة فلا يحتاج إلى توجيه الجمع بينه وبين حديث أبي داود إذ لا تعارض (هب) (١) عن سهل بن سعد) قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

٧١٢٤ - "كان يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته" (ن ك) عن ابن أبي أوفى (ك) عن أبي سعيد (صح) ".

(كان يكثر الذكر) لله تعالى بكل أنواعه (ويقل اللغو) القلة هنا بمعنى العدم أي لا يلغو أصلا إن أريد به باطل الكلام ويجوز أن يراد به الهزل والدعابة فالقلة على بابها (ويطيل الصلاة) قد وصف صلاته ابن القيم في "كتاب الصلاة" حتى كأنها مشاهدة وقد ألف فيها الناس إلا أنه أحسنهم جمعا (ويقصر الخطبة) فإن طول الصلاة وقصر الخطبة مئنة من فقه فاعل ذلك وهو - صلى الله عليه وسلم - أفقه الخلق (وكان لا يأنف) من **الأنفة** (ولا يستكبر) كالعطف التفسير ليأنف. (أن يمشي مع الأرملة) أخرج البخاري: "أن الأمة

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٧/٤٤٢

كانت تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت" (٢). (والمسكين والعبد حتى يقضي له) لمن مشى معه. (حاجته) أخرج مسلم والترمذي عن أنس أنها جاءت إليه - صلى الله عليه وسلم - امرأة فقالت: إن لي إليك حاجة

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٤٦٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٠٢)، والضعيفة (٢٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).." [1]

"[باب ذكر قول يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه]

" ٥٧ " باب ذكر قول يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه

١١٥ - عن أبي ذر - رضي الله عنه - مرفوعا «لا يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» رواه البخاري.

---

(١١٥) صحيح البخاري الأدب ١٠ / ٤٦٤ رقم ٦٠٤٥.

قال الحافظ في الفتح.

وهذا يقتضي أن من قال لآخر أنت فاسق، أو قال له أنت كافر، فإن كان ليس كما قال، كان هو المستحق للوصف المذكور، وأنه إذا كان كما قال لم يرجع عليه شيء. لكونه صدق فيما قال، لكن لا يلزم من كونه لا يصير بذلك فاسقا ولا كافرا إلا يكون آثما في صورة قوله له أنت فاسق بل في هذه الصورة تفصيل. إن قصد نصحه أو نصح غيره ببيان حاله جاز، وإن قصد تعييره وشهرته بذلك ومحض أذاه لم يجز، لأنه مأمور بالستر عليه وتعليمه وعظته بالحسنى، فمهما أمكنه ذلك بالرفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف، لأنه قد يكون سببا لإغرائه وإصراره على ذلك الفعل، كما في طبع كثير من الناس من **الأنفة**، لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في المنزلة.

قال النووي: اختلف في تأويل هذا الرجوع. وأرجح من الجميع أن من قال ذلك لمن عرف منه الإسلام ولم يقم له شبهة في زعمه أنه كافر فإنه يكفر بذلك، فمعنى الحديث فقد رجع عليه تكفيره فالراجح التكفير لا الكفر فكأنه كفر نفسه لكونه كفر من هو مثله، ومن لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام، ويؤيده

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٨/٦١٧

أن بعض طرقه وجب الكفر على أحدهما.

قال القرطبي حيث جاء الكفر في لسان الشرع فهو جحد المعلوم من دين الإسلام بالضرورة الشرعية، وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى جحد النعم وترك شكر المنعم والقيام بحقه.." (١)

"وقيل: نزلت في المنافقين ومن نحا نحوهم، وفيمن باع نفسه لله في الجهاد وتغيير المنكر من المسلمين. و (في الحياة الدنيا) يتعلق بالقول، و (ألد الخصام) شديده، وفي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» .

والخصام: مصدر، أو جمع خصيم.

يقول الحق جل جلاله: ومن الناس قوم حلو اللسان خراب الجنان، إذا تكلم في شأن الدنيا يعجبك قوله فيها لرونقه وفصاحته، ويشهد الله أي: يحلف على أنه موافق لقلبه، وأن ظاهره موافق لباطنه، وهو شديد الخصومة والعداوة للمسلمين، أو أشد الخصوم، وإذا تولى أي: أدبر وانصرف عنك، سعى في الأرض أي: مشى فيها بنية الإفساد ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل كما فعل الأخنس، أو كما فعله أهل الظلم، فيحبس الله القطر، فيهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيهم، والله لا يحب الفساد أي: لا يرتضيه، فاحذروا غضبه. وإذا قيل له اتق الله وارجع عما أنت عليه من الفساد أخذته العزة أي: حملته **الحمية والأنفة** بسبب الإثم الذي ارتكبه، فلا ينزجر عن غيه. أو حملته **الحمية** على الإثم الذي يؤمر باتقائه. فحسبه جهنم أي: كفته عذابا وعقابا، وهي علم لدار العقاب، كالنار، ولبئس المهاد هي، أي: بئس الفراش الذي مهده لنفسه.

ونزل في مقابله، وهو صهيب، أو كل من بذل نفسه لله: ومن الناس من يشري نفسه أي: يبيعها ويبذلها لله في الجهاد وغيره، ابتغاء مرضات الله والوصول إلى حضرته والله رؤف بالعباد الذين يفعلون مثل هذا، فيدرأ عنهم المضار، ويجلب لهم المسار أينما حلوا من الدارين.

الإشارة: الناس على قسمين: قسم زينوا ظواهرهم وخربوا بواطنهم، ظاهرهم جميل وباطنهم قبيح، إذا تكلموا في الدنيا أو في الحس، أعجبك قولهم، وراقك منظرهم، وإذا تكلموا في الآخرة، أو في المعنى، أخذتهم الحبسة والدهشة. وفي بعض الكتب المنزلة: «إن من عباد الله قوما ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين، يقول الله تعالى: أبي يغترون، وعلي يجترئون؟ حلفت لأسلطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران» .

---

(١) الكبائر لمحمد بن عبد الوهاب ت الجوابرة محمد بن عبد الوهاب ص/١١٣

وقوله (يلبسون ...) الخ. كناية عن إظهار اللين والسهول ليخدع ويغر الناس ليتوصل إلى حظ نفسه من الدنيا، ومع ذلك يدعي موافقة ظاهره لباطنه، وهو شديد الخصومة لأهل الله، وإذا تولى عنك اشتغل بالمعاصي والذنوب، ليفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيه، وإذا ذكر: أنف واستكبر، وأخذته حمية الجاهلية، فحسبه البعد في نار القطيعة.." (١)

"واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية، ومرقوسية، ومنهم نصارى نجران، فالنسطورية، قالوا في عيسى هو ابن الله، واليعقوبية، والملكانية، قالوا هو الله، والمرقوسية قالوا: هو ثالث ثلاثة، وكلهم ضالون.

الإشارة: الغلو كله مذموم، وخير الأمور أوساطها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله» ، ويرخص للفقير أن يتغالى في مدح شيخه، ما لم يخرجه عن طوره، أو ينتقص غيره بمدحه، وفي الإشارة حث على حفظ مقام التوحيد، وتنزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد. وفي ذلك يقول الشاعر:

أرب وعبد ونفى ضد ... قلت له: ليس ذاك عندي

فقال ما عندكم؟ فقلنا: ... وجود فقد وفقد وجد

فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية، ولذلك أنكرها الشاعر، أي: أثبت ربا وعبدا، وأنت تقول بنفي الضد عنه وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته» .

ولما قالت نصارى نجران للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك تعيب صاحبنا؟ فقال- عليه الصلاة والسلام- ومن صاحبكم؟ قالوا:

عيسى. قال: وأي شيء أقول؟ قالو: تقول إنه عبد الله. قال لهم- عليه الصلاة والسلام- «ليس بعار أن يكون عيسى عبدا لله» ، أنزل الله تعالى:

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٣]

لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا (١٧٢) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١٧٣)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٣٤/١

قلت: أصل الاستنكاف: التنحية، من قولهم: نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك كي لا يرى أثره عليك، ثم أطلق على الأنفة، والاستكبار دون الاستنكاف، ولذا عطف عليه لأن الاستنكاف لا يستعمل إلا حيث لا استحقاق، بخلاف الاستكبار فإنه يكون باستحقاق. قاله البيضاوي.." (١)

"وعلى كل حال، فالحذر الحذر بذكرهما بما فيه نقص فإن ذلك قد يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات" ولا ريب أن أذاه كفر يقتل فاعله إن لم يتب منه خصوصا وهما ناجيان من التعذيب في الدار الآخرة لأنهما من أهل الفطرة، وقد دلت القواطع على أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وذكر في "شرح الجوهرة": قال الجلال السيوطي في "مسالك الحنفاء في والدي المصطفى": نقلت من مجموع بخط الشيخ كمال الدين والد شيخنا تقي الدين ما نصه: سئل القاضي أبو بكر بن العربي عن: من قال: إن أبا النبي صلى الله عليه وسلم في النار؟ فأجاب: بأنه ملعون، لأن الله تعالى قال: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة) قال: ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه في النار. ولما توفيت آمنة قدمت أم أيمن بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى عند عبد المطلب بعد خمسة أيام فضمه إليه، ورق عليه رقة لم يرقها على أحد من ولده فكان إذا أتى بطعام أجلسه إلى جنبه وربما أقعده على فخذه وكان يقول: إن لابني هذا شأنا، ولما صار له صلى الله عليه وسلم من العمر سبع سنين أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن عنه، فأخذه عبد المطلب وسار إلى عكاظ، وكان دير قريب منها وفيه راهب يحسن معالجة الرمد، فدنا منه عبد المطلب، وكان الدير مغلقا فنادى الراهب فلم يجبه، فتزلزل الدير فخاف الراهب سقوطه فخرج مبادرا، فقال: يا عبد المطلب، إن هذا الغلام نبي هذه الأمة ولو لم أخرج لخر علي ديري، فارجع به واحفظه، ثم عالجه وعاد به عبد المطلب إلى مكة ومات عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين وشهرين، وعاش عبد المطلب خمسا وتسعين سنة، وقيل: مائة وأربعين. وذكر الدمياطي: أنه اثنتان وثمانون سنة، وعن أم أيمن: أنه كان صلى الله عليه وسلم يبكي خلف سرير عبد المطلب، وهو ابن ثمان سنين ودفن بالحجون عند قصي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك" ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى به صلى الله عليه وسلم إلى عمه شقيق أبيه أبي طالب واسمه عبد مناف فكفله، وقيل: الزبير رضي الله عنه وقيل: كفلاه معا، ومات الزبير ولرسول الله من العمر أربع عشرة سنة، وقيل: نيف وعشرون سنة، ومات أبو طالب

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٩٧/١

قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة وعمره سبع وثمانون سنة، وكان مصدقا بنبوته صلى الله عليه وسلم ومصدقا بالوحدانية، وإنما منعته الأنفة والحمية الجاهلية. ومن شفقته على النبي صلى الله عليه وسلم أنه فقده يومين فشق عليه ذلك، وظن أنهم اغتالوه، فالتمسه فلم يجده، فدعا أهله وأقاربه، وأعطى كل واحد سكينا وقال لهم: ليجلس كل واحد منكم إلى جنب رجل من قريش، وأنا أصعد هذا الجبل أدور على محمد فإن وجدته فلا يحدث أحد منكم شيئا، وإن نعيته لكم فليضرب كل منكم من بجانبه، ونثيرها حربا، ثم صعد فوجده فقال: يا ابن أخي ظننت أنك قتلت وكدت أفتك في قومك، فأعلمني إذا خرجت إلى أي مكان تريد، فقال له: يا عم ألا أريك معجزة، فإني أحب أن يسعدك الله مما بعثت به؟ ثم دعا صلى الله عليه وسلم شجرة هناك فجاءت إليه، فقال: يا عم خذ من غصونها، ثم قال لها: عودي، فعادت، فقال: يا ابن أخي لهذا يقول لك قومك إنك ساحر. ثم أخذ بيده، وأقبل به ينادي إلى نادي قريش، فظنوا أنه يريد أن يسلمهم إياه. ثم قال لهم: قد كنت أراكم قتلتموه، ورب هذا البيت لئن كنتم فعلتم لقتل كل واحد من هؤلاء جليسه، أخرجوا شفاركم فأخرجوها، فلما رأت قريش ذلك يئسوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شعر أبيات أبي طالب فيه قوله:

ألا بلغنا عني على ذات بيننا ... لويا وخصا، من لؤي بني كعب
بأنا وجدنا في الكتاب محمدا ... نبيا كموسى خط في أول الكتب." (١)

"لا أصلح الله منا من يصالحكم ... حتى يصالح ذيب المعز راعيها

فأخذت محمد علي العزة والأنفة فسار إلى بسل، الظاهر أنه كان حريصا على الصلح فاستعجل فيصل بمن معه فساروا إليه في بسل، وقد استعد لحربهم خوفا مما جرى منهم، فأقبلوا وهم في منازلهم فسارت عليهم العساكر والخيول فولو مدبرين، لكن الله أعز المسلمين فحبس عنهم تلك الدول والخيول، حتى وقفوا على التلول، فسلم أكثر المسلمين من شرهم، واستشهد منهم القليل، ولا بد في القتال من أن ينال المسلم وينال منه، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الآيات، وقال تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ إلى قوله: ﴿والله يحب الصابرين﴾ الآيات.
وقد قال هرقل لأبي سفيان فما الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، ينال منا، وننال منه. فهذه سنة الله في العباد زيادة للمؤمنين في الثواب، وتغليظا على الكافرين في العقاب.

---

(١) الروضة الفيحاء في أعلام النساء ياسين الخطيب ص/٣٣

وأما عبد الله فرجع بمن معه فلم يلق كيدا دون المدينة. فتفكر في حماية الله لهذه الطائفة مع كثرة من عاداهم وناواهم، ومع كثرة من أعان عليهم ممن ارتاب في هذا الدين وكرهه، وقبل الباطل وأحبه، فما أكثر هؤلاء لكن الله قهرهم بالإسلام، ففي هذا المقام عبرة، وهو أن الله أعزهم وحفظهم من شر من عاداهم، فلله الحمد والمنة.

وبعد ذلك رجع محمد علي إلى مصر، وبعث الشريف غالب إلى إسطنبول، وأمر ابنه طلسون أن ينزل الحناكية دون المدينة، وأمر العطاس بالصلح بينهم وبين عبد الله بن سعود ويركب له من مكة، وأراد الله أن أهل الرس يخافون، لأنهم صاروا في طرف العسكر، وصار عندهم ربيع من المغاربة، وصار في أولاد سعود نوع من العجلة في الأمور فأمروا على الرعايا بالمسير إلى الرس، فنزلوا الرويضة، فتحصن أهل الرس بمن عندهم، فأوجبت تلك العجلة أن استفزعوا أهل الحناكية، فلما جاء." (١)

"غلبت عليه **الأنفة**، فلم يفه ببنت شفة. ثم شمر ذيله وانقلب وقد تحطم كالمخشلب. فلما انصاع أخبط من عشواء، وأخيب من قابض على الماء. قال الشيخ: زعم هذا الحبنطى، أن يروعنا بالضبغطى. ولم يدر أن دون ما يأمله نهابر، وهو أفوت من أمس الدابر. فثار إليه ذلك الشيخ الموتور، وقد التألم صدع قلبه المبتور. وقال لا جرم أنك باقعة البواقع، وفلك النسر الواقع، وإني لأراك ضيق الحال على سعة النظر، فخذ هذه الجدوى واستعن بها على مؤونة السفر. قال: وهاك مني وصية تعقد عليها بنانك وتروض بها لسانك. إن العلم إن أكرمته أكرمك، والمال إن أكرمته أهانك. فدارت وصيته في تلك العراص، كما دارت كلمة الإخلاص. فلم." (٢)

"الخيزري. وقال زعمت يا شيخ مهو، أن البلاغة باللهو، وأن المخدرات ي البهو. فاخلع إذا ما عليك حتى نعليك. وإلا وقصت جيدك حتى الكاهل، ولو كنت من العباهل. ثم أخذ بحبل وريده وأصر على تجريده. فجعل الشيخ يدور كاللولب، ويرفس كالتولب، والفتى يتعلق بثيابه، ويحول دون انسيابه. فأخذت القوم **الأنفة**، وساءتهم تلك الهجنة المؤتنفة، والمعرة المكتنفة. وقالوا: نحن نفدي هذه الذعاليب، بقشب الجلابيب. فخل عنك العنف، ولا تبله بمطفئة الرضف. قال: علم الله ليس." (٣)

---

(١) مقامات عبد الرحمن بن حسن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص/٢٣

(٢) مجمع البحرين لليازجي = مقامات اليازجي اليازجي، ناصيف ص/٤٠٢

(٣) مجمع البحرين لليازجي = مقامات اليازجي اليازجي، ناصيف ص/٤١٣

"حدس الهارس بن هشام قال. كنت سمعت كثيرا عن النساء حتى كدت أمنى بالنساء فمن قائل أن المحصن أطيب من العزب. وأسلم عاقبة من المزاحمة على منهل دونه مذب. أو المكابدة للوب واللهب. أو التعرض للتجبية والعطب. وأنه كلما صدى قلبه من الكررب، جلاه بابتسامة من زوجه عن شنب وارتشافه من رضاب كالضرب. وسماع نامة تغني عن آلات الطرب ومدام ذات حبب. فإن مما خص الله تعالى به المرأة من المزايا، وفضلها به من السجايا أن صوتها الرخيم لا يمرد عليه نكد. ولا يبدو معه هم وكمد. فأول ما تحرك شفتيها. تسكن القلوب إليها. وعند مغازلة عينيها، تنهال المسرات على من هو بين يديها. فيحنبش ويمحش. ويحفش وينتعش. ويدركل ويدرقل. ويسجل ويدوقل. وييحشل ويدربل. وحين تمشي في بيتها متبدحة. تقول لها الأقدار فديناك من مغناج مرحة. إن شئت رفعنا زوجك إلى قرن الغزالة. لينعم بالك بأحسن حاله. وإن شئت بقاءه عندك الليلة. لم تعينا من ذاك حويلة. وإن شئت أن نزين له السفر عاما أو أكثر إلى طرح ذي أمن أو خطر. فأنت لدينا أكرم من نهى وأمر. فما عليك إلا نضنضة لسان. أو إشارة بنان. وحسبنا بطرفة عين من بيان. قال وأن الزوج متعه الله بإحصانه. وهنأه بنطرة بستانه. وجنى تفاحه ورمانه. وزاده من آلاته وإحسانه. يبعث بحضرة زوجه باللذات كما شاء. أن توخى مسا مس وأن أشتهى نشوة نشا. وأن شاء داعب ولاعب وأن أبى إلى الجد فالجد طوع له كما أحب. وأن له منها منزها "ولكن غير بعيد عن الماء" تغيب فيه الأتراح. وتطلع منه الأفراح. وبشائر النجاح. وسرا تزف به الدنيا إليه بمعرض بشر. ومهدي كشر. أن التوى عليه أمر قومته بمهارتها. وسددته بإشارتها. وإنها إذا تدعبت عليه وتقيأت. وتبعلت له وفيأت. زاده الله نضرة ونعيما. وزادك صبرا وجموما. خيل له أنه ملك الدنيا بحذافيرها. وفاز بجميع لذاتها وحبورها.. وأنه قد قام مقام العاهل الأعظم. خليفة باري الأمم. فلو رأى وقتئذ قاضي مارا على بلغته، حسبه من أتباعه وخدمته. ولو رأى كافها أو وافها، لأنف من أن يكلمهما مشافها. فبعث مكانه إلى جانب الأول وصيفا وإلى حضرة الثاني وصيفة وقال لهما أن لدي لكل فاتح قاهر ولاية شريفة ولكل سائل شاكر وظيفة. ولو إن امرأ أغلظ له وحاشاه في الكلام. وسفه فبادره بالتقريع والملام. أو رأى والعياذ بالله أن يمس له قذالا. ويسومه عليه قفئدا وإذلالا. فزع إلى زوجته أعزها الله فنفت عنه كل كرب. وأمنته من كل رعب. وردت عليه حجره من حجرها. وصدارته من صدرها. وقالت له لا تخش من كيده وغله. فإنما يدفع كل استحصاف بمثله. فرجع إلى ما كان عليه من الأنفة والفخار. والعز والذرار. حتى لو رأى قيلا أو ردفا، لهاء بنفسه عن أن ينظر إليهما نظر الأكفاء. فهو الراتع المنفق. المترف المتملق. الآكل وتلقاءه من درر الثنايا ومرجان الفم، ما يخيل إليه من الكامخ خير مطعم. والمسيخ أهنأ مغنم. وأن الأجاج

والزعاق. أشهى من مدام الاغتباق. ألا ولو أنه بات معها على فرش حشوه شظايا. وماس منها زغابة لكان له من أوطأ الحشايا. فكل ضر معها يستحيل إلى فنع ونفع. وكل شظف بقربها فهو قصوف ورتع: ومن قائل لا بل عيش العزب أهنأ. واللذات أجنى. فإن السيدات يحسبه في كل وقت ذا جموم. وعندهن أن نبة واحدة منه تنفي جميع الهموم. إذ ليس له من تلزه كل ليلة للعظال. وتؤرقه من الليل على مثل ذي الحال. ليتذكر دائما أنه محصن ذات قرطق وخلخال. فهو على هذا محبب عند البنات. محروص عليه من السيدات المتزوجات. مشار إليه بالبنان من الأرامل الهائجات. وأنه إذا رجع إلى منزله رجع ويده خفيفة. ورانفته نظيفة. فلا من تقول له هات. أو تلومه على ما فات. ولا من تستوحيه عن المستقبل وتستفتيه في المصالح المهبل. ولا من تزجره عند قيق غيرها له وجلجه إليها بحف. أو تنجفه قبل مفارقته أياها أي نجف. أو تقول له نزاف نزاف. وإلا فالإزهاف. ولا من يبكي بين يديه وهو عاجز هن كفالته كما يحق عليه. فتراه أبد الدهر مياحا مفراحا. متعرضا للنساء متياحا. شراحا سداحا. رفيقا بالمجح منهن مساحا. وقد قيل في الأمثال السائرة سير العجاج، في كل فجاج. من لم يكن ذا زوجة كان ذا أزواج. قيل فمن ثم كانت خطوات العزب أوسع. وحركته أسرع. وكلامه أنجع. وأناؤه أترع ونغمته أرخم.." (١)

"جنفياف ابنة دوق براينت من أعمال فرنسا

ولدت في فرنسا سنة ٦٨٠ ميلادية وكانت من أبدع نساء عصرها جمالا ورقة، وأكثرهن لطفا ورزانة، وأبدعهن حديثا ومعاشرة. أحبها "شغفريد" –كونت "بالتين" – وأحبته، فاقترنا سنة ٧٠٠ م. وقبل أن يمضي على قرانهما عام انتدب "شارل مارتل" زوجها لقيادة كتيبة من جيشه المعد لمهاجمة العرب في المغرب، فأجاب سؤلاه وغادر "جنفياف" إلى عناية "ألكافلير غولو" وكيل أملاكه الذي لمه خلا له الجو زين له الخناس مراودة سيدته ومطارحتها الوجد فألفى من عفافها سورا من حديد لا تخرقه هجمات الماكرين ولا تفعل به مجانيق المحتالين.

ولما قنط وأعيته الحيلة عمد لؤما وخبث طينة إلى اتهامها بالفحشاء زاعما أنها حملت بعد ترحال زوجها خيانة، ولما كان بعلها ساذج القلب نزيه الضمير دخلت عليه وشاية أمينه الخائن وحدثت به **الحمية والأنفة** إلى توقيع أمر بإتلافها مع وليدها الطفل على زعمه بيد أن "غولو" خدع من عهد إليهم قتلها فتركت مع طفلها في توغاب لرحمة الله تعالى فحنت على ولدها وأخذت ترضعه وتدأب على تربيته حتى ترعرع، ولما عاد زوجها من غزوته علم أنها برئة من الوصمة والعار فندم على فعلته ندم الفرزدق على طلاق نوار، فخرج

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٢٥١

ذات يوم متجولا في ذلك الغاب للقنص ترويحا لكربه وإفراجا عن قلبه، فلقي "جنفياف" عرضا فخيل له أن روحها مثلت لديه لتشد النكير عليه، ولم يبد له أنها حية حتى ناجته بما يعهد من رقتها، وأزاحت له الستر عما يعلم من مسألة قتلها ودخيلتها، فتجلت له الدنيا إذ ذاك بثوب بهج وغمر الفرح أهداب أماقيه، فأسبلت الدموع وضم محبوبته وابنها إلى صدره ضمة كادت تستفرشهما الفؤاد لو لم تحل دونه حنايا الضلوع، وذهب بهما إلى قصره الجميل القائم بين مرج أفيح وماء سلسبيل وقال لهما: كلا منها رغدا حيث شئتما لا جناح بعد اليوم عليكما، فبنت "جنفياف" حيث كانت في الغاب معبدا حمدا لله على حياتها وشكرا وهو لايزال حتي اليوم عبرة للمارين وذكرى.

قد شيد فيه أخيرا مذبح نقش عليه خلاصة ما كان وضريح دفن به بعد ذلك العروسان، وقد نظم بلغاء الإفرنج المهم من حوادث "جنفياف" المجيدة شعرا، وألف كتبتهم في أنبائها روايات تترى، عرب إحداها وطبعت ونشرت للعالم وهي على علاتها تثير الأشجان، وتهيج الأحزان، وتتلو على قارئها (كل من عليها فان) (الرحمن: ٢٦) .

جنفياف القديسة

سميت محامية لباريس ولدت في بلدة "تنشر" نحو سنة ٤٢٢ ميلادية، وتوفيت في باريس سنة ٥١٢م حس أشهر التقاليد كان أبواها "سفيروس" و"جيرونتيا" فقيرين جدا، وكان عملها وهي صغيرة أن ترعى المشاية على قمة جبل "فالريان" حقل يدعى باسمها، وكذلك نبع ومغارة عند حضيضه، ولما كان عمرها ١٥ سنة أقامها للخدمة الدينية القديس "جرمانوس الأوستري".

وقد نبأت سنة ٤٤٩م بمهاجمة الهونة تحت قيادة "أطيلا"، ولما تهدد ہذا القائد سنة ٤٥١م أن يهاجم باريس يقال: إن شجاعتها وبراعتها خلصت المدينة وكذلك في أثناء حصار الفرنكة لباريس تحت قيادة "كلوفيس" كانت تقوي الأهالي وتشجعهم، واتخذت طريق لإدخال المؤنة إلى المدينة، ولما أخذت باريس خلصتها شفاعة "جنفياف" من الاعمال القاسية، وكان "كلوفيس" يعتبرها وقد دفنت بالقرب منه في كنيسة القديسين "بطرس" و"بولس" التي بنياها، وقد سميت تلك الكنيسة مع الدير المجاور لها باسمها، وتابوتها الذي يقال إنه من عمل "سان ألدا" جعل مكانه في القرن الثالث عشر تابوت." [١]

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ص/١٣٠

"يتذاكران الأدب وملح الأشعار، ونوادر السير والأخبار حتى صارت أعجوبة زمانها ونادرة أوانها، فأعجب بها وتمكنت منه محبتها، ولم يكن عندها منه مقدار ما عنده منها، فما شكا ما يجد منها إلى بعض أصدقائه أرشده إلى تزوجها فخطبها إلى عمه، فأنعم على مائة من الإبل، فمضى إلى أبيه فأعطاه تسعا وتسعين، فأبى مسعود إلا التمام وعبد الله إلا ذلك، وحلف كل على ما قال، وأوقفوا الأمر، فحملت الصمة **الأنفة** على أنه خرج عنها إلى العرا فقالت ريا: ما رأيت رجلا أضاعه أبوه وعمه بعير إلا الصمة –لما عندهما من العلم بحبه لها· وفد رجل يقال له: علي غاوي، فخطب منه ريا وأمهرها ثلثمائة ناقة برعاتها فزوجه بها فحملها إلى مذحج، فبلغ ذلك الصمة فلزم الوساد وقال:

زمن ذكر دار بالرقاشين أعصفت ... به بارحات الصيف بدأ ورجعا

حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وسعيا كما معا

فما حسن أن يأتي الأمر طائعا ... ويجزع إن داعي الصبابة أسمعا

كأنك لم تسمع وداع مفارق ... ولم تر شعبي صاحبين تقطعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وحالت بنات الشوق تحتي نزعا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... رجعت من الرصغاء ألوي وأجزعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا

أما وجلال الله لو تذكرينني ... كذكراك ما كففت للعين مدمعا

فقالت بلى والله ذكري لو أنه ... تضمنه صم الصفا لتصدعا

وقد سمع امرأة تنادي ابنتها: يا ريا، فسقط مغشيا عليه، فاحملوه إلى بستان هناك وأضجعوه، فلما أفاق أنشد:

يعز بصبر لا وجداك لا ترى ... سنام الحمى إحدى الليالي الغوابر

كأن لساني من تذكري الحمى ... وأهل الحمى يهتف به ريش طائر

ولم يزل يرددها حتى قضي عليه، ولما وصل خبره داخلها من الوجد ما أمسكت معه عن الطعام والشراب وجعلت تبكيه حتى ماتت· ومن لطيف شعره فيها قوله:

ألا من لعين لا ترى قلل الحمى ... ولا جبل الآثال إلا استهلت

ألا قاتل الله الحمى من محلة ... وقاتل دنيانا بها كيف ولت

غنينا زمانا باللوى ثم أصبحت ... براق الهوى من أهلها قد تخلت

فما وجد أعرابية قذفت بها ... صروف اللوى من حيث لم تك ضنت

تمنت أحاليب الرغاء وخيمت ... بنجد ولم يقدر لها ما تمنت

إذا ذكرت نجدا وطيب ترابها ... وبرد الحصى من أرض نجد أرنت

ريطة بنت عاصم بن عامر صعصعة

وكانت شاعرة فصيحة، جميلة المنظر، لطيفة المخبر، عذبة المنطق. لها رثاء مقبول لا بأس فيه منه ما قالته في قومها وكانوا قد أصيبوا في يوم من أيام العرب.." [١]

"الفصل الثالث:

٧- المقاصير والدرابزين في المسجد:

قال الإمام ابن الحاج: فعل المقاصير والدرابزين من البدع المحدثة وقد ترتب بسبب ذلك جملة مفاسد:

أولها أن الموضوع وقف للصلاة وما فعل فيه لغيرها فهو غصب لمواضع صلاة المسلمين.

الثاني: أن فيه تقطيع الصفوف وذلك خلاف السنة، ثم قال.

السابع: ما في ذلك من مخالفة السنة.

الثامن: أن ذلك من باب زخرفة المساجد.

التاسع: إدخال الضرر على نحو أعمى بسببها. ا. هـ.

أقول بقي من المقاصير القديمة العهد مقصورة المسجد الأقصى جانب منبره وكان في الجامع الأموي بدمشق مقصورة كبرى حول منبره ومحرابه إلى ركني القبة أزيلت في حدود سنة "١٢٨٠" بأمر والي دمشق وقتئذ وكان إحداث هذه المقصورة بأمر معاوية ثم زاد فيها سنة "٤٣" لما وثب عليه البرك١ لقتله وفي سنة "٤٣" أيضا أحدث مروان في المسجد النبوي مقصورة وهو وال عليها.

ومثل ما ذكره يقال في السدد السفلى التي أنشئت في حوائط المساجد الشمالية والتخوت المؤبدة ففيها من المحذورات ما تقدم ويزاد عليها ارتفاع المأموم على الإمام وإعدادها لمن يريد الانفراد عن الصفوف **والأنفة** عن غمار بركة المصلين ومحبة الترفع إذ غالب الأعيان متى دخلوا المسجد لأمر ما لا يقصدون من

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ص/٢١٤

المسجد سواها مثوى ومتكأ

---

١ بموحدة ثم راء مهملة ثم كاف على وزن صرد قال الزبيدي في شرح القاموس والبرك بن عبد الله كصرد هو الذي ضرب معاوية ففلق إليته ليلة مقتل علي رضي الله تعالى عنه. هكذا ضبطه الحافظ. ا. هـ.." [١]

"ثم انتقل إلى رحمة الله سبحانه، وقبل وفاته بنحو عشر ساعات خرج من
البيت وكان يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة على أحسن حالة لملاقاة أحبابه، وطلب منهم الدعاء لحسن الختام عن حلول الحمام، ثم دار على بيوت أولاده كالمودع لهم، وكان ذلك بعد صلاة الظهر إلى بعد صلاة العصر في اليوم المذكور، وبعد أن صلى العصر ورجع إلى بيت ولده عبد الله بن حسين عرضت له مذاكرة معه في أن خديجة رضي الله عنها كان لها ولد في الجاهلية يسمى بعبد العزى أم لا، فأمر ولده المذكور بإحضار بعض الكتب التي كان يتخيل حل تلك المسألة منها فأحضرها، وأملى عليه ما شاء الله أن يملي منها، فقارب ذلك غروب الشمس، فنهض عبد الله للوضوء فتوضأ ورجع، وكان شيخنا متكئا على وسادة له وإذا برأسه قد خفق وعلى تلك الوسادة قد أطرق، فاستلقى على ظهره ممدودة يديه ورجليه مغمضة بلا تغميض عينيه وإن جبينه ليتفصد من العرق، فظنه عبد الله نائما فحركه وإذا بروحه قد فارقت جسده، وكانت تلك الليلة ليلة الأربعاء، وفي صبيحتها، لعله قبيل الضحى، خرجوا بنعشه وأودعوه في رمسه، وكان ذلك في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف، رحمه الله ونفعنا ببركاته.

مولانا حسين أحمد الفيض آبادي المشهور بالمدني

الشيخ العالم الصالح المحدث حسين أحمد بن حبيب الله الحنفي الفيض آبادي ولد في التاسع عشر من شوال سنة ست وتسعين ومائتين وألف بقرية بانكر مئو من أعمال أناؤ وتلقى مبادي العلوم في ثانده وسافر سنة تسع وثلاثمائة وألف وهو في الثالثة عشرة من عمره إلى المدرسة العربية بديوبند ومكث سبع سنين وقرأ فاتحة الفراغ وأخذ الحديث عن العلامة محمود حسن الديوبندي، وتفقه عليه ولازمه مدة طويلة، وقصد كنكوه وبايع الإمام العلامة المحدث رشيد أحمد الكنكوهي، وهاجر والده إلى المدينة المنورة مع عياله سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف فرافقه، ولقي بمكة الشيخ الأجل إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المباركة، وهو شيخ شيخه واستفاد منه واحتظ بصحبته، ودخل المدينة

---

(١) إصلاح المساجد من البدع والعوائد القاسمي ص/١٠٤

وأقام هناك على قدم صدق وإخلاص وتوكل وتقشف، وطلبه شيخه العلامة رشيد أحمد إلى كنكوه سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف، ومكث سنتين، وأجازه الشيخ، ثم رجع إلى الحجاز سنة عشرين وثلاثمائة وألف، وتصدر للتدريس في مدينة الرسول – صلى الله عليه وعلى صاحبها وسلم – محتسبا متطوعا، يدرس في الحديث والتفسير والفقه، يشتغل به من بعد العشاء إلى قيام الليل، ومكث إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف، يزور في خلالها الهند، ويحضر دروس شيخه العلامة محمود حسن، ويعود إلى المدينة المنورة، إلى أن سافر شيخه محمود حسن سنة ثلاث وثلاثين للحج والزيارة، ودخل المدينة سنة أربع وثلاثين، فلازمه الشيخ حسين أحمد، وقدم مكة المباركة معه، وكان ذلك في أثناء الحرب العالمية، وخروج الشريف حسين، وبغيه على الدولة المتبوعة العثمانية، ومعه المولوي حسين أحمد، والمولوي عزيز كل، والحكيم نصرة حسين الكوروي وغيرهم من أصحابه، وأسرهم ولاة الأمر في الحجاز، وأسلموهم إلى الحكومة الإنكليزية، فنقلتهم إلى مصر، ثم إلى مالطه، حيث وصلوا سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين، ولبثوا فيها ثلاث سنين وشهرين، ومات الحكيم نصرة حسين بمالطه وجد الشيخ حسين أحمد في خدمة أستاذه، وفي العبادة والمطالعة، وحفظ القرآن الكريم، وصدر الأمر باطلاق سراحهم لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف، وعادوا إلى الهند مكرمين، ومرض الشيخ محمود حسن مرضه الأخير، فكان بجانبه يخدمه ويسهر عليه وأمره الشيخ بالتوجه إلى كلكته ليشتغل أستاذا في المدرسة التي أسسها مولانا أبو المكارم، وقد سأله أن يرسل أحد خاصته، فآثر الشيخ حسين أحمد رضا شيخه على هوى نفسه، فلم يسافر بعيدا، إلا وفوجيء بنبأ وفاته، فعاد إلى ديوبند وقد دفن الشيخ، وتوجه إلى كلكته واشتغل مدة في هذه المدرسة، ثم انتقل إلى سلهث عاصمة ولاية آسام ومكث ست سنين يدرس الحديث الشريف، ويربي النفوس، وينفخ في الناس روح **الأنفة** والإباء وحب الحرية، وانتفع به خلائق لا تحصى. وحميت حركة التحرير والثورة السياسية في الهند،." (١)

"يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة، ولكنهم كأنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل، فيجملون فيه يقولون: إن الثلاثة في حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار وجثث أموات وقطع أحجار من حيث لا يشعرون.

كثيرا ما يضمر الإنسان في نفسه أمرا وهو لا يشعر به، وكثيرا ما تشتمل نفسه على عقيدة وهو لا يحس

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام عبد الحي الحسني ١٢١٤/٨

باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب قالوا: إنا لا نعبدهم وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر من مظاهر الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين إليه يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة **والأنفة** **والحمية**، وليعتق رقابهم من رق العبودية فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد." [1]

"فيأيها الوالد المجهول الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر: أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقي من شقائه وآلامه ما لا قبل لها، ولا لمخلوق من البشر باحتماله.

ويأيها الآباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى عنكم شأنهن وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من بين جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة **والأنفة**، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن وفجعكم في أعراضهن، وقفتم أمام تلك المشاهد هادئين مطمئنين، لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويأيها الناس جميعا: لا تحفلوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب، ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الأغنياء، وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر في صدره من رذائل الشرفاء، وفضائل اللقطاء.." [2]

"سعد باشا يبني الوحدة الوطنية وأنتم تهدمونها، سعد باشا يحارب خصومنا ويناوئهم وأنتم توالونهم وتظاهرونهم، سعد باشا يبكي دما يوم يستشهد شهيد منا في سبيل وطنه وأنتم تشمتون به وتفرحون وتقولون: هذا جزاء المخاطرة والمجازفة، سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية وأنتم ترضون عنها، بل تؤيدونها، بل تشتركون في وضع موادها، سعد باشا يريد أن تتطهر الإدارة المصرية من رذائل الكذب والنفاق والظلم والإرهاق وأنتم تغرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها وتمالئونها عليها وتغضبون وتصخبون كلما شعرتم أن يدا من الأيدي تحاول زحزحة الستار عنها، سعد باشا يصيح في جميع مواقفه

---

(١) النظرات المنفلوطي ١٨/٢

(٢) النظرات المنفلوطي ٤٦/٢

ومشاهده يجب أن يكون الشعب حرا مطلقا يختار لنفسه السياسة التي يريدها وأنتم تصيحون يجب أن يساق الشعب إلى السياسة التي تراد منه؛ لأنه شعب جاهل منحط لا يفهم مصلحته ولا يستطيع تقديرها، سعد باشا يصادق الأحرار من أعضاء مجلس النواب الإنجليزي ليستعين بهم على حكومتهم الاستعمارية وأنتم تصادقون أعضاء تلك الحكومة أنفسهم لتستعينوا بهم على استعباد أمتكم وإرهاقها، سعد باشا يربي الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ويبث فيها روح الهمة والعزيمة **والأنفة** والصدق." (١)

"وإهانتهم، وأن اللورد ملنر منظم الحماية الإنجليزية في مصر ومسجلها عليها رجل حر شريف متسامح تجب مواصلته ومفاوضته والحفاوة به، وأن وفود جماعة من أعضاء مجلس النواب الإنجليزي إلى مصر كما يفد إليها السياح الأوروبيون في كل يوم للاطلاع على الحالة السياسية العامة فيها تداخل في شئوننا الداخلية يجب الغضب له **والأنفة** منه، أما صدور أمر من السلطة العسكرية الإنجليزية بمنع رجل مصري صميم من الانتقال من بلد إلى بلد فهو سائغ مقبول لا رائحة فيه للتداخل مطلقا، ولا خطر منه على استقلال الإدارة المصرية وحريتها، وأن الواجب علينا أن نصبر ونتريث وأن لا نسيء الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر، وأن نسمح لهم بالزحف علينا، ثم باجتياز العقبات التي تعترضهم في طريقهم إلينا، ثم باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا، ثم بتوجيه فوهات مدافعهم إلى منازلنا وبيوتنا، فإذا شرعوا في إلقاء القنابل وقذفها علمنا أنهم يريدون السوء بنا فحاربناهم وقاومناهم، وأن سعدا باشا زعيم الأمة ورئيسها المفدى وموضوع حبها واحترامها وإجلالها وإعظامها ظمآن إلى الرئاسة يتلهف شوقا إليها ويتهالك وجدا عليها، أما عدلي باشا فهو رجل زاهد فيها قال لها ما يحتمل أن يشاك شوكة في سبيلها.." (٢)

"والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن أقام فلا يعلو إلى الرتب

٣٩٠ أوصى بعض الحكماء صديقا له وقد أراد سفرا فقال: إنك تدخل بلدا لا تعرفه ولا يعرفك أهله فتمسك بوصيتي تنفق بها فيه. عليك بنظافة البزة فإنها تنبئ عن النشء في النعمة. والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة. وليكن عقلك دون دينك وقولك دون فعلك ولباسك دون قدرك. والزم الحياء **والأنفة** فإنك إن استحيت من الفظاظة اجتنبت الخساسة. وإن أنفت عن الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة. قال أو الفتح البستي:

---

(١) النظرات المنفلوطي ٣/٢١٨

(٢) النظرات المنفلوطي ٣/٢٢٧

لئن تنقلت من دار إلى دار ... وصرت بعد ثواء رهن أسفار

فالحر حر عزيز النفس حيث ثوى ... والشمس في كل برج ذات أنوار

٣٩١ أوصت أعرابية ابنها في سفر فقالت: يا بني إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء. ولعلك لا تلقى غير الأعداء. فخالط الناس بجميل البشر. واتق الله في العلانية والسر. مثل بنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به. وما استقبحت من غيرك فاجتنبه. فإن المرء لا يرى عيب نفسه. (للقيرواني) ٣٩٢ قال بعض الحكماء: الغريب كالغرس الذي زايل أرضه." [١]

"فيها لنا تبر وفي حانها ... صحبة أبناء الكرام الجياد

كاللبن الخالص في حله ... ما خرجت عنه سوى بالسواد

قال آخر:

عرج على القهوة في حانها ... فاللطف قد حف بندماتها

فإنها لا غم تبقي إذا ... قابلك الساقي بفنجانها

لا يوجد الغم بحاناتها ... قد خضع الغم لسلطانها

بمائها نغسل أكدارنا ... ونحرق الهم بنيرانها

يقول من أبصر كانونها ... أف على الخمر وأدنانها

فاشرب ولا تسمع كلام الذي ... بجهله يفتي ببطلانها

(عمدة الصفوة في حل القهوة لعبد القادر الجزيري)

ذكر الأندلس وما خص به أهلها من العوائد والاختراعات

اعلم أن فضل الأندلس ظاهر. كما أن حسن بلادهم باهر. أشراف عرب المشرق افتتحوها. وسادات أشراف الشام والعراق نزلوها. فبقي النسل فيها بكل إقليم. على عرق كريم. فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر. وشاعر قاهر. وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية. وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية. قال صاحب الفرحة: أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة اللسان وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية.." [٢]

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٢/٢٥٠

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٤/٢٦٢

"الصدق أنفع من الترياق النافع. وقرين السوء أضر من السم الناقع.

(المقالة الحادية عشرة) الشهم الحذر. بعيد مطارح الفكر. قريب مسارح النظر. لا يرقد ولا يكرى. إلا وهو يقظان الذكرى. يستنبط العظة من اللمح الخفي. ويستجلب العبرة من الطرف القصي. فإذا نظرت إلى نبات نعش فاستجلب عبرتك. وإذا رأيت بني نعش فاستجلب عبرتك. واعلم أن من الجوائز. أن تروح غدا على الجنائز.

(المقالة السادسة عشرة) الكريم إذا ريم على الضيم نبا. والسري متى سيم الخسف أبى. والرزين المختبي بحمالة الحلم. ينفر نفرة الوحشي عن الظلم. إشفاقا على ظفره أن يقلم. وعلى ظهره أن يكلم. وقلما عرفت **الأنفة** والإباء. في غير من شرفت منه الآباء. ولا خير فيمن لم يطب له عرق. وذنب الكلب ما به طرق

(المقالة السابعة عشرة) الوجه ذو الوقاحة. من وجوه الرقاحة. يفيء على صاحبه الأنفال. ويفتح له الأقفال. ويلقطه الأرطاب. ويلقمه ما استطاب. ويجسره على قول المنطيق. وييسر له فعل ما لا يطيق. وكل ذي وجه حيي. ذو لسان عيي. معتقل لا ينشط لمقال. ولا ينشط من عقال. ولا يزال ضيق الذرع. بكيء الضرع. يشبع غيره وهو طيان. ويعطش هو وصاحبه ريان. ولكن لا كان من يتوقح. لأجل أن يترفه ويترفح. فلعمري ما النائل الوتح. إلا ما." (١)

"الخوف مفردا والشر مجردا ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم اشتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما إن تدخلهم **الحمية** من الشدة **والأنفة** من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف والاستبسال في القتال والاستسلام للموت. وإما أن ينقادوا بالكرة ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق. فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان. (وقال) في قول أبي الفضل أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان وأبين خبر. بأن قد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل. (قال المهدي) : ذلك رأي. (قال هارون) : خلطت الشدة أيها المهدي باللين. وانتظم أمر الدنيا بالدين. فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب. ولكن أرى غير ذلك. (قال المهدي) : لقد قلت فولا بديعا. وخالفت به أهل بيتك جميعا. والمرء مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت. (قال هارون) : أيها المهدي إن الحرب خدعة والأعاجم قوم مكرة. وربما اعتدلت الحال

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٦/٥

بهم واتفقت الأهواء منهم. فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون. وربما افترقت الحالان وخالف." (١)

"(قال المهدي) : إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم. (قال محمد بن الليث) : أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة. زروع **الحمية** فيهم نابتة. وملابس **الأنفة** عليهم ظاهرة. فالرؤية عنهم عازبة والعجلة عنهم حاضرة. تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم. لأنهم بين سفلة لا تعدو مبلغ عقولهم ومنظر عيونهم. (وبين) رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفطمون إلا بالمر. وإن ولى المهدي عليهم وضيعا لم تنقد له العظماء. وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحا يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم. فدخل بذلك من الفساد الكبير وارضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن وجد. ولا يستصلحه وإن جهد. إلا بعد دهر طويل وشر كبير. وليس المهدي وفقه الله فاطما عاداتهم. ولا قارعا صفاتهم. بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما. أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويد ممثلة لعينك. وصخرة لا تزعزع وبهيمة لا تثنى وبازل لا يفزعه صوت الجلجل. نقي العرض نزيه النفس جليل الخطر قد اتضعت الدنيا عن." (٢)

"الكتابية لعبد الرحمان الهمذاني. ومنها اختصاره أو شرحه لبعض تآليف والده كمختصر نار القرى ومختصر الجمانة وشرح ديوان المتنبي المسمى بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب وكذلك تصحيحه وتهذيبه لعبارة بعض كتب الأدباء كتاريخ بابل وأشور للمرحوم جميل مدور ونفح الأزهار في منتخبات الأشعار لجامعة المرحوم البتلوني ودليل الهائم في صناعة الناثر والنظم له. وكانت مطبعتنا وكانت إلى الشيخ إبراهيم وضع معجم للغة العربية فأشتغل فيها زمنا طويلا ثم أهمله فانتدبت حينئذ الشيخ اللغوي سعيد الشرتوني إلى وضع كتابه أقرب الموارد بدلا منه ثم عاد الشيخ إبراهيم إلى عمله مرارا وأتم منه قسما لكنه مات ولم يمثله للطبع. وكان الشيخ كما هو معروف قليل الصحة بطيء الشغل ومجلة الضياء تستنفد همته فلا تسمح له بمعاناة سواه.

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٩٤/٦

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٩٧/٦

ومن آثاره اللغوية عدة مقالات مطولة وانتقادات لسانية كالأمالي اللغوية ولغة الجرائد و أغلاط العرب المولدين واللغة والعصر ونقد لسان العرب وغير ذلك مما أصاب في بعضه وأخطأ في البعض الآخر فتصدى له كثيرون من المكتبة فقامت بينه وبينهم الجدالات الطويلة وكان الشيخ (كثير الأباء ظاهر **الأنفة** إلى حد الترفع) كما قال في ترجمته صاحب الهلال (١٥: ٢٦٧) فأذى به طبعه إلى كتابة فصول ما كنا لننتظرها من مثله أطلق فيها العنان لأهوائه وأنتهك في بعضها حقوق الدين وأربابه سامحه الله.

وللشيخ أيضا قصائد متفرقة ومنظومات رشيقة لم تجمع حتى اليوم. روى بعضها جناب الأديب عيسى أفندي إسكندر معلوف في ترجمة حياته التي نشرها في المقتطف. ومن اقدم ما وجدنا له من القصائد ما أنشده في الجمعية السورية في أوائل سنة ١٨٦٨ وهي منظومة حماسية ذكر فيها العرب فقال في أولها:

سلام أيها العرب الكرام ... وجاد ربوع قطركم الغمام

لقد ذكر الزمان لكم عهودا ... مضت قدما فلم يضع الغمام

ثم قال في وصف مجالس العلم:

مجالس العلوم غدت منارا ... به ليغلب الجهل انصرام." (١)

"الفصل الثاني: العرب.

هم جيل من الناس تدلت عليه الشمس منذ القدم في هذه الجزيرة، التي كأنها قطعة انخزلت من السماء مع الإنسان الأول، فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعا في الحرية الطبيعية، وأشدهم منافسة في مغالبة الهمم، كأنما ذلك فيهم ميراث الطبيعة الأولى، فهم منه ينبتون وعليه يموتون.

سكان الفيافي وتربية العراء، ينبسطون مع الشمس ويفيئون مع الظل ويطيرون في مهب الهواء، بل أولاد السماء، ما شئت من أنوف حمية، وقلوب أبية، وطباع سيالة، وأذهان حداد، ونفوس منكرة؛ وقد أصبحت بقاياهم الضاربة في بوادي العربية ومصر وسورية لهذا العهد، موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع، حتى أجمعوا على أنه لا ند لهذا الجنس في جميع السلائل البشرية، من حيث الصفات التي تتباين فيها أجناس البشر خلقا وخلقا، وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تسمو على سائر الأجيال، بالنظر إلى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمى وقوام القلب ونظام نبضاته. فضلا عما هي عليه من ملاحة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح، وفضلا عما في طباعها من الكلام **والأنفة** والأريحية وعزة النفس والشجاعة.

---

(١) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين لويس شيخو ١/١٦٦

لا جرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة التي ناسبتهم بأوضاعها في معاني التركيب، حتى كأنما كتب لها أن تكون دين الألسنة الفطري، لتصلح بعد ذلك أن تكون لسان دين الفطرة.." [١]

"يعدلون به عدلا، ويتبرمون بكل ضيق إلا ما كان من أجله، ويرضون المحنة في كل شيء إلا فيه، ثم هم لا يرون أنفسهم المؤمنة في إحساس الفطرة، ومذهب الطبيعة إلا أنها بقية سماوية في الأرض تباين كل ما فيها "أي: الأرض" ويشبه بعضها بعضا بالصفة والخاصة أني وجدت وكيف اتفقت وعلى أي حالة كانت، وهذا كله مشاهد فيهم على أتمه وأبلغه، بعد كل ما رهقهم بالعجز عن مداولة الأيام، وصدمهم من أهل الاستبداد بكل محنة من الآلام، وتوردهم من الزمان بكل سفه يعد في السياسة من الأحلام.

على أنهم لا يعرفون أصل ما يحسونه، ولا يتصلون إلى سببه، وكأنما تقطع ما بينهم وبين أسلافهم، وقد بقي القرآن على ذلك معروفا مجهولا، ينفعهم بما عرفوا منه ولا يضرونه بما يجهلون ﴿فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا﴾ .

وإن من أعجب ما يروعنا من أمر الجنسية العربية في القرآن: أنها تأبى إلا أن تحفظ على أهلها تلك الصفات العربية؛ من **الأنفة** والعزة والصوت١ والغلب: وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لا يزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض٢.

كما أنها تستبقي طاعة المغلوبين الذين أعطوا للفاتحين عن أيديهم، وانطرحوا في غمرهم، وكانوا أهل ذمتهم: لانتحالهم العربية طوعا أو كرها، ثم بقائها في ألسنتهم على نسبة بينة من الفصيح مهما ركت ومهما رذلت؛ ولولا القرآن وأنه على وجه واحد وهيئة ثابتة، ما بقيت العربية ولا تبينت النسبة بين فروعها العامية، بل لذهب كل فرع بما أحدث من الألفاظ، وما استجد من ضروب العبارة وأساليبها، حتى يتسلل كل قوم من هذه الجنسية إن كانوا من أهلها أو من أهل ذمتها، ثم لا تستحكم لهم بعد ذلك ناحية من الائتلاف ولا يستمر لهم سبب من الارتباط، ويوشك أن لا يستقبلوا بعد من قادة الأمم وحيتان الأرض إلا من يستدبرهم راعيا أو ملتهما، ثم لا يمكن لهم من دينهم، ثم لا يثبتون عليه إلا ريثما يتحولون في استحقاقهم بالأمة التي وثبت بهم وإن مضوا في ذلك على العزيمة والتشدد، فإنه لا عزيمة لقلب خذله اللسان، ولا تشدد للسان خذله القلب، ولا استقلال لشعب تخاذلت ألسنتهم وقلوبهم، وتلك سنة من السنن ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ ومن للأمم بمثل هذا الاستعمار اللغوي الذي لم يتهيأ إلا للقرآن، وهو بعد زمام السياسة مهما جمحت في الأرض.

---

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ١/ ٣٠

ولقد ترى اليوم هذه التوراة وهذه الأناجيل وما يقرؤها بلغتها الأصلية إلا شرذمة قليلة من اليهود وغير اليهود الذين يعيشون على أحلام الذاكرة، ولا نرين أن ذلك استبقاء فلولا أن الشذوذ لا يتخلف كأنه قاعدة مطردة ما قرأها منهم أحد، ثم استبدلت الألسنة واللغات بهذه الكتب، فهي شريعة ولا هي جنسية جامعة، وإنما نراها في كل أمة من الأمة نفسها، ولذا سهل على كثير منهم أن ينبذوها، وصار أكثرهم لا يتدارسونها ولا يقرءون فيها إلا إذا أرادوا الاستغراق في رؤيا تاريخية، والعارف عارف من

١ يراد بلفظ الصوت: الأمر والنهي على المجاز؛ لأن ذلك لا يكون إلا به.
٢ كناية عن الممالك كأنها حجرات في القصر الأرضي.." (١)

"ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا "ج٢: البيان والتبيين".

واستمر ذلك شأنهم حتى نشأ الذين تكسبوا بالشعر والتمسوا به الصلات والجوائز، وجعلوه للسماطين وأيام الحفل، كالنابغة وزهير والأعشى وغيرهم فلم يجدوا من السبب ما وجد الذين قبلهم؛ لأن الشاعر إذا مدح اليد وأشاد بالصنيعة لم يكن له بد من التكلف والاستكراه، إذ يعلم أنه لا يقبل منه عفو الكلام؛ ولأن ذلك المقام لا تجدي فيه غير المبالغة التي تكون من استعراض الصفات وتخير المعاني والتغلغل والإغراق وأشباهها، فكان من ذلك القيام على الشعر ومعاودة النظر فيه وتتبع الشاعر على نفسه حتى يخرج شعره مستويا في الجودة؛ لأن الطبع في مثل تلك المعاني يندفع ويتبلد، ويضعف ويتجلد، فإذا لم تجتذب الألفاظ ولم تجتلب المعاني جاء الشعر جديدا مرقعا أو لبيسا ممزقا، فلا يصلح أن تكون حلة الفخر التي لا تبلى على الدهر؛ وقد يكون من أسباب ذلك أيضا أن الشعر لما فشا فيهم بعد نبوغ امرئ القيس ومن في طبقته، وكان الشعراء يستعينون عليه بالروية استجماعا لمحاسنه خشي آخرهم أن يقصر عن أولهم إذا هو لم يجار سنة النمو والارتقاء، فكان يبيت المعاني يلتمس لها وجوه الصنعة، ويدع القصيدة تمكث عنده زمنا طويلا يردد فيه نظره ويقلب رأيه ويرصد أوقات نشاطه، فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره؛ وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذا وشاعرا

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ٦٠/٢

مفلقا "ج١: البيان".

وأول من ذهب لذلك منهم طفيل الغنوي؛ وكان يسمى محبرا لحسن شعره "العمدة" وكلا السببين قد اجتمعا في زهير؛ لأنه كان يروي شعر ثلاثة من الفحول منهم طفيل، وكان مذهب شعره المديح كما ستراه في الكلام عنه؛ ولذلك كان أول من اشتهر بالثبات المحكك١ من الشعر، وهو الذي كان يسمي كبار قصائده الحوليات؛ لأنه ينظم القصيدة منها في شهر ثم لا يزال ينقحها ويهذبها حتى يمر عليها الحول؛ غير أن مثل زهير من أهل السيادة والورع لا يمدح لرغبة ولا يكذب في مديح، فكان بديهيا أن يكون من بعض بواعثه على الرواية مغالبة **الأنفة** ومدافعة الطبع والتماس عذر النفس الأبية في صدق المديح، وهذا كله مما لا يغني فيه الارتجال شيئا.

وما ظهرت الصنعة والتجويد في الشعر حتى اتقته العرب اتقاء شديدا؛ لأنها رأت الشاعر في ترويته إنما يسم كلماته فلا يرمي بها إلا قاتلا، ولا جرم كان ذلك أيضا سببا من الأسباب في ضعف

---

١ قال الجاحظ في كتابه "البيان ج١" كنت أظن قولهم "محكك" كلمة مولدة، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكناني:

أبلغ فزارة أن الذئب آكلها ... وجائع سغب شر من الذيب

أزل أطلس ذو نفس محككة ... قد كان طار زمانا في اليعاسيب." (١)

"الغزل والنسيب:

ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الأخص كما جرى في عرف الناس، ولكن بينهما فرقا نبه عليه قدامة فقال: إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد يذهب [عن] قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله، فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه. قال: والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء..... وإذ قد بان أن الذي قلناه على ما قلنا فيجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة، فإذا

---

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ٣٣/٣

كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض.
لا جرم كانت هذه الأخلاق التي يحلو بها النسيب ويعذب الغزل غير صريحة في البداوة، ولا خالصة في تلك الخشونة الفطرية التي طبع عليها العرب في جاهليتهم، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التي انسلخت من الطبيعة العربية وتحولت عن صميمها بما فيها من المادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة؛ لأن أول من تعهر في شعره من العرب وشبب بالنساء، إنما هو امرؤ القيس بإجماع الرواة، وكان أبوه من ملوك كندة فظهرت في غزله الحضارة اليمنية وأفسدتها صعلكة الرجل؛ إذ كان على أنه ابن ملك لا يستتبع إلا صعاليك العرب وذؤبانهم، وقد شبب حتى بنساء أبيه. وكان هذا سبب نفيه، لا ما زعموه من أن الملوك كانت تأنف لأبنائها من الشعر، وقد نبه على ذلك الجاحظ "في الحيوان" وسنكشف قلب هذا الشاعر متى وصلنا إلى ترجمته. وكان قبل امرئ القيس خاله مهلهل، وهو زير نساء، ولكنه كان بعين أخيه كليب فارس العرب المشهور -وقد مر وصفه- فلم يك بالمفحش ولا بالبذيء، ولما كان مهلهل أول من أرق الشعر كان كذلك أول من غنى بالتشبيب من شعره "ص٦١: سرح العيون".
ولم يجئ بعد هذين الشاعرين من يتهالك في غزله غير النابغة الذبياني، وقد أفحش في بعض نسيبه إفحاشا كأنه رومي أو فارسي، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة، أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سنة قومهم من الغيرة والأنفة؛ ولذلك ظهر النسيب فيهم طبيعيا [فقامت] فيه الطلول والآثار، وتشوقوا بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة.
وهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزيدوا على الأوصاف الطبيعية التي تقع عليها الأعين؛ إذ كن غير مقصورات ولا محجوبات، وإنما تجيء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتبارا طبيعيا، كالذي تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر، وخضرة الرياض، وأريج الأزهار، ونحو ذلك؛ وأظن أن." (١)
"كذلك ساحل الخلد: يريد من الإنسان الذي هو إنسان أن يبلغ إليه مجاهدا لا مستريحا، عاملا لا وداعا يلهث تعبا لا ضحكا، ويشرق بأنفاسه لا بكأسه، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته.
إن روح النعيم الأرضي في ذراعي الغريق الذي يجاهد لينجو، وروح النعيم الأزلي الحي يجاهد ليفوز!.

الفقر والفقير

---
(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ٧٥/٣

قال "الشيخ علي": يا بني، إن في تاريخ الحياة سؤالا لم تزل تلقيه أطماع الناس في كل عصر من عصورها وما إن تصيب له جوابا مقنعا، لأن الطمع ليست له طبيعة محدودة، فهو يرمي بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جوابا غير محدود.

هذا السؤال واحد من ثلاثة هي حقائق الإنسانية الضالة عن الإنسان نفسه في غيب الله.

يقول الإنسان: ما هي الروح التي تعطي الحياة؟ وتقول آماله: ما هو الموت الذي يستلب هذه الحياة؟ وتقول أطماعه: وما هو الفقر الذي يجمع على الروح بين الموت والحياة؟ كذلك يتساءل: ما هو الفقر؟ على أنه غير الفقر ذلك السؤال الذي تجد في كل نفس إنسانية معنى من جوابه، ولا غير الفقر ذلك القبر المعنوي الذي لم يخلق الله نفسا من النفوس إلا ولها ميت من الأمل في ترابه، بلى، وإذا كان في لغات الأفواه لفظ خالد فإنما هو الفقر، وإذا كان في هواجس القلوب معنى خالد فإنما هو خوف الفقر، وإذا كان للدموع الإنسانية مصب واحد تلتقي إليه من جهات الأرض فإنما هو بين شاطئين إن جاز أن يكون أحدهما الحب فإن من المحق أن أحدهما الفقر! إن هذه الأرض لتصبح في كل يوم، ولا يمكن أن يقال بحق إن فيها عملا إنسانيا عاما غير طلب المال، فأحر بها أن تمسي في كل يوم، يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانيا عاما غير راجع إلى الفقر.

ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس، وهو قول فلكي أو سماوي يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله، أو على الأقل كما خلقها، أما الحقيقة الأرضية فإنها تدور حول قرصين: قرص اللهب، وقرص الذهب، ويا لله الفقير! إنه دائما في الجهة المظلمة.

الفقر متى ألقيته سؤال عاد إليك بجواب نفسه، لأنه فصل من كل عمل، كالشتاء فصل من كل سنة، وليس في الناس جميعا من يصدق إذا ادعى أنه لا يعرف الفقر، غير اثنين لا خير فيهما: غني جن من فرط الغنى، وفقير جن من فرط الفقر، فالأول لا يعرف هذا الفقر في جنونه لأنه جن بغيره، والثاني لا يعرفه لأنه جن به.

ولكن من هو الفقير؟ من هو الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يول وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رؤوسهم، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم، حتى كأن كل رأس في التواء عنقه من **الأنفة** والاستكبار يمثل علامة استفهام الحياة في وجه هذا المسكين أو يقيم علامة إنكار ... ؟! من هو هذا الحي الذي تنكرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغني، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن ينفق من

حياته أضعاف ما يكسب لحياته، وإذا لم يجد ما يطعمه الجوع فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير، وإذ سال في الشمس وجمد في البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأنه فقير ... ؟ ومن عسى أن يكون هذا القوي الذي يختصمه الاجتماع كله ويخشى أن يرتفع فيكون "قاضيا" عليه، ويأخذه اليوم بالجناية وهو الذي أوحاها بالأمس إليه؟ ومن هذا الذي يرى المجتمع أنه إذا قدر للشريعة أن تلحد في قبر فلن تدفن إلا في هاوية من مطامعه، وإذا حكم الله على عصر من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بجذعيها وحبالها إلا من ذراعيه وأصابعه ... ؟ من هو الذي يجف ريق الأرض لو جف عرقه من ترك العمل، ويخيب أمله مع ذلك في كل غني وهو نفسه للأغنياء أكبر أسباب الأمل، يدلون عليه بالغنى ولولا أن في فضتهم عنصرا من دمعه القيم لما وجدوا لها قيمة، ولو لم يكن في ذهبهم روح من دمه الكريم لما عد أفضل المعادن الكريمة؟ قال "الشيخ علي": ذلك يا بني هو المدرج في أكفان النسيان، الذي ليس له في الناس إلا "منكر ونكير"، ذلك هو البائس في بني الإنسان الذي يكثر عليه القليل ويقل منه الكثير، ذلك هو المتناقض في نفسه حتى لا يصغر أن يقال في صغير ولا يكبر أن يقال فيه كبير، ذلك هو الذي يشبه أن يكون عمله حركة فلكية في الأرض للآلة الغني- ذلك كله هو الفقير!." (١)

"وعجبت أن يستأثر الرجل وحده بهذه **الأنفة** ويلتمس لنفسه في هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره، كأن هذه المرأة عجماء لا تبالي من صاحبها إلا العلف، ولو انتهى بها إلى التلف، وكأن كل امرأة إنما هي اسم، على جسم، فليس على الرجل إلا أن يختار اسما ثم يثبته في وثيقة الزواج بعد أن يساوم عليه، أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فرشها، من أعواد نعشها، وأن تقيم لها قبرا في البيت، وتنظر كل صباح في وجه ميت، وإلا كم من فتاة كالقمر أخفاها نهار المشيب، وكم من عروس للحب زفت إلى غير حبيب، وكم من وجه صبيح، يقبله ثغر قبيح، وكم من كعاب، سال عليها اللعاب ... وكم من حسن هو رمز الحياة قرن به الموت رمزه، وكم من قد أهيف كالألف لا يرى إلا شيخا أعجف كالهمزة ...

وهنا انتبهت "لويز" إلى زوجها المتهدم الذي هو همزة القطع، وإلى تصابيه المضحك وحماقته العمياء وحبه الأخرق، فانتفضت من الغيظ وكاد بعضها يحطم بعضا، وجعلت خواطرها تنبض في رأسها كلمع البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لرد هذا البلاء عنها أو مدافعته، بيد أنها كلنا ابتدأت فكرا انتهى بها إلى قولها: ما عسى أن أصنع؟! هي لا تفكر إلا فيما ينبغي أن تصنعه، ولكن الفكر يفضي بها إلى هذا السؤال بعينه،

---

(١) المساكين الرافعي ، مصطفى صادق ص/٩

فكأنها من الهم والحيرة منعزلة عن نفسها، وقد نفر منها فكرها وقلبها وحظها ولم يبق معها غلا روحها المعذبة، وهي كذلك بينها وبين زوجها وبين القدر!.

ولبثت زمنا لا تجد من رأيها إلا قطعا وأشلاء، حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تدرج في الطريق، ورأت سوط الحوذي يتلقى الأمر منه إلى الجوادين فلا ينزل عليهما إلا انطلقا ملء العنان، كأنما يحاولان الهرب منه ولا يعلمان أنهما يهربان به؛ فرثت المسكينة للبهيمتين، ثم كأنما حشرت لها كل مركبة على الأرض في صعيد واحد، فلم تذكر أنها رأت قط سائقا ليس في يده سوط ما دام بين يديه حيوان ... ! وظلت واجمة عند هذا الخاطر هنية، لأنها ما برحت تتلقى من ضربات القدر وهي تعدو في الحياة عدوا فيه من السرعة بمقدار ما في هذه اللذعات من الألم! ... ثم قالت: ترى أي حيوان في مسلاخ هذا الهرم؟ وما كذبت أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر، فتناولت السوط واستولت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها إلا سبيل الحياة وظهر الكونت!..

وكذلك فاءت من غضبها إلى رضا أقبح من الغضب، ورأت أن هذا الشيخ المأفون الذي يتطاوع للصبا وقد جاوز السبعين وهلك في الدهر، ثم لا يستحي أن يجعلها مثلة على أعين الناس، وأن يكون لها مخزية ولا كالمخزيات جدير به أن يجد منها كفاء ما وجدت منه، وجدير بها أن تبدله من شهر العسل شهرا هو أحق به وأهله، وهو على ذلك أقرب الأشياء من العسل لأنه ... "شهر النحل" ... ! قال "الشيخ علي": هكذا يفسد الرجل المرأة وهو يدري أو لا يدري، فهو يبتغيها متاعا ويريدها ملهاة، ثم لا يقدر فيها غير الطاعة لما ابتغى وأراد، كأن الطينة الإلهية التي جبل منها الرجل شديدا متماسكا، بقيت منها بعده هنة ضعيفة فتركت حتى ركت وانسحقت ثم خلقت منها المرأة ذليلة طائعة ... وإن أقدر خلق الله ليكون معه الدرهم فاضلا عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يبتاع به الزهرة الناضرة، ولكن العجيب من أمره أنه إذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يدنيها من أنفه إلا بعيدا بعيدا وقليلا قليلا، بل إنه ليستحي لقذره من طهرها، ولنتنه من عطرها، فلا يحملها حتى يتجمل لها، ولا يظهر بها حتى يكون في الجمال أهلها، وما أدري كيف أدبته الطبيعة هذا الأدب مع شبه الجمال، ولا تؤدب مثل ذلك الهرم الأحمق مع الجمال نفسه؟.

ويعمد الرجل متى أصاب مالا إلى الطيبات من صنوف الطعام وملذات الشراب فيتضلع ويتملأ، وليس في ذلك من حرج، إذ هو ماله ينمو في باطنه، فإن ربح أو خسر فإنما "المضاربة" في معدته..، ثم يعمد أقبح خلق الله وجها وأظلمهم سنة وأشأمهم طلعة، بذلك المال نفسه إلى أجمل النساء فيرخي عليها أستار بيته،

ويساهمها قبحه وجمالها، وإنما هي في رأيه بعض الطيبات وصنف شهي من طعام القلب، فترى في أي جهة ينمو هذا المال الذي بذله وتندى به، فإني لا أرى له نموا في قلبه ولا في قلب تلك الحسناء؟.." (١)

"أيتها الشرقية! احذري احذري!

احذري التمدن الذي اخترع لقتل لقب الزوجة المقدس، لقب "المرأة الثانية".

واخترع لقتل لقب العذراء المقدس، لقب "نصف عذراء".

واخترع لقتل دينية معاني المرأة، كلمة "الأدب المكشوف".

وانتهى إلى اختراع السرعة في الحب، فاكتفى الرجل بزوجة ساعة.

وإلى اختراع استقلال المرأة، فجاء بالذي اسمه "الأب" من الشارع، لتلقي بالذي اسمه "الابن" إلى الشارع.

أيتها الشرقية؛ احذري احذري!

احذري، وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة، أن تقلدي هذه الشمعة التي أضاءت منذ قليل.

إن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لآداب دينها الإنساني العظيم.

هي دائما شديدة الحفاظ، حارسة لحوزتها؛ فإن قانون حياتها دائما هو قانون الأمومة المقدس.

هي الطهر والعفة، هي الوفاء **والأنفة**، هي الصبر والعزيمة، وهي كل فضائل الأم.

فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة، إلا طريقها القديم بعينه.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

احذري "ويحك" تقليد الأوروبية التي تعيش في دنيا أعصابها، محكومة بقانون أحلامها.

لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط، بل حالة عقلية أيضا تشك وتجادل.

أنوثة تفلسفت فرأت الزوج نصف الكلمة فقط، والأم نصف المرأة فقط.

ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة.

إنها بذلك حرة مساوية للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

احذري خجل الأوروبية المترجلة من الإقرار بأنوثتها.." (٢)

---

(١) المساكين الرافعي ، مصطفى صادق ص/٤٤

(٢) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٢٣٧/١

"على الخشية والنفرة منها. ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة في النفس، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقنها، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر: كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة يبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها، لذة كلذة إدراكه.

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على أعمال النار -وحياطة كل فرد من الناس حياطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته-وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقص من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تعين مقاييس الأخلاق في الأرض بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقدا فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضا، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير معدما ويتعفف، ويكون الغني موسرا ويتصدق، ويكون الشره طامعا ويمسك، ويكون القوي قادرا ويحجم، وكما قال العربي في تحقيق ناموس **الأنفة والحمية** وغلبته على الناموس الاقتصادي: "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".." (١)

"إليها أن يموت مسلما إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكره، فأشفقت أن أكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته؛ وقلت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان إمامنا "الشعبي" حكيما لحنا فطنا، سفر ين أمير المؤمنين "عبد الملك" وعاهل الروم، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله. وقلت: لعل الله يحدث به أمرا. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلمه وأرفه عن نفسه. وقلت له: أما تدري أنك حين فرغت من سرور

---

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٢/٧

الحياة فرغت من غرروها أيضا، وأنا الزاهد المنقطع في عرعرة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يا بني: إن الزاهد يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كان فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وايم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعا، لهو الخالي من الفضائل جميعا.

يا بني: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية؛ ينبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائله. وما أرك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن في أعراقكم دم نبي يقتل أو يصلب!

قال المسيب: وانتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت عليه المصائب، وتوالت النكبات، وتواترت الأسقام ... ثم اقتصصت ما قال ابنه حرفا حرفا، ثم قلت؛ وإنه الآن موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا؛ وقد "هداه الله إليك فجاء يسلك، أيموت مسلما من ألجئ وأكره واضطر واستضاق واختل، فتحسى سما فهلك، أو توجأ بحديدة فقضى، أو ذبح نفسه بنصل فخفت، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه، أو تردى من شاهق فطاح!

وأدرك الشيخ معنى قولي: "هداه الله إليك" ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المرادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه؛ فعلم أن لم أسأله الفتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا –والله– رجل كريم، أخذته الأنفة وعزة النفس، وما أنا الساعة بمعزل عن همه، فنذهب نكلمه والله المستعان.

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآكما، وربما." (١)

"الطبقة السادسة

لما توفي أبو عقال المتقدم الذكر بويع لأخيه أبي العباس محمد وكان مظفرا في حروبه، وله وقائع مع بعض آل بيته. ومن فضائله ولاية سحنون القضاء؛ راوده حولا كاملا على أن يوليه القضاء فأبى، ثم عزم عليه بالأيمان التي لا يخرج منها فلما رأى ذلك سحنون اشترط عليه شروطا منها أنه قال له: إني أبدأ بآل بيتك وأعوانك فإن قبلهم حقوقا للناس منذ زمان طويل ومنها أن آل الأغلب إذا طلبهم أحد يحضرون بأنفسهم

---

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٢/٧٨

في مجلس الحكم ولا يوكلون غيرهم لما يرون في ذلك من الردع لهم لأن **الأنفة** تمنعهم ذلك فلا يقع منهم التعدي ولا حجر الحقوق. وباشر بنفسه خطة الحسبة مع القضاء. رحل لمصر سنة ١٨٨هـ وقرأ الأسدية على ابن القاسم. وفي الديباج: لما ولي القضاء دخل على ابنته خديجة- وكانت من خيار النساء- وقال لها: اليوم ذبح أبوك من غير سكين. فبذلك علم الناس أنه قبل القضاء. انتهى وناهيك من قوم قاضيهم مثل الإمام الذي لم يقبل القضاء إلا بشروط وناهيك بذلك الأمير الذي وفي له بتلك الشروط وتوفي هذا الأمير سنة ٢٤٢هـ وبويع لابن أخيه أبي إبراهيم أحمد بن محمد وكان فاضلا عادلا حسن السيرة كثير الصدقات رفيقا بالرعية وكانت في أيامه وقائع بصقلية أكثرها للمسلمين، وله مآثر خالدة منها التوسعة في جامعي القيروان وتونس، وتوفي سنة ٢٤٥ هـ وهو ابن ثمان وعشرين سنة وبويع لزيادة الله بن أحمد بن محمد وكان فاضلا عاقلا حسن لسيرة شجاعا جميل الأفعال. كان سليمان بن عمران القاضي يقول: ما ولي من بني الأغلب أعقل من زيادة الله هذا، وتوفي سنة ٢٥٠ هـ وبويع لأخيه محمد بن أحمد المعروف بأبي الغرانيق لشغفه بصيدها وكان يغلب عليه اللهو وكانت في أيامه حروب عظيمة وكان فتح جزيرة مالطة على يده سنة ٢٥٥ هـ وأسر ملكها وتوفي سنة ٢٦١ هـ وبويع لأخيه إبراهيم بن أحمد وكان عادلا حميد السيرة وفي أيامه كان فتح سرقوسة، ثم ساءت سيرته وأفتك بكثير من إخوته وبناته وآل بيته وجواريه وخدمه في أخبار تذوب منها الأكباد وتقشعر منها الجلود وكانت أفعاله السيئة أحد الأسباب في ضعف هاته الدولة المؤذن بزوالها ثم أظهر التوبة وأقلع عما كان عليه واستنفر الناس للجهاد ووسع على المقاتلة وفرق الأموال وخرج من سوسة إلى صقلية وهو أمير الجيش سنة ٢٨٤ هـ فسبى وغنم ودخل بليرمو وبها توفي سنة ٢٨٩ هـ في ذي القعدة بعلة أصابته ودفن هناك، وقيل: نقل للقيروان وبويع لابنه أبي العباس عبد الله وكان شجاعا ثبتا ذا بصر بالحروب أديبا عاقلا حسن السيرة وله وقائع في صقلية مشهورة." (١)

"ولا يبذل لهم ما سألوا وجاء بأمر بين ذلك استصغارا لأمرهم واستهانة بحربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها وأما (علي) فأشار باللين وإفراط الرفق وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسفه حقه اللين بحتا والخير محضا لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينة ولا بشر يحسبهم إلى خيره فقد ملكهم الخلع لعذرهم ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة فنزوة في رؤوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم وإن لم يقبلوا دعوته يسرعوا لإجابته باللين المحض والي الصراح فذلك ما عليه الظن بهم والرأي فيهم وما قد يشبه أن يكون من مثلهم

---

(١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية مخلوف، محمد بن محمد ١٣٩/٢

لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير مال لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها فلولا أنه خلق نارا جعلها لم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا وأما (موسى) فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها وأن يرموا بشر ولا خير معه وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفادا والشر مجردا ليسعهما طمع ولا لين بثنيتهم اشتت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم **الحمية** من الشدة **والأنفة** من الذلة والامتعاض من القهر فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف والاستبسال في القتال والاستسلام للموت وإما أن ينقادوا بالكره ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعب الشقاق فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى اصعب وأغلظ وأشده مما كان.

وقاتل في قول الفضل: أيها المهدي أكفى دليل أوضح برهان وأبين خبر بأن فد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم وتوجيه." (١)

"قال محمد بن الليث:

أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع **الحمية** فهم نابتة وملابس **الأنفة** عليهم ظاهرة فالروية عنهم عازية والعجلة عنهم حاضرة تسبق سيولهم مطرهم وسيوفهم عذلهم لأنهم بين صفة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفطمون إلا بالمر وإن ولي المهدي عليهم وضيعا لم تنقد له العظماء وإن ولي أمرهم شريفا تحمل عليه الضعفاء وإةن أخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه وأو بني عمه أو بني أبيه ناصحا يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم تنفست اليان بهم وتراخت الحال بأمرهم فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع لعظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد إلا بعد دهر طويل وشر كبير وليس المهدي وفقه الله فاطما عاداتهم ولا قارعا صفاتهم ويمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بمسمعك ويد ممثلة لعينك وصخرة لا تزعزع وبهمة لا تثنى وبازل لا يفزعه صوت الجلجل نقي العرض نزيه النفس جليل والخطر قد اتضعت الدنيا عن قدره وسما نحو الآخرة بهمته فجع الغرض الأقصى لعينه نصبا والغرض الأدنى لقدمه موطئا فليس يقبل عملا ولا يتعدى أملا وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك رجل قد غذي بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك فإن قلدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم كان قفلا

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب أحمد الهاشمي ٢٤٤/١

فتحه أمرك وبابا أغلقه نهيك فجعل العدل عليه وعليهم أميرا والإنصاف بينه وبينهم حاكما وإذا حكم المنصفة وسلك المعدلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم غرس في الذي لك بين صدورهم وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة فيحول شيء عوامهم متمكنة من قلوب." (١)

"من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها، أو يفكر في محاكاتها فهو آية الله الدائمة، وحجته الخالدة، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [فصلت: ٤٢] ، أنزل الله على رسوله ليبلغه قومنه وهم فحول البلاغة، وأمراء الكلام.

وأباه الضيم، وأربا **الأنفة** **والحمية** فيبهرهم بيانه، وأذهلهم افتتانه فاهتدى به من صح نظره واستحصف عقله، ولطف ذوقه، وصد عنه أهل العناد والمكارة واللجاج فتحداهم أن يأتوا بمثله فنكصوا ثم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا فحق عليهم إعجازه قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء: ٨٨] .

وللقرآن فضل على اللغة فقد أثر فيها ما لم يؤثره أي كتاب سماويا كان أو غير سماوي في اللغة التي كان بها، إذا ضمن لها حياة طيبة وعمرا طويلا، وصانها من كل ما يشوه خلقها ويذوي غضارتها فأصبحت وهي اللغة الحية الخالدة ومن بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها، وصارت في عداد اللغات التاريخية الأثرية وأنه قد أحدث فيها علوما جمة وفنونا شتى لولاه لم تخطر على قلب، ولم يخطها قلم منها، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان والأدب والرسم، والقراءات، والتفسير، والأصول، والتوحيد والفقه.

جمع القرآن وكتابته

قد نزل القرآن الكريم على رسول الله صل الله عليه وسلم منجما تعلى حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال في بضع وعشرين سنة، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر كتابة وحيه بكتابة ما ينزل وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن كله مكتوب، وفي صدور الصحابة محفوظ، وفي مدة الإمام عثمان كثرت الفتوحات

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب أحمد الهاشمي ٢٤٧/١

وانتشر القراء في الأمصار فأمر عثمان زيد بن ثابت وعد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ونعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوا تلك الصحف في." (١)

"على أن أميتهم وإن لم تقف في تيار نهضتهم فقد نشأ عنها – لعدم الرابطة بين القبائل المتنائية – اضطراب في اللغة: لتعدد الأوضاع، واختلاف اللهجات، وغير ذلك مما دعا أولي الرأي منهم أن يفكروا في توحيد اللسان العام وتهذيبه. فأقاموا لذلك أسواقا أشبه بالمؤتمرات اللغوية، بثوا فيها وحدته – كما قدمنا – فكانت لغة (قريش) فارس الحلبة، وصاحبة الغلب. ولولا (عكاظ) ونظائرهم لم يكن ذلك أمرا ميسورا.

النظم والنثر فيه

كان للشعر في عصر الجاهلية أسمى المنازل وأشرف الدرجات، لأنه ديوان علومهم وحكمهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، والضابط لأيامهم وأنسابهم. وقد كان الشاعر صاحب الكلمة، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الأمر والنهي، وإليه الحل والعقد.

وكانت القبائل يهنئ بعضهم بعضا إذا نبع فيهم شاعر. وتقام لذلك الولائم والأفراح.

وكان الشاعر يقول الشعر طبعا من غير تكلف، وسهلا من غير تعسف. إلا إذا تعمد ذلك كزهير، فقد كان لا ينشد بعض قصائده حتى يحول عليها الحول. كما سترى ذلك في الكلام على شعره، إن شاء الله.

وقد طرق الشعراء في هذا العصر أبوابا كثيرة كالمدح والهجاء والفخر والحماسة وضرب الأمثال. فصاغوا ذلك كله في قالب الإجادة والإبداع.

وكانوا يأبون الإجازة عليه حتى جاء (النابغة الذبياني) و (زهير) و (الأعشى) فقبلوها. وكان أول من سنها (النابغة) . فأنفت الناس من قول الشعر بعض **الأنفة**. إلا أن ذلك لم يحط من قدره لقلة من فعل ذلك من الشعراء في الجاهلية.

ونهضة الشعر في هذا العصر تتناول مئة وخمسين (١٥٠) سنة. يمتاز فيها برسم الحقيقة رسما ناطقا، ووصف الشيء على علاته، وبيانه على طبيعته.

وأجود ما قيل فيه المعلقات. وصفوة فحوله شعراؤها.

أما الكلام المنثور فقد كان لهم فيه اليد الطولى كالمنظوم. ما بين مسجع ومرسل. وقد أثر عنهم منه شيء كثير مما يعلق بالضمير لنفاسته كالأمثال والحكم والوصايا والخطب.

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب أحمد الهاشمي ١٠٣/٢

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة تنقل عما وردت فيه إلى مشابهه من غير تغيير. كقولهم: "الصيف ضيعت اللبن".

والحكمة هي قول موافق للحق مصون عن الحشو. كقوله: "المرء بأصغريه قلبه ولسانه".

والفرق بينهما أن المثل لا بد فيه من واقعة حال قيلت فيه الجملة.

والخطبة جملة من القول يراد بها الترغيب فيما ينفع، والتنفير مما يضر. وربما حوت فخرا أو غيره.

ومثلها الوصية إلا أن الخطب تكون في المجامع والمواسم، والوصية لا تكون إلا من مثل شخص لعشيرته أو ولده أو لدى الانتقال من حال إلى حال.

الكتابة فيه

يجهل التاريخ تحديد الزمن الذي ابتدئ فيه باستعمال الخط العربي. غير أنه يرجح أن أول من كتب بالعربية اليمنيون أصحاب (هود) عليه السلام. وكان خطهم يسمى (المسند) يكتبونه حروفا منفصلة – كما يكتب الإفرنج لغتهم – ويحظرون على العامة تعلمه. على أن ثلاثة من (طيء) تمكنوا من ذلك. فاقتطعوا منه خطا سموه (الجزم) وعلموه أهل (الأنبار) . وعن هؤلاء أخذه أهل (الحيرة) وتداولوه. فلما قدم (حرب بن أمية) جد (معاوية بن أبي سفيان) إلى (الحيرة) نقله إلى مكة ونشره في (الحجاز) .

علوم العرب في جاهليتها

تقدم تقسيم العرب إلى (بائدة) و (غيرها) فغير البائدة هم الذين تفرعوا من (عدنان) و (قحطان) . أما (القحطانيون) فهم عرب (اليمن) . وقد كانوا على حظ عظيم من العلوم والآداب، وقدم راسخة في المدينة، وأصل عريق في الحضارة، وحكومات شوروية منظمة. وقد استولوا على كثير من البلاد والعباد. وقد ذكر القرآن الكريم شيئا من سياستهم الدولية كالتي كانت بين مملكة (فلسطين) ومملكة (سبأ) . وقد ذكر ما كتب به (سليمان) عليه السلام إلى (بلقيس) ، وما اشتغلت به من التدبير والمشورة، وإرسال الهدية لاستطلاع ما عسى أن يكون من الأمر. وذلك قوله تعالى حكاية عنهما: "إذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم، ثم تول عنهم، فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون". إلى آخر القصة.." (١)

(١) رجال المعلقات العشر مصطفى الغلاييني ص/٩

"شيئا، قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((يا عائشة من أعطاك عطاء بغير مسألة فاقبليه فإنما هو رزق عرضه الله لك)) (١).

تجنب المدح والإطراء:
كانت (ض) تكره الثناء عليها بنفسها، كما لا تحب أن يثني عليها أحد عند حضورها، وقد استأذن عليها ابن عباس (ض) في مرضها الذي ماتت فيه، لكنها عرفت أنه يأتي يمدحها ويثني عليها فرفضت أن تأذن له، ثم أذنت له بعدما شفع فيه بعض الناس، فلما دخل عليها ابن عباس بدأ يثني عليها فقالت: ((وددت أني كنت نسيا منسيا)) (٢).

الإباء والأنفة:
ومع هذا التواضع وانكسار النفس فإنها كانت أبية النفس، وقد تشتد فيها هذه الصفة بإزاء الآخرين، وتتحول إلى تدلل الحبيب إلى حبيبه عند النبي – صلى الله عليه وسلم – ولنذكر هنا موقفها (ض) في حادث الإفك لما نزلت براءتها من فوق سبع سماوات كان أول كلمة تكلم بها النبي يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك، وتلا قوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾.
قالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل الذي أكرمني بإنزال براءتي (٣).
وكذلك نذكر موقفها الأبي من النبي – صلى الله عليه وسلم – حينما تغضب عليه فلا تحلف بـ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٧٧/ ٦ برقم ٢٤٥٢٤ و٦/ ٢٥٩ برقم ٢٦٢٧٦، كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٠٠ وقال: رجاله ثقات، إلا أن المطلب بن عبد الله مدلس، واختلف في سماعه من عائشة، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٨٤/ ٦ برقم ١١٨٢٣ وفي شعب الإيمان ٢٨٢/ ٣ برقم ٣٥٥٥، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٣٣٩/ ١ رقم ١٢٥٠.

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) يراجع حديث الإفك، ص ١٢٦.." [1]

"

---

(١) سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين سليمان الندوي ص/٢١٢

"خلافته، فوفد إلى معاوية في دين لحقه. وعمي في أواخر أيامه. وكان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار في مسجد المدينة. وتوفي في أول أيام يزيد، وقيل: في خلافة معاوية. وكان في حلب وأطرافها جماعة ينتسبون إليه، يعرفون ببني عقيل (١)

عقيل بن علفة

(٠٠٠ - نحو ١٠٠ هـ = ٠٠٠ - نحو ٧١٨ م)

عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية، اليربوعي المري الضب أبي الذبياني، أبو العميس: شاعر مجيد مقل، من شعراء الدولة الأموية. كان من بيت شرف في قومه، ترغب قريش في مصاهرته، وفيه خيلاء وغطرسة، قال المبرد: "كان عقيل بن علفة من الغيرة **والأنفة**، على ما ليس عليه أحد ". وكانت إحدى بناته، واسمها " الجربا " زوجة للخليفة يزيد ابن عبد الملك.

وعقيل هو القائل:

إن بني ضرجوني بالدم ... من يلق أبطال الرجال يكلم

شنشنة أعرفها من أخزم (٢) .

ابن عمران

(١٠٠١ - ١٠٦٢ هـ = ١٥٩٣ - ١٦٥١ م)

عقيل بن عمر (المشتهر بعمران) ابن عبد الله بن علي، ابن أبي المواهب الظفاري اليماني: فقيه مولده في المرباط، من قرى ظفار الحبوظي: قرأ في ظفار. وقام بسياحات في اليمن وحضر موت. وتصوف ورحل إلى مكة (١٠٣٣) والى

---

(١) سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين سليمان الندوي ص/٣٧١

(١) الإصابة، ت ٥٦٣٠ والبيان والتبيين ١: ١٧٤ ونكت الهميان ٢٠١ وطبقات ابن سعد ٤: ٢٨ والتاج ٨: ٣٠ وذيل المذيل ٢٣ وفي مقاتل الطالبيين ٧ "كان طالب أكبر أبناء أبي طالب سنا، ويليه عقيل، ويلي عقيلا جعفر، ويلي جعفرا علي، وكان كل واحد منهم أكبر من صاحبه بعشر سنين، وعلي أصغر ثم سنا " قلت: على هذه الرواية يكون عقيل قد عاش أثر من مئة سنة.

(٢) الأغاني ١١: ٨١ - ٨٩ وسمط اللآلي ١٨٥ وخزانة البغدادي ٢: ٢٧٨ ورغبة الآمل ٤: ١٧٣ ثم ٨: ١٦٣ وسرح العيون ٢٢٣ وجمهرة الأنساب ٢٤١ و ٢٤٢ والجمحي ٥٦١ و ٥٦٢.." [١]

"١٢٣ - (حدثنا عثمان) هو: ابن أبي شيبة (قال: أخبرنا) وفي رواية: [٢](جرير) هو: ابن عبد الحميد (عن منصور) هو: ابن المعتمر (عن أبي وائل) شقيق بن سلمة الحضرمي، قال إبراهيم النخعي: ما من قرية إلا وفيها من يدفع الله عن أهلها به، وإني لأرجو أن يكون أبو وائل منهم، وقد مر ذكرهم في باب «من جعل لأهل العلم أياما» [خ¦٧٠].

(عن أبي موسى) عبد الله بن قيس الأشعري صاحب الهجرات الثلاثة من اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ومنها إلى الحبشة، ومنها إلى المدينة، وقد تقدم في باب «أي الإسلام أفضل» [خ¦١١]؟.

ورجال هذا الإسناد كلهم كوفيون وأئمة أجلاء، وقد أخرج متنه المؤلف في «الجهاد» [خ¦٢٨١٠] وفي كتاب «الخمس» [خ¦٣١٢٦] وفي «التوحيد» أيضا [خ¦٧٤٥٨]، وأخرجه أبو داود في «الجهاد»، والنسائي وابن ماجه فيه أيضا.

(قال) أي: إنه قال (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم) إنما عداه بـكلمة «إلى» مع أنه متعد بنفسه إشعارا بأن المقصود بيان انتهاء المجيء إليه صلى الله عليه وسلم (فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟) هو مبتدأ وخبر مقول القول مع قوله: (فإن أحدنا يقاتل غضبا) أي: لأجل الغضب وهي حالة تحصل عند غليان الدم في القلب لإرادة الانتقام.

(ويقاتل حمية) بفتح الحاء وكسر الميم وتشديد الياء المثناة التحتية، وهي **الأنفة** والغيرة والمحاماة عن العشيرة يقال: حميت عن كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله، وقيل: هي المحافظة على

(١) الأعلام للزركلي خير الدين الزركلي ٢٤٢/٤

(٢) حدثنا

الحرم.

فالأول: إشارة إلى مقتضى القوة الغضبية، والثاني: إلى مقتضى القوة الشهوانية، أو الأول لأجل دفع المضرة والثاني لأجل جلب النفعة.

(فرفع) رسول الله صلى الله عليه وسلم (إليه) أي: إلى السائل (رأسه) الشريفة (قال) أي: أبو موسى وهو الظاهر، ويحتمل أن يكون القائل من دونه فيكون مدرجا في أثناء الخبر (وما رفع إليه رأسه إلا أنه) أي: لأجل أن السائل.

(كان قائما) فهو استثناء مفرغ؛ أي: ما رفع لأمر من الأمور إلا لقيام الرجل (فقال) صلى الله عليه وسلم (من قاتل لتكون) أي: لأن تكون (كلمة الله) أي: دعوة الإسلام، وقيل: كلمة الإخلاص وهي قولنا: لا إله إلا الله.

(هي العليا) كما هو مقتضى القوة العقلية." [١]

"وكان السبب في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش أولم عليها، فأكل جماعة، وهي مولية بوجهها إلى الحائط، ولم يخرجوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجوا، وعاد، فلم يخرجوا، فنزلت آية الحجاب [خ ¦ ٤٧٩٢].

وقال القاضي عياض: أما الحجاب الذي خص به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ولا لغيرها، ولا إظهار شخصهن إذا خرجن، كما فعلت حفصة يوم مات أبوها، سترت شخصها حين خرجت، وبنيت عليها قبة لما توفيت، قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾ [الأحزاب: ٥٣].

(واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة) بفتح الغين المعجمة، وهي **الحمية والأنفة**، يقال: رجل غيور، وامرأة غيور؛ لأن فعولا بمعنى فاعل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ويقال: غرت على أهلي، أغار غيرة، فأنا غائر وغيور للمبالغة.

) عليه) صلى الله عليه وسلم (فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت الآية) ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن﴾ [التحريم: ٥] على التغليب، أو تعميم الخطاب، وليس فيه ما يدل على أنه لم يطلق حفصة، وأن في النساء خيرا منهن؛ لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة، والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٩٢٨

﴿مسلمات مؤمنات﴾ مقرات مخلصات، أو منقادات مصدقات، ﴿قانتات﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعات، ﴿تائبات﴾ عن الذنوب، ﴿عابدات﴾ متعبدات، أو متذللات لأمر الرسول، ﴿سائحات﴾ صائمات، سمي الصائم سائحا؛ لأنه يسيح في النهار بلا زاد، أو مهاجرات ﴿ثيبات وأبكارا﴾ وسط العاطف بينهما لتنافيهما، ولأنهما في حكم صفة واحدة؛ إذ المعنى مشتملات على الثيبات والأبكار.." (١)

"(فحمد الله وأثنى عليه) زاد النسائي من حديث سمرة: ((وشهد أنه عبد الله ورسوله)) (ثم قال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان) بنون ساكنة بعد المثناة التحتية وبالخاء، وفي رواية: (٢)بإسقاط النون (لموت أحد) من الناس (ولا لحياته) وإنما يخوف الله بكسوفهما عباده.

(فإذا رأيتم ذلك) الكسوف في أحدهما (فادعوا الله) كذا في رواية الكشميهني، وفي رواية غيره: (٣)(وكبروا وصلوا وتصدقوا) وهذا هو موضع الترجمة.

(ثم قال) صلى الله عليه وسلم (يا أمة محمد) قيل: فيه معنى الإشفاق كما يخاطب الوالد ولده إذا أشفق عليه بقوله: يا بني.

وتعقبه العيني: بأنه ليس هذا مثل المثال الذي ذكره، فلو كان قال: يا أمتي بالنسبة إليه؛ لكان من هذا الباب، وإنما هذا يشبه أن يكون من باب التجريد كأنه أبعدهم عنه، فخاطبهم بهذا الخطاب؛ لأن المقام مقام التخويف والتحذير.

[ج ٥ ص ٣٤١]

(والله ما من أحد أغير من الله) بنصب «أغير» على أنه خبر «ما» النافية الحجازية، و «أحد» مرفوع المحل على أنه اسمها، وكلمة «من» زائدة لتأكيد العموم، ويجوز أن يكون «أغير» مرفوعا على أنه صفة «أحد» باعتبار المحل، والخبر محذوف؛ أي: موجود. ويجوز أن يكون مجرورا بالفتحة على أنه صفة «أحد» باعتبار اللفظ، ويجوز أن يكون مرفوعا على أنه خبر للمبتدأ أعني قوله: «أحد» على أن كلمة «ما» تميمية.

وقوله: (أن يزني) متعلق بقوله: «أغير» على تقدير «في» أو «على»، وحذف الجار من [قبل] «أن» قياس مستمر (عبده أو تزني أمته) وقوله: «أغير» أفعل التفضيل من الغيرة، وهي تغير يحصل من **الحمية والأنفة**،

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٦١

(٢) لا يخسفان

(٣) فاذكروا الله

وأصلها في الزوجين، وذلك محال على الله عز وجل، وهو مجاز محمول على غاية إظهار غضبه على الزاني.

وقيل: لما كانت ثمرة الغيرة ولازمها هو صون الحريم، ومنعهم وزجرهم ممن يقصدهم، وزجر من يقصد إليهم أطلق ذلك؛ لكونه م‍نع من فعل ذلك، وزجر فاعله زجرا شديدا وتوعده، فهو من باب تسمية الشيء بما يترتب عليه، فيكون زيادة الغيرة بمعنى زيادة المنع، والزيادة هنا حقيقة؛ لأن صفات الأفعال عندنا حادثة تقبل التفاوت.." (١)

"الأولى: المفوضة يؤمنون بها ويفوضون تأويلها إلى الله عز وجل مع الجزم بتنزيهه عن صفات النقصان.

والثانية: المأولة يأولونها على ما يليق به بحسب

[ج ٥ ص ٥٩٢]

المواطن، فأولوا قوله: «ينزل الله» بأن المعنى ينزل أمره أو الملك بأمره، وبأنه استعارة، ومعناه: التلطف بالداعين والإجابة لهم كما هو ديدن الملوك الكرماء والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم محتاجين ملهوفين فقراء مستضعفين.

وقال البيضاوي: لما ثبت بالقواطع العقلية والنقلية أنه سبحانه منزه عن الجسمية والتحيز امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد دنو رحمته.

وقد روي: ((يهبط الله من السماء العليا إلى السماء الدنيا))؛ أي: يتنقل من مقتضى صفات الجلال التي تقتضي **الأنفة** من الأرذال، وقهر الأعداء، والانتقام من العصاة إلى مقتضى صفات الإكرام من الرأفة والرحمة والعفو. ويقال: لا فرق بين المجيء والإتيان والنزول إذا أضيف إلى جسم يجوز عليه الحركة والسكون والنقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره، وإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته تعالى.

فالنزول لغة تستعمل لمعان خمسة مختلفة بمعنى: الانتقال، كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وبمعنى: الإعلام كقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء: ١٩٣]؛ أي: أعلم به الروح الأمين محمدا صلى الله عليه وسلم، وبمعنى القول: ﴿سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ أي: سأقول مثل ما قال. وبمعنى: الإقبال على الشيء، وذلك مستعمل في كلامهم، جار في عرفهم يقولون: نزل

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٤٣٥٨

فلان من مكارم الأخلاق إلى دنيها؛ أي: أقبل. وبمعنى: نزول الحكم حتى نزل بنا بنو فلان؛ أي: حكم، ويقال أيضا: نزل قدر فلان عند فلان؛ إذا انخفض، وذلك كله متعارف عند أهل اللغة، وإذا كان كذلك وجب حمل ما وصف به الرب جل جلاله من النزول على ما يليق به من بعض هذه المعاني، وهو إقباله على أهل الأرض بالرحمة والاستيقاظ بالتذكير والتنبيه الذي يلقى في القلوب، والزواجر التي تزعجهم إلى الإقبال على الطاعة.." (١)

"﴿ليدخل الله في رحمته﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له؛ من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتالهم؛ صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم، فقوله تعالى: ﴿من يشاء﴾ أي: من مؤمنيهم أو مشركيهم، والتحقيق أن اللام هنا مستعارة من معنى التعليل، فإنه لما ترتب على الكف لصون المؤمنين توفيق الله تعالى المؤمنين لزيادة الخير، وبعض المشركين للإسلام شبه ذلك بالعلة الغائية واستعملت فيه اللام، فافهم.

﴿لو تزيلوا﴾ أي: لو تصرفوا وتميز بعضهم عن بعض من زاله يزيله، وقرئ: ((لو تزايلوا)).

﴿لعذبنا الذين كفروا منهم﴾ أي: من أهل مكة، فتكون من للتبعيض، وقيل: هم الصادون فتكون من للبيان ﴿عذابا أليما﴾ بالقتل والسبي ﴿إذ جعل الذين كفروا﴾ مقدر بأذكر أو ظرف ﴿لعذبنا﴾ أو صدوكم ﴿في قلوبهم **الحمية**﴾ **الأنفة** ﴿حمية الجاهلية﴾ التي تمنع إذعان الحق حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت، ولم يقروا بسم الله الرحمن الرحيم، ولا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي تحقيق لفظ **الحمية** إن شاء الله تعالى.

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي: وقاره على رسوله وعلى المؤمنين، فتوقروا وحلموا وصبروا ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ كلمة الشهادة، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، اختارهما الله لنبيه وللذين معه من أهل الخير ومستحقيه، ومن هو أولى بالهداية من غيرهم.

وعن الحسن: كلمة التقوى هي الثبات والوفاء بالعهد، وقيل: الإخلاص وإضافة الكلمة إلى التقوى للملابسة؛ لأنها سببها وأساسها، وقيل: المعنى كلمة أهل التقوى على إضمار المضاف.

﴿وكانوا أحق بها﴾ من غيرهم ﴿وأهلها﴾ والمستاهل لها. وفي «مصحف الحارث بن سويد» صاحب عبد الله: ((وكانوا أهلها))

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٤٧٢٣

[ج ١٢ ص ٥١٨]
﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٦] فيعلم أهل كل شيء وييسره له.." [(١)]

"(وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت) ومطابقة الحديث للترجمة من حيث إن فيه المصاحبة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل مكة في هذه السفرة وهم أهل الحرب حينئذ، وكتب بينه وبينهم شروطا.

(قال أبو عبد الله): هو البخاري نفسه، وهذا في رواية المستملي وحده، وقد فسر هنا ثلاثة ألفاظ وقعت في الآيات المذكورة، على ما هو عادته:

أحدها: قوله: (﴿معرة﴾ العر: الجرب): أشار بهذا إلى أن لفظ المعرة التي في الآية الكريمة مشتقة من العر ــ بفتح العين المهملة وتشديد الراء ــ ثم فسر العر بالجرب؛ بالجيم.

وقال ابن الأثير: المعرة: الأمر القبيح المكروه والأذى، وهي مفعلة من العر، وقال الجوهري: العر ــ بالفتح ــ: الجرب، نقول منه: عرت الإبل تعر فهي عارة. والعر ــ بالضم ــ: قروح مثل القوباء تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها، يسيل منه مثل الماء الأصفر، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض، تقول منه عرت الإبل فهي معرورة.

الثاني: هو قوله: (﴿تزيلوا﴾: انمازوا) وهو من الميز، يقال: مزت الشيء من الشيء، إذا فرقت بينهما فانماز وامتاز، وميزته فتميز، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الثالث: هو قوله: **الحمية**، وقد ذكر فيه ستة معاني:

الأول: هو قوله: (حميت أنفي: حمية) وهذا يستعمل في شيء تأنف منه، وداخلك عار، ومصدره حمية ومحمية، والأول بتشديد المثناة التحتية، يقال: حمى من ذلك أنفا؛ أي: أخذته **الحمية**، وهي **الأنفة** والغيرة.

الثاني: هو قوله: (وحميت المريض حمية) بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء؛ أي: منعته الطعام.

الثالث: هو قوله: (وحميت القوم: منعتهم حماية) على وزن فعالة، بالكسر، والمراد: منعتهم من حصول الشر والأذى إليهم.

الرابع: هو قوله: (وأحميت الحمى) بكسر الحاء وفتح الميم، مقصورا (جعلته حمى) على وزن فعل بكسر

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٠٥٩٦

الفاء وفتح العين؛ أي: ممنوعا ومحظورا (لا يدخل) فيه ولا يقرب منه.

الخامس: هو قوله:

[ج ١٢ ص ٥١٩]." (١)

"(فقالوا: مجيبين له: نحن الذين بايعوا) ويروى: (٢)(محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا) وفيه من الفوائد أن للحفر وتحصين الديار وسد العورة منها أجر كأجر القتال، والنفقة فيه محسوبة في نفقات المجاهدين إلى سبعمائة ضعف، وفيه استعمال الرجز والشعر إذا كانت فيه إقامة النفوس وإثارة

[ج ١٣ ص ٣٠٠]

الأنفة والمعرة.

ومطابقة الحديث للترجمة من حيث إن في قوله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إن العيش إلخ)) تحريضهم على ما هم فيه من الجهاد.

==================." (٣)

"وعن الأوزاعي: لا بأس للأسير المسلم أن يأبى أن يمكن من نفسه، بل يأخذ بالشدة والإباء من الأسر والأنفة من أن يجري عليه ملك كافر كما فعل عاصم. وفيه استنان الاستحداد لمن أسر ولمن يقتل، والتنظيف لمن يصنع [١] بعد القتل؛ لئلا يطلع منه على قبح عورة. وفيه: أداء الأمانة إلى المشرك أو غيره. وفيه: التورع من قتل أطفال المشركين رجاء أن يكونوا مؤمنين. وفيه: كرامة عظيمة لخبيب في أكله من قطف عنب في غير أوانه.

وقال ابن بطال: هذا يمكن أن يكون آية لله تعالى على الكفار، وتصحيحا لرسالة نبيه صلى الله عليه وسلم عند الكفار من أجل ما كانوا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيه: علامة من علامات النبوة بإجابة دعوة عاصم بأن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالخبر قبل بلوغه على ألسنة المخلوقين.

ومطابقة الحديث للترجمة أما للجزء الأول وهو قوله: هل يستأسر الرجل، ففي قوله: ((فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق))، وأما للجزء الثاني وهو قوله: ومن لم يستأسر، ففي قوله: ((قال عاصم بن ثابت

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٠٥٩٧

(٢) بايعنا

(٣) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٠٩٨٩

أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل

[ج ١٤ ص ٤٦]

اليوم في ذمة كافر)). وأما للجزء الثالث وهو قوله: ومن صلى ركعتين عند القتل، ففي قوله: ((قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين فتركوه فركع ركعتين)).

وقد أخرجه البخاري في ((التوحيد)) [خ¦٧٤٠٢]، و ((المغازي)) [خ¦٣٩٨٩]، وأخرجه أبو داود في ((الجهاد))، والنسائي في ((السير))، وفيه الشعر دون الدعاء.

==========

[١] كذا في مطبوع العمدة وفي التوضيح: ((لمن يضيع)).

==================." (١)

"٣٢٤٢ - (حدثنا سعيد بن أبي مريم) قال: (حدثنا الليث قال: حدثني) بالإفراد (عقيل، عن ابن شهاب) الزهري، أنه (قال: أخبرني سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: بينا أنا نائم رأيتني) أي: رأيت نفسي (في الجنة، فإذا امرأة) كلمة إذا للمفاجأة (تتوضأ) قال الكرماني: من الوضاءة، وهي الحسن والنظافة،

[ج ١٤ ص ٤٧١]

ويحتمل أن يكون من الوضوء.

وقال الخطابي: فإذا امرأة شوهاء، وإنما أسقط الكاتب منه بعض الحروف، فصار تتوضأ؛ لالتباس ذلك في الخط؛ لأنه لا عمل في الجنة، لا وضوء ولا غيره، والشوهاء: بالشين المعجمة.

قال أبو عبيدة: هي المرأة الحسناء، والشوهاء: واسعة الفم والصغيرة الفم. وقال ابن الأعرابي: الشوهاء: القبيحة. وقال الجوهري: فرس شوهاء، صفة محمودة، ويقال: يراد بها سعة أشداقها. ورد عليه القرطبي وقال: الرواية الصحيحة: ((تتوضأ))، ووضوء هذه المرأة إنما هو؛ لتزداد حسنا ونورا، لا أنها تزيل وسخا ولا قذرا، إذ الجنة منزهة عن القذر.

وقال ابن التين: وذكر عن الشيخ أبي الحسن أنه قال: هذا فيه أن الوضوء موصل إلى هذا القصر والنعيم.

(إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته) بفتح الغين المعجمة،

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١١٥١٦

مصدر غار الرجل على أهله من فلان، وهي **الحمية والأنفة**، يقال: رجل غيور، وامرأة غيور، وجاء امرأة غيراء، وصيغة غيور للمبالغة.

(فوليت مدبرا. فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله) وقد أخرج البخاري هذا الحديث في فضل عمر رضي الله عنه أيضا [خ ¦ ٣٦٨٠]، وأخرجه ابن ماجه أيضا.." (١)

"٣٨١٦ - (حدثنا سعيد بن عفير) هو: سعيد بن كثير بن عفير ــ بضم المهملة وفتح الفاء وسكون التحتية وبالراء ــ أبو عثمان المصري، وقد نسب إلى جده، قال: (أخبرنا الليث، قال: كتب إلي) بتشديد الياء (هشام) هو: ابن عروة بن الزبير، ووقع عند الإسماعيلي من وجه آخر عن الليث: حدثني هشام بن عروة.

قال الحافظ العسقلاني: فلعل الليث لقي هشاما بعد أن كتب به إليه فحدثه، أو كان مذهبه إطلاق حدثنا

[ج ١٦ ص ٤٧٩]

في الكتابة، وقد نقل الخطيب ذلك عنه في «علوم الحديث».

(عن أبيه) عروة (عن عائشة رضي الله عنها) أنها (قالت: ما غرت) بكسر الغين المعجمة، من الغيرة، وهي **الحمية والأنفة** (على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة) يقال: رجل غيور، وامرأة غيور بلا هاء؛ لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى، وجاء في حديث: ((إني امرأة غيرى)) على وزن فعلى، من الغيرة، يقال: غرت على أهلي أغار غيرة فأنا غائر وغيور للمبالغة.

وفيه: ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عمن دونهن، وأن عائشة رضي الله عنها كانت تغار من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن تغار من خديجة أكثر، وذلك لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة.

وقال القرطبي: مرادها بالذكر لها: مدحها والثناء عليها. وقال الحافظ العسقلاني: وقع عند النسائي من رواية النضر بن شميل عن هشام: «من كثرة ذكره إياها وثنائه عليها» فعطف الثناء على الذكر من عطف الخاص على العام، وهو يقتضي حمل الحديث على أعم مما قاله القرطبي.

(هلكت قبل أن يتزوجني) أي: ماتت خديجة رضي الله عنها قبل تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٢١٠٣

رضي الله عنها، ويأتي عن قريب بيان المدة إن شاء الله تعالى [خ¦٣٨١٧]، وأشارت عائشة رضي الله عنها بذلك أن خديجة لو كانت حية موجودة في زمانها لكانت غيرتها منها أشد وأكثر.." [١]

"٤٣٣٩ - (حدثني محمود بن غيلان) وفي نسخة: [٢]بغير نسبة قال: (حدثنا عبد الرزاق) قال: (أخبرنا معمر) هو: ابن راشد (ح) تحويل من سند إلى آخر (وحدثني) ويروى: [٣](نعيم) هو: ابن حماد، قال: (أخبرنا عبد الله) هو: ابن المبارك، قال: (أخبرنا معمر، عن الزهري) محمد بن مسلم بن شهاب (عن سالم) أي: ابن عبد الله (عن أبيه) عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أنه (قال) وعند الإسماعيلي ما يدل على أن السياق الذي هنا لفظ ابن المبارك (بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام) قال ابن إسحاق: حدثني حكيم بن حكيم بن عباد عن أبي جعفر يعني: الباقر، قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم

[ج ١٨ ص ٣٧٩]

خالد بن الوليد حين افتتح مكة إلى بني جذيمة داعيا، ولم يبعثه مقاتلا.

(فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا) من صبأ: إذا خرج من دين إلى دين، وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم: صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا يطلقونها في مقام الذم، ومن ثم لما أسلم ثمامة بن أثال، وقدم مكة معتمرا، قالوا: صبأت؟ قال: لا بل أسلمت، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء، فمن ذلك فهم ابن عمر رضي الله عنهما أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، وأما خالد فحمل اللفظة على ظاهرها؛ لأن قولهم «صبأنا»؛ أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام.

وقال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام؛ لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل **الأنفة**، ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا.

(فجعل خالد يقتل ويأسر) وفي كلام ابن سعد: أنه أمرهم أن يستأسروا فاستأسروا، فكتف بعضهم بعضا، وفرقهم في أصحابه، فيجمع بأنهم أعطوا بأيديهم بعد المحاربة (ودفع إلى كل رجل منا) أي: من الصحابة

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٣٦٧٧

(٢) حدثني محمود

(٣) وحدثنا

الذين كانوا معه في السرية (أسيره) وفي رواية الباقر: فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فوضعوا السلاح فأمر بهم فكتفوا، ثم عرضهم على السيف.." [1]

"(((٤))) (سورة النساء) قال العوفي: عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة النساء بالمدينة، وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. وقال ابن النقيب: جمهور العلماء أنها مدنية وفيها آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه، وهي: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء: ٥٨].

وعدد حروفها ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا، وثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة، ومائة وست وسبعون آية.

(بسم الله الرحمن الرحيم) لم تثبت البسملة إلا في رواية أبي ذر (قال ابن عباس) رضي الله عنهما (﴿يستنكف﴾: يستكبر) لم يقع ذلك إلا في رواية الكشميهني والمستملي، وأشار به إلى ما في قوله تعالى: ﴿ومن يستنكف عن عبادته﴾ [النساء: ١٧٢]. وقد وصله ابن أبي حاتم بإسناد صحيح من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ومن يستنكف عن عبادته﴾ قال: يستكبر. قال الحافظ العسقلاني: وهو عجيب فإن في الآية عطف الاستكبار على الاستنكاف، فالظاهر

[ج ١٩ ص ٢٥١]

أنه غيره، ويمكن أن يحمل على التوكيد.

وتعقبه العيني: بأن مثل هذا لا يسمى توكيدا يفهمه من له إلمام بالعربية بل هو عطف تفسيري.

وقال الطبري: معنى ((يستنكف)): يأنف، وأسند عن قتادة قال: يحتشم، وقال الزجاج: هو استفعال من النكف، وهو **الأنفة**، والمراد: دفع ذلك عنه، ومنه نكفت الدمع بالإصبع: إذا منعته من الجري على الخد.

(قواما: قوامكم من معايشكم) أشار بهذا إلى قراءة ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ [النساء: ٥] حيث قرأ [2] بالواو، ثم فسره بقوله: «قوامكم من معايشكم»، يعني: أن القيام ما يقيم به الناس معايشهم، وكذا القوام، والقراءة المشهورة بالتحتانية بدل الواو، ولكنهما بمعنى واحد.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٥٠٣٩

(٢) قواما

قال أبو عبيدة: يقال: قيام أمركم وقوام أمركم؛ أي: ما يقوم به أمرك، والأصل بالواو فأبدلوها ياء لكسرة القاف.." [1]

"٤٦٣٤ - (حدثنا حفص بن عمر) بضم العين، الحوضي، قال: (حدثنا شعبة) أي: ابن الحجاج (عن عمرو) بفتح العين، هو: ابن مرة المرادي الكوفي الأعمى (عن أبي وائل) شقيق بن سلمة (عن عبد الله) هو: ابن مسعود رضي الله عنه، أنه (قال: لا أحد أغير من الله) أغير أفعل تفضيل من الغيرة ــ بفتح الغين ــ وهي **الأنفة والحمية**. قال النحاس: هو أن يحمي الرجل زوجته وغيرها من قرابته، ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهن غير ذي محرم، والغيور: ضد الديوث.

وفي «الموعب» لابن التياني: رجل غيران، وقوم غيارى، وغيارى ــ بفتح الغين وضمها ــ، وقال ابن سيده: غار الرجل غيرة وغيرا وغارا وغيارا.

وحكى البكري عن أبي جعفر البصري: غيرة ــ بكسر الغين ــ، والمغيار: الشديد الغيرة، وفلان لا يتغير على أهله؛ أي: لا يغار.

وقال الزمخشري: أغار الرجل امرأته حملها على الغيرة يقال: رجل غيور، وامرأة غيور.

وهذا كله في حق الآدميين، وأما في حق الله تعالى فقد جاء مفسرا في الحديث: ((وغيرة الله تعالى

[ج ١٩ ص ٤٣٠]

أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه)) أي: أن غيرته منعه وتحريمه، ولما حرم الله الفواحش وتواعد عليها وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالغيرة، فقال صلى الله عليه وسلم: ((من غيرته أن حرم الفواحش)).

فائدة: قال ابن جني: تقول: لا أحد أفضل منك، ترفع أفضل لأنه خبر «لا» كما ترفع خبر إن، وتقول لا غلام لك، فإن فصلت بينهما بطل عملها تقول: لا لك غلام، فإن وصفت اسم لا كان لك ثلاثة أوجه النصب بغير تنوين، وبتنوين والرفع بتنوين.

(ولذلك) أي: ولأجل غيرته (حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، لذلك مدح نفسه) يجوز في «أحب» الرفع والنصب، وهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول، والمدح فاعله، وهو كقولهم: ما رأيت رجلا أحسن في عينه الكحل من عين زيد، وحب الله تعالى المدح ليس من جنس ما يعقل من حب المدح، وإنما المراد حب الطاعات، ومن جملتها مدحه تعالى ليثيب على ذلك، فينتفع

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٥٧٤٣

المكلف لا لينتفع هو بالمدح، ونحن نحب المدح لننتفع، ويرتفع قدرنا في قومنا، فظهر أن من غلط العامة قولهم: إذا أحب الله المدح فكيف لا نحبه نحن؟.." (١)

"قال ابن التين: قول ابن معاذ رضي الله عنه: «إن كان من الأوس ضربنا عنقه»، إنما قال ذلك؛ لأن الأوس قومه وهم بنو النجار، ولم يقل ذلك في الخزرج لما كان بين الأوس والخزرج من التشاحن قبل الإسلام، ثم زال بالإسلام وبقي بعضه بحكم **الأنفة**، قال: فتكلم سعد بن عبادة بحكم **الأنفة**، ونفى أن يحكم فيهم سعد بن معاذ وهو من الأوس قال: ولم يرد سعد بن عبادة الرضا بما نقل عن عبد الله بن أبي، وإنما معنى قول عائشة رضي الله عنها: وكان قبل ذلك رجلا صالحا؛ أي: لم يتقدم منه ما يتعلق بالوقوف مع أنفة **الحمية**، ولم ترد أنه ناضل عن المنافقين، وهو كما قال إلا أن دعواه أن بني النجار قوم سعد بن معاذ خطأ، وإنما هم من رهط سعد بن عبادة ولم يجر لهم في هذه القصة ذكر، وقد تأول بعضهم ما دار بين السعدين بتأويل بعيد فارتكب شططا، فزعم أن قول سعد بن عبادة: «لا تقتله ولا تقدر على قتله»؛ أي: إن كان من الأوس، واستدل على ذلك بأن ابن معاذ لم يقل في الخزرجي: ضربنا عنقه، وإنما قال ذلك في الأوسي، فدل على أن ابن عبادة لم يقل ذلك حمية لقومه، إذ لو كانت حمية لم يوجهها لرهط غيره، قال: وسبب قوله ذلك أن الذي خاض في الإفك كان يظهر الإسلام، وأراد أن بقية قومه يمنعونه منه إذا أراد قتله إذ لم يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتله، فكأنه قال: لا تقل ما لا تفعل، ولا تعد بما لا تقدر على الوفاء به، ثم أجاب عن قول عائشة رضي الله عنها «احتملته **الحمية**» بأنها

[ج ٢٠ ص ٣٥٨]

كانت حينئذ منزعجة الخاطر لما دهمها من الأمر، فقد يقع في فهمها ما يكون غيره أرجح منه، وعن قول أسيد بن حضير الآتي بأنه حمل قول ابن عبادة على ظاهر لفظه، وخفي عليه أن له محملا سائغا، انتهى، ولا يخفى ما فيه من التعسف من غير حاجة إلى ذلك.." (٢)

"٤٧٨٨ - (حدثنا زكرياء بن يحيى) أبو السكين الطائي الكوفي، وقيل: البلخي، وقد تقدم في «العيدين» [خ¦٩٦٦] قال: (حدثنا أبو أسامة) حماد بن أسامة (قال: هشام) هو: ابن عروة (حدثنا) فيه تقديم المخبر على الصيغة، وهو جائز تقديره: قال حدثنا هشام (عن أبيه) عروة بن الزبير بن العوام (عن عائشة) رضي الله عنها، أنها (قالت: كنت أغار) كذا وقع بالغين المعجمة، من الغيرة، وهي **الحمية والأنفة**،

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٥٩٨٩

(٢) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٦٦٨٠

وعند الإسماعيلي من طريق محمد بن بشر عن هشام بلفظ: ((كانت تعير)) بعين مهملة وتشديد التحتية.
(على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم) هذا ظاهر في أن الواهبة أكثر من واحدة منهن: خولة بنت حكيم، فعند ابن أبي حاتم من حديث عائشة رضي الله عنها التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم هي خولة بنت حكيم، وسيأتي الكلام عليه في كتاب «النكاح» [خ¦٥١١٣]، فإن البخاري أشار إليه معلقا، ومنهن أم شريك أخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي قال: من الواهبات أم شريك، ومنهن زينب بنت خزيمة، كما سيأتي في «النكاح» إن شاء الله تعالى [١]، ومنهن فاطمة بنت شريح، فعند أبي عبيدة معمر بن المثنى: أن من الواهبات فاطمة بنت شريح، ومنهن ليلى بنت الحطيم رواه بعضهم قال: هي ممن وهبت نفسها للنبي، ومنهن ميمونة بنت الحارث رواه قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو منقطع.
ويأتي في «النكاح» [خ¦٥١٣٥] حديث سهل بن سعد: ((أن امرأة قالت: يا رسول الله، إني وهبت نفسي لك)) الحديث، وفيه قصة الرجل الذي طلبها، فقال: التمس ولو خاتما من حديد. وفي حديث أنس رضي الله عنه: ((أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن لي ابنة، فذكرت من جمالها فآثرتك بها، فقال: قد قبلتها فلم تزل تذكر حتى قالت: لم تصدع قط، فقال: لا حاجة لي في ابنتك)) أخرجه أحمد، وهذه امرأة أخرى بلا شك.
وفي حديث سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري بإسناد حسن: ((لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له)) والمراد
[ج ٢٠ ص ٤٩٥]." (١)

"﴿إن﴾ بمعنى ما، والفاء بمعنى الواو؛ أي: ما كان للرحمن ولد، وأنا أول العابدين، والظاهر أن الفاء سببية. وقد منع مكي أن تكون نافية، قال: لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت، وهذا محال، ورد عليه بأن كان قد تدل على الدوام كقوله تعالى: ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ [الفتح: ١٤].
ثم إنه فسر قوله: ﴿أول العابدين﴾ بقوله: «فأنا أول الآنفين»؛ أي: المستنكفين؛ يعني: أنه مشتق من عبد ــ بكسر الباء الموحدة ــ إذا أنف واشتدت أنفته؛ أي: فأنا أول المستنكفين من أن يكون له ولد.
(وهما) أي: عابد وعبد (لغتان) يقال: (رجل عابد وعبد) بكسر الموحدة في ضبط الدمياطي والفرع

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٦٨٥٥

وغيرهما، وقال ابن التين: ضبط بفتحها، وقال: وكذا ضبط في كتاب ابن فارس. وقال الجوهري: العبد _ بالتحريك _ الغضب، وعبد _ بالكسر _: إذا أنف، وقال ابن عرفة: يقال: عبد _ بالكسر _ يعبد _ بالفتح _ فهو عبد، وقلما يقال: عابد، والقرآن لا يجيء على القليل ولا الشاذ، ومراده أن تخريج من قال: إن العابدين بمعنى: الآنفين، لا يصح. وقال الإمام فخر الدين: وهذا التعليق فاسد؛ لأن هذه **الأنفة** حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل.

(وقرأ عبد الله) هو: ابن مسعود رضي الله عنه (((وقال الرسول: يا رب))) يعني: أنه قرأ هكذا مكان قوله: ﴿وقيله يا رب﴾ [الزخرف: ٨٨] وهي قراءة شاذة مخالفة لخط المصحف، نعم أخرج الطبري من وجهين عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وقيله يا رب﴾ قال: هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم.

(ويقال: ﴿أول العابدين﴾ الجاحدين، من عبد يعبد) بكسر الموحدة في الماضي، وبفتحها في المستقبل، يقال: عبدني حقي؛ أي: جحدنيه، هكذا في أكثر النسخ. وقال ابن التين السفاقسي: ضبطوه هنا بفتح الباء في الماضي، وضمها في المستقبل، ولم يذكر

[ج ٢١ ص ١٩]

أهل اللغة عبد بمعنى: جحد.

ورد عليه بما ذكره محمد بن عزيز [١] السجستاني صاحب «غريب القرآن» من أن معنى العابدين الآنفين الجاحدين، وفسر على هذا: إن كان له ولد فأنا أول الجاحدين [٢].

==========

[١] كذا في العمدة والقسطلاني، وفي كتاب غريب القرآن المطبوع وهدية العارفين (بن عزيز) بالزاي والراء.." (١)

"والمذموم من هذا الفصل أن يقصد به الباطل واللبس فيوهمك النكر معروفا، وهذا مذموم، وهو أيضا يشبه بالسحر؛ لأن السحر صرف الشيء عن حقيقته. وحكى يونس: أن العرب تقول: ما سحرك عن وجه كذا؛ أي: صرفك عنه. وأخرجه أبو داود من حديث صخر بن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن جده رفعه: ((إن من البيان سحرا، وإن من العلم جهلا، وإن من الشعر حكما، وإن من القول عيالا))، فقال صعصعة بن صوحان: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما قوله: ((إن من البيان سحرا)) فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٧٠١٨

القوم ببيانه، فيذهب بالحق.

وأما قوله: ((وإن من العلم جهلا)) فهو أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهل لذلك.

وأما قوله: ((وإن من الشعر حكما)) فهي هذه المواعظ والأمثال التي يتعظ بها الناس.

وأما قوله: ((وإن من القول عيالا)) فعرضك

[ج ٢٢ ص ٤٣٤]

كلامك على من ليس من شأنه ولا يريده.

وقال ابن الأثير: إن من القول عيلا، ثم فسره بذلك، ثم قال: يقال: علت الضالة أعيل عيلا إذا لم تدر أي جهة تبغيها؛ كأنه لم يهتد لمن يطلب كلامه فعرضه على من لا يريده.

ومطابقة الحديث للترجمة فيه إشكال حتى قال ابن التين: أدخل هذا الحديث في كتاب النكاح وليس هو موضعه.

وقال الحافظ العسقلاني في وجه مناسبة الحديث للترجمة: كأنه أشار إلى أن الخطبة وإن كانت مشروعة في النكاح فينبغي أن تكون مقتصدة ولا يكون فيها ما يقتضي صرف الحق إلى الباطل بتحسين الكلام.

وقال المهلب: وجه إدخال هذا الحديث في هذه الترجمة أن الخطبة في النكاح إنما شرعت للخاطب ليسهل أمره فشبه حسن التوصل إلى الحاجة بحسن الكلام فيها باستنزال المرغوب إليه بالبيان بالسحر، وإنما كان كذلك؛ لأن النفوس طبعت على **الأنفة** من ذكر الموليات في أمر النكاح، فكان حسن التوصل لرفع تلك **الأنفة** وجها من وجوه السحر الذي يصرف الشيء إلى غيره.

وقال العيني: والأوجه أن يقال: إن خطبة الرجلين المذكورين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخل عن قصد حاجة ما، والخطبة عند الحاجة من الأمر القديم المعمول به لأجل استمالة القلوب والرغبة في الإجابة، فمن ذلك الخطبة عند النكاح لذلك المعنى.." (١)

"تعييره وشهرته بذلك، ومحض أذاه لم يجز؛ لأنه مأمور بالستر عليه وتعليمه وموعظته بالحسنى، فمهما أمكنه ذلك بالرفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف؛ لأنه قد يكون سببا لإغرائه وإصراره على ذلك الفعل كما في طبع كثير من الناس من **الأنفة**، لاسيما إذا كان الآمر دون المأمور في المنزلة.

وقال النووي: اختلف في تأويل هذا الرجوع، فقيل: يرجع عليه الكفر إن كان مستحلا، وهذا بعيد من سياق الخبر. وقيل: محمول على الخوارج؛ لأنهم يكفرون المؤمنين، هكذا نقله القاضي عياض عن مالك وهو

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٨٢٧٥

ضعيف؛ لأن الصحيح عند الأكثرين: أن الخوارج لا يكفرون ببدعتهم.
قال الحافظ العسقلاني: ولما قاله مالك وجه وهو أن منهم من يكفر كثيرا من الصحابة ممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وبالإيمان، فيكون تكفيرهم من حيث تكذيبهم للشهادة المذكورة لا من مجرد صدور التكفير منهم بتأويل، كما سيأتي إيضاحه في «باب من أكفر أخاه بغير تأويل» [خ¦٦١٠٣].
والتحقيق: أن الحديث سيق لزجر المسلم عن أن يقول ذلك لأخيه المسلم، وذلك قبل وجود فرقة الخوارج وغيرهم، وقيل: معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره وهذا لا بأس به. وقيل: يخشى عليه أن يؤول به ذلك إلى الكفر، كما قيل: المعاصي بريد الكفر، فيخاف على من أدامها وأصر عليها سوء الخاتمة.
وأرجح من الجميع كله أن من قال ذلك لمن يعرف منه الإسلام ولم يقم له شبهة في زعمه أنه كافر فإنه يكفر بذلك، فمعنى الحديث: فقد رجع عليه تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر، فكأنه كفر نفسه لكونه كفر من هو مثله، ومن لا يكفره إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام. ويؤيده: أن في بعض طرقه: وجب الكفر على أحدهما.
وقال القرطبي: حيث
[ج ٢٥ ص ٤٧٦]
جاء الكفر في لسان الشرع فهو: جحد المعلوم من دين الإسلام بالضرورة الشرعية، وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى: جحد النعم وترك شكر المنعم والقيام بحقه. وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: ((يكفرن الإحسان ويكفرن العشير)).." (١)

"٦٩٦٠ - (حدثنا مسدد) هو: ابن مسرهد (حدثنا يحيى بن سعيد) القطان (عن عبيد الله) بضم العين، العمري، أنه (قال: حدثني) بالإفراد (نافع) مولى ابن عمر (عن عبد الله) أي: ابن عمر (رضي الله عنه) وعن أبيه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى) نهي تحريم (عن الشغار) بكسر الشين وفتح الغين المعجمتين، قال عبيد الله: (قلت لنافع) مستفهما له (ما الشغار؟ قال: ينكح ابنة الرجل وينكحه) أي: الآخر (أخته بغير صداق، وينكح أخت الرجل وينكحه) أي: الآخر (أخته بغير صداق) بل يضع كل واحدة منهما صداق الأخرى، واختلف في أصل الشغار في اللغة فقيل: من شغر الكلب: إذا رفع رجله ليبول، كأن العاقد يقول: لا ترفع رجل ابنتي حتى أرفع رجل أختك، وقيل: مأخوذ من شغر البلد: إذا خلا، كأنه سمي بذلك لشغوره من الصداق.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٠١٩

وقال ابن الأثير: كان يقول الرجل: شاغرني أو زوجني ابنتك أو أختك، أو من تلي أمرها حتى أزوجك ابنتي أو أختي ولا يكون بينهما مهر، وقيل: الشغر البعد، ومنه بلد شاغر: إذا بعد عن الناصر والسلطان، وكأن هذا العقد بعد عن طريق الحق.

قال ابن المنير: إدخال البخاري الشغار في ((باب الحيلة في النكاح)) مشكل؛ لأن القائل بالجواز يبطل الشغار

[ج ٢٩ ص ١٣٣]

ويوجب مهر المثل، ويمكن أن يقال: إنه أخذه مما نقل عن العرب أنها كانت تأنف من التلفظ بالنكاح من جانب المرأة فرجعوا إلى التلفظ بالشغار لوجود المساواة التي تدفع **الأنفة**، فمحا الشرع رسم الجاهلية، فحرم الشغار وشدد فيه ما لم يشدد في النكاح الخالي عن ذكر الصداق، فلو صححنا النكاح بلفظ الشغار، وأوجبنا مهر المثل لبقينا غرض الجاهلية بهذه الحيلة. انتهى.

قال الحافظ العسقلاني: وفيه نظر؛ لأن الذي نقله عن العرب لا أصل له؛ لأن الشغار في العرب بالنسبة إلى غيره قليل، وقضية ما ذكره أن تكون أنكحتهم كلها كانت شغارا لوجود **الأنفة** في جميعهم.." [١]

"٧٤١٦ - (حدثنا موسى بن إسماعيل)

[ج ٣٠ ص ٢٢٩]

التبوذكي، وثبت لفظ: «التبوذكي» في رواية أبي ذر، قال: (حدثنا أبو عوانة) الوضاح اليشكري، قال: (حدثنا عبد الملك) أي: ابن عمير (عن وراد) بفتح الواو والراء المشددة (كاتب المغيرة) ومولاه (عن المغيرة) أي: ابن شعبة رضي الله عنه، أنه (قال: قال سعد بن عبادة) بضم العين وتخفيف الموحدة، سيد الخزرج رضي الله عنه (لو رأيت رجلا مع امرأتي) غير محرم لها (لضربته بالسيف غير مصفح) بضم الميم وفتح الصاد والفاء المشددة، وروى بسكون الصاد وتخفيف الفاء وكسرها في الروايتين؛ أي: غير ضارب بعرضه بل بحده.

(فبلغ ذلك) الذي قاله سعد (رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعجبون) وفي رواية أبي ذر: [٢](من غيرة سعد، والله) مجرور بواو القسم (لأنا) مبتدأ دخلت عليه لام التأكيد المفتوحة خبره (أغير منه، والله أغير مني) و «أغير» مشتق من الغيرة، وهي **الحمية والأنفة**.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٣٨٦٨

(٢) أتعجبون

وقال القاضي عياض: الغيرة مشتقة من تغير القلب، وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص من المحبوب وغيره، وأشد ذلك ما يكون بين الزوجين هذا في حق الآدمي، وأما في حق الله تعالى، فقال ابن دقيق العيد: المنزهون لله تعالى إما ساكت عن التأويل وإما مأول، والثاني يقول المراد بالغيرة: المنع من الشيء والحماية، وهما من لوازم الغيرة فأطلقت على سبيل المجاز كالملازمة وغيرها من الأوجه الشائعة في «لسان العرب». ومعنى غيرة الله تعالى: الزجر عن الفواحش والتحريم لها والمنع منها، وقد بين ذلك بقوله: (ومن أجل غيرة الله) عز وجل (حرم الفواحش) جمع: فاحشة، وهي كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال (ما ظهر منها) قال مجاهد: هو نكاح الأمهات في الجاهلية (وما بطن) كالزنا، وقال قتادة: سرها وعلانيتها (ولا أحد أحب) بالرفع، خبر «لا» على الحجازية، ولأبي ذر: [1]بالرفع منونا ((أحب)) بالنصب على التميمية (إليه العذر من الله) و «العذر» مرفوع على أنه فاعل «أحب».." [2]

"انتهى إليه أبو سنان الأسدي، فقال: ابسط يدك أبايعك - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «علام تبايعني؟» - قال: على ما في نفسك أخرجه إسحاق البستي ص (٣٧١)، والبيهقي (٤) / (١٣٧) - .

(٧١٢٦٣) - عن نافع، قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها، فأمر بها، فقطعت أخرجه ابن أبي شيبة (٢) / (٣٧٥) - .

(٧١٢٦٤) - عن طارق بن عبد الرحمن، قال: انطلقت حاجا، فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيعة الرضوان - فأتيت سعيد بن المسيب، فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي: أنه كان فيمن بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها - فقال سعيد: إن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم؟! أخرجه البخاري ((٤١٦٣)) - وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه - .

(فعلم ما في قلوبهم)

(٧١٢٦٥) - قال مقاتل بن سليمان: (فعلم ما في قلوبهم) من الكراهية للبيعة على أن يقاتلوا ولا يفروا في أمر البيعة تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (٧٣) - أفاد أثر مقاتل أن معنى: (فعلم ما في قلوبهم): من

---

(١) ولا أحد

(٢) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٥١٥٤

كراهية البيعة على القتال وعدم الفرار - وانتقده ابن عطية ((٧) / (٦٧٩)) فقال: «وهذا ضعيف؛ فيه مذمة للصحابة » - وزاد ابن عطية قولين آخرين: الأول: «معناه: من الإيمان، وصحته، والحب في الدين، والحرص عليه» - ثم علق عليه بقوله: «وهذا قول حسن، لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه» - غير أنه ذكر له وجها يمكن أن يحمل عليه، فقال: «أما إنه يحتمل أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم» - الثاني: «معناه: من الهم بالانصراف عن المشركين، والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر وغيره» - ثم علق عليه بقوله: «وهذا تأويل حسن، يترتب معه نزول السكينة والتعويض بالفتح القريب» - وذكر ابن القيم ((٢) / (٤٥٨)) أن المعنى: «علم الله ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفا، وهو اللطيف الخبير» - ثم ذكر أن الآية تحتمل «أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله، فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها» - ثم رجح - مستندا إلى العموم - قائلا: «والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها» - .

(فأنزل السكينة عليهم)

(٧١٢٦٦) - ." [1]

"كثروا بأنفسكم وإن لم تقاتلوا أخرجه ابن المنذر (٢) / (٤٨٢) - .

(١٥٣٧١) - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق شعيب بن سليمان - في قوله: (أو ادفعوا)، قال: كونوا سوادا أخرجه ابن المنذر (٢) / (٤٨٢) - .

(١٥٣٧٢) - عن أبي عون الأنصاري - من طريق عتبة بن ضمرة - في قوله: (أو ادفعوا)، قال: رابطوا أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٤) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

(١٥٣٧٣) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - (أو ادفعوا)، يقول: أو كثروا أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٤) - .

(١٥٣٧٤) - قال مقاتل بن سليمان: (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) المشركين عن دياركم وأولادكم تفسير مقاتل بن سليمان (ط: دار الكتب العلمية) (١) / (٢٠١) - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٢٨٨/٣٧

(١٥٣٧٥) - عن محمد بن إسحاق - من طريق سلمة - (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)، يعني: عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سار إلى عدوه من المشركين بأحد أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٢)، وابن المنذر (٢) / (٤٨١) من طريق إبراهيم بن سعد - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم مختصرا - .

(١٥٣٧٦) - عن عبد الملك ابن جريج - من طريق حجاج - (أو ادفعوا)، قال: بكثرتكم العدو، وإن لم يكن قتال أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٤)، وابن المنذر (٢) / (٤٨٢) من طريق ابن ثور - اختلف المفسرون في معنى قوله: (أو ادفعوا)؛ فذهب السدي وابن جريج إلى أن معناه: كثروا السواد وإن لم تقاتلوا - وذهب أبو عون الأنصاري إلى أن معناه: رابطوا - وذكر ابن عطية ((٢) / (٤١٣)) أن القول الثاني قريب من الأول موجها، فقال: «وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع؛ لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثر للسواد مدافع» - وذكر ابن عطية ((٢) / (٤١٦)) أن بعض المفسرين ذهب إلى أن قوله: (أو ادفعوا) إنما كان استدعاء للقتال حمية لا عن دين وقتال في سبيل الله، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث **الأنفة**، أي: أو قاتلوا دفاعا عن الحوزة - ثم قال: «ألا ترى أن قزمان قال: والله، ما قاتلت إلا على أحساب قومي - وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد لما رأى قريشا قد أرسلت الظهر في زروع قناة، قال: أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب؟! وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أمر أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال» - .

(قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم)

نزول الآية

(١٥٣٧٧) - عن عكرمة مولى ابن عباس - من طريق ابن جريج - (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم)، قال: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٣) - .

تفسير الآية

(١٥٣٧٨) - عن مجاهد بن جبر - من طريق عبد الله بن كثير - في قوله: (لو نعلم قتالا لاتبعناكم)، قال: لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم أخرجه ابن جرير (٦) / (٢٢٣)، وابن المنذر (٢) / (٤٨٣) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

(١٥٣٧٩) - عن محمد ابن شهاب الزهري=

(١٥٣٨٠) - ومحمد بن يحيى بن حبان=

(١٥٣٨١) - وعاصم بن عمر بن قتادة=

(١٥٣٨٢) - والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ - من طريق ابن إسحاق - قال: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، والله، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا! فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضرهم عدوهم - قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون ةتال أخرجه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام (٢) / (٦٣) - (٦٤) -، وابن جرير (٦) / (٢٢٢)، وابن المنذر (٢) / (٤٨٤) - (٤٨٥) مطولا - .

". (١)

"٢ - والإيمان يبعث في النفس احتقار الموت، والرغبة في الاستشهاد من أجل الحق إن الإيمان يوحي بأن واهب العمر هو الله وأنه لا ينقص بالإقدام ولا يزيد بالإحجام فكم من إنسان يموت، وهو على فراشه الوثير وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب، قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾ (آل عمران: ١٤٥).

وقال تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (آل عمران: ١٥٤) وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (النساء: ٧٨).

الثمرة الثالثة من ثمار الإيمان يقول: والإيمان يقتضي الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (هود: ٦) وقال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ (العنكبوت: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم﴾ (العنكبوت: ٦٢)،

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٤٢/٨

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص، والشره والطمع، واتصف بفضيلة الجود والبذل، والعطاء، **والأنفة**، والعفة، وكان إنسانا مأمول الخير، مأمون الشر.." (١)

"رواه البخاري ومسلم، فهو في أعلى درجات الصحة من الأحاديث، والغيرة -بفتح الغين- وأصلها **الأنفة**.

الحديث السادس: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى أراد الله أن يبتليهم -يعني: يختبرهم- فبعث إليهم ملكا -أرسل ملك في صورة بشر- فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس.، فمسحه -يعني: مسحه بيده- الملك فذهب عنه قذره، وأعطي لونا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر، أو قال: البقر -شك الراوي- فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا. قال الملك لذلك الأقرع: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطي بقرة حاملا. وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدة، فأنتج هذان ولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص -يعني: جاء على صورة رجل أبرص، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا -يعني: أسألك بعيرا- أتبلغ به في سفري فقال: الحقوق كثيرة. قال له الملك: كأني أعرفك، ألم تكن أبرصا يقذرك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر. فقال الملك: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته -في صورة أقرع وهيئة أقرع- فقال له مثل ما." (٢)

---

(١) الحديث الموضوعي - جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/٩٧

(٢) الحديث الموضوعي - جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/١٨٠